پلوتارخ

السِّيَر

الجزء الأول





ترجمة: جرجيس فتح الله

منشورات الجمل

دار آراس للطباعة والنشر

پلوتارخ

السِّيَـر

الجزء الأول

ترجمة: جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

بلوتارخ: السِّيَر، الجزء الأول، ترجمة: جرجيس فتح الله

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان ـ أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت – بغداد
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany

توطئة

إن المجموعة الشهيرة جداً باسم «سِيَر بلوتارخ»، ليست كما تركها لنا المؤلّف لا من حيث الشكل ولا من حيث الترتيب. ففي المؤلَّف الأصلي دوِّنت السِّيَر في سلسلةٍ من الكتب، وكل كتاب يتضمّن سيرة يونانية واحدة تقابلها سيرة رومانية، وتلحق بهما دراسة مقارنة. وقد أُضيف إلى هذا تراجم سِيَر أشخاص مختلفة لم توضع موضع مقارنة. ولَعلَّ أوتو Otho وگالبا Galba ينتميان إلى سلسلة من الأباطرة الرومان تبتدئ بأغسطس Augustus وتختتم بڤيتيلليوس Vitellius. وأمّا سيرتا أرتحششتا Artaxerxes وأراتوس Aratus السياسيين فكلتاهما سيرة منفصلة، كسِيَر الآخرين الذين قيل لنا إنهم وُجِدوا وعاشوا [مثل هرقل Hercules، وأرسطومينيس Aristomenes، وهسيود Hesiod، وپندار Pindar، ودايفانطس Daiphantus، وقراطس Crates، الهجّاء، وأراطوس Aratus الشاعر].

وفي السِّيَر المتعاصرة نفسها ثغراتٌ، فثمّ كتاب يشمل سيرتي إپامنداس Epaminondas وسكيپيو Scipio الأصغر فقط، إذ لا توجد مقارنات كثيرة، وهي إمّا مفقودة أو لم تُكتب. وسيلحظ القارئ أن التنويهات التي يذكرها المؤلّف هنا وهناك عن السير التي ستتلو أو تلت تدلُّ على أن ترتيبها في الأساس يختلف عن الترتيب الحاضر. مثالُ ذلك أنك حين تفتح الصفحة الأولى من هذا الكتاب تجد ذكراً لحياة «ليكورغوس ونوما» في سيرة «ثيسيوس» على أساس كونهما مدوّنتين سابقاً.

وفي إمكاننا أن نعرض وقائع حياة بلوتارخ البسيطة بفذلكة مختصرة جداً. ويرجح أنه ولِد في عهد كلوديوس Claudius في حدود العام ٤٥ أو ٥٠ ميلادي. ومسقط رأسه مدينة خيرونيا Chaeronea في بويوتيا Boeotia حيث استقرّت أسرته قبل زمن طويل، ونالت مكانة طيّبة وسمعة حميدة. وقد درس في أثينا مُتتلمِذاً على الفيلسوف أمونيوس Ammonius. وزار مصر. وقضى في روما ردحاً من الزمن مبعوثاً في «مهمّة

رسمية» لعلّها كانت بعثة دبلوماسية من خيرونيا في حدود العام ٩٠م. ويبقى فيها مدة طويلة اتسعت لإلقاء دروس أثارت اهتماماً عاماً. ولسنا ندري هل زار إيطاليا مرّة واحدة فقط أم عدّة مرّات.

ووصل حبل الودّ بسوسيوس سينشيو Sosins Senecio وهو كما تؤمئ كل الدلائل سوسيوس الذي تقلّد منصب القنصل أربع مرّات. ولعلّ علاقتهما هذه نشأت في روما حينما كان سوسيوس أصغر سنّاً منه بكثير[1]. ولعلّه تعرّف به أول الأمر أثناء إلقائه دروسه أو لعلهما تعارفا في اليونان. ثم عاد إلى خيرونيا واليونان، ويبدو أنه قضى البقية الباقية في حياته في تلك المدينة الصغيرة التي كان يكره «تقليص حجمها بنزوح ولو ساكن واحدٍ من سكانها عنها». وساهم في شؤون المدينة وضواحيها ونُصّب «أرخوناً»[2] على المدينة وقام بأعباء الكهانة لأبوللو في دلفي عدة سنين كما يبدو.

وكان متزوّجاً وأباً لما لا يقل عن خمسة أولاد، منهم ابنان على أقل تقدير بلغا مبلغ الرجولة. وأعظم ما كتب هو مجموعة سِيَره هذه، يليها عدد من الكتب ألّفها في الفترة الأخيرة من حياته على عهد تراجان، ومن المشكوك فيه أنه أدرك هادريان، وإن اتخذنا العام ٤٥م تاريخاً محتملاً لميلاده فإن العام ١٢٠م الموافق للسنة الرابعة من حكم هادريان يكون أقرب تاريخ محتملٍ لوفاته على سبيل الافتراض، وما هو أكيد عندنا أنه عاش عمراً مديداً، وأنه وصف نفسه في إحدى محاوراته الخيالية بالشاب اليافع يناقش في الفلسفة مع آمونيوس أيام زيارة نيرون بلاد اليونان في العام ٦٦-٦٧م. وأنه كان حيّاً ناشط القلم والفكر على وجه التحقيق في الشتاء الذي عبر به تراجان إلى داقيا بعد أن بنى جسراً على نهر الدانوب. وهو يقول في رسالته [عن مبدأ البرد] «لقد أنبأنا أولئك الذين يشتّون الآن مع الإمبراطور على الدانوب أن انجماد الماء سيؤدي إلى تحطّم السفن تحطيماً».



ويمكن إضافة بعض الأسماء والوقائع مستمدةً من كتاباته، زيادة على ما ذكرناه. وليس لنا في هذا المجال إلاّ الاعتماد الكلّيّ على تلك الوقائع المقتضَبة نفسها. فلدينا حكايات واستطرادات في السِّيَر، وفي تأليفه ومقالاته ومحاوراته وأحاديث مائدته

---

(١) إلاّ إذا أُخذت عبارة المؤلف «أولادي زملاؤك» مأخذ التندّر والتفكهة.

(٢) Archon: واحد من الحكام التسعة الكبار في أثينا القديمة. وفي الأيام الأخيرة أصبح يطلق على رئيس بلدية أيّ مدينة يونانية. أو حاكمها. أو قاضيها.

وغيرها من تصانيفه، وهي تزوّد القريحة بمادة منوّعة لمختلف الاستنتاجات الطريفة والغريبة.

ذكر نيكارخوس Nicarchus جَدّ أبيه عرضاً في سيرة «أنطوني» إذ قال: «كان والد جَدّي يقصّ كيف سُخّر أهل خيرونيا في حرب أنطوني الأخيرة لنقل القمح إلى ساحل خليج كورنشا وكان قد خصّص لكل منهم حِملٌ معيّن الوزن، والجنود يحتاطونهم ويحتثّونهم بالسياط...». وبعد أن كملت أول نقلةٍ، واكتيلت النقلة الثانية لهم، وصلت أنباء هزيمة أكتيوم Actium[٣]. وورد ذكر جدّة لامپرياس Lamprias أيضاً في السيرة نفسها، بصدد سماعه قصة من فيلوطاس Philotas الطبيب، عن حياة البذخ والإسراف التي كان أنطوني يعيشها في مصر. وتحدّث عن والده أكثر من مرّةٍ في آثاره الأخرى الصغرى دون ذكر اسمه. ويظهر اسم «أمونيوس» أستاذه ومثقّفه الأثيني عدّة مرات في آثاره الصغرى، ونوّه به مرة واحدة في هذه السير تنويهاً خاصاً عندما ذكر ان سليلاً لتيمستوكلس تتلمذ معه على أمونيوس. ونجد ذكراً لتسنُّم هذا الفيلسوف منصب الستراتيجوس Strategus[٤] في أثينا ثلاث دفعات[٥] وهو منصب هامّ جداً في مجرى التاريخ العالمي، وأشبه بمنصب «البيوطارخيين في بويوتيا» ظلّ يُسنَد إلى المواطنين المحليين طوال عهد الإمبراطورية، ويُستنتج من الرسالة الصغيرة الموسومة «في مبادئ السياسة» أنه أحد المناصب العليا المرتبطة بالوالي الروماني. ويحدّثنا پلوتارخ: «مرةً، لحظ معلّمنا أمونيوس أثناء درس ما بعد الظهر أن بعض مستمعيه كانوا قد أفرطوا كثيراً في تناول طعام الفطور فأمرَ بمحضر منا أن ينزل عقابٌ بابنه لأن الشاب، كما قال، أبى أن يتناول فطوره إلا مع خمرةٍ مَزّة. وأخذ في الوقت نفسه ينظر شزراً إلى أفراد الصف المدنيين».

والحكاية التالية كأنها تعود إلى فترةٍ متأخرة بعض الشيء عن فترة دراسته في أثينا

(٣) لا يوجد على أية حال سبب أكيد يدفعنا إلى القول بأن پلوتارخ يتذكر مشاهدته والد جدّه وسماعه منه هذه الحكاية.

(٤) في أثينا القديمة يعتبر المنصب بمعادلة قائد الجيش، أو يكون صاحبه واحداً من أعضاء مجلس العشرة الأعلى المنتخب سنوياً فيها.

(٥) وهذا ما يثير بعض الشك حول الرواية التي أثبتها المؤرّخ البيزنطي يونابيوس التي قد لا تتناقض معها تناقضاً تاماً. وهي «أن أمونيوس معلّم پلوتارخ الإلهي كان مصرياً...». ومن المؤكد أنّ پلوتارخ كان على معرفة تامة بالحكمة اليونانية المصرية. انظر رسالته إلى السيدة المثقفة كليا Clea عن «إيزيس وأزوريس»، ولعلّه مكث مدة طويلة في الإسكندرية ودرس هناك كثيراً.

قال: «أذكر عندما كنت أنا نفسي شاباً، أني أوفدت مع شخص آخر في مهمةٍ عامة إلى البروقنصل Proconsul[٦]. واتّفق أن وقع لزميلي ما أعاقه عن إكمال الرحلة فخلّفته ورائي ومضيت لإنجاز المهمة وحدي ثم عدتُ. وفيما كنت أقدّم حساباً عنها وأسلّم مأموريتي إلى المجلس نهض أبي وأسرّ إليّ بأن أحاذر كلمة «ذهبتُ» و«قلتُ» وأتكلم بصيغة المثنى، وأحافظ على سهم زميلي من المهمة في سائر تقريري».

ولا نعرف شيئاً عن زيارته إيطاليا وإقامته فيها، أكثر من روايته في سيرة ديموستينس. وأن مهام الوظيفة التي كان يتقلّدها، والزوار الذين يقصدونه للجدال الفلسفي كانت تستنفد كثيراً من وقته فلم يتسنّ له آنذاك ان يُلمّ إلماماً كافياً باللغة اللاتينية. ولا نشك في أنه رحل كثيراً فقد قال إنه شاهد تمثال ماريوس او تمثاله النصفي في «رافنا»، أثناء إيراده سيرة ماريوس. ويحدّثنا في مقولته «عن الحبّ الأخوي» أنه كُلّف أثناء وجوده في روما بمهمة التحكيم في نزاع نشأ بين أخوين يُعدّ أحدهما من عشّاق الفلسفه «إلاّ أنه لم يكن يستأهل صفة الفيلسوف ولا صفة الأخ. قلت له إني لأتوقّع منه مسلك فيلسوف تجاه من هو قبل كل شيء عادي، لا يفخر بالعلم بالفلسفة، وهو بالدرجة الثانية أخ له. أجابني قائلاً: أما عن النقطة الأولى فلا أراك فيها إلاّ مصيباً. إلاّ أني لا أعلّق أهمية كبيرة على ولادة شخصي نتيجة اتصال زوجٍ من الأجسام». ويستنكر بلوتارخ طبعاً هذا القول الكافر الشنيع ويؤنّب صاحبه. وثمّ حكاية أطرف من هذه أوردها في رسالته عن «حبّ الاستطلاع»... فمن الوصايا الأخرى لاجتناب الخطأ أو البرء منه «علينا أن نعوّد أنفسنا عندما يؤتى لنا بالرسائل ألاّ نبادر إلى فتحها بعجلة، وألاّ نقطع خيوطها بأسناننا، كما يفعل الكثيرون عندما يعجزون عن حلّها بأيديهم وألاّ نخفّ إلى السعادة مسرعين اذا رأيناهم مقبلين، وألاّ نقفز عندما يقول صديق إن لديه نبأ طريفاً، أو خصوصاً إن كانت عنده نصيحة مفيدة يقدّمها لنا. ومرة عندما كنتُ ألقي درساً في رومة كان من بين مستمعيّ روسيتكوس Rusticus الذي بطش به دوميتيان Domition فيما بعد غيرةً من شهرته وحسداً لسمعته. كنت مستمراً في الكلام عندما دخل جندي يحمل إليه رسالة من الإمبراطور فسكن الجميع، وتوقفتُ لأدَع له مجالاً لقراءة الرسالة فلم يفعل، وإنما ألقاها بعيداً عنه حتى فرغت من درسي، وانصرف المستمعون. هذا مثل على السلوك الرزين الجدير بإثارة منتهى الإعجاب».

---

(٦) في النظام الروماني هو حاكم ولاية رومانية. وفي عهد الإمبراطورية هو حاكم إقليم سناتوري (أي تابع لمجلس الشيوخ).

كان ل. يونيوس اروليتوس روسيتكوس L. Junius Aralenus Rusticus صديق بليني Pliny وتاكيتوس Tacitus الخالد الممجّد بين شهداء الرواقيين الذين دُوّنت أسماؤهم في معرض سيرة أغريكولا Agricola، كان في مطلع شبابه تلميذاً شديد التشيّع لثراسيا پايتوس Thrasea Paetus. وعندما فرض نيرون حكم الموت على پايتوس هذا، وكان مجلس الشيوخ يوشك على إبرام الحكم بالإدانة، اندفع روستيكوس بفيض دفّاق من عاطفته، مستعملاً حق الاعتراض (الڤيتو) وهو حق ما زال آنذاك مرتبطاً شكلاً بمنصب التريبيون Tribune[٧] الذي كان يتقلّده وقتذاك. ولم يفلح معلّمه في منعه من التظاهر بما كان سيودي به قبل أن يحين أجلُه - إلى إضافة اسمه إلى قائمة الضحايا الأماجد. كتب هذا سيرة لحياة ثراسيا بعد ممارسته مهام منصب البريتور[٨] في أثناء الحروب الأهلية التي عقبت موت نيرون، مثلما كتب سينشيو Senecio سيرة هلڤيديوس Helviduis ودوّن تاكيتوس تاريخاً لحياة أغريكولا على أرجح الروايات. وكانت لغة روسيتكوس صريحة جريئةْ بحيث سبّبت موته. ومن المعلّمين الذين تلقّى الشاب ماركوس أوريليوس Marcus Aurillius علومه عليهم نقرأ اسم أورلينوس روسيتكوس الذي قد يكون حفيداً لروسيتكوس السالف ذكره، ومعه نجد اسم سكستوس Sixtus الخيروني ابن أخ بلوتارخ الذي يقول الإمبراطور الألمعيّ الفيلسوف عنه: «لقد علّمني بمثال نفسه الأخلاق الحميدة والحكمة العادلة التي كان ما يفتأ يوصي بها». وظلّ الإمبراطور يختلف إلى منزله متتلمذاً عليه برغبةٍ لم تضعف قط.

ولا يُستنتج طبعاً من العبارة التي صيغت بها الرواية أنها وقعت أيام دوميتيان وأن بلوتارخ يشير إلى رسالة دوميتيان فيها. على أن وجوده في روما أيام حكم هذا الإمبراطور أو بعده يبدو مرجّحاً بسبب اللهجة التي يتكلم بها عن العظمة السخيفة لقصور دوميتيان وغيرها من المباني الإمبراطورية.

وكثيراً ما ينوّه بلوتارخ باسم أخويه تيمون Timon ولامپرياس Lamprias في مقولاته ومحاوراته، ويبدو أنهما كانا تلميذين لأمونيوس أيضاً. وإنك لتجد العبارة التالية في رسالته «الحبّ بين الأخوة»: «وأما عن نفسي أنا، فمن النِّعم التي أشكر حظّي

---

(٧) واحد من الضبّاط (في الأول اثنان، ثم عشرة) يختارهم الشعب بالاقتراع ووظيفته المحافظة على حقوق الشعب إزاء مجلس الشيوخ والقناصل ومراقبة الحريات العامة من الاعتداء.

(٨) قنصل روماني تُناط به قيادة جيش، وقد تطوّر هذا المنصب فيما بعد فغدا حاكماً يُنتخب بالاقتراع العام ويقوم بوظيفة ما من وظائف القنصل.

الحسن عليها هي محبة تيمون أخي لي، في الماضي والحاضر، إنها لمحبة عظيمة بحيث يمكن أن تعدل وحدها سائر النعم الأخرى. ولا بدّ أن يكون كل من خالطنا وعاشرنا مطلعاً عليها. وأصدقاؤنا خير العارفين بها طبعاً».

وزوجُه هي تيموكزينا Timoxena بنت ألكسيونا. ووقائع حياته البيتيّة تجد خير تصوير وأدقّه في رسالته الموجّهة إلى زوجه حول ثكلهما بنتهما الوحيدة التي ولدت لهما وهما في سنٍّ متقدمة بعد ولادة إخوتها بفترة طويلة على ما يبدو:

«من پلوتارخ إلى زوجه - تحيّةً

يبدو أن السُّعاة الذين أرسلتِهم ليبلغوني نعيَ لي طفلتنا قد ضلّوا السبيل إلى أثينا، فأبلغت به عند وصولي إلى تناغرا. وأعتقد ان كل ما يتعلّق بتشييع الجثمان قد تمَّ. وآمل أن تكون مراسم الجنازة قد أشاعت في نفسك أعظم السلوان. وإن تخلّف أي شيء رغبتِ فيه وأحجمتِ عنه انتظاراً لموافقتي - وكان فيه عزاءٌ لك - فنفّذيه، إلاّ ما يشوبه إفراط أو شعبذة وإنك لأزهد الناس في هذا. حسبي يا زوجي العزيزة الأمل في أن تُبقي نفسك وتبقيني في حدود من الأحزان معقولة ولست بغافلٍ قطّ عن مبلغ خسارتنا وجسامة فجيعتنا. وما أنا «بجذع من خشب أو قطعة من حجرٍ». وأنتِ تشهدين على ذلك يا شريكتي في الحدب على أطفالنا العديدين الذين تولّينا تربيتهم بأنفسنا في منزلنا واحداً بعد واحدٍ. وهذه الطفلة، الابنة، ولِدت لك استجابة لرغبة خاصة خالجت نفسك بعد أربعة أبناء، فأتاحت ولادتها الفرصة لي لإدامة اسمك. وهي كما أعرف جيداً موضع حبّ خاص عندك».

ومضى يذكر أن طبع الطفلة المحبّب وطُرقها الجميلة عملت في زيادة آلام الثكل زيادة عظيمة، وبعدها قال «ومع هذا فلا مبرّر لنا إذا نسينا النصائح التي نتقدّم بها الآخرين، ولا عُذر إذا انظرنا إلى فاجعتنا الحاضرة وكأنها غمّت على سعادتنا السالفة وكدّرت صفوها». ومن كان حاضراً ساعة الجنّاز تحدّثوا بإعجاب عن هدوئها وبساطة سلوكها. والجنازة نفسها كانت عاطلة عن أي مظهر من مظاهر المبالغة في النواح والندب. ولم يكن هذا مصدر عجبٍ له فهو يدري كم كانت عيشتها البسيطة المتواضعة مثار دهشة أصدقائه الحكماء وزائريه.

وهو الذي خبر أيضاً مبلغ صبرها وجلدها عند فقدها بكر أولادها. . . يقول بعد هذا. . . «عندما تركتنا جميلتنا شارون Sharon أذكر أن بعض معارفي من الأجانب كانوا مقبلين عليَّ من البحر لمّا وصلني نعي الطفلة، فسبقوا إلى البيت مع بعض

الأصدقاء. إلاّ أن النظام التام والهدوء المستتبّ الذي وجدوه هناك جعلهم يعتقدون (ذُكر لي ذلك فيما بعد) أن الخبر عار عن الصحة. ويختتم «رسالة العزاء» [وهذا عنوانها] بعبارات تنمّ عن إيمانه بخلود الروح البشرية، ذاكراً أن الأبوين تحصنّهما وتقوّي عزائمهما تقاليد أسلافهما والوحي الربّاني الذي ينكشف لهما، ويبلغهما بممارسة الطرق الصوفية الديونيسية.

وفي الرسالة فقرة يُستنتج منها أن پلوتارخ وتيموكزينا كانا جدّين وقت أن حلّت بهما المصيبة. وأن زواج ابنهما أوتوبولس كان مناسبةً لإحدى المآدب التي فُصّلت وقائعها في رسالته «المسائل السيموزية» (أي أحاديث ما بعد طعام العشاء). في إحدى هذه المحاورات نجد تنويهاً بعيداً بابنٍ لأوتوبولس Autobolus. لقد كتب پلوتارخ الرسالة الصغيرة في شرح طيماؤوس Timmoeus لابنيه أوتوبولس وپلوتارخ. ولا بدّ أنهما كانا وقتذاك مكتملي الرجولة ليطرقا موضوعاً صعباً كطيماؤوس. وفي بحثه «عن السبيل الذي يجب أن يسلكه الشباب لقراءة قصائد الشعراء» يقول مخاطباً ماركوس سيداتوس Sedatus: ليس من السهل أن نمنع منعاً باتاً كلاً من عزيزي سوكلاروس Soclarus وعزيزك كلياندر Cleander عن قراءة الشعر. ولكن ليس هناك ما يشير هل إن سكولاروس ابن له، أو حفيد، أو قريب من أقرباء الأسرة، أو تلميذ وهو من المحتملات أيضاً. وأما يوريديس Eurydice المتزوجة حديثاً ببوليانوس Pollianus. فيبدو أنها من أهل داره حدساً وتخميناً من رسالة «في الوصايا الزوجية» كتبها لها ولزوجها. على أنه لا يمكن القول إنها بنت له وليس من المحتمل قط أن يكون موضع تيموكزينا الصغيرة المتوفاة قد ملئ(٩) بأخرى.

قد تكون وظيفة الأرخون التي أشغلها پلوتارخ في مدينته وظيفة سنوية ومن المحتمل جداً أنه أشغلها أكثر من مرة. ويبدو أنه كان يهتمّ بأصغر أمور المدينة وأقلها شأناً. بل كان يتعمّد مباشرة أحقر الأشغال، فبعد أن روى قصة «إپامننداس» أنشأ يمدح ويرفع من شأن وظيفة رئيس الكنّاسين بقوله: «وأنا أيضاً للسبب نفسه أجدني هدفاً لتندّر جيراني، كما يشاهدونني - وما أكثر ذلك - في الأماكن العامة أتولّى شؤوناً مشابهة لواجبات تلك الوظيفة. إلاّ أن القصة التي رويت عن أنتستينس Antisthenes تأتي هنا لنجدتي.

---

(٩) أمّا عن بلوغ ابنين له مبلغ الرجولة على أقل تقدير فيبدو من عبارة قصد بهما ابنيه الصغيرين الآخرين بقوله إنهما أطالا الجلوس في اللعب متأخرين عن العشاء.

فعندما أبدى أحدهم دهشته لرؤية هذا الرجل يحمل إلى بيته سمكة بالتوابل اشتراها من السوق أجابه قائلاً: «إنها لنفسي». وقياساً على هذا فإن عاب عليَّ أحدهم وقوفي في محلّ عام ومراقبة قياس أبعاد الجرّ، ونقل الجصّ والحجر، أجيب بقولي «إنه ليس لنفسي بل لبلدتي».

وفي المقالة المختصرة الموسومة «هل ينبغي للرجل الهرم أن يستمر في معالجة الشؤون العامة؟» كتب يحث يوفانس Euphanes وهو عضو قديم بارز في كل من أريوباغس Areopagus أثينا، والمجلس الأمفكتيوني Amphictyon[10] على البقاء في منصبه قائلاً: «فلنُبقِ على زمالتنا الطويلة ولا نقطعها، وليمتنع كلانا عن اعتزال هذه الحياة التي اخترناها» وفي موضع آخر يقول مشيراً إلى واجبات وظيفته الكهنوتية لأپولّو دلفي «وتعلمُ أني خدمت هذا الرّبّ [البيثيّ] عدّة بيثيادات[11] خلونَ، ومع هذا فإنك لن تستطيع أن تقول لي: إنك أسهمت كثيراً في تقديم الأضاحي والرقص الدينيّ، والفرائض الأخرى، وقد آن الأوان يا پلوتارخ أن تنزع قلادتك الكهنوتية وتتقاعد عن العرافة مقرّاً بعجزك بعد ان بلغت من العمر عتياً».



حتى في هذه العبارات والروايات القليلة، والقريبة من الحقيقة والواقع، يوجد ما يكفي من المواد لتأليف صورة من الحياة البيتية السعيدة نصف الأكاديمية، نصف العملية، تنصرم بين أقرباء محبّبين وأصدقاء معروفين، وتميل كثيراً إلى الدراسات العلمية والأخلاقية، وتتصل مع هذا بواجبات المواطن العادي وأعبائه. وبانتقالنا إلى أبعد من هذا يتعذّر علينا طبعاً التسليم بحقيقة مشاهد المحاورات الخيالية واعتبارها وقائع تاريخية. ومع هذا ففيها الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الصدق في التصوير إن جاز لنا هذا القول. وربما وُجِد الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الحقيقة بالحرف، فما يدعى [سيمبوزياك أو مسائل ما بعد العشاء] المجموعة في تسعة كتب مهداة إلى سوسيوس سينشيو قيل لنا إن كثيراً منها جرى بحثها بحضور سوسيوس ومشاركته في

(١٠) أريوباغوس هو بالأصل تلّ من تلال أثينا. جرت العادة أن تلتئم فيه المحكمة العليا، أو مجلس الحكم الأعلى. وأما المجلس الامفكتيوني فيتألف من مندوبين من جميع الدول اليونانية يجتمعون للنظر في الشؤون المتعلقة باتحادهم.

(١١) وهي فترات متعددة لأربع سنوات. كل مرة تنقضي بين إحياء الألعاب البيثية كالألعاب الأولمبية.

روما وفي بلاد اليونان كأن يكون هذا مدعوّاً إلى حفلات زفاف أوتوبولس. ويظهر لامپرياس وأخوه تيمون كثيري النشاط والحيوية في المناقشات، لكلّ منهما شخصيته وآراؤه المستقلة. ترى المشهد الآن في دلفي، ثم تراه في أثينا وأحياناً في روما وهو نادر ويكون آناً بمناسبة إحياء الألعاب. وكان پلوتارخ بسبب وظيفته الكهنوتية بقيم الولائم على شرف الشاعر الفائز في الألعاب [البيثية]. وهنالك وليمة عشاء بمناسبة الألعاب الأستمية في كورنث، وهنالك حفلة أولمبية أخرى في إيليس Elis. كان پلوتارخ مواطناً أثينياً بالموالاة للقبيلة الليونتية - ولذلك تراه موجوداً في مناسبة تكريم صديقه الشاعر الفيلسوف سيراپيون Serapion لفوزه. إن الأشخاص الذين شاركوا في أحاديث مختلف المحاورات الصغيرة يؤلفون زمرةً واحدة متراصّة فهم أكثر من ثمانين بين فلاسفة ونحويين وبلغاء، وأطباء، منهم يوتيدموس Euthydmus زميله في الكهنوت وألكيسون حَموه، وأربعة أو خمسة من أقربائه بحكم المصاهرة، وفافورينوس Favorinus فيلسوف آرليس Arles في بروڤنس Provence الذي لقي حظوة عند هادريان في ما بعد، وإلى هذا الإمبراطور أهدى واحدةً من رسائله، فأجابه بمقالة أسماها «پلوتارخوس» وهي تدور حول الفلسفة الأكاديمية. تجد سيرابيون يستضيف هذه النخبة في بستانٍ على ضفاف نهر چيفيوسوس Cephisus ثم تراهم يتناولون عشاءهم مع طبيب صديق على مرتفعات هيامپوليس Hyampolis ويتقابلون في حفلة بحمّامات أيدپسوس Aedepsus. وفي هذه المجالس كانت تُبحث مسائل شتّى، تجدها أحياناً جديّة أخلاقية نحوية تاريخية. وفي أحيان كثيرة تجدها مرحة فكاهية: ماذا يقصد أفلاطون في قوله إن الآلهة تستخدم الهندسة؟ لماذا يكون سمعنا أحدَّ في الليل منه في النهار؟ لماذا تكون الأحلام أقلّ انطباقاً على الواقع في موسم الخريف؟ أيهما وجِد قبل الآخر: البيضة أم الدجاجة؟ أيّ يدٍ من يدَي ڤينوس جرحها ديوميدس Diomedes؟ وهكذا. وينبري لامپرياس الجَدّ ليعتب على ابنه والد پلوتارخ دعوته عدداً كبيراً من الضِيفان للحفلات التي «أقمناها عند عودتنا إلى الوطن من الإسكندرية». ويقيم أمونيوس، «ستراتيجوس» (جنرال) أثينا، مأدبة عشاء للفتيان الذين برزوا في مسابقة المهارة في النحو والمنطق والهندسة والشعر. وتروى حكايات في هذه المناسبة حول الأبيات الشعرية التي أسيء اقتباسها في المناسبات أو لم يُسأ.

ومن الآثار الثانوية الأخرى التي تركها المؤلف ما يبدو بعضه وكأنه دروس أُلقيت في روما ثم نشر بعدئذ بمقدمة صغيرة للأشخاص المعنيين. وعندنا مقولة في «الفوائد التي يمكن أن نجنيها من أعدائنا» موجهة إلى كورنيليوس پولكر Corniluis Polker

ومقالة في «القَدَر» مهداة إلى پيزو Piso وعن «الحب الأخوي» مهداة إلى نيغرينوس Nigrinius وكوينتوس Quintus، وكثير منها محاورات ومناقشات فيها قدر كبير من المشاهد المتماثلة المتنوّعة والأحاديث الضاحكة التي تتخلّل مناقشات المائدة.

في حديث مع أمونيوس وأصدقاء آخرين «منذ عهد بعيد، عندما كان نيرون في بلاد اليونان»، جرى النقاش في معنى الكتابة الغريبة المنقوشة على معبد دلفي. نحت فيه حرفا E و I. وجرى بحث في طبيعة العرافة بمناسبة قيام بعض أصدقاء پلوتارخ بإراءة المباني المقدسة في دلفي لأحد الزائرين - أثناء الفترات التي تخللت الشروح المملّة نوعاً ما التي كان الأدِلاء المحترفون يسردونها أثناء طوافهم بالمواقع المقدسة. «حصل ذلك قبيل بدء الألعاب البيتيّة في عهد كاليستراطوس Callistratus فهنا في دلفي التقينا برحّالتين قدِما من أقصى أرجاء المعمورة وهما ديمتريوس النحوي، القادم من بريطانيا في طريقه إلى موطنه طرسوس وكليومبروتوس Cleombrotus اللقيديموني الذي عاد لتوّه من رحلة ترفيهية ثقافية إلى مصر العليا بلغ بها نهاية البحر الأرتيري». وتبدو ملامح للموضوع تتبعها محاورة في مسألة «انقطاع النبوءات» ويتضمّن فقرة فيها القصة المشهورة عن الصوت الذي أنبأ بموت پان Pan العظيم. وتجد أوتوبولس يكلّم سكولاروس زميل ابنه في مديح كانا قد سمعاه لرياضة القنص، معلّقين على ذلك بقولهما إن خير مَزِيّةٍ تُذكر لهذه الرياضة هي أنها تنحرف بعيداً بالعاطفة التي تجد منطلقاً لها في مشاهدة قتال المصارعين، وتأخذها إلى سبيل أقلّ بشاعة وهمجيّة. ثم تبرز في النقاش حالاً زمرة كبيرة من الفتيان المغرمين بصيد السمك وقنص وحوش البريّة، ويقوم متكلّمان ليطرحا على بساط البحث موضوع: أيهما أوفر حكمة وعقلاً، أحيوانات البحر أم حيوانات البرّ. وتروى في الجلسة حكايات عن الفِيَلة. ويقصّ أرسطوطيموس Aristotimus المدافع عن تفوّق حيوان البرّ مستشهداً «بكلب يُقلّد تأثير مسرى السمّ في الجسم» في مشهد تمثيلي رآه بأمّ عينه في روما. كان التمثيل متقناً بحيث هزّ مشاعر الحاضرين ومنهم الإمبراطور الشيخ فسپسبان في ملعب مارچللس Marcellus، وإنك لتكاد تحسّ من لهجة العبارة كأن پلوتارخ لا أرسطوطيموس هو الذي شاهد المنظر[١٢].

---

(١٢) وينوّه هنا بعض تنويه بطباع فسپسبان المتميّزة بالقسوة والوحشية في قصةٍ عنه أوردها في محاورته عن «الحب الأخوي» عن سابينوس الثائر «الغالي» وزوجه أيبونينا Eponina. وقد ذكرها تاكيتوس أيضاً في تاريخه. كان قد ولد لهما في مخبئهما تحت الأرض ولدان - فقد

ويظهر أوتوبولس مرة أخرى في محاورة عنوانها «عن الحُبّ». كُتبت تحقيقاً لرجاء صديقه فلافيانوس Flavianus، وهي حديث طويل تتخلّله حكايات غريبة، شارك فيه والده وهو في جبل هيليكون Helicon «منذ زمن بعيد قبل أن نولد، وعندما جاء بأمّنا لتقدّم قرباناً لـ«الحبّ» في عيد أقيم في «نسپايي»، بعد نزاع نشأ بين أبويهما».

إن هذا الخصام لم يكن تخريفاً بل حقيقة واقعة. وعلى وجه العموم فإن هذه الإطارات الموضوعة التي تؤلّف هيكل حركة المحاورات الخيالية منها وشبه الخيالية فيها عناصر من الواقع قد ترقى إلى الحَدّ الذي يمكن معه اعتبارها من قبيل الأحداث التاريخية المسلّم بها وقد حصلت للمؤلف كما أوردها الكتّاب المتأخرون، وإن لم يكن يقصد بها في الواقع أن تؤخذ بشكلها الحرفي، وأن يعتبر نصُّها حقيقةً. إن سويداس Suidas الموسوعي إنما يسرح في خيالٍ بحت عندما يقصّ علينا كيف خلع تراجان عليه منصب القُنصل، وأصدر أوامره إلى جميع حكام إيلليريا بألاّ يُقدِموا على عملٍ قبل استشارته! وكان سينكللوس Syncellus المؤرّخ البيزنطي يبالغ مثله بل أكثر منه في ذكره تحت فصل وقائع سنةٍ من سنوات حكم هادريان الأولى أن پلوتارخ الفيلسوف الخيروني أقامه الإمبراطور في أواخر عمره حاكماً على بلاد اليونان. ومع أن عهد تراجان وأنطونينوس Antonines كان بمثابة العصر الذهبي للفلاسفة فقد بدا وكأن فترة اضطهادهم القصيرة وعهد «دوميتيان» أكسبتهم مدة من الزمن مكانة روحية سامية شبيهة بما نالوا بعد حكم «ديوقلتيان». على أن هذه المنزلة انتُزعت منهم بمجهود كهنة الدين الجديد.

وردت بين مؤلّفات پلوتارخ المطبوعة رسالة تتضمّن مجموعة من «أقوال الملوك والقادة» مهداة إلى تراجان، ومع وجود شك كبير حولها فليس بمستبعدٍ أبداً أن تكون من تأليف پلوتارخ نفسه. وهي ليست مما يستوقف النظر، وأكثر ما يلاحَظ فيها اختلافها الشديد في الأسلوب عن رسالة أخرى لا يُشكّ في أنها منحولة - نشرها باللاتينية جون السالسبوري Johan Salisbury وهي موعظة حافلة بالوصايا إلى «التلميذ تراجان» بقلم معلّمه السابق المزعوم پلوتارخ. ولدينا قائمة بمؤلفات پلوتارخ، كثيرٌ من الأسماء التي تتضمّنها لا وجود له الآن. ويقول سويداس كاتبها إنه نقلها عن لامپرياس

اختفيا وعاشا تحت أطباق الأرض عدة سنين حتى افتضح أمره وقتل. يقول پلوتارخ: «أحد هذين الولدين كان معنا هنا في دلفي قبل فترة قصيرة». ثم يزيد معلّقاً: «إن انقراض نسل فسپسيان يعود إلى غضب الأرباب لعمله هذا المجرّد من الشعور والرحمة».

ابن پلوتارخ. كذلك توجد رسالة قصيرة وضِعت في مقدّمة تلك القائمة وجّهها پلوتارخ إلى صديق تعرّف به في آسيا، وكان قد كتب إليه من موطنه يطلب معلومات معيّنة. قد تكون القائمة صحيحة إلاّ أن اسم لامپرياس لا يظهر قط في كل مؤلّفات پلوتارخ بوصفه ابناً من أبنائه. ولا يسعنا إلا أن نشكّ في أن اسم الأسرة هذا قد انتحله بعضهم، وأن هذه الرسالة إلى الصديق المجهول الآسيوي ألّفها أحد النحويين في عصور تالية، قاصداً رفع قائمةٍ عادية لأسماء آثار المؤلف العديدة.

إذا قرأ المرء پلوتارخ فعليه أن يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرّخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة إلى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الإمبراطوريات. فعنده أن الواجب يؤدّى فيكافأ عليه مؤدّيه، والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيّئةٌ يجب تقويمها، والنزعة الإنسانية والإنصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا أو تعوّض في الحياة الأخرى. وإنك لترى فكر پلوتارخ في سِيَره يتجه دائماً إلى الآراء الأرسطية في الأخلاق وإلى ونظريات أفلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.

هذا العصر هو نقطة ثانية يجب أن يتذكرها القارئ؛ فهو عصر نيرون وتراجان وهادريان، ومُفتتح خير العصور وأسعدها من عمر الإمبراطورية الرومانية العظمى، بنظامها الاجتماعي الذي ساد سواحل البحر الأبيض المتوسط كافة (مركزاه إيطاليا واليونان، والشرق وأقصى ما عُرف من بلاد في الغرب طرفاه) وبلغ أعلى درجة من التقدم والكمال، وفيه سادت قوانين روما وفلسفة اليونان رقعة من الأرض تمتد من نهر دجلة حتى الجزر البريطانية. إنه آخر العصور العظيمة للحضارة الرومانية - اليونانية. ولقد كان ابيكتيتوس Epictetus يُعلّم باليونانية الحكمة التي امتاز بها ماركوس أوريليوس عندما غدا إمبراطوراً. وأعاد ديو خريسوستم أريان Dio Chrysostom Arrian للأذهان ذكر بلغاء «أتيكا» المشاهير الأعلام، ومؤرّخيها العظام. وفيما تجد پلوتارخ يكتب من خيرونيا، كان تاكسيتوس وپليني الأصغر، ومارشيال، وجوڤينال، يكتبون في روما. قد يقال أيضاً - وربما لا يخلو القول من صحة - إن كتاب اللاتين في العاصمة لم يكونوا في نقل الروحية والطابع العام اللذين يميّزان ذلك العصر - بمستوى صدق قلم هذا البويوتي الريفي الساذج الذي كان يكتب بلغة أوسع انتشاراً، غير متقيّد بأي ذكريات قويّة محلّية لمجلس الشيوخ العتيق وللجمهورية. وربما وجدتَ تاكيتوس وجوڤينال «أكثر أصالة رومانية» من أحد مواطني إمبراطورية البحر المتوسط العظيمة لأن شرور حكومة الإمبراطورية كما يشعرون بها

في العاصمة صُوّرت في الشعر والنثر الرومانيين تصويراً أدقّ وأقوى مما يناسب الهيئة العامة للدولة، كما تراها عيون سكان عالم الإمبراطورية حتى في عهد حكم دوميتيان نفسه. وهذه الأخيرة على أية حال الناحية الأكثر هيبةً؛ وإن أفضل العهدين وأحسنهما هو ذلك الذي تعكسه حياة پلوتارخ وكتاباته، فأسلوبه أسلوب ذلك الرجل السعيد بذاته الراضي بما قُسِم له وأحاط به.

إن الذكريات القوية الغلاّبة لأحداث السنين الماضية التي مرّت تحت ظل الإرهاب المباشر، الناجم عن شرور الحكم الإمبراطوري، لم تنتقص من طبيعة پلوتارخ المستبشرة الضاحكة ولم تجرّده من بساطته المرحة ولم تشب سعادته بظل من الأسى. ومع أنه كان يتذكر نيرون، وكان رجلاً عندما اعتلى دوميتيان عرش الإمبراطورية، فكلّ ما يسعنا قوله أنه كان يكشف عمّا يجوز لنا وصفه بالسعادة الهادئة لمن خرج من شر عظيم ليعيش في أزمانٍ طيبة. وإن قوة تلك السعادة التي يبديها لدليل على ان جذورها كانت قد تأصّلت في ظروف غير موآتية، ولا طيّبة.

قيل الكثير عن عدم دقة پلوتارخ، ولا يُنكَر أنه كان قليل الاحتفال بالأرقام يناقض أقواله بنفسه أحياناً، وأعظم منقصة تؤخذ عليه هي تعلّقه الشديد: بالحكايات، إذ لم يكن يعبّر عن إيراد القصص التي كان هو أول المدركين زيفها. ومن شأنها أن تخلّف انطباعاً غير منصفٍ عن راويها. وهو بهذا الطريق لم ينصف كلاً من ديموستينس وپريكليس إذ ورث عن أفلاطون تحامله على ثانيهما، وهو التحامل الذي طُبع به جميع الفلاسفة المتأخرين ومنهم پلوتارخ.

صحيح أيضاً أن معالجته اللاتاريخية لمواضيع سِيَره تجعله يبدو أحياناً غير دقيق، بل موضع انتقاد في الصور التي يرسمها. ومما هو طبيعي أن الجانب الكبير من حياة رجال الدولة العامة يمكن أن يجد تفسيراً في وضعهم السياسي. إلاّ أن پلوتارخ قليلاً ما فكّر في هذا، أو عرف. فبقدر ما نجحت أبحاث المؤرّخين المعاصرين في اكتشاف أمورٍ عن مثل هذه العلاقات، كانت هذه السِّيَر تحتاج إلى تصحيح. ولكن من المناسب، بل من المفيد، العودة إلى الصورة التي رُسِمت قبل أن تسود الأفكار الجديدة والنظرات الحديثة عالمنا الحالي حول الغموض الذي يعتور ولا شك الدراسات الحديثة إن لم نرجع إلى أحكام قابلة للأخذ والردّ كهذه، وإنما بمجرد القياس على المبادئ الواسعة لقانون الأخلاق القديم في التفريق بين الخطأ والصواب.

وبغضّنا بعض الطّرْف عن الأمور التي أتينا على ذكر طائفة منها، وبصبرنا قليلاً على قصة حب فيها شيء من المبالغة، وبتجاوزنا عن عداءٍ شبه ديني للقادة

الديموقراطيين الذين سخط عليهم أفلاطون، وإذا ما وضعنا في حسابنا أيضاً أن الحكايات من أمثال ما أورده عن تيسيوس يصعب جداً فصل الجانب الأسطوري منها عن الجانب الحقيقي كما أقرّ هو نفسه، أمكننا القول إن القراء على مختلف أعمارهم سيجدون في تاريخ بلوتارخ سِيَراً أمينة ومثقِفة لحياة عظماء الرومان واليونان. وإذا كان من العبث حقاً أن نفكر بصدور سيرٍ أمينة في عصر بلوتارخ فلدينا ها هنا على أية حال سجلّ أمين للوقائع التاريخية كما أرادها عصره. وهو ما أحبّ اليونان والرومان أن يعتقدوه عن محاربيهم وساستهم الغابرين. أما كصورةٍ فهي تُعتبر خير نسخةٍ لوجهات النظر الخُلقية الرومانية واليونانية، ولآرائهم في مبادئ الأخلاق. أمّا وأنها تمثل حصيلة الفكر الأدبي الروماني - اليوناني، كُتبت لا تحت ضغط نكبة وإنما في جوّ اعتيادي مطمئنٍ هو جوّ الحياة الهادئة البسيطة الواقعية لسكان الريف وهم يزاولون شؤون عيشتهم اليومية - فهي بلا جدال ذات قيمة عظيمة. ويمكن القول إن الطبع الذي أظهره كاتبها ينطوي على سماحة وبشرٍ ووداد ذي سحرٍ طبيعي غير مجلوبٍ بتطريةٍ، ولا يمكن أن يرقى إليه أيّ كاتب من الكتّاب الكلاسيين الذين وصلتنا آثارهم.

وهذه الترجمة الإنكليزية هي نسخة منقّحة للترجمة المطبوعة في أواخر القرن السابع عشر من تاريخ حياة بلوتارخ بقلم درايدن Dryden الذي أُريد أن يُضفي اسمه الداوي أهمّية، ويُلقي نوراً ساطعاً، على أولئك الكادحين الخاملي الذكر الذين أنجزوا القسط الأوفى من نقل هذا الأثر حسناً كان نقلهم أم سيئاً. وبطبيعة الحال يوجد تفاوت كبير في مجهوداتهم غير أن الترجمة التي عملها لانكهورن Langhorne في أواسط القرن الماضي هي والحق يقال أضعف كثيراً من الترجمة الأولى وأقل منها حيوية بمقدار كبير. إنها ترجمة مملّة ثقيلة الوقع على النفس تُعوزِها الطلاوة. لذلك ولعدم وجود ترجمة جديدة أصيلة يؤمل أن يكون أحياء الترجمة الأولى الذي نحاوله الآن ذا فائدة. وما كانت الحاجة لتدعو إلى ذلك لو أن مستر لونغ لمْ يقصر تعليقاته النفيسة جداً التي علّقها هناك على السِّيَر الخاصة بالحروب الأهلية الرومانية وذلك في السلسلة التي طبعها ضمن منشورات مكتبة «نايت شيللنغ».

والسيرة التي صنّفها درايدن لبلوتارخ هي مثل كثير من كتابات هذا الأديب سريعة التأليف، لكنها جيدة السبك. تفتقر إلى الدقة لكنها شيّقة طليّة. أما السيرة التي كتبها داسييه وطبعها في آخر مجلّد من الترجمة الفرنسية التي عملها للسِّيَر فهي جيدة جداً من نواحٍ شتّى. أمّا المواد التي اعتمدها الاثنان فقد استمدّاها من مَعين واحد، وهو المراجع التي توفّر على جمعها روالدوس عند كتابته سيرة بلوتارخ، التي تعب فيها كثيراً،

ونشرها ملحقاً من نشرة باريس الوثائقية القديمة للعام ١٦٢٤. على أن كل ما هو ذو قيمة في التراجم المذكورة إنّما استُمِدّ من المواضيع المتوفّرة في المكتبة اليونانية لفابريشيوس (Bibliotheca Greca (Fabricius وفي الموسوعة الألمانية لباول، مع آخر الإضافات. وواضح أيضاً أن الكثير مما هو مفيد موجود في الحوليّات الرومانية Fasti Romana بقلم كلنتون Clinton وقد اقتبسنا منها الجدول التالي.

ملاحظة: الكتّاب الذين وُضِعت في نهاية أسمائهم نجمة هم يونانيون.

* * *

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	أسماء كتّاب الفترة
٤١	اعتلاء كلوديوس	سينيكا
٥٤	اعتلاء نيرون، نيرون يزور اليونان	
٦٦	تنويه بذلك في محاورة پلوتارخ عن حرفي E وI في دلفي	لوكان
٦٧	نيرون يحتفل بالألعاب الأسمتية (تنويه بذلك في سيرة پلوتارخ عن ڤلافيوس)	پيرسيوس
٦٨	گالبا إمبراطوراً. الحروب الأهلية	
٦٩	ڤيتيلليوس. أوتو ڤسپسيان.	
٧٠	الاستيلاء على أورشليم	
٧٤	الفلاسفة ينفون من روما	
٧٩	مقتل سابينوس الغالي. موت ڤسپسيان. واعتلاء تيطس. موت پليني الأكبر. ثورة بركان فيزوف. تنويه پلوتارخ بهذه الظاهرة الطبيعية باعتبارها حدثاً قريباً لعهده في محاوراته «عن السبب في أن الوحي لم يعد ينزل شِعراً»؟	كونيليان*
٨١	اعتلاء دوميتيان	ستاتيوس

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	أسماء كتّاب الفترة
٩٠	الفلاسفة يُنفون ثانيةً من روما بعد مقتل روستيكوس	إيتاليكوس مارتيال
٩٦	اعتلاء نرفا	ديوخريسوستم*
٩٨	اعتلاء تراجان	[ولد في حدود ٦٠م]
١٠٠	تقريظ پليني	پلوتارخ
١٠٣	أپيكتيتوس يعلّم في نيقوبوليس. أريان أحد الذين يحضرون دروسه.	أپيكتيتوس أريان
١٠٤	پليني في بتينيا	پليني الأصغر [ولد في ٦١م]
١٠٦	تراجان يشتي في الدانوب (پلوتارخ يشير إليها في مقالته «مبدأ البرودة»)	جوڤينال [ولد في ٥٩م] فاڤورينوس*
١١٣	إقامة عمود تراجان	سيوتونيوس
١١٤	انتصارات تراجان على الفرثيين (كان پلوتارخ قد كتب سيرته عن أنطوني قُبيل هذه الأحداث)	[ولد في حدود ٧٠م]
١١٧	اعتلاء هارديان العرش (في السنة الثالثة لحكم هارديان كان پلوتارخ حيّاً على ما زعمه يوسينوس)	
١٣٨	اعتلاء أنطونينوس	بطليموس. أپيان*
١٦١	اعتلاء ماركوس أوريليوس	پاوسانياس*
١٨١	اعتلاء كومودوس	چاليتون. لوشيان*. أثناؤوس. ديون كاسيوس*

إن الخطأ الذي وقع فيه كل كُتّاب سيرة پلوتارخ، ابتداءً من روالدوس فنازلاً، هو افتراضهم الواهم أن پلوتارخ قضى سنوات عديدة من حياته في روما قد تبلغ حوالي الأربعين. وبسبب هذا الوهم حُوِّرت حياته برمّتها تحويراً جوهرياً. ولذلك ليس ثمّ جدوى في إيرادنا هنا سيرته التي كتبها درايدن وضمّها إلى هذه الترجمة التي نقّحناها وأجرينا عليها تعديلات قلّت أم كثرت هنا وهناك. ويكفي أن نورد هنا مقتبساً أو اثنين من تلك السيرة. أولهما قد يلقي بعض الضوء على موضوع غامض بعض الشيء للقارئ العصري: كان درايدن مخطئاً في تعليلٍ أو تعليلين لا أهمية كبيرة لهما. إلاّ أن وجهة نظره العامة في عقيدة الأرواح الشرّيرة Daemonic التي تظهر في كتابات پلوتارخ قد تفي إلى حَدّ ما بالغرض. قال درايدن: «بإمكاننا أن نتأثر خطى باقي آرائه من فلسفته التي قلنا إنها أفلاطونية على العموم، وإن لم يكن هناك أيضاً مجال لإنكار وجود صبغة من العقيدة الايلكتية[١٢] فيها، تلك العقيدة التي بدأت بداعيتها پوتامون Potamon في عهد إمبراطورية أغسطس، والتي اختارت من كل العقائد الأخرى ما هو في رأيهم أكثر مناسبة وعقلاً غير مقيمين على عقيدة معيّنة واحدة، وغير رافضين كل شيء ما عداها. وإني سأتصدّى هنا لعقيدة الأرواح فقط. ففي رسالتي پلوتارخ: «عن أسباب انقطاع النبوءات» و«عن عدم نزول الوحي شعراً، كما كان ينزل في السابق» يبدو أنه من مؤيّدي المذهب الفيثاغوري في انتقال الأرواح من حال إلى حال. لقد بيّنا آنفاً أنه يؤمن بوحدة رئيس الأرباب الذي يُسمّى بعدة أسماء حسب صفاته. فهو جوپيتر من سلطانه اللامتناهي وهو أپوللو من حكمته وهكذا دواليك. إلاّ أن پلوتارخ يضع في الدرجة التي تلي جوپيتر تلك المخلوقات التي يطلق عليها اسم ديمون أو الجنّ. وهي كائنات ذات طبيعة متوسطة بين الإله والإنسان، لأنه كان لا يتصوّر وجود ثغرة بين الطرفين القصيّين: المخلوقات الخالدة والمخلوقات المائتة، ولأنه لا يمكن أن تبقي الطبيعة مثل هذه الثغرة الواسعة مفتوحة دون أن تملأها بنوع وسط من الحياة يمتّ إلى كلا الطرفين القصيّين. إذن فالاتصال بين النفس والجسد إنما يتم فحسب عند الأرواح الحيوانية، كما نجد ذلك الاتصال بين العالم الإلهي والعالم الإنساني يتم بهذا النوع المتوسط بينهما الذي سمّيناه «ديمون». فهؤلاء «الجنّ» كانوا في مبدأ أمرهم بشراً، اتّبعوا طريق الخير والصلاح وتساموا في الفضائل حتى انسلخوا عن أجسامهم البشرية وتخلّصوا من أوضار وجودهم الأرضي وارتقوا إلى مرتبة «الجنّ» هذه. وهنا اعترضهم أحد أمرين،

(١٢) ويقصد بها «الاكلكتية» وهو الاسم الذي تعرف به الآن Eclectic.

إمّا أن يستمروا في التسامي والارتقاء في سُلّم الحياة الأثيرية ببقائهم محافظين على طهرهم وصلاحهم، أو أن يسقطوا مرة أخرى ليعودوا إلى الجسم البشري الميت ويتقمّصوا اللحم والعظم بفقدهم تلك الطّهارة التي هي أساس كينونتهم الأثيرية. هذا النوع من الجن هو الذي أنيط به أمر إنزال الوحي والعرافة بحسب رأي پلوتارخ. إن الأرواح التي تَخَلّف فيها الكثيرُ من عناصرها الأرضية تكون عُرضة للتأثر العاطفي، وتلعب بها الأهواء البشرية. وهي في العادة تأثيرات خيّرة طيبة. وقد تكون أحياناً شرّيرة ضارّة بالناس. وتتفاوت بين هذين المقياسين على قدر ما تكون فضائل تلك الأرواح سامية، أو بقدر ما تتزايد سقطاتها وهفواتها لتنحدر بالتدريج إلى حالة البشر وتكون عُرضةً للموت والفناء. وهو يعزو انقطاع الوحي أو بالأحرى تناقصه (لأن بعض تلك الأرواح كان موجوداً حتى أيام پلوتارخ) إمّا إلى فناء هؤلاء الجنّ، كما يبدو ذلك من رواية ثاموس Thamos المصري الذي أوحي إليه أن يُعلن موت الربّ العظيم (پان). وإمّا إلى مغادرتهم المواضع التي كانوا قد اختاروها للوحي حين طردتهم منها طائفة من الجنّ أكثر قوةً منهم ونفتهم على إثر تلك الثورات التي استمرّت تحدث منذ عصور سحيقة. ومن أمثال تلك الثورات الحرب التي نشبت بين الجبابرة والأرباب. وطرد ساترن (زُحَل) بأمر جوپيتر. ونفي أپوللو من السماء، وسقوط ڤولكان... وغير ذلك كثير. وكلّها في رأي المؤلف معارك تجري بين هؤلاء الجنّ (الديمون). ولكن لنفترض (ونرجّح أن پلوتارخ فعل مثلنا) أن هؤلاء الجنّ تولّوا أمور البشر تحت رقابة الكائن الأعلى، فعاونوا الأخيار، واقتصّوا من الأشرار، وأحياناً حلّوا في أسمى البشر نفوساً، كما كان جنّ سقراط يُنذره دائماً بمكامن الخطر ويعلّمه كيفية اجتنابها. ولا يسعني إلاّ أن أعجب من كل كاتب لحياة بلوتارخ، ابتداءً من روالدوس بصورة خاصة وهو أوسعهم اطلاعاً عليها، كيف أكدوا عن ثقةٍ أن الوحي إنمّا يتأتّى من الأرواح الشرّيرة. إن تفكيرنا كمسيحيين ينصرف إلى هذا الاستنتاج طبعاً. أما أن يكون هذا رأي پلوتارخ فهو خطأ فاضح لا وجه للاعتذار عنه. ويكفي لإقناع رجل سويّ العقل أن نذكّر بأن مؤلّفنا في أواخر عمره كرّس نفسه للقيام بالفرائض الدينية في دلفي، وأنْ نعلم أيضاً أنه مات وهو كاهن لأپوللو. ولنا أن نحكم مطمئنين أنه لم يُصب بشيء من الخرف في عمره المتقدم جداً من محتوى الرسالة التي كتبها بعنوان «إن الرجال المتقدمين في السنّ يجب ألاّ يُحجموا عن تولّي الأعمال العامة». والآن يجب علينا أن ننبذ فكرة أنه كان يرى في الربّ الذي يخدمه: ديموناً أو شيطاناً كما نسمّيه نحن. فلا شيء أبعد عن رأي وممارسة هذا الفيلسوف الجليل من هذا الإثم والفسوق. وإن قصة

«بثياس» أو كاهنة أبوللو وهي القصة التي اختتم بها رسالته عن انقطاع الوحي تدعم تأكيدي هذا أكثر من أن تدحضه. فقد راحت إلى المعبد... «دَخلتْ بتردد عظيم إلى الموضع المقدّس لتتلقّى الوحي ثم خرجت مزبدة الفم جاحظة العينين في صدرها زحير وصوتها حادّ النبرات لا يُفهَم منه شيء، حتى لكأن زلزالاً يزلزل في جوفها، تجاهد لالتقاط أنفاسها وتلهث. وبمختصر القول فقد كان الرب يثقل على نفسها ويزاحمها ولم تكن قادرة على احتماله حتى ماتت عذاباً وهي بليدة الحواس، بعد أيام قليلة». كان بلوتارخ قد ذكر في مثل هذه الحادثة أن الكاهنة يجب أن لا تكون مضطربة الفكر نجسة العاطفة ساعة نزول النبوءة عليها. فإذا كانت حالتها هذه فإنها لا تصلح قط لتلقّي الوحي. مثل آلة الطرب التي لم تحزق أوتارها حزقاً صحيحاً فإنها لا تُخرج النغمات الصحيحة المتناسقة. وقد ذكر في نهاية هذه القصة ما تركنا نشكّ في «أن هذه الكاهنة لم تعش عيشة طُهرٍ وعِفّة مدّةً من الزمن قبل أوان الوحي. لذلك بدا موتها عتاباً فرضه عليها سلطان أعلى لعيشة الفجور التي عاشتها، أكثر منه عملاً شريراً لروحٍ تستمتع بالشرّ للشرّ فحسب». هنالك ملاحظة أخرى أقرب إلى الفرض في الواقع، وسأنحرف عن موضوعي لأرويها لأنها تتعلق بعض الشيء ببلاد بريطانيا. يقول بلوتارخ: «هناك عدد كبير من الجزر الصغيرة منتشرة حول بريطانيا مثل انتشار جُزر سپورادس Sporades حول بلادنا. كانت خالية من البشر وبعضها يسمّى بجزر الجبابرة أو الجانّ. أرسل الإمبراطور شخصاً يدعى ديمتريوس لاستكشافها (لا بدّ أن يكون الإمبراطور كاليگولا او كلوديوس[١٣] بحساب الزمن) فبلغ الرحّالة إحدى الجزر المجاورة لمجموعة الجزر المجهولة، وكانت مأهولة بقليل من البريطون (كان سائر قومهم يرهبونهم وينزلونهم منزلة القداسة). وما إن احتوته الجزيرة حتى أظلم الجوّ واضطرب وظهرت أشباح غريبة فيه. وأثارت الريح عاصفة هوجاء وظهرت سحبٌ بلوريٌّ ناريّ ودوّامات ريح ترقص متجهة نحو اليابسة. وبعد أن زالت هذه المظاهر العجيبة أعلمه سكان الجزيرة بأن أحد الكائنات الأثيرية التي هي أسمى من بني جلدتنا البشر قد توقفت عن الحياة وتلاشت. فهؤلاء الجبابرة كالشمعة، في حياتها تعطي ضياءً جميلاً نافعاً أثناء اتقادها، ولكن يثور ثائرها وتضجّ وتنقلب شرّاً ووبالاً عندما تدنو من النهاية ويخبو ضياؤها. في حياتهم يضيئون لنا وينعمون علينا بالخير والبركة. ولكن ما إن تدركهم ساعة الفناء حتى يقلبوا الدنيا عاليها سافلها ويثيروا العواصف ويفسدوا الجوّ

(١٣) في زمن متأخر عن هذا بكثير دون شك.

بالأبخرة القتّالة. ما من شكّ في أن المؤلّف يقصد بهؤلاء المخلوقات ما عُرف عندنا بـ«درِويد» Driud الذين هم أقرب إلى الفيثاغوريين من أي طائفة أخرى. وقد تكون فكرة الجن هذه واحدة من عقائدهم. على أنه ليس من الأكيد أن كلّ «الجن» أشرارٌ على هذا القياس. والأشرار منهم هم أولئك الذين قُضي عليهم أن يتقمّصوا الأجسام البشرية بسبب سوء تصرّفاتهم وهم في حالتهم الأثيرية... ولكن حان الوقت لنخلف موضوعاً حافلاً بالخيال والخرافة خالياً من المعقول. وإني لأهمّ بأن أتصوّر الأبخرة الطبيعية والغازات المتصاعدة من الكهف حيث كان المعبد قد بُنيَ ربّما كانت هي المؤثرة على نفوس كل من يدخله. كما أثرت على الراعي كوريتاس Coretas الذي كان أول من اكتشفها بمحض الصدفة وعزاها إلى حماسة النبوءة، ورعشات وحيها. حتى أنه لما تضاءلت قوة هذه الأبخرة وكانت عادة تتجمّع في الكهوف (ككهف موبيوس، وتروفينيوس، ودلفوس) صار الوحي يتناقص بالقياس نفسه. وصادف أن كانت أقوى من العادة عندما قتلت كاهنة بيثياس التي شعرت بحقيقة الأمر فامتنعت عن الدخول. أما وأن الوحي لم يعد ينزل بصيغةٍ شعرية فلأن الشعراء عافوا مهنة الكهانة. وأما جنيّ سقراط (وقد أقرّ سقراط أنه لم يره قط بل كان يسمعه من جوفه ولايحسّ به الآخرون) فهو ليس إلاّ مظهراً لقوة خياله، أو هو «ملاكه الحارس» إذا استخدمنا التعبير المسيحي الأفلاطوني. إن الفقرة الأخيرة من سيرة حياة المؤلّف قد تصلح خاتمة لهذه المقدمة. قال درايدن: والآن وبالكبرياء والتعاظم الذي تعوّده كتّاب المقدمات الهولنديون، يمكننا أن نقلّد مؤلفنا آيات المديح والثناء. ذلك لأن الكتّاب، القدماء منهم والمحدثين، ذكروه بالتجلّة والتكريم. لكن ملء الصحائف بهذا النوع من البضاعة من شأنه أن يشيع عدم الثقة في نفس القارئ فيتوهّم أن پلوتارخ بحاجة إلى هذا، إن روالدوس على أية حال جمع الوافر من هذه الأقوال وممن جمع لهم سأذكر فحسب أسماء جيليوس ويوسيفوس وهيميريوس السوفسطائي ويُوناپيوس وكيريللوس الإسكندراني وثيودوريت وجوهانس ساريبرنسس Sohannes Sarieberiensis وبترارك الشهير وبطرس فكتوريوس وجوستوس لپسيوس.

إلا أن [ثيودوروس غازا، وهو رحل واسع الاطلاع في اللاتينية ومن أعظم النقلة الأغريق الذين عاشوا قبل أكثر من قرنين، يستأهل مِنّا أن نثبت له هنا تقريظهُ الحرفي، فالآخرون أجزلوا الثناء على پلوتارخ دون غيره، في حين أن هذا الباحث رفعه على الجميع. وإليك ما كتب:

«قيل إن أحد أصدقائه طرح عليه هذا السؤال المغرق في الخيال والمبالغة:

إذا تعرّض التراث الفكري كلّه لخطر الغرق، فأعطي له حق خيارٍ واحدٍ باستنقاذ آثار مؤلّف واحدٍ، فمن سيقع عليه أختياره؟ فأجاب: اختار پلوتارخ. ولعلّه معذور في قوله هذا. إذ بإنقاذ آثار هذا المؤلّف يكون قد حفظ خير مجموعة منها...».

إن مديح أغاثياس Agathias هو أيضاً يستحقّ تنويهاً. لقد نبغ هذا الكاتب في حدود المئة الخامسة للميلاد على عهد الإمبراطور جُستينيان. والأبيات مذكورة في «الشذرات الأدبية Amthologia» وبترجمتنا لها هنا أختم على كاتبنا. ولا يفوتني التنبيه بأنها نظمت لتنقش على تمثال يقيمه له الرومان إحياءً لذاكره:

يا پلوتارخ الخيروني، إن تمثال الشكر هذا أقامته روما ذات المجد العسكري العظيم تكريماً لذكراك الخالدة. فهي وبلاد اليونان شاركتا في شهرتك معاً. (فلقد كتبتَ سِيَر أبطالهما وقارنت فيما بينهما).

لكنك لم تستطع أنت أن تكتب سيرتك، إن لِسِيَرهم أقراناً أما سيرتك فما لها قرين.

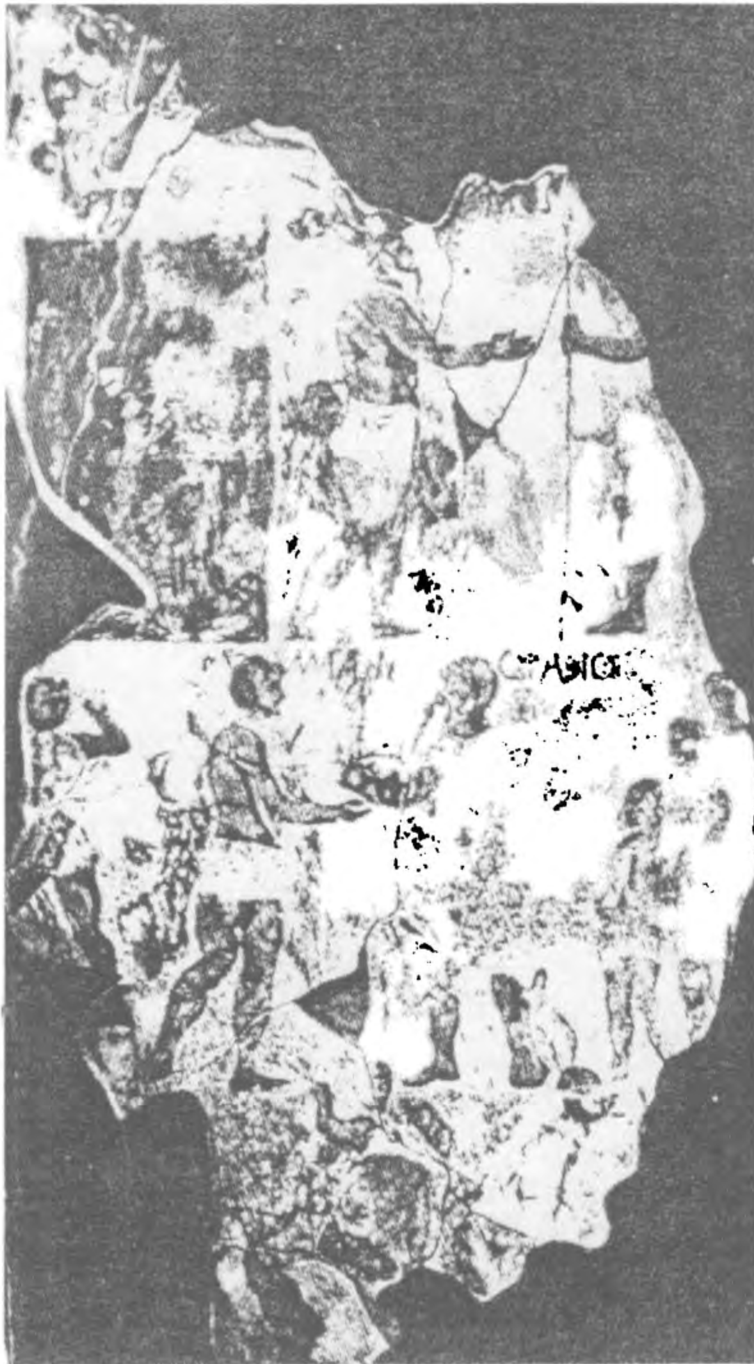
ثبتٌ بالترجمات

النص الأصلي: الطبعة الأولى (طبعة فلورنسا. آب ١٥١٧). الطبعات التالية: شيفر Shaefer ١٨١٢-١٨١٨ و١٨٢٥-١٨٣٠، سنتينس Sintenes ١٨٣٩-١٩٤٦ و١٨٨٤-١٨٨٨، دوينر Doehner ١٨٤٦-١٨٥٥، بكّر Bekker ١٨٥٥-١٨٥٧.

الترجمات: سر توماس نورث Sir Thomas North، من النص الفرنسي المترجم بقلم جيمس آميو James Amyot في ١٥٧٥ و١٥٧٩ و١٥٩٥. (مع سِيَر إضافية)؛ طبعات تالية: وطبعة ١٦٧٦ هي آخر ترجمة كاملة، نشرت بمقدمة لجورج وندهام G. Windham. ثم ترجمة ثيودر في ١٨٩٥؛ بقلم و. هـ. د. روس W. H. D. Rouse. «معبد پلوتارخ» عشرة مجلدات في ١٨٩٨ و١٨٩٩؛ منتخبات لشرح مسرحيات شكسبير مع تعليقات وفهرست أبجدي إلخ... بقلم و. و. سكيت W. W. Skeat سنة ١٨٧٥؛ وترجمة لجماعة من الكتّاب مع مقدمة لدرايدن في سيرة حياة پلوتارخ (الترجمة تسمّى عادة باسم درايدن)، ١٦٨٣-١٦٨٦. وهنالك طبعات عديدة تالية أهمها تلك التي عملها ونقّحها كثيراً أرثر هيو كلو Arthur Hugh Clough، ١٨٦٤-١٨٧٦. وترجمة و. لانگهورن W. Langhorne، ١٧٧٠. طبعات تالية: ف. رانگهام F. W. Rangham، ١٨٤٦، بوهن Bohn، ١٨٥٣، دار كاندوس كلاسيك

Chandos Classies، ١٨٨٤، دار كاميلوت كلاسيك Camelot Classic (مختارات) ١٨٨٦، لوبوك من الكتب المئة، رقم ٣٩. ترجمة بقلم أ. ستيوارت A. Steuart وغ. لونگ G. Long، مع سيرة پلوتارخ. طبعة مكتبه ستاندارد - بوهن، ١٨٨٠-١٨٨٢.

الترجمة الإنكليزية التي نقلنا عنها ترجمتنا العربية هي طبعة جديدة، لـ[كلو] كما نشرت في ١٨٦٤، وتتضمّن مقدمته الأصلية مع إضافات من عندي نتيجة مراجعات ترجمات أخرى. واستطرادات منقولة عن مقدمات أخرى لتراجم انكليزية وفرنسية. أخصّ منها بالذكر إصدارات دار نشر بنگوين بأربعة أجزاء فهذه التي قام بها إيان سكوت كلڤرت Ian Scott Kilvert تناولت جزءاً عنوانه «قيام وسقوط أثينا» وتضمّ سِيَر تيسيوس وصولون وتيموستوكلس وأرستيدس وكيمون وپركليس ونيفياس وألكيپاديس وليساندر، وجزءاً آخر أعطي عنوان «بُناة روما» تناول فيه سِيَر كلّ من كريولانوس وفابيوس ماكسيموس ومارچللوس وكاتو الأكبر وطيبيريوس كراسوس، وگايوس گراسون وسرتوريوس، وبروتوس ومارك أنطوني. كذلك ظهر لعين المترجم مجلّد آخر بعنوان «عصر الإسكندر» وضمّ سِيَر أسخيلاوس، وپيلوپيداس، وديون وديموستينس وفوكيون وألكساندر (الإسكندر المقدوني) وديمتريوس وپيروس. أمّا الجزء الرابع وعنوانه «سقوط الجمهورية الرومانية» فهو من ترجمة ريكس وارنر Rex Warner وتناول سِيَر ماريوس وسوللا وكراسوس، وپومپي ويوليوس قيصر وشيشيرون. ويبلغ عدد السِّيَر في هذه المجلّدات الاربعة ٣٣ سيرة من أصل ٥٠ سيرة تكمل بها سِيَر المؤلف. وقد ترجمناها جميعاً مع التعليقات.



لوحة رومانية تعود إلى عام ٢٠٠ ق.م

ثيسيوس

THESEUS



ثيسيوس يقتل المينوتور - إناء أتّيكي

أي سوشيوس سينشيو Socius Senecio[1]

تعلم أني في كتابي هذا قد فعلت كما يفعل الجغرافيون[2] حين يجمعون في حوافّ خرائطهم أجزاء من العالم لايعرفون عنها شيئاً. فيضيفون حشوداً في الهامش مع هذا التفسير: «إن وراء هذا الحدّ لا يوجد إلاّ الصحارى الرملية التي تعجّ بالضواري، وليس غير المستنقعات التي يتعذّر اقتحامها، وأراضي الصيثيين [الصقالبة Scythians] المنجمدة، والبحر الثلجي». والآن فبتدويني كتاب السِّيَر المقارنة قد أخضت في دياجير تلك العهود التي قد يفلح العقل المستنير في بلوغها أو يجد التاريخ الصحيح موطئ قدم فيها. وبإمكاني القول مطمئناً عن تلك الشخصيات البعيدة جداً جداً «وراء هذا لا يوجد غير الأساطير والخرافات، وسكان تلك العهود لا يزيدون عن شعراء ومبدعي أساطير، ووراء ذلك لا يوجد شيء حقيقي ثابت». لكني فكرت بعد كتابتي سيرتيْ ليكورغوس المشترع، ونوما الملك، أن في وسعي الصعود حتى رومولوس بعد أن بلغت بتاريخي مرحلة قريبة جداً من عصره - وكانت تحدوني إلى هذا العمل أسباب وجيهة. ثم

---

(١) أحد الذين صادقهم بلوتارخ أثناء إقامته في روما، وأعظمهم نفوذاً. فقد تولّى منصب القنصلية أربع مرّات ما بين أعوام ٩٨-١٠٧. واعتاد بلوتارخ توجيه كثير من رسائله في الأخلاق إليه. وعلينا أن لا نخلط بينه وبين سينيشو الذي قتله دوميتيان لأنه دوّن سيرة هلفيديوس بريسكوس. وإلى الشخص عينه وجّه بلوتارخ أيضاً سيرتي ديموستينس وديون.

(٢) الجغرافيون أو المؤرّخون كما ورد في الأصل. وليلاحظ أن الجغرافيين الأوائل لم يكونوا يقنعون بإثبات المواقع والمسافات، بل يبحثون في الأحداث والعادات والأخلاق وأنظمة الحكم. ومن أمثال هؤلاء سترابون وباوسنياس. وحول تيسيوس وتاريخه فالمؤرخون على خلاف. فلوح أكسفورد مثلاً يعني اتحاد المقاطعات الأتيكية وتأسيس الألعاب الأستمية في ١٢٥٩ ق.م وبلير Blair يحدد تاريخ هذين الحدثين في ١٢٣٤ ق.م أي بعد حملته على كريت بسبع عشر سنة.

سألت نفسي كما تساءل أسخيلوس: «بهذا المقاتل البطل من يجرؤ على النزال؟ ومن أضع بمواجهته ومن يكون نداً له؟[٣]».

ولم أجد له صنواً غير ذلك الذي عمر مدينة أثينا الجميلة الطائرة الصيت وملأها بالناس، لأضعه مقابل أب مدينة روما الشهيرة المنيعة. ولنأمل أن تخضع الأسطورة في حديثنا إلى عملية غربلة عقلية بحيث تأخذ شكل التاريخ الصحيح. وعلى أية حالٍ فحيثما يوجد من الأساطير ما يستعصي على المنطق السليم، ويأبى أن يتحوّل إلى أي شيء قريب من الحوادث المحتملة، ليس لنا إلاّ أن نرجو العثور على قراء كرماء يتقبلون أساطير القدماء برحابة صدر وإغضاء. ويبدو ثيسيوس شبيهاً برومولوس من نواحٍ كثيرة. فكلاهما لم يكن ثمرة زواج شرعي، وكلاهما مطعون في نسبه، وكلاهما اشتهر بانحداره من عِترة الآلهة و. . .

«كلاهما محاربٌ ولا أحد ينكر ذلك[٤]».

كلاهما امتاز بقوة في الجسم ومضاء في العقل متساوٍ. أحدهما بنى روما وثانيهما ملأ آثينا بالسكان، وروما وأثينا أشهر مدينتين في العالم طراً، واتهم كلاهما باختطاف النساء ولم يخلصا في وطنيهما من النوائب العائلية ولا من الكيد. وتعرّضا معاً لسخط بني قومهما قبل أن ينتهي بهما العمر؛ هذا إذا اتخذنا من الحكايات الشعرية الخيالية دليلاً إلى الحقيقة.

ترتفع شجرة نسل ثيسيوس من جهة الأب حتى تصل إلى إرخثيوس Erechtheus[٥] وإلى أقدم من سكن أتيكا Attica. أما من جهة أمه فهو سليل پيلوپس Pelops[٦] وكان هذا أقوى كل ملوك البلوپونيسوس Peloponnesus لا بما يملك من مال، بل بكثرة ما لديه من أولاد. لأنه تزوّج بنات عدد كبير من الزعماء، وولّى عدداً

---

(٣) «سبعة ضدّ ثيبة» ص ٤٣٥، ٣٩٥.

(٤) الالياذة ٧: ٢٨١. عن تيلامون وهكتور.

(٥) فهو الجيل السادس المنحدر من صلب أرخيتوس. وقيل إنه ابن فولكان ومينرڤا أو كراناي Cranae حفيدة كراناؤس ثاني ملك في أثينا. لذلك كان پلوتارخ محقاً في قوله إنه من صلب أوتو خوثونس. أو أن سكان أتيكا الأوائل سُمّوا بهذا لأنهم يدعون بولادتهم من تربة البلاد، [هيرودوتس وتوكيديدس].

(٦) ابن تانتالوس Tantalus من أصلٍ فريجي هاجر إلى أتيكا حاملاً ثروة كبيرة جمعها من تنقيبه في مناجم بالقرب من سيپلوس. وبفضل ثروته هذه ضمن لأبنائه حكم أضخم المدن وأكبرها وكانوا أحد عشر. كما أنه زوّج بنيته لأميرين فكانت ليسيديسي زوجاً (الكتريون) أو نسطور ابن پرسيوس ملك تيرنثس. وكانت أستيداميا زوجاً لستنيلوس ملك ميسين.

كبيراً من أولاده حكم البلدان التي تجاور مملكته. ومن بين أولاده پتيوس Pittheus جدّ ثيسيوس، وكان مؤسّس مدينة صغيرة يسكنها قوم الطراويزينيين Troezenian[(٧)]. وعُرف بإحاطته بكل الحكمة والمعرفة التي وصل إليها عصره. ويبدو أنها تتألف من مبادئ الأخلاق أساساً. ومنها نال هسيود الشاعر شهرته في كتابه «الأعمال والأيام» وبين ما يتضمنه في الواقع بيت يُعزى إلى پتيوس وهو «إن المكافأة التي يوعد بها صديق عزيز يجب أن تكون أكيدة وكبيرة[(٨)]، أو كما جاء في أرسطو[(٩)] وكذلك يوريپدس عن رأي الناس فيه، عندما يصف هيپّوليتوس Hippolytus بأنه «تلميذ پتيوس الآلهي!»[(١٠)].

كان إيجيوس ملك أثينا يصبو إلى عقبٍ، فاستخار في ذلك الكاهنة البِيثية وجاءته النبوءة الشهيرة وكانت غامضة جداً، فلم يكن على ثقة بأنه ممنوعٌ من الجماع بصورة باتّة، فقصد طراويزين وألقى على أسماع پتيوس صيغة النبوءة وهي كالآتي:

لا تحلّ عنق زِقّ الخمر البارز يا زعيم الرجال العظيم حتى تعود إلى أثينا مرة أخرى[(١١)]

الظاهر أن پيثيوس فهم معنى النبوءة. فإما أقنعه أو أغراه بمضاجعة إيثرا Aethra بنته، وعلم إيجيوس فيما بعد أن من ضاجعها هي بنت پيتيوس. ولشكّه في أنها علقت منه ترك سيفاً وزوج نعالٍ في محل خفاء تحت صخرة عظيمة فيها تجويف بمقدارها تماماً. ثم ودّعها بعد أن أطلعها على السِرّ وحدها. وأوصاها في حالة وضعها طفلاً ذكراً أن تخبره بحقيقة نسبه عندما يبلغ مبلغ الرجال ويكون قادراً على زحزحة الصخرة واستخراج ما أخفاه، وأن تبعث به مع هذه التذكارات إليه وأن تكتم الأمر عن كل أحدٍ وتوصيه أن يخفي أمر رحلته هذه قدر الإمكان لخوفه عليه من الپالانتيين الدائمي الثورة عليه. فهؤلاء كانوا يزورونه لأنه بدون عقبٍ، وكانوا هم أنفسهم خمسين أخاً كلهمْ من

---

(٧) ترُوْيزينه: مدينة صغيرة أرغوليسية تقع على ساحل خليج سارون قبالة أثينا في الپلوپونيس. وپاوسنياس يتفق تقريباً مع الرواية نفسها ويقول إنه عَلَم الفصاحة في ترويزينه ويضيف «لقد قرأت كتاباً من تأليفه، أعطانيه رجل في أپيداروس» [ج ٢ ص ٣٠ و٣١].

(٨) عاش هسيود في حدود خمسة قرون بعد بثيوس. وهذا المقطع هو رقم ٣٧١.

(٩) المقطع رقم ٥٥٦.

(١٠) هيپوليتوس ١١.

(١١) المرجع السالف يوريپدس: ميديا ٦٧٤ و٦٧٦.

صلب باللاس Pallas[١٢] أبيهم. وأخيراً بعد توصيته هذه ترك إيثرا. ووضعت إيثرا[١٣] ذكراً. وقال بعض الكتاب إنه سُمّي ثيسيوس في الحال تيمّناً بالتذكار[١٤] الذي تركه أبوه تحت الصخرة. وزعم آخرون أن هذا الاسم لحق به في أثينا بعد أن أقرّ إيجيوس بنوّته. ومهما يكن من أمرٍ فإن الابن نشأ في رعاية جدّه پتيّوس حتى عيّن له كونيداس Connidas مربّياً وحارساً. والأثينيون حتى يومنا هذا يقدّمون له كبشاً في اليوم[١٥] السابق للعيد المخصص لثيسيوس ويكرمونه أكثر من سيلانيون Silanion وپاراسيوس Parrhasius[١٦] اللذين عملا لثيسيوس تماثيل وصوراً منحوتة. وهم في ذلك محقّون.

كان العُرف السائد في بلاد اليونان يومئذ أن يقصد الشاب دلفي عندما يبلغ الحُلُم، ويقرّب للرّب أول ثمار شعره النامي. وكذا فعل ثيسيوس. (هناك موضع ما زال يحمل اسمه يقال إنه سُمّي كذلك خصيصاً).

وجَزّ ناصيته فحسب، مثلما عمل الأبانتيون Abantes[١٧] على ما يقول

---

(١٢) باللاس هو أخ لإيجيوس. ولما كان قد حكم على إيجيوس بألاّ ينسل فقد اعتبر البالانتيوي مملكة أثينا ميراثهم الذي لا نزاع فيه.

(١٣) يقول پاوسانياس إنه ولد في موضع دُعي آنذاك وبعده لزمن طويل بـ«جِنِثِلِيُون» وهو قريب من ترويزينه. وإليه أرسل بثيوس ابنته لتعزو الطفل إلى بتون.

(١٤) اليونان كالآراميين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة يسمّون الأشخاص والأشياء بصفات الأحداث والوقائع والظروف التي يتفق وقوعها مع الظهور أو الولادة. والكلمة اليونانية «بتيوس» تعني (وضع) وجملة «بتباونوگ» معناها «تبنّى ولداً». وقد فعل إيجيوس الشيئين وكانت مراسيم التبني ضرورية لإعانة تيسيوس على وراثة العرش. فهو ابن غير شرعي.

(١٥) ومن هنا كان المثل اليوناني «لا يمكن الوفاء بدين المعلّم الاّ بتقديم أعظم التكريم له».

(١٦) كانت ثمّ صورة لتيسيوس في الكاپتول من عمل باراسيوس تمثل معركته مع المونيتاور بقيت حتى زمن پليني: [تاريخ الطبيعة ٣٥:١٠] هذا الرسام الشهير عاش في حدود القرن الرابع ق.م. وأمّا سيلانيون فهو مثال برونز معروف كان معاصراً للإسكندر المقدوني تقريباً.

(١٧) الأبانتيون: سكان أوبويا إلاّ أن أصلهم من أباي وهي مدينة في تركيا. من هذه العبارة يبدو أن پلوتارخ إنما يشير إلى العادة التي تعود إلى زمن أبعد بكثير من زمن تيسيوس. إلاّ أن يوستاتيوس يزعم أن تيسيوس هو الذي استحدث العادة ويقول إن التقدمة لم تكن في دلفي بل في ديلوس، وإنها قاصرة على الطراويزينيين. وبعد عهد تيسيوس بدا واضحاً من لوشيان أن العادة فرضت تكريماً لهيپوليتس على الجنسين بوصفها إجراء ضرورياً لإتمام الزواج. في طور الرجولة يُجزّ الشعر الذي يبقى ذلك الحين مرسلاً في الهيكل ويوضع في وعاء فضيّ أو ذهبي يحفر عليه اسم صاحبه ويكون من أوقاف أپوللو.

هوميروس[١٨]. وأطلق على هذه الطريقة في قصّ شعر الرأس اسمه أيضاً. على أن الأبانتيين كانوا قد اتخذوه زِيّاً لهم لا تقليداً للعرب كما يتصور بعضهم، ولا للميسيين Mzsians كما زعم بعضهم وإنما لكونهم قوماً محاربين تعودوا القتال وجهاً لوجهٍ وامتازوا عن سائر الأقوام بأنهم يشتبكون بالأيدي مع أعدائهم كما شهد لهم أرخيلوخوس Archilochus[١٩] بأبياته التالية:

«لا مجال ثمّ لدوران المقالع في الهواء. ولا فُسحة لشدّ القوس عندما يقدم آرس المخيف يخطر ليشارك في مثار النقع هناك في السهل فهذا قتال التلاحم بالأيدي وهؤلاء الرجال هم منه أساتذته. سادة أوبويا الرمّاحة الذين طبّق ذكرهم الآفاق»

وأسلوبهم هذا في القتال أوجب عليهم أن يجزّوا نواصِيَهم حتى لا يمكّنوا أعداءهم منها. والمؤرخون يذكرون أيضاً أن هذا السبب هو الذي حدا بالإسكندر المقدوني أن يأمر رؤساء جيشه بحلق لِحى المقدونيين كافة، لأنها نقطة ضعف فيهم، قد يستفيد منها العدوّ...

ظلّت إيثرا تكتم حقيقة نسب ثيسيوس طوال طفولته. وأعلن جدّه پتيوس للناس أن الوليد هو لقح نُطفة الرب بوسيدون [نبتون].

لنبتون عند الطراويزنيين مكانة خاصة لاتعدلها مكانة ربّ آخر فهو الإله المعلّم المرشد لهم. وإليه يقدّمون أولى ثمارهم، وهم ينقشون على نقودهم صورة رمحٍ ذي ثلاث شُعبٍ تكريماً له.

وأظهر ثيسيوس قوة جسم خارقة وبأساً ومِراساً وخفّة وعقلاً وفهماً مساوياً لتلك القوة. وأخذته أمه إلى الصخرة وهناك أفضت إليه باسم أبيه وأمرته أن يزحزح الصخرة ويستخرج من جوفها تذكاري أبيه إيجيوس. فأقبل على الصخرة دون تردد ولم يلقَ صعوبة تذكر في رفعها[٢٠]، لكنه رفض أن يقوم برحلته بحراً وإن كانت أسلم وسيلة للسفر - ورغم رجاء أمّه وجدّه ففي ذلك الزمن كان الطريق البريّ إلى أثينا محفوفاً

---

(١٨) الإلياذة ٢: ٥٤٢، ٥٤١.

(١٩) شاعر إغريقي عاش في حدود منتصف القرن الثامن (ق.م.) وكان هوميروس قد تكلم بعين هذا عن الأبانيتين قبله بثلاثمائة سنة. (راجع الحاشية السابقة) حيث يقول إن الأبانتيين خرقوا دروع أعدائهم برماح طويلة، أعني أنهم التحموا معهم بالأيدي.

(٢٠) منذ ذلك الحين باتت تدعى بـ«صخرة تيسيوس» وكانت تُعرف قبلاً باسم «مذبح جوپتر ستينيوس».

بالأخطار والمكاره الجسام ليس فيه جزء خلا من قتلة وقطّاع طُرق. في ذلك العصر نجم صنف من الرجال تميّزوا بقوة الساعد وخفة القدم وشدة العضل وتفوّقوا في هذه المظاهر الجسمانية على البشر العاديين فلم يعرفوا للتعب معنى، وأبوا استخدام هذه الطاقات العظيمة من نِعم الطبيعة في غايات سامية تمتّ إلى الخير وتعمل لمنفعة البشر، وإنما اتخذوا الاعتداء والإرهاب دَيدناً وجعلوهما مصدر استمتاعٍ وتبجّح. وأعانتهم قواهم الخارقة على ممارسة أعمال القسوة واللاإنسانية وصرفوا تلكَ الطاقات في النهب والسلب والغصب وارتكاب كل المحرّمات بحق كل من يقع في أيديهم. وفي رأيهم أن احترام الآخرين، والتمسك بأهداب العدل، والمساواة والإنسانية، وهي موضع إجلال الناس العاديين، إنما تعود إلى افتقار أولئك إلى عنصر الإقدام والقدرة على الأذيّة، أو إلى خوفهم من التعرّض للأذى. وهي مما لا شأن به لأولئك الذين بلغت قوتهم حداً تُشبع به مطامعهم وتُرضي غرائزهم. وكان هرقل قد قضى على طائفة من هؤلاء، فبطش بهم أثناء مروره في تلك البقاع، وأغفل بعضهم فهربوا وأخفوا أنفسهم عنه، فتغاضى عنهم احتقاراً لخضوعهم الذليل. ثم ركبت هرقل المصائب فانشغل بها. وبعد أن قتل إيفيتوس Iphitus عاد إلى ليديا وظلّ فيها عبداً رقيقاً لأومفاله Omphale[٢١] بمثابة عقوبة فرضها هو على نفسه لارتكابه جريمة القتل تلك. وفي هذه الفترة التي قضاها هناك تمتعت بلاد ليديا بعهد من الأمن والطمأنينة لا مثيل لهما. على أن الحياة دبّ دبيبها في أولئك الأوغاد وانتشروا ثانية في بلاد اليونان والأنحاء المجاورة، وانطلقوا يعيثون فيها فساداً ولم يكن هناك رادع يردعهم، ولا أحد ينزل بهم العقاب. ولذلك كانت الرحلة البرية بين أثينا وپيلوپونيسوس محفوفة بأعظم المخاطر. وحاول الجدّ ثيسيوس ثنيه عن عزمه السفر براً بشرحه أعمال كلّ واحدٍ من الأشرار وقطّاع الطرق وبيان قوّتهم وأفانين قسوتهم التي يمارسونها ضدّ المسافرين علّه يقنع بالسفر بحراً. لكن يظهر أن ثيسيوس كان متأثراً منذ زمن بعيد بمآثر هرقل وأعماله المجيدة وكان يُنزله منزلة من الإكبار لا مزيد عليها. ولم يكن يسرّه شيءٌ أكثر من إصغائه إلى

(٢١) القتلة يختارون النفي لأنفسهم عادةً ويفرضون على أنفسهم نوعاً من العقوبة يمارسونها حتى تحصل لديهم القناعة بأنهم استوفوا حظهم. لقد قذف هرقل إيفيتيوس ظلماً من فوق أسوار تيرنثوس لأن أباه يوريتوس نقض العهد معه إذ وعده بابنته إيولي زوجاً بشروط معيّنة فاستجار هرقل بنيلوس أولاً فلم يجره. ثم نجح في مسعاه مع ديوفوبوس. لكنه بقي يعاني مرضاً عُضالاً. فاستخار (دلفي) فنُبّه بأنّ عليه أن يبقى رهن العبودية ثلاث سنوات ليتحقق له الشفاء. ولذلك قام عطارد ببيعه لملكة ليديا.

كل من يروي طرفاً من وقائعه، وخصوصاً أولئك الذين رأوا بأمّ العين أو كانوا شاهدي عيانِ عملٍ قام به أو سامعي أيّ قول قاله. وتملّك ثيسيوس الشعور الذي انتاب تيموستوكلس[٢٢] بعده بأحقاب، عندما قال إن النوم يعزّ عليه إلاّ بعد أن يحوز شِكّة سلاح ملتيادس Miltiades. وبلغ أعجابه بخصال هرقل مبلغاً عظيماً حتى أن أحلام ليله كانت تدور كلها حول أعمال ذلك البطل. وفي أثناء النهار كانت رغبته المستقرة في تقليد تلك الأعمال تدفعه دفعاً إلى القيام بمثيلاتها.

زد على هذا أنه ذُكر أن هذين البطلين يمتّان أحدهما إلى الآخر بصلة رحِم. لأن إيثرا هي بنت پتيوس وألكمينا Alcmena هي بنت لسيديسي Lycidice وپتيوس أخ للأخيرة، وكلاهما ولدا هيپوداميا وپيلوپس. لذلك لم يحتمل ثيسيوس أن يصول هرقل ويجول في طول البلاد وعرضها يطهّر البرّ والبحر من الأشرار بينما يتهرّب هو من مثل هذه المغامرات التي جاءته منقادة من تلقاء نفسها، ولم ير هذا مما يشرّفه وإنما يُلحق العار بسُمعة أبيه الشهير، بفراره المخزي عن طريق البحر فلا يستطيع أن يقدّم بمآثره وجلائله برهاناً لأبيه الحقيقي على عظمة ميلاده، بدلاً من برهان السيف والنعلين.

فانطلق تحدوه هذه الغاية وتملأ نفسه تلك الأفكار. عازماً على أن لا يُلحق بأحد سوءاً، بل أن يقاتل كل من يعترض سبيله متحدّياً، وأن ينتصف لنفسه ممن ينوي به شرّاً. وكان أول من بطش به پرفيتس Periphetes في معركة فردية جرت بالقرب من أپيداوروس Epidaurus[٢٣] وكان خصمه يستخدم الهراوة سلاحاً. ومن يومها لصق بثيسيوس لقب كورينتس Corynetes أي حامل الهراوة. وكان القتيل قد اعترض سبيله وحال بينه وبين السير. لقد راقت له تلك الهراوة فجعلها سلاحه واستخدمها كما استخدم هرقل جلد الأسد بإلقائه على مَنْكِبَيه ليُظهر مبلغ ضخامة الوحش الذي بطش به. فحمل ثيسيوس الهراوة لهذا السبب وأصبحت أقوى سلاح في يده، وأنّه كان قد قهرها وهي في يد صاحبها.

ومضى في رحلته حتى برزخ پيلوپونيسوس وهناك فتك بالمدعو سنيس Sinnis المعروف بلقب «لَوّاء جذوع أشجار الصنوبر»[٢٤] (مأخوذاً من طريقته في القضاء على

---

(٢٢) انظر سيرة تيموستوكلس.

(٢٣) منطقة في الپلوپونيسس.

(٢٤) لقب بذلك لأنه كان قد ثنى رأسي شجرتي صنوبر وشد المسافرين اليهما فإذا أطلقا ليعودا إلى وضعهما تمزق المربوط بهما إلى اشلاء. إن پاوسانياس، فضلاً عن أوفيد ٤٠: ٧، يسمّيه سينس ويقول إن واحدة من هاتين الشجرتين بقيت حتى عهد الإمبراطور الروماني هادريان.

ضحاياه الكثيرين) فقتله بالطريقة نفسها، دون أن يسبق له ممارسة ذلك من قبل. وفي هذا برهان على أن القوى الطبيعية هي فوق كل فن وخبرة. وكان لسينيس هذا بنت في غاية الجمال تدعى پيريغونه Perigune عندما سقط أبوها قتيلاً هربت لا تلوي فلحق بها ثيسيوس باحثاً عنها في كل مكان. وبلغ بها المطاف موضعاً تنمو فيه الشجيرات والطّرفاء والشوك، فراحت الهاربة تتضرّع إلى النبتات ببراءة الطفولة لكي تخفيها عن مطاردها - كأن للنبات عقلاً يدرك! - ونذرت إن نجت ألا تقطعها ولاتحرقها إلاّ ان ثيسيوس ناداها ووعدها أن يعاملها باحترام ولا يلحق بها أذية. فخرجت إليه من الدغل. وبعد اكتمال أيامها وضعت له ابناً عُرف باسم ميلانيپوس Melanippus. على أنها تزوجت فيما بعد ديونيوس Deioneus ابن يوريتوس Eurytus الأوخالياني، وثيسيوس هو الذي زوّجه إياها. إن إيوركسوس Iorxus ابن ميلانيپوس ولد ثيسيوس رافق أورنتوس Ornytus مع من رافقه من المستعمرين إلى كاريا Caria وقد اعتادت أسرة الإيوكسيدس Ioxids المنحدرة من صلبه ألاّ يحرق نساؤهم أو رجالهم شوكاً أو طرفاء إجلالاً وتكريماً لهذا النبات وإيفاء بنذر أمهّم.

كانت الخنزيرة المسمّاة[٢٥] فيا Phaea وحشاً ضارياً هائل الجثة، وخصماً لايستهان بأمره قط وقد عاثت فساداً في كريميون، لكن ثيسيوس انحرف عن سبيله قصداً ليلقاها ويقاتلها ويفتك بها[٢٦] حتى يبرهن أنه لا يقوم بكلّ مغامراته بدافع الحاجة. ومن رأيه أن معاقبة الأشرار والمعتدين الذين يعترضون سبيله إنما هو جزءٌ من واجب الرجل المقدام، وأن عليه فضلاً عن ذلك البحث عن الضواري والوحوش المفترسة الهائلة والبطش بها. إن بعض الكتّاب يزعمون أن فيا كانت قاطعة طريق تعيش في كريميون شديدة القسوة كثيرة الطمع، ولُقّبت بالخنزيرة لقذارة عيشتها وانحطاط خلقها وقد قتلها ثيسيوس فيما بعد.

كذلك قتل سكيرون على حدود ميغارا أو قذف به إلى الهاوية من فوق الصخور. وكان هذا كما زعم معظم الكتاب لصّاً سيّئ الصيت يتعرّض لكلّ المسافرين، وروى بعضهم أنه كان يمدّ قدميه طالباً من عابري السبيل أن يغسلوهما، وفيما هم يفعلون

(٢٥) باليونانية تعني: ذات اللون الغامق. ويقول سترابو إن هذه الخنزيرة ولدت الخنزير الكاليدوني الذي فتك به ملياجر. وكروميون تقع على الحدود التي تفصل كورنث عن ميغارا.

(٢٦) في هذه الحادثة يبدو أن بطلنا حاد عن مبدئه الذي انطلق من أجل تحقيقه وهو أن لا يكون الجانب المعتدي في نزالٍ. كانت الخنزيرة الوحشية على أية حال أكثر احتراماً من إحناء شجرتي الصنوبر.

ذلك يركلهم فيقذف بهم من الصخور إلى البحر شراً منه وشراسة. على أن كتّاب ميغارا «يتحدّون كل الأخبار القديمة» في نقض هذه الرواية ويقولون ومنهم سيمونيدس Simonides إن سكيرون لم يكن قاطع طريق ولا رجل شِرّ وعنف بل خصماً وعدوّاً لهؤلاء الأشرار وصديقاً للناس الأخيار. ويقولون إثباتاً لذلك إنّ أياكوس Aeacus كان رجلاً عظيم القداسة، وهو موضع احترام جميع اليونانيين، كما أن صخريوس Cychreus السلاميسي يجلّه الأثينيون ويعبدونه عبادة الأرباب، وأن فضائل پيليوس Peleus وتيلامون Telamon ليست بالمجهولة من أحدٍ. وسكيرون هذا هو زوج بنت سخيروس وحمو أياكوس وجَدّ پيليوس وتيلامون وكلاهما ابنا أندياس Endeis بنت سكيرون(٢٧) وخاريكلو Chariclo. وليس من المحتمل إذن أن يصاهر خير الرجال شرّهم ويتّحدوا بهم برابطة القرابة والنسب، يأذدون منه ويعطونه ما هو أغلى قيمة وأعزّ شيء في الحياة. وبحسب ما روى أولئك الكتّاب إن ثيسيوس لم يبطش بسكيرون في رحلته الأولى إلى أثينا، وإنما عندما استولى على اليوسس المدينة التي يقطنها الميغاريون بعد أن هزم حاكمها الأكبر ديوكلس Diogles.

تلك هي المتناقضات التي تجدها في الحكاية. وفي تلك المدينة أيضاً قتل كركسيون Cercyon الأركادي في نزال فردي فأرداه في الحال(٢٨). وسار حتى بلغ أرينيوس Erineus وفيها قتل داماستيس الملقّب بروكروستوس بإرغامه على جعل قبره بقدر جسمه كما اعتاد ذاك أن يفعل بكلّ ضحاياه. وبهذا سار على نهج هرقل الذي كان دائماً يذيق المعتدين عليه ما كانوا يقصدون أن يذيقوه لو ظفروا به. وذبح بوسيريس وقدّمه قُرباناً، وقتل آنيتوس في مصارعة فردية. وفتك بكيكنوس Cycnus(٢٩) في معركة واحدة حاسمة. وقضى على يترميروس بتكسير جمجمته قطعاً ومنها جاء المثل السائر «بليّة يترميروس»(٣٠)، فالظاهر أن يترميروس كان يقتل المسافرين بأن ينطحهم برأسه نطحاً.

(٢٧) إپيللودورس يجعلها ابنة خيرون، إلا أن زعم پلوتارخ هو الأصدق والأصح إذ إنه يدلي بحجّة منطقية لهذه الرابطة ويتفق مع پاوسنياس في ذلك.

(٢٨) ظلت البقعة تسمّى «سيكرون پالسترا» إلى زمن پاوسنياس. كان سيكرون أوّل من استخدم الأصول الفنية في المصارعة لكن مينرڤا ساعدت تيسيوس على الغلبة بفضل تدريبها له.

(٢٩) في النص الأصلي هرميونه والأرجح أن پلوتارخ مخطئ هنا إذ لا يُعرف ثم موضع بهذا الاسم أو ما يقرب منه. والمؤرخون بعد فيلوخورس يطلقون عليه اسم ترميونه. (في ترجمتي B. P. ودرايدن، أُثبتت كما أوردناها هنا في ترجمتنا العربية).

(٣٠) كتّابٌ آخرون يعزون إلى هذا المثل أصولاً أخرى، فكويداس يشتقه من موقع مستحكم في كاريا =

هكذا مضى ثيسيوس قُدماً في الاقتصاص من الأشرار. فأذاقهم ما كانوا قد أذاقوه للآخرين وجزاهم جزاءً وفاقاً عن كل المظالم التي اقترفوها.

وبوصوله نهر كفيسوس لقيته زمرة من قوم فيتالدي(٣١) وأقرأوه التحية ولبّوا طلبه في التطهّر كما قضت عادات تلك الأيام، وقاموا بالمراسيم المعتادة طبق المرام. وبعد أن قرّب قُربان الرضا للأرباب استضافوه وأدبوا له في بيتهم. فكان كرماً وعطفاً منهم لم يلق مثله منذ بدء رحلته حتى وصوله اليهم.

وبلغ أثينا في الثامن من شهر كرونيوس Cronius الذي يُسمّى الآن هيكاتومبيون Hecatombeon فوجد الأحوال العامة في غاية الاضطراب والمدينة منقسمة إلى حزبين وشيعتين، ولم يخلص إيجيوس وأسرته من هذه الفوضى والقلق. إذ كانت ميديا Medea تعايش إيجيوس بعد فرارها من كورنث وقد وعدته أنها ستجعله قادراً على إنجاب أولاد بقوة سحرها. وهذه المرأة هي أول من وقفت على سِرّ ثيسيوس الذي بقي أمره مجهولاً من إيجيوس حتى ذلك الزمن، وبما أنه بلغ من العمر عتياً وركبته الهواجس وتناهبه الشكّ والغيرة وملأ الخوف جوانب نفسه من كل صغيرة وكبيرة بسبب وجود الحزب المناوئ له في المدينة، فقد سهل على هذه المرأة إقناعه بقتل ثيسيوس بالسُمّ أثناء مأدبة كان سيحضرها بوصفه من الغرباء عن المدينة. وصل إلى موضع المأدبة وهو يميل إلى التريّث في كشف أمره، حتى يتيح لأبيه فرصة اكتشافه أولاً. وجيء باللحم ووُضِع فوق المائدة فانتضى ثيسيوس السيف كأنما يريد اقتطاع فلذة من اللحم، فتعرّف إيجيوس على التذكار حالاً ورمى بقدح السمّ. وبعد أن ألقى بضعة أسئلة على ابنه عانقه، وجمع كل مواطني المدينة واعترف علناً بأبوّته له. فرحّبوا هم به أيضاً لأن شهرته سبقته اليهم. وقيل إنه لما سقط قدح السمّ اندلق ما فيه فوق بقعة هي

= بين ميلوس وهلكارناسوس، يدعى ترميريوم استخدمه الطغاة بمثابة مطبق للمسجونين. أما أبوستوليوس فيعزوه إلى آخر أيام الحياة ويُسمّى ترميا.

(٣١) هؤلاء هم نسل فيتالوس الذي أفضت إليه سيريس الرّبة بسرّ زراعة شجرة التين والإشراف على أسرارها مكافأة له على حسن ضيافته لها في منزله. لم يجد تيسيوس نفسه مهيّئاً لاقتبال تلك الأسرار قبل التطهر ذلك لأن يديه كانتا مغموستين بالدم وإن كان دم اللصوص وقطاع الطرق. تطرّف الأقدمون في فكرة التطهر إلى أقصى حَدّ. حتى أن أبوللو نفسه أُرغم على القيام بمراسيم التطهر بعد قتله الأفعى بيثون التي ألحقت الدمار باليونان. وقد جرى تطهير تيسيوس في مذبح جوبتر قرب نهر كينسوس (انظر پاوسيناس ١ :٣٧).

الآن موضع مسوّر في دلفينيوم[٣٢]. وهي الأرض التي كان يقوم عليها منزل إيجيوس. أما تمثال مارس الذي هو في الجهة الشرقية من المعبد فيسمّى «تمثال مارس في باب إيجيوس».

كان أبناء پالاس قبل ظهور ثيسيوس قد أخلدوا إلى السكينة انتظاراً لموت إيجيوس لاستعادة الملك بدون عنفٍ لأنه لم يخلّف نسلاً. فلّما تقرر أن يخلفه ثيسيوس في الحكم ثار حنقهم واجتاحتهم الثورة: فهذا إيجيوس أولاً لا يعدو أن يكون ابناً متبنّى لپانديون Pandion[٣٣] ولا يمتّ بصلة قرابة لأسرة أرختيوس، يضبط الملك عنوةً واقتداراً، وذاك ثيسيوس الزائر الأجنبي الغريب عن الديار قُدّر له أن يخلفه في الملك!... لم يصبروا وأعلنوها حرباً، وقسموا جموعهم إلى قسمين: الأول زحف علناً على المدينة من سفيتوس Sphettus بقيادة أبيهم والثاني نصب كميناً في قرية غارغِتّس Gargettus قاصداً الإيقاع بالعدوّ من الجانبين. وكان مع هؤلاء منادي مدينة أغنوص المدعو ليوس Leos فأقبل على ثيسيوس وكشف له خطة الپالانتيد فما عتم أن فأجأ أولئك الكامنين وأبادهم عن بكرة أبيهم. ولما وصل نبأهم پالاس وزمرته هربوا وتفرقوا.

ومن هذا نشأت عادة عند أهالي مدينة پاللين Pallene على شائع القول وهي أن لا يرتبطوا بأي تحالف أو مصاهرة مع سكان قرية أغنوص وأن لايدعوا المنادين يلفظون في إعلاناتهم الكلمات الشائعة في كل أنحاء البلاد وهي «أكويتي ليويء» أي «أيها الناس اسمعوا» كارهين سماع كلمة «ليو» بسبب خيانة هذا الرجل.

كان ثيسيوس مشوقاً إلى العمل، راغباً في ذيوع صيته. فترك أثينا ليقاتل ثور ماراثون الذي أوقع أضراراً ليست بالقليلة بسكان مدن تتراپوليس Tetrapolis[٣٤]. وبعد أن تغلّب عليه قاده حياً ودخل به دخول الظافرين إلى المدينة ثم نحره قرباناً لأپوللو دلفي[٣٥]. وتبدو حكاية هيكاله Hecale وإكرامها ثيسيوس واستضافته في حملته هذه وكأنها لا تخلو من الحقيقة. فقد جرت عادة أهالي المدن المجاورة أن

---

(٣٢) دلفينيوم: إن موقع هذا المحراب المخصص لأپوللو دلفي ما يزال موضع تساؤل، وحدس. ويقع على العموم شرق الأولمبيوم.

(٣٣) في الواقع إن إيجيوس ليس ابن پانديون بل ابن سكيرياس.

(٣٤) من مناطق أتيكا، سُمّيت بهذا الاسم لاحتوائها على أربع مدن وهي: زينوميي، مراثون، پروبالتّس، ترايكورنثوس. بناها كسوثس خَتَنُ أرخيثيوس.

(٣٥) ديودورس (٤ :٥٩) يعزو هذا القربان إلى إيجيوس.

يجتمعوا في يوم معيّن لتقديم قربان لجوپيتر هيكاليوس يطلقون عليه اسم «هيكاليسيا»، تكريماً لهيكاله أيضاً. (يطلقون عليها اسم التصغير هيكالين - والسبب في هذا يعود إلى أنها كانت تخاطب ثيسيوس وهو شاب عندما استضافته بمثل كلمات التحبب هذه كما يفعل كبار السن لصغارهم، وكذلك لأنها نذرت لأجله قرباناً لجوپيتر إذا عاد سالماً من القتال، لكنها ماتت قبل أوبته، فجوزيت بهذا الإكرام ردّاً لجميلها، وذلك بأمرٍ من ثيسيوس على ما يحدثنا فيلوخورس[٣٦]. ولم يمرّ زمن طويل حتى أقبل على المدينة محصّلو الجزية من كريت لأخذ القسط الثالث. وكان الأثينيون يدفعونها للسبب التالي: قُتل أندروغيوس Androgeus[٣٧] قتلةً غادرة على حدود أتيكا فلم يكتفِ مينوس أبوه بجرّ المصائب الشداد على الأثينيين بحروبه المتتالية، بل انضم إليه الأرباب وأحدثوا الخراب في البلاد وجعلوها بلقعاً يباباً، فنزل بهم القحط وفتك بهم الوباء وجفّت أنهارهم، ونزلت عليهم نبوءة مفادها أن غضب الآلهة لن ينفثئ إلاّ إذا استرضوا مينوس Minos وصالحوه، وإذ ذاك سيزول عنهم بؤسهم ويحسر عن كواهلهم الشتاء. فأرسلوا إليه رسلاً وبعد كثيرٍ من الالتماس والرجاء صالحوه أخيراً على شروطٍ وهي أن يدفعوا لكريت كل تسع سنوات جزيةً تتألف من سبعة فتيان وسبع عذارى. وهذا ما اتفق على إيراده معظم الباحثين. والحكاية الأخرى التي تحفل بالشعر والخيال تضيف إلى ما تقدّم أن غول مينوتاور Minotaur[٣٨] التيه كان يفترسهم، أو أنهم يهيمون على أوجههم في التيه لا يجدون فيه منفذاً للخروج فتنتهي حياتهم هناك أشنع نهاية، وأن هذا الغول كان على ما يصفه يوريپيدس: شكلين ممتزجين، يتألفان من خِلقتين مهولتين ذاتي طبيعتين متنافرتين: ثور ورجل مجتمعين![٣٩]

لكن فيلوخورس يقول إن أهالي كريت ينفون هذه المزاعم نفياً قاطعاً ويقولون إن التيه المزعوم ما هو إلاّ سجن عادي ليس فيه من صفات السوء إلاّ صفة واحدة وهي أنه

(٣٦) فيلوخورس مؤرخ أثيني (٢٠٠؟ ق.م) كتب مقولات ثمينة عديدة أوردْ سويداس قائمة بها لكن لم يصلنا شيء منها خلا بعض المقتطفات التي اقتبسها منه بعض الكتّاب.

(٣٧) قال بعضهم إن إيجيوس أمر بقتله لأنه كان على اتفاق مع الپالانتيدي ويقول بعضهم إن الثور المراثوني هو قاتله.

(٣٨) اختلقها الشعراء فقالوا إنه ابن پاسيفاي من نُطفة ثور. وپاسناي هي زوج مينوس التي ابتلاها نبتون بهذا الميل الشنيع انتقاماً من مينوس لأنه رفض أن يقدّم له ثوراً جميلاً كان يتوقع أن يكون قرباناً له. إن حَلّ هذه العقدة التي تكتنف القصّة من قبل پاليفاتوس ليس قوي الاحتمال.

(٣٩) مأساة الإغريق مقطع ٢. ص ٦٨٠.

منيع يصعب على نُزلائه الفرار منه. وأن مينوس الذي أنشأ ألعاباً تكريماً لذكرى أندروغيوس كان يهب هؤلاء الشبان والعذارى جائزةً للفائزين. وكان هؤلاء الأسرى يودعون سجن التيه خلال تلك الفترة. وأول من فاز في تلك الألعاب كان رجلاً يتمتع بقوة عظيمة ومكانة رفيعة، يدعى طوروس Taurus وهو شخص قاسٍ لا تعرف الرقة والرحمة إلى قلبه سبيلاً كان يعامل الأثينيين الذين أعطوه جائزةً شرّ معاملة وأغلظها.

وكان رأي أرسطو الصريح الذي أدلى به في معرض بحث كتبه عن دستور شكل الحكم عند البوتيّان Botiaeans[٤٠] أن مينوس لم يكن يقتل هؤلاء الفتيان، وإنما كانوا يقضون بقية حياتهم عبيداً في كريت. وأن الكريتيين إيفاءً بنذرٍ قديم قطعوه على أنفسهم منذ زمن طويل قد اعتادوا ارسال قرابين إلى دلفي من أول ثمار رِجالهم. وأن بعض الذين انحدروا من سلالة هؤلاء الأثينيين العبيد كانوا يخلطون مع التقدمات ويرسلون، وبعجزهم عن العيش هناك رحلوا أولاً إلى إيطاليا، واستقروا حول إياپيجيا Iapygia ثم انتقلوا منها إلى تراقيا وأطلق عليهم اسم البويريتيين. وهذا ما جعل فتياتهم في أثناء تقريب قرابين معيّنة ينشدن أغنية تبدأ بعبارة «إلى أثينا فلنذهب». هذا ما يكشف لنا الخطر الذي ينطوي عليه عداء مدينة هي سيدة البلاغة وأميرة الغناء. كان مينوس دائماً يُنعت بأسوأ النعوت، ويُمثل دائماً بالرجل الشرير على المرسح الأثيني، ولم يفلح هسيود[٤١] في إنقاذ سُمعته حين وصفه بـ«مينوس، الذي لا يدانيه في ملوكيته أحد»، ولم يفده هوميروس[٤٢] الذي وصفه بـ«صديق جوپيتر الخدين» وكلمته. وظلّ القول الفصل في هذا لكتّاب التراجيديا الذي كانوا يمطرونه بوابل من الهجاء والنقد من أرض مسارح تمثيلياتهم ويمثلونه برجل العنف والقسوة[٤٣]. في حين كانت الأسانيد تدلّ على أنه ملك سويّ، وواضع قوانين، وأن المدعو رادامانثوس Rhadamanthus كان قاضياً مستقيماً يطبّق قوانينه.

لمّا حان أجلُ القِسط الثالث من الجزية، ووجب على كل أب له ولدٌ شابّ يصلح للإرسال أن يشارك في عملية الاقتراع العامة لاختيار العدد، ثارت الخواطر على

---

(٤٠) لا وجود له. إنه مفقود كغيره من المباحث التي عزيت إليه من هذا القبيل.

(٤١) أفلاطون: مينوس ص ٣٢٠. هسيود ٧٤.

(٤٢) الأوديسّه ١٩: ١٧٩.

(٤٣) هذا الخطأ الذي وقع فيه پلوتارخ وقع فيه أيضاً عدد من الكتّاب بينهم أفلاطون. فهناك اثنان باسم مينوس أحدهما ابن جوپتر (زفس) و(أوروپه) وهو أميرٌ عادل سامي الخلق. والثاني وهو حفيده ابن ليكاستس الذي يقصده پلوتارخ هنا بوصفه أباً لأندرغوس وكان من الطغاة.

إيجيوس وبدأت اتهامات جديدة تنصبّ من الناس الذين امتلأوا حزناً وسخطاً، فراحوا يقولون: إنه وهو سبب كل ما أصابهم من شقاء، الشخص الوحيد السالم من هذه البلوى، وقالوا أيضاً إنه أورث مملكته ابن سفاحٍ أجنبياً ولم يعد يهتم بمصيرهم ولا بخسارتهم في أبنائهم الشرعيين لأبناء السفاح. وقد وقعت هذه الأقوال وقعاً شديداً في نفس ثيسيوس، واحتلت كل تفكيره وملكت عليه مذاهبه ورأى أن الواجب يقضي عليه المشاركة في آلام مواطنيه فعرض نفسه ليكون واحداً من الشباب المرسلين إلى كريت، دون حاجة إلى إجراء قُرعة بالنسبة إليه، فهزّ الناس نبله هزّاً وامتلأوا إعجاباً وحبّاً بطبيعة عمله هذا. ووجد إيجيوس ابنه هذا مصرّاً على قراره ولم تفد معه توسّلاته الكثيرة، فاستسلم وبوشر باختيار الباقين بالقرعة. على أن هولانيكوس Hollanicus يخبرنا أن الأثينيين لم يكونوا يستخدمون القرعة لاختيار الشباب والعذارى، وإنما كان مينوس يأتي بنفسه ويختار من يشاء فكان ثيسيوس أول من اختاره. وتنصّ الشروط أيضاً على أن السفينة التي تقلّ الأسرى تكون من الأثينيين، وأن الشبّان المبحرين لا يحملون أسلحة حربٍ، وأنه عند القضاء على المينوتاور تلغى الجزية.

في القِسطين الأول والثاني أرسل الأثينيون السفينة بقلوع سوداء إذ لم يكن لديهم أي أمل في سلامة أولادهم أو عودتهم، وكانوا واثقين أنهم ذاهبون إلى قضاء محتوم لا يُدفع. أما الآن وبعد أن شجّع ثيسيوس أباه وتكلّم كلام الواثق من نفسه، بقتل المينوتاور، فقد سلّم إيجيوس رُبّان السفينة شراعاً آخر أبيض اللون وأمره أن يرفعه على صاري سفينة عند العودة إذا كان ثيسيوس حياً سالماً، وأما إذا هلك فليرفع الشراع الأسود دليلاً على وقوع المصيبة. ويقول سيمونيدس إن الشراع الذي تسلّمه رُبّان السفينة من إيجيوس لم يكن أبيض اللون بل. . . «قرمزياً منقوعاً في عصير زهرة شجرة بلّوط زاهية جداً»[٤٤] كذلك يكون علامة فرارهم ونجاتهم. ويذكر سيمونيدس أيضاً أن ربّان السفينة هو فيريكلوس Phereclus ابن أمارسياس Amarsyas، ويقول إن سيروس أرسله إلى ثيسيوس من سلاميس وإنّ ناوسطثاوس Nausitthous كان ملّاح الدفّة، وفاياكس Phaeax رقيب مقدمة السفينة. إذ كان الأثينيون في ذلك الزمان قليلي الخبرة

(٤٤) ليست زهرة بل هي ثمرة الشجرة المعروفة عند النباتيين باسم Quercus Ilex وهي شجرة بلّوط قمينة دائمة الخضرة تغزوها دودة صغيرة يسمّيها العرب «قرمز» تخرج منها صبغة قرمزية. وثيوفراستس يتكلم عن هذه الثمرة في كتاب نباته فضلاً عن بليني. وهي مصدر مادة الصبغة القرمزية منذ أقدم الزمن.

بالملاحة[٤٥] لم يمارسوا مهنة البحر. ولم يفعل سيروس هذا إلا لأن مينيتس أحد الشبّان هو ابن بنته. ويثبت هذه الواقعة بناء ثيسيوس هيكلي فاياكس[٤٦] وناوسطثاؤس بالقرب من معبد سيروس. زد على هذا أن العيد المعروف بـ«كيبرنيسيا» Cybernesia[٤٧] أقيم تكريماً لهما.

يحدّثنا معظم المؤرّخين القدامى، ناهيك بالشعراء، أن أريادنه Ariadne التي وقعت في غرامه أعطته كرة من الخيوط حال وصوله كريت وعلّمته كيف يستخدمها لتقوده خلال منعطفات التيه ومنعرجاته. وبهذه الوسيلة خرج منه سليماً وقتل الغول [المينوتاور][٤٨] وأبحر عائداً ومعه أريادنه والأسرى الأثينيون. ويضيف فركيدس Pherecydes[٤٩] أنه أحدث ثقوباً في قيعان سفن كريت، ليحول دون مطاردتها له. ويكتب ديمون Demon ما مفاده أن طوروس كبير قوّاد مينوس قُتل بيد ثيسيوس في فم الميناء أثناء معركة بحرية جرت قُبيل إبحاره إلى أثينا. لكن فيلوخوروس يروي الواقعة كما يأتي: عندما أنشأ الملك مينوس الألعاب السنوية كان متوقعاً أن يفوز طوروس

---

(٤٥) بحسب رواية هوميرس أرسل الأثينيون خمسين سفينة إلى طروادة. على أنها كانت سفن نقل لا سفن حرب ويؤكد ثوكديدس انهم لم يقوموا بأي نشاط بحري حتى بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة عقبت معركة ماراثون. أي بعد حصار طروادة بسبعمائة عام تقريباً. لذلك كان من قبيل المعجزات أن يحقق الأثينيون في المجال البحري هذا التقدم الخارق الذي بدأ بعهد تيسيوس بإرسالهم إلى طروادة هذا العدد من السفن في غضون فترة قصيرة. على كلّ فقد كان الفضل الأول بهذا التقدم يعود إلى تموستوكليس.

(٤٦) هو بهوٌ حكومي يجتمع في رحابه الحكام الشيوخ ويطلق عليهم اسم برايتانس ويعيش فيه أيضاً على نفقة الدولة أولئك الذين اعتبروا أنهم يستحقون من بلادهم خير جزاء» كما يُستقبل فيه السفراء الأجانب وتقام فيه الحفلات العامة والاستقبالات.

(٤٧) إلى هذه القصة تعزى على الأغلب صورة مونتفوكون لفينوس وهي فوق الأمواج مستلقيةً على عنزة ويدها ممسكة بشعر ذقنها ويرفقتها كيوبيدات راكبين ظهور حيتان إلخ. . .

(٤٨) في واحدة من أجمل الصور التي تمّ العثور عليها في هركولانيوم (وهي المدينة التي غطتها حمم بركان فيزوُف العام ٧٩ فأزيحت وتم الكشف عنها). وقد ظهر فيها تيسيوس وهو يطأ المينوتاور (وهو حيوان خرافي برأس ثور (جسم إنسان) في حين تجمّع الصبيان عليه يقبّلون يديه ويحتضنون ركبتيه.

(٤٩) من الأقدمين اشتهر شخصان بهذا الاسم، الأكبر منهما هو معلم فيثاغورس وطاليس ومن مدينة سكيروس ويلقبّ بالفقيه أو اللاهوتي. لأنه أول من علّم حول خلود الروح في بلاد اليونان. أمّا الثاني وهو الذي يغلب الاحتمال بأنه المقصود عند پلوتارخ فهو مؤرخ من جزيرة ليروس التي تقع في بحر إيجه وقد سبق عصر هيرودوتس بقليل.

بجائزتها، كما فعل قبلاً. وكان موضع حسد عظيم لذلك. فأخلاقه ومعاملته للناس جعلت سلطانه مكروهاً، وهو أيضاً متهم بعلاقةٍ مع باسيفي Pasiphae ولهذا وافق مينوس في الحال عندما طلب ثيسيوس نزاله. وجرت العادة في كريت أن يُسمح للنساء بمشاهدة الألعاب فكانت أريادنه بين المتفرجين، فداخلها إعجاب شديد بجمال رجولة ثيسيوس وإقدامه وقوّته التي أبداها في النزال مما جعله يقهر كل من يتصدّى له او يتحدّاه. ولم يكن مينوس بأقل سروراً، لا سيّما أنه تغلّب على طوروس وأخزاه. فلم يتردد في أن يدفع له بالأسرى الأثينيين، وأعاد الجزية إلى أهلها.

ويروي لنا قليديموس Clidemus[٥٠] رواية يُستغرَب صدورها منه فيها حواش وشجون وذيول موغلة في القدم. يقول: عُقدت معاهدة بين جميع الإغريق تم الاتفاق فيها على أن لا يُسمح لأية سفينة تحمل أكثر من خمسة أشخاص بالإبحار من أي مكان. واستثني من المنع چاسون Jason الذي نُصّب قُبطاناً للسفينة العظيمة أرگو Argo وسُمح له بالإبحار وجَوْب المحيطات متعقباً القراصنة. لكن عندما هرب ديدالوس Daedalus من كريت وركب البحر إلى أثينا شرع مينوس بمطاردته بسفنه الحربية مخالفاً الاتفاق، فأجبرته العاصفة على الرسو في صقلية وهناك قضى نحبه[٥١]. وبعد وفاته استبدّت الرغبة بابنه ديوكاليون Deucalion للتحرش بالأثينيين، فبعث يطلب منهم تسليم ديدالوس إليه مهدداً بقتل جميع الأثينيين الذين تسلّمهم أبوه من المدينة كجزء من الجزية إن هم رفضوا طلبه. فبعث ثيسيوس بردٍّ مهذّب الحاشية على هذه الرسالة الغاضبة، معتذراً عن تسليم ديدالوس الذي كاد يكون من أقربائه. فهو ابن خالة لأن أمّه ميروبه Merope هي بنت أرختيوس. إلاّ أنه أخذ يبني عمارة بحرية في السِّرّ جعل قسماً منها في بلاده قرب قرية ثيميوتادي Thymoetadae وهو موضع بعيد عن كل الطرق العامة. والقسم الثاني أودعه عند جدّه بيثيوس في طروزين، مستهدفاً تنفيذ خطته بأعظم السرّية. وما إن كمل إعداد أسطوله هذا حتىّ أقلع به يرافقه ديدالوس وغيره ممن ارتُهن في كريت ليكونوا أدِلاء. ولم يدر أحد من الكريتيين بقدومه وحسبوه صديقاً وحسبوا أسطوله أسطولهم. وسرعان ما سيطر على الميناء وأسرع بالنزول وبلغ غنوصوص Gnosos قبل أن يلاحظ أحد زحفه. وفي معركة جرت عند منعطفات التيه

(٥٠) قيوسيوس في تاريخه يذكر مؤرخاً بهذا الاسم، كتب بحثاً عن أتيكا وعن العودة غير المتوقعة لأولئك الذين غابوا زمناً طويلاً. ومن الممكن أن توضع الحكاية في أيّ من المبحثين.

(٥١) هيرودوتس ٧: ١٧٠، ديدورس ٤: ٧٩.

أباد ديكاليون وكل حرسه بحدّ السيف، فانتقل الحكم إلى أريادنه وعقد معها حلفاً واستعاد الأسرى منها، واتفق على عهد صداقة دائمة بين الأثينيين والكريتيين. وأقسم الطرفان على ألاّ يبدآ حرباً.

هناك روايات تاريخية أخرى حول هذه المسألة، وهناك أمثالها حول أرديانه وكلها متناقض ومتنازع في. ترى بعضهم يقول إنها شنقت نفسها بعد أن هجرها ثيسيوس وبعضهم يقول إن بحّارته أخذوها إلى جزيرة نخسوس Naxos فتزوّجت أوناروس Oenarus كاهن باخوس[٥٢]، وإن ثيسيوس هجرها لوقوعه في حُبّ أخرى.

«كان حُبّه أيگله Aegle بنت پانوپيوس يحرق صدره[٥٣] وهو بيت شعر يقول عنه هرياس Hereas إنه كان في السابق موجوداً ضمن منظومات هسيود[٥٤] إلاّ أن پسستراتوس Pisstratus[٥٤] شطبه، وأضاف البيت التالي إلى منظومة هوميروس «جهنم الأموات» إرضاءً للأثينيين: «ثيسيوس، وپيرثاوس، ابنا الآلهة الجباران»[٥٥]. وتقول فئة أخرى إن أردیانه أنجبت لثيسيوس ولدين وهما أوينوپيون Oenopion وسطافيلوس Staphylus ومن القائلين بهذا آيون Ion[٥٦] الشاعر الخيوسي، حين يكتب عن مدينته: «التي بناها في ذات يوم - أونوپيون ابن ثيسيوس».

لكنّ أشهر الروايات الأسطورية التي جرت على كل لسان هي الآتية: لدى پايون الأماتوسي قصة تختلف من الباقي إذ يكتب قائلاً إن النوء دفع بسفينة ثيسيوس إلى جزيرة قبرص وفيها أردیانه وهي حامل، وفي حالة يُرثى لها من المرض بسبب دوار البحر. فأنزلها إلى الساحل وتركها وحيدة وعاد لمعاونة السفينة. وفجأة دفعت بها ريح شديدة إلى عرض البحر. وأبدى نساء الجزيرة عطفاً على أردیانه وعناية كبيرة بها وعملن ما وسعهن للتسرية عنها وتخفيف وحشتها. حتى أنهن زوّرنَ رسائل ورفعنها إليها كأنما وردت من ثيسيوس. ولما أدركها المخاض بالغن في بذل كل ما تحتاج إليه من رعاية إلاّ أنها توفيت قبل أن تضع وليدها ودفنت دفنة لائقة. ثم ما لبث ثيسيوس ان

---

(٥٢) ومن هنا جاءت ولا شك الخرافة المتداولة بأنها تزوجت باخوس نفسه.

(٥٣) انظر أثينايوس ص ٥٥٧.

(٥٤) طاغية أثينا كان كما صورة پلوتارخ في سيرة صولون محبّاً للكتابة وممارساً للأدب.

(٥٥) الأوذيّسي ١١: ٦٣١.

(٥٦) كاتب مأساوي عاصر پيركلس. فُقدت مسرحياته كلها لكن أثينايوس حفظ لنا مقطوعات من مناجاته.

عاد وركبه هم شديد لفقدها وترك قبل مغادرته الجزيرة عند أهلها مبلغاً من المال ينفقونه على شراء قرابين لها. وأمر بصنع تمثالين صغيرين أوقفهما عليها واحد من الفضة وآخر من النحاس. والمراسم التالية يقوم بها أهل الجزيرة ضمن مراسم تقديم قرابينهم في اليوم الثاني من شهر گورپيوس Gorpiaeus المخصص لأرديانه، حيث يستلقي شاب منهم على ظهره ليقلّد بصوته وحركاته آلام المرأة إذ يدركها المخاض. والأماتوسيون يطلقون على البستان الذي ضم رفاتها اسم «بستان ڤينوس أرديانه».

وذكر بعض كتّاب نخسوس رواية تختلف عن هذه، وزعموا وجود رجلين باسم مينوس، وامرأتين باسم أرديانه إحداهما تزوجت كاهن باخوس في جزيرة نخسوس، وأنجبت له ستافيلوس وأخاه الآخر. إلاّ أن أرديانه الثانية التي عاشت في زمان متأخر، وهي التي حملها ثيسيوس معه، وهجرها فيما بعد، نزحت إلى نخسوس مع مرضعتها كوركينا Corcyna التي ما زال قبرها قائماً. وإن أرديانه هذه توفيت أيضاً هناك وعبدها أهل الجزيرة لكن بشكل يختلف عن عبادة الأولى. فإحياء عيد هذه يتم بالأفراح العامة والقصف واللهو، في حين أن عيد الثانية ينقضي بالحداد والكآبة[٥٧].

توقف ثيسيوس في جزيرة ديلوس Delos[٥٨] بطريق عودته من كريت. وقرّب لربّ الجزيرة، وقدّم للمعبد تمثالاً لڤينوس كانت أرديانه قد أعطته إياه[٥٩]، ورقص مع الشبان الأثينيين رقصة ما زالت شائعة عندهم إلى يومنا هذا إحياءً لذكراه وهي تتألف من حركات تقدّم وتأخّر موزونة محدودة، تقليداً وتمثيلاً لمنعطفات التيه والتواءاته. ويقول ديكوارخوس Dicoearchus[٦٠] إن الديلوسيين يسمّون هذه الرقصة كرانه Crane[٦١].

---

(٥٧) أعياد أرديانه زوج باخوس يتمّ إحياؤها باللهو والقصف والأفراح للإعراب عن صيرورتها ربّة. في حين أن القرابين المقدمة إلى أرديانه الثانية تشير إلى سقوطها واعتبارها إنساناً عادياً.

(٥٨) من هذا جاءت عادة قيام أثينا سنوياً بإرسال وفد إلى ديلوس لتقديم قربان أپوللو.

(٥٩) كان هذا تمثالاً خشبياً صغيراً نحته ديدالوس بقاعدة مربّعة تقوم مقام القدمين وهو أول من ابتدع القاعدة للتماثيل وقد بدت في آثاره الأخيرة . ربما كانت أرديانه قد تسلّمت التمثال من النحّات وحملته معها وأن تيسيوس قدّمه لأپوللو على زعم أهل ديلوس إذ لم يشأ إبقاءه عنده لأنه يذكّره بحبيبته. (باوسنياس ٩ : ٤٠).

(٦٠) هو أحد تلاميذ أرسطو ألّف كُتباً عدة أشهرها تاريخ سپارطا. كانت فصوله تُتلى سنوياً على شبانها بأمرٍ من الإيفوري. وقد أثنى عليها شيشرون كثيراً.

(٦١) يحدثنا كالليماخوس بأنها رقصة حلقيّة. وسمّيت كرينه ربما نسبة إلى طائر الكرين (الكروان) الذي يطير بشكل حلقي. يقول يوستاثيوس كان الناس قبل تيسيوس يرقصون على شكل مجموعتين منفصلتين واحدة للذكور وواحدة للإناث فجاء هذا ووحّد بين الجنسين عند إنقاذه =

وقام ثيسيوس برقصته هذه حول المذبح الكيراتوني[٦٢] واسمه هذا جاء لأنه بُني من القرون التي تؤخذ من الصُّدغ اليسرى لرأس كل ذبيحة. ويقال إنه أنشأ ألعاباً في ديلوس. وكان أول من بدأ تقليد إهداء سعف نخل للفائزين.

لما اقتربوا من ساحل أتيكا أطار الفرح صوابهم لتكلُّل رحلتهم بالنجاح حتى أن ثيسيوس والقبطان نسيا رفع البشارة ودليل السلامة لإيجيوس، فما كان منه إلاّ أن قذف بنفسه يأساً من الصخرة إلى البحر فهلك. وما إن نزل ثيسيوس في ميناء فاليرم Phalerum حتى قدّم القرابين التي كان قد نذرها للأرباب عندما ركب البحر. ثم إنه أرسل إلى المدينة بشيراً يحمل نبأ سلامة العودة. ولما دخل هذا وجد معظم الأهالي في حزنٍ وكآبة لفقدهم ملكهم، بينما استولى الفرح على آخرين لأنباء البشير السارّة (وهو ما لا سبيل لنكرانه) وأظهروا شوقاً في الترحيب به وضفروا قلائد الزهر على رأسه، فتقبل ذلك بطبيعة الحال إلاّ أنه رفعها عن رأسه وقلّدها العكّاز الذي يحمله المنادي عادةً، ورجع إلى الشاطئ بهذا الشكل، فوصل قبل أن يفرغ ثيسيوس من تقدمة الخمر للأرباب، فوقف عن كثب ولم يأت بحركة لئلا ينقض صلاته ودعاءه. وما إن انتهى ثيسيوس حتى تقدم منه وأعلن له موت الملك. فهرع الجميع إلى المدينة في ضجة واضطراب وندب وعويل. إنّ عادة عدم تتويج المنادي بل تتويج عكّازه في عيد تسخوفوريا Oschophoria[٦٣] نشأت عن حادث ذلك اليوم واستمرت حتى يومنا هذا. كذلك نشأت منه عادة هتاف الحاضرين وقت سكب قربان الخمر «إيليليو، آييوو آيوو Eleleu Iou Lou»[٦٤]. وأولى هذه الكلمات تخرج عادة من أفواه المستعجلين أو

= رفاقه الشبان من التيه. ما زال هذا النوع من الرقص حيّاً في اليونان بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف سنة ويدعى كانديوت Candiot. [انظر م. جي تاريخ الأدب اليوناني ص ١٣].

(٦٢) الكلمة مشتقة مباشرة من «قرن» ويعزى صنعه إلى أبوللو. والقرون هي من ذكور غزلان كينثوس قتلتها أخته الصيادة. وقد بني المذبح كما تقول الأساطير من دون ملاط أو صمغ أو أية مادة غرائية أو لاصقة.

(٦٣) عيد للخمر يبدأ بموكب من أثينا نحو فاليرم. ويختار عدد معيّن في شبان أشرف الأسر على أن يكون الأبوان حيّين. ويحملون أغصاناً مثقلة بالعنب ويعدون منطلقين من معبد باخوس نحو هيكل مينرفا القريب من الباب الغاليري. والسبّاق للوصول يشرب كأساً من الخمر ممزوجة بالعسل ويأكل جبناً وخبزاً وزيتاً. ويتبع الراكضين جوق بقيادة شابين يرتديان ثياب النساء وهم يغنون ويحيط بالشابين عدد من النسوة على رؤوسهن سلال ويتم اختيارهن من أغنى الأسر في المدينة. ويقود الموكب كلّه منادٍ يحمل قضيباً تحيط به أغصان.

(٦٤) الكلمة الأولى تدل على الشعور بالفرح والغبطة التي كان تيسيوس يحسّ بها وهو قاصدٌ أثينا، والكلمة الثانية المرددة تنبئ عن حزنه على وفاة أبيه.

تُستخدم هتافاً للنصر، أما الكلمتان الأخريان فهما لازمة من لوازم اللسان يلفظها الناس عندما يكونون في حالة غمّ أو اضطراب بالٍ.

وبعد أن شيّع ثيسيوس جنازة أبيه، قام بإيفاء نذوره لأپوللو في السابع من شهر «پايانيپسيون» ففي ذلك اليوم دخل إلى المدينة كل الشبان الذين عادوا معه من كريت سالمين. وقيل أيضاً إن عادة سلق الحمّص في هذا العيد بدأت منذ ذلك اليوم، لأن كل الشبان الذين نجوا جمعوا ما فضل من زادهم في قدر واحدٍ وسخّنوه وأكلوا منه جميعاً، كذلك نشأت عادة حمل غضن الزيتون الذي يشدّ عليه شيء من الصوف في المواكب (بعد ذلك استعمل في الصلوات والأدعية) وأطلقوا عليه اسم آيرسيون Eiresione وكان يتوّج مختلف الثمار إشارة إلى زوال القحط والمحل، منشدين الأغنية التالية:

«إيرسيون يأتي بأفضل التين، آيرسيون يأتي بأرغفة خبز من أفضل دقيق القمح الأبيض ويأتي بالعسل في الجرار. والزيت نضمّخ به أجسامنا، وبدنان من الخمر القوية ليؤوب الكلّ إلى فراشه نشواناً».

ومع أن بعضهم يرى أن إنشاء هذا العيد كان لذكرى الهيراقليدي(٦٥) الذين ربّاهم الأثينيون واستضافوهم بالشكل الذي فصّلناه إلاّ أن رأي الغالبية هو ما ذكرناه أولاً.

كانت السفينة التي أقلّت ثيسيوس وصحبه الشبّان الاثينيين ذات ثلاثين مِجذافاً وعادت سالمة فأبقى عليها الأثينيون حتى أيام ديمتريوس ڤاليروم(٦٦) وعندها خلعوا عنها الألواح الخشبية النخرة، ووضعوا محلها ألواحاً جديدة أقوى من سالفتها. وآضت السفينة بسبب هذا التغيير مثالاً يضرب بين الفلاسفة حول المسألة المنطقية عن الأشياء المتحولة(٦٧)، ففريق منهم يتمسك بقوله إن السفينة بقيت كما هي، والفريق الآخر يقول إنها لم تعد السفينة عَيْنها.

---

(٦٥) بعد أن طرد يوريستيوش الطاغية نسل الهيراقليدي من الپلوپونيسس وبقية بلاد الإغريق التجأوا إلى أهل أثينا لحمايتهم فأجاروهم. وجرياً على العادة المتبعة فقد دخلوا المدينة وبأيديهم الأغصان، وقد عالج موضوع هؤلاء يورپيدس في مسرحيته «هيراقليدي».

(٦٦) أعني حوالي ألف سنة. لأن تيسيوس عاد من كريت في حدود ١٢٣٥ ق.م. وكالليماخوس عاصر ديمتريرس وقد أخبرنا أن الأثينيين ظلوا يبعثون هذه السفينة المقدّسة الخالدة إلى ديلوس في زمانه (٢٨٠ ق.م). وديمتريوس الفاليري هو الوصي المندوب عن كساندر المقدوني في أثينا [٣٠٧-٣١٧ ق.م] قيل إنه نصب لنفسه ثلاثمائة وستين تمثالاً خلال هذه المدة وقد حطّمت كلّها في يوم واحدٍ إذ دمّرها دعاة إبادة التماثيل Iconclasts بعد سقوطه. وكانت وفاته في ٢٨٤ ق.م. [راجع أفلاطون: فيادر].

(٦٧) في رسالته حول «بطء الانتقام الآلهي» يعزو پلوتارخ استنباط هذا النوع من المعرفة إلى =

إن العيد المسمّى «أسخوفوريا» أو عيد الأغصان كان ثيسيوس أول من احتفل به وما زال الأثينيون يحفظونه حتى يومنا هذا. ويعود السبب في إنشائه إلى أن ثيسيوس لم يأخذ معه العدد الكامل المطلوب من العذارى اللاتي وقعت عليهن القرعة بل اختار شابين يثق بهما من ذوي القوة والبأس والمظهر الأنثوي والقسمات المليحة، غيّر من مظهرهما بالاستحمام الكثير واجتناب الحرارة وأشعة الشمس المحرقة، ودوام استعمال أنواع الأدهان والعطور والغسول ووسائل الزينة لتجميل الرأس، أو نعومة البشرة، وتحسين لونها، حتى حقق التغيير المطلوب فيهما. ثم علّمهما كيف يقلّدان أصوات النساء، ومشية العذارى وتخطرهن بحيث ما عاد يفرّق أحدٌ بينهما وبين النساء. ثم وضعهما بين الفتيات الأثينيات المرسلات إلى كريت. فلما عاد سالماً قام هو وهذان الشابان على رأس موكب دينيّ مهيب وهما في شكلهما النسوي، وبعين الزيّ الذي يتخذه الآن أولئك الذين يحملون أغصان العنب في الموكب. وهم يحملونها تكريماً لباخوس وأريادنه، بسبب الحادثة التي أوردناها. أو ربما يعود ذلك إلى أن أوبتهم إلى الوطن وافقت موسم الخريف وهو أوان جني الأعناب. هذا وإن النسوة اللاتي يُسمّين دايپنوفيري Deipnopherae أو حاملات طعام العشاء يندمجن في هذه المواكب ويساعدن في تقديم القرابين إحياءً وتقليداً لأمهات الفتيات والعذارى الأسيرات. فقد كُن في هذا الموقف المؤلم يتراكضن هنا وهناك، يأتين بالخبز واللحم لأولادهن، ويروين لهم حكايات وأقاصيص مسلّية ليصرفن خواطرهم عن الخطر الذي ينتظرهم. ولهذا استمرت عادة رواية الخرافات والأساطير القديمة في هذا العيد. ونحن مدينون لتاريخ ديمون بهذه التفاصيل الدقيقة. وقد اختيرت رقعة أرضٍ، وأقيم عليها معبد لثيسيوس. وجُمع من الأسر التي أُخذ منها الشبان الرهائن ضريبة للمعبد يُنفَق منها على القرابين. وعُيّن آل فيتالدي مشرفين على تلك القرابين. وأضفى ثيسيوس عليهم هذا الشرف تعويضاً واعترافاً بفضلهم السابق عليه.

بعد وفاة إيجيوس أخذ ثيسيوس يُنمّي في ذهنه فكرة عجيبة، وتصميماً عظيماً، ولما اختمر الأمر في ذهنه جمع كل مواطني أتيكا في مدينة واحدة، وجعلهم شعباً واحداً لمدينة واحدة. وكانوا قبلها يعيشون في فُرقةٍ وتباعد، يصعب جمع كلمتهم في

= ايپخارمس من القرن الخامس قبل الميلاد وخلاصتها أن التغيّر الذي يطرأ على أجزاء الجسم في الفترات المتعاقبة للنمو الجسدي ابتداء من الطفولة ثم الشباب فالرجولة والشيخوخة، من شأنه بالمقابل إحداث تبدلات كاملة في الهويّة الانسانية وتنتهي المناظرة في هذا الموضوع إلى وجوب إبراء المدين من واجب الوفاء بدينه السابق.

أي شأن من الشؤون المتعلقة بالمصلحة العامة المشتركة، بل كانت الخصومات والحروب كثيراً ما تنشأ فيما بينهم. تمكن من إزالة ذلك بوسائل الإقناع وتنقّله من بلدة إلى أخرى ومن عشيرة إلى عشيرة. وسارع أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة أو ذوو الدخول الصغيرة المحدودة إلى اعتناق افكاره الرائعة تلك، في حين وعد اولئك الذين يملكون السلطان والمال بجمهورية لا يرأسها ملك وبحكم ديمقراطي أو حكم شعبي لا يكون هو فيه ملكاً بل مجرد قائد عسكري، وحامٍ لقوانينهم، وفي الأمور الأخرى يكون الجميع على مستوى واحد دون تمييز أحد علٰى الآخر. وبهذه الطريقة أفلح في اجتذاب قسم من هؤلاء الأخيرين إلى صفّه اختياراً. أما الباقي فتظاهروا بالاقتناع لخوفهم من سلطانه الذي كان مرهوباً جداً، ولمعرفتهم بشدة عزمه وبأسه، وعندئذ بدأ بحَلّ كل مجالس الحكم المحليّة، وبيوت الدولة العليا، وعزل الحكام، وأقام مجلس عمومٍ واحداً وقاعة شورى في الموضع الذي يقوم عليه اليوم القسم الأعلى من المدينة (الأكربوليس) وأطلق على المدينة اسم «أثينا»[٦٨] وقرّر بالمناسبة عيداً عاماً يقرّب فيه قربان جماعي سمّاه «پان أثينا»: أو قربان كل الاتحاد الأثيني[٦٩] (أتيكا). واستحدث أيضاً قرباناً آخر يدعى ميتوشيا Metocia او عيد الهجرة[٧٠]، ويقع في السادس عشر من شهر هيكاتومبيون. وتنازل عن عرشه وسلطاته الملكية كما وعد، ومضى قُدماً في تقنين دستور الجمهورية الشعبية بعد استشارة الأرباب والاستعانة بهم.

---

(٦٨) كان الاسم يُطلق على البلدة القديمة فحسب. وقد لاحظ المؤرخون والباحثون الثقاة أنه كثيراً ما أطلقت على أثينا الصفة العامة أو اسم الجنس أي «المدينة» فحسب [مثلما كان الرومان يشيرون إلى روما باسم (أربس Urbs أي المدينة) بسبب ذيوع صيتها. إن أول ملك لها وهو مكيكروبس بنى القلعة على مرتفع وأطلق عليها اسمه ومعناه [المدينة القلعة].

(٦٩) باناثيناء Panathaea. كان له وجود قبل تيسيوس ويقام تكريماً لمينرڤا ولم يكن يمتّ لأثينا بصلة. لكن تيسيوس عظّم من شأنه وجعله عيداً عاماً لكلّ سكان أتيكا ولهذا سمّي باناثينا، وهناك العيد الكبير والعيد الصغير ويقع هذا في العشرين من شهر ثارجيليون كل سنة. والأول يعيّدونه كل خمس سنوات في الثالث والعشرين من شهر هيكاتومبيون وفيه يسير موكب حاملاً حجاب مينرڤا أو ما يدعى «پيپلون» وقد نُقش عليه صورة انتصار الآلهة على الجبابرة، إلى جانب مناظر لأعظم مآثر أبطالهم.

(٧٠) إحياءً لذكرى تركهم الدساكر واجتماعهم في مدينة واحدة. ويسمّيه ثوكيديدس ٢: ١٥ «سيوشيا» إلاّ أن السبب واحد. وبهذه المناسبة أنشأ تيسيوس أو حافظ على الألعاب الأستمية إكراماً لنبتون. وقد رمى من ذلك إلى اجتذاب الغرباء وتشجيعهم على سكنى أثينا منحهم حقوق المواطنة كاملةً.

إذ أرسل يستخير عرّافة دلفي بخصوص مستقبل حكومته الجديدة ومدينته، ونزلت عليه النبوءة كالآتي:

«أي ثيسيوس سليل خط الملكي بنت بيتّوس. لقد أعطى أبي مدينتك مقادير وأمور دول عديدة. فلا تقلق ولا تخش شيئاً ولكن استشر فقط بثقةٍ وبعزمٍ. الطحلب لن يكفَّ عن العَوْم فوق الأمواج التي تحفّ به».

ويقال إن آخر أبيات هذه النبوءة كررته الكاهنة سيليل Silyl للأثينيين بعد زمن طويل، بالصيغة التالية:

«قد يغطس الطحلب، لكنه لن يغرق وهذا ما تقرّر له»[٧١].

بعد هذا انصرف إلى توسيع رقعة مدينته، ودعا كل الأجانب للقدوم إليها، والتمتّع بامتيازات مواطنة متساوية مع أهاليها. وقيل ان العبارة الشائعة «تعالي إلينا أيتها الشعوب كافّة» هي العبارة التي نطق بها ثيسيوس عندما أقام صرح الجمهورية على شكل ائتلاف أممي. على أنه لم يدع نظام حكمه الجديد ينقلب إلى فوضى بتدفق جموع الأقوام إلى المدينة فينبتّ حبل النظام وينفرط عقد الأمن والاستقرار. وكان أول من قسم سكان الجمهورية إلى ثلاث طبقات متمايزة: النبلاء والمزارعين والصنّاع. وأسند للطبقة الأولى رعاية الشؤون الدينية وحق اختيار القضاة، والتصرّف في شؤون التعليم والإشراف على تنفيذ القوانين، وتفسير كُلّ الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة. وعلى هذا الأساس سادت مساواة دقيقة في المدينة، فالنبلاء يتقدمون الباقي في الشرف والمكانة. والمزارعون يتقدمون الجميع في الفائدة والمال. والصنّاع يتفوّقون على الجميع بقوة العدد. يقول أرسطو مُظهراً ميله إلى الحكم الجمهوري إن ثيسيوس كان أول ملك تنازل عن حكمه المطلق طوعاً. ويبدو أن هوميروس شهد له بذلك أيضاً عندما اقتصر على ذكر كلمة «شعب أثينا» في قائمة السُّنن[٧٢] التي ذكرها، دون أن يخصّ غيرهم بهذه.

---

(٧١) عندما استولى سيللا على أثينا لم يبق نوع من أنواع القسوة إلاّ ارتكبه. وهناك قصد بعض الأثينيين معبد دلفي للاستخارة في هل إن ساعة مدينتهم الأخيرة قد حانت؟ فأجابت الكاهنة على حَدّ قول پاوسيناوس [١: ٢٠]: «ما يتعلق بالطحالب له نهايته». منوّهة كما يبدو بالنبوءة القديمة التي صدرت هناك.

(٧٢) الإلياذة ٢: ٥٤٧. في تلك العبارة وصف الأخائيين بـ«شعب أرخيثوس العظيم» وهي تشير إلى مفهوم لا يتفق واستنتاج پلوتارخ لكن ربما اعتبر العبارة قاصرة على أولئك الذين كانوا قد أمّروا عليهم أرخيتوس يوماً ما؟

وضرب أيضاً نقوداً ونقش عليها صورة ثور، إما إحياءً لذكر ثور ماراثون أو تذكرة بانتصاره على طوروس قائد مينوس، أو ربّما ليذكر شعبه بوجوب الانصراف إلى الزراعة. ومن هذه السكّة جاء التعبير الشائع جداً عند الأغريق حين يؤتى إلى تقويم شيء من الأشياء «انه يسوى عشرة ثيران، أو يسوى مائة». وبعد ذلك ضَمّ ميغارا إلى أتيكا وأقام على الخليج[٧٣] ذلك الأسطون الشهير الذي نقش عليه كتابة تتألف من سطرين يشيران إلى حدود الدولتين لأنهما تلتقيان في تلك النقطة. فعلى الجانب الشرقي تقرأ هذه العبارة:

«پلوپونيستوس ليست هنا بل آيونيا».

وعلى الجانب الغربي تقرأ: «پلوپونيستوس هنا، لا آيونيا!».

وأنشأ كذلك ألعاباً مضاهياً بها ألعاب هرقل بدافع من طموحٍ فيه إذ كان الإغريق برغبة من هرقل يحتفلون بالألعاب الأولمپية[٧٤] تكريماً لجوبيتَر، فلمَ لا يحتفلون بالألعاب الإستمية[٧٥] تكريماً لبنتون، وبرغبة منه؟ لقد كانت تلك الألعاب قبل ذلك مخصصة لميليكريتا Melicerta يتم إحياؤها ليلاً باحتفال خاص، وهي في الواقع مراسم دينية أكثر من كونها عيداً عاماً أو احتفالاً شعبياً. وهناك من يزعم أن الأصل في الألعاب الإستمية أنها كانت لذكرى سكيرون أقامها ثيسيوس على أثر موته تخليداً لاسمه لأنه أدنى أقربائه إليه. فهو ابن كانيتوس وهنيوخا Heniocha بنت پتيوس. على أن بعضهم يقول إن ابن هذين الأبوين هو سنيس وليس سكيرون، وإن ثيسيوس أقامها للأول منهما. وأبرم سيوس في الوقت نفسه معاهدة مع أهالي كورنث، ليسمحوا للقادمين من أثينا برؤية الألعاب الإستمية بموضع شرفٍ يتصدّر النظّارة. وقدّرت مساحة

---

(٧٣) هذا الأسطون أقيم بموافقة الآيونيين والپلوپونسيين لوضع حَدّ نهائي للنزاع حول الحدود. وقد بقي قائماً حتى عهد قدروس. ثم نقض الهيراقليدي هذا الصرح عندما ملكوا ميغارا التي انتقلت بموجب ذلك من يد الآيونيين إلى يد الدوريين [انظر سترابو] وقام هادريان فيما بعد بتقليد هذه الكتابة فقد نقش على النصب الذي أقامه بين أثينا الجديدة وأثينا القديمة كتابتين، فمن جانب تقرأ عبارة: «هذه أثينا مدينة تيسيوس العتيقة: ومن الجانب الآخر تقرأ هذه العبارة «هذه مدينة هادريان وليست مدينة تيسيوس».

(٧٤) لا بد أن يكون نشوء هذه الألعاب قبل التاريخ الذي أثبت لزمان هرقل بوقت طويل. فقد أثبت سترابو أنها لم تكن معروفة أيام هوميروس وربما وجدت قبله ولكن عفى عليها وطواها النسيان حتى أحياها إيفيتوس وهو التاريخ الذي أثبت لتأسيسها.

(٧٥) سُمّيت كذلك نسبة إلى برزخ (اسموث) پلوپونيســس حيث تجرى ثمة.

هذا الموضع بقدر ما يغطي من الأرض شراعُ السفينة(٧٦) التي أقلّت المتفرجين مبسوطاً بكامل أبعاده. وهذا ما أثبته كل من هيللانيكوس، وأندرو Andro هاليكارناسوس.

وأما عن رحلته إلى البحر الأسود Euxine فقد كتب فيلوخورس وآخرون أنه قام بها مع هرقل عارضاً عليه خدماته في الحرب ضدّ الأمازونات(٧٧) وكافأه بأنتيوبه Antiopea(٧٨) على شجاعته. إلاّ ان القسم الأكبر، ومنهم فيريكيدس Pherecydes وهيللانيكوس وهيرودوروس، يقولون إنه قام بالرحلة بعد هرقل بسنين عديدة وهو يقود عمارة بحرية خاصة به، وإنه أخذ الأمازونة أنتيوبه أسيرة، وهي القصة الأقرب احتمالاً. على أننا لا نجد أي شخص آخر غيره ممن رافقه في هذه الحملة يقول إنه أسر أي أمازونة. ويضيف بيون Bion قوله إن ثيسيوس لجأ إلى الخديعة لأسرها وبعدها أقلع عن الساحل في الحال. فالأمازونات على حدّ قوله شبقات جداً محبّات للرجال بطبعهن، فلم يصبرن على وجود ثيسيوس عند إرسائه على سواحلهن. بل بادرن إلى إرسال الهدايا السنيّة، فدعا أنتيوبه التي حملت الهدايا إلى صعود السفينة. وما إن فعلت ذلك حتى أطلق سفينته للريح. ويضيف كاتب من بثينيا، هو مينيقراطس Menecrates صاحب تاريخ نيقية، أن ثيسيوس بعد إصعاده أنتيوبه وإطلاق سفينته للريح تجوّل مدة من الزمن بمحاذاة السواحل، وكان يوجد في السفينة إخوة ثلاثة من شبان أثينا رافقوه في رحلته وهم يونيوس Euneos وثاوؤس Thaos وصوليؤس Solous، والأخير منهم وقع في حبّ أنتيوبه وبغفلة عن البقية كشف عن سرّه إلى صديق عزيز وطلب منه أن يتوسط بمصارحة أنتيوبه بما يعتمل في نفسه من عاطفة ففعل، إلاّ أنها لم تشأ مبادلته العاطفة ورفضت حبه رفضاً باتاً، وعالجت الموضوع معالجة هادئة حكيمة ولم تنه الأمر إلى ثيسيوس ولم تذكر له شيئاً. لكنّ اليأس الذي ركب صوليؤس جعله يلقي بنفسه في نهر

---

(٧٦) كانت ترسل هذه السفينة سنوياً إلى ديلوس وفاءً لنذر تيسيوس وهي مزدانة بأغصان الزيتون المقدس ومملوءة بالقرابين المخصصة لأپوللو. ومنذ فترة تزيينها حتى عودتها تدخل المدينة في فترة تطهّر ويوقف تنفيذ أحكام الموت الرسميّة. ولذا نذكّر القارئ هنا بفترة الأيام الثلاثين التي مرّت ما بين الحكم على سقراط واستشهاده. وإلى فترة التحريم هذه ندين بالمناظرات الرائعة التي نقلها لنا تلاميذه والوقائع التي تخللت تلك الفترة بينه وبين مستمعيه.

(٧٧) ليس هناك خرافات ورجم بالغيب بقدر ما يتعلق بموضوع الأمازونات. ويقول سترابو إن أكثر مؤرخي الإسكندر المقدوني أهلاً للثقة لم يتطرقوا حتى لذكرهن. ولو كنّ حقاً جزءاً من الشعب الصيثي فكيف اتفق أن حملن أسماء يونانية؟

(٧٨) يقول يوستين إن هرقلاً أعطى تيسيوس هيوليتو واحتفظ لنفسه بأنتيوبه.

قريب من الساحل. ولمّا علم ثيسيوس بموته وحبّه العاثر الذي أورده المنية أدركه حزن شديد، وفي تصاعد كآبته تلك تذكّر نبوءة كانت قد نزلت له في دلفي. إذ أنهت إليه كاهنة أپوللو پيتوس بأن عليه أن يبني مدينة وقتما يتتابه أعظم الحزن واينما كان موجوداً، وعليه أن يترك بعض أتباعه حكاماً لها. فبنى مدينة بثيوپولس مشتقاً اسمها من صفة أپوللو وإحياءً لذكرى الفتى المنكود الخائب في حبه، أطلق اسمه صوليؤس Solois على النهر الذي يجري بمحاذاتها. وعهد لأخوى الغريق بإدارة المدينة وتنفيذ قوانينها وضم إليهما هرموس Hermus أحد أفضل نبلاء أثينا. ومن اسم هذا الأخير عُرف اسم حيّ من أحياء المدينة بـ«منزل هرموس» وبخطأ في نطق الاسم[79] أظن المقصود به «بيت هرميس» أي الإله مارس، وهكذا انتقل إلى الربّ ذلك التكريم الذي أريد به هرميس [عطارد].

هذا هو سبب وأساس الغزو الأمازوني لأتيكا. ذلك الغزو الذي لا يمكن أن يبدو قطّ عملاً أنثوياً صغير الشأن. ويكاد يكون من المتعذر أنهن عسكرن في المدينة نفسها ودخلن المعركة قرب پنيكس Pnyx[80] عند التل المسمّى ميوزيوم Museum[81]. إلاّ إذا كنّ قد استولين على كلّ البلاد المجاورة للمدينة ووجدن الجرأة والسلامة الكافيتين للزحف عليها. ويصعب الوثوق بما زعمه هيللانيكوس عن قيامهن بهذه الرحلة الطويلة براً، ومرورهن بالبوسفور الكيمّري[82] عندما كان منجمداً. أما أنهن عسكرن في مكان آخر غير المدينة فهذا مؤكد، ويمكن إثباته بما يكفي من الاسماء التي ما زالت تطلق على المواقع في تلك الأنحاء، وبقيام القبور والأضرحة والأنصاب للاتي سقَطن منهن في سوح القتال.

لما غدا الجيشان على قيد النظر أحدهما من الآخر سادت فترة هدوء وشكّ في أيهما سيبدأ الهجوم؟ وأخيراً قرّب ثيسيوس قرباناً لربّ «الخوف»[83] إطاعة لأمر نبوءة

---

(٧٩) حرفياً giving it the cicumflex accent.

(٨٠) كان موضعاً قرب القلعة اعتاد أهل أثينا الاجتماع فيه لسماع الخطباء يبحثون في الأمور العامة. وسُمّي كذلك للمحلات المزدحمة في ذلك الحيّ، وقال آخرون إنه من اجتماع Conflex الجمعيات العامة فيه.

(٨١) يقوم الميوزيوم فوق أكمة صغيرة مقابل الحصن وفي أعلى جزء من الأكمة. وربما اسمه من وجود هيكل الميوزات هناك أو ربما من اسم الشاعر ميوزيوس الذي كان ينشد فيه أشعاره وقد دُفن هناك أيضاً (انظر باوسنياس ١: ٢٥).

(٨٢) البرزخ الذي هو بين بحر پالوس موتس والبحر الأسود.

(٨٣) يدخل الوثنيون في عداد آلهتهم، فضلاً عن العواطف، الإحساسات المزعجة، والظواهر الطبيعية المخيفة ويعبدونها اتقاء شرّها.

نزلت عليه، ثم بدأ القتال. وكان ذلك في شهر بيويدرمويون Boedromion وفيه يحتفل الأثينيون إلى يومنا هذا بعيد بيودروميا. ويريد قليديموس أن يكون أكثر تفصيلاً وإسهاباً فيكتب قائلاً إن ميسرة الأمازونات حرّكت نحو موضع ما زال يعرف باسم أمازونيوم وتقدمت ميمنتهن نحو پنيكس قرب خريسا والتحم الأثينيون الذين خرجوا من خلف تل ميوزيوم بهذا الجناح. وإن قبور تانك اللاتي صُرعن تُرى شاخصة في الشارع المؤدي إلى مدخل پيرياكا Piriaca قرب هيكل البطل خلقدون Chalcaedon وإن الأثينيين حاقت بهم الهزيمة في هذا الموضع، وهربوا من وجه النساء حتى معبد فيوريس Furies[٨٤] لكن إمدادات جديدة وصلت ميسرتهم من الپلاديوم ومن اللقييوم ومن أرديتوس Palladium, Lycium, Ardetlus[٨٥] فكرّوا علي جناحهن الأيمن ودحروهن حتى ألقوا بهنّ إلى مخيماتهنّ. وسقط في هذه المعركة عدد كبيرٌ من الأمازونات وغدت الحرب سجالاً، ثم بعد أربعة أشهر عُقدت الهدنة بين الطرفين، وأُبرم الصلح بوساطة من هيپوليتا (يطلق المؤرخون هذا الاسم على الأمازونة التي تزوجها ثيسيوس، ولا يسمونها أنتيوبه)، على أن بعضهم كتبوا أن مولپاديا Molpadia قتلتها بطعنة رمح أثناء ما كانت تقاتل إلى جانب ثيسيوس، وأن النصب القائم جوار هيكل «الأرض الاولمپية»[٨٦] إنّما أقيم فوق قبرها تخليداً. وعلينا أن لا نعجب إذا وجدنا التاريخ يخبط خبط عشواء في حوادث موغلة في القدم كهذه، فقد قيل لنا إن الأمازونات اللاتي جُرحن في المعركة أرسلتهن أنتيوبه سِراً إلى خلقيس فشفي كثير منهن بفضل سهرها وعنايتها. لكن بعضهن توفّي وقُبر في موضع يطلق عليه إلى يومنا هذا اسم أمازونيوم. وأما أن الحرب انتهت صلحاً فهذا واضح أكيد من اسم الموضع

---

(٨٤) في الواقع لم يكن هذا المعبد موجوداً آنذاك، إذ إنه بُني على أثر محاكمة أورستس [پاوسنياس ٧: ٢٥]. على أن الموضع الذي قصده پلوتارخ لم يكن بالإمكان تحديده بغير ذلك.

(٨٥) كان الپالاديوم المكان المخصص لمحاكمة المتهمين بجرائم القتل. أرديتوس نسبة إلى البطل الاثيني الذي فضّ نزاعاً قائماً بين مواطنيه المختصين فيما بينهم وأقنعهم بربط أنفسهم بقسم جماعي متبادل على الاتحاد والتعاون.

(٨٦) بهذا يقصد «القمر» وقد سُمّي بهذا لأنها كما يزعم پلوتارخ نفسه في رسالته عن «انقطاع النبوءات» تشبه الجن أو الشياطين وليس لها كمال الآلهة ولا نقصان فيها كالبشر، لكن لما كان بعض الفلاسفة الفيثاغوريين قد توصلوا فيما بعد إلى نتائج فلكية كافية للاستنتاج أن الشمس هي مركز المجموعة فيعترض أنه تراءى للمفكرين الأوائل أنه «جسم أرضي». ولذلك سُمّي القمر أحياناً بالنجم الأرضي.

الملاصق لمعبد ثيسيوس فهو معروف باسم هوركومزيوم Horcomsium[٨٧] من العهد الموثق الذي أبرم هناك، وكذلك من الأضحية الغابرة جداً التي جرت العادة على تقديمها للأمازونات في اليوم السابق لعيد ثيسيوس. كذلك يريك الميغاريون بقعةً في مدينتهم على الطريق الممتدة من السوق إلى موضع يدعى روس Rhus[٨٨] تضمّ رفات بعضهن، حيث يقوم «البناء المعيني Rhomboid». وشبيه بهذا ما قيل من أن بعضهن قُتلن قرب خيرونيا ودُفنّ على ضفة نُهير كان يعرف سابقاً باسم ثرمودون Thermodon والآن يدعى هيمون Haemon وذكرنا شيئاً عنه في سيرة ديموستينس. ويبدو أن مرور الأمازونات عبر تسالي لم يخلُ من مقاومة. إذ يوجد ثمّ عددٌ من قبورهن قرب سكوتوزا Scotussa وكينوسفاليا Cynoscephalae.

هذا غاية القصد في الأمازونات. وهناك رواية أوردها ناظم ملحمة ثسياد Theseid هي محض خيال مختلق. يقول إن أنتيوبه على سبيل الانتقام من ثيسيوس لأنه هجرها وتزوج فيدرا Phaedra انحدرت إلى المدينة بمجوع من أمازوناتها، فقضى عليهن هرقل!

الحق يقال إن ثيسيوس تزوج فيدرا إلاّ أنه فعل ذلك بعد موت أنتيوبه التي أنجبت له ولداً دعاه هيپوليتوس أو ديموفون على حَدّ زعم پندار[٨٩]. أمّا النكبات التي حلّت بفيدرا وابنه فلا سبيل لنا إلاّ الافتراض بأنه وقعت كما اتفق على روايتها جميعهم، لأنه لم يقم أحد من المؤرخين بالاعتراض على الشعراء التراجيديين الذين كتبوا عنها.

هناك روايات أخرى أيضاً عن زيجات ثيسيوس لا تشرّفه مناسباتها ولا تُسعده في وقائعها، لم تتطرق إليها التمثيليات الاغريقية. فلقد قيل إنه خطف أناكسو الطروزينية،

---

(٨٧) من الأقسام التي أديت توثيقاً للعهد المقطوع.

(٨٨) «مجرى» لأن المياه المنحدرة من الجبال المشرفة على المدينة كانت قد اتخذت مجراها مرّة (پاوسنياس ١ : ٤١ : ٢). وربما كان الرومپويد تلاّ ترابياً غير منتظم.

(٨٩) يخطئ پندار في قوله إن ديموفون هو أحد ولديه اللذين أنجبهما من فيدرا. [الثاني هو أكاماس]. عند زواج تيسيوس من فيدرا أرسل هيپوليتوس إلى أمّه إيثرا ملكة طروزين لتتولى تربيته. وبعد زمن عاد لحضور الألعاب الأثينية فوقعت فيدرا في حبّه وراودته عن نفسها عبثاً. وفي نوبة من انفعالها ويأسها شكته لتيسيوس زاعمة أنه حاول النيل من شرفها. وتقول الأسطورة إن تيسيوس دعا نبتون ليذيقه ميتة عنيفة عقاباً له فاستجيب دعاؤه. إذ فيما كان هيپوليت يقود عربته على ساحل البحر أرسل نبتون عجلي بحر أرعبا الخيل فانقلبت العربة به وتمزق جسده. ويذكر الشعراء أن الملكة شنقت نفسها حزناً وأن ديانا التي هزّتها عِفّة هيپوليت، وآلمتها نهايته المفجعة، أقنعت إيكولاپيوس بإعادته إلى الحياة وجعلته مرافقاً لها في سائر نزهاتها.

وقتل كلاً من سينيس Sinnis وسركيون ليغتصب ابنتيهما. وتزوج پيربويا أم أجاكس Ajax، ثم فيروبوا Pheriboea ثم آيوپه Iope بنت إيفكليس Iphicles، فضلاً عن اتهامه بهجر أريادنه مخالفاً مبادئ الشرف والأخلاق كما أوردنا - عندما وقع في حبّ ايگله بنت پانوپيوس Panopeus بدون وجه حق، أو اعتبار لكرامة. وأخيراً قيامه بخطف هيلين، وهو العمل الذي قلب أتيكا كلها إلى ساحة حربٍ تمور بالدماء، وكان في النهاية سبباً لنفيه وموته وهذا ما سنروى وقائعه الآن.

يرى هيرودوروس أنه وإن كان يوجد ثمّ الكثير من الحملات العسكرية الشهيرة التي قام بها أشجع رجال عصر ثيسيوس فإنه هو نفسه لم يقد إلاّ واحدة، وهي معركة الأبيثيين مع السنطورس إلاّ أن بعضهم يقول إنه رافق جاسون إلى خُلقيس[(٩٠)] وملياغر Meleager لقتل الخنزير الوحشي الكليدوني. ومن هنا جاء المثل السائر «لا شيء بدون ثيسيوس»، وثابت أيضاً أنه حقق بنفسه دون معونة من أحد مآثر مجيدة لا تحصى، ومن هذا جاء القول المأثور «هرقل آخر، أو هرقل ثانٍ». ولقد شارك أيضاً أدراستوس Adrastus في استعادة جُثث أولئك الذين صُرعوا أمام قادفيا قلعة ثيبة لكن ليس بالشكل الذي صوّره يوريپدس في مأساته[(٩١)]، اي ليس عنوة واقتداراً بل بالتفاهم والإقناع والاتفاق، وهو ما استقر عليه معظم المؤرخين. ويضيف فيلوخورس أن هذا الاتفاق هو الأول من نوعه في التاريخ، (لكن يظهر في تاريخ هرقل أنه أول من سمح لأعدائه بنقل جثث قتلاهم) وأن المقابر التي تضم رفات معظمهم ما زالت ظاهرة في قرية اليوثيري Wleutherae[(٩٢)]. أما قبور القادة فتثوي في اليوسيس حيث خصّص لهم ثيسيوس رقعة من الأرض إكراماً لخاطر دراستوس. ورواية يوريپدس التي أوردها في مسرحية «المتضرّعين» يدحضها أسخيلوس في مأساته المسمّاة الإيلوسينون Eleusiniand[(٩٣)] حيث يقوم ثيسيوس برواية الوقائع كما أثبتناها هنا[(٩٤)].

---

(٩٠) ربما بحثاً عن جزّة الصوف الذهبية.

(٩١) وهذا أيضاً ما يزكيه إيزوقراطس في مقاله حول هيلين وإن كان يرى في موضع آخر أن تيسيوس أرسل سفراء إلى إيتوكليس. إلاّ أن هذا التناقض الواضح أزاله معاصره ليسياس بذكره أن تيسيوس بعد مفاوضة غير ناجحة حصل بالقوة على نتيجة أفضل. مأساة [المتضرعون: ص ٦٥٣ وما بعدها].

(٩٢) مدينة في أتيكا على حدود بويوسيا [پاوسنياس ١: ٣٨].

(٩٣) الأبيات ١٢١٣ وما بعدها.

(٩٤) مفقودة.

والصداقة الشهيرة التي ربطت بين ثيسيوس وپيرتاووس قيل إنها بدأت على النحو الآتي: ذاع صيت ثيسيوس، وعلم الناس بقوته وبأسه في أقصى بلاد اليونان، ورغب پيرتاووس أن يختبر الأمر بنفسه، فقام تحدوه هذه الغاية بضبط قطيع من الثيران يعود لثيسيوس، وبينما كان يستاقُه من ماراثون أبلغ بأنّ ثيسيوس يقصّ أثره وهو بكامل سلاحه فلم يسرع في فراره، بل انقلب عائداً لملاقاته. ولما تفرّس أحدهما في الآخر امتلأ هيبةً واحتراماً متبادلاً، ونسيا كل نيّة في القتال. وسبق پيرثاووس فمدّ يده لثيسيوس وطلب منه أن يكون حكماً في النزاع. ووعد أن يخضع لأيّ عقوبة يفرضها بملء الرغبة فلم يكتف ثيسيوس بالصفح عنه، بل عرض عليه صداقته وأخوّته في السلاح. وأشهدا على صداقتهما وعززّاها بالأيمان المغلظة. وبعد زمن تزوج پيرتاووس ديداميا Diedamia[٩٥] ودعا ثيسيوس إلى حفلة العرس، ولمشاهدة بلاده بهذه المناسبة والتعرف بقومه اللابيثيين[٩٦] كما دعا في الوقت نفسه قوم السنطوروس. وفي الحفلة لعبت الخمر برؤوس هؤلاء، وأظهروا شراسة وسوء أدب، وطفقوا يتحرشون بالنساء ويهينونهنّ. فأسرع اللابيثيون يثأرون منهم وبطشوا بعدد كبير منهم في أثناء الوليمة. ثم نشبت معركة فيما بينهم فهزموهم وطردوهم من أرضهم جميعاً وكان ثيسيوس يقاتل إلى جانب الأبيثين إلا أن لهيرودوروس قصّة أخرى عن هذه الأحداث. فهو يقول إن ثيسيوس لم يسرع إلى معاونة اللابيثيين إلاّ بعد نشوب الحرب. وإن أول مشاهدته لهرقل كان في طريق ذهابه إليهم. إذ كان قصده أن يجده في تراخيسن[٩٧] التي اختارها هرقل موطناً بعد كل مغامراته واسفاره وأن هذه المقابلة تمّت بشكل مشرّف لهما، وباحترام وودٍ لا مزيد عليهما. ولكن القول الأكثر احتمالاً واعتماداً هو ما زعمته طائفة أخرى من المؤرخين بأن لقاءات أخرى كثيرة كانت قد جرت بينما أنه بسعي من ثيسيوس مُنح هرقل في إيليوسيس حق المواطنة وقبل اجراءِ المراسم أسرار كسيريس Ceres قام بالتطهر بسبب النجاسات التي حفلت بها حياته الماضية[٩٨].

---

(٩٥) كل الكتاب الآخرين يسمونها «هيپوداميا» ما عدا پربيوتيوس الذي يسمّيها «ايسخوماخه» ٢:٢:٩ وهي بنت داراستوس.

(٩٦) يطلق هوميروس على «اللاپيثي» صفة الأبطال. وأثر عن السناطير أنهم أنصاف بشر وأنصاف خيل ويُصوّرون عموماً راكبين خيلاً إمّا بسبب وحشيتهم أو لصفتهم الحيوانية إن لم يعزَ إليهم استعمال الخيل وسياستها.

(٩٧) موضع صغير يقع بالقرب من جبل أوتيا.

(٩٨) قبل التكريس للأسرار الكبرى في اليوسيس لا بُدّ من إجراء مراسم التطهير في الأسرار الصغرى =

يقول هيللانيكوس: اختطف ثيسيوس هيلين عندما كان في الخمسين من عمره. وهي وقتذاك طفلة ليست في سن زواجٍ. ويقول بعض الكتاب - يقصدون جبَّ تهمة تتضمّن واحدة من أكبر الجرائم - إنه لم يسرق هيلين بشخصه، وإن الفاعلين هما إيداس Idas ولينكيوس Lynceus خطفاها وجاءا بها إليه ووضعاها أمانة عنده. ولهذا رفض إعادتها إلى أخويها كاستور Castor وپوللوكس Pollox عندما طلباها منه. أو يقولون إن أباها تنداريوس Tandarus كان قد بعث بها إليه ليحافظ عليها من أنيارو‌فوروس Enarophorus ابن هيپكيون Hippocoon وكان يحاول اختطافها وحملها بالقوة وهي طفلة. لكن أقرب الروايات احتمالاً وأغناها بالشهود هي الآتية: ذهب ثيسيوس وپيرتاووس إلى سپارطا، وبعد أن خطفا الصغيرة أثناء ما كانت ترقص في معبد ديانا أورثيا[99] هربا بها فخرج رجالٌ مسلحون لتعقُّبهما، إلاّ انهم لم يمضوا في مطاردتهما أبعد من تيجيا Tegea. ولما أمن الخاطفان المطاردة وفي أثناء مرورهما ببلاد البيلوبونيسوس وصلا إلى اتفاق فيما بينهما، وهو أن يقترعا على هيلين، فمن خرجت له اتخذها زوجاً، والظافر بها يجب أن يساعد الخاسر في الحصول على أخرى. وسُحبت القرعة وفاز ثيسيوس فأخذ هيلين إلى مدينة أفيدني Aphidnae[100] ولم تكن تصلح للزواج - وأودعها لدى واحد من حلفائه المدعو أفيدنوس، ثم بعث بأمه إيثرا لتُعنى بها هناك وطلب من حليفه هذا أن يكتم سرّهما لئلا يعرف أحد موضعهما. بعد أن فرغ من هذا عاد إلى صديقه للوفاء بالوعد ورافقه إلى إيپيروس Epirus ليخطفا بنت ملك المولوسيين Molossians المدعو ايدونيوس Aidonius أو پلوتو. وكان هذا الملك قد جمع زوجه پروسپرينا Prosprina[101] وابنته كوراي

= على المرشحّ (وتقام في أغرا بالقرب اليوسيس). وبعد أن يُعدّ المرشح نفسه بالصيام والتأمل يجب عليه أن يضطجع على جلد خنزيرة حامل سبق أن ضُحيت لجوپتر. ثم عليه أن يغتسل بماء البحر الذي يمازجه الملح والغار والشعير وبعدها يمرّ عبر النار ثم يكلل بالزهر. ويقضي المقبول في الأسرار السنة التالية يدرس المراسم للبعث الجديد. وبعد هذا كله (باستثناء مراسم وخاصة جداً قاصرة على رتبة الكهنوت) يتم تكريسه نهائياً بارتداء الثوب الذي كُرّس فيه لا ينزعه عنه حتى يهترئ ويغدو خرقاً فيوقفه على سيريس أو پروسپرين أو يحفظه لأولاده.

(٩٩) اعتاد السپارطيون جلد أولادهم فوق مذبح معبد ديانا أورثيا هذا جلداً مبرحاً بأشدّ وأقسى ما يتصوّره العقل لتعويدهم على الاحتمال. كانت هيلين التي عرفت بأنها بنت جوپتر من ليدا زوج تنداروس في العاشرة من العمر عندما اختطفها تيسيوس وپيريثاووس.

(١٠٠) مدينة تقع بالقرب من أثينا.

(١٠١) «پروسپرينا» أو «كوراي» اسمان لامرأة واحدة هي ابنة إيديونيوس بعل سيرس. وپلوتارخ =

Corae وكلباً هائلاً عنده يدعى سيربيروس. وطلب من كل خاطب لابنته أن ينازل هذا الكلب فإذا تغلب عليه فاز بها. ولكن لما أبلغ أن قصد پيرتاووس ورفيقه هو اختطافها[١٠٢] لا خطبتها أمر بإلقاء القبض عليهما وطرح پيرتاووس إلى كلبه فمزّقه تمزيقاً وألقى ثيسيوس في السجن وأبقاه.

في هذا الزمن نبغ مينيسثيوس Menestheus ابن پيتيوس وحفيد أوريندس، وابن حفيد أرختيوس وهو أول خطيب جماهيري في التاريخ، ممن اشتهر بالمقدرة على خطب ودّ الجماهير وإثارتهم وتزعّم جموعهم. هذا الرجل أثار حفائظ وموجدات كبار القوم في المدينة، ومنهم عدد كبير ممن كان يضمر لثيسيوس حقداً دفيناً لأنه جرّدهم من إقطاعياتهم وسلطانهم وحشرهم جميعاً في مدينة واحدة، واستخدمهم كالرعية أو العبيد. ومن ناحية ثانية دفع هذا المشاغب أحطّ الناس وأوزاعهم إلى الهياج والفتنة، قائلاً لهم إنهم خُدِعوا بمجرد حُلم بالحرية، في حين أنهم في الحقيقة جرّدوا من تلك الحرية ومن بيوتهم الحسنة، وعقائدهم الدينية، وبدلاً من ملوكهم الطيبين الصالحين استسلموا وخضعوا لاستبداد شخصٍ أجنبي طفيلي. وفيما هو ماض في إفساد عقول المواطنين زوّدته الحرب التي شنّها كاستور وپولوكس بفرصةٍ ثمينة ليزيد من حجته قوة وأثراً. وزعم بعضهم أن تحريضه وإثارته كان السبب الأساس لهجومهما على أثينا. على أنهما لم يقترفا شيئاً في أول زحفهما ولم يبدُ منهما اعتداء، وإنما طلبا هيلين أختهما بصورة ودية مسالمة فنفى الأثينيون وجودها في المدينة وأكدوا جهلهم بموضع إخفائها، فتأهبا للهجوم. وهنا خف أكاديموس لنجدتها إذ عرف بوسيلة ما مخبأ المخطوفة، فدلّهما عليها ولهذا السبب أغدق عليه كاستور وپولوكس النعم والعطايا ما أغناه طول حياته. وكان اللقيديمونيون أثناء اجتياحهم المتكرر لأتيكا والبلاد المجاورة وإيقاعهم الخراب بها لا يمسّون [الأكاديمي][١٠٣] بأذى لأجل ذكرى أكاديموس. إلاّ أن ديكيارخوس Dicaearchus يقول بوجود شخصين أركاديين في جيش كاستور

= يحدثنا في كتاب «الأخلاق» قائلاً إن المقصود بپروسپرين هو القمر الذي يقوم پلوتو إله الظلام بخطفه أحياناً. والواقع أن كوراي لا تعني إلاّ «فتاة أو بنت» فيقال «بنت إپيروس» كما يقال بنت لبنان أو بنت الصين الخ...

(١٠٢) رغب أفلاطون (الجمهورية ٣٠) أن يستر خِلّة أبناء الآلهة هؤلاء ويبرّئهم من تلك التهم التي تفتقر إلى إثبات فنفى الحكاية من أساسها.

(١٠٣) موضع تحفّ به الأشجار بالقرب من نهر كِفسوس يبعد حوالي ميل واحدٍ شمال غرب أثينا، وهنا كان أفلاطون وتلاميذه يجلسون للدرس (انظر سيرة كيمون).

وپوللوكس أحدهما يدعى أخيديموس Echedemus والثاني يُدعى ماراتوس Marathus. ومن اسم الأول اشتق ما يعرف الآن بالأكاديميا، التي سمّيت فيما بعد أخيديميا. ومن اسم الثاني استمدت ماراثون القرية اسمها. فقد عرض هذا الرجل نفسه ضحيةً للآلهة قبل المعركة، تحقيقاً لنبوءة ما.

وبلغ كاستور وپوللوكس مدينة أفيدنيا وتغلبا عليها في معركة فاصلة واستوليا على المدينة. وفيها قُتل إليگوس) ابن سيرون وهو من جماعة الديوسكوري (أي كاستور وپوللوكس)، على ما قيل. ويوجد في ميغارا موضع دُفن فيه ما يزال يدعى إليگوس. ويكتب هيرياس أن ثيسيوس هو الذي قتله، ويستشهد على ذلك بالبيتين الآتيين عن اليكوس:

«وقتل اليكوس في سهل أفيدنيا.

قتله ثيسيوس، في سبيل هيلين الشقراء»

على أنه لا يوجد ما يؤيّد وجود ثيسيوس هناك عندما استولي على المدينة وأسِرت أمه.

ومهما يكن من أمرٍ فقد بسط كاستور وپوللوكس سلطانهما على أفيدنيا. واستبد القلق بمدينة أثينا. وأفلح مينيسيتوس في إقناع الأهالي بفتح أبوابها واستقبالهما بكلّ مظاهر الصداقة قائلاً: إن عدوّهما الوحيد هو ثيسيوس الذي كان البادئ بالشرّ، وإنهما سينقذان الأهالي. وكان سلوك الفاتحين مصداقاً لهذا فبعد أن استتبّ لهما الأمر في المدينة لم يطلبا أكثر من منحهما حتى القبول في الأسرار، لأن صلة قرابتهما بها لا تقل عن صلة هرقل[(١٠٤)] وكان قد نال التكريم نفسه من قبل. فحقق لهما مطلبهما وتبناهما أفيدنوس Aphidnus مثلما تبنّى پيليوس Pylius[(١٠٥)] هرقل، واحتفى بهما كما يحتفي بالآلهة. وسمّيا بالاسم الجديد أناكسيس وهو إما مأخوذ من الهدنة Anoche التي تلياها أو من تدابير الرعاية التي اتخذاها كيلا يلحق بأحدٍ مكروه بوجود جيش كبير داخل المدينة. ذلك لأن جملة «أناكوس وايخين Anakos, ekhein» تطلق على من هم شديدو الاهتمام بكل شيء، ولهذا تجد ملوكاً يلقبون بـ«أناكتس». ويقول بعضهم إن

(١٠٤) ذلك لأنهما ابنان لجوپتر أيضاً وهو الإله الذي يدّعى الأثينيون بأنهم جاؤوا من صلبه. لذلك كان من الضروري أن يمنحا حقوق المواطنة قبل قبولهما في الأسرار. وعلى هذا الأساس تمّ منحهما الجنسية عن طريق التبنّي.

(١٠٥) ملك ثسپي Thespiae في بويوسيا.

تسميته هذه من أناكيس Anakes مظهر في الفلك. ففي اللهجة الأتيكية يقترب هذا الاسم اقتراباً شديداً من الكلمات التي تعني «فوق» أو عالٍ فالأثينيون يستعملون كلمتي أنيكاس Anekas وأنيكاثن Anekathen بدلاً من آنو Ano وآنوثين Anothen.

وقيل إن إيثرا والدة ثيسيوس أُسِرت هناك، وحُملت إلى لقيديمون، ومن هناك ذهبت إلى طروادة مع هيلين. ويستندون في زعمهم هذا إلى بيت للشاعر هوميروس حين يذكر من رافقها: «إيثرا وكليمينه الحوراء الجميلة الليّن وكِدتا لپيثيوس»[١٠٦]. لإثبات أنها كانت ترعى شؤون هيلين. ويسقط آخرون هذا البيت ولا يعدّونه من شعر هوميروس[١٠٧]، كما ينبذون كأسطورة مونيخوس الذي كان - كما تقول الحكاية - بناً لديموفون Demophon ولاوديكه Laodice أنجباه سِرّاً، وقامت إيثرا على تربيته في طروادة لكن إيستر Ister يتحفنا برواية أخرى عن إيثرا في الكتاب الثالث عشر من تاريخه عن أتيكا، وهي تختلف عن الباقيات. يقول إن آخيل وپاتروكليس تغلبّا على ألكساندر: [پاريس Paris] في تسالي قرب نهر سپيرخيوس Sperchius. لكن هتكور استولى على مدينة طروزين ونهبها وأسر إيثرا هناك... والظاهر أن هذه القصّة لا أساس لها من الصحة.

في أثناء مرور هرقل بالمولوسيين حَلّ ضيفاً على إيدونيوس الملك فنوّه هذا عرضاً برحلة ثيسيوس وپيرتاؤوس إلى بلاده، وقصّ عليه ما كانا يريدانه وما حَلّ بهما نتيجة ذلك. فاغتمّ هرقل غمّاً عظيماً للموت المخزي الذي لاقاه أولهما والوضع المزري الذي آل إليه ثانيهما. ولمّا كان من العبث أن يبحث في موضوع الأول لموته فقد توسط في أمر الثاني فنال بغيته ولبّى الملك طلبه. وأسرع ثيسيوس إلى أثينا بعد إطلاق سراحه، وكان في أنصاره ومؤيديه بقية.

وهناك أوقف على هرقل كل الأماكن المقدسة التي كرّستها له. وغيّر أسماءها من يقسيا إلى هرقليا[١٠٨] اعترافاً بفضله، إلاّ أنه استثنى أربعة فقط كمّا حدثنا فيلوخورس.

---

(١٠٦) الإلياذة ٣: ١٤٤.

(١٠٧) يبدو ذلك بعيد الاحتمال. فمن غير المنطق أن تكون حماة هيلين وصيفتها أو أن تكون وصيفة هيلين ملكة! ومع هذا فإن حكاية أسر إيثرا تطابق كثيراً الصورة التي كانت تشاهد في دلفي. إذ بدت إيثرا ورأسها يُحلق كالعبيد وحفيدها يشاهد وهو يتوسط في الإفراج عنها (پاوسنياس ١٠: ٢٥).

(١٠٨) أظهر يوريپيدس تيسيوس في مسرحية «هرقل في تجواله» وهو يعد منقذه بالقيام بهذا العمل على سبيل الوفاء.

وبدافع من رغبته في البقاء محتلاً المكان الأول في الجمهورية، وتصريف شؤون حكمها كالسابق، ما لبث أن وجد نفسه مشتبكاً مع الأحزاب في صراع، والمتاعب تحفّ به من كل جانب، فأولئك الذين طالما أبغضوه أضافوا إلى بغضائهم احتقاراً، وبلغ فساد خواطر الشعب مبلغاً من التفسخ بحيث ما عادوا يطيعون الأوامر بصمت، وإنما صاروا يُدفعون إلى أداء واجباتهم بالملق والمداهنة. ومال به الفكر إلى استعمال القوة لإخضاعهم، ولكن الأحزاب ومثيري الشغب من الديماغوغيين كانوا أقوى نفوذاً. وأخيراً أدركه اليأس من التوصل إلى أي نجاحٍ مجدٍ في أثينا، فبعث بأولاده سراً إلى «يوبوا» ووضعهم في رعاية اليفينور Elephenor ابن خلقدون، ثم لعن شعب أثينا في قرية گارگيتس حيث ما زال يوجد فيها موضع يدعى أراطيريون Araterion أو موضع اللعان أو الدعاء. وأبحر إلى سكيروس Scyros[(١٠٩)] وفيها أراض خلّفها له أبوه، وصداقات توهّم وجودها بين الأهالي. وكان ليقوميدس Lycomedes ملكاً على الجزيرة يومذاك، فقصده ثيسيوس وأنهى إليه رغبته في تمكينه من أراضيه لأنه قرر السكن والاستقرار في الجزيرة. وهنا يختلف الكتّاب فبعضهم يقول إنه اتصل به طالباً منه العون على الأثينيين، وإن ليقوميدس إما حسداً لمجدٍ رجل عظيم، أو إرضاءً لمينيسيتوس[(١١٠)]، قاده إلى أعلى جُرفٍ في الجزيرة، بدعوى مشاهدته الأراضي من موقفه ذاك. وقذف به من حالق، فقُتل، ويقول آخرون: لا بل سقط قضاءً وقدراً حينما زلّت قدمه أثناء سيره هناك كعادته يومياً بعد العشاء. ولم يلحظ أحد موته يومذاك ولم يهتم به أحدٌ. وتمكن فيستيوس من بسط سلطانه على مملكة أثينا بهدوءٍ، ونشأ أولاد ثيسيوس نشأة خصاصةٍ وفقر، وصحبوا اليفينور في حروب طروادة لكنهم عادوا إلى أثينا بعد موت مينستيوس في تلك الحملة، واستعادوا الملك. وفي العصور التالية نجحت عدة ظروف حملت الأثينيين على تكريم ثيسيوس وإنزاله منزلة نصف إله. ومن تلك الظروف ما حصل في المعركة التي خاضها الأثينيون في ماراثون ضد الميديين. فلقد اعتقد كثيرٌ من الجنود أنهم شاهدوا شبح ثيسيوس وهو بدروعه وسلاحه يتقدمهم في الهجوم على البرابرة[(١١١)].

---

(١٠٩) تقع هذه الجزيرة مقابل يوبويا. أصبح الأثينيون ناكرو الجميل يشعرون بمرور الزمان بآثار هذه اللعنة. حتى أنهم قرروا تهدئة لطيفة لزائر أن يقدموا له قرابين عامة وأن يحيوا ذكراه بتكريم كتكريم الآلهة.

(١١٠) أو كما قال بعضهم: بعد أن تبيّن له أنه يريد إفساد رعيته عليه وإغواء زوجه.

(١١١) پاوسنياس (١ : ١٥ : ٤).

وبعد الحرب الميدية عندما كان فيدو Phaedo أرخوناً لأثينا(١١٢)، استخار الأثينيين عرّافةَ دلفي، فأُمروا بجمع عظام ثيسيوس ودفنها في موضع لائق بمقامه، واعتبارها من ذخائر المدينة المقدسة. إلاّ أن جمع بقاياه كان في غاية الصعوبة، وأصعب منها التوصل إلى موضعها فقد ضاع الموقع عن الأذهان بعد سكنى البرابرة المتوحشين الغلاظ في الجزيرة(١١٣). ومرّت الأيام ثم استولى كيمون Cimon على الجزيرة (كما أوردنا ذلك في سيرته) وكان شديد الرغبة والحماسة في العثور على الموقع الذي يضمّ جسد ثيسيوس. وتشاء الصدفة أن يلمح نسراً جاثماً على نشز من الأرض ينقر التراب بمنقاره وينبشه بمخالبه، وفجأة قدحت فكرة في رأسه بما يشبه الوحي الربّاني بأن يحفر هناك ويبحث عن عظام ثيسيوس، ففعل ووجد في ذلك الموقع تابوت رجل جسمه أكبر من المعتاد، ووجد سنان رمح نحاسي، وسيفاً مسجّى معه، فرفع الجميع وحمله إلى سفينة وقدم إلى أثينا، فاستبد الفرح بالأثينيين وخرجوا للقاء الذخائر الكريمة واستقبالها بما يليق من المواكب الفخمة والقرابين، حتى لكأنّ ثيسيوس يعود إلى المدينة بلحمه ودمه حياً. إنه اليوم يرقد في وسط المدينة قرب الجمنازيوم الحالي(١١٤). وقبره ملجأ وملاذ للعبيد والفقراء والملهوفين الهاربين من اضطهاد ذوي السلطان. جُعل كذلك اعترافاً بسجايا ثيسيوس وغيرته في معاونة

---

(١١٢) هو الملك السابع عشر لأثينا معاصر الملك الإسرائيلي شاؤول. ضحّى نفسه في سبيل بلاده أثناء القتال مع الدوريين والهيراقليديين العام ١٠٧٠ ق.م إذ علم أن النبوءة وعدت بالنصر لأيّ طرف يسقط قائده قتيلاً وبسبب ذلك عظّمه مواطنوه تعظيماً يفوق الوصف حتى اعتبروا أن ليس بعده من يستحق أن ينصّب ملكاً فألغوا المنصب ووضعوا السلطة بيد مجلس من الحكام باسم الأراخنة (ج: أرخون) يتمّ اختيار أعضائه بالاقتراع كما اختاروا لرئاسة المجلس ميدون أكبر أبناء الملك الصريع. وكان الأرخون يحكم طول الحياة في مبدأ الأمر وقد تعاقب ثلاثة عشر منهم في ظرف ٣١٦ سنة. وبعد موت الكيمون آخرهم جعلت الفترة محدودة بعشر سنين وبقيت منحصرة في أسرة الملك قدروس حتى موت أرخياس أو ثيسياس على قول بعضهم وهو السابع في الطبقة الثانية من الحكّام الأعلين. وبه خُتم حكم أسرة قدروس وعندها استنّ الأثينيون مبدأ حكم الأرخون السنوي وصاروا يختارون تسعة بدلاً من واحدٍ سنوياً (سنعود إلى شرح ذلك بتفصيل أكثر في حياة صولون). حكم فيدون ما بين ٤٧٦ و٤٧٥ ق.م.

(١١٣) لا يمكن القبول بهذه الروايات عن سكيروس ولا سيما من أولئك الذين يتذكرون أن أخيل كان قد أرسل قبل عصر كيمون بسبعة قرون إلى بلاط ليقوميدس وأن سكيروس لقربها من يوبويا يجب أن تكون ذات علاقات مع بلاد الإغريق.

(١١٤) يقصد جمنازيوم بطليموس [پاوسنياس ١:١٧:٢].

المظلومين، ووقايتهم من السوء، وعدم تقاعسه مرة واحدة عن إجارة مستجير أو إغاثة مضطهدٍ يلوذ بحماه. إن أعظم وأجلّ قربانٍ يقدّمه له الأثينيون هو في الثامن من شهر بيانپسيون Pyanepsion وهو اليوم الموافق لعودته من كريت مع الشبان الأثينيين. وهم أيضاً يضحّون له في اليوم الثامن من كل شهرٍ على مدار السنة، إما لأنه كان قد عاد من طروزين في الثامن من شهر هيكاتومبيون كما ذكر ديودوروس Diodorus الجغرافي، وإما لأنهم يعتبرون عدد (٨) هو العدد الملائم له، إذ قيل إنه ولد لنبتون وإنهم ليقرّبون إلى نبتون في اليوم الثامن من كل شهر. ورقم ثمانية الذي هو أول مربّع لعدد زوجي، ومضاعف أول مربّع[١١٥]، يبدو وكأنه شعار قوة جبّارة ثابتة لهذا الربّ الذي لُقّب منذ ذلك الحين أسفاليوس Asphalius وگيوخوس Gaeiochus أي مؤسس الأرض ومثبتها.

---

(١١٥) لمبدأ الأعداد المستمدّ من المصريين القدماء عن طريق فيثاغوراس منزلةٌ عالية جداً عند بلوتارخ.

رومولوس

ROMULUS

روموس





رومولوس

عمّن أخذت روما[١] اسمها وفي أي ظروف عُرف هذا الاسم المؤثّل الشهير على أفواه البشر؟ إن الكتّاب يختلفون في هذا فبعضهم يرى أن البلاسجي Pelasgi[٢] في أثناء تجوالهم خلال كل العالم المعمور وإخضاعهم شعوباً لا تحصى آثروا الاستقرار هنا، وسُمّيت مدينتهم «روما»[٣] لبأسهم العظيم وقوّتهم الحربية. ويزعم آخرون أن زمرة من أهالي طروادة تمكنوا من النجاة بعد الاستيلاء على مدينتهم ويسّرت الأقدار لهم سفناً أبحروا بها، فدفعت بهم الريح حتى سواحل توسكانيا وأرسوا على مقربة من

---

(١) من أجل استنادنا إلى أقرب تاريخ لظهور صاحب السيرة، علينا أن نفترض العام ٧٥٣ ق.م تاريخاً لتأسيس روما وأن نفترض العام ٧١٦ ق.م تاريخاً لوفاة رومولوس. وهما حدثان لا يبعدان زمنياً بكثير عن عام الميلاد فإنهما والحالة هذه يحيط بهما الغموض والجهالة، ويراهما بعض من قبيل الرجم بالغيب أو التقدير الفلكي. ويحدد آخرون غموض تاريخ روما بفترة حكم ملوكها السبعة الذين حكموا طوال ٢٢٤ عاماً. وتسلّم طبقة ثالثة من المحققين بالقليل المؤكد مما ورد عن أية وقعة خلال القرون الخمسة التي تلت تأسيس روما. وكتّاب الإغريق وهم على الأغلب شعراء ومدّونو أساطير لم يهتموا بما كان يحصل في إيطاليا. كما أن نوما لم يترك لنا شيئاً غير ما يتعلق بالدين أو الفلسفة. ولم يبرز مؤرخو الرومان إلى عالم الوجود الاّ بعد الحرب الفينوّية.
هذا هو الغموض الذي يحفّ بأصول روما في عهد الأباطرة وشأنها في ذلك شأن معظم المدن والشعوب القديمة إلاّ أن الغموض هنا أكثر وأظهر لأنّ أول من سكنها لاجئون وخارجون على القانون ينتمون إلى شعوب أخرى ولا ينتظر منهم أن يتركوا لنا تاريخاً. إلاّ أن ليفي وغيره من مؤرخي اللاتين يتفقون على أن رومولوس هو باني روما وأن المدينة وأهلها اتخذا لهما اسمه. في حين نرى كبرياء كتّاب الإغريق وخيلاءهم تدفعانهم إلى أن ينسبوا لأنفسهم كل شيء بما في ذلك روما نفسها.

(٢) هؤلاء - وأصلهم من أركاديا - هم أول سكان بلاد الإغريق. ومن هناك طردوا فسكنوا بساليا وأُزيحوا إلى إيبروس ثم إلى مقدونيا وإيطاليا وكريت وآسيا.

(٣) الكلمة تدل على القوّة.

مصبّ نهر التيبر Tiber. وهناك عقدت نساؤهم المنهوكات المريضات بنوء البحر عزمهنّ على احراق السفن[٤] بناءً على اقتراح تقدّمت به واحدة منهن اسمها «روما» وهي ذات نسب رفيع وفكر راجح. ففعلن ذلك وثار غضب الرجال أول الأمر، لكنهم اضطروا إلى البقاء قرب پالاتيوم Palatium وانصلحت أمورهم بعد زمن قصير بشكل فاق آمالهم. إذ وجدا الأرض خصبة جداً والمواطنين بالغي الطيبة، فزادوا في إكرام السيدة «روما» بإطلاق اسمها على المدينة التي كانت هي سبباً في وجودها. ومن هنا جاءت - على ما قيل - العادة الشائعة في روما، وهي أن تحيّي النساء الرومانيات ذوي قرباهن وأزواجهن بالعناق والقبل، لأنّ النسوة بعد إحراقهن السفن استخدمن هذا الأسلوب من التدليل والتحبب لتهدئة خواطر أزواجهنّ.

ويقول بعض الكتّاب إن «روما» التي أخذت المدينة اسمها منها هي بنت إيطالوس Italus وليوكاريا Leucaria أو كما يزعم آخرون أنها ابنة تيلافوس Telaphus ابن هرقل، وقد تزوّجت أينياس Aeneas أو أسكانيوس Ascanius ابن أينياس على حد زعم آخرين. ويحدّثنا بعضهم أن رومانوس Romanus ابن أوليسوس Ulysses وچيرچه Circe، هو الذي بناها. ويقول آخرون إن بانيها هو روموس Romus ابن إيماتيون Emathion الذي أرسله ديوميد من طروادة. ويقول آخرون بل هو روموس ملك اللاتين، بناها بعد أن طرد الترينيين Tyrihenians[٥] الذين قدموا إلى ليديا من تسالي ثم انحدروا إلى إيطاليا.

أمّا الكتّاب الذين يجعلون اسم رومولوس مصدر اسم المدينة فهم يختلفون فيما بينهم حول ظروف ولادته. فبعضهم يقول إنه ابن أينياس ودكزيتيا Dexithea بنت فورباس Phorbas وإنه وأخاه ريموس حُملا إلى إيطاليا في حداثتهما. وكانا على صفحة النهر عندما فاضت مياهه وطغت فأغرقت كل المراكب الطافية إلاّ السفينة التي تقلّهما، فقد رست بهما برفق على الضفة وكُتبت لهما نجاة غير متوقعة. ومن اسميهما جاء اسم الموضع «رومه». ويقول بعضهم إن «روما» هي بنت السيدة الطروادية صاحبة الاقتراح بحرق السفن، تزوجت لاتينوس ابن تيلماخوس Telemachus وأنجبت رومولوس. ويقول آخرون إن أميليا Aemilia بنت أينياس ولاڤينيا Lavinia زوجه،

---

(٤) انظر الإينياد [٥: ٦٠٤: ٦٩٩].

(٥) هو اسم آخر لشعب التوسكان. وهؤلاء هم غير الپلاسچي الذين ورد ذكرهم ولم يكونوا مستوطنين. أقبلوا من ليديا كما يزعم ديون بسبب اختلاف لغتهم وعاداتهم ودينهم وقوانينهم.

ولدته للربّ مارس. ويتحفك آخرون بأساطير مماثلة عن أصل الرجل، فعند طارخيتيوس Tarchetius أن ملك ألبا Alba الذي كان شرّ الناس وأقساهم ظهر في بيته شبح غريب خرج من موقد النار على هيئة رجل، وبقي هناك عدة أيام. وكان ثمّ عرّافة لتيثيس Tethys في توسكابا(٦)، استخارها طارخيتيوس في شأنه فكانت النبوءة هي أن تهب عذراء من العذارى نفسها للشبح، وستنجب منه ولداً يكون شأنه عظيماً وبأسه شديداً، ويسمو به جِدّه ويرتفع سعوده. فأسرّ طارخيتيوس بالنبوءة لإحدى بناته وأشار إليها أن تسلّم نفسها للشبح فاستنكرت الأمر وأبت وأرسلت خادمتها بدلاً منها. ولما سمع طارخيتيوس بما فعلت استشاط غضباً وأمر فألقي بالبنت والخادم في السجن وكان ينوي قتلهما، إلاّ أن الربة نستا منعته، إذ ظهرت له في الحلم، ففرض عليهما عقوبة: أنْ يحيكا نسيجاً وهما مكبّلتان بالاغلال، فإذا أكملتاه أُجبرتا على الزواج بمن يختاره لهما، ولكنه كان يأمر أتباعه أن ينقضوا في الليل ما نسجتاه في النهار.

وفي غضون ذلك وضعت الحامل وليدين، فسلّمهما طارخيتيوس لشخص يدعى تيراتيوس Teratius وأمره بإهلاكهما، فحملهما ووضعهما قريباً من ضفة النهر. وأقبلت ذئبة وراحت ترضعهما، في حين قدمت طيور مختلفة حاملة بمناقيرها قطعاً صغيرة من الطعام لتضعها في فميهما. إلى أن لمحهما راعي بقر فانتابته الدهشة، لكنه تجرّأ على الاقتراب منهما ورفعهما إلى حضنه، وهكذا كُتبت لهما النجاة. ولمّا بلغا أشُدّهما هاجما طارخيتيوس وتغلّبا عليه. هذه الأسطورة يوردها پروميثيون Promethion في تاريخ إيطاليا.

إلاّ أن القصة الأقرب إلى التصديق، وهي التي يقرّ بصحتها أكبر عددٍ من الثقات، كان ديوكليس الپيپاريتوس Peparuthus أول من أذاعها بين الإغريق بوقائعها الرئيسة، وجاراه في معظم تفاصيلها فابيوس پكتور Fabius Pictor(٧) أيضاً، لكن الروايتينْ لا تخلوان من اختلاف. أما الشكل العام لهما فهو كما يأتي:

---

(٦) ليس ثم نبوءة بخصوص تيڤس على أن هناك نبوءة حول ثميس. وكان مع كارمتا المنوّه بها فيما بعد.

(٧) پيپاريثوس هي مجموعة من الجزء في بحر إيجه. اشتهرت بخمرها. ولا يعرف عن ديوكلس شيء. أما فابيوس بكتور الذي ينعته ليڤي «بأقدم الكتاب الرومان» فهو أحد أعضاء الوفد الذي أرسل إلى دلفي بعد معركة كاناي السيئة الصيت للسؤال عن الوسائل التي يمكن بها استجلاب رضا الآلهة. وقد اتهمه پوليبيوس في حولياته بأنه أساء معاملة القرطاجيين.

«كان ملوك ألبا[8] يتوارثون الحكم على طريقة التسلسل العمودي، اعتباراً من جدّهم الأعلى أينياس إلى أن رست الخلافة أخيراً على الأخوين نوميتور Numitor وأموليوس Amulius[9]، فاقترح ثانيهما تقسيم الميراث إلى قسمين متعادلين[10]، وجعلت المملكة معادلة للذهب والكنوز التي جيء بها من طروادة. واختار نوميتور المملكة. وبحيازة أموليوس المال والذهب غدا قادراً على أن يفعل كل ما يقصر عنه نوميتور وآل به الأمر إلى انتزاع مملكة أخيه بسهولةٍ. ولخوفه أن تنجب ابنته أولاداً جعلها «ڤستاله»[*] وبهذا رسم لها أن تعيش عذراء إلى الأبد ولا تتزوج. وبعض الكتاب يسمّي هذه المرأة السيدة إيليا Ilia وبعضهم يسمّيها ريا Rhea وآخرون سلڤيا Silvia.

---

(٨) بين أينياس حتى نوميتور داميليوس ثلاثة عشر ملكاً من السلالة ذاتها إلاّ أننا نكاد لا نعرف شيئاً عنهم أكثر من أسمائهم وسنيّ حكمهم. وآخرهم أميليوس الذي فاق أخاه شجاعة وعقلاًو طرده من العرش. وقتل إيجستوس ابن نوميتور الوحيد وكرّس ابنته (ريا سلڤيا) لعبادة ڤستا ليؤمّن بقاءه في السلطة.

(٩) ليڤي ١ : ٣.

(١٠) لم يذكر ديون ١ : ٧ عن هذه القسمة شيئاً. ولكنه يذكر فحسب أن أميليوس انتزع العرش بالقوة وطرد أخاه ظلماً وعدواناً وهو أحق بالعرش. وأيّد هذا فقرة أوردها ليڤي (١ : ٦) إذ قال «لما كان ريموس وروملوس توأمين فليس ثمّ وسيلة لترجيح أحقّية أحدهما في الحكم على الآخر بمقتضى قانون الأقدميّة.

(*) عندما أوجد رومولوس شعلة النار الخالدة أوقفت على العناية بها عذارى يسهرن على إبقائها مشتعلة في كل مجتمع روماني وتحوّل هؤلاء النسوة إلى كاهنات لهن حقوق خاصة وعليهن واجبات صارمة وأطلق عليهن اسم عذارى ڤستا نسبة إلى ربّة النار. وكن في العادة يُخترن من بنات أعرق أسر روما وأن تتراوح سن الواحدة بين السابعة والثامنة وأن تضطلع بتأدية رسالتها ثلاثين عاماً تلتزم خلالها بالصفة. وبحكم سهرهن على النار التي تُعتبر أهم رمز للبلاد كن يُحطين من الشعب وحكامه بمركز يقرب من التقديس ويخلع عليهن أعظم الامتيازات وتحجز لهن في الملاعب العامة مقاعد الشرف ويتقدم مواكبهن ضباط الحرس. وإذا صادفن مجرماً يساق للموت فبإمكانهن إطلاق سراحه حالاً. وبمقابل ذلك يخضعن لقوانين صارمة فإذا أهملن النار وانطفأت جُلدن بلا رحمة وإذا فرّطن في عفافهن يُرجمن بالحجارة في عهد نوما، ثم وجد هذا العقاب غير كاف فصرن يجلدن أولاً ثم يدفن أحياءً بعد أن يترك في قبورهن مقدار من الطعام. ويسجل التاريخ أن ثمانية عشر منهن لقين حتفهن على هذه الشاكلة. وبسبب ذلك لم يسمح الآباء لبناتهن بالانخراط في هذا السلك. وبعد أن كان الاختيار قاصراً على أعرق الأسر سُمح لبنات الطبقة المتوسطة والعبيد المعتوقين. وأبطل هذا كله الإمبراطور ثيوروسيوس المسيحي بعد تغلّبه على خصمه أوجينيوس الوثني في العام ٢٩٤م وأصدر أمراً بإلغاء كل المعابد وبضمنها معبد ڤستا، وإطفاء النار فيه.

وعلى كلّ حال فإنه لم يمرّ طويل زمنٍ حتى اكتشف أنها حامل خلافاً لقوانين الڤستال الصارمة[11]. ووجب أن يحلّ بها أفظع عقاب. إلاّ أن أنثو Antho بنت الملك تدخلت وتوسطت لها عند أبيها، فأودعت سجناً منفرداً ومنعت من أي رفقةٍ لئلا تضع وليدها دون علم من الملك. وفي الوقت المحدد لها وضعت وليدين يزيد حجمهما عن حجم الوليد الاعتيادي ويفوقانه جمالاً فزاد هذا في غضب الملك أموليوس وأمر خادماً أن يحملهما ويُغرقهما. هذا الرجل يسمّيه بعض الكتّاب فاوستولوس وبعضهم يقول لا بل إن فاوستولوس هو الرجل الذي قام على تربيتهما. ووضع الخادم الولدين في صندوق صغير وقصد النهر عازماً على إلقائهما في مائه. لكنه خشي التقدم منه وألقى بهما على الضفة وقفل راجعاً. وكان ماء النهر الفائض يتعالى، حتى بلغ الصندوق. وحملته الأمواج وعوّمته برفق ولين، حتى أنزلته في أرض سهلة متطامنة يطلقون عليها اليوم اسم چرمانوس Cermanus، وكان اسمها قبلاً «جرمانوس» ولعلها من كلمة جرماني Germani أي الأخوة.

وإلى جوار هذه الأرض كان يوجد شجرة تين برّي أطلقوا عليها اسم رومياليس Ruminalis إمّا من رومولوس (وهو تعليل ضعيف) وإمّا من روميناتينغ Ruminating لأن الماشية تستظل بفيئها عادة وتقصدها تخلصاً من حرارة النهار لاجترار طعامها. والتعليل الأقرب من هذا أنها جاءت من عملية إرضاع الطفلين هناك، لأن القدماء يطلقون كلمة «روما» على التِقام الثدي، أو الإرضاع، وهناك ربّة مختصة برعاية الأطفال وتربيتهم ما زالوا يسمّونها «روميليا»[12] وهم لا يستخدمون خمراً في التقريب إليها[13]، وإنما يستعيضون عنه بالحليب. والتاريخ يحدّثنا أن ذئبة أرضعتهما[14] طوال وجودهما هناك، وأن طير نقّار الخشب كان يزوّدهما بالطعام بصورة مستمرة ويتولّى حراستهما، ومنزلة الذئبة والطير مقدسة عند الرب مارس، واللاتين ما زالوا يعبدون هذا الطائر ويكرمونه إكراماً خاصاً دون باقي الطيور. وهذه دلائل تقف في مقدمة الأسباب التي تدعم ما قالته والدة الطفلين من أن اباهما هو الربّ مارس نفسه وإن قال بعضهم إنه

---

(١١) ليفي ١: ٤ و ١-٥.

(١٢) ليفي: «الرومان لا يسمّون تلك الرّبة روميليا وإنما رومينيا». على أن كتّاباً آخرين يرفضون اشتقاقاً كهذا كما يرفضون أسطورة الذئبة ويرونها من قبيل التلفيق والتصنيع. ويرون أن الاحتمال الأغلب هو أن المدينة أخذت اسمها من «رومون» وهو اسم نهر التّيبِرَ الأول.

(١٣) لأنها كانت ضارة في تلك الفترة من عمر الطفل.

(١٤) ليفي ج ١: ٤ و ٦-٧.

وهم أوقعها فيه أموليوس الذي أتاها هو بنفسه ليلاً مرتدياً دروعه وسلاحه. ويظن آخرون أن أوّل ظهور لهذه الأسطورة جاء من اسم مُرضع الطفلين ويتضمّن معنى مزدوجاً فاللاتين لا يقتصرون على تسمية الذئاب بـ«لوبي» lupae وإنما يطلقون الكلمة نفسها على العاهرات. وكانت زوج فاوستلوس (أكا لارنتيا Acca Larentia) التي ربّتهما، امرأةً قليلة التمسّك بالعفّة. ويقدّم لها الرومان عدة قرابين. ويقوم كاهن الرب مارس بإرسال القرابين هناك في شهر نيسان بمناسبة العيد اللارنتي.

كذلك يكرمون لارنتيا[١٥] أخرى للسبب التالي: لم يدر حارس معبد هرقل كيف يقضي وقت فراغه الكثير، فاقترح على ربِّ معبده لعبة نرد على رهان: إن غلب الحارس أخذ شيئاً ثميناً من الرب وإن غلب الرب يتعهد الحارس أن يبسط له مائدة حافلة بأنفس الطعام ويؤمّن له رفقة امرأة جميلة. ثم ألقى بالنرد نيابة عن الرب، ثم ألقاه لنفسه فكان الرب هو الرابح. ولاعتقاده أنه مرتبط بعهد يجب الوفاء به أدَب للرب عشاءً فخماً ودفع مالاً للارنتيا وكانت في عِزّ جمالها وإن لم تشتهر بعد[١٦] - وجاء بها إلى المأدبة في المعبد وبسط فراشاً وبعد ختام العشاء خرج وأغلق الباب عليها كأنّ الربّ سيطأها حقاً. وقيل إنه جاءها فعلاً وأمرها أن تنزل إلى السوق صباح اليوم التالي وتسير الهوينا وتحيي أول رجل تلقاه وتتخذه خليلاً. ففعلت ولقيت رجلاً يدعى تارّوتيوس Tarrutius وكان متقدماً في السنّ طائل الغنى أعزب بلا عقِب، فضّم لارنتيا إليه وعلِق بحبها وترك لها عند وفاته كل ثروته وجعلها وارثته الوحيدة في كل ممتلكاته الواسعة فكتبت وصيّة موثّقة أوقفت بموجبها معظم الثروة على النفع العام. وذُكر أنها اختفت فجأة بالقرب من الموضع الذي يضمّ بقايا لارنتيا الأولى، ذلك لأنها اشتهرت وذاع صيتها لكونها محظية الربّ. والبقعة تسمّى ڤيلابروم Velabrum إلى يومنا هذا لأن النهر كثيراً ما يفيض ماؤه فيضطر الناس القادمون إلى الفورم Forum من المحلات المجاورة إلى ركوب الزوارق والأطواف. والكلمة اللاتينية لفعل التنقل بالطوف هي ڤيلاتورا Velatura[١٧]. ويشتق آخرون الاسم من ڤيلوم Velum أي شراع، لأن

---

(١٥) هذه المرأة حسب قول م. ريكارد يجب أن تدعى إكّا رونيتا نسبة إلى معاشرها. والمفروض أن يكون شأنها شأن فلور التي أوقفت ثروتها التي جمعتها من حياة الفسق والفجور على الشعب الروماني. فكرّمت مقابل ذلك بإحياء ألعاب سمّيت باسمها وهي ألعاب يشوبها التحلل والإباحية.

(١٦) في كتابه عن «الاخلاق» يقول بلوتارخ إنها كانت تعرف بـ«العاهرة الشعبية».

(١٧) أيّد هذا الأصل اللغوي ڤارو (de L. L. Varro = 4-7) الذي يشتق كلمة Velabrum من Velo =

متعهدي حفلات الملاعب العامة اعتادوا أن يعلّقوا شرعةً على طول الشارع المؤدي إلى الملعب الأكبر [سركس ماكسيموس Circus Maximus ابتداءً من الفورم حتى هذه البقعة. ولهذه الأسباب تكرّم لانتيا الثانية في روما.

قام فاوستولوس راعي خنازير أموليوس بتربية الأخوين سرّاً: ويقول آخرون[١٨] علم بذلك من الأول وكان يداخلهما ويساعدهما دون أن يدري به أحد. وقيل أيضاً إنهما أُرسلا إلى غابي Gabii[١٩] للدراسة وبرزا في الآداب وغيرها من فنون الثقافة مما يليق بأرومتهما. وإنهما سمّيا رومولوس وريموس من روما Roma أي الرضع لأنهما وُجدا وهما يرضعان من أثداء الذئبة على ما تقدم بيانه. وكانت ضخامة جسديهما وجمالهما منذ الحداثة مناسبين لتفوّقهما الطبيعي، ولما بلغا أشدّهما أثبتا مدى شجاعتهما ورجولتهما بمعاناتهما أخطر المغامرات والمهالك. وكان يبدو أن رومولوس كثير التروّي لا يُقدم على شيء قبل التفكير فيه، وأن له حكمة رجال السياسة والحكم، وكان يبدو وكأنه خُلق ليلقي بالأوامر لا ليتلقاها في كل علاقاته مع المجاورين سواء مايتعلق منها برعي الحيوانات أو الصيد ولذلك تعلّق بحبهما رفاقهما وأتباعهما. وكانا يحتقران ويزدريان خدم الملك ووكلاءه وحُجّابه، ولا يجدان أي ميزة يمتازون بها عليهما، ولا يهتمان قُلامة ظفر بأوامرهم وتهديدهم. وكانا يقضيان أوقاتهما في المفيد من الأعمال والدرس الكثير، ولم يجدا في الكسل والتعطل فائدةً أو فضيلة، وانصرفا إلى مختلف الرياضات كالعدو والقنص ومطاردة قطّاع الطرق، والقبض على اللصوص، وإنقاذ المضطهدين والمظلومين من الأذى وبسبب مآثرهما هذه اشتهر أمرهما.

نشأ خصام بين رعاة أبقار نوميتور وأموليوس ولم يحتمل الأخوان رعاة الأخير وضبط مواشيهم باعتداء رعاة الأول منهما فحملوا عليهم وأجبروهم على الهزيمة واستعادوا القسم الأكبر من الغنيمة، فغضب نوميتور غضباً شديداً، فلم يبالوا به.

= بوصفها مختصر Vehelabrum. أما الاستنتاج الثاني الذي يرى أنه مشتق من Velum فهو خطأ لا شك فيه. فالعادة المشار إليها [نشر خيمة في الحفلات العامة) بدأت قبل تاريخ وجود اسم «فيلابروم» وقت قيام كاتولوس بتكريس الكابتول [بليني: التاريخ الطبيعي ١٩ :١].

(١٨) ربما أحيا هذا أمل نوميتور في العودة إلى الحكم. على أن معرفته بالموضع الذي كان الطفلان فيه يتلقيان علومهما، وإمدادها بأسباب العيش يتناقض تماماً والطريقة التي أدت إلى اكتشافهما عندما بلغا أشدّهما وهذا أهم جزءٍ من الرواية.

(١٩) إحدى أقدم المستعمرات الألبانية تبعد اثني عشر ميلاً إلى جنوب شرقي روما ويقول ديون الهيالكارناسوسي [١ :١٩] إنهما درسا هناك الآداب اليونانية وفن الخطابة والتدرّب على استخدام السلاح.

وكانت الخطوة الأولى التي أقدما عليها بهذه المناسبة ضمّهما إلى زمرتهما عدداً من العبيد الآبقين والفقراء المدقعين - وهو عمل يعادل المرحلة الأولى للعصيان والثورة. واتفق أن رومولوس الشديد التمسك بفرائضه الدينية كان يقدّم قرباناً عندما التقى رعاة نوميتور بأخيه ريموس وهو مع قلةٍ من أصحابه يقومون برحلةٍ، فهاجموه ودار قتال بينهم وأخذوه أسيراً وجاءوا به إلى [نوميتور] وكالوا له التهم جزافاً. لكن نوميتور لم يشأ معاقبته بنفسه خشية أن يثير غضب أخيه أموليوس المعروف بقسوته الشديدة، واتصل به وطلب منه أن يأخذ بيده أمر تطبيق العدالة بوصفه أخاً أهانه رعايا خدمه. على أن أهل ألبا كانوا ناقمين على عمل خدم أموليوس، كما كانوا يعتقدون أن نوميتور قد عومل معاملة غير طيبة. وهكذا اضطر أموليوس إلى إبقاء ريموس بيد نوميتور ليعمل به ما يحلو له، فجاء به هذا إلى دياره وتزايد إعجابه بشخصية الفتى وجمال أعضائه وقوة جسمه التي لا مثيل لها بين الرجال، وتبيّن من وجهه آيات الشجاعة ومضاء العقل. وهي سجايا بقيت شامخةً غير متصاغرة رغم الظرف العصيب الذي يعانيه صاحبها. ثم بلغته أنباء كل المغامرات والمآثر التي أقدم عليها، وكلها دلائل على ما توسّمه فيه، ولا سيما القوة الإلهية التي تقود أولى الخطى إلى أعظم المصائر. وتمكن نوميتور من وضع يده على الحقيقة بإطاعته فكرة عابرة خطرت بباله عرضاً فدفعته إلى سؤاله بلهجة رفيقة عمّن يكون؟ ومن أين جاء؟ فتشجع ريموس وأجاب قائلاً: «لن أخفي عنك شيئاً، إذ يظهر لي أن طبعك أقرب إلى طبع الملوك من أموليوس، لأنك سمحت بالتحقيق في أمري وفحص قضيتي قبل ان تفرض عقاباً عليّ(٢٠)، في حين أن أخاك يعاقب قبل أن يعرف كُنه المسألة. كُنّا في السابق نعتقد، نحن التوأمين، بأننا ابنان لفاوستولوس ولارنتيا خادمي الملك، ولكن منذ أن ألصقت بنا التهم واكتنفتنا النوائب وحاقت الأخطار بحياتنا هنا أمامك ونحن نسمع اشياء كثيرة عن أنفسنا، ومما يشهد بهذه الحقيقة الخطر الحالي المحدق بنا الآن(٢١). قيل إن مولدنا يكتنفه الغموض

(٢٠) البيتان التاليان للشاعر الروماني فرجيل [١٩-٧٠ ق.م: الاينياد الكتاب السادس: ٥٦٦] وفيهما يصف محكمة قاضي جهنم فيقول: «يعاقب أولاً، ثم يسمع الدفاع. وأخيراً يرغم المتهم على الاعتراف. ويفسّر القانون ويحوّره بالشكل الذي يحلو له». Gmosius hoe shadanthus habet durissima regna Castigatque, auditqne dolos, subigi it que fateri

(٢١) لا بد أنهما سمعاً حكاية غامضة عن كيفية بقائهما العجيب على قيد الحياة زمان الطفولة. ولهذا استنتج ريموس بطبيعة الحال أن الأرباب الذين رعوهما هكذا سينقذونه من الخطر الحالي في حالة ما إذا كانت قصّة طفولتهما حقيقية.

والسرّ، وأغرب منه تربيتنا منذ الحداثة، فالطيور والوحوش التي أُلقينا بينها هي التي أطعمتنا فاغتذينا بحليب الذئبة وبلُقيْمات طائر نقّار الخشب، ونحن مُضجعون في صندوق صغير ملقى على ضفة النهر. إن الصندوق ما زال موجوداً كما خلّفناه وهو مصفّح برقائق من نحاس عليها كتابة كادت حروفها تمّحي. وهذه كلها تذكارات حقيقية لأبوينا بعد أن نموت ونغادر الدنيا». وبعد أن تأمّل نوميتور بهذه الأقوال، وبحسابه التواريخ ومقارنتها بمظهر سِنّ الشاب، لم يضعف الأمل الذي راوده، بل أخذ يفكّر كيف يتصل بابنته سِراً ويحادثها في هذه الأمور، لأنها ما زالت رهن السجن.

ولما سمع فاوستولوس بنبأ القبض على ريموس وتسليمه إلى نوميتور استنجد برومولوس لإنقاذه. وصارحه في تلك الساعة بتفاصيل سرّ ولادتهما وإن كان قبل هذا قد أبدى له تلميحات عنها وكشف ما يكفي الذكي السريع الخاطر للاستنتاج الكثير، ودفعه الخوف والقلق من تأخره في العودة إلى أن يحمل الصندوق ويسرع به إلى نوميتور في الحال. إلاّ أن بعض حراس الملك شكّوا في أمره ونظروا إليه بعين الريبة. وأربكته أسئلتهم فلم يسعه إلاّ أن يكشف عن الصندوق المخبّأ تحت عباءته. واتفق أن كان بين الحراس شخص من الأشخاص الذين شاهدوا إلقاء الطفلين(٢٢) فعرف الصندوق من شكله ونقشه الكتابي. وأدرك الغرض حالاً فأسرع إلى الملك وأخبره بالحقيقة، فأدخل فاوستولوس لانتزاع الحقيقة منه، ولم يكن ليحتاج إلى جَلْدٍ، ولم يكن بالرجل الذي يصمد أمام التهديد كما لم يلق عنتاً أو إكراهاً، فاعترف بأن الطفلين هما على قيد الحياة يعيشان في مكان يبعد كثيراً عن ألبا، ويمتهنان الرعيّ. وأنه قصد أخذ الصندوق إلى إيليا التي طالما اشتاقت إلى رؤيته ولمسه بيدها، ليتأكد لها أن طفليها على قيد الحياة. وفي تلك الأثناء انتاب أموليوس ما ينتاب المضطربين عقلياً فيعلمون إمّا بدافع من خوفٍ وإما بدافع من ثورة عاطفية، فأسرع يرسل إلى نوميتور رسولاً تربطه به صداقة متينة وزوّده بأوامر تقضي أن يعلم من أخيه عن وصول ما يؤيد وجود الطفلين على قيد الحياة(٢٣). فجاء الرسول وشاهد بأم عينه كم كان ريموس قليل

(٢٢) يبدو هذا مناقضاً لما ذكره پلوتارخ في الأول إذ أفاد أنه لم يكن ثم غير خادم واحدٍ هو فاوستولوس الذي استخدم في هذه المهمة الغريبة، على أن ديون الهاليكارناسوسي يصرّح من غير لبس بان عدداً من الخدم قد شاركوا في العمل.

(٢٣) ما يعزوه پلوتارخ إلى أميليوس من موقف لا يمكن أن يقبله العقل والمنطق لاسيما إذا قارنّاه بالحكاية التي أوردها ديون [المرجع السالف] بهذا الشأن.

الرغبة في أن يحضنه نوميتور ويضمّه إلى كنفه. وهذا ما جعله أكثر ثقة في نجاح مهمّته ومسعاه فنصحهما بمباشرة العمل وعرض عليهما معاونته. ولم يكن الوقت ليسمح لهما بالتردد لو شاءا إذ إن رومولوس كان قد اقترب كثيراً بقوة عظيمة، وراح المواطنون ينضوون تحت لوائه سراعاً بدافع الكره والخوف من أموليوس. وقسم رومولوس قواته إلى سرايا، الواحدة منها تعدّ مئة رجل. وكان كل آمر سريّة يحمل قُطباً خشبياً شدّ فوقه حُزمة من العشب الصغير. واللاتين يطلقون على هذه الحُزم مانيپولي Manipuli ومن هذا جاءت تسميتهم مانيپولارس Manipulares لقادة جيوشهم. وأخذ ريموس يثير الناس ويحرّضهم على الثورة من الداخل، وشرع يهاجم من الخارج. ولم يدر الطاغية ماذا يصنع وأي حيلة يحتال لسلامته حتى قُبض عليه وهو في حيرته وقتل.

إن معظم تفاصيل هذه الرواية التي أوردها فابيوس وديوكليس الپپاريثوسي، وهما على ما يبدو أول من ارَّخ تأسيس روما، مشكوك فيها بسبب ما يحيط بها من خيال ومبالغة، لكن ينبغي ألا ننبذها بكاملها. لو تذكر الناس إلى أي حَدّ من الخيال يسمو الشاعر أحياناً وإذا ما فكّر بأن العظمة الرومانية ما كان يتسنّى لها أن تبلغ هذه الذروة دون أن يكون للمشيئة الإلهية إرادة فيها، ولو لم تساعدها ظروف عجيبة فائقة للعادة.

بعد أن هلك أموليوس وعادت الأمور إلى الاستقرار والهدوء، لم يشأ الأخوان البقاء في ألبا دون أن يكونا حاكميها، ولا أن يستوليا على الحكم وجدّهما في قيد الحياة، فسلّما مقاليد الأمور إليه، وأكرما والدتهما الإكرام اللائق، وقررا الذهاب والعيش وحدهما وبناء مدينة في الموضع الذي تُركا فيه وعاشا وهما طفلان. وكان هذا أشرف سبب لرحيلهما، وهو يبدو ضرورة لا سبيل لهما إلى دفعها بسبب التفاف جموع غفيرة من العبيد واللاجئين حولهما، فوجدا أن أمامها سبيلين لا ثالث لهما، إمّا أن يفرّقا الجموع الملتفة ويعودا كما كانا قبلاً، وإمّا أن يأخذاها للعيش معاً في بقاع أخرى. على أن أهالي ألبا لم يرغبوا في ضم هؤلاء إليهم والاختلاط بهم، وبدت نيّتهم هذه في قضية خطف النساء وهو عملٌ لم يأته هؤلاء بدافع الشهوة، بل بحكم الضرورة والحاجة، إذ لم يكن في مقدورهم الحصول على زوجات طوعاً. وهذا ما أثبتته الوقائع، فقد أظهروا للنسوة اللاتي خطفوهن أشدّ الرعاية وأعمق الاحترام والتجلّة.

لم يمرّ طويل زمنٍ على إنشاء المدينة حتى أقاموا ملجأ يلوذ إليه اللاجئون وأسموه معبد الرب [آسيلاؤوس Asylaeus][٢٤] وكانوا يبسطون حمايتهم على كل قادم ولا

---

(٢٤) لا يعرف على وجه التحديد من يكون ربّ اللاجئين هذا. فبعض الشراح ومنهم داسيه يقول إنه =

يردّون مستجيراً قط، لا خادماً إلى سيده ولا مديناً إلى دائنه، ولا قاتلاً إلى قاضيه، متعللين بقولهم إن هذه البقعة اصطفتها الآلهة، ولذلك يمكنهم المحافظة على اللاجئ بقوة النبوءة. وغدت المدينة مكتظة بالسكان(٢٥)، ولم تكن تحوي في مبدأ امرها غير الف بيت على ما قيل... إلاّ أن هذا سيكون موضوع حديث تالٍ. وانصرفوا إلى البناء انصرافاً كلّياً، وما لبث أن ظهر شيء من الخلاف حول اختيار المواقع. تخيّر رومولوس ما يُسمّى الآن «روما كوادراتا» أي روما المربّعة وأصرّ أن يكون موضع إقامة المدينة. وحَدّد ريموس مساحة من الأرض على جبل آفنتين Aventine حصّنته الطبيعة خير تحصين وأطلق عليه اسم ريمونيوام Remoniuam تيمّناً باسمه إلاّ أن اسمه الحالي هو ريجناريوم Rignarium(٢٦). واستقرّ الرأي أخيراً أن يحسما خلافهما باستخارة الطير وهي سانحة وبارحة(٢٧)، فوقفا في موضعين متباعدين. وقيل إن ريموس شاهد ستّة من النسور وإن رومولوس شاهد ضعف هذا العدد. وقال آخرون إن ريموس كان صادقاً في عدده، لكن رومولوس كذب في عدد ما شاهد منها، إلاّ أن العدد أصبح اثني عشر عندما وصل ريموس إليه. ومن هنا جاءت عادة الرومان في مراقبتهم النسور أكثر من سواها عند استخارة الطير.

وروى هيرودورس پونتيكوس أن هرقل كان يستبشر كثيراً عندما يسنح له الطائر وهو يهتم بعمل ما. لأن النسر هو أقل الحيوانات أذى لا يقرب الزرع النابت، ولا ثمار الشجر ولا الماشية وهو يقتات أبداً على الجيف والرخم، ولا يفترس ولا يؤذي كائناً حياً، وأما عن بني جنسه الطير فهو لايمسّ أحداً منها ولو كانت ميّتة، وكأنما هي من فصيلته(٢٨). في حين ترى العُقبان والبومة والصقور تأكل وتقتل بعضها بعضاً أو كما

= أپوللو، أمّا ديون فيخبرنا بأن الموضع الذي كان يقوم عليه الملجأ في زمانه، قد كرّس لجوپتر. في مبدأ الأمر لم يقبل روملوس بدخول الملتجئين والخارجين على القانون، إلاّ أنه أعطاهم مرتفع ساتورينوس الذي سمّي فيما بعد كاپيتولينوس ليتخذوه مسكناً. [ليڤي ج ١: ٨ و ٩].

(٢٥) معظم الطروادييين (ولم يكونوا يزيدون عن خمسين أسرة زمن أغسطس) اختاروا أن يربطوا مصائرهم بمصائر الأخوين كما حذا حذوهم سكان پلانتيوم وساتورينا وهما قصبتان جوار ألبا.

(٢٦) لا نجد ذكراً للاسمين اللذين وردا هنا عند أي مؤرخ أو كاتب. ويذكر فستوس أن قمة جبيل آفنتين كانت تدعى ريموريا منذ أن عزم ريموس على بناء المدينة هناك. إلاّ أن ديون يتكلم عن جبل آفنتين وعن ريموريا أنهما محلان مختلفان. ويزعم ستنانُس أن ريموريا هي بلدة قريبة من روما.

(٢٧) ليڤي: ج ١: ٧، ١٢.

(٢٨) لا نعتقد أن دارسي طبائع هذا الحيوان يوافقون پلوتارخ على رأيه هذا. فمع أن الجبن والخوف =

يقول أسخيلوس[٢٩]: «أيّ من الطير يكون طاهراً إذا ما افترس من بني جنسه؟».

زد على هذا أن سائر أجناس الطير الأخرى كثيرة الملازمة لنا لا تغيب عن أنظارنا ولكن النّسور قليلاً ما تعرّض نفسها للرؤية. ويندر أن تجد رجلاً رأى صغار هذا الطائر، وندرتها وقلة ظهورها أدّيا ببعضهم إلى القول إنها تأتي من عالم ثانٍ مجهول، مثلما يعزو الدجّالون أصلاً لكلّ الأشياء التي لا تكون الطبيعة ولا هم مصدرها.

عندما انكشف الغش لريموس استشاط غيظاً[٣٠]. وبينما كان رومولوس يروم الخندق المقرر أن يكون فوقه أساس سور المدينة، تعمّد إحداث خلل في جانب من العمل وعوّق آخرين، وأخيراً بينما كان ينطّ فوقه مستهتراً مستخفّاً قيل إن رومولوس فتك به[٣١]، وقيل لا بل سيلير Celer أحد أصحابه هو الفاتك، فخرّ صريعاً. وحدث اشتباك قُتل فيه فاوستولوس وپلستينوس Plistinus الذي عاون على تربية رومولوس وهو أخٌ لفاوستولوس كما ورد في الحكاية. وعلى أثر ذلك هرب سيلير إلى توسكانيا، والرومان يطلقون اسمه «سيليرس» على أسرع العدّائين. وقد لُقّب كوينتوس ميتللوس Quintus Metellus «سيلير» لأنه هيّأ بمناسبة تشييع جثمان أبيه عرضاً عاماً للمصارعين في غضون أيام قليلة، فكانت سرعته مصدر عجب.

بعد أن دفن رومولوس أخاه مع أبويه بالتبنّي في جبل ريمونيا Remonia باشر في بناء المدينة وبعث يطلب من توسكانيا[٣٢] رجالاً يرشدونه على أسس من الطقوس

= يدفعان النسور على تفضيل الجيف إلاّ أنّ طباع الضواري فيها تدفعها أحياناً إلى مطاردة الأحياء من الحيوان. هذا إلى أن ندرة هذه الطيور الجارحة هي برهان آخر يعزّز افتقار هذه القصّة إلى الصحة.

(٢٩) «المتضرّعون» ٢٢٦.

(٣٠) ليڤي ج ١، ٧:٢.

(٣١) اختلف الشقيقان حول موضع المدينة الجديدة. فأحالا الأمر على جدّهما فنصح بأن يستخيرا. فكانت النتيجة لصالح روملوس وقرر أن تكون هضبة پالاتينا موقعاً للبناء. وانقسم البناؤون إلى فريقين مختلفي الرأي عندها قفز ريموس من فوق إلى الخندق وهو يقول متاخراً: «هكذا سيقفز العدوّ من فوقه» وهنا اصابه چيلير بضربة قاتلة وهو يقول «وهكذا سيصدّ أبناء مدينتنا صولة العدّو». وتقول المصادر إن روملوس حزن حزناً شديداً على شقيقه وكاد يبخع نفسه لو لم تحل لارنسيا دون ذلك. ويقول ديون إن الرومان قفزوا من فوق الجدار عندما تمّ بناؤه في حين أن ذلك يشير بالتأكيد إلى الخطّ الدائري الذي احتفروا ليس إلاّ. نجد پلوتارخ هنا يخلط بين قصتي موت ريموس اللتين أوردهما ليڤي بشكل منفصل وإن ذكر أن قصّة موته بيد روملوس أثناء نشوب القتال هي الأرجح والأكثر شيوعاً.

(٣٢) يخبرنا فستوس أن للتوسكانيين تقليداً حول ما يجب اتباعه من مراسم عند بناء المدن والهياكل =

المقدسة والشرائع المدوّنة إلى المراسم التي ينبغي مراعاتها، والأحكام الدينية التي يجب اتباعها. فقاموا أولاً بحفر خندق مستدير حول ما هو الآن الكوميسيوم(٣٣) وساحة الاجتماع وفيها ألقوا باحتفال مهيب أول ثمار كل الأشياء التي هي إما جيدة بحكم العادة، أو ضرورية بحكم الطبيعة. وأخيراً تناول كل رجل قطعة صغيرة من تربة أرضه وألقيت دفعة واحدة(٣٤). وأطلقوا على هذا الغور أثناء قيامهم بذلك اسم موندس Mondus أي السماء. وبعد أن جعلوه مركزاً خططوا حدود المدينة دائرةً حوله. ثم ركّب المؤسس شفرة نحاسية في رأس محراث وربط في نير واحدٍ ثوراً وبقرة(٣٥) وساقهما بنفسه وشقّ خطاً عميقاً حول تلك الحدود، وكان واجب الذين يتبعونه ملاحظة كل التراب الذي ينقلب إلى الجانب الخارجي وردّه إلى الداخل نحو المدينة وعدم ترك أي قطعة منه خارجها. وبهذا الخط رسموا مكان السور، وسموّه اختصاراً پوموريوم(٣٦): أعني پوستموروم Postmurum أي ما بعد السور، أو ما يليه. وفي المواضع التي تقرر إحداث أبواب المدينة فيها رفعوا الشفرة النحاسية من رأس المحراث وساقوا الفدّان بدونها تاركين فسحةً غير مشقوقة. إذ لو اعتبروها مقدسة أيضاً لما تمكنوا من السماح بدخول وخروج ضروريات الحياة منها وإليها بحرية، وبعض هذه الضروريات غير طاهرة بذاتها، وإلاّ سقطوا في الخطيئة.

وأما عن اليوم الذي بوشر فيه ببناء المدينة فهناك إجماع بين الكتّاب، وهو اليوم

= والأسوار والأبواب. وهم يطلبون إرشادهم إلى نوع الطقوس التي يجب مباشرتها من نبوءة تاكيس الذي قيل إن عطارد كان معلّمه.

(٣٣) هي ساحة مجاورة للفورم فيها تعقد الاجتماعات العامة. والموندوس أي مركز العرافة في المدينة هو مما يلي بالاتينا - انظر ما بعده.

(٣٤) أوڤيد لا يقول إنها حفنة تراب جاء بها كلّ من بلده، بل حفنة تراب جاء بها كلّ واحد من عند جاره. وهي إشارة إلى أن روما لن تلبث أن تخضع لحكمها الشعوب المجاورة لها. إلاّ أن إيسيدورس [٢٥: ٢] يرى أن إلقاءهم أولى الثمار مع حفنة تراب في الخندق إنما يقصد منها تذكير رؤساء المستوطنات بأن أول واجب هؤلاء هو توفير كل أطايب الحياة لأبناء وطنهم والمحافظة على الاتحاد والسلام بين أقوام يتقاطرون من مختلف أرجاء العالم ليصيروا كتلة واحدة وعصبة لا تنفصم عراها.

(٣٥) إشارة إلى الخصوبة. وأمّا ردّ التراب إلى داخل المدينة فيعني ان المدينة ستبقى خالدةٍ ولن يحلّ بها الخراب.

(٣٦) أو بوميريوم أو موروم، وتعني استناداً إلى ليڤي فسحة غير مسكونة بين السور وأقرب البيوت في الداخل. عرضها مساوٍ لتلك الفسحة التى تترك خارج السور. ويحرم زراعتها بحكم القانون.

الحادي والعشرين من نيسان الذي يقدّسه الرومان في كل سنة ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد الوطن». وقيل إنهم لم يكونوا في مبدأ الأمر يضحّون في هذا اليوم بالذبائح، إذ وجدوا هذا اليوم الذي ولد منه وطنهم جديراً بالبقاء طاهراً لا تشينه قطرة دمٍ واحدةٍ. غير أنه كان يوجد قبل إنشاء المدينة عيد للرعاة وأصحاب المواشي يحتفل به في مثل هذا اليوم ويدعى پاليليا Palilia[٣٧]. إلا أن الأشهر اليونانية والرومانية تكاد لا تتفق فيما بينها قط. والمقول الشائع أن اليوم الذي شرع فيه رومولوس بالبناء هو الثالث عشر من الشهر بالتأكيد وقد صادف فيه كسوف شمسي[٣٨]. وذكروا أن أنتيماخوس Antimachus الشاعر التيّاني Teian شاهده وكان ذلك في السنة الثالثة من الأولمپياد السادس[٣٩]. كان للفيلسوف ڤارو Varro المطّلع اطلاعاً عميقاً على التاريخ الروماني صديق اسمه تاروتيوس Tarrutius[٤٠] الذي كان إلى جانب معرفته بالفلسفة والرياضيات قد درس طرق استخراج الطوالع والأزياج الفلكية لمجرّد حبّ الاطلاع واشتهر بتبحرّه في هذه الصناعة مما جعل صديقه ڤارو يطلب منه استخراج طالع رومولوس إلى حد أول يوم وأول ساعة، وأن يعمل حسابه على ضوء وقائع حياته العديدة التي هو على بيّنة منها. وطلب أن يقوم بهذا مثلما يحلُّ مشكلاً هندسياً فعلى حَدّ قوله إن كلاً من الكشف عن مستقبل امرئٍ بمعرفة يوم ميلاده، واستخراج يوم ميلاده بما يعلم من وقائع حياته، هما مما يمتّ إلى علمٍ واحدٍ. فقبل تاريتوس المهمّة وتأمّل أولاً في أعمال الرجل والأخطار التي حلّت به وزمن حياته وكيفية موته. ثم قارن كلّ هذه المعلومات بعضها ببعض وأعلن بكل ثقة واطمئنان أن رومولوس حبلت به أمّه في السنة الأولى من الأولمبياد الثاني[٤١] في الساعة الثالثة بعد مغرب شمس اليوم

---

(٣٧) الپاليليا أو عيد باليس ربّة القطعان. ويسمّى أحياناً پاريليا من اللفظة اللاتينية «پاريري» أي التقدمة. لأن الصلوات كانت إذ ذاك تتلى من أجل إخصاب الأغنام. ويقول أوڤيد إن الرعاة يحيون بهذه المناسبة مهرجاناً ليلياً عظيماً يختمونه برقصات حول النار التي يشعلونها في الحقول من أكوام القش.

(٣٨) هوكسوف ٧٥٣ ق.م الثابت فلكياً.

(٣٩) حصل في العام ٧٥٤ ق.م.

(٤٠) كان هذا المنجّم البارع وثيق الصلة بشيشرون. لكن لما لم يحصل كسوف في اليوم الذي عيّنه فليس في إمكاننا أن نقرّ له بأية براعة. إن الأشهر المصرية التي لا تتفق بداياتها تماماً مع أشهرنا استخدمت فيما يلي اعتباراً لبلادها التي اتخذ نظامها الفلكي قاعدةً.

(٤١) أي في العام ٧٧٢ ق.م.

الثالث والعشرين في الشهر المصري المسمّى خوياك Choeac وفي ساعة الحبل به كان هناك كسوف كُلّي(٤٢). وأما ميلاده فكان في الحادي والعشرين من توث Toth = أيلول في حوالي شروق الشمس. وكانت أول صخرة وضعها في بنيان روما في اليوم التاسع من شهر فارموثي Pharmuthi = نيسان: بين الساعة الثانية والثالثة منه. وهؤلاء المنجمون يرون أن لطالع المدن أوقاتها الثابتة المعيّنة كما كان الشأن في طوالع الناس، ويكون بالإمكان جمعها والتنبوء بها من مواضع النجوم وأرصادها ومعرفة ما يتعلق بها منذ زمن بنائها... لكن هذا البحث وأشباهه قد لاتلذّ القارئ طرافتها وغرابتها قدر ما تضجره بخيالها ومبالغاتها.

بعد أن بنيت المدينة قام رومولوس باحصاء كل القادرين على حمل السّلاح وتنظيمهم في كتائب عسكرية كل كتيبة تضم ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس(٤٣)، وأطلق على الكتيبة ليجيون Legion لأنها كانت تتألف من الصفوة المنتخبة من أشدّ المحاربين. وسمّى باقي الشعب بالعامة. وانتخب مئة من أبرزهم ليكونوا مستشارين وسمّاهم پاتريشيان (آباء) Patricians(٤٤) وأطلق على مجلسهم اسم سنات (مجلس الشيوخ) Senate. وقال بعضهم إن الپاتريشيان سمّوا هكذا لكونهم آباءً لأبناء شرعيين. وقال آخرون لا بل لكونهم قدّموا الدلائل القوية على أن آباءهم ليسوا من الخليط المجهول، والصعاليك الذين تدفّقوا إلى المدينة(٤٥) في أول أمرها، ولم يكن بإمكانهم

---

(٤٢) لم يكن ثم كسوف كليّ في السنة الأولى من الأولمبياد الثاني، بل حصل في السنة الثانية منه. فإن كان الحَبَل برومولوس قد وقع في السنة التي ذكرناها فانه يتفق والرأي المجمع عليه بأنه كان ابن ثماني عشرة سنة عندما باشر ببناء روما. وهذا هو رأي كاتو يسانده في ذلك كلّ من ديون وسولينوس ويوسيبوس وعدد كبير من المؤرخين المتأخرين والمعاصرين. في حين نجد كلاً من فاروّ وشيشرون يثبتان الحدث في السنة التي سبقت.

(٤٣) وبمقابل هذا يعلمنا ديون بأن المستوطنة كلها كانت تضم ٣٣٠٠ رجل وأن رومولوس قسمهم إلى ثلاثة أقسام متساوية وأطلق على كل قسم اسم «قبيلة» أو «ثلث» يقوم على رأس كل قائد Prefect أو تريبيون Tribume. وقسمت القبيلة الواحدة إلى عشر أفخاذ (كيورائي Curiae). إن عدد البيوت أو الأكواخ الذي لم يكن يتعدى الألف الواحدة يقوم دليلاً على زعم ديونسيوس هذا. إلاّ أن الصعاليك الذين دخلوا لاجئين واستؤمنوا - والذين قد يكونون كثيري العدد على ما يُحتمل - لم يحسبوا مع المستوطنين الأصليين وإن منحوا فيما بعد حق المواطنة.

(٤٤) الملك لا يختار هؤلاء الرجال المائة. بل تقوم كلّ قبيلة باختيار ثلاثة شيوخ، ويقوم كلّ كيوريي من الثلاثين باختيار عدد مماثل فيكون المجموع ٩٩. ولم يعيّن رومولوس إلاّ الشيخ المائة وهو رئيس أو أمير مجلس الشيوخ والحاكم الأعلى للمدينة عند غياب الملك في حملة عسكرية.

(٤٥) انظر رأياً مختلفاً لديون الهيكارناسوسي. (٢: ٤) وانظر ليفي أيضاً.

إثبات بنوّتهم وأنسابهم. وزعم آخرون أن الصفة جاءت من «الحماية» وهي اللفظة التي يطلقونها على «عمل حماية الضعيف»، ويردّون أصلها إلى پاترون Patron وهو اسم أحد أولئك الذين جاؤوا مع إيڤاندر Evander أعظم محام ومدافع عن الضعفاء والمضطهدين. ولعل أقرب التعاليل احتمالاً هو الآتي: لما رأى رومولوس أن الواجب الأساسي لأغنى الناس هو الرعاية الأبوية والاهتمام بشؤون أفقرهم، وأن من واجب العامة ألاّ يكرهوا أو يترددوا في تكريم سادتهم بل أن يحبوهم ويحترموهم وأن يعتبروهم آباء لهم وينادوهم بهذا اللقب، فقد ارتأى أن يطلق عليهم اسم پاتريشيان. بينما كانت الأقطار الأخرى تُلقّب شيوخها بألقاب الأسياد العظام. وهكذا تجد الرومان قد اتخذوا لقباً أكثر شرفاً وأقل أبّهة وهو «پاترس كونسكريتي» Patres Conscripti[٤٦] وكان في مبدأ الأمر پاتروس فحسب ثم أضافوا إليه اللقب الثاني في زمن تالٍ. وبهذا اللقب الأكثر جلالاً تميزّ الشيوخ عن العامة. وانفصل النبلاء عن سواد الشعب بطريقة أخرى أي بتسمية الأولين پاترون[٤٧] وتسمية الآخرين الأتباع أو الموالي. وبهذه الوسيلة أوجد علاقة حبٍّ وصداقة ما بين الفئتين أثمرت قدراً كبيراً من العدل في التعامل فيما بينهم، فالپاترون هو مستشار مواليه في القضايا القانونية ومحاميهم في سوح القضاء والمحاكم، ومجمل القول أنه مشاورهم ومعاونهم في كل المسائل. والموالي بدورهم يخدمون الپاترون لا بتقديم الاحترام والتكريم بل بمساعدته المادية في حالة افتقاره، كمهر بناتهم أو دفع الديون عنهم[٤٨]، وليس من قانون أو قاض يجبر الپاترون على الشهادة ضدّ تابعه، ولا التابع ضد پاترونه. وبعد مرور حين من الزمن وُجد أن أخذ

(٤٦) أعني الآباء المسجلين. والمنحدرون من هاتين الطبقتين مُيّزوا فيما تلا من الزمان باسمي الآباء الكبار Patre Majorum والسادة الأدنين Minorus Ganlium.

(٤٧) هذه الأبوّة توازي بقوتها رابطة الدم والتحالف. وقد كان أثرها عجيباً في استمرار الوحدة والرابطة الوثقى بين الرومان طوال ٦٢٠ عاماً لم يقع خلالها نزاع أو خصام أو تنابز بين الآباء والأتباع حتى في الأيام الجمهورية حيث كثيراً ما كانت طبقة العامة تتمرد على أصحاب السلطة العليا في المدينة. أخيراً أخلّت بهذا الانسجام تلك الفتنة الكبرى التي أثارها كايوس كراخوس (انظر السيرة). وكان التابع الذي لا يؤدّي واجبه إزاء پاترونه يعدّ خائناً خارجاً على القانون ويستهدف إلى أن ينفذ به أي شخص عقوبة الموت [ديون]. ومما يجدر ذكره هنا هو أن اختيار الپاترون لم يكن قاصراً على أفراد العامة. بل تعداهم إلى المدن والدول التي أخذت تضع نفسها تحت هذا النوع من الحماية بمرور الزمن.

(٤٨) ويضيف ديون قوله (٢: ٤) إنهم يدفعون عنهم مصاريف الدعاوى التي يخسرونها ويدفعون عنهم كذلك أجور محاميهم وغير ذلك.

المال من الموالي مما لا يشرّف قط طبقة الپاترون فأبطلت العادة مع بقاء الواجبات الأخرى سارية. . . وفي هذا القدر الكافي. . .

في الشهر الرابع لبناء المدينة وقعت حادثة خطف النساء واغتصابهن[٤٩] وهذا ما يزعمه فابيوس. وأما آخرون فيقولون إن رومولوس نفسه وهو محارب عسكري أرادها أن تكون عِلّة لشنّ الحرب، ربما تحدوه في هذا نبوءة جعلته يؤمن أن رفعة شأن روما وعظمتها تتوقفان على الإفادة من الحرب. ولهذا تحرّش أولاً بالسابين Sabine، ولم ينهب منهم غير ثلاثين عذراء وهو عدد قليل قد يصلح ذريعة للحرب أكثر من كونه رغبة في النساء فحسب. على أن هذا القول ليس الأرجح. والذي يبدو هو أن رومولوس وجد مدينته تكتظ بالوافدين من الأجانب والأخلاط وقليل منهم من كان ذا زوج، وأن هذا المجتمع الذي يتألف معظمه من فقراء منقطعين، سيدبّ فيه الانحلال حتماً ويسوده الإنقسام والتناحر ولن يبقى على تلاحمه طويلاً. كما أمل أيضاً أن تهدأ خواطر النساء المخطوفات بعد حين، ليجعل من الاعتداء تعلّةً للتحالف والتبادل التجاري مع السابين. وعلى هذا الأساس قام بالمغامرة هكذا:

أولاً أعلن أنه اكتشف هيكل أحد الأرباب مدفوناً تحت أطباق الأرض[٥٠] ويُسمّى كونسوس Consus وهو إمّا إله الشورى (لأنهم ما زالوا يستعملون للشورى كلمة كونسيليوم Consilium ويسمّون كبار حكامهم كونسول Consule أي مستشار) وإمّا أن يكون نبتون الفارس، ذلك لأن الهيكل أُبقي مستوراً في الملعب الأكبر[٥١] لا يُكشف للجمهور إلاّ بمناسبة سباقات الخيل. ولا يزيد آخرون على القول إن هذا الرب شاء أن يجعل معبده مدفوناً تحت الأرض لأن من طبع المشورة أن تكون سرّية مكتومة. عند اكتشاف الهيكل أعلن رومولوس أنه قرر إحياء يوم حافل لتقديم قرابين، مشفوعة بألعاب وتمثيليات للعموم، من قبيل الترفيه والتسلية. فتقاطرت جموع غفيرة إلى المدينة وجلس رومولوس في صدر الملعب يحفّ به عظماء قومه ونبلاؤهم متشحاً

(٤٩) ينقل ديون عن كيلليوس أن ذلك وقع في السنة الرابعة. ويؤكد فاستي كاپيتوليني ذلك بإثباته تاريخ الحروب مع الكيانيسيين التي وقعت بعد هذه الحادثة مباشرة. ويذكر ليڤي أيضاً (١: ٩) أن الرومان صاروا يملكون من القوة ما أهّلهم لمقارعة جيرانهم.

(٥٠) أبقي المذبح مدفوناً إشارةً إلى عمل الطبيعة الخفي في إنتاج القمح والخضار لأن كونسون هو الرب الايطالي القديم للزراعة.

(٥١) أعني في القصر. حيث بنى أنكوس مارجيوس فيما بعد الملعب الكبير لسباق الخيل والعجلات.

بالأرجوان، وكانت إشارة الإنطلاق هي نهوضه وجمع أطراف ردائه وإلقائه على كتفيه. ووقف رجاله على أهبة الاستعداد شاكي السلاح وأعينهم شاخصة إليه وأنظارهم مركزة عليه ولما أعطى الإشارة صاحوا صيحة هائلة وامتشقوا سيوفهم ووقعوا على بنات السابين يخطفوهن، وولّى السابين الأدبار بدون مقاومة. وقيل إن ما سُبي لا يزيد عن الثلاثين(٥٢)، وسُمّيت أسماء الكيوري Curiee الثلاثين بهنّ. إلاّ أن ڤاليريوس ألتياس Valerius Antias يرفع عدد المخطوفات إلى خمسمائة وسبع وعشرين، ويزيد يولا Jula(٥٣) العدد إلى ستمائه وثلاثة وثمانين. وخير عذر يمكن أن يتمسك به رومولوس في عمله هذا هو أن المخطوفات كلهن كن عزباوات. أي أن أتباعه لم يتعرّضوا للمتزوجات باستثناء واحدة وهي هيرسيليا Hersilia وهذه خُطفت بمحض خطأ ولم يعرف حقيقة أمرها. هذا يدلّ على أنهم سبوهم لا بدافع الشهوة بل لإيجاد تحالف ورابطة جوار بأضمن الوسائل وأمتنها. وقال بعضهم إن هوستيليوس Hostilius تزوج هيرسيليا هذه، وهو من أبرز رجال الرومان، وزعم غيره أن رومولوس هو الذي تزوجها وأنجبت له بنتاً سُمّيت پريما Prima أي الأولى لأنها بكره، وابناً سُمّي آڤيليّوس Avillius بسبب تعلّق المواطنين الشديد به في ذلك الحين. ثم تغيّر اسمه بعد أحقاب إلى بيلليوس. هذا ما يرويه زينودوتوس Zenodotus الطروزيني وكثيرون لا يتفقون معه في ما ذهب إليه.

قيل إنه كان يوجد كثير من الأراذل والدهماء بين الذين ساهموا في خطف العذارى، وشوهدت طائفة تحمل آنسة فاقت الأخريات جمالاً وجاذبية ورشاقة، فاعترضتهم زمرة من سراتهم وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين إنهم يحملونها إلى تالاسيوس Talasius وهو والحق يقال شابٌ فتيّ لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك أيّدوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة إلى هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً وراحوا يهتفون باسم «تالاسيوس». من هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما زالت متبعة إلى يومنا هذا فهم في حفلات أعراسهم يتنادون بلفظة «تالاسيوس» بوصفها الكلمة التي تقوم مقام «العرس»، مثلما هي

(٥٢) رواية ليفي: ١: ٣، تورد هذا العدد أيضاً. إلاّ أنه كان يأخذ برأي ڤاليريوس رنتياس في أماكن أخرى.

(٥٣) هو ابن جوبا ملك الموريتانيين جيء به إلى روما وهو صبي وقد وقع في الأسر، فدرس العلوم الإغريقية واليونانية وأصبح مؤرخاً شهيراً. ويذكر ليفي أن أغسطس أعاد إليه جزءاً من أملاك ابيه وزوّجه كليوپاترا بنت مارك انطوني. ويتفق ديون مع ليفي في هذا.

هيمينايوس Hymenas لدى الأغريق. لكنهم يقولون إن تالاسيوس هذا كان سعيداً للغاية في زواجه إلاّ أن سكتوس سيلّلا Sextius Sylla القرطاجني وهو رجل لا تعوزه سعة الإطلاع ولا نفاذ البصيرة قال لي إن رومولوس نطق بهذه الكلمة كإشارة لبدء عملية الاختطاف، ولذلك هتف بها كل من ظفر بفتاة لنفسه ومن هنا جاءت العادة في الأعراس. لكن معظم الكتاب (ولا سيّما يوبا) يرى ان الكلمة كانت تستخدم للمتزوجات حديثاً كوسيلة لحثهن على القيام بأعمال البيت على خير الوجوه، وتطلق كلمة تالاسيا Talasia على الغَزْل كما نلفظها نحن باليونانية(٥٤)، لأن الألفاظ اليونانية كانت شائعة وقتذاك ودونها شيوعاً الألفاظ الإيطالية. وإذا كان الأمر كذلك، واذا كان الرومان في ذلك الزمن يستعملون كلمة «تالاسيا» بالمعنى الذي تدل عليه عندنا، فعلى المرء إذن أن يبحث عن سبب آخر لهذه العادة. إذ عندما صولح السابين بعد الحرب التي نشبت بينهم وبين الرومان اتّفق على شروط بخصوص معاملة نسائهم؛ وهي أن لا يُجبرن على أداء أعمال منزلية شاقة فيها صفة العبودية ما عدا الغَزْل. لذلك جرت العادة أن يردّد كلمة «تالاسيوس» اولئك الذين يقدّمون يد العروس أو يصحبونها أو يكونون حاضرين وقت الزفاف - للتذكير بأن العروس لن تقوم من الآن فصاعداً بعمل إلاّ الغزل. واستمر تطبيق العادة التالية إلى هذا اليوم وهي أن العروس لا تتخطى عتبة باب زوجها، وإنما تُرفع فوقها رفعاً دون أن تطأها، وهي تذكرة بأن عذارى السابين كن قد حُملن إلى بيت الزوجية قسراً ولم يدخلن بمحض اختيارهن. ويقول بعضهم أيضاً إن عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رُمِح تذكرة بأن مبدأ زواج الرومانيات كان بالحرب والقتال، وهو ما اشتهبتُ في شرحه في كتابي «المسائل»(٥٥).

وقعت عملية الاختطاف هذه في الثامن عشر من شهر سكستيليس Sextilis الذي يدعى الآن أغسطس (آب) وفيه تقام احتفالات الكونسواليا Consualia(*).

كان السابين قوماً محاربين أشداد كثيري العدد. عاشوا في قرى غير محصّنة وهذا

---

(٥٤) من لفظه «تالروس» الإغريقية. والملاحظ أن كل سيّدات روما يحكن ثياب أزواجهن وأولادهن حتى أغسطس نفسه كان يشهر مرتدياً الثياب التي تصنعها زوجه وآل بيته.

(٥٥) في الفقرة المشار إليها حذف پلوتارخ واحدة من أهم الملل الطبيعية المعزوّة إلى فستوس وهو أن الرمح بوصفه شعار السلطان قد يفرض على المرأة واجب الخضوع لبعلها (الأخلاق: السؤال رقم ٨٧).

(*) عيد الحصاد (من كونسوس Consus).

على ما يظنون يناسب مستعمرة لقيديمونية(٥٦) جريئة لا تهاب أحداً. ولما وجدوا أنفسهم مكتوفي اليد بتلك الرهائن النسائية التي تضمن سكوتهم وحسن سلوكهم ولشدة تعلقهم ببناتهم آثروا إرسال سفراء إلى رومولوس يحملون طلبات عادلة منصفة وهي أن يعيد إليهم بناتهم وينهي أثر هذا الاعتداء ثم يسعى بالإقناع والوسائل الشرعية إلى إنشاء علاقة صداقة بين الشعبين. لكنه أبى النزول عن البنات واقترح عليهم الدخول في حلف. وهنا أخذ بعضهم يتردد وانثنوا يتداولون فيما بينهم ولم يقطعوا برأي. إلا أن أكرون ملك سيونسيا Coeninensia(٥٧) وهو رجل جرباً ومحارب مقدام، مدفوعاً بما يكنّه من حسدٍ طويل الأمد لرومولوس لمآثره العظيمة، ولاسيّما لمّا وجد خصمه هذا قد علا شأنه وعظم خطره بمغامرة خطف النساء، وأن الاقتصاص منه أمرٌ واجب، فأعلنها حرباً على رومولوس وزحف بجيش جرّار فاستعدّ رومولوس له(*)، ولما تقابل الجيشان وقفا وهما شاكيا السلاح لا يلتحمان وإنما فضّلا مبارزة فردية. فنذر رومولوس إذا تغلّب على خصمه أن يحمل بنفسه سلاح المغلوب ويقرّبه إلى جوپيتر زيادة في التعظيم. ونزل حومة الوغى وقهر عدوّه. ثم تلت ذلك معركة هزم بها جيش الخصم المقهور واستولى على مدينته، لكنه لم يُلحق أي أذىً بسكانها وإنما أمرهم بتقويض بيوتهم، وأن يتبعوه إلى روما فيمنحهم كل حقوق المواطنة(٥٨). والحق يقال إن عظمة روما وسؤددها لم يكن مديناً لشيء قدر ما هو مدين إلى مزجها وتوحيدها كل ما تفتحه من البلدان. ولأجل أن يبرّ رومولوس بنذوره لجوپيتر بأحسن ما يمكن ولأجل أن يجعلها مصدر استمتاع لأهل المدينة عمد إلى قطع بلّوطة باسقة وجدها نامية في المعسكر فهندمها على شكل تمثال، ثم كساها دروع أكرون Acron كما يكتسبها المحارب ولمّ أطراف ثيابه على جسده، وحمل التمثال وشعره يتماوج خلف أذنيه في النسيم بلطف آسرٍ وأسنده إلى كتفه اليمنى بصورة عمودية ثم سار به وهو ينشد أناشيد

---

(٥٦) ومن هؤلاء عددٌ كبير من اللقيديمين هربوا تخلصاً من قوانين ليكورغوْس الجائرة فتركوا سپارطه واستقروا في إيطاليا وأخذ عنهم المواطنون الأصلاء عاداتهم. [هذا كما يبدو عند ديون ٢: ١١].

(٥٧) سكّان لاتيُوم Latium القديمة.

(*) ليفي ١: ١٠.

(٥٨) يختلف پلوتارخ مع المؤرخين اختلافات كثيرةً وبعضها جوهري، حول تفاصيل الحملة. وليس في الإمكان إيراد هذه الاختلافات وتمحيصها ومضاهاتها في حاشية تعريف مقتضبة. فلتراجع عند ليفي وديون.

النصر يتبعه كل جيشه فاستقبله الأهالي بهتاف الإعجاب والفرح. وكان موكب ذلك اليوم المثل المحتذى لكلّ مواكب النصر الرومانية التالية.

هذه الخشبة المنحوتة أوجدت نوعاً جديداً من القربان لجوپيتر فيرتيريوس (جاءت من فيريري Ferire[٥٩] وتعني باللاتينية: الضرب) لأن رومولوس رجا الإله أن يضرب عدوّه ويهزمه. وسُمّيت الغنائم أوپيما Opima[٦٠] أو الأسلاب الملكية، على زعم ڤارو لأنها كانت قيّمة جداً، كما تدل عليه كلمة أوپيس Opes وإن يذهب الظن بالمرء إلى أنها مشتقة من أوپوس Opus أي «عمل». ودرجت العادة أن لا يخلع شرف إعطاء «الغنائم الملكية» إلاّ على قائد الجيش الذي يقتل بيده قائد جيش العدو[٦١]. ولم ينل مثل هذا الشرف غير ثلاثة من قادة الرومان أولهم رومولوس لقتله أكرون السيونينسي، وثانيهما كرينليوس كوسوس Cornelius Cossus لقتله طولمنيوس Tolumnius التوسكاني[٦٢]، وثالثهما كلوديوس مارچلّس Claudius Marcellus لبطشه بڤيريدومارنوس Viridomarnus[٦٣] ملك الغاليين، والثاني والثالث دخلا المدينة في

---

(٥٩) هذه الكلمة لم تكن مستعملة في ذلك الحين والأرجح أنها مشتقة من لفظة Ferire وهو الحَمْل. لأنّ روملوس حَمَل بنفسه الدروع إلى هيكل جوپتر. أو لعلها على أغلب الاحتمال مشتقة من الكلمة الإغريقية فيرترون التي يفسرها ليڤي (١ : ١٠) باللاتينية Ferculum ومعناها غنيمة حرب.

(٦٠) فستوس يشتق أوپيما من كلمة Ops وتعني «الأرض وثرواتها» و Opima spolia بحسب رأي الكاتب تترجم بـ«الأسلاب الثمينة». ولم تكن كلمة opus كثيرة الاستعمال في ذلك الحين مثل كلمة Ferire على أغلب الاحتمالات.

(٦١) هذا ما أثبته ليڤي حول الموضوع كذلك. إلاّ أن ڤارو الذي ينقل ڤستوس عنه يخبرنا أنه ربما كان للروماني الحق في «الأسلاب الثمينة» حتى ولو كان جنديّاً بسيطاً miles manipolaris شريطة أن يقتل قائد جيش العدو ويستولي على شِكّة سلاحه. ولهذا نجد كورنيليوس كوسوس يغتنمها عند قتله تولمينوس ملك التوسكان ولم يكن أكثر من تريبيون تحت إمرة أميليوّس. وعلى أغلب الاحتمال لم يدخل كوسوس روما راكباً عربة النصر وإنما تبع قائده وهو يحمل «الأسلاب» على عاتقه. ولا يقطع ليڤي برأي حول رتبة كوسوس وقت أن حقق نصره، رغم تأكيد أغسطس له بأنه وجده يسمّى بالقنصل في السجلات وأنه ما فعل هذا إلا احتراماً لسيده الإمبراطور. ولأن شهادة ڤارو يجب أن تدحض أسطورة مشكوكاً فيها وان وجدت حَقّا فمن الممكن جداً أن اللقب قد استعير من واقع رفع كوسوس إلى مرتبة القنصل.

(٦٢) كان هذا العام ٤٣٦ ق.م، حسبما أورده ليڤي ٤ : ٩، ١-٥.

(٦٣) وفي نسخ أخرى يكتب بريتومارتس Britomartus: وقد كان هذا في العام ٢٢٢ ق.م. (انظر سيرة مارجللوس في الكتاب).

موكب النصر راكبين عجلة وحاملين أسلابهما بنفسيهما. وقد أخطأ ديونيسيوس[٦٤] في التأكيد بأن رومولوس استخدم عجلةً في هذه المناسبة[٦٥]. وينبئنا التاريخ أن تارقينيوس Tarquinnius ابن داماراتوس Damaratus كان أوّل من بلغ بمواكب النصر إلى هذه الدرجة من الروعة والجلال. ويقول آخرون إن پوبليكولا Publicola هو أول من استخدم العجلة في مواكب النصر. هذا وإن تماثيل رومولوس التي تمثله في موكب النصر لا يوجد منها ما تظهره راكباً في كلّ ما هو موجود منها في روما.

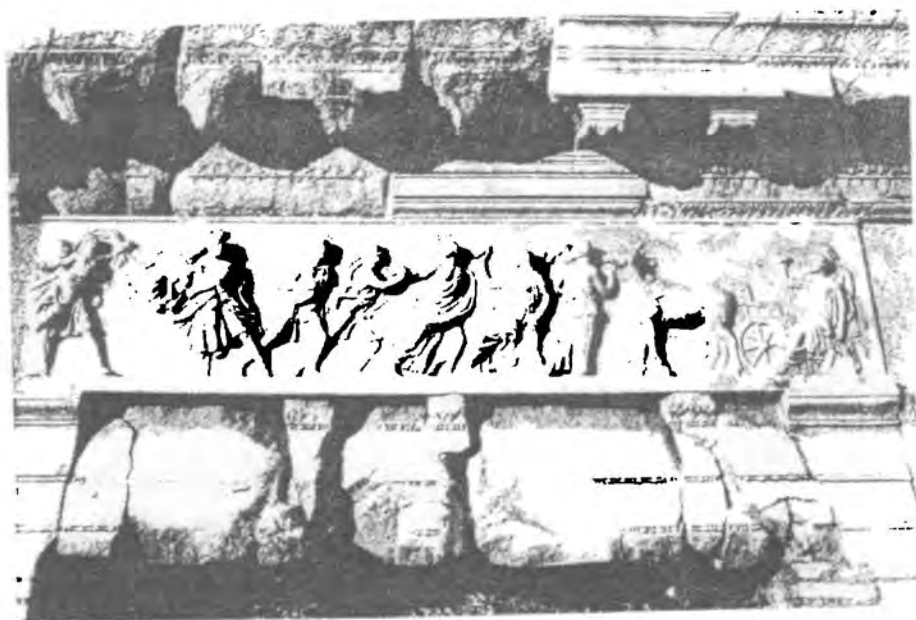
بعد أن تغلّب رومولوس على السيونينسيين، أخذ السابين الآخرون يتربّصون الفرص ويستعدون الزمن. ثم وحّد أهل فدينيا Fedena وكروستوميريوم Crustomerium وأنتمنا Antemna قواهم ضدّ الرومان[٦٦] لكنهم منوا بهزيمة نكراء، ونزلوا عن مدنهم لرومولوس فاستولى عليها وضبط أراضيهم وتخومهم فوزّعها واستاقهم جميعاً إلى روما. إن الأراضي التي استولى عليها رومولوس قسمها بين الرومانيين، إلاّ أنه استثنى أراضي آباء الفتيات المخطوفات وأبقاها لهم. وثار غضب سائر السابين لهذا العمل وأمّروا عليهم طاطيوس Tatius قائداً وزحفوا إلى روما. وكانت المدينة منيعة يكاد يتعذر اقتحامها، فمن تحكيماتها ما يعرف اليوم بالكاپيتول، وهو حصن وضع فيه كتيبة قوية من الحرس على رأسها تارپيوس، لا تارپيا Tarpia العذراء على ما زعمه بعضهم ليظهروا رومولوس بمظهر الأحمق. لكن تارپيا التي هي بنت قائد الحصن كانت مغرمة بالأساور الذهبية والحُلِيّ التي يتحلّى بها العدو، ولذلك عرضت تسليم الحصن إلى السابين إن كوفئت على خيانتها بكلّ الحلي التي تُحلّي أذرعتهم اليسرى. فوافق طاطيوس وفتحت لهم أحد الأبواب ليلاً وأدخلتهم. لم يكن أنتيگونس Antigonus وحيداً في قوله إنه أحبّ الخونة، لكنه كره الذين خانوه. ولا القيصر الذي قال محدثاً ريميتاقليس التراقي إنه ليحبّ الخيانة ولكنه يكره الخائن. هذا هو الشعور العام لمن اتفق له وحظي بخدمات الخونة وأشرار الناس، وهو نفس ما يرى الناس في سمّ الحيوانات، فهم راضون عنها ما دامت ذات نفع لهم، لكنهم يمقتون

---

(٦٤) روما القديمة ١١: ٣٤.

(٦٥) المرجع نفسه: پوبليكولا ٩: ٥.

(٦٦) [ليڤي] المرجع السالف ١: ١١. أو بحسب أقوال غيره من المؤرخين فقد كان كلّ منهم يحارب على انفراد كلما أكمل استعداده. وبالشعار نفسه Dum singuli pugmant iniversi vincuntur (توكيديدس: جرمانيا) ولم يكن لأهل فدينيا علاقة بهذا التحالف فهم توسكان تابعون لڤيبي) ولا نزاع ثمّ بينهم وبين الرومان طبعاً حتى وفاة طاطيوس.



اغتصاب نساء السابين





شرها وخبثها حين ينفضون أيديهم منها. وهذا هو المسلك الذي سلكه طاطيوس مع تارپيا بعد تسليمها الحصن. فقد أمر السابين بإيفاء الشرط وبألاّ يضنّوا عليها بأي جزء من حلي أذرعتهم اليُسرى، وكان هو أول من خلع أساوره وألقاها عليها وأتبعها بدرع صدره(٦٧) وحذا الباقون حذوه وارتفع المقذوف من الحلي فوقها حتى دُفنت تحت أكداس الذهب والدروع ففاضت روحها تحت الثقل والضغط. وحاكم رومولوس القائد تارپيوس وأدانه بالخيانة. على حَدّ قول يوبا الذي نقله لنا سولپيشيوس گالبا Sulpicius Galba. وأما من كتب بخلاف ذلك عن تارپيا زاعماً أنها كانت بنت طاطيوس وأن رومولوس احتجزها بالإكراه، وأنها فعلت ما فعلت وجازاها أبوها على نحو ما قدّمناه، هؤلاء إنما يخبطون خبط عشواء. ومنهم أنتيگونوس(٦٨). أمّا سميلوس الشاعر الذي يرى أن تارپيا لم تسلم الكاپيتول للسابين بل للغال لوقوعها في حب ملكهم، فهو أكثر تخريفاً من أولئك، حين يقول:

كانت تارپيا التي تسكن قريباً من الكاپيتولي
هي التي فتحت أبواب روما للعدو.
هي التي سلّمت الكاپيتول، حصن المدينة الأمنع
لأنها وقعت في حبّ المهاجم الغاليّ!
فغدرت بمنازل آبائها

وبعدها بقليل يتكلم عن موتها فيقول:

إن الجموع الغفيرة من الأعداء الغاليين والبوي Bou
لم يرضوا أن تبقى حية تعيش على ضفاف الپو Po
فألقوا بتروسهم فوق الفتاة.
وبهداياهم الثمينة قتلوها ودفنوها في الحال.

دُفنت تارپيا هناك. وأُطلق اسمها على التل المعروف بتارپيوس وظلّ يعرف به حتى عهد الملك تاركوين Tarquine الذي أوقف الموضع على جوبتر فنقل رفاتها وضاع

---

(٦٧) يذكر بيو ومؤرخون آخرون أن طاطيوس عاملها بهذا الشكل لأنها قامت بدور مزدوج فعملت على خيانة السابين من أجل روملوس في حين جاهرت بخيانة الرومان من أجل السابين. (ديون ٢ : ١٠) وبرهاناً على هذا التكريم الذي نالته من الرومان بعد وفاتها. وليڤي (١ : ١١) يسجل ذلك ولا يعارض فيه.

(٦٨) كتب أنتيغونس كاريستيوس تاريخاً لإيطاليا. وجمع جملة من «الحكايات العجيبة» في عهد بطليموس فلادلفوس وأمّا سميلوس فقد نظم تاريخاً شعرياً لإيطاليا.

اسمها، إلاّ في ذلك الجزء من الكاپيتول الذي ما زالوا يسمّونه «الصخرة التاربية»، وهي الصخرة التي اعتادوا إلقاء المجرمين منها إلى الهاوية.

بعد أن سيطر السابين(٦٩) على المرتفع ثار ثائر رومولوس واشتبك معهم في معركةٍ. وكان طاطيوس واثقاً من نفسه فلم يتحاش الاشتباك، مدركاً أنه لن يخسر شيئاً في حالة هزيمته فخلفه مواقع حمايةٍ منيعة. وكان السهل في الوسط، وهو ميدان القتال، تحيط به آكام عديدة صغيرة يبدو وكأنها ستملي على الفريقين قتالاً مريراً عنيفاً بسبب وعورتها، وعدم وجود منافذ كثيرة فيها وصعوبة الكر والفرّ. واتفق أيضاً أن النهر الفائض كان قد غمر ساحة المعركة قبل مدة ليست بعيدة، ولما انحسر عنها ترك خلفه (حيث يقوم الفورم اليوم) مَوْحلة عميقة عمياء خادعة لا تُعرف حدودها ولا يظهر مدى خطورتها للعين المجردة ويصعب اجتنابها. وصادف السابين حسن حظ نادر بينما هم يهمّون بدخولها دون حذرٍ أو ارتياب. إذ كان كورتيوس Curtius وهو رجل مقدام متشوّق إلى كسب الشرف في القتال، ذكي سريع الخاطر، يخبّ بجواده أمام الآخرين(٧٠)، فإذ بأقدام حصانه تغوص في الطين، فحاول إخراجه بالسوط والمهماز والصياح، وبعد فترة أدركه العجز فتركه وأنقذ نفسه. ومنذ ذلك اليوم وهذه البقعة تعرف ببحيرة كورتيوس. وبعد أن نجا السابين من هذا الخطر راحوا يقاتلون أحسن قتال ويبلون خير بلاء. وظلت نتيجة معركة ذلك اليوم غامضة، في حين سقط كثير من القتلى، ذُكر بينهم هوستيليوس زوج هرسيليا، وجَدّ هوستيليوس الذي حكم بعد نوما. ثم حصلت اشتباكات قصيرة عديدة إلاّ أن أعظمها، على الأرجح، وأوقعها في النفس وأبعدها أثراً هو الاشتباك الأخير، وفيه أصيب رأس رومولوس بحَجَرة شجّته، فكاد

(٦٩) ليفي: المرجع السالف ١: ١٢.

(٧٠) ليفي [١: ١٣] وديون [١١: ١٠] يثبتان خلاف ذلك. إذ يذكرا أن كورتيوس صَدّ هجمة الرومان أوّلاً إلاّ أنه غُلب على أمره بكرّةٍ من رومولوس وبمحاولته الانسحاب المنظم فقد سقط سَقطةٍ لا نجاة منها في البحيرة التي سمّيت باسمه منذ ذلك الحين: Lacus Curtius حتى عندما جّفت وكادت تكون وسط الفورم. ويقول بروچيليوس إن الأرض قد تشققت. وصرّح الأرسبيچي بأنه من الضروري أن تُحشد قوى المدينة لمنفعة المدينة فتقدم هذا الشاب المدعو كورتيوس (ليفي ٧: ٦) الذي عرف بالبسالة والصبر على القتال وهو على صهوة حصانه وتحته أثمن السرج وقذف بنفسه في البركة بكامل دروعه فالتحمت شقوقها في الحال. وكانت هذه البركة قبل فتح قنوات المجاري أشبه بالبالوعة تصبّ فيها كل مياه روما القذرة. ويرى بعض الكتاب أنها أخذت اسمها من القنصل كورتيوس زميل ماركوس جينوشيوس في الحكم لأنه أمر بتسويرها بناء على نصح الأرسبيچي بعد أن ضربتها صاعقة.

يسقط صريعاً ويعجز عن متابعة الحرب. . . وتخاذل الرومان وبدت عليهم علائم الهزيمة وراحوا يفرّون باتجاه الپالاتيوم. وفي تلك الأثناء استجمع رومولوس بعض قواه واستدار لتجديد سُعار المعركة وواجه قومه المنهزمين مشجعاً بصوت جَهْوَرِيّ حاثّاً إياهم على الصمود والقتال. هذا والعدو يتكاثر عليه عددياً وجنوده يحجمون عن الثبات ومواجهة الخصم. فبسط يديه نحو السماء متضرعاً إلى جوپيتر لإيقاف فرار الجيش ورعاية حق روما والعناية بأمرها في أعظم خطر تجابهه. وما إن أنهى صلاته حتى صَدّ الخجل منه والاحترام له كثيراً من المنهزمين عن الفرار، وانقلب خوفهم إلى ثقةٍ. إن أول المواضع التي ثبتوا فيها كان المحل الذي يقوم عليه الآن معبد «جوپيتر ستاتر» (قد يمكن ترجمته بجوپيتر اللاّبث) وفيه انتظمت صفوفهم ثانية، وكرّوا على السابين ودفعوا بهم إلى موضع يُعرف الآن بـ«ريجيا»(٧١) ثم إلى معبد ڤستا.

تأهّب الفريقان لخوض معركة ثانية فحال بينهم وبين ذاك مشهد عجيب يقصر عنه الوصف. فقد أسرعت بنات السابين المخطوفات، مهرولات في اضطراب عظيم، بعضهن من هذه الجهة وبعضهن من تلك كأن بهنّ مسّاً من الجنّ، حتى صرن في وسط الجيش بين جثث القتلى. وبلغن مواقع أزواجهن وآبائهن، بعضهن يحملن أطفالهن، وبعضهن محلولات الشعر والريح تعبث به، ينادين السابين مرةً، والرومان مرةً بأرقّ الكلمات وأكثرها حناناً. وهنا غلبت العاطفة نفوس الفريقين فانكفأوا إلى الوراء ليفسحوا لهن سبيلاً بين الجيشين.

أحدث منظر النسوة حزناً وألماً عميقاً في قلوب الجميع، لكن عباراتهن التي بدأنها باللوم والتعنيف، وأنهينها بالضراعة والعتاب، كان لها التأثير الأقوى. وهذا ما قلن لهم:

«أيّ أذىً نالكم منا لنستحق منكم هذا العنت والعذاب في الماضي والحاضر؟ لقد جرى خطفنا بظلم وعدوان، وبالقوة والإكراه، خطفنا أولئك الذين نرتبط بهم الآن برابطة الزوجية. وبعد أن تمّ ذلك أهمل آباؤنا وإخوتنا وبنو قومنا أمرنا زمناً طويلاً، والآن ونحن مرتبطات بأوثق رباط مع أولئك الذين كُنّا نكرهم كراهة الموت في الماضي لا نملك أنفسنا من الرجفة للخطر، والبكاء لموت أولئك الرجال الذين اعتدوا علينا. إنكم لم تنتصفوا لشرفنا من المعتدين عندما كُنا عذارى. ولكنكم جئتم اليوم لتنتزعوا بالقوة

---

(٧١) هو منزل الكاهن الأعظم في الأزمنة التاريخية الأولى.

الغاشمة نساءً من أزواجهن، وأمهات من أطفالهن، وهي جريمة أعظم خطراً بنواياها الوضيعة من إهمالكم السابق لهنّ وغدركم بهن. فأيهما أشنع؟ أمضاجعة هؤلاء لنا، أم إشفاقكم علينا؟ إن كنتم أردتم حرباً لأي سبب آخر من الأسباب فالواجب يقضي عليكم لأجلنا أن ترفعوا أيديكم عن أولئك الذين جعلوكم أجداداً لأولادهم، وأحماءً لهم. وإن كانت حربكم هذه لأجلنا فها نحن أولاء خذونا وخذوا معنا أختانكم وأحفادكم، أعيدونا إلى آبائنا وبني قومنا ولا تحرمونا أزواجنا وأولادنا. نتوسّل إليكم ألاّ تجعلونا مسبيّات مرّتين».

تكلّمت هرسيليا بكثير من هذا، وراحت الأخريات يتوسلن بكل حرارة. ولم يعد ثم سبيل إلا إلى الهدنة، واجتمع الزعماء الكبار للمداولة. وجاءت النسوة بأبنائهن وأزواجهن إلى آبائهن وأشقائهنّ، وجلبن اللحم والشراب لمن يحتاج، ونقلن الجرحى إلى منازلهن لتمريضهم. وهنا أظهرن لذويهن مبلغ سيطرتهن على منازلهن، وكم يحترمهن أزواجهن، ويبدون لهن ضروب التجلّة والاحترام ويحيطونهن بكل ما يُتصوّر من العطف والودّ. واتفق الجانبان على الشروط التالية: للنساء الراضيات بحالهن أن يبقين حيث هنَّ على أن يعفين -كما ذكرنا - من كل الأعمال الذليلة المتعبة، باستثناء الغزل، وأن يسكن السابين والرومان المدينة معاً. وأن تسمّى المدينة روما من [رومولوس]، وتسمّى كوريتيس Quirites[٧٢] من مواطن [طاطيوس]، وأن يحكم هذان الزعيمان معاً ويمارسان القيادة بالتساوي. وكان مَحل المعاهدة يدعى كوميتيوم Comitium[٧٣] من كويري Coire أي اللقاء أو الاجتماع.

وهكذا تضاعف عدد سكان المدينة. وانتُخب مائة من السابين[٧٤] شيوخاً. وزيد

---

(٧٢) لكلمة كويرس في لغة السابين معنيان. فهي «رمح»، وهي أيضاً «إله محارب يحمل رمحاً» وليس بالإمكان التحقق من أيهما أعطى اسمه للآخر. ومهما يكن فالربّ كويرس أو كورينوس هو إما مارس أو هو إله حربٍ آخر كان يعبد في روما حتى وفاة رومولوس الذي كُرّمت ذكراه بخلع لقب كورتيوس عليه. ويقول ديون إن الشخص كان يدعى رومانوس والشعب كان يطلق عليه اسم كوريتيس. إلاّ أن القسم الأول من دعواه تلك ستخالف الصيغة القديمة لإعلان الدفن Ollus Quiris letho datus est.

(٧٣) يقع الكوليسيوم عند مقدمة تل بالاتينا مقابل الكابتول، غير بعيدٍ عن الموضع الذي بنى فيه الملكان هيكل (ڤولكان)، حيث كانا يجتمعان عادة مع مجلس الشيوخ لأخذ رأيه في المسائل العامة. هذا الاسم فرض نفسه بعد عهد روملوس وبقي زمناً طويلاً.

(٧٤) يناقض بلوتارخ نفسه هنا عندما يذكر في سيرة نوما بأن عدد أعضاء مجلس الشيوخ كان مائة =

ملاك الكتائب العسكرية إلى ستة الآف راجل، وستمائه فارس(٧٥)، ثم قُسّم الشعب إلى ثلاث قبائل: سُمّيت الأولى رامنينسيس Ramnenses(٧٦) من رومولوس، والثانية طاطينسيس Tatinses من طاطيوس، والثالثة لوچيرنسيس Lucerenses من لوكوس، أي البستان، حيث يقوم الملجأ الذي شيّد ليلوذ به كل هارب أو لاجئ فيلقى الأمان المنشود، ويُقبل مواطناً في المدينة. ومما يدل أن القبائل كانت ثلاثاً ما يظهر من الصفة «تريبه» Tribe و«تريبيون» Tribune. وكل قبيلة تتألف من عشرة كيوريات Curiae أو أفخاذ، والاسم مأخوذ من اسم المرأة السابينية على ما يقوله البعض. لكن لا أساس لهذا التعليل فكثير من النساء يسمّين بأسماء أمكنة مختلفة. وإن كانوا والحق يقال كثيري الإكرام لنسائهم ولطالما أحيوا ذكراهن بوسائل مثل هذه. كانوا يفسحون لهن طريق المرور كلما التقوا بهن، ولا ينطقون بكلمة نابية في محضرهن، ولا يظهرون عُراة أمامهنّ، واذا قتلن شخصاً لا يحاكمن أمام القضاة العاديين(٧٧). ويتحلّى أطفالهنّ

= وخمسين. أو لعّل رومولوس بسبب استبداده في آخر أيامه لم يهتم بملء المقاعد الشاغرة في ذلك المجلس!

(٧٥) اكتشف المؤرخ روالد Ruald في تعليقاته على پلوتارخ خطئين كبيرين هنا. أولهما قوله إن رومولوس ضم ٦٠٠ فارس إلى الفرقة العسكرية في حين لم يضم مثل هذا العدد الكبير إلى الفرقة في أي وقتٍ من الأوقات. فقد كان ملاكها مائتين أولاً ثم ارتفع إلى ثلاثمائة ثم بلغ أخيراً الأربعمائة وبقي كذلك. وأمّا الخطأ الثاني فقوله إن رومولوس جعل فرقة الرجّالة ستة آلاف رجل في حين لم تتعد في زمانه نصف هذا العدد. وقال بعضهم إن ماريوس كان أوّل من رفع ملاك الفرقة إلى ستة آلاف. لكن ليڤي يخبرنا أن ذلك حصل قبل عهد ماريوس بزمن بعيد، وقد أحدثه سكيپيو أفريقانوس. وبعد طرد الملوك جُعل ملاك الفرقة ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ ثم ارتفع إلى ٥٠٠٠ حتى جعلها سكيپيو ٦٠٠٠ ولم يلجأ إلى هذا الاّ في الحالات الخاصة وعند الضرورة القصوى فملاك الفرقة الرسمي هو أربعة آلاف راجل ومائتا فارس. إلاّ أن [م. ريكارد] يتفق مع پلوتارخ بإيراده هذا العدد الذي أثبته النص وباعتباره فرقة رومانية - سابينية مختلطة أي فرقتين في الواقع.

(٧٦) اختلف الباحثون في أصل هذا الاسم. وثمّ عدة افتراضات. فإن ليڤي [١ :٣] يقر باستحالة التحقق من أصله. في حين يشتقّه فستوس من لفظة ليچروس Lucerus وهو ملك أرديا Ardea ويشتقه ڤارو من لفظة لوكومو Lucumo وهي اسم زعيم إترورري شهير رومولوس في حروبه. وأمّا الرّانيسي فأغلبهم من ألبا سكنوا تَلّي پالاتينا وجيليا. وأمّا التاتينسي فهم سابين خصّص لهم تلاّ كاپتولين وكورينال. وأما القبيلة الباقية فتشمل اللاجئين من إتروريا ولاسيوم وقد سكنت الفسحة الواقعة بين القبيلتين المشار إليهما آنفاً.

(٧٧) وإنما أمام مندوبين يعيّنهم مجلس الشيوخ من بين أعضائه.

بحليةٍ تُسمّى لوللا[٧٨] (لأنها شبيهة بفقاعة الماء) يحطن بها أعناقهم، ويلبسنهم البرتكستا Praetexta وهو رداء ذو حواش أرجوانية.

لم يجتمع الزعيمان للمشاورة في الحال. وإنما اجتمع كل منهما بشيوخه المائة على حِدة أولاً، ثم اجتمعوا سوياً. وسكن طاطيوس حيث يقوم اليوم معبد مونيتا Moneta وسكن رومولوس بالقرب من درجات «الساحل الجميل»[٧٩] وهو الموقع القريب من منحدر جبل پالاتين Palatine المتجه نحو الملعب الأكبر. ويقال إن شجرة توت مقدسة نمت هناك، وذُكر عن كيفية نموّها أن رومولوس أراد مرة أن يجرّب قوته[٨٠] فقذف من جبل آڤنتين برمح قناته مصنوعة من خشب تلك الشجرة فطار بعيداً ثم انغرز عميقاً في الأرض ولم يفلح أحدٌ في انتزاعه رغم تعاون الكثرة وبقي في موضعه. وكانت التربة خصبة فأمدّت الخشبة بالغذاء فنمت وأفرعت وأزهرت واستوت جذعاً كبير الحجم. وتولّى السلف الشجرة بالعناية وأكرموها وعبدوها وعدّوها من أقدس الذخائر وأحاطوها بجدارٍ. فإذا بدت لأيّ ناظر قليلة الاخضرار والازدهار مائلة إلى الذبول والاصفرار فزع حالاً إلى أي مستطرق يلقاه لتهيئة الماء فتقوم ضجةٌ حتى لكأن بيتاً يحترق ويهرع الناس من كل صوب بأوعية الماء ليسقوا الشجرة... وعندما كان كايوس قيصر Caius Caesar يرمّم الدرجات المحيطة بها أتلف بعض العمال جذورها عندما كانوا يحفرون بالقرب منها فيبست.

واتخذ السابين الأشهر الرومانية؛ وقد ذكرنا في سيرة نوما كل ما هو مهم في هذا الباب. واتخذ رومولوس تروسهم الطويلة ونبذ دروعه ودروع الرومان كافة واتخذ

---

(٧٨) عندما يرتدي الشبان «الرداء الرجولي Toga Virilis» فإنهم يخلعون الـ«پوللا» وهي حلية ذهبية على شكل كرة جوفاء ويقدمونها لآلهة البيت Dū Lares. فإذا توفي الشاب قبل بلوغه السادسة عشرة فإن الحليه توضع في الوعاء الذي يحوى رماد الميت. ويقول ساتورنينوس ١: ٦ إن هذه الحلية لا يقتصر التحلي بها على الأحداث بل إنها تزين أولئك الذين يكرّمون بمُوكِب نصر إذ تقوم بتقليد واحدة كبيرة منها كبيرة الكاهنات الفستالات كعلامة من علامات التكريم. كما أن النسوة يضفنها إلى ما يتزيّن به من الحلي. وأمّا بخصوص الجلباب ذي الحاشية الأرجوانية فإن الفتيات العازبات يرتدينه حتى يتزوجن. كما يرتديه الشبان حتى يبلغوا السابعة عشرة. إلاّ أن ما كان اشارة تكريم لأولاد نساء السابين في عهد روملوس أصبح شائعاً بين الجميع حتى شمل أولاد العبيد العتقاء.

(٧٩) ربما كان النص اليوناني [خاخون] محرّفاً، ولا شك أن المقصود هنا «Scalae Caci: درجات كاكي».

(٨٠) أو لأجل تحديد فسحة للعرّافة على حدّ زعم سرڤيوس.

دروعهم، فقد كان الرومان يثبتون فوق صدورهم درقات مستديرة على الطراز الأركيفي Argive. وكانت أعيادهم وقرابينهم مشتركة، ولم يلغ عيد من أعياد الشعبين. واستحدثوا أعياداً جديدةً منها عيد ماتروناليا Matronalia[٨١] الذي أنشئ تكريماً للنساء واعترافاً بمجهودهن في إطفاء نار الحرب، وأحدثوا أيضاً عيد كارمنتاليا Carmentalia[٨٢]، ويخيّل لبعضهم أن كارمنتا Carmenta هذه هي ربّة تشرف على ولادة البشر، لذلك تكرمها الأمهات كثيراً. ويظن بعضهم أنها زوج إيڤاند الأركادي. وهي كاهنة عرّافة ترسل نبوءاتها شعراً، وقد أسميت كارمنت من (كارمن: أي شِعر). واسمها الحقيقي نيقوستراتا. ويرى بعضهم أن أقرب الإحتمالات في اسم الكاهنة هو اشتقاقه من لفظ «كارنس - منتي» ومعناه مختلّ العقل[*]، إشارة إلى الحركات الجنونية والتشنجات التى تعتريها أثناء نزول الوحي عليها.

أما عيد پاليليا فقد سبق لنا الكلام عنه. والذي يبدو أن عيد لوپركاليا Lapercalia[٨٣] هو عيد التطهر، لأنه مأخوذ من الزمن الذي يقام فيه وهو غير أيام السفاد Dies Nefasti من شهر شباط، واسم شباط February نفسه يعني التطهر. والعيد نفسه كان يدعى في قديم الزمان فبرواتا Februata. إلاّ أن اسمه مرادف للاسم اليوناني (لكيا Lycaea) ويبدو أنه موغل في القدم جاء به الأركاديون الذين صحبوا إيڤاندر[٨٤]. على أن كل هذا رجمٌ بالغيب وتخمين، إذ قد يأتي ايضاً من «الذئبة» التي أرضعت رومولوس، وإننا لنشاهد الكهّان اللوپيركي Luperci[٨٥] يبدأون طوافهم من

---

(٨١) في أثناء هذا العيد يتوجب على كلّ الرومانيات المتزوجات القيام بخدمة عبيدهن على المائدة. وأن يقبلن الهدايا من أزواجهن مثلما يقدّم الأزواج لهن من هدايا في عيد ساتورناليا. ولم يكن عيد ماتروناليا قاصراً على تكريم النساء السابينيات بل هو مخصّص لـ«مارس» ولـ«جونو لوكانيا» إلى حدّ ما. ويقعُ في الأول من شهر آذار على خلاف ما ذكره بعضِ المعلقين الآخرين.

(٨٢) وهو عيد كبير يقع في ١١ من كانون الثاني وتقام مراسمه في أسفل-الكاپتول بالقرب من باب كارمنتال. ويرفع الدعاء والصلاة للربة (كارمنتا) من أجل إخصاب نساء روما ولساعة ولادة سهلة (أوڤيد ١: ٦١٧) وپلوتارخ أيضاً في «أسئلة رومانية» فإنه يجعل كارمنتا أمّاً لـ«ايڤاندِر». إن قصة هذه السيدة وقصة لوپركاليا التي تتلوها في المتن هي من نسج الخيال المحض.

(*) Caurc «مختل أو مسلوب» و Mens «عقل».

(٨٣) يحتفل بهذا العيد في الحادي عشر من شباط تكريماً للرب «پان». وبسبب عداءٍ يكنّه للذئاب فقد سُمّي لوپركوس: من ذئب Lupa.

(٨٤) ليڤي ١: ٥ و ١-٢.

(٨٥) أي كهانة الرب (فاونُس) الذي هو (پان) عند الرومان مثلما ذكر.

الموضع الذي قيل إن رومولوس تُرك فيه. لكن المراسم التي تتمّ فيه تجعل من أصعب الأمور التوصل إلى الحقيقة. فثمّ ماعزٌ يُنحر، ومن ثمّ يؤتى بنبيلين صبيين ويقوم بعضهم بوسم جبهتيهما بالسكين الدامية، ثم يقوم آخرون بمسح ما خلّفته السكين من دماء بقطع من الصوف مغموسة بالحليب، وعلى الصبيين أن يضحكا بعد مسح جبهتيهما. وبعد هذا تقطع جلود الماعز سيوراً يمسك بها الصبيّان ويهرولان وهما عاريان إلا مما يستر عورتيهما، يضربان بها كل من يصادفهما، ولا تتجنّب الزوجات الصغيرات تلك الضربات لأنّها تساعدهنَّ على الحمل كما يشاع بينهنَّ. أو ثم شيء آخر غريب في هذا العيد، وهو أن اللوپيركي يضحّون بكلبٍ. هذا وإن شاعراً من الشعراء كتب تفاسير خرافية للعادات الرومانية على شكل قصائد تقريض فيقول في هذا الصدد إن رومولوس وريموس بعد أن حققا النصر على أموليوس ركضا فرحَين إلى الموضع الذي ارضعتهما فيه الذئبة. وإحياءً لهذه الحادثة أنشئ هذا العيد، ولذلك يركض الصبّيان النبيلان. . .

«وهما يضربان كل من يصادفهما. حين أقبل التوأمان الشهيران من مدينة ألبا مسرعين والسيف في يد كل منهما».

أما إمرار السكين الدامية على جبهتيهما فهو إشارة إلى الأخطار التي حفل بها ذلك اليوم، وما جرى فيه من سفك دماء. وأما مسحهما بالحليب فهو ذكر إطعامهما وتغذيتهما. ويكتب كايوس أچيليوس Cauis Acilius(٨٦) ما مفاده أن قطيع أبقار لريموس ورومولوس شُتتت في الفلاة، قبل أن تبنى روما. فصلّيا لربّ فونوس Faunus ثم خرجا للبحث عنها وهما عاريان لئلا يعرقلهما العرق الناضح منهما. وهو الذي جعل اللوپيركي يتراكضون عراة. أمّا إذا كان القربان للتطهر فحسب فتضحية الكلب أمرٌ واجبٌ لأن اليونانيين كانوا يضحّون بالجراء كما يشاهد ذلك في نقوشهم ومنحوتاتهم. وهم كثيراً ما يزاولون هذه المراسم التي يسمّونها پريسكلاسيزموس Periscylacismus(٨٧). وأما إذا كان القربان لشكر الذئبة التي أطعمت رومولوس وحفظت حياته فثمّ سبب وجيه للتضحية بكلب لأنه عدوّ الذئاب. إلاّ إذا كان سبب قتله

(٨٦) هو مفوض الشعب (Tribume) كتب بالإغريقية في بعض الحوليات. ويخبرنا ليڤي أن كلوديوس ترجمها إلى اللاتينية واقتبس منه شيشرون.

(٨٧) أو پيرسكو لاكيزموي Perisku Lakismoi، ويتم ذلك بأن يدور كلب أو جروه حول الشخص المراد تطهيره وبعد انتهاء الطواف يقتل الحيوان. وهذه المراسم شائعة جداً عند الإغريق.

عقاباً له على عرقلته اللوپيركي أثناء ركضهم. وقيل أيضاً إن رومولوس هو أول من استحدث فريضة النار المقدسة، وعيّن عذارى مقدسات للإبقاء عليها مشتعلة[٨٨]، سُمّين ڤستالات. ويقول آخرون إن نوما بومپيليوس هو موجد هذه الفريضة. وهم يتفقون على كل حال أن رومولوس كان تقياً شديد التديّن، ماهراً في اقامة الفرائض ولهذا كان يحمل عصاً معقوفة ليتّوس Littuus مما يستخدمه السحرة لرسم أركان السماء عندما يجلسون لمراقبة الطير. ظلّت عصا رومولوس محفوظة في البالاتيوم، وضاعت عندما استولى الغاليون على روما، ثم عُثر عليها بعد طرد هؤلاء البرابرة في الأطلال والخرائب مدفونة تحت كومة عظيمة من الرماد[٨٩]، ولم تمسها النار بضرّ في حين أتت على كان ما كان حولها. واستنّ رومولوس قوانين تميّز أحدها بالصرامة وهو يقضي بألاّ تهجر المرأة زوجها، ويخوّل الزوج حق طلاقها في حالة تسميمها أولادها أو تزييف مفاتيح الزوج، أو إذا زنت[٩٠]. وإذا سرّحها زوجها لسبب آخر غير هذه

---

(٨٨) ما زال معبد ڤستا الرئيس قائماً في روما. وهو على شكل دائرة يتألف محيطها من عشرين أسطوانة - رخامية يعلوها إفريز ذو نقوش بديعة. ويتألف سقف من قرص مدبّب أعلى في وسطه مثل قبّعة الصينيين وإطاره يرتكز على تيجان الأعمدة العشرين، بني ليكون محراباً لشعلة النار المقدسة التي كان الرومان يعتقدون أنها ترمز إلى قوة روما وعظمتها والتي كانت ترعاها الربة ڤستا في عُرفهم. وتتناوب عذارى ڤستا السهر على الشعلة الدائمة ليل نهار، كما كان من واجباتهن رفع الصلاة للربة لتكفل رفاهية الشعب والدولة ونصر جيوش روما في الحروب. وكان يُعهد إليهن أيضاً ببعض محفوظات الدولة ووصايا الأباطرة والوثائق الهامة التي يتوقف على سرّيتها كيان البلاد. ولذلك كن يعتبرن حاميات روما وحارسات مجدها [م. ت].
ولا بد أن پلوتارخ يقصد أنّ روملوس الأول هو أوّل من استحدث النار المقدسة في روما. وأمّا عن وجود العذارى الڤستالات قبله في ضاحية ألبا فهذا مؤكد لأن أمّه كانت واحدة منهن. أمّا النار المقدسة الخالدة فلم تكن مقصورة على روما بل هي شائعة في مصر وبلاد الفرس وما بين النهرين واليونان ولدى كل الشعوب تقريباً. أخذها الإغريق عن الشرق وهي النتيجة الطبيعية لعبادة الشمس أو النار كما في الدين المجوسي.

(٨٩) يذكر شيشرون في رسالة النبوءات أنها اكتشفت في معبد كهنة ساليا في أعلى قمة تلّ پالاتينا.

(٩٠) مع هذا، فإن الامتياز الذي اعتبره پلوتارخ تعسّفاً بحق المرأة كان موسى النبي قد أباحه للرجال بدرجة واسعة. على أن حرية النساء عند الرومان كانت تبلغ حَدّ إعطائهن الحق في تطليق أزواجهن كما يظهر من جوڤينال ومارچيال (١٠: ٤١). وفي الوقت نفسه يجب أن يلاحظ أنه لم يعرف عن طلاق واحدٍ وقع في روما خلال خمسمائة وعشرين عاماً وهو دليل على فضائل الرومان ومتانة أخلاقهم، ولذلك يخصّ بالذكر كارڤيليوس كيوريوس بوصفه أول من طلّق زوجه من الرومان.

الأسباب الثلاثة يُصادر منه ملكه، ويعطى نصفه للمطلقة ويوقف النصف الآخر على الربّة چيريس Ceres[٩١]. وعلى كل من طلق امرأته كفارة، وهي أن يضحى لآلهة الأموات. ولوحظ في روملوس أنه انفرد عن غيره بعدم وضعه عقوبة ما لجريمة قتل الأب أو الأم الحقيقيين[٩٢]، ولكنه أدمج الجريمة مع غيرها من القتول وفرض حكماً عاماً معتقداً أن القتول عامة اعمال شنعاء وأنّ هذا القتل مستحيل لا يُقدم عليه أحد. وثبت أنه كان مصيباً في حكمه هذا، فقد مرت ستمائة سنة متواصلة ولم يرتكب مثل هذه الجريمة في روما. وذُكر أن لوشيوس هوكتيوس Lucius Hoctius كان أول قاتل لأبيه وقد وقع ذلك بعد حروب هانيبال. وفي ما ذكرنا الكفاية.

في السنة الخامسة لحكم طاطيوس كان بعض أصدقائه وبني قومه قد صادفوا سفراء موفدين من لورنتوم[٩٣] إلى روما فحاولوا سلبهم اموالهم ولما قاومهم هؤلاء بطشوا بهم جميعاً، وكان غدراً فظيعاً حمل روملوس على الاستعجال في إنزال العقاب بالمجرمين، إلاّ أن طاطيوس حال دون ذلك. وكان هذا مبدأ الخصام العلني الذي نشأ بينهما، ولم يظهر شيء منه في أثناء تصريفهما الشؤون العامة وكانا شديدي الحذر من الاصطدام وظهرا بمظهر المودة والتفاهم. أمّا ذوو القتلى فبعد أن حيل بينهم وبين الانتصاف الشرعي لقتلاهم بسبب تدخّل طاطيوس تربّصوا به أثناء ما كان يقدّم قرباناً برفقة روملوس في لافينيوم، ووثبوا عليه وذبحوه[٩٤]، إلاّ أنهم لم يتعرّضوا لروملوس بل رافقوه إلى بيته باحترام وهم يثنون عليه لما أبداه من عدالةٍ. ودَفَنَ روملوس جثمان طاطيوس دفنة فخمة جداً في جبل آفنتين، قرب موضع يدعى

---

(٩١) وهذا هو النص القانوني اللاتيني:

Familiam ad aedem Clreis; ispe sacer esto.

(٩٢) في هذا غرابة كبيرة. كما يلاحظ المؤرخ داسييه أن تعبير «القتل الأبوي» كان موجوداً قبل ان يرد ذكر لارتكاب مثل هذا الجرم.

(٩٣) ليڤي ١: ١٤ و ١-٣. ويقول ديون إنهم كانوا سفراء قدموا من لافينيوم في السنة السادسة لحكم طاطيوس، لرفع الشكوى من الاعتداءات التي ارتكبها أصدقاء له في موطنهم. وأنهم وقعوا أثناء عودتهم في كمين نصبه لهم السابين في الطريق فسلبوهم وقتلوا بعضهم. والمدينتان متجاورتان ومن أعمال لاسيوم.

(٩٤) ربما كانت هذه ذبيحة للرب الأسيومي المسمّى أريديكدس. وروما تشارك فيه أيضاً لأن المهاجرين الطروادين استقروا في ذلك الموضع. على أن لوچينيوس يقول إن طاطيوس لم يذهب إلى هناك برفقه روملوس. بل لم يذهب من أجل تقدمة الذبيحة وإنما خرج وحده محاولاً إقناع الأهالي بالعفو عن القتلة.

أرميلوستريوم Armilustrium[٩٥] ولم يحاول الاقتصاص لمقتله. وذكر بعض الكتّاب أن مدينة لورنتوم خافت العواقب فأسرعت بتسليم قتلة طاطيوس إلاّ أن رومولوس أطلقهم قائلاً: لقد جَبَّ القتلُ القتلَ. وبهذا أحدث أسباباً للتقوّلات والتخرّصات وثرثرة ألسنة الحسّاد إذ راحت تذيع أنه ارتاح من إزاحة زميله وشريكه في الحكم. على أن مثل هذا الكلام لم يؤثر في السابين ولم يُثر ضغينة فيهم واستمروا يعيشون بسلام. وبقي إعجابهم واحترامهم له، إما لحبٍّ حقيقي يكنّه له بعضهم، وإما خوفاً من بطشه، وإمّا لاعتباره في منزلة الأرباب. وأظهرت الأمم الأخرى إجلالها لرومولوس أيضاً وأرسل اللاتين عدة سفراء إليه ودخلوا في حلف اتحادي معه. واستولى على فيديني Fidenae[٩٦] وهي مدينة مجاورة لروما بكوكبة من الفرسان فقط سبقوه، على ما قيل، مزوّدين بأوامر تقضي بكسر رتاجات أبوابها. وبعدها هجم بنفسه على غير انتظار. وقال آخرون إن سكان المدينة بدأوا العدوان وراحوا ينهبون الريف ويدمّرون ما فيه فكمن لهم رومولوس، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم اقتحم مدينتهم إلاّ أنه لم يهدمها أو يقوّضها بل جعلها مستعمرة رومانية وأرسل إليها في الثالث عشر من نيسان ألفين وخمسمائة مستعمر روماني.

وبُعيد هذا انتشر وباء الطاعون، وأخذ يهلك الناس دون سبق مرضٍ، فأمحل الزرع وجفّ الضرع وأمطرت السماء دماً على المدينة[٩٧]، فأضيف إلى البؤس الذي يعانونه الخوفُ من غضب الآلهة. وعندما حلّت المصائب نفسها بلارنتوم حكم الجميع أن النقمة السماوية حلّت بالمدينتين لأنهما لم تسلكا سبيل العدل في مقتل طاطيوس والسفراء. فما إن سُلِّم القتلة وعوقبوا حتى خفّت وطأة الوباء بصورة ملحوظة. وطهّر رومولوس المدينتين بفرائض الغسول المقدسة، وقد بقيت تمارس على ما يقال في غابة تدعى فرنيتنا Ferentina. وقبل أن تزول آثار الطاعون غزا الرومان قوم الكامرتين

---

(٩٥) سُمّي بهذا بسبب الاحتفال المعروف بهذا الاسم. ويقام في ١٩ من تشرين الأول كل سنة وفيه تستعرض الوحدات العسكرية صفوفاً ويجرى تطهيرها بتقدمة القرابين.

(٩٦) في هذا يتفق بلوتارخ مع ليفي (١: ١٤) إلاّ رن ديون [٢: ١٣] يقول: عندما أرسل أهالي كريستوميريوم أرزاقاً لإغاثة الرومان الذين أضرّت بهم المجاعة أو. . . الوباء، كمن أهالي فديني للقافلة وسلبوها.

(٩٧) هذه الزخّات المنذرة الحافلة بالوعيد يعزوها م. ريكارد إلى الحشرات والأبخرة القرمزية ويقول إنها لم تكن نادرة في الأيام المتأخرة. وإننا لنقرأ عن أمثال هذه الخوارق فيما غبر من الازمان. ولدينا ما يشبهها في أيامنا الحالية كسقوط حجارة برشقاتٍ.

Camertine واجتاحوا البلاد متوهمين أن النوائب أعجزت أعداءهم عن المقاومة. إلاّ أن رومولوس ما لبث أن عاجلهم القتال واستظهر عليهم بفتكه بستة آلاف منهم والاستيلاء على مدينتهم وسوق ما وجده فيها من الأهالي إلى روما. ونقل إلى كاميريوم Camerium[٩٨] من الرومان ضعفَ العدد الباقي فيها، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر آب.

إن عدد من عفا عنهم من الناس خلال السنوات الستّ عشرة الأولى من بنائه روما كان كبيراً جداً. ومن بين الغنائم التي استولى عليها من كاميرويوم عجلة نحاسية تجرّها أربع خيول وضعها في معبد ڤولكان ونصب فوقها تمثالاً له مفتوحاً بصورة إله النصر.

هكذا صارت قوة روما تتنامى يوماً بعد يوم، وضعف أمر جيرانها وخمل شأنهم وقنعوا أن يُتركوا بما لديهم. إلاّ أن الأقوام الأقوى منهم، بدافع من الحسد أو إباءً عن الخضوع إلى رومولوس، والسكوت على تعاظم سلطانه، قرروا الوقوف في وجه طموحه. وأول تلك الأقوام الـ «ڤينيتس» Veinetes[٩٩] وهم شعب من توسكانيا كثير المال والرزق يسكن مدينة عامرةً. فأختلقوا سبباً للحرب خلاصته أن فيديني تعود لهم. وهو ادّعاء فضلاً عن كونه غير معقول، فهو سخيف، فهم الذين تركوا أهلها لشأنهم في أشدّ المواقف حراجة ولم يمدّوا إليهم يد العون فهلك كثير منهم، وهم الآن يدّعون بملكية أراضيهم ومساكنهم عندما آلت إلى أيدي الآخرين.

كان جواب رومولوس على طلبهم هذا حازماً هازئاً. فقسموا قواتهم إلى قسمين وهاجموا بالأوّل منهما حامية فيديني وزحف الثاني لقتال رومولوس، ونال الأول نصراً وقتل ألفين من الرومان. أما القوات الثانية فقد هزمها رومولوس وقتل منها ثمانية آلاف. ثم جرت معركة أخرى قرب فيديني. وهنا يتفق جميع الكتّاب أن الفضل الرئيس في نصر ذلك اليوم يعود إلى مجهود رومولوس فقد أبدى مهارةً فائقةً وشجاعة لا تُبارى. وبدت القوة والسرعة اللتان أظهرهما وكأنهما ليستا من طبع البشر. إمّا قول بعضهم إن أكثر من نصف الأربعة عشر ألفاً الذين قتلوا في ذلك اليوم كان هلاكهم بيد رومولوس فهو حديث خرافة ووهم لا يقبله العقل أبداً، فحتى الماسينيين بالغوا كثيراً

---

(٩٨) تلك المدينة في لاسيوم كان رومولوس قد استولى عليها من قبل. وقد انتهز أهاليها الأصليون هذه الفرصة للعصيان فانتفضوا وذبحوا الحامية الرومانية.

(٩٩) ڤيي Veii هي عاصمة بلاد التوسكان وتقع على صخر جبلي وتبعد عن روما زهاء مائة فرسخ. ويضاهيها ديون بأثينا من جهة غناها وحجمها.

في ادعائهم أن أرسطومينيس Aristomenes قدّم ثلاثة قرابين متوالية لقتله مائة فقط من أعدائه اللقديمونيين(١٠٠).

بعد أن هزم رومولوس جيش عدوه، وترك فلوله تنجو بجلدها، وجّه قواته نحو المدينة. وكان العدو قد مُنِيَ بخسائر جسيمة فلم يفكر في إبداء مقاومةٍ وإنما أعلن استسلامه وأبرم معاهدة حلفٍ وصداقة أمدها مئة عام، وتنازل أيضاً عن مساحة كبيرة من الأرض تدعى سپتمياگيوم Septempagium(١٠١) أي المنطقة ذات المدن السبع. كذلك نزلوا له عن مما لحهم التي تقع على ضفاف النهر، ودفعوا إليه بخمسين رهينة من نبلائهم ضماناً لتطبيقهم شروط الصلح. ودخل المدينة في موكب نصر في الخامس عشر من تشرين الأول(١٠٢)، ومن بين الأسرى الذين ساروا فيه قائد جيش الڤينيتس وهو رجل طاعن في السنّ، لم يعمل على ما يبدو بما تُمليه حكمة السّنِ وتصرّف بنزق. ومن هذا جاءت عادة ظلّت تطبّق في كل مناسبة تقريبٍ لقرابين النصر، وهي أن يقاد رجل كبير السنّ خلال السوق حتى الكاپيتول متشحاً برداء الأرجوان ومتقلداً لعبة الأطفال «پولاّ» والمنادي ينادي قائلاً «الساردينون سيتمّ بيعهم الآن!»(١٠٣) إذ يقال إن توسكانيا هي إحدى مستعمرات الساردين، وإن ڤينيتيس هي مدينة توسكانية.

كانت هذه المعركة آخر ما خاضه رومولوس من معارك. وبعدها أقدم على ما يقدم عليه معظم الرجال لا بل كل الرجال الذين ارتفعوا إلى ذروة المجد والسؤدد بفضل ظروف معجزة فائقة العادة (باستثناء القليل جداً)، نقول أقدم على ما أقدم عليه معتمداً على رصيده من جلائل الأعمال والمآثر.

... ازداد تيهاً بنفسه وغروراً، واستبدل بسلوكه الشعبيّ المتواضع الكبرياءَ الملكية الكريهة من الشعب، وتزيّا بزيّ بغيض جداً إلى قلوب العامة، فلبس القرمز وفوقه رداء

(١٠٠) يؤيد پاوسنياس [٤٣: ١٩] هذه الرواية وينوّه بالزمان والمكان فضلاً عن ذكره الهيكاتومب المقدم لجوپتر أتيوماتس. هذه الحروب بين المسينيين والسپارطيين كانت قد جرت على عهد توللوس هوستيليوس.

(١٠١) تمتد من مدينة ڤيي حتى ضفاف نهر التيبر.

(١٠٢) للمرة الثالثة كما يزعم ديون وبشكل افخم من السابق بكثير.

(١٠٣) الڤينيتس والأترورين الآخرون هم مستوطنون قدموا من ليديا. وكانت مدينة سارديس مسقط رأسهم. ويؤرخ فستوس نقلاً عن سينيچيوس كاپيتو هذه العادة من وقت فتح جزيرة سردينيا من قبل طيبيريوس سمپيتوس كراخوس عند جلبه هذا العدد من أسرى تلك الجزيرة. حتى لم يبق من يشاهد في سوق النخاسة من بضاعة غير العبيد الساردينين.

مطرّز الحاشية بالأرجوان[١٠٤]. وكان يقابل الناس وهو جالس على عرش يحيط به دوماً زمرة من الشبان عرفوا باسم چيليرس[١٠٥] أي العدّائين لسرعتهم في قضاء المهام. وكان يسير أمامه آخرون حاملين سيوراً من الجلد لتقييد من يأمر بتقييده حالاً. واللاتين يستعملون كلمة الليكاري Alligre الحالية، ومنها جاء لقب ليكتورس Lictors لهؤلاء الحرس. وكلمة باكيولا Bacula أي صولجان للعصيّ التي يحملونها (فاچي Fasces)، لأن القضبان كانت شائعة آنذاك. ولعلهم كانوا يستعملون أول الأمر لفظة «ليتورس» اليونانية، ثم زيدت حرف C فصارت لكيتورس أو ليتورغي لائيتوس Liturgi Leitos باليونانية «خدام للشعب» لأن كلمة «لائيتوس» اليونانية تعنى «العامة» و«لاوس Laos» تستخدم للجمهور عموماً.

إلاّ أنه عندما توفّي جده نوميتور في ألبا وآل العرش اليه وضع الحكم في أيدي العامة لأجل أن يخطب ودّهم، وعيّن حاكماً على أهالي ألبا[١٠٦] يُستبدل سنوياً. وهذا ما لقّن رجال روما العظام درساً في أن يفضّلوا دولة حرةً على الملكية، حيث يكون الكلّ رعيّة وحكاماً في الوقت نفسه. إذ حال بين الپاتريشيان والاسهام في سياسة الدولة، ولم يبق لديهم غير الاسم واللقب. تراهم يجتمعون بحكم العادة وحفظاً للمظاهر أكثر من إبداء المشورة، ولا يفضلون عن العامة إلاّ بأنهم أسبق إلى معرفة ما يجري، ولم تكن هذه المسائل ذات بالٍ أو قيمة. ولكن عندما عمد رومولوس إلى توزيع الأراضي التي غنمها على الجنود من تلقاء نفسه، وعندما أعاد إلى مدينة ڤينتيس رهائنها، اعتصب مجلس الشيوخ ولم يوافق ولم يقرّه على ذلك - وكان قبلاً يجتمع ليستمع صامتاً إلى أوامر الملك ثم يتفرق. والظاهر أنهم عدّوها إهانةً عظيمة لهم. وغدا المجلس موضع شكّ وريبة عندما اختفى رومولوس اختفاءه الغريب المفاجئ بعد زمن قصير من هذا. غاب في السابع من تموز (يولي الذي كان يسمّى آنذاك كونتيلس

---

(١٠٤) يطلق عليه Sagum أو «الزّي العسكري» وفوقه يبسط اللاالبالودامنتوم] أو معطف الجنرال ويشدّ فوق الكتف. على أن ما جعله مكروهاً بالدرجة الأولى هو قسوته المتناهية في عقاب المجرمين. ومن ذلك اتهم عدد من الشبان الأشراف بقيامهم باعتداءات غير مسموح بها على أراضٍ مجاورة فحكم عليهم بالموت بإلقائهم من أعلى الصخرة التاربية (ديون: ١١: ١٤).

(١٠٥) ليڤي ١: ١٥: و ٨. أمر رومولوس الأفخاذ (كيوراي) الثلاثين بأن يختاروا له حَرساً يتألف من ثلاثمائة رجل أي عشرة من كل فخذ. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم پلوتارخ اسم «چيليرسي».

(١٠٦) أو السابين. هناك بعض المؤرخين ممن يفضّل إطلاق اسم ألبان عليهم.

Quintilis) غير تارك شيئاً مادياً يروى عن موته، إلاّ يوم اختفائه. وفيه ما تزال تقام عدة احتفالات تمثل ما وقع[١٠٧]. وعلينا ألاّ نعتبر هذا الغموض مما يُستغرب له إذا تذكرنا كيفية موت سكيپيو أفريقانوس[١٠٨] فقد قضى نحبه في داره بعد العشاء ولم يكن في موته ما ينفي سبباً أو يثبتهُ، فبعضهم يقول إن موته كان طبيعياً لعلّةٍ مزمنة كان يشكو منها، وبعضهم قال إنه تجرّع السمّ، وذكر آخرون أن أعداءه فاجأوه ليلاً وخنقوه. مع هذا كله فإن جثته عُرضت للملأ وراح الجميع يستنتجون ويخمّنون، في حين لم يترك رومولوس أثراً عند غيبته، ولو جزءاً صغيراً من جسمه أو خرقة من ثيابه. لذلك مال الظنّ إلى أن الشيوخ فتكوا به في معبد ڤولكان وقطعوا جثته أجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيّات ثيابه وتخلّصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد ڤولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وإن حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى «مستنقع الماعز»[١٠٩] فاكفهرّ الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلمّ وجه الشمس[١١٠] وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوبٍ. فتفرق الناس وهربوا لا يلوون. إلاّ أن الشيوخ بقوا في موضعهم كتلةً واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لا تبحثوا عنه ولا تشغلوا أنفسكم بأمره. وأمروهم أن يكرّموه ويعبدوه لأنه ارتفع إلى مصاف الآلهة. وأنه مزمع أن يكون لهم رَبّاً كريماً رحيماً بعد أن كان لهم ملكاً صالحاً بارّاً. فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه.

---

(١٠٧) أمثال ما يدعى: Monae Carprolimae أو Popeal ipagima أو Festum Amcillarum.

(١٠٨) هو سكيپيو أفريقانوس ابن پاولس أيجيليوس - تبناه سكيپيو الأكبر وبما أنه كان دائم المعارضة لمشاريع الشقيقين كراخوس فقد ظن أن زوجه سمپورينا وهي أختهما - قد دسّت له سمّاً وقتلته. وبحسب زعم ڤاليريوس ماكسيموس لم يُفتح تحقيق قضائي لمعرفة أسباب موته. ويحدثنا ڤكتور (٥أ) ان الجثة حُملت وقد قُنّع الوجه بقماش من الكتان لئلا يظهر الوجه وقد اسودَّ.

(١٠٩) انظر ليڤي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوّه شيشرون بهذه الظاهرة العجيبة أيضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس». ويبدو من تدقيق الأزياج الفلكية أنه كان ثمَ كسوف كلي طويل، في عام وفاة رومولوس ويقع في ٢٦ من آذار. فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فإنه يوافق شهر تموز. أو لعل الرومان هم أكثر اطمئناناً إلى زمن موته من وقت ميلاده.

إلا أنه وجِد بينهم من أخذ يحلّل القضية بسوء نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول إنهم خدعوا الناس وأغروهم بحكايات سخيفة لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيّئ إلى أسوأ وملأت الاشاعات الجوّ، قام يوليوس پروكولوس Juluis Proculus(١١١) وهو أحد الشيوخ الباتريشان عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس(١١٢)، وبكونه ممن جاء معه من ألبا كما كان ينحدر من أسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم بأغلظ الأيمان وأمام الناس جميعاً أنه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافرٌ في طريق، وكان يبدو أطول قامة وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً برّاقة تشعّ ناراً. فأدركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: «أيها الملك ما الذي دعاك إلى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبّط في ظنون سيّئة زائفة والمدينة كلها في حزن وترحٍ لا نهاية له؟» فأجاب يقول: «كانت مشيئة الأرباب، أي پركولوس، أن نبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد أن بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا أن نعود إلى السماء. فوداعاً وقل عني للرومان إنهم لن يبلغوا أعلى مراحل السلطان البشري بغير الوحدة والتمسك بحميد الخصال. وسنكون نحن لهم الإله الشفيع كويرنيوس Quirinaus».

ومال الرومان إلى تصديق هذا القول لما عرف عن المتحدث من أمانة وإخلاص، ولمسحة من الحقيقة والحماسة كانت تشوبه لهجته كأنها نفحة إلهية نزلت عليه أو كأن إلهاً تقمّصه، ولم يعارض قصته أحدٌ ونبذوا كل دعوى واعتراض، ورفعوا أكفّ الدعاء لكويرنيوس وأقرأوه تحية الرب. ما أشبه هذه الحكاية ببعض الخرافات اليونانية التي رويت عن كل من أرستياس Aresteas الپروكونيزي Proconnesian(١١٣) وكليوميدس Cleomedes الاستيپالي Astypalaeam(١١٤). إذ رووا أن أرستياس توفي في دكان دباغة، ولما جاءه أصدقاؤه لم يجدوا جثته. وبعد فترة من الزمن قدم بعضٍ معارفه من الخارج وزعموا أنهم شاهدوه سائراً في الطريق المؤدي إلى كروتون Croton. وروي عن كليوميدس الذي كان جباراً هائل الخلقة ذا قوة فائقة، يخالط عقله جنون، وطباعه

(١١١) ليفي: المرجع السالف ١:١٦، ٥-٨. وهو سليل أيولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بأن الشيوخ اختاروه ليحمل للناس أنباء الرؤيا المختلقة. وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فنّا غريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

(١١٣) للاستزادة راجع هيرودوتس [٤:١٣-١٥].

(١١٤) انظر پاوسنياس [٩:٦] وما بعدها.

وحشيّة، ارتكب كثيراً من أعمال العنف كان آخرها أنه وجّه بقبضة يده لكمة إلى عمود في مدرسة كان يدعم سقفها فكسره من منتصفه فخرّ السقف على من بداخل المدرسة من أطفال فقتلوا جميعاً(١١٥)، فطورد، فهرب واختبأ في صندوق كبير وأغلق عليه الغطاء وأمسكه من الداخل فحاول عدد كبير من الرجال فتحه فلم يوفّقوا فلجأوا إلى كسره قطعاً قطعاً ولكنهم لم يجدوا كليوميدس داخله، ودفعهم العجب والحيرة إلى استخارة عرّافة دلفي منزل الوحي فأجابتهم بالجواب التالي: «كان كليوميدس الاستيپالي آخر الجبابرة». وقيل أيضاً إن جثمان ألكميني تلاشى أثناء ما كانوا يحملونه إلى القبر ولم يجدوا في التابوت غير قطعة من حجرٍ. ويقصّ كتّاب الخرافات كثيراً من هذه الحكايات غير المعقولة، متحدّين مبدأ موت البشر الطبيعي. فمع أن تجريد الفضيلة البشرية من أي صفات ربّانية تجريداً تاماً هو كفر وضِعة، فكذلك يكون من السخف والهذيان مزج السماء بالأرض، ولنؤمن بپندار القائل:

أجسام البشر كلها تخضع لحكم الموت. والروح تبقى خالدة مدى الدهر.

فهي وحدها من صلب الأرباب منهم جاءت وإليهم تعود، وحدها لا مع الجسم، وذلك بعد انفصالها عنه وفك ارتباطها به، عندما تكون طاهرة نظيفة تماماً خالية من أوضار اللحم. وفي عرف هيراقليطس أن الروح الطاهرة، هي السامية إلى ما لا نهاية تندفع من الجسم كما يخرج البرق من السحابة. إلاّ أن الروح التي تبقى أسيرة الشهوات والغارقة في الأحاسيس فهي تشبه البخور الفاسد الثقيل يصعب إيقاده وتصعيده أبخرة».

فيتبقّى علينا والحالة هذه ألاّ نسارع إلى إرسال أجسام الناس الصالحين إلى السماء خلافاً لمبادئ الطبيعة وأحكامها! بل يجب أن نؤمن بأن فضائلهم وأرواحهم تنتقل من الحالة البشرية إلى حالة الجبابرة بحسب طبائعهم الإلهية وبمقتضى سُنَّة الأرباب، ثم ينتقلون من حالة الجبروت هذه إلى أنصاف أرباب. وبعد أن يمرّوا في مرحلة القداسة والتطهر الأخير، كما في السنن المعروفة، ويحررون أنفسهم من كل ما يربطهم بالبشر والشعور البشري، يرتفعون إلى مصاف الآلهة لا بحسب نظام بشريّ مقنّن وإنما بحسب حكم العقل السليم(١١٦). وهناك يتمتعون بالكمال الأعظم وما فيه من قداسة وبركة.

---

(١١٥) يقول پاوسنياس [٤: ٩] وقعت هذه الفاجعة لأنه لم يعط الجائزة بعد فوزه في نزال مصارعة على إيكوس الإيپاري. وصار يعبد كإله للمائرة البطولية التي حققها. واستيپاليا هي جزيرة من جزر الكيكلادس بالقرب من (كريت).

(١١٦) كان هسيود أوّل من فرّق بين الطبائع الأربع: الإنسان، الجبّار، الجنيّ، الإله. ويظهر أنه رأى =

يقول بعضهم إن لقب «كوريتيوس» الذي عُرف به رومولوس مرادف لـ«مارس»، ويقول غيرهم بل أطلق عليه لأن المواطنين الرومان عرفوا بهذا الاسم Quiritus، وزعمت طائفة أخرى أن الأقدمين سمّوا الرمح أو قناة الرمح كويريس Quiris. فيكون اسم تمثال يونو Juno المستقر على رمح، كوريتيس والرمح المحفوظ في الريجيا بمثابة مارس. ومن يبرز في القتال من المحاربين يهدى إليه الرمح في العدّة. ولأن رومولوس إله حرب، أو إله الرماح فقد سمّي كوريتيوس. ولا بُدّ أن معبداً ما بُنيَ تكريماً له على جبل كويرنياليس Quirinalis وهو مأخود منه:

أمّا اليوم الذي غاب فيه رومولوس فقد أطلق عليه «يوم فرار الناس»، أو «سابوعاء الماعز» لأن الناس يخرجون فيه إلى ظاهر المدينة ويقدّمون القرابين في «مستنقع الماعز» وينادى أحدهم الآخر وهم خارجون من المدينة بأسماء رومانية كقولهم مركوس، ! لوسشيوس! كايوس! مقلدين ما جرى أثناء هروب الناس في ذلك اليوم، وكيف كانوا ينادي أحدهم الآخر في ذعرهم وعجلتهم. ولكن بعضهم ينفي أن يكون هذا تقليداً لما جرى، ويزعم أنه تمثيل لهجوم مباغت سريع يُعزى إلى الحادثة التالية: بعد أن طرد كاميلوس Camillus الغاليين من روما، والمدينة تقاسي الأمرّين مما حل بها وتتحامل على نفسها لتستعيد قواها، انتهزت جموع اللاتين هذه الفرصة وزحفت عليها بقيادة ليڤيوس پوستيميوس Livius Postimius وعسكرت قواتهم في موضع غير بعيد عنها. وأرسل القائد منادياً للمدينة يُعلم السكان أن اللاتين يحبّذون تجديد حلفهم القديم واتحادهم (بعد أن أدركه الانحلال وكادت تنبتّ عُراه) وأن هذا لا يتمّ إلاّ بعقد روابط مصاهرة جديدة بين الشعبين. فإن أرسل الرومان عدداً مناسباً من عذاراهم وأراملهم فسيكون ثمّ سلمٌ وصداقة بين الشعبين، وهو ما ناله السابين من قبل بشروط مشابهة. وأصغى الرومان إلى هذا وكانوا من جهةٍ يخشون الاشتباك في حرب ومن جهة أخرى فإن النزول عن نسائهم هكذا يعني الرضا بحالة تكاد لا تختلف عن الاسترقاق. وفيما هم يقلّبون الأمر من شتّى وجوهه قامت خادمة بيت تدعى فيلوتيس Philotis (بعضهم يسمّيها توتولا Totola) وأشارت عليهم أن يتريّثوا في الإقدام على أحد

= إمكان التحوّل الدائم والتقدم إلى حالة الخلود. وعندما يقول لنا عبدة الأوثان إن الكائن الحيّ قبل وصوله إلى الطبيعة الأخيرة (طبيعة الإله) يمكن أن يقذف به ثانيةً إلى الظلام البدائي الأول، لا يسعنا إلاّ التّصور بأن الأوائل سمعوا بدون شك شيئاً عن الملائكة المغضوب عليهم المطرودين من الجنّة!

الأمرين، وأن يلجأوا إلى الحيلة لاجتنابهما. وكانت خطتها أن يبعثوا بها مع عددٍ من الخادمات الجميلات بعد أن يرتدين ثياب العذارى الحرّات، وأن تقوم هي عندما يجنّ الليل بإقاد نارٍ كإشارة الرومان فيخرجون على إثرها ويباغتون العدو النائم. وانطلت الحيلة على اللاتين. وأوقدت فيلوتيس مشعلاً في شجرة تين بريّة وسترتها من جهة العدوّ بستارٍ وأغطية وكشفتها للرومان فخرجوا حالاً وكانوا في عجلتهم ينادي أحدهم الآخر، وهكذا باغتوا العدوّ على حين غرّة وانتصروا عليه. ولهذا أقاموا عيد النصر وسمّوه «تاسوعاء الماعز» لأن شجرة التين تُسمّى عند الرومان [كاپرينكوس: أو تين الماعز] وهم يكرمون النساء به، باحتفالات تقام خارج المدينة وفي خمائل مصنوعة من أغصان التين. وتجتمع الخادمات معاً ويتراكضن ويتلاعبن جذلات ويمثلن معركة زائفة فيما بينهنّ ويتقاذفن الحجارة دليلاًعلى أنهن عاونّ رجال الرومان في حربهم تلك. إن هذه الرواية لا يؤيّدها إلاّ قلّةٌ من الكتّاب، لأن التنادي بالأسماء نهاراً والخروج إلى مستنقع الماعز لتقديم القرابين يبدو أنه يستقيم مع الرواية الأولى أكثر من الثانية إلاّ إذا افترضنا وقوع الحدثين في يوم واحدٍ من عامين مختلفين.

في العام الرابع والخمسين من عمر روملوس وفي العام الثامن والثلاثين لحكمه غادر(١١٧) هذه الدنيا على ما قيل لنا.

---

(١١٧) [ديون] وپلوتارخ نفسه يذكر في أول سيرة نوما أن روملوس ودّع الحياة في العام السابع والثلاثين لبناء روما. ولعلهما لا يجانبان الحقيقة ولا يتناقضان. لأن أولهما يقول إن عمر روملوس كان عند موته (٥٥) سنة وثانيهما يذكر (٥٤).

أوجُه المقارنة بين رومولوس وثيسيوس

هذا ما وصل إلى علمي من أخبار عن كلّ من رومولوس وثيسيوس مما يستحق التدوين. والظاهر مبدئياً أن ثيسيوس كان يبحث عن المغامرات وجلائل الأعمال بحثاً بمحض اختياره في حين كان بوسعه أن يحكم آمناً مطمئناً في طروزين بلاداً واسعة. أما رومولوس فلأجل التخلص من عبودية كان يرزح تحتها، ودفعاً لما كان يتهدده، أصبح شجاعاً من فرط الخوف (على قول أفلاطون)، ولخشيته من النوائب الكبار أقدم على أجلّ الأعمال، تدفعه الحاجة ليس إلاّ، هذا وإن أعظم مأثرة له هي قتله ملك ألبا. أما ثيسيوس فبوسعه أن يسمّى سكيرون، وسينيس، وبروكرونتوس، وكورينتيس، وكلها وقائع على الهامش ومقدّمات لأعمال أضخم وأجلّ، فبقتله هؤلاء خلّص بلاد اليونان من شر الطغاة قبل أن يدري هؤلاء المساكين من هو مخلّصهم. وفضلاً عن هذا فقد كان اسهل عليه السفر إلى أثينا بحراً، فأشرار البرّ ولصوصه لم يأتوا عملاً ضده، في حين لم يكن رومولوس آمناً ما دام أموليوس حياً. زد على هذا أن ثيسيوس كان يتعرّض للأوغاد لا لأذى ألحقوه به بل في سبيل الآخرين. أما ريموس ورومولوس فلم يعترضا أعمال الطاغية ما داما في نجوة منه. وإذا كانت الاصابة بجرح في معركة السابين، وقتل الملك أكرون والاستظهار على كثيرٍ من الأعداء، مآثر جليلة فلنا أن نضاهي بها معركة ثيسيوس ضد السنطورس، وضروب البطولة ضد الأمازونات. لكن المرء يعجز حقاً عن وصف عمل ثيسيوس بانضمامه طوعاً إلى الشبان والعذارى المرسلين إلى كريت إمّا ليقع فريسة في براثن الغول، وإما أن يضحّى به على قبر أندروغيوس، وإمّا كأهون الشرّين أن يعيش عيشة الأراذل المحتقرين في عبودية أشدّ الرجال قسوة وغلاظة. أيوصف بالشجاعة؟ أم بسموّ النفس؟ أم بحُبّ إنصاف الناس، أم التعلّق بالشرف أم بالإقدام أو البأس؟ ولذلك أرى أن الفلاسفة قد أجادوا في تعريف الحُبّ بأنه علاج الآلهة تزوّد به الصغار لتحميهم وترعاهم[١]. فحبّ أريادنه يبدو أساساً

(١) انظر ليفي ٢ : ١٢.

من عمل إله شاءت إرادته المحافظة على حياة ثيسيوس. وليس لنا والحق يقال أن نلومها على حبّه بل أن نقرّ بكونها جديرة[٢]، لأن الرجال والنساء لن يكونوا سواسية في شكل عاطفتهم تجاهه. وإذا كانت أريادنه الوحيدة في هذا فيقيناً أنها تستحق حبّ إله، هذه التي كانت قد أحبّت الفضيلة والصلاح وأشجع الرجال طُرّاً.

ومع أن كلاً من ثيسيوس ورومولوس كانا رجلي دولة بطبعهما إلاّ أنهما لم يحافظا حتى الأخير على أخلاق الملك فقد انحرف كلاهما عنها، وتغيّرا. فأولهما مال إلى الديمقراطية. وثانيها انحدر إلى مهالك الطغيان. وانتهى بهما السبيل إلى غلطة واحدة وإن اتّبعا طريقين مختلفين. ذلك أن الحاكم يجب أن يحافظ قبل كل شيء على كيان البلاد وهذا يتمّ بالامتناع عن الإتيان بما لا يليق بقدر ما يتمّ بالتمسّك بما هو لائق. إلاّ أن ذلك الذي يحدّ من سلطانه أو يوسّعه عمداً فهو لا يصلح كملك ولا كحاكم بل هو إمّا غوغائي وإمّا طاغية وكلاهما إنما يشيعان الكره والاحتقار في قلوب الرعيّة. ومهما يكن فإن خطأ الأول منهما يبدو نابعاً من الحنان والمشاعر الإنسانية النبيلة. أمّا خطأ الثاني فمصدره الأنانية والفظاظة.

وإن لم يكن من الجائز أن تعزى مصائب الناس إلى سوء الطالع، بل بالأحرى إلى اختلاف الطبائع، فمن يبرّئ ثيسيوس من غضبه الجائح الذي خرق حدود المعقولات على ابنه؟ ومن يبرّئ رومولوس من جريرة قتله أخاه؟ لو نظرنا إلى الحوافز لسهل علينا الصلح من غضبٍ مأتاه سببٌ أقوى من سبب ثيسيوس، كالغضب الذي تثيره ضربة شديدة مفاجئة. ولما كان رومولوس قد اختلف مع أخيه عمداً وتقصّداً في أمور عامة فمن الحمق أن يصل هذا الخلاف فجأة إلى مرتبة الثورة العارمة القتالة. إلاّ أن الحبّ والغيرة واتهام[٣] الزوج وهي مما لا يستطيع الخلاص من تأثيره غير قِلّة من الرجال، هي التي دفعت بثيسيوس إلى ارتكاب ذلك الجرم بحق ابنه. زد على هذا أن رومولوس ارتكب في فورة غضبه عملاً ذا أثر فاجع في حين انتهى غضب ثيسيوس عند حدود الكلام، أي عبارة آثمة، ولعنة أب طاعن في السن... وأمّا مصائب الشاب الباقية

---

(٢) هنا يتفق بلوتارخ مع سقراط الذي يُعلّم بأن حبّ الفضيلة والتسامي هما وحدهما القادران على تحقيق اتحادنا بالكائن الأسمى. لكن مع أن هذا المبدأ هو من أحسن المبادئ لكنه غير ممكن التطبيق على أرديانه فأين الفضيلة من هذه الأميرة التي وقعت في حب أجنبيّ من أول نظرة وسارعت إلى تحقيق لبانتها بدمار أقربائها وبلادها؟

(٣) لا ينوّه بلوتارخ في سيرة تيسيوس بشيء عن هذه التهم. مع أنها يجب أن تكون بدرجة من الخطورة بحيث أدّت به إلى تلك المأساة المفجعة.

فيبدو أن سببها كان سوء طالعه. وإلى هذا الحَدّ لا يسع المرء إلاّ أن ينحاز إلى جانب ثيسيوس.

إلاّ أن لرومولوس أرجحيّة ممتازة على قرينه، وهي أن أعماله الكبار نبعت من براعم وبدايات صغيرة جداً. فكلا الأخوين عُرفاً بكونهما ابنين لراعي خنازير، وخادمين، وقبل أن يعتقا منحا الحرية لجميع اللاتين تقريباً ونالا فجأة كل ألقاب التعظيم والتكريم، فسمّيا بالقاهرين أعداء بلادهما، والحادبين على أصدقائهما وأبناء قومهما، وزعيمي الشعب، وبناة المدن لا مهدّميها كثيسيوس، الذي بنى بيتاً واحداً فقط من بين البيوت العديدة التي قوّضها وهدم عدة مدن تحمل أسماء الملوك والأبطال الأقدمين. الحق يقال إن رومولوس حذا حذوه في أيامه الأخيرة، وأرغم أعداءه على تقويض وتهديم منازلهم ومساكنة قاهريهم. إلاّ أنه لم يحز لنفسه أراضي وبلاداً ومملكة وزوجات وأطفالاً وأقرباء بإزالة مدينة من الوجود أو بتوسيع مدينة، بل نالها كلها باستحداث مدينة جديدة عظيمة. ولم يقتل أحداً في عمله هذا وإنما نفع أولئك الذين كانوا في حاجة إلى المأوى والمسكن، ورغبة في تكوين مجتمع يرعى لهم حق المواطنة فيه. ولم يبطش باللصوص والمجرمين بل أخضع أمماً وقهر مدناً، وانتصر على الملوك والقادة.

أمّا عن قضية ريموس فليس من يدري بأيّ يد قُتل. وعلى الأرجح يُعزى قتله إلى آخرين وليس ثمّ من شُبهة في أنه أنقذ أمّه من موت محتوم، ونصّب ملكاً على عرش إينياس القديم، ورفع من شأنه بعد خمول وضعة وانحطاط إلى منزلة التابع الخانع. وقدّم له خدمات جليلة. ولم يلحق به أذى ولو بصورة غير مباشرة. لكن نسيان ثيسيوس أوامر والده برفع الشراع الأبيض لا يبرّئه من عقاب جريمة قتل الأب لا في رأيي ولا في رأي أي قاض مهما بلغت سماحته. وأدرك أحد الكتّاب الأتيكيين صعوبة الاعتذار لهذا العمل، فزعم كذباً أن إيجيوس أسرع يعدو عند اقتراب السفينة متجهاً نحو الأكروپوليس ليستطلع الأنباء فزلقت به قدمه وسقط... وكأني به قد سار وحيداً ليس معه خادم أو حارس يمشي في ركابه!

والحق يقال إن خطيئة خطف النساء التي ارتكبها ثيسيوس لا تسمح له بأي عذر مقبول. أولاً لتكراره الجريمة عدة مرات فقد خطف أريادنه ثم أنتيوب ثم أناكسو الطروزينية، وأخيراً سرق هيلين وهي طفلة لم تبلغ سن الزواج الشرعي. وثانياً من ناحية السبب، فإن عذارى الطروزينيين واللقيديمونيين والأمازون فضلاً عن كونهن غير مخطوبات له فلسن أكثر جدارة بإنجاب أولاد له من الأثينيات اللاتي ينحدرن نسلاً من

أرخيتيوس وكيكروپس Cecrops إلاّ أن دافعه إلى هذا كان الشهوة لا الحاجة. أما رومولوس فعندما خطف زهاء ثمانمائة امرأة لم يتخيّر لنفسه كما قالوا إلاّ امرأة واحدة هي هرسيليا وفرّق الباقيات على رؤساء المدينة. وأثبت بضروب الاحترام والتجِلّة ومظاهر العطف والعدل التي عامل بها هاته النسوة أن هذا الاعتداء لم يكن إلاّ عملية سياسية حسنة القصد غايتها تكوين مجتمع، وتوحيد شعبين، وجعلها ينبوعاً يفيض بالصداقة والاستقرار العام. وكدليل على ما أحدثه هذا الرباط الزوجي من حبّ واحترام وتلاحم لم يحصل خلال مائتين وثلاثين سنة تالية أن طلّق رجل امرأته، أو هجرت[٤] امرأة زوجها والزمن شاهدٌ. ولكن كما أن أوّل قضيّة قتل يرتكبها أحد بأمّه أو أبيه هي من الأمور الغريبة النادرة عند الأغريق، كذلك يدري الرومان جيداً أن سپوريوس كارڤيليوس Spurius Carvilius كان أول من طلّق زوجه متّهماً إياها بالعُقم[٥]. والنتائج المباشرة كانت متشابهة فعلى أساس هذه الزيجات تقاسم الزعيمان رومولوس وطاطيوس الحكم فيما بينهما، وخضع الشعبان لحكومة واحدة. ولكن لم ينجم عن زيجات ثيسيوس صداقة أو تحالف أو تبادل تجاري، بل نشأت عنها عداوات وحروب وسبّبت قتل المواطنين وآلت أخيراً إلى خسارة مدينة أفيديني التي لم ينقذ أهلها من مصير طروادة إلا سلوك أهلها تجاه العدّو[٦]، ومقابلته بالضراعة والتوسل. ولم تتعرّض أمّ ثيسيوس للخطر وحده، بل عانت كذلك ما عانته هيكوبا من هجر الابن وإهماله. إلا إذا كانت حكاية أسرها مختلقة كما هو بودّي أن يكون ذلك مع مسائل أخرى. ولقد قيل إن ظروف تدخّل الآلهة التي سبقت أو رافقت ولادة رومولوس وثيسيوس كانت مختلفة فأولهما عاش بنعمة خاصة من الأرباب. ولكن النبوءة التي نزلت لإيجيوس محظرة عليه مضاجعة النساء أوضحت، كما يبدو، أن ولادة ثيسيوس لم تكن محل رضى الأرباب أو إرادتهم.

---

(٤) يخبرنا ديون [٢:٨] بدقةٍ أكثر أن ذلك حصل في العام ٥٢٠ ق.م أيام كان پومپونيوس ماثو وپاپيريوس ماسّو قنصلين.

(٥) أقسم كارڤيليوس يميناً أمام الجنسورين بأنه يكنّ لزوجه أعظم احترام وأنه لا يطلّقها إلاّ لأن إنجاب الأولاد كان من ضمن الاتفاق المقدس عند زواجهما. إلاّ أن ذلك لم يجنّبه الاستنكار والكره من الجميع الذين وجدوا أنه يختّط مسلكاً قبيحاً بعمله هذا [Aul Gell ١٧ : ٢١ و٤ :٣].

(٦) كاستور وپوللوكس.

ليكورغوس(*)

LUKOURGUS

(*) دوّن بلوتارخ حياة ليكورغوس قبل تدوينه سيرة تيسيوس، كما ذكر هو نفسه عند سرده حياة الأخيرة. والظاهر أنه كان شديد الكلف بالسپارطيين عظيم التقدير لهم ولعاداتهم. فقد ترك لنا إلى جانب هذه السيرة - وسيرة غيره من عظماء السپارطيين - رسالة حول قوانين اللقيديميين وتقاليدهم وأخرى حول الحكم الليقيّة. لقد جعل من ليكورغوس بطلاً مثالياً وعلّل سلوكه ليقدّمه كدليل على أن الحكيم الذي أقبل الفلاسفة على إعطاء أوصاف كثيرة له، ليس مجرد شخصيّة مثالية لا يمكن أن ترتفع اليها الطبيعة البشرية.

في الروايات التي تركها لنا المؤرّخون عن ليكورغوس واضع قوانين سپارطا Sparta كثير من الخبط والتخمينات والرجم بالغيب، وقلّ أن ذكر أحد شيئاً لم ينقضه الباقون أو يشككوا فيه. وتختلف وجهات نظرهم حتى حول شؤون الأسرة التي نبغ منها، أو الرحلة التي قام بها، أو موضع وفاته وكيفية موته. ويأتي أعظم الخلاف حين يبحثون عن القوانين التي استحدثها، والجمهورية التي أنشأها. ويتعذّر اتفاقهم تماماً حول العصر الذي عاش فيه، إذ يقول بعضهم إنه عاش في أيام إيفيتوس Iphitus[1] وإنهما تعاونا معاً على سنّ شريعة إيقاف الحروب[2] أثناء إحياء الألعاب الأولمپية، ومن هؤلاء أرسطو. وتثبيتاً لقوله زعم وجود كتابة على قرص من الأقراص النحاسية التي تُستخدم في تلك الألعاب نُقش عليه اسم ليكورغوس وأن هذه الكتابة كانت مقروءة في أيامه. إلاّ أن إراتوستينس Eratosthenes وأپوللودورس Apollodorus[3]

---

(١) مَلِك إيليس الذي قيل إنه أنشأ أو بالأحرى أحيا الألعاب الاولمبية قبل مائة وثماني سنوات من قيام أوّل أولمبياد معروف في العام ٧٧٦ ق.م وعرف بنسبته إلى كوربوس. كما جرت عادة الأولمبيادات التالية بنسبتها للفائزين الآخرين.
بدأ إيفيتوس بتقديم ذبيحة لهرقل الذي كان الإليائيون يعتقدون أنه ساخط عليهم لسبب ما. وبعدها أمر بالألعاب الأولمبية لتعلن في سائر بلاد اليونان. ووعد بالحرية والأمان لكلّ الواردين لمشاهدة الألعاب وحدّد موعداً لها - وكانت قد انقطعت بسبب تفشّي الوباء على ما قيل. كذلك نصّب نفسه رئيساً لها وحكماً. وهذا امتياز كان أهل بيزا كثيراً ما يتنازعون عليه مع خلفائه الذين انحصر فيهم طوال ما كانوا ملوكاً. وبعد انقراض الأسرة عيّن الأهلون رئيسين حكمين ثم ارتفع العدد إلى عشرة ثم إلى اثني عشر بمرور الزمن.

(٢) في أثناء إحياء الألعاب الأولمبية (فضلاً عن الألعاب الپيثية والإستمية والنيمية) تُفرض دائماً، وكمبدأ عام، هدنة في سائر بلاد اليونان يصدر بها بيان رسمي وتتم إذاعته (پاوسنياس ٥ : ٢٠) فإذا دخلت وحدة عسكرية إيليس بعد هذا البيان فتفرض غرامة قدرها ميناءان على كلّ جندي [توكديدس ٥ : ٤٩].

(٣) لقب إيراتستينوس بأفلاطون الثاني لسعة مداركه واطلاعه. وهو مؤرخ شهير وشاعر وفيلسوف =

وغيرهما من المؤرّخين يحاولون بحساب الوقت على أساس تعاقب الملوك السپارطين أن يُثبتوا أنه عاش في زمن أبعد كثيراً من تاريخ منشأ الألعاب الأولمپية[٤]، ويظن طيماؤوس أنه يوجد شخصان بهذا الاسم عاشا في زمنين مختلفين، ولأن أحدهما كان أشهر من الثاني فقد أسند إليه الناس مجد الاثنين، وعلى تظنّيه أن أسبقهما عاش في زمن يداني عصر هوميروس. وأسهب بعضهم وأفرطوا في التفاصيل إلى الحدّ الذي زعموا فيه أنه التقى بالشاعر. أمّا أنه عاش في عصرٍ بعيدٍ فهذا ما يمكن استخلاصه من فقرة وردت في گزينفون Xenaphon إذ جعله معاصراً للهيراقليدي Heraclidae والحقيقة هي أن آخر ملوك سپارطا[٥] هم هيراقليديون نسباً. لكن گزينفون يبدو في هذه الفقرة وهو يتكلم عن خلفاء هرقل المباشرين الأوائل.

وإن ضربنا صفحاً عن هذا الاضطراب والغموض فبإمكاننا محاولة تأليف تاريخ لحياته معتمدين على أقلّ النصوص تناقضاً وميّالين إلى أولئك الكتّاب الأجدر بالثقة من غيرهم.

وعند الشاعر سيمونيذس أن ليكورغوس هو ابن پريتانيس Prytanis لا ابن يونوموس، على أنه كان أوحد رأيه في هذا، لأن الباقين كافّة يرتّبون سلالة نسبهما على الشكل التالي:

أريسطوذيموس Aristodemus

پاتروكلس Patrocles

سوئيس Soüs

= نبغ وتمتع برعاية بطليموس فيلوباطر إذ كان والده بطليموس سوركيتيس قد دعاه من أثينا ونصّبه أميناً مشرفاً على مكتبة الإسكندرية الشهيرة. ومعاصره أپوللو دوروس كتب كتاباً عن الميتولوجيا ما زال موجوداً، ويحتوي على مختصر لتاريخ الآلهة والأبطال الاقدمين. إلى جانب آثار أخرى له مفقودة.

(٤) الأولمپياد الأول كان في ٧٧٣-٧٧٦ ق.م.

(٥) يقول سترابو إن ليكورغوس عاش بالتأكيد في الجيل الخامس بعد الثيمنيس الذي قاد حملة استيطان إلى كريت. والثيمنيس هذا هو ابن كيسّوس الذي بني مدينة أركوس في الوقت الذي قام پاتروكليس جدّ ليكورغوس الخامس بوضع أسس سپارطا. وعلى هذا يكون ليكورغوس قد عاش بعد صولون بوقت قصير وفي حدود العام ٩٠٠ ق.م. وإن ظن بعض المؤرخين المتأخرين أنه عاش في عصر الهيراقليدي.

إن هذه الفقرة اقتبسها پلوتارخ من رسالة كزنيفون الممتازة عن «جمهورية سپارطا». كما اقتبس من تلك الرسالة أهم ما أورده عن سيرة ليكورغوس.

يوريپون Eurypon

ليكورغوس من زوجه الثانية ديوناماسا Dionassa ويولينكتس من زوجه الأولى

ويقول داخيداس Dieuchidas إنه النسل السادس من پاتروكلس والحادي عشر من الهراقليدي(٦).

وأياً كان الأمر فإن سويوس كان بالتأكيد أشهر أسلافه، فبقيادته أخضع السپارطيون الهيلوت Helot(٧)، وأضافوا إلى بلادهم بقوّة الفتح جزءاً كبيراً من أركاديا. وهناك قصّة تروى عن سويوس وهي أن الكليتوريين(٨) ضربوا حصاراً حول جيشه وهو في موضع صخري قاحلٍ ليس فيه قطرة ماء واضطر إلى أن يتفق مع أعدائه على أن يعيد إليهم كل ما استولى عليه من أملاكهم إن شِرب الماء هو وكل جنوده من أقرب ينبوع. وبعد حلف اليمين على الاتفاق جمع جنوده وعرض مملكته كلّها على أيّ واحد منهم هدية منه، إن تمكن من ضبط نفسه ولم يشرب ماءً. ولما لم يصبر واحدٌ منهم على العطش، أو بعبارة أخرى لما شرب جميعهم وارتووا، تقدّم هو إلى الينبوع في أعقابهم ومدّ رأسه وأصاب وجهه برشاش من مائه دون أن يدخل فمه قطرة واحدة ثم سار عنه مبتعداً أمام أعين أعدائه، رافضاً أن يتنازل عن فتوحاته، لأن الاتفاق نصّ على أن يشرب من مائهم (هو) وكل رجاله.

ومع ذيوع اسمه واستطارة شهرته لهذا العمل البطولي فإن أسرته لم تتخذ اسمه لقباً. وإنما لُقّبت باسم ابنه يوريپون (عرفوا باسم الأڤريپونتيذ Eurypontids)(٩).

---

(٦) من أرسطو ذيموس خرج التوأمان يورستينس وپروكلس ومنهما نبغ الخطّان الملكيان الأكبر والأصغر في سپارطا. وهما الخطّ الآغيذي والأڤريپونتيدي. وأرسطو ذيموس هذا هو ابن هيللوس ابن هرقل [انظر پاوسنياس ٣:١-١٠] و[هيرودوتس ٧:٢٠٤ و ٨:١٣١].

(٧) سكان هيليوس وهي مدينة بحرية من مدن لاقونيا فتحها اللقيديميّون واستعبدوا أهاليها وأطلقوا اسم الهيلوت لا عليهم وحدهم بل على كلّ عبيدهم الآخرين. وعلى أية حالٍ فمن المؤكد أن نسل الهيلوت الأصلاء وإن كانوا قد لقوا أسوأ ما يتصور من المعاملة (بعضهم الحتيل) فإنهم مكثوا في لاقونيا عصوراً.

(٨) الكليتوري Clitori شعب من أركاديا، اسمهم جاء من مدينتهم التي استمدّت اسمها من اسم ملوكهم. يوجد بالقرب من هذه المدينة نبع ماء يثير الشرب منه اشمئزازاً وصدوداً في النفس عظيماً عن الخمر. [أرسطو: ميتافزيقا ١٥ : ٣٢٢].

(٩) من المفيد هنا أن نقدم للقارئ فذلكة عن نظام الحكم الملكي اللاقوني على عهد الأسرة الهيراقليدية. هذه الأسرة طردت تيسامينيس ابن أورستس. وحلّ يورستينس وپروكلس ولدا أرسطو ذيموس محلّه. واتخذ حكمهما منحىً جديداً فكان ثمّ ملكان بدلاً من واحدٍ سلطتهما =

ويُعزى هذا إلى أن يوريپون أرخى من قبضته على المحكومين متطلعاً إلى خطب ودّهم ورضاهم.

فكثرت مطالبهم بعد هذه الخطوة الأولى. وكره العامةُ الملوك المتعاقبين بعده وسخطوا عليهم بعض الشيء لأنهم حاولوا استخدام القوة، أو لإعطائهم تنازلات أخرى وإظهارهم الضعف إما لخَورٍ في نفوسهم أو لنيل المزيد من حبّ الناس. وسادت الفوضى سپارطا زمناً طويلاً ومما سبّبته موت والد ليكورغوس. إذ بينما كان يحاول تهدئه شغب طُعن بسكين جزّار فقضى نحبه وخلّف الملك لابنه الأكبر پوليدِكتُس Polydectes.

وتوفي هذا بعد فترة قصيرة، فآل حق العرش (كما خُيّل للجميع) إلى ليكورغوس، ومَلَك فعلاً، حتى تبيّن أن زوج أخيه المتوفّى حاملٌ، فسارع ليعلن أن الملك يعود لعقب أخيه إن ولد ذكراً. وأنه سيمارس تبعات الحكم وصلاحياته بالوصاية فحسب. والاسم السپارطي للوصاية هو پروذيكوس Prodicus. بعد ذلك عرضت عليه الملكة الحامل أن تُسقط جنينها بصورة من الصور شريطة أن يتزوّجها عندما يعتلي العرش. فاستنكر شرّ المرأة ومجّته نفسه إلاّ أنه لم يرفض اقتراحها صراحةً وإنما تظاهر بقبوله وأرسل رسولاً لإبلاغها شكره وفرحه، ولكنه أصرّ مشدداً على ألاّ تلجأ إلى إسقاط جنينها لما ينطوي عليه ذلك من الأذى، هذا إن لم يتضمّن خطراً على حياتها قائلاً إنه سيقوم هو نفسه بالتخلص من الوليد حال وضعه. وبأمثال هذه الوسائل والحِيَل أمكنه أن يحوز ثقة المرأة ويبلغ بها نهاية أيام حملها. ولما سمع أنها في المخاض أرسل أشخاصاً ليكونوا قريبين منها وليلاحظوا كل ما يجرى. وزوّدهم بأوامر تقضي بأن يتركوا الوليد لأمّه إن كان بنتاً وأن يأتوا به إليه حالاً أينما وجد ومهما كان يفعل إن وُلد ذكراً، واتفق انه كان يتناول عشاءه مع كبار القضاة عندما وضعت الملكة ابناً. فجيء به إليه وهو جالس إلى المائدة فتناوله بيديه وقال لمن حوله: «يا رجال سپارطا هوذا ملكٌ وِلد لكم». ثم وضعه على سرير الملك وسمّاه خاريلاوس Charilaus أي «فرحة

= متساوية ولم يقسم الأخوان المملكة بينهما ولم يتفقا على المناوبة في الحكم بل حكما معاً وفي آن واحد. ومما يدعو إلى العجب أنه بصرف النظر عن المحاسدة والمنازعة فإن هذه الملكية الثنوية لم تنته بنهاية هذين الأخوين بل استمرت في تعاقبٍ لثلاثين ملكاً من فرع يورستينس، وسبعة وعشرين ملكاً من صلب پروكلس. يورستينس خلف آغيس وبه سمّي نسل هذا الفرع أغيدي، في حين اتخذ الفرع الثاني اسم أڤريتيونيذي نسبة إلى أڤريتيون حفيد پروكلس. [انظر پاوسنياس، سترابو، هيرودوتس وغيرهم].

الشعب» لأن الجميع تملّكهم الإعجاب والغبطة لما رأوا من روح ليكورغوس النبيلة العادلة.

لم يطل به الحكم غير ثمانية أشهر، إلاّ أن الشعب أكبره وأحبّه لأسباب أخرى غير المُلك. وأطاعه العديد لفضائله السامية لا لأنه وصيّ على العرش بيده الحلّ والعقد. إلا أن بعضهم حاول غمز نفوذه المتعاظم وقت شبابه ولا سيما أصدقاء الملكة الأم وأقرباؤها فقد زعموا أنه لم يعدل في معاملتهم وكثيراً ما ألحق بهم الأذى. وفي نقاش حادّ جرى بين ليكورغوس وليونيداس Leonidas أخ الملكة لم يتورّع ان يشتمه بقوله: إنه لعلى يقين تام بأنه لن يمرّ زمن طويل حتى يراه ملكاً! يريد من قوله هذا أن يزرع الشكّ في النفوس، ويهيّئ الأذهان لاتهام ليكورغوس بإهلاك الطفل في حالة موته ولو بصورة طبيعية. ونشرت الملكة الأم وأتباعها أمثال هذه الحكايات عن عمدٍ وتصميم فانتابه قلق شديد، وأصبح وهو في خوف مما سيجيء به المستقبل. ووجد أن خير سبيل لاجتناب الشر هو النفي الاختياري والانتقال من بلاد إلى أخرى حتى يبلغ ابن أخيه سِنّ الزواج، ويضمن وليّ عهد له.

فركب البحر إذن يحدوه هذا العزم وبلغ كريت أولاً، وفيها درس مختلف أجهزة حكمهم وتعرّف بأعلامهم، واستحسن بعض قوانينهم(١٠) ورأى أن يفيد منها في بلاده، وأهمل طائفة كبيرة منها إذ لم ير فيها جدوى وصلاحاً. وكان طاليس Thales(١١) من أشهر الرجال الذين عُرفوا بالحكمة، والعلم، والوقوف على شؤون السياسة والحكم، فأقنعه ليكورغوس، بحكم صداقته وبإلحاحه الشديد، أن يسافر معه إلى لقيديمون. ومع أن مظهر طاليس الخارجي ومهنته الخاصة لا ترفعه إلى أكثر من درجة شاعر غنائي، فقد قام والحق يقال بمهمة مشترعٍ من أقدر وأكفأ المشترعين في العالم.

---

(١٠) يرى أقدم الكتّاب (أمثال إيفورس، كاللتينس، أرسطو، أفلاطون) أن ليكورغوس اقتبس كثيراً من شرائع جزيرة كريت. إلاّ أن يوليبيوس (٦) يصرّ على تخطئتهم جميعاً ويقول «في سپارطا، الأراضي كلها موزعّة على المواطنين، ولا وجود للثروة، والحكم وراثي. في حين أن الامر خلاف ذلك في كريت». على أن هذا لا يدل أن ليكورغوس لم يأخذ بطائفة من الأحكام الجيدة والأعراف السائدة في كريت، وأغفل ما لا يصلح. على أن ثمّ تشابهاً عظيماً بين شرائع ليكورغوس وشرائع مينوس ملك كريت بحيث وجب علينا أن نشايع سترابو [١٦] في إيمانه بأن الواحدة كانت أساساً للأخرى. أيهما؟!!

(١١) كان طاليس شاعراً وموسيقياً. ويجب ألاّ يخلط بينه وبين طاليس المليسي الذي عُدّ من حكماء اليونان السبعة. وقد عاش الشاعر قبل الفيلسوف بمائتين وخمسين عاماً تقريباً.

فأناشيده التي تدفع وتحثّ النفوس على الطاعة والتعاضد، وقوافيه وأوزانه التي تحمل في طياتها فكرة النظام والهدوء، كان لها تأثير عظيم على عقول المستمعين تُلين طباعهم وتهذّب نفوسهم فلا يشعرون إلاّ وقد نبذوا الحزازات والأحقاد واتحدوا معاً في إعجابهم وحبهم بالفضيلة. إن طاليس مهّد السبيل للنظام الذي ابتدعه ليكورغوس.

وانتقل من كريت إلى آسيا عازماً - كما قيل - على تأمّل أوجه الخلاف بين قواعد وأساليب حياة أهل كريت الجدّية الرزينة جداً، وبين عادات الآيونيين[١٢]، الرقيقة المرفّهة، ليبني له من ذلك رأياً - كما يقارن الأطباء بين المرضى والأصحّاء. ووقع نظره هنا ربما[١٣] لأول مرة على ملاحم هوميروس وقد حفظتها أيدي أسلاف كريوفيلوس Creophus بلا شكّ. ولما وجد أن الدروس السياسية الرضيّة والمبادئ الخلقية والحِكم تشيع في تلك الأشعار، حتى تكاد تعفو التعابير المبتذلة والأمثال السيّئة التي توجد فيها[١٤]، شرع حالاً في نقلها وتنسيقها بنظام لطيف لما رأى فيها من فائدة لبلده. كانت هذه الملاحم في الحقيقة قد حظيت ببعض شهرة بين الإغريق، ووصلت شذرات وأجزاء مقتضبة منها قبله إلى أيدي بعض الأفراد بحكم الصّدف إلاّ أن ليكورغوس هو أوّل من نشرها وأذاعها.

يقول المصريون إنه رحل إلى مصر ومكث فيها، وأُعجب كثيراً بأسلوب تمييز الطبقة العسكرية عن بقيّة السكان[١٥]، فنقل هذا النظام إلى سپارطا. لأن إبعاد هذه

---

(١٢) أرسل الإيونيون من أتيكا مستعمرين إلى جزءٍ من آسيا الصغرى يقع بين ليديا وكاريا في حدود العام ١٠٥٠ ق.م أي قبل عصر ليكورغوس بقرن واحدٍ ونصف قرن. ومع أنهم لم يقطعوا أواصرهم مع الوطن خلال هذه الفترة القصيرة فإن مشترعنا استطاع الحكم على التأثير المناخي والإنتاجي لآسيا، حتى أن هؤلاء المستعمرين أصبحوا مضرب المثل في الخنوثة والميوعة.

(١٣) ويضيف كلمة «ربّما» لأن بعض الكتّاب الإغريق أكدوا أن ليكورغوس التقى بهوميروس بالذات وكان آنذاك يعيش في خيدس. على أن پلوتارخ هو صاحب الرأي المعتمد هنا، فقد مات هوميروس قبل ميلاد ليكورغوس. ولم تكن اليونان قبل عهد ليكورغوس تعرف شيئاً عن هوميروس خلا مقطوعات متفرقة عرفت بعناوين موضوعاتها مثل «بطولة ديوميد» أو «فدية هكتور» وغير ذلك.

(١٤) إن حكم أفلاطون في هذا الموضوع يختلف تماماً عن رأي ليكورغوس. فحين استبعد الشعراء من «جمهوريته» لم يستثنَ حتى هوميروس نفسه الذي وجده أديباً مفسداً للشباب لأنه لم يقدّم صورة لائقة للآلهة كما يراها أفلاطون. في عدائه هذا لهوميروس يقف أفلاطون وحيداً لا ناصر له.

(١٥) المصريون لم يميّزوا العسكريين والكهنة (وهم غالباً من الأشراف) عن بقية طبقات الشعب لكنهم ميّزوا ذوي المهن الأخرى كالرعاة، ومربيّ البقر، والتجار، والبحارة والمترجمين وهم =

الطبقة عن الذين يمتهنون الأعمال الجسديّة يُكسب الدولة روعةً ومهابة عظيمتين. ولقد دوّن ذلك أيضاً بعض الكتّاب الإغريق. وأمّا عن رحلاته في إسپانيا وأفريقيا والهند، ومناقشاته مع الجمنوسوفسيين Cymnosophist(١٦)، فمصدر كل الروايات الوحيد عنها - كما وجدتُ - هو أرستوقراطس Arstocrates السپارطي ابن هيپارخوس Hipparchus.

واشتاق أهل سپارطا إلى ليكورغوس كثيراً. وألحّوا عليه بالعودة مراراً قائلين: «حقّاً إن لدينا ملوكاً، يرتدون شارات الملك ويتّخذون ألقاب الجلال والسلطان، أمّا عن مداركهم وسعة عقولهم فليس فيها ما يميّزها عن عقول أفراد رعيّتهم». وزادوا قائلين إن فيه وحده تظهر أرومة السيادة الحقة، والطبع الذي خُلق ليحكم، والإرادة التي وجِدت لتُطاع. ولم يكن الملكان نفساهما بالكارهَين عودته، لأنهما كانا يعتبران وجوده سدّاً واقياً لهما من غائلة شعبهما.

وطالعته هذه الحقيقة عند عودته، فانصرف حالاً دون أن يضيع وقتاً إلى الإصلاح الشامل، وعزم أن يغيّر وجه الجمهورية بأسره إذ ما فائدة قوانين قليلة وتغييرات جزئية؟ كان عليه أن يعمل كالطبيب الواسع العقل عندما يجابه مريضاً تكالبت عليه الأسقام واختلطت فيه، فبقوة الأدوية يُنهكه ويُضعفه، ويُغيّر من كلّ مزاجه ثم يُخضعه بعد ذلك لنظام حِمْيَة دقيقٍ جديدٍ تماماً. وبعد أن صوّر لنفسه مشاريعه المقبلة، قصد دلفي لاستخارة أپوللو(١٧) هناك. وبعد أن نال بُغيته، وقدّم قربانه، عاد بالنبوءة الشهيرة التي

= ينحدرون من قبائل وطبقات مخصوصة يأخذ فيها الابن عن الأب حرفته. ويرى هيرودوتس (٢: ١٨٦) أن النظام المذكور استمدّه ليكورغوس من مصدر أقرب إلى موطنه من مصر، فقد كان سارياً عند التراقيين، والصيثيين وغيرهم.

(١٦) فلاسفة الهنود القدماء هم طائفة منصرفة إلى التأمل والصمت، يكاد أهلها لا يرتدون شيئاً من الثياب ويعيشون في الغابات. والبرهميون فصيلة من الطائفة نفسها وهم يكرهون البطالة كراهة تحريم. ويحدثنا أپوليّوس أنهم أوجبوا على تلاميذهم تقديم حساب يوميّ عن عمل طيب قاموا به أو بالتأمل بعمِلٍ أقدموا عليه قبل السماح لهم بالجلوس لتناول العشاء. وهم يؤمنون بالتناسخ وبحياة أخرى أفضل وأطيب حتى أنهم ما كانوا ليترددوا في قذف أنفسهم إلى النار عندما يشبعون من الحياة، أو تصيبهم مصيبة. ونخشى أن يكون الخُيلاء والاعتداد بالنفس هما الدافع الذي دفع أحدهم إلى إحراق نفسه أمام إسكندر الكبير، والآخر الذي قضى حرقاً أمام أغسطس قيصر. وما يزال الخلاف قائماً حول صحة زيارة ليكورغوس الهند من عدمه - بين مترجمي پلوتارخ الفرنسيين أمثال (داسيه وريكارد).

(١٧) أقنع مينوس أهل كريت بأن قوانينه نزلت عليه وحياً من جوپتر، وقلّده في ذلك ليكورغوس =

سُمّي فيها «حبيب الله» و«الأقرب إلى الإله منه إلى البشر» وأن صلاته استُجيبت وأن قوانينه ستكون خير ما وجِد، وأن الجمهورية التي ستسير عليها ستكون أشهر جمهورية في الدنيا. كل هذا شجّعه على كسب وجهاء سپارطا إلى جانبه وأقنعهم بمدّ يد العون له في مشاريعه العظيمة، وأسرّ بالمسألة أولاً لأقرب أصدقائه وكسبوا هم أنصاراً آخرين بالتدريج، وألهب حماسة الجميع لتنفيذ مآربه. ولمّا حانت ساعة العمل أمر ثلاثين من سُراة سپارطا أن ينزلوا سوق المدينة بسلاحهم فجر اليوم التالي، ليبثّ الرعب في نفوس الحزب المناوئ. وذكر هرميپوس Hermippus أسماء أشهر وأبرز عشرين منهم. إلاّ أن أرثميادس Arthmiades كان اسم أبرز الجماعة كافةً، وأقربهم إلى ثقة ليكورغوس وسرّه، وأكثرهم نفعاً له في سنّ قوانينه ووضعها موضع التطبيق. اضطربت الخواطر، وساد الهياج وتوهّم الملك خاريلاوس أن مؤامرة تحاك ضده، فأسرع يحتمي بمعبد البيت النحاسي[١٨]، ولكن بعد أن تبيّن أنه واهم، وبعد أخذه العهود والمواثيق منهم بأنهم لا ينوون به شراً، ترك ملجأه وانضمّ هو نفسه إليهم. كان خاريلاوس إنساناً من أرقّ وألطف الناس وأكثرهم سماحة. حتى أن أرخيلاوس Archelaus أخاه في الملك يقول فيه عندما كانت طيبته تمدحه أمامه: «من لا يستطيع القول عنه أنه طيبّ؟ وهو لا يعرف الصرامة حتى مع الأشرار».

من التغييرات الكثيرة والإصلاحات التي عملها ليكورغوس، أوّلها وأعظمها أهمية انشاء مجلس للشيوخ، سلطاته مساوية لسلطات الملك في الأمور الهامة جداً، ليحدّ من سلطات الملك، ويعدّل ويلطف من اندفاعاتها الناريّة[١٩]، وبذلك يشيع الثبات

= تحدوه الرغبة في إقناع أهل سپارطا بأنه فعل ما فعل بتوجيه وأمرٍ من أپوللو. هناك مشترعون آخرون وجدوا من الأفضل كثيراً أن يضخّموا هذه الفكرة القائلة بأن شرائعهم ونُظمهم إنما جاءتهم من الأرباب. لأن حبّ النفس في الطبائع البشرية الذي لا يتسامح ولا يتحمل تفوّقاً عبقرياً تمثل في مشترع لم يعاونه أحد في عمله، يجد راحة وسهولة في تطبيق أحكام ذلك المشترع عندما يقال له إنها أوحيت إليه من السماء ولهذا نجد واضعي الشرائع القديمة يعزونها إلى الإرادة الإلهية دائماً لأن في ذلك تعزيزاً لشأنها ورفعاً من قدرهم، كما يضمن لهم فضلاً عن ذلك قيام الأهالي بالدفاع عنها ومعاونتهم ضميرياً في تطبيقها والتقيّد بأحكامها.

(١٨) أي خاليوكس وهو هيكل الربّة أثينا، وكان شاخصاً في أيام پاوسنياس المعاصر لماركوس أنطونيوس.

(١٩) الفقرة التي يشير إليها المؤلف هي في كتاب أفلاطون الثالث حول الشرائع حيث نجده يبحث في أسباب سقوط الدول. ويضع الكلام التالي على لسان أثينيّ قائلاً يخاطب اللقيدېميين: «في اعتقادي أن إلهاً من الآلهة مدفوعاً بغيرته على دولتكم ولمعرفته بما سيأتي به المستقبل أعطاكم =

والاطمئنان في بناء الجمهورية» على ما يقول أفلاطون، لأن الدولة قبل ذلك لم تكن تستند إلى قاعدة ثابتة فمرّة تميل إلى الملكية المطلقة لفترة من الزمن، عندما يستظهر الملوك، ومرة تميل إلى الديموقراطية الصرفة عندما ترجح كفّة الشعب وتكون لإرادته الكلمة العليا. فكان مجلس الشيوخ هذا بمثابة قُطب الرحى، كالمثقلة في السفينة فإنها تحفظها دائماً في توازنٍ تامّ، ينحاز أعضاؤه الثمانية والعشرون دائماً إلى جانب الملوك لمقاومة التيار الديمقراطي، ويساندون الشعب من الجهة الثانية ضد أي محاولة لقيام ملكية مطلقة. وأما بخصوص تحديد العدد بثمانية وعشرين فيقول أرسطو إن سببه عُزي إلى ان اثنين من المؤتمرين الثلاثين الأصليين عدلا عن المساهمة في الخطّة لجبنِ اعتراهما. ولكن سفيروس Sphaerus يؤكد لنا أن عدد المؤتمرين كان ثمانية وعشرين بالأصل، ولعلّ هناك سِرّاً في العدد الذي يتضمّن سبعة مضروبة في أربعة والسبعة هو أوّل عددٍ تام بعد الستّة ولذلك كان متساوياً في كلّ اجزائه[٢٠]. وأما رأيي الخاص فهو أن ليكورغوس حدّد العدد بثمانية وعشرين على أن يُعدّ الملكان بين الأعضاء فيكمل العدد ثلاثين.

ولقد كان شديد الاهتمام بإنشاء هذا المجلس حتّى أنه راح ينشد نبوءة عنه من

= ملكين من أسرة واحدة ليحكما بعدالة أكثر عند ممارستهما الحكم وبذلك تتمتع سپارطة بأعظم الاستقرار. وبعد هذا عندما تنزع الملكية إلى الاستبداد والحكم المطلق تقوم روح إلهية متقمّصةً جسداً بشرياً (هو ليكورغوس) بوضع أسباب الحكم ضمن حدود العدل والمساواة عن طريق سلطة مجلس الشيوخ الحكيمة المساوية لسلطة الملكين». ويقوم أرسطو [السياسة ٢:٧] بتخطئة هذه الفكرة من ناحية بقاء الشيوخ في مناصبهم طوال العمر فيقول: «من السخف أن تودع مصائر المواطنين أيدي رجالٍ قد يحول تقدّمهم في السن دون دقة التمييز. فالعقل يهرم مع هرم الجسد. كذلك ليس معقولاً أن يكون هؤلاء معصومين لا يمكن محاسبتهم على إجراءاتهم وأحكامهم». لكن يبدو أن حلاً مجدياً تم الوصول إليه للمشكلة الأخيرة بابتداع نظام الإيغوري فيما بعد. وقد استُحدث بصورة رئيسة للدفاع عن حقوق الشعب ولذا يضيف أفلاطون قوله: «والنعمة الثانية التي حظيت بها سپارطه هو ذلك الأمير الذي رأى أن سلطان الشيوخ وسلطان الملكين مفرطان في التحكم والاستبداد ويستحيل وضع رقابة عليهما. فابتدعت سلطة الإيغوري كبح جماحهما».

إن أعجب ما في النظام هو وجود ملكين لكن بعد أن فقدت أجهزة حكم ليكورغوس نفوذها الأول حطمت الأحزاب التي خرجت من هذه المنازعات كيان سپارطه. ومع هذا فأرسطو يعزو [السياسة ٥:١١] دوام تلك الدولة إلى توزيع السلطات!

(٢٠) على أغلب الاحتمال لم يكن ليكورغوس على علم بقانون الأعداد. كما كان أبعد من أن يضع قوانينه على أساس التفكه واللعب الفكري.

دلفي. فأنزل عليه ما سُمّي بمرسوم الريترا Rhetra وهو كالآتي: «بعد أن تقوم ببناء معبد لجوبتر هيليانيوس Helianius ومينرفا هللانيا M. Hellania، وتقوم بتنظيم الشعب في فيليس Phyles وترصّهم في أوبس Obes، عليك أن تؤسس مجلس شورى من ثلاثين شيخاً بضمنهم الزعيمان، وعليك أن تجمع الشعب بين فترة وأخرى في أبيّللازين Apellazein، ما بين بابيكا Babyca وكناسيون Cnacion[٢١]. وهناك يقترعون وتؤخذ أصواتهم. إن للشعب الكلمة الأخيرة والقرار النهائي». ويقصد بكلمتي Obes & Phyles طبقتَي الشعب، وبالزعيمين يقصد الملكين، وبأبيللازين يشير إلى أبوللو البيثيّ، ويقصد بها الاجتماع، وبابيكا وكناسيون هما الآن أونوس Oenus. على أن أرسطو يقول إن كناسيون هو نهر، وبابيكا جِسر، وبين هذين النهر والجسر كان يتمّ الاجتماع إذ لم يكن لديهم بيت شورى، ولا بناية يجتمعون تحت سقفها. وكان ليكورغوس يرى أن البهرجة والزخرفة في مجالس الاجتماعات لا تفيدهم في شيء، وإنما قد تغدو عائقاً لأنها تصرف المجتمعين عن الشؤون التي اجتمعوا لها إلى التماثيل والتهاويل والسقوف المزخرفة المنقوشة، وغيرها من التوشية الفنيّة التي تحفل بها أمثال هذه البنايات. عند الإغريق الآخرين تُعقد هذه الاجتماعات العامة في الهواء الطلق ولا يسمح لأي فردٍ أن يعطي رأيه بل يحق له إمّا أن يصادق أو ان يرفض ما يعرضه عليهم الملك أو مجلس الشيوخ. ولكن عندما أخذت العامة تشوّه وتحرّف مدلولات المبادئ عن معانيها الأصلية بإضافة كلمات معيّنة أو حذفها أدخل الملكان پوليدوروس Polydorus وثيوپومپوس Theopompus الفقرة التالية إلى «الرتيرا العظمى» أو الميثاق الأعظم: «يحق لمجلس الشيوخ والزعماء أن ينقضوا أي قرارٍ أخطل اتخذته العامة». أي أن يرفضوا إبرامه ولهم أن يحلّوا جمعية الشعب بحجّة أنها أخطأت وحادت عن جادّة الصواب في مشورتها.

وتمكنوا بالخداع والحيلة أن يُلقوا في رَوْع الجمهور أنها مساوية لبقية الرتيرا في درجة صحتها، كما يبدو ذلك من أبيات الشاعر ترتيوس Tyrtaeus التالية[٢٢]:

هذي النبوءات الصحيحة التي سمعوها من أپوللو

---

(٢١) لعلّها أسماء روافد صغيرة لنهر أفْروتاس.

(٢٢) شاعر غنائي اربله الأثينيون بعد منحه رتبة جنرال - على رأس قوة لنجده السپارطيين. نصراً على المسينيين. عندما حمّسهم واستنهض هممهم بقصيدة أنشدها وهو على رأس قواته العسكرية.

وجاؤوا بأقوالها الصادقة من معبد پيتو Pytho:

«الملوك الذين عيّنتهم السماء، وأحبّوا الأرض،

يكونون أوائل في مجلس شورى البلاد.

ويأتي الشيوخ في المحل الثاني، ويأتي العامّة أخيراً.

ألا فلتسُد شريعة ريترا صحيحة بين الجميع!

ومع أن ليكورغوس اتخذ كُلّ الاحتياطات الممكنة لتلطيف جهاز حكمه الجمهوري فإن أولئك الذين عقبوه وجدوا أن التيار الأوليغارشي(*) «مُرغياً ومُزبداً ولأجل أن يكبح مزاجه الحادّ وصولته الجائحة، «وضعت لُقمة في فمه» على حَدّ قول أفلاطون(٢٣)، هذه اللقمة هي إحداث سلطة الإيفوري Ephorie(٢٤) التي أنشئت بعد

(*) Oligarchy: هو حكم الأقلية أو الصفوة المنتخبة [م. ت].

(٢٣) أفلاطون: القوانين. ٦٩٢.

(٢٤) هيرودوتس (١: ٦٥) وكزينفون [جمهورية لقيديمية ٨] يقولان إن ليكورغوس هو الذي عيّن الإيفوري شخصياً. إلاّ أن التفاصيل التي يبسطها المؤلف مقتبساً من أرسطو (السياسة ٧) وغيره، باعتبار أنها لم تُستحدث إلاّ بعده بزمن طويل، تبدو أقرب إلى المعقول. إذ لا يُحتمل مطلقاً أن ليكورغوس الذي ساند الأرستقراطية بكل قواه ولم يترك للشعب شيئاً إلاّ حق القبول أو الرفض - يُعيّن نوعاً من مفوّضين شعبيين ويجعلهم سادة مساوين للملك ولمجلس الشيوخ. بعض المؤرخين يرون أن الإيفوري كانوا في مبدأ الأمر خلصاء للملك ينتدبهم لممارسة سلطته عندما يذهب للحرب. لكن المعروف الأكيد أن الشعب كان يختارهم عن طريق الانتخاب من مجموع الدهماء وأحياناً من بين أدنى طبقة من الدهماء حيث إن أجرأ المواطنين وأصلبهم يكون أكثر حظّاً للفوز بمثل هذه الوظيفة - كائناً ما كانت صفته - فهي وظيفة القصد منها الحدّ من سلطة الملكين وسلطة الشيوخ. وعدد الإيفوري خمسة في جمهورية قرطاجة ويجرى انتخابهم كل سنة. وقد رسم أن تكون قراراتهم بالإجماع لتغدو سلطاتهم ذات تأثير. كانت سلطاتهم محددة بشكل جيد، إلاّ أنها تحررت بمرور الزمن من كل قيد. فصاروا يرأسون الاجتماعات العمومية ويقومون بإحصاء الأصوات في الاقتراع. ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السّلم ويتفاوضون مع الدول، ويقررون عدد القوات المجنّدة مع تحديد مصروفاتها، ويوزّعون المكافآت ويفرضون العقوبات باسم الدولة. ويعقدون مجالس قضاء ويحققون في سلوك الحكام والقضاء ويشرفون على تعليم الشباب وتوجيه سلوكهم. كما زُوّدوا بسلطة خاصّة على الهيلوت. وبمختصر القول إنهم حصروا كل السلطات الادارية والتنفيذية بأيديهم شيئاً فشيئاً ومضوا إلى الحدّ الذي قاموا معه بتنفيذ حكم الموت بالملك أغيس بزعم أنهم ينفّذون حكم العدالة. أخيراً قتلهم كليومنيس صبراً.

يرى بارثلمي في كتابه «رحلات أناخارسيس» أن صلاحيات الإيفوري كانت حتى عهد =

موت ليكورغوس بمائة وثلاثين سنة. وكان إيلاتوس Elatus وزملاؤه أول من أُسندت إليهم هذه الوظيفة في زمن حكم الملك ثيوپومپوس، الذي أجاب زوجه الملكة عندما عيّرته يوماً ما بأنه سيخلّف سلطة الملك لأولاده وهي أقل مما تسلّمها من أسلافه؛ قال «كَلاّ بل أكثر، لأنها ستدوم وقتاً أطول». ذلك لأن الملوك السپارطيين بعد أن رُسِمت لسلطاتهم حدود معقولة تحرروا تماماً من الأخطار، والمؤامرات ولم يعانوا قط المصائب التي انصبّت على جيرانهم في مسيني Messene وأرغوس Argos، أولئك الذين حرصوا على سلطاتهم، وأبوا التنازل للشعب عن قليل منها، فخسروها كلّها.

والحق يقال إن كل من يتأمل في الفتن والثورات وسوء الإدارة التي حلّت في هاتين الدولتين الجارتين اللتين تتصلان بالدم فضلاً عن صلة الجوار لا يسعه إلاّ أن يجد خير سببٍ للاعجاب بحكمة ليكورغوس وبُعد نظره. فهذه الدول الثلاث من أول نشأتها كانت متساوية، أو إذا كان هناك أيّ امتياز فقد اختصت به دولتا مسّيني وأرغوس اللتان اعتُبرتا أسعد حظاً من الثالثة سپارطا[٢٥] في أوّل القِسمة. وكانتا يمتلكان أراضي أفضل[٢٦]. ومع هذه لم تطل سعادة البلدين طويلاً بسبب طغيان ملوكهم من جهة، وبسبب صعوبة حكم الشعبين من جهة، وسرعان ما سادتهما الفوضى، وانهارت صروح أجهزة الحكم والمجتمع فيهما، ممّا أظهر بكلّ وضوح مبلغ الحظوة التي نالها السپارطيون من لَدُن الآلهة بإنعامها عليهم بواضع قوانينهم الحكيم الذي منح حكومتهم استقراراً وتوازناً سعيداً.

بعد تعيين الشيوخ الثلاثين كانت مهمته التالية التي باشرها هي أخطر المهام طُرّاً. أعني القيام بتوزيع جديد للأراضي الزراعية. حيث كان يوجد تفاوت عظيم في هذا

= ليكورغوس قاصرة على الحكم الداخلي حين أثاروا الشعب وحرّضوه على مقاومة الشرائع الجديدة. وكان لأهالي كريت الذين أقتبس عنهم ضباط يقارنهم أرسطو بالإيفوري، يعرفون باسم كوزمي. على أن معظم الكتّاب لا يذكرون الإيفوري بوصفهم بدعة من بدع النظام أوجدها ثيومپوبوس بل باعتبارهم جهازاً من شأنه الحدّ من سلطة الملك وكبح جماحه. فالاحتمال إذن هو ان ليكورغوس أبقى لهم بعض الامتيازات، وأن ثيومبوبوس زوّدهم بسلطات أخرى مما جعل النظام يبدو نوعاً من الأوليغارشية.

(٢٥) هذه الدول الثلاث تدّعي انحدارها من دولة واحدة هي دولة الهيراقليدي فأرغوس ومسيني تردّان أصولهما إلى تمينيس، وكرسفونتس وسپارطا تُردّان إلى أڤريستينس وپروكلس ابني أريسطو ذيموس.

(٢٦) تغطي الجبال أرض سپارطا لتجعلها غير صالحة للزراعة تقريباً في حين نجد سترابو يصف سهول أرغوس ومسيني بالخصوبة وكثرة المياه ويجعلهما أخصب جزءٍ من بلاد الإغريق.

الشأن بين الناس، والدولة ترزح تحت عبء الشكوى والسخط العام الذي يثيره الفقراء والمحتاجون في حين كانت الثروة كلها مركزة في أيدي قلةٍ ضئيلة. فلأجل أن يزيل من مجتمع الدولة التحاسد والتباغض، والإجرام والترف، وتلك الأمراض المتأصلة المزمنة، الفقر، والغني الفاحش، حملهم على التنازل عن ملكيّاتهم جميعاً، والرضى بتقسيم جديدٍ للأرض، وأقنعهم بأن يعيشوا معاً على قدم المساواة، وأن تكون الجدارة والأهلية هي السبيل الوحيدة إلى التقدم والشهرة؛ وتقبيح الشرّ وحُسن الجزاء للأعمال الطيبة يكونان معيار الخلاف الوحيد بين إنسان وإنسان.

بعد موافقتهم على مقترحاته هذه، باشر في الحال بوضعها موضع التطبيق فقسّم بلاد لاقونيا مبدئياً إلى ثلاثين ألف سهم متساوٍ، وقسّم الجزء المرتبط بمدينة سپارطا إلى تسعة آلاف سهمٍ وزّعها على السپارطيين، كما وزّع السهام الأولى على باقي المواطنين الريفيين. ويقول بعضهم إنه خصّص للمواطنين السپارطيين ستة آلاف سهم فقط وإن الملك پوليدوروس أضاف إليها ثلاثة آلاف أخرى. وقال آخرون إن پوليدورس اضاف مثل عدد السهام التي حددها ليكورغوس بأربعة آلاف وخمسمائة فصارت تسعة آلاف وكانت قطعة الأرض الواحدة تنتج سنوياً (بأخذ معدّل سنتين متتاليتين) حوالي سبعين بوشلاً(*) من القمح لربّ الاسرة، وأثني عشر بوشلاً لامرأته. مع مقدار مناسبٍ من الزيت والخمر، وهو ما يكفي في اعتقاده لبناء الأجسام قوية صحيحة، أما الفائض عن الحاجة فلا خير فيه لهم. ورُوي أنّه كان عائداً من رحلة له، بعد تقسيمه الأراضي بزمن وجيز، وصادف أن كان وقت الحصاد والأرض قد حُصدت لتوّها، فابتسم إذ شاهد أكوام القمح قائمةً وكلّها متساوية وقال لمن حوله: «أرى لاقونيا كلها تبدو مثل مزرعة أسرةٍ واحدة، قُسّمت بين عددٍ من الأخوة».

ولم يقنع بهذا، وقرّر أن يجرى توزيعاً في أموالهم المنقولة أيضاً، حتى لا يبقى أي فرقٍ أو تفاوت كبير بينهم. ووجد أن تطبيق ذلك بصورةٍ صريحة ينطوي على أعظم المخاطر، فسلك سبيل الحيلة(٢٧) وتغلّب على حرصهم بالخطّة التالية: أمر ألّا يُلغى

(*) مكيال للقمح تعادل سعته ثمانية غالونات [م.ت].

(٢٧) ظلّ السپارطيون بعد ليكورغوس ردحاً طويلاً من الزمن ينفرون نفرة شديدة من زيادة الحرص وحب الاقتناء إلى حد أن شاباً اشترى ضيعة بفائدة عظيمة فاستدعي ليؤدي حساباً على ذلك وفرضت عليه غرامة. فقد رأوا أنه عظيم الجشع إلى جانب جرعية في شراء حاجة بأقل من قيمتها لأنه استخدم عقله من أجل الربح وهو في العمر الذي يجب أن يفكر فيه الناس في الاتفاق. لكن عندما لم يعد السپارطيون قانعين بحدود بلادهم وأرادوا التوسع خلافاً لما كان =

التعامل بالنقد الذهبي والفضّي إلغاء تاماً، وأن لا يُسمح إلاّ بنوع من النقود الحديد وهي ذات حجوم كبيرة وثقل عظيم، وقيمة تافهة جداً. فلأجل حفظ ما قيمته ميناءين(*) يتطلب خزانة واسعة جداً. ولأجل نقل هذه الكمّية يُحتاج إلى ما لا يقلّ عن زوج من الثيران. وتداول هذه النقود اختفى في الحال مع عدد من الرذائل وزالت من لقيديمونيا. إذ من يخطر بباله أن يسرق مثل هذه النقود؟ ومن يمسك شيئاً بدون لا تكون قيمة له، ولا فائدة فيه حتى لو قطع أجزاءً. إذ إنهم كانوا يغطّون السِكّة وهي محمّرة في الخلّ وبهذه الوسيلة يُتلف معدنها ولا تعود صالحة لشيء.

ثم إنه أصدر أمراً بعدم قانونية مزاولة كل الفنون غير المفيدة، المُترفة، وكان الأجدر به هنا أن لا يصدر مثل هذا الأمر، فهذه الفنون ماتت من تلقاء نفسها ولحقت بالذهب والفضة، لأن النقود الجديدة لم تعد ثمناً صالحاً ومناسباً للتحف الفنية لكونها من الحديد ولا يمكن تداولها بين سائر الإغريق الذين سيهزأون بها - هذا إن أمكن تصديرها ونقلها. وهكذا لم يعد ثمّ وسائل لشراء بضائع أجنبيّة وكماليّات صغيرة، ولم يعد التجار يرسلون سفنهم المحملّة بالبضائع إلى المواني اللاقونية. أما أساتذه البلاغة، وقارئو الخط المشعبذون، وتجار البغايا، ونقّاشو الفضة، وصاغة الذهب، والجواهريون، فلم يعودوا يرون جدوى في زيارة بلاد ليس فيها نقود. وهكذا أخذ الترف يزول ويتلاشى وهو يتجرد شيئاً فشيئاً مما يقوّيه وينعشه، حتى قضي عليه تماماً ومات. لم يعد للأغنياء هنا أفضلية على الفقراء لأن غناهم وثراءهم الواسع فقد سبيله الوحيد الخارجي، فظّل حبيساً في الداخل لا يفعل شيئاً. وبهذا السبيل نبغ من الناس صنّاع مهرة وفنانون في عمل الأشياء المفيدة الضرورية للعموم، كالكراسي، والأسرّة، والموائد، ومختلف أدوات الإسطبل في حدود حياة الأسرة. وكانت تلك الحاجات موضع إعجاب من يراها لدقّتها. وتُذكر بصورة خاصة طاس الشراب المسمّى كوثون Cothon(٢٨) فقد شاع أمره وتسابق الناس على اقتنائه، ولاسيما الجنود، على قول كريتياس Critias. فلونُه يحول دون ملاحظة الشارب للماء العَكر أو المشوب الذي قد

= ليكورغوس ينهاهم عنه، فقد اشتبكوا في حروب خارجيّة. ولم تُقبل نقودهم في البلاد الأخرى. ووجدوا أنفسهم مرغمين على التوجه نحو الفرس الذين بهرتهم فضّتهم وذهبهم. وازداد جشعهم إلى حَدّ شنيع حتى ضُرب بهم المثل الذي ذكره أفلاطون وهذا هو «يرى المرء قدراً كبيراً من النقود يدخل إلى لقيديمون، لكنه لا يرى منها شيئاً يخرج».

(*) حوالي ٤٠ باوناً استرلينياً.

(٢٨) اقرأ وصفاً لهذه الكأس الفخارية في الفقرة التي كتبها كريتياس وهي في الأثينيوس ١١ : ١٠.

يضطر المرء إلى شربه بدافع الحاجة والضرورة. فقد جُعلت هيئته بحيث يعلق الطين بجوانبه فلا يبلغ فم الشارب إلاّ الماء النقي. ولهذا أيضاً عليهم أن يشكروا واضع قوانينهم الذي أطلق منهم كوامن مهاراتهم وإبداعاتهم في إضفاء صفة الجمال على الأدوات الضرورية ذات الاستعمال اليومي، بإراحة الصنّاع الفنانين من متاعب صنع الأشياء غير المفيدة. أمّا الضربة الثالثة، الأشد وقعاً والأمضى حداً التي أنزلها واضع القوانين العظيم هذا بالترف والشهوة إلى الغنى، فهو المرسوم الذي قضى بأن يأكل الجميع من مائدة عامة[٢٩]. فيتناولون الخبز واللحم وكلّ ألوان الطعام المقررة دون تفضيل، وأن لا يقضوا حياتهم في البيوت، مستلقين على الأرائك الوثيرة جالسين إلى الموائد الحافلة بأطايب الطعام، مستسلمين لأيادي طُهاتهم وحشَمهم ليُسنّموهم في الزوايا مثل الحيوانات النهمة، وليُتلفوا لا عقولهم وحدها بل أجسامهم التي سيدركها بلا شكّ الخمول للإفراط في الملذات، فتظل في حاجة مستمرة إلى النوم الطويل والحمّام الساخن، والراحة والابتعاد عن الجهد، وبعبارة أخرى ستكون بحاجة إلى العناية والرعاية قدر ما يحتاج ذوو الأسقام والزّمنى. إنها في الواقع لمعجزة خارقة أن يتم الوصول إلى هذه النتائج.

على أن «أعظم ما يمكن أن يُسلب من الغنى ليس مجرّد الشهوة إلى التملّك، وإنما طبيعة الغنى نفسها» على ما لاحظه تيوفراستوس Theophrastus، فبإرغام الأغنياء على مجالسة الفقراء لتناول الطعام من مائدة واحدةٍ لا يسعهم أن يفيدوا من ثرائهم ولا أن يستمتعوا به ولا أن يُرضوا كبرياءهم بالنظر إليه أو عرضه على الأنظار. ولذلك لا توجد بقعة في الدنيا يصدق فيها المثل السائر بالحرف الواحد «بلوتوس Plutus إله الغنى

---

(٢٩) تعمق كزينفون في تعليل أسباب ذلك فراح أبعد مما ذهب إليه بلوتارخ وغيره أي أنها ترمي إلى قمع الرغبة في الترف. فقال إن المائدة الجماعية تقوم مقام مدرسة أو هي بمثابة معهد علمي يقوم فيه الكبار على تهذيب الصغار بأن يقصّوا عليهم قصص الأحداث العظمى التي علقت بذاكراتهم، وبهذا يثيرون في نفوس الجيل الجديد حبّ المعالي والشوق للإتيان بأشرف العمل. لكن وجد أن هذا لا يمكن أن يتحقق فعلاً بالنسبة لجميع المواطنين عندما زاد عددهم على عدد قطع الأراضي المقرر توزيعها. لذلك انتقد المؤرخون ليكورغوس وقالوا: كان عليه أن يجعل هذه الموائد الجماعية على حساب الدولة مثلما جرى ذلك في كريت وبعد أن اقتبس معظم شرائعه منها (أرسطو: السياسة ٢:٨). لكن علينا أن نتذكر أنهم كانوا قد احتاطوا لتلك الزيادة في السكان بإرسال مستوطنين إلى الخارج لذلك لم ينقل الفقراء عبء ليقيديمون إلى أن اصيبت الحكومة بالانحلال.

أعمى» مثلما يصدق في سپارطا. وهو هنا ليس أعمى فحسب، بل مثل صورة لا حياة فيها ولا حركة.

ولا يُسمح لأحد أن يتناول طعاماً في بيته أولاً ثم يحضر الموائد العامة فكل امرئ هناك يراقب أولئك الذين لا يأكلون ولا يشربون كالباقين ويعيّرونهم بالتخنّث والرقّة.

هذا القانون الأخير أغاظ الأغنياء واستنفد صبرهم بنوع خاص فاجتمعوا كتلة واحدة ثائرة على ليكورغوس، وانتقلوا من الكلمات الجارحة إلى رجمه بالحجارة. حتى اضطر إلى ترك السوق هارباً واتجه إلى ملاذٍ مقدس لإنقاذ حياته وشاء حسن حظّه ان يسبقهم جميعاً إلاّ شاب يدعى ألكاندر Alcander لم يكن فظاً بطبعه، وإن عرف عنه التسرع والعنف، فقد لحق به وحاذاه ولما التفت ليكورغوس نحوه ليرى من المطارد عاجله بضربة عصا على وجهه ففقأ له عيناً. فتوقف ليكورغوس دون أن تؤثر هذه الحادثة فيه أو تفلّ من غِراب عزمه. وكشف عن وجهه المشوّه وعينه الجاحظة لأنظار بني قومه فأدركهم الأسف والخجل، ودفعوا بالضارب إليه ليقتصّ منه وصحبوه إلى بيته وهم في غمّ شديد لاعتدائهم عليه. وبعد أن شكرهم ليكورغوس على اهتمامهم بأمره صرفهم جميعاً واستبقى ألكاندر وأدخله بيته ولم يوجّه إليه كلمة غاضبة، أو عملاً عنيفاً. ولكنه صرف أولئك الذين يجالسونه على المائدة، وطلب من ألكاندر أن يقوم على خدمته. وكان الفتى طيباً بطبعه فقام بما طُلب منه دون تذمّر أو شكوى، وسمح له أن يشاطره العيش فأتيحت له الفرصة ليتبيّن فيه رقّته المأثورة، وهدوء طبعه فضلاً عن رجاحة عقله الفائقة وجلده على العمل الذي لا يعرف وهناً وما إلى ذلك. فانقلب من عدوّ له إلى أشدّ المعجبين به تحمّساً ومشايعة. وأخبر اصدقاءه وأقرباءه أنّ ليكورغوس ليس بذلك الشخص الجهم السيّئ الطبع الذي توهّمه الكثيرون من قبل بل يمتاز بألطف وأرق طباع في الدنيا. وهكذا جعل ليكورغوس من شاب أهوج مندفع واحداً من أكثر المواطنين السپارطيين اتزاناً ورجاحة، بدل أن يعمد إلى عقابه عن خطئه.

وإحياءً لذكرى هذه الحادثة أقام معبداً لمينرڤا، سمّاه أوپتيليتيس Optiletis. إن كلمة أوپتيلوس Optilus هي اللفظة الإغريقية الدارجة في تلك الأنحاء ومعناها «عين» أوفَتالموس Ophathalmus. ويقول بعض الكتّاب الذين كتبوا رسالة عن جمهورية سپارطا، ومنهم ديُسيقوريدس Dioscorides إنه جُرح حقاً، ولكنه لم يفقد عينه نتيجة الضربة، وإنه بنى المعبد اعترافاً بفضل شفائه. ومهما يكن من أمرٍ، ومهما بلغت هذه الروايات من الحقيقة، فبعد هذا الاعتداء استنّ اللقيديميون لأنفسهم مبدأ حمل ما لا يزيد عن عكّازٍ في اجتماعاتهم العمومية.

ولنعد الآن إلى وجبات الطعام العامّة؛ إن لها عدة أسماء باليونانية فأهالي كريت يسمّونها أندريا Andria لأنها للرجال فقط. واللقيديميون يسمّونها فيديتيا Phiditia بقلب «اللام» إلى «دال» في كلمة فيليتيا Philitia ومعناها «الحبّ في المآدب» لأن الطعام والشراب المشترك يعقد حبال الودّ. أو لعلها جاءت من فيدو Phido، أي الشحّ والتقيتر، لأنها بمثابة مدارس عديدة للاعتدال وربما كان الحرف الأول زيادة في الكلمة التي هي بالأصل إيديتيا Editia أي الأكل من Edode. وهم يجتمعون زُمراً من خمسة عشر أو نحوها. وعلى كل فردٍ منهم أن يساهم في أداء بوشل واحدٍ من الخبز، وثمانية غالونات من الخمر، وخمسة باوندات من الجبن وباوندين ونصف باوند من التين ومبلغ طفيف جداً من المال لابتياع سمك أو لحم شهرياً للمائدة العامة. وإلى جانب هذا إذا قدّم أي واحدٍ منهم قرباناً للأرباب فهم يرسلون على الدوام صدقة إلى القاعة العامة. كذلك عندما يصطاد أحدهم قنيصة «فإنه يرسل إلى الجهة نفسها شيئاً من قنيصته. وفي هاتين المناسبتين فقط يُسمح للمرء أن يتناول طعامه في بيته. وقد بقيت عادة الطعام الجماعي سارية المفعول بكلّ دقةٍ زمناً طويلاً بعد ليكورغوس. حتى أن آغيس Agis الملك نفسه بعد أن هزم الأثينيين أرسل عند عودته إلى بلاده يطلب الحصّة المعيّنة من المائدة العامّة معتذراً بأنه يرغب في تناول طعامه مع الملكة في خلوةٍ(٣٠) فرفضها البوليمارخوس(*). وهو الرفض الذي أحنق الملك وأحفظه حتى أنه ألغى مراسم صباح اليوم الثاني الخاصة بتقدم القرابين الواجبة لكلّ حرب طيّبة الختام، فما كان منهم الاّ أن حكموه بتأدية غرامة.

وكانوا يرسلون صغارهم إلى هذه الموائد كأنما يرسلونهم إلى مدارس تهذيب وتثقيف. فيلقّنون فيها شؤون الحكم وإدارة الدولة بإصغائهم إلى رجال السياسة المجرّبين. وفيها يتعلّمون كيف يطرّزون أحاديثهم بالنوادر ويتبادلون المزاح والتندّر دون حَدّ الإيلام وأن يتقبّلوها برحابة صدرٍ. وفي هذه النقطة من حسن التربية فاق اللقيديميون غيرهم بصورة خاصة. ولكن ما إن يُبدي المرء ضجراً منها حتى يكفّ الجميع عن توجيه القول له بعد اشارة خفيفة جداً. وجرت العادة أيضاً أن يقول أكبر

---

(٣٠) كان لملوك سبارطا حق دائميّ في تناول وجبتين من الطعام. ليس للسماح لهم بإظهار مزيد من الشهوة بل لتتاح لهم فرصة مشاركة حصّتهم من الغذاء مع رجل مشهود له بالشجاعه يُختار لينال هذا الشرف.

(*) البوليمارخوس السپارطيون هم الذين يقودون الجيش تحت إمرة الملوك. إنهم كبار رجال الدولة وهم دائماً يوزعون الطعام على المائدة.

الزمرة سنّا لكلّ منهم مشيراً إلى الباب عند دخولهم: «لا تخرج كلمة واحدة من هذا الباب». وإذا رغب أحد في الانضواء إلى إحدى هذه الزُمر الصغيرة فعليه أن يفوز في الاختبار التالي: يأخذ كل عضو من أعضاء الندوة كرة صغيرة من العجين، ويلقونها كلّ بدوره في آنية عميقة يطوف بها عليهم نُدُل وهي فوق رأسه فمن يرغب في انضمام المرشح إلى ندوتهم يُلقي كرته في الآنية دون أن يغيّر من هيئتها ومن لا يريده يضغطها بين إصبعيه ويجعلها مسطحة وهذا ما يعادل التصويت بالرفض. وإن وجدت عجينة مدحاة واحدة فقط لا يُقبل المرشّح، إذ يُشترط الإجماع عليه ليكون كُلّ أعضاء الزمرة متفاهمين بعضهم مع بعض. ويطلق على الآنية كادّيخوس Caddichus ومنه اشتق اسم المرشح المرفوض(*). وأشتهر لون من الطعام عندهم هو العصيدة السوداء وهي ذات قيمة غذائية كبيرة بحيث كانت طعام كبار السن الوحيد، فهؤلاء كانوا يتحسّونها ويتركون اللحم لمن دونهم سنّا. ويقال إن ملكاً من ملوك(٣١) البنطوس Pantus سمع الكثير عن عصيدتهم السوداء تلك فبعث يستقدم طاهياً لقيديمونياً ليعمل له شيئاً منها. ولما ذاقها استقبحها ولم تعجبه قطّ وكان الطاهي يرقبه فقال له: «لأجل أن تجعل هذه العصيدة شهيّة عليك يا مولاي أن تغتسلّ في نهر إيروتاس Eurotas!».

وينصرف كل رجل إلى داره بعد أن يشرب خمراً باعتدال ولا يستخدم نوراً لأن استخدام النور ممنوع مهما كانت احلك الظروف، والسبب في هذا هو أن يعوّدوا أنفسهم على السير بجرأةٍ في الظلام(٣٢). تلك هي القواعد العامة المتبعة في وجبات طعامهم.

لم يضع ليكورغوس قوانينه في مدوّنات، ومع أنه لا يوجد في أيّ ريترا ما يمنعه صراحةً. وذلك لاعتقاده بأنّ أكثر النقاط فائدة، ومعظم ما هو أكثر تعلّقاً بالمصلحة العامة، انما ينطبع في قلوب الشباب بالضبط والربط الجيّدين، ويبقى بالتأكيد، ويجد مكاناً أحفظ له وأضمن من أي شكل من أشكال الإرغام. هذا هو التثقيف، أي مبدأ العمل الذي وضعه أعظم المشترعين وأفضلهم. وأمّا عن المسائل الأقل أهميّة،

(*) ولعل كلمة Candidate التي تطلق على كل مرشح لأية انتخابات مأخوذة من هذه.

(٣١) سرد بلوتارخ الحكاية في موضع آخر وعزاها إلى ديونيسيوس طاغية صقلية. ويؤكد شيشرون أيضاً أنه الشخص المقصود. وأفروتاس هو نهر سبارطا.

(٣٢) يقصر كزينفون هذا المنع على الشبان. ويقول إن الغرض منه هو بقاؤهم بحيث لا يخطئون طريقهم إلى منازلهم!

كالعقود الماليّة والتجارية وأمثالها التي تتغيّر أشكالها وصيغها بتغيّر الظروف والأحوال، فقد رأى من الأوفق ألاّ يضع لها قاعدة ثابتة، أو صيغة معيّنة، متوقعاً أن أشكالها ونصوحها خاضعة لتقلبات الأزمان وإرادات الناس ذوي الأحكام الصائبة، وفي عُرفه أن الثقافة هي غاية كلّ قانون وهدف كل نظام.

لذلك كان من مبادئه أن لا تدوّن تلكم القوانين. وشرع قانوناً موجّهاً بصورة خاصّة ضَدّ الترف والبذخ، فقد رسم به أن لا تهندم سقوف البيوت بأكثر من الفأس، وأن لا تسوّى أبواب المنازل بغير المنشار. ويمكن القول إن ليكورغوس كان يهجس بصحة قولة إپامنينداس عن مائدته «الخيانة وعشاء كهذا لا يمكن أن يجتمعا معاً[٣٣]». الترف وبيت كهذا لا يمكن أن يكونا صاحبين. إذ لا بدّ أن يكون المرء مأفوناً أحمق ليفرش منزلاً بسيطاً كهذا وغرفاً عادية أرائك ذات أرجل مفضّضة ويبسط عليها أغطية أرجوانية، ويزوّقها بصفائح الذهب والفضة. لا شكّ أن لديهم الإدراك أن يجعلوا أسرّتهم مناسبة لبيوتهم وأغطيتهم مناسبةً لأسرَّتهم وباقي أدواتهم المنزلية وأثاثهم مناسبة للأغطية. ويروى أن الملك ليوتخيدس Leotychises الأول كان يجهل تقريباً وجود أشياء غير هذا الأثاث البسيط، ولما دُعي إلى كورنث وأُدخل غرفةً فخمة أدركته الدهشة الشديدة لرؤيته خشب الأعمدة والسقف منحوتاً نحتاً بديعاً ومكفتاً فسأل مضيفه أتنمو الأشجار في بلاده مربّعةً هكذا؟[٣٤]. وكان المبدأ الثالث (الريترا الثالثة) أن لا يشنّوا الحرب كثيراً وأن لا يجعلوا الحرب طويلةً مع العدوّ الواحد، لئلا يفيد منها تدريباً، ويتعلّم فنونها باضطراره إلى الدفاع المستمر عن نفسه. وهذا ما كان مصدر لوم كثير لأغيسلاوس Agislaus بعدها بزمن طويل إذ وُجد أن هجماته المستمرة على بيوسيا[٣٥] جعل الليثبيين أقراناً اكفاء للقيديمونيين ولذلك فعندما رآه أنتالكيداس Antalcides جريحاً يوماً ما قال له: «لقد أُجزل لك العطاء عن الجهود التي بذلتها في جعل الليثبيين جنوداً أكفاء، شاؤوا أم أبوا». هذه القوانين سُمّيت ريترا للدلالة على أنها نبوءات أو قوانين إلهية مقدسة تقف في منزلة الوحي[٣٦].

(٣٣) جوڤينال ١٠: ٢٦ Nulla aconita libuntin Fictilibus.

(٣٤) يجب أن لا يعتبر ملقي هذا السؤال غبياً أو جاهلاً بالتجارة إلى هذا الحد. فهو في الحقيقة نوع من السخرية ببنايات كورنث الفخمة.

(٣٥) كما ظهر ذلك واضحاً في معركة ليوكترا إذ هزم إپامنينداس اللقيديميين فخسروا ملكهم كليوبرتس وزهرة مقاتلي جيشهم.

(٣٦) أو ربما لأنها لم تكن مكتوبة، تنتقل من فم إلى أذن إلى فم.

ولأجل أن يُثقّف شبابهم ثقافة حسنة (وهو في رأي ليكورغوس أهم وأنبل عمل للمشترع كما قلتُ آنفاً)، فقد ذهب تفكيره أبعد مذهبٍ حتى بلغ به إلى الاهتمام بهم من وقت الحمل بهم وولادتهم، مبتدئاً بتنظيم الزواج. لقد كان أرسطو مخطئاً في قوله إن ليكورغوس بعد تجربته كل الطرق لردّ النساء إلى الرزانة والدماثة اضطر أخيراً إلى تركهنّ على ما هنّ فيه. ذلك لأن زوجات الرجال الذين يقضون معظم أيام حياتهم في الحروب يكونون مضطرين إلى تركهّن أثناء غيابهم سيدات البيت المطلقات فينهين ويأمرن ويتصرفن على هواهن، ويعاملن باحترام فيه كثير من الإفراط ويُطلق عليهن لقب السيّدات والأميرات. هذا ما يقوله أرسطو والحقيقة أنه بذل في مسألتهنّ أكثر ما أمكنه من الجهود. فأمر أن تمارس الفتيات رياضات المصارعة والعدو ورمي القرص وقذف الرمح حتى تنمو ثمرات أحشائهن في أجسام قوية صحيحة وتتخذ جذوراً أثبت وتجد وسطاً للنمو أفضل، وتكون النتيجة أنهن يكنّ أقدر على تحمّل متاعب الحمل وآلامه بهذه القوة التي اجتمعت لهنَّ. ولأجل أن يزيل منهنّ رقّتهم المفرطة، وخوفهنّ من التعرّض لتقلّبات الجوّ، وكُلّ ما هو من طبيعة الأنثى، أمر بأن تخرج الفتيات في المواكب العامة عارياتٍ مع الشبان وأن يرقصن أيضاً بهذا الوضع في بعض الأعياد الدينية وينشدن أناشيد معيّنة. في حين يقف الشباب حواليهن يسمعونهن ويشاهدونهنّ. وفي هذه المناسبات يعرّضن بأسلوب المزاح تعريضات مناسبة بأولئك الذين لم يبلوا بلاءً حسناً في القتال كما ينشدن أناشيد الثناء والإشادة بأولئك الذين أظهروا البطولة. وبهذه الوسيلة يرفعن من معنويات الشباب للمنافسة في حلبة المجد والفخار، وينصرف الممدوحون وقد امتلأوا اعتزازاً ورضىً بالمكانة التي كسبوها عند الفتيات. أما أولئك الذين عرّضن بهم فإن التأثير الذي يُحدثنه فيهم لا يقلّ وقعاً عن التوبيخ الرسميّ والأنكى من هذا كلّه أن ذلك يتمّ بمسمع ومرأى من الملوك والشيوخ وكلّ سكان المدينة.

وليس في تعرّي الفتيات على هذه الشاكلة ما يُخجل أو يجلب العار. فالعفّة تحوطهنّ، وكلّ عوامل الشهوة والفجور لا محلّ لها. إن ذلك يعلّمهن البساطة والاهتمام بالصحّة ويكسبهن ذوقاً خاصّاً للمشاعر والأحاسيس السامية، لأنه يفسح لهن السبيل إلى ميدان الأعمال النبيلة والمجد. ولذلك كان من الطبيعيّ أن يفكرّن، ويتكلمن مثل گورگو Gorgo امرأة ليونيداس. فقد قيل إن سيدة أجنبيّة قالت لها على ما يظهر إن النساء اللقيديمونيات، هن الوحيدات في الدنيا اللاّتي يحكمن الرجال، فأجابتها: «ولسبب وجيه، لأننا النساء الوحيدات اللاتي يلدن رجالاً».

ان هذه المواكب والمسيرات النسائية العامة وظهور الإناث عاريات في أثناء رياضاتهن ورقصهنّ لهي من محرّضات الزواج، «لأنها تعمل في نفوس الشبّان بشدّة الحبّ وصدقه، إن لم يكن بدقة الرياضيات وصدقها» - كما يقول أفلاطون(*). ثم زاد على هذا بعدد من الإجراءات فجرّد أولئك الذين آثروا حياة العزوبة[٣٧] إلى درجة ما من حقوق المواطنة بحكم القانون، فقد استثنوا من مشاهدة المواكب العامة حيث الشبان والشابات يرقصون عُراة. وفي أيام الشتاء يرغمهم الضبّاط على السير وهم عراة حول ساحة السوق ينشدون نشيداً فيه هجاء وتحقير لأنفسهم يتضمّن ما معناه أنهم يستحقون هذه العقوبة لتمرّدهم على القوانين. زد على هذا أنهم محرومون من مظاهر التجلّة والاحترام التي يقابل بها الفتيان كبار قومهم وشيوخهم. فمثلاً لم يعب أحد ما قيل لدركيلليداس Dercyllidas وهو قائد شهيرٌ بارز، عندما دنا يوماً من شاب، فلم يقم هذا احتراماً له بل بقي جالساً وقال «لن يُفسح ولدٌ لك مكاناً لي».

وفي الزواج يحمل الزوج عروسه بما يشبه القوة والإكراه، لا لأن العرائس صغيرات السنّ ضعيفات الجسم، بل يكنّ عادة في شرخ شبابهن وتمام نضوجهنّ. وبعد ذلك تأتي المرأة المشرفة على مراسم الزفاف وتقص شعر العروس جَمْعاً حول رأسها وتلبسها ثياب الرجال وتتركها فوق مطرحٍ في الظلام. فيأتي العريس وهو مرتدٍ ثيابه الاعتيادية رزيناً هادئاً، بعد أن يكون قد تناول عشاءه على المائدة العامة، ويدخل غرفة العروس وحده ويحلّ رباط منطقة عذريتها ويفتضّها. وبعد أن يبقى فترة من الوقت معها يعود بهدوءٍ إلى مسكنه لينام كالعادة مع الشبان الآخرين. ويستمر على هذا المنوال: يقضي أيامه بل لياليه مع أصحابه، ويزور عروسه بين الفينة والفينة زورات الوجل الخجل مستعيناً بالكتمان، إذ ينبغي أن لا يشاهده أحدٌ. وعلى المرأة نفسها أن تستخدم ذكاءها وحيلتها لإيجاد فرصٍ حسنة للقائهما عندما تكون زمرة الشاب منشغلة عنهما. ويعيشان على هذه الشاكلة زمناً طويلاً وقد يرزق الأزواج بأولادٍ قبل أن يشاهدوا وجوه زوجاتهم في ضوء النهار. إن اجتماعاتهما النادرة العسيرة تفيد لا لتمرين

(*) في الجمهورية.

(٣٧) يُحدد الوقت للزواج. وإن لم يتزوج الرجل في سنّ البلوغ فإنه يتعرّض للعقاب كما يعاقب كل من يتزوج من كان عمره أزيد أو أقلّ. ومن كان أباً لثلاثة أولاد فإنه يتمتع بامتيازات كثيرة. ومن كان أباً لأربعة أُعفي من الضرائب. والعذارى الباكرات يتزوجن من غير بائنة لأن الحاجة لا تمنع الزواج ولا الغنى يحثّ عليه. ويضيف كليارخوس تلميذ أرسطو أن هناك عيداً في سپارطة يُسمح فيه النساء بجلد العزّاب حول المذبح ليرغموا بشعور من الخجل والألم على الزواج!

أنفسهما على ضبط الإرادة، وأخذ النفس بالحزم فقط، بل لتجمعهما معاً بجسدين قويين صحيحين وبعاطفة متجددة حيّة نشيطة لم يخمدها ويذبلها الإفراط في الشهوة والجماع المستمر. ويكون افتراقهما مبكراً على الدوام بحيث يترك في نفس كل منهما بقيّة نارٍ مشتعلة من الشوق واللذة المتبادلة. وبعد احاطة الزواج بمثل هذه الحشمة والتحفظ، اهتمّ بإزالة الغيرة النسويّة الفارغة اهتماماً مساوياً. فحرّم كل أنواع الفجور، ولكنه اعتبر مما يُشرّف الرجال أن يسمحوا لأولئك الذين يتوسّمون فيهم النجابة والخير بمضاجعة نسوانهم لأجل الإنجاب[٣٨]، مستخفين بأولئك الناس الذين يرون أن هذا النوع من المُلك مما لا تصحّ المشاركة فيه، محتقرين سفك الدماء وإثارة الحروب في سبيله. وسمح ليكورغوس للطاعنين في السن أن يختاروا شاباً معروفاً بحسن الخلق والسيرة لمضاجعة نسوانهم الصغيرات السنّ حتى يكون لهم أبناء من هذا الوصال، يرثون سجايا الوالد الطيبة. وإذا وقع رجلٌ مستقيم السيرة في حبّ امرأة متزوجة، بسبب حشمتها، وحسن تربيتها لأولادها، فله أن يطلب من زوجها وصالها بكلّ بساطة، حتى ينبت له من قطعة الأرض الطيبة هذه أولاداً صالحين. كان ليكورغوس يعتقد أن أولادهم ملك للدولة قبل أن يكونوا لأبويهم، ولذلك لم يكن يريد أن يولد المواطنون من نُطفة أول مواصلٍ للمرأة، بل باختيار أفضل الرجال. لقد بدت له قوانين البلاد الأخرى سخيفة عقيمة لا تلائم العصر، فالناس هناك شديدو الحرص على أنسال كلابهم وخيولهم يبدون اهتماماً كبيراً بها ويبذلون مالاً كثيراً ليحصلوا على نسلٍ محسّن منها، في حين يستأثرون وحدهم بزوجاتهم ويحبسونهن لأنفسهم فقط ويستولدونهن، وقد يكونون ضعفاء العقل مرضى، سقيمي الأجسام. كأنما لا يدرون أنهم أول من سيعاني مغبّة استيلاد أطفالٍ عليلين لأنهم سيضطرون إلى تربيتهم والعناية بهم. والأمر خلاف ذلك لو كان الأطفال حسني الصفات. هذه القواعد التي أقيمت على أُسُس طبيعية واجتماعية لا صلة لها قطّ بالحرية الفاجرة التي اتهمت نساؤهم بها فيما بعد، ذلك لأن الزنى كلمة لا معنى لها قطّ عندهم. وقد رُوي مثلاً عن جيراداس Geradas[٣٩] وهو من السپارطيين الأقدمين، أن أحد الأغراب سأله:

- ما هي العقوبة التي فرضتها قوانينهم على الزُّناة؟ فأجاب:
- لا يوجد في بلادنا زُناة.

---

(٣٨) يُستثنى الملوك من ذلك. إذ لا يُسمح لهم بإعارة نسائهم.

(٣٩) في كتابه «الأخلاق» يشبه: جيراداتوس».

فقال الغريب:
- ولكن هب أنهم وجدوا.
فأجاب:
- عند ذلك يجب على المدّعى عليه أن يقدّم على سبيل الغرامة ثوراً يبلغ عنقه من الطول ما يجعله قادراً على شرب الماء من نهر أڤروتاس تحته وهو واقف في رأس تايغتوس Taygetus[٤٠]. فتعجب الرجل من هذا وقال:
- محال أن يوجد ثور كهذا.
فأجاب جيراداس باسماً:
- ممكن بقدر ما هو ممكن العثور على زانٍ في سپارطة.
وفي هذا الكلام عن الزواج الكفاية.
ليس في مقدور الأب أو سلطته أن يربّي ابنه كما يشاء. وعليه أن يعرضه على خبراء مختصين في موضع يدعى ليسكه Lesche وهؤلاء هم شيوخ القبيلة التي ينتمي إليها الطفل ومهمتهم أن يفحصوا الطفل فحصاً دقيقاً فإن وجدوه قوياً حسن التركيب أصدروا قرارهم بتنشئته وبتربيته ويُمنح سهماً من سهام الأرض التسعة آلاف التي أسلفنا ذكرها: لأجل الإنفاق عليه منها. وإذا وجدوه سقيماً ضئيلاً سيّئ التركيب أمروا بأخذه إلى ما يُسمّى أپوثيتي Apothetae وهو يشبه غَوراً من الأرض يقع تحت تايگيتوس. فهم لا يرون من مصلحة الطفل ولا من مصلحة المجتمع أن يبقى في الحياة إن لم يظهر من فجر حياته ما يدلّ على أنه سيكون متين البنيان صحيح الجسم. ولهذا السبب نفسه لا تغسل النساء الوليد بالماء، كما جرت العادة في البلاد الأخرى، بل يغسلنه بالخمر ليعجمن عود الأجسام وقابليتها. إذ إنهن يعتقدن بأن الأطفال الذين يولدون بداء الصرع، أو بكيان سقيم، سيموتون بحمّام الخمر هذه، بخلاف ما لو كانوا أقوياء أصحّاء فإنها تقوّي وجودهم وتشدّ من عضلهم وتجعلها كالحديد المسقّى. وتستخدم المرضعات فنوناً وضروباً من العناية بهم، فلا يشدّونهم بالأقمطة والأربطة فتنشأ أجسامهم حُرّة ولا تنضغط أعضاؤهم وتشوّه، ولا يكونون متنطّعين في اختيار طعامهم. ولا يخشون الظلام أو يخافون البقاء وحدهم، بدون تهيّب أو قلق أو بكاء[٤١]. ولهذا

(٤٠) أعلى جبل في سپارطا. ومنه يمكن رؤية الپلوپونيس كلها.
(٤١) يجيز أرسطو البكاء للأطفال (السياسة ٧:١٧) بوصفه نوعاً من أنواع الرياضة فيه فائدة للصحة والنموّ!

تسابق البلاد إلى استقدام واستئجار المرضعات السپارطيات. وذُكر أن مرضع ألكبياديس Alcibiades سپارطية. واذا كان محظوظاً في مرضعته، فإنه لم يكن كذلك في معلّمه، إذ يخبرنا أفلاطون أن وصيّه پريكليس Pericles اختار لهذه الوظيفة خادماً اسمه زوپيروس Zopyrus لا يفضل أي عبد عاديّ في شيء.

كان رأي ليكورغوس مختلفاً، فلم يسمح أن يؤتى بالمعلمين لصبيانه السپارطين عن طريق شرائهم من السوق. ولا يعطي لهم أجراً على أتعابهم ولم يُجز شرعاً أن يقوم الآباء على تربية أولادهم كما يحلو لهم. ولكن ما إن يبلغوا السابعة من العمر حتى يُضمّوا إلى فصائل وصفوف مدرسيّة في ظلّ نظام وضبط واحدٍ يؤدّون تمارينهم ويلعبون معاً. ومن يبرز منهم في الجسارة ويظهر أحسن السلوك يُعيَّن رئيساً لهم: فيتابعونه بأنظارهم ويطيعون أوامره ويتحملون بصبر أي عقاب يفرضه عليهم. وهكذا تكون كل مناهج ثقافتهم وتربيتهم تمريناً مستمراً للطاعة التامة السريعة. ويكون كبار السنّ في موضع الرقباء على ما يعملون. وكثيراً ما يثيرون بين الصغار خصاماً وشجاراً حتى تسنح لهم بذلك فرصة لمراقبة طباعهم المختلفة، وليتبيّنوا الجَسور من الجبان عندما يبلغون مرحلة التعرّض للمخاطر الجسام. ولا يلقّنونهم من القراءة والكتابة إلاّ بقدر ما يحتاجون إليه في حياتهم المدرسيّة. والاهتمام الرئيس منصبّ على جعلهم مواطنين صالحين، وتعليمهم كيفية احتمال الألم، والنصر في المعركة، تمرّ بهم الأعوام وهم يزدادون ضبطاً وخضوعاً للنظام. وتراهم برؤوسهم الحليقة يسيرون حُفاة بدون نعال، ويلعبون أغلب لعبهم وهم عُراة.

وعندما يبلغون الثانية عشرة لا يُسمح لهم بارتداء ثياب داخلية ويكون كساؤهم الوحيد هو عباءة واحدة تكفيهم سنة كاملة. وأجسامهم جافة صلبة لا تعرف الحمّامات ولا الأدهان، فهذا الترف البشري لا يُسمح لهم به إلاّ في أيام قليلة معيّنة من السنة. ويسكنون معاً في زُمرٍ صغيرة، وينامون على فراش من نبات القش الذي ينمو على ضفاف نهر يوروتاس، وهم يكسرونه ويسوّونه بأيديهم بدون سكاكين، وإذا كان الزمن شتاء خلطوا به شيئاً من الحَسك إذ يعتقدون أن في هذا النبات صفة إشاعه الدفء.

وفي وقت بلوغهم هذه السن لا تجد أحداً من الصبيان المبرّزين فيهم إلاّ ولديه محبّ يصاحبه ويعاشره. ويهتّم الرجال الكبار بهم أيضاً وكثيراً ما يأتون إلى ميدان الألعاب ليسمعوهم ويشاهدوهم يتبارون بعضهم مع بعض إمّا بالحديث أو بقوة العضل. ويرقبون الأمر بجدّ واهتمام عظيمين كما لو كانوا آباءهم أو مدرّسيهم، أو محكّميهم. ويندر أن تجد ملعباً خالياً من شيخ واحد على الأقل في أي وقت أو

مكان، لينبّههم إلى واجبهم أو ليعاقبهم إن وجد إهمالاً فيهم.

والى جانب هذا، يعيّنون شخصاً من أكثر رجال المدينة صلاحاً واستقامة للإشراف عليهم وإدارة شؤونهم. فيقوم بتنظيمهم في عدة فصائل ويُعيّن رئيساً لكل فصيلة، يختاره منهم متميزاً بالجراءة وحسن الخلق ويسمّى إيرين Iren. ويكون عمر الإيرين عشرين عاماً، أي يزيد عن أعمار مرؤوسيه سنتين عادةً. أمّا أكبر الفتيان عمراً فهم ملّ - إيرين Mell - Iren أو كما لو قلت «شرفٌ للرجولة». إذن يكون هذا الشاب رئيسهم عندما يقاتلون، سيداً لهم في زمن السلم يستخدمهم في شؤون بيته، ويبعث بأكبرهم سناً للاحتطاب. ويرسل أضعفهم وأقلهم قابلية لجمع الأعشاب والخضروات. فإمّا عادوا خالي الوفاض، وإمّا عمدوا إلى سرقتها، ويتمّ ذلك بأن يدخلوا البساتين زحفاً، أو يتسللوا بخفة وسعة حيلة إلى غرف الطعام. فإذا قُبض عليهم متلبّسين جُلدوا بلا رحمة لقيامهم بالسرقة على هذا النحو الفاشل الخالي من المهارة. ويسرقون أيضاً ما تقع عليه أيديهم من اللحم وهم متربّصون متحيّنون كل فرصة عندما ينام الناس أو يغفلون على غير عادتهم. فإن قُبض عليهم لا يُكتفى بجلدهم بل يتمّ تجويعهم، بإبقائهم على حصّتهم الاعتيادية من الطعام وهي لا تسدّ رمقاً. ويكون ذلك التجويع عن قصدٍ لتضطرهم الحاجة إلى وضع نشاطهم وحيويتهم موضع التطبيق(٤٢). وهذا هو الغرض الأساس المتوخّى من إعطائهم وجبات غير كافية ينضاف اليها غرض آخر لا يقلّ أهميّة وهو أن تطول قاماتهم. لأن حيوية الروّح ترتفع بخفة الجسم الطبيعية، في حين أنها تنوء تحت ثقل الكميات الفائقة الحد من الغذاء الذي لا يجد له منصرفاً إلاّ في البدانة والسمنة. والجسم يزداد طولاً وينمو ويترعرع إذا كان لدِناً. والجسم الجاف العود اللّدن هو خيرها تعرّضاً لعناصر الطبيعة، أما الأجسام الضخمة المفرطة في التغذية فتكون ثقيلة وأقلّ صلاحاً للتعرّض للطبيعة. وخير مثالٍ نجده في النساء الحوامل اللاتي يتعاطين الحِمْية في غضون أشهر الحمل، فهن يضعن أطفالاً أرقّ جسماً وأصغر حجماً، ولكنهم يكونون أجمل وجهاً وأبدع تكويناً، لأن المادة التي صيغوا منها ألين وأسهل تكويناً. أما السبب في كل هذا فأترك تقديره لغيري.

ولنعد الآن إلى موضوعنا الذي بترناه. يهتمّ أطفال اللقيديميين بشؤون السرقة اهتماماً جدّياً، حتى أن شاباً سرق ثعلباً وأخفاه تحت عباءته فراح هذا الحيوان يمزق

(٤٢) من هذا يتضح أن القصد ليس تشجيعهم على السرقة أو تعويدهم عليها بخفة ومهارة. بل القصد الحقيقي هو تعويدهم السرعة والحذر في أوقات الحرب والأزمات.

أحشاءه تمزيقاً والشاب صابر على ما تعمل فيه مخالبه وأسنانه ومات لساعته ولم يكشف المسروق. وما يجري تطبيقه اليوم في لقيديمون يكفي للبرهان على صدق هذه الحكاية. فقد شاهدت أنا نفسي عدداً من الفتيان يُجلدون حتى الموت تحت درجات مذبح ديانا الملقّبة أورتيا(٤٣).

و«الإيرين»، أو مساعد الرئيس، يمكث وقتاً قليلاً مع الشبان بعد العشاء ويطلب من أحدهم أن يغنّي أغنية، ومن آخر أن يطرح سؤالاً يقتضي جواباً دقيقاً وإعمال فكرٍ. مثلاً: من هو خير الرجال في المدينة؟ ما هو رأيه في العمل الفلاني الذي قام به الشخص الفلاني؟ وهكذا يدرّبونهم في هذه السن المبكرة ليصدروا أحكاماً صائبة على الأشخاص والأعمال وليكونوا على علم ومعرفةٍ بقابليات ومواطن ضعف أبناء قومهم. ومن لايملك جواباً آنيّاً عن سؤال من هو المواطن الصالح ومن هو المواطن الطالح، يُنظر إليه وكأنه مخلوق غبيّ قليل الاهتمام لا يملك شعوراً بالشرف والفضيلة، أو قلّ ما يملك منه. وفضلاً عن هذا يجب أن يعلّلوا أجوبتهم بالأسباب الوجيهة المعقولة وبعبارات مقتضبة خالية من الإطناب، كثيرة المعنى. ومن يفشل في هذا، أو لا يكون جوابه موفياً بالغرض، يعضُّ الرئيس إبهام يده! وينفّذ الإيرين هذه العقوبة أحياناً في محضر من الشيوخ والمحكّمين حتى يتبيّنوا هل يعدل في تنفيذ العقوبة حسبما يستحق صاحبها. فإذا أخطأ في ذلك لا يعنّفونه أمام الفتيان ولكنه يُستدعى بعد انصرافهم ليقدّم حساباً على خطأه وليودّب أقاسياً كان في تطبيق العقوبة أم رحيماً.

ولعشاقهم، ولمصطفيهم، سهم أيضاً في تكريم الفتيان أو تعزيرهم. وهناك قصة تروى أن حكماً غرّم أحدهم لأن الفتى الذي يحبه بكى كالأنثى أثناء ما كان يقاتل. وهذا النوع من الحبّ لا غبار عليه فيما بينهم بحيث إن معظم الأمهات الفاضلات لا يتحرّجن في الكلام عنه أمام الفتيات الصغيرات، والمنافسة فيه لا وجود لها. وإذا اصطدمت رغبات عدة رجالٍ في شخصٍ واحدٍ يتفق الجميع معاً على ارضاء رغباتهم بخير ما يمكن الاتفاق عليه.

ويعلّمونهم أيضاً أن يتحدّثوا بأسلوب طبيعيّ طليّ ساخرٍ. وأن يضمنوا أكثر المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ. فليكورغوس الذي توخّى، كما رأينا، أن يفرض

---

(٤٣) لعل المقصود هنا دياناتوريكا التي جلب أورستوس تمثالها إلى لقيديمون على ماقيل، وكان البشر قرابينها. يزعمون أن ليكورغوس أبطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

أزهد قيمة لأكبر قطعة من النقود، عكس الآية في الكلام ولم يسمح إلاّ بالأحاديث التي تصاغ بأقصر العبارات وأقلّ الألفاظ وتحوي أكثر ما يمكن من المعاني وألطفها. ولاعتياد أطفال سپارطة الصمت الطويل والزهد في الكلام نمت فيهم قابلية إعطاء أجوبة محكمة بليغة. وكالأفّاقين المتشرّدين الذين لا يعيشون حياةً مستقرة نادراً ما كانوا كثيري الأولاد. كذلك الثرثارون، كثيرو الكلام، فنادراً ما تخرج من أفواههم كلمات رصينة بليغة. عندما سخر أثينيّ بسيوف السپارطيين القصار قائلاً إنّ الحُواة على المسرح يبتلعونها بكل سهولة أجابه الملك أغيس بقوله: «نحن نراها من الطول بحيث تكفي للوصول إلى قلوب أعدائنا». ويبدو لي أن شيئاً ما في أسلوب كلامهم الموجز يبلغ حالاً الهدف المقصود، ويخلف تأثيره العميق في عقل السامع معاً.

ويظهر أن ليكورغوس نفسه كان يليغ العبارة سريع البديهة، إنْ صدّقنا ما روي عنه. هذا ما يدلّ عليه جوابه لذلك الذي كان متحمّساً لإقامة نظام ديمقراطيّ في لقيديمون قال له: «إبدأ أيّها الصديق فأقمها في أسرتك». وسأله آخر لماذا يسمح بتقريب هذه القرابين الزهيدة التافهة للآلهة، فأجابه: «حتى يكون بالإمكان أن نقدّم شيئاً لها بصورة مستديمة». وسُئل أي شكل من التمارين العسكرية أو المعارك يُفضّل، فأجاب: «كل الأشكال، إلاّ تلك التمارين التي تقتضي منك مدّ يديك إلى الأعلى[٤٤]». وعُزيت إليه أجوبة أخرى وجّهها إلى بني قومه خطيّاً. فقد سئل عن أفضل وسيلة لمقاومة غزو العدو، فأجاب: «بالاستمرار في بقائكم فقراء، وبأن لا يطمع الرجل في أن يكون أعظم شأناً من زميله». كذلك استُشير في هل كان ضرورياً إحاطة المدينة بسور؟ فبعث بالجواب التالي: «المدينة الجديدة التحصين هي التي تملك سوراً من الرجال لا من الآجرّ». ولكن يصعب القول بأن هذه الرسائل حقيقية وليست منحولة.

وأمّا عن كرههم الثرثرة فإن أجوبتهم اللاذعة شاهدٌ: انفرد شخص بالملك ليونيداس يحدّثه في مسألة مفيدة، ولكن ليس في الزمان والمكان المناسبين. فقال الملك: «ما أكثر الفائدة يا سيّدي، ولكن في غير هذا المكان». وسئل الملك خاريلاوس ابن أخ ليكورغوس لماذا استنّ عمّه هذا المقدار الصغير من القوانين، فأجاب: «قليلو الكلام لايقتضي لهم غير قوانين قليلة». ومرّة دُعي المدعو هيكاتيوس Hecatarus السوفسطائي إلى واحدة من تلك الموائد العامة، فلم ينطق بحرفٍ واحد

(٤٤) هذا هو الشكل الذي يطلب فيه التسليم أثناء المعركة.

طوال العشاء، ولهذا أجاب أرخيداميداس Archidamidas يبرّر مسلكه ويزكّيه: «ذلك الذي يعرف كيف يتكلم، يعرف أيضاً متى يتكلم».

أما الأجوبة المسكّنة اللاذعة والحادة التيّ نوهتُ بها فدونك طائفة منها: وجّه أحد الرجال الكثيري اللجاجة إلى ذاماراتوس سؤالاً بأسلوب استفزازي مزعج: «من هو خير رجال لقيديمونيا فردّ عليه أخيراً: «أقلّهم شبهاً بك». وراح بعض الناس الذين كانوا بصحبة أغيس يثنون على الإيليائين Eleans لإشرافهم الدقيق وتنظيمهم العادل الشريف للألعاب الاولمپيّة. فأجاب أغيس: «بلا شكّ، ينبغي أن يُمدحوا كثيراً لأنهّم تمكنوا من أن يعدلوا يوماً واحداً في غضون خمس سنوات[٤٥]». وأجاب ثيوميوپوس أجنبياً تمادى في إظهار حبّه للقيديمونيين قائلاً إنه بني قومه لقّبوه «فيلولاقون» (أي محب اللاقونيين):

- كان يشرّفك كثيراً لو لقبوك «فيلوپوليتس» (أي محّب بني قومه).

ولما قال أحد الخطباء الأثينيين أن اللقيديمونيين لا ثقافة لديهم، أجابه پلستواناكس Plistoanax ابن پاوسانياس Pausanias: «أصبت يا سيديّ فنحن من دون سائر الإغريق لم نثقف بأي شيء من سوء طباعكم». وسأل أحدهم أرخيداميداس: «كم يعدّ السپارطيون يا تُرى؟» فأجابه: «ما يكفي لردّ غائلة الأشرار يا سيّدي».

ونتبيّن أيضاً طباعهم من نكاتهم ومُزاحهم، لأنهم لا يرسلونه جُزافاً واعتباطاً، بل إن عنصر الفكاهة فيه يستبطن ويستند إلى شيء يدعو إلى التفكير والتأمّل. فمثلاً سئل شخص لماذا لا يذهب ويشاهد رجلاً يقلّد صوت العندليب تقليداً متقناً، فأجاب: «سيدي! إني سمعت العندليب نفسه»[٤٦]. وآخر قرأ الكتابة التالية على أحد القبور:

راموا أن يطفئوا نار الطغيان القاسي

في سيلنيوس فخرّوا ضحايا إله الحرب مارس

فقال معقباً: «يستأهلون الموت، إذ بدلاً من محاولتهم إطفاء الطغيان كان الأجدر بهم أن يتركوه يحترق». وعُرض على صبيّ ديك قتالٍ لا ينكفئ حتى يموت في مكانه، فقال: وما شأني بالديكة التي تموت. أريد ديكاً يعيش ويقتل الآخرين!». وآخر شاهد

---

(٤٥) إن موزعي الجوائز «هيلانوديك» على الفائزين في الألعاب الأولمبية يجهدون أنفسهم إلى أقصى حَدّ خلال الأشهر العشرة السابقة على الألعاب (پارسنياس ٦: ٢٤) ليكونوا أهلاً للوظيفة، بدراستهم الدقيقة لكلّ البيانات واللوائح المتعلقة بالمراسم ليكونوا أهلاً للقيام بمهمتهم خير قيام.

(٤٦) هذه الحكاية عزاها پلوتارخ إلى أغيسيلاوس في سيرة حياته. فلتراجع.

فريقاً من الناس يريحون أنفسهم على مقاعد فقال: «معاذ الله أن أجلس في مكان لا أستطيع القيام منه لتحيّة كبار قومي». ومختصر القول أن أجوبتهم بلغت حدّاً كبيراً من البلاغة والنكتة الحادة. وصَدَق من قال إن الاتجاه الذهني في الطبع السپارطي أكثر ظهوراً منه في التمرين الرياضي، والحق يقال.

ولا تقلّ عنايتهم بالثقافة الموسيقية والشعر عن اهتمامهم بالكلام وطهارته وإتقانهم فن الحديث. وتمتاز أغانيهم بالحيويّة والنشاط بحيث تثير نار الحماسة والثورة في نفوس رجال وتشيع روح الإقدام فيهم. وأوازنها بسيطة خالية من الصنعة الفنية. ومواضيعها أخلاقية جدّية دائماً وأغلبها عادة يدور حول تمجيد الرجال الذين قُتلوا دفاعاً عن بلادهم، أو هجاء أولئك الذين أظهروا جُبناً، ترفع أولهم إلى أعلى درجات التمجيد والسعادة في حين تصف ثانيهم بالضّعة والحقارة. وثمّ أيضاً أناشيد افتخار بما سيقدّر لهم من أعمال، وتعظيم لما فعلوه. وتختلف الأناشيد باختلاف السِنّ فمثلاً كان لديهم ثلاثة أجواق في حفلاتهم الدينية، الأول يتألف من كبار السنّ والثاني من الشبان والثالث من الأحداث، فيبدأ الجوق الأول بالمصراع التالي:

«كنا ذات يوم صغاراً، شجعاناً، أقوياء».

فيردّ عليهم جوق الشباب منشداً:

«ونحن الآن كذلك، فتعالوا وجرّبوا»

ويأتي جوق الأحداث بالأخير فيقول:

«لكننا سنكون أقوى من كليكما عمّا قريب»[٤٧].

وإذا نحن تعنّينا التأمّل في أصولها وتأليفها، وبعضها ما زال شائعاً حتى يومنا هذا، وفكّرنا في الألحان التي تنفخ في الناي (وعلى إيقاعها يتقدّمون إلى ميدان القتال) فسنجد أن لدى تيرپاندر Terpander[٤٨] وپندار سبباً وجيهاً للقول بأن الأناشيد الدينية والحماسية صنوان وحليفان. ويقول أولهما عن بلاد لقيديمونيا:

«الرمح وأغاني الميوزات الرائعة فيها يلتقيان.

والعدل الصارم يسير متجوّلاً في شارعها».

---

(٤٧) هذه الردّة من الأبيات إنما هي جزءٌ من نشيد ربما كان ناظمه ترتيوس.

(٤٨) شاعر وموسيقي (كل شعراء ذلك الزمن كانوا موسيقيين تقريباً). عُزي إليه إضافة ثلاثة أوتار إلى المعزف Harp وكان ذا أربعة. عاش بعد عصر هوميروس بمائة وعشرين سنة في لسبوس. ثم استدعي إلى سپارطا بحكم نبوءة لتهدئة فتنةٍ. قيل إنه نظم شرائع ليكورغوس شعراً.

ويقول پندار:

«هنا تجد مجالس الشيوخ الحكماء
ورماح الشبّان التي عُقدت عليها ألوية النصر
وتشاهد الرقص والغناء والطرب».

وكلاهما يصفان السپارطيين بأن تعلّقهم بالموسيقي لا يقلّ عن تعلّقهم بالحرب، بكلمات واحد من شعرائهم:

مع الحديد الصلب المرهف
يأتي العزف على القيثار!

فقبل أن يشتبك السپارطيون في القتال، يقوم الملك أولاً بالتقريب إلى الميوزات Muses(*)، تذكرة لهم بما نشأوا عليه ودُرّبوا، وتنويهاً بالحكم الذي سيصدر على ما يقومون به من عمل، ولدفعهم إلى البطولات وإنجاز جلائل الأعمال التي تستحق التدوين.

في تلك المناسبات يخفف اللقيديميون قليلاً من صرامة عاداتهم وأنظمتهم، ويسمحون للشباب بأن يطيلوا شعر رؤوسهم ويشذّبوه. وأن يقتنوا الأسلحة الثمينة والثياب الفاخرة. وكان السرور والغبطة يتملّكان السپارطيين وهم يشاهدون شبّانهم يخطرون مندفعين إلى الحلبة كالجياد العِتاق تصهل وتُحمحم. فما إن يبلغ الفتى أشُدّه ويصلب عوده حتى ينصرف إلى العناية الشديدة بشعر رأسه فيهذبه ويشذّبه ويفرقه ويصفّفه، ولا سيما يوم المعركة تطبيقاً لوصيّة واضع قوانينهم المدوّنة «إن لِمّة كثيفة من الشعر فوق الرأس تزيد في الوجه الجميل جمالاً. وتضفي على الوجه المنفّر رهبة وتشيع في النفس رعباً».

وعند وصولهم ميدان القتال تخفّ تمارينهم الرياضيّة كثيراً ويطرأ تحسّن على أرزاقهم، وترتخي قبضة الضباط الصارمة عنهم. ولذلك كانوا الشعب الوحيد الذي يجد راحته في الحرب. ولما ينتظر صفوف جيشهم للقتال أمام العدو القريب يُضحّي

(*) الميوزات [مفردها ميوز Muse]. ربّات تِسْع هنّ بنات جوپتر (زفس) وزوجه منيموسين Mnemosyne. ويعتبرن في الميثولوجيا اليونانية موحيات بالفنون التسعة المعروفة: كاليوپ Calliope لشعر الملاحم، وكليو Clio للتاريخ وإيراتو Erato للشعر الغنائي، وإيترُبه Euterpe لشعر الغزل وملپومين Melpomen للتراجيديا، وپوليهمينا Polyhymnia للأغاني الدينية، وترپسيخوري Terpsichore للرقص، وثاليا Thalia للكوميديا وأورانيا Urania للتاريخ.

الملك بمعزاة[٤٩]. ويأمر الجنود أن يحيطوا رؤوسهم بقلائدهم، ويشير على النافخين بالسرناي أن ينفخوا نشيد[٥٠] كاستور العسكري ويبدأ هو نفسه بإنشاء پايان Paean[*] التقدم إلى الأمام. ويلوح للنظر فجأة منظر مهيب رهيب، كتلة متراصّة تزحف إلى الأمام على أنغام السّرنايات، لا يختلّ لها نظام، ولا يعتَوِر أذهان أعضائها تردّد أو تهيُّب، ولا يطرأ أيّ تغيّر على ملامح وجوههم وهم يتقدمون بنفوس هادئة مطمئنة منشرحة إلى القتال الدمويّ على أنغام الموسيقي. رجال في مثل هذا التكوين قليلاً ما عرفوا معنى الخوف أو التهيّب من الشدّة، وإنما يملأوهم الإقدام والبأس الذي يدفعه الأمل والثقة. كأنّ ربّاً من الأرباب يرعاهم ويقود خطاهم. ويلازم جانب الملك دائماً شخص تُوّج بالغار في الألعاب الأولمپية. وعلى هذا الأساس قيل إن لاقونيّاً رفض هدية كبيرة جداً شريطة أن يخرج من قائمة اللاعبين المتسابقين وعندما تمكن من خصمه في السباق وغلبه بكلّ سهولة صاح به المتفرجون «والآن ما الفائدة التي جنيتها من انتصارك أيها السيد اللقيديموني؟» فأجابهم باسماً «سأقاتل مع الملك جنباً لجنبٍ».

وبعد أن يُلحقوا الهزيمة بالعدوّ يطاردونه حتى يثبت لهم النصر تماماً، ثم يصدر أمر التقهقر. لأنهم يرون من الضعة والحقارة لشعب إغريقي أن يفتك ويذبح رجالاً استسلموا وانتهت كل مقاومتهم. وهذا الأسلوب في معاملة أعدائهم يُفصح عن كرم نفسٍ عالٍ فضلاً عن كونه سياسة حكيمة، فعندما يعلم العدو أنهم لا يَقتِلون إلاّ من يبدي مقاومة، ويؤمّنون الباقين على أرواحهم، يجد عادةً في الفرار خير طريق للنجاة.

ويزعم هيپيوس Hippius السوفسطائي أن ليكورغوس نفسه كان جندياً عظيماً وقائداً مُحنّكاً. ويعزو إليه فيلوسطيفانوس Philostephanues أول تقسيم للخيّالة إلى كوكبات تتألف من خمسين وتسير على شكل مربّعات. إلاّ أن ديمتريوس الفاليرياني يخالفه تماماً بقوله إن كل القوانين التي وضعها كانت لأغراض السلم. والحق يقال إن الهدنة الأولمپية المقدسّة أو إيقاف القتال التي وجدت بمساعيه ومجهوداته تميل بي إلى الاعتقاد بأنه رجل عطوفٌ رقيق القلب، يحّب السلام والاستقرار. بصرف النظر عن كلّ

---

(٤٩) يقول كزينفون إن الملك الذي يقود الجيش كان عليه أن يضحّي لكلّ من جوبتر ومينرفا عند حدود مملكته. وربما ضُمت الميوزات إلى مينرڤا بوصفها حاميةً للعلوم والفنون.

(٥٠) كذا كان يدعى. وربما نظمه البطل نفسه أو لعله يتضمن تفاصيل عن مآثره.

(*) بالإغريقية Paian وهو نشيد لأپوللو الپاپاني، وقد يكون موجهّا إلى الربّة أرطميس. أخذه الرومان عن الإغريق وأصبح مرادفاً لأي نشيد أو شكرٍ على نجاة.

ما يرويه لنا هرميبوس Hermippus عنه بخصوص الهدنة، وزعمه أنه لا فضل له فيها، وأن إيفيتوس وحده هو الذي أوجدها، وأن ليكورغوس كان أحد الحاضرين عند عقدها وبمحض الصدفة ليس إلاّ. فقد كان هناك وسمع صوت رجل من خلفه يلومه ويعجب منه لأنه لم يشجع بني قومه على المشاركة في الاجتماع، فالتفت ولم ير أحداً، فاستنتج أنه صوت السماء. ولذلك أسرع حالاً إلى إينيتوس وباشر في مساعدته على إقامة احتفالات ذلك العيد الذي كان بمساعيه ومجهوداته أثبتَ بناءً وأعظم شهرة من السابق.

ولنعد إلى اللقيديمونيين. فقد بقي النظام سارياً عليهم حتى بعد بلوغهم مبلغ الرجال لا يسمح لايّ منهم أن يعيش على هواه، وكانت المدينة أشبه شيء بمعسكرٍ فيه لكل شخص سهمه من الرزق وأسباب المعيشة، والعمل مجدّد ومقنّن. والمواطن لا ينظر إلى نفسه كفرد ولِد ليعيش لذاته وفائدته الخاصّة بقدر ما يعيش لبلاده ولأجلها. لذلك إن لم يؤمروا بعمل شيء ما تراهم يذهبون لرؤية الصبيان وهم يقومون بتمارينهم كي يعلّموهم شيئاً مفيداً أو ليتعلّموا ممن هم أخبر به منهم. والحق يقال إن من أعظم وأرفع النعم التي حباهم بها ليكورغوس كثرة ساعات الفراغ التي نجمت عن منعه ممارسة أيّ حِرفة أو تجارة رخيصة وضيعة. فأما عن مهنة جمع المال وهي تعتمد على كثرة الحركة المتعبة والمزعجة ومقابلة الناس وعقد الصفقات فلم يكونوا بحاجة إليها في دولةٍ لا يلقى الغنيّ فيها أيّ احترام أو تجِلّة. وكان قوم الهيلوت يستنبتون الأرض لهم ويدفعون لهم سنوياً الكمّية المتفق عليها عيناً، دون أي متاعب. وفي هذا الصدد تروى حكاية عن لقيديموني اتفق وجوده في أثينا أثناء انعقاد المحكمة وأخبروه عن حكم أحد المواطنين بأداء غرامة لأنه كان يعيش عاطلاً لا يعمل شيئاً وأن أصدقاءه رافقوه إلى منزله للتسرية عنه وهو في أشدّ حالات الألم والتعاسة. فأدرك اللقيديموني العجب من هذا ورغب من صديقه أن يريه ذلك الشخص الذين أُدين لكونه يعيش عيشة المواطن الحُرّ. كانوا يعدوّن الاحترام التافه للوقت، والاهتمام بالفنون اليدوية، وجمع النقود، أعمالاً أَقلّ قدراً منهم بكثير. ولسنا بحاجة للقول إن خطر التعامل بالذهب والفضّة أدّى إلى زوال الدعاوى القضائية حالاً، إذ لم يعد يوجد في مجتمعهم فقرٌ ولا حرص، بل ساد العدل؛ وراح كل فرد ينال ما هو في حاجة إليه، وعلى وجه الاستقلال لأن تلك الحاجات محدودة قليلة. وكانوا ينفقون كلّ أوقاتهم - ما عدا ساعات تمارين الميدان والحرب - في أجواق الرقص، والمواكب والصيد والقنص، أو مشاهدة التمارين الرياضية في ساحات اللعب. وأولئك الذين تقلّ أسنانهم عن

الثلاثين[٥١] لا يذهبون إلى السوق أبداً وإنما يقضي حاجتهم من المؤن والأرزاق أقرباؤهم وأصدقاؤهم. وليس مما يشرّف كبار السنّ أن يُروا متسكعين هناك باستمرار بدلاً من قضاء القسم الأكبر من النهار في ساحة التمارين التي يطلق عليها اسم لسخاي Leschai. إذ لو أنهم اجتمعوا هنا لقضوا وقتاً مستمراً، واحدهم مع الآخر، لا بخصوص كسب المال، أو السؤال عن أسعار السوق بل في الحكم على عملٍ من الأعمال يستأهل تبادل الرأي فيه على الأغلب، مُكبرين في الأخيار مآثرهم، عائبين على الأشرار مثالبهم بأسلوب يمتاز بالفكاهة، ويخلو من القسوة. وتتخلّل أحاديثهم التي لا تحمل الكثير من الطابع الجدّي دروساً في النصيحة، والإرشاد إلى طريق التقدم. ولم يكن ليكورغوس بذلك الرجل المتشدّد الصارم الفائق عن الحَدّ، فهو الذي أقام تمثال «الضحك» الصغير على ما يذكر سوسيبيوس Sosibius الذي يقول أيضاً إن المرح المقبول يشيع بينهم في أوقات العشاء، وفي محلات الولائم العامة، فيكون بمثابة حلوى ومقبّلات يلطف من حياتهم الخشنة الصارمة. وبالإجمال نرى أن ليكورغوس صاغ السپارطيين بشكلٍ ما عادوا يستطيعون أو يقبلون العيش كل لنفسه على وجه الانفراد. لقد انقلبوا فهم كيانٌ واحدٌ موقوف على النفع العام، تراهم يتجمّعون حول قائدهم مثل دَبْر النحل. وقد انسلخوا انسلاخاً تاماً عن «أنيّتهم» بدافع الحماسة وروح الجماعة التي سادتهم، فتفانوا في خدمة بلادهم وتسابقوا إليها. وأقوالهم هي خير ما تظهر به أحاسيسهم ومشاعرهم في هذا المآل.

لم يُقبل دخول پيدايراتوس Paederatus في قائمة الثلاثمائة فعاد إلى بلده ضاحك السَنّ مسروراً لأن في سپارطة ثلاثمائة من الرجال كلهم خير منه[٥٢]. وكان پوليقراتيداس Polycratidas من ضمن وفدٍ أُرسل في سِفارة لنوّاب ملك الفرس. فسألوه هل كان قدومهم بصفتهم الشخصيّة أم بصفة رسمية عامة؟ فأجاب: «بصفة عامة إن نجحت سِفارتنا، وبصفة شخصية إن فشلنا. وسألت أرغيليونيس Argileonis بعض القادمين من أمفيپوليس Amphipolis هل مات ابنها براسيداس Brasidas[٥٣] ميتة

---

(٥١) يقولون إنه سِنّ البدء بالخدمة العسكرية. لكن لما كان القانون يقضي ببقائهم في الخدمة حتى سن الأربعين فالمعقول هو أن سنّ الخدمة العسكرية لم يكن ثابتاً.

(٥٢) يقول كزينفون إن الإيفوري اعتادوا تعيين ثلاثة ضباط. وكل ضابط ينتقي مائة من أفضل ما يجده والشخص المنتقى يعتبر اختياره شرفاً عظيماً.

(٥٣) انتصر هذا الجنرال اللقيديمي على الأثينيين في معركة بالقرب من أمفيپولس المقدونية الواقعة على ضفاف نهر ستريمون. لكنه خرّ صريعاً في المعركة (ثوكديدس ٥: ١٠).

الشجاع كما هو جدير بالسپارطي؟ ولما بدأوا يثنون عليه أعظم الثناء قائلين: «لم يبق له نظير في سپارطا» ردّت عليهم قائلة: «دعكم من هذا القول، كان براسيداس رجلاً شجاعاً طيباً، ولكن هناك الكثير ممن يفوقه في سپارطا».

قلت سابقاً إن مجلس الشيوخ تألّف من أعوان ليكورغوس ومساعديه الأصيلين في خططه وإصلاحاته. أما الشواغر فقد أمر أن تُملأ بخير الرجال وأكثرهم استحقاقاً ممن جاوز الستين من عمره وليس ثمّ مدعاة للعجب أن كانت العضوية فيه مصدر تنافس عظيم. فأي تنافس بين الرجال أسمى من التنافس لا على من هو أسرع عدواً من أسرع العدائين، أو أقوى جسماً من الأقوياء، بل على من هو أوفر حكمة بين كثير من الحكماء ومن هو الأصلح من الصلحاء، والأنسب ليعهد إليه بالسلطة العليا في الجمهورية وبالسلطان على حياة وحقوق ومصالح بني قومه العليا كمكافأة على سجاياه وقابلياته؟ أمّا الطريقة التي يجرى بها انتخابهم فهي كما يلي: يُدعى الشعب لاجتماع عام، ويُختار منهم عدد، ويؤخذون إلى غرفةٍ قريبة من مكان الانتخاب ويغلق عليهم بابها فلا يرون أحداً ولا يراهم أحدٌ[٥٤]، ولكن يسمعون أصوات الاجتماع في الخارج لأنهم يقررون الأمر من هتافات الجمهور، كما يقررون معظم شؤون الساعة الخطيرة. وبعد أن يتمّ ذلك لا يؤتى بالمرشحين المتنافسين ويقدّمون للجمهور معاً بل يتقدم واحدٌ بعد آخر بموجب قُرعةٍ، فيشخص المرشح أمام الجمهور بدون أن ينطق بحرفٍ. ويزوّد الأشخاص في الغرفة بمناضد للكتابة، ليدوّنوا كل هتاف، ويقدّروا قوته ويسجّلوها دون أن يدروا لمصلحة من كان ذلك الهتاف. بل مجرد كتابتهم أنه الهتاف الفلاني بالشدة وبمقدار كذا هو للأول أو للثاني أو الثالث وهكذا. فمن يكون قد حاز أكثر وأعلى الهتافات والتشجيع ينصّب شيخاً في الحال. وعندئذ يوضع أكليل غار على رأسه. ويسير في موكب حافل ليزور كل المعابد ويقدّم شكره للأرباب. يتبعه عدد عظيم من الفتيان وهم يهتفون له، والنساء وهن ينشدن الشعر تكريماً وتعظيماً لفضائله، متمنيات السعادة له في الحياة. وبسيره على هذا الشكل خلال المدينة يبسط كل صديق أو قريب له مائدة طعام ويقول: «المدينة تكرمك بهذه المأدبة». أما هو فبدلاً من قبولها ينصرف

---

(٥٤) كانت هذه الطريقة مشوّشة غير مؤكدة للتوصل إلى من فاز بأغلبية الأصوات فكثيراً ما كانوا يضطرون إلى فصل الناس وعدّ الأصوات. والدليل على هذه الصعوبة ما حصل في إحدى المناسبات للأنيورس المدعو سثينلايداس [توكيديدس ١ :٨٧]. يظن أرسطو أن على الناس عدم ترشيح أنفسهم في مثل هذه الأحوال ولا أن يطلبوا المنصب أو العمل بل يجب أن يُطلب منهم بدعوةٍ، بسبب كفاءاتهم أو أهليتهم (السياسة ٢ :٧).

عنها إلى المائدة العامة التي اعتاد أن يتناول عليها طعامه سابقاً، وتُعطى له وجبته بإضافة شيء اليها فيتسلّمها ويضعها أمامه. وبعد ختام العشاء تتجمع قريباته النسوة عند الباب، فيختار من بينهن أعظمهن مكانة عنده، ويقدّم لها الوجبة الإضافية التي نحّاها. وهو يقول إنها كانت دليل تكريم له، وهي الآن دليل تكريمٍ لها. وبهذا تنال منزلة كبيرة في البيت ويقوم سائر النسوة على خدمتها.

وبصدد دفن الموتى استحدث ليكورغوس نظاماً ينطوي على حكمة كبيرة، فلأجل القضاء أولاً على جميع الخرافات سمح لهم أن يدفنوا موتاهم داخل المدينة بل سمح أن تُقام أنصابهم حتى حول المعابد. وقصدُه من هذا أن يتعودّ الفتيان هذه المناظر، وأن لا يخافوا رؤية الجثة(٥٥)، أو يتصوروا أن لمس جثة أو وطء قبرٍ يصيبهم بالنجاسة. وأمر ثانياً أن لا يُدفن شيء مع الجثث إلاّ بعض أوراق من الزيتون إن شاءوا مع الكفن الأحمر الذي يلفّون الجثة به(٥٦). ولم يسمح بنقش أسماء الموتى على الأضرحة إلاّ لأولئك الذين سقطوا في الحرب صرعى، أو للنسوة اللاتي يقمن بالواجبات الدينية. وحدّد وقتاً جدّ قصيرٍ للحِداد، لا يزيد عن أحد عشر يوماً، وفي اليوم الثاني عشر يقرّبون للرب كيريس Ceres وينتهي كل شيء. وهكذا نرى أنه في الوقت الذي وضع حدّاً لكلّ التوافه من الأمور بدت الأمور الهامة الضرورية وليس فيها صغير أو زهيد إلاّ ويعبّر عن إكبار للفضيلة، وشجبٍ للرذيلة. لقد ملأ بلاد لقيديمونيا كلها بدلائل وأمثلة عن أحسن السلوك، تلازمه فكرة واحدة وهي أن أفراد الشعب منذ عهد الشباب فصاعداً لايمكن أن يقفوا حيث هم في مجال الفضيلة والصلاح وإنما يتقدمون بالتدرّج المطّرد.

ولهذا السبب منعهم من السفر إلى الخارج، والانتقال في البلاد الأخرى للتعرف بأجهزة الحكم الأجنبيّة، والأخلاق السائدة فيها، واكتساب عادات الناس السيّئي التهذيب، وذوي الآراء المختلفة في أسلوب الحكم. وكذلك نفى كل الأجانب الذين لا يتمكنون من عرض سببٍ وجيه مقنع لمجيئهم، لا لخوفه من مداهنتهم شكل

---

(٥٥) جرت العادة في عموم بلاد اليونان والرومان أن يدفن الموتى على جانبي الطرق الخارجية. والسبب في ذلك هو المحافظة على الصحة العامّة. ومهما يكن السبب الخرافي الذي قرن بهذا فإننا نجد ليكورغوس يرفض كلّ ما يتعلق بالعدوى. وقد جاءت من هنا عادة حرق جثث الموتى ووضع الرماد المتخلّف في أوعية. ولم يقم ليكورغوس بإلغائها.

(٥٦) يخبرنا إيليان (٦:٦) أن الأكفان الحمراء وأوراق الزيتون إنما هي للموتى من المواطنين البارزين في مجال الخدمة العامة ولاسيما في الحرب وليست مباحة للجميع بدون تفريق.

حكومته وتقليدها كما يزعم ثوسكيديدس، أو أن يتعلموا شيئاً ينفعهم، بل لئلا ينشروا أموراً مضادة للآداب العامة. فبوجود غرباء يجب التسامح في الكلمات الغريبة، وتلك البدع تنتج بدعاً فكرية، ويستتبع ذلك آراء ومشاعر تتلف صفاتُها الشاذة قوامَ الدولة المتناسق. كان مهتماً بإنقاذ مدينته من العدوى بالأخلاق السيّئة الأجنبيّة قُدْر ما يهتمّ الناس عادة بدفع الطاعون عنهم.

وإلى هنا لا أجد أنا شخصياً أي شيء ينمّ عن ظلم وعدم مساواة في قوانين ليكورغوس. مع أن بعض الذين يقرّون أنها صالحة للغاية لتربية خير الجنود يرونها معيبة من ناحية العدالة. ورُبمّا كانت شريعة الكريبتيا Cryptia(٥٧) (هذا إذا كانت قانوناً من قوانين ليكورغوس كما يقول أرسطو) تجعل أرسطو وأفلاطون على السواء يريان هذا الرأي في ليكورغوس ونظام حكمه. فبمقتضى هذا القانون يرسل الحكام بصورة سرّية عدداً من أقدر الشبّان إلى أنحاء البلاد بين الفينة والفينة وليس معهم من سلاح غير خناجرهم، ولا من القوت إلا الضروري القليل، فيخفون أنفسهم ليلاً في مواضع بعيدة عن أعين الرقباء. ويبقون هكذا حتى يجنّ الليل فيخرجون من مكامنهم وينبثّون في الطرق العامة ليقتلوا أي هيلوتي يصادفونه، وأحياناً يثبون عليهم نهاراً وهم في أعمال

(٥٧) كلّ المؤلفين كتبوا مستنكرين قسوة اللقيديميين على الهيلوت، وإن حاول بلوتارخ المعجب الكبير بالسپارطيين التخفيف من وطأة ذلك جهد ما أمكنه. ان هؤلاء المساكين البائسين ميّزوا بالعبودية في شتىّ مظاهر حياتهم اليومية حتى في ثيابهم وحركاتهم. فقد رُسم لهم أن يغطوا رؤوسهم بجلود الكلاب ويرتدوا صدُراً من جلود الغنم. ويحظر عليهم تعلّم أي فنّ من الفنون الحرة. أو الإقدام على أي شيء هو من لياقة أسيادهم. ويضربون مرة في اليوم بالسياط لئلا ينسوا أنهم عبيد. فضلاً عن هذا فهم معرّضون للكريپتيا وتلك عقوبة لا ينجو منها مطلقاً كل من يتكلم أو ينظر أو يمشي أو يتحرك مثل الإنسان الحّر! يحاول بلوتارخ أن يثبت لأعمال القسوة والوحشية تاريخاً أبعد بكثير من عهد ليكورغوس فيزعم أنها ما طُبّقت إلاّ بسبب انضمام الهيلوت إلى المسينيين بعد الزلزال المدمّر الذي وقع في ٤٦٧ ق.م. فهدم جزءاً كبيراً من لقيديمون، وفتك بأكثر من عشرين ألف سپارطي. لكن إيليان يذكر بكل وضوح أن الرأي السائد في بلاد الإغريق هو أن هذه الهزة الأرضية المدمّرة كانت حُكماً سماوياً عوقب به السپارطيون لمعاملتهم اللاإنسانية للهيلوت.
ويقول م. بارثلمي في «رحلات أناخارسيس» إن الكريپتيا كما فرضها ليكورغوس لم تكن إلاّ نوعاً من التمهيد للعمليات الحربيّة، حيث يقوم الشبان بنصب كمائن وشنّ هجوم ليلي خارج المدينة غير قاصدين أن يكون ذلك ضد الهيلوت. وإن إعمال القتل فيهم ربما بدأ في زمن كتابة رسالة أفلاطون في الشرائع بسبب مقاومة الهيلوت لتلك الغارات الليلية. فإذا بالتمارين تغدو قاصرة على مطاردة هؤلاء العبيد المساكين وتنوسي الغرض الأصلي منها.

الحقل منشغلون ويذبحونهم. وعلى ما روى لنا ثوكيديوس في تاريخه عن حرب البيلوبونيس، إن عدداً كبيراً من هؤلاء بعد أن أتمّ السپارطيون اختيارهم لبسالتهم، وتُوّجوا بأكاليل الغار ومُنحوا امتياز المواطنة وحقوقها وطيف بهم كل المعابد تكريماً لهم وتعظيماً، ما لبثوا أن اختفوا جميعاً بصورة فجائية. وكان عددهم يقارب الألفين. ولم يستطع أن يتوصل أحد لا في حينه ولا بعده إلى كيفية موتهم. ويضيف أرسطو إلى ذلك قوله إن «الإيفوري» ما إن تسلّموا مقاليد الحكم حتى أعلنوا الحرب عليهم واتفقوا بأن ذبحهم حلال لايحرمه الدين. ويجمع الكتّاب قاطبة على أن السپارطيين عاملوهم بأشدّ القسوة، إذ كان من الأمور الاعتيادية إرغامهم على أن يتناولوا قدراً كبيراً من الخمر حتى يثملوا فيقودونهم وهم في هذا الوضع إلى قاعاتهم العامة حتى يشاهد الأحداث ماذا يفعل السكر في الإنسان. ويجبرونهم على أداء رقصات خليعة وضيعة وغناء مقطوعات مضحكة قبيحة ويمنعونهم من إنشاد أناشيد جيدة منعاً صريحاً. حتى أنه لمّا غزا الثيبيّون لاقونيا[٥٨] وأسروا عدداً كبيراً من الهيلوت حاولوا عبثاً أن يحملوهم على انشاد قصائد من ترپاندر[٥٩] أو ألكْمان Alcman أو سپندون Spendon وكانوا يجيبون قائلين: «لا، إن سادتنا لا يريدون!». وصدق من قال: «في سپارطة، الحُرّ يملك أعظم الحريّة، والعبد فيّها أتعس العبيد في العالم». وفي رأيي أن هذه المظالم والاضطهادات بدأت تمارس في سپارطة في زمن متأخر جداً لاسيّما بعد حصول الزلزال العظيم[٦٠] وقيام الهيلوت بانتفاضة عامة، فقد ضمّوا قواتهم إلى المسينيين واجتاحوا البلاد وخربوها وألحقوا الخطر الجسيم بالمدينة. لأني لا أستطيع إقناع نفسي بإسناد سلوك بربريّ شرير كهذا لليكورغوس، لِما عُرف به في اللطف والدماثة وحب للعدل في كل المناسبات الأخرى، وهو ما تشهد به النبوءة أيضاً.

عندما تأكد أن تنظيماته الأكثر أهميّة قد رسخت جذورها في عقول بني قومه وأن العادة جعلتها سهلة المتناول محبوبة، وأن جمهوريته باتت ثابتة رصينة لا تحتاج إلى

---

(٥٨) في عهد إپامنينداس. بعد معركة ليوكترا في ٣٧١ ق.م.

(٥٩) شاعر غنائي شهير ولد في حدود الأولمبياد السابع والعشرين في ساردیس من أعمال ليديا. لكن جيء به وهو صغير إلى لقيديمون واستغلّ عبداً إلاّ أن عبقريته الشعرية أمّنت له العتق والحرية.

(٦٠) وقع هذا الزلزال في عهد أرخيداموس في حدود المائة الخامسة ق.م فدمّر المدينة وابتلع عشرين الف سپارطيّ ورجّ جبل تايفتوس رجّاً عنيفاً. ويعزو پلوتارخ هذه النكبة في موضع آخر إلى سلوك السپارطيين إزاء بنات السبوس بخلاف ما يراه إيليان من أن ما حلّ بهم كان بسبب معاملتهم السيئة للهيلوت.

مُعين، ويمكنها أن تمضي في سبيل التقدم وحدها «عندئذ شعر بالسعادة كما شعر خالق الأرض بالارتياح وهو يراها كائنة متحركة» على حَدّ قول أفلاطون. أجل شعر ليكورغوس بالفرح وهو يتطلع إلى عظمة بنائه السياسي وجماله وهو يعمل ويتحرك. وتملّكته فكرةٌ وهي أن يجعل نظامه هذا باقياً ما بقي الجنس البشري ينقله الخلف عن السلف. وعقد اجتماعاً عاماً استثنائياً حضره الشعب جميعاً، وقال لهم إنه يرى الأمور قد استقرّت بشكل مناسب معقول لأجل سعادة الدولة وصلاحها. على أن شيئاً في غاية من الأهمية كان يراه ناقصاً ولم يشأ التصريح به حتّى تنزل عليه نبوءة فيه، وأنه يرغب منهم في الوقت عينه أن يطيعوا القوانين ويطبّقوها دون أي تغيير حتى عودته وعندئذ سيفعل ما تأمر به الآلهة. فأسرع الجميع للموافقة ورجوه أن يعجّل في رحلته. وقبل أن يفارقهم جعل الملكين وأعضاء مجلس الشيوخ والعامة جميعاً يقسمون يميناً بالإبقاء على أسلوب الحكم الراهن حتى عودته. ولما تمّ ذلك انطلق إلى دلفي، وقرّب لإپوللو ثم سأله هل أن القوانين التي وضعها جيّدة، كافية لسعادة الشعب وصلاحه؟ فجاءت النبوءة بأن القوانين ممتازة جداً وأن الشعب بالخضوع لها سيبلغ أعلى مراقي التقدم والرخاء. فقام ليكورغوس بكتابة النبوءة وبعث بها إلى سپارطا ثم قرّب لأپوللو ثانيةً. واستأذن من أصدقائه وابنه وغادرهم وهو على يقين بأن السپارطيين لن يحنثوا بالقسم الذي أدّوه، وأنه لذلك يجب أن يختتم حياته العامة بالشكل الذي يجده مناسباً وهو لا يزال في السن التي لا تكون فيه[61] الحياة عبئاً والموت مرغوباً فيه وفي حين كان كل ما حوله في حالة طيبة راضية. فأنهى حياته بالامتناع عن تناول الطعام معتقداً أنّ واجب السياسي أن يجعل من موته، إن أمكن، خدمةً للدولة، وأن يقدّم حتى في ختام حياته مثلاً من أمثلة الفضيلة، ويحقق غرضاً مفيداً. فهو من ناحية يتوّج ويختم سعادته الخاصّة بموت جدير بمثل هذه الحياة الكريمة ومن ناحية أخرى يضمن لبني قومه التمتّع بالمنافع التي أنفق حياته كلها في سبيل كسبها لهم بعد أن أقسموا الأيمان المغلظة على البقاء أمناء مخلصين لتنظيماته حتى عودته. ولم يكن مخطئاً في آماله لأن مدينة لقيديمون بقيت المدينة الرئيسة في كل بلاد الإغريق زهاء خمسمائة عام. وظلت تحافظ محافظة دقيقة على قوانين ليكورغوس. وخلال هذه المدة كلها لم يحصل فيها شيء من التغيير أثناء حكم أربعة عشر ملكاً خُتموا بآغيس ابن أرخيداموس Archidamus، فإنّ استحداث منصب «الإيفوري» وإن كان قد ظُنّ أنه لمصلحة الشعب، إلاّ أنه زاد من

(٦١) ومع هذا يقول لوسيان إن ليكورغوس كان في الخامسة والثمانين عندما قبض.

ملامح الحكم الأرستوقراطية[٦٢] وأبرزها إلى اقصى حدٍّ بدلاً من أن يخفف من غلوائها.

وفي أثناء حكم آغيس بدأ الذهب والفضة لأول مرة يتدفّقان إلى سپارطا، ومعها جاءت كلّ الرذائل والشرور التي تصاحب الرغبة المفرطة في الثراء. وزاد ليساندر من هذه الفوضى بجلبه الأسلاب والغنائم الحربية الثمينة فملأ بلاده بمظاهر البذخ والترف وان كان هو نفسه رجلاً مستقيماً[٦٣]، وأبطل قوانين ليكورغوس ومراسيمه. إذ ما دامت تلك القوانين نافذة المفعول في سپارطا فقد كانت تبدو أقرب إلى حياة رجل حكيم ذي خُلق حميد منها إلى حكومة سياسية لشعبٍ من الشعوب. وكأسطورة الشعراء التي ألّفوها عن هرقل، وهي تجواله في البلاد معاقباً الطغاة القساة، والأشرار المجرمين بجلد أسده وهراوته، كذلك ما قيل عن اللقيديمونيين بأنهم تمكنوا من كسب خضوع كلّ الإغريق الطواعي الودود، بعكّاز بسيط وبرداء خشن واستمروا طوال الوقت يحاربون الطغيان والفساد والعدوان، ويتدخلون كوسطاء لفض الحروب، وإنهاء النزاعات في المدينة. ولم يكلّفهم هذا في أغلب الأحيان تحريك جندي أو درعٍ واحد بل بمجرد إرسال مندوب واحدٍ، يخضع الجميع لتوصياته دونما اعتراض. ذلك هو الرصيد من النظام والمساواة الذي وجِد في دولتهم وكان يفيض على الآخرين بالكثير من النعم والخيرات.

ولذلك لا يسعني إلاّ أن أعجب من أولئك الذي يقولون ان السپارطيين خير الرعايا، وأسوأ الحكّام. وبرهاناً على هذا يُنسب قول إلى الملك ثيوپوميوس عندما قال أحدهم أمامه: «إن سُؤدد سپارطا ما بقي هذه المدة الطويلة إلاّ لأن ملوكها كانوا من القادة المحنّكين». فاجابه قائلاً: «كلاّ بل لأن الشعب يعرف جيداً كيف يطيع». ذلك لأن الشعب لايطيع حكامه إلاّ إذا أتقنوا فن القيادة والحكم. والطاعة هي درس يُلقّنه القادة. والزعيم الحقيقي يخلق بنفسه طاعة أتباعه. وكما أن الغاية الأخيرة لفن ركوب الخيل هي تذليلها وكسر شكيمتها كذلك هو فن الحكم، فإنه يهدف إلى إشاعة وإيحاء

(٦٢) ينكر أرسطو ذلك [السياسة ٢ :١٧] والواقع أنّه غير ممكن وليس معقولاً أن يقوم الضباط المزوّدون بمثل هذه السلطة العظيمة بإبطال الجزء الديمقراطي من الدستور الذي كان له الفضل في تولّيهم تلك السلطة.

(٦٣) يذكر سيستوس نقلاً عن ديودورس [١٨ :١٠٦] أنه جلب إلى سپارطا ألفاً وخمسمائة تالنت من الذهب فضلاً من غيره من النفائس. ويخبرنا كزينفون أيضاً أنه عند استيلائه على أثينا بعث إلى سپارطا بالكثير من الغنائم الثمينة ومن بينها (٤٧٠) تالنت من الفضة.

الرغبة في الطاعة بين الناس. واللقيديمونيون لم يكتفوا بالإيحاء بهذه الرغبة بل تَعدّوها إلى كسب رغبتهم المطلقة ليكونوا رعايا خاضعين لهم. ولم يكن هؤلاء يطلبون من السپارطيين إرسال سفن ومال ونجدات عسكرية لهم بل كانوا يطلبون قائداً سپارطياً واحداً فحسب. وهم يُنزلون هذا القائد أرفع منزلة من التجلّة والاحترام. وهو ما كان موقف الصقليين في غيلپّوس Gulippus وموقف الخلقيديين Chalcidians من پراسيداس وموقف كلّ إغريق آسيا[٦٤] من ليساندر وآغيسلاوس وكاللّيكراتيداس Callacratidas. ولم يبخل عليهم الأقوام أو الأمراء الذين أرسلوا لهم بألقاب «البناة والمقتصّين». وكانت أنظارهم دوماً شاخصة إلى مدينة سپارطا نفسها بوصفها أكمل نموذج للسجايا العالية والحكم الصالح في حين اعتُبر باقي الإغريق مجرد علماء وأساتذة. وقد أشار إلى هذا ستراتونيكوس Stratonicus بنوع من الفكاهة، عندما اقترح مازحاً أن يُسنّ قانونٌ يدير الأثينيون بموجبه شؤون المواكب الدينية والطقوس المقدسة الخفيّة، ويشرف الإليائيون على الألعاب الأولمپية، وإذا هفا واحدٌ منهما أو أخطأ فيجب أن يُعاقب اللقيديميون بالضرب[٦٥]. وقال أنتسيتنس بلهجة جدية (وهو أحد متتلمذي سقراط) عن اليثبيين عندما استخفّهم الطرب بانتصارهم في ليوكترا Leuctra[*]، إنهم أشبه بصبيان المدرسة الذين ضربوا معلّمهم.

ومهما يكن من أمر فإن ليكورغوس لم يُرد لمدينته أن تحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى. بل كان يرى أن سعادة الدولة كسعادة الفرد من البشر هي في ممارسة الفضائل أساساً، وفي وحدة السكان. لذلك كان هدفه في كل تنظيماته أن يجعل قومه أحراراً بالفكر، مستقلين بالنفس، أقوياء الإرادة. لذلك فإن كل أولئك الذين أجادوا الكتابة في

---

(٦٤) أرسل السپارطيون غليبوس للدفاع عن سيراقوز عندما غزاها الاثينيون بقيادة ألكيپيادس. وأما الخلقيديون الذين صُرع براسيداس أثناء ما كان في خدمتهم فلم يكونوا من خلقيس يوبويا بل من جوار أمفيپوليس. وبإغريق آسيا يعني كلّ سكان آسيا الصغرى وإيونيا والجزر المجاورة. وكاللّيكراتيداس هو أمير بحرٍ لقيديموني في نهاية حروب الپلوپونيسس.

(٦٥) لأن المعلّمين يُحاسبون على أخطاء تلاميذهم. إن أصل النكته ولبابها هو هذا: اعتاد اللقيديميون إنزال العقاب بالوالدين أو المتبنيّن ولداً إذا ارتكب ابنهما أو ابنتهما خطأً أو ضلاّ سواء السبيل. ولما بات اللقيديميون الآن معلّمين للشعوب الأخرى فقد وجب عليهم تحمّل القصاص الواقع عليهم جرّاء أخطاء تلاميذهم!

وستراتونياكوس هو موسيقار أثيني، مدحه آشينيوس [٨:٨] لجمال تآليفه، وقابليته على التنكيت. إلاّ أن تعلّق أبناء وطنه بالخرافات والأوهام أضفى مسحة غلاّبة على سحره.

(*) في السنة ٣٧١ ق.م بقيادة إيپامنناس.

السياسة أمثال أفلاطون وديوجينس Diogenes وزينو Zeno اتخذوا ليكورغوس نموذجاً لهم. لقد ترك هؤلاء وراءهم كلمات وأفكاراً فحسب في حين أن ليكورغوس كان منشئ نظام حكم لا كتابةً بل حيقيقة واقعة، حكومة قصّر الآخرون عن تقليدها واستنساخها[٦٦]. وفي الوقت الذي اعتبر فيه الناس الطبيعة الفلسفية الفردية شيئاً لا يمكن بلوغه نجده، بالمثل الذي ضربه عن دولة ذات فلسفةٍ كاملةٍ، قد ارتفع وسما فوق كل واضعي القوانين في بلاد الإغريق. ولهذا قال أرسطو أن الإكرام الذي أكرموه به في لقيديمونيا بعد وفاته كان أقلّ مما يستحق، مع أن لديه هناك معبداً يقدّمون فيه القرابين إليه سنوياً كأنه إله.

وذكروا أن صاعقة سقطت على الضريح الذي ضمّ رُفاته بعد نقلها إلى سپارطا ودفنها، وهي حادثة لم تحصل لرجلٍ عظيم سواه، باستثناء أڤريپديس الذي دُفن في مدينة أريثوسا Arethusa بمقدونيا[٦٧]. وقد تكون هذه الظاهرة للمعجبين بالشاعر برهاناً ودليلاً على أنه حظي بعين ما حظي به ذلك الرجل القدّيس مصطفى الآلهة. يقول بعضهم إن ليكورغوس توفي في كيّرا Cirrha[٦٨]. ويزعم أپوللوثيميس Apollothemis أنه توفي بعد مجيئه إلى إيليس Elis. ويقول طيماؤوس وأرسطوكزينس Arstoxenus إن حياته انتهت في كريت، ويضيف ثانيهما أن قبره عند الكريتيين قائمٌ في منطقة پرغاموس بالقرب من «درب الغرباء». وترك ابناً واحداً هو أنتيوروس Antiorus الذي مات بلا عقب فانقرضت الأسرة. إلاّ أن أصدقاءه وأقرباءه ظلّوا يقيمون له حفل ذكرى سنوياً لوقت طويلٍ، وسمّيت أيام الاجتماع «ليكورغوس». ويقول أرستوقراطس ابن هيپارخوس[٦٩] إنه توفي في «كريت» وإن أصدقاءه الكريتيين بناء على طلب منه أحرقوا جثته وذرّوا رمادَها في البحر، خوفاً من أن تُنقل عظامه إلى لقيديمون، وعندئذ يتخذونها حجّة وتعلّة ليحلّوا أنفسهم من القسم، ويقوموا بإجراء تجديد في أصول الحكم.

وفي هذا الكفاية عن حياة وأعمال ليكورغوس.

---

(٦٦) يختلف أفلاطون وأرسطو عن پلوتارخ في هذا. حتى پوليپوس نفسه الذي كان شديد الإعجاب بنظام الحكم السپارطي نجده يقول إن السپارطي وإنْ كان صاحب إنصاف وفضيلة لكن الجماعة قليلو الاهتمام بنشر العدل لا يكترثون بمكارم الأخلاق.

(٦٧) هذا إذا كان عاد إلى بلاط [ارخيلاوس] على أن ثم ضريحاً له في أثينا.

(٦٨) بلدة بالقرب من دلفي.

(٦٩) مؤلف كتاب في تاريخ لقيديمون. اقتبس فيه أثينيوس ٣: ٧.

نوما پومپولیوس

NUMA POMPOLIUS

۷۱۵-۶۷۲ ق.م

مع أن شجرة الأسرة النبيلة تصل بشكل متسلسل دقيق حتى نوما پومپوليوس باتفاق المؤرخين جميعاً، فهناك تناقض كبير بين المؤرّخين بخصوص زمن حكمه. فثمّ كاتب يدعى قلوديوس Clodius يذكر في كتاب له بعنوان «تعليقات على التاريخ» أن سجلات روما القديمة فُقدت عندما نهبها الغاليّون[1]، وأن كلّ ما هو موجود منها الآن هو مزيّف، قُصد بتزييفه إرضاء ومجاملة بعض الناس الذين يرغبون في أن يتوهّموا أنفسهم بأنهم من نسل عريقٍ نبيل في حين أنهم ليسوا كذلك. ومع أن الشائع المعروف أن نوما كان من تلاميذ فيثاغوراس[2] الحميمين فإن آخرين ينفون ذلك ويؤكدون أنه لم يكن واقفاً على اللغة اليونانية ولا علومها، وأنه كان رجلاً ألمعيّ الذهن بفطرته، وُهِب قابليات طبيعية بلغت به مراقي الفضائل العليا، أو أنه عثر على معلّم من البرابرة يفوق فيثاغوراس علماً. ويؤكد بعضهم كذلك أن فيثاغوراس لم يكن معاصراً لنوما وإنما عاش بعده بخمسة أجيالٍ على الأقل[3]، وأن هناك فيثاغوراس آخر وهو مواطن سپارطي نال جائزة في سباق أولمپي في الأولمپياد السادس عشر[4] الموافق للسنة الثالثة من اختيار نوما ملكاً، ربما تعرّف به في رحلته إلى إيطاليا وعاونه على إنشاء مملكته. ومن هنا كان السبب في ظهور عدة عادات وقوانين «لاقونيّة» بين الأنظمة الرومانية.

---

(١) ٣٩٠ ق.م.

(٢) لم يزر فيثاغوراس الفيلسوف إيطاليا حتى الأولمبياد الحادي والخمسين أي بعد أربعة أجيال مرّت على عصر نوما. ويضيف ديون [٢: ١٥] إلى هذا أنه لم يهتم بالدراسات الفلسفية في كروتونا وقت انتخابه فإن تلك المدينة لم تبنَ إلاّ في السنة الرابعة من تاريخ اعتلائه العرش.

(٣) ليفي (١: ١٨) يجعله في عهد سرفيليوس تُلليوس. وشيشرون في الخطب (٢: ٣٧) يجعله في وقت متأخر مؤكداً أنه قدم إيطاليا على عهد تاركوينوس سوبربوس.

(٤) ٦٥٤-٦٥٧ ق.م.

وعلى أية حال كان نوما من نسل سابينيّ(٥)، وذكروا أنهم مستعمرة لقيديمونيّة. والتاريخ على العموم غامض، ولاسيما عندما يُحقَّق على ضوء قوائم الفائزين في الألعاب الأولمپية التي نشرها في زمن متأخر هيپياس Hippias الإليائي، وهي لا تستند إلى مرجع ثقة. وبابتدائنا من نقطةٍ مناسبةٍ سنباشر في عرض أهمّ الوقائع المدوّنة عن حياة نوما وأجدرها بالملاحظة.

كانت السنة السابعة والثلاثين (محسوبةً من يوم بناء روما) عندما قام رومولوس - الحاكم آنذاك - بتقديم قربان عام في «مستنقع المعِز» في الخامس من شهر تمّوز - المسمّى كابروتين نونس Caprotine Nones بحضور الشيوخ وأهالي روما. فأظلمت السماء فجأة وخيّمت على الأرض سُحب كثيفة صحبها كثير من العواصف والمطر. وفرّ العامّة هاربين وقد تملّكهم الذعر وتفرّقوا أيدي سبأ. وفي هذه العاصفة اختفى رومولوس ولم يُعثر على جسمه حيّاً أو ميتاً. وثار شك خبيث في أن غيبته من عمل الپاتريشيان وانتشرت إشاعات بين الناس بأنهم تآمروا عليه وأزالوه من الوجود بعد أن ضاقوا ذرعاً بالحكم الملكي، ونفد صبرهم في الآونة الأخيرة من المسلك الاستبدادي التحكمي الذي اتخذه إزاءهم، وأنهم أرادوا أن يستحوذوا على السلطة وإدارة دفّة الحكم بأنفسهم. وقد حاولوا تبديد هذه الشكوك وإزالتها من الأذهان بالإفراط في تكريم رومولوس وجعلِه في مصاف الآلهة فقالوا لم يمت بل عرج إلى السماء وانتقل إلى حالة أسمى من حالة البشر. وأقسم پروكلوس - وهو رجل محترم الكلمة بارز الشخصية - بأنه رأى رومولوس يصعد إلى السماء لابساً ثيابه الملكية وبكامل شكّة سلاحه، وسمعه يقول وهو يصعد إن على الرومان من الآن فصاعداً أن يطلقوا عليه اسم كويرينيوس.

بعد أن هدأت الخواطر وخمدت الفتنة ظهرت مشكلة أخرى حول انتخاب الملك الجديد، لأن عقول الرومان الأُصلاء والسكان الجدد لم تبلغ بعدُ ذلك المبلغ من وحدة الاتجاه، بل كان ثمّ أحزاب تختلف وجهات نظرها اختلافاً بيّناً - وكان ثمّ تنافر

---

(٥) اكتشف ديون [٢: ١١] في تاريخ السابين أنه بينما كان ليكورغوس وصيّاً على ابن أخيه أنومس (خاريلاوس بلا شك) هرب بعض اللقيديمين الذين لم يستطيعوا احتمال صرامة قوانينه واتجهوا إلى إيطاليا فاستقروا أولاً في بوميتيا. ثم انتقل عدد منهم إلى أرض السابين وامتزجوا بهم ولقّنوهم عاداتهم لاسيما تلك التي تتعلّق بالحرب، ودرّبوهم على الجلد والصبر وشظف العيش. وعلى هذا الأساس تكون هذه الدفعة من اللاجئين قد استقرت في إيطاليا قبل ميلاد نوما بمائة وعشرين عاماً.

وتباغض ما بين الشيوخ أنفسهم. ومع أنهم اتفقوا جميعاً على ضرورة اختيار ملك إلاّ أنهم اختلفوا فيما بينهم على شخصه. فأولئك الذين بنوا المدينة مع روملوس، وسبق لهم أن نزلوا عن جانبٍ من أراضيهم ومساكنهم للسابين، كانوا يستنكرون أي اقتراحٍ يقضي بخضوعهم لحكم من كان موضع إحسانهم ورعايتهم. والسابين يزعمون من الجهة الثانية أنهم خضعوا لحكم روملوس وحده، بعد وفاة ملكهم طاطيوس، دون شكوى أو تذمّرٍ، وقد حان دورهم الآن ليكون الملك من بني جنسهم. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم أدنى منزلةً من الرومان، ولا يعدّون مساهمتهم في توسيع روما أقلّ من مساهمة الرومان، فلولا جموعهم الكبيرة ولولا مساعدتهم لكان من العسير أن تستحقّ اسم المدينة. وظل الحزبان يتنازعان ويتجادلان على هذه الصورة. وخشية أن يسبّب الاختلاف فوضى عامة - بغياب أي شكل من أشكال الحكم والقيادة - اتُّفق على أن يقوم أعضاء مجلس الشيوخ المائة والخمسون دوريّاً[٦] بوظيفة الحاكم الأعلى، ويكون لكلّ واحد منهم عندما يحين دوره حق استعمال شارات الملك وتقديم القرابين الدينية الرسمية وتصريف شؤون الحكم لمدة قدرها ستّ ساعات نهاراً وستّ ساعات ليلاً. وهذا الانتقال السريع في السلطة والتوزيع العادل لها سيزيل كل آثار المنافسة بين الشيوخ والتحاسد بين الشعب لمّا يرون شخصاً يرتفع إلى مرتبة الملك، لينخفض إلى مستوى فردٍ عادي خلال يوم واحد. وسُمّي هذا الشكل من الحكم عند الرومان بالملكيّة الدورية Interregnum.

على أن هذا الشكل البسيط الساذج من الحكم ما كان يمنع شكوك العامة وتنديدهم، كأنما وجدوا فيه تغييراً في شكل الحكومة مُفضياً إلى حكم الأقلية [أوليغارشي] وأن الشيوخ ينتوون إبقاء السلطة العليا في ايديهم عن طريق نوع من الوصاية دون أن يباشروا في اختيار الملك. أخيراً اتفق الحزبان على أن يختار السابين ملكاً من بين الرومان. ووجدوا أن هذا هو خير حَلّ لأنهاء روح التحزبّ والتكتل، وان الأمير الذي سيُنتخب سيكون موضع رضى وتعلّق أولئك الذين انتخبوه وأولئك الذين

(٦) بحسب دعوى المؤلف كان عدد الأعضاء في عهد روملوس مائتين. على أنّ ديون يقول إن الكتّاب يختلفون في هذه النقطة. فبعضهم يؤكد إضافة مائة عضو على اتحاد السابين والرومان. وبعضهم يؤكد إضافة خمسين. وأما حول شكل حكم النواب الملكيين فليڤي يزوّدنا برقرب التفاصيل احتمالاً إذ يقول إن الشيوخ أنفسهم انقسموا إلى مجموعات عشرية واقترعوا على من يحكم أولاً وثانياً إلخ. . . بحسب ترتيب الاقتراع على أن يكون لشخصٍ واحد فحسب من كل عشرة حاكمة امتياز حمل شعار السلطة.

انتُخب منهم على حدّ سواءٍ. وترك السابين حق الاختيار للرومان الأولين. وهؤلاء بدورهم كانوا أكثر ميلاً إلى قبول ملك سابينيّ ينتخبونه هم من أن يروا ملكاً رومانياً يختاره السابين ويشايعونه، فعُقدت مجالس مشاورة ورشّح نوما پومپوليوس من شعب السابين(٧). وهو شخص بلغت أخلاقه الساميّة من الشهرة حدّاً عظيماً، فما إن ذُكر اسمه حتى وافق عليه السابين بحماسةٍ تفوق حماسة الذين انتخبوه. وكان يسكن خارج روما. وبعد أن أُعلن الانتخاب للجمهور عُيّن عدد من كبار ووجهاء الحزبين لزيارة المرشّح وعرض الحكم عليه. وكان نوما يسكن في مدينة سابينيّة مشهورة تدعى كيوريس Cures ومنها أطلق السابين والرومان على أنفسهم الاسم المشترك كيورتيس. وكان أبوه پومپونيوس Pomponius رجلاً فاضلاً، ونوما أصغر بنيه الأربعة وُلد (كما شاءت العناية الرّبانية) في الحادي والعشرين من نيسان وهو يوم بناء روما. وقد وهِب نفساً نادراً ما هذّبت الطبيعة مثلها، تعلّقت بالفضيلة والصلاح، وأخضعها بالنظام وأخذها بالتثقيف والحياة الصارمة ودراسة الفلسفة، وهي وسائل من شأنها أن تطرد النزغات الحقيرة والعواطف الوضيعة فضلاً عن قمعها حدّة الطبع، وعنف المزاج، وهي صفات لها مكانة عالية بين البرابرة. وكان رأيه أن الشجاعة الحقيقية تكمن في إخضاعنا عواطفنا للعقل.

كان قد جرّد منزله من كل مظاهر الترف والنعومة. وفي حين كان المواطنون والأجانب على حَدٍّ سواء يجدون فيه قاضياً نزيهاً ومستشاراً لا يرقى إلى مشورته شك فإنه انصرف في حياته الخاصة إلى عبادة الأرباب الخالدين لا إلى اللهو والفسوق. وعكف على التأمّل العقلي في قوى الطبيعة، والمقدرة الإلهيّة. وبلغ من شهرته أن طاطيوس زميل رومولوس في الحكم زوّجه ابنته الوحيدة وجعله ختنه، لكن هذا لم يُغر كبرياءه بالرغبة في العيش مع حميه في رومه. وفضّل الحياة مع السابين، والعناية بأبيه في آخر عمره. وفضّلت طاطيا أيضاً عيشة زوجها البسيطة الخاصة على حياة الفخفخة والترف التي كانت تتمتّع بها وهي مع والدها. وقيل إنها توفّيت بعد حياة زوجية دامت ثلاث عشرة سنة.

---

(٧) في ذلك الوقت دعا نواب الملك الأهالي ووجّهوا إليهم الكلام التالي: «أيها الرومان. انتخبوا لأنفسكم ملكاً. إن مجلس الشيوخ موافق. وإن أنتم اخترتم ملكاً خليقاً بخلافة روملوس فإن المجلس سيصادق على انتخابكم». وقد سرّ الشعب جداً بتنازل الشيوخ وعدم استخدامهم صلاحياتهم.

وعندئذ ترك نوما ضوضاء المدينة ونزع إلى حياة الريف، يتجوّل في البساتين والحقول، ويؤدّي فرائضه الدينية، ويقضي جُلّ أوقاته في الأماكن الخلوية وحده، وهذه الوحدة كانت سبباً في حكاية اتصاله بالربّة وخلاصتها أن نوما لم يعتزل المجتمع بسبب حالة من السويداء اعترته، أو لإضطراب عقلّي انتابه، وإنما لأنه ذاق مسرّات وصال أسمى كثيراً من الوصال البشري، وسُمح له بالزواج من الآلهة لمّا أحبته الرّبة إيجيريا Egeria[٨] واختصته لنفسها وبذلك نال البركة والحكمة الإلهية.

هذه الحكاية تشبه الأساطير الموغلة في القِدم كما هو واضح. تلك الأساطير التي انحدرت إلى الفريجيين وما زالت تروى عن أتيس Attis[٩] وما انحدر للبيثيين عن هيرودوتس، وللأركاديين عن أنديميون Endymion. ولا نذكر عدداً آخر ممن ظُنّ أن الآلهة اصطفتهم وأسبغت عليهم حبّها. وليس يبدو غريباً أن لا تتنزّل آلهة شاءت أن تحبّ رجلاً، لا طيراً ولا حصاناً، وتعيش مع نفس فاضلة وتتبادل الحديث مع حكيم ذي خُلقٍ رفيع، وإن كان يصعب حقاً الاعتقاد بأن للآلهة والجنّ قابلية على الحبّ الحسّي والجسماني والتولّه في جمال إنسيّ أو جسم بشري. على أن حكماء المصريين لا يقرّون حقاً بهذه التفرقة، وهي: من الممكن لروح إله أن تتقمص طبيعة أنثى من البشر، لتحمل في أحشائها نُطفة أوّليّة لجيلٍ بشري، في حين يرون من الوجهة الثانية أنه يستحيل على جنس الذكر من البشر أن يتصل جنسياً، أو يمتزج جسمانياً بربةٍ من الربّات، غير معتبرين على ما يبدو أن ما هو قابل الحصول في شقٍ يفترض وجوب حصوله في الشق الثاني، والمنطق يفرض أن التزاوج ذو طبيعة تبادلية. وليس يصحّ إلاّ الافتراض بأن الآلهة تتجاوب لحبّ البشر، أو أنها تحبّهم على شكل الرعاية والاهتمام

(٨) إن ميل نوما إلى العزلة واعتياده الانزواء في أمكنة غير معروفة من غابة أريشيا كان سبباً في شائعات مختلفة راجت بين الناس. وظن بعضهم أن الحورية إيجيريا هي التي أملت عليه الشرائع الدينية والمدنية التي قام بسنّها. وأكد ذلك هو نفسه كي يؤمّن المصادقة الربّانية عليها ولكن لمّا لم يكن ثمّ من يخلو من سوء الظن والنزغات فقد ظن بعضهم أن ما يجتذبه إلى الغابات والكهوف شيء لا يمتّ إلى العفّة بصلة. وهذا ما حدا بجوڤنال إلى السخرية عند ذكره بستان إيجيريا ليقول (٣: ١٥) Hic, ubi mocturnae Numa Constituebat amieae ويعقب أوڤيد بقوله: أن ديانا من أجل أن تنسى حزنها على فقدان نوما حوّلتها إلى نبع ما زال يدعى باسمها (١٥ المسوخ). وهو وپلوتارخ الذي تبنّى الرأي نفسه هما الوحيدان اللذان ذكرا أنها كانت زوجه (انظر أيضاً ديون ٢: ١٥).

(٩) قيل إن آتيس كان موضع حبّ الربّة كيبيله وإن ديانا عشقت أنديميون. وأمّا هيرودوتس هذا [يسمّيه داسيه: رودوتس] فلم يُذكر في أي موضع آخر على ما نعتقد.

بهم وبفضائلهم. ولم يخطئ أولئك الذين زعموا أن أپوللو عشق فورباس، وهياسيتثوس Hyaeinthus وأدمتوس Admetus[١٠]، أو أن هيپوليتوس السيكيوني Sicyoiuon كان ذا حظوة عندهم، مشمولاً برعايتهم فطالما كان يبحر من سيكيون إلى سيّرا، وكانت العرّافة البيثية تنشد هذا البيت الملحميّ المعبّر عن اهتمام الربّ وحبّه:

الآن رجع هيپوليتوس مرة أخرى يخاطر بحياته العزيزة في غِمار البحر.

وذكروا أيضاً أن پان وقع في عِشق پندار وأشعاره[١١]. وأن القوى الإلهيّة كرّمت هسيود وأرخيلوخوس[١٢]، بعد وفاتهما، لأجل الميوزات. وثمّ رواية أخرى هي أن ايسكولاپيوس Aeaculapius لازم سوفوكليس طوال حياته وتبرّك بالحديث معه وما زالت توجد عدة براهين على ذلك، منها أنه لمّا توفّي قامت آلهة أخرى بمراسم جنازته[١٣]. وإن نحن أقمنا أيّ وزنٍ لهذه الوقائع، فلماذا نعدّ من قبيل السخف

---

(١٠) كان فورباس ابن تريوپاس ملك آرغوس قد أنقذ الروديين مما لا يُحصى من الأفاعي التي عاثت في جزيرتهم ومن تنّين هائل على الأخصّ كان قد ازدرد عدداً كبيراً من الناس. ولذلك اعتُبر مقرّباً من أپوللو الذي قتل البيثون. وقد وضِع مع البيثون في السماء بعد موته في برج الثعبان. كذلك هياسنثوس ابن أميكلاس باني مدينة أميلكي القريبة من سپارطا فقد كان محبوباً من أپوللو وزفيروس فقتله الأخير في نوبة من الغيرة. وعندها تحوّل إلى زهرة الهياسنثا التي سُمّيت باسمه. [پاوسنياس - لقيديمون ٣:١٩، أوڤيد المسوخ ١٠: ١٠٥. أما أدمتوس فهو ابن فيريس ملك تيتاليا. تقول الأساطير إن أپوللو حفظ له غنمه.

(١١) كانت لپان منزلة عبادية خاصة عند بندار. ولذلك نجده يسكن بالقرب من هيكل ريا وپان. ونظم تلك الأشعار التي غنّتها عذارى ثيبه في عيد تلك الربّة. وقيل إنه سَعُد بسماع صوت الإله نفسه وهو يتلو إحدى مقطوعاته الشعرية.

(١٢) قُتل أرخيلوخس بيد الجندي كالكوندس أو أرخياس النخسوسي. أرغمته كاهنة الأولى على تأدية فريضة الكفّارة لقتله رجلاً مكرّساً للميوزات. ولعنت نبوءة دلفي «الرجلَ الذي فتك به» لأنه «قتل خادم الميوزات». وأمّا عن هسيود فقد كان ضحية شكٍ ظلوم وألقي في نهر دافنُس فحمله التيار إلى البحر ونقلته الدلافين الى رَيُوم وهو لسان من خليج كورنث. فأمر الأرخومينيون وهم من سكان بويوتيا الذين فتك بهم الطاعون فتكاً ذريعاً، أمروا بنبوءةٍ أن يرفعوا رُفاته وينقلوها إلى بلادهم. وقد جاء في النبوءة: «العلاج الوحيد هو إعادة عظام هسيود من أرض ناوپاكتس إلى أرض أرخومينس» وبعد أن نفّذوا ما جاء في النبوءة انقشعت غيمة الوباء عنهم.

(١٣) توفّي سوفوكلس في أثينا أثناء ما كان ليساندر يشدّد الحصار عليها. وقيل إن باخوس أو ديونيسوس أمر القائد السپارطي في حُلم «بأن يسمح للنعّار الطائر الأثيني الجديد بأن يدفن في دليكيا مقبرة أسلافه. وبعد تكرار هذا الأمر لم ير ليساندر مندوحة من الرضوخ له [پاوسنياس ١: ٢١] [پليني التاريخ الطبيعي ٧: ٢٩].

والتخريف القول بأن روحاً مماثلة من أرواح الآلهة كانت تعمد إلى ملازمة زاليوكس Zaleucus ومينوس، وزرادشت Zoroaster[١٤]، وليكورغوس، ونوما، أولئك الذين وضعوا دساتير الممالك، واشترعوا أنظمة الجمهوريات؟ بل من المعقول أن نعتقد أن الآلهة بدافع من أغراضٍ سامية تمدّ يد المساعدة لهؤلاء الرجال، فتوحي إليهم بالرأي الصواب في أثناء التشاور وتبادل الآراء في الأمور الهامة، كما تزور الشعراء والموسيقيين، إن لم يكن دائماً ففي أوقات إبداعهم. . . واختلاف الآراء في هذا الموضوع كبير و«الطريق فيه لاحبة» كما يقول باخيليدس Baechylides[١٥]. وليس ثمّ أيّ سخفٍ في التعليل الذي روي أيضاً عن ليكورغوس ونوما وغيرهما من مشاهير المشترعين وعظمائهم فقد زعموا هم أنفسهم أنهم مزوّدون بسلطانٍ من الآلهة، لأن مهمتهم كانت إزالة الشرّ وسياسة الجماهير الصعبة القياد، وفرض أنظمة وقوانين جديدة على مجتمعاتهم. . . حتى لو كان ادّعاؤهم هذا كاذباً فهو بالتأكيد مفيدٌ لصالح أولئك الذين فُرضت الإصلاحات عليهم فرضاً. ولأجل أن تكمل الحكاية:

كان نوما في حدود الأربعين عندما أقبل الوفد يعرض المُلك عليه. وكان المتكلمان پروكولوس وڤيلسوس Velews (وهما أول من رُشّح للمُلك. فنشب الخلاف حول من يكون منهما وكان الرومان الأصائل يميلون إلى پروكولوس، والسابين إلى ڤيلسوس). فألقيا كلمة قصيرة جداً نيابة عن الوفد لاعتقادهما أن عرض المُلك لا يستلزم الكثير من القول لإقناع المرشح ولكنهما وجدا - خلافاً لما حسباه - أن عليهما أن يتوسّلا بمختلف وسائل الإقناع والمنطق مع شخص عاش في هدوء ودعةٍ ليقبل بحكم مدينةٍ بُنيت وتأسّست وتوسّعت بالحرب. فأجاب نوما بحضور أبيه وقريبه مارشيوس Marcius بما يلي: «كل تبدّل في حياة المرء خطر عليه، وإن الجنون وحده يستطيع أن يحمل شخصاً لا يحتاج إلى شيء، قانع بكلّ ما هو حوله، على ترك الحياة التي اعتادها، فمهما كانت نقائض تلك الحياة فلها على أية حالٍ أفضلية الحقيقة الواقعة ومزيّاتها على حياة مجهولة، يحفّ بها الشكّ. وإن كانت مصاعب هذا الحكم في الواقع لا يمكن أن تُنعت بالمجهوليّة. فرومولوس الذي كان أول الحكام لم ينجُ من

(١٤) استنّ زاليكوس شرائعه للوكريين في بلاد الإغريق الكبرى زاعماً أن مينرڤا هي التي أوحت له بها. وأما زرادشت فهو النبي المجوسي (تذكره المآثر اليونانية بأنه ملك باختيريا) الذي استنّ الشرعة التي عرفت باسمه. ومينوس الملك هو مستنّ الشرائع الكريتية.

(١٥) أشاد هذا الشاعر بفوز هيرو كينذار في الألعاب الإغريقية وأنه بزّ منافسه العظيم أحياناً. وكان الإمبراطور يوليان من أشدّ المعجبين به وكثيراً ما تمثل بأشعاره.

الشكوك، والتخرّصات في أنه تآمر على حياة شريكه طاطيوس. ولم يخلص مجلس الشيوخ من مثل هذه التهمة في أنه قتل رومولوس غدراً. على أن رومولوس امتاز بالفكرة العامة السائدة عنه وهو أنه ولِد من الآلهة، وعاش بمعجزة. في حين أن ولادتي كانت طبيعية وقد ربّاني وأنشأني أناسٌ معروفون لديكم. وإن الصفات الموجودة في طبعي وشخصيّتي هي أفضل دلالة على عدم صلاحي للملك. - حبّ الوحدة، والدراسات التي لا علاقة لها بشؤون الحياة المادية، وميل فيّ إلى السلام والهدوء، تمكّن فيّ فلا أطيق التخليّ عنه، وانشغالي في أعمال لا تمتّ إلى الحرب والعنف؛ واندماجي بأناسٍ لا يلتقون إلاّ في العبادة، وفي صِلات رقيقة متعاطفة، قضوا حياتهم كلّها في حقولهم ومزارعهم. وأظنني سأكون مبعث سخرية عامة إذا طُفتُ حاثّاً على عبادة الآلهة، مبشّراً وخطيباً في التمسّك بالعدالة وكره العنف والحرب في مدينة هي أحوج إلى قائد جيش منها إلى ملك.

وبإدراك الرومان من كلامه هذا أنه يرفض قبول المنصب الملكي زاد إلحاحهم وإصرارهم قائلين: لا يجدر به أن يتركهم ويخيّب رجاءهم في هذا المطلب، وبذلك يضطرهم إلى العودة بلا شكّ إلى الاختلاف والنزاع فيما بينهم، إذ لا يوجد شخص غيره يكون موضع قبول الفريقين المتناحرين. وأخيراً انتحى به أبوه ومارشيوس جانباً وأقنعوه بقبول هِبة كريمة ومِنحة كانت السماء مصدرها أكثر مما كان من البشر وقالا: «مع أنك عازف عن الغنى، راضٍ بما لديك، لاتبحث وراء شهرة السلطان بعد أن نلت شهرة الفضيلة التي هي أثمن من الأولى، إلاّ أنه يجب أن تعدّ الحكم خدمةً إلهيّة. فالله الآن شاء أن يفيد من أعمال فضائلك وحكمتك وعدالتك. وهي سجايا لن يُقدّر لها أن تبقى عاطلة مهملة. فارجع عن إصرارك على ورفضك هذا لمنصبٍ هو لحكماء الرّجال ميدان لممارسة الأعمال الشريفة العظيمة، ولعبادة الآلهة عبادة لائقة ممتازة، وبثّ العادات الصالحة الخيّرة التي لا تستطيع نشرها بين الناس إلاّ السلطة. كان طاطيوس محبوباً وإن كان أجنبياً، وذكرى رومولوس أضفت عليها الآلهة مختلف النعم والبركات، ومن يدري؟ لعل هذا الشعب المنتصر أبداً قد أتعبته ألحرب وقنع بالأسلاب والغنائم التي غنمها، وقد يكون راغباً أكثر من أي شيء آخر بملك مسالم وادعٍ محبّ للعدل، يقود خطاهم إلى الاستقرار والسلام؟ وإذا كانت عواطفهم تنزع إلى الحرب بما لا قبل لهم بدفعه، أفليس من الأفضل أن تكون الأعنّة بيدٍ معتدلةٍ قادرة على تحويل شدة الحرب إلى مسلك آخر. وإن مدينتك وكل شعب السابين سيجعلان منك رابطة صداقة ودليل حسن نيّة لهذه السلطة الفتيّة المتنامية؟

ورافق هذا الإقناع والإلحاح عددٌ من العلامات الالهية السعيدة، على ما قيل. كذلك حماسة بني جِلدته الذين بعد أن فهموا مضمون الرسالة التي حملها إليه الوفد الروماني رجوه أن يرافقهم ويقبل بالملك كعامل من عوامل الوحدة والائتلاف بين الشعبين.

فرضخ نوما لهذا الإلحاح، ورحل إلى روما بعد أن أنجز تقديم قربانه للآلهة. واستقبله في الطريق الشيوخ والعامّة الذين خرجوا للترحيب به برغبة لا تُكبح. واستقبلته النساء أيضاً بهتاف الفرح وقُدّمت القرابين عنه في كل المعابد وكان الفرح عاماً حتى لكأنهم يستقبلون مملكة جديدة لا ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة ارتقى درج الفورم حيث كان سپوريوس ڤيتيوس Spurius Vettius في تلك الساعة الملك الوقتي؛ فقام هذا بأخذ الأصوات، وأعلن نوما ملكاً، وجيء إليه بشارات وأوشحة السلطة. ولكنه أبى أن يتقلّدها قبل أن يستشير الآلهة ويحظى بموافقتها ورضاها. فأخذه الكهنة والعرّافون [Ougur](*) إلى الكاپيتول وكان الرومان في ذلك العهد يسمّونه التلّ التاريخيّ. ثم قام رئيس العرّافيين بتغطية رأسه(١٦) وتحويل اتجاهه إلى الجنوب ووقف خلفه باسطاً ذراعه اليمنى على رأسه وأخذ يصلّي وهو يدير له رأسه إلى كل الجهات توقّعاً لإشارة خيرٍ من الآلهة. وكان المنظر عجيباً رائعاً، والصمت والخشوع يهيمنان على الجموع المحتشدة في الفورم وهم في عين التوتر والتوّقع. حتى ظهرت الطيور السانحة ومرّت من جهة اليمين. وعندئذ اتّشح نوما بالرداء الملكي وانحدر من التلّ إلى الجماهير، فقابلته بالتهاني وبالهتاف والصراخ، وحيّته ملكاً مقدّساً، ذا حظوة عند الآلهة. وأول ما فعله عند تولّيه الحكم أنه حَلّ كتيبة الرجال الثلاثمائة الذين كانوا حرس رومولوس الشخصّي وقد عُرفوا باسم كيليرس(١٧)، قائلاً إنه لن يظنّ سوءاً في أولئك

(*) موظف ديني روماني واجبه ينحصر في التنبّؤ بالحوادث المقبلة بدلائل من حركات الطير، أو من حالة أحشاء الذبائح، أو من الظواهر السماوية. وربما كان الاسم تركيباً مزجياً من الكلمتين الرومانيتين [Ovis = طير] و[Gar = كلام] (م. ت).

(١٦) هذا هو النص الحرفي الذي أورده المؤلف. لكن يظهر من ليفي [١ :٨] أن العرّاف لم يغطّ وجه نوما بل غطّى وجههُ Augar ad laevam yejus capite velato sedem cepit. وهذا هو الواقع لأن العرّاف يُلفّ دوماً برداء خاص يدعى Laena عند قيامه بالعرافة.

(١٧) يقول ديون الهاليكارناسوسي [٢ :١٦] إن نوما لم يُحدث أي تغيير في الأجهزة التي أوجدها رومولوس. لذلك ومع أنه لم يستخدم الچليرس بمثابة حرّاس لكنه أبقاهم باعتبارهم من صغار الكهنة وواجبهم الاهتمام بالقرابين والعمل تحت إشراف التريبونات ضباطهم القدماء.

الذين وضعوا ثقتهم فيه، ولا يحكم شعباً ليس له ثقة به. وثاني ما فعله أنه أضاف إلى كاهني جوپتر ومارس كاهناً ثالثاً، تكريماً لرومولوس، وأطلق عليه اسم فلامين كويرينالس Flamen Quirinalis[١٨]. كان الرومان القدماء يسمّون كهنتهم فلامينس Flamines بتصحيفهم كلمة پيلامينس Pilamines اليونانية من كلمة Pileus [پيليوس] وهي القبّعة أو القلنسوة التي كانوا يلبسونها. وفي تلك الأيام كانت الألفاظ اليونانية أكثر امتزاجاً باللغة اللاتينية من الوقت الحاضر[١٩]. ويجرى مجرى هذا أيضاً «الرداء الملكي» الذي يُسمّى لينا Laena فجوبا يقول إنه خلينا Chlaena وهي الكلمة اليونانية المطابقة له. وأما اسم كاميللوس Camillus[٢٠] الذي يُطلق على الصبيّ الخادم في معبد جوبتر حين يكون أبواه على قيد الحياة فهو مأخوذ من الاسم الذي يطلقه بعض الإغريق على مارس مشيرين إلى وظيفته وهي قيامه بخدمة الآلهة الباقين.

وعندما فاز نوما بمودّة وحبّ الشعب، بهذه الإجراءات، باشر حالاً بهمّة تحويل الطبائع الرومانية الصلبة الحديدية إلى طبائع تمتاز بالرقّة والوداعة، وليس أدقّ من وصف أفلاطون بـ«المدينة التي تجتاحها حُمّى محرقة» لروما في ذلك الحين. فقد أنشأتها بالأصل نفوس ما عرفت إلاّ الجراءة والإقدام سبيلاً وعجمت عودها المخاطر والمواقف الصعبة وجاءت بهم إليها صروف الدهر من كل فجّ عميق، وهكذا لم تر الوجود إلاّ بالحروب الدائمية مع جيرانها. كانت الغزوات سبيلاً لبقائها ونموّها والتعرّض للأخطار مصدراً لكلّ قوة جديدة لها مثل أوتادٍ ما أثبتها في الأرض إلاّ ضربات المطارق. لأجل أن يحقق نوما غرضه العسير - تحويل طباع هذا الشعب العنيدة الاعتدائية إلى طباع هادئة مسالمة رقيقة - بدأ بمهمته عن طريق الدين. فأكثر من تقديم القرابين والمواكب والرقص الدينيّ وكان يترأس معظمها بشخصه، محاولاً بهذه المظاهر الدينية التي تمازجها صنوف من الملاهي ووسائل التسلية الإنسانية الرقيقة،

---

(١٨) وعلى هذا الأساس يكون Flamin Martialis كاهن مارس و Flamin Dialis كاهن جوپتر. وعلى هذا فقِسْ.

(١٩) مؤلفة أصلاً وبشكل رئيس من الإغريقي الأيولي القديم. وإن كان الزمن والصيانة والتحسين المتدرّج قد أكسبها المظهر الأخير المختلف جداً.

(٢٠) كاميلوس مشتقة من كلمة «كادميلوس» البويوثية ومعناها في الغالب «خادم» في هيكل. في العادة يوجد شاب حسن الخلق وظيفته خدمة الكاهن. من الضروري أن يكون أبواه على قيد الحياة ولذلك استخدم پلوتارخ الكلمة التي تقابل باللاتينية لفظي Matrium e, Patrium أي الأبوة والأمومة.

التغلّب على أمزجتهم القتالية العنيفة والتخفيف منها. وكان يملأ بين الفينة والفينة أيضاً أذهانهم بالمخاوف الدينية، مدّعياً ظهور أشباح غريبة، وسماع أصوات مرعبة. ليخضع عقولهم ويذلّها، بمشاعر الخوف من خوراق الطبيعة.

هذه الطريقة التي استخدمها نوما أدّت إلى الاعتقاد بأنه على صلة كبيرة بفيثاغورس. ففي فلسفة الأخير منهما وفي سياسة الأول تحتلّ علاقات الإنسان بالآلهة منزلة عظيمة. وقيل أيضاً إن هيبة وجلال مظهره وثيابه إنما استمدّها من شعوره الشبيه بشعور فيثاغوراس. إذ رُوي عن هذا أنه درّب نسراً على الهبوط إليه كلّما ناداه، أو الميل نحوه أثناء طيرانه، وأنه كان في أثناء مروره بين الناس المجتمعين لمشاهدة الألعاب الأولمپية يريهم فخذه الذهبيّة إلى جانب معجزات وغرائب أخرى كان يقوم بها. مما دعا تيمون الفيلاسي Philasian[٢١] إلى كتابة البيت التالي: «إنه ذلك الذي كان معتزاً بمجد المشعبذ بكلامه المهيب الذي يلقيه إلى سمع الجمهور»

وعلى هذه الشاكلة تحدّث نوما عن ربّة معيّنة، أو حوريّة من حوريّات الجبل، تعلقت بحبّه، وراحت تقابله سرّاً كما سبق لنا ذكره. كما أذاع أنه كان كثير اللقاء بالميوزات ومحادثتهن وعزا إلى تعاليمهن معظم الوحي الذي نزل عليه. ومن بينهن واحدة أوصى الرومان بإكرامها بنوع خاص وهي تاچيتا Tacita أي الصامتة، وربما فعل ذلك تقليداً وتكريماً للصمت الفيثاغوري. ورأيه في الصور يوافق جداً مبدأ فيثاغوراس الذي يعتبر أول مبدأ للكينونة شعوراً وعاطفة تسمو على الحسّ البشري، ولا يمكن الوصول إليها إلاّ بالتفكير المطلق التجريدي. ولذلك منع نوما الرومان أن يمثّلوا الآلهة بهيئة إنسان أو حيوان. وإنّك لا تجد أيّ صورة مرسومة أو منحوتة لربّ من الأرباب لفترة طولها مائة وسبعين عاماً فقد بقيت هياكلهم ومعابدهم خالية من الصور والتماثيل. وشاع الاعتقاد بينهم أن هذه الأشياء الوضيعة أرذل من أن تُشبه أرفع الكائنات وأسماها. والوصول إلى الإله مستحيل إلاّ بالذهن الطاهر النقيّ. وقرابينه تشبه بتفاصيلها قرابين فيثاغوراس شبهاً كبيراً، فالدم لايسفك فيها، بل يُكتفى بتقديم الأزهار والخمر وما إليها من أرخص التقدمات. وهناك براهين واضحة أخرى تثبت ارتباط نوما بفيثاغوراس هذا وأن الكاتب الفكه القديم إپيخارموس Epicharmus وهو من المدرسة الفيثاغورية ذكر في كتاب له مهدى إلى آنتينور Antenor أنّ فيثاغوراس جُعل مواطناً حراً من مواطني

(٢١) كاتب سِلّي Silli وهو نوع من الهجاء، سُمّي كذلك نسبة إلى سيلاموس الذي كان يشتد في نقده للفلاسفة بسبب تمسكهم بالمبادئ.

رومة، وسمّى نوما أحد أولاده الأربعة[٢٢]ماميركوس Mamercus وهو اسم أحد أولاد فيثاغوراس. ومنه جاءت (كما قالوا) الأسرة الپاتريشية العريقة أيميللي Aemilli، إذ إن أباه الملك لقّبه على سبيل المزاح أيميليوس Aemilius لأسلوبه اللطيف الطليّ في الحديث. وسمعتُ أثناء وجودي في روما أنه عندما نزلت نبوءة تأمر بإقامة تمثالين[٢٣] أحدهما لأعظم الناس حكمة بين الإغريق وثانيهما لأعظمهم بسالةً، أقاموا تمثالين من النحاس أحدهما لألسكيبيازيس، والآخر لفيثاغوراس. ومهما يكن من أمرٍ فلنتحوّل عن هذه الأمور التي يكتنفها الكثير من الأوهام، فضلاً عن كونها من قلّة الأهمية بحيث لا تستحقّ صرف وقت أكثر من هذا. والى نوما يُعزى إنشاء رتبة الكنهة المعروفين باسم پونطيفچيس Pontifices[٢٤]، وقيل إنه كان أولهم، وإنّ الكلمة مشتقة من پوطنس Potens أي «ذا القوة» لأنهم يقومون بخدمة الآلهة ذوي الحَوْل والسلطان على الجميع. ويزعم آخرون أن الكلمة تشير إلى «استثناءات من قضايا مستحيلة» فالكهنة عليهم أن يقوموا بكلّ الواجبات الممكنة، فإن وجد أمر يفوق طاقتهم وحدود إمكاناتهم فينبغي ألاّ يثار احتجاج على قصورهم فيه. وأكثر الآراء شيوعاً عن أصل الكلمة هي أكثرها سخافةً[٢٥] يشتقون الكلمة من پونس Pons والجسر باللاتينية هو Pontem،

---

(٢٢) على سبيل إكرام الكتّاب بعضَ الأسر الرومانية عمدوا إلى ربط نسبها بنسب نوما وعزوا إليه أربعة أولاد. لكن المعروف عموماً أنه لم يخلّف غير ابنة واحدة اسمها پومپيليا. وأسرة إميلي هي واحدة من أشهر الأسر الرومانية يتفرّع منها فروع الپاولي Pauli والپاپي Papi. وكلمة أميليوس بالإغريقية تعني الرقيق أو الجميل.

(٢٣) بحسب رأي پليني (تاريخ الطبيعة ٣٤:٥) أنه كان أثناء حربهم مع السانيين (٣٢٩-٣٣٤ ق.م) حين أمر أپوللو الپيثي الرومان بإقامة التمثالين فتم نصبهما في الكوميسيوم وبقيا ثمّ حتى دكتاتورية سيللاّ (٧٨-١٣٨ ق.م). ولعل الأمر الذي ورد في النبوءة كان يشير إلى الرومان بأن يتزوّدوا بحكمة الإغريق ويتحلوا بشجاعتهم إن أرادوا النصر.

(٢٤) نصّب نوما أربعة وكلهم من الپاترشيين. ولكن أضيف إليهم في العام ٤٥٣ أو ٤٥٤ ق.م أربعة من الپليبيين. وفي عهد سيللا بلغ عددهم خمسة عشر. والملك نفسه يؤكد هنا أنه كان يترأسهم، أو ما يدعى بالكاهن الأعظم على أن ليڤي [١:٢٠] يعزو ذاك الشرف إلى شخص آخر بنفس الاسم هو نوما مارشيوس ابن أحد الشيوخ. وربما كان پلوتارخ قد التبس عليه الاسم. ومن المحتمل جداً أن نوما احتفظ لنفسه بهذا المنصب لشدة تديّنه. فالملوك في العالم القديم كانوا يسيرون على هذا الخط. وقد حذا حذوهم أباطرة الرومان في فترة متأخرة كما سنرى.

(٢٥) ومع هذا فإن ڤارو الأول منهما على الأخص بأن پونس سوبليشيوس بنيت أولاً ثم جرت عليها ترميمات عديدة تحت إشرافهم. إن هذا العمل الشعبي الممتاز كان يُستبق دائماً بتقديم الذبائح =

وتمنح الكهنة لقب «بُناة الجسور»! القدماء. وحراسة الجسر وترميمه منوطان بالكهنة كأي واحدةٍ من الوظائف العامة المقدسة الأخرى، ويرونها أقدس وأقدم المراسم الدينية. هؤلاء الكهنة أيضاً يقال إنهم خُوّلوا العناية بالجسور بوصفها أهم عملٍ في وظيفتهم الكهنوتية. وعُدّ هدم الجسر الخشبي(٢٦) وكسره من قبيل الكفر والإثم الديني لا مجرّد جريمة ممنوعة قانوناً. وقيل فضلاً عن هذا أن بناءه كان من الخشب تشدّ أجزاءه مسامير خشبية لا مسامير أو عُضادات حديدية، اطاعةً لنبوءةٍ(٢٧). ولم يبن الجسر الحجريّ إلا بعد زمن متأخر جداً، عندما كان ايميلوس أميناً للخزانة العامة Quaestor(*). وقالوا أيضاً إن الجسر الخشبي لم يسبق عصر نوما وانّما أكمل بناءه أنكوس مارشيوس Ancus Marcius لمّا ملكَ، وهو حفيد لنوما من بنته.

إن وظيفة «پونطفيكس ماكسيموس» أو الكاهن الأعلى استُحدثت لأجل تفسير الشريعة الإلهية أو بالأحرى للهيمنة على الفرائض المقدسة وليست وظيفتها قاصرة على مراقبة قواعد الاحتفالات الدينية العامة بل على تنظيم تقديم قرابين الأفراد ومراقبتها لئلا تخرج عن العرف الجاري، وتقديم المعلومات لكل شخص، عما هو مفروض في العبادات والصلاة. وكذلك يكون الكاهن وصيّاً حارساً على عذارى فستا. ويُعزى إلى نوما إنشاء وظيفتهن(٢٨) هذه إلى جانب استحداث النار الخالدة التي يرعينها. ولعلّه تصوّر أنه من المناسب جداً أن يعهد بالنار الطاهرة غير النجسة إلى أشخاص ذوي عِفّةٍ وطهارة. أو أن النار التي تضطرم ولاتنتج شيئاً حتى تخمد فيها وجه شبه بحياة العذراء(٢٩). وفي بلاد اليونان يُعهد بأمر النار المقدسة الخالدة أينما وجدت - كما في دلفي وأثينا - لا إلى العذارى بل إلى الأرامل اللاتي فات أوان زواجهن. وقد يحدث بمحض الصدفة أن تنطفئ هذه النار كما انطفأ المصباح المقدس في أثينا على عهد

= والدعوات لربّ النهر. وقد نقل هذا الواجب من اختصاص الكهنة إلى الكستور في عهد أغسطس قيصر.

(٢٦) ما زال موجوداً يُنظر إليه باحترام ومهابة وهو يربط يانيكولوم بالمدينة. انظر ديون [٣:١٤] وكذلك الكتّاب المتأخرون حول روما الحديثة.

(٢٧) أسلوب البناء هذا يعزوه پليني (٣٥:١٥) لا إلى النبوءة بل للصعوبة التي جابهت الرومان عند كسره (وكان موصولاً بخطّافات حديدية) في حروبهم ضدّ پورسيّنا.

(*) سنة ١٧٩ كانت مسألة معرفة نوما بفيثاغوراس مسألة يكتنفها الغموض كانت موضع أخذ ورد طويلين وهي أشبه بجدال الاطفال.

(٢٨) بالأحرى بناء معبد فستا لأن رياسلفيا والدة رومولوس كانت فستا له ألبا.

(٢٩) هناك تناقض بين هذه العبارة والعبارة التي أوردها المؤلف بالذات في سيرة كاميللوس فلتراجع.

طغيان أرسطيون Aristion[٣٠]، وفي دلفي عندما أحرق الميديون المعبد[٣١]، وكذلك في أيام الحروب الأهلية الرومانية[٣٢] والحروب الميثريداتية Mithridatie حيث هُدم الهيكل أيضاً. في هذه الحالة كان يُعدّ من قبيل الإثم والنجاسة أن توقد هذه النار ثانيةً من لهيب أية نارٍ اعتياديّة، أو شرارة رمادٍ أو من أي شيء آخر إلاّ أشعة الشمس النقية غير النجسة. ويتم ذلك عادة بالعدسات اللامّة[٣٣] وهي جسم يتألف من منشور مستطيل مثلث كلّ خطوطه من أسطحه تلتقي في مركزٍ واحد ويكون دائم الدوران فبتعريضه للشمس يتمكنون من جمع أشعّة الشمس فيه وتركيزها كلها في نقطة التقاء تلك «البؤرة»، فيغدو الهواء ساخناً وتلتهب كل مادة خفيفة جافة قابلة للاشتعال حالما تُقرّب من الأشعة التي تتطلب المادة والقوة الفاعلة للنار. ويرى بعضهم أن وظيفة هالة الفستالات هي حفظ النار ليس غير، إلاّ أن آخرين يقولون إنهن يحافظن على أسرار مقدسة أخرى[٣٤] كُتمت عن الجميع. وقد أتينا في سيرة كاميللوس إلى ذكر كلّ ما تصحّ روايته، أو السؤال عنه من تلك الأسرار.

وقد ذُكر أن جيغانيا Gegania وڤيرينيا Verenia كانتا أول كاهنتين رسمها نوما لوظيفة الفستالات. ثم أعقبهما بكانيوليا Canuleia وتارپيا. ثم أضاف سرڤيوس Serviaus اثنتين، وظلّ العدد أربعة حتى يومنا هذا.

---

(٣٠) بقي أرسطيون (٨٦-٨٨ ق.م) صامداً مدة طويلة لحصار سيللا مدينة أثينا وكان قد استولى عليها أثناء حروب ميثريدات. وكان أرسطيون هذا قد ارتكب أعمالاً شنيعة عديدة بحق المدينة. كما كان السبب في إلقاء الحصار عليها ونهبها بالأخير. كانت النار المقدسة تحفظ في معبد مينرڤا.

(٣١) في عهد كيخسرو الفارسي.

(٣٢) يحدثنا پليني (الملحق ٨٦:٦) أن ما حدث والحرب الأهلية بين ماريوس وسيللا تكاد تشرف على نهايتها هو أن ميوتيوس سكيڤولا الكاهن اغتيل عند مدخل معبد فستا. لكننا لم نجد النار المقدسة مطفأة. إلاّ أن لوكان يقول إنه سقط بالقرب من المعبد وإن دماءه كادت تطفئ النار المقدّسة. بل عندما أحرق هذا المعبد عند نهاية الحرب البونية ٥١٢ ق.م. فإن الكاهن ميتيلوس متللوس اندفع خلال النيران وأنقذ البلاديوم وغيره من المقدسات وقد دفع بصره ثمناً لذلك. كذلك احترق الهيكل مرة أخرى عند نهاية حكم كومّودوس. ولعل پلوتارخ كان يخلط هنا بينه وبين الكاپتول.

(٣٣) العدسات الحارقة التي تجمع الأشعة في البؤرة هي من مخترعات أرخميدس الذي عاش بعد نوما بخمسة قرون.

(٣٤) كتلك التي تتعلق بـ«البلاّديوم» والتماثيل وغيرها لآلهة ساموثراكي [انظر ديون ٢:١٧].

إن النظام الذي استنّه نوما للفستالات هو كما يلي: يجب أن ينذرن عذريتهن لمدة ثلاثين عاماً. يقضين العشرة الأولى منها في تعلّم واجباتهنّ، والعشرة الثانية في مزاولتها، والعشرة الباقية في تعليمها للأخريات وتدريبهن عليها. وبعد أن تنتهي المدة يكنّ حُرّات في أن يتزوجن. ولكن يقال إن قليلات منهن اخترن مزاولة هذا الامتياز. وقد لوحظ أن حياتهن الجديدة بعد تقاعدهن عن وظيفتهن لم تتميّز بالسعادة، وإنما رافقها الأسف والندم والكآبة. ولذلك تجد القسم الأكبر منهن يؤثرن البقاء والاستمرار حتى أرذل العمر والموت محافظات بأشدّ ما يمكن على حياة العزوبة بدافع من الخوف الدينيّ وضغط الضّمير.

وبمقابل تلك الصرامة عوّضن بامتيازات وسلطات كبيرة. فلهنّ أن يوصين في حياة آبائهن، ولهنّ حق ادارة شؤونهن بدون وصيّ أو قيّم. وهذا امتيازٌ لا يُمنح الاّ لمرأة متزوّجة أم أولاد ثلاثة. وإذا خرجن لشأن سار أمامهن حملة الفاجيّ(٣٥)، وإذا لقين في سيرهن مجرماً يساق إلى حتفه أمكنهن إنقاذ حياته بعد أن يُقسمن(٣٦) بأن اللقاء كان بمحض الصدفة وليس مُدبّراً. وإذا احتك أحد بالكرسي الذي يُحملن عليه يحكم عليه بالموت، وإن اقترفت إحداهن خطأً بسيطاً عاقبها الكاهن الأعظم وحده بجلدها بالسياط (عاريةً أحياناً) في مكان مظلم وبينهما ستار مسدل. ومن تفرّط بنذرها تُدفن حيّة(٣٧) قرب باب في المدينة اسمه كوللينا Collina حيث يقوم كثيب من التراب داخل المدينة ويمتد بعض مسافة، ويدعى باللاتينية (Agger)، فتبنى في جوفه غرفة صغيرة ينزل المرء إليها بدرجات. ويهيّئون في تلك الغرفة فراشاً ويشعلون مصباحاً ويتركون كمية زهيدة من الطعام تتكوّن من الخبز والماء وإناء من الحليب وشيء من الزيت، حتى لا

---

(٣٥) حُزمة العصيّ في وسطها فأس، يحملها اللكتور أمام الحكام الكبار الرومانيين إشارة إلى السلطة. وهي من كلمة Fascis اللاتينية ومعناها «حزمة» ومنها جاء اسم الحزب الفاشي (الفاجي) الذي أسسه موسوليني في إيطاليا في الحرب العامة الأولى. ولم يخصّهم نوما وحده بهذا الامتياز بل حباهم به أيضاً ثلاثي الحكم في ٧١٢ ق.م وأعطى أغسطس ما دُعي بـ Juo trium libesorum بتشجيع المواطنين بعد الدمار الذي أحدثته الحروب الأهلية.

(٣٦) لايجرؤ كاهن لجوبتر أو لفستا على تأدية قسم فهو مصدّق بكلامه. ولو شاؤوا فهم مختارون في تأكيد أقوالهم وتوثيقها باليمين لكن يندر أن طيلب منهم ذلك. وإن حلفوا فهم يحلفون بربّتهم فستا فحسب.

(٣٧) في ألبا يُجلدن بالسياط بسبب ما يقترفن ولا أكثر [ديون ١ :١٧]. إلاّ أن نوما شدّد العقوبة إلى حَدّ الرجم. أخيراً جعلها تاركوينوس پريسكوس الدفن حيّةً.

يقال إن ذلك الجسم الذي كُرِسّ ونُذر لأقدس خدمةٍ في الدين قد هلك جوعاً[٣٨]. وتوضع المذنبة في محفّة، وتغطّى تماماً وتُربط بالحبال حتى لا تسمع الأذن شيئاً مما قد تقول، ثم ينقلونها إلى الفورم، وينسحب كل المارة عن سبيلها صامتين أثناء مرور المحفة، وتتبع النعش زميلاتها بألم صامتٍ كئيب. ولعَمري ليس ثمّ منظر أشدّ إيلاماً من هذا المنظر، ولا يوم مثل هذا اليوم تعيشه المدينة بأعظم الأسى والكآبة. وعندما يبلغ الموكب ساحة التنفيذ يَحّل الضباط الحبال ثم يرفع الكاهن الأعلى يديه إلى السماء ويتمتم ببعض الأدعية المخصوصة قبل المباشرة. ثم يأتي بالمحكومة وهي مستورة ويضعها على الدرج المؤدي إلى الحجرة ثم يدير رأسه جانباً مع الكهنة الباقين. ثم يرفع الدرج بعد أن تُقذف إلى أعماق الغرفة ثم يُهال مقدار من التراب فوق الفتحة وتسوّى حتى لا يمكن تمييزها عن باقي سطح الكثيب. ذلكم هو عقاب اللاتي يكسرن نذر عِفّتهن.

وقيل أيضاً إن نوما بنى معبد ڤستا، ليكون مذخراً للنار المقدسة وهو على شكلٍ دائري، لايمثل هيئة الأرض كأنها مثل فستا تماماً، بل ليمثل عموم الكون. ففي الوسط يضع الفيثاغوريون عُنصر النار[٣٩] ويطلقون عليه اسم ڤستا والوحدة، ولم يكن من رأيهم أن الأرض ثابتة أو أنها تقع في مركز دائرة الكون وإنما هي مستمرة الدوران حول مجلس النار وليست في عداد العناصر الأولية. وهم في هذا يتفقون مع أفلاطون الذي قال في أواخر حياته (على ما زعموا) بأن الأرض تحتلّ مركزاً ثانوياً وأن الفضاء المركزي المهيمن احتجزه جسم آخر أسمى من الأرض.

وهناك وظيفة أخرى للكهنة هي أن يشرفوا ويرشدوا الناس إلى المراسم المتبعة في الجنّاز. وقد علّمهم نوما أن لا ينظروا إلى هذه الأعمال نظرة تقزّز واشمئزاز، بل كواجبٍ محتّم للأرباب السفليين الذين ينتقل إلى أيديهم خير جزءٍ مِنّا، وكذلك أوجب عليهم ان يعبدوا الربّة ليبيتينا Libitina التي تُشرف على كلّ مراسم الدفن. وسواء أقصدوا بها پروسپوينا Prospuina أم ڤينوس (كما يرى معظم الرومان المطلعين)[٤٠]

---

(٣٨) هناك أمر يجافي العقل والمنطق. إذ ما فائدة الطعام للفستاله المقبورة حية بعد انقطاع الهواء عنها بسدّ القبر؟ أو لعل ما قصده پلوتارخ من استخدامه كلمة أرزاق هو بعض مواد القرابين؟

(٣٩) معروف جداً أنها نظرية فيلولايؤس وغيره من الفيثاغوريين إلاّ أن ثيوغينس ليثريتوس يذكر لنا أن فيثاغوراس نفسه يرى الأرض هي المركز.

(٤٠) إن ڤينوس ليبيتينا هذه هي بروسپرينه بعينها. وقد أطلق عليها في دلفي اسم ڤينوس ايتوفقيا. وپلوتو هو رئيس آلهة الظلام السفلي كما أن لديهم أيضاً عطاردهم.

فليس مما لا يتّسق منطقياً أن يُعزى بدء حياة امرئ ونهايتها إلى مسعى ربّ واحدٍ.

وعيّن نوما أيضاً قواعد تتوخّى تنظيم أيام الحِداد، بموجب أوقات مخصوصة وبحسب الأعمار. فمثلاً طفل في الثالثة من عمره لايقام له حِداد مطلقاً فإذا زاد سنّه عن هذا حتى العاشرة يكون الحداد عليه شهراً لكلّ سنة زيادة في عمره. ومهما بلغ سِنّ الميت فيجب ألاّ يزيد أقصى فترة للحداد عن عشرة أشهر. وهو الزمن المعيّن للنسوة اللاتي مات عنهن أزواجهن لمواصلة حياة ترمّلهن حتى تنقضي المدة. وإن تزوجت الأرمل قبل انقضاء هذه العِدّة فعليها بمقتضى شريعة نوما أن تضحّي ببقرة مع عجل(٤١).

وأحدث نوما أيضاً أصنافاً أخرى من مراتب الكهنوت، وسأتكلم عن اثنين منها هما السالي Salii(٤٢) والفشياليس Feciales(٤٣) مقدّماً بهما أسطع برهانٍ على تقاه وقداسته. هؤلاء «الفشيال» أو القيّمون على السلام يبدو أن اسمهم مشتق من طبيعة

---

(٤١) قربان غير طبيعي كهذا، يقصد به ردع الأرامل عن الزواج ثانية قبل ختام عدة الحداد. إن السنّة التي اشترعها روملوس تمتد عشرة أشهر لا أكثر. وعندما أضاف نوما شهرين آخرين فيما بعد لم يغيّر من الفترة المقررة سابقاً للحداد. ولذلك فنحن كثيراً ما نجد ما يُسمّى بسنة الحداد Lutus Annus بعد الزمن المحدد وهي في الواقع سنة روملوس. إن لون ثياب الحداد المعتاد الذي يستخدمه الجنسان إظهاراً لحزنهم هو الأسود الصرف دون أن يخالطه لون آخر. لكن الموضة التي سادت البلاد بعد قيام الإمبراطورية شملت ألواناً عديدة من الثياب. وصار الأبيض الساذج المحلّي مبتذلاً إلى الحدّ الذي صارت النسوة تستخدمه لثياب الحداد [پلوتارخ: مسائل رومانية]. والملاحظ في يومنا هذا أن الأبيض هو لون الحداد عند الصينيين.
هناك أحوال وأحداث توجب إنهاء فترة الحداد العام أو وقف الحداد الخاصّ قبل انصرام الفترة التي عيّنها العُرف كتدشين هيكل، أو الاحتفال بألعاب عامة، أو أعياد، أو التطهّر الذي يقوم به الچنسور، أو حلّ قسم قاض أو جنرال. وتُنزع ثياب الحداد أيضاً عند عودة أب أو أخ أو ابن من الأسر أو عندما تسند وظيفة إلى أحد أفراد الأسرة، أو يُرقى.

(٤٢) السّالي هم حرس الأنچيليا، أي الدروع الاثني عشر المعلقة في هيكل مارس. لصق هذا الاسم بهم من عادة رقصهم عند الاحتفال بالعيد السنوي المقام تخليداً لذكرى الدرع العجائبي الذي ادّعى نوما أنه هبط عليه من السماء. ولا يزيد عدد هؤلاء الحرس عن اثني عشر يتمّ اختيارهم من الشباب الپاتريشي الذين يمتازون بالرشاقة وجمال القوام (ديون ٢:١٨).

(٤٣) ديون: يراهم من الأروميين (السكان الأصليين). ويقال إن نوما استعار هذا من أهل لاسيوم. إذ عيّن عشرين فيچيال بعد اختيارهم من أعرق الأسر في روما ووضعهم في معهد خاص. وإن ما يدعى پاتر پاتراتوس وهو الذي يعلن الحرب وينهيها ربما كان أحد أعضاء هذه الجمعيّة يختار لهذه الغاية شريطه أن يكون أبوه وابنه في قيد الحياة [ليڤي ١:٢٤ و ٣٢] [ديون ٢:١٩] [چيلوس ١٦:١٤].

وظيفتهم، وهي وضع حَدّ للخلافات بالنصح ومجالس الصلح، إذ لا يسمح باللجوء إلى السلاح إلاّ بعد أن يعلنوا هم أن كلّ أمل في التفاهم قد زال. ونحن أيضاً نطلق باليونانية كلمة سلام عندما تُحلّ الخصومات بالكلام لا بالقوة. يرسل الرومان عادة «الفِسيال» أو السعاة إلى أولئك الذين اعتدوا عليهم أو أضرّوا بهم بطلب الانتصاف والتراضي، فإذا رفض هؤلاء دعوا الآلهة ليشهدوا فعلهم ونادوا بالويل لهم ولبلادهم إن كانوا الظالمين، ثم أعلنوا الحرب عليهم. ولا يجوز للجندي ولا للملك أن يلجأ إلى السّلاح ضدّ رغبة هؤلاء الكهنة أو دون موافقتهم. والحرب تبدأ بإشارة منهم فإن أبلغوا القائد بأن الحرب التي سيشنّها هي حربٌ عادلة فتكون مهمّته تقرير كيفيتها ووضع خططها.

ويُعتقد أن المذبحة التي أوقعها الغاليون بالرومان والدمار الذي أنزلوه ببلادهم كانا عقاباً للمدينة لإهمالها هذه الإجراءات الدينية. فعندما غزا هؤلاء البرابرة الكلوينيين Cluinians. أوفد فابيوس أمبوستوس Ambustus إلى معسكرهم للتفاوض في صلح مع المحاصرين فكان جوابهم خشناً فظاً، فتصوّر فابيوس أن مهمته كسفير انتهت والتحم معهم بمعركة منحازاً إلى صفّ الكوسينيين، متحدّياً أشجع محارب من العدوّ لمبارزته في نزال ثنائيّ. وحالفه الحظ فقتل خصمه وأخذ سلاحه غنيمة. ولما عرف الغاليون بما حصل بعثوا إلى رومه برسول يشكون أمره، لأنه نقض قانون الحرب الدولي وأخّل بالسلام قبل أن تُشهر الحرب. فنوقش الموضوع في مجلس الشيوخ وكان من رأي «الفيسيال» أن يُسلّم فابيوس إلى أيدي الغاليين. ولسبق إنذاره بالقرار، فَرّ إلى عامة الشعب ونجا من العقوبة بحمايتهم ووقوفهم إلى جانبه. فما كان من الغاليين إلاّ أن زحفوا بجيشهم على رومه، واستولوا على الكابيتول ونهبوا المدينة؛ وإن تفاصيل هذه الحادثة مثبته في سيرة حياة كاميللوس.

ومنشأ كهانة سالي هو كما يلي: في السنة الثامنة من حكم نوما ظهر وباء فظيع اجتاح إيطاليا كلّها وغزا رومه أيضاً وملكت الرهبة والكربة قلوب الناس. وقيل إن درقةً نحاسيّة سقطت من السماء بين يدي نوما فأنهى إلى الناس عنها الرواية التالية: إن ايجيريا والميوزات أكدّن له أن الدرقة هي هِبة سماويّة لشفاء أهل المدينة وخلاصهم. ولأجل الإبقاء عليها أمرته الربّات بأن يصنع إحدى عشرة درقة أخرى تماثل الأصلية في حجمها وشكلها بحيث لا يمكن لأي لصٍ أن يفرّق بين الأصلي والمقلّد. كما أنه أعلن نيّته في تكريس الموضع الذي يلتقي فيه مع الميوزات ووقفه عليهن مع الحقول المحيطة به، كذلك النبع الذي يروي تلك الحقول جعله مقدساً ووقفاً على استعمال العذارى

القستالات، ليقمن بغسل وتنظيف قدس الأقداس في هيكلهن بتلك المياه المقدسة. وكانت سرعة زوال الطاعون برهاناً دامغاً على صواب إجراءاته هذه. وعرض نوما الدرقة على أرباب الصنعة ورجا منهم إبداء مهاراتهم في عمل أشباه لها. ولم يفلح في ذلك أحدٌ حتى توصّل صانع ماهر اسمه ماميوريوس ڤيتوريوس Mamurius Veturius إلى ما قصُر عنه باع الآخرين وعمل نسخاً من الدرقة لم يستطع نوما نفسه أن يميّز الأصيلة منها. وعهد بحفظ هذه الدرقات إلى كهنة مخصوصين يسمّون «سالي». وهؤلاء لم يأخذوا اسمهم هذا من ساليوس Salius أستاذ الرقص، كما يدّعي بعضهم زاعماً أنه ولد في ساموثراكه Samothrace أو مانتينيا Mantinea وكان يعلّم الرقص بالسلاح، وإنما اشتق على أغلب الاحتمال من الرقص بالقفز وهو ما يزاوله «السالي» أنفسهم عندما يحملون الدرقات المقدسة في شهر آذار ويطوفون بها في أنحاء المدينة. وهم في هذه المواكب يرتدون قمصاناً قصاراً من الأرجوان ويتمنطقون بأحزمة عريضة مكفتة بالنحاس ويضعون على رؤوسهم لامات نحاسية ويشهرون خناجر قصاراً. ويقومون بين الفينة والفينة بتمثيل عملية التحام وطعان بالدرقات إلاّ أن المظهر الرئيس في الموكب هو الرقص، فيتمايلون ويتأوّدون برشاقة ويمثلون بسرعة ولمحات خاطفة بعض الحركات المعقدة بكثير من مظاهر القوة والخفة. ويطلق على الدرقات اسم أنكيليا Ancilia لأنها ليست دائرية الشكل ولا كاملة الاستدارة كالدرقات الاعتيادية، وإنما مُقَرنصة متعرّجة تُثنى حوافها بعضها إلى بعض نحو الداخل في أثخن المواضع منها.

وبهذا تكون ذات شكل مقوّس أو ما يُسمّى بالإغريقية أنكيلون Ancylon أو لعلّه جاء من كلمة أنكون Ancon أي المرفق فبه تُعلّق، وهو ما يقوله جوبا الشديد الرغبة في ان يجعلها إغريقية الأصل. ومن المحتمل أنها جاءت من Anecathen أي النزول من فوق. لأنها هبطت من السماء، أو من أكيسيس Akesis لما لها من قابليّة الشفاء، أو من أوخمون ليسيس Auchmon Lyusis لأنها وضعت حداً للمَحْل والجفاف، أو من أناسخيسيس Anaschesis أي الخلاص من النائبات. وهي أصل الإسم الأثيني أناسيس Anaces الذي منح لكاستورو وللوكس إذا كان علينا أن نردّها إلى أصل إغريقي. وكانت مكافأة الصانع ماموريوس على مهارته أن اسمه بات يُذكر بالثناء في القصائد التي يغنّيها كهنة السالي وهم يرقصون بسلاحهم في شوارع المدينة. على أن بعضهم يزعم أن السالي لا يلفظون ڤيتوريوم ماميوم Yeturium Mamwium بل ڤيتيرم ميموريام Veterem Mamoriam أي الذكرى القديمة.

بعد أن استحدث نوما هذه الرتب الكهنوتية المختلفة أقام بالقرب من معبد فستا، ما يُسمّى حتى يومنا هذا «ريجيا» أو بيت الملك. حيث كان يقضي جُلّ أوقاته في التعبّد وخدمة الأرباب، مرشداً الكهنة أو متحدثاً معهم في مواضيع دينية مقدسة. وكان لديه منزل آخر فوق جبل كويريناليس ما زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا. وكان المنادون يخرجون قبل أن يبدأ أي موكب ديني، أو صلاة، ينادون الناس بوجوب تركهم عمّالهم والخلود إلى الراحة. ويقولون إن الفيثاغوريين ما كانوا يسمحون للناس بأن يتعبّدوا ويصلّوا إلى آلهتهم على هواهم وكلما سمحت لهم الظروف بل أن يخرجوا من بيوتهم وأذهانهم متهيّئة لأداء الفريضة. ولذلك رغب نوما تبعاً لذلك أن لا يرى مواطنوه المراسم الدينية أو يسمعوها وهم غافلون غير خاشعين، بل أن يتركوا ما بأيديهم من أعمال وأن ينصرفوا بمجامع نفوسهم إلى الدين بوصفه أرفع عمل للبشر وأكثر جدّية، وأن تزول الضوضاء من الشوارع، وتقلّ ضجة الأعمال الجسديّة وينقطع مرور السابلة إفساحاً لسبيل المواكب الديني. وقد بقيت آثار لهذه العادة في رومه حتى يومنا هذا، إذ عندما يبدأ القنصل استخارته بمراقبة الطير، أو بتقديم قربان. ينادى في الناس Hacage أي انصتوا لهذا!»، وهو تحذير للحاضرين بأن يضبطوا أنفسهم ويخشعوا. وكثيرٌ من هذه التنظيمات تشابه ما وصفه الفيثاغوريون. فمن أقوالهم «لا تجعل المكيال بمثابة مقعد تجلس عليه[٤٤]. لا تحرّك النار بالسيف[٤٥]. عندما تخرج إلى سفرٍ فلا تنظر خلفك[٤٦]. فلتكن أُضحياتك لآلهة السماوات بعددٍ وتريّ، ولتكن أضحياتك لآلهة الأرض بعدد شفعيّ[٤٧]». إن مدلولات كل هذه الوصايا لم تكشف للعامة، وكذلك بعض مبادئ نوما لا ترى لها معنى واضحاً كقولهم «لا تقدّم قربان خمر إلى الآلهة من خمرٍ فطيرةٍ، لا تقدّم أية أضحيات بدون خبز[٤٨]. قم بالدوران لمّا تؤدّي صلاتك

---

(٤٤) بمعنى أن لا نستسلم لدواعي الكسل.

(٤٥) أي «لا تزيد في غيظ من كان مغتاظاً».

(٤٦) في موضع آخر أثبت پلوتارخ الوصيّة بهذا الشكل: «لا تكر من الحدود راجعاً» والمعنى واحد وهو «مت رجلاً، ولا تتحسر على الحياة وهي تتركك، ولا تتمّن أن تعود صغيراً».

(٤٧) يرى الأقدمون العدد الوتري أكثر كمالاً، ويعتبرونه رمز الاتحاد إذ لا يمكن قسمته إلى نصفين متساويين كالعدو الشفعي. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد للتفضيل أي باعتبار الشهر الثاني لآلهة الأرض. على أنه نجم عن ذلك آلاف من الرسوم الخيالية ما زال بعضهم يحتفظ بها إلى يومنا هذا.

(٤٨) الغرض الأساس من هذا الشرط ربما من أجل صرفهم عن تقدمة الدم واستدراجهم لتقديم =

للآلهة[٤٩]. اجلس بعد أن تكمل فريضتك». إن الوصيّتين الأوليين تشيران إلى أن فلاحة الأرض وإصلاحها هما جزء من الدين. واستدارة المصلّين أثناء قيامهم بالفرائض انما يمثل دوران الأرض على ما زعموا. وفي رأيي: أنه لما كانت المعابد تستقبل جهة الشرق فإن المؤمن يدخلها وظهره مستدبرُ القبلة أي مَشرق الشمس بينما وجههُ يستقبل الآلهة فبدورانه يؤدي صلاته للربّين معاً. هذا إلاّ إذا كان في تغيير الاتجاه في الصلاة معنى غامض مثل «العُملة المصرية»[٥٠] التي تشير إلى تقلبّات حظوظ الإنسان ووجوب الرضى بكل ما قسمه الاله من حظوظ أو غيره من أحوال مهما كانت وجهتها، فهي صحيحة ومناسبة. ويقولون أيضاً إن الجلوس بعد الصلاة هو علامة على أن دعوات المصلّين قد استجيبت، والبركة التي طلبوها مُنحت لهم. ثمّ كانت الأعمال المختلفة مقسّمه بفترات من الراحة. فلربما كان جلوسهم بعد فراغهم من عملهم لأجل نيل رضا الآلهة عن عملٍ آخر سيبدأونه. وهذا ما يتسق تماماً مع ما ذكرنا قبلاً، وهو أن المشترع يريد تعويدنا على رفع صلاتنا إلى الربّ لا بحسب ما تسنح به الظروف ولا بوجه العجلة لأجل الانصراف إلى أعمال أخرى، ولكن بتوفير وقتٍ وفراغٍ لها. وبهذا التنظيم والتثقيف الديني انتقلت المدينة دون أن تدري إلى حالة من هدوء الطبع، وامتلأت إعجاباً واحتراماً لفضائل نوما بحيث كانت تطيع كل ما يستنّه بثقة خالصة من أي شكّ وإن لم تكن مغرقة في الخيال وما وراء الطبيعية، ووجدوا به إنساناً لا يعصيه شيء أو يستحيل عليه ولا يُذكر عنه أمر إلاّ ويصدق عليه.

وهناك حكاية هي أنه دعا مرةً عدداً كبيراً من المواطنين إلى مأدبة[٥١] وكانت الصحاف التي وُضِع فيها اللحم بسيطة جداً مما يُستعمل في بيوت العامة والطعام نفسه كان اعتيادياً فقيراً، وعندما جلس الضيوف بدأ يحدّثهم أن الآلهة التي اعتادت محادثته

= الكعك وتماثيل الحيوانات المصنوعة من العجين، أو ربما للتدليل على أن الخبز هو أفضل هدية من الطبيعة. أمّا الخمر الماسخة فلا قيمة لها.

(٤٩) ربما لتمثيل عظمة رئيس الآلهة.

(٥٠) يقتبس كليمنت الإسكندراني (٥:٨) فقرةً من أحد نُحاة تلك المدينة جاء فيها قوله: إن الكهنة المصريين كانوا يعبدون العجلة في أماكن العبادة لأنها تمثل سرعة التنقل وعدم الاستقرار. ويعبدون الزهر تذكيراً بقصر الحياة».

(٥١) يحدّثنا ديون [٢: ١٥] أن نوما أشهد هؤلاء المدعوّين الرومان بعد أن أطلعهم على كلّ غرف قصره صباحاً بحقارة الأثاث الذي لا ينبئ عن المأدبة العظيمة التي تعيّن قيامها مساء ذلك اليوم. ثم إنه أبقاهم معه الجزء الأكبر من ذلك اليوم وبعد ذلك دخلوا محل العشاء فوجدوا لدهشتهم كل شيء ينطق بالفخامة والنفاسة. وربما عزا هذا كلّه إلى صديقه وخِلِّهِ الخفيّ!

قد زارته الآن. وعلى حين غرةٍ ظهرت في القاعة أنواع مختلفة من أثمن الأقداح وحفلت المائدة بأنفس الطعام واللحوم. إلاّ أن المحاورة التي قيل إنها جرت بينه وبين جوپتر تفوق كل الأساطير الخيالية التي صُنّفت عنه. قيل إن إلهين نصفين هما بيكوس Picus وفاونس Faunus كان يختلفان إلى ينابيع وخمائل «جبل آفنتين» قبل أن يصبح مأهولاً ويدخل في المدينة، وربما كانا من جماعة المسوخ Satyr أو الپان Pan خلا أنهما كانا يتجولان في كل أرجاء إيطاليا ويقومان ببعض أنواع الحيل والخوراق عن طريق السِّحر والعقّار، كما عزا الإغريق ذلك إلى ما يسمونهم إئيدي داكتيلي Idaei Dactyli[٥٢]، وعزم نوما يوماً أن يفاجئ هذين الإلهين النصفين بسكب مزيج من الخمر والعسل في مياه النبع الذي يشربان منه عادة. وعندما وجدا أنهما وقعا في الفخ خرجا عن هيئتيهما الحقيقيتين واتخذا مُختلف الأشكال وتزيّا بكلّ زيّ بشعٍ ومظهر غير عاديّ. ولكن لمّا وجدا أن لا فكاك لهما من الفخّ، ولا أمل في تحرير نفسيهما، اضطرا إلى أن يكشفا له عن مختلف الأسرار، وما سيحصل في المستقبل، وخصوصاً تعويذة للبرق والرعد ما زالت مستعملة، ويقتضي لها بصل، وشعر، وسمك الپلشارد. ويقول بعضهم إنهما لم يكشفا له سِرّ التعويذة إلاّ أنهما استدعيا جوبتر من السماء بسحرهما، فراح يقول لنوما بلهجة غاضبة إنه إذا أراد أن يسحر الرعد والبرق فعليه أن يفعل ذلك بالرؤوسِ فسأله نوما:

- كيف؟ أبرؤوس البصل؟

فأجاب جوپتر

- لا، برؤوس الرجال.

وأراد نوما أن يصرفه عن قسْوة هذه الوصفة فحوّل الموضوع إلى جهة أخرى بقوله:

---

(٥٢) يخبرنا ديودورس نقلاً عن إيفوروس بأن «الأيدي داكتيلي» هم أصلاً من جبل «أيدا» في «فريجيا» وقد عبروا منها إلى أوروبا مع مينوس الملك واستقروا أولاً في ساموثراقي حيث علّموا سكانها الممارسات الدينية. ويُظن أن أورفيوس هو تلميذهم وهو أول من جاء إلى اليونان بنوع ما من أنواع العبادة. ويقال كذلك أن الداكتيلي هم أول من استخدم النار وعرف خصائص الحديد والنحاس ولقّنوها سكان البلاد الذين يسكنون قرب جبل پيريكنثوس، كما علموهم طرق الإفادة منها ومن أجل هذا ولكثير من مكتشفاتهم الأخرى عُبدوا كما تُعبد الآلهة بعد مماتهم. واسمهم باللسان اليوناني «داختيلوس» وهي إصبع (عشر أصابع) يستخدم كتعويذة ضد المخاطر. وتلبس حجارة معيّنة كتعويذة تحمل اسمهم.

- قولك يعني، شعر رؤوس الرجال.

فأجاب جوپتر:

- لا بل أحياء - ...

فقاطعه نوما بقوله

- ... السمك؟

وكانت إيجيريا قد علّمته هذه الأسئلة. وعاد جوپتر إلى السماء وقد هدأت سورة غضبه وبات «Ileos» أي طيّب النفس. ولهذا أُطلق على هذا الموضع اسم اليشيوم Ilicium(٥٣) من تلك الكلمة اليونانية، بعد أن صُحّف اللفظ كما أثبتناه.

هذه الروايات سخيفة، على قدر ما هي مضحكة، تظهر لنا مشاعر الناس تجاه الإله، تلك المشاعر التي تمكنت منهم بحكم العادة. وتُظهر أن أفكار نوما الخاصّة انحصرت - كما قيل - في المسائل الإلهية إلى حدّ لا مزيد عليه حتى أنه عندما أُبلغ بأنّ «الأعداء يقتربون» أجاب مبتسماً «وأنا أضحّي»!.

وهو الذي بنى أيضاً معبدي «الأيمان»(٥٤) و«الحدود» Terminus(٥٥). وعَلّم الرومان أن الحلف «بالأيمان» هو أغلظ يمين يمكن أن يحلفوا به، وهم ما زالوا يحفظونه(٥٦). ويقدّمون لترمينوس، أي إله الحدود، قرابين خاصة وعامة إلى يومنا هذا، فوق حدود أراضيهم وشواخصها الحجرية، على أن تكون القرابين من صنف الأحياء، وإن كانت قبلاً ذبائح، فأبطلها نوما لأنه قدّر أن ربَّ الحدود الذي يحرص على السّلام ويشهد للحَقّ لا شأن له بالدماء. ومن الواضح جداً أن هذا الملك هو أول من خطط الحدود بين أراضي رومه، لأن رومولوس كان دائم العدوان على أراضي

---

(٥٣) هنا يجانب پلوتارخ الصواب. وربما عُزى ذلك إلى قِلّة تضلُّعة في اللغة اللاتينية. ويخبرنا [أوڤيد ٣:٣٢٨] أن جوپتر يطلق عليه اسم «اليشيوس» من فعل «أليچري» أي الخروج، لأنه خرج من السماء بهذه المناسبة.

(٥٤) Filles.

(٥٥) الآلهة تيرميني تمثل بالحجارة التي أمر نوما بوضعها على حدود الدولة الرومانية، وحول كل أرضٍ خاصّة. كما أنه أمر تكريماً لها بإقامة عيد سنوي سمّاه ترميناليا في ٢٢ أو ٢٣ من شهر شباط وهو آخر يوم من أيام السنة القديمة. ولذلك ضوعف عندما قام يوليوس قيصر بإصلاح التقويم وعندها سُمّيت السنة بيسكتال. والأضحية التي تقدّم في هذه المناسبة هي إمّا خنزير خِنّوص رضيع أو حمل. إن رفع رمز الآلهة ترمينيكان يعتبر إهانة عظيمة بحيث كان دم المجدّف مباحاً ولأيّ شخصٍ الحق في قتله وهو آمن من العقاب.

(٥٦) «أقسم بأيماني Medius fidius» وهو يمينٌ روماني يعادل قولنا اليوم «بشرفي!» أو «بناموسي!».

جيرانه، ولم يؤثر عنه أنه رسم حدوداً ما. فالحدود هي في الواقع وسيلة دفاعٍ لأولئك الذين يختارون رعايتها واحترامها، في حين أنها شاهدٌ على ظلم الذين يعتدون عليها. والحقيقة هي أن البقعة التي استأثر بها الرومان في مبدأ الأمر كانت صغيرة المساحة للغاية فوسّعها رومولوس بحروبه وقام نوما الآن بتقسيمها وتوزيعها على أفراد العامة المتظلمين الساخطين، مدفوعاً برغبته في إزالة الفقر المُدقع الذي يدفع إلى الغواية. ولتوجيه الناس إلى الزراعة لإيصالهم إلى حالة أفضل من النظام والاستقرار كذلك أعاد قسمة أراضيهم نفسها. ليس هناك مهنة فاضلة مثل الزراعة. وحياة الريف تولّد رغبةً وتعلّقاً شديدين بالسلم والدعة. وتختلف عند كل الناس، مهما أختلفت صفاتهم، تلك الروح من الشجاعة والصلابة وتجعلهم مستعدين للقتال دفاعاً عن كل شبر من أرضهم في حين أنها تقضي على كل اعتداء متأتٍ من أعمال الظلم والعنف. ولهذا وزّع نوما الأراضي بعد تقسيمها قطعاً مؤمّلاً أن تكون الزراعة تعويذةً تأسر نفوسهم وتصرف اهتمامهم إلى السّلم، ومقدّراً أنها ستكون وسيلة للربح الأدبي فضلاً عن الكسب الاقتصادي. وسمّى كل قطعةٍ أرض «پاغوس» Pagus، وعيّن لكلّ واحدةٍ منها رئيس رقباء، وكان يمتّع نفسه أحياناً بتفقّد هذه المستعمرات شخصياً ليكوّن أحكامه الخاصّة على طبائع كُلّ امرئ من النتائج. وكان بحضوره يمدح ويكرّم ويستخدم أولئك الذين يحسن عملهم وبالتوبيخ واللوم يدفع المتكاسلين والمهملين[٥٧] إلى مضاعفة جهودهم.

إلاّ أن أجلّ أعماله وأعظم مأثرة له هي تقسيم الناس بحسب حِرفهم وصناعاتهم إلى جمعيات أو نقابات. فقد كانت المدينة تتألف، أو بكلمة أخرى تنقسم إلى قبيلتين تعذّرت إزالة الخصام بينهما، في حين أن ذلك الخلاف كان يحول دون قيام أي وحدة، وبسبب نزاعات وثارات دموية مستمرة. وهداه تفكيره إلى أن الشعب أقرب شيء إلى المواد الصلبة لا يمتزج بعضها ببعض إلا عندما تكوّم كومة واحدة وتسحق إلى ذرّاتٍ وبهذه الطريقة تمتزج. فقرر أن يقسّم السكان جميعاً إلى عددٍ من الأجزاء الصغيرة مؤمّلاً في استحداث تفرقة أخرى - أنه يزيل التفرقة الأصلية الكبرى لأنها ستضيع في الصغرى. فميّز الناس بمختلف ما يتعاطون من حرفة أو صناعة، وأسّس جمعيات للموسيقيين والصاغة والنجّارين والصبّاغين، والإسكافية والسلاّخين والصفّارين والفخّارين. كما جمع كل أرباب الصناعات اليدوية الأخرى في نقابة أخرى. وعيّن لكل واحدة مجالس قضائها ومنظماتها الإدارية ومراسمها الدينية. وعلى هذه الشاكلة

(٥٧) إن إهمال زراعة الحقل يعتبره الرومان جُرماً يستحق عقاب الجسنور Censorium Probrum.

بدأت تضمحّل كُلّ صنوف التفرقات الحزبية لأول مرة. ولم يعد يتحدث عن أي شخص بوصفه رومانياً أو سابينياً. روموليّا أو طاطيّاً، وغدت التقسيمات الجديدة مصدراً للتمازج العام والتآلف.

ومن مآثره الممدوحة جداً تغييره أو تعديله ذلك القانون الذي يمنح الحق للآباء في بيع أولادهم(٥٨)، مستثنياً من ذلك المتزوجين، ومشترطاً رغبة وموافقة الأبوين إذ يبدو من القسوة الشديدة أن تتزوج امرأة من شخص حُرّ، فتجد نفسها فيما بعد تعاشر عبداً.

وحاول أيضاً تنظيم تقويم سنويّ وهو إن لم يكن دقيقاً الغاية لا يخلو من الأسس العلمية. كان الرومان في أيام رومولوس لايحددون أشهر السنة بأيام معيّنة ومُدد متساوية. فبعضها يحتوي عشرين يوماً وبعضها يبلغ خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر. ولم يكونوا واقفين على اختلاف حركات الشمس والقمر وإنما استقرّوا على قاعدة واحدة وهي أن السنة الكاملة تتألف من ثلاثمائة وستين يوماً. ولكن نوما حسب مقدار التفاوت بين السنتين الشمسية والقمرية بأحد عشر يوماً لأن القمر يكمل دورته السنوية بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً بينما تكملها الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين. ولأجل أن يزيل هذا التفاوت ضاعف فرق الأحد عشر يوماً وزاد شهراً واحداً على كُلّ سنة ثانية وأمدُه اثنان وعشرون يوماً وهو يلي شهر شباط ويسمّى عند الرومان شهر مرسيدينوس Mercedinus. وقد اقتضى هذا التعديل بمرور الزمن، تعديلات أخرى. كذلك غيّر نظام تعاقب الأشهر، فوضع شهر آذار في المرتبة الثالثة بعد أن كان أوّل أشهر السنة. وكانون الثاني جعله الأول بعد أن كان الحادي عشر. وشباط الذي كان الثاني عشر والأخير جعله الثاني، ويعتقد الكثيرون أن نوما هو الذي أضاف شهري كانون الثاني وشباط أيضاً. ففي البداية كانت لديهم سنة تتألف من عشرة أشهر فقط. وهناك من

(٥٨) منح روملوس سلطة للآباء على أبنائهم تزيد عن سلطة الأسياد على عبيدهم. ففي حين لا تجد السيد قادراً على بيع عبده أكثر من مرّة واحدة، نجد الأب يحلّ له بيع ابنه ثلاث مرّات مهما كانت حالته القانونية ومهما بلغ من عمر. كان هذا العرف سائداً في بلاد اليونان إلى زمن صولون. وقد قام هذا بوضع حدود له. فحرّم بيع الابن عند بلوغه سنّ الرجولة، إلاّ أنه استثنى من التحريم البنات والأخوات اللاتي يفاجأن متلبّسات بالزنى. ولم يطل مد التحديد الذي وضعه نوما لهذا المبدأ إذ ما لبث أن ألغي بعده. إلاّ أن حكم العشرة Decemvir في اللوح الرابع أحيا هذا التقليد (ديون ٢:٨) وعُدل عنه تدريجياً بالتقدم الحضاري. لكن كان يحصل تطبيق للعرف في عهد شيشرون، الأمر الذي يدّل على أن هذا الحق ظلّ سارياً بكلّ ما فيه من صرامة.

أقوام البرابرة مَن يُعدّون ثلاثة أشهر فقط في سنتهم. وسنة الأركاديين في اليونان أربعة أشهر؛ وكانت سنة المصريين في مبدأ الأمر شهراً واحداً على ما قيل، ثم جُعلت أربعة أشهر. وهكذا فمع أنهم يعيشون في أحدث بلدٍ من البلدان(٥٩) تراهم معروفين بأنهم أقدم الشعوب في العالم ويعدّون في شجرات سُلالاتهم أرقاماً هائلة من السنين معتبرين الأشهر سنواتٍ(٦٠).

وأمّا أن الرومان حصروا السنة كلها بعشرة أشهر في مبدأ أمرهم ولم يحصروها باثني عشر فهذا يبدو واضحاً من اسم آخرها «ديسمبر» December ومعناه «الشهر العاشر». وكون آذار March هو الأول فهذا أيضاً واضحٌ لأن الشهر الخامس بعده كان يدعى كونتيليس Quintilis والسادس يدعى سكستيليس Sixtilis وهكذا إلى الأخير. إذ لو كان شهر كانون الثاني وشباط يتقدمان آذار لوجب أن يكون كونيتيليس الخامس بالتسمية والسادس بالترتيب. وكذلك يكون طبيعياً أن آذار March المُكرّس للإله مارس Mars هو الأول في تقويم رومولوس. وأپريل April (نيسان) الذي أخذ اسمه من ڤينوس (أي أفروديت Aphrodite) هو شهره الثاني. وفيه يقربّون إلى ڤينوس، وتستحمّ النساء في أوّل يوم «Calend» منه وهن ضافرات رؤوسهّن بأكاليل الزّهر. ولوجود حرف (پ) في اسم الشهر، لا حرف (ف)، يرى بعضهم أنه غير مشتق من اسم «أفرودويت»، ويقولون إنه من كلمة «أوپريو» Operio وهي كلمة لاتينية تعني «فَتح Opan» لأن هذا الشهر يأتي في أول الربيع، ويفتّح البراعم والأزهار، وينهي موسمها. ويليه ما يُسمّى أيار May من كلمة [مايا Maia] وهو اسم يمّ «الربّ عُطارد» وهو مكرّس له. ثم يتبعه حزيران June [يونو Juno]. على أن بعضهم يجعل اسميهما

---

(٥٩) عندما جفّت الدلتا. وهي على أغلب الاحتمال أحدث جزءٍ مأهول من البلاد المصرية [هيروذوتس ٢: ٩ و ٥].

(٦٠) إذا افترضنا أن المصريين كانوا يسمّون الشهر سنةً، فإن حساباتهم وتواريخهم ستبدو أقرب إلى الحقيقة نظراً إلى عمر الدنيا حالياً. فهم يحسبون تسلسلاً للملوك يعود إلى فترة (٣٦٠٠٠) سنة. على أن فرضيّتنا تجعل عهود حكم ملوكهم قصيرة جداً لا يقبلها العقل. هذا مع العلم أن هيرودوتس يقول إن المصريين هم أول من بدأ الحساب بالسنة الحوليّة وانهم أول من جعل السنة اثني عشر شهراً. إن الأسبقية التي يتباهون بها يجب أن يُعزى والحالة هذه إلى مدّهم الجزء الخرافي من تاريخهم إلى عهد سحيق جداً. وأما عن مقولة پلوتارخ بأن مصر هي بلاد حديثة العهد فهو قول غريب من رجل له مثل هذه المعرفة الواسعة. وأما عن سنتهم ذات الأشهر الأربعة فما زال المتتبعون المختصون في حيرة من ذلك.

مشتقين من اسم موسم بقوة السنة «مويورس» Majores، أما الأشهر الأخرى فقد سمّوها بحسب ترتيبها فسُمّي الخامس «كوينتيلس»، والسادس «سكستيليس» والسابع «سپتمبر» والثامن «أوكتوبر» والتاسع «نوڤمبر» والعاشر «ديسمبر». ثم إن كويتيلس تبدّل اسمه باسم «يوليوس» Julius من اسم قيصر الذي هزم پومپي، كذلك تبدّل اسم سكستيليس باسم «أغسطس» وهو القيصر الثاني الذي عُرف بهذا اللقب. وحذا دوميتيان حذو هذين فأعطى اسمه للشهرين التاليين وعرفا بـ«جرمانيكوس» Germanicus و«دوميتيانوس» Domitianus ولكن اسميهما عادا إليهما بعد أن أغتيل أي «سپتمبر» و«أكتوبر» وبقيا كذلك حتى الآن دون تغيير. ومن الأشهر التي أضافها نوما أو نقلها عن مواضعها شباط [فيروُوَري] من فبروا Februa وهو شهر التطهر وفيه يقدّمون التقدمات إلى الموتى ويحتفلون بعيد «لوپركاليا» وهو يشبه مراسم التطهير في معظم تفاصيله، وكانون الثاني [جانوري] من يونو Juno وقد قدّمه نوما على آذار المكرّس لمارس. والسبب الذي دفعه إلى ذلك في اعتقادي هو رغبته الشديدة في التأكد والإيضاح أن الفنون والعلوم في زمن السلم لها الارجحية على فنون الحرب وصناعتها. فقد كان يانوس Janus هذا إمّا إلهاً نصفاً أو ملكاً في العصور الغابرة السحيقة، وكان على وجه التأكيد محبّاً للوحدة المدنيّة والاجتماعية، وعُرف بأنه انتشل الناس من الحياة البربرية الهمجية. ولهذا السبب مثّلوه بوجهٍ، إشارةً إلى الحالتين أو الوضعين الاول منهما الوضع الذي كان عليه البشر، والثاني الوضع الذي آلوا إليه بعد أن انتشلهم.

ولمعبده في رومه مدخلان يسمّونها بابيْ الحرب، لأنهما يبقيان مفتوحين في أيام الحرب ويغلقان في أيام السلم، والحالة الثانية كانت نادرة جداً ذلك لأن الإمبراطورية الرومانية في حالة اتساعها وتضخّمها كانت أبداً محاطة بأقوام البرابرة وبأعداء يترّبصون بها الدوائر ولهذا ما عرفت للسلم طعماً إلاّ في القليل النادر. وقد أُغلق هذا المعبد في أيام أوغسطس قيصر فقط[٦١] بعد أن حقق انتصاره على أنطوني، كذلك أغلق مرة ثانية عندما كان ماركوس أتيليوس Marcus Atilius[٦٢] وتيطس مانليوس Titus Manlius قنصلين. ثم لم تمرّ قطّ فترة وجيزة من الزمن وهما مفتوحان طوال حكم نوما وظلا

(٦١) قبل مجيء أغسطس قيصر أغلق معبد يانوس عدة مرات. وخلافاً كما ذكر في المتن (غلقه في ٧٥٠ ق.م) فقد أغلق في أيام نيرون، وفي أيام ڤسپاسيان بعد تغلّبه على اليهود.

(٦٢) علينا أن نثبت «كايوس» بدلاً من «ماركوس». فزميله تيتوس مانليوس أغلق معبد يانوس في نهاية الحرب التيونية الأولى في ٥١٩ق.م. وظلت روما مشتبكة في نضال مستمر منذ عهد نوما حتى هذه الفترة.

مغلقين باستمرار لمدة ثلاثة وأربعين عاماً كاملة وهي مدة سلم لم يُعرف مثلها من قبل ومن بعد. ولم يكن الرومان الوحيدين الذين لان جانبهم، ومال بهم طبعهم إلى الدعة والسلم بحكم ملك مسالم رقيق الطبع، بل تعدّتهم هذه الروح إلى شعوب المدن المجاورة كأنما هَبّ عليها نسيم رخيّ من رومه. فبدأ الجميع يعانون تغييراً في المشاعر، وشاركوا كافة في الشوق العام إلى لذّة السلم ونِعم النظام والاستقرار، وإلى حياة تستغرقها أعمال استنبات التربة وتنشئة الأولاد وعبادة الآلهة. وسادت ايطاليا أيام أعياد، وحفلات الألعاب والتزاور بين الأصدقاء والألفة والاستضافة والكرم. وكان حبّ الفضيلة والعدل يتدفق من حكمة نوما كما يتدفق الماء من نافورة. وكان هدوء طبعه يشعّ بالهدوء والطمأنينة إلى جميع الجهات. ولذلك أصبحت مبالغات الشعراء وفقاعاتهم الكبيرة تتطامن إلى الواقع البسيط بوصف ما حدث على النحو التالي: «. . . نسجت العناكب خيوطها فوق تروس الحديد».

أو قولهم: «الصدأ يأكل الرمح المسنون، والسيف ذا الحدّين. ولا يُسمع بعدُ صوت أبواق النحاس. ما عاد النوم الهنيء يزايل عيون الناس[٦٣]».

إذ لم تقم حرب ولا فتنة ولا انقلاب في أحوال الدولة طوال حكم نوما ولم يواجه بحقد أو نيّة سوءٍ ولم تحصل مؤامرة عليه أو تحاك خطة مبعثها الطموح ضده. فإما كان الخوف من الآلهة هو الذي يعصمه من الخطر وإمّا الاحترام لفضائله، أو لعلّها نِعم الحظ الإلهية التي كانت في أيامه ترعى البراءة الإنسانية هي التي جعلت حكمة مثلاً حيّاً وبرهاناً ساطعاً مهما كانت الوسائل - على ذلك القول الذي نطق به أفلاطون بعد مرور زمن طويل وهو أن الوسيلة الوحيدة والدواء الناجع الوحيد للخلاص من الشرّ الإنساني هما في اتساقٍ سعيد للأحداث حين توجد في شخص واحدٍ سلطات الملك وحكمة الفيلسوف لأجل أن ترفع الفضيلة إلى سلطة مراقبة الشر والهيمنة عليه. وهذا الرجل الحكيم هو مبارك بشخصه، «ومباركون أيضاً أولئك الذين يستطيعون الإصغاء إليه والاستماع إلى تلك الكلمات التي تخرج من فمه»[*].

وربما لم يكن هناك حاجة أيضاً للإكراه أو التهديد في التأثير على الجمهور لأن الصورة بنفسها هي المثل الساطع الواضح على الفضيلة في حياة أميرهم وهي التي

---

(٦٣) اقتبس بلوتارخ هذه القصيدة من مجموعة قصائد باكليدس التي حفظها لنا ستومبيوس حول الإشادة بالسلم.

(*) أفلاطون: الشرائع.

ستؤدّي بهم طوعاً واختياراً إلى جادة الفضيلة والى مواجهة حياة طاهرة مباركة تمتاز بحسن النيّة والتعاون المتبادل ويدعمهما الخير والعدل، وهذا أعلى مكسب يمكن أن يناله سعي الإنسان. ونوما هو خير حاكم يغرس هذه الفكرة في قلوب رعاياه ويحملهم على اعتناقها. إنه المديح الذي لم يستحقّه أحد كما استحقّه نوما. وهو ما يبدو جلياً.

هناك اختلاف بين جمهرة من المؤرخين حول أولاده وزوجاته فبعضهم يزعم أنه لم يتزوج بأحد بعد طاطيا ولم يكن لديه منها غير بنت واحدةٍ اسمها پومپيليا Pompilia، ويقول آخرون إنه خلّف أربعة ذكور آخرين وهم پومپو Pompo، وپينوس Pinus، وكالپوس Calpus، وماميروكوس Mamerocus. وقد كان واحد منهم مؤسّساً للأُسر العريقة الشهيرة الأربعة: پومپوني، پيناري، كالپورني، ماميركي Pomponii, Pinarii Calpranu, Mamerei. وزادت هذه الأسر إلى أسمائها لقب ريكس Rex(٦٤) [: ملك] أيضاً لانحدارها من نوما. على أن طائفة ثالثة من الكتّاب تقول إن شجرات النسب تلك لم تكن غير مجاملة وتملّق اختلقها الكتاب لينالوا حظوةً عند هذه الأسر العظيمة، فعملوا لهم شجرات نسبٍ كاذبة متسلسلة من نوما. وقالوا أيضاً إن پومپليا ليست بنت طاطيا بل بنت لوكريسيا Lucreti وهي زوج أخرى بنى بها بعد أن اختير ملكاً. ومهما بلغ اختلافهم، فكلهم يتفقون في الرأي أن هذه البنت تزوجت ابن مارشيوس وهو الشخص الذي أقنعه بتسلّم مقاليد الحكم ورافقه إلى رومه، فاختير عضواً في مجلس الشيوخ تكريماً له. وبعد وفاة نوما نافس تُللوس Tullus ابن هوستيليوس على الملكية. وبفشله في الانتخاب بخع نفسه حسرةً وكمداً. إلاّ أن ابنه مارشيوس الذي تزوج پومپليا بقي في روما. وهو والد أنكوس مارشيوس الذي عقب تُلكوس هوستيليوس في الملك وكان عمره خمس سنوات عند وفاة نوما.

وعاش نوما حتى زادت سنّه على الثمانين وبعدها لم يقض نحبه بموت الفجاءة أو بعد مرضٍ حادّ وإنّما توفّي بكبر السنّ وبتهافت قواه ووهنها التدريجي على ما قاله پيسو Piso.

وقد اجتمعت في جنازته كل أمجاد حياته كاملةً، عندما التقت كلّ الدول المجاورة

---

(٦٤) رِكس Rex هو لقب أسرة أيميلي Aemilii وأسرة مارچي Marcii. ولم يكن لقب پومپوني Pomponii أو پيناري Pinarii أو مامرچي Mamerci. وقد انحدر آل پيناري من أسرة كهنة هرقل وهم أعرق وأقدم عهداً من عصر نوما. انظر [ليفي ١ :٢٧، ديون ١ :٩، فرجيل الاينياد ٨ :٢٧١].

وهي في تحالف وصداقة مع روما، لتكريم وتشريف مراسم دفنه بالأكاليل وبهدايا الشعوب. وحمل الشيوخ النعش الذي يضمّ جثمانه يتبعهم الكهنة، ثم موكب المشيّعيين المهيب، في حين ساهم الجمهور عامةً بأحداثه ونسائه وأطفاله وهم يصرخون وينتحبون كأنما يندبون موت وفقد قريب عزيز لهم اعتبط وهو في شرخ شبابه لا ملكاً شيخاً بلغ أرذل العمر. وقيل إن جثمانه لم يحرق، لأنه أوصى بذلك(٦٥)، بل نحتوا ناووسيين من الرخام حسب وصيّته وادّعوا أن جثمانه فيهما ودفنوهما في جبل يانيكولوم Janiculum، وكان في أحدهما جثمانه وفي الثاني كتبه المقدسة(٦٦) التي دوّنت له خاصةً كما هي ألواح المشترعين اليونان. ولكن محتوياتها انطبعت في نفوس الكهنة وقلوبهم في أثناء حياته، حتى تشبّعت بها أذهانهم وتشرّبت بروحها وغاياتها. وقد أوصى أن تدفن معه. كأنما هذه الوصايا المقدسة لا يمكن أن تبقى وتنشر في كتاباتٍ جامدة إلاّ وتفقد مكانتها واحترام النفوس لها. ولهذا السبب نفسه يقال إن الفيثاغوريين منعوا أن تحتوي تعاليمهم كتابة لا روح فيها(٦٧) بل فضّلوا أن تحفظها الصدور والذاكرات القمينة بحفظها، فيقولون عندما كان يتسرّب بعض المعادلات الهندسية المعّقدة الغريبة إلى شخصٍ غير جدير بها إن الأرباب تهدد بالاقتصاص من هذا العمل الشنيع والتجديف، بإشارة مخصوصة وبهيبة واسعة شاملة. وبتعاقب جملة من هذه الحوادث لتثبت وجوه الشبه في حياتيْ نوما وفيثاغورس يسهل علينا الاعتذار لأولئك الذين يحاولون إثبات تجاوب في أفكارهما ووجود علاقة شخصية فيما بينهما فعلاً.

ويذكر ڤاليريوس أنتياس أن الكتب التي دُفنت في الصندوق أو الناووس المشار إليه بلغت اثني عشر مجلّداً في الشرائع الدينية ومثلها من المجلّدات في الفلسفة اليونانية. ولما كان پ. كونيلوس P. Cornelius وم. بيبوس M. Baebius قنصلين بعد أربعمائة

---

(٦٥) في الأزمان القديمة كانت جثث الموتى توارى التراب، ثم أخذ المصريون يحنّطونها حفظاً لها اعتقاداً بعودة الروح إليها. أما اليونان فقد كانوا يحرقونها تفادياً لتفسخها وما يترتب على ذلك من آثار سيئة. على أن پليني يزعم بأن سيلا هو أوّل روماني أحرقت جثته.

(٦٦) يبدو ذلك مناقضاً لديون (١٢:٣) الذي يقول «بعد وفاة تللوس هو ستيليوس تسلّم خلفه أنكوس مارچيوس من الكهنة شرائع نوما الخاصة بالطقوس والعبادات وأمر بحفرها في الحجر وعرضها على الجمهور.

(٦٧) ذلكم ما مال إليه الكهنة المصريون. ومنهم انتقلت إلى فيثاغوراس على ما يبدو ثم إلى أفلاطون ونوما لميلهم إلى عادات تلك البلاد، وربما استمد الأخير من نفس المصدر.

عام من وفاة نوما[٦٨]، سقط مطر غزير وجرفت السيول العرمة التراب وكشفت عن التابوتين الحجريين وقد سقط عنهما غطاؤهما فشوهد أحدهما خالياً تماماً من أي أثرٍ لبقايا جسم بشري. ووجد في الآخر الكتب التي أشرنا اليها، فأخذت إلى الپريتور [پيتيليوس Petilius] وبعد أن قرأها وتأمل ما فيها، أقسم يميناً أمام مجلس الشيوخ بأن محتوياتها لا تصلح - في رأيه - للنشر بين العامة، فحملت المجلّدات إلى الكوميتيوم وهناك تمّ إحراقها.

من حظ الأخيار أن قداستهم تمجّد بعد موتهم وأن الحسد الذي يضطغنه لهم الأشرار لا يعيش بعدهم طويلاً، وقد يسعد الحظّ بعضهم أن يشاهدوا موته قبل أن تحين آجالهم. وفي قضية نوما أيضاً كانت مصائر الملوك عقبوه بمثابة طبقات عاكسة تطلق نور سمعته الساطع. فقد عقبه خمسة ملوك انتهت حياة آخرهم في المنفى وهو شيخ هرم بعد أن نُحّي عن العرش. ومن الأربعة الباقين ثلاثة اغتالتهم يد الخيانة. والآخر وهو تللوس هوستيليوس الذي خلف نوما، سخر من فضائل سلفه ولاسيما تعلّقه بالعبادة واعتبرها اعمال ضعف وخور نفسيّ، وحَوّل عقول الشعب إلى الحرب إلاّ أنه أُلجم وكُبح جماح هذا التهور والطيش. وتردّى هو نفسه في حمأة الدجل والشعوذة المختلفة جداً عن تُقى وتهجّد نوما حين ألمَّ به مرض مزمن كثير الأوجاع، وعندما مات بضربة صاعقة[٦٩]، وترك آخرين يقاسون ما قاسى من آلام.

---

(٦٨) هذا الحدث وقع في العام ٥٧٣ ق.م، ولعل پلوتارخ كتب (٥٠٠). يقول ڤارو: «إن شخصاً اسمه ترنتيوس كان يملك قطعة أرضٍ بالقرب من يانيكولوم. وقد شاءت الصدف أن واحداً من رعاته مرّ يوماً بقطيعه فوق قبر نوما فانكشفت له كتب قانون كان نوما قد دوّن فيها الأسباب التي دعته إلى تقنين الديانة الرومانية بالشكل الذي رسمه. فحمل الراعي هذه الكتبات إلى ألپريتور الذي أخذها بدوره إلى مجلس الشيوخ. وبعد قراءة التعليق والأسباب الموجبة آمن بسلامة نيّة نوما وأمر بإحراق الكتب على أن يقوم ألپريتور بقذفها إلى اللهب.

(٦٩) ضربت الصاعقة قصر تللوس هوستيليوس فأحرقته وهلك فيه هو وزوجه وأولاده. على أن بعض المؤرخين يقولون إن أنكوس مارجيوس حفيد نوما الذي كان يطمح إلى الملك انتهز فرصة اشتداد العاصفة ففتك بالملك.

أوجُه المقارنة بين نوما وليكورغوس

بعد انتهائنا من الكلام في سيرتي ليكورغوس ونوما سنضع معاً نقاط اختلافهما كما هي مبسوطة هنا أمام أعيننا وإن كان العمل صعباً. إنّ أوجه الشبه بينهما واضحة: اعتدالهما، وتديّنهما، وكفاءتهما في الحكم، ثمّ اختلافات جوهرية في شؤونهما العامة، أولها أن نوما قبل المُلك وليكورغوس نزل عنه. نوما تسلّمه دون رغبة فيه، وليكورغوس كان حائزاً له فتخلّى عنه. الأول ارتفع من شخصٍ عاديّ غريبٍ إلى منصب الملك، رفعه إليه آخرون. والثاني نزل من حالة الإمارة إلى شخص عادي بمحض اختياره. إنه لمجدٌ مؤثّل أن تنال عرشاً بالحقّ، ولكن أعظم منه أن تفضّل الحق على العرش فالفضيلة التي جعلت الأول يبدو جديراً بالسلطات، هي نفسها سَمت بالآخر إلى درجة عدم المبالاة به. وأخيراً، فكما يحزق الموسيقيون أوتار قيثاراتهم كذلك أرخى الأول منهما روحيّة أهل رومه المندفعة الموتّرة إلى درجة أوطأ شدهّا الآخر في سپارطا ورفعها إلى نغمة أعلى عندما أضرّت بها الفتن وأصابها الانحلال والانقسام. وكان العمل الأصعب من نصيب ليكورغوس. إذ لم تكن مهمته إقناع مواطنيه بنزع دروعهم، وحل أنطقة سيوفهم، وإنما كان يريد منهم نبذ ذهبهم وفضّتهم، وترك أثاثهم الغالي وموائد طعامهم الفاخرة. ولم تكن مهمّته الوعظ والإرشاد إلى حفظ تعاليم الدين وأعياده وتقديم القرابين للأرباب كما يجب وتخلّيهم عن السلاح وإنما حثّهم على نبذ الولائم والحفلات والشراب، وصرف أوقاتهم في التمارين العسكرية المجهدة. وهكذا فبينا تجد الأول يحقق مسعاه كله بالإقناع وبحبّ شعبه له وتعلّقه به، نجد الآخر يكاد لا ينجح في الأخير، بعد أن تعرّضت حياته للخطر والمتاعب. وكانت فكرة نوما وحياً رقيقاً ودوداً، يناسبه تماماً، وهو أن يوجّه اهتمام شعبه ويميل بهم إلى السّلام والعدل، لترقّ طباعهم الوحشية الناريّة. وإن سلّمنا هنا بأن معاملة الهيلوت وهي جزءٌ مما قررته شرائع ليكورغوس تُعدّ إجراءات لا مثيل لها في القسوة والظُلم، فعلينا الإقرار أن نوما كان أكثر إنسانية بما لا يقاس، وأقرب

شبهاً بالمشترعين اليونان. فقد بلغ به الأمر أن منح العبد المسترق حق الجلوس وتناول الطعام مع سيده[1] في عيد زُحَل حتى يتذوّق بعض أطايب الحرية وملاذها. فهذه العادة أيضاً تعزى إلى نوما. إذ يقولون إنه كان يرغب أن يُفسح لأولئك الذين ساهموا في استغلال الأرض مجالاً للتمتع بخيراتها. ويعللها آخرون بأنها إحياء لعصر زُحَل حيث لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد، والجميع يعيشون كالأخوة في حالة متقدمة من المساواة.

وبصورة عامة يبدو أن الاثنين كانا يسعيان إلى غرض واحدٍ وغاية واحدة، وهو الوصول بالشعبين إلى حالة الاعتدال والتقشف. أما من السجايا الأخرى فقد ركّز أحدهما جُلّ اهتمامه في تقوية شعبه، والآخر في العدالة. إلاّ إذا أسندنا اختلافهما في السبل إلى اختلاف أمزجة الشعبين وطباعهما وأحوالهما وقابلية تطبيق قوانينهما. فنوما لم يعمل للسلم جُبناً منه أو خوفاً بل لأنه لا يريد أن يظلم فيأثم، ولم يكن ليكورغوس بالذي يرغب في رفع الروح العسكرية في شعبه ليظلموا الآخرين، بل ليكونوا قادرين على حماية أنفسهم بها.

وفي سبيل الوصول بالأمزجة التي كوّناها في شعبيهما إلى سبل وأهداف عادلة وغايات سعيدة، يحدّان منها عندما تزيد في انطلاقها ويقوّيانها في مواطن ضعفه، وجدا نفسيهما مضطرين إلى استحداث إبداعات عظيمة. فشكلُ النظام الحكومي الذي أقامه نوما كان ديمقراطياً جمهورياً إلى أقصى حدّ فنقابات الصاغة والموسيقيين والإسكافيين تؤلّف طبقة العامة المختلفة الألوان والصور. أمّا ليكورغوس فكان أرستوقرطياً صارماً جامداً، في حصره كلّ المهن اليدوية والأعمال الوضيعة بطائفة الخدم والأجانب، ولم يسمح لمواطنيه من أدوات العمل إلاّ بالرمح والترس أي صناعة الحرب فقط وخدمة إلهها مارس. ولم يسمح لهم بشيء من المعرفة والفهم غير إطاعة

(١) كما في ساتُرْ ناليا. وكان يعيّده في الرابع عشر من شهر كانون الثاني. وتقرّب القرابين تكريماً لذلك الذي جاء بسعادة ورخاء العصر الذهبي إلى إيطاليا. وفيه ينعم الخدم بالحرية ويمارسون كل ضروب اللهو والمرح استعادة لذكرى المساواة الاجتماعية التي سادت ذلك العصر. وفيه يتبادل الأصدقاء الهدايا، ولا تعلن حرب ويوقف تنفيذ أحكام الموت بالمجرمين. على أننا لا نعلم شيئاً عن منشأ العيد. يقول ماكروبيوس أنه كان معروفاً في إيطاليا قبل بناء روما. وقد يكون مصيباً في قوله، لأن الإغريق كانوا يحتفلون بعين هذا العيد تحت اسم «خرونْيا» [ماكروبيوس ساتورناليا ١ :٧] ويؤكد ريكارد أنه نشأ بعد حكم نوما، إمّا في عهد تللوس هوستيليوس وإما في عهد تاركوينيوس سوپربوس.

آمريهم العسكريين، والنصر على الأعداء في الحرب. ومنع أي مضاربة مالية بينهم بوصفهم رجالاً أحراراً. ولأجل جعلهم على هذه الصورة وابقائهم عليها تماماً طوال حياتهم حَوّل كل ما يتعلق بأمور المال والنقود إلى أيدي العبيد والهيلوت بما فيها من أعمال الطهي وخدمة البيوت. إلاّ أن نوما لم يُحدث مثل هذه التفرقة، وإنما قمع الروح العسكرية، وسمح بحرية مطلقة للحصول على الثروة بكلّ وسيلة شاءها الإنسان. ولم يهتّم بإزالة الفروق الاجتماعية من هذه الناحية، وإنما سمح للأغنياء بأن يزيدوا في ثرواتهم دون حدٍ. ولم يهتمّ بازدياد الفقر وتفاقمه المطّرد، وهو ما كان يجب عليه أن يحتاط له من البداية عندما كانت الفروق في أحوال الناس المالية صغيرةً، والناس ما زالوا يعيشون في أحوال اقتصادية متقاربة نوماً ما. لم يتخلص من ذلك كما فعل ليكورغوس، ولم يتخذ التدابير والاحتياط للفتن والفوضى التي تنجم عن الحرص على المال. فتن ليست ذات خطر قليل، بل هي البذرة الحقيقية والمبدأ الأولي لكلّ الشرور والمكاره العظمى. وفي اعتقادي أنه لا يمكن لوم ليكورغوس على إعادة تقسيم الأراضي، ولا لوم نوما على عدم إعادة تقسيمها. إن هذه المساواة كانت القاعدة والأساس لجمهورية واحدة. أما في رومه حيث سبق توزيع الأراضي فلم يكن ثم ما يدعو إلى إعادة تقسيمها والإخلال بالإجراءات الأولى التي كان معمولاً بها على أرجح الظن.

وأما بخصوص الزوجات والأولاد وأحوال المجتمع فكلاهما اتّبع سياسة صحيحة لإزالة التنافر والخلاف منه. على أن أساليبهما كانت مختلفة. فعندما يجد الروماني أن لديه عدداً كافياً من الأولاد، وعندما يرجوه جاره الذي لا ولد له أن يسلّفه زوجه، فليس هناك ما يمنعه شرعاً تسليفها لمن يرغب فيها لفترة مؤقتة أو بصورة دائمة. في حين نجد الزوج اللقيديموني، قد يسمح لأي رجل آخر بزوجه، إذا رغب في إنجاب أولاد منها، ولكنه يبقيها في منزله، وتظلّ الرابطة الزوجية الأولى وواجباتها كما كانت.

لا بل رأينا كثيراً من الأزواج يدعون رجالاً إلى بيوتهم لمضاجعة نساءهم، حتى ينسلن لهم أولاداً جميلي الخلقة حسني التركيب. إذن ما الفرق بين العادتين؟ أنقول إن نظام اللقيديمونيين هو نظام لا يهتم قَطّ بالنساء وإنه يسبّب لأغلبية الناس إزعاجاً وقلقاً لا نهاية له، ترافقه الهواجس والأحقاد؟ وإن نظام الرومان الذي يحوطه مظهرٌ أكثر رقّة وسماحة يرخي حجاباً على هذا التغيّر ويجعله أشبه بعقد زواج جديد ويتغاضى عن وضع عام اجتماعي لا يمكن احتماله؟ كذلك كانت أنظمة نوما حول العناية بالفتيات أكثر مناسبة لهنّ وللجنس الأنثوي، في حين كانت أنظمة ليكورغوس غير أنثوية

وصارمة، وأفسحت مجالاً كبيراً لتندر الشعراء عليها (ومنهم مثلاً ييكوس Ibycus)[٢] إذ أطلقوا عليها اسم «فينوميريدس» Phaenomirides أي الفخذ العاري وعملوا كيوريپدس[٣] على إثارة نار الغيرة في أزواجهن.

هؤلاء اللاتي كن مع الشبان في رائعة النهار يخرجن من الدار وأفخاذهن مكشوفة، وأرديتهن تتطاير لتظهر عريهنّ.

ذلك لأن الغلائل التي ترتديها الفتيات العازبات مشقوقة الجانبين من الأسفل بحيث تنكشف عن أفخاذهن العارية أثناء سيرهنّ. وقد وصف سوفوكلس[٤] ذلك وصفاً دقيقاً بقوله: «تلك هرميون Hermione الفتاة الصبية أيضاً بغلالتها التي ليس فوقها رداء، تنحسر إلى الخلف وتترك فخذها العاري حُرّاً مكشوفاً».

ولهذا قيل إن نساءهّن المسترجلات الجريئات مصدر ضيق لأزواجهن بالدرجة الأولى. سيدات مطلقات الأمر في بيوتهن، يُدلين بآرائهن في الشؤون العامة بحرية تامة، ويتكلمن علناً دون قيدٍ في أهم المواضيع. إلاّ أن الأمهات وربّات البيوت في عهد نوما كن محترمات، وموضع إجلال أزواجهنّ، وهو من آثار ذلك التكريم الذي نعرفه في أيام رومولوس بمثابة تعويضٍ عن اختطافهن عنوةً[٥] ومع ذلك فإن الحشمة الكبيرة تسود حياتهنّ. وهن ممنوعات من التدخل في الشؤون الخارجة عن طبعهن، والوقار مفروض عليهنّ والصمت عادة فيهنّ. لا يقربن الخمر مطلقاً ولا يتكلمن إلا بمحضر من أزواجهن حتى في أبسط الأمور، بحيث إنه عندما سُمح لامرأةٍ مرّةً بعرض قضيتها في ساحة القضاء، قيل ان مجلس الشيوخ ارسل يستفسر من العرافة، بماذا تنذر هذه الحادثة الخارقة[٦]!؟ والواقع أن سلوكهن العام الصالح وخضوعهن، وطاعتهن،

---

(٢) شاعر غنائي في ريجييوم.

(٣) أندروماخة.

(٤) القصيدة ٧٨٨.

(٥) فرض روملوس عقوبة الموت على الزانية أو الشاربة خمراً. لانّ الزنى - على حدّ قوله - يفتح باباً لكل أنواع الجرائم. والخمر تفتح باباً للزنى. وجاء في المآثر أن أغناطيوس مچينيوس قتل زوجه بيده لأنها عاقرت الخمر فبرّأه مجلس الشيوخ [پليني المرجع السالف ١٤: ١٣]. وهناك حادثة أخرى أفظع فقد حُكم على امرأة سرقت مفاتيح مخزن بأن تُرجم فقام أقرباؤها برجمها حتى قضت نحبها. لقد خفّت حدّة هذا القانون بتعاقب الأجيال فأصبح عقاب المرأة التي تصرعها الخمرة هو حرمانها من البائنة.

(٦) ما بدا في ذلك الزمن غريباً أصبح فيما بعد عادياً. حتى أن كلّ امرأة مزعجة من هذا الطراز تلقب بـ«أفرانيا» نسبة إلى زوج أحد أعضاء مجلس الشيوخ التي أشغلت ساحات القضاء =

يبرهن عليه بحقّ اشتهار عددٍ منهنّ بسوء الطبع والسلوك.

وكما يدوّن المؤرخون الإغريق في حوليّاتهم أسماء أوّل من امتشق السيف في الحروب الأهلية، أو قتل أخاه أو أباه أو أمه، فكذلك الكتّاب الرومان يذكرون أن سيوريوس كارڤيليوس كان أول من طلّق امرأته، بوصفها حادثة لم يقع مثلها خلال مائتين وثلاثين عاماً أي منذ بناء المدينة. وأن من تدعى تاليا Thalaea امرأة پنياريوس Pinarius، اختصمت مع حماتها جيفانيا في عهد تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus بوصفها أول حادثة من نوعها.

وتتسق تشريعاتهما وأنظمتها بخصوص زواج البنات مع تلك التي شُرعت لتثقيفهن. ولم يسمح ليكورغوس بزواجهن إلاّ بعد أن يبلغن النضوج التام ويتوفّر لديهن الميل. فالوصال الجنسيّ، عندما يكون متفقاً مع قوانين الطبيعة يولد الحبّ والحنان عوضاً عن الكراهية والخوف الذي يرافق الوصال غير الطبيعي. ذلك هو رأي ليكورغوس. كذلك تكون أجسامهن أكثر استعداداً لتحمّل متاعب الحمل وتربية الأولاد، وهو في رأيه هدف الزواج وغايته.

أمّا الرومان فيزوّجون بناتهن قبل بلوغهنّ العشرين أو في السنوات الأولى بعدها، معتقدين أن أجسامهنّ وعقولهن معاً ستصل أزواجهن المقبلين وهي طاهرة لا تشوبها نجاسة. وتبدو وجهة نظر ليكورغوس من ناحية الولادة أصحّ وأقرب إلى الطبيعة. أما نوما فيرى أن الحياة الزوجية المتواصلة أقرب إلى الأخلاق(٧). على أن القواعد التي وضعها ليكورغوس للعناية بالأولاد والإشراف على تربيتهم وجمعهم في زُمَر ووضعهم تحت طائلة النظام والضبط، كذلك تنظيمه الدقيق لوجبات طعامهم ورياضاتهم، كل ذلك يُظهر نوما مشترعاً عادياً. فقد ترك الأمر كله لرأي الأبوين ورغباتهما وحاجاتهما. فبإمكان الأب لو شاء أن يجعل ابنه مزارعاً أو نجّاراً أو صفّاراً أو موسيقياً. حتى لكأنّ تدريبهم وتربيتهم منذ نعومة أظفارهم لغاية عامة مشتركة أمرٌ لا يستحق الاهتمام،

= بمراجعاتها. وثمّ هورتنسيا الفصيحة بنت الخطيب المُصقِع هورتنسيوس، فقد تكللت بالنجاح مرافعتها في «الدفاع عن النساء عندما فرض عليهن ثلاثي الحكّام» غرامة، فقد ووفقت بخفضها إلى حَدّ كبير [٣:٨ و ٤].

(٧) يفضّل أرسطو [السياسة ٧:١٦] المبادئ السپارطية باعتبارها ذات فائدة عظمى بآثارها ومردودها على الإنسان. وكان النظام الروماني في رأيه أقرب إلى تحقيق الغاية المرجوة - ويقضي بتأخير الوصال الجنسي إلى أن تغدو الأنثى أكثر تفهماً لواجباته وأهمية بعامل نضوجها وتقدمها في السنّ.

فيكونون أشبه بمسافرين جمعتهم سفينة واحدة، ركبها كل واحد منهم بمحض اختياره ولغرضٍ خاص به، لا وحدة عمل تجمعهم في سبيل المصلحة العامة إلاّ عندما يدق ناقوس الخطر، وفي حالات مخاوفهم الخاصّة تراهم عموماً لا يعملون إلاّ وفق ما تمليه مصالحهم الخاصة.

ولا مندوحة لنا إلا أن نلوم المشترعين العاديين الذين قد تُعوزهم المعرفة ويفتقرون إلى السلطان، ولكن عندما يتسلّم رجل حكيم كنوما مقاليد السلطة المطلقة على شعبٍ طيّع، أفهناك شيء يستحق اهتمامه أكثر من موضوع تثقيف النشء الجديد، وتدريب الشباب. ليس خلافاً لطبيعتهم، أو ضدّ أمزجتهم، بل وفق أعلى نموذج عام للفضائل ومبادئ الأخلاق مما يجب أن ينشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ وبين الفوائد الكثيرة التي جناها ليكورغوس من خطّ سيره هذا، الثبات الذي ضمن بقاء قوانينه. ولم يكن للأيمان التي حلفها السپارطيون بأن يقيموا عليها من أثر كبير لو لم تثبت في نفوس وأخلاق الصغار بالتدريب والثقافة، ولو لم تُشرب حياتهم كلها بحب الحكومة التي أقامها. وكانت النتيجة أن الأصول والأسس التي بنى عليها تشريعاته ظلّت سارية أكثر من خمسمائة سنة، بقيت مثل صبغة عميقة ثابتة جداً، تسود كتلة الشعب بأسره. في حين كان كل خطة نوما وهدفه استمرار السلم وحسن النية، وقد زال كل أثر لهذا بعد وفاته. إذ ما إن قُبض ولفظ آخر أنفاسه حتى انفتح بابا معبد يانوس على مصاريعهما. واندفعت ريح الحرب، كأنما كانت حبيسة محصورة داخل هذه الجدران تجتاج إيطاليا وتملأ أرضها بالدماء والضحايا[٨]. وهكذا لا يكتب البقاء الطويل لأسمى الأعمال وأنبلها، لأنها تحتاج إلى ذلك الجصّ الذي يبقي أجزاءها ملتحمة وبناءها ثابتاً، وأعني به التهذيب والتثقيف. ولعل قائلاً يقول: ماذا إذن؟ ألم تتقدم رومه، وتزداد عظمتها بالحروب التي خاضتها؟ إن السؤال يتطلب إجابة طويلة، إذا قصدنا به إرضاء أولئك الناس الذين يرون «الحال الأفضل» في الغنى والترف والتملك لا في الاستقرار والدعة والاستقلال، وهي جميعاً مظاهر لروح العدل. وعلى أية حال، فمما يرفع قدر ليكورغوس أن الرومان بعد نبذهم أنظمة نوما وسياسته نمت إمبراطوريتهم وتعاظمت قوّتهم كثيراً بينما خمل شأن اللقيديمونيين حالما ابتعدوا عن أنظمة ليكورغوس وهبطوا من أوج عظمتهم إلى الحضيض. وبعد أن انحسر نفوذهم عن سائر بلاد الإغريق تعرّضوا هم أنفسهم لخطر الزوال التام. على أنك في الوقت نفسه لا يسعك إلاّ أن تجد

(٨) يقصد حروبهم مع الفيديناتي والألبان واللاتين.

الظروف التي جاءت بنوما علامة غريبة جداً، تكاد تكون إلهية المصدر، فهو أجنبيّ، أُقنع بالمجيء مكرهاً ويقبول مملكة قام هو بنفسه بتغيير جهازها تغييراً تاماً، وكان سبيله إلى هذا، الإقناع فحسب. حكم مدينة لم تكن في حينه قد غدت مدينة موحّدة، ولم يلجأ إلى السلاح أو أي عملٍ من أعمال العنف.

(في حين استخدم ليكورغوس قوة المواطنين النبلاء ضدّ معارضة العامّة) وإنما بمجرّد قوى الحكمة والعدالة، فيها وحدها تمكّن من تحقيق الوحدة وإحلال التفاهم بين الجميع.

معلومات عن
بعض الآثار التاريخية والمباني الشهيرة
التي ورد ذكرها في الكتاب

١- الأكروپوليس [الپارثنون]

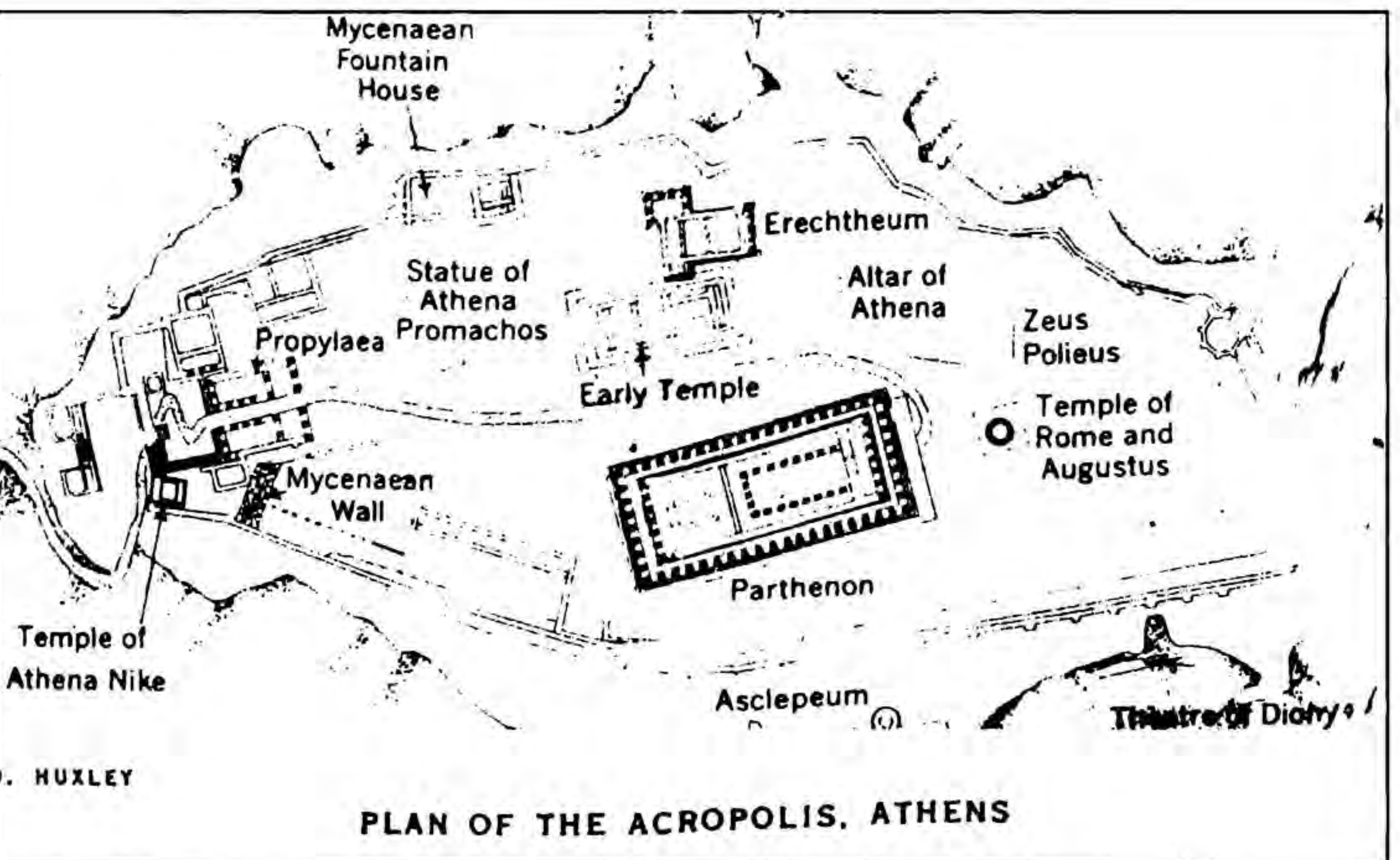
ومعنى الكلمة باليونانية «الأرض المرتفعة». وعُرف بأكروپوليس أثينا لوجود تمثال أثينا ومعبدها البارثنون فيه. ويقع وسط مدينة أثينا تقريباً على ارتفاع نحو ١٥٠ قدماً وبطول ١١٥٠ قدماً وعرض ٥٠٠. ويُطلق الاسم عادة على القلاع التي تُبنى على نشز من الأرض لتتجمّع حولها أماكن سكنى ولتغدو بمثابة قلعة حامية Citidal وكانت مسيّجة وفيها اعتاد ملوك أثينا بناء قصورهم وهياكل أثينا التي تعرف باسم هيكاتومبيدون.

حينما نتحدث عن الأكروپوليس Acropolis يرد إلى ذهننا في الحال الأثر الوحيد الباقي قائماً أو بالأحرى قشرته أو ما بقي من قشرته. وهو هيكل أثينا المعروف بالبارثنون وهي عند الرومان الإلهة مينرڤا. وكلمة أكروپوليس كلمة عامة يمكن إطلاقها على أي موقع محصّن وإن كان خارج بلاد اليونان.

تحصينات الأكروپوليس في أثينا هدمها الفرس أثناء احتلالهم المدينة وسوّوا بالأرض أسوارها وهي كلها. إلاّ أن كيمون الذي سترد سيرته في واحد من الأجزاء التالية قام بتجديد معظم السور المحيط به بعد معركة يوريميدون في العام ٤٦٨ ق.م.

يهمّنا من الأكروپوليس الذي كان في عهود طويلة مقرّاً لحكام أثينا وحكوماتها نيابة البارثنون وهي أهمّ آثار الأكروپوليس على الإطلاق. كما بدت في الرسم التخطيطي للأكروپوليس المنقول عن دائرة المعارف البريطانية (مادة أثينا).

أبنية قليلة في العالم استُخدمت أمكنة عبادة لديانات مختلفة. والبارثنون بقشرته



PLAN OF THE ACROPOLIS, ATHENS

المحطّمة والمشوّهة ما زالت تأخذ باللّب. صمّم بناءه أكتينوس Actinus على هيئة مستطيل، كما يُرى في الصورة، عرضُه ١٠١,٣٤ قدماً وطوله ٢٢٤,١٤ قدماً. بدأ معبداً للإلهة أثينا وتحوّل إلى كنيسة للعذراء مريم وانتهى بصيرورته مسجداً لنبيّ الله محمد. والسيّاح اليوم ومنذ حازت اليونان استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر يصعدون الأكروپوليس ليتجوّلوا في أرجاء المعبد ويقفوا تحت أساطينه القائمة ليلتقطوا تصاويرهم، بوصفه أروع ما أنجزه الإغريق أو ربما أي نحّات آخر. إن الدقة الحسابية وجمال التصميم التحما معاً ليُخرجا منحوته تنبض بالحياة، كأنها نُحتت من قطعة رخامية واحدة هائلة الجرم بل حتى الرخام فيه يغيّر من ألوانه بتغيير الضياء الواقع عليه. حتى الآن ورغم الخراب العظيم الذي نزل به فإنه يمثّل الميزات الرفيعة للطبع اليوناني وذوقه الغريزي كما عبّر عنه منشئه الحاكم پيركليس بقوله: «نحن نحب الجميل وإن كان ساذجاً بسيطاً في ذوقنا. ونحن نهذّب العقل دون خسارة الرجولة». كان ذلك في حدود ٤٥٠ ق.م عندما شُرع في بناء المباني الجميلة في هذه المدينة التي تحدّت قوة الفرس وتسلّمت قيادة العالم الإغريقي. وكان الپارثنون أبرز تلك الأبنية على الإطلاق أقيم في موضع هيكل قديم للإلهة عينها. وقد طبق المهندس والنحّات العظيم فيدياس Pheidias تصميم أكتينوس وجرى العمل وفق تصاميمه بتعاون عدد كبير من المتعهدين المحلّيين على أساس القطعة، ومن ضمنها الأعمال المتعلقة بالمنحوتات والأشكال. وكل طاقم من النحّاتين يعمل لنفسه والقطعه المنحوتة (تمثال وما أشبه) سُعّرت بستّين دراخما.

انتهى بناء الپارثنون في ٤٣٢ ق.م. باستثناء السقف الخشبي. وبقي الپارثنون في الأكروپوليس «يحمي» أثينا تسعة قرون ولاسيما خلال حرب الپيلوپونيس بعد الانتهاء من تحصين الأكروپوليس لعام واحد ٤٣١ ق.م وبقي الپارثنون قائماً شامخاً رغم الخراب الذي أحدثته هي وما تلاها من الحروب. ورغم اضمحلال مركز المدينة حوفظ على قدسية الأكروپوليس لوجود الپارثنون فيه عند نشوب الحرب بين المقدونيين والإغريق. وقد قام الإسكندر نفسه بتزيين واجهته.

وأُهمِل الأكروپوليس في أحيان عديدة. واعتدى عليه بالسرقات خلفاءُ الإسكندر المتنازعون فيما بينهم. وعومل الأكروپوليس باحترام عندما ضُمّت اليونان إلى الإمبراطورية الرومانية. إلاّ أن أحفاد پركليس غرّتهم معاملة الرومان واتفقوا على حلف عسكري ضد روما مع الملك الأرمني ميثيربدات في ٨٨ ق.م فحاصر جنود سيللا المدينة واقتحمها وأطلق عسكره يقتل وينهب ويسلب.

والظاهر من وصف باوسنياس في القرن الثاني الميلادي أن معظم أبنية الأكروپوليس وأظهرها البارثنون سلمت وكانت قائمة مثلما بُنيت قبل ستمائة عام.

في العام ٣٣٠ م أعلن الإمبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً. وفي العام ٤٠٠ ميلادية انقلب البارثنون من هيكل لأثينا إلى كنيسة مسيحية للعذراء مريم (ثيودوكس) وكمل تحويل داخلها (المذبح) إلى هيكل تُقام فيه المراسم الدينية المسيحية مكرّسة على الطقس الأرثذكسي. وازدانت الحيطان من الداخل بصور القدّيسين حتى السقوف بفن التكفيت الرخامي (الفريسكو). وفي ١٢٠٤ اقتحمت الأكروپوليس غوغاء الصليبيين في الحرب الصليبية الرابعة بعد استيلائهم على القسطنطينية. واقتسم الأمراء والفرسان الطليان والفرنسيون الأقاليم اليونانية بينهم وكلّهم عدوّ متحمس للمذهب الأرثذكسي. هؤلاء الرعاع لم يكونوا على اطّلاع بمجد أثينا وقدسية الأكروپوليس وكانوا ويعتبرون الأرثذكسية مجرّد زندقة يجب أن تُحارَب بجميع الوسائل. فنهبوا كل ما هو ثمين في الپارثنون وأذابوا الأوعية المقدسة وأتلفوا مكتبة الأُسقفية. وأصبحت أثينا من حصّة نبيل بورغندي. وسُمّي الأكروپوليس باسم جديد بلغة مالكه وباسمه Chateau de Sathines وجُعل مقرّاً للحاكم العسكري الفرانكي. وسيم لكاتدرائية العذراء (الپارثنون) بطريرك فرنسي. وصادق الپاپا أنوسنت الثالث على هذه التغييرات.

في العام ١٤٥٣ دخل محمّد الثاني الفاتح القسطنطينية ودانت له أثينا التي دخلها دخول الظافر، حامداً الله لأنه «رأى في حياته أمّ الفلاسفة» وبقي أربعة أيام يرتاد مواقعها الأثرية والتاريخية، وقال عنها «إنها أعزّ عليه من كل مدن مملكته، وأعاد الاعتبار إلى كهنة الأرثذكس وألغى الطقوس اللاتينية التي عاشت فيها حوالي قرنين ونصف قرن. إلاّ أنه كان استثناء عن سائر السلاطين الذين عقبوه، إذ ما جاءت نهاية القرن الخامس عشر حتى تحوّل الپارثنون إلى مسجد وانتهى دور كنيسة العذراء مريم، فالآغا التركي (القائد) لحامية المدينة اتخذ مسكنه في الأكروپوليس وفي ملحقات الكنيسة بالضبط وقسّمها إلى دار حكومة ودار حريم. وغاب الأكروپوليس في ثنايا التاريخ حتى القرن السابع عشر حيث أخذ الفضول السيّاح فوجهوا اهتمامهم إليه. وتعاقبت عليه الإرساليات الدينية الجزويتية (في ١٦٤٥، وفي ١٧٧٢) وكتبت تقارير عن الزيارات. وقبل أن يلحق الخراب التام بالأكروپوليس ذُكِر أن السفير الفرنسي في تركيا المركيز دي توانتيل قصده بصحبة رسّام فلمنكي وعمل مخططاً له، وعقبه جورج ويلر البحاثة الكلاسيكي الإنكليزي بصحبة رسّام فرنسي بدراسة كلّ ما على قمة الأكروپوليس مستخدمين وصف پارسنياس.

في العام ١٦٨٧ هاجم البنادقة بقيادة فرانشسكو موروسيني الحامية التركية في الأكروپوليس بعد اجتياحهم معظم بلاد اليونان فتحصّن الأتراك فيه واختزنوا بارودهم في البارثنون. وفي ٢٦ من أيلول ١٦٨٧ أسقط المهاجمون قنبرة وسط البارثنون فانفجر البارود وأحدث تخريباً هائلاً منه سقوط الجناح الغربي بكامله، وتشويه أوجه الكثير من التماثيل. ولم يكن هناك أي أملٍ بإصلاح الخراب الذي أحدثه هذا القصف لاسيما بالتماثيل. ولم يكتف موروسيني بهذا التخريب بل حاول قلع تماثيل بوسيدون وخيول مركبة أثينا من المدخل الغربي فسقط الجميع على الأرض وأصبحوا حطاماً لا يساوي نقلها إلى مدينته شيئاً، إلاّ أنه إرضاءً لرغبته هذه قام بنقل أربعة أسود من الرخام ما زالت تزيّن قمّة قصر الأرسنال في البندقية.

وفي العام ١٨٠١ استحصل اللورد ألجين سفير بريطانيا في استانبول على رخصة من الترك تخوّله حيازة ونقل أي قطعة رخامية من الأكروپوليس عليها كتابات ونقوش ومن ضمنها التماثيل. وتُرجمت هذه الإجازة على نحو واسع وبسخاءٍ عظيم واستخدم لورد ألجين مئات العمال لنقل ما بقي من تماثيل البارثنون، وقد قُدّر عددها صدقاً أو كذباً بثمانين قطعة حُملت كلّها إلى بريطانيا، وهناك قام المتحف البريطاني بشرائها بمبلغ ٣٥ ألف باون.

ثارت الخواطر على ما فعله لورد ألجين، وهجاه الشاعر البريطاني المفلق لورد بايرون ولقّبه بالسارق.

منذ حيازة اليونان استقلالها في ١٨٢٧ وإعلانها أثينا في ١٨٣٤ عاصمة لها وهي تطالب كل جهة من الجهات التي نهبت الأكروپوليس والپارثنون بإعادة ما سلبته من تماثيل وقطع أثرية. كما بدأت بإصلاح ما أمكن إصلاحه من هذا الأثر العظيم وهُدم المسجد ورُفعت البنايات التي أقامها الترك، كما أعيد نصب الأساطين المتهافتة وترميم ما بقي من سور الأكروپوليس، إلى غير ذلك من إصلاحات ما أمكن.



نقش من عمود تراجان. يظهر مسيرة عسكرية حول خط الخيم في معسكر فرقة رومانية



حجر كريم من عهد أغسطس. يشاهد الجنود الرومان (يساراً إلى الأسفل) يرفعون نصباً تذكارياً بمحضر من الإمبراطور (مجموعة مانسيل)

٢ - دلفي
هيكل استخارة

يقع في اقليم فيوكيس بالقرب من قرية عُرفت أيضاً باسم دلفي وعلى مجنبة من جبل بارناسوس القريب من أثينا.

كانت تُعتبر دلفي عند اليونان مركز الأرض ويرتبط اعتبارها كذلك من أسطورة تقول إن رئيس الآلهة زفس أطلق نسرين اثنين، واحداً من جهة الغرب وآخر من جهة الشرق على أن يكون اتجاههما نحو المركز فالتقيا في دلفي.

وقد أبدت التنقيبات التي جرت موقعياً أن الموضع كان مسكوناً منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. على أن التاريخ الحقيقي لدلفي بدأ في القرن السادس ق.م. إذ أصبحت مركز العرافة بالمستقبل بعد التحاقها بالعصبة الأمفياكتونية وأهم مراكز الكشف عن حُجب المستقبل والنهي أو السماح بمباشرة هذا العمل أو ذاك بوساطة الكاهنات أو العرّافات اللاتي يلازمنه. ولم تكن دلفي تُستشار في أمور الدولة وحدها بل في شؤون المرء الخاصة. وكثيراً ما كان لنتائج عرافتها القول الفصل في السياسة وميادين النشاط الوطني.

في دلفي كان يوجد شقّ في الأرض ينطلق منه غازٌ يؤثر في الأعصاب ويترك المستنشق في حالة من الهذيان تقرّبه من الغيبوبة. وافتُرض في هذا الغاز أنه أنفاس الإله أبوللو.

وعند الاستخارة كانت ثمّ كاهنة تجلس على كرسي ثلاثي الأرجل موضوعة فوق الشق لتستنشق الغاز. فتروح في شبه غيبوبة تخرجها عن وعيها لكنها لا تمنعها من الكلام. وعندما يقوم القادم بسؤالها وانتظار الجواب فإنها تنطق بأقوال مبهمة قد لا ترتبط بعلّة القدوم إليها وتُعتبر الاستخارة فاشلة أي أن الإله لا يريد أن يقطع في القضية وإنما يترك التصرف بها لأصحابها أو أنها تتقوّل بأشياء مبهمة وعندها يقوم كاهن بإخبار الزائرين بما قالت.

سيرى القارئ فيما بعد أن القادمين يقصدون دلفي من أماكن بعيدة بهدايا وتقدمات نفيسة استرضاء للموافقة الإلهية على ما يخططون وينتوون أو النصح بالابتعاد عن عمل ما ينتوون أو معرفة ما يجب عليهم عمله أو ما سيحدث وهم يعتقدون مطلقاً بما تشير عليهم النبوءة وفي العادة يكون الجواب اشبه باللغز يُفهم بأشكالٍ مختلفة ويُفسّر بمعانٍ عديدة، وعلى سبيل مثال: ملك يريد شنّ حربٍ على ملك آخر، ما هي النتيجة؟ من سيكون الرابح؟ وتأتي الإجابة المحيّرة من فم الكاهنة: «ستسقط مملكة عظيمة!». وهنا يترتّب على المستخير أن يقطع أي مملكة ستسقط أمملكته أم مملكة خصمه؟

فقدت دلفي قيمتها وشهرتها بمجيء المسيحيّة ولم يعد لها قيمة بعد انقراض الوثنية. وبدأت «المدرسة الفرنسية» الأركيولوجية عملية التنقيب في الموقع في ١٨٩٢. ومن نتائج ما توصلت إليه اكتشافها هيكل أبوللو والمذبح الذي خُصّص لأهالي «جنوس» وهما في أسفل الإستاديوم والمسرح وآثارهما باقية.

٣- الفورم Forum

بالأصل ساحة مفتوحة (ميدان) تجدها في سائر المدن الرومانية تُستخدم كأماكن لقاء أو كالاكورا اليونانية أي سوقاً عاماً للتبادل التجاري أو لتصريف الشؤون السياسية أو المقاضاة أو مجلس قضاة. ويكون مستوى السطح متساوياً وبهيئة مستطيل عادة ويحاط بأعمدة أو بهياكل عبادة صغيرة (باسيليكا) أو معابد أو بنايات المحاكم أو ما سواها من أبنية تُشيَّد للأغراض العامة. وفي قوانين الألواح الاثني عشر استُخدمت الكلمة بوصفها مدخلاً للقبر. وفي المعسكر الروماني يكون الفورم فضاءً لا تحيط به بنايات أو أسيجة يقام إلى جانب مقرّ قيادة الجيش (الپريتوريوم).

عموماً يراد من الكلمة اللاتينية الساحة المفتوحة أمام باب بناية أو مخرجها.

وفي روما أشارت الكلمة إلى ساحة من الأرض كانت مستنقعاً جُفّف - تقع بين تليّ الكاپيتولين والپالاتين. ويعرف الموقع أيضاً بـ«فورم رومانوم» Forum Romanum. وقد خُصّص في العهد الملكي للاجتماعات العامة (الشعبية) عندما كان يتعذّر الاجتماع من ميدان الكاپيتولينا Area Capitolina. وقبلها كان الفورم في روما يُستخدم لألعاب المصارعة وغيرها. وقد بُنيت فوق الأعمدة المحيطة به مقصورات للمتفرجين.

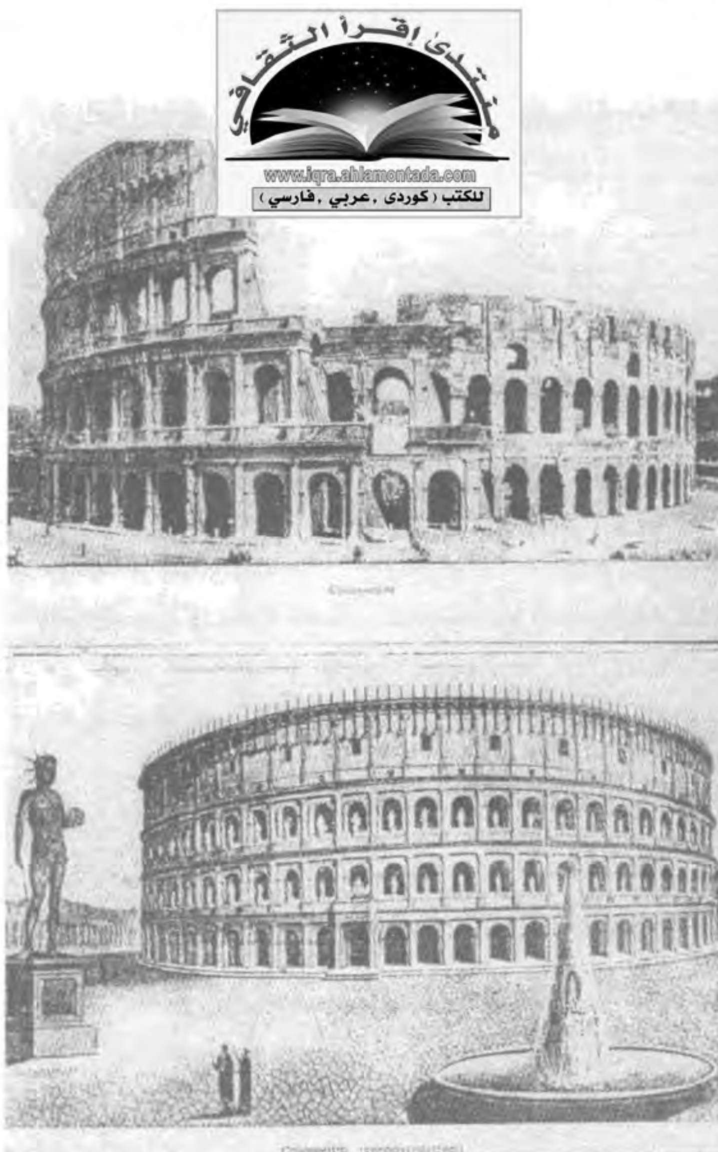
وباتساع رُقعة المدينة أُقيم أكثر من فورم واحد، ويختصّ كلّ منها بناحية حياتية، فاستُحدث فورم قضائي تجرى فيه مرافعات المتقاضين ويجلس قاضٍ فيه للفصل في الدعاوى ويترافع أمامه المدّعون أو وكلاؤهم.

واستُخدم فورم خصوصاً لبيع الخضراوات، وفورم قاصر على بيوع وشراء الماشية. وفي أواخر أيام الجمهورية وأوائل العهد الإمبراطوري استُحدث عدد من الميادن (الفورم) مثل فورم «پومپي» وفورم «تراجان» وفورم «ڤبساسيان» وقد خلّف هؤلاء وغيرهم آثاراً لهم فيها.

في العادة يكون الفورم ذا سطح مستوٍ مرصوف. وفي الأعياد العامة والاجتماعات

السياسية كان يُسمح للعجلات بدخوله. وهو مفتوح من جميع جوانبه ولا أبواب مُقدّمة في أي جزءٍ منه والدخول والخروج لا يعوقه عائق.

هذا ما تأيّد من فورم «مدينة پومپي» التي أزيح عنها رماد بركان فيزوف. فضلاً عن مخططات أخرى للفورم في مدن عدة، وأظهرها «فورم روما» الذي ترى صورته الحالية أو بعبارة أخرى أنقاضه إلى جانب مخططات له تعطي صورة واضحة لشكله الأول ومحتوياته.



٤- نظام الحكم الأثيني (دولة المدينة Polis) على ضوء إصلاحات صولون

الديمقراطية السياسية في نظام الحكم الأثيني وصلت إلى أقصى نهاية منطقية لها. بطبيعة الحال هناك من ينكر على أثينا ديمقراطية نظامها لأن جميع النساء والعبيد والغرباء المقيمين فيها محرومون من حق التصويت، ولا حق لهم في المداخلة وإدارة شؤون الدولة. فأثينا ليست والحالة هذه ديمقراطية إذا عرّفنا الديمقراطية بأنها نظام يقضي بمشاركة جميع البالغين من السكان وأنه لا يمكن إدراج نظامها ضمن ايّ نوع من أنواع ديمقراطيات عصرنا هذا، باعتبار الحجم والسعة وعدد السكان حيث كان من الواجب على كل دولة حديثة إناطة الحكم بممثلين وإداريين محترمين. فدولة المدينة كأثينا مثلاً قد تكون بحسابنا هذا شكلاً من أشكال الأنظمة الأوليغارشية(١). أما إذا عرفنا نظامها بأنه مشاركة جميع المواطنين في الحكم فبالإمكان اعتبار أثينا دولة ديمقراطية. علينا أيضاً أن نتذكر أن من شروط المواطنة الإغريقية أن يكون الشخص مولوداً لأبوين إغريقيين أو أبٍ على الأقل. والدولة الإغريقية هي نظرياً أو شعوريّاً بالنظر إلى هذا مجموعةٌ من الأقرباء أو مجرّد أهالي منطقة أو حيّ معيّن.

على أن التحديد الدقيق للديمقراطية بالنسبة إلى ما نرى إليه حالياً ليس مهّماً(٢).

---

(١) Oligarchy: اللفظ التقليدي المستخدم لنعت حكم القلّة أو الصفوة المختارة عندما لا ينظر الحاكم بعين الرضا. استخدمه أرسطو لتعريف حكم الأقلية عندما لا يمارسه أفضل الأشخاص بل أظلمهم واسوأهم.

(٢) لما كان معنى كلمة ديمقراطية ينطوي على أهمية فبوسعنا أن نشرح المقصود بها في الاستعمال اليوناني. في الأحاديث العادية كلمة Demokratia تعني حرفياً «السيطرة بواسطة الشعب» أي الديمقراطية السياسية كما جئنا إلى وصفها في المتن. إلاّ أن النظريين السياسيين لاسيما أفلاطون وأرسطو استخدموها لتعني «حكومة من الفقراء» وعلى هذا الأساس فقد أدانوها باعتبارها نظاماً أو شكلاً معكوساً من أشكال الأوليغارشية أو الديكتاتورية أو حكم الطغيان أي حكومة هدفها =

لأن اهتمامنا ينصبّ على كيفية عمل الأجهزة السياسيّة في أثينا وما هو مقدار تأثيرها وعملها في الحياة، وفي عقول الاثينيين.

الجمعية العامة هي الرأس، وهي السلطة العليا. وقد جاهد الأثينيون بكل طاقاتهم للابقاء على هيمنتها وعلى سلطاتها وإن رمزياً (على الورق). ولم يكن هناك أية قابلية في أثينا لجهاز أو ماكنة إدارية تتولّى زمام الحكم ذات فائدة بحجم صغير. وتتألف الجمعية العامة من كل ذكر بالغ، قَبِلهُ مجلس الديمي Deme (مجلس المنطقة) وأفتى بأنه مؤهّل وحائز الشروط المطلوبة شرعاً وأنه لم يُحرم شرعاً من حق التصويت بسبب ارتكابه جُرماً خطيراً. وألغي شرط الملكية والقدرة الملكية واكتُفي بشرط أوجب على الأثينيّ أثناء قيام حرب أن يُزوّد نفسه بشكة سلاحه وجميع المعدّات التي تؤهّله للانخراط في الجيش وأن يكون قادراً مالياً على تأمين حصانه والإنفاق على علفه إن كان من صنف الخيالة.

على أن الحكومة Polis مكلّفة من طرف آخر بالإنفاق على مأكله عندما يكون في سلك الخدمة الفعلية. أما المواطنون ذوو الامكانات الماليّة الجيّدة فهم يخدمون في صنف المشاة الثقيلة (الهوپلتيس Hoplite) وهم يجهزّون أنفسهم بالسلاح. أما الفقراء الذين لا يملكون ما ينفقون به على سلاحهم فهم يبقون في الاحتياط أو يستخدمون جذّافين في الأسطول. ويخدم في الجيش الغرباء كالمواطنين سواء بسواء. ولا يُستخدم العبيد لا في الجيش ولا في الأسطول إلاّ عند الضرورة القصوى، عندما يُحدق بالوطن أعظم الخطر وعندها يُدعى العبيد للتطوّع مع وعدٍ أو تعهّد حكومي يوفى به دوماً بالعتق وحق المواطنة المدني الكامل Civil بدون حق المساهمة في العمل السياسي Politicia.

الجمعية العامة هي جلسة عامة علنية يحضرها كل المواطنين الذكور الذين لهم حق التصويت وهي السلطة الاشتراعية الوحيدة ولها سلطة الهيمنة بطرق ووسائل مختلفة في الإشراف على الإدارة والقضاء.

في الإدارة: لم يعد للأريوباغوس القديم المؤلّف من الأراخنة السابقين ما يعمله في الأزمنة المتأخرة غير الفصل في قضايا القتول. كان الأراخنة (ج: أرخون) في زمن ما ذوي سلطة واسعة، تختارهم الجمعية العامة سنوياً بطريق الاقتراع العلني. إن كل

= النفع الخاص. وكلمة Polity والشيء بالشيء يُذكر هي الاسم الذي لُقّبت به حكومة اتفق عليها الجميع دون أن تختص بطبقة.

مواطن في أي عمرٍ يمكن أن يرشّح نفسه لملء كرسيّ واحدٍ من الأراخنة التسعة. وإناطة أمر انتخابهم بالجمعية العامة يعني بالطبع أن سلطتهم مستمدّة منها وأن السلطة باقية عند الجمعية. والجمعية تلتئم مرة واحدة كلّ شهر. إلاّ إذا اقتضى أمرٌ طارئ عقد اجتماع غير عادي للفصل في قضية هامة.

الكلام في الاجتماع هو حق من حقوق المواطن عندما يفلح في استرعاء انتباه الأعضاء للإصغاء إليه. ولكل مواطن حاضر الحق في اقتراح أي شيء ضمن قيود دستورية احترازية مرسومة.

إن جمعيّة كبيرة كهذه تحتاج إلى مجلس أو لجنة تُسمّى البولي Boule أو المجلس الذي يتألف من ٥٠٠ عضو غير منتخبين لكن يُختارون بالقرعة. لكل قبيلة (عشيرة) من القبائل العشر خمسون عضواً. هذا المجلس يُختار كما رأينا بشكل اعتباطي ويضم أعضاء يُختارون سنويّاً وهم بطبيعة الحال ذوو مشارب مختلفة لا يؤمل منهم كثير من الشعور التعاضدي الموحّد. وهذا هو الغرض والهدف من الفكرة، لا شيء يهيمن على جوّ الجمعيّة العامة وتبقى حرّة بوجه أي تغلّب أو تأثير.

الأجهزة الإدارية تُملأ بأعضاء من المجلس التحضيري (البولي). ولما لم يكن بالإمكان عملاً أن يحضر الأعضاء الخمسمائة في جلسات متواصلة فكثرتهم تحول دون تكوين هيئة تنفيذية فعّالة. لذلك يُختار خمسون عضواً لتكوين مجلس البريتاني Prytany من القبائل العشر، يبقى في حالة اجتماع لعُشر سنة. ويختار هذا المجلس رئيسه لكل يوم بالقرعة، أي يكون رئيساً له طوال أربع وعشرين ساعة فقط ويُعتبر رئيساً تشريفياً للدولة[٣].

لوضع حدودٍ أخرى على تصرّفات الهيئات الإدارية فُرض على جميع الحكام الذين انتهت فترة خدمتهم تقديم حساب عن أعمالهم الرسمية ولا تنتهي مسؤوليتهم أو تعرّضهم للاتهام حتى يقدّموا هذا البيان الذي يُسمّى أوديت Audit. ويبقون شبه محجوزين ولا يحق لهم مغادرة أثينا أو بيع أي شيء من ممتلكاتهم.

---

(٣) اتفق أن تقلّد سقراط الفيلسوف هذا المنصب يوماً واحداً عندما أشرفت حرب البلوبونيز على النهاية ودبّ الانقسام في الجمعية كما يحصل في بعض الأحيان. وطلبت الجمعية من دون أي علّة أو مبرّر قانوني اصدار وثيقة اتهام بكل مجلس الجنرالية لفشلهم في إنقاذ الناجين من المعركة البحرية (أركينوساي). إلاّ أن سقراط تحدّى الغوغاء ورفض أن يوضع الاقتراح في التصويت.

هناك دائرة واحدة لم يكن بالإمكان تركها عُرضة لمخاطر التصويت هي قيادة القوات البحرية أو البريّة. فهذه الهيئة وتسمّى ستراتيگوي Stratigoi تتألف من جنرالية أو أمراء بحر عشرة يُنتخبون لمدة سنة واحدة كاملة وإعادة الانتخاب جائزة بل هي أمرٌ اعتيادي في الواقع. وليس بالأمر الغريب عند الأثينين أن يتولّى جندي بسيط مهمة الجنرال ويتقلّد رُتبته في معركة، وأن تراه في معركة أخرى وقد عاد جندياً بسيطاً. تلك هي الصورة الأكثر تطرفاً في المفهوم المبدئي للديمقراطية، أي «أن تَحكم (بفتح التاء) وأن تُحكم (بضم التاء) بالتناوب».

إن الجنرال أو الستراتيگوي بوصفه الموظف الوحيد الذي يُنتخب بسبب مؤهّلاته وقابليّاته الخاصة، ويتولّى مثل هذا المنصب الذي لا يدانيه منصب في خطورته، نجده يمارس نفوذاً عظيماً وسلطة واسعة في شؤون المدينة(٤).

ولا يقتصر سلطان الجمعية على أمور الاشتراع والإدارة بل يتعداها إلى أمور القضاء. وكما أنه لا يوجد هناك إداريون محترفون. كذلك لا يوجد قضاه محترفون ولا مدّعون عامون ولا محامون. والمبدأ السائد هو أن المغدور أو المدّعي يتقدم بشكواه رأساً إلى بني جلدته من المواطنين - إلى المحاكم المحلية في المسائل الشخصية أو البسيطة والى المحاكم الأثينية في المسائل الجسيمة كالقتل والسرقة وسائر الجرائم المدينة. وتتألف للفصل فيها هيئة محلّفين Juru وهيئة قضاة هي في الواقع قسمٌ من الجمعية العامة ويختلف حجمها بين مائة عضو وعضو واحد ١٠١ وألف عضو وعضو واحد ١٠٠١ بالنظر إلى أهمية القضية. وليس هناك قاضٍ وإنما مجرّد شخص يرأس الجلسة المخصّصة لسماع المرافعة من بين هيئة المحلّفين وهو بهذا الاعتبار يُشبه ما يدعى بـ«فورمان» Forman في نظام هيئة المحلّفين الأوربية الحالية. وكما قلنا ليس هناك ادّعاء عامّ ولا محامون والطرفان مكلّفان بالسير في مراحل الدعوى بشخصيهما وإن كان بمقدور المدّعي أو المتهم - كما جرت العادة - أن يسمح لهما باستخدام خطيب (كاتب خطب) يعدّ للمتهم دفاعه على شكل خطبة يجب أن يلقيها هو بنفسه ولا حق له بإنابة آخر لإلقائها عنه. كذلك الأمر بادّعاء المدّعي.

تلك هي هيئة المحلّفين الشعبيّة وكيفية تأليفها ومدى صلاحيتها وهي الفصل في الوقائع وفي تطبيق القانون، وليس هناك محكمة أعلى منها وليس هناك استئناف وان لم

---

(٤) من خلال هذا المنصب ومركزه في الجمعية العامة استطاع پيركليس مثلاً أن يقود الاثينيين مدة طويلة.

يكن يوجد عقوبة محددة في القانون للجرائم. ولذلك فبامتناع هيئة المحلّفين عن فرض أي نوع من العقوبة يكون على المدّعي الذي فاز في دعواه أن يقترح أوّلاً العقوبة التي يريدها وبعدها يقدّم المحكوم اقتراحاً خصوصياً كبديل لاقتراح المدّعي. ثم يُترك الاختيار للهيئة القضائية بين الاقتراحين(٥).

من كل ما جئنا إلى شرحه يستنتج القارئ أن شؤون الدولة في أثينا يديرها هواةٌ، وأن ذوي الاحتراف لا يُعطى لهم فُسحة للعمل أو مجال لممارسة مهاراتهم إلاّ القليل منهم. والواقع أن الخبير فيهم هو عادة «عبد شعبي». وكل أثيني التبعيّة إما جندي أو بحّار أو مشترع أو قاضٍ أو عضو إدارة إن لم يكن «أرخوناً» وهو حتماً عضو في (البولي). وقد انتقد أفلاطون وسقراط هذا النظام لا لأنه غير فعّال بل لأنه أودع الأمور بيد جهلة جهلاً تاماً بمزاولة «فنّ السياسة» لتحسين أحوال الناس.

---

(٥) هذا ما يفسر الإجراءات القضائية في محاكمة سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) التي وردت في كتاب أفلاطون (أپولوجيا: الدفاع) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) طلب المدعون فرض عقوبة الموت. إلا أن سقراط اقترح تغريمه فحسب مينا واحدة لأنه لا يملك أكثر من هذا وأصرّ على ذلك فأثار موجة من السخرية والتندر. في حين لو أنه اقترح النفي فقد كان يسرّ ذلك هيئة المحلفين وتقبل به بكل سرور.

SENATE
300 (600) members
appoints
INTERIM KING
MAGISTRACY
CONSULS
PRAETORS
CENSORS
CURULIAN AEDILES
QUAESTORS
COMMANDER OF CAVALRY
Ratification by the lex curiata
POPULAR TRIBUNES
PLEBEIAN AEDILES
COMITIA CURIATA
3 TRIBES
30 CURIAE
COMITIA TRIBUTA
4 urban and 17 (31) rural TRIBES
COMITIA CENTURIATA
5 classes and 193 centuries
PLEBEIAN TRIBAL ASSEMBLY
THE ROMAN PEOPLE

ATTICA
Athens
PISATIS
ARCADIANS
Corinth
Aegina
Epidaurus
Calauria
Tegea
Ithome
Messene
MESSENIA
Sparta
Amyclae
LACONIA
Methone
Asine
Gythium
Zarax
Cythera
Foundation of Tarentum 700
Land owned by Spartiates
Area of Spartan influence
Alliance against Sparta during 2nd Messenian War
Amphictiony of Calauria

...e Peloponnesus to 500 B...

ملحق

الجيش الروماني

النظام - التركيب - الاستحكام - العقيدة - النبوءات

الجندي الروماني أينما كان موجوداً ضمن تخوم الإمبراطورية الواسعة الأرجاء يمحض ولاءه وإخلاصه المباشر والمطلق للدولة وللإمبراطور ولآلهة روما الوطنية. ودين الجيش يتسرّب بدقة وحذقٍ إلى هذه المُثل الموحّدة. فالجندي الروماني على هذا الأساس له أن يزعم أنه مشارك فعّال في مصائر روما ويستمدّ رضى النفس والراحة الفكرية من الاعتقاد بأنه إنما يُنجز واجباً مقدّساً عن طريق هذه المشاركة. والتقوى على هذا الأساس تُعدّ فعلاً من الفضائل عند العسكري كالشجاعة والحذاقة في استخدام السلاح وآلات الحرب. ولذلك كان الدين عاملاً هاماً في نجاح الماكنة الحربية الرومانية عبر العصور مثلما أمّن للجيش الروماني عامل التفوق في التنظيم والضبط والتسليح والتاكتيك. فمنذ أوائل العهد الجمهوري وجد الرومان في الدين رابطة وثيقة بين أنفسهم والآلهة من اعتقادهم بأن السلطة المطلقة الرومانية تنبثق من هذه الآلهة وهي التي تحميها. فالموضوع والحالة هذه وفي كل حين هو أمر في غاية من الأهمية. وليس هناك ما هو أكثر ظهوراً من المنجزات العسكرية وهي سرّ بقاء الإمبراطورية ومصدر أمنها.

إن الإصلاحات التي أحدثتها الإمبراطورية الأغسطية (نسبة إلى أُغسطس قيصر)، إلى جانب إشاعتها النظام المبدئي في التطبيق، لم تستغن عن الكثير من التقاليد العسكرية الرومانية ولم تعمد إلى خلخلة أحكامها. وقد استغل أُغسطس قيصر مركزه بوصفه الفرد المنتصر في الحكم الثلاثي (راجع سيرة يوليوس قيصر). استغل مركزه هذا ليغدو «المواطن القائد» Princeps والإمبراطور (القائد الأعلى للجيش Imperator) معاً وهو جمعٌ في غاية الذكاء لسلطة واحدة دون لقبٍ أو صفة (ملك)، فبوصفه پرنسيپس، كان كما وصفه أحد الكتّاب «الأول بين الأقران» Primus inter

pares. لكن ختمه كان يساند مائة وأربعين سيفاً من جنود فرقة. وأول ما عمله من إصلاح هو إنقاص عدد الفرق الرومانية (والجنود هم مواطنون رومان) فأصبح قوام الجيش الروماني حوالي ٢٨ فرقة بعد أن كان ٥٠، وملاك الفرقة خمسة آلاف ضابط وجندي مقسّمة إلى خمسين سريّة على رأس كلِ آمرُ سرية «سنتوريون». وأنيط بكل فرقة واجب محدد لا تتعدّاه. وألغى الجيش الاحتياطي القادر على الإخلال بتوازن السلطة.

وإلى جانب الفرق الرومانية كانت هناك قطعات عسكرية نظامية من الشعوب الأخرى التابعة، نُظّمت بشكل ألوية (ج لواء Cohert) تعداد الواحد منها يبلغ ألفاً من الجنود والضباط. وأنيط بهذه الوحدات واجبات الدوريات والمحافظة غلى الأمن في الحدود، ومساندة الفرق الرومانية حيثما تمّ حشدها في النقاط الستراتيجية.

ويهيّئ الجيش له مخيّماً (قلعة)، وهي قاعدة أو مقرّ منتظم له حين يخرج للقتال في أرض العدو. وهذه تكون بمثابة مقرّات شتوية يجرى فيها النظام الصارم ويطبّق تدريب متواصل وتكون الوحدات في درجة إنذار قصوى على الدوام. وهذا قانون انضباط حازم شديد خضع له الجنود والضباط معاً ولم يُستثن منه أحد. وعندما يكمل جنود الاحتياط هؤلاء مدة خدمتهم بجدارة فإنهم يُمنحون صفة المواطن الروماني.

وكما بيّنا آنفاً ينسحب ولاء الجندي أيضاً إلى الآلهة الرئيسة عند الشعب الروماني بالدرجة الأولى فضلاً عن ولائهم للإمبراطور رئيس دولة وقائداً عاماً للجيش معاً.

كان يُفرض على العسكري قبل عهد أغسطس قسم يمين الولاء لقادة الميدان. وهو عمل فيه من الخطر ما فيه وكثيراً ما أدّى إلى حرب أهلية. أما الآن فليس هناك غير قائد واحد وله تُقسم اليمين وهو كبير الآلهة (جوبِتر أو بتيمسوس ماكسموس) وهو الذي يتقدم الكل، وبرمحه الذي يرسل الصواعق يحمي الدولة، وقواه الطاغية في التدمير مصوّرة على دروع ومجنات وتروس الجنود، وطيره الجارح النسر تراه يرتفع على قُطب كالرّاية أمام الجنود مصنوعاً من الفضة. والنزول عن هذه الراية أو فقدانها يصم بالعار الأكبر حاملَه ويصيب الوحدة بهزيمة مخجلة لا منجى منها.

سنوياً وفي اليوم الأول من شهر كانون الثاني يقام استعراض عسكري بكل شكة الحرب والسلاح أمام كل مخيّم (قلعة) يعلن فيه تجدّد الولاء لجوبِتر وتوقد له نار جديدة. ويتم لهذا الغرض تمهيد ساحة بمساحة ١٠٠ ياردة مربّعة لتقام عليها منصة القائد لتلقّي تحيّة القطعات وهي تمرّ به أثناء الاستعراض، ويُبنى فيها مذبح لجوبِتر Tribunal. وقد اكتُشف هذا في مواطن عديدة أوروبية. فتكريم الإمبراطور الحاكم

وتأليهه هما القاعدة التي لا يُحاد عنها في كل معسكر روماني. وهناك مذبح مكرّس «لروح سيّدنا الإمبراطور» ويُبنى بمواجهة العدو، ويُحتفظ فيه بالراية والأوعية الدينية التقليدية وغير ذلك من أدوات المراسم والأشياء والغنائم الثمينة ورواتب الجنود. ودوائر الإدارة وأماكن حفظ السجلات تحتلّها حجرات مساعد القائد وموظفيه ومعاونيه وتدعى كورنيكيولاريس Cornicularis. وأمّا مقرّ القائد المركزي فيُبنى له أو يُنصب له خيمة أخرى ويدعى بريتوريوم Praetorium. وفيها يجتمع إليه مجلس الحرب ورؤساء الأركان والضباط للتخطيط للحملة أو المعركة المقبلة. إذ كان يجب على القائد إضافة إلى استشارة ضباطه والاستماع إلى رأيه أن تجرى عملية الاستخارة أو النبوءة وتُسمع من فم «عرّاف» بعد تقديم أضحية (قربان) للإله. وتتم النبوءة بأساليب عدة، ومن بينها فحص أحشاء الأضحية، أو مراقبة السارح والبارح من الطير، أو بغرابة مشية الدجاج، أو بظهور حيوان من جهة ما بشكل غير متوقّع، أو بعلامات مخصوصة في الرعود والبروق. وتحت أي ظروف خاصّة أي حدث قد يفسّره «العرّاف» بالشكل الذي يتراءى له. ومهنة العرافة عند الرومان هي هِبة إلهية خُصّ بها أناس معيّنون دون غيرهم. لكن كانت هناك فترات تعليم لمعهد دراسة العرافة تسبق مزاولتها.

مراسم تقديم الأضحية هي بحدّ ذاتها مصدر عون شديد القوى للعرافة. لكن الغرض الأساس منها هو تطهير وإعداد أولئك الذين سيشاركون في الحرب. والتقدمة العظمى هي أن يُضحّى بخنزير وكبش وثور تقدّم نيابةً عن الدولة.

هذه المراسم لا بد منها عند انطلاقة الجيش الروماني إلى مغامرة أو فتح عسكريين. وعندما تأتي نبوءة العرّاف مبشّرة بالنجاح ومشجّعة على الانطلاق تقوّي النبوءة تأليه أصحاب الولاء بتقديم القرابين وستكون النتيجة النجاح بدون شك.

وفي حالة الاستيلاء على أرض جديدة، أو استعادة أقاليم فقدتها روما، يُقام نصب تذكاري للمعركة التي خاضها الجيش في هذا السبيل. وهذا من جملة التقاليد العسكرية الرومانية وقد نقلوه عن الإغريق. ويُتخذ النصب التذكاري على شكل كدسٍ من الأسلحة والدروع والتروس وشكة الحرب وغيرها من آلات الحرب المنتزعة من جثث قتلى العدو في عين الميدان الذي جرت فيه المعركة وتحققت هزيمة العدوّ. في العادة كانت هذه العدد الحربية تُكدّس قطعه فوق قطعة كيفما اتفق وبدون ترتيب لتمثّل العدو المنهزم وتُكدّس عادةً عند قاعدة صليب خشبي يعلوه سيف وخوذة وتروس أو سلاح آخر. وكثيراً ما يُنقش وصف للمعركة إذا كانت القاعدة مبنية بالحجر، أو يُنقش فوق المسكوكات والعملات. ولا تزال آثار وخرائب لبقايا هذه الأنصاب قائمة، عُرف منها

النصب التذكاري الشهير الرابع في «لا تربي» بمقاطعة موناكو بمقابل الجانب البحري وكان قد أقيم في ١٦ ميلادية تذكاراً لإخضاع ٤٦ قبيلة ألپيّة. وهناك أيضاً نصب الإمبراطور التذكاري في رومانيا تخليداً لأرواح ثلاثة آلاف جندي روماني فقدوا حياتهم.

ويعبد الجيش الروماني آلهة مختلفة متعددة الجنسيات تبعاً لتقاليدهم الدينية، ويعبدون الأرواح والأطياف والأشباح. وتبدو العبادة بتقديم صفوف معيّنة من الهدايا والقرابين والأضاحي. ويأتي الأول في التصنيف بطبيعة الحال دين الدولة الرسمي وعبادة آلهتها الوطنية، ويأتي إثر ذلك تقديس الإمبراطور، وهو فرض واجب على كل روماني أو غير روماني خاضع للحكم الروماني[1].

وتُقام حفلات دينية عديدة بصورة منتظمة وليس من المفروض فيها أن تكون رزينة ويحفّ بها الإجلال والوقار، بل كانت بالأصل بهدف الترفيه ولكن بصورة مهذّبة وبجلال ديني وكان يتخللها في العادة ألعاب وتمثيل، وهي طابع المناسبات الرومانية منذ القِدم فقد أقيمت بالأصل للترفيه والتسلية.

ويطول الحديث بنا عن الديانات غير الرسمية التي كان الجنود يزاولونها ويعتنقونها ومقدار قيمتها عندهم وانتشارها بينهم. ففي زمن ما ولنقل القرنين الأول والثاني الميلاديين كانت عبادة الإله «ميثرا» الفارسي معروفة جداً ومتفشيّة في الجيش الروماني يقيمون لها المناسبات كما يقيمون للآلهة الوطنية، وهياكل هذه الآلهة غير الوطنية كانت عادة تقام خارج المعسكر وبالقرب منه.

---

(١) في بلدة «الدورة» التي تقع على نهر الفرات عثرت بعثة آثار من جامعة بيل على كدس كبير من وثائق البردي تعود إلى مقر دائرة سجلّات اللواء الپالميري (التدمري) الذي كان يعسكر هناك. وقد وجِد في إحدى الأوراق التي لم يعترها تلف كبير قائمة بالأعياد الدينية فضلاً عن مناسبات الأعياد الرومانية. وكان فيها عدد من الآلهة الشرقية. وقد وجدت البعثة أن الأيدي عدّلت فيها وشطبت وأضافت. وفي الواقع كانت الصحيفة بمثابة تقويم عسكري. ويستشف منها أيضاً أن نوعاً من احتفال كان يجرى كل أسبوع تقريباً، إمّا بتقديم قربان إلى آلهة وطنية أو إقامة حفل تكريم لعضو من بيت الإمبراطور ذكراً أكان أم أنثى.

صولون

SOLON

٦٤٠–٥٥٨ ق.م

ذكر ديديموس Didymus[1] النحوي، في جوابه على رسالة أسقلپيادس Asclepiades حول ألواح شريعة صولون، فقرةً أوردها المدعو فيلوكليس Philocles تشير إلى أن اسم والد صولون هو يوفوريون Euphorion، خلافاً لرأي جميع الآخرين الذين كتبوا عنه، فهم يتفقون بصورة عامة على أنه ابن إكسيقستيدس Execestides وهو رجل متوسط الثروة والنفوذ في المدينة، إلا أنه سليل اسرة من أعرق الأسر فهو منحدر من صلب قدروس Codrus وأمّه كما يؤكد هيراقليدس پونتيكوس هي بنت عَمّ أم پيسِتراتوس، وكانت الوالدتان صديقتين حميمتين في مبدأ الأمر، لأنهما قريبتان من جهة، وبسبب نبل سجايا پيسِتراتوس وجماله الرائع من جهة أخرى[٢]. ويقولون إن صولون أحبّه أولاً. وأعتقد أن هذا هو السبب في عدم وصول عداوتهما، بعدما اختلفا حول الحكم، إلى حدود العنف والحقد. بالعكس فإن ودادهما السالف ظل يقيم في قلبيهما لتبقى ذكرى مودّتهما العزيزة حيّةً:

---

(١) ديديموس الإسكندري من مدرسة أرسطوخوس، ومعاصر لأغسطس. وقال بعض الكتّاب إن تعقياته ولاسيما على خطباء الإغريق وشعرائهم بلغت أربعة الآف!

(٢) كان پسستراتوس رجلاً كريماً محبوباً في منتهى الرقة واللطف. وكان يلازمه أبداً عبدان أو ثلاثة يحملون حقائب مفعمه بالنقود الفضية فإذا ما وجد علائم مرض على شخصٍ ما أو سمع بأن أحداً ما توفي فقيراً، بادر إلى معالجة الأول على نفقته وتكفل بمصاريف تشييع الثاني ودفنه. وإذا وجد مغموماً حزيناً تحرّى عن السبب فإن كان الفقر بادر إلى ستر الخِلّة لكن لا بالشكل الذي يسلمهم إلى الكسل والتواكل. وفتح أبواب بساتينه ومزارعه للمواطنين يقطعون ويجنون من ثمارها ما شاؤوا. كان وسيماً بهيّ الطلعة هاش الوجه باشّاً، رفيق اللسان متواضع الجانب. وبمختصر القول كانت فضائله حقيقية خالصة لا متعمّله أو مقصودة أو مشوبة باغراض الهيمنة والاستبداد بحكم أثينا، ولو لم يكن كذلك لعُدّ أفضل مواطن في أثينا على حَدّ قول صولون نفسه. مدحه هيرودوتس كثيراً لحسن إدارته وأثنى عليه شيشرون [في الخطب ٣: ٣٤] وأشاد ببلاغته وفصاحته.

إن جمرات صاعقة زفس الملتهبة ظلّت متوهّجة.

كما صوّرها يوربيدس. وفي قصائد صولون أيضاً نجد شواهد على أنه لم يكن قادراً على مقاومة الجمال، ولا تحدّي الحبّ.

بمواجهته مثل ملاكم في الحلبة

كما نتبيّن من أحد قوانينه الذي حظر على العبيد(٣) المشاركة في الألعاب الرياضية ودهن أجسامهم بالزيت، أو أن يَعْلقوا بحبّ شاب. وبهذا جعل مثل هذه العلاقة وغيرها في مرتبة الشرف، وموضع الثناء، مقبولة من الوجهاء ومحرّمة على الوضعاء.

وقيل إن پِسِستراتوس كان مُتيّماً بالمدعو خارموس Charmus وهو الشخص الذي أوقف له تمثال الحب في «الأكاديمي» بالقرب من الموضع الذي كان العدّاؤون في سباق الشعلة المقدسة يشعلون منه مشاعلهم(٤). وكتب هرميپوس يقول:

ضيّع والد صولون ثروته(٥) في التصدّق والإحسان إلى الآخرين. وكان لديه أصدقاء كثيرون يرغبون في إنقاذه من ضيقه إلاّ أنه كان يخجل من أن يكون مديناً بفضل، لأنه منحدر من أسرةٍ اعتادت عمل الخير فلا تقبله. ولذلك انصرف صولون إلى التجارة في شبابه، وان كانت طائفة من الكتّاب تؤكد لنا أن انصرافه إلى الأسفار لم يكن للربح وحده، بل في طلب العلم والخبر. ومن المؤكد أنه كان محباً للمعرفة. إذ لمّا بلغ من العمر عِتيّاً نراه يقول عن نفسه بصيغة المتكلم:

«كل يوم أزداد عمراً، وأتعلم شيئاً جديداً».

وهو ليس من المولعين بالغنى، ولذلك يستوي عنده، الرجل...

«الذي تحتوي يده الفضة والذهب وأحمال القمح ويملك الخيل والبغال،

---

(٣) أڤريدس الباكاي ٨.

(٤) يقام سباق المشاعل ثلاث مرات في السنة ويتم في الپاناثينياي إكراماً لمينرڤا وپروميثيوس كُلّ في عيده. ويتم إحياؤها بالشكل التالي: ينير المتبارون مشاعلهم من مذبح پروميثيوس في السيراميكوس ويبدأون بالعدو بأسرع ما يمكن متجهين إلى المدينة ومن ينطفئ مشعلة أثناء ذلك يخرج من الحلبة، ومن يسبق إلى الهدف يُعلن فائزاً في المباراة [پاوسنياس ١ : ٣٠].

(٥) يضع أرسطو صولون في مرتبة الفقراء من مواطني أثينا. ويتخذ من آثاره الدلائل على ذلك. في الواقع لم يكن صولون غنياً. ففي شبابه كان انصرافه إلى الشعر يستغرق معظم اهتمامه. ويقول أفلاطون في رسالته (تيميون) «لو أن صولون أكمل كل قصائده (لاسيما ملحمته في تاريخ جزيرة الأطلانتيد التي جلبها معه من مصر)، ولو خصّص وقتاً لتنقيح وإصلاح تلك الملحمة كما فعل غيره، لظهر وهو أشهر وأشعر وأبعد صيتاً من هوميروس وهسيود وكلّ شعراء الأقدمين. وواضح من سيرة حياته وكتاباته أنه يتخلّق بأسمى الفضائل وأطيب مزاج وأحبّ الطباع».

وإقطاعات واسعة من الأراضي، مع ذلك الذي لايملك إلاّ خبز يومه والثياب التي تكسو ظهره والحذاء الذي ينتعله[٦]، وزوجاً شابّة وولداً وامرأة شابة وولداً وعدداً من السنين يقضونها معاً، فكلاهما في عرفه».

وكتب أيضاً في مكان آخر: لا ضير في أن أكون غنياً، لكني لا أريد الغنى إن جاء بوسيلة غير لائقة. العدل حَقّ وإن كان بطيئاً[*].

من الممكن جداً أن يُظهر الرجل الصالح أو السياسي بعض اهتمام بالحاجات الضرورية دون أن يُعتبر مهتماً بالصغائر والتوافه. وفي عصر صولون «لم يكن العمل مَعرّة لأحدٍ»، كما قال هسيود[**]، ولم تكن المحنة سبباً للتفرقة والامتياز. وكانت التجارة حِرفة نبيلة فهي التي تأتي إلى البلاد بالحاجات اللطيفة التي يستمتع بها البرابرة. وكانت واسطةً للتصرف بملوكهم ومصدراً لاينضب معينه للتجارب والخِبَر. وقد بنى بعض التجار مدناً كبيرة أمثال پروطيس Protis مؤسّس مدينة ماسيليا التي تعلّق بها الغاليّون أشدّ التعلّق، وهي قريبة من نهر الرون. وهناك أخبار تفيد أن طاليس[٨] وهيپوقراطيس الحاسب كانا يزاولان التجارة. وأفلاطون نفسه كان يسدّ نفقات رحلاته من بيع الزيت في مصر[٩].

وعُزيت رقّة صولون وإسرافه وأسلوبه الشعبي، لا الفلسفي، في تصويره اللذات والمسرّات بأشعاره، إلى حياة التجارة. فقد ركب الآف الأخطار، وكان من الطبيعي أن تُعوَّض ببعض المتع والمسرّات. أما أنه يُعدّ نفسه أمْيَل إلى الفقر منه إلى الغنى فهو واضح من أبياته التالية:

---

(٦) هذه المقطوعة من المنسوبات إلى ثيوغنس.

(*) المقطع ١٣.

(**) الأعمال والأيام ٣١١.

(٧) ربما كان هذا الذي ذكره جوستين قائلاً إنه واحد من أبرز المهاجرين الذين هربوا من فوكسين تخلّصاً من سلطان الفرس وبنى مدينة مارسيليا وإلى الاسم عينه يعزو أرسطو تلك المستوطنة أيضاً. (أثيناغورس ١٣: ٥).

(٨) العمل الذي عُزي ثمّ طبيعي - أي التجارة - هو على الغالب ما قصده ديوغينس لابيريتوس عند تدوينه سيره حياته (١: ٢٦) فقد قال من أجل أن يبرهن على سهولة جمع المال والغنى، وبإدراكه ببعد نظره وبصيرته. إن المحصول من الزيتون سيكون كثيراً، فابتاعه قبل نضوجه وربح ربحاً عظيماً من الصفقة.

(٩) بيع زيتون اليونان وبلاد اليهودية في مصر كان من الأمور المألوفة وهو محصول آتيكا الوحيد. ولوفرته سمح صولون بتصديره.

كثيراً ما ينعم الأشرار بالغني في حين يجوع الخيّرون
مع هذا فإني لن أبدّل حالي بحالهم
وفضيلتي بذهبهم. لأن ما أملكه يدوم
في حين يبدّل الغنى مالكيه يومياً
الفضيلة شيءٌ لايستطيع أن يسلبه أحد
في حين ترى الغنى يبدّل أصحابه

ويبدو أنه قرض الشعر، ولم يكن يرمي من ذلك بالأول إلى هدف بل كان يعالجه للتسلية وتمضية الوقت. ثم راح يضمّن المبادئ الفلسفية في قصائده ويشيع فيها كثيراً من التعاليم السياسية. ولم يكن قصده تسجيلها ونشرها، بل لتبرير أعماله. كما كانت أحياناً تهدف إلى استنهاض هِمّة الأثينيين وحثّهم أو تأنيبهم وتوبيخهم. وزعم بعضهم أنه حاول صياغة قوانينه في قالب شعر حماسي قبل سنّها. وقد أتحفونا بالمقدمة الشعرية:

ألا فلنتقدم بالصلاة إلى زفس ابن كرونوس الملكي. ليمنح هذه الشرائع، شرائعي النجاح والشهرة(*).

وفي مجال الفلسفة اهتمّ أساساً بالناحية السياسية من الأخلاق شأنه في ذلك شأن معظم الحكماء. أما في العلوم الطبيعية فهو يكشف عن قصور ومعلومات بسيطة عتيقة كما يبدو من هذه الأبيات:

الغمام هو الذي يدفع بالثلج والمطر
والرعد لا يلبث أن يصدر من البرق الخاطف
والبحر يصطخب موجُه عند هبوب الريح
لكنه لطيف سَمْحٌ عندما يُترك وشأنه.

وعلى أغلب الاحتمالات أن طاليس في ذلك العهد هو الذي ارتفع بالفلسفة من مجرّد ممارسة إلى درجة الامتهان والاحتراف. وبقية الحكماء إنما سُمّوا فلاسفةً لتضلّعهم في المسائل السياسية.

ولقد قيل إنهم عقدوا اجتماعين في دلفي ثم في كورنث، بمسعى من پرياندر الذي قام بتهيئة الاجتماع مع مأدبة العشاء. إلاّ أنّ مكانتهم ارتفعت أساساً عندما أُرسلت إليهم

(*) ما وصل من شعر صولون جُمع في كتيّب لـ Bergre باسم الشعر الغنائي الإغريقي Paetae Lyrid Gracii.

جميعاً الطبلة ذات القوائم الثلاث، فراح أحدهم يدفع بها إلى الآخر تواضعاً وإيثاراً، وأبى واحدهم تفضيل نفسه على صاحبه، بمنتهى الطيبة وحسن النية. والحكاية تروى على النحو الآتي:

كان بعض الكوان Coan يصطادون السمك بالشباك. فاشترى بعض الأجانب الميليسيين مقدّماً كلّ ما تخرجه رمية الشبكة في البحر، فألقى بها الصيادون فخرجت بهذه الطَبَلة الذهبية التي قيل إن هيلين ألقتها في هذا الموضع عند عودتها من طروادة لمّا تذكرت نبوءة قديمة. وراح هؤلاء الغرباء ينازعون الصيادين على الطبلة. وسرى الخصام إلى المدن حتى كاد يؤدّي إلى حرب. ثم فصل أبوللو في النزاع بأن حكم أن تُهدى اللقطة إلى أوفر الناس حكمة. فأُرسلت أولاً إلى طاليس في مدينة ميليطس. وقد نزل له الكُوان عنها بكل سخاءٍ وهي التي كادت تؤدّي بهم إلى قتال الميليسيين جميعاً. إلاّ أن طاليس أبى قبولها قائلاً إن بياس Bias أوفر الناس حكمةً، فأُرسلت إليه ومنه أُرسلت إلى آخر وهكذا دارت عليهم كرّةً أخرى حتى طاليس، وبعد انتقالها من ميليطس إلى ثيبه أوقفت على أبوللوأرسيمينين[١٠]. ويكتب ثيوفراستس أنها عُرضت على بياس أولاً في مدينة پريان Priene ثم على طاليس في ميليطس، ودارت على الجميع لتعود من جديد إلى بياس، ثم أُرسلت إلى دلفي. تلك هي تفاصيل الحكاية عموماً، خلا أن بعضهم يقول إن الهدية لم تكن طبلة ذهبية ذات قوائم ثلاث، بل هي كأس بعث بها كروسوس Cruesus. وقال آخرون بل هي صفيحة تركها باثيكلس Bathycles.

وروي أن كلاً من أناخارسيس Anacharsis[١١] وصولون، وكلاً من صولون

---

(١٠) مشتقة من اسم هيكل مكرّس لذلك الإله ويقع على ضفاف نهر أسيمنوس الذي يجرى بالقرب من ثيبة. أما عن حكماء الإغريق السبعة فالمُجمع عليهم بصورة عامة هم باياس Bias السيريني، وخيلون Chilon السپارطي، وكليوبولوس Cleobulus اللندوسي، وپرياندر Periander الكورنثي، وپيتاكوس Pittacus الميتيلليني، وصولون Solon الأثيني، وطاليس Thales المليطي.

(١١) عُرف الصيثيون قبل صولون بزمن بعيد بالزهد والعفة ومكارم الأخلاق والعدالة. وأناخارسيس هو منهم، أمير من أمرائهم. نزح إلى أثينا في حدود الأولمبياد السابع والأربعين (٥٩٠ ق.م) وأهّله عقله الراجح وسعة مداركه وكثرة تجاربه إلى أن يعدّه بعضهم من ضمن الحكماء السبعة. إلاّ أن أحكم الحكماء لا ينجو من الشذوذ، ولهم كغيرهم من البشر هفواتهم وسقطاتهم. وقد كان الأمر مع أناخارسيس كذلك إذ حمل معه طقوس كيبيله الإغريقية خلافاً لشرائع بلاده وظلّ =

وطاليس كانوا عشراء وأصدقاء. ونقل بعضهم أجزاء من أحاديثهم وزعموا أن أناخارسيس قدم إلى أثينا لرؤية صولون فطرق بابه وقال له إنه غريبٌ عن البلد قصده ضيفاً، يريد صداقته. فأجابه صولون: أليس من الأفضل له أن يبحث عن الأصدقاء في موطنه؟ فأجاب أناخارسيس:

- إذن فانشىء صداقة معي أنت الذي تقيم في موطنك!

فأُعجب صولون بحضور بديهة الطارق وذكائه، ورحّب به في بيته وأبقاه معه ردحاً من الزمن. وكان في ذلك الحين قد انصرف إلى الشؤون العامة وقطع شوطاً في تهيئة قوانينه. ولما علم أناخارسيس بما يفعل ضحك منه واستغرب محاولة تنظيم حياة بني قومه بقوانين مسطورة، وتوسّله بها إلى إزالة الطمع والغش. وقال له إن الشرائع أشبه بنسيج العنكبوت لا يقع في خيوطها إلاّ الفقير والضعيف، في حين يسهل على الغني والقوي قطعها. فأجابه صولون قائلاً: «إن الناس يظلون خاضعين للقوانين ما دامت لا تستفيد أية جهةٍ من خرقها»، وإنه بنى قوانينه لمواطنيه على هذه الفكرة والأسس ونظمها بحيث يدرك الجميع أن من الخير لهم أن يكونوا منصفين عدولاً متمسّكين بالقانون لا أن يخرقوه. إلا أن الوقائع أثبتت أن أناخارسيس كان أصوب من صولون ونظرته أحق من آمال ذاك. ويؤثر عن أناخارسيس عندما كان عضواً في الجمعية العامة أنه أظهر عجبه من أن الحكماء في اليونان يتكلمون فحسب، بينما الحمقى هم الذين يتخذون القرارات.

قالوا إن صولون رحل لرؤية طاليس في ميليطس وأبدى عجبه من بقائه عازباً لم يتخذ زوجة ولم ينجب أولاداً فلم يجبه طاليس عن سبب عزوبته حالاً، لكنه أوصى بعد أيامٍ أحد الغرباء بأن يقول إنّه غادر أثينا قبل عشرة أيام. فأخذ صولون يسأل عما وقع هناك من حوادث، فأجاب الرجل مطبّقاً التعليمات التي أوصاه بها طاليس: «لا شيء يُذكر، خلا تشييع جنازة شاب شاركت فيه المدينة كلها لأن الميت كان كما قالوا ابن رجل محترم، بل أكرم أهل المدينة خُلقاً، ولم يكن في المدينة عندما توفّي ابنه فقد مضى عليه زمن طويل في الأسفار». فأجاب صولون: «يا لشقاء هذا الرجل! ولكن ما اسمه؟»، فقال الرجل: «لقد سمعته لكني نسيته الآن، وكل ما أذكر هو الكلام الكثير عن حكمته وعدله». وهكذا كان صولون يُدفع إلى الشكّ بكلّ سؤال وزادت مخاوفه.

= يمارسها بصورة سرّية. فاتفق أن واحداً من بني قومه اطلع على سِرّ فوشى به إلى أخيه الملك الذي أسرع إليه ليصرعه بسهم مسدّد إلى قلبه (هيرودوتس ٤: ٧٦).

وأخيراً استبدّ به القلق، وذكر للغريب اسمه وسأله هل إن الشاب الميت يدعى ابن صولون؟ فأومأ بالإيجاب فطفق صولون يلطم رأسه ويأتي بحركات وأقوال تنمّ عن كربٍ عظيم[١٢]. وهنا أسرع إليه طاليس وأمسك بيده وقال له مبتسماً: «هذه الأشياء يا صولون هي التي أبعدتني عن الزواج وإنجاب أولاد. فهي صعبة شديدة حتى بالنسبة إلى شخصك، ولكن لا تقلق، فالنبأ مختلقٌ من أساسه». هذه الرواية نقلها هرميبوس عن پاتيكوس Pataecus الذي يتباهى بأن له روح أيسوبّ Aesop.

ومهما يكن من أمر، فإنه مما لا ينسجم مع العقل السويّ، ولا مع الروح القويّة، أن نتجافى السعادة خوفاً من فقدانها. إذ ينبغي على هذا الأساس ألا نسمح لأنفسنا بالرغبة في الغنى والمجد والحكمة مادام يلاحقنا الخوف من فقدانها كلها. لا بل الفضيلة نفسها، وهي أعظم ما يرغب المرء في امتلاكه، فكثيراً ما تتأثر بالمرض وتناول العقار. حتى طاليس نفسه وهو غير متزوّج لا يسعه التحرّر من القلق إلاّ إذا بطل اهتمامه بأصدقائه وأقربائه وبلاده، في حين قيل إنه تبنّى ابن اخته كيبسثوس Cybisthus لأن النفس يلازمها عنصر العطف، ولأنها ما خُلقت إلا لتحبّ، ولتدرك وتفكر أو لتتذكر، فلا سبيل لها إلاّ أن تميل إلى شخص غريب وتركّز اهتمامها عليه عندما لا تجد من تحنو عليه من صُلبها. والأشخاص الغرباء وغير الشرعيين ينالون الحظوة عندها فتتعلّق بهم كمن يتعلّق بمالٍ لا وريث له. والحب يأتي بالقلق والاهتمام. وقد ترى أناساً لا يكفّون عن التنديد بفراش الزوجية وبثمرته، فإذا مرض ابن إحدى خادماتهم أو محظياتهم أو مات رأيتهم وكأن الحزن يكاد يقضي عليهم، فيبكون وينتحبون بحرقةٍ. وترى بعضهم يُظهرون ذلك الحزن المُخجل العميق على فَقْد كلب أو حصانٍ، وآخرين يتحمّلون موت أبنائهم الصالحين الشرعيين دون أن يبالغوا في إظهار ما لايليق من الحزن. هؤلاء أمضوا حياتهم رجالاً بكل معنى الكلمة، وعاشوها على مبادئ العقل ضِدّ صروف القدر، إلى مثل هذه الآلام والأحزان التي لاتنتهي. وهم في واقع الحال لا يملكون فرصة الاستمتاع الآني بما هو موضوع حبهم، لأن احتمال خسارتهم المقبلة له تظلّ أبداً تُسبّب لهم قلقاً ورعباً وآلاماً مستمرة. وينبغي لنا ألاّ نتحصّن بالفقر ضد

(١٢) الأمر سواء أكان في هذه المناسبة أم غيرها أي عند وفاة ابن له. فقد كان جواب صولون إنسانياً ومعقولاً للغاية عندما طلب منه أن يكفكف دمعه لأن البكاء غير مجدٍ فقال: «ولهذا فأنا أبكي!» أي لأني لا أرى فيه جدوى. وبهذا يقول الشاعر العربي اللسان اليوناني الأصل ابن الرومي مخاطباً عينيه عندما فجع بوفاة ابن له:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي.

الغنى أو ضدّ الأصدقاء باجتناب كل المعارف، أو ضدّ بنين بعدم إنجابهم، بل يجب أن نتسلّح بالعقل والأخلاق. وفي هذا الكفاية من القول.

بعد أن أتعبت الأثينيين حربُهم العسيرة التي أعلنوها على الميغاريين بسبب جزيرة سلاميس وبلغت بهم حَدّ الضنى والإنهاك أصدروا قانوناً يعاقب بالموت كُلّ من يدعو بالقول والكتابة بلزوم استعادة الجزيرة أو بذل الجهود في سبيل ذلك. فأحنق ذلك صولون، وأدرك أن آلافاً من الشبّان يريدون شخصاً يكون هو البادئ، ولكنه لم يجرؤ على أن يكون أوّل المحرّضين خوفاً من حكم القانون. فتصنّع الجنون ودفع أسرته إلى أن تذيع في المدينة بأن عقله قد اختل. ثم نظم في السرّ قصيدة وحفظها عن ظهر قلب حتى تبدو وكأنها من وحي البديهة. ثم هرع إلى ساحة السوق وعلى رأسه قبّعة(١٣) وتجمّع الناس حوله وتبعوه حتى اعتلى منصّة المنادي وبدأ ينشد مرثيّته بهذه الافتتاحية:

أنا هو المنادي الذي جاء من سلاميس الجميلة.

وأشعاري التي أنشدها الآن هي بدلاً من الخطبة(١٤)

ويطلق على القصيدة اسم «سلاميس». وتتألف من مائة مصراعٍ وهي رائعة الأسلوب. وقد أثنى عليها أصدقاؤه، ولاسيما پسستراتوس الذي حثَّ الناس على العمل بالوصايا التي تضمّنتها. وبلغ الأمر أن أُلغي القانون واستؤنفت الحرب تحت قيادة صولون. على أن الرواية الشائعة تُروى على الصورة الآتية: أبحر صولون مع پسستراتوس إلى كولياس Colias فوجد النساء هناك يضحّين إلى سيرس جرياً على عادة أهل البلاد. فأرسل إلى سلاميس صديقاً يثق به ليظهر بمظهر الخائن أمامهم ويقدّم إليهم معلومات كاذبة وينصحهم أن يرافقوه حالاً إلى كولياس إذا أرادوا الفوز ببعض النسوة الأثينيات. فأسرع الميغاريون بإرسال رجال معه في سفينة وشاهدها صولون تقلع من الجزيرة. فأمر النسوة أن ينصرفن ودفع بعدد من الشباب المُرد اللابسين ثياب النساء ونعالهن وأغطية رؤوسهن، وقد تسلّحوا بالخناجر إلى الرقص واللعب بالقرب من الساحل حتى ينزل العدوّ من السفينة ويغدو تحت رحمتهم، وانطلت الخدعة على الميغاريين وغرّهم مظهر الشبان المرد فتقدّموا من الساحل ونزلوا والرغبة تراود كل واحد في أن يكون أوّل الفائزين بالغنيمة فلم ينج منهم أحدٌ واعتلى الأثينيون ظهر

---

(١٣) جرت عادة الأثينيين بألاّ يغطّوا رؤوسهم إلاّ عندما يلمّ بهم مرض.

(١٤) لم يصلنا منها غير ستة أبيات. أنظر المقطوعة ١-٣ في برك Bergk وإنها تنطوى على لوم وتأنيب للأثينيين بسبب تخليهم عن سلاميس كما تتضمّن تحريضاً واستنهاضاً للقتال في سبيلها.

السفينة وتوجّهوا إلى الجزيرة واحتلّوها.

ويقول آخرون إنهم لم يحتلّوها على هذه الشاكلة. بل إن صولون استنزل أوّلاً هذه النبوءة من دلفي:

أولئك الأبطال الذين يثوون في أسوبيا Asopia الجميلة كلهم دُفنوا وأوجُههم متجهة نحو الشمس الغاربة، ألا فاذهب وأدخل السكينة إليهم بأفضل القرابين.

ثم أبحر نحو الجزيرة ليلاً، وضحّى للبطلين پيريفيموس Periphemus وكيخريوس Cychreus[١٥]، ثم أخذ معه خمسمائه متطوّع من الأثينيين (كان قد صدر قانون جديد يمنح أولئك الذين يستولون على الجزيرة أرفع المناصب في الحكومة) وأخذ أيضاً عدداً من زوارق الصيد وسفينة واحدة ذات ثلاثين مجذافاً. وأرسى في خليج سلاميس الذي يشرف على نيسيا Nisaea. ولم يسمع الميغاريون الذين كانوا ساعتئذ في الجزيرة غير أخبارٍ غامضةٍ، ففزعوا إلى السلاح وأرسلوا سفينة لاستطلاع حركات العدوّ، فأسرها صولون وقبض على من فيها وملأها بالأثينيين وأصدر أمره بإبحارهم إلى الجزيرة بأقصى ما يمكن من السرّية والكتمان. وفي الوقت زحف براً على الميغاريين ببقية الجنود واشتبك معهم في القتال، في حين استولى جنود السفينة على المدينة. وتؤيد هذه الرواية المراسمُ الدينية التي اتُّبعت فيما بعد وهي: أن تبحر سفينة أثينية بكلّ هدوء أولاً إلى الجزيرة ثم يعدو - وهو يهتف - نحو مرتفع سكيراديوم Sciradium ليلتقي بأولئك الذين يزحفون عليه براً. وهناك يقوم معبد للآله آرس Ares[١٥أ]، بناه صولون لانتصاره على الميغاريين. ومن لم يقتل منهم في المعركة لم يفكّهم إلاّ بشروط.

إلاّ أن الميغاريين ظلوا يقاتلون، ومُني الجانبان بخسائر جسيمة حتى لجأوا إلى المفاوضات واختاروا السپارطيين محكّمين في النزاع. ويؤكد كثيرون أن ثبتَ هوميروس أظهر مزيداً من العطف على قضيّة صولون فحشر سطراً في قائمة سفنه - أثناء ما كانت القضية أمام المحكّمين - فصارت الفقرة تقرأ على الوجه الآتي: «اثنتا عشرة سفينة جاء بها أياكس الشجاع من سلاميس».

---

(١٥) هو ملك سلاميس. ولديه هيكل كُرّس له في تلك الجزيرة. يخبرنا باوسنياس (١ :٣٦) أن حيّةً ضخمة شوهدت في إحدى السفن الأثينية أثناء المعركة البحرية بين الفرس والأثينيين. ولم تكن في الواقع غير البطل كيخريوس كما أبلغهم أپوللو.

(١٥أ) أي اينياليوس .Enyalius

ويقال إنه أضاف: «وصَفّ قوّاته في المواقع التي يقاتل بها الأثينيّون. على أن الأثينيّين[١٦] يصفون هذه الحكاية بالثرثرة والهُراء، ويذكرون أن صولون جعل الأمر يبدو للمحكمين، وكأن فيليوس Philaeus وإڤريساكيس Evrysaces ولديْ أياكس قدّما الجزيرة إلى أثينا هدية لأنهما مُنحا حقوق المواطنة الأثينية. وأن أحدهما كان يعيش في براورون Brauron أتيكا والثاني في ملاطيه Malite وأنهما كانا يملكان في مدينة فيليادي Philaidae، واسمها مشتق من فيليوس، وهي مسقط رأس پسستراتوس.

ومن حُجج صولون التي استخدمها ضد الميغاريين كيفية دفن جثث الموتى، فقال إنها كانت تُدفن حسب عادات الأثينيين لا بحسب عادة الميغاريين. فالذي جرى العمل به عند هؤلاء أنهم يحوّلون وجوه موتاهم إلى الشرق، أما الأثينيون فيوجّهونها نحو الغرب[١٧]. إلاّ أن هيرياس الميغاري ينكر الحجة مؤكداً أن بني قومه يديرون وجوه موتاهم إلى الغرب أيضاً. كذلك تعلّل صولون بأن الأثينيين لا يدفنون إلاّ ميتاً واحداً في القبر[١٨]. ولكن الميغاريين يدفنون اثنين أو ثلاثة في قبر واحد. ومهما يكن من أمرٍ فإن بعض نبوءات أپوللو التي ورد فيها ذكر الجزيرة باسم «سلاميس أيونيا»[١٩] عزّزت من ادّعاء صولون كثيراً. فحكم له القضاة السپارطيون الخمسة وهم كريتولايداس Critolaidas وأمومفاريتوس Amompharetus وهيپسيخيداس Hypsechidas وأناكسيلاس Anaxilas وكليوفيس Cleomenes.

وعظم شأن صولون وقويَ مركزه بهذا. إلاّ أن ما بلغ به أعظم مواطن الشهرة والتقدير عند الإغريق هو نصحُه بالدفاع عن نبوءة دلفي والوقوف إلى جانبها وببذل العون وأن لا يدعوا الكيريين Cirrhaeans[٢٠] يمتهنونها بل بوجوب المحافظة على

---

(١٦) الإلياذة [٢٠:م ٥٥٧] قد لا يصح هذا البيت دليلاً. فهناك كثير من القصائد عند هوميروس تثبت أن سفن أياكس كانت قد اتخذت مواقعها بالقرب من التساليين (٨: ٦٨١) و(كذلك سترابو ١٠). وفيليؤس الذي ذُكر في المتن بعد هذا إنما هو حفيد أياكس بحسب رواية پاوسنياس [١: ٣٥].

(١٧) أنكر ديوغينيس ليئرتيوس ذلك إنكاراً باتاً. إلاّ أنه مخطئ على الأغلب لأن إيليان في تاريخه [١٩:٧] يتفق مع پلوتارخ حول طريقة الدفن عند الأثينيين. وأمّا بخصوص طريقة الميغاريين فهو يختلف معه إذ يقول إنهم لا يتقيّدون بشكل معيّن في دفنهم موتاهم ويتركون ذلك للصدف.

(١٨) ويرجّح بعض الشرّاح أن يكون سبب ذلك سعة البلاد وعدد سكان كلا البلدين.

(١٩) آيونيا القديمة تشمل آتيكا فقط.

(٢٠) هم سكان كيرّا. وهي بلدة تقع على خليج كورنث اجتاحت بغزواتها المتكررة أراضي دلفي =

شرف الآلهة. فبناءً على محاولاته أعلن الأمفكيتويّون الحرب. ومن بين من يؤكد ذلك أرسطو عند إيراده ثبتاً بأسماء الفائزين في الألعاب البيثية. فهو يجعل صولون صاحب تلك المشورة. على أن صولون لم يكن قائد تلك الحملة كما يقول هرميبوس، نقلاً عن إيڤانثس Evanthes الساموسي Samian. وهذا ما ينفيه أيسخينس Aeschines الخطيب[٢١]. فقد ورد في سجلّ دلفي أن الكمون لا صولون كان قائد الأثينيين. . . وكان فساد البكيلونيين قد استفحل في الجمهورية ونشر فيها الاضطراب أكنافه منذ عهد بعيد يرجع إلى حكم ميغاكلس الأرخون عندما أقنع المتآمرين مع كيلون Cylon[٢٢] الذين لجأوا إلى معبد مينرڤا بالخروج منه ووعدهم بمحاكمة عادلة فشدوا خيطاً بالصورة

= المجاورة، وحاصرت قواتها المدينة نفسها يحدوها الطمع في الاستيلاء على نفائس معبد أپوللو. واستنجد بالإمفكتون وهم قادة دول الإغريق، فكان من رأي صولون أن يصدر استنكارٌ عام للعمل. ثم أرسل كلستينوس، طاغية سيكيون، قائده العام لحرب قوات كيرّا. ونُصّب إلكيميون قائداً للقوات الأثينية والتحق صولون بوصفه مساعداً أو مشاوراً لكلستنوس. وألقى الجيش الإغريقي الحصار على كيرا ردحاً من الزمن دون أن يصيب نجاحاً. فاستُخير أپوللو وكان الجواب أنهم لن يفلحوا في الاستيلاء عليها إلى أن تلتطم امواج البحر الكيرّي بساحل بحر دلفي. هذه النبوءة أخذت الجيش على حين غرّة، إلاّ أن صولون أسرع بالتفسير والحلّ بأن نصح كلستينوس أن يوقف كل أراضي كيرا على معبد أپوللو دلفي وبهذا تصبح دلفيّة. وبالطبع سيلتطم الموج آنذاك بأراضي دلفي. ولما أصبحت من موقوفات دلفي تم الاستيلاء عليها. وينوّه پاوسنياس (١٠ :٣٧) بخطة أخرى اقترحها صولون، تنمّ عن رجاحة عقله وعمق تفكيره، وهي تحويل مجرى نهر پليستوس الذي تعتمد كيرا على مائه.

(٢١) في خطبته «ضد قطيسيفون».

(٢٢) ظل الحزب المناوئ للديمقراطية قائماً بعد مرور زمن طويل على إرساء قواعدها ولم يترك أصحابه وسيلة إلاّ جرّبوها لإعادة نظام الحكم القديم. وكان كيلون انساناً جليل القدر رفيع المقام وصهراً لثياغينس طاغية ميغارا، وهو ممن ينفر من تغيير الحكام الفجائي، ويكره فكرة الركض وراء المنصب بوصفه فضلاً من الآخرين يطوّق به عنق الفائز به، ولاسيما أن حقه فيه واضح من جهة والدته. لذلك رتّب خطة للاستيلاء على القلعة أثناء انعقاد الأولمبياد الخامس والأربعين عندما يكون عدد كبير من الأهالي منشغلين بمشاهدة الألعاب. وقد تم تنفيذ ذلك واستولى كيلون على القلعة. إلاّ أن ميغالس رئس الأراخنة آنذاك اتفق مع الحكام الآخرين وكل قوات أثينا وضربوا الحصار على القلعة وضيّقوا على أصحاب المؤامرة الخناق حتى اضطر كيلون وأخوه إلى الفرار، تاركين بقية أصحابهم يتدبّرون أمرهم بأنفسهم. يقول پلوتارخ: «من نجا من السيف لجأ إلى هيكل مينرڤا. لكن الحكام لاحقوهم وفتكوا بهم هناك. وبذلك أسخطوا الأثينيين الذين استنكروا عملهم بقتلهم في حرم الهيكل وهي جريمة عظيمة. هذه الحادثة يوردها مفصّلةً (١ :١٢٦).

المقدسة وأمسكوا بإحدى نهايتيه وغادروا ملجأهم لحضور المحكمة[٢٣].

ولكن الخيط انقطع من تلقاء نفسُه عند وصولهم معبد فوريس Furies وكانت الربّة قد رفضت بسط حمايتها عليهم، وعندئذ قبض عليهم ميغاكلس والقضاة. ومَن حِيلَ بينه وبين المعبد منهم رُجم بالحجارة، ومن هرب عائداً إلى الملجأ ذُبح على درج الهيكل. ولم ينجُ إلاّ أولئك الذين توسّلوا بزوجات القضاة. لكنهم بقوا نجسين، ينظر الناس إليهم نظرة الكراهية والاشمئزاز. واستعادت بقية حزب كيلون قوتها، واستمر شجارها مع أسرة ميغاكلس. وفي أيام صولون بلغت الشحناء أوجها وانقسم الجمهور إلى حزبين. ولما كان صولون مرجعاً عاماً فقد تدخّل في الأمر بمعونة رؤساء أثينا. وتمكن باللطف والتأنيب من إقناع النجسين بالمثول أمام محكمة مؤلفة من ثلاثمائة مواطن نبيلٍ والخضوع للقرار الذي يصدرونه وترافع ضدهم ميرون Myron وفليا Phlya. وأدينوا بنتيجة القرار، ومن كان منهم حيّاً نفي. ثم نُبشت قبور الموتى منهم وأخرجت جثثهم وألقيت خارج حدود البلاد. وفي أثناء هذه الاضطرابات والخبال انتهز الميغاريون فرصتهم فانقضّوا على الأثينيين وانتزعوا منهم نيسيا وسلاميس[٢٤] ثانيةً. زد على هذا أن المدينة غشيتها الأوهام، والمخاوف، وشتى الظواهر الغريبة. وأفتى الكهنة أن القرابين قد مَسّها بعض الدنس والنجاسة، وينبغي أن تطهّر. فبعثوا يستقدمون إيبيمنيدس Epimenedes[٢٥] الفايستي Phaeist من كريت. وكان هذا يُعَدّ سابع الحكماء عند أولئك الذين لا يدخلون پيرياندر في عدادهم[٢٦]. ويبدو أنه كان يعتبر مفضّلاً عند الأرباب، وعلى معرفة بكلّ الأسرار الدينيّة وما هو فوق الطبيعة منها ولذلك أطلق عليه

---

(٢٣) في حدود العام ٦٣٦ ق.م أنظر المرجعين سالفي الذكر.

(٢٤) مدينة كانت تقع على خليج كورنث.

(٢٥) يخبرنا ديوغينيس لايرتيوس أنه بينما كانت تجرى عملية تطهير المنازل والحقول والأشخاص جاء أپيمنندس بعدد من الغنم السود ومثيله من الغنم البيض وأطلق الجميع في الأريوباغوس، وأمر الناس أن يتابعوها فرادى ويعيّنوا المواضع التي تضطجع فوقها ليقوموا بتضحيتها فيها. وعندها تقام مذابح ومنصّات تخليداً لذكرى هذا التطهير الديني. يقول ديوغينيس إن هذه المذابح التي لا تكنى بأي اسم ظلت شاخصة حتى أيامه. وكان التعويض الوحيد الذي طلبه أپيمنندس من الأثينيين على عَمله هذا هو أن يعقدوا حِلفاً مع بلاده (كريت). وأما الاسطورة التي تقول إنه رقد ٥٧ أو ٥٠ عاماً وظلّ على قيد الحياة، وحياته المحفوفة بالأسرار وعمره المديد، فكلّ هذا معروف وقد ذكره المؤرخون.

(٢٦) انظر أرسطو [دستورأثينا: ١].

رجال عصره كيوريس[٢٧] الثاني، وابن الحوريّة المسماة بالطه Balte. ولمّا قدِم إلى أثينا وتوثقت علاقته بصولون قدّم إليه معونات في مناسبات مختلفة. وعبّد السبيل لتشريعاته وعدّل من أشكال العبادات وقلّل من صرامتها. وخفّف من القواعد الخاصّة بالحداد فأدخل بعض القرابين لتقدّم حالاً بعد التشييع، واطّرح تلك المراسم القاسية البربرية التي تتعاطاها النساء عادةً[٢٨]. إلاّ أن أعظم مأثرة له هي تطهير وتنقية المدينة، بفضل قرابين تهدئة وتطهير معيّنة، وإقامة بنايات مقدّسة. وبهذه الواسطة جعلهم أطوع إلى العدالة وأكثر ميلاً إلى التآلف. وذكروا أنه نظر إلى مونيخيا Munychia[٢٩] وأطال التأمل ثم قال لمن حوله: «ما أشدّ عمى الإنسان في أمور المستقبل! فلو تكهّن الأثينيون أيّ فتنة وبلوى ستُلحق هذه بمدينتهم لأكلوها أكلاً بأسنانهم ليتخلّصوا منها»[٣٠]، وثمّ نبوءة أخرى تُعزى إلى طاليس، يقولون إنه أوصى أصدقاءه بأن يدفنوه في موضع خامل الذكر قذر من أراضي ميليطس قائلاً إن البقعة ستكون يوماً مركز لقاء الميلطيين الرئيس. وأكرم أبيمينيدس أجلّ إكرام وعرض عليه أهل المدينة هدايا عظيمة وأُغدقت عليه الامتيازات والنعم، إلاّ أنه اكتفى بطلب غصن واحدٍ من الزيتون المقدس، فأعطي ما أراد وعاد إلى بلاده.

بعد أن قُضي على الفتنة الكيلونية، ونفي المُدنِّسون منهم، عاد الأثينيون إلى شحنائهم الأولى ونزاعهم على الحكم، وكان يوجد أحزاب وشِيَع مختلفة، بقدر ما كان يوجد اختلاف رأي في البلاد. كان حيّ التلال يحبّذ الديموقراطية، وحيّ السهل يفضّل الأوليغارشية، أما أولئك الذين يعيشون على الساحل فيريدون مزيجاً من النظامين، وبهذا حيل دون استظهار حزب على آخر[٣١]. وكانت الفروق في الأحوال بين الأغنياء والفقراء في ذلك الحين قد بلغت أقصى الحدود حتى بدت المدينة في حالة خطيرة جداً، وليس هناك من وسيلة لإنقاذها من الاضطرابات والوصول بها إلى حالة من

---

(٢٧) من يدعى كيوريتس Curetes، إنما هم الكهنة الكريتيون الذين يقومون على خدمة «زفس الإيديّ» واسمهم مشتق من اسم أنصاف الآلهة الذين قامت الربة ريا بإيداع زفس الطفل لديهم.

(٢٨) كالضرب على الصدور، وجرّ الشعور، ولطم الوجوه إلخ....

(٢٩) إن أكروپوليس [پيريوس] يشرف ستراتيجياً لا على شبه الجزيرة وحدها بل على أثينا نفسها كذلك. وكثيراً ما وضع فيه فاتحو أثينا جنوداً.

(٣٠) تحققت هذه النبوءة (على ما يقولون) بعد ٢٧٠ سنة عندما أرغم أنتيباطر الأثينيين على القبول بحامية في ذلك الموضع. انظر سيرة ديموستينس. وأفلاطون يعزو إليه نبوءات أخرى.

(٣١) انظر أرسطو [دستور أثينا ٨: ٤].

الاستقرار إلاّ سلطة دكتاتورية مطلقة. وكان الجمهور كلّه مثقلاً بالديون للأغنياء وكان عليهم أن يختاروا إمّا زراعة أراضيهم لدائنيهم وأعطاؤهم سُدس المحصول فيسمّون إذذاك: ثيتيس Thetes أو هكتوموري Hectemprii، وإما أن يسلّموا أجسامهم لقاء الدين وقد يُحجَزون أو يُرسَلون إلى العبودية في الوطن، أو يباعون للأجانب. واضطر بعضهم إلى بيع أولاده، (لأن القانون لا يمنع ذلك)، أو الهروب من البلاد خلاصاً من قسوة الدائنين. إلاّ أن معظمهم وهم أثبتهم جناناً بدأوا يتكتّلون، ويبثّ أحدهم في الآخر روح الإقدام للوقوف في وجه هذا الظلم، واختيار قائد للقيام بتحرير المدينين الذين صدرت الأحكام بحقهم وتوزيع الأراضي وقلب الحكومة.

وهنا أدرك أعقل الأثينيين أن صولون هو الشخص الوحيد من بين الجميع ممن ليس له علاقة بالمشكلة أو هو طرف فيها، وأنه لم يشارك في استغلال الأغنياء، ولم يعان بؤس الفقراء. وألحّوا عليه أن يمدّ يداً إلى الحكومة، ويفضّ النزاع. وإن كان فانياس Phanias ولسبيان Lesbian يؤكدان أن صولون احتال بحيلة على الفريقين لكي ينقذ بلاده. فوعد الفقراء سرّاً بتقسيم الأراضي، ووعد الأغنياء بضمان ديونهم. على أن صولون بالذات يقول عن نفسه إنه تردّد في مبدأ الأمر في المساهمة في شؤون الدولة لخوفه من مكابرة هذا الحزبِ، ومن طمع ذاك. ومع ذلك فقد انتخب أرخوناً بعد فيلومبروتوس ومُنح سلطة سنّ القوانين والتحكيم ورضي به الأغنياء، لأنه غنيّ، ووافق عليه الفقراء لأنه نزيه. وقد أُشيع عنه قبل انتخابه قوله: «إنه لن تقوم حربٌ لمّا تكون الأمور متوازنة». وهذا ما أرضى جشع حزب الأغنياء كما أرضى خاصة حزب الفقراء[٣٢]. أولّهما فَسّر التوازن: أن ينال كلّ امرئ نصيبه المناسب. وثانيهما فسّره: أن تعمّ المساواة التامة الجميع. ولذلك ارتفعت آمال الجانبين. وألحّ رؤساء القوم على صولون ليقبض على ناصية الحكم ففعل[٣٣]، وليعالج الأمور على هواه وبكلّ حريةٍ حين استتب الأمر له. وكان الكثير من العامة يرغبون أن يحكمهم رجل عادل حكيم، يصرّف أمورهم بحكمته، لعلمهم أن التغيير الذي يفرضه القانون والعقل فقط هو تغيير صعبٌ عسير المنال. ويقول بعضهم إن صولون تلقّى هذه النبوءة من أبوللو: «خذ المقعد الوسط، وكن مرشد السفينة فكثير من أهل أثينا هم إلى جانبك». ولكن أصدقاءه المقرّبين عابوا عليه بالدرجة الأولى إباءه الحكم بنظام الملكية المطلقة بسبب

(٣٢) المرجع نفسه [٤ : ٣].
(٣٣) في العام ٥٩٤ ق.م.

الاسم المقترن بها فحسب[٣٤]. كأنّ فضائل الحاكم لا تستطيع أن تجعل منه شكلاً شرعياً من أشكال الحكم. لقد أقدمت يوبيا Euboea على هذه التجربة لما اختارت تينونداس Tynnondas وكذلك دويلة ميتلين Mitylene التي أمّرت عليها پيتّاكوس Pittacus[٣٥]. إلاّ أن هذا كلّه لم يثن صولون عن عزمِه. ولكنه - على ما قيل - أجاب أصدقاءه: «صحيح أن الحكم المطلق بقعة جميلة، ولكن لا يوجد فيها مكان للنزول». وكتب على نسخة من أشعار فوكوس Phocus ما يلي:

«فلأنيّ أنقذت أرضي، وكففت يدي عن الظلم والقسوة، وأبيت أن أشوّه اسمي الصالح بلطخةٍ أو بعار، لن آسف قطّ، وأعتقد أن ذلك سيكون رأس شهرتي».

ومنها يتضح أنه كان رجلاً عظيم الشهرة قبل أن يستنّ شرائعه[٣٦]. وقد سجّل صنوف السخريّة التي صُبّت عليه لرفضه الحكم والسلطة في هذه الأبيات:

«لا شك أن صولون من الحالمين والسذّج فعندما تحبوه الآلهة بالنعم تراه يرفضها بمحض اختياره. عندما تكون الشبكة ملأى بالسمك ويراها مفرطة في الثقل يأبى أن يرفعها، جُبناً منه، وقلّة عقل. لو أني اهتبلت تلك الفرصة في الغنى والحكم وكنت طاغية لأثينا يوماً واحداً لأعطيت جلدي للسلخ، وتركت بيتي يضمحل ويموت»[٣٧].

---

(٣٤) يجب علينا الاستدراك للقول إن كلمتي «طاغية» و«طغيان» اللتين تردان أحياناً في النّص لا تعني دائماً عند الأقدمين الحكم البغيض المتميّز بالقسوة والعنف والاستغلال والفساد. فكثيراً ما كان الطغاة يمارسون سلطانهم بشكل قانونيّ عادل. إلاّ أن بغضه والقيام ضدّه كان مصدره بصورة عامة المبدأ الذي اختطّه هذا الحكم لنفسه. أعني السلطان المطلق الذي قد يُخشى دائماً تطرّف من يمارسه والوصول به إلى أقصى درجة من التحكم والبربرية، وإلى تبرير أي استغلال أو اغتصاب.

(٣٥) هو واحد من الحكماء السبعة قبض على زمام السلطة في متيلين فراح ألكيوس الذي كان مواطناً ومعاصراً له ومدافعاً عن الحريات - يهجوه وينتقده ويخفض من شأنه، كما فعل بالطغاة الآخرين. فتغاضى بيتاكوس عنه ولم يكترث به. وأقدم على قمع تمرّد الأهالي بالقوة ونشر السلام والعدل والانسجام بين المواطنين. ثم تنازل عن السلطة بمحض اختياره وأعاد الحرية إلى بلاده. إلاّ أنه أرغِم في آخر عمره على تولّي السلطة مجدداً بإجماع ملحّ من المواطنين. فنطق بحكمته الشهيرة: «الفضيلة لا تخلو من عوائق». وبعد أن حقق ما جيء به لتحقيقه اعتزل الحكم ليعود فرداً عادياً.

(٣٦) المقطوعة ٣٢.

(٣٧) المقطوعة ٣٣.

وهكذا يجعل الفقراء والدهماء يلهجون بذكره. ومع أنه رفض قبول الحكم، لم يكن ليّن الجانب كثيراً في شؤونه، فلم يظهر أمام السلطات ذليلاً طائعاً ولم يستنّ شرائعه لإرضاء أولئك الذين انتخبوه. فما كان جيداً من القوانين لم يدخل عليه تعديلاً أو يغير فيه لئلا. . .

«تخرّ الحكومة على ركبيتها وتتقوّض تماماً».

لقد كان أضعف من أن يعمد إلى صياغة نموذج حكم جديد أو يعيد تشكيله بهيئة يغلب عليها الاعتدال. ولكنه طبّق ما خُيّل له أنه ممكن التطبيق عن طريق إقناع المستعدّين للإقناع، وباستخدام القوة للمعاندين كما قال هو نفسه: «القوة والعدل، يعملان معاً».

ولذلك، فعندما سئل فيما بعد: «هل ترك للأثينيين خير قوانين يمكن لأحد أن يعطيها؟» أجاب: «تركت خير ما يستطيعون أخذه». وهذا أسلوب في الجواب يقول عنه المحدثون إن الأثينيين يلجأون إليه للتخفيف من سوء شيءٍ بإعطائه وصفاً جميلاً بريئاً لا يخدش الأسماع. فهم يسمّون الطاهرات حظايا، والجزية مكساً، والحامية حرساً، والسجن غرفة. ويبدو أن هذا من مبتدعات صولون أساساً. فقد أطلق على قانون يقضي بإلغاء الديون مصطلح سيساكْثيا Siesacthea، أي الإغاثة أو تخفيف الإعباء. فأول قاعدة وضعها هي الإعفاء الشامل عن كلّ ما تخلّف من الديون، ولا يحق في المستقبل لأي شخص أن يسخّر لنفسه عَمَل جسم مَدينه ضماناً لدَينه. على أن بعضهم ومنهم أندروسيون Androtion يؤكد أنه لم يُلغِ ما تخلّف من الديون وإنما خُفّضت الفائدة فحسب. وهو ما كان موضع رضى الناس فسمّوا هذه المنفعة «سيساكْثيا» كما شملوا بالتسمية توسيع المكاييل ورفع قيمة النقدّ والقوة الشرائية(٣٨). فقد حددّ قيمة الپاون مجدداً بمائة درهم [دراخمه] في حين كان قبلاً ثلاثة وسبعين درهماً. وهكذا فمع كون عدد القطع النقدية المدفوعة عن الدين كانت سواءً إلاّ أنها أقلّ قيمةً. وهذا ما عاد بالفائدة الكبيرة على أولئك الذين يدفعون ديوناً كبيرة، وفي الوقت نفسه لا يخسر الدائنون شيئاً من ديونهم.

على أن معظم الكتّاب يتفقون على أن إلغاء الديون هو المقصود بسيساكْثيا أي إبراء الذمّة. ويؤكد هذا في بعض مواضع من قصيدته التي يعزو فيها هذه المأثرة لنفسه: «لقد

---

(٣٨) انظر أرسطو [دستور أثينا ١٠ و ٥٠].

رفعتُ عن الأرض المرتهنة حجارة الرهن - وما كان منها مستعبداً أصبح حُرّاً»[٣٩].

ففيها يعزو لنفسه أنه رفع شارات الحجز عن الأراضي[٣٩أ] التي كانت العين تشاهدها من قبل في كل مكان وحرّر الحقول التي كانت قبل ذلك محجوزة. وحرّر أولئك الذين حبسهم دائنوهم، وأعادهم إلى البلاد بعد أن ظلوا متشرّدين في الخارج كما أخبرنا عنهم: قضت الأقدار عليهم بالنأي والتشرّد زمناً طويلاً فنسوا لغة موطنهم (لغة أتيكا).

وحرّر بعض أولئك الذين «رسفوا هنا في أغلال العبودية المخزية في بلادهم»[٤٠].

وفيما هو يرسم هذه الخطط حصل أمرٌ مخجلٌ جداً، إذ لمّا قرّر إلغاء الديون، وأخذ يفكّر بأفضل الطرق للبدء بالتنفيذ وأسرَّ لأقرب أصدقائه إليه كونون Conon وكلينياس Clinias وهيپونيكوس Hipponicus - وهم ممن يضع فيهم أعظم الثقة - بأنه لن يتدخلّ في قضية الأرض، وإنما سيحرّر الناس من ديونهم فحسب. فانتهزوا الفرصة وعجّلوا باستدانة مبالغ كبيرة من المال وابتاعوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأنفسهم. ولما طبّق القانون بقيت أملاكهم لهم دون أن يضطروا إلى دفع المال الذي استدانوه. وهذا ما أثار الشكوك العظيمة في صولون ومما زاد في السخط عليه والكره. إن حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا أنه بادر حالاً إلى قطع دابر الشكّ بأن أبرأ ذمّة كل مدينيه الذين يدينون له بخمسة تالنتات فأكثر حسب أحكام القانون، وكانوا كثيرين. على أن بعضهم مثل پوليزيلوس Polyzelus الرودسي يقول إنه أبرأ من كان مديناً له إلى حدّ خمسة عشر تالنت. وسُمّي أصدقاؤه أولئك منذ ذلك الحين بالمنافقين Chreocopidae أو قُطّاع الدَّين[٤١].

لم يُرض صولون بعمله هذا أيّاً من الحزبين، فالأغنياء سخطوا لخسارة أموالهم، والفقراء سخطوا لأن الأراضي لم يجر تقسيمها مجدداً وبقيت على حالها ولم تفرض المساواة التامة بين المواطنين على نحو ما فعله ليكورغوس في جمهوريته. والحق يقال

(٣٩) المقطوعة ٣٦ الأبيات الرابع وما بعده بعد إرجاعها من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب. البيت ٦ من اقتباس أرسطو.

(٣٩أ) من عادة الأثينيين وضع بطاقة على المنازل أو الأراضي إشارة إلى أنها خاصّة أو محجوزة.

(٤٠) المقطوعة ٣٦ (الأبيات ٩-١٢ من برك.) (الأبيات ١١-١٤ من أرسطو).

(٤١) هنا مفارقة لفظية واضحة. فـ«كركوپيدي» Cercopidae الذي يطلقه الأثينيون على أنفسهم، ينسبهم إلى ملكهم الأول ككرپوس Cecrops فيقولون إنهم من نسله [جوڤنال ٨:٤٦].

إن ليكورغوس هو سليل هرقل الحادي عشر، فضلاً عن أنه كسب أشياعاً وأصدقاء عديدين بعد حكمه الطويل في لقيديمونيا. ونال شهرة عظيمة ونفوذاً واسعاً استخدمها كلها في إشادة صرح نظام دولته واعتمد غالباً على القوة لا على الإقناع، حتى أنه فقد إحدى عينيه في معركة[٤٢]. كما كان قادراً على استخدام إحدى الوسائل لسلامة الدولة واستقرارها وهي إزالة الفقر والغنى في مجتمعه. إلا أن صولون لم يبلغ هذا الحدّ في سياسته فقد كان متوسط الحال، ومع ذلك لم يتقاعس ولم يدّخر وسعاً في ممارسة كل سلطته. ولم يكن ثمّ ما يعتمد عليه غير ثقة الناس به وحُسن رأيهم فيه واعتمادهم عليه. أما أنه أثار سخيمة معظم من كان يؤمّل نتيجة أخرى عنه فهو ما أشار إليه في أبياته:

«بالأمس كانوا يتيهون بي إعجاباً ويباهون. واليوم ينظرون إليّ شزراً كأني عدوّهم. الأصدقاء كلّهم انقلبوا أعداء»[٤٣].

ومع هذا فلو حاز أي امرئ «ما حزْتُه من سلطان»، على حدّ قوله، لما امتنع أو قصّر عن احتلاب أدسم الحليب لنفسه وصادر الكل. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وشعروا بفائدة ما صنع فزال حقدهم عليه. وقدّموا قرابين عامّة أطلقوا عليها أضحية إلغاء الديون سيساكْثيا. واختاروا صولون ليضع القوانين النموذجية الجديدة لجمهوريتهم، ومنحوه صلاحيات مطلقة في كل شيء، وسلطاناً ما له حدود على أقضيتهم ومجالسهم ومحاكمهم ومجالس شوراهم، ليقرر بنفسه مواعيد اجتماعاتها وعددها، وتخصيص الأموال لها. ومُنح صلاحية حلّها أو الإبقاء عليها حسبما يرتئيه.

وكان أول أعماله إلغاء كل قوانين دراكو Draco[٤٤] لصرامتها الفائقة وعقوباتها

---

(٤٢) أرسطو: الدستور الأثيني ٦.

(٤٣) المقطوعة ٣٤. الآن الأبيات الأربعة فما بعدها من المقطوعة ذات الأبيات التسعة التي اقتبسها أرسطو (انظر الدستور ١٢: ٣).

(٤٤) كان دراكو أرخوناً في أول سنة وثاني سنة من الأولمبياد التاسع والثلاثين الموافق لـ٦٢٣ ق.م. مع أن اسم هذا الرجل الشهير يظهر كثيراً في صفحات كتب التاريخ القديم إلاّ اننا لا نجد أكثر من عشرة أسطر محترمة عنه وعن شرائعه. ويمكن القول بأنه أول مشترعي أثينا، ذلك لأن قوانين أو بالأحرى «توصيات Precepts» تريبطرليموس كانت قليلة جداً لا تكفي لتثبيت الحقوق والواجبات. ومن تلك الوصايا «أكرمْ أبويك» و«اعبد الآلهة»، «لا تؤذِ حيواناً» وما إلى ذلك. وكان داركو أوّل إغريقي عاقب على الزنى بالموت. وأعتبر القتل أشنع جريمة وأفظعها وأراد أن يعزز كرهها في الذهن فشرع بأن تجرى التعقيبات القضائية بحق الجمادات والأشياء الخالية من الروح إن كانت سبباً لإحداث الموت. لكنه إلى جانب جريمتي القتل والزنى اللتين عوقبتا =

القاسية، خلا ما يتعلّق بجرائم القتل منها. كانت عقوبة الموت في قوانين دراكو تفرض تقريباً على كل الجرائم حتى تلك التي تعاقب على البطالة، أو على من يسرق رأس خسّ واحد أو تفّاحة واحدة، كان الموت عقابها مثل جرائم القتل والكفر. وصدق عنها حقاً قول ديماديس Demades[٤٥] الذي نبغ بعده بزمن طويل. «لم تُكتب قوانين دراكو بالحبر، وإنما كُتبت بالدم». وسئل دراكو نفسه: لماذا جعل الموت عقاباً لمعظم الجرائم؟ فأجاب «الجرائم الصغيرة تستحق ذلك. وليس عندي عقوبة أشدّ من الموت للجرائم الكبيرة».

ولمّا كان صولون يرغب في إبقاء الجهاز القضائي بأيدي الطبقة الغنية، وأن يفتح أمام العامة في الوقت نفسه أبواب أجهزة أخرى من أجهزة الحكم، كانت خطوته الثانية هي إحصاء أموال المواطنين[٤٦] فرداً فرداً. فالذين ملكوا خمسمائة مِكيال من الغلّة، مائعةً وجافة، جعل منهم الطبقة الأولى وأطلق عليها هو اسم پنتاكورسيوميذيمني Pentacosiomedimini[٤٧] (أي ذوي الخمسمائة مكيال). أمّا أولئك الذي ملكوا حصاناً أو مالاً يعادل ثلاثمائة مكيال فأطلق عليهم اسم هيپادا تيلوميتس Heppada Telumtes وجعلهم طبقة ثانية. أمّا من ملك ما يعادل مائتي مكيال فسمّاهم زويگيتي Zeugitae وجعلهم الطبقة الثالثة. أما الباقون فجعلهم طبقة رابعة وسمّاهم ثيتيس

= بالموت، فقد جعل عدداً من الجرائم الأصغر شأناً تستحق عقوبة الموت أيضاً. وهذا ما أدىّ إلى إلغاء كلّ شرائعه تقريباً. فصرامتها المتناهية الشبيهة بالحدّ المسنون المرهف جعلها كالنصل الذي ينفذ عميقاً. وقد حفظ لنا بروفيري في (de Abstin) نصاً من تلك القوانين وهو ما تعلّق بالعبادة «إنه لقانون أبديّ في آتيكا. أن تعبد الآلهة وجوباً، وكذلك تعبد الأبطال بحسب تقاليد أسلافنا. في السرّ تعبد فقط وبصلاة لائقة، وبالثمار الأولى وإراقة الخمر سنوياً».

(٤٥) خطيب أثيني عاصر فيليب المقدوني وابنه الإسكندر.

(٤٦) أرسطو: دستور أثينا ٧:٣ وما بعده.

(٤٧) إن هؤلاء الپنتاكورسيوميديمني يدفعون ثالثاً واحداً لبيت المال. أمّا الهيپاداتيلوانتيس فيتوجب عليهم، كما تدل عليه عبارة النص، أن يقتنوا حصاناً وأن يخدموا في الجيش فرساناً. وأما الزڤخيتي فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم وسط بين طبقة الفرسان وطبقة العامة (ذلك لأن الجذّافين الذين يحتلون المقعد الوسط بين الثالاميت في قيدوم السفينة والتراميت في الدفّة. ومع أن الـ«ثيتيت» الذين لا يدفعون ضريبة لا صوت لهم في الجمعية العامة، فإنهم كما لاحظ پلوتارخ حازوا امتيازاً عظيماً باعتبارهم مرجعاً استئنافياً في معظم الأحكام القضائية. وقد بلغ استخدام هذا الامتياز من الخطورة حداً، حسب رأي أرسطو (السياسة ٢:١٠)، أن أثينا وقعت فعلاً بيد الرعاع وسلطانهم الطاغي.

Thetes. وهؤلاء لا يحق لهم أن يتولّوا أي منصب حكومي، لكن لهم أن يحضروا الجمعية العامة ويعملوا عمل المحلّفين، وهو عمل يبدو للوهلة الأولى شيئاً تافهاً، لكن سرعان ما تبيّن أنه حق ذو سلطان عظيم. لأن كل موضوع خلافٍ رئيسٍ يُرفع إليهم ليصوّتوا عليه، ولا يُستثنى منها حتى الأمور التي هي من اختصاص الأرخون إذ قرر أن تُستأنف إليهم قضائياً.

وكذلك قيل إن صياغة قوانين صولون كان يشوبها الغموض وكانت معانيها مزدوجة التفسير مطّاطيّة. وقد تعمّد ذلك لتزداد هيبة مجالسه القضائية. لأن غموضها وصعوبة تفسيرها وعدم توصّل الناس إلى فهم منطوقها الحرفي يضطرهم إلى رفع دعاواهم إلى القضاة المختصين الذين حذقوا الصناعة. أما عن المساواة الطبقية فهو ينوّه بها على الصورة الآتية:

«منحتُ الشعب سلطة كافية ولم أجرّدهم من الكرامة ولم أعطهم الكثير جداً. وأما أولئك الذين يملكون السلطة ويتمتعون بالغنى الطائل فقد جعلتهم القوانين في نجوة عن كُلّ ما يحطّ من قدرهم. ووقفت بدرعي الجبّار أمام كلتا الطبقتين ولم أدع أحد الفريقين يعتدي على حقوق الآخر»(٤٨).

وقوّى من ضمانات أمن الطبقة العامة بمنح الحق العام إقامة الدعوى عن أي جريمة من جرائم الإيذاء العمديّ. فإذا تعرّض أي فردٍ للضرب، أو بُتر منه أي عضو أو اعتُدي عليه بأي شكلٍ من الأشكال، كان لكل مواطن الحق في إقامة الدعوى على المعتدي. وهدف صولون من هذا أن يعوّد المواطنين أن يشعروا بشعور المعتدى عليه، كأنهم أعضاء في جسم واحدٍ. وأن تثور ضمائرهم للجريمة كأنها وقعت عليهم. وهناك قولة له تنسجم ومنطوق قانونه. إذ سئل ما هو النموذج الأمثل للمدينة في رأيه؟ فأجاب: «المدينة التي يتساوى فيها المعتدى عليهم وغير المعتدى عليهم بحق إدانة ومعاقبة المعتدين».

عندما ألّف صولون مجلس «الأريوباغوس»(٤٩) من الآراخنة السابقين الذين تولّوا

(٤٨) المقطوعة ٥ وما بعدها. أرسطو [دستور أثينا ٢: ١] أنظر أيضاً ٩: ١ وما بعدها.

(٤٩) Areopagus: أي جبل مارس [أريوس Arius = مارس] و[باغوس Pagus = جبل] وهو موضع في أثينا مرتفع تعقد فيه أعلى محكمة قضائية [م.ت].

إن المحكمة الأريوباغية وإن كانت أسسها قد ثبتت منذ عهد طويل إلاّ أنها فقدت الكثير من سلطاتها عندما قام دراكو بتفصيل محكمة إيفيتاي Ephetae. في الزمن القديم حتى مجيء =

هذا المنصب السنوي، وكان هو واحداً منهم[٥٠]، لاحظ أن الشعب الذي تخلّص من الديون ما زال أمره مضطرباً يجأر بالشكوى فألّف مجلساً آخر قوامه أربعمائة عضو[٥١]، تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، مائة عضو له. وواجبه تدقيق وإقرار كل ما يفرض على الشعب من أوامر وقوانين، وبعد ذلك يتمّ عرضه على الجمعية عامة. أما المجلس الأعلى أو الأريوباغوس فقد جعله حارساً ومراقباً على القوانين. وبذلك كان هذان المجلسان بمثابة مرساتين للنظام الجمهوريّ، يقللان من تعرُّضه للنوء والغرق، ويجعلان الشعب أكثر هدوءاً واستقراراً. وهذه هي الأسباب التي دعت صولون إلى إنشاء مجلس الأريوباغوس. ويبدو ذلك ثابتاً تاريخياً لأن دراكو لم ينوّه بشيء عن

= صولون كانت هذه المحكمة تضمّ أناساً اشتهروا بغناهم ونفوذهم ورجاحة عقولهم. على أنه لم يجز لعضويتها إلاّ من كان أرخوناً. وهذا ما حقق الهدف الذي رمى إليه فقد ارتفع قدر الأريوباغوس وسمت مكانتها وأمست قراراتها محترمة، بحيث لم يعد أحد يقوى على انتقادها أو رفضها. وظلّ الأمر كذلك أجيالاً عديدة.

(٥٠) بعد انقراض نسل الميذونتيذي Medontidae حدد الأثينيون فترة حكم الأرخون بسنة واحدة، وجعلوا المجلس يتألف من تسعة بدل أن يتولاه أرخون واحد. بعبارة أخرى إنهم حققوا ما كانوا يصبون إليه منذ عهد بعيد، أعني أن يجعلوا حكامهم الأعلين تحت الرقابة الشعبية العامة. حصل هذا الانتقال العظيم إلى الديمقراطية في أثينا أثناء الأولمبياد الرابع والعشرين الموافق للعام ٦٨٤ ق.م. كان لهؤلاء الحكام مظاهر تمييز وتكريم واضحة ومنها التسمية، فالأرخون الأول هو إيپونيموس Eponumus باسمه تختم السنة. والثاني يدعى باسيليوس أو ملك Basileus وقد جعلوا اللقب ثانياً لتجريده من صفة الأولوية. ووظيفة المنصب رعاية الشؤون الدينية وأطلقوا على الثالث اسم پوليمارخوس Polemarchus للإشراف على شؤون الحرب. أما الستة الباقون فيحمل كلّ منهم لقب تسموثيتي Thesmothetae وهم الأوصياء على القوانين يراقبون تفسيرها وتطبيقها والمحافظة عليها وإزالة الغموض والتناقض فيها. ويمرّ هؤلاء الحكام قبل انتخابهم بفحوص صارمة للغاية تشمل التحقيق الدقيق في أصلهم وفصلهم [يجب أن تكون الأجيال الثلاثة الأخيرة التي سبقته على الأقل من أسرته أثينية الجنسية من جهة الأب والأم] ودرجة تقواهم وعباداتهم للآلهة، وحبهم لأبويهم وبلادهم وما يملكون من ثروة إلخ... وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى زمن الإمبراطور الروماني كاللنيوس.

(٥١) رُفع عدد القبائل في عهد كاللستينوس إلى عشرٍ بعد طرده أسرة البسستراتيدي الحاكمة. ورفع عدد أعضاء مجلس شيوخه إلى خمسمائة. كل قبيلة تنتخب خمسين عند نهاية العام. ويقدم زعيم القبيلة قائمة بالمرشحين ومن هؤلاء يختار العدد المقرر بالقرعة. ثم يقوم الشيوخ بتعيين الضباط الخمسين ويطلق عليهم اسم (پريتاني). ويترأس عشرة منهم الآخرين لمدة أسبوع ويسمون بروئدري ومهمتهم الحيلولة دون وقوع فوضى ومن هؤلاء يختار (إپستاته) أو رئيس لا يدوم منصبه أكثر من يوم واحد [أرسطو: دستور أثينا ٨: ٤].

وجود الأريوباغيين، في حين يشير إلى «الزفيتي» Zaphetae في كل قضايا الدم. على أن لوح صولون الثالث عشر المتضمّن القانون الثامن كانت صياغته كالآتي: «كل من كان مجرداً من حقوق المواطنة قبل أرخونية صولون يستعيد حقوق مواطنته. إلاّ أولئك الذين أدانهم الأريوباغوس والإيفيتي، أو أدانهم الملوك في البريتانيوم لارتكابهم جرائم القتل العمد مع سبق التصميم، والقتل قصداً، أو من دسّ الدسائس على الدولة أو تآمر عليها - على أن يكونوا في ديار الإبعاد عند سنّ هذا القانون».

من هذه الصياغة يتبيّن أن الأريوباغوس كان موجوداً قبل قانون صولون، فمن يمكن أن يحاكمه هذا المجلس قبل صولون إن كان هو الذي أوجد مجلس قضائه؟ اللّهم إلاّ إذا كان قد حُذف شيء من النص أو شابه سوء صياغة أو عدم دقة وهو أمر محتملٌ. وأقرب صياغة إلى الوضوح هي أن يقال «. . . أولئك الذين أدينوا بجرائم كان الحكم بها من اختصاص الأريوباغوس والإيفيتي(٥٢) والپريتانيوم عند تشريع هذا القانون».

. . . يبقون مجرّدين من حقوقهم، لا تُمحى عنهم وصمة العار، أمّا ما عداهم فيعاد إليهم اعتبارهم ويلغى الحكم عنهم. وعلى أية حال نترك الموضوع لحكم القارئ.

من بين قوانين صولون قانون غريب عجيب، فهو يجرّد حقوق المواطنة من كل من يقف على الحياد في أثناء ثورة أو تمرّد(٥٣). والظاهر أن المشترع لم يكن يرى بقاء أي مواطن فاقد الشعور والاهتمام بالمصلحة العامة، منصرفاً إلى شؤونه الخاصة فحسب مهتماً بما يعود عليه بالفائدة، مجرّداً عن أي تحسّس باضطراب سياسي يداهم بلده، بل يجب عليه أن ينحاز فوراً إلى الجانب المصيب أو إلى الحزب الذي يكون

---

(٥٢) كان أول عمل المجلس القضائي في عهد الملك ديموفون ابن تيفس للنظر في دعاوى القتل العمد والقتل القصد دون تصميم. ويتألف المجلس من خمسين قاضياً أثينياً، وعدد غير محدود من الأرغوسيين. إلاّ أن داركو أخرج الأرغوسيين. وأمر المجلس بأن يتشكّل من واحدٍ وخمسين من أفاضل الأثينيين وأن لا يقل عمر العضو فيه عن خمسين سنة. ومنحهم سلطاناً يعلو على سلطان أعضاء الأريوباغوس. إلاّ أن صولون خفض هذه السلطة. بحيث جعل هذا المجلس تحت إشراف الأريوباغوس كما حدد صلاحيته القانونية.

(٥٣) يورد أولوس غيليوس النص الحرفي لهذا القانون. ويضيف قائلاً: «ذلك الذي يقف على الحياد يجب أن يجرّد من منازله ويخسر بلاده وأملاكه وأن يُنفى خارج الوطن». ويمدح غيليوس قصد المشترع من هذا القانون حين يذّمه بلوتارخ.

الحق إلى جانبه فيناضل ويتعاون معهم. لا أن يبتعد عن مواطن الخطر ويجلس مراقباً المعركة عن كثب ليرى من الغالب؟

ويبدو للمرء قانوناً سخيفاً تافهاً أن يُسمح لزوجة ذات مال موروث بأن تتخذ أقرب ذوي زوجها عشيراً، إن لم يقم زوجها بمعاشرتها! على أن بعضهم يمدح القانون ويراه فعّالاً لردع أولئك العاجزين عن واجباتهم الزوجية ويسعون للزواج بالوارثات طمعاً بمالهنّ، مستخدمين السماح القانونيّ ليخرقوا به سُنن الطبيعة. إذ كان الواجب يقضي إما أن يعزفوا عن هذا الزواج أو أن يعيشوا حياةً زوجيّة شائنة، ويعانوا العار والخزي جرّاء طمعهم وخطأهم المتعمّد. هذا فضلاً عن أن اشتراط كون خليلها أقرب أقرباء زوجها هو عملٌ طيّبٌ حتى يظل نسب الأسرة لثمرة هذه العلاقة.

ومما جرى مجرى هذا القانون في غرابته ذلك الذي قضى أن يوضع العريس والعروس في غرفة مغلقة الباب حيث يأكلان معاً(٥٤) سفرجلة، وأن زوج الوارثة يجب أن يعاشرها ثلاث مرات في الشهر على الأقل، فهذا يكون من قبيل التكريم لها وإظهار الحب الواجب من الزوج لزوج عفيفة مُحصنة وإن لم تنجب له أولاداً، وهو ما يقضي على كل أسباب الخلاف ولايؤدي بالخصام الطفيف إلى قطيعة. وفي غير مثل هذه الزيجات منع صولون دفع أيّ بائنة منعاً باتاً، فلا يكون للعروس غير ثلاث فساتين، وأثاث بيتي بسيط(٥٥)، ولا شيء سوى ذلك. لأن صولون لم يشأ أن تُعقد الزيجات على أساس الربح أو المال بل أن يسبقها الحب الخالص، واتفاق الميول، وإنجاب الأولاد. ولمّا طلبت أم ديونيسيوس من ابنها أن يقوم بتزويجها أحد مواطنيه أجابها قائلاً: «حقاً إني حطّمت قوانين البلاد بالطغيان الذي أمارسهُ، لكني لا أستطيع أن أتحدّى قوانين الطبيعة أو أن أخرقها بزواج غير متكافئ». مثل هذا الإخلال غير مسموح به في الجمهورية، كما أنه لا يُفسح أيّ مجالٍ لعقد مثل هذه الزيجات غير المتكافئة،

---

(٥٤) ليس غريباً أن تأكل الوارثة وزوجها سفرجلاً (فكلّ المتزوجين حديثاً يأكلون هذه الثمرة) وهذا ما يجعل حديثهما المتبادل رائقاً. ولاسيما أنها تجعل رائحة الفم طيبة. لكن لداسيه تفسيراً آخر من مؤدّاه الحرص المتبادل على سلامتها لأن السفرجل كما هو شائع لدى العامة ترياق للسموم ويظهر من [پليني: التاريخ الطبيعي ١٥: ١١ و٢٣: ٦) أن لهذه الثمرة منزلة عظيمة لدى الأقدمين من نواحٍ عدةٍ.

(٥٥) تجلب العروس إلى منزل الزوجية قصعة فخارية تسمّى فروغيتيوس تخبز فيها أرغفة الشعير. كإشارة إلى أنها صارت تضطلع بأمور البيت وأنها ستشارك في أشغال الأسرة.

التي لا يربطها الحُبّ ولا تصل إلى غاية ولا ثمرة. ولقد حق على كلّ حاكم بعيد النظر، أو مشترع للقوانين، أن يقول لشيخ كبير السنّ، على ما قيل لفيلوكتيتس Philoctetes[٥٦] في التراجيديا، تزوج امرأة في مقتل العمر: «أيتها الفتاة المسكينة، خطأ أنك تزوجت في حال ملائمة!»

ومن أحكام هذا القانون أنه «إذا وجد شاب تزوج امرأة غنية كبيرة السنّ وقد ازداد بدانة وسمن كالقطاة وهو في مرتعه، أُبعد عنها حالاً وزُوّج بامرأة صغيرة ذات سنّ مناسبة». . . وفي هذا الكفاية.

من قوانينه الأخرى النافعة التي أصدرها تحريم ذكر الموتى بسوءٍ[٥٧]، فمن الصلاح والدين أن يحتفظ المرء للذاهبين بحرمة وقداسة، ولا يعبث بذكرى من قضى نحبه. ومن حُسن الخُلق أيضاً أن يوضع حَدّ للشنآن، بمنع المواطنين من اغتياب الأحياء في المعابد وساحات القضاء ودوائر الحكومة، أو أثناء الألعاب العامة، ومن يفعل ذلك يجازى بدفع ثلاثة دراخمات للمقذوف من غرامة للحكومة قدرها دراخمان. فالعجز عن ضبط العاطفة دليل على طبع ضعيف وسوء تربية يصعب تهذيبها في أغلب الأحيان، وقد يكون تقويمها مستحيل. وعلى القوانين أن تضع في حسابها جميع الاحتمالات إن كان غرض صانعها فرض العقوبات على القلّة المذنبة لأجل الإصلاح لا معاقبة الكثرة دون ما هدف أو غاية.

وكان موضع ثناءٍ عظيم لقانونه الخاص بالوصايا. فقبله لم يكن احدٌ يستطيع أن يوصي بماله. لأن تركة الميت هي ميراث مؤكد لأسرته لا ينازعها فيه أحد. فسمح صولون بالوصيّة، كذلك سمح بها في حالة ما لو كان الموصي بلا عقب ذكر فله أن يهب ماله لمن يشاء[٥٨]. وأظهر صولون بذلك أن رابطة الصداقة أقوى من رابطة القرابة، والميول البشرية أقوى من دواعي الضرورة. وجعل مال المواطن ملكاً حقيقياً

---

(٥٦) تمثيلية بهذا الاسم لا يعلم باسم مؤلفها على وجه الدقة. تدور أحداثها حول فيلوكتيتس صديق هرقل ومرافقه. بعد موت هرقل ورث عنه سهامه المغموسة بدم الهيدرا. سقط أحد هذه السهام على قدمه بمحض الصدفة، فأحدث جرحاً ونغر الجرح فاضطر الإغريق الزاحفون على طروادة إلى تركه وهو يقاسي آلاماً مبرحة في لمنوس. ولما لم يكن بوسعهم الاستيلاء على تلك المدينة بغير هذه السهام القتالة فقد أرسلوا إليه وفداً يلتمسونها منه. بنى سوفوكليس من هذه الأحدوثة مأساة مازالت موجودة.

(٥٧) حتى من قِبل أولادهم. وهذا أقصى حدٍ للتحريم ديموستينس.

(٥٨) «أولاد شرعيون» كما يضعها ديموستينس.

له يتصرّف به دون قيد أو شرط. إلاّ أنه منع وصيّة المحتضر وأبطل كل ما جاء منها نتيجة شدة مرضٍ أو بسبب سحر، أو سجن أو إكراه، أو إغراء أقدمت عليه المرأة الموصى لها، لأن الإغراء على ارتكاب خطأٍ هو في مستوى الإكراه. وليس ثمّ فارق كبير بين الخديعة والإجبار وبين الإغراء والإكراه ما دام كلا الأمرين يحدّان من حرية العقل سواء بسواء(٥٩).

وأصدر قانوناً بتنظيم أفراح المرأة وحدادها وكيفية مشيتها وألغى كل ما هو ضد الحشمة أو غير معقول. فلم يسمح للمرأة أثناء خروجها من الدار أن تلبس أكثر من ثلاث قطع من الثياب، وأن لا تحمل من اللحم والخمر ما تزيد قيمته على أوبول(*) Obol واحدٍ أو سلّة يزيد ارتفاعها عن كيوبيت(**) واحد. وان لايخرجن ليلاً إلاّ في عربة يتقدّمها مشعل مضيء(٦٠). ومنع أهل الميت أن يضربن صدورهن إثارة للعواطف أو أن يندبن ميتاً في جنازة آخر(٦١). وأبطل عادة التضحية بثورٍ على القبر، ودفن أكثر من ثلاثة أردية مع الميت، وأن لا يزور القبر غير ذوي الفقيد(٦٢) باستثناء مناسبة التشييع. ومعظم هذه الأمور ممنوعة في قوانيننا الحاليّة، لكن يزيد عليها فيما بعد حالة واحدة وهي أن تقوم مراقبات للنساء الثاكلات بإصدار أحكامٍ طفيفة على كل من تسرف في حدادها وإظهار حزنها.

ولاحظ صولون أن المدينة أخذت تكتظّ بالأشخاص الذين يأتون إلى أتيكا من كل

---

(٥٩) وكذلك رُسم أن لا يستفيد الأبناء بالتبنّي من الوصيّة. ولكن ما إن يرزقوا أولاداً شرعيين حتى يكونوا أحراراً في العودة إلى الأسرة التي جاؤوا منها. اما إذا بقوا دون أولاد فإن الأملاك الموروثة بفضل تبنّيهم تعود إلى أقرباء المتبني [ديموستينس].

(*) عملة يونانية قيمتها عشرة أفلس تقريباً.

(**) قياس يوناني طوله ١٨ إنجاً.

(٦٠) لمنعهن من ارتكاب أية جريمة تحت ستر الظلام.

(٦١) يسرد ديموستينس في «تيموكراتيس» قواعد صولون الخاصة بالجنائز على النحو التالي: «فَلْتسبَح اجساد الموتى في البيت بحسب وصيّة الميت. وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس تُحمل منه ويتقدم الرجال الجنازة أثناء السير، وتسير النسوة في أعقابها. ويُحظر على أية امرأة في الحداد أن تدخل حَرَمَ أي ميت أو تسير في جنازته حتى تنقضي على ميتها ثلاثة أعوام كوامل، إلا إذا كان الميت الثاني بدرجة ابن عم أو ابن خال. هذه القواعد اقتبسها مشترع «الألواح الاثني عشر» الروماني ففرضها على الرومان.

(٦٢) تُعتبر هذه الزيارة عملاً من أعمال البرّ. أما زيارة الغرباء فهي مكروهة إذ يفترض أنها تستطبن نيّة خبيثة مجرمة وهي سرقة عظام الميت لتستخدم في أعمال الشعبذة.

حدبٍ وصوبٍ سعياً وراء الرزق، وأن معظم البلاد قاحلة ماحلة، وأن تجار البحر لا يصدّرون لمن لا يستوردون منه بالمقابل، فوجّه المواطنين إلى التجارة. وسنّ قانوناً ينصّ على أن الابن ليس مكلّفاً بإعاشة أبيه إن لم يقم الأب بتنشئته على حِرفةٍ ما(٦٣). والحق يقال إن ليكورغوس ورث مدينةً خالية من الأجانب، وأرضاً. . . «تتسع لجماهير غفيرة، تكفي ضِعْف عددهم» على حَدّ ما قال يوريپيدس. زد على هذا أن الشغيلة كانوا كثيرين حول سپارطا، ليس بينهم عاطل واحدٌ، وكلهم يعمل ويكدح. ولذلك كان مصيباً حين أعفى مواطنيه من الأعمال اليدوية والحِرف الاعتيادية، وأبقاهم تحت السّلاح وعلّمهم صناعة الحرب لا غير. في حين أن صولون استوحى قوانينه من واقع بلاده، ولم يحاول جرّ الواقع إلى قوانينه.

ووجد خصوبة الأرض أضعف من تؤمّن عيشة المزارعين، فضلاً عن عجزها عن إعاشة الجموع العاطلة التي لا تمتهن الزراعة، فأدخل التجارة في عِداد المهن. وأمر مجلس الأريوباغيين بالتحقيق فن مصدر أرزاق كل فرد وعقاب العاطلين. لكن القانون التالي كما شرحه هيراقليدس پونتيكوس كان أشدّ صرامة، فقد قضى بأن لا يُجبر أولاد النساء غير المتزوجات بإعالة آبائهم غير الشرعيين. فمن يأبى شكليات الاتحاد الشريف بالزواج يُعتبر أنه يعاشر النساء لأجل المتعة لا لإنجاب الولد، وبهذا يكون حرمانه من كدّ ابنه السفاح جزاءً وفاقاً لأنه حرّم على نفسه كلّ حق له في تأديب أولاده. وجعل من ولادتهم نفسها فضيحة وعاراً.

وأغرب ما في قوانين صولون تلك التي تتعلق بالنساء(٦٤). فقد سمحت لكلّ امرئ بقتل الزاني حين يضبط في الفراش. لكن إذا أُجبر أيّ رجل حُرٌّ على الزنى فعليه أن يدفع غرامة قدرها مائة دراخما، وإذا أغواها يُغرّم عشرين دراخما. أما أولئك اللاتي يبعن أنفسهن علناً أي العاهرات اللاتي يذهبن علناً إلى كل من يدفع لهن أجراً فلا جُناح

---

(٦٣) من يحكم بجريمة الكسل والبطالة ثلاث مرات يُعلن للملأ أنه إنسان «سيّئ السيرة». وقال بعض الكتاب إن دراكو جعل البطالة مرةً واحدة جريمة عقوبتها الموت. إلاّ أن صولون خفف من هذه الصرامة وجعل عقوبة السيّئ السيرة الغرامة بمبلغ مائة درهم (دراخمة). ويؤكد هيرودوتس وديون [المرجع السالف ١ و ٢:٦] أن مثل هذا القانون كان مطبّقاً في مصر ويُحتمل جداً أن يكون صولون المطلع على قوانين تلك البلاد قد اقتبس هذا المبدأ من هناك.

(٦٤) الزانية لا يُسمح لها بالزينة أو المشاركة في القرابين العامة، وإن فعلت فلكل شخص الحق في خرق ثيابها من دُبر وضربها في أي مكان من جسمها على أن لا يؤدي الضرب إلى القضاء على حياتها أو فقء عينيها.

عليهن وعلى معاشرتهن. وحَرّم بيع البنت والأخت إلاّ إذا ثبت أنهن خلعن عذارهن، وإن يكنّ غير متزوجات.

الحق يقال إنه ليس من العدل في شيء أن يُفرض على الذنب عقاب جدّ صارم أحياناً، دون إتاحة مجال لندم صاحبه، في حين يعاقب المرء عنه وأحياناً بعقوبة طفيفة جداً، بفرض غرامة زهيدة مثلاً، كأن القضية مجرّد لعبة! إلاّ إذا كانت النقود في أثينا من الندورة بمكان آنذاك. فقلّة النقد تجعل هذه الغرامات عقوبات شديدة جداً. ونحن نرى في تقديم الأضاحي أن ثمن الشاة الواحدة والبوشل الواحد من القمح قد حُدّدا بدراخما واحد لكل منهما. والفائز في الألعاب الإستمية يُعطى مائة دراخما جائزةً. والفائز في الألعاب الأولمپية يعطى خمسمائة. ومن يأتي بذئب يُعطى خمسة. ومن يأتي بجرو يُعطى درخما واحدة. وقيمة الثور خمس دراخمات، وقيمة الشاة دراخما واحدة، كما يؤكد ديمتريوس الڤاليري. على أن الأسعار التي حدّدها صولون في لوحه السادس عشر بخصوص الحيوانات الممتازة هي بالطبع أعلى بكثير من هذه الأسعار، ومع هذا فهي واطئة جداً نسبةً إلى الأسعار الحالية. لقد كان الاثينيون أصلاً أعداءً للذئاب أرضهم أصلح للرعي منها للزراعة. وبعض المؤرّخين يؤكدون أن طبقاتهم لم تأخذ أسماءها من أبناء إيون Ion وإنما من الصنائع المختلفة التي يزاولونها، فالجنود يُسمّون هوپليتي Hoplitae، والصنّاع إيرغادس Ergades، والفلاحون غيليونتس Geleontes، والرعاة والباحثون عن الكلأ أيغيكوريس Aegicores[٦٥].

ولما كانت البلاد الأتيكية قليلة الانهار والبحيرات[٦٦]، وليس بها ينابيع ثرّة والناس معظمهم يستخدمون الآبار التي يتولّون هم حفرها، فقد سنّ صولون قانوناً يسمح بالاستقاء من الآبار العمومية التي تقع ضمن مسافة هيپكون Hippicon واحدٍ (أي أربع

(٦٥) هذا التقريب اللغوي العسير في تفسير أسماء القبائل القديمة الأربع التي اشتقّت من أسماء إيون الأربعة كما يقول هيرودوتس [٥: ٦٦]، فالأول لا علاقة له بـ Nolpe أي الأسلحة. والثاني لا علاقة له بـ Ergon أي العمل. والثالث لا صلة له بـ ge أي الأرض. والرابع لا صلة له بـ aix أي العنزة.

(٦٦) يحدثنا سترابو عن وجود نبع ماءٍ غير بالقرب من ليكيوم. وينوّه أفلاطون بنبع ماء بارد في غاية الصفاء. إلا أن آتيكا هي بلاد قاحلة عموماً وكلّ من نهري ايليسوس، دارياداتوس لا يجريان باستمرار. حتى كنيسوس نفسه الذي كثيراً ما يتدفق ماؤه، ويلبث أن يجف صيفاً في أغلب الأحيان.

فورلنغات)(*) من المستقين. فإذا كانوا على مسافة أبعد فعليهم أن يحفروا بئراً خاصة بهم. فإذا حفروا إلى عمق ستين قدماً ولم ينبط ماء فلهم الحق في أن يأخذوا ملء مكيالٍ (سعته أربعة غالونات ونصف غالون) يومياً من جيرانهم. لأنه كان يرى من الحكمة أن تؤمّن الحاجة، وأن لا يشجّع المرء على الكسل. وكان ذكياً في أنظمته المتعلقة بشؤون الغراس، فمن يغرس شجرة جديدة عليه أن يبعد موضعها مسافة خمسة أقدام من حدود حقل جاره على الأقل. فإذا كانت شجرة تين أو زيتون فيجب أن لا تقلّ المسافة عن تسع أقدام لأن جذورها تمتد وتنتشر. ولا يمكن أن يغرس هذان الصنفان قرب أي نوع من الأشجار الأخرى إلاّ وألحقا بها ضرراً لأنهما يمتصان غذاءها وأحياناً يخنقانها بعملية تنفّسهما. ومن يحفر حفرة أو ساقية فعليه أن يجعلها بعيدة عن أرض جاره بمسافة تساوي عمقها. ومن يربيّ قفائر نحل فعليه أن يضعها ضمن مسافة ثلاثمائة قدمٍ من قفائر نحل شخصٍ آخر.

ولم يسمح بتصدير مادة إلى الخارج غير الزيت، ومن يصدّر مادة أخرى غيرها يلعنه الأرخون لعنة دينية، أو أن يدفع عنه مائة دراخما. والقانون التالي مثبت في اللوح الأول من القوانين فلا يظنّن أحد - كما يؤكد بعضهم - أنه لا يُعقل أن تصدير التين كان ممنوعاً في يومٍ ما وأنّ المُبلِّغ عن المخالفين كان يدعى «المتبصبص»(٦٧)! كذلك استنّ قانوناً بخصوص جراح الحيوان والأذى الذي يحدثه في الغير. فإذا عضّ كلبٌ شخصاً أوجب القانون على صاحبه أن يسلّمه وقد ربط إلى عنقه جذع خشبٍ طوله أربع أقدام ونصف قدم(٦٨). وهو ضمان جيد لأمان الآخرين من غائلة الحيوان. أما القانون الخاص بحصول الأجانب على الجنسية الأثينية فهو مما يشكّ في صلاحه. إذ لم يسمح بهذا الامتياز إلاّ لأولئك الذين حُكموا في بلادهم بالنفي المؤبّد أو من جاؤوا أثينا للتجارة تصحبهم أُسرهم. ولم يكن يقصد من هذا التحديد تثبيط همّة الأجانب في الحصول على صفة المواطن الأثيني الحُرّ، بل لتحريضهم على المساهمة الفعّالة الدائمة في الحكم، زد على هذا أن أولئك الذين أُخرجوا قسراً من بلادهم أو تركوها بمحض

(*) مقياس طولي يبلغ حوالي ٢٢٠ ياردة فيكون الهيكون حوالي ٨٨٠ ياردة.

(٦٧) الترجمة الحرفية يجب أن تكون «عارض التين» وقد أنتشر هذا الاسم فيما بعد فأصبح هكذا Sycophant ويقترن بصفات رذيلة كالحقارة والذّلة والوضاعة.

(٦٨) هذا الحكم وعدد آخر من أحكام صولون، دخلت في أحكام الألواح الاثني عشر الرومانية. فقد أرسل الرومان في حدود ٣٠٠ ق.م وفداً إلى أثينا لاختيار بعض القوانين اليونانية لقانونهم المدني.

اختيارهم سعياً وراء الرزق سيكونون أكثر إخلاصاً لبلادهم الجديدة من وطنهم الأول.

وأمّا قانون الملاعب العامة (واسمه پاراسيتين Parasitein)(٦٩) فهو نموذج للقوانين الصولونية بغرابته، لأنه يعاقب المتردد عليها كثيراً، مثلما يعاقب المنقطع عنها، فالأول مفرط في استمتاعه، والثاني مستخفّ بالدولة!

وحدّد سريان هذه القوانين بمائة عام، وكتبها على ألواح، أو بكرات خشبية أو ما يدعى آكسون Axon تدار حول محورٍ وهي في خِزانات. وقد ظلتّ بقايا منها في البريتانيوم أو القاعة العمومية في أثينا معروضة للناس حتى أيامي. وقد عُرفت حسب قول أرسطو باسم كيربيس Cyrbes(٧٠) بدليل أبيات للكوميدي كراتينوس Cratinus:

«بعد استئذانك - أقول بفضل صولون وبفضل دراكو اللذين أشعلت «كيربيساتهما» النار التي حُمِّصت بها حبّات فاصوليائنا»(٧١).

لكن بعضهم يقول إنها «كيربيسات» تامّة تتضمّن قوانين متعلقة بالقرابين وبفرائض الدين وغيرها.

لقد أقسم المجلس كله على تأييد هذه القوانين. كما أقسم كل فرد من طبقة الـ«تسموتيتيا» عند حجر ساحة السوق، بأن يقدّم كل من خرق نصاً من نصوصه تمثالاً ذهبياً مساوياً لجسمه إلى دلفي(٧٢). ولاحظ مقدار الاختلاف بين أيام الأشهر، وأن القمر لايطلع ولايأفل بحسب حركة الشمس، فكثيراً ما يسبقها ويشرق قبلها. وأمر لذلك أن يُسمّى اليوم قديماً أو جديداً معيداً إلى الشهر القمري السابق ذلك الجزء الباقي منه قبل حصول الاندماج، ومضيفاً اليوم المتخلّف إلى الشهر القمري الجديد. ويظهر

---

(٦٩) ومنها جاءت كلمة طفيلي Parasite المعروفة في أغلب اللغات الأوروبية على أنها كانت من الصفات المشرّفة في الأزمنة القديمة [أثينيوس ٦:٦] إذ كان يقصد بها رفيق الطعام على مائدة القرابين. وبيان ذلك أنه كان في بلاد الإغريق عددٌ من الأشخاص كرّم بهذه الصفة وظيفة أفراده انتقاء الحبوب والثمار وما هو ضروري للتقدمات العامة. وقد أمر صولون بأن تقدّم كل قبيلة ذبيحة واحدة في الشهر. وبعد انتهاء مراسم القربان تقدّم مأدبة عامة يساهم فيها كل فرد من القبيله بدورٍ وإلاّ شُهّر به أو وجب عليه تقديم عذر مشروعٍ لتقاعسه.

(٧٠) أرسطو [دستور أثينا ٧:١].

(٧١) معاصرٌ پريكلس وبعد صولون بحوالي مائة وخمسين سنة، عندما أُهملت قوانين هذا الأخير تماماً.

(٧٢) في ذلك الزمان كان الذهب نادراً في اليونان، حتى أن السپارطيين الذين أمرتهم النبوءة بطلاء وجه تمثال أپوللو بالذهب لم يجدوا الذهب الكافي، فأشارت العرّافة الكاهنة عليهم بشرائه من كروسوس ملك ليديا.

أنه أوّل من فهم بيت الشاعر هوميروس:

«تلك نهاية الشهر القديم وبدء الشهر الجديد»(٧٣).

وأطلق على اليوم الذي يتلوه «القمر الجديد». وبعد اليوم العشرين لم يعدّ بالإضافة إليه، بل بطرح العشرين من الثلاثين بحسب أوجه القمر المتناقصة. وعندما بدأ بتطبيق قوانينه(٧٤) أخذ الزوّار يتقاطرون إليه يومياً يمدحون بعضها وينتقدون بعضها وينصحون بتهذيبها وتعديلها. إلاّ أن القسم الأكبر جاء ليطلب معرفة السبب في وضع هذه المادة أو تلك بتفسير واضح دقيق للهدف والمعنى. وتفادياً للحراجة وخوفاً من إساءة التفسير، أو خليقاً بتنفيذ رغباتهم قرر التخلص من هذا الموقف الصعب ومصادر

---

(٧٣) اكتشف صولون خطأ نظرية طاليس القائلة بان القمر يكمل دورته في ثلاثين يوماً. فقد وجد أن الوقت الذي تستغرقه الدورة هو تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم. فأمر بأن يكون شهرٌ واحدٌ مؤلفاً من ٢٩ يوماً، وشهر ثانٍ مؤلفاً من ٣٠ يوماً بالتناوب. وبعد هذا وجد أن مجموع أيام السنة القمرية ٣٥٤ فلأجل مساواتها بالسنة الشمسية أمر باستحداث ٢٢ يوماً أو ٢٣ تزاد كلّ سنتين. كذلك أمر الأثينيين بتقسيم شهورهم إلى ثلاثة أقسام وهي البداية والوسط والنهاية. كل قسم من الشهر يتألف من عشرة أيام. والشهر الأخير البسيط يتألف قسمه الثالث من تسعة أيام. وبحساب الأيام فإنهم يتداولون القول هكذا: أوّل يوم من مبدأ القمر أو ثاني يوم من وسط القمر (أي اليوم الثاني عشر من الشهر) أو آخر يوم من نهاية القمر (ويقصدون اليوم الثلاثين من الشهر).

(٧٤) نوّه پلوتارخ بذلك الجزء من قوانين صولون التي وجدها فريدة تستدعي الالتفات. إلاّ أن ديوغينيس ليئريتوس وديموستينس ذكرا مجموعة أخرى لا يمكننا إغفالها هنا وهي: (١) من لا ينفق على أمه وأبيه يُنعت بالشرّير سيّئ الصيت. (٢) وكذا يعامل ناكر أبوّته. (٣) الرجل الذي يختلف إلى بيوت الفسق والفجور يُمنع من الكلام في الاجتماعات العامة. (٤) محظور على الوصيّ أن ينام أو يعاشر أو يتزوج والدة ذلك الذي نُصّب وصيّاً عليه. (٥) لا يُناط تعليم القاصر بذلك الذي يليه في حق الميراث. (٦) يحظر على حُفّار الأختام الاحتفاظ بالأصل الذي نُقش عنه الختم. (٧) من فقأ عين آخر فلتفقأ عينه. (٨) إذا أدمن أرخون على الخمر فيجب قتله. وأمّا الأحكام التالية فقد أوردها ديموستينس (أ) من رفض التطوع في الحرب أو فرّ وأظهر جبناً، يمنع من غشيان الأماكن العامة والميدان العام وأماكن العبادات العامة. (ب) إذا فاجأ رجل زوجه متلبسةً بالزنى وعاشرها بعد ذلك فإنه يعدّ من الأراذل. (ج) يُلاحق القوّاد ويُقتل عند القبض عليه. (د) إن قام أحد بسرقة في ساعات النهار فليؤت به إلى الضباط الأحد عشر، وإذا قُبض عليه متلبّساً بسرقة في ساعات الليل فليقتل، أو يُجرح في حالة هروبه، ويُحمل إلى الضباط الأحد عشر في حالة إلقاء القبض عليه. وإن سرق أموالاً عامة فعليه أن يدفع ضعفها. وإذا شاء المحكوم (عند عدم رفع الغرامة) فليكبّل بالأغلال لمدة خمسة أيام. وإن جدّف أو ارتكب عملاً محرّماً فليقتل.

الحيرة هذه وإلحاح المواطنين «ففي الأمور الكبرى يصعب إرضاء الجميع(٧٥)» كما قال لنفسه. وتحت الادّعاء بالتجارة ابتاع سفينة تجارية قاصداً السفر، ورحل وغاب فترة أمدُها عشر سنوات، وكان يأمل من ذلك أن تثبت قوانينه في نفوس المواطنين. ونزل مصر(٧٦) أولاً وسكن حسب قوله «قريباً من الموضع الذي منه يصبّ النيل فيه ماءه الدافق عند ساحل قنوب Canopus».

وأمضى ردحاً من الزمن يدرس مع پسنوفيس Psenophis من مدينة هليوپوليس، وسونخيس Sonchis السايتي Saite وهما أوسع الكهنة ثقافة وعلماً. ومنهما ظفر بمعلوماته عن قصة جزيرة أطلانطيا Atlantia(٧٧)، فقرّر نقلها إلى اليونانيين وشرع في نظمها شعراً على قول أفلاطون. ومن مصر رحل إلى قبرص فاحتفى به فيلوقبروس Philocyprus وأكرمه إكراماً عظيماً. وهو أحد الملوك فيها، كان يحكم مدينةً بناها دوموقون ابن تسيوس بالقرب من نهر كلاريوس وموقعها حصين، إلاّ أنها صعبة الوصول، غير مريحة للسكان. فأغراه صولون بأن ينقلها إلى السهل الجميل المنبسط تحتها ويجعلها مدينة جديدة أجمل وأوسع من مدينته تلك. وبقي هناك وساعد في جمع السكان إليها، وفي هندسة تحكيماتها ودفاعاتها وجعلها مريحة للسكنى، بحيث تقاطر الناس إليها. وحذا ملوك قبرص الآخرين حذو فيلوقبروس واختطوا مدنهم الجديدة بالشكل نفسه. وإكراماً لصولون واعترافاً بفضله أطلق الملك اسمه على المدينة فصارت تدعى صولي Soli وكانت قبلاً إيپي Aepae. ونوّه صولون بحادث تأسيسها في إحدى ملحماته المهداة إلى فيلوقبروس إذ قال:

«ألا فلتعش على عرش صولي عمراً مديداً، وليخلفك أبناءٌ من صُلبك. ومن

---

(٧٥) المقطوعة رقم ٧.

(٧٦) من المحتمل أن ذهابه إلى مصر كان لغرض بقائه بعيداً عن الأحداث لا هرباً من طغيان پسستراتوس، كما يقول بعض الكتّاب، فسنّه لم تكن تتحمل ذلك في الثانية، وتعليل پلوتارخ لسفره هو الصحيح. و«أقنوب» مدينة تقع على مصبّ النيل ويدعوها هيرودوتس «معادي» وهيليوپوليس هي «المطريّة» وسايس هي «سا» وكلاهما من المدن العتيقة الموغلة في القدم.

(٧٧) أنهى أفلاطون هذا التاريخ من ذكريات صولون (كما يتضح من مناظرتيه طيماؤس وكريتياس). وبحسب ادعائه كانت الأطلانطيس الذي ينسب اليها المحيط الأطلنطي أكبر مساحةً من آسيا الصغرى وأفريقيا (المعلومة آنذاك). وبصرف النظر عن سعتها فإنها غرقت في يوم وليلة! ويحدثنا ديودورس أن القرطاجيين الذين اكتشفوها فرضوا عقوبة الموت على من يسكنها. ومن ضروب الحدس التي لحقت بهذه الأسطورة هو أن القرطاجيين عرفوا أمريكا عن طريقها. وهناك رأي آخر مؤدّاه أن الأنطلانطيدي (الجزر السعيدة) هي المعروفة اليوم بجزر الكناري.

جزيرتك السعيدة قبرص فلتُرسل لي وانا أبحر ريحَ رخاء، لتهبّ مباركةً حكمك الجديد. وليشعّ الازدهار في مدينتك، ولترسِ بي إلى البرّ بأمان».

ويرى بعضهم أن حكاية لقاء صولون بكروسوس لاتتفق مع الوقائع التاريخية. إلاّ أني لا أستطيع أن أتعامى عن حادثة بلغت هذا المبلغ من الذيوع وأُسقِطها من الحساب بعد أن تواترت وقوي سنادها. هذا فضلاً عن ملاءمتها التامة لطبيعة صولون وجدارتها بحكمته وسعة عقله. وإن كانت في الواقع لا تتفق وبعض الروايات التاريخية، التي لم تفلح جهود آلاف المؤرخين في ترتيبها وتنسيقها وفق نظام يتفق عليه الجميع وترضى عنه كل الآراء. يقولون إن صولون قدم إلى كروسوس بطلب منه. وكانت حاله عند اللقاء شبيهة برجل البرّ عندما يرى البحر لأول مرة في حياته، فكما يتوهّم بكلّ نهرٍ يصادفه بحراً محيطاً كذلك كان صولون وهو يسير في بلاط الملك مشاهداً العدد الهائل من النبلاء وعليهم أنفس الحلل، يحيط بهم الحرس الكثير والسعاة الصبيان. وتوهّم في كل واحد بأنه هو الملك، حتى بلغ كروسوس وكان هذا يتحلّى بأندر وأنفس ما يخطر بالبال من الجواهر والذهب ويرتدى أغلى حلل الأرجوان- وبدا منظره مهيباً فخماً يُبهر العين. لكنّ صولون لم يُظهر ما يدلّ على دهشة واستغراب عندما مثل أمامه. كذلك لم يثن عليه بما كان كروسوس يتوقعه. بل أوضح بمسلكه لكلّ عين نفّاذة أنه رجل يحتقر كل مظاهر الأبّهة والفخفخة، والاختيال الرخيص الذي ينطوي عليه المشهد. وأمر كروسوس خدمه أن يفتحوا لصولون أبواب خزائنه وكنوزه ويعرضوها لأنظاره. ولم يكن صولون ليرغب في شيء من هذا، لأنه كوّن فكرته الصائبة عن صاحبها حال ما وقع نظره عليه. ولما عاد من جولته تلك سأله كروسوس: هل عرف أحداً يرفل في مثل سعادته؟ فأجابه صولون أنه عرف شخصاً يدعى تيللوس Tellus وهو مواطن أثيني من بني قومه، كان رجلاً نزيهاً ذا أبناء صالحين وثروة لا بأس بها، مات موت الأبطال في ساحة القتال دفاعاً عن بلاده. فرماه كروسوس بسوء الفهم وأفنِ الرأي لأن مقياس السعادة عنده لم يكن كثرة الذهب والفطنة، وأنه فضّل عليهما حياة وموت رجل بسيط مغمور النسب بالقياس إلى هذا القدر في العظمة والسلطان. ثم إنه سأله ثانية: هل عرف رجلاً أكثر منه سعادة غير تيللوس فأجاب صولون: «بلى، كليوبيس Cleobis وبيتون Biton وهما شقيقان عظيما الحب بعضهما لبعض وابنان طائعان لوالدتهما إلى أقصى حدود الطاعة. ولما تأخر جلب ثورين لجرّ عجلتها شدّا نفسيهما في النيّر وسارا بالعجلة إلى معبد جونو. وأكبر جيرانها سعادتها في أبنيها، فامتلأت حبوراً، وبعد تقديم القرابين وإجراء المراسم الدينية خرج الشقيقان ليصيبا شيئاً من الراحة وناما ولم يستيقظا، ماتا ميتةً هادئة

هنيئة وهما في ذروة التشريف والتكريم». قال كروسوس غاضباً: «إذن فأنت لا تعدّنا بين السعداء قطّ؟». ولم يكن في نيّة صولون مجاملته، ولا إغضابه أكثر مما أغضبه قائلاً: «إن الآلهة أيها الملك قد تفضّلت على الإغريق بكلّ النعم الأخرى على درجات معتدلة، لذلك كانت حكمتنا عادية بسيطة، لا حكمة ملوكية نبيلة. وهذا ما يمنعنا - بعد ملاحظتنا ما لا يُحصى من البلايا المحدِقة بأحوال البشر - من التجبّر والتأفّف من متع حياتنا الآنيّة، ويحول بيننا وبين الدهشة لسعادة أيّ إنسان لأن التبدّل يطرأ عليها بمرور الزمن. فالمستقبل المجهول قد يأتي بأي تغيير في حظوظ الإنسان. ونحن لا نعدّ المرء سعيداً إلاّ ذلك الذي حبته الآلهة بسعادة دائمة طوال حياته. ونحن لا نميل إلى وصف المرء بالسعادة وهو في متنصف حياته عُرضةً لتقلّبات حظوظه. وليس من سلامة الرأي وثباته أن يُتوّجَ مصارعٌ ويُعلن فوزه وهو ما يزال في حلبة النزال».

بعد هذا صرفه كروسوس وفي نفسه ضيق وانزعاج. ولم يعظه صولون بشيءٍ ما.

كان أيسوپ مدوّن الأساطير في «ساردیس» قد حلّ ضيفاً على كروسوس آنذاك بدعوة منه، ونال لديه حظوة كبيرة. وقد أصابه غمّ عظيم لإساءة استقبال صولون، فاتصل به وقدّم له النصيحة بقوله: «اي صولون! فليكن حديثك مع الملوك إمّا قصيراً أو معقولاً»، فأجابه صولون: «لا هذا، ولا ذاك، لن يكون قصيراً ولا معقولاً». لذلك استخفّ كروسوس بصولون في حينه. لكن لمّا تغلّب عليه كورش واستولى على مدينته، وأخذه حيّاً وحكم عليه بالحرق ووُضِع فوق أكداس الحطب مقيّداً على مشهد من جميع الفرس وبحضور الملك كورش نفسه، هتف بأعلى صوته ثلاث مرات: «إيه يا صولون!». فعجب الملك وأرسل من يستفسر: أي رجل أو إله صولون هذا الذي استصرخه وحده في ضيقته شديدة؟ فأفضى إليه كروسوس بالحكاية كلها قائلاً: «إنه أحد حكماء الإغريق العظام، استقدمته لا ليعظني أو يعلّمني شيئاً احتاج إليه، وإنما لأريه سعادتي وأشهده عليها. فظهر أن البؤس في فقدان تلك السعادة كان أشدّ وقعاً من لذّة التمتّع بها. عندما كنت حائزاً عليها بدا خيرُها موضع أخذ وردٍ واحتمالات. أما الآن فقد جلبت خسارتها بلوى حقيقية يصعب احتمالها. وقد أدرك صولون ذلك ونظر إلى نهاية حياتي فاستنتج ما سيكون مما هو كائن حينئذ ولم يعتمد على المجهول المشكوك فيه، ولم يزلزل حكمه ما رأى». لما سمع كورش ها الكلام - وكان أوفر عقلاً من كروسوس - ووجد في المثل الشاخص أمامه تجسيداً لنبوءة صولون، لم يكتف بإطلاق كروسوس والعفو عنه بل أكرمه طوال حياته. فكان لصولون أن يفخر في إنقاذ ملك ووعظ آخر.

عندما غادر صولون أثينا بدأ الخصام بين الأثينيين. فتزعّم المدعو أليكورغوس حيّ السّهل، وتزعّم ميغاكليس ابن ألكميون سكان الساحل، ووقف بسستراتوس على رأس حزب حيّ المرتفعات(٧٨) حيث يسكن الثيتس أفقر الناس، وأعدى أعداء الأغنياء. وأخذت المدينة تتطلّع إلى حُكم جديد، وإن ظلّت تطبّق قوانين صولون الجديدة. وكان أمل الثيتس كبيراً في أن التغيير سيكون أصلح لهم، وسيجعلهم أقوى نفوذاً من الحزب المناوئ.

هكذا كانت الأحوال عندما آب صولون فاستقبله الجميع بتجلّة وإكرام. لكن كِبَر سنّه حال دون قيامه بأي عملٍ أو نشاط، بل حتى إلقاء الخطب العامة كالسابق. إلاّ أنه حاول رأب الصدع وتسوية الخلافات بالمباحثات الخاصة مع زعماء مختلف الأحزاب. وبدا له بسستراتوس أكثرهم تفاهماً وأنه كان ليّن العريكة إلى أقصى الحدود، لطيفاً غاية اللطف في أقواله، وصديقاً كبيراً للفقراء(٧٩)، معتدلاً غاية الاعتدال في خصومته السياسية. وقد أوصله ذكاؤه وفراسته إلى ما حرمته منه الطبيعة لذلك كان موضع ثقةٍ أكثر من الآخرين. واشتهر بالحصافة وحب النظام والعدل، ومعاداة كل من يحاول النيل من نظام الحكم القائم. بهذا كلّه استمال أغلبية الجماهير ونجح في إقناعهم. ولم يلبث صولون أن فهم طبيعته، وأدرك نواياه ووقف على خططه قبل غيره. إلاّ أنه لم يكرهه بسبب طموحه. وأخذ يحاول تعويده على التواضع وتخليصه من الطموح، وكثيراً ما قال له وللآخرين: لو استطاع القائد أن يتخلص من حبّ العظمة ويجتثّها من فكره ويبرأ من رغبته في الحكم المطلق فلن يقوم مثله رجلاً فاضلاً ومواطناً ممتازاً في البلاد كلها. وكان ثسپيس Thespis في تلك الأيام قد بدأ يغيّر في شكل التمثيليات التراجيدية، فتعلّق الناس بها كبدعة جديدة، وإن لم تصل في حينه إلى مرحلة المنافسة والمسابقة. وكان صولون بطبعه ممن يحبّون سماع الأشياء الجديدة وتعلّمها وبما أنه كان عاطلاً بالغاً أرذل العمر وليس لديه ما يشغل به نفسه غير الخمر والموسيقى، فقد ذهب لرؤية ثسپيس هذا وهو يمثّل جرياً على العادة. وبعد انتهاء التمثيلية وجّه إليه الكلام قائلاً: ألا يشعر بالخجل وهو ينشر الأكاذيب نشراً أمام هذا العدد الكبير من

---

(٧٨) هذه الأحزاب الثلاثة التي انشعب إليها الأثينيون كنا قد نوّهنا بها سابقاً وهي على التوالي: بيدياثي Pediaei وپارالي Parali وديكيكرثي Dicicrii.

(٧٩) المقصود بالفقراء هنا ليس أولئك الذين تحلّ الصدقة عليهم. فأمثال هؤلاء لم يكن لهم وجود في أثينا. يقول إيزوقراطس: «في تلك الأيام لم يكن ثمّ مواطن مات بسبب الفقر. ولم يكن ثمّ من يستجدي في الطرقات جالباً على المجتمع العار».

الجمهور؟ فأجابه ثسپيس قائلاً: «لا ضرر ثَمَّ في ترديد الأكاذيب وتمثيل المسرحيات». فرفع صولون عصاه ودقّ بها الأرض وقال: «ويحك يا هذا! لو أننا حبّذنا مسرحية كهذه وأثنينا عليها لوجدنا أنفسنا يوماً ونحن نباشر أمثالها!».

فلما أحدث پسستراتوس جرحاً بجسمه[80] وحُمل في عجلة إلى ساحة السوق الكبرى وراح يُثير الناس موهماً أن خصومه هم الذين جرحوه بسبب نشاطه السياسي، فثار غضب الجمهور وراح يهتف له، تقدم منه صولون وقال له: «يا ابن هيپوقريطس، إنك تقدّم نسخةً غير دقيقة من أوديسّا [أوليسيوس] هوميروس، عملها ليخدع بها أعداءه، بينما فَعَلْتَها أنت لخداع بني قومك[81]». بعد هذا هاج الجمهور وتدافع لحماية پسستراتوس وعقدوا اجتماعاً عاماً فيه تقدّم أحدهم وهو أرسطون باقتراح يقضي بتخصيص خمسين حامل دبوّس لحراسة پسستراتوس. فعارض صولون في ذلك وتكلّم كثيراً بالمعنى الذي ضمّنه الأبيات التالية:

«لقد سحركم بكلماته المُحنقه، وعباراته الأخّاذة

إلى أن يقول:

حقّا إن كل فرد منكم ذكيّ أريب بنفسه

ولكن ما إن تجتمعوا معاً حتى تكونوا أشبه بشخص غبيّ أجوف!».

ولاحظ أن الطبقة الفقيرة تميل إلى تحبيذ الاقتراح بحماية پسستراتوس وقد هاج هائجهم، ورأى الخوف يستولي على الأغنياء وهم ينسلّون مبتعدين عن مكامن الخطر والأذى. فترك الاجتماع قائلاً إنه أعقل من بعض الناس، وأقوى من بعضهم الآخر. أعقل ممن يفهم الدوافع والغايات، وأقوى ممن فهم و خاف الوقوف في وجه الطغيان. وبعد أن أصدر الشعب قراراً يقضي بحراسة پسستراتوس، لم تتم الموافقة على عدد الحرس، إلاّ أنه لم يهتم بذلك قُلامة ظفر وجنّد العدد الذي شاء منهم واحتل بهم الأكروپوليس فضجّت المدينة وسادها الاضطراب، وهرب ميغاكليس وكل أفراد أسرته. أما صولون الهرم - المعدوم النصير فقد خرج إلى ساحة السوق الكبرى وألقى خطبة على المواطنين أنّبهم فيها على ضعف نفوسهم وعدم مبالاتهم من جهة أخرى بأن

---

(٨٠) يضيف هيرودوتس (١: ٥٩) أنه جرح أيضاً بغال عجلته. وفي خطبة حماسية لبني قومه ذكرهم بمآثره في خدمتهم ضد الميغاريين إلخ... وقد وقع هذا الحدث في أثناء الأولمبياد الثامن والخمسين = ٥٦٠ ق.م [أرسطو: دستور أثينا ١٤: ١].

(٨١) الاوديسيّ ٤: ٢٤٤-٢٦٤.

يخسروا حريتهم بهذا الشكل الذليل الخانع. ثم قال قولته المشهورة:

«في الماضي كان وقف الطغيان مهمّة سهلة. أما الآن فليس أدعى إلى التمجيد والفخار من العمل على إزالته عندما بدأ يذّر قرنه ويشتد ساعده».

لكن الجمهور كان يخشى الانحياز إلى صفّه. فآب إلى مغناه كئيباً وحمل شِكّة سلاحه ووضعها في شُرفة أمام باب داره، ومعها العبارة التالية: «لقد أنجزت مهمّتي في المحافظة على بلادي وقوانيني»[٨٢] ثم اعتزل كل شيء. ونصحه الاصدقاء بالفرار فأبى، وعكف على قرض الشعر في تأنيب الأثينيين كقوله:

«إن ركبتكم النوائب اليوم لجبن أصابكم كلّكم فلا تلقوا باللوم على الآلهة. فهي آلهة خير والخطأ خطأنا جميعاً. لقد وضعتم كلّ الحرّاس بين يديه، وعليكم الآن أن تنفّذوا ما يأمر به».

وقال له كثيرون إن «الطاغية» سينزع منه حياته لهذا السبب. وسُئل على من يعتمد في البقاء إن كان مصمّماً على الاستمرار في هذه الأقوال الجريئة؟ فأجاب: «على شيخوختي». ولكن لما تسلّم پسستراتوس مقاليد الحكم أكرم صولون كثيراً ورعاه. ولم يبطل قوانينه وإنما طبّقها حتى على نفسه وأرغم أتباعه على احترامها، وبعث يرجو ملاقاته وطلب النصح منه ووافق على كثير من اقتراحاته، حتى بعد أن انقلب طاغية مستبداً؛ ولمّا اتُّهم بجريمة قتل أمام الأريوباغوس، مثل بكلّ هدوءٍ أمامه لدفع التهمة عنه وتبرئة نفسه ولكنّ المشتكين لم يحضروا. وأضاف قوانين أخرى جديدة منها: تكفُّل الخزينة العامة بالإنفاق على مشوَّهي الحرب. وهذا ما ذكره هيراقليدس پونتيكوس قائلاً إنه اتّبع خطى صولون فيما رسمه بقضية المدعو ثيرسيپوس Thersippus الذي أصابته الحرب بعاهة. ويؤكد ثيوفراستوس أن مشترع قوانين معاقبة العاطلين الذي سبّب زيادة الغلّة في البلاد والاستقرار والهدوء إنما هو پسستراتوس لا صولون.

وتوقّف صولون عن العمل في أثره الشعري العظيم «تاريخ أو أسطورة الأطلانطيد»، التي أخذها عن حكماء سياس Sais[٨٣] ورأى من المناسب أن ينقلها للأثينيين، فبدأ بنظمها ولكنه توقف، «لا لضيق وقته، بل لكِبَر سنّه وقصور همّته عن عمل ضخم كهذا» على حَدّ قول أفلاطون. فأوقات فراغه كانت كثيرة كما يشهد عليه بيته التالي:

---

(٨٢) «وأن على الآخرين أن يعملوا كذلك». أنظر [أرسطو: دستور أثينا ١٤: ٢].

(٨٣) لا أثر لمثل هذا الكتاب ولعل نسبته إليه من نسج خيال أفلاطون.

«كل يوم أزداد سِنّاً، وأتعلّم شيئاً جديداً»

وهذا الآخر: «والآن - فإن آلهة الجمال والغناء والخمر، التي هي مصدر سعادة معظم الناس، أصبحت آلهتي أيضاً».

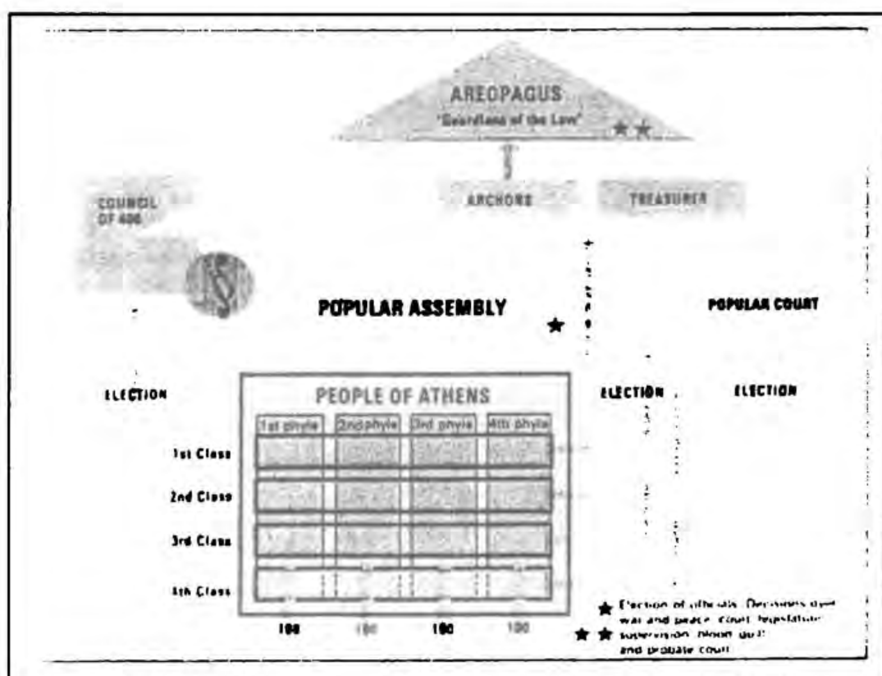
ورغب أفلاطون إدخال تحسين على قصّة جزيرة الأطلنطيس(٨٤)، كأنها ضيعةٌ جميلة بحاجة إلى وارث أقبلت تسعى إليه بسند ملكيّتها، فعمل لها باباً فخماً وسوراً مهيباً وخطّ لها باحات واسعة، واعتنى بها بشكل لم يسبق لقصّة أو أسطورة أو رواية شعرية. إلاّ أنه بدأها وهو في شيخوخةٍ، فمات عنها ولم يتمّها. والقارئ يأسف حقاً لأن القسم الناقص هو الأكبر، ولأن المتعة التي ينالها من هذا الجزء متعة فائقة. وكما تركت أثينا معبد «جوبيتر أولمپس» ناقصاً كذلك تركها أفلاطون. وهو الأثر الوحيد بين آثاره الكثيرة الذي خلّفه ناقصاً.

عاش صولون مدة طويلة بعد استيلاء پسستراتوس على الحكم كما ذكر هيراقليدس پونتيكوس. إلاّ أن فانياس الإيريسي Eresien، يقول إنه لم يكمل سنتين، لأن پسستراتوس بدأ عهد استبداده عندما كان قومياس Comias أرخوناً. ويقول فانياس إن صولون مات في عهد هيغستراتوس Hegestratus خلف قومياس. . . أما حكاية تذرية رماد جثته في أنحاء جزيرة سلاميس فهي سخيفة غريبة يصعب تصديقها(٨٥)، أو لاتعدو أن تكون مجرّد تخريف. على أن كثيراً من الكتّاب الثقات أوردوها ومنهم أرسطو.

---

(٨٤) يزعم ديوغينس ليئرتيوس أنه مات في قبرص [٥٠: ٦٢١]. وأن تذرية رماد جسده تمّ بناء على وصيته. وسواء أكان ذلك صحيحاً أو أن تضيع ذلك جاء من الكتّاب، فباعتقادنا أن الجهة التي اختلقت ذلك كانت تريد أن تشكك بوصية [ليكورغوس] حول مصير جثمانه بعد موته.

(٨٥) حفيد ميغاكليس الذي جلب على الأسرة العار وقد سمح له بالعودة من دار المنفى وتُعرف أسرته باسم ألكماينداي Alcmaenidae.



AREOPAGUS
"Guardians of the Law"
ARCHONS
TREASURER
COUNCIL OF 400
POPULAR ASSEMBLY
POPULAR COURT
ELECTION
PEOPLE OF ATHENS
ELECTION
ELECTION
1st phyle
2nd phyle
3rd phyle
4th phyle
1st Class
2nd Class
3rd Class
4th Class
100
100
100
100

دستور صولون



پوپليكولا

POPLICOLA

Publicola

٥٠٣ ق.م

هكذا كان صولون، وبه نقارن پبوپليكولا - منحه الرومان هذا اللقب بالأخير اعترافاً بفضله[1] وزيادة في تكريم اسمه القديم پوبليوس ڤاليريوس Publius Valerius[2] - وهو من نسل ڤاليريوس أحد مواطني روما الأوائل. وعُرف بأنه رئيس العاملين على إزالة الخلافات بين الرومان والسابين، وذو لسان قوي في إقناع الملوك بالإخلاد إلى السكينة وتوحيد الشعب. هذا هو نسب پوبليوس ڤاليريوس على ما قيل. نال سمعة داوية في فترة حكم الملوك لفصاحته، كما اشتهر بغناه. إلاّ أنه كان يوزّع ماله بلا حساب على المعوَزين، ويستخدم البلاغة بكفاءة ونشاط في خدمة العدالة، وغدا معروفاً أنه المرشّح الوحيد ليتسنّم المنصب الأول في البلاد فيما لو تغيّر نظام الحكم وأصبح جمهورياً. إن ارتقاء تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus العرش بالخديعة[3] والغش، وجعله المقام الملكي أداة للاعتداء والطغيان بدل أن يكون حُكماً ملكياً عادلاً، ملأ الشعب كرهاً لحكمه. وبموت لوكريسيا (التي قتلت نفسها بعد اعتدائه عليها)[4] حانت الفرصة للثورة، وشارك لوشيوس بروتوس Lucius Brutus في

(١) في نهاية قنصليته الأولى عندما هدم منزله. وكسر شوكة الفاشيّ أمام قوة الشعب وعظمته.

(٢) كان ڤاليريوس ڤوليوس - كما يقول ليڤي - أول رجل من أسرته استقرّ في روما. وهو واحد من الزعماء الأشراف الثلاثة الذين تبعوا طاطيوس إلى روما [ديوان ٢ : ١٠].

(٣) من الانتهاكات الأخرى أنه وطئ جَسَد حميّه القتيل [سرڤيوس تللوس] وهو في طريقه للجلوس على العرش [ديون ٤ : ١٠] و[ليڤي ١ :٤٨] وآخرين.

(٤) يقول ليڤي [١ :٥٨] إنها طلبت حضور أبيها وزوجها إلى منزلها فأقبل لوكريسيوس أبوها برفقه بوبليوس ڤاليريوس [أي پوپليكولا] وزوجها لوشيوس يونيوس بروتوس وعدد كبير من عظماء الرومان. وبكلمات قليلة كشفت لهم عن جلية الأمر. وصرّحت بعزم ثابت بقرار إنهاء حياتها بعد أن ثلم شرفها. وحثتهم على أن لا يتركوا الجريمة التي اقترفها مغتصبها دون عقاب. وراحت كل جهودهم لثنيها عن قصدها عبثاً وغيّبت خنجراً في صدرها، بينما شاع الحزن والأسى في نفوس الجميع. وهنا استلّ بروتوس الخنجر الدامي ورفعه (وكان حتى تلك الساعة =

الانقلاب. واتصل بڤاليريوس قبل أن يتصل بكل أحدٍ بدلاً من ملك. فوافق ڤاليريوس وقال إن المنصب من حق بروتوس لكونه مؤسّس الديموقراطية. لكن لمّا كان اسم «النظام الملكي» بغيضاً من الشعب، وبدا توزيع السلطة أكثر اتساقاً واستساغة ومواءمة للنظام الجديد، فقد انتخب اثنان ليمارساها. وكان ڤاليريوس يأمل أن يفوز بمنصب القنصل مع بروتوس(*)، فخاب فأله وانتُخب تاركوينيوس كولاتينوس Tarquinius Callatinus(٥) زوج لوكريسيا قنصلاً بدلاً منه رغم مساعي بروتوس نفسه(**). وهو رجل لا يرقى أحد مرقاه في الكفاءة، لكن النبلاء، لخشيتهم من عودة الملوك الذين لم يكفّوا عن استخدام كل مجهوداتهم في الخارج، وكل وسائل الإغراء في الداخل، استقرّ رأيهم عليه لكرهه الملوك كرهاً عميقاً واستحالة صفحه عنهم بأية حالٍ من الأحوال.

واضطربت نفس ڤاليريوس لتوهّمه أن حرصه على خدمة بلاده صار موضع شكٍ، فهو شخصياً لم يتضرر باستبداد الطغاة، ولم يلحق به أذى. ولذلك انسحب من مجلس الشيوخ، وانقطع عن مزاولة المحاماة واعتزل الحياة العامة، مما أطلق الألسنة بالحديث، وأشاع في النفوس خوفاً من أن تدفعه ضغينته إلى المعسكر الملكي فيكون بذلك دمار الدولة وهي ما زالت تتأرجح على أثر الانقلاب الأخير. وكان بروتوس يشك أيضاً في نوايا عدد من أعضاء مجلس الشيوخ غيره، فعزم على ربطهم بيمين غموس في هياكل المعابد. وأقبل ڤاليريوس إلى الفورم في اليوم المعيّن وهو في أطيب حالةٍ وأصفى مزاج، وتقدّم الشيوخ في حلف اليمين على عدم الخضوع أو الميل إلى قضية تاركوين بأي شكل من الأشكال، بل التمسّك بالحريات العامة أشدّ التمسّك.

= يتصنّع الجنون كي لا يناله أذى المستبّد) وقال: «أقسم بهذا الدم الذي هو في منتهى الطهر، والذي لا يمكن أن يبخسه إلاّ دناءة تاركوين القذرة، أقسم أني سألاحق تاركوين الغطريس وامرأته الشريرة وأولادهما بالنار وبالسيف ولن أدع واحداً من هذه الأسرة يحكم روما. فاشهدي على قسمي هذا أيتها الآلهة». بعد ذلك سلّم الخنجر لكولاتينُس ولوكريسيوس وڤاليريوس وبقية الحاضرين وربطهم بالقسم نفسه. يقول ديونيسيوس إن بروتوس راح يخطب في الناس جهاراً وعلناً، حتى أن المؤتمرين انتخبوه قنصلاً مع كولاتينُس. ولما علم تاركوين بالثورة عجّل في العودة إلى روما فوجد أبوابها موصدة في وجهه ورُفض دخوله إلى المعسكر فذهب إلى «كابي».

(*) ليڤي ١: ٥٨، ٢: ٢، ١١.

(٥) سُمّي بذلك لأنه حكم كولاّسيا وهي مدينة انتزعها من السابين تاركوين الأب. ووالده هو أيجيريوس. وهو وتاركوين المكابر ابنا عم.

(**) ليڤي ١: ٦ و ٤.

وهو ما ارتاح له الشيوخ كثيراً، وقوّى أيدي(٦) القنصلين. وما عتم عمله التالي أن أظهر مدى إخلاصه ليمينه فقد جاء وفدٌ من تاركوينيوس يحمل مطاليب لطيفة خدّاعة يقصد بها التغرير بالناس والتمويه عليهم مظهرةً الملك بمظهر النادم على أعماله واعتداءاته، وعزمه على اتباع سياسة الاعتدال في رغباته. ووجد القنصلان من الضروري إذاعة تفاصيل هذه الوفادة على الجمهور إلاّ أن ڤاليريوس عارض الرأي ولم يقبل أن توضع الطبقة الفقيرة - التي كانت تخاف الحرب أكثر مما تخاف الاستبداد لو سنحت لها فرصة الخيار بينهما - موضع حيرة وإغراء إزاء خطّة الملك الجديدة. ثم أقبلت سفارة ثانية برسالة مفادها أن الملك تاركوينيوس لا يمانع في النزول عن عرشه وإلقاء السلاح إن عُوّض هو وأصحابه وحلفاؤه عن أموالهم وأملاكهم التي تركوها(*)، ليعيشوا في منفاهم بالتعويضات. فمال فريقٌ إلى الاستجابة للطلب ولاسيّما كوللاّتينوس الذي تحمّس للاقتراح. إلاّ أن بروتوس وهو رجل صارم عنيد اندفع إلى الفورم وأعلن خيانة زميله القنصل، بقبوله دفع تعويضات للمستبدّين، وتزويد أولئك (الذين كان مجرد منحهم ما يعيشون به في المنفى شيئاً منكراً) بأموال وأرزاق تسهّل لهم إثارة الحرب. وقد نجم عن هذا اجتماع عامّ كان أول المتكلمين فيه كايوّس مينيشيوس Caius Minicius وهو من العامة، وطلب أن يعطى ما يريد. إلا أن بروتوس ذا الطبع الحاقد السريع الثورة أسرع إلى الفورم وحضّ الرومان على رفض الطلب واستخدام الأموال ضدّ المستبدين(٧)، وحذّر من إرسالها إليهم لئلا تُستخدم ضدهم.

على أن قرار الرومان في الموضوع كان ضد ذلك. قالوا إنهم الآن يتمتّعون بحريتهم التي حاربوا لأجلها فينبغي عليهم ألاّ يضحّوا بالسلّم لأجل المال، ولذلك كان من الأفضل إرسال أملاك الطغاة(٨) إليهم. إلاّ أنّ طلب التعويض كان جزءاً ثانوياً من

---

(٦) بهذا انتهى عهد في روما (٢٤٤ ق.م) وهو التاريخ الشائع. إلاّ أن هذا لا يتفق في الواقع مع منطق الأحداث فنحن لانجد في التاريخ منذ بدئه حتى هذا الزمن سبعة من الملوك (معظمهم لم يمت ميتة طبيعية) حكموا هذه المدة الطويلة من السنين بتعاقبٍ مستمر غير منقطع!

(*) ليڤي ٢: ٣، ٥.

(٧) يقول ديون إن الموضوع نوقش بهدوء وبكثير من التجردّ في مجلس الشيوخ، وعندما استعصى الحَلّ، ووصلوا الطريق المسدود «هل يفضّل الشرف أم المنفعة؟» أحالوا المسألة على الشعب. فصادق هذا بأغلبية صوت واحدٍ على تفضيل الشرف. وضرب أول مثل للشعور بالكرامة الوطنية. ويقول المؤرخ نفسه إنها لم تكن السفارة الثانية بل اقتراحاً ثانياً من السفارة الأولى وكان الغرض كسب الوقت.

(٨) المرجع نفسه ٢: ٤، ٣.

خطّة تاركوينيوس فالقصد منه كان جسّ مشاعر الأهلين والتمهيد لمؤامرة جاهد أعضاء الوفد في سبيل تنظيمها، فأخّروا عودتهم بحجة شراء بعض البضائع وبعثوا أشخاصاً آخرين إلى مرسلهم وبقوا هم، حتى تكلّلت مساعيهم بالنجاح باستمالتهم أسرتين من أعرق الأسر في روما. فآل أكويللي Aquillii كان لديهم ثلاثة شيوخ في المجلس، وآل ڤيتللي Vitellii لديهم شيخان. وهؤلاء كلهم أولاد أختي كوللاتينوس. هذا فضلاً عن أن بروتوس كان مرتبطاً برابطة المصاهرة مع آل ڤيتللي، لأن زوجته وأم أولاده هي أختهم[9]. وكان من أبنائه شابان يناهزان في السنّ أبناء آل ڤيتللي وتربطهما معهم رابطة صداقة وثيقة فضلاً عن القرابة فيكادون لا يفترقون نهاراً. وتمّ إدخال ابني بروتوس في المؤامرة، وأن يتحالفا مع بيتهم الكبير، ويعملا لتحقيق آمال التاركوينين في استعادة ملكهم، والتحرر من استبداد ابيهما وحماقته (كذا كانا يطلقان كلمة الاستبداد على صرامة أبيهما مع المجرمين)، في حين أن الحُمق كان مظهراً يتقنّع به منذ عهد بعيد ليحمي نفسه من اعتداء الطاغية (وقد ظلّت الصفة لاصقة به اسمياً على الأقل). هكذا اتصل الشابان بآل أكويلي وتم التفاهم بينهم، ولم يتحرّجا من ربط نفسيهما بقسم ديني غليظ موثّق بلطعة من دم رجل قتيل قُدّم قرباناً لهذا الغرض ولمس أحشائه. واجتمع المؤتمرون في دار آل أكويلي[10].

وكان موضع الاجتماع داراً ملائمة مظلمة غير مطروقة. وصادف أن عبداً يدعى ڤنديشيوس Vindicius[11] كان في الدار بمحض الصدفة. وشاهد ما ظهر على القادمين من انشغال وعجلة. فركبه الخوف من افتضاح أمره وأخفى نفسه وراء خزانة. وأمكنه مراقبة حركاتهم وسكناتهم وسماع أحاديثهم، فعلم بخطتهم وتتضمّن قتل القنصلين، وتابعهم وهم يكتبون الرسائل إلى تاركوينيوس بهذا المآل، ويدفعون بها إلى السفراء الذين كانوا ضيوفاً في دار آل أكويلي[12][13] وحاضرين في الاجتماع.

---

(٩) يذكر ديون وليڤي أنها أمّ ولدين فحسب. لكن المؤلف يتفق مع أولئك الذين يقولون إن العدد أكثر من هذا، وإن ماركوس بروتوس الذي شارك في قتل قيصر هو من ذريّة أحدهم. ويتفق شيشرون مع الرأي الثاني أو أنه يتظاهر بذلك ليضفي على قضية بروتوس وشخصيّته شعبية أكثر.

(١٠ و١٢) يقول ديون: شعر هذا العبد بشك فراح يراقب الجماعة. ويؤكد ليڤي (٢: ٤) أنه كان على علم بالمؤامرة فعلاً، لكنه أجّل كشفها حتى يجتمع لديه كل الدلائل الدامغة التي تقنع من يسمعها. ويقول ليڤي أيضاً إنه قصد القنصلين وأطلعهما على الأمر (٢: ٤، ٦).

(١١) بل في بيت آل ڤيتيللي على ما يزعم ليڤي (٢: ٤، ٥). وكان تاركوين قد نفّذ حكم الموت بوالد بروتوس وشقيقه بسبب ما يتمتعان به من غنى لا غير.

(١٣) قد يكون ثمّ بعض غموض وعدم دقة. لم تجر العادة في ذلك الزمان بأن ينزل السفراء في =

بعد انصراف المؤتمرين انسلّ ڤنديشيوس سِرّاً من البيت، لكن الحيرة استبدّت به ولم يدر ماذا يفعل، لأن إخبار الأب بروتوس عن أبنيه، وإخبار الخال كوللاتينوس عن أولاد الأخت، بدا له أمراً صعباً ثقيلاً وهو كذلك والحق يقال. ولم يكن ليركن أو يثق برومانيّ واحدٍ ليفضي إليه بهذه الأسرار الخطيرة، كما لم يكن قادراً على التزام الصمت واحتمال عبء هذه المعلومات الثقيلة. أخيراً أسرع إلى ڤاليريوس، مسوقاً بما اشتهر من رقة وتواضع، ولسهولة الولوج إلى بيته الذي لم تكن أبوابه تُغلق في وجه المحتاج ومظلمات الناس البسطاء، وكانت امرأة ڤاليريوس وشقيقة ماركوس حاضرتين لما نفض ڤنديشيوس ما في جُعبته. فطار صواب ڤاليريوس وعلته البغتة ولم يدع العبد يخرج من منزله وحبسه في غرفة ووضع امرأته حارساً على بابها كما أرسل أخاه في الوقت عين لمهاجمة قصر الملك، ووضع اليد ما أمكنه على جميع المكاتبات، وإلقاء القبض على من فيه من خدم وحشم. في حين انطلق هو وأتباعه المخلصون والأصدقاء وجمع كبير من الخدم والحاشية إلى بيت أكويلي وكانوا بمحض الصدفة خارج الدار، فاقتحموا الأبواب عنوة ووقعت أيديهم على الرسائل وهي ملقاة في جناح السفراء. وفي أثناء ذلك عاد آل أكويلي إلى منزلهم واشتبكوا مع المهاجمين عند المدخل محاولين استعادة الرسائل. فقاومهم المهاجمون وألقوا بعباءاتهم على رؤوس خصومهم. وأخيراً وبعد كفاح طويل أفلت المهاجمون بغنائمهم وأسراهم وتسللوا إلى الفورم. وحصل اشتباك مماثل في قصر الملك، حيث وضع ماركوس يده على بعض الرسائل الأخرى وهي مدسوسة داخل البضائع لأجل تهريبها إلى الخارج، كما ألقى القبض على الموجودين من خدم الملك واستاقهم إلى الفورم. وبعد أن قام القنصلان بتهدئة الوضع، جيء بالعبد ڤنديشيوس بإيعاز من ڤاليريوس وطرحت التهمة علناً. وفُضّت الرسائل، ولم يستطع الخونة إنكارها. ومعظم الناس واقفون وكأن على رؤوسهم الطير، والهمّ مرتسم على الوجوه. ونوّه بعضهم بفرض عقوبة النفي، عطفاً منهم على بروتوس. وكانت دموع كوللاتينوس وصمت بروتوس قد أشاعا بعض الأمل في الرحمة. إلاّ أن بروتوس نادى ابنيه كلاً باسمه وقال لهما: «ألا تستطيع أنت يا تيطس، وأنت يا طيباريوس أن

= البيوت الخصوصية. فقد كان ثم منزل حكومي مخصص لهم. ويبدو من العبارات التالية في النص أن بعض رسائلهم وعدداً من خدمهم قد احتجزوا في قصر الملك السابق. والعبارة الواردة باللغة اليونانية قد تشير إلى أنهم دعوا من المنزل المخصص لهم لقضاء بضعة أيام مع زعيم المتآمرين.

تدليا بدفاع عن تهمتكما؟» وكرر عليهما السؤال ثلاثاً فلم يلق جواباً خلا الصمت. فأشاح بوجهه ملتفتاً إلى ضباط الحرس وقال: «لم يبق إلاّ أن تؤدّوا واجبكم» فأسرعوا وقبضوا على الشابين ونزعوا عنهما الثياب وأوثقا كتافهما وراء ظهريهما. وشرعوا يجلدونهما بالعصيّ، وكان منظراً يفطر القلب. وقيل إن بروتوس لم يُدِر رأسه ولم يسمح بأي نظرة عطفٍ تلين ملامحه الجامدة الصارمة وترقق منها. وإنما كان ينظر اليهما بصرامة وهما يقاسيان مُرّ العذاب، إلى أن طرحوهما أرضاً وقطعوا رأسيهما بالفأس، ثم غادر محل الاجتماع تاركاً النطق بباقي الحكم إلى زميله(١٤). وكان عمله هذا يستحقّ أرفع الثناء وأشدّ التنديد في آن واحدٍ. إن سموّ فضائله رفعه فوق مشاعر الحزن، وإن عِظم الخيالة سلبه كل شعور بالحزن. وكلا الأمرين ليسا من الطبائع الإنسانية الاعتيادية في شيء. فهو إمّا شعور إله، وإما شعور همجي. على أن الأدعى بنا إلى المعقول أن يكون حكمنا عليه خاضعاً لسمعته لا أن تنال سمعته انتقاصاً من ضعف حكمنا عليه. وفي رأي الرومان أن عمل بروتوس هذا، في تثبيت دعائم الحكم الجمهوري، كان أعظم من عمل رومولوس ببنائه مدينة رومه. وبعد مغادرة بروتوس الفورم استولى على المشاهدين مزيج من الدهشة والرعب وران صمت عام، وإن أشاع التساهل والرخاوة التي عرف بها كوللاتينوس - بفضل الثقة في آل أكويلي وشجّعتهم على طلب مهلة للإجابة عن التهمة، وطلب تسليم عبدهم ڤنديشيوس وعدم بقائه في حماية متّهميهم، وبدا القنصل ميّالاً إلى تحقيق ذلك، وهمّ بفضّ الجمعية. لكن ڤاليريوس لم يقبل بتسليم العبد (وكانت جماعته تحيط به)، ولا بارفضاض الاجتماع قبل إنزال العقاب بالخونة. أخيراً تمكن من تحكيم قبضته على آل أكويلي واستدعى بروتوس لمعاونته، وهاجم فكرة كولاّتينوس الخرقاء في فرضه على زميله ضرورة انتزاع حياة ولديه بيديه بينما مال هو إلى أن يمنّ بحياة الخونة وأعداء الشعب على بعض النسوة من قريباته. فاستاء كولاّتينوس مما سمعه وأمر أن ينتزع ڤنديشيوس، وهمّ

(١٤) قارن النص بما جاء في ليفي ٢:٥، ٥-٩ فهو يدلي بحكاية مختلفة حول سلوك بروتوس وهي بالنص اللاتيني Quam inter Omme Tempus pater, Valtusqne etos eyus Spectacala esset, emimento animo Patrio inter Publicae Poenae Minstrium.
وتعريبه: خلال هذا الموقف المأساوي كانت كلّ الأنظار عالقةً بوجه الأب، حيث كانت آلام الأب واضحةً للعيان.» قارن أيضاً (ديون ٥:٢) الذي يتفق مع پلوتارخ. أي أن بروتوس لم يكن يظهر أي حزن أو ألمٍ ساعة التنفيذ مهما كان شعوره الباطن الحقيقي.

«اللكتور» بإطاعة الأمر وشقّوا الجمع الحاشد إليه وقبضوا عليه وراحوا يضربون كل من يحاول استنقاذه. فوقف أصدقاء ڤاليريوس على رأس المقاومة. وطالب الشعب بإحضار بروتوس فجاء. وبعد أن ساد الصمت والسكون قال لهم إنه استعمل حقه في إصدار الحكم على ولديه وترك الباقي للاقتراع العام لكلّ المواطنين الأحرار. و«ليتكلم كل شخص ما يريد، وليقنع من يستطيع إقناعه». ولم يتطلب الأمر إلقاء خطب ومزيد من النقاش، فما إن طرحت قضية المتهمين في التصويت حتى أدينوا بالإجماع وقُطعت رؤوسهم.

كانت قرابة كوللاتينوس للملك المخلوع قد وضعته موضع شكّ. واسم أسرته جعله مكروهاً ممن كان يتعوّذ عند سماع كلمة «تاركوين» فحسب. فلما حصل ما حصل وأدرك أنه مصدر سخط الجميع استقال من منصبه وغادر المدينة سرّاً[١٥]. وبالانتخاب الذي جرى لملء منصبه الشاغر فاز ڤاليريوس بأغلبية ساحقة مع التكريم. وأصبح قنصلاً جزاء إخلاصه وحرصه. ووجد أن ڤندشيوس يستحق بعض ما كوفئ هو به، فأعتقه وجعله مواطناً رومانياً ومنحه بعدها حق التصويت مع أي حزبٍ شاء الانضمام إليه. ولم ينل العبيد العتقاء حق الاقتراع إلا بعده بزمن، أي من عهد أپيوس Appius[١٦] الذي ظفر بحبّ العامّة لهذه المأثرة. ومنذ ڤنديشيوس حتى يومنا هذا وحالة العتق التام[١٧] تدعى ڤندكتا Vindicta نسبةً إلى اسمه.

بعد ذلك استبيحت أموال الملوك ونهبها العامّة، وقُوّض بناء القصر. وكان أجمل جزءٍ من «حقل مارس»[١٨] الذي يملكه تاركوينيوس قد كُرّس لخدمة ذلك الربّ. واتفق أن كان موسم الحصاد، والغلّة المحصودة ملقاة على الأرض حُزماً، ووجد من غير المناسب أن تلقى للدرس والتذرية أو تنجّس بأي استعمال كان، لذلك حملوها إلى ضفاف النهر ثم قطعوا أشجاراً وقذفوا بالجميع في الماء لأجل تكريس الأرض وهي خالية من كل شاغلٍ. وكان إلقاؤها واحدة فوق الأخرى متحاجزة فلم يحملها التيار بعيداً وحيث وقفت الدفعة الأولى منها وغاصت في القاع تكدّست الدفعات التالية ولم

---

(١٥) انظر ليڤي ٢:٢ و٣-١٠.

(١٦) أپيوس كلوديوس كايكيوس كان قد عيّن جنسوراً في العام ٣١٢ ق.م.

(١٧) هناك ثلاث حالات عتقٍ أصولية وليس بينهما ما يقضى إعطاء المعتوق حق الاقتراع. ولم يصل العبد المعتوق إلى حالة المواطنة الكاملة إلا في الجيل الثالث من نسله.

(١٨) كان الأصح قوله إنه أعاد وقف حقل كاميوس ماريتوس لأن هذا الحقل كان قد أوقف على مارس منذ عهد رومولوس. وقد استعاده تاركوين وجعله لمنفعته الخاصّة [ديون ٥:٢].

تجد مجالاً واشتبك بعضها ببعض، وأخذ مجرى الماء يعمل على رصّها رصّاً شديداً وأسفى عليها طبقات من الطمي، فثبتت وكبرت وصارت أشبه بالسمنت يلتصق به كل ما يأتي به التيار من طرح. وتعذّر على المجرى اقتلاعه بل رَصَّه وضَغطَهُ فزاد حجماً وتماسكاً بمرور الزمن وانداح حتى تكوّن سَدّ يوقف كل ما يأتي به التيار من تربة. وهو الآن جزيرة مقدسة تقع قرب المدينة، تزدان بمعابد الأرباب والمتنزّهات، وتُسمّى باللاتينية «إنتر دوّوس پونطس Inter Duas Pontes»[١٩]. على أن بعضهم يقول إن الأمر لم يقع أثناء تكريس حقل تاركينوس وإنما بعد زمن، لمّا أوقفت تاركوينيا كاهنة فِستا الحقل المجاور له على النفع العام فكُرّمت ومُنحت امتيازاً على سائر النساء وهو أن تكون شهادتها معتبرة، وأن يكون لها حق الزواج فأبت استعمال الحق الأخير. وعلى هذه الصورة يروي بعضهم الحكاية.

لما يئس تاركوين من العودة إلى عرشه بطريق التآمر، التفت نحو التوسكانيين فوجد فيهم استعداداً وترحيباً[٢٠]، وشرعوا يعدّون له جيشاً جرّاراً. فنهض القنصلان لمقاومتهم على رأس الرومان. وجعلا موضع اللقاء في موقعين مقدسين مخصوصين أحدهما يدعى البستان الآرسي Arsian والثاني هو المرج الأيسوفي Aesuvian، ولما بدأت المعركة برز أرنوس Arnus ابن تاركوين لبروتوس القنصل الروماني، فاشتبكا يدفعهما الكره والغيظ لا اشتباك الصدفة، أحدهما يريد أن يطفئ غلّه وحقده على الاستبداد والآخر يريد أن يثأر لنفسه، فهمزا جواديهما واصطدما بعنفٍ فاق المعقول والروية فسقطا قتيلين أحدهما بيد الآخر. واصطدم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بعد الجهد الجهيد بخاتمة طيّبة. فبعد أن ألحق الطرفان أحدهما بالآخر خسائر متساوية

---

(١٩) الجسر الفابريشي Ponte dei quatro capi بسبب التمثال المرمري ذي الرؤوس الأربعة، الذي قيل أنه يمثل الرّب يانوس وكان يربطه بالمدينة من ناحية الكابتول. وجسر جستيا سانت بارثولونا Ponte Cestia st. Bartolonea من جهة باب يانيكولين Janiculine (ويسمّى الآن جزيرة القديس بارثوليميو) نسبة إلى اسم الكنيسة التي بنيت عليه تكريماً لهذا القديس. وقد تكون الحكاية أقرب إلى التصديق لو اعتبرنا أن سرعة النهر كانت على أقلها في ذلك الموسم الصيفي القائظ بحيث إن االأشجار التي تقطع من «حقل مارس» المذكور ما كان بالإمكان أن تدفعها قوة التيار، وترتّب على الرومان التعاون على جرّها ونصبها في مواضعها لتقوم هياكلهم وشرفات منازلهم على أسس وأساطين أكثر ثباتاً. إن طول الحقل يعادل ربع ميل تقريباً وهو مدبب النهاية أشبه شيء بهيكل سفينة.

(٢٠) ليفي [٢:٦، ٤] كان الترحيب من قبل أهالي فيي وتاركويني فحسب.

فرّقت ما بينهما عاصفة[٢١]، وانتهب القلق ڤاليريوس لجهله نتيجة معركة اليوم ولرؤيته حزن رجاله لمشهد قتلاهم وفرحهم لخسائر العدو. وكان واضحاً للعيان أن عدد القتلى متساوٍ في الجانبين. وكل جيش أكثر إحساساً بهزيمة خصمه من إحساسه بنصره عند تقديره خسائره. وأرخى الليل سدوله (ليل كالذي يتصوّره المرء في أعقاب مثل هذه المعركة) وأخلد الجيشان للراحة. وإذا بالبستان يُزلزل زلزاله - على ما قيل - ويصدر منه صوت قائل: «إن خسائر التوسكان تزيد على خسائر الرومان بقتيل واحد فقط» وكان من المؤكد أنه بيان سماوي من إلهٍ»[٢٢]. فاستقبله الرومان بهتاف الفرح وعلامات السرور، بينما هجر التوسكان خيامهم خوفاً وذهولاً وتفرّق معظمهم أيادي سبأ. وأوقع الرومان بالباقي وكانوا يناهزون خمسة آلاف وأخذوهم أسرى واستولوا على كل ما في المعسكر. ولما أُحصِيَ القتلى وجِد أن التوسكان قد خسروا أحد عشر ألفاً وثلاثمائة قتيل أي بزيادة قتيل واحدٍ عن خسائر الرومان. هذه المعركة جرت في شهر شباط. وسار ڤاليريوس في موكب الظفر احتفاءً بها، وكان أوّل قنصل يسوق في موكب النصر مركبةً ذات أربعة جياد، وكان منظراً فخماً. واستقبله الأهلون بإعجاب خالٍ من الحسد أو الغيرة على ما قيل، ولم تكن المواكب التالية بمثل هذه الحماسة والروحيّة قطّ. فلقد أكبر الشعب في ڤاليريوس التكريم الذي أضفاه على ذكرى زميله الصريع، بإضافته إلى مراسم التشييع خطبة التأبين، وكان وقعها عند الرومان جميلاً للغاية ووجدوها عملاً سديداً وممدوحاً، حتى غدت عادة في عظماء الرجال أن يلقوا خطب تأبين عامة في جنائز المشاهير من المواطنين، مع تعداد مآثرهم[٢٣]. وقد ثبت أن قِدم هذه العادة عند الرومان يزيد عن قدمها لدى الإغريق. إلاّ إذا اعتبرنا صولون أوّل منشئ لها - بقيام الخطيب أناكسمينيس Anaximenes في عهده.

(٢١) ليڤي (١١ : ١، ٧) يقول إن التوسكان ولّوا مذعورين بعد المعركة.

(٢٢) يذكر ليڤي بصدد روايته الحادث عينه (٢ : ٢، ٧) أنه الربّ سلفانوس. ويزعم ديون أنه ڤاونوس. وقال بعضهم إنه صوت پان أحد مساعدي باخوس الذي كان أول من استخدم هذه الخطة لإرعاب جيوش الأعداء.

(٢٣) لم تكن خطب التأبين معروفة عند الإغريق حتى معركة ماراثون كما يؤكد لنا ديودورس [١١ : ٣٣] الذي كان عمره ١٦ سنة عند وفاة بروتوس. فالقانون الذي استنّ بخصوص رثاء وتعداد مآثر عظماء القوم هو ذو تاريخ متأخر. ويسبق پلوتارخ الأحداث كثيراً عندما يحدد للقانون عصر صولون. وحتى عند السماح به لم يكن يحظى به إلاّ أولئك الذي استشهدوا دفاعاً عن بلادهم في حين وسّع الرومان من شموله ليدخل في حكمه كلّ من يقدّم لبلاده خدمة في أي مجالٍ [ديون ٥ : ٣].

إلاّ أن جانباً من تصرّفات ڤاليريوس آلم الجمهور وأثار سخطه. فبروتوس الذي يعتبرونه أباً لحريّتهم لم يقبل الحكم إلاّ مع شريك في السلطة. فضمّ إليه واحداً ثم آخر أثناء حكمه. في حين أن ڤاليريوس بتركيزه السلطان كله في يده لم يكن يعتبر بأية حالٍ خليفة بروتوس في منصب القنصل، بل خليفة تاركوين في الاستبداد. صحيح أنه ألقى خطبة في تأبين بروتوس لكنه كان يشاهد و«العصيّ والفؤوس» تحفّ به من كل جانب وهو يهبط من منزله الفخم ولم يكن بيت الملك الذي هدمه بأفخم منه. إن تصرّفات كهذه جعلته يبدو أقرب شبهاً بالملك المخلوع حقاً. إن منزله المبني على الڤيليا Velia كان مهيباً بعض الشيء. فهو يعلو الفورم ويشرف على كل ما يجري منه والمرتقى إليه صعب. وكان موكبه وهو يهبط أشبه بالموكب الملكي المهيب. لكنه أثبت كم هو حسن لرجال السلطة المسؤولين أن تكون لهم آذان تسمح بدخول الحقيقة قبل دخول المداهنة والملق إليها. فلمّا أبلغه أصحابه بأقاويل الناس وغيظهم من سلوكه لم يستأ ولم يجادل في الأمر. ولم ينتظر لينبلج الصبح على منزله، بل أرسل يستقدم فعلةً وهدّادين قوّضوه وسوّوه بالقاع. وفي الصباح الباكر تجمّع الناس يتطلعون بدهشة واحترام إلى عمله الجليل، مبدين أسفهم لهذا المنزل الجميل الذي أصبح أثراً بعد عين بسبب تحاملهم الظالم، كأنّ الذي انهدم ليس جماداً بل كائناً حياً. واضطر القنصل ڤاليريوس إلى البحث عن سقفٍ يظلّه عند أصحابه بعد أن فقد المأوى. فاستضافه هؤلاء حتى بنى له الشعب بيتاً على أرض خُصّصت له. وكان أقلّ فخامة من منزله الزائل. والآن يقوم في موقع هذا المسكن المعبد المعروف باسم ڤيكا پوتا Vica Pota(٢٤).

قرر ڤاليريوس أن يجعل الحكومة وشخصه مظهرين محبوبين من الشعب، بدل أن

---

(٢٤) لعل المقصود بها ربّة النصر Victorese Passesor التي يقوم معبدها عند مقدّمة الڤيليا Velia. لكنه تجنباً لحسد الأهالي أنزل مواد البناء إلى أسفل التل وبنى منزله هناك. ويلاحظ أن پلوتارخ أورد اسم ربة النصر اصلاً هكذا: أونيكي بوني ويعني باللاتينية القديمة «نصر». وبما أنه لم يفهمها حق الفهم فقد استبدلها بلفظة Vicus Publicus وهي لا تعني شيئاً هنا. على أن الاسم الذي جاء في المتن ظهر عند ليڤي [٢ : ٧] ويرجّح أنه مأخوذ من Vinceres و Potiri. وأما ما تلا ذلك من خطر على سكنى أي باتريشي بالقرب من الكاپيتول فقد عزاه پلوتارخ في محل آخر إلى هذا السبب. لكن ليڤي (٦ : ٢٠) يجعله لاحقاً للحكم على مانليوس، فبعد أن أنقذ هذا السياسي الصرح من الغاليين حام الشك في أنه يطمح إلى إعلان نفسه ملكاً فحُكم عليه بإلقائه من فوق الصحرة التاربية.

يكونا مصدر مهابة وخوفٍ. فأخرج الفؤوس من حُزمة العصيّ. وكان عند دخوله قاعة الجمعية يخفض تلك الحُزم دليل احترامه الشعب(٢٥)، واعتباره مصدر سلطته وأساس حكومته. فقلّده القناصل الذين عقبوه وحرصوا على التقليد حتى يومنا هذا. وفي رأيي أن إذلال المرء نفسه ليس وسيلة لأظهار التواضع فيه، وإنما هو مجرد طريقة لتفادي التخرّصات والنميمة بالأخذ بأسباب الاعتدال. لأن ما اطرحه من مظاهر المنصب، إضافة إلى سلطانه الحقيقي. وظلّ مرتاحاً مطمئناً إلى أنه سيبقى مطاعاً محبوباً. والدليل على ذلك أنهم منحوه لقب «پوپليكولا» أي «محبّ الشعب»، فلصق به واشتهر على بقيّة أسمائه، لذلك سنظلّ نشير إليه بهذا الاسم في بقية حديثنا عن سيرته.

وأطلق حرية الترشيح لمنصب القنصل(٢٦). وقبل أن يفسح السبيل لشريكه المقبل، واحتياطاً لمفاجآت الصدف وعدم ثقة منه بها، ولئلا يفسد الجهل والمنافسة خططه، استنّ بموجب صلاحيته فقط خير المبادئ وأهمّ الأنظمة. وبدأ بملء شواغر مجلس الشيوخ التي كانت خالية بسبب فتك تاركوين بأعضائه، أو لموتهم في الحرب الأخيرة. ويذكر المؤرّخون أنه أدخل إلى المجلس على هذا الأساس مائة وأربعة وستين شيخاً. ثم إنه سنّ عدة قوانين أعطت الشعب مزيداً من الحرية. ولاسيما ذلك القانون الذي يمنح المدانين حق استئناف أحكام القناصل إلى الجمعية العامّة. وفي قانون آخر فرض عقوبة الموت على كل من يغتصب منصباً قضائياً دون موافقة الشعب. وسنّ قانوناً ثالثاً للترفيه عن فقراء المواطنين قضى بإلغاء الضرائب عنهم(٢٧)، وتشجيع أعمالهم وحِرفهم. وهناك قانون في التمرّد والعصيان على أوامر القناصل لا يقلّ صلاحه عن القوانين الأخرى، توخّى به منفعة عامة الشعب أكثر من منفعة النبلاء، لأنه يفرض على المتمرّد أو العاصي غرامة قدرها عشرة ثيران وشاتان، وثمن الشاة عشرة أوبولات، وثمن الثور مائة(٢٨). وقد حدد السعر هكذا لأن النقود في ذلك الحين كانت

---

(٢٥) إلاّ في فترات الحروب فقد كانت لفأس توضع وسط الحزمة.

(٢٦) إن أعطى پوپليكولا هذا الحق للجميع فعلاً فمن الأكيد أنه لم يطبّق. فهو نفسه اتخذ التدابير – كما سنرى – لانتخاب قنصلين باتريشيين هما لوكريسيوس وماركوس هوراشيوس واتخاذهما زميلين له على التوالي. وكان ليوشيوس سكسيتوس أول قنصل من طبقة الپليبيين يتولّى المنصب بعد أحقاب وأحقاب من الزمن الذي يحدده پلوتارخ. ولم يدم هذا التقليد غير أحد عشر عاماً [ليفي ٧:١٨].

(٢٧) أعفي الصنّاع والأرامل، وكبار السن الذين لا أولاد لهم، من دفع الضرائب.

(٢٨) قبل هذا كانت الغرامة باهظة جداً بحيث يصاب دافعها بالدّمار التام.

نادرة قليلة الاستعمال والتداول عند الرومان، إلاّ أن ثروتهم الحيوانية كبيرة. ولذلك تجدهم يطلقون على أي مال مُقيّم كلمة «پكيوليا» Peculia وهي مأخوذة من لفظة پيكوس Pecus أي ماشية. كما أنهم صكّوا على نقودهم القديمة جداً صورة ثور أو شاة أو خنزير، وسمّوا أولادهم بأسماء «سويللي» Suillii و«بوبولجي» Bubulci و«كاپراري» Caprari و«پورجي» Porcii - من كاپرا Capra أي عنزة، وپورجي أي خنزير Porci[٢٩].

ومع كل هذا الاعتدال والليونة، فرض على جريمة خطيرة واحدة عقوبة شديدة صارمة فقد أباح لأي مواطن أن يقتل أيّ شخص متآمر قبل المحاكمة، ولا جُناح على القاتل إذا قدّم دليلاً على تآمر القتيل، إذ مع أنه يبدو أمراً بعيد الاحتمال أن يظلّ أمرٌ خطير للغاية كهذا في طيّ الكتمان، كذلك ليس ببعيد أن يبقى سِرّاً، وإن ظهرت بوادر له قبل فرض الحكم. ولتفويت الفرصة على التآمر أو تعويقها أجاز لأيّ شخص أن يُحبط المؤامرة بقتل المتآمر فوراً. وعظُمت مكانة پوپليكولا بقانون استحداث بيت المال. فقد وجد من الضروري أن يساهم المواطنون ببعض المال للنفقة على الحروب. ولم يرغب في أن تكون تلك الأموال تحت ضبطه شخصياً ولا أن يوكل بأصحابه أمر حفظها ولا أن يدعها تدخل البيوت الخاصّة، فجعل حفظها منوطاً بمعبد زُحل، ولذلك تراهم إلى يومنا هذا يودعون الأموال المجباة هناك. ومنح الشعب حقاً في انتخاب شابين بمنصب أمين خزانة كويستور Quaestor[٣٠]. وأول اثنين تقلّدا الوظيفة هما پوبليوس ڤيتوريوس Publius Veturius وماركوس مينيشيوس Marcus Minicius. وتمّ جمع مبالغ كثيرة لأن الجباية حُدّدت بمقدار مائة وثلاثين ألفاً، وأعفى

(٢٩) الأولى من لوس Lus أي الخنزير أيضاً. والثانية من Los أي الثور.

(٣٠) وظيفة المحتسب (الكويستور) هي المحافظة على أموال الخزانة العامة يحاسب عليها عند ختام مدة وظيفته وهي سنة واحدة. كما أن المحتسبين ينفقون من الأموال العامة على الخدمات العامة، ويستقبلون السفراء ويقومون برعايتهم ويهتمون بتأمين معيشتهم وتوفير السكن لهم. ولا يمكن أن يسمح لجنرال بموكب نصر إلاّ بعد أن يقدّم للمحتسب حساباً عن الأسلاب والغنائم التي استولى عليها معززاً بالقسم. في المبدأ كان يوجد في الدولة كويستوران، وباتساع الإمبراطورية زيد في العدد. ومع أن هذا المنصب كثيراً ما كان يشغله قناصل سابقون إلاّ أنه كان يعتبر أوّل خطوة يخطوها رجل الدولة نحو المناصب الرفيعة. ويظهر أن پلوتارخ يشير هنا إلى أوّل تاريخ لاستحداث هذا المنصب [انظر ليڤي ٤: ١٤] على أن تاكيتوس في الحوليات [٩: ٢٢] يعزو إنشاءه إلى عهد الملوك ويقول إن حق انتخابهم لم ينتقل إلى الشعب إلاّ بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على طرد تاركوين.

الأيتام والأرامل منها. بعد هذا كله صادق على تعيين لوكريشيوس Lucretuis والد لوكريسيا قنصلاً مزاملاً له ومنحه حق التقدم عليه، إذ نزل له عن «الحرس الفاچيّ» احتراماً لِسنّه وبهذا استمر نظام الأقدمية بسبب السنّ إلى يومنا هذا. إلاّ أن القنصل الجديد لوكريشيوس توفّي بعد أيام قليلة، فانتُخب ماركوس هوراشيوس خلفاً له وبقي قنصلاً إلى نهاية العام.

في تلك الفترة، وحين كان تاركوين في توسكانيا يتأهّب لحربٍ ثانية مع الرومان، قيل إنه وقع حادث عجيب: باشر تاركوين في فترة حكمه بتشييد بناء الكابيتول حتى شارف على إكماله، وقرر إما من تلقاء نفسه أو إطاعة لنبوءةٍ، أن ينصب فوقه تمثال مركبة الجبس إلاّ أنه أضاع ملكه[٣١]. وكان التوسكان قد باشروا في صبّ المركبة وصنعوا كوراً. ولم يظهر الجبس تلك الخواصّ السليمة المعتادة فيه وهي الانكماش والتصلّب بعد أن يُفخر ويتبخر منه الماء، بل انتفش وكبر حجمه حتى بعد التصلّب والبرودة بحيث اخترق جدران الكور ولم يكن بالإمكان إخراجه من فوّهته، كما كان نقله في غاية الصعوبة. وعَدّ السَحَرة هذه الظاهرة دليل قوة ونجاح كل من يملك التمثال. وقرر التوسكان ألاّ يسلّموه إلى الرومان رغم إلحاحهم بطلبه إذ ردّوهم قائلين: إن تاركوين أحقّ به ممن نفاه. وبعد أيام قليلة أقاموا سباق خيلٍ، وما يناسبه من حفلات وألعاب، وفيما كان سائق مركبة النصر يسوقها بهدوءٍ وعلى رأسه إكليل الغار، يريد أن يخرج بها من الحلبة إذ جفلت الخيل ثمّ جمحت اما بمشيئة إلهية، أو بحدث طرأ للخيل. فعجز السائق عن كبحها وأفلت زمامها من يده إذ أسرعت تعدو بكلّ قواها نحو روما غير عابئة بصياحه وانتهاره وقوة ساعده فاستسلم لها مضطراً ولم يحاول شيئاً معها حتى بلغت الكابيتول، وهنا انقذف السائق منها عند مدخل راتومينا Ratumena[٣٢]. أثارت هذه الحادثة عجب التوسكان وهلعهم فنزلوا عن تمثال المركبة للرومان.

كان تاركوين ابن ماراتوس قد نذر أن يبني معبد «كاپيتولين جوپتر» في أيام الحروب مع السابين. فقام على بنائه من بعده ابنهُ أو حفيده المدعو تاركوينيوس سوپيربوس[٣٣] ولكنه لم يتمكن من تكريسه لضياع الملك منه قبل تمامه. ولما كمل

---

(٣١) كان نصب عجلة فوق أسطح المعابد من الأمور المألوفة. ويطلق عليها لهم فاستيجيا Fastigia والزيادة أو التوسع في أي شيءٍ كان يعتبر نذير سوءٍ وبشير يُمن في آن واحدٍ معاً.

(٣٢) اسم الشاب راتومِناس. أنظر [پليني ٨: ٤٢].

(٣٣) ليڤي يشاركه في شكه [١: ٤٦]. لكنه يميل للقول بأنه ابنه. غير أن ديون [٤: ٢] أثبت بصورة لا يعتورها شك أن لوشيوس وأرنوس تاركونيوس هما حفيدا تاركوين الكبير.

بناؤه وتمت زخرفته[٣٤] رغب پوپليكولا في تكريسه. إلاّ أن النبلاء حسدوه على هذا الامتياز فضلاً عن حقدهم السالف عليه لما أصابه من شعبية بسنّه القوانين وإدارته دفّة الحرب، مما كان يجعله أجدر الناس بهذا الشرف. على أية حال كانوا يحملون له ضغناً، فدفعوا زميله هوراشيوس إلى طلب تكريس المعبد. وفيما كان پوپليكولا يقود إحدى الحملات العسكرية صَوّت على طلب بالموافقة هوراشيوس وأخذوه إلى الكاپيتول خلسة كأنهم عاجزون عن ذلك لو كان پوپليكولا موجوداً. ويذكر بعضهم أن القنصلين[٣٥] اقترعا فرست قيادة الجيش على پوپليكولا خلافاً لرغبته. في حين يذكر بعضهم أن القرعة رست عليه في تكريس المعبد، وما حدث أثناء مراسم التكريس.

يعزّز هذا الرأي بعض الشيء على ما يبدو الثالث عشر من أيلول الذي وافق البدر التمّ لشهر ميتاگتنيون Metagitnion تقريباً. اجتمع الناس في الكاپيتول وخيّم الصمت على الرؤوس، وبعد أن أدّى هوراشيوس المراسم الواجبة وهمّ بنطق عبارات التكريس انتهز ماركوس شقيق پوپليكولا فرصة وقفته المقصودة قرب الباب، وصاح قائلاً: «أيها القنصل إن جثة ابنك مسجّاة في المعسكر» فأحدثت تأثيراً على كل الحاضرين إلا هوراشيوس فلم تنل من أعصابه وكان جوابه على هذا: «ألقوا الموتى خارجاً حيث شئتم، أنا لستُ في حدادٍ» ثم باشر في إكمال المراسم. وظهر النبأ كاذباً لكن ماركوس اعتقد أن المفاجأة قد تصرف هوراشيوس عن مواصلة الشعائر لكن هذا أدرك الحيلة، أو أظهر ضبط نفس، ولم يفسح سبيلاً لمشاعره إن كان قد صدّقها.

وأصاب تكريس المعبد الثاني ما أصاب الأول من مصير. قلنا إن المعبد السابق بناه تاركوين وكرّسه هوراشيوس وقد احترق إبان الحروب الأهلية[٣٦]. أما المعبد الثاني

---

(٣٤) يبلغ طول هذا المعبد ٢٠٠ قدم وعرضه ١٨٥. زيّنت واجهته بثلاثة صفوف من الأعمدة. وحفّ بجوانبه الثلاثة الأخرى صفان من الأعمدة. وأقيم في البهو ثلاثة محاريب ليونو ولجونو ولمينرڤا وديون [٤: ١٣] يعرض وصفاً مفصّلاً له.

(٣٥) يؤكد ليڤي حصول القرعة (٢: ٨) ولعل پلوتارخ اعتمد عليه في النقل. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً لأن اسم الدكتاتور كان محفوراً على مدخل المعبد.

(٣٦) يشير إلى تدميره أثناء حروب ماريوس - سيللا في ٨٣ ق.م. وقد قام الأخير بإعادة بنائه مستخدماً أعمدة رخام انتزعها من معبد زفسي في أثينا. لكن لم يوفق إلى تكريسه فقد عاجلته المنيّة قبل تمامه. وذكروا أنه قال وهو يعالج سكرات الموت إن هذا هو أسوأ ما صادف من حظّ طوال حياته. وكرّسه كاتولوس في العام ٦٩ ق.م. وقد احترق مرة ثانية عندما كان ڤيتللوس يضرب حصاراً على فلافيوس سابينوس في الكاپتول في العام ٦٩ للميلاد. أي بعد ١٣٨ سنة من تشييده ولا يعلم من كانت له يد في إحراقه. (تاكيتوس التاريخ ٣: ٧١ و٧٢). =

فقد بناه سيللا Sylla ومات قبل تكريسه تاركاً هذا الشرف لكاتولوس Catulus فانهزم هذا في الفتنة [الفيتيلية]. وشرع ڤسپسيان في بناء الثالث يحالفه فيه النجاح الذي واكبه في كل الأمور الأخرى. وعاش لدى اكتمال البناء لكنه لم يكن في عداد الأحياء عندما هُدم، خلافاً لسيللا الذي مات قبل تكريس معبده. إذ ما إن قضى ڤسپسيان نحبه حتى أتت عليه النار. أما المعبد الرابع القائم الآن فقد بناه دوميتيان. ولقد قيل إن تاركوين أنفق أربعين ألف أوقية من الفضة على إقامة أسسه فحسب. أما المبالغ المنفقة على طلائه وزخرفته في أيامنا هذه فهي تزيد على ثروة أغنى أغنياء روما، وتقدر بما يزيد عن اثني عشر ألف تالنت(٣٧). وكانت أعمدته من المرمر [الپنتيلي] بطول يتّسق اتساقاً لطيفاً مع غلظها. وهي الأعمدة التي كنا قد شاهدناها في أثينا، ولم تزدد جمالاً ورواء عندما أعيد نحتها في روما، قدر ما فقدت من تناسق، إذ جُعلت مستدقة الأطراف نحيلة. وإن دهش المرء لما أُنفق على الكابتوا فما عليه إلاّ أن يلقي نظرة على إحدى مقصورات قصر دوميتيان أو إحدى قاعاته أو على حمّام من حمّاماته أو مسكن محظية من محظياته، وستكون على شفتيه قولة أپيخارموس:

«[الإشراف لا يكشف عن عقلية حرة بل هو مرضٌ عُضال والحق يقال]».

فهو يقول مشيراً إلى دوميتيان: «ليس هذا تقى منه ولا عظمة، وإنما مرض البناء ورغبة كرغبة ميداس Midas في تحويل كلّ شيء إلى ذهب أو مرمر». وفي هذا ما يكفي.

بعد المعركة التي فقد فيها تاركوين ابنه على إثر مبارزته مع بروتوس ولّى هارباً إلى كلوسيوم Clusium مستجيراً بلاراس پورسنّا Laras Porsenna أقوى ملوك إيطاليا،

= وجدد الإمبراطور ڤسپاسيان بناءه. ثم احترق مع الكاپتول في العام ٨٠ للميلاد. أخيّراً اعاد دوميتيان بناءه ونقش عليه اسمه دون أن يذكر شيئاً عن أوّل بناته [انظر سوتونيوس].

(٣٧) من أجل تقريب فهم المبلغ للاذهان. نقدّر قيمة التالنت الواحد بالسعر الحالي للدولار أعني ما يعادل ٢١٠٠ دولار أو ١٠٠٠ پاون سترليني. إن البون الشاسع ما بين ما يملكه المواطن العادي في أيام الجمهورية وأيام الملكية يستحق التأمل هنا. ففي عهد تراجان لم يكن هناك غنيّ تزيد ثروته عن ٧٠٠٠٠٠ پاون سترليني. في حين أن إيميليوس سكاوروس أثناء توليه منصب «الإيديل» أقام ملعباً مؤقتاً على حسابه كلّفه تسعمائة ألف پاون استرليني. وملك ماركوس كراسوس ضياعاً وقرى كانت تغّل له أكثر من مليوني پاون سنوياً. وترك كورنيليوس بالبوس في وصيّته ٢٥ ديناراً لكل مواطن روماني وهي تعادل خمسين شلناً بحساب القوة الشرائية المقارنة الحالية. وكان بين الكثير من الرومان من يملك ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف عبد. فلا عجب إذن إن رفع العبيد السلاح في وجه روما ونازلوا الجمهورية في حروب طويلة منهكة.

ورجل فاضل كريمٌ فأجاره وحقق سؤله وطلباته[٣٨]، وأرسل في الحال أمراً إلى روما بأن تستقبل ملكها [تاركوين]. ولما رفض الرومان ذلك أعلن الحرب عليهم محدداً الزمان والمكان اللذين قررهما للمعركة وزحف بجيش لجبٍ. وكان پوپليكولا قد انتُخب قنصلاً للمرة الثانية[٣٩] أثناء غيابه، وانتخب تيطس لركريتيوس زميلاً له. فأسرع بالعودة إلى روما. ولأجل أظهار معنوية أعلى من تحدّي پورسنّا بنى مدينة سيگليوريا Sigliuria[٤٠] وجيش پورسنا مُعسْكِر على مقربة منه، وأنفق مبالغ طائلة في تسويرها وتحكيمها، ووضع فيها سبعمائة رجلٍ من المستعمرين كأن الحرب أمرٌ تافه عنده. لكن پورسنا قام بهجوم عنيف وأرغم المدافعين على التقهقر إلى روما. وكاد جيش پورسنا يدركهم ويدخل المدينة معهم. لكن پوپليكولا أنقذ الموقف بكرّةٍ على العدو من داخل المدينة، وأرغمهم على التراجع. ثم اشتبك معهم في معركة على ضفاف التيبر وقاومهم مقاومة ضارية وكان العدو يهاجم بجموع هائلة. وأصيب پوپليكولا بجراح بالغة ونُقل خارج ساحة القتال. ولم يكن حظّ زميله لوكريتيوس بأحسن من حظه وخاب امل الرومان وتقهقروا إلى المدينة حفاظاً على أرواحهم. وأحدق بروما خطر داهم وأشرفت على السقوط بيد العدو الذي كان يندفع متقدماً فوق الجسر الخشبي. ووقف هوراشيوس كوكليس Horatius Cocles[٤١] يصدّهم بمعاونة أشجع محاربين في روما: هرمينيوس Herminius ولارتيوس Lartius. وجاءه لقب «كوكليس» لأنه فقد إحدى عينيه في الحرب. وقيل إن هذه الكُنية لصقت به لأنه أفطس الأنف مفلطحُه حتى يكاد لا يبين له أنف ما بين عينيه فيخيّل للناظر أنه ذو عين واحدة، وكان القصد أنه يُكنى چكلوپس Cyclops[٤٢] لكن الاسم صُحّف إلى «كوكلس». بقي كوكلس هذا

---

(٣٨) كثير من الشرّاح يرونه اسم تكريم يُخلع على رئيس اللوكومون الاثني عشر أو ما يدعى بـ dodecaechy etruria. على أن ديون يعتبره اسماً لشخصٍ [٤ :٤]. كان تاركوين توسكاني الأصل إلى جانب كونه يساعد ملكاً وقع في ضيق. لم يذكر ليڤي ولا ديون أنه أعلن طلباته لروما.

(٣٩) في أثناء قنصلية پوپليكولا الثالثة - وكان هوراشيوس پولشيللوس يزامله فيها - زحف پوسنّا على روما. وليڤي في هذا يتفق مع پلوتارخ.

(٤٠) لم تُبنَ سيكليوريا على سبيل التحدي ولا في ذلك الزمن كما يزعم پلوتارخ بل كان بناؤها لتصير حاجزاً ضد اللاتين والهرنيشي في قنصليته الثانية. بل لعله الموضع الذي يطلق عليه ليڤي (١ :٥٥) سيكينا.

(٤١) هو ابن رخ لهوارشيوس القنصل.

(٤٢) يقول ديون: لُقّب بذلك لأنه فقد إحدى عينيه في هذه المعركة. كان مقاتلاً رهيباً بدون شك =

صامداً يصدّ تقدّم العدو حتى تمكن رفيقاه من كسر الجسر خلفه، فألقى بنفسه في الماء بدروعه وسلاحه وسبح إلى الجانب الآخر، وهو مصاب بطعنة رمح توسكاني في فخذه. وأعجب پوپليكولا ببسالته واقترح حالاً أن يقدّم له كل رومانيّ رزق يوم كامل هديةً له. ثم منحه قدر ما يستطيع محراثه تحويط أرضٍ بخطٍ في يومٍ كاملٍ. كذلك أقام تمثالاً برونزياً تكريماً له في معبد ڤولكان على سبيل التعويض للعرَج الذي أصابه من الطعنة.

ألقى پورسنا حصاراً شديداً على المدينة. وانتشرت المجاعة بين الرومان. كذلك قام جيش توسكاني جديد بشنّ الغارات على البلاد. ولما انتُخب پوپليكولا قنصلاً للمرة الثالثة، قرر تقوية تحصينات المدينة والدفاع عنها دون اللجوء إلى تحرّكات هجومية خارج المدينة. على أنه تسلّل سرّاً[٤٣] وهاجم المغيرين التوسكان وألحق بهم هزيمةً وقتل منهم خمسة آلاف.

إن قصّة موشيوس Mucius[٤٤] تروى بأشكال مختلفة ونحن هنا لا نرى مندوحة من إيراد الشكل الشائع لها: كان هذا رجلاً يجمع في شخصه كل الخصال والسجايا الحميدة، وأبرزها الشجاعة والميل للقتال، ولذلك قرر اغتيال پورسنّا. فتزيا بالزيّ التوسكاني ونطق بلغتهم. وخرج يقصد طلبته حتى بلغ معسكر الأعداء، ودنا من مجلس الملك وكان يحفّ به النبلاء، فوقع في حيرة لأنه لم يكن يعرف الملك بالوجه، وخاف السؤال للاستيثاق لئلا يفتضح أمره. ولم تطل به الحيرة بل امتشق سيفه وطعن أوّل شخصٍ ظنّه الملك فقُبض عليه في الحال وفيما كانوا يستنطقونه جيء إلى الملك بمستوقدٍ يضطرم ناراً لأجل تقديم القرابين. فدّس موشيوس يده اليمنى[٤٥] في لهب جمراته وأخذ يحدق بپورسنا بوجه هادئ لا أثر لما يحسّ بألم فتملّك پورسنا الإعجاب به وأطلق سراحه وأعاد إليه سيفه، إذ رفعه وقذف به إليه فتلقّاه موشيوس بيده

= فهو أحد ثلاثة صمدوا إلى الأخير ثم انسحب رفيقاه قبل أن يكسر الجسر بعدهما (ليفي ٢: ١٠ يذكرها بتفصيل أكثر).

(٤٣) أذاع القنصلان خبراً قام العبيد الهاربون بنقله فوراً إلى معسكر التوسكان، مؤداه أن كل القطعان التي جيء بها من الأرياف سترسل للرعي في الحقول. وستكون تحت الحراسة. هذا الطُعم اجتذب العدو ليقع في كمين.

(٤٤) C. Mucius Cordus.

(٤٥) ليفي (٢: ١٢) يقول إن پورسينّا هدّد موشيوس بالتعذيب وبالنار ليرغمه على الاعتراف بشركائه وعندها دسّ موشيوس يده في النار ليثبت له أنه لا يقيم أي وزن لتهديده.

اليسرى مما دعا إلى تكنيته سكيڤولا Scaevola أي الأعسر. وذُكر أنه قال معقّباً: «لقد تغلّبتُ على إرهاب پورسنا، لكنّ كرمه غلبني، والاعتراف بالمنّة تضطرني إلى الكشف عما يقصر العقاب عن استخلاصه منيّ». ثم راح يؤكد للملك أن ثلاثمائة روماني مثله يحومون الآن حول معسكره يحدوهم العزم على قتله وأنهم يتحيّنون فرصتهم. وصارحه بأنه ليس آسفاً بفشله في القيام بمهمته فهذا حكم القدر، وأن رجلاً شهماً شجاعاً مثله يستحق أن يكون صديقاً للرومان لا عدوّاً. وأصدق پورسنا ظنّه وأعلن عن ميله إلى المهادنة، لا خوفاً من الرومان الثلاثمائة - حسب اعتقادي - بل تقديراً لشجاعة الرومان عموماً(٤٦).

يُجمع كلّ الكتّاب على أن اسم الرجل هو موشيوس نكيڤولا إلاّ أثندوروس Athendorus ابن ساندون Sandon(٤٧)، فقد ذكر في كتاب مهدى إلى أوكتاڤيا أخت قيصر أن اسمه پوستموس ايضاً. ولم يكن پوپليكولا يعتبر عداوة پورسنا خطراً على رومه قدر ما كان يعتبر صداقته ومحالفته لهما وفائدة. لذلك عهد إلى الملك پورسنا بمهّمة التحكيم بينه وبين تاركوين. وأثبت له ببراهين عديدة أن خصمه من أسوأ الرجال وأنه يستحق الحرمان من الملك. لكن تاركوين رفض بغطرسةٍ أيّ تحكيم، ولاسيما تحكيم پورسنا الذي نكث بعهدٍ قطعه له، فأغضب جوابه هذا پورسنا، وشكّ في عدالة قضيته، كما أنه مال إلى الأخذ بحُجج ابنه أرنوس الذي حرص على مصلحة رومه. وعُقِد صلحٌ بين الطرفين على الشروط التالية: أن ينزل الرومان عن جميع الأراضي التي اغتصبوها من التوسكان، وأن يعيدوا إليهم كل الأسرى، وأن يستعيد الرومان كلّ من لجأ منهم إلى التوسكان(٤٨). وتوثيقاً لعهد السلم هذا يقدّم الرومان رهائن تتألف من عشرة من أبناء الباتريشيين ومثله من بناتهم. وممن وقع عليه الإختيار ڤاليريا بنت پوپليكولا.

بعد هذه المواثيق توقفت كل الأعمال العدوانية. وخرجت البنات الرهينات إلى النهر للاستحمام في موضع يؤلّف فيه انحناءُ النهر خليجاً راكد المياه. ولم يجدن حراساً ولا مستطرقاً، فتشجعّن للسباحة إلى الضفة الأخرى غير مباليات بعمق الماء

(٤٦) ديون يعزو الصلح إلى هجوم پوپليكولا الناجح الذي جاء ذكره في النص فيسرده بوصفه نتيجةً لمأثرة موشيوس.

(٤٧) ساندون فيلسوف روائي من طرسوس. كان معلّماً لأغسطس ثم لـ طيبريوس قيصر.

(٤٨) طلب من الرومان إعادة سبع قرى كانوا قد انتزعوها من الڤينيتين Veientes في الحروب السابقة (ليڤي ٢: ١٣).

وقوة التيار. ويؤكد بعضهم أن كلوليا Cloelia[٤٩] عبرت على ظهر جوادٍ وحَمَلت الأُخريات على اللحاق بها. لكنهن أُنبنَ على عملهن بوصولهن سالمات ومثولهن بين يدي پوپليكولا واستنكر الأمر منهن. واشتد قلقه لئلا يفسّر العمل تفسيراً سيئاً ويبدو هو أقل حرصاً على العهد من پورسنا، وأن تفسّر هذه الجرأة الأنثوية إخلالاً من الرومان وخيانة. فما كان منه إلاّ أن ردّهن إلى پورسنا. لكن رجال تاركوين وقفوا على القضية فنصبوا كميناً قوياً على الضفة الأخرى يريدون الإيقاع بمن يرافقهن. وفيما هم مشتبكون اندفعت ڤاليريا بنت پوپليكولا مخترقةً صفوف الأعداء وأفلحت في الفرار بمساعدة اثنين من خدمها. أما الباقيات فقد طُوقّن وأحدق بهم الخطر لكن أرنوس ابن پورسنا أسرع إلى إنقاذهن عندما بلغته الأنباء. وانهزم العدو وسلم الرومان وشاهد پورسنا عودة الفتيات فسأل عمن دبّر الهروب وأشار به، ولما أبلغ بأنها كلوليا رمقها بنظرة إعجاب وسرور. وأمر أن يقاد إليه أحد خيوله فجيء بجواد مطهّم فخم السرج نفيس الحلى وأهداه لها. وهذا ما يقوم دليلاً للذين يزعمون أن كلوليا كانت الوحيدة التي عبرت النهر على ظهر جواد. أما من ينكر ذلك فيرى الهدية مجرّد اعجاب توسكاني بجرأتها. وعلى أية حال يوجد تمثال فارسة ينتصب في ڤيا ساكرا Via Sacra[٥٠] وأنت ذاهب إلى الپالاتيوم، يقول بعضهم إنه تمثال كلوليا، ويقول آخرون إنه تمثال ڤاليريا. وبهذا تصالح پورسنا مع الرومان وقدّم دليلاً آخر على سماحته بأن أمر جنوده بترك المعسكر بأسلحتهم فقط، وخيامهم ملأى بالقمح وغيره من المؤونة هديةً للرومان. ومن هنا جاءت العادة المطبقة إلى يومنا هذا، وهو أن ينادى بكلمة «پورسنّا» عندما يبدأ أي بيع علني لبضاعة، تخليداً لعطفه. وترى في مجلس الشيوخ أيضاً تمثالاً برونزياً له عتيقاً ساذج الصفة[٥١].

كان ماركوس ڤاليريوس أخو پوپليكولا وپوستيميوس توبيرتوس Postimius Tubertus قنصلين عندما أغار السابين على الرومان وتمكن ماركوس، بفضل معونة

---

(٤٩) يدلي ليڤي [٢: ١٣ و٦-١١] برواية مختلفة جداً عن حادثة كلوليا. المثل الذي ضربه موشيوس في الشجاعة أثار حماسة الفتيات وتخليداً لذكراها أقام الرومان في رأس الطريق المقدس تمثال Virgo insidens equa.

(٥٠) بعبارة لا تقبل لبساً يذكر لنا ديون أنه لم يعد لهذا التمثال أي أثر في زمانه (أيام أغسطس) فقد أتت النار عليه. على أن پليني (٣٤: ٦) يتفق مع پلوتارخ في هذا.

(٥١) كذلك أرسل إليه المجلس سفارةً مع هدية تتألف من عرش مطعّم بالعاج وصولجان وتاج من الذهب ورداء النصر. ولم يذكر هو أو ليڤي شيئاً عن التمثال البرونزي هذا.

بوپليكولا وتصريف الشؤون العامة عنه، من إحراز انتصارين كبيرين. قَتَل في أولهما ثلاثة عشر ألف سابيني دون أن يخسر رومانياً واحداً. فأهدي له بيت بُني في البالاتيوم[٥٢] على حساب الخزينة العامة اعترافاً بفضله. وفي حين كانت أبواب سائر البيوت تُفتح إلى الداخل جُعِلت أبواب بيت ماركوس تنفتح إلى الخارج، تأكيداً لاعتراف الجمهور الأبدي بجميله، لأن ذلك يشير إلى إفساحه لأي اقتراح في إقامة قرابين عامة. واليونان[٥٣] عموماً كانوا ينهجون هذا النهج في هندسة بيوتهم منذ القديم وهو ما يستدلّ عليه من تمثيلياتهم الهزلية لأن من يريد الخروج إلى الشارع يعمل ضجّة مسبقة قرب الباب تنبيهاً للمارة والمتسكعين في الشارع. انتخب بوپليكولا قنصلاً للمرة الرابعة، لمّا هدّد التحالف بين السابين واللاتين بإثارة حربٍ جديدة[٥٤]. كذلك انتشر خوفٌ غامض في المدينة بسبب تواتر حوادث إجهاض النساء، حتى لم تحصل ولادة واحدة في أجَلِها الموعود. ورجع بوپليكولا إلى كتب السبللّين Sibylline[٥٥]، ثم ضحّى لپلوتو، وجدّد إنشاء العاب معيّنة أمر بها أپوللو. فأعاد إلى المدينة الثقة بالإله. ثم استعدّ للقضاء على تهديد البشر لها، وبدت الاستعدادات العظيمة وأثر الحلف القويّ. وكان يوجد بين السابين شخص يدعى أپيوس كلوسوس Appius Clauses[٥٦]

(٥٢) نصب أمام هذا المنزل تمثال برونزي لثورٍ وهو شعار ڤاليريوس الذي كان نصره سبباً في المحافظة على الزراعة وخيرات روما (انظر پليني ٣٦: ١٥).

(٥٣) كان لپوستيميوس حصته في هذا النصر كما كان له سهمه في الأعمال الجليلة التي تمّت.

(٥٤) يعرض ليڤي (٢: ٦، ٢-٦) وصفاً جد مقتضب لهذه الحرب.

(٥٥) قصدت تاركوين امرأة مجهولة الهوية عارضةً عليه تسعة مجلّدات من النبوءات كان قد دوّنها المدعو سيبيل من كوما وطلبت ثمناً لها مبلغاً كبيراً من المال استكثره وأبى شراءها. فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقية بالثمن عينه فرفض بسخرية. فأحرقت ثلاثة أخرى وطلبت للثلاثة الباقية الثمن الذي حددته للتسعة. فاستغرب الملك من سلوكها العجيب ودفع بالكتب الثلاثة الباقية إلى العرّافين لفحصها فنصحوا بشرائها مهما غلا ثمنها، ففعل وعيّن أشخاصاً من ذوي الجاه والمكانة أطلق عليهم اسم دووميڤري Duamviri ليكونوا اوصياء عليها. فحفظوها في خزانة تحت معبد جوپتر الكاپيتولي وبقيت هناك حتى أتت نار الحروب المارسيّة على المعبد [ديون ٤: ١٤]. هؤلاء الحفظة الأوصياء الذين زيد عددهم فيما بعد إلى العشرة كانوا يعودون إلى تلك الكتب يستشيرونها بأمرٍ من مجلس الشيوخ كلما أحدق بالبلاد خطر عصيان أو حلّت بالجيوش الرومانية هزيمة، أو حصلت مخاريق يُظنّ أنها طالع نحس. كما كان هؤلاء يترأسون تقديم القرابين، والعرض المرسحي الذي تأمر به تلك الكتب تهدئة للغضب السماوي.

(٥٦) يسمّيه ديون [٥: ٧] تيطس كلوديوس Titus Claudius وليڤي يسمّيه آتا كلوسوس Atta Clausus وفيما بعد أپيوس كلوديوس Aippius Cloudius.

وهو من أعظمهم ثراء وأقواهم جسماً، ولكن أخلاقه العالية أبرز ما فيه فهو ذو منطق حسن وكلام مقنع، على أنه لم يتخلّص من الحاقدين والحسّاد وتلك حال جميع العظماء المشاهير. لقد زاد من حقدهم عليه وقوفه ضدّ هذه الحرب وظهوره بمظهر المدافع عن مصالح الرومان. وقيل إن غايته من دفاعه هذا هي السيطرة على بلاده وإدراكه التام مدى تحبيذ العامة لفكرته، ومدى خطلها عند العاملين لإثارة الحرب. وكان خائفاً من إحالته على المحاكمة، لكن لما كان أصدقاؤه قد عاهدوه على الفكرة ووعدوه بالمساعدة فقد أثار فتنة بين السابين عوّقت نشوب الحرب. وكان پوپليكولا واقفاً على دوافع هذه الفتنة، فلم يألُ جهداً في تأجيج وتوسيع رقعتها. وبعث وفداً يحمل رسالة إلى كلوسوس يمدحه فيها ويشيد بطيبته وحسن نواياه قائلاً إنه يرى أنه لا يليق بالمرء مهما بلغ الأذى الذي ناله أن يطلب من بني قومه ثأره. ولأجل سلامته يدعوه إنْ شاء إلى النزوح عن أرض أعدائه والقدوم إلى رومه وسيرحّب به الشعب الروماني ويستقبله بالإكرام اللائق بمقامه وسجاياه الرفيعة. فوزن كلوسوس المسألة وزناً دقيقاً ووجد أنها خير حلّ تُمليه الضرورة. وشاور أصحابه واتصل هؤلاء بآخرين والتأم شمل الجميع وشدّوا الرحال إلى رومه. وكانوا خمسة آلاف أسرة(٥٧) بأطفالها ونسائها من أطيب السابين خُلقاً وأهدأهم مزاجاً. وأُبلغ پوپليكولا بدنوّهم فخرج لاستقبالهم بكلّ مظاهر الحفاوة والصداقة ومنحهم فوراً حق التصويت وخصّص لكل فرد مساحة من الأرض تبلغ إيكرين على ضفاف نهر آنيو Anio، ومنح كلوسوس خمسة وعشرين إيكرا وأعطاه مقعداً في مجلس الشيوخ. وهذه بداية لسلطة سياسية استخدمها بتعقّل وحكمة دفعت به إلى أحضان الشهرة وأكسبته نفوذاً كبيراً. فكان عميداً للبيت الكلودي(٥٨) الذي لا يقلّ شرفاً عن أعرق بيوت رومه.

إن نزوح هؤلاء هدّأ من الأمور في بلاد السابين. على أن رؤساءهم وزعماءهم ما كانوا يريدونهم أن يخلدوا إلى الراحة والاستقرار. وزاد من حنقهم أن كلوسوس

---

(٥٧) هذا يعني عشرين ألف شخصٍ على الأقل، بمعدّل أربعة افراد في الأسرة الواحدة، كان نصيب كلّ فردٍ نصف إيكر.

(٥٨) في روما اسرتان شهيرتان باسم كلودي Cloudii إحداهما باتريشية والأخرى پليبيّة. الأولى أُطلق على أفرادها لقب پولكر Pulcher والثانية أطلق عليها لقب مارجللوس Marcellus. وقد خرج من الثانية ثلاثة وعشرون قنصلاً، وخمسة دكتاتورين، وسبعة تقلّدوا وظيفة جنسور، ونال اثنان من القوّاد فيها موكبي نصر وتكريمين. ومنها نبغ الإمبراطور طيبريوس ومن أتباعه تألّفت العشيرة الكلودية (أنظر ليڤي وديون).

اجهض محاولة الانتقام الذي دبّروه بفراره وانحيازه إلى الرومان بعد أن استمر في معارضته له ونجح بتعويق الحرب إلى أمدٍ. فساقوا جيشاً جرّاراً وعسكروا على مشارف فيدينيا ونصبوا كميناً بألفين من الرجال قرب رومه، ووزّعوا قواته في عدد من الوديان والغابات، وزوّدوها بأمر يقضي عليها بالخروج من مكامنها فتعيث في البلاد فساداً ونهباً وان تقترب من المدينة ثم تتراجع أمام العدو لتجرّه خلفها وتوقعه في الكمائن. وما لبث پوپليكولا أن وقف على الخطّة من جماعة الفارّين فقسم قواته بمجموعات ثلاثٍ وأناط بزوج ابنته پوستيميوس بابلوس Postimius Bablus قيادة ثلاثة آلاف محارب يخرجون مساءً ويحتلّون التلال التي تشرف على مكامن الأعداء، ويراقبون حركاته. وأناط بزميله القنصل لوكريتيوس قوة تتألف من أشجع الرجال وأسرعهم لمقابلة خيّالة العدوّ. بينما تولّى بنفسه قيادة بقية الجيش الذي أوكلت إليه مهمة التعرّض للجيش السابيني. وانتشر فجأة ضباب كثيف وقام پوستيميوس في الصباح الباكر بالهجوم على مواضع الكمائن بصياح داوٍ منحدراً من التلال. وهجم لوكريتيوس على الخيّالة الحقيقية وحاصرهم پوپليكولا. وحلّت الهزيمة بالسابين من كل ناحية عسكروا بها وراح الرومان يفتكون بالمنهزمين من غير أن يلقوا مقاومة إذ كان أملهم بالنجاة هو الذي يوردهم موارد حتوفهم، لأن كل موقع كان يتوهّم الموقع الآخر سليماً صامداً فلا يُبدي قتالاً ولا يثبت محاربوه في مواضعهم فيخرج من في المعسكر إلى الكمين، ومن هم في الكمين يهرعون إلى المعسكر، فيلتقي الفارّون بالفارّين ليجد الاثنان أنهما يطلبان الحماية أحدهما من الآخر. على أن قرب مدينة فيدينيا من السابين هو الذي أنقذ البقية الباقية منهم، ولاسيما الهاربون من المعسكر. أما من لم ينجح في الوصول إلى المدينة فإما هلك أو وقع أسيراً. ومع أن الرومان يعزون نصرهم إلى أحدٍ آلهتهم فإنهم يقرّون بالفضل لقيادة قائد واحد. ويقال إن الجنود كانوا يتحدثون فيما بينهم قائلين: «إن پوپليكولا دفع بالعدوّ إليهم وهو أعمى أعرج لا يعوزه إلاّ السلاسل، ليذبحوه بحد سيوفهم». وغنم الرومان ثروة كبيرة من الأسرى والأسلاب.

بعد أن أنجز پوپليكولا نصره، وأودع مقدّرات المدنية إلى رعاية خلفائه القناصل، قضى نحبه. وانتهت بذلك حياة حافلة بكلّ ما هو شريف ونبيل(٥٩) على قدر ما تكون

---

(٥٩) يقول ليفي (٢: ١٦ و٧) «في السنة التالية انتخب أكريبا مينيموس وپوپليكولا پوستيموس. كان پوپليكولا ڤاليريوس بإجماع الكل أعظم الرومان وأنبغهم في فنون الحرب والسلم. توفي وهو في قمة مجده وبلغ من الفقر حداً أنه لم يخلّف ما يكفي لسدّ نفقات جنازته لذلك دفن على =

حياة البشر. وبدا وكأن الشعب لم يكرم الراحل في أثناء حياته الإكرام الواجب وانهم مازالوا مدينين له فقرروا أن يكون تشييعه شعبياً. وساهم كل مواطن بكوادرانس Quadrans(*) واحد للنفقات واستُصدر قرار خاص للنساء بلبس الحداد عليه سنة كاملة وهي شارة تكريم انفرد بها دون غيره. ودُفن حسب رغبة الشعب داخل أسوار المدينة(٦٠)، في جزءٍ منها يدعى ڤليا Velia، ومُنح نسله امتياز الدفن فيها. والآن لم يعد يدفن هناك أحدٌ عن أعضاء الأسرة على كل حال. إذ يُحمل جثمان الميت اليها عادة ويوضع فيها، ثم يأتي شخص ويضع مشعلاً تحت الجنازة ثم يسحبه حالاً، كدليل على امتياز الميت وعلى تنازله عنه. وبعد ذلك يرفع الجثمان ويحمل إلى المقبرة.

= نفقة الدولة. ولبست النساء الحداد عليه مثلما فعلن عند موت بروتوس... كان على پلوتارخ هنا أن ينوّه بفقرة تنويهاً واضحاً، لأن الجنازة التي تنفق عليها الدولة هي أحياناً من قبيل الشرف الذي تضفيه على الميت. ولا شك أن المبلغ الذي اكتتبه السكان كان كبيراً.

(*) عملة رومانية.

(٦٠) في الأصل كانت عادةً إلاّ أن الألواح الاثني عشر منعت الدفن داخل الأسوار. وبعد هذا صار دفن الموتى يتم على جانبي الطرق الخارجية العامة. واحتفظ بامتياز الدفن المدينة لأولئك الذين قدّموا خدمات جليلة للدولة كما هو الحال عند الإغريق. ويقول ديون إنه امتياز خُصّ به پوپليكولا. لكن پلوتارخ يذكر في موضع آخر أن فابريچيوس حظي بهذا الامتياز أيضاً كما حظي به كل من دخل في موكب نصر على ما يؤكده لنا پيرّو Pyrrho من ليپارا Lipara.



أوكتافيا

أوجُه المقارنة بين پوپليكولا وصولون

هناك شيء فريد في هذه المقارنة لا وجود له في أية سيرة من السير الأخرى، وهو أن أحدهما لا بُدّ أن يكون مقلّداً للآخر وان السابق كان خير مثال للاحق. فعند تأمّل عبارة صولون التي فاه بها أمام كروسوس بخصوص سعادة تللوس يتضح أنها أكثر انطباقاً على پوپليكولا. إذ إن سجايا تللوس وميتته المثالية أكسبته صفة أسعد الناس، ومع هذا فإن صولون لم يُشدّ به من شعره، كما لم ينل أحدٌ من صُلبه ولا رؤساء قومه امتياز نصب تذكاريّ. لكن حياة پوپليكولا كانت أبرز حياة بين الرومان، لأخلاقه وللسلطة التي حازها فيها. وقد مرّ على وفاته قرابة ستمائة عام[1] وما زالت أسر رومه العريقة مثل بوپليكولي Poplicolae ومسّالي Messalae وڤالَيري Valerie[2] تعتبره أصل عراقتها وبذرة نبالتها. ومع أن تللوس صمد في موقعه وقاتل قتال الجندي الباسل فإنه قُتل على يد أعدائه، لكن الأسعد منه حظاً هو من قتل أعداءه ورأى بلاده منتصرة تحت زعامته وبلغت به مآثره وانتصاراته المجيدة نهاية سعيدة، وهذا هو مطمع صولون. وإن الصرخة التي أطلقها في قصيدته بهجاء مينرموس Minnermus[3] حول استمرار حياة الإنسان: «ألا فليسر قلب الصداقة المخلص في ركاب نعشي فيُصعد حسرة أليمة، ويذرف دمعة رثاء» هي شاهد على سعادة پوپليكولا، فموته لم يقتصر على استدرار الدمع من عيون أصدقائه ومعارفه فحسب وإنما كان مصدر حزن وأسىً عامّ لكلّ المدينة. وبدت النسوة وكأنهن فقدن به ابناً أو أخاً أو أباً. قال صولون: «لست بمن يكره الغنى، لكني أرفض الغنى الذي يأتي بطريق غير مشروعة لأن عاقبته دينونة». على أن ثراء پوپليكولا جاءه بطريق مشروعة، لا بل أنفقه في أغراض سامية

---

(١) يبدو من هذه العبارة أن پلوتارخ كتب هذه السيّر في بداية حكم الإمبراطور تراجان.

(٢) أعني الفاليري الآخرين وهم ماكسيمي، كورڤيني، پوتيتي، ليڤيني، فلاچي.

(٣) مخترع البيت المخمّس في الشعر هو شاعر موسيقي من كولوفون اشتهر بمرثياته بصورة خاصة. ولم يصل لنا منها غير مقطوعات قليلة. وقد وصفه الشاعر هوراي فوق كاللليماخوس.

نبيلة، وصرفه على وجوه البرّ والإحسان. ولذلك يجب علينا أن نقرّ بأن پوپليكولا هو الأسعد وأن ما اعتبره صولون أكمل الصلاح وأعظمه توفّر في پوپليكولا ومارسه وتمتّع به في موته.

ويمكن القول إن لصولون يداً في مجد پوپليكولا، كذلك يصحّ القول إن لپوپليكولا يداً في مجد صولون باختياره إياه نموذجاً يُحتذى ومرشداً في سَنّ الأنظمة الديمقراطية وحَدّه من السلطة المفرطة للمنصب القنصلي. والواقع أنه نقل عدداً من قوانينه إلى رومه مثل إعطاء الجمهور الحق في انتخاب الرؤساء، ومنح الحرية للمحكومين باستئناف حكامهم أمام الجمعية العامة كما أعطى صولون هذا الحق للمحلّفين. إنه لم ينشئ مجلس شيوخ(٤) كما عمل صولون، لكنه وسّع المجلس القديم حتى ضاعفه أو كاد. ويعود استحداثه منصب أمين الخزانة إلى صولون نفسه. والحكمة في هذه البدعة انصراف رئيس الدولة الفاضل إلى الأمور الهامة، لا مباشرة الأمور الثانوية كالمسائل المالية، أما إذا كان سيّئ الخلق فقد يزيد المال في غوايته إن أنيط به المال والحكم معاً. وكُره الاستبداد عند پوپليكولا أشدّ منه عند صولون. وفي قوانين صولون لا يمكن معاقبة شخصٍ يحاول إثارة فتنة أو تدبير مؤامرة إلاّ بعد إدانته قضاءً، بينما أجاز پوپليكولا قتله قبل إجراء محاكمته. وارتفعت منزلة صولون حقاً عندما عرض عليه الحكم المطلق بحكم الظروف وقومه يلحّون عليه في قبوله. إلاّ أنه أبى ذلك. لكنّ فضل پوپليكولا لا يقلّ عن فضله، فقد تسلّم قيادة لا حدّ لسلطانها فحوّلها إلى حقوق للجمهور، ولم يستعمل كل الصلاحيات التي يمارسها القنصل بحكم منصبه. وعلينا أن نتذكر أن صولون كان أول من راعى ذلك:

«الشعب يُجلّ قدر حكّامه دوماً، عندما لا يعتدون عليه ولا يسايرونه».

إن الغاء الديون كان من معجزات صولون التي كانت وسيلته العظمى لتثبيت حريات المواطنين. إن كل قانون يمنح حقوقاً متساوية لسائر الطبقات هو قانون لا فائدة منه حين يضطر الفقراء إلى تضحية تلك الحقوق على مذبح ديونهم. ففي هذه الحالة

---

(٤) يُفهم من النصّ أن پلوتارخ يقصد الشيوخ (أو مجلس الأربعمائة) لا المجلس الأريوباغي. إن مجلس الأربعمائة هو الذي يقرر ما يجب عرضه على الشعب من أمور. وليس ثم ما يمكن اقتراحه غير ما تم عرضه على الجمعية العامة وهضمه هؤلاء. لذلك كان المجلس على قدر الإمكان وسيلةً لكبح الشهوة إلى الاستبداد عند الحكام الأعلين، والرغبة في الحرية المنطلقة من كلّ إسار عند الطبقات الدنيا فالأريوباغوس يكبح الأولين، ومجلس الشيوخ أداة استئصال الثاني.

يكونون رهن إشارة الأغنياء وطوع أمرهم سواء في المعابد العامة ومحرابها أو في دور العدل ودواوين الحكومة وعلى الخصوص في أثناء المناقشات العامة. إن أعظم نجاح لصولون أي إلغاء الديون أدّى فعلاً إلى إجحافٍ بحقوق طائفة من الدائنين إلاّ أنه كان علاجاً خطراً فعّالاً أنهى الأجحاف العام الذي أزّم الوضع في المدينة. وسُمعة صولون الشخصيّة وقيمته ترتفع كثيراً عما وصم به من سوء التغيير وانتقص من شأن مبادئ الحكم التي وضعها، فقد كانت نسيج وحدها، لم يحذُ فيها حذوَ أحدٍ وأكملها وحده دون معاونة آخرين وبمجهوده الفردي فحسب. على أن آخر حياة پوپليكولا كانت أسعد وأحلى من نهاية حياة صولون، فقد شهد هذا الأخير بأمّ عينه انهيار جمهوريته، أما پوپليكولا فقد خلّف دولته بحالة جيدة ونظام تامّ وبقيت كذلك حتى الحروب الأهلية. وترك صولون قوانينه بعد أن سنّها وحفرها على الخشب وغادر أثينا ولم يخلّف حُماة لها، في حين ظلّ پوپليكولا يجاهد في تثبيت أقدام نظام حكمه، سواء وجد في الحكم أم كان خارجه. ومع علم صولون بنوايا پسستراتوس وأطماعه لم يحرّك ساكناً لوقفه بل ظلّ مكتوفَ اليدين أمام عملية الغصب وهي ما تزال تحبو على أربع. في حين قوّض پوپليكولا صرح الملكية وسحقها وهي في عنفوانها ثابتة البنيان راسخة الجذور لطول العهد بها. فكانت ميزاته مساوية لميزات صولون، اللهمّ إلا حُسن الحظّ (فقد حالفه وحده دون صولون) وحرية ممارسة السلطان وكلاهما عاملان كفيلان بتحقيق تلك الأهداف(٥).

وفي الشؤون العسكرية نرى أن دياماخوس Diamachus البلاتي Plataea، لا يقرّ لصولون حتى بإدارة دفّة الحرب ضد الميغاريين كما أسلفنا. في حين أن پوپليكولا خرج منصوراً في معظم الحروب التي خاضها جندياً بسيطاً أو قائداً. أما في السياسة الداخلية فنجد أن صولون لم يتمكن من حمل مواطنيه على مواصلة الحرب لاستعادة سلاميس إلاّ بالخداع وانتقال الجنون. أما پوپليكولا فقد عرّض نفسه من البداية إلى أعظم الأخطار، فأشهر السلاح ضدّ تاركوين، وكشف المؤامرة وفضحها، وكان العامل الرئيس في القبض على المتآمرين والاقتصاص منهم. ولم يكتف بنفي المستبدّين من المدينة بل قضى قضاءً مبرماً على آمالهم في العودة. وكان مسلكة يتّسم بالجراءة وقوة العزيمة في الأحوال التي تستدعي التحدي والمقاومة والمعارضة، وهو أجدر بالثناء في

(٥) يقول سترابو إنه أُرسل في سفارة إلى أمير من أمراء الهند يدعى الليتروخادس Allitrochades. وإنه كتب تاريخاً للبلاد التي زارها، لا يصحّ الاعتماد عليه كثيراً.

المواضيع التي تستدعي استخدام الكلام ولغة السلام وحيث يكون التطامن والتنازل واجباً. لقد نجح في كسب صداقة پورسنا وهو عدوّ رهيب لا قبل له بمقارعته. وقد يحتجّ بعضهم بأن صولون استعاد سلاميس المفقودة في حين تنازل پوپليكولا عمّا غنمه الرومان من أراضٍ. لكنّ عامل الزمن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على الأحداث والوقائع، وسلوك السياسي الحكيم يجب قطعاً أن يتأثر بالوضع الراهن فكثيراً ما يجب التنازل عن جزءٍ لئلا يفقد الكلّ، والسماح بالقليل لضمان الكثير. وبهذه الطريقة أنقذ پوپليكولا أملاك الرومان الخاصّة، باعادة ما غصبوه وكسب مؤناً من العدو لأولئك الذين كانت أمنيتهم الكبرى الإبقاء على مدينتهم فحسب. وبإيداعه الحكم في النزاع لخصمه نال النصر، فضلاً عن نيله ما كان هو نفسه ينزل عنه بطيب خاطر ليفوز بالنصر، ألا وهو قيام پورسنا بإنهاء حالة الحرب وتركه الأرزاق لهم، متأثراً بالسجايا الرومانية التي وجدها في قنصلهم.

تميستوكلس

THEMISTOCLES

٥٢٥-٤٦٠ ق.م

أهم أحداث عهده (ق.م)

٤٨٠ انتصار على أحشويرش (أرتحششتا) في معركة سلاميس البحرية بعد عشرة أسابيع من مقتل ليونيداس في ثرموبيلي.

٤٧٩ هزيمة الفرس بقيادة ماردونيوس في پلاتيا على يد پاوسنياس.

٤٧١ نفي تميستوكلس بقرار إبعاد ووصوله إلى بلاط أحشويرش.



تميستوكلس - متحف أوستا

كانت الملابسات التي صحبت ميلاد تميستوكلس أشدّ غموضاً وخمولاً من أن تشرّفه[١]. فأبوه نيوكلس Neocles لم يكن من الأثينيين المبرزين، بل من سكنة مدينة فرياري Phrearhi[٢] ومن عشيرة ليونتس. وأما عن أمّه فلقد قيل إنها وضيعة الأصل:

«أنا لست من معشر الإغريق النبلاء. أنا أبروتونون Abrotonon المسكينة المولودة في تراقيا. فلتحبّني النساء الإغريقيات ما شاء لهنّ الهوى. فأنا أمّ تميستوكلس!»[٣]

على أن فانياس يذكر أن أم تميستوكلس ليست من تراقيا، بل من كاريا Caria وأن اسمها يوتيربه Euterpe لا أبروتونون، ويزيد نياثس Neathes على ذلك أنها من مدينة هليكارناسوس في كاريا. ولما كان الأبناء غير الشرعيين[٤]، وبضمنهم المولّدون، ومن كان أحد والديه غير أثيني، يترددون على الكينوسارغس Cynosarges[٥] (وهو نادٍ للمصارعة خارج سور المدينة مكرّس لهرقل - وهرقل هو كما لا يخفى من الأرباب المولّدين لأن أمّه من البشر)، فقد أقنع تميستوكلس عدداً من الشباب أبناء الوجهاء

(١) ينمّ النص عن وجود مقدّمة لهذه السيرة مفقودة.

(٢) هذا الحيّ من المدينة سُمّي بهذا لوقوعه على الساحل قرب بيريوس حيث توجد بئر بالقرب منها موضع يُحضر إليه كل محكوم بالنفي لجريمة قتل ارتكبها - عندما يتهم بجريمة أخرى [پاوسنياس ١ :٢٨].

(٣) أثينوس ٨ ص ٥٧٦.

(٤) في أثينا قانون يقضي بأن كل طفل من أمّ أجنبية هو ابن سِفاح وإن كان ثمرة زواج شرعي. ولذا فهو لا يرث أباه. كما كان أحياناً يُستثنى من العطاءات التي توزعها الدولة على مواطنيها [انظر سيرة پيركلس].

(٥) عن پاوسنياس [١ :١٩] في هذا الموضع كرّست مذابح لكل من هرقل وزوجه هيبا Heba وأمه ألكمينا، ورفيقه الذي يلازمه أيولاوس. وقد شرح سويداس أصل الكلمة. والغرض من الفصل الذي ذكره النص هو بلا شك للمحافظة على حسن السلوك ونقاء لغة الشاب.

بغشيان ذلك النادي معه ليدلّكوا أجسامهم بالزيت ويمارسوا الرياضة هناك. وكانت بدعةً أريبة تهدف إلى إزالة التفرقة بين النبلاء والدهماء، ومحو التمايز بين الأثينيين الخلّص والمولّدين. على أية حال فهو لا شكّ يمتّ بصلة قربى إلى البيت اللقوديمي[٦]، لأن سيموينيدس يذكر خبر بنائه هيكل فليا Phlya الذي يعود إلى تلك الأسرة وتزيينه بالتماثيل والصور وغير ذلك من الزخارف بعد أن أحرقه الفرس.

وأجمع المؤرّخون أنه كان منذ فتوّته مندفعاً متهوّراً سريع الخاطر، ذا ميل شديدٍ إلى خوارق الأعمال، وضروب النشاط مع وضاعة أصله، ولم يكن يقضي أوقات فراغه وعطله الدراسية في اللهو والتبطّل كغيره من الفتيان، بل يعكف على كتابة خطبة أو نظم القريض لنفسه، في مواضيع لا تخرج عن نقد زملائه وفي الاعتذار والترسّل. وما انفكّ أستاذه يقول له: «إنك يا ولدي لن تكون شيئاً صغيراً، بل شخصاً عظيماً، ولست أرى لك خلاصاً من هذا، أعظيم شرٍ كنت أم عظيم خير». وكان يضيق بالوصايا التي تبذل له بخصوص تحسين سلوكه وأخلاقه ولا يكترث بها، كما كان يستثقل تعلّم كلّ ما يمتّ إلى الموسيقى وسائر الفنون التثقيفية الأخرى، ويصغي بكلّ جوارحه إلى كل الدروس التي تُلقى عليه في السياسة والحكم وإدارة الشؤون العامة، وهو اهتمام يثير الاستغراب ممن كان في مثل سنّه، ولا شكّ أنه متأتّ من قابلياته الطبيعية لمثل هذه الأمور. ولما كان فيما بعد يجد نفسه في صحبة أناس جمعهم الأنس والطرب وسائر ما يُدعى باللهو الحرّ - ويوجّه إليه النقد أولئك الذين يعتبرون أنفسهم في أعلى درجات التهذيب، كان مضطراً إلى الردّ عليهم بصلافة: إنه بالتأكيد لا يستطيع أن يستخدم أيّاً من الآلات الموسيقية الوترية، لكن إذا وضِعت في يديه بلدة صغيرة خاملة الشأن فبإمكانه أن يجعلها مدينة عظيمة شهيرة. ويقول ستيسمبروتوس Stesimbrotus[٧] من جهة أخرى إن تميستوكلس كان أحد المختلفين إلى دروس أناكساغوراس وأنه درس فلسفة الطبيعة على يد ميليسوس Melissus خلافاً لما ورد في التواريخ[٨]. كان

(٦) Lycomedae من Lycus ابن بانديون. وهي أسرة أثينية قال پارسنياس عنها إن أعضاءها هم سدنة معبد كيرسه Cerse ومتولّي أمور قرابينه في هذا المعبد الذي أعاد ثيفس بناءه. تمارس فيه طقوس التكريس وما إليها من الأسرار وقد أنيطت حراسته بقبيلة چكروپيس.

(٧) من ثاسوس. شاعر غنائي وسوفسطائي مشهور في أثينا. عاش في أيام كيمون وپيركلس.

(٨) كانت ولادة أنكساغوراس في السنة الأولى من الأولمبياد السبعين (حوالي ٤٣٢-٤٦٠ ق.م) وهو في كلازوميني في أيونيا الآسيوية. من مفكري اليونان المشهورين كان عظيم النفوذ في أثينا عندما نُفي تميستوكلس. ربح تميستوكلس معركة سلاميس في السنة الأولى من الأولمبياد =

ميليسوس يقود الساميانيين Samian في حصار بيركليس، وبيريكاس أصغر سناً من تميستوكلس بكثير. وكان أناكساغوراس على صلة وثيقة ببيريكاس أيضاً، وبذلك يدعم هؤلاء قول القائلين إن تميستوكلس كان أحد المعجبين بمنيسيفيلوس Mnesiphilus الفرياري الذي لا يُعدّ من الفصحاء ولا من من الفلاسفة الطبيعيين بل مُعلّماً لما كان يدعى آنذاك بالحكمة(٩)، وهو علم يتضمّن شيئاً من الحكمة العمليّة والحنكة السياسية، نشأ وتكامل من وقت صولون(١٠) كمذهب فلسفيّ. إلاّ أن المتأخّرين الذين خلطوا به صناعة المحاماة وعلوم القضاء وحوّلوا الجانب العملي منه إلى مجرّد فنّ للحديث وصياغة للعبارات، أُطلق عليهم عموماً اسم السفسطائيين Saphist(١١). ولصق تميستوكلس بمنيسيفيلوس بعد دخول الأخير حلبة السياسة.

لم يكن تميستوكلس في مبدأ شبابه متّزناً هادئ الطبع منتظم التصرفات، فقد أطلق لنفسه العنان وأرسلها على سجيّتها دون رادع من عقل أو إعارة أذن لنُصحٍ(١٢). فكان

= الخامس والسبعين. ودافع ميليسوس عن ساموس قبالة پيركلس في السنة الرابعة من الأولمبياد الرابع والثمانين. لذلك لم يكن ممكناً أن يتتلمذ تميستوكلس على أنكساغوراس الذي كان له من العمر عسرون سنة فحسب عندما انتصر هذا القائد في معركة سلاميس. كما أنه لم يتتلمذ على ميليسيوس الساموسي الفيلسوف الطبيعي الشهير تلميذ بارمينيدس، إذ لم يعلُ قدره ويرتفع صيته إلاّ بعد مرور ٣٥ سنة عن المعركة. ويُذكر أن حصار ساموس حصل في العام ٤٤٠ ق.م.

(٩) في الواقع أن الحكماء الأولين كانوا في الوقت عينه من كبار الساسة. وهم الذين يمدّون الحكومات بالأنظمة والقوانين ويضعون المبادئ، وكان طاليس أول من تدرّج في هذا السلّم ليبرز عالماً طبيعياً.

(١٠) خلال فترة مائة عام أو مائة وعشرين تقريباً.

(١١) الصوفيست هم في الواقع بُلغاء أكثر منهم فلاسفة. برعوا في صياغة الكلام وتنميته بزخرف البيان. وهم سطحيون فكرياً كما يخبرنا ديوغينس ليثريتوس. وأول من سُمّي بهذا هو پروتاغوراس الذي عاش في حدود الأولمبياد الرابع والثمانين قبل ميلاد أفلاطون بقليل. إلاّ أن سقراط الذي كان أكثر تعمّقاً في مبادئ الأخلاق من السياسة والطبيعة والبلاغة والذي كان يهدف إلى تحسين أوضاع العالم عملياً لا نظرياً، اتخذ لنفسه لقباً أو صفة متواضعة وهو الفيلسوف Phelasophos أي محبّ الحكمة. ونبذ صفة صوفس Sophos أي الحكيم.

(١٢) يقول أيدرمينوس: في صبيحة يوم شدّ تميستوكلس أربعاً من الغانيات الأثينيات إلى عربة، وحملهن على سحب عربته هذه عبر السيرانيكوس على ملأ من الناس جميعاً في الوقت الذي كان الأثينيون يجهلون معنى الفجور والانغماس في اللهو والخمر والنساء. لكن إن كان مثل هذه الأمور مجهولاً حقاً عند أهالي أثينا فكيف تسنّى لتميستوكلس أن يجد أربع عاهرات بمثل هذه الدرجة من الاستهتار والتبذل بحيث يقبلن بعرض أنفسهن على هذا الشكل الفاضح؟

والحالة هذه عُرضةً لشتّى أنواع المزالق، والتردّي في أخطارٍ، وكان كثيراً ما يخلع العذار تماماً وينحدر بسلوكه إلى أسفل دركٍ ويتخذ شرّ السُّبل. وقد أقرّ هو نفسه بذلك إذ قال: «إن أكثر الأمهار جموحاً وشراسةً قد يغدو أجود حصان إن دُرّب التدريب الصحيح وكُسرت شكيمته». على أن الذين بنوا على هذه الوقائع قصصاً من نسيج مخيّلاتهم كقولهم أن أباه أنكر نسبته إليه وأن أمّه ماتت حزناً لسوء سُمعة ابنها، لا شكّ يفترون عليه ويكذبون. وهناك فريق يخالف مزاعمهم هذه ويقولون إن أباه صحبه لمشاهدة السفن القديمة وهي جانحة إلى الساحل المحطمة متروكة ليردعه عن ممارسة الشؤون العامة، وليوضح له كيف يكون مسلك الجماهير والدهماء إزاء قادتهم وزعمائهم، عندما لا يبقى نفع فيهم.

ومن الجليّ الثابت أن ذهنه كان مشغولاً بالأمور العامة مهتماً بها من البداية. كما تملكت روحه عاطفة جامحة للبروز والشهرة واللهفة إلى أرفع المناصب. ولذلك قبل بدون تردّد أن يكون موضع كره أكبر زعماء المدينة وأوسعهم نفوذاً وسلطاناً ولاسيما أريستيدس Aristides ابن ليسيماخوس Lysimachus الذي كان منه على طرفي نقيض دوماً. ومع هذا يبدو أن عداءهما المتبادل نشأ عن حادثة صبيانة تافهة جداً. فكلاهما كان متعلقاً بستسلاوس Stesilaus الكيوسي Ceos الجميل الصورة، كما ذكر أرسطون الفيلسوف، وعلى أثر ذلك اتخذا مواقف متعارضة، وتنافسا في ميدان السياسة. ولا يُعتقد أن تباين حياتيهما وأخلاقهما أدّى إلى زيادة التناقض وحدّة الخلاف. لأن أريستيدس ذو مزاج هادئ وخُلق نبيل، وهو في الشؤون العامة يعمل دوماً لمصلحة الدولة بأمانة وإخلاصٍ وإنكار ذات، دون أن يسعى وراء المجد والشهرة لشخصه. وكثيراً ما كان يضطر مكرهاً إلى معارضة تميستوكلس والتدخلِ للحيلولة دون ازدياد نفوذه. وذاك يثير الجماهير ويدفعهم إلى كل انواع المغامرات، مبتدعاً مشاريع جديدة على الدوام.

لقد قيل إن تميستوكلس كان يصبو إلى المجد، ويتلهّف إلى القيام بعظائم الأمور حتى بدا مشغول البال متحفظاً كثير الانفراد بنفسه عندما نشبت معركة ماراثون مع الفرس، مع أنه كان حدثاً. فإذا جرى الحديث أمامه عن مآثر القائد اليوناني المحنّك ميلتياديس آب إلى بيته وأمضى الليل مسهَّداً واجتوى المغاني التي اعتاد الاختلاف إليها لقضاء الوقت والتسلية. وإن سئل عما به ردّ على السائلين بقوله: «إن التذكارات الحربية التي غنمها ميليتاديس لا تدع له سبيلاً للنوم». وكان يعارض كل من يقول إن

معركة ماراثون(*) ستضع نهاية للحروب، ويرى أنها البداية لحروب أشدّ هولاً(١٣). ولذلك ظلّ في تأهّب واستعدادٍ دائم وأبقى المدينة مستعدة استعداداً حسناً متكهّناً بما سيحصل ببُعد نظرٍ ولمصلحة بلاد اليونان بأسرها.

تعوّد الأثينيون اقتسام مستخرجات مناجم الفضة في لورنتيوم(١٤) فكان تميستوكلس الرجل الوحيد الذي تجرّأ فاقترح على الشعب الكفّ عن توزيعها بل صرفها على بناء السفن لاستخدامها في الحرب مع الأيجنتان Aeginetans(**)، أغنى أقوام بلاد اليونان، الذين حققوا السيادة التامة على البحر بالسفن الكثيرة التي يمتلكونها. وسهُل على تميستوكلس إقناعهم بذلك مجتنباً أي ذكر للخطر الآتي من داريوس والفرس الذين تفصلهم عن اليونان مسافة شاسعة ولم يكن زحفهم مؤكداً، لذلك ما كانوا يُعتبرون حينذاك مصدر خطرٍ كبير. لكنه استخدم الكره الشديد الذي يحمله الأثينيون للأيجنيتان استخداماً بارعاً، وحملهم على التأهب. وبنى بالمال المجتمع لهم مائة سفينة(١٥) وهي التي حاربوا بها أحشويرش: Xerxes فيما بعد. وأخذ يحوّل اهتمام المدينة منذ ذلك اليوم إلى البحر بالتدريج إذ كان من رأيه أن بني قومه في البرّ ليسوا أنداداً لجيرانهم، وأن في إمكانهم دحر الفرس بسفنهم وتزعُّم المدن اليونانية. وبهذا «قلب الأثينيين من جنود محترفين إلى بحّارة وملاّحين يجوبون البحار» على حدّ قول أفلاطون(١٦). وانتُقد بأنه نزع الرمح والترس من أيدي الأثينيين وربطهم على لوح التجذيف. ويقول ستِسيمبروتوس إنه نجح في حمل المجلس على المصادقة رغم معرضة ميليتاديس. أما وأنه جرح طهارة الحكم بهذا العمل وأخلّ بتوازنه الصحيح فهو مما لا يقرّه الفلاسفة. لأن خلاص اليونان تحقق عن طريق البحر وأن هذه السفائن هي صاحبة الفضل في إعادة تعمير المدينة بعد أن دُمّرت ولم تكن حالها حال المدن الأخرى المّنكوبة. وأحشويرش نفسه شاهد على ذلك، فمع أن قوّاته البريّة لم ينلها ضررٌ بعد هزيمته في

(*) في العام ٤٩٠ ق.م.

(١٣) كان واثقاً تمام الثقة بأن داريوس سيدرك بالأخير ألاّ سبيل له إلى الإغريق إلاّ مهاجمتهم بحراً بقوة لا يستطيعون معها إبداء أية مقاومة.

(١٤) جبل يقع شرق أتيكا بالقرب من رأس سونيوم. هذه المناجم استغلت تماماً ونضبت في أيام باوسنياس.

(**) ٤٨٤-٤٨٣ ق.م.

(١٥) العام ٤٨٠ ق.م.

(١٦) القوانين ٤: ص ٧٠٦.

البحر فقد اضطر إلى النكوص على أعقابه بعد أن أيقن بألاّ قِبَل له بمقارعة اليونان. وأرى أنه لم يخلّف وراءه مارادنويوس Maradonius لأملٍ خالجه في إمكان قهرهم، بل ليحول دون مطاردتهم له.

وأثر بعضهم عن تميستوكلس حبّه المال والغنى[١٧]. ويعزو بعضهم ذلك إلى رغبة في الإكثار من جوده وسخائه، فقد كان يحبّ التقريب إلى الآلهة بكثرة. ويُنفق ويُسرف في إكرام الغرباء، ولذلك كان دوماً بحاجة إلى المال. على أن بعضهم اتهمه بالشحّ والخسّة، وقالوا إنه لا يتردّد في بيع كل ما يُهدى إليه من زادٍ ومؤن. ومرة طلب من ديفليليدس Diphilides مربّي الخيول أن يعطيه مهراً فرفض ذلك، فهدّده تميستوكلس بأنه لن يمرّ وقت طويل إلاّ وسيجعل من منزله حصاناً خشبيّاً. يقصد أنه سيعمل على إثارة نزاع وخصومة بينه وبين أقاربه. وفاق الجميع في اطّلابه المجد والشهرة. ولما كان فتى يافعاً لا يعرفه الناس دعا إلى داره أپسكليس Episcles الهرميوني الضارب الشهير الحاذق - الذي كان الاثينيون يتنافسون على دعوته - ليعزف له على العود، وغرضه من ذلك أن يجلب انتباه الناس إليه وليسألوا عن بيته ويغشوا مجلسه. وعندما حضر الألعاب الأولمبية بمتاعه الفخم ومآدبه الباذخة وخيامه وأثاثه النفيس محاولاً الظهور بها على كيمون أثار عليه غضب اليونانيين الذين كانوا يرون أن هذا البذخ والفخفخة لا يجدران بشابٍ يافع غير مشهور لاينتسُب إلى بيت عريق وليس لديه من الأسباب التي تؤهّله لهذا المظهر. وفي مسابقة تمثيل فازت التمثيلية التي أنفق عليها بالجائزة[١٨]، وكان مثل هذه المسابقات يثير وقتذاك كثيراً من الاهتمام والتنافس. ولذلك عمل تميستوكلس لوحاً ونقش عليه العبارة التالية «تميستوكلس الفرياري أشرف عليها Choregus وفرينيخوس Phrynichus[١٩] ألّفها. وأديمانتس كان أرخوناً عند

---

(١٧) هيرودوتس ٨: ١١٢، يصوّره إنساناً جشعاً لا يشبع نهمه إلى المال. ولعلّ جمعه الثروة كان يقصد منه تحقيق أطماعه بشراء الأعداد الكبيرة من الأنصار، أو ربما إرضاءً لنزعة البذخ والإسراف فيه.

(١٨) في زمانه بلغت التراجيديا اليونانية الغاية في النضج. وتعلّق بها الأثينيون تعلقاً شديداً حتى أن أهمّ ما كان يرضي الأهالي من حكامهم وعظمائهم هو ما يقدّمه هؤلاء من عرضٍ لخير التراجيديات والإعداد لإخراجها مرسحيّاً بالزينات والزخرف. كما تخصص جوائز عامة للمجيدين المبرّزين.

(١٩) كان تلميذاً لثيسپس مبتدع فن التراجيدياً. وهو أوّل من أدخل العنصر النسائي إلى التمثيليات. وأهم ما قدّمه «أكتيون، وألكستس، دانائيده.» في حدود ٤٧٦ ق.م. وكان أسخيلوس معاصراً له.

إخراجها». وكانت العامة تحبّه كثيراً، فقد اعتاد تحيّة المواطنين بأسمائهم، وإظهار نفسه بمظهر الحكم العادل في مشاكل الناس. قال مرة لسيمونيدس[٢٠] الشاعر الكيوسي الذي طلب منه أمراً غير معقول عندما كان قائداً للجيش[٢١]: «لن تكون يا سيمونيدس شاعراً مُفلِقاً إن كتبت شعرك بأوزان مضطربة. ولن أكون حاكماً صالحاً إن أصدرت قراراً غير عادلٍ إرضاءً لأحدهم». وفي مناسبة أخرى قال يسخر بسيمونيدس: «إنه رجل أقلّ تعقّلاً من أن يتكلّم ضدّ الكورنثيين سكان المدينة العظيمة. وأقلّ حصافة من أن تُرسم له صور كثيرة ووجهه بهذا القبح».

وارتقى سُلّم الشهرة درجة درجةً وكسب محبّة الناس. وما لبث أن تغلّب حزبه على حزب أريستيديس ونفاه دون محاكمة[٢٢].

ثم زحف ملك الفرس على بلاد اليونان. واجتمع الأثينيون يتشاورون فيمن سينصّب قائداً للجيش. وانسحب كثيرون من تلقاء أنفسهم وقد تهوّلوا عظم المسؤولية.

---

(٢٠) أشاد سيمونيدس بمعركتي ماراثون وسلاميس في شعره. وقد نظم عدة قصائد ومرثيات وصلنا بعضها. كان صديقاً مقرّباً ومحبوباً من پاوسنياس ملك سپارطه، وهيرو ملك صقلية. ولأفلاطون فيه رأي رفيع جداً حتى أنه خلع عليه لقب «الإلهي». أدركته الوفاة في السنة الأولى من الأولمبياد الثامن والسبعين وهو يبلغ من العمر تسعين عاماً تقريباً. ولهذا فلم يكن يتعدى الثمانين عندما وصف معركه سلاميس.

(٢١) إن عبارة «قائد جيش» الواردة في النص لا تنطبق على واقع تميستوكلس هنا. وپلوتارخ يستخدم كلمة زرادخوس أي أرخون. في حين أنه لا يمكن أن يكون كبيراً للأراخنة لأن صغر سنّه لا يؤهّله لإشغال هذا المنصب ذي المسؤولية. ويظهر من توكيديدس (١ :٩٣) وهيرودوتس [٧: ١٤٣] أنه لم يبلغ هذا المنصب الرفيع إلاّ بعد عدة سنوات.

(٢٢) ٤٨٢-٤٨٤ ق.م. لا يُعلم من استحدث عقوبة الإبعاد. يقول بعضهم إنه پسهستراتوس أو بالأحرى أبناؤه. ويقول آخرون إنها أوجِدت بعد طرد أسرة پسستراتوس. في حين يدّعي آخرون أنها قديمة تعود إلى زمن ثيسفس. وبمقتضى هذه العقوبة يتم إبعاد الرجال الذين يقوى نفوذهم - بحيث يصبح خطراً على المجتمع ويهدد سلامة النظام - إلى خارج البلاد لمدة عشرة سنوات [ديودورس المرجع السالف ١١-٥٥ يحدّد الإبعاد بخمس سنين]. ويجب على المُبعد أن يترك حدود أثينا خلال عشرة أيام. والأسلوب المتبع في إصدار هذه العقوبة هو: أن يعطى كل مواطن كسرة من الفخّار أو صدفة فيكتب عليها اسم الشخص الذي وضع إبعاده قيد الاقتراع. ثم تُجمع القطع الفخارية بعد أن تكمل ستة آلاف (عدد المصوّتين) ثم يبدأون بفرزها فمن ورد اسمه في أكبر عدد من القطع يُنفى عن البلاد لمدة عشر سنوات. وكان الإبعاد شائعاً في أرغوس وميليتوس وميغارا وغيرها. والإبعاد هو غير النفي لأن الأولى مؤقتة، ولأن المبعد يحدد له محلّ إقامة ولا تُصادر أمواله. وتُوقع العقوبة في لحظات تطغى عاطفة الحسد والغيرة والغيظ على النفوس. ولا يلحق بصاحبها عار ولا تشوّه سُمعته ولا تسقط حقوق مواطنته.

وكان ثمّ خطيب جماهيري يدعى أپيكيدس Epicydes ابن يوفيميدس Euphemides وهو رجل فصيح اللسان، خائر القلب عبد للغنى، رغب في تسلّم القيادة وبدا حظّه جيداً في نيلها، بتفوّقه في عدد الأصوات. وقيل إن تميستوكلس لخشيته أن تقع القيادة في مثل هذه اليد - ويضيع كل شيء - عمد إلى شراء منافسه بالمال ودفع له مبلغاً لقاء تنازله.

أرسل ملك الفرس وفداً مع مترجم يوناني إلى الإغريق بطلب «الماء والتربة»(٢٣) اعترافاً منهم بسلطته عليهم وخضوعهم له. فقبض تميستوكلس على المترجم ونفّذ فيه حكم الموت بموافقة الشعب، لأنه أذاع أوامر البرابرة ومراسيمهم باللغة اليونانية. فنال عمله هذا كثيراً من الثناء. ولم يسكت عن أرثميوس Arthmius الزيلي Zelea(٢٤) الذي جلب ذهباً من ملك الفرس ليشترى به ذمم الإغريق، فأسقط عنه حقوق المواطنة وألغى جنسيّته هو وأولاده ونسله من بعده. على أن أعظم ما عزّز مكانته وقوّى فيه هو وضعه حداً نهائياً للحروب الداخلية في اليونان ونجاحه في تسوية خلافاتهم وإقناعهم بنبذ العداوات جانباً طوال حربهم مع الفرس. وكان خليوس Chileus(٢٥) الأركاديّ عوناً له في ذلك على ما قيل.

بعد أن أخذ على نفسه قيادة القوات المحاربة الأثينية راح يُغري أهل أثينا بترك المدينة حالاً والإبحار بسفنهم ومفاجأة الفرس بالحرب وهم بعدُ على مسافة بعيدة من سواحل اليونان. فعارض فكرته كثيرون. فقاد قوة كبيرة مع اللقيديمونيين ومسكوا مَمّر تمبه Tempe للمحافظة على تسالي التي أبت الرضوخ لملك الفرس. لكن لمّا عادت تلك القوات دون أن تحقق غرضاً وبات معلوماً أن التساليين، فضلاً عن جميع البلاد الممتدة حتى بويوتيا، قد دخلوا في طاعة أحشويرش، بدأ الأثينيون يدركون قيمة

(٢٣) هذا يعني طلب الخضوع والاستسلام المطلقين. إلاّ أن هيرودوتس [٧: ٣٢] يؤكد أن كيخسرو لم يرسل مثل هذا الوفد لا إلى الأثينيين ولا إلى اللقيديميين. لقد عومل سفراء أبيه معاملة في منتهى الفظاظة عندما تقدّموا بهذا الطلب، إذ ألقاهم الأثينيون في الخندق حيث اعتادوا إلقاء مجرميهم المحكوم عليهم بالموت قائلين بشماتة «هنا تجدون ما يكفيكم من الماء والتربة».

(٢٤) زيلة هي بلدة في آسيا الصغرى تقع بين كبدوكيا والبحر الأسود. إلاّ أن أرغيوس عاش زمناً طويلاً في أثينا. ولم يعلن عن «رداءته» لأنه «أدخل الذهب الفارسي» وحاول إفساد ذمم عدد من كبار الأثينيين به وتم نفيه بنفير البوق. ينوّه ديموستينس به أيضاً في [الفيليبيات ٤].

(٢٥) وهو الذي مارس نفوذه عند اللقيديميين وأقنعهم بوجوب إرسال مساعدة للأثينيين ضد ماردونيوس فاستجابوا له.

نصيحة تميستوكلس وزادت أهميّة مدينتهم. ولذلك أقرّوا الحرب البحرية وبعثوا به على رأس الأسطول لحماية مضايق أرتميسيوم Artemissium(٢٦).

والتقت أساطيل الحلف هنا. ورغب كل الإغريق أن تكون القيادة العليا للقيديمونيين وأن يكون زعيمهم يوريبياديس Eurybiades قائداً عاماً لجميع القوات البحرية. إلاّ أن الأثينيين الذين كان عدد سفنهم يزيد على سفن كل حلفائهم(٢٧) أبوا أن يكونوا ثاني أيّ أوّلٍ. حتى قام تميستوكلس مدفوعاً بادراكه أخطار هذا الخلاف وتنازل عن القيادة إلى يوريبياديس وحمل الأثينيين على القبول. وحفف وقع الأمر عليهم بقوله لهم: إن سلكوا في هذه الحرب مسلك الرجال فسيتحمل هو وحده كل المسؤولية الناجحة عن هذا التعيين. وسيجدون أيضاً أن الإغريق لن يترددوا في الخضوع لقيادتهم طوعاً. واتضح أن تنازله هذا كان عاملاً أساسياً في خلاص بلاد الإغريق. وذيوع صيت الأثينيين في تفوّقهم على أعدائهم بالشجاعة وعلى حلفائهم بالحكمة وبُعد النظر.

وما إن وصلت العمارة البحرية الفارسية العظمى آفيتي Aphetae(٢٨)، حتى أصيب يوريبياديس بذهول للعدد الهائل من السفن الممتد أمامه. ولما أُبلغ بأن مائتي سفينة أخرى تدلف خلف جزيرة سياثوس Sciathus، قرر أن ينسحب في الحال إلى الشواطئ اليونانية، ومنها يبحر عائداً إلى عدة مواقع في البيلوبونيس لينضمّ أسطوله إلى الجيش البرّي المعسكر هناك، فقد كان رأيه أنه يستحيل التغلّب في البحر على القوات الفارسية المجتمعة. وخشي الأيوبويّون Euboeans أن يخذلهم الإغريق ويتركوهم تحت رحمة العدوّ فأرسلوا پلاغون Pelagon للمداولة سراً مع تميستوكلس ومعه مبلغ كبير من المال، فقبله تميستوكلس منه وقدّمه هديّة إلى يوربيبادس(٢٩) على حَدّ قول

---

(٢٦) في الوقت ذاته فكّر الإغريق في الدفاع عن شعب ثرموپيلي براً ووجّهوا أسطولاً لمنع مرور الأسطول البارثي من مضايق إيڤيا فاجتمع الأسطول في أرتمسيوم وهي أحد مرافئ الجزيرة (هذه الواقعة يوردها هيرودوتس بتفصيل [٧: ١٧٣]).

(٢٧) ينبئنا هيرودوتس بأن الأثينيين ساهموا بـ١٢٧ سفينة عُززت فيما بعد بـ٥٣ سفينة أخرى في حين كان مجموع ما ساهم به سائر الإغريق لا يتعدّى ٩١ سفينة منها ٢٠ سفينة أثينية أصلاً كانت معارة للخلقيدونين [٨: ١].

(٢٨) هذه البلدة تقع في خليج مغنيزيا وسُمّيت كذلك لأن الأرغتوط على قول سترابو [٩٠] انطلقوا منها في سبيل بحثهم عن الجزّة الصوف أو استناداً إلى قول هيرودوتس [٧: ١٩٣] لأنهم أقلعوا منها تاركين هرقل.

(٢٩) يرويه هيرودوتس بالشكل التالي [٨: ٥] «لما لم يفلح الإيفيان في إقناع [افريبيادس] بالبقاء في =

هيرودوتس. ولم يعترض أحد من بني قومه[٣٠] وهو الذي لم يكن عنده من المال ما يدفع به أجور بحارته، ولذلك كان شديد الرغبة في العودة. لكن تميستوكلس أثار عليه الاثينيين فهاجموه ولم يبقوا له ما يتعشّى به، فأدركه ألم شديد وامتعض. لكن تميستوكلس سارع بإرسال مقدار من الأرزاق إليه في صندوق ووضع في أسفله تالنتاً واحداً من الفضة، ورجاه أن يتعشّى الليلة، ويدفع غداً لبحارته. وإن لم يفعل فسوف يذيع بين الأثينيين أنه قبل رشوةً من العدو. هذا ما رواه فانياس اللسبيّ.

ومع أن المعارك العديدة[٣١] التي نشبت بين الإغريق في مضايق يوبويا لم تكن معارك فاصلة يتقرر فيها مصير الحرب، فالتجربة التي استخلصها الإغريق كانت ذات فائدة جليلة. فقد ثبت لديهم عملاً، وفي مواجهة الخطر الحقيقي، أن عدد السفن أو الغنى والأُبّهة والزينة وصيحات الفخر، وأناشيد النصر البربرية ليس فيها مما يخيف الرجال الذين عجموا عود القتال وحلبوا أشطرَه. وسرعان ما أدركهم الاستخفاف بمثل هذه المظاهر وبرزوا إلى الأعداء غير هيّابين وصارعوهم وقارعوهم. وقد شهد پندار ما فعلوا في القتال عند أرتميسيوم ووصفه أدقّ وصف وأصدقه بقوله:

«. . . فهناك ثبّت أبناء أثينا، الصخرة التي استقرت عليها الحرية منذ ذلك اليوم»

إن أوّل مرحلة إلى النصر هي أن يتحلّى المحارب بالشجاعة. وكانت أرتميسيوم تقع في يوبويا فيما يلي مدينة هستيا Histiaea[٣٢] يليها ساحلٌ مفتوح نحو الشمال. وتقوم مقابلها على مسافة قصيرة أوليزون Olizon في بلاد يحكمها رسمياً فيلوكتيتس

= ساحلهم حتى يكملوا نقل زوجاتهم وأطفالهم، فإنهم توجّهوا إلى تميستوكلس ودفعوا له ثلاثين تالنتاً فرشا أفريپيادس بخمسة منه. ثم لما كان أديامنتس الكورنثي القائد الوحيد الذي أصرّ على إلقاء المراسي، فقد صعد تميستوكلس إلى سفينته وقال له باختصار: «إنك لن تتركنا يا أديامنتس، لأنك ستقبض مني لقاء قيامك بواجبك ما يزيد على ما سيعطيك ملك الميديين لقاء خيانتك له». وبرّ تميستوكلس بوعده وأرسل له ثلاثة تالنتات. وبهذا أنجز ما أراده الإيڤيان واستبقى لنفسه في الوقت عينه اثنين وعشرين تالنتاً.

(٣٠) السفينة المقدسة هي السفينة التي اعتاد الأثينيون إرسالها إلى ديلوس محمّلة بقرابين لأپوللو وهي كما يدعون عين السفينة التي حمل بها تيسيوس الجزية إلى كريت. [انظر سيرة تيسيوس].

(٣١) اشتبكوا في معارك ثلاث خلال أيام ثلاثة، في آخرها حقق كلينياس والد ألكيبيادس الأعاجيب. وكان قد بنى سفينة حربية وجهّزها بمائتي مقاتل من حُرّ ماله.

(٣٢) «هستيا» مدينة ساحلية في إيڤيا و«أوليزون» مدينة في تساليا. هنا يشير پلوتارخ إلى قيام فيلوقراطس بإرسال عدد من جنوده في حصار طروادة [هوميروس: الإلياذة ٢: ٧١٧].

Philoctetes وثمّ معبد صغير للإلهة ديانا يُعرف باسم معبد الفجر يحفّ به الشجر وتكتنفه في سائر جهاته أعمدة من الرخام الأبيض إن فركتها بيدك تلوّنت بلون الزعفران وفاحت منها رائحة شبيهة برائحته. وقد نُقش على أحدها الأبيات التالية:

حارب أبناء أثينا في هذه المياه عدداً لايدركه الحصر من

القبائل التي تدفّقت من أصقاع آسيا. وبعد أن غلبوا هؤلاء

الميديين أقاموا لأرتميس هذا النُّصب شاهداً على ما عملوا.

وثمّ موضع ما زالت العين تراه في ذلك الساحل هو تلّ من الرمال كبير، يستخرج الناس من قلبه مسحوقاً أسود أشبه بالرماد، أو شيئاً أتت عليه النار، والمقول الشائع أن حطام السفن وأجساد القتلى قد أُحرقت هنا. لكن عندما وردت الأنباء من ترموپيلي Thermopylae إلى أرتميسيوم[٣٣] تنعى لأهلها ليونيداس Leonidas الملك، وتقول إن أحشويرش] قد سيطر على كلّ المسالك البريّة، تراجعوا إلى داخلية بلاد اليونان، وكان الأثينيون قد أوكل إليهم حراسة المؤخّرة وحماية التقهقر وهو إشارة تكريم وواجب يحفّ به الخطر. وقد تاه الأثينيون واختالوا زهواً لما تمّ على أيديهم نتيجة ذلك.

وعندما كان تميستوكلس يجوب البحر على طول الساحل، أخذ ينعم النظر في الأمكنة والمواضع التي يحتمل أن تُرسى إليها سفن الأعداء. وعمد إلى كل ما وجده فيها من صخور، وما نقله إليها من قطع رخام قريبة من مواضع الإنزال المحتمل، أو على حافة الماء، فنقش نداءات ورسائل بخط كبير يناشد فيها الأيونيين أن يخلعوا نير الفرس إن كان باستطاعتهم ذلك وينضمّوا إلى جانب الإغريق فهم آباؤهم وأجدادهم وأصل نسبهم وهم اليوم يخاطرون بكلّ ما لديهم في سبيل حرياتهم. فإن تعذّر عليهم ذلك فعليهم أن يعرقلوا زحف الفرس، ويوقعوا الاضطراب في خططهم ومعاركهم على الأقل. وكان أمله أن هذه النداءات ستدفع الأيونيين إلى التمرّد والثورة، أو إثارة المتاعب للفرس عندما يساورهم الشكّ في إخلاص هؤلاء لهم.

ولم يبعث الإغريق بنجدات لمّا اجتاز أحشويرش دورس Dorus[٣٤] وغزا بلاد فيوكيس Pheocis وراح ينهب مدنهم ثم يحرقها[٣٥]. وكان الأثينيون يودّون من صميم

---

(٣٣) كان على علم بأن ثرموپيلي هو شعب جبلي ضيق يقع بالقرب من أفريپوس. في زمننا الحالي لا يُرى أثر لهذا الخانق الجبلي نظراً لتراكم الرسوبيات. مما جعل الأرض المحيطة به مستويةً.

(٣٤) مستوطنة في آسيا الصغرى. اصل أهلها من آتيكا.

(٣٥) يقصد نجدات من أخائيا والپلوپونيسوس. كان الدوريون قد انحازوا إلى صفّ احشويرش الپارثي [هيرودوتس ٨: ٤٠].

قلوبهم أن تلتحم القوات الإغريقية بالفرس في يوبوتيا قبل أن يبلغوا أتيكا، مطبّقين خطّتهم البحرية التي أصرّ عليها تميستوكلس وهي التقدم بحراً حتى أرتميسيوم، إلاّ أن الإغريق لم يستجيبوا لهم لأنهم ركزوا اهتمامهم كله بالپيلوبونيس، وتقرر تحشيد القوات كلها معاً في البرزخ، وبناء جدارٍ من البحر إلى البحر في ذلك العنق الضيّق من الأرض. واغتاظ الاثينيون وسخطوا حين وجدوا أنفسهم مخدوعين بحلفائهم، على ما هم فيه من الوهن واليأس وارتخاء العزيمة بسبب الورطة التي كانوا فيها. فاشتباكهم وحدهم بحرب مع هذا الجيش الجرّار دون معاونة الإغريق ستكون عاقبته الهزيمة المؤكدة. والقوات الباقية كان مقرراً لها أن تترك المدينة وترابط في السفن، ولم يكن السكان كما أسلفنا راغبين في ترك مدينتهم، متصوّرين أن النصر بعيد المنال، وأنهم بعد تركهم معابدهم وتعريض قبور وأنصاب أسلافهم إلى عدوان الغزاة لن يبقى لهم وسيلة أخرى للنجاة.

وأُسقط في يد تميستوكلس - كما أسلفنا - وعجز عن تحبيذ الشعب رأيه[٣٦] وفشلت فيهم كل حجة عقلية أو منطقية، وهنا أطلق قابلياته الخلاّقة وراح يستخدم سلاح النبوءات والخوارق لفرض فكرته هذه فرضاً، فأولاً اختفى تنيّن مينرڤا[٣٧] الذي كان محفوظاً في أعمق مكان من المعبد وقام كاهنه يذيع للناس أن القرابين التي وضِعت أمامها لم تمسّ. وصرّح بإيحاء من تميستوكلس أن الربّة تركت المدينة وسبقتهم في الهروب إلى البحر، وأخذ يزيد من تذكيرهم بتلك بالنبوءة الأخيرة التي تحضّهم على الركون إلى الجدران الخشبية[٣٨]، موضحاً أن تلك الجدران المذكورة في النبوءة

(٣٦) بالأخير نجح أعظم نجاح بحيث إن الجمهور الأثيني شرع يرجم كيرسيلوس Cyrsilus وهو خطيب كان شديد المعارضة له في الشؤون العامة. وأما بخصوص إظهار الحبّ للوطن الأم، والتعلق بالنساء والأطفال المشردين، فقد أظهرن كرههن وخوفهن من فشل قضية الإغريق بسببهن فرُحن يرجمن امرأة هذا الخطيب أيضاً.

(٣٧) استناداً إلى هيرودوتس [٨ : ٤١] كان هذا التّنين حارساً للقلعة يعيش على التقدمات اليومية من أقراص العسل. وپلوتارخ على أكثر الاحتمال يعزو النبأ المذكور إلى كاهنة مينرڤا.

(٣٨) كانت هذه النبوءة الثانية التي تسلّمها وفد الأثينيين من أرسطوتيكي عرّافة أپوللو. أما الأولى منهما فقد اتّسمت بالصرامة والشدة في الأمر بترك القلعة، وبإعلان خراب المدينة الشامل. وكان تميستوكلس الموحي للكاهنة بهاتين النبوءتين دعماً للحظة التي نوى تطبيقها. وكان الرأي الأرجح في تفسير عبارة «الأسوار الخشبية» التي تنصحهم النبوءة بالاحتماء بها إنما تقصد بها القلعة لأنها محاطة بأطم خشبية. في حين فسّرها آخرون بأنها لا تعني غير السفن. وزعم تميستوكلس في مجال تفسيره الخاص. أن النبوءة لو قصدت إبادة الأثينيين لما وصفت أثينا =

لايقصد بها غير السفن، وأن جزيرة سلاميس لم تصفها النبوءة بالجزيرة البائسة الشقية بل بالصفات القدسيّة وما إلى ذلك إلاّ أنها ستكون في أحد الأيام عاملاً في أعظم الخير للإغريق. حتى نجح في مسعاه، واستحصل مرسوماً يقضي بأن تودع المدينة إلى رعاية مينرڤا(٣٩) ربة الأثينيين، وأن يمتطي متن البحر كل قادر على حمل السلاح بعد أن يعمل على ترحيل أولاده ونسائه وعبيده إلى حيث يشاء. وبعد أن صودق على المرسوم باشر الأثينيون بنقل آبائهم ونسائهم وأولادهم إلى طروزين(٤٠). فاستقبلهم أهلها بإكرام ومودّة، وصوّتوا على قرار يقضي أن تكون معيشة اللاجئين على حساب الخزينة العامة بأن يُدفع أوبولان يومياً لكلّ شخص، مع السماح للأحداث بقطف الفاكهة من حيث شاؤوا، وأن يُدفع للعلمين أجور تعليمهم، وكان صاحبُ هذا الاقتراح نيكاغوراس Nicagoras.

لم تكن في أثينا خزينة عموميّة في ذلك الحين، إلاّ أن المجلس الأريوباغى وزّع على كلّ مجنّد في الخدمة العسكرية ثمانية دراخمات على حدّ قول أرسطو. وكانت هذه الخطوة عاملاً رئيساً في سَدّ حاجة الأسطول من الرجال. ويعزو قليديوس هذه الخطوة إلى عبقرية تميستوكلس. ولما كان الأثينيون في طريقهم إلى ميناء پيريوس Pirieus، اكتشفوا أن الترس الذي يحمل رأس ميدوسا مفقود، وبحجّة البحث عنه عاث تميستوكلس سلباً في الأنحاء المجاورة، وعثر، بين ما وقع عليه، على مقادير كبيرة من النقود المخفية فصادرها لإنفاقها على الحرب. وهكذا تمّ تجهيز الجنود والبحّارة تجهيزاً حسناً لرحلتهم.

كان منظر أهالي أثينا عند ركوبهم السفن مما يثير الرثاء والإعجاب في آن واحدٍ، فتراهم وهم يرحّلون آباءهم وأولادهم إلى الجزيرة بهدوءٍ وجلد ولاتتحرك عوّاطفهم بالدموع والصراخ. وأشدّ ما كان يبعث على الألم أن النازحين اضطروا إلى ترك عدد كبير من الناس الطاعنين في السنّ في السفن حيث هم. والحيوانات الأليفة نفسها لا يتمالك المرء نفسه من الشفقة عليها حين يراها تهيم على وجهها سائبة في أزقّة

= بالمدينة «الخالدة» بل «التاعسة سلاميس». وإن قولها «أولاد النساء» لا ينصرف إلاّ إلى الپارثيين الذين عرفوا بخنوثتهم الغاضحة [هيرودوتس ٧: ١٤٣ و ١٤٤].

(٣٩) نعتقد أن پلوتارخ وقع في تناقض. إذ كيف هذا في حين سبق له أن أخبر الأثينيين بأن مينرڤا قد تخلّت عن المدينة؟!

(٤٠) قام آخرون بإرسال ذويهم إلى إجينا وسلاميس.

المدينة تنبح وتصيح كأنما تطالب بأسيادها وأصحابها. ومما روي أن كسانتپوس Xantheppus والد پيركليس كان يملك كلباً وفيّاً لم يتحمّل البقاء وحيداً فقفز إلى البحر وراح يسبح بمحاذاة السفينة التي أقلّت سيده حتى بلغت جزيرة سلاميس فخرج من الماء وسقط ميتاً على الساحل من فرط الجهد، ويقال إن البقعة التي ما زال يطلق عليها ثمّ «قبر الكلب» إنما هي قبره.

من مآثر تميستوكلس العظيمة في هذه الأزمة دعوة أريستيديس وهي مأثرة لا تقلّ شأناً عمّا سبقها. فقبل نشوب الحرب نُفي هذا السياسي دون محاكمة بسعي الحزب الذي يتزعّمه تميستوكلس وظلّ في دار الغربة. وقد تبيّن تميستوكلس بفكره الثاقب أن الشعب الآن آسفٌ لغيابه، وخشي من جهة أُخرى أن ينحاز إلى الفرس ليثأر لنفسه ويلحق ضرراً بقضيّة اليونانيين، فاقترح استصدار مرسوم يقضي بعودة المبعدين للمساهمة قولاً وفعلاً في قضية البلاد مع سائر المواطنين.

كان يوريبيادس بسبب بروز سپارطا على غيرها قد نُصّب قائداً عاماً لكلّ الأساطيل الإغريقية، إلاّ أنه كان قعيد همّة خائر عزيمة، كثير التردد في الساعات الحرجة. وكان من رأيه أن يرفع مراسيه ويبحر إلى مضيق كورنث ليكون الأسطول قريباً من الموضع الذي عسكرت فيه الجيوش البرّية. فعارض تميستوكلس في هذا. وتبودلت بهذه المناسبة تلك الأقوال التي اشتهرت وتناقلها الناس فيما بعد. قال يوريبيادس يريد أن يتخلص من لجاجة تميستوكلس: «ألا تدري أن أولئك الذين يبدأون السباق قبل غيرهم يجلدون بالسياط»؟[٤١] فأجاب تميستوكلس: «ومن يتخلّف في السباق لا يُضفر له أكاليل الغار». فرفع يوريبيادس عصاه كأنما يهمّ بضربه. فقال له تميستوكلس: «إضرب إن شئت، لكن اسمع». فعجب يوريبيادس لما أظهره من لين، وسمح له بالكلام، وبهذا تمكن تميستوكلس من الوصول إلى أفضل التفاهم. وتوجّه إليه أحد الواقفين قريباً منه بقوله: «لا يجمُل بمن ليس لديه مدينة أو منزل يخشى فقدانهما أن يُقنع الآخرين بالتنازل عن دورعم والنزوح عن بلادهم». فردّ عليه تميستوكلس قائلاً: «حقاً إننا تركنا بيوتنا وأسوارنا أيها العلج والوضيع، لأننا لم نر جديراً بنا أن نُستبعد لحرصنا على أشياء

---

(٤١) لا بادرة تبدو من هذا القائد لتدلّ على افتقاره إلى الشجاعة والبسالة بدليل أن اللقيديميين وهم أعدل الحكّام في تقديم ووزن أخلاق الرجال قدّموا له غصن الشجاعة. كما أنه عيّن قائداً لأسطولهم مرتين وإن لم يكن يجري في عروقه دمٌ ملكيّ. هذه المحادثة عزاها هيرودوتس [٨: ٥٩] إلى تميستوكلس وأديامنتس قائد الكورنثيين؛ إلاّ أن نصّ پلوتارخ هو الراجح في أن أوريپيادس كان القائد العام.

لا روح فيها ولا حياة. على أن مدينتنا هي أعظم مدن اليونان طُرّاً، وقد جرّدت للحرب مائتي سفينة تقف الآن هنا للدفاع عنكم بعد أذنكم! فإن هربتم وغدرتم بنا كما فعلتم بنا مرةً في الماضي فإن معشر الإغريق لن يلبثوا أن يسمعوا باستيلاء الأثينيين على بلاد جميلة ومدينة حرّة كبيرة لا تقلّ بأية حال عن تلك التي فقدوها». هذا القول حمل يوريبيادس على الشك في أن الأثينيين سيتركون خطّ القتال وينسحبون إن هو انسحب. وانبرى أحد سكان أريتريا Eretria يحاجّ تميستوكلس فقال هذا له: «ألديك ما تتحدث به عن الحرب أنت هي الشبيه بسمك الحبّار Cuttle الذي يملك غلاصم فارغه في موضع القلب».

وقيل، بينما كان تميستوكلس يقول هذا وهو منتصب في برج السفينة، شوهد بوم[٤٢] يطير عن يمين الأسطول، واقترب ثم حطّ فوق رأس الصاري. وهذا الفأل الحسن أقنع الإغريق بوجوب اتّباعهم رأيه حتى أنهم تأهّبوا حالاً للمعركة. ولكنهم نسوا نصيحة تميستوكلس بأسرع من لمح البصر عندما وصلت أساطيل العدوّ ميناء فاليرم على ساحل أتيكا. وغطّت سفنهم الشواطئ وشاهدوا الملك يتقدّم قوّاته البريّة إلى الساحل بقضّها وقضيضها. وعادت أعين البيلوپونيين تتطلع ثانية إلى المضائق، وضاقت صدورهم بكلّ من لامهم على العودة إلى ديارهم. واتفقت كلمتهم على الرحيل في تلك الليلة، وأعطيت للملاحين الجهة التي سيقصدونها.

وحزن تميستوكلس حزناً عظيماً لقرار الإغريق، وضياع فرصة الحرب في بحر ضيّق الأرجاء، ومداخل مائية قليلة السعّة، وآلمه أن يراهم ينسلّون واحداً إثر الآخر كلّ إلى مدينته. فأعمل التفكير وأطال التأمّل حتى اهتدى إلى تلك الخطة التي قام بتنفيذها سيكيناس Sicinnas[٤٣] وكان هذا أسيراً فارسياً شديد التعلّق بتميستوكلس، مربّياً لأولاده، يتوخّى مصلحته ويعمل على خدمته. ولهذا يرغب أن يكون أول من يخبره بأن الأثينيين قد تأهّبوا للفرار، ويشير عليه بأن يحول دون ذلك بالانقضاض عليهم أثناء الهرج والمرج، وهم بعيدون مسافةً عن جيشهم البريّ، وهذا ما يضمن له تدمير كل قواتهم البحرية. فسرّ أحشويرش بالرسالة سروراً عظيماً وصدّقها وعدّها صادرة من

(٤٢) طائر البوم مقدّس عند مينرڤا حامية مدينة آثنيا. وهو يُنقش على كل الميداليات الأتيكية وقد شوهد في كل ما هو موجود فيها.

(٤٣) كان أسخيلوس موجوداً في هذه المعركة وقد تكلّم عن سيكيناس إذ قال: «واحدٌ من الإغريق من مرتبات الجيش الأثيني أخبر أحشويرش إلخ...» في الواقع ليس من المحتمل أن يوكل تميستوكلس أجنبياً أمر رعاية أولاده.

شخص لايريد له إلاّ الخير. وأصدر أوامر فورية لقائد سفنه بأن ينطلق حالاً بمائتي سفينة ويحيط بكلّ الجزر ويضبط المداخل والمضايق حتى لا يدع للإغريق سبيلاً للفرار. وبعد ذلك عليهم أن يحملوا مع باقي الأسطول على العدو، على رسلهم.

لم يعرف بتدبير تميستوكلس هذا أحد، إلاّ أن أرستييدس ابن ليسيماخوس كان أول من حزره، فقصد خيمة عدوّه لا للتصافي وطرح الأحقاد، (لأنه نُفي بمساعيه) بل لينبئه بأن العدوّ قد طوّقهم. وكان تميستوكلس خبيراً بسماحة أرستيدس، ثم إن زيارته وقعت من نفسه موقعاً عظيماً في تلك اللحظة، فلم يكن منه إلاّ أن صارحه بما فعله سيكيناس وطلب منه أن يستفيد من الثقة التامة التي يودعها فيه الإغريق، فيساعده على إغرائهم بالبقاء حيث هم ودخول المعركة مع العدو في المضائق. واستحسن أرستيدس الفكرة وذهب إلى القادة الباقين وربابنة السفن وحمّسهم وشجعهم على النزال. على أنهم لم يصغوا إلى قوله حتى انفصلت سفينة تينوسية Tenos[٤٤] بقيادة پانيتيوس Panaetius عن الفرس وجاءتهم وهم مازالوا في حيرة، فأيّدت الأنباء بأن كل المضايق والممرّات البحرية مغلقة، وعندئذ التهبت مشاعرهم وطارت أنفسهم شعاعاً فضلاً عن صيرورتهم أمام الأمر الواقع مما دفع الجميع إلى أحضان المعركة.

وما إن انبلج الصبح حتى صعد أحشويرش موضعاً مرتفعاً ليستعرض أسطوله وينظّم صفوفه. ويقول فانوديموس Phanodemus إنه جلس على نشزٍ فوق معبد هرقل حيث تفصل ساحل أتيكا عن الجزيرة قناة ضيّقة. إلا أن ما دوّنه أكستدوروس Acestodorus يشير إلى أن أحشويرش اختار مجلسه في ضواحي ميغارا على التلول المسمّاة بالقرون. حيث جيء له بكرسي[٤٥] من ذهب وأحاط به أمناء السرّ ليكتبوا كل ما يجري في القتال من أحداث.

وفيما كان تميستوكلس يهّم بتقديم القرابين بالقرب من بارجة القائد، إذ جيء إليه بثلاثة من الأسرى جميلي الوجوه بثيابهم الفاخرة الموشاة بالذهب وقيل إنهم أولاد أحشويرش وساندوكي Sandauce أخت أحشويرش. وما إن وقع نظر المتنبئ

---

(٤٤) جزيرة صغيرة في البحر الإيجي وتعدّ ضمن المجموعة المسماة كيكلادس. فاعترافاً بفضل هذه الجزيرة بالنسبة للحادث نُقش اسم سكنتها على مائدة ذات ثلاثة قوائم مكرّسة لدلفي من بين اسمين آخرين أعتبرا قاهري أحشويرش. [انظر هيرودوتس ٨: ٨٢].

(٤٥) هذ الكرسي أو العرش - أهو من الذهب أو من الفضة أم منهما معاً، فقد وقع غنيمة بيد الأثينين وحمل إلى مدينتهم حيث كُرّس في معبد مينرفا مع سيف ماردونيوس الذهبي الذي غُنم بعدئذ في معركة پلاتيا. ولكن ديموستنيس يسمّي الكرسي الأقدام الفضية.

يوفرانتيدس Euphrantides عليهم حتى لاحظ ناراً تشبّ(٤٦) من التقدمات ويخرج منها لهب خارق وهو بشير بحادث سعيد، فأمسك بيد تميستوكلس وطلب منه تكريس الشبان الثلاثة للتضحية، وتقريبهم بالصلوات إلى «باخوس الناهش» لأجل النصر. وبذلك ينقذ الإغريق ويكتب لهم النصر. وانتاب تميستوكلس قلق شديد لهذه النبوءة العجيبة الرهيبة إلاّ أنّ العامة من الناس، الذين تراهم في أي أزمة عصيبة وكارثة عظيمة يتطلعون لخلاصهم إلى وسائل غريبة، مسرفة، لا إلى وسائل معقولة، ارتفعت أصواتهم بالدعاء لباخوس كافةً ودفعوا بالأسرى إلى المذبح وفرضوا تقديم القربان مثلما أمر به الكاهن(٤٧). هذا ما ذكره فانياس اللّسبي وهو فيلسوف واسع الاطلاع في التاريخ.

وكان عدد سفن الأعداء حسبما أثبتها أسخيلوس الشاعر في مأساته المسمّاة «الفرس» بناء على اطلاعه الخاص:

«علمت أن أحشويرش كان في المعركة يقود ألف سفينة، بينها مائتان وسبع بوارج سرعتها أكثر من السفن الاعتيادية. وهو ما استقرّ الرّأي عليه.»

وكان عدد سفن الأثينيين مائة وثمانين، في كل سفينة ثمانية عشر محارباً على سطحها، منهم أربعة رماة سهام والبقيّة مقاتلون.

وكما كان تميستوكلس قد اختار أصلح ميدان للقتال فإنه والحق يقال لم يكن بأقل حكمة في اختياره ساعة الصفر للبدء. فلم يوّجه مقدّم سفنه نحو الفرس ولم يشرع في القتال حتى هبّت ريح رخاء من البحر وجاءت معها بمدٍّ قوي إلى البرزخ. وكان ذلك في مصلحة سفن الإغريق لأنها منخفضة البدن تكاد حافاتها لاترتفع عن الماء إلاّ قليلاً.

---

(٤٦) اللهب الساطع يُعدّ دائماً فألاً حسناً، أكان حقيقياً صادراً من المذبح أو وهمياً يخرج من رؤوس أناس أحياء! ويذكر فرجيل (الإينياد: ٢:٦٨٢) لهباً من هذا النوع ظهر حول رأس أيولوس. ويذكر فلورس أنه شوهد فوق رأس سرفيوس تللوس. إن العطاس إلى جهة اليمين يعتبر كذلك من الفأل الحسن عند سائر الإغريق واللاتين [انظر أرسطو في النفس ١:١١] وكذلك [هوميروس في الأوديسا ٢٧:٥٤٥] فهو يعتبر العطسة فألاً حسناً من أي جهة كانت.

(٤٧) وبعين الطريقة قدّم كل من خيوس وتيديدوس ولسبوس قرابين بشرية إلى باخوس الملقّب بالناهش Omodius. وهذه هي الواقعة الوحيدة التي دوّنت عن الأثينيين. ولم يذكرها هيرودوتس. ويذكر پاوسنياس قصة تتعلق بتقريب مؤقت لقرابين بشرية في بويوتيا. وبخلافه فإنّ باخوس مختصّ بمثل هذه القرابين فمن العادة في أليڤا بأركاديا أن تجلد النسوء بالسياط فوق مذبحه.

ولقد ألحقت ضرراً بالغاً بالسفن الفارسية ذات الدقّة والسطح العالي، فضلاً عن ثقلها، وبطء حركتها بحيث أصبحت فريسة سهلة لهجمات اليونان الخاطفة. وكان الإغريق جميعاً يتابعون تحركات تميستوكلس، متخذين منه أنموذجاً يحتذى، فضلاً عن أنه اتخذ موقعه مقابل سفينة القائد أريامنيس Ariamenes وهو رجل باسل شجاع تفوق سجاياه ومنزلته سائر إخوة أحشويرش بكثير. شوهد هذا القائد يقذف بالرماح ويطلق السهام من بارجته الضخمة كأنما يطلقها من أسوار قلعة. وكان كلّ من أميناس Aminias الدكيلي Decelean وسوسيكلس Sosicles البيديّ Pedian على ظهر سفينه واحدة، فعندما اختلط الحابل بالنابل والتقى جؤجؤ سفينة بدفة أخرى ووجّهت الواحدة قيدومها النحاسي إلى الأخرى فكبّلتها فتلاحقتا، حاول أريامينس الهبوط إلى سفينتهما فهجما عليه بالرماح وقذفاه إلى البحر فطفت جثته مع حطام السفن وعرفته أرتميسيا(٤٨) فحُمل إلى أحشويرش.

وجاء في الأنباء أن لهباً عظيماً ارتفع في الفضاء فوق مدينة إيليوسيس Eleusis، ساعة احتدام القتال، وسُمع منه ضجيج وأصوات في كلّ أرجاء سهل الثرياسيّين حتى بلغ البحر، وكان أشبه برجال يراسلون ويرافقون الصُوفيّ إياخوس Iacchus وأن ضباباً تجمّع حيث تقوم الضجة وارتفع ثم زحف وسقط على السفن. وخيّل للآخرين أنهم شاهدوا أشباحاً على هيئة رجال بشكة سلاحهم وقد مدّوا أيديهم مستنجدين من جزيرة إيجينا مقابل البوارج الإغريقية والمقول أنهم الآياكسيدي Aeacidae(٤٩) الذين استغاثوا وطلبوا العون قبل بدء المعركة.

وأول من استولى على سفينةٍ للعدوّ هو ليقوميدس Lycomedes الأثيني قبطان

---

(٤٨) أرتميسيا هي ملكة هاليكارناسوس. برزت في مقدمة القوات البارثية وخاضت المعركة إلى النهاية وكانت آخر من ترك ميدانها، ولحظ الملك البارثي ذلك فقال معقباً: «سلك الرجال مسلك النساء، وسلكت النساء مسلك الرجال». اشتد حقد الأثينيين عليها كامرأة وكبطلة في عين الوقت وعرضوا مكافأة قدرها عشرة آلاف دراخمة لمن يقبض عليها حيّة. وهيرودوتس [٨: ٩٣] يروي قصة نجاتها في آخر لحظة والخطة التي استخدمت من أجل ذلك. من الواجب أن لا يخلط بينها وبين سميّتها امرأة طاوسولس ملك كاريا التي عاشت في عصرٍ لاحق.

(٤٩) أُرسلت إلى إيجينا سفينة لطلب المعونة من أياكس وذرّيته [هيرودوتس ٨: ٦٤]. وأياكس هو ابن جوبتر من إيجينا اشتهر بعدالته حتى أن أدعيته حقّقت فوائد عظيمة للإغريق لاسيما في سنوات القحط التي أصابت البلاد [پاوسينياس ٢: ٢٩]. عُيّن بعد وفاته واحداً من القضاة الثلاثة في العالم السفلي!

إحدى السفن، فقطع شعاراتها[٥٠] وكرّسها إلى «أپوللو المكلّل بالغار». وكان الفرس يقاتلون في لسانٍ بحريّ ضيّق، بحيث تعذّر عليهم تحشيد قطعهم البّحرية كلّها، وراحوا يتخبّطون ويقاتل بعضهم بعضاً، بهذا حقق الإغريق عامل التكافؤ في القوى، وقاتلوهم حتى اضطرهم الليل إلى الكفّ عنهم. ونالوا نصراً عظيماً مؤزّراً وصفه سيمونيدس بأنه نصر لا شبيه له ولا قرين في كلّ ما عُرف من الانتصارات البحرية المجيدة لا عند الإغريق ولا عند البرابرة. وكان بطبيعة الحال حصيلة البسالة والحماسة اللتين اجتمعتا في كلّ من خاض المعركة، مع حكمة تميستوكلس وعبقريته الفذّة[٥١].

بعد هذه الموقعة البحرية حاول أحشويرش بدافع الغيظ من فشله أن يربط سيلاميس بالقارّة بممرّ برّي ثابت بإلقاء أكوام من الصخور والحجارة حتى يجعل منها سدّاً، ثم يستخدم السدّ المتكوّن لنقل قوّاته البريّة إلى جزيرة سلاميس، ثم يغلق الممر تماماً بوجه الإغريق[٥٢].

ورغب تميستوكلس أن يستطلع رأي أريستيديس فيما كان يفكر من خطّة، مقترحاً أن يُقلع الأسطول إلى هلسپونت Hellespont لكسر جسر السفن حتى «يتمّ حبس آسيا، وأسرها داخل أوروبا». لكن أرستيديس[٥٣] كرِهَ الخطة وقال له: «إلى الآن حاربنا عدوّاً لا يهتمّ بشيء قدر اهتمامه بملذّاته وترفه. فإذا حبسناه في بلاد اليونان وألجأناه إلى عمل يائسٍ فلا يعود الملك هادئاً ساكناً بقوّاته الجبّارة وقد نشر فوق رأسه الشمسيّة المذهّبة، يرقب القتال كما يرقب ملهاة. إن وجد نفسه محصوراً فسيحاول المستحيل، وسيشتد عزمه، ويظهر بشخصه في كل موقعة ومناسبة ولا يلبث أن يصحّح أخطاءه ويُظهر ما

---

(٥٠) هي في العادة تماثيل وقطع من المنحوتات الخشبية تمثّل أشكالاً شتّى وتثبت في جؤجؤ السفينة لتمييزها عن غيرها أو لمحض الزينة.

(٥١) في هذه المعركة التي تعدّ من المعارك الكبرى في التاريخ القديم خسر الإغريق ٤٠ سفينة فيما بلغت خسارة الفرس ٢٠٠ خلافاً لأسر عدد أكثر من هذا بكثير.

(٥٢) يقول هيرودوتس (٨: ٩٧) إن أحشويرش أراد أن يوهم الإغريق بأنه يعتزم تجربة الحظّ في معركة بحرية ثانية لئلا يقوم الإغريق بالإقلاع والاتجاه إلى مضائق الهللسپونت وكسر الجسر العائم الذي بناه فوق السفن أثناء وجوده في سارديس مستخدماً الصنّاع الفينيقيين والمصريين. فقد شدّوا السفن بعضها إلى بعض بحبال وأمراس. وكان عرض المضيق ميلاً واحداً تقريباً وقد ثارت عاصفة به فدمّرت ما وفّقوا إلى مدّه قبل إكماله. واستبدّ الغيظ بالملك الفارسي. وحكاية أمره بجلد البحر بالسياط لسوء سلوكه معروفة. إلاّ أن المجهود في المحاولة الثانية لقي نجاحاً أكبر [المرجع نفسه ٧: ٣٣-٣٦].

(٥٣) هيرودوتس (٨: ١٠٨) لم يكن أريستيدس المتكلم هنا: بل هو أوريپيادس القائد العام.

كان قد أخفاه قصوره وإهماله وسيكون أكثر حِنكة في تقديره الأمور. لذلك لا يفيدنا في شيء يا تميستوكلس أن نحطّم الجسر الذي بنيناه لا بل يجدر بنا أن نبني آخر إن أمكننا - لكي نعجّل في انسحابه».

فأجابه تميستوكلس قائلاً: «إن كانت هذه غايتنا فعلينا أن نستخدم حالاً كلّ حيلة ومواظبة وجهدٍ للتخلص منه بأسرع ما يمكن». ولأجل هذه الغاية وجد بين الأسرى خَصِيّاً من خصيان الملك الفارسي يدعى أرناكسيس(٥٤) فبعث به إلى سيده برسالة يقول فيها: بعد أن حقق الإغريق نصرهم البحريّ، قرّروا الانتقال بأساطيلهم إلى هلسپونت حيث السفن مشدودة بعضها إلى بعض مثل جسرٍ ليتلفوها. ولما كانت مصلحته تهّم تميستوكلس فقد كشف له عن ذلك ليعجّل في انسحابه إلى البحار الآسيوية ووصوله إلى مملكته، وإنه في الوقت نفسه سيعمل على إعاقة وتأخير الأساطيل الحليفة عن اللحاق به. وما إن سمع أحشويرش الرسالة حتى ارتعدت فرائصه(٥٥) وأسرع بالانسحاب من بلاد الإغريق فوراً. وقد افتُضحت حيلة تميستوكلس وأريستيديس فيما بعد وعُرفت بتفاصيلها في معركة پلاطيا Plataea، حيث عرّض ماردومينوس Mardominus الإغريق لخطر خسارة كلّ شيء باستخدامه وحدة صغيرة من قوات أحشويرش.

ويكتب هيرودوتس أن إيجنيا برزت بين سائر مدن اليونان الأخرى بإنجازها أعظم خدمة في الحرب. بينما أقرّ كل الرجال على انفراد بفضل تميستوكلس وإن كان ذلك ضد رغبتهم بسبب الحسد. وعندما عادوا إلى مدخل الپيلوپونيسس وأدلى عدد من القوّاد بأصواتهم على المذبح(٥٦) لتقرير من هو أحق شخص بأعظم الإكرام، صوّت كل واحدٍ منهم لنفسه في المقام الأول ثم صوّتوا جميعاً لتميستوكلس في المقام الثاني. وأخذه اللقيديمونيون معهم إلى سپارطا وقدّموا جائزة الشجاعة ليورىبيادس وجائزة

---

(٥٤) ذكر هيرودوتس (١٣: ١١٥) سيكينيوس الذي كان قد أُرسل من قبل في مهمة مماثلة.

(٥٥) بعد أن ترك أحشويرش قائده مردان في اليونان بجيش قوامه ثلاثمائة ألف، انسحب بالباقي نحو تراقيا تمهيداً لعبور البوسفور. ولم يكن قد أمّن لجيشه أرزاقاً فعانى مشقّة عظيمة في مسيرته التي استغرقت ٤٥ يوماً. ووجد أن الوضع لا يسمح له بمواصلة السير بشكل مريح وعلى النحو الذي يرغب فيه وتقدم جيشه بحاشية قليلة العدد. ووجد الجسر معطوباً بفعل عاصفةٍ فاستقلّ قارب صيد وعبر إلى الجهة الثانية ومن المضايق واصل انسحابه حتى سارديس.

(٥٦) مذبح پنتيلون. هذه المراسم إنما تقررت لتؤمّن إصدارهم حكماً خالياً من التحيّز لإعطائه بمحضر من الآلهة (هيرودوتس).

الحكمة وحسن الإدارة له وتوّجوه بأغصان الزيتون. وأهدوه أحسن مركبة في المدينة وأرفقوه ثلاث مائةِ شابٍ حتى حدود بلادهم إجلالاً له(٥٧). وفي الألعاب الأولمبية التالية عندما دخل السباق شخصت أنظار المتفرّجين إليه ولم تعد تهتمّ بالمتسابقين وقضوا بقيّة اليوم يرمقونه بإعجابٍ، ويعرّفون الأجانب الحاضرين بشخصه، ويختالون به عجباً ويعبّرون عن تكريمهم له بالتصفيق وغيره من تعابير الفرح حتى أقرّ هو نفسه لأصدقائه وقد امتلأ امتناناً بأنه يحصد الآن ثمرة كُلّ ما بذله من جهود في سبيل الإغريق.

وكان بطبعه يحبّ العظمة والتكريم حُبّاً جمّاً، وهذا يتضح من الحكايات التي أُثرت عنه. فعندما اختاره الأثينيون قائداً للأسطول لم يُنجز عملاً من الأعمال بصورة تامّة أكان بشخصه أم بالدولة، وإنما استمر في تأجيل البتّ فيها حتى يوم الإبحار، حتى يبدو بمظهر العظمة والسلطان وهو يصرّف تلك الأمور المتراكمة العديدة دفعةً واحدة وما يستتبع ذلك من مقابلات مجموعة كبيرة من مختلف الناس. وعندما كان يستعرض جثث القتلى وهي تُلقى في البحر، لاحظ عقوداً وأسورة من الذهب عليها، فمَرّ بها غير آبه خلا أنه قال لصاحب له كان يتبعه: «خذ أنت هذه الحلى، لأنك لست تميستوكلس». وقال لأنتيفاطس Antiphates، وهو شاب حسن الصورة كان يتحاشاه قبلاً، ثم راح يغازله بعد المجد الذي ناله: «لقد علّمنا الزمان أيها الشاب درساً». وقال إن الأثينيين لم يمجّدوه ولم يُكرموه. وإنما جعلوا منه في الواقع شجرة الدردار، يحتمون بها عندما يسوء الطقس، وما إن يغدو المناخ جميلاً حتى يقطفوا أوراقها ويقطعوا أغصانها. وعندما قال له ذلك السيريفي Seriphian إنه لم ينل شهرته بفضله بل بعظمة مدينته، أجابه: «لقد أصبت القول. ما كنت لأنال الشهرة لو انحدرت من سيريفوس(٥٨)، ولا كنتَ تنالها لو جئتَ من أثينا».

ولمّا ظنّ واحد من القادة أنه حقق خدمات جليلة للأثينيين، مقارناً أعماله بأعمال تميستوكلس على سبيل التباهي، أجابه تميستوكلس: «راح اليوم التالي للعيد» يعيب يوم العيد وينتقص منه قائلاً: ليس يوجد فيك إلاّ العجلة والمتاعب والاستعدادات لكن

---

(٥٧) يقول هيرودوتس: إنها المناسبة الوحيدة التي قدّم اللقيديميون خلالها تكريماً مثل هذا لأي كائن ولديودورس (١١: ٢٧) رأي آخر إذ يقول إنهم ما اقدموا على ذلك إلاّ خوفاً من أن يحمل لهم ضغناً.

(٥٨) جزيرة صغيرة من مجموعة جزر كيكلادس. يهزأ جوڤينال (١٠ المسوخ) بصغر حجمها. ويصفها تاكيتوس [الحوليات ٤: ٢١] بأنها صخرة يرسل إليها الرومان منفييهم في العادة.

عندما يحين يومي ترى كل انسان يجلس بهدوءٍ مستريحاً ويمتّع نفسه. فأقرّ العيد بصحّة ذلك قائلاً: لقد أصبت في هذا، لكن لو لم أكن سابقاً لك لما جئت قط.» ثم استطرد يقول «وحتى لو كان الأمر كما تقول، فلولا تميستوكلس قد سبقك بمجيئه لما درى أحد أين ستكون الآن». وقال يمزح لتصرّفات ابنه واستئثاره باهتمام أمّه وتحكّمه فيها وكيف أنه استبدّ به عن طريق أمّه «. . . فالأثينيون يقودون اليونان، وأنا أقود الأثينيين وأمّك تقودني وأنت تقود أمّك». ولولوعه في أن يكون نسيج وحده في كل الأمور كان يأمر المنادي عند بيع قطعة أرض تعود له أن يضيف إلى ندائه الملاحظة التالية: «حول الأرض جيران طيّبون». وتنافس اثنان على يد ابنته ففضّل منهما الرجل ذا السمعة الحسنة على الغنيّ، قائلاً إنه يفضلّ رجلاً بلا مالٍ على مالٍ بلا رجل. وهذا هو أسلوب أحاديثه(٥٩).

بعد النصر الذي أتينا إلى وصفه بدأ يعيد بناء مدينة أثينا ويحصّنها ورشا الإيغور اللقيديميونيين حتى لا يقفوا ضدّ هذا العمل، كما ذكر ثيومپوپوس، إلاّ أن معظم الكتاب يقولون إنه خدعهم واستبقهم في الأمر. إذ سافر إلى سپارطا متعلّلاً بسفارة. وهناك اتهمه اللقيديمونيون بإعادة بناء الأسوار قائلين إن پوليارخوس Poliarchus ما قدم من إيجينا إلاّ لغرض الاحتجاج على ذلك، فأنكر تميستوكلس وطلب منهم أن يبعثوا بوفد إلى أثينا ليتحققوا من صحة ذلك. وفي خلال تلك الفترة أكمل بناء الأسوار ووضع أعضاء الوفد في أيدي أبناء قومه كرهائن مقابل شخصه. ولما عرف اللقيديمونيون الحقيقة لم يتمكنوا من إلحاق أيّ أذىً بهم، واضطروا إلى إخفاء سخطهم وكل مظهر من مظاهر الحنق في وقتها وأعادوه إلى وطنه(٦٠).

وبعدها باشر في بناء ميناء پيريوس إدراكاً منه لموقعه الطبيعي الممتاز للغاية، ورغبة في ربط المدينة كلها بالبحر. وخالف السياسة التي جرى عليها الملوك الأثينيون الأقدمون الذين جاهدوا دوماً في إبعاد رعاياهم عن البحر وتعويدهم العيش على الزراعة وفلاحة الأرض لا على الملاحة وتطواف البحار، فنشروا حكاية عن وجود نزاعٍ بين

(٥٩) ذكر شيشرون في [De Fiss ٢ : ٣٢] قولةً أخرى من أقواله تستحق التسجيل هنا. فعندما عرض عليه سيموندنس تعليمه فن تقوية الذاكرة ردّ عليه قائلاً: «آه! أيجمل بك أن تعلّمني فن النسيان لأني كثيراً ما تذكرت ما لا يحسن أن أتذكره وتعذّر عليّ نسيان ما يجب نسيانه».

(٦٠) تفاصيل هذه الحكاية أوردها ثوكيديدس [١ : ٩٠] وعللّ ذلك بأن اللقيديميين كانوا يخشون وقوع أثينا في يد العدو الپارثي خلال غزوة ثانية محتملة، وهي محصّنة منيعة فتنقلب إلى قلعة مفيدة في يد العدو.

مينرڤا ونپتون حول السيادة على المدينة، وأن مينرڤا ربحت القضية بإبرازها للمحكّمين شجرة زيتون. إلاّ أن تميستوكلس لم يكتف بجمع الميناء في واحدةٍ بل جعل المدينة معتمدة اعتماداً مطلقاً على الميناء لا بل تابعة له هي والأراضي المجاورة للبحر، الأمر الذي زاد من قوة الشعب وثقتهم بنفسهم إزاء النبلاء - وهذا ما ذكره أرسطوفانس Aristophanes - وأصبح النفوذ كلّه بيد البحّارة والملاّحين والصيّادين(٦١). ولذلك كان أحد أوامر الطغاة الثلاثين(٦٢) تحويل منصّات الاقتراع في الجمعية من اتجاهها الذي كان نحو البحر إلى البرّ، مستندين في رأيهم هذا إلى أن السيادة البحرية هي أساس الديمقراطية وأن جماهير الفلاحين لا تعارض كثيراً في نظام الحكم الأوليغارشي.

على أن تميستوكلس كان يُضمر تدابير أعلى وأخطر بخصوص التفوّق البحري. فبعد رحيل أحشويرش عن البلاد وعودة الأسطول اليوناني إلى پاغاسي Pagasae حيث قضى شتاءه، قال تميستوكلس من خطبة عامّة في أهل أثينا إن لديه فكرة في عمل شيء سيكون ذا نفع عظيم لهم وآثاراً كبيرة في سلامتهم ولكن لا يجمل التصريح به أو إذاعته. فأمره الأثينيون بأن يكشفه لأريستيدس فقط فإذا وافق عليه باشره. وعندما أبلغه أن خطته هي إحراق الأسطول الإغريقي في ميناء پاغاسي، خرج أريستيدس إلى الجمهور وأدلى برأيه في الحيلة التي تفتّق عنها ذهن تميستوكلس، وقال في وصفها: «لا يوجد اقتراح أخبث منه ولا أخزى»، وعند ذلك أمر الأثينيون تميستوكلس بألاّ يفكر فيها.

واقترح اللقيديميّون في الجمعية العامة الأمفكتيونية أن يُطرد من المجلس ممثلو تلك المدن التي هي ليست أعضاء في العصبة، أو التي لم تحارب الفرس. فقام تميستوكلس يعارض هذا الاقتراح ويساند نوّاب تلك المدن خشية أن يؤدّي إخراج التساليين وأهل ثيبه وأرغوس وغيرها إلى أن يغدو اللقيديميّون هم المسيطرين على الأصوات في المجلس. ونجح في إقناع الأعضاء المجتمعين بتغيير رأيهم في هذا الموضوع موضحاً لهم أن المدن التي ساهمت في الحرب لا تزيد عن واحدة وثلاثين وأن معظمها في منتهى الصغر. وأنه ليس من الممكن أو المعقول أن تُستثنى مدن

(٦١) «الفرسان» وقول أرسطوفان هذا هو هجاء في معرض المديح. إنه يلوم تميستوكلس لأنه عمل على إشاعة التحلل الخلقي والتفسّخ في المدينة وهو من مظاهر الموانئ.
(٦٢) كان قيام عهد الطغاء الثلاثين في أثينا ابتداء من ليساندر في العام ٤٠٤ ق.م.

يونانية كثيرة وأن يسيطر على المجلس العام مدينتان أو ثلاث مدن كبيرة. وبهذا أثار سخط اللقيديمونيين عليه، فمالوا إلى كيمون ووجّهوا كلّ رعايتهم وإكرامهم له ليجعلوه خصماً سياسياً لتميستوكلس.

وكان تميستوكلس مصدر مضايقة وإحراجٍ للحلف بإبحاره المستقيم إلى الجزر وجباية الأموال منها. ويقول هيرودوتس إنه جاء يطلب مالاً من سكان جزيرة أندروس Andros(٦٣) زاعماً لهم أنه «جاء ومعه ربّتان: ربّة الإقناع وربّة القوة»، فأجابوه «إن لديهم أيضاً ربّتين عظيمتي الحول، هما ربّة الفقر، وربّة المستحيل تقفان حائلاً دون دفع أي مبلغ من المال له». ويهجوه تيموكريون Timocreon الشاعر الروديسي ويعرّض به لتهافته على المال لقاء السماح بعودة بعض المنفيين إلى بلادهم، في حين يهمله هو صديقه وضيفه. والأبيات هي التالية:

«إن كان ذلك أن تمدح پاوسنياس، وكذلك كزانتيپوس Xanthippus
وثالثهم ليوتيخيداس، فأنا أُضيفُ إليهم أريستيديس الذي
جاء من أثينا المقدّسة، وهو الرجل الحقيقي بين الجميع.
ما دام ليتو Leto يكره تميستوكلس،
ذلك الكذّاب الخائن الغادر الذي لم يشأ إعادة صديقه
[تيموكريون] إلى موطنه ياليسوس Lalysus(٦٤)، طمعاً بالمال
لقد أخذ ثلاثة تالنتات من الفضّة وانصرف لعنة الله عليه.
ينفي بعض الناس بلا حق ويعيد بعضهم
ويقتل بعضهم الآخر، وهو لايني يملأ جيبه بالمال. وفي
المضايق عمل مأدبة من اللحم الفاسد كانت مصدر ضحكٍ وازدراء.
أكلوها ودعوا للآلهة أن يقوم أحد غيره بهذا الواجب في السنة الأخرى».

لكن تيموكريون اشتطّ في هجاء تميستوكلس وخرَق كل الحدود في التهجّم عليه بعد صدور الحكم بإبعاده - في قصيدة هذا مطلعها:

ألا يا ربّات الشعر (الميوزات) عودي إلى جميع الإغريق

---

(٦٣) هي إحدى جُزر كيكلادس بين أثينا ونخسوس. وقد فصّل هيرودوتس في الطلب وفي الجواب [٧:١١١].

(٦٤) هي من مدن ساحل رودس سُمّيت كذلك نسبةً إلى لوحة مشهورة من عمل پروتوغونيس تمثل الصيّاد أياليسوس وكلبه.

وانشدي هذه الأبيات المناسبة الجميلة لهم.

والحكاية هي أن قضيّة تيموكريون كانت قد وضِعت موضع بحث هل يُنفى بسبب تعاونه مع الفرس أم لا؟ وكان تميستوكلس يحبّذ نفيه وقد صوّت ضده. فعندما اتّهم تميستوكلس بتآمره مع الميديين نظم تيموكريون الأبيات التالية بهذه المناسبة:

والآن لم يعد تيموكريون عميل الميديّين الوحيد حقاً
فهناك بعض الأوغاد الآخرين معه - ولست الوحيد
الذي خاب - فهناك ثعلب آخر نزل الميدان.

عندما بدأ أهالي أثينا يُعيرون آذاناً صاغية لأولئك الذين يثلبونه وينتقصون منه، اضطر إلى تذكيرهم بالخدمات الجليلة التي أنجزها باستمرار ولجاجة باعثة على الضيق. وسأل أولئك المستائين منه عما إذا كانوا قد ملّوا من اغتنام المنافع الكثيرة من ذات الشخص الذي يذمّونه، وبهذا القول ضاعف من كُره الناس. على أن أشدّ السخط كان مبعثه بناؤه معبداً لديانا، كتب عليه الكنية التي كنّاها بها أرسطوبول Aristobule أي «ديانا خير المشورات» مشيراً بهذا إلى أنه قدّم خير المشورات لا للأثينيين وحدهم بل لكلّ الإغريق. بناه قرب بيته في الحيّ المسمّى «ميليت» حيث يأتي ضباط الشرطة اليوم بجثث من تنفذ فيهم أحكام الموت ويرمون فيها حبال الخنق وثياب المخنوقين وسائر حاجات أولئك الذين يُقضى عليهم. وإلى يومنا هذا يوجد تمثال صغير لتميستوكلس في معبد «ديانا خير المشورات» يمثله رجلاً ذا عقلية كريمة وملامح بطوليّة فائقة الحدّ. وبالأخير نفاه الأثينيون، واستخدموا النفي بدون محاكمة لإذلاله والحطّ من كبريائه وسلطانه، كما يفعلون عادة بكلّ من قوي سلطانه وطغت عظمته بحيث ما عادت تناسب مبدأ المساواة الذي يقوم عليه البناء الجمهوري. فالنفي دون محاكمة وضِع بالأصل لا لمعاقبة المذنب بقدر ما كان لأجل قمع وتخفيف حدة الحاسدين الذين يسرّهم إذلال عظماء الرجال، فبإلصاق هذا العار بهم ينفّسون عن شيء من حقدهم وحسدهم.

بعد أن نُفي تميستوكلس(*) من أثينا، وعند وجوده في أرغوس أفادت قضية باوسنياس[٦٥] أعداءه وزوّدتهم بمزيد من الحجج ضدّه. وكان ليوبوتس Leobotes

---

(*) في سنة ٤٧٢ ق.م تقريباً.

(٦٥) هذا الرجل الفاضل هو ابن كليوبروتس، وملك لاسبارطة. دحر البارثيين في معركة بلاتيا واشتهر بالعدل والكرم والنزاهة. لكن أخلاقه انحطّت وسفلت في الأخير إذ عقد معاهدة قبيحة =

الأركولي ابن ألكيميون هو الذي اتهم پاوسنياس بالخيانة ودعمه السپارطيون في اتهامه هذا.

عندما باشر پاوسنياس في خطته الخيانية عمل على إخفائها عن تميستوكلس في مبدأ الأمر مع أنه كان صاحباً له. ولكن عندما رآه يطرد من البلاد وتبيّن شدة وقع النفي عليه أقدم على الاتصال به والإفضاء إليه بسرّه ورغب في أن يساعده، وأطلعه على رسائل ملك الفرس، وأوغر صدره على الإغريق وصوّرهم له بناكري الجميل والأوغاد. على أن تميستوكلس رفض مقترحاته، وأبى أن يكون طرفاً في المشروع بصورة مطلقة. إلاّ أنه لم يكشف سِرّ هذه الاتصالات ولم يُنهِ بسِرّ المؤامرة لأي أحد إمّا لأنه كان يأمل عودة پاوسنياس إلى صوابه، والعدول عن نيته، أو لتوقعّه بأنّ محاولةً هوجاء طائشة كهذه ترمي إلى أغراض شيطانية دنيئة ستنكشف بوسائل أخرى.

وبعد أن نُفّذ حكم الموت بپاوسنياس ووجدت في حوزته رسائل ووثائق خطيّة حول هذا الشأن تدين تميستوكلس وتضعه موضع شبهة ثارت ثائرة اللقيديمونين عليه، واتهمه أعداؤه في أثينا بالتآمر. ولما كان غائباً عن أثينا فقد قدّم دفاعه على شكل خطابات، مناقشاً بصورة خاصّة النقاط التي كانت في السابق محور اتهامه. وكان جوابه على اتهامات أعدائه الظالمة الكاذبة رسالةً بعث بها للمواطنين وذكر فيها أن الشخص الذي كان طامحاً للحكم دوماً ليس من طبيعته أن يحكم ويخدم أحداً، ولن يبيع نفسه ولا وطنه أبداً ليكونا عبدين لبلاد عدوّة بربرية.

ولم يقم المواطنون الأثينيون وزناً لدفاع تميستوكلس بعد أن اقتنعوا بأدلّة متهميه وبعثوا بقوة من الشرطة للقبض عليه وجلبه للمحاكمة أمام مجلس قضاء إغريقيّ، إلاّ أنه أنذر مسبقاً فانتقل إلى جزيرة كوركورا Corcura. وكانت حكومتها مدينةً له بفضل لأنه

= مع البارثيين أملاً في أن يساعده نفوذهم على امتلاك بلاد الإغريق كلها. وكان مشروعه يتلخّص في تسليم البلاد إلى أحشويرش وأن يحكمها هو باعتباره ملكاً تابعاً له على أن يزوّجه ابنته. [ثوكيديدس ١ :١٢٨] وما إن تبنى هذه الفكرة الغريبة حتى بدأ بتقليد العادات البارثية والنزوع إلى حياة الترف التي يعيشونها. ونبذ ارتداء ثياب وطنه البسيطة. وصبر الإيفوري عليه بعض الوقت ليتوفر لهم الدليل القوي على مشاريعه الخيانية. وما إن وضعوا أيديهم عليها حتى أصدروا أمراً بإيداعه السجن لكنه هرب والتجأ إلى معبد مينرفا خلقيوخوس فما كان منهم إلاّ أن بنوا جداراً سدّوا به المداخل وقامت والدته بوضع أول حجر في البناء. وعندما أشرف على الموت جوعاً تمكنوا منه. وما إن وفقوا إلى سحبه خارج المعبد حتى أسلم الروح [توكيديدس المرجع نفسه ١٣٤] و[ديون ٩ :٤٠].

اختير فيما مضى حكماً في نزاع بينها وبين الكورنثيين(٦٦) فصل فيه بفرض مبلغ قدره عشرون تالنتا يدفعه الكورنثيّون، واعتبر عمدة ليوكاس Leucas وجزيرتها مستعمرة مشتركة للمدينتين. ومن كوركورا هرب إلى أپيروس والأثينيون واللقيديمونيون يجدّون في أثره. وكان يتشبّث بفرص نجاة يائسة تبدو مستحيلة. فقد فرّ لاجئاً إلى أدمتوس Admetus ملك المولوسيّين. وكان هذا قد طلب طلباً من الأثينيين في عهد حكم تميستوكلس وأوج سلطانه فرفض الطلب بشدّة واحتقارٍ وإهانة، حتى أظهر الملك المهان ما يدلّ على أنه سيثأر لنفسه منه إن ظفر به. على أن تميستوكلس في سوء حظّه هذا كان يخشى كره جيرانه الأخير ونقمة مواطنيه عليه أكثر من خشيته سخط الملك - ولذلك وضع نفسه تحت رحمته وأذلّ نفسه أمامه فبضراعاته بأسلوب غريب يختلف عن عادات البلاد الأخرى. إذ حمل ابن الملك وكان طفلاً وجثا بالقرب من المستوقد أمام آلهة البيت، وهذا هو أقدس وأعلى أسلوب في الاستجارة عند المولوسيين لا يمكن رفضه مطلقاً. ويقول بعضهم إن فثيا Phthia زوج الملك هي التي أشارت على تميستوكلس بهذه الطريقة(٦٧) ووضعت طفلها أمام المستوقد. وقال آخرون إن الملك نفسه بالاتفاق مع تميستوكلس أعدّ وأخرج هذه التمثيلية ذرّاً للرماد على العيون، حتى يكون مقيّداً بعهدٍ ديني يمنعه من تسليم المستجير لمطارديه. وفي ذلك الزمن قام إپقراطس Epicrates الأخارني Acharnae بارسال زوجه وأطفاله إليه سِرّاً من أثينا. ودفع حياته ثمناً لهذه الخدمة فقد أدانه كيمون وأعدمه الحياة. وفي رواية أوردها ستسبمروتوس (ربّما ناسياً ذلك بشكل ما، أو مستهدفاً إظهار تميستوكلس بمظهر القليل الإهتمام) قال إن المنفيّ أسرع يُبحر إلى صقلية، وهناك طلب يد ابنة هيِرو طاغية

---

(٦٦) قدّم تميستوكلس لأهل كوركورا خدمة هامة: كانت دويلات الإغريق تهّم بشن الحرب على هذه الجزيرة لأنها لم تنضمّ إلى الحلف الأعظم ضد أحشويرش. لكن تميستوكلس عارض الفكرة بقوله: لو عاقبنا بهذا الشكل كل من لم ينضّم إلى الحلف لأوقعنا بالبلاد الإغريقية ضرراً يفوق كثيراً ما كان سينالها من أذىً على يد الغازي. وعلى أية حال فقد غلب الخوف الذي كان يعتمل في أحشاء أهل الجزيرة على عرفان الجميل فلم يستقبلوا تميستوكلس خشية أن يثيروا مشاعر أثينا وسپارطه ضدهم. ورفضوا أن يقبلوه ضيفاً عندهم وبعثوا به إلى إيبيروس. [ثوكيديدس ١ :٣٠]. تُعتبر ليوكاس مستوطنة كورنثية صرفة.

(٦٧) ليس بالشيء اللافت للنظر أن يقدّم المستجير أدعيةً لآلهة بيت الذي استجاره. كما فعل أوليوس عند وصوله بلاط الكينونوس (الأوديسي ٧:١٥٣) أمّا أن يقدم على ذلك وابن الملك بين ذراعيه مضمومٌ فتلك واقعة غير اعتيادية.

سيراقوس ووعد أباها أن يُخضع له بلاد الإغريق. ولمّا رفض هيرو طلبه غادره إلى آسيا. إلاّ أن هذه الرواية مشكوك فيها، بدليل ما كتبه تيوفراستس في مؤلفه [الملَكية المطلقة Monarchy] قال: لما أرسل هيرو خيل سباق إلى الألعاب الاولمبية، ونصب سُرادقاً فخماً باذخاً، ألقى تميستوكلس خطبة على الإغريق حمل فيها عليه وحرّضهم على قلع خيمة الطاغية ومنع خيله من المشاركة في السباق.

ويذكر ثوكيديدس بعد أن وصل تميستوكلس بحر إيجه عن طريق البرّ استقلّ سفينة من بيدنا Pydna على خليج ثيرم Therme. ولم يكشف عن هويّته طوال وجوده على ظهر السفينة حتى تبيّن له أن الريح تدفع بالسفينة قريباً من نكسوس(*) وارتعب إذ رأى الأثينيين يحيطون بها. فكشف عن حقيقته لقبطان السفينة وملاّحها، وبين الرجاء والتهديد بقوله إنه سيتّهمهما بمساعدته وبقبولهما رشوة مالية منه إذا خطر ببالهما أن يقتربا من الساحل وسيجعل الأثينيين يعتقدون بأنهما كانا يعرفان هويّته عندما حملاه. وهكذا أرغمهما على الإقلاع والابتعاد وتوجيه السفينة إلى ساحل آسيا. ونقل أصدقاؤه جزءاً كبيراً من ثروته سرّاً وبعثوها وراءه إلى آسيا عن طريق البحر، في حين أن ما اكتشف وصودر منها قاربت قيمته الثمانين تالنتاً على ما يذكر ثيوفراستس، ويقول ثيومپوپوس بل مائة تالنت، في حين لم يقوّم تميستوكلس بأكثر من ثلاثة تالنتات قبل أن يتولّى الشؤون العامة(٦٨).

عندما وصل كيمه Cyme وعلم أن الكثير من الرجال يكمنون له على طول الساحل ولاسيما إيرغوتيلس Ergoteles وپثيدوروس Pythodorus (إن القنيصة تسوى عناء الصيد لمن يكون شاكراً إن كسب مالاً بأية وسيلة. وقد أعلن ملك الفرس للعموم عن استعداده لدفع مكافأة نقدية قدرها مائتا تالنت لمن يقبض عليه) فهرب إلى إيجي Aegae وهي بلدة أيوليّة صغيرة، لا يعرفه فيها أحد غير مستضيفه نيقوجينس Nicogenes أغنى أغنياء أيوليا ومن أشهر من يعرف عند عظماء الرجال في داخلية آسيا. وفيما كان تميستوكلس يسكن داره متخفيّاً لعدة أيام وقع أولبيوس Olbius معلّم أولاد نيقوجينس في غيبوبة وأدركته نوبة وجدٍ إلهي على أثر تضحية عقبها عشاء. ونطق بالنبوءة التالية شعراً:

(*) حوالي ٤٦٩ ق.م.

(٦٨) هذا لا يستقيم قط مع ما وصفه پلوتارخ من البذخ والعزّ الذي كان يستمتع به تميستوكلس قبل أن يتولّى وظيفة عامة.

«الليل سيتكلم - والليل يرشدك بصوت الليل وسيسدّد خطاك»(٦٩)

وبعدها آب تميستوكلس إلى فراشه ورأى في الحلم حَيّة تلتفّ على نفسها فوق بطنه ثم تزحف إلى عنقه ثم ما إن تمسّ وجهه حتى تنقلب إلى عُقاب نشر جناحيه فوقه ورفعه وطار به مسافةً بعيدة، ثم ظهر له قضيب المنادي الذهبي. فما كان من الطائر إلاّ أن حَطّ به آمناً بعد متاعب ومشاقّ لا تُحصى.

وتمّ رحيله عن نيقوجينس بركون هذا إلى الحيلة التالية:

إن أقوام البرابرة ومنهم الفرس، هم بصورة خاصة شديدو الغيرة والشكّ والصرامة بخصوص نسائهم، لا زوجاتهم وحدهن بل إمائهن المشتريات وجواريهن، ويحرصون عليهن ويحجبونهن عن الأعين ولا يدعونهن خارج الدار بل يوصدون دونهن الأبواب طوال حياتهن. وإذا سافرن، يُحملن في هوادج صغيرة تُرخى عليها السجُف من كل الجهات وتوضع فوق مركبة. فهيّأ نيقوجينس لتميستوكلس هودجاً كهذا وأخفاه فيه وحملوه في الرحلة. وأوصى الحمّالين أن يزعموا للذين يصادفونهم في الطريق أنهم يحملون فتاة إغريقية خارج أيوليا إلى نبيل في البلاط الفارسي.

يقول ثوكيديدس، وخارون Charon اللمَّپساكوسيّ Lampsacus إن أحشويرش كان قد مات وأن تميستوكلس واجه ابنه أرتحششتا، إلاّ أنّ إيفورس Ephorus ودينون Dinon وقليتارخوس Clitarchus وهيراقليدس وكثير غيرهم، يذكرون أنه التقى بأحشويرش إلاّ أن الألواح الحولية تتفق ورواية ثوكيديدس. ومع هذا لا يمكن الجزم أياً من الروايتين هي الصحيحة والمعتمدة(٧٠).

عندما جوبه تميستوكلس بأحرج موقف له، قدّم نفسه أولاً لأرطبان(٧١) وهو قائد ألفٍ، قائلاً له إنه إغريقي يرغب في أن يكلّم الملك في أمور هامة هي الآن شغله الشاغل. فأجابه أرطبان: «إن قِيَم الرجال الخُلقية أيها الغريب تختلف. فما هو شريف عند أحدهم قد لا يكون كذلك عند آخر. ولكن من الشرف والنبل للجميع أن يحافظوا

---

(٦٩) أي «اسمع نصيحة وسادتك وستنجح».

(٧٠) فيكون وصوله البلاط الپارثي في السنة الأولى من الأولمبياد التاسع والسبعين أعني في ٤٦٤ ق.م (ديودورس ٩: ٦) وهي السنة الأولى لتولي أرتحششتا العرش. ولكن بعض المؤرخين ومنهم إيفورس الكومي في «تاريخ الإغريق» وهو يلي تاريخ هوميروس في الأهمية يقول إن وصوله كان قبل هذا التاريخ بسبع سنين [ديودورس المرجع السالف] كذلك ثوكيديدس وديون والد كليتارخس الذي كتب تاريخاً لبلاد الفرس وهو من زمرة الإسكندر المقدوني.

(٧١) ابن أرطبان قائد الحرس الذي قتل أحشويرش وأقنع ارتحششتا بقتل داريوس أخيه الأكبر.

ويحترموا شرائعهم الخلقية. ولقد قيل لنا إن من خُلق الإغريق الاعتزاز بحريتهم ومبدأ مساواتهم أكثر من اعتزازهم بأيّ شيءٍ آخر. أمّا عنّا فمن شرائعنا الممتازة العديدة أننا نعتبر اكرامنا الملك وعبادته أسمى ما في شرائعنا من مبادئ، إننا نعدّه صورة لرب الكون الأعظم. فإن أنت أرضيت شرائعنا وسجدت لملكنا وعبدته ففي الإمكان أن تراه وتكلّمه، أما إذا كان رأيك خلاف ذلك فعليك أن تتصل بغيري للتوسّط لك. إذ ليس من العادات القومية هنا أن يُسمح لأي شخصٍ بمقابلته إن لم يسجد له».

أصغى تميستوكلس لهذا الكلام ثم أجاب: «أنا آتٍ يا أرطبان لأعمل على زيادة سلطة الملك ومجده، ولذلك لن أكتفي بتطبيق شرائعه على نفسي، ما دامت مشيئة الإله أن يرفع الإمبراطورية الفارسية إلى أوج العظمة، بل سأعمل على أن يزيد عدد الساجدين والعابدين له كثيراً. ولن يكون هذا إذن عائقاً لي عن الاتصال به والإفضاء إليه بما عندي». فسأله أرطبان: «ما الاسم الذي سنقدّمك به إليه؟ لأن أقوالك تدّل على أنك لست شخصاً اعتيادياً». فأجابه تميستوكلس: «لن يعلم أي انسان بذلك يا أرطبان قبل الملك». هذا ما يسرده فانياس. ويضيف إيراتستينوس Eratosttenes[٧٢] في رسالته «عن الغنى» أن تميستوكلس توصّل إلى مقابلة أرطبان بمسعى من امرأة أريتريّة كانت في حرم ذلك القائد.

قد يكون كذلك وقد لا يكون. لكن عندما أُدخل على الملك وقدّم له فروض التجلّة والتعظيم وقف صامتاً حتى أمر الملك المترجم بسؤاله عن هويّته. فأجاب: «أيها الملك أنا هو تميستوكلس الأثيني، وقد نفاني الإغريق. إن الأضرار التي ألحقتها بالفرس عديدة إلاّ أنّ المنافع التي كسبوها مني أعظم، فقد حلتُ بين قومي وبين مطاردتكم حالما سمح لي خلاص بلدي بإظهار الرعاية لكم أيضاً. لقد جئت تحدوني أفكار متفقة مع النوائب التي أصابتني، متهيئاً لاقتبال عطفكم وغضبكم معاً، مُرَحّباً بعفوكم الكريم أو مستعداً لاحتمال سخطكم العظيم، ولديكم من بني وطني شهودٌ على الخدمات التي قدّمتها لبلاد فارس. فانتفع بهذه الفرصة لتظهر للملأ سجاياك، فهذا أحرى بك وأجدى لك إرضاء حنقك. إن أنقذتني أنقذت مستجيراً بك مخلصاً، وإن فعلت خلاف ذلك فستقضي على عدوّ للإغريق».

وتكلّم أيضاً عن النذير الإلهي كالرؤيا التي حلم بها في منزل نيقوجينس، والأمر الذي نزل عليه في نبوءة دودونا Dodona حيث طلب منه جوبتر أن يقصد ذلك الذي

---

(٧٢) رعاه بطليموس أفريفيتس من مسقط رأسه كيرين للإشراف على أفلاطون الثاني.

كان اسمه شبيهاً باسمه مما فهّم أنه مرسل إليه من جوبِتر لأن كليهما عظيمان ولكليهما اسم ملك.

وأصاخ الملك السمع معجباً بروحيته وشجاعته، ولكنه لم يُجبه بشيء في حينه. إلاّ أنه أظهر فرحه أمام ندمائه المقرّبين وحمد حسن حظه وعدّ نفسه في غاية السعادة لذلك. ودعا لآلهة أهريمان(٧٣) أن يتجه رأي كلّ أعدائه اتجاه رأي الإغريق فيهينون ويطردون أشجع رجالهم من بينهم. ثم قرّب للآلهة، وعكف على الشراب ووصل به السرور حداً أنه صرخ في نومه ثلاث مرات «تميستوكلس الأثيني عندي».

وفي صباح اليوم التالي جمع الملك عظماء البلاط، وأمر بإحضار تميستوكلس أمامه فتوجّس هذا شرّاً عندما رأى الحرّاس مثلاً يرمقونه شزراً عندما يعرفونه، فيُسمعونه قارص الألفاظ. وتقدّم من ناحية الملك الذي كان جالساً والباقون سكوت، فمرّ بروكسان وهو قائد ألف، وسمعه يتمتم قائلاً دون أن يتحرك من مجلسه: «أيها الثعبان الإغريقي المراوغ الماكر! إن عبقرية الملك السامية تمكنت من إحضارك هنا». وعندما مثل أمامه سجد له كالسابق فحيّاه الملك وكلّمه برقّة قائلاً إنه مدين له الآن بمائتي تالنت، إذ من المعقول والعدل أن يتسلّم المكافأة التي خصّصها «لمن يأتي بتميستوكلس» ووعده بمال كثيرٍ وشجعه، وحضّه على التحدث معه بكلّ حرية عن شؤون الإغريق. فأجاب تميستوكلس أن حديث المرء يشبه السجّادة الفارسية النفيسة، لا تظهر زخارفها وصورها الجميلة إلاّ إذا فرشت بكامل أبعادها، فإذا ما طويت أو لُفتّ ضاعت تلك التهاويل أو بدت مشوّهةً للعين. لذلك فهو يرغب في مهلةٍ من الوقت. وسُرّ الملك بالمقارنة وسمح له بما شاء من الوقت فطلب سنة كاملة وفي خلالها أتقن اللغة الفارسية وتكلّم بها مع الملك دون مساعدة مترجم. وكان المفروض أن يتناول الحديث شؤون اليونان فحسب. ولكن حدثت في تلك الفترة تغييرات كبيرة في بلاط الملك وطُرد عدد كثير من ندمائه فاستهدف تميستوكلس لنقمة العظماء الذين تصوّروا أن الجرأة بلغت به الحدّ الذي أخذ معه يتكلم عنهم. لأن الإكرام الذي أصاب غيره من الأجانب كان لا شيء بالنّسبة لما أغدق عليه من النعم. فقد لازمه في لهوه ومجالس طربه ونزهاته في القصر ورافقه في صيده، وجعله نديماً مقرّباً حتى أنه سمح له برؤية والدته الملكة ومحادثتها مراراً كثيرة، وبأمر منه سمح له بالاطلاع على أسرار المجوسيّة وتعاليمها.

وعندما أمر الملك أن يطلب ديماراتوس Demaratus اللقيديموني ما يريد منه

---

(٧٣) أو أهريمن وهو إله الشر والظلام مسبّب الطاعون والنكبات في الثنوية الفارسية.

وسينيله طلبه مهما كان، طلب هذا أن يعيّنه على دخول ساردِيس دخولاً رسمياً، وأن يُحمل على عرش خلال المدينة وأن يزيّن مفرقه تاجٌ على عادة الملوك[٧٤]، فمدّ ميثروپوستس ابن عمّ الملك يده إلى رأس ديماراتوس ولمسه قائلاً إنه لا يملك عقلاً ملكياً يستأهل تغطيته بتاجٍ ولو أن جوپتر نفسه أعطاه برقه ورعده، لما انقلب بهما إلى جوپتر ثان! ورفض الملكُ أيضاً طلبه غاضباً وعزم ألاّ يرى وجهه أبداً، وأن لايقبل أي استرحامٍ بشأنه. على أن تميستوكلس تمكن من تهدئته وأقنعه بالصفح عنه. وقد جاء في الأخبار أن ملوك الفرس المتعاقبين بعده، ممن كانت صلاتهم وثيقة بالإغريق، عندما كانوا يدعون أيّ يونانيّ جليل القدر لخدمتهم فإنهم يكتبون له عهداً بأن قدره عندهم سيكون عظيماً مثلما كانت مكانة تميستوكلس، تشجيعاً وترغيباً لهم. ويردّدون أيضاً كيف أن تميستوكلس عندما كان يعيش عيشة رغيدة هناك، وهو قبلة أنظار الكثير، وجّه الكلام إلى أبنائه من حوله وهو جالس إلى مائدة الطعام والخدم والسّقاة يتسابقون إلى خدمته: «أولادي! كان الدمار سيلحق بنا لو لم نُدمَّر!».

ويتفق معظم الكتاب على أنه مُنح ثلاث مدن وهي مغنيزيا Magnesia وميوس Myus[٧٥] ولمپساكوس لتأمين مطلبه من اللحم والخبز والخمر، ويضيف نيانثس Neanthes من كيزيكوس Cyzicus وفانياس إلى هذه المدن مدينتين أخريين هما پاليسكپس Palaescpsis لتأمين حاجته من الثياب، وپيركوته Percote لسدّ حاجته من الفرش والأثاث المنزلية.

وفيما كان في طريقه إلى ساحل البحر لاتخاذ تدابير عسكرية ضد الإغريق، نصب له فارسي اسمه إيپكسيس Epixyes (وهو حاكم فريجيا العليا) كميناً لقتله، وكان قد أعدّ قبل زمن زمرةً من الپسيديين، ليهجموا عليه ويوقعوا به عندما يقف للاستراحة في

(٧٤) كان هذا أعظم تكريم يصدر عن ملوك الفرس.

(٧٥) إن الأراضي المحيطة بمغنيزيا الواقعة على نهر ميئاندر في آسيا الصغرى، وغير البعيدة كثيراً عن أفسس، هي أراضٍ في غاية الخصوبة، حتى أنها كانت تدرّ على تميستوكلس من غلّة ما يبلغ ثمنه أربعين تالنتاً. ولامپساكس في المضايق ينمو إلى جوارها أجود الكروم في سائر المشرق. وميوس أو ميون وهي مدينة كاريّة تقع على مصبّ النهر المذكور سابقاً - غنية بالحاصلات ولاسيما الأسماك [ثوكيديدس ١:١٣٨]. وقد جرت العادة عند ملوك الشرق أن يمنحوا أصدقاءهم وخلصاءهم غلاّت مدنٍ أو مقاطعات بدلاً من مبالغ مالية. والملك يُعطى من المدن التي تعود له مثلاً مقداراً مما تدرّه من الخمور، أو المآكل أو الأموال أو الأكسية.
وبيركوتي هي أيضاً مدينة من مدن المضايق تقع بين إيبدوس ولامپساكس. وپاليسكيس تقع في ترواد.

بلدة تدعى «رأس الأسد»(٧٦). إلاّ أن أم الآلهة تراءت له أثناء غفوة الظهر فحلم أنها قالت له: «ابتعد يا تميستوكلس عن الأسد وحاذر لئلا تقع في شدقيه، ولهذا التحذير أتوقع منك أن توقف ابنتك منسيپتوليما Mniseptolema على خدمتي». فعجب تميستوكلس لذلك وبعد أن نذر النذر المذكور للربّة حاد عن الطريق العام وقام بدورةٍ وسلك سبيلاً ثانية مغيّراً موضع استراحته المقرر، وأناخ ركبه ليلاً في العراء. إلاّ أن أحد الخيول التي تحمل أثاث خيمته سقط في النهر ذلك اليوم. فعمد خادمه إلى نشر السجاد والأبسطة المبللة وعلّقها لتجفّ. وفي الوقت نفسه لحق بهم البسيديّون وسيوفهم مُشرعة إلاّ أن ضوء القمر لم يسمح لهم بمعرفة ما هو منشور في العراء بالضبط وحسبوه خيمة تميستوكلس، وظنوه يرتاح داخلها. ولما اقتربوا ورفعوا الأبسطة المعلّقة، انتهز أتباع تميستوكلس الكافّين فرصتهم وهجموا عليهم وأسروهم. واعترافاً بفضل ربّة الأرباب عليه لإنذاره بالخطر المحدق أقام لها معبداً في مدينة مغنيزيا كرّسه باسم دندمين Dindymene أمّ الآلهة ونذر لخدمتها فيه ابنته منسيپتوليما.

وبوصوله سادريس زار معابد الآلهة، وعُني في أوقات فراغه بإصلاح بنائها وزخرفتها، وبعدد التقدمات التي تقدّم لها. ولاحظ في معبد أمّ الآلهة، تمثال العذراء النحاسي المسمّى «حاملة الماء» ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام. وكان قد أمر بصنعه وإقامته في موضعه ذاك عندما كان مراقباً للماء في أثينا، وأنفق على صنعه من الغرامات التي كان يفرضها على أولئك الذين يغتصبون المياه العامة بحرفها عن مجاريها وتحويل أنابيبها لاستعمالهم الخاصّ. وسواء أأدركه بعض الحزن لرؤية تمثاله مأسوراً أم لرغبته في إطلاع الأثينيين على الحظوة الكبيرة التي نالها من الملك، والسلطان الواسع الذي متّعه به، راح يفاوض حاكم المدينة ليقنعه بإعادة التمثال إلى اثينا. فاستشاط القائد الفارسي غضباً وأبلغه أنه سيكتب للملك بهذا، فانتاب تميستوكلس خوف شديد للعاقبة، وعمل على الاتصال بزوجات ذلك الحاكم ومحظياته ووصلهن بالهدايا النقدية حتى انفثأ غضب الحاكم. وقد جعلته هذه الحادثة أكثر حذراً وتحفّظاً في سلوكه وتصرّفاته خشية حسد عظماء الفرس وتحاملهم. ولم يواصل رحلته في أرجاء آسيا، كما ذكر ثيومپوپوس، وإنما عاش عيشة هادئة مستقرة في منزله بمغنيزيا. وقضى أياماً

---

(٧٦) لم يرد اسم ليونتكيفالس لا في سترابو ولا في ستفانوس البيزنطي أو إيلين. وأما أمّ الأرباب فهي ريا Rhea أو كيبيله Cybele أو الأم الكبرى Magna Mater، كما تسمّى أيضاً دنديميني Dindymene مشتقاً من اسم جبل دينديمون في فريجيا.

طوالاً على هذا المنوال آمناً مطمئناً يحترمه الجميع ويرفل في النعم والعطايا، ويكرمه أعاظم رجال الفرس. وكان الملك في ذلك الزمن مشغولاً في أمور آسيا الداخلية، غير مهتمّ بشؤون الإغريق.

لكن عندما شبّت الثورة في مصر، وخفّ الأثينيون إلى مساعدتها(*) ومخرت سفن الإغريق عُباب البحار حتى وصلت كليكيا وقبرص، وجعل كيمون نفسه سيّد البحار، تحوّل اهتمام الملك ثانية إلى بلاد اليونان وعزم عزماً أكيداً على تأديب الإغريق والحدّ من سلطانهم المتنامي على حساب سلطانه. وبدأ يعبّئ جيوشه ويرسل إلى القادة بأوامره العسكرية، وبعث رسلاً إلى تميستوكلس في مغنيزيا يذكّره بالوعد الذي قطعه، ويطلب منه العمل ضد الإغريق - على أن ذلك لم يزد من حقد تميستوكلس على الأثينيين ولا من سخطه؛ ولم تفتنه فكرة المجد والقيادة العليا التي سيتقلّدها في هذه الحرب. ولعلّه قدّر أن الهدف سيكون بعيد المنال، لا لأن الإغريق كانوا في ذلك الزمن تحت قيادة كيمون بصورة خاصة وغيره من القوّاد المحنّكين الذين كانوا يُحرزون النصر تلو النصر ويفوزون بمعارك رائعة، بل بالدرجة الأولى لأنه كان خجلاً من تلويث المجد الذي نالته مآثره العظيمة السابقة وانتصاراته العديدة وغنائمه العسكرية. ولذلك قرّر أن يضع حدّاً لحياته بشكل يناسب السبيل الذي سلكته فيما مضى. فقرّب للأرباب ودعا أصحابه إلى مأدبة فأكرمهم وصافحهم واحداً واحداً ثم شرب دم الثور(٧٧)، كما جاء في الرواية الشائعة، أو السمّ الناقع كما يزعم آخرون. وانتهت حياته في مدينة مغنيزيا وله من العمر خمسة وستون عاماً أنفق معظمها في الحروب والسياسة وفن القيادة العسكرية. وأُبلغ الملك بأسباب موته وكيفيته، فازداد به أعجاباً واستمر يظهر العطف لأقربائه وأصحابه.

خلّف تميستوكلس ثلاثة أبناء من زوجه آرخيّه Archippa بنت ليساندر الألوبيكي Alopece وهم أرخيبتوليس Archiptolis وبوليوكتوس Poleuctus وكليوفانتطس Gliophantus. وذكر أفلاطون أن ثالثهم كان فارساً ممتازاً فحسب وهو ما عدا ذلك شخص مغمور. وابنه الرابع الذي ولد له قبل هؤلاء واسمه نيوقليس مات صغيراً بعضّة حصان. وابنه الخامس ديوقلس تبنّاه جدّه ليساندر وخلّف بنات كثيرات منهنّ منسيبتوليما التي ولِدت له من زوجه الثانية، وتزوّجها أخوها غير الشقيق أرخيبتوليس،

(*) في السنة ٤٥٩ ق.م.

(٧٧) عندما كانوا يضحّون بالثور، تلقّى بعض دمه في قدحٍ وشربه ساخناً فقضى عليه (حسب قول بليني) لأن هذا الدم يتخثر في الحال.

وإيطاليا Italia التي تزوّجت پانثيوديس Panthaides من جزيرة خيوس. وابنته الأخرى سيباريس Sybaris تزوّجت نيقوميدس الأثينيّ. بعد وفاة تميستوكلس رحل ابن أخيه فراسيكلس Phrasicles إلى مغنيزيا وتزوّج بنتاً أخرى له اسمها نيقوماخ بموافقة أخوته وتعهّد برعاية صغرى الأولاد: آسيا. ولدى المغنيزيين ضريح فخم لتميستوكلس يقوم في وسط ساحة السوق الكبرى. ولا يستأهل مِنّا الذكر ما أورده أندوكيدس Andocides في خطابه لأصحابه حول رفاة تميستوكلس، وكيف أن الأثينيين سرقوا قبره وذرّوا رماد عظامه في الهواء. فقد اختلق هذه الرواية ليثير الحزب الأوليغارشي على عامّة الشعب. وليس ثم حيّ يجهل أن فيلارخوس Phylarchius إنما يخترع اختراعاً وينسج من الخيال في تاريخه حتى لم يكن يُعوِزه غير مرسحٍ فعلي. فقد عمل من نيوقلس وديموپوليس ابنين لتميستوكلس، ليثير العواطف ويحرّك الشجون والمشاعر، كأنّما يكتب تمثيلية مأساوية. ويقول ديودوروس الفلكي في كتابه «عن القبور» تخميناً لا عن معرفة ثابتة: يوجد بقيّة من بناء قرب ميناء پيريوس حيث تخرج الأرض بهيئة المرفق من مرتفع ألكيموس Alcimus(٧٨) عند اجتيازك اللسان الأرضي إلى الداخل حيث البحر هادئ دوماً، وعلى هذا البناء يقوم قبر تميستوكلس(٧٩) على هيئة مذبح. ويؤيد ذلك أفلاطون الكاتب الكوميدي في أبياته التالية:

«يقوم ضريحك على موضع رائع من الساحل. والتجار ما زالوا يقرئونه التحيّة مع الأرض القادمين إليها. وسيظلّ ينظر إليهم وهم غادون رائحون، خارجون داخلون. ويرقب السفن وهي تمخر الماء تحته».

وظلّت عادة إكرام نسل تميستوكلس متبعة في مغنيزيا إلى يومنا هذا. والآن يتمتع بها تميستوكلس آخر من أهل أثينا تعرّفتُ به وتوثّقت صداقتي معه في دار الفيلسوف أمونيوس.

---

(٧٨) لا يوجد موضع في أتيكا باسم ألكيموس وإنما توجد مقاطعة تسمّى أليموس وتقع شرق پيريوس اشتهرت بوجود معبد لـ«كيريس» فيها ولأنها مسقط رأس المؤرخ توكيديدس. لذلك كان مفريسيوس موفقاً في تصحيحه [پاوسنياس ١ :١٣].

(٧٩) يقول توكيديدس [١ :١٣٨] إن عظام تميستوكلس نُقلت سِرّاً إلى اتيكا بمسعى أقربائه وتطبيقاً لوصيته ودفنت هناك. إلاّ أن پاوسنياس يتفق مع ديودورس على أن الأثينيين الذين ندموا على ما فرط منهم بحق رجلهم العظيم، كرّموه بإقامة ضريح له في پيريوس. ويقول پاوسنياس إنه كان قائماً في أيامه.



أفلاطون - متحف الفاتيكان

كاميللوس

CAMILLUS

(Marcus Furius)

ت ٢٦٥ ق.م





ديانا والأيلة

من بين الأمور العديدة البارزة التي تروى عن فيوريوس كاميللوس كان أعجبها وأروعها طُرّاً أنه لم يبلغ منصب القنصل قطّ، في حين ظلّ يتقلّد أرفع القيادات بصورة مستمرة يواكبه النجاح تلو النجاح، واختير دكتاتوراً خمس مرّات، ودخل ظافراً أربع مرّات، ولُقّب بباني روما الثاني. إن السبب في ذلك يعود إلى أحوال الجمهورية ووضعها في ذلك الحين، لأن العامة رفضوا انتخاب قناصل لخلافهم مع الشيوخ[١] وانتخبوا عوضاً عنهم حكاماً أسموهم بالتريبيونات العسكريين، لهم صلاحيات القناصل وسلطاتهم كافةً. وكان المأمول من هذا الإجراء أن يتناقص أذى الحكام لأن الحكم سيكون موزّعاً على عددٍ أكبر، فوضع إدارة الحكم في أيدي ستة أشخاص لا اثنين كان فيه بعض الاطمئنان لخصوم الحكم الأوليغارشي.

تلك هي حالة الزمان عندما بلغ كاميللوس أوج مجده وعظمته. وكانت الجمعية العامة Comitia تجتمع في بعض الأحيان خلال تلك الفترة[٢] فينتخب القناصل إلا أنه

---

(١) الخلاف القديم حول توزيع الأراضي تجدّد. والعامة تصرّ على أن كل مواطن يجب أن يحصل على حصة متساوية، فيجتمع مجلس الشيوخ عدة مرات ليرفض هذا الاقتراح. أخيراً نصح إپيوس كلوديوس بكسب عدد من التريبيونات للعامة، باعتباره العلاج الوحيد لعناد المجلس والتحكم الذي يمارسه. فنفّذ الشعب هذه النصيحة إذ دفع اليأس العام بالعامة إلى انتخاب تريبيونات عسكرية بدلاً من القناصل. وقد خرج بعض التريبيونات من طبقة الپليبيان (ليڤي ٤ : ٤٨).

(٢) من ٣١٠ عندما ابتدأوا بانتخاب التريبيونات العسكريين (ليڤي ٤ : ٧) ص ٣٨٨ ق.م عندما صار القناصل ينتخبون بصورة مستمرة كان يجرى انتخاب قلّةٍ من القناصل بين حين وآخر. لكن لم ينتخب أثناء فترة إدارة كاميللوس أكثر من قنصل واحدٍ أو اثنين. وكانت الجمعية العامة مئوية القوام Centuriata إذ يتم تصويت الجمهور بمجموعات تتألف كل منها من مائة تصوّت لاختيار أصحاب المناصب الرفيعة كالقنصل، والچنسور والپريتور. وكان عدد التريبيونات العسكريين في المبدأ ثلاثة فقط.

لم يستطع إقناع نفسه بطلب المنصب القنصلي ضدّ رغبة الشعب. أمّا في وظائفه العامة الأخرى العديدة فمسلكه، عندما يكون مطلق السلطة، أن يمارسها كأنها موزّعة بينه وبين غيره. والفضل في النتائج يعود له وحده في جميعها، وإن كان ثمّ مشارك في القيادة. وعدالته جعلت حكمه آمناً من الحسد بالدرجة الأولى كما أن قابليته وكفاءته هي التي ادّخرت له المقام الأول الذي لم ينازعه فيه أحدٌ بالدرجة الثانية.

لم يكن آل فيوري Furii[٣] في ذلك الحين بيتاً رفيعاً بارزاً قط[٤]. وهو الذي رفع من شأن نفسه بأعماله. وصار يشار إليه بالبنان، فقد خدم بإمرة الدكتاتور بوستيميوس توبرتنس في المعركة الكبرى ضدّ الأكويين Aequians والڤولسيكيين Volisicians[٥]. قد خرج راكباً صهوة جواده عن بقية الجيش وهاجم العدوّ فأصيب فخذه بطعنة سنان مقذوف، فلم يأبه وترك الرمح مغروراً في مكانه واستمر يهاجم أشجع مقاتلي العدو حتى هزمهم. فأُنعم عليه لبسالته هذه بمنصب الجنصور Censor[٦] إلى جانب مكافآت أخرى، وكانت هذه الوظيفة في ذلك الحين خطيرة

---

(٣) اسم الأسرة فيوريوس وكاميللوس هو اسم الأبناء الفضلاء الذين يخدمون في هيكل أحد الآلهة. وكان كاميللوس أول من احتفظ به وجعله اسماً أخيراً له. أمّا اسمه الصغير فهو ماركوس.

(٤) ربما قصد پلوتارخ به الرفعة العسكرية لا الرفعة المدنية. ففي العام ٢٦٦ ق.م وجدنا سكستوس فيوريوس يتولّى منصب القنصلية [ديون ٨: ٣ وليڤي ٢: ٣٩]. وفي فترة تقلّ عن قرنٍ واحد ما بين تريبيونية كاميللوس الأولى وتلك الفترة نجد ما لا يقل عن سبعة عشر من هذه الأسرة قد وصلوا إلى هذا المنصب.

(٥) كان ذلك في العام ٣٢٤ ولكاميللوس من العمر ١٤ سنة أو ١٥. ومع أن المواطن الروماني لا يحمل السلاح عادة قبل السابعة عشرة، ومع أن پلوتارخ يؤكد أن شجاعته الفائقة في ذلك الحين هيّأت له الأسباب لتسنّم منصب الجنسور، فإن كان الأمر كذلك فلا بد أنه انتُخب لشجاعته فحسب إذ لم يكن من المألوف أن يُسند مثل هذا المنصب إلى حدث له مثل هذا العمر. في الواقع إن كاميللوس لم يصل إلى هذه الوظيفة إلاّ في العام ٣٥٣.

(٦) إن سلطة المحتسب (الجنسور) أول استحداثها في العام ٣١١ لتأسيس روما في زمن الجمهورية كانت جدّ واسعة. فمن صلاحياتها طرد أعضاء مجلس الشيوخ وتأنيب الفرسان وتوبيخهم، ومنع الپليبيان من الإدلاء بأصواتهم في الاجتماعات العامة. إلاّ أن الأباطرة استقلوا بها واحتكروها ولم يعد اللقب يشرّف حامله. فيعمد إلى التخلّي عنه. وأما ما ذكره پلوتارخ عند قيام كاميللوس بإجبار عزّاب الرومان على الزواج بأرامل الحرب فإنه يدخل ضمن سلطات الجنسور ويدعى: Caelibes esie Prohobento. ومن واجباتهم أيضاً الإحصاء السكاني العام Census الذي يجب إجراؤه كل خمس سنوات. انظر [ديون ١١: ١٥، ليڤي ٤: ٨-٢٤، شيشرون: ٣] وغيرهم.

ذات سلطة كبيرة. وقد أُثِر عنه عملٌ طيّب جداً خلال فترة بقائه في تلك الوظيفة. كان المقاتلون يسقطون صرعى في الحرب ويتركون أرامل كثيرات فأصدر أمراً يقضي بأن يتزوّج العازبون بهنّ طوعاً، وإلاّ تُفرض على من لا يقبل غرامةٌ شخصية، كما أنه أخضع الأيتام للضريبة كإجراء ضروريّ لتنفيذ الأمر الأول، وكانوا قبلاً معفيّين منها. وكانت الحروب المستمرة تتطلب نفقات أكثر من العادة لهم. إلاّ أن ما أضنك الرومان أكثر من أيّ شيء هو حصار ڤيي Veii. يُسمّي بعضهم هؤلاء القوم بـ«الڤيينتاني» Vientani وهي كبرى مدن التوسكان ولا تقلّ عظمةً عن روما لا في عدد الجنود ولا في مقدار السلاح، ولاعتبار نفسها على هذه الدرجة من الغنى والثراء، ولاعتدادها بفنونها وحضارتها وقوتها، دخلت في مناسبات شريفة كثيرة مع الرومان اطّلاباً للمجد والسؤدد. أمّا الآن فقد تخلّوا عن مطامحهم الغابرة بعد أن أضعفتهم الهزائم الكبيرة، فحصّنوا أنفسهم بأسوار عالية قوية وجهّزوا المدينة بمختلف أنواع الأسلحة الهجومية والدفاعية، وتموّنوا أيضاً بالقمح وكلّ أنواع المؤن والأرزاق، واحتملوا بكلّ راحة حصاراً كان على محاصريهم أشقّ مما هو عليهم وأنكى. لأن الرومان لم يتعوّدوا البقاء بعيداً عن ديارهم إلاّ في أيام الصيف ولمدة ليست بالطويلة، وكان شأنهم دوماً أن يقضوا الشتاء مع أهلهم، فلهذا اضطرهم المفوّضون [التريبيونات] إلى بناء حصون في أرض العدو وإقامة تحكيمات قوية حول معسكرهم لدمج فصلي الصيف والشتاء معاً. وساد الشكّ في أن القادة يتباطأون ويتماهلون كثيراً في تضييق الخناق على المدينة بعد أن كادت تمر السنة السابعة على الحصار(٧)، حتى بلغ الأمر إلى حَدّ إقالتهم من القيادة واختيار آخرين لإدارة الحرب ومنهم كاميللوس، فأصبح تريبيونا للمرة الثانية(٨). إلاّ أنه لم يعط في حينه دوراً في الحصار، لأن الواجب الذي وقع له بالقرعة هو قتال

(٧) من التريبيونات الستة العسكريين المعيّنين في تلك السنة اثنان منهما فحسب كانا على رأس القوات التي حاصرت «ڤيي» هما لوشيوس ڤرجينيوس ومانيوس سرجيوس. ثانيهما قاد الهجوم وأولهما أشرف على الحصار. وفيما كان الجيش منقسماً بهذا الشكل قامت قوات الفالسكيين والكاپيناتيين بالانقضاض على سرجيوس، في الوقت الذي اندفع المحصورون من الداخل وهاجموه خارج الأسوار. وظن الرومان الذين تحت إمرته أنهم يواجهون كل قوات أتروريا فانهارت معنوياتهم وتقهقروا، وكان بوسع ڤرجينيوس إنقاذ الموقف. إلاّ أن كبرياء سرجيوس أبت عليه طلب العون من زميله وقرر هذا أن لا يقدّم له أية مساعدة. فأوقع العدو مذبحة هائلة في صفوف الرومان (ليڤي ٥: ٨).

(٨) في العام ٣٩٦ ق.م.

الفاليسكان Faliscans والكاپينات Capenares[٩] الذين انتهزوا فرصة انشغال الرومان التّام فراحوا يعيثون في بلادهم سلباً ونهباً. واستطاع كاميللوس أن يكسر شوكتهما رغم حراجة موقف الرومان بحرب التوسكان، وألحق بهما خسائر فادحة وأجبرهما على الفرار والتحصن وراء الأسوار.

وفي أثناء احتدام المعارك هذه، حصلت ظاهرة غريبة أدّت إلى قلق واضطراب عظيمين في بحيرة ألبان Alban. بدت هذه الظاهرة أشبه بخارقة من الخوارق لأنها فاقت كُلّ ما سبق خَبرُه من الخوارق، وتحدّت كلّ التفاسير المعروفة على ضوء الأسباب الطبيعية[١٠]. كان وقت بدء الخريف، وقد انتهى الصيف، ولوحظ أن الفصل الجديد خلافاً للعادة لم يكن ممطراً ولا كثير الاضطراب بالرياح الجنوبية، وغاض ماء كثير من مختلف البحيرات والبرك والينابيع، التي تحفل بها إيطاليا، وبعضها جَفّ تماماً، وبعضها لم يعد فيه إلاّ حُثالة. وظلّت مناسيب مياه الأنهار واطئة جداً كما هو حالها صيفاً، إلاّ بحيرة ألبان التي تتغذّى بمياه أخرى غير مائها والتي تحيط بها الجبال ذات الأشجار المثمرة من كلّ جانب، فقد فاض ماؤها دون ما سبب (الاّ إذا كان إلهياً) وارتفع منسوب مياهها بشكل ظاهر حتى سفوح الجبال واستمر في الارتفاع إلى أن بلغ قممها. كل ذلك دون أن يعتري ماءها هياج أو ثورة. وكانت في مبدأ الأمر منظراً عجباً للرعاة والسارحين بالماشية. ولكن عندما تشققت الأرض التي كانت تمسك مياهها، بسبب ضغط كمية الماء المتزايدة، وانكسرت كما ينكسر السدّ الكبير، اندفعت المياه إلى الأراضي الواطئة بسيول عرِمة دفّاقة وطغت على الحقول المحروثة والأراضي المزروعة لتنصبّ في البحر. ولم يقتصر أثرها على الرعب الذي أشاعته في نفوس الرومان، بل ساد الاعتقاد كل سكان إيطاليا بأنها مقدّمة لحادث خارق للعادة. وكان أكثر الكلام عنها يجري في المعسكر الذي يحاصر «ڤيي»، ولذلك بلغت أنباؤها المدينة المحصورة نفسها.

وكما يحصل عادة في الحصار الطويل يلتقي كلا الفريقين ويتبادلان الحديث

---

(٩) يقول ليڤي (٥: ١٤) إن ڤاليريوس پوتيتوس، التريبيون العسكري للمرة الخامسة، هاجم الفالسكيين ودمّرهم وكذلك فعل كاميللوس بالكابيناتيين إذ أوقع بهم خسائر عظيمة في الأرواح وغنم منهم الكثير.

(١٠) كان علماء ذلك الزمن قادرين على مساعدة الرومان في فهم هذه الظاهرة الطبيعية. وسترابو الذي عاصر أغسطس كان بوسعه حَلّ اللغز أيضاً من تعليقاته على بحيرة فوچيني التي تدعى اليوم «بحيرة قلعة كوندولفو».

بعضهم مع بعضٍ. واتفق أن رومانياً وصل حبل الودّ بينه وبين أحد أهل المدينة وصار موضع ثقته، وكان هذا واسع الاطلاع في نبوءات الأقدمين، ذا شهرة فوق العادة، في تفسير الأسرار الإلهية. ولحظ الروماني أن رفيقه هذا كان في غاية السرور لحكاية البحيرة، بادي الاستخفاف بالحصار، فقال إنها ليست المعجزة الوحيدة التي حصلت للرومان فقد رأوا معجزات أخرى أعظم منها وأعجب، وانه ليودّ أن يقصّها عليه ليكون على بيّنة وإتماماً لفائدته من هذه البلايا العامة. فسارع الرجل إلى قبول عرضه متلهفاً ومتوقّعاً سماع أسرار عجيبة. فأخذ الروماني يلهيه بالكلام ويصرف انتباهه مبتعداً به شيئاً فشيئاً عن أبواب المدينة وهو مستغرق في الحديث حتى إذا صارا على مسافة بعيدة ارتمى عليه وطوّقه من وسطه (وكان أقوى منه) وبمساعدة آخرين هرعوا إليه من المعسكر حَمَلهُ مقبوضاً عليه إلى قوّاد الجيش. ووجد الرجل نفسه أمام الأمر الواقع ولم ير مناصاً مما قُدّر له، فباح لهم بنبوءة «ڤيي» السريّة. وهي أن المدينة ستبقى ممتنعة عن العدو ولا يمكن الاستيلاء عليها إلاّ إذا حُوّلت مياه بحيرة ألبان المتجهة إلى البحر عن مجراها الجديد هذا بحيث لا تعود تصبّ في البحر(١١). وأُبلغ مجلس الشيوخ بذلك واقتنعوا بالأمر، فقرّروا إرسال مندوبين إلى دلفي يطلبون الرأي من الآلهة. وكان الوفد يتألف من أناس رفيعي المقام وهم لومپينيوس كوساس Lucunius Cossas وڤاليريوس پوتيتوس Valerius Potitus وفابيوس أمبوسطوس Fabius Ambustus فأبحروا واستخاروا الآلهة. فعادوا بجواب خاص وهو أن الرومان يهملون بعض المراسم المتعلقة بالأعياد اللاتينيّة(١٢). وأما عن بحيرة ألبا فإن النبوءة أمرت أن يُحال دون البحيرة والبحر بإقامة سدّ إن كان ذلك مستطاعاً. وأن تبقى مياهها ضمن حدودها الأولى. وإن لم يكن ذلك ممكناً فعليهم أن يصرفوا الماء إلى الأراضي المنخفضة بفتح السواقي والخنادق لتجفّ. فأُبلغت الرسالة وقام الكهنة بإنجاز ما يتعلق بالقرابين وخرج الناس للعمل في تحويل الماء عن البحر(١٣).

وفي السنة العاشرة للحرب، سحب مجلس الشيوخ كل السلطات من القادة

---

(١١) يورد ليڤي (٥: ١٥) النبوءة على هذا النحو «لن تؤخذ ڤيي حتى ينضب ماء بحيرة ألبا». [انظر ريضاً شيشرون. النبوءات ١: ٤٤].

(١٢) العيد المقصود هنا هو أكثر الأعياد حرمةً عند الرومان وقد أنشأه تاركوين المكابر [ديون ٤: ١١] وكان للرومان فيه الصدارة. لكن وجب على كلّ أهالي لاسيوم حضوره والمشاركة في تضحية الثور (لجوپتر لاسيالس). وقد يمتد العيد أربعة أيام. والمّدة يحددها القناصل بمحض رغبتهم.

(١٣) ما زال هذا المشروع الهندسي باقياً ومياه بحيرة ألبا تجري خلاله.

ونصّبوا كاميللوس دكتاتوراً[١٤]، فنصّب بدوره كرنيليوس سكيبيو Cornelius Scipio قائداً للخيّالة. وكان أول عمله أنه نذر للآلهة إذا انتهت الحرب نهاية حسنة أن يُحيي الألعاب العظمى القديمة تكريماً لهم[١٥]، ويوقف معبداً على الربّة التي يسمّيها الرومان «ماتوتا» Matuta أي «الأم». ومع أن الطقوس التي تقام لها تحمل المرء على الاعتقاد أنها الربّة ليوكوثيا Leucothea. لأنهم يأخذون أمةً إلى الجزء السرّي من المعبد وهناك يضربونها بالأيدي ثم يخرجونها[١٦]، ويحملون أولاد أخوتهم بين أحضانهم بدلاً من أولادهم[١٧]. وعلى العموم فإنّ الطقوس التي تصاحب القرابين تذكّر المرء برعاية باخوس لـ«إينو» والكوارث التي أحدثتها خطيئة زوجها. بعد هذا النذر زحف كاميللوس على بلاد الثاليسكان وهزمهم في معركة طاحنة هم وحلفاؤهم الكابينات. ثم تفرّغ إلى حصار «ڤيي» ووجد أن الاستيلاء عليها بهجوم هو من الصعوبة بمكان، ومحاولة تنطوي على مخاطر جمّة، فبدأ يحفر أنفاقاً تحت الأرض وكانت التربة حول المدينة هشة سهلة الحفر، فعمد إلى حفرها على عمق كبير حتى يتعذر اكتشافها. وفيما كان العمل مستمراً بها لم يترك للعدوّ مجالاً للشكّ في حرصه على إبقائهم فوق الأسوار بهجماته المستمرة لصرف أنظارهم عن الخطة حتى امتدت الأنفاق إلى قلب المدينة وبلغت القلعة الداخلية القريبة من معبد جونو وهو أعظم المعابد في المدينة وأجلّها مكانة... قيل إن أمير التوسكان كان ساعتئذ يقرّب للآلهة، وإن الكاهن بعد أن فحص أحشاء الأضحية صاح بصوت عالٍ أن الربّة ستمنح النصر لأولئك الذين يكملون تقدمة القربان. فسمع الرومان الذين كانوا في النفق كلماته هذه ففتحوا الثغرة حالاً[١٨] وخرجوا إلى العراء بجلبة

---

(١٤) في العام ٣٩٥ ق.م ويقول ليڤي (١٩:٥): نجم عن هذا التحويل انقلاب فكري عام وحلّت الثقة محل اليأس.

(١٥) نوع من السباق يجرى في الملعب الكبير. أنشأه الدكتاتور پوستوميوس بُعيد اشتباكه مع اللاتين عند بحيرة ريكيللوس. وقد أتى ديون إلى وصف مراسيها بتفصيل.

(١٦) وتدعى أيضاً إينو Ino وهي مثل ماتوتا فقد كانت تغار من أمةٍ لها تعلّق بها زوجها أثاماس.

(١٧) كانت إينو والدة بائسة جداً. فقد شاهدت ابنها ليارخوس يقتل أباه أي زوجها. فقذفت بنفسها في البحر مع ابنها الآخر ميليكرش لكنها كانت أسعد حظاً كخالة. لقد حفظت حياة باخوس وهو ابن أختها المدعوّة سيميلي Semele [انظر أوڤيد].

(١٨) الكلمات والعبارات التي تخرج من أفواه أشخاص لا علاقة لهم في موضوع بحث أو مسألة لا دخل لهم فيها لا تهمل وإنما تفسّر بحسب الذوق فتُحمل محمل فألٍ حسنٍ أو فأل سيّئ إن انطبقت بأي شكل على قضية تشغل البال. وعندها يبذلون أقصى الجهود لتحقيق ذلك الفأل إن خيّل لهم أنه يبشّر بخير أو لتحاشيه إن أنذر بشرّ.

شديدة وقعقعة سلاح فأوقعوا الرهبة في العدو ففرّ لا يلوي فحملوا التقدمات وأخذوها إلى كاميللوس. إلا أن هذه الحكاية تبدو محض أسطورة. ومهما يكن من أمرٍ فإن المدينة اقتُحمت عنوة وانهمك الجنود في النهب وجمع كمّيات لا تحصى من الأموال والغنائم. وتطلع كاميللوس من برجٍ عالٍ إلى ما حصل فبكى أولاً مشفقاً. ولكن عندما أقبل أقرب الذين يحيطون به لتهنئته على نجاحه رفع يديه إلى السماء ونطق بالدعاء التالي: «يا جوپتر ذا الحول والسلطان، ويا أيتها الآلهة التي هي الحكم الفاصل فيما هو خير وشرّ، أنتم تعلمون بأننا لم نثأر لأنفسنا من مدينة أعدائنا الأشرار الظالمين إلاّ بسبب وجيه وإنما بدافع من الضرورة فحسب أرغمنا على ذلك. وإذا ما حصلت مصيبة في مجرى الأمور لموازنة هذا الحدث السعيد فأرجو أن تتحوّل عن المدينة وعن الجيش الروماني وتقع على رأسي وأن تصيب الرومان بأقل أذى ممكن». وبعد أن أكمل دعاءه هذا واستدار ليمضي (من عادة الرومان أن يدوروا إلى اليمين بعد العبادة أو الدعاء) عثر وسقط وسط دهشة الحاضرين جميعاً، إلاّ أنه أقال نفسه من العثرة حالاً وقال لهم إنه نال ما طلبه من الآلهة وهو حادث بسيط جداً، وقع له لموازنه أسعد حظ حُبي به الرومان.

وبعد نهب المدينة تماماً قرّر إيفاءً بنذره أن يحمل تمثال جونو إلى روما. وتهيّأ العمّال[١٩] لذلك، وقام بالتضحية للربّة، وصلّى لها قائلاً: لا شك أنه سيسرّها قبول عبادتهم لها، والتنازل متفضّلة باحتلال مكان بين الآلهة التي تُعبد في روما. وقيل إن تمثالها أجاب بصوت منخفض أنها مستعدة وراغبة. ويكتب المؤرخ ليڤي Livy أن كاميللوس أثناء صلاته لمس الربّة ودعاها وأن بعض الحاضرين صاحوا أنها ترغب في الانتقال. وأن أولئك الذين أيّدوا حصول المعجزة، ودافعوا عنها، وجدوا حجّة دامغة واحدة تعزّز دفاعهم هي حظوظ المدينة السعيدة العجيبة التي لا يمكن أن تصل بها إلى هذا الأوج من العظمة والسلطان من بداية خاملةٍ تافهة لولا العديد من الدلائل المشيرة إلى العناية الإلهية والتعاون. ومن الأعاجيب التي جرت مجراها ما لوحظ على التماثيل من حبّات العرق، أو ما سُمع من أنين يصدر عنها، وما يخيّل للناظر أنها تدور إلى الخلف وتُطبق أجفانها، إلى آخر ما ذكره المؤرّخون الأقدمون. ونحن بدورنا نستطيع

(١٩) العمال المقصودون هناك ليسوا بشغيلة اعتياديين قد ينقص لمسهم من قدر هذا الصنم الشهير [ليڤي ٥: ٢٢] وإنما هم شبان امتازوا بالوسامة يتمّ انتقاؤهم من بين سائر أفراد الجيش وسبق لهم أن أجروا مراسم التطهر وارتدوا ثياباً بيضاً ويقومون بحملها بأعظم التجلّة.

أن نروي حكايات عجيبة مختلفة من هذا القبيل، سمعناها عن أناسٍ أحياءٍ، لا يمكن أن ترفض بسهولة. إنما من الخطورة بمكان أن نشرع في تصديق هذه الحكايات، أو أن نستعجل في تكذيبها فالنفس البشرية بالغة القصور والعجز عن ضبط إرادتها، أو الصبر على حدودٍ معيّنةٍ، تراها تسبق أحياناً إلى الأوهام والتخريف. وتراها أحياناً تلجأ إلى الاستخفاف والازدراء بكلّ ما هو فوق الطبيعة. إلا أن خير الأمور أوسطها واجتناب التطرّف هو أفضل السُبل. وسواء أأدرك كاميللوس الزهو والخيلاء لمأثرته الكبرى في فتح المدينة التي كانت منافسة لروما بعد أن صمدت للحصار عشر سنين، أم أُصيب بالعظمة جرّاء إخضاعه الأقوام المجاورة، فقد اتخذ لنفسه سلطات الحاكم القضائي والمدني. إن إفراطه في الشعور بالغرور والعظمة بدا جلياً في تجاوزه حدود الأُبّهة في موكب نصره، فقد دخل المدينة راكباً عجلة حربية تجرّها أربعة خيول شهباء، وهو عمل لم يسبقه فيه قائد من قبله، ولم يجرؤ عليه أحدٌ من بعده، لأن الرومان يعدّون واسطة النقل التي هي على هذا الشكل من المقدّسات وهي وقفٌ على ملك الآلهة وأبيها لا ينازعه فيها أحد[٢٠]. وهذا العمل باعد ما بينه وبين قلوب مواطنيه الذين لم يعتادوا مثل هذه المظاهر والأبّهة.

والمأخذ الثاني الذي أخذوه عليه هو معارضته القانون الذي يقضي بتقسيم المدينة. فالتريبيونات الشعبيون تقدّموا باقتراح ينصّ على تقسيم العامّة والشيوخ إلى قسمين، أحدهما يبقى في روما والآخر ينتقل إلى المدينة المفتوحة، ويتمّ الاختيار بالقرعة. وكانوا يريدون بهذا التخفيف من زُحام مدينة روما وتوفير مجال العيش فضلاً عن ضمان سلامة حدودهم ومصائرهم بسكناهم في مدينتين كبيرتين هامتين. إذن فقد تبنّى عامة الشعب الساخط هذه الفكرة بحماسة وكانوا هم الأغلبية وأخذوا يعقدون اجتماعات مستمرة في الفوروم وينادون بضرورة وضع الاقتراح في النص محدثين ضجة كبيرة. إلاّ أن الشيوخ والنبلاء كانوا ضد الفكرة، يعارضونها بقوة محتجين بأن هذا الإجراء لن يقسمّ روما بل سيدمّرها[٢١]. وقصدوا كاميللوس يطلبون منه العون. فخشي هذا العاقبة إن وصل الأمر نهايته الجديّة وآل إلى اتخاذ قرار حاسم، فعمل على إشغال عامة الشعب

---

(٢٠) يقول ليفي [٥ : ٢٧] إنه شارك أپوللو بهذه العدّة. ويظهر أن العجلات التي تجرّها ستة خيول لم تكن معروفة عند الرومان. كما أن كاميللوس طلا وجهه بالقِرمِز وهو اللون الذي تُطلى به تماثيل الأرباب عادة.

(٢١) كانوا يخشون أنْ تتحوّل المدينتان بمرور الزمن إلى دولتين تحتربان فيما بينهما حتى تقعا معاً فريسة لأعدائهما.

بأمور أخرى، وأحبط المشروع. وهكذا أصبح مكروهاً. إلاّ أن السبب الأظهر والأعظم لبغضهم له نجم عن قضية أعشار الغنائم الحربية. والجمهور هنا قويّ الحجّة في السخط عليه إن لم يكن محقاً. إذ يبدو أنه نذر لأپوللو قبل القائه الحصار على ڤيي أن يوقف عليه عُشر الغنائم إن وقعت المدينة بيده. ثم استولى على المدينة ونهب أموالها وسواء أكره إزعاج الجنود ومضايقتهم أم نسي نذره بسبب تراكم أشغاله في تلك الفترة، فقد تركهم يتمتعون بذلك الجزء من الغنائم أيضاً. وبعد مرور وقتٍ، وبتوطدّ سلطانه، أحال موضوع النذر للبحث أمام مجلس الشيوخ. وقد أعلن الكهنة في الوقت عينه بدوام ملاحظتهم للقرابين أن هناك علامات تدل على الغضب الإلهي، وأن ذلك يتطلب عطايا وتقدمات.

وقرر مجلس الشيوخ وجوب الإيفاء بالنذر. ولما وجد من الصعب أن يعيد توزيع الغنائم قُرّر أن يدفع كل شخص عُشر حصّته من الغنيمة مع حلفه اليمين. وهذا ما أضنك الجنود وضايقهم لأنهم فقراء الحال، فبعد أن تحمّلوا الكثير من هذه الحرب تراهم يُجبرون الآن على إعادة هذا المقدار الكبير من المال من حلالهم بعد إنفاق الذي أصابهم. وتشبّث كاميللوس بأضعف دفاع بعد أن هوجم وقامت القيامة عليه مُبرراً فعلته هذه بنسيانه نذره فحسب. فاحتجوا بدورهم أن نذره ينصّ على استخلاص عُشر أسلاب العدوّ. أمّا الآن فهو يجبيها من عُشر أموال المواطنين. وعلى أية حال أعاد كلّ شخص عُشرَهُ المفروض عليه ورُسِم أن يُصنع بثمنه وعاء من الذهب المصبوب ويُرسل إلى دلفي. وكان الذهب من الندرة بمكان في المدينة، والحكام يفكرون في كيفية الحصول عليه. فاجتمعت السيدات الرومانيات وتداولن في الأمر معاً وقامت بالمساهمة في المشروع كل واحدة بشيء من حليّها الذهبية حتى اجتمع منه مازنته ثمانية تالنتات. واعترافاً بفضلهن هذا قرّر مجلس الشيوخ أن يكرمهن الإكرام الواجب، فأصدر أمره بإباحة إلقاء خُطب تأبين للموتى من النساء أسوةً بالرجال. وكانت العادة قبلها أن لا تُلقى أيّ مرثية عامة بحق امرأة ميتة[٢٢]. واختار الرومان ثلاثة سفراء من أعرق الأسر وأرسلوهم صحبة الإناء الحربيّ، الذي بدا رائعاً بدقة صنعته وجمال زخرفه. وكان

---

(٢٢) دفع للنسوة قيمة الذهب وليس بسبب هذه المناسبة بل بعدها عندما قمن بجمع كلّ حليّهن الذهبية إكمالاً للمبلغ الذي طلبه الغاليّون ليعطى لهن حق إلقاء خطب التأبين [انظر ليڤي ٥ : ٥٠]. رما الامتياز الذي أعطي لهن في المناسبة التي يذكرها پلوتارخ فهو السماح لهنّ بركوب العجلات، في مجال الألعاب العمومية وفي القرابين والعجلات المكشوفة من نوع أقل درجة في الشوارع.

البحر خطراً بهدوئه وبعواصفه على حدٍ سواء كما تبيّنوا هم بأنفسهم حتى كادوا يغرقون. وكانت نجاتهم من قبيل المعجزات عندما وصلوا إلى جزر[٢٣] أيلوس Aelus والريح رخاء. فأدركتهم سفن الليپاريين Leparians، وقد حسبوهم قراصنة، واستولوا على سفينتهم ولم ينجوا من الموت إلاّ بعد الدعاء والصلاة. وقطروا السفينة إلى الميناء وعرضوا مقتناهم وأشخاصهم للبيع عبيداً بوصفهم غنائم شرعية لأن هؤلاء كانوا قراصنة. ولم يخل سبيلهم إلاّ بشق الأنفس بعد تدخّل وتوسّط رجل واحد هو طيماسيثيوس Themasitheus، وكان يتقلّد منصب القائد، فقد استخدم كل وسائل الإقناع وأطلقهم بعد جهد كبير وأعادهم بحراسة بعض سفنه، وسهّل سفرتهم وساعدهم على تقديم النذر، ولهذا نال التكريم الذي يستحقّه في روما.

وواصل تريبيونات الشعب ضغطهم مجدداً بخصوص تقسيم المدينة، ويشاء حُسن الصدف أن تنشب الحرب بينهم وبين الفاليسكان مما أعطى الحرية لرؤساء الرومان في اختيار الحكام الذين يريدونهم، وأن يعيّنوا كاميللوس تريبيوناً عسكرياً[٢٤]، مع خمسة زملاء. وكانت الأمور تتطلب قائداً ذا سلطان وسمعة فضلاً عن التجربة والخبرة. وبعد مصادقة الشعب على الانتخاب زحف بقواته على أرض الفاليسكان وألقى الحصار على فاليري Falirii وهي مدينة جيّدة التحصين، كثيرة المؤن ومخازن السلاح، وإن أدرك صعوبة الاستيلاء عليها وما يتطلب لذلك من وقت طويل إلاّ أنه كان يرغب في إلهاء المواطنين وإبقائهم خارج المدينة منشغلين حتى لا يظلوا عاطلين في ديارهم لايعرفون ما يصنعون بأوقات فراغهم غير التحزب للتريبيونات وإثارة النعرات الحزبية والشغب السياسي. وهذا في الواقع أنجع دواءٍ للرومان، يشفيهم من كلّ الأمراض التي يعانيها الحكم لجمهوريّ، كفعل الأطباء النطاسيين.

ولم يهتم أهل فاليري بالحصار كثيراً لاعتمادهم على قوة المدينة فضلاً عن أسوارها المنيعة التي تحميها من كل جانب. فكان السكان - خلا حرس الأسوار - يروحون ويغدون في الطرقات بثيابهم العادية، والأولاد يداومون في المدارس. يأخذهم معلّمهم للنزهة واللعب بالقرب من الأسوار لأن الفاليريين كالإغريق اعتادوا

(٢٣) أيتوليان أو أيوليان: هذه الجزر التي يسكنها قوم اللياري تقع بين إيطاليا وصقلية، وسمّيت بهذا لما قيل بأنها كانت موضع سكن الرب أيكلوس Aeclus وموطن رياحه. ولطبيعتها البركانية فهنا أيضاً يعزو القدماء وجود حدّاد الآلهة فيها.

(٢٤) كان ذلك في ٣٩٢ ق.م.

تخصيص معلم واحدٍ لعدة تلاميذ تدفعهم إلى ذلك رغبتهم في تنشئة الصغار من البداية على الاجتماع ومصاحبة بعضهم بعضاً.

كان هذا المعلّم يُبطن نيّة الغدر بالفاليريين عن طريق أولادهم، ولهذا عمد إلى أخذهم يومياً إلى الخارج بالقرب من السور، ولم يكن يبتعد بهم كثيراً في مبدأ الأمر. وبعد أن ينتهوا من تمارينهم يعيدهم إلى منازلهم. ثم أخذ بالتدريج يبتعد بهم حتى أصبحوا بالتمرين المتواصل لا يخشون ولا يهابون كأن الخطر ليس قريباً منهم. وأخيراً جمعهم كلهم وأخذهم إلى ربايا الرومان. وسلّمهم طالباً أن يؤخذ هو إلى كاميللوس. فجيء به إليه ومثل أمامه في الوسط وأفاد قائلاً إنه سيّد ومعلّم أولئك التلاميذ ولكنه فضّل عطفه على كلّ الواجبات الأخرى وجاء لتسليم تلاميذه له وبهم يكون تسليم المدينة كلّها. وعند سماع كاميللوس أقواله هذه تملكه الذهول والعجب لهذا الغدر والتفت إلى الحاضرين وقال: «لا شكّ أن العنف والظلم مظهران من مظاهر الحرب بالضرورة ومع هذا فهناك مبادئ معيّنة يجب على الناس الطيّبين مراعاتها حتى في الحرب، وليس النصر غاية تبلغ من السموّ ما يبرّر لنا التحلل من واجباتنا وارتكاب أشنع الأعمال وأحطّها. والقائد العظيم يجب أن يعتمد على مواهبه وكفاءته لا على نذالة الآخرين».

وبعد أن قال ذلك أمر الضبّاط بتمزيق ثياب المعلّم الخائن وشدّ يديه إلى الخلف وسلّم تلاميذه عصيّاً وسياطاً وأمرهم بإنزال العقاب به. ثم طرده إلى المدينة. وفي ذلك الوقت اكتشف الفاليريون الخيانة وارتفع النواح والعويل في كل أرجاء المدينة لفاجعتهم بأبنائهم، وراح الرجال والنساء يتراكضون نحو الأسوار والأبواب وهم في منتهى الحزن. فإذا بهم يشاهدون التلاميذ عائدين وهم يجلدون أستاذهم العاري المكتوف اليدين، فارتفعت أصواتهم بالدعاء لكاميللوس وسمّوه بالمنقذ والأب. وأحدث هذا العمل أثره الشديد لا في الآباء وحدهم بل في بقية السكان الذين عاينوا ما وقع وامتلأوا إعجاباً وحباً بعدالة كاميللوس وعقدوا في الحال اجتماعاً عاماً أرسلوا على أثره وفداً إليه لعرض استسلامهم له، ووضع أنفسهم تحت تصرّفه. فبعث كاميللوس السفراء إلى روما، فأُحضروا أمام مجلس الشيوخ وتكلّموا عما جاؤوا بخصوصه على هذا الشكل: «إن الرومان الذين يفضّلون العدل على النصر علّموهم على حب الخضوع والطاعة أكثر من حبّ الحرية، وأنهم لا يقرّون قط بأنهم أقلّ قوة من الرومان قدر ما يقرّون بأن الرومان يفوقونهم في كرم السجايا». وأحال مجلس الشيوخ الأمر إلى كاميللوس للبتّ فيه وتقرير ما يراه مناسباً، ففرض مبلغاً معيّناً من المال على الفاليرين وعقد صلحاً مع الشعب الفاليسكاني كلّه وعاد إلى بلادهُ:

إلاّ أن الجنود الذين كانوا يتوقّعون نهب المدينة هاجموا كاميللوس بقارص الكلام عندما عادوا خالي الوفاض واتفقوا مع بقية المواطنين في نعته بعدوّ الشعب وبالرجل الذي يقف ضد المصلحة العامة. وبعد ذلك عندما جدّد تريبيونات الشعب اقتراحهم بتجزئة المدينة ووضعوه في التصويت ظهر كاميللوس معارضاً له بصورة علنية، غير مكترث برضا الجمهور عنه(٢٥)، وهاجم محبذّيه بشدة وظلّ يعارض ويناقض رغبة الجمهور وميلهم إلى أن رُفض الاقتراح، ولكنهم ظلّوا على كرههم له. حتى عندما حلّت به مصيبة عظيمة بفقد أحد ابنيه بمرضٍ، فإن الشعور بالعطف نحوه لم يخفف قط من غلواء التحامل ضدّه. ولم يكن معتدلاً في حزنه على ثكله فهو رقيق الشعور مرهف الحسّ بطبيعته وعندما قُدّم الاتهام ضدّه ظلّ في منزله يشارك نساء بيته حدادهن.

كان متّهمه لوشيوس أپيوليوس Lucuis Apuleius وموضوع التهمة هو احتجاز الأسلاب التوسكانية لنفسه. إذ أُشيع أن أبواباً نحاسية معيّنة وهي جزء من الأسلاب قد ظلّت في حوزته. وتألّب سخط الناس عليه وكان واضحاً أنهم سيتشبّثون بأي فرصة تعنّ لإدانته. فجمع أصحابه وزملاءه الجنود وغيرهم ممن تولّى القيادة معه وكان عددهم كبيراً. ورجاهم أن يحولوا دون تعريضه لتهم باطلة وضيعة وتركه هدفاً لسخرية أعدائه وسخيمتهم. فتداول أصحابه في الأمر وتشاوروا وأجابوه بقولهم انهم لا يعرفون كيف يمكنهم مساعدته في مسألة الإدانة، إلاّ أنهم سيساهمون كلّهم في دفع أية غرامة تفرض عليه. فلم يستطع تحمّل هذه المذلّة العظيمة وعزم وهو في فورة من غضبٍ على ترك المدينة والذهاب إلى المنفى. فودّع زوجه وابنه وتوجّه بهدوء نحو باب المدينة(٢٦) ووقف هناك ثم استدار وبسط يديه نحو الكابيتول وصلّى للأرباب قائلاً إنه «إذا كان خروجه من وطنه متأتياً عن الغدر وسوء النيّة لا لذنبٍ قارفه، فلتكن ندامة الرومان عنه عاجلة، ولتشهد البشرية جمعاء على حاجتهم إليه ورغبتهم في عودته إليهم».

وكان مثله مثل آخيل Achilles(*) الذي خرج إلى المنفى وهو يصبّ لعناته على

(٢٥) فاز الپاتريشي بأكثرية صوت قبيلة واحد. وسُرّوا للغاية من موقف الشعب حتى أنهم أصدروا في صباح اليوم الباكر قانوناً يقضي بمنح ستة إيكرات من أراضي ڤيي لكل ربّ أسرة، ولكل عازب لا يملك وسيلة رزق واضحة. فقابل الشعب ذلك بالسماح بانتخاب القناصل بدلاً من التريبيونات العسكريين [انظر التفاصيل في ليڤي ٥: ٣٠].

(٢٦) كان ذلك بعد الاستيلاء على فالوري بأربع سنوات أي في ٣٨٩.

(*) الإلياذة ١: ٤٩٧-٤١٢.

بني قومه وأُدين دون أن يحضر أو يقدّم دفاعاً عن نفسه وعوقب بغرامة قدرها خمسة عشر ألف آس Asse[٢٧]، وهي تعادل بعيار الفضة ألفاً وخمسمائة دراخما. وكان الآس عملة ذلك العهد، وعشرة من هذه السكة النحاسية تعدل ديناريوساً Denarius واحداً أو ما سُمّي «القطعة ذات العشرة». ولم يبق روماني واحدٌ بعد دعاء كاميللوس إلاّ وهو مؤمن أن جزاءً عادلاً فجائياً سيتبع ذلك الظلم وأنه سيصيب ثأره حتماً للغدر الذي هزّ الدنيا هزّاً وإنما وجده مرّ الطعم ووقعه أليماً. لقد نالت روما عقابها كاملاً بكل ما فيه من خزي وعارٍ وأخطار. والأمر سواء، أكانت نكبتها قضاءً وقدراً أم بسعي أحد الأرباب الذي لم يشأ أن تبقى الفضيلة مهضومة الحق لا يُنتصَف لها[٢٨].

وأوّل إشارة كانت نذيراً بالكارثة هي موت الچنصور يوليوس[٢٩] لأن الرومان يجلّون هذه الوظيفة إجلالاً دينياً ويعدّونها من الوظائف المقدسة. والأمر الثاني هو رؤيا ماركوس كويدشيوس Marcus Coedicius، وهذا رجل لايتمتع بمكانة عالية وليس من الشيوخ، لكنه عُرف بالصلاح والاستقامة. قصد هذا تريبيونات العسكر قبل خروج كاميللوس إلى منفاه، وأبلغهم بأمر يستدعي التأمل. قال إنه كان يمشي ليلة أمس في الشارع الذي يُسمّى «الطريق الجديدة» فناداه أحدهم بصوت جهوري فالتفت فلم يشاهد أحداً وإنما سمع صوتاً أقوى من صوت الآدمي ينطق بهذه الكلمات: «يا ماركوس كويديشيوس! اذهب فجر يوم الغد إلى تريبيونات العسكر». سخروا من القصة وتندّروا عليها، وبعدها بقليل خرج كاميللوس من المدينة إلى المنفى.

والغاليوّن هم من الشعب الكلتي Celtie[٣٠] قيل إنهم أُرغموا على ترك موطنهم لأن بلادهم لا تكفي حاجتهم من الرزق جميعاً فنزحوا انتجاعاً لديار أخرى. وكان فتيانهم والمحاربون فيهم يعدّون بالآلاف فضلاً عن النساء والأطفال الذين يزيدونهم عدداً، حتى بلغت بهم رحلتهم بحر الشمال واستقروا في أقصى جزء من أوروبا، بين

---

(٢٧) الآس As هي عملة زهيدة القيمة.

(٢٨) يعتقد الأقدمون أن الربّة «غـيـس» تخصصت في الاقتصاص من ذوي الأعمال الشريرة في هذه الحياة، لاسيما الكبرياء ونكران الجميل.

(٢٩) في النصّ الإغريقي خطأ ارتكبه الناسخ الجاهل فقد كتب بدل ذلك «شهر يوليوس» أي تموز. فعند وفاة يوليوس هذا استخلفه ماركوس كورنيليوس في منصب الچنسور. وافتتحت چنسوريته السيئة أن لا ينتخب چنسورٌ لملء الشاغر إذا مات السلف، وإنما يرغمون زميله الحيّ الآخر على الاستقالة (ليڤي ٥: ٣١).

(٣٠) الكلت Celtae هو الاسم الذي يطلقه الأقدمون على سكان الغرب والشمال حتى سكيثيا.

جبال پيرينيا Pyrenean وجبال الألب، بعد عبورهم جبال ريفينا Riphaean. وعاشوا ثمّ زمناً طويلاً مجاورين أقوام السينون Senones والكلتوري Celtorii(٣١). وبعد أن ذاقوا الخمر التي عرفوها لأول مرّة ايطاليا فتعلقوا بها وأشاعت فيهم نشوة ولذّة لم يجدوها في غيرها فاحتقبوا سلاحهم وزحفوا بنسائهم وأطفالهم نحو جبال الألب سعياً إلى الأرض التي تنتج ثمرة هذا العصير غير مبالين بغيرها من الأراضي. وقيل إن شخصاً يدعى أرنوس هو الذي عرّفهم بالخمر وكان المحرّض الأساسي لمجيئهم إلى إيطاليا(٣٢). وهو رجل توسكاني عريق الأصل طيّب الخلق، إلاّ أنه وقع في المشكلة التالية: كان وصيّاً على يتيم من أغنى أبناء البلاد وأجملهم صورة، اسمه لوكومو Lucumo(٣٣)، رُبّي منذ طفولته في كنفه ومع أسرته. وعندما شبّ عن الطوق لم يترك بيت مربّيه تعلّقاً به وأعلن رغبته في البقاء، وظل زمناً يغازل امرأته وتغازله وتطارحه الحب ويطارحها سِرّاً حتى لم يعد في الإمكان إبقاء عاطفتهما في طيّ الكتمان ولا إخفاؤها عن العيون. فاستأثر الشاب بالمرأة بصورة علنية فراجع الزوج القضاء، ولكنه لم ينل حقه بسبب ما تمتّع به خصمه من جاه وكثرة مالٍ، فترك بلده، ولسماعه بوجود بلاد الغال توجّه إليهم وكان دليلاً لهم في حملتهم على إيطاليا.

في مبدأ دخولهم استحوذوا على كل البلاد التي سكنها التوسكان من قديم الزمان وهي تمتد من جبال الألب إلى البحرين كما تشهد بذلك الأسماء. فالبحر الشمالي، أو الأدرياتي، أخذ اسمه من المدينة التوسكانية أدريا Adria. أما البحر الواقع إلى الجنوب فاسمه «بحر الجنوب» فحسب. وكانت البلاد كلها خصبة، حافلة بالشجر المثمر، والمراعي الممتازة، حسنة الإرواء بمياه الأنهار. وفيها ثماني عشرة مدينة كبيرة جميلة تحفل بالصناعات المختلفة والغنى، وكل مباهج الحياة وأفانين اللهو. وطرد الغاليون التوسكان منها واستقروا فيها. وقد جرى هذا منذ عهدٍ جدّ بعيد.

---

(٣١) أراضي السينوني تشمل السّين Sen والأوكسير Auxerre وترويي Troye، حتى مدينة باريس. ولا يعرف أصل الكلتري ولعل الكلمة مصحّفة. لم يرد ذكرهم عند ليفي (٥: ٣٤ و٣٥).

(٣٢) يحدثنا ليفي أن إيطاليا كان معروفة للغاليين قبل هذا الزمن بمائتين من السنين. وإن كان هو الآخر قد نوّه بقصة أونوس واستطرد ليقول إن هجرة الغاليين إلى إيطاليا وغيرها من البلدان كان سببها ضيق بلادهم عن استيعاب عددهم المتكاثر وإن الأخوين بللوفيسوس وسيكوفيسوس اقترعا على الاتجاه الذي سيسلكه كل منهما. فوقعت إيطاليا من نصيب الأول ووقعت ألمانيا من نصيب الآخر وكان الأول في رأي ليفي أوفر حظّاً.

(٣٣) لوكومو Lucumo ليس هو الاسم بل لقب الشاب وهو صاحب لوكوموني. وقد كانت أترووريا مقسّمة إلى اثنتي عشرة دويلة من تلك الدويلات.

كان الغاليون في الزمن الذي نتكلم عنه يحاصرون المدينة التوسكانية كلوسيوم Clusium. فاستنجد أهلها بالرومان وطلبوا التوسّط لدى البرابرة بالوفود والرسائل. وبعثوا بثلاثة أشخاص من أسرة «فابي» وكلهم ذوو مكانة عالية وصيت حسن في المدينة، فأحسن الغاليّون استقبالهم احتراماً لاسم روما، وأوقفوا الهجوم على الأسوار وجلسوا يتفاوضون معهم. وسأل الوفد عن الأذى الذي نالهم من الكلوسيين فألجأهم إلى الاغارة على مدينتهم، فضحك برينّوس Brennus ملكهم وأجاب قائلاً: «إن الأذى الذي ألحقه بنا الكلوسيون هو عجزهم عن الزراعة إلاّ القليل جداً من الأراضي الواسعة التي يمتلكونها وإصرارهم على التمسك بها ورفضهم التنازل لنا عن أي جزءٍ منها ونحن غرباء كثيرو العدد فقراء. وأنتم أيها الرّومان أيضاً كنتم على شاكلتنا، أضرَّ بكم الألبان، والفيديناتي Fidenate والأوربان من قبل. والآن يُلحق بكم القيينتيون والكاپينات وكثير من الڤاليسكان والڤولسكان الأذى نفسه، فتستعبدونهم وتنهبون بلادهم وتستحوذون عليها وتُقوّضون مدنهم. ولا يُعدّ عملكم هذا من قبيل القسوة والاعتداء فإنما أنتم تتبعون أقدم الشرائع، تلك التي تمنح مقتنيات الضعيف للقويّ، مبتداها الإله ومنتهاها الحيوان. فكلّ هذه الكائنات بطبيعتها تسلّم بحق الأقوى في غصب الأضعف. فكفاكم أيها الرومان شفقة على الكلوسيين الذين نُحاصرهم لئلا تعلّموا الغاليين درساً في العطف على أولئك الذين تظلمونهم، وتحرّكوا فيهم النخوة لمساعدتهم».

أدرك الرومان من هذا الجواب أنهم لا قِبَل لهم بإقناع برينّوس فقصدوا الكلوسيين وراحوا يشجّعونهم ويحرّضونهم على مهاجمة البرابرة بمساعدتهم. اقترحوا عليهم ذلك إمّا لاختبار قوة أهل المدينة، أو لإظهار شجاعتهم هم. وتمّ الهجوم وحمِيَ الوطيس بالقرب من الأسوار. وكان أحد الفابيين الثلاثة واسمه كوينتوس أمپوستوس يمتطي جواداً قوياً فأعمل به مهمازيه واندفع كالبرق نحو أحد الغاليين وهو رجل ضخم الجسم شديد العضل لمحه وهو على حصانه بعيداً عن الآخرين، ولم تكشف هويته في مبدأ الأمر لسرعة القتال ولمعان دروعه التي حالت دون تركيز الأنظار فيه، لكن برينّوس عرفه حالما جندل الغالي وبدأ بجمع شكّة سلاحه. فأشهد الآلهة على ما حصل خلافاً للتقاليد والأعراف المتبعة بين الشعوب والمعتبرة عند الجميع جزءاً من الدين، مشيراً إلى ذلك الذي جاء في سفارةٍ سلمية وهو الآن يشارك في أعمال العدوان ضدّه.

وما كان منه إلاّ أن سحب رجاله ورفع الحصار عن كلوسيوم وسار على رأس جيشه إلى روما مباشرةً. ولم يشأ أن يبدو عمله هذا ذريعةً واستغلالاً للإهانة وتوخّياً

لإبداء استعداده لتفادي أيّ سبب للقتال، فأرسل منادياً يطلب الرجل لإنزال العقاب به. وفي الوقت نفسه استمر في زحفه على رسله.

اجتمع الشيوخ في روما. وكان كهنة الڤيسيال بين الكثيرين الذين نددوا بعمل الفابيين ومن أكثرهم استنكاراً. وهؤلاء طلبوا من الشيوخ - انطلاقاً من أسباب دينية - أن يُحمّل الشخص الذي ارتكب هذا الجرم كلّ الوزر والعقاب الذي يستحقه عمله، وبذلك تبرأ ذمّة البقية. لقد نصّب نوما پومپليوس أعدل الملوك وأطيبهم خلقاً هؤلاء الڤيسيال ليكونوا حُماة للسلام وقضاةً ومُحكّمين في كل الأسباب التي تبرّر إعلان الحرب. وعمد الشيوخ إلى إحالة القضية على مجموع الشعب للبتّ فيها. وتكلّم الكهنة هناك ضدّ آل فابي كما فعلوا أمام الشيوخ. إلاّ أن العامّة استهانوا بسلطة هؤلاء إلى الحدّ الذي بادروا معه إلى اختيار فابيوس وإخوته تريبيوناتعسكريين نكايةً بهم واحتقاراً[٣٤]. ولما سمع الغاليون بذلك استشاطوا غضباً واطرحوا جانباً كل استبطاء وأسرعوا غاية ما أمكنهم إلى هدفهم يشيعون الرعب في من يمرّ به زحفهم ويذهل لعددهم وما تجهزوا به للحرب من عددٍ هائلة. واستبدّ بهم الخوف للوحشية والعنف اللذين أظهرهما جيشهم اللجب حتى أدركهم الخوف على بلادهم واعتبروها في حكم الضائعة ولم يعد لديهم شكّ في أن مدنهم ستلحق ببلادهم. ولكن الغاليين - خلافاً لما كان متوقعاً - لم يلحقوا بالمدن ضرراً خلال مرورهم، وأعلنوا أنهم ذاهبون إلى روما وان الرومان هم أعداؤهم لا غير وأنهم يعتبرون كل الأقوام الأخرى أصدقاء لهم.

وبينما واصل البرابرة زحفهم السريع ساق التريبيونات العسكريون الرومان في ساحة القتال استعداداً للحرب ولم يكونوا أقلّ عدداً من الغاليين[٣٥] (إذ كان عدد مُشاتهم لا يقل عن أربعين ألفاً) على أن غالبيتهم جنود مستجدون، لا عهد لهم بسلاحٍ قبل ذلك. زد على هذا أنهم كانو قد أهملوا فرائضهم الدينية تماماً، ولم يتسيرّ لهم أضاحٍ مناسبة ولم يستخيروا المتنبّئين وهو ما جرت به العادة في أوقات الخطر وقبل المعركة. ولم يكن الجمّ الغفير من القادة بأقلّ أهمية فهم ينتخبون زعيماً واحداً ويمنحونه لقب «دكتاتور» لإدراكهم أهمية توحيد الجنود كلهم تحت إمرة جنرال واحدٍ

---

(٣٤) كان ذلك في العام ٣٨٧ ق.م بحسب رأي بعض المؤرّخين أو ٣٨٨ بحسب رأي آخرين.

(٣٥) في الواقع كانوا أقل عدداً منهم لأن الغاليين كانوا قد حشدوا سبعين ألفاً لذلك اضطر الرومان قبل الاشتباك إلى مدّ جناحيهم بحيث أضعفوا القلب. فكان ذلك من أسباب انكسار صفوفهم بسرعة.

في الأيام العصيبة، وبوضع السلطة المطلقة كلها في يديه. أضف إلى كل هذا أن الضباط تذكروا معاملة كاميللوس لجنوده فحرصوا الآن في قيادتهم على أن يتطامنوا لجنودهم ويتحرّوا رضاهم. وتركوا المدينة وهم على هذه الحال وعسكروا بالقرب من نهر أُلليا Allia على بعد عشرة أميال تقريباً من رومه، وعلى مسافة غير بعيدة من مصبّه في التيبر. وهنا داهمهم الغاليون وبعد مقاومة ضعيفة مخزية هُزموا هزيمة شنعاء ودبّ الخلل في صفوفهم وسادتهم الفوضى ودُفعت ميسرتهم بطرفة عين إلى النهر وهلكت كلها. أما الميمنة فلم يلحقها التلف لأنها تفادت الاصطدام بانسحابها من الأرض المنخفضة إلى رؤوس التلال ومن هذه المواقع تمكن القسم الأكبر من ولوج المدينة. وأمّا الآخرون فقد هرب الكثير منهم ونجوا، وتعب العدوّ من كثرة القتل، وانسحب ليلاً إلى «ڤيي» وهو على يقين بأن رومه لن تقوم لها قائمة وأن من فيها في حكم الهلكي.

جرت هذه المعركة في حوالي التغيّر الشمسي الصيفي[٣٦] وكان البدر تمّاً. وهو عين اليوم الذي حلّت فيه الفاجعة الأليمة بالفابي عندما وقع ثلاثمائة رجل من هذه الأسرة بيد التوسكان فأفنوهم عن بكرة أبيهم. ومن هذه الخسارة الثانية ومن الهزيمة أُطلق على ذلك اليوم اسم «اللينسس» Allinsis نسبةً إلى النهر «أُلليا»[٣٧] وما زال يُسمّى به.

أما موضوع الأيام النحسة، وهل يجب علينا أن نعتبر أيّا منها كذلك، وهل أحسن هيراقليطس صنعاً في تأنيب هسيود لتقسيمه الأيام إلى أيام نحسٍ وأيام سعدٍ. وبلوغه من الجهل حدّ اعتباره الأيام سواء لا تختلف، فكلّ هذا ناقشتهُ وبحثتهُ في موضع آخر. ولكنّ مناسبة هذا الموضوع لا تجعلني[٣٨] خارجاً عن الصدد إن أوردت أمثلة قليلة تتعلق به. ففي اليوم الخامس من شهر هيپودروس البويّوسي الذي يوافق شهر هيكاتومبيون الأثيني حقق البويوسيّون نصرين فريدين، أولهما في ليوكترا Leuctra

---

(٣٦) في السادس عشر من تموز من العام ٤٧٦ ق.م سقط الفابيّ.

(٣٧) Torrento de Catine. وقد أشير إلى اليوم في التقويم الروماني إشارة واضحة باسم Dies Alliensis.

(٣٨) عمد الأقدمون إلى اعتبار أيام معيّنة أيام نحس، وأخرى أيام سعد إما لقوة سحرية عزوها في الأعداد بسبب طبيعة الآلهة التي تشرف عليها، أو جرّاء متابعة الأحداث الأليمة والسعيدة التي تقع في أيام مخصوصة. ونحن نجد أن هسيود وڤرجيل قد اهتما ببحث هذه الفروق التي لا علاقة لها بالفلسفة.

والآخر في جريستوس Gerestus وذلك قبل ثلاثمائة عام، وفيهما قهروا لاتمياس Lattamyas والتساليين(٣٩)، وبهما تأيّدت حرية اليونان واستقلاله. وفي يوم السادس من شهر بيودروميون ألحق الإغريق الهزيمة المنكرة بالفرس في معركة ماراثون. وفي اليوم الثالث هزموهم في پلاطيا Plataea، كما هزموهم كذلك في ميكاله Mycale، وفي اليوم الخامس والعشرين دحروهم في معركة أربيلا. ونال الأثينيون نصرهم البحري في نخسوس بقيادة خابرياس في تمام بدر شهر بيودروميون، وغلبوهم في اليوم العشرين منه في سلاميس كما بيّنا في رسالتنا «عن الأيام». وكان شهر ثارجيليون Thargelion أنحس شهر للبرابرة ففيه تغلّب الإسكندر على قادة داريوس في غرانيكوس Granicus، وتغلّب تيمولون على القرطاجنيّن في صقلية. في اليوم الرابع والعشرين واليوم نفسه والشهر نفسه يبدو، على قول كل من إيفورس Ephorus وكاللستينس Callisthenes وداماستس Damastes(٣٩أ)، أن طراودة فُتحت. ويظهر من الجهة الأخرى أن شهر ميتاغتنيون Metagitnion الذي يُسمّى پانيموس Panimus في بويوسيا ليس بالشهر السعيد تماماً عند الإغريق ففي اليوم السابع منه هزمهم أنتيپاطر Antipater في موقعة كرانون Cranon وألحق بهم الدمار التام. وقبلها هزمهم فيليب في خيرونيا. وفي اليوم والشهر والعام عينها أباد البرابرة كل أولئك الذين غزوا إيطاليا بقيادة أرخيداموس Archidamus(٤٠). ويهتمّ القرطاجنيون أيضاً باليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه لأنهم مُنوا فيه بأفدح الخسائر في الأرواح وبأشنع هزيمة. ولست أجهل أن الإسكندر دمّر طيبة للمرة الثانية في حدود أيام «عيد الأسرار». وبعدها في العشرين من الشهر نفسه (أي بيودرميون) اصطدم الأثينيون بالجيش المقدوني، وهو اليوم الذي أخرجوا فيه الصوفيّ أياكوس Jacchus. وفي اليوم ذاته فقد الرومان جيشهم

(٣٩) التساليون بقيادة لاتامياس اندحروا أمام البويوتيين قبيل معركة ثرموپيلي وقبل أكثر من مائة عام من معركة لفيكترا. هناك أيضاً خطأ في أسماء ومواضع بويوتية؛ فـ Geraestus جيريستوس يجب أن تقرأ Geressus جريسوس. لأن الأولى هي نتوء داخل في إيڤيا. والثانية هي قلعة في بويوتيا. راجع پاوسنياس ٩ : ١٤.

(٣٩ أ) كاللستينس المؤرخ أحد تلاميذ أرسطو. راح ضحية شكوك سيده الإسكندر المقدوني الذي كان قد دوّن سيرته. وداماستس هو من مدينة سيكيوم Sigeum. خلّف بعض الآثار التاريخية منها تاريخ أنساب «ثوسه» في حصار طروادة.

(٤٠) كان هذا الأسير في طريقه إلى نجدة تارنتوم عندما قتل في مادوريا وهي مدينة قريبة من مدينة كاسال نوڤو في كالابريا.

الذي كان بقيادة كيپيو Caepio على يد الكمبريين Cimbri[٤١]. وفي السنة التالية تغلّبوا على الأرمن وديكران بقيادة لوكوللوس Locullus.، ومات الملك أطالوس Attalus وپومپي كلّ في يوم ميلاده. والمرء يمكنه أن يتذكر كثيراً من الناس كانت حظوظهم متقلبة مختلفة في اليوم نفسه.

على أية حالٍ كان ذلك اليوم من أيام النحس عند الرومان ولأجله اعتُبر يومان آخران كذلك[٤٢] في كل شهر. وسيطر الخوف والخرافات أكثر فأكثر كما تفرض العادة. على أني أسهبت في شرح ذلك بدقة في «مسائلي الرومانية».

ولو أن الغاليين طاردوا الهاربين بعد المعركة حالاً لما نفع علاجٌ في إنقاذ روما من الدمار التام ولما سلمت البقية الباقية من الهلاك. واستبد الرعب بأولئك الذين نجوا بحياتهم من المعركة فسرى منهم وانتشر في المدينة وزرع الفوضى والقلق في النفوس. ولكن الغاليين لم يدركوا جسامة النصر الذي حازوا، وتملّكهم الفرح فعكفوا على اللهو والولائم وتوزيع الغنائم والأسلاب. وبذلك منحوا فرصة لأولئك الذين تأهّبوا لمغادرة المدينة والنجاة، وأمهلوا أولئك الذين آثروا البقاء للتأهب والإستعداد لهم. وهؤلاء الذين قرروا البقاء تركوا المدينة كلها واحتشدوا في الكاپيتول بعد أن حصّنوه بأسوار جديدة ونصبوا عليه مجانيق.

وكان في مقدمة ما اهتموا به ذخائرهم المقدسة فنقلوا معظمهما إلى الكابيتول إلاّ أن «عذارى فُستا» حملن النار المقدسة وهربن بها مع ذخائرهن المقدسة الأخرى. ويقول بعضهم إنه لم يكن في عُهدتهن غير النار الخالدة التي رسم «نوما» أن تُعبَد بوصفها مصدر الأشياء كلها. لأن النار هي أشدّ كائن فعاليةً في الطبيعة. وكل حادثٍ هو إمّا حركة، وإمّا تلازمه حركة، وكلّ أجزاء المادة الأخرى، ما دامت بدون حرارة، تبقى جامدة ميتة وتتطلب إضافة نوع من الحياة أو الفعالية في عنصر الحرارة، وعند هذه الإضافة - بأي شكلٍ تمّت - فإن المادة تكتسب قابلية الفاعلية، أو المفعوليّة. ولهذا السبب جعل نوما للنار حُرمة وقدسيّة، وأمر أن تبقى مشتعلة باستمرار بوصفها صورة للقوة الخالدة التي تنبعث منها وتصدر عنها كل الأشياء، ولهذا عُرف نوما بالنبوغ والحكمة التي أدّت بالناس إلى الظنّ بأنه متصل بالميوزات. ويقول بعضهم الآخر إن هذه النار تبقى موقدة أمام الذخائر المقدسة، كما تبقى في بلاد اليونان لأجل التطّهر،

---

(٤١) حصل هذا في العام ١٠٤ ق.م وكانت خسارة الرومان تربو على ثمانين ألفاً.

(٤٢) اليوم الذي يلي «كالند» واليوم الذي يلي «إيدز» في كل شهر.

وإن هناك أشياء أخرى مكنوزة في أكثر أجزاء المعبد سرّية لتظّل في نجوة عن الأنظار كافة، خلا تانك العذارى اللاتي يُسمّين بالفستالات. وأكثر الآراء شيوعاً هو أن تمثال «باللاّس» الذي جلبه إينياس إلى إيطاليا محفوظٌ هناك. على أن بعضهم يقول إن تماثيل الساموتراقيين Samothracions هي المحفوظة هناك ويقصّون كيفية نقل دردانوس Dardanus(٤٣) لها إلى طروادة، وكيف أنه أقام تلك الطقوس عند بنائه المدينة وأوقف تلك التماثيل عليها. وبعد أن تمّ الاستيلاء على المدينة سرق إينياس تلك التماثيل واحتفظ بها لديه حتى جاء إلى إيطاليا. إلاّ أن أولئك الذين يدّعون معرفة بالموضوع أكثر من هذا يؤكدون وجود برميلين حجمهما ليس بالكبير أحدهما مفتوح ليس فيه شيء، والآخر مختوم وممتلئ. ولكن لم ير أيّ واحدٍ منهما مخلوقٌ خلا أقدس العذارى. ويظنّ آخرون أن من يقول هذا واهمٌ وأن مصدر وهمه هو أن العذارى وضعن معظم ذخائرهن المقدسة في برميلين في زمن الغزو الغاليّ هذا، وأخفينها تحت أطباق الثرى في معبد كويرينوس ومنذ ذلك الزمن والموضع يسمّى «البراميل».

ومهما يكن من أمرٍ، فإن العذارى حملن أثمن الأشياء وأهمّهما، وهربن بها، واخترن طريق فرارهن بمحاذاة النهر، حيث كان يسلك الطريق نفسه مواطن بسيط من رومه يدعى لوشيوس ألبينيوس Lucius Albinius وهو من بين من فرّوا. وقد أدركهنّ بعجلته التي حمّلها زوجته وأطفاله ومتاعه، وشاهدهنّ وهن يرزحن تحت عبء الذخائر المقدسة الخاصة بالأرباب، وفي حالة من الإعياء والضنك لا توصف، فأنزل زوجه وأطفاله وأخرج أمتعته وأركب العذارى في العجلة لكي ينجين بها إلى إحدى المدن الإغريقية(٤٤). إن هذا العمل الورع والاحترام الذي أظهره ألبينيوس بهذا الشكل البارز تجاه الآلهة في هذا الوقت العصيب لا يمكن أن يمرّ به المرء مَرّ الكرام ولا يصحّ

---

(٤٣) قيل إن دردانوس الذي عاصر موسى الكليم (حوالي ١٤٨٠ ق.م) كان أصله من أركاديا. وقد رحل عنها إلى ساموثراكي. وبعدها تزوج «ناتيا» أو «أريستا» بنت تيوكر Teucer فريجيا. ذكرنا فيما سبق شيئاً عن الآلهة الساموثراكية، ونزيد هنا قول ماركوبيوس وهو أن الإلهة ماكين Dü Magni التي جلبها دردانوس من ساموثراكي هي في الواقع إلهة البيت التي جاء بها إينياس من هناك إلى ايطاليا. ويقول ديون إنه شاهد تلك الإلهة في معبد قديم بروما. وهما من صناعة موغلة في القدم تمثلان شابين جالسين وبيد كلٍ رمح.

(٤٤) يذكر ليفي أن البينوس قادهم إلى كايري، وهي من مدن أتروريا وحسن استقبالهم. وكان بينهم بعض الكهنة والكاهنات الرومان الهاربين. بقيت الفستالات زمناً طويلاً في كايري يمارسن واجباتهن الدينية المعتادة. ومن هنا جاءت كلمة كيريمونيا Ceremonie كنعتٍ لطقوسهن.

السكوت عنه. على أن الكهنة الذين يخدمون أرباباً أخرى، وأكبر الشيوخ سِنّاً، وهم قناصل سابقون لمّا ذاقوا لذة النصر وتمتعوا به، عَزّ عليهم مغادرة المدينة. فارتدوا ثيابهم الدينية المقدسة والنفيسة. وقام فابيوس الكاهن الأعلى بإكمال مراسم الصلاة وقدّم الجميع نذورهم إلى الآلهة(٤٥). وبعزم منهم على جعل حياتهم فداءً لبلادهم جلسوا كُلّهم على كراسيهم العاجية في الفوروم(٤٦) منتظرين ما سيأتي به القدر. وفي اليوم الثالث للمعركة ظهر برينّوس على رأس جيشه في المدينة، ووجد أبوابها مفتوحة على مصاريعها ليس عليها حراس ولا رأى فوق الأسوار جنوداً، فداخله الشكّ أوّل الأمر وظنها خطة مبيّتة للإيقاع به، أو حيلة لاستدراجه، ولم يحلم أن الرومان بلغوا هذا الحَدّ من اليأس والقنوط. لكن لما تحقق من الأمر دخل من الباب الكولليني Colline واستولى على روما في المائة الثالثة والسنة الستين من بعد بناء المدينة بزمن قليل. هذا إن جاز لنا افتراض وجود سجلّ تاريخي دقيق بالأحداث السابقة(٤٧) التي كانت هي نفسها السبب في صعوبة تحديد الفترات الزمنية للأحداث التاريخية التالية لها. ويبدو أن بعض الإشاعات البسيطة قد تسرّبت إلى بلاد اليونان عن فتح المدينة. إذ نرى هيراقليدس پونتيكوس الذي عاش بعد هذه الحوادث بزمن وجيز(٤٨) يتحدث في كتابه «عن الروح»: بأن خبراً ورد من الغرب عن جيش متقدم من بلاد الهيپربوريين Hyperborian قد استولى على مدينة إغريقية تدعى روما وأن الغزاة استقروا في موضع ما من تخوم البحر المحيط. ويظهر أن أفلاطون الفيلسوف كان قد سمع أنباء صحيحة عن فتح الغاليين المدينة، لكنه يُسمّي منقذها «لوشيوس» في حين لم يكن هذا لقب كاميللوس، بل «ماركوس»، على أن هذا موضع أخذ وردّ وتخمين. ونعود إلى موضوعنا: بعد أن وقعت روما في قبضة برينّوس، وضع حرساً قوياً حول الكاپيتول ثم

---

(٤٥) يعتقد الرومان أن الاضطراب والفوضى سيشيعان بين صفوف العدو بهذه القرابين التي تقدّم لربّة جهنّم.

(٤٦) هذه الكراسي العاجية كورولي Curule لايجلس عليها إلاّ من تقلّد أرفع المناصب. إن من يحق له استخدامها يحمل أيضاً عصا عاجيّة.

(٤٧) يقول ليفي (٦: ١): في تلك الأزمان لم يهتم الرومان كثيراً بالكتابة. ثم إن تعليقات الكهنة وغيرها من المدوّنات المتخلفة الخاصّة منها والرسمية قد تلفت عندما أحرق الغاليون المدينة.

(٤٨) عاش في ذلك العصر بالذات. كان أوّلاً تلميذاً لأفلاطون ثم لأرسطو. وكان أفلاطون في الحادية والأربعين عندما اجتيحت روما. وهذا الاحتلال لم يخلّف صدى داوياً في بلاد الإغريق مما يدلّ على أن العلاقة بين القطرين كانت ضعيفة لا يؤبه بها.

قصد الفوروم وهناك علته الدهشة لمنظر العدد الكبير من الرجال وهم جالسون على تلك الصورة والصمت يخيّم عليهم. ولاحظ أنهم لم يقوموا عند مجيئه ولم تتحرك عضلة في وجوههم أو تغيّر شيء من قسماتهم وإنما ظلوّا غير مكترثين أو خائفين مستندين إلى عصيّهم جالسين بكلّ سكون يحدّق أحدهم في الآخر. وبقي الغاليّون مسمّرين في الأرض برهة طويلة يتأملون بدهشة في المنظر العجيب، لا يجرؤون على التقدم إليهم أو لمسهم، متوهّمين أنهم جماعة من المخلوقات التي تفوق البشر. ثم إنّ واحداً منهم كان أكثر شجاعة من زملائه تقدّم من ماركوس پاپيريوس Marcus Papirius ومدّ يده ومَسّ ذقنه بلطف ومَسّد لحيته الطويلة فرفع پاپيريوس عصاه وأهوى بها على رأس الغالي بضربة شديدة فانتضى هذا سيفه وقتله. وبدأت بذلك المذبحة إذ حذا الباقون حذوه ووقعوا فيهم قتلاً وأفنوهم ثم استداروا ليضعوا السيف في رقاب كل من اعترض سبيلهم وراحوا ينهبون البيوت ويسلبون ما فيها واستمروا عدة أيام في ذلك، ثم أشعلوا النار بها وهدموها حتى سوّوها بالقاع. وقد أثار حنقهم أولئك المتحصّنون في الكاپيتول لأنهم لم يقبلوا الاستسلام، وإنما راحوا يصدّون هجومهم من مواقعهم الدفاعية ملحقين بعض الخسائر. وهذا ما استفزّهم ودفعهم إلى إحراق المدينة ووضع السيف في رقاب كل من وقع في أيديهم صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أم امرأة بالغاً أم طفلاً.

واستمرّ حصار الكاپيتول زمناً طويلاً، وبدأ الغاليّون يشعرون بحاجتهم إلى المؤونة(٤٩)، وقسموا قواتهم، جزءٌ منها بقي مع ملكهم يضيّق الحصار على الكاپيتول، والباقي خرجوا للغزو ونهب المدن والقرى وانتزاع الأرزاق أينما حلّوا. وتفرّقوا إلى زُمرٍ وعصابات كل منها توجّه إلى ناحية لا على وجه التعيين وبدون خوفٍ أو اكتراث لما قد يجابهها من أخطار. على أن أكبر وحدةٍ منهم وأكثرها نظاماً توجّهت إلى مدينة أدريا وهي المدينة التي اختارها كاميللوس سكناً له منذ رحيله عن روما... وكان قد اعتزل كلّ عملٍ وقنع بالعيش الهادئ لكن روحه بدأت الآن تتوثّب ويدبّ فيها النشاط. ولم يفكر في اجتناب العدوّ أو الفرار، بل في التربّص بفرصة للثأر منه وكان مدركاً أن الأدرياتيين لا يشكون نقصاً في الرجال وإنّما هم بحاجة إلى المغامرة والتدريب بسبب قلّة تجربة ضباطهم وجُبنهم. فبدأ يتحدث إلى الشبان أوّلاً بقوله لهم إنهم يجب ألاّ

(٤٩) لم يكن الغاليّون مستعدين للحصار كما أن كلّ احتياطي الغلّة كان مختزناً في «ڤيي» انظر (ليڤي ٥: ٤٢).

يعزوا نكبة الرومان إلى شجاعة عدوّهم، ولا الخسائر التي نزلت بهم بسبب أفن الرأي وقيادة الرجال الذين لا حقّ لهم في النصر، وأن الحدث كان شاهداً على سلطان القدر وتحكّمه، وأنه من البسالة حتى عند الخطر أن يُصدّ غازٍ بربريّ أجنبي غايته من الحرب أن يدمّر ويخرّب كما تفعل النار. فإذا تحلّوا بالشجاعة والعزم فهو مستعد لوضع فرصة للنصر بين أيديهم دون تريث قطّ. ولما وجد الشبان ميّالين إلى ذلك قصد حكام المدينة ومجلس شوراها وأقنعهم أيضاً، ثم جَنّد كُلّ قادر على حمل السلاح ورتّبهم ووزّعهم داخل الأسوار بأسلوب يصعب على العدوّ ملاحظة وجودهم. وكان العدوّ قد اقترب بعد أن اكتسح البلاد وجرّدها من كل شيء وبات الآن وهو مثقل بالغنائم، وضرب خيامه في السهول دون أن يأخذ بأسباب الحذر والحيطة. وقضى ليلته في فجور وشراب ولهوٍ حتى خارت قوى الجنود وتطرحوا إعياءً وساد السكون التام في المعسكر. ولما علم كاميللوس من كشّافته بحقيقة الأمر خرج بالأدرياتيين عليهم، وفي هدأة الليل قطع المسافة التي تفصل بين العسكرين بكلّ سكون حتى بلغ مواقعهم وأمر بأن يُنفخ في الأنفار، وأن يطلق رجاله صيحة الحرب، فأوقع الرعب فيهم من كل جهةٍ في حين أن السكر والنعاس أثقلا حركة عدوّهم. ودفع الخوف ببعضهم إلى الصحو والعمل على تنظيم صفوفهم بكيفية ما تمكّنهم من المقاومة فترة من الزمن وماتوا وسلاحهم في أيديهم. إلاّ أن القسم الأكبر منهم فوجئوا وهم غارقون في سكرهم ونومهم فذُبحوا قبل أن تصل أيديهم إلى سلاحهم. أما الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا فقد عُثر عليهم مبعثرين هائمين على أوجههم في الحقول وأسرتهم الخيّالة التي أُرسلت لمطاردتهم.

وذاعت أنباء هذه الموقعة بسرعة وانتشرت في المدن المجاورة وبعثت روح الحماسة في الشباب ودفعتهم إلى القدوم من كلّ حدب وصوب والتطوّع في جيشه. ولم يكن متحمساً لذلك أكثر من أولئك الرومان الذين نجوا من معركة آليا ولجأوا إلى ڤيي، فقد راحوا يتحسّرون ويلومون أنفسهم بقولهم:

«أيتها السماء! أيّ قائد حرمت المشيئة الإلهية رومه لتكرم أدريا وترفع من قدرها بمآثره! وتلك المدينة التي ولدت وربّت هذا الرجل العظيم ضاعت الآن وذهب ريحها، ونحن الآن بلا قائد، خلف أسوار أجنبيّة، عاطلون نشاهد إيطاليا يحيق بها الخراب أمام أعيننا. تعالوا نبعث إلى الأدريانيين نطلب منهم إرجاع قائدنا إلينا، أو أن نذهب نحن إليه والسلاح في أيدينا، لأنه لم يعد شخصاً منفياً، ولم نعد نحن مواطنين وبلادنا في قبضة العدوّ».

واتفقوا جميعاً على هذا وأرسلوا إلى كاميللوس يطلبون تولّيه القيادة، لكنه أجاب بأنه لن يفعل ذلك إلاّ إذا أصدر أولئك الذين في الكاپيتول أمراً بتعيينه بصورة شرعية. لأنه يجلّهم ما داموا في الوجود ويعتبرهم منتخبيه(٥٠)، فإذا أمروه فسيتطيع بلا تردد، ولن يقحم نفسه في شيء إن لم يكن برضاهم. وأُعجب الرومان بتواضع كاميللوس وخُلقه عندما أُبلغوا بجوابه هذا، لكنهم وقعوا في حيرة بخصوص العثور على رسول لإبلاغ الكاپيتول بالقضية، أو بالأحرى كان يبدو ضرباً من المحال وصول أيّ شخصٍ إلى القلعة والعدوّ يطوّقها ويحتل المدينة تماماً.

وكان بين الشبان فتى اسمه پونطيوس كونينيوس Pontius Coninius من أسرة لا تمتاز بشيءٍ، لكنه جسور مقدام ملبّ لداعي المجد، عرّض نفسه لأخطار الرحلة ولم يأخذ معه أية رسالة لجماعة الكاپيتول لئلا يعرف العدوّ نوايا كاميللوس في حالة وقوعه في أيديهم. وارتدى ثياباً رثّة أخفى تحتها قطعاً من الفلّين وقطع معظم رحلته غير متخفٍّ وفي وضح النهار، حتى وصل المدينة ليلاً. ولم يتمكن من عبور الجسر لأن البرابرة كانوا يحرسونه، فنضا عنه ثيابه ولم تكن كثيرة أو ثقيلة وشدّها حول رأسه وعوّم جسمه بالفلّين سابحاً إلى المدينة فدخلها مجتنباً الأحياء التي كان العدوّ فيها يقظاً مهتدياً إلى ذلك بأصواتهم والضياء. وقصد الباب الكرمنتالي حيث الهدوء أعظم وتلّ الكاپيتول أشدّ انحداراً ووعورة لكثرة ما على سطحه من الصخور الحادة والمشققة. وصعّد هذا السفح ووصل بكثير من المشقة إلى جوف الجُرف وقدّم نفسه للحرّاس وسَلّم عليهم وأعلمهم باسمه، فأخذوه إلى القُوّاد. واستُدعي مجلس الشيوخ حالاً فشرع يقصّ عليهم بالترتيب أنباء نصر كاميللوس الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً، وأحوال الجنود ومفاوضاتهم. ثم راح يلّح عليهم بتثبيت آمريّة كاميللوس فهو الوحيد الذي يعتمد عليه بنو قومهم خارج روما. وبعد سماع المجلس ذلك ومداولته قرر تعيين كاميللوس دكتاتوراً، وأرسلوا پونطيوس من حيث أتى فتمكن من اختراق صفوف العدو من غير أن يُكتشف أمره وحالفه النجاح في إيصال قرار الشيوخ إلى الرومان خارج روما، فتسلموه فرحين.

ولدى وصول كاميللوس وجد عشرين ألف محارب شاكي السلاح متأهباً. وبهذا العدد، وبما أحضره من القوات الحليفة، تهيّأ للاشتباك مع العدوّ.

---

(٥٠) ويحدثنا ليڤي أن الجنود الرومان في ڤيي تقدّموا إلى من تبقى من أعضاء مجلس الشيوخ في الكاپيتول. . . بطلب الإذن لهم أن يعرضوا القيادة على كاميللوس. وهذا دليل على النضج السياسي الذي تحلّى به المواطن الروماني.

وفي روما، بينما كان بعض البرابرة يمرّون بالصدفة بالموضع الذي سلكه بونطيوس ليلاً للوصول إلى الكابيتول، اكتشفوا آثار أيدٍ وأقدام في عدة أماكن مسيره وتسلّقه، كما وجدوا في مواضع أخرى بقعاً على سطوح الصخور أزيلت نبتاتها ومواضع انهيار ترابي جديد. فرجعوا إلى الملك وأبلغوه بذلك فذهب وشاهدها بنفسه ولم يقل شيئاً في حينه وعند حلول الليل اختار من رجاله البرابرة أرشقهم قدّاً وأكثرهم اعتياداً على التسلّق لعيشهم في الجبال. وخطب فيهم قائلاً:

«إن العدوّ قد دلّنا بنفسه على طريقة للتغلّب عليه لم يكن لنا علم بها من قبل، وبرهن لنا أنها ليست بالصعبة أو المستحيلة على همم الرجال. ومن العار الكبير أن نحسن العمل بالبداية ونفشل في النهاية، فيدركنا اليأس ونتولّى عن موضع متوهّمين أنه لا يُقتحم في حين أثبت لنا العدوّ بالذات وجود وسيلة قد تؤدّي إلى الاستيلاء عليه. وما يسهل بلوغه على رجل واحدٍ لن يكون صعباً على الكثير من الرجال، واحداً بعد واحدٍ، أما إن اضطلع بالأمر جماعة فسيكون كل واحد منهم عوناً وقوة للآخر وسيكافأ كُلّ رجل يُبلي بلاءً حسناً ويكرّم تكريماً».

لما سمع الغاليون أقوال الملك قبلوا المهّمة بكلّ سرورٍ، وما إن حَلّ الليل بهدوئه حتى بدأت جماعة كبيرة منهم تتسلّق المرتفع الصخري معاً بكلّ سكون متشبثين بالنتوءات الصخرية الشديدة الانحدار، ومصعّدين بمشقة لم تكن بالكبيرة كما توقّعوا في أوّل الأمر، حتى أن الزمرة الأولى منهم سبقت إلى القمّة ونظّمت صفوفها وفاجأت نقاط الحراسة الخارجية، واستولت على مواقع المراقبة وكان رجالها يغطون من نومهم إذ لم يلحظ زحفهم كلبٌ أو رجل. ولكن كان يوجد بالقرب من معبد جونو اوزّ مقدّس[٥١]، وهذا الأوزّ كان يُعنى بإطعامه وتغذيته في الأوقات الاعتيادية أما الآن فقد أمست حالته سيّئة بسبب شحّ القمح. وهذا الحيوان مستوفز، دقيق السمع بطبيعته، حسّاس لأقل صوت أو حركة، وقد زاد الجوع من رهافة حسّه وأبقاها يقظة قلقةً، فانتبهت حالاً إلى مقدم الغاليين فضجّت وراحت تصيح وتتراكض هنا وهناك حتى

(٥١) بات الأوز منذ ذلك الحين موضع تكريم أهالي روما. وظلّ يربّى عدد كبير فيه على حساب الخزينة العامة. ونُصب تمثال ذهبي للحيوان تخليداً لأولئك الأبطال. وكان يطاف بعدد من الأوز كل سنة محمولاً على وسائد من المخمل ذات زخارف ونقوش أنيقة، في الوقت الذي تمت عندهم كراهة الكلاب فكانوا يخوزقون واحداً سنوياً بخشبة [پليني وپلوتارخ].

أيقظت كل من في المعسكر. وكان البرابرة في الجهة الأخرى فأدركوا أن أمرهم قد انكشف فلم يحاولوا إخفاء محاولتهم وتقدّموا للهجوم وهم يصيحون ويضجّون. وأسرع الرومان يمسك كل منهم بأوّل سلاح تقع يده عليه، وفعلوا ما أمكنهم في ظرف مفاجئ كهذا. وكان مانليوس Manlius وهو ذو منصبٍ قنصلي، وقوة في الجسم، وشجاعة نادرة، أول من تصدّى للمهاجمين. واشتبك في قتال مع اثنين من رجال العدوّ في آن واحدٍ فقطع بحدّ سيفه ذراع أحدهم اليمنى، أثناء ما كان هذا يرفع سيفه ليهوي به، ثم صفع وجه الآخر بدرقته فسقط وهوى من أعلى الصخرة. ثم علا المتاريس ووقف صامداً فلحق به آخرون لشدّ أزره. ودفع الباقين إلى التقهقر، ولم يكن عددهم كبيراً في الواقع ولم يحققوا شيئاً يستحق الذكر في هذه المحاولة الجريئة.

بعد أن نجا الرومان من هذا الخطر أمسكو بضابط المراقبة في صباح اليوم الباكر وقذفوا به من أعلى الصخرة على رؤوس أعدائهم وصوّتوا لمنح مكافأة لمانليوس على نصره. وكانت مكافأة رمزية ترمي إلى تكريمه لا منفعته. فقد قدّم له كل رجل منهم جرايته اليومية من الأرزاق وهي نصف باوند من الخبز وثُمن باينت من الخمر.

ومن تلك الموقعة بدأت أحوال الغاليين تسوء وتتردّى يوماً بعد يومٍ، وأدركتهم الحاجة إلى الطعام، إذ لم يعد باستطاعتهم نهبه من الأنحاء المجاورة خوفاً من كاميللوس[٥٢]. وتفشّت فيهم الأمراض بسبب العدد الكبير من الجثث التي تكوّمت أكداساً ولم تدفن. ولما كانوا يعيشون بين الخرائب والرماد المتكدس طبقات كثيفة تأتي الريح وتثيره، بالإضافة إلى الحرارة الشديدة الخانقة، فقد أصبح الهواء جافاً خانقاً، وأدّى استنشاقه إلى تدمير صحتهم. على أن السبب الأساسي هو تبدّل المناخ عليهم، لاعتيادهم العيش في بلاد جبليّة كثيفة الظلّ، كثيرة الوسائل الواقية من الحرّ. وهم الآن في أرضٍ منخفضة غير صحيّة بتاتاً وفي فصل الخريف[٥٣]. أضف إلى هذا فترة الحصار الطويلة ومصاعبه، فقد تصرّمت عليهم سبعة أشهر وهم أمام الكاپيتول. ولذلك كان التلف فيهم عظيماً وتصاعد عدد الموتى بينهم حتى عجز الأحياء عن دفنهم. ولم تكن أحوال المطوَّقين في الواقع بأحسن من البرابرة مطلقاً فقد تفشّت المجاعة بينهم وزادت حدةً، وتعاظم يأسهم لعدم سماعهم شيئاً عن كاميللوس لاستحالة إرسال

---

(٥٢) كان كاميللوس بعد سيطرته التامة على الريف قد وضع حاميات ونقاطاً عسكرية في جميع الطرق، فأصبح محاصراً لمحاصريه!

(٥٣) خريف روما في العادة سيّئ.

مبعوث إليه بسبب حراسة البرابرة الشديدة. وهكذا ساءت أحوال الطرفين بحيث بدأ حديث عن الصلح فيما بين جماعات من روابا المتحاربين عندما راحوا يتبادلون الأحاديث، وتبنّى الفكرة قادة الطرفين. واتصل سولپيشيوس Sulpicius التريبيون الروماني بزعيم الغاليين برينّوس، وتمّ الاتفاق على أن يدفع الرومان ألف وزنة من الذهب للغاليين، ليجلو هؤلاء عن المدينة وتخومها حال تسلّمهم الفدية. ووثّقت المعاهدة باليمين وجيء بالذهب إلاّ أن الغاليين وضعوا موازين مغشوشة سِرّاً في مبدأ الأمر ثم أخذوا يسحبون الميزان ويخلّون بالوزن بصورة علنيّة. وطفق الرومان يحتجون ساخطين، وعندها نزع برينّوس سيفه ومنطقته بأسلوب استفزازي مهين وقذف بهما إلى كفة الموازين وعندما سأله سولپيشيوس عن القصد من ذلك أجابه: «ماذا يمكن أن يقصد منها إلاّ الويل للمغلوب؟»[٥٤]. فسارت مثلاً من الأمثال وثار الغضب ببعض الرومان حتى فكروا في حمل ذهبهم والعودة للبناء تحت وطأة الحصار. ومال بعضهم إلى التغاضي، والتغافل عن اهانة طفيفة، وأن لا يعتبروا العار في دفعهم أكثر مما هو واجب ما دام العار هو في دفع أي مبلغ مهما ضؤل، فهذا هو العارُ بحد ذاته ولا يمكن النزول إليه إلاّ عند الضرورة.

وظلّت هذه الخلافات قائمة فيما بين الرومان من جهة والغاليين من جهة أخرى، دون أن يتوصل الطرفان إلى تسوية حتى وصل كاميللوس بجيشه إلى أبواب روما. وعلم بحقيقة ما يجري فأمر القسم الأكبر من قواته أن تزحف خلفه ببطء وبنظام وأسرع هو يتقدّمها بنخبة من محاربيه، حتى بلغ معسكر الرومان فأفسح له الجميع واستقبلوه بوصفه حاكمهم الأوحد، والصمت والنظام يسودهم، فأخرج الذهب من الميزان وسلّمه إلى ضباطه وطلب من الغاليين أن يرفعوا موازينهم ومعاييرهم وينصرفوا، قائلاً لهم: من عادة الرومان أن يحرّروا بلادهم بالحديد لا بالذهب. وعندما بدأ برينّوس يضجّ ويقول إنه عومل معاملة غير عادلة بنقض هذا الاتفاق، أجابه كاميللوس: إن الاتفاق لم يبرم بصورة شرعية، والصلح غير قائم ولا تترتّب عليه أية تبعات لأنه يتقلّد منصب الدكتاتور وليس هناك حاكم شرعي غيره بحكم القانون، وأن الاتفاق عقد مع أناس لا يملكون صلاحية إبرامه. أمّا الآن فلكلّ منهم أن يبسط وجهة نظره ويقول ما يريد قوله، لأنه جاء مزوّداً بصلاحية كاملة بحكم القانون للعفو عمن يطلب عفواً ويعاقب المسيء إن ظَل مقيماً على غيّه. وعندها استشاط برينّوس غيظاً، ووقع اشتباك

---

(٥٤) Vae Victis!

آنيّ، وامتشق الجانبان السيوف والتحما بدون نظام، وكان الاضطراب لابد منه لأن ميدان المعركة كان ما بين المنازل وفي الأزقّة الضيّقة ومواضع ينتفي فيها النظام تماماً. إلاّ أن برينّوس سيطر على الموقف في الحال، وأمر رجاله بالكفّ عن القتال وسحبهم إلى معسكرهم بخسارة قليلة. ثم استيقظ ليلاً وترك المدينة منسحباً بكلّ قواته، وبعد أن قطع ثمانية أميال تقريباً خيّم على جانب من الطريق المؤدّية إلى مدينة غابي Gabii. ولم يكد الصبح ينبلج حتى أدركه كاميللوس وهو مستعد تمام الاستعداد لملاقاته بأسلحة ممتازة وبرجال مفعمين ثقة وشجاعة. ودارت رحى معركة طاحنة استمرت وقتاً طويلاً وأسفرت عن هزيمة ساحقة للغاليين مُنوا فيها بعدد كبير من القتلى وخسروا معسكرهم. وأمّا الناجون فقد طوردوا وقُتل بعضهم وتفرّق الجزء الأكبر أيادي سبأ يفتك بهم الناس الذين خرجوا إليهم من المدن والقرى المجاورة(٥٥).

وهكذا كان الاستيلاء على روما غريباً في بابه كما كان خلاصها بعد أن بقيت في قبضة البرابرة سبعة أشهر كاملة. فقد دخلوها في الخامس عشر من تموز، وطُردوا منها في حدود الخامس عشر من شهر شباط التالي. ودخل كاميللوس المدينة في موكب النصر وهو مما يستحقه فعلاً بعد أن أنقذ بلاده الضائعة وأعاد المدينة إلى أهلها على حَدّ شائع القول. وانضم إلى موكبه أولئك الذين فرّوا مع زوجاتهم وأولادهم وصحبوه إلى المدينة. وأولئك الذين حوصروا في الكابيتول وآلت بهم الحال إلى شفا الهلاك جوعاً خرجوا لاستقباله وأخذ الطرفان يعانق بعضهم بعضاً عند اللقاء، وجرت دموعهم فرحاً، ولسعادتهم التي فاقت الحدود كانوا بين مصدق ومكذب للواقع. وظهر الكهنة ورجال الدين حاملين الأشياء المقدسة التي كانوا قد أخفوها هناك قبل رحيلهم أو أخذوها معهم في فرارهم، وعرضوها للمواطنين سليمة». فلما رآها هؤلاء شعروا وكأن الآلهة عادت معها إلى المدينة. وبعد أن قدّم كاميللوس القرابين للآلهة وطهّر المدينة وفقاً للتعليمات التي أشار بها الخبيرون بالأمور، باشر في إصلاح المعابد القائمة وأقام معبداً جديداً للربّ «صوت» أو «إشاعة»، في البقعة التي سمع فيها ماركوس سيديشيوس ذلك الصوت السماويّ ينبئه بقدوم جيش البرابرة.

---

(٥٥) هناك سبب وجيه للشك في صحة الجزء الأخير من هذه الحكاية وقد نقلها بلوتارخ عن ليڤي بقضّها وقضيضها. إلاّ أن بوليبيوس يذكر أن الغاليين قد تسلّموا الذهب من الرومان فعلاً وقفلوا عائدين إلى بلادهم بسلام. وهذا ما يؤيده جوستين وسوتيونيوس بل ليڤي نفسه في محلّ آخر من تاريخه (١٠:١٦).

وكان من أصعب الأمور وأشقّ المهام تعيين وكشف المواقع المكرّسة في وسط الأنقاض المتراكمة. ولكن دأب كاميللوس، وجهود الكهنة المتواصلة بلغت بالمهّمة حدّ النجاح. وعندما طُرحت مسألة إعادة بناء المدينة التي دُمّرت تدميراً تاماً تملّك الجموع يأسٌ وأحجموا عن الاضطلاع بعمل يحتاج إلى موادّ ليست لديهم، وزاد في ترددهم حاجتهم الشديدة إلى الراحة والاستجمام بعد كدحهم وتفضيلهم ذلك على مطالب جديدة من قواهم المنهوكة وحالهم المزرية. ولذلك توجّهوا بأنظارهم إلى مدينة فيي بصورة لاشعورية وهي مدينة حسنة البناء وفيرة الرزق، وأعاروا آذانهم الصاغية لحِيَل المتملّقين المتشوّقين إلى إرضاء رغباتهم، ومالوا إلى سماع أقوال رجال السوء المحرّضة على كاميللوس كقولهم: إنه يمنعهم من الانتقال إلى مدينة صالحة لسكناهم، ويرغمهم عن البقاء والعيش بين الأنقاض، سعياً وراء طموحه ومجده الشخصيّ، وإنه يريد إعادة بناء أنقاضٍ محترقة حتى يرتفع قدره عن مجرد رئيس حكومة، وزعيم روما وقائدها، إلى مؤسس روما أيضاً (باستثناء رومولوس).

لذلك خاف الشيوخ من فتنةٍ، فلم يقبلوا باعتزال كاميللوس السلطة في بحر السنة وإن كانوا يرغبون في اعتزاله، إذ لم يحدث أن بقي دكتاتور في منصبه أكثر من ستة أشهر.

ولم يأل الشيوخ أنفسهم جهداً في تشجيع المواطنين على العمل وتهدئة ثورتهم بالإقناع والملاينة وطيّب الكلام، ونوّهوا لهم بمزارات أسلافهم وأضرحتهم وذكّروهم بالإماكن المقدسة، والمشاهد الدينية التي أوقفها رومولوس ونوما وغيرهما من الملوك، وتركوها لهم ليقوموا عليها ويحفظوها. ومن أقوى وسائل الإقناع الدينية التي استخدموها معهم قضية عثورهم على رأس مقطوعٍ عن الجسم لم يمرّ عليه زمن طويل - أثناء وضع أُسس بناء الكاپيتول[٥٦]. واعتباره إشارة إلى حكم القدر بأن يكون هذا

---

(٥٦) وقعت هذه المعجزة في عهد الملك تاركوين الذي لا شك أنه وضع الرأس هناك بنفسه فقد وجد حاذّاً يقطر منه الدم. وقد وجدوه عندما كانوا يحفرون الأسس وكأنما قد قُطع لتوّه. وأدركت الحيرة أحد العرّافين الذين استشيروا في الأمر Olenus Calenus. فبعد أن عجز عن تفسير الظاهرة بشكل تبدو أنها في مصلحة بلده، قال متردداً: إن الموضع الذي وجد فيه الرأس يجب أن يكون كاپيتولاً لإيطاليا كافةً (ديون ٤: ١٣). ويورد پليني في تاريخه الطبيعي هذه القصّة (٢٨: ٢). أمّا ليڤي الذي يقدّم تعليلاً أكثر بساطة فهو يتفق مع ديون على أن لفظة كاپيتول أُخذت عن هذه الحادثة. ويزعم أرنوبيوس (٤) مستشهداً بكثير من المراجع القديمة أن اسم =

الموقع رأس كل إيطاليا. ولفتوا أنظارهم إلى النار المقدسة التي أعاد إيقادها عذارى ڤستا بعد الحرب وقالوا:

«أي عار هو خسرانهم الكاپيتول وإطفاؤهم النار، وتركهم المدينة تنعى من بناها، ليسكنها أجانب وأغراب، أو لتكون مرجاً ترعى فيه المواشي؟».

مثل هذه الحجج والبراهين، يرافقها العتاب مرةً والتعنيف مرةً أخرى، التي تلقى على الأفراد بصورة خاصّة، وعلى الجماعات بصورة عامة في الاجتماعات، لم تجد غير الاعتذار والحسرات التي يبعثها القنوط. وكان الردّ عليها يتلخّص في أن شملهم الآن قد اجتمع بعد أن تحطمت سفينتهم، وهم ما زالوا عُراة وغرثى، ومن العسير ارغامهم على شدّ أوصال مدينة ممزّقة متهدّمة، في حين توجد مدينة أخرى كاملة البناء حسنة التموين تحت تصرفهم.

واستحسن كاميللوس أن يُحال الأمر على المناقشة العامة والاقتراع، ونهض هو بالذات يتكلّم مخلصاً في تحبيذ البقاء، وكذلك فعل كثيرٌ غيره، وبالأخير استدعى لوشيوس لوكريتيوس الذي كان منصبهُ يؤهّله للتقدّم في الكلام على الجميع، وطلب منه كاميللوس أن يلفظ حكمه، ثم يتعاقب الآخرون بعده للإدلاء بآرائهم حسب الترتيب المرسوم. فساد سكون تام وما كاد لوشيوس يفتح فاه للكلام حتى اتفق مرور قائد مائة سنتوريون بسريّته المخصصة للحراسة، على مقربة من الكاپيتول، وسمع المجتمعون صوته العالي يأمر حامل الراية بالوقوف حيث هو نصب الراية لأن الموقع خير المواقع أو أنسبها للبقاء. هذا الصوت المنطلق في تلك اللحظة الحرجة، وفي أزمة شديدة من الشكّ والقلق على المستقبل، اتخذه الشعب هادياً ونذيراً إلى ما ينبغي عمله بصدد القضية. وما كان من لوشيوس إلاّ أن اتخذ وضع المصلّي العابد، وأدلى بحكم يتفق ومشيئة الآلهة على حَدّ قوله، واحتذى حذوه كل من عقبه. وأحدث الأمر تغييراً مفاجئاً في مشاعر الأهلين والتفت كل واحدٍ إلى صاحبه يشجّعه ويحضّه. وانطلق الجميع وباشروا في أعمال البناء ولم يجر عملهم وفق خطوط منتظمة أو تصميم مرسوم وإنما كان اعتباطياً مضطرباً إذ انهمك كل فرد بأول قطعة أرض صادفها أو وافقت مزاجه. وأدّى هذا الاستعجال والفوضى في البناء إلى تشييد مدينة جديدة ذات أزقّة ضيّقة متعرّجة سيئة النظام، ومنازل متزاحمة ومتلاصقة يعلو أحدهما الآخر. فقد قيل إن

= الرجل الذي وجد رأسه مفصولاً هو Tolus Vulcentonws تولس ڤلچنتانوس فيكون - Capt toli = Capitolium. إلاّ أن ڤارو لم ينوّه بأي شيء حول الموضوع.

بناءها كلّه تمّ في غضون سنة واحدة(٥٧) مع أسوارها الخارجية وأبنيتها الداخلية. غير أن الأشخاص الذين عيّنهم كاميللوس لمهمة تثبيت مواقع جميع الأماكن المقدسة في هذه الفوضى العامة وإعادة بنائها كلها، وصلوا في أثناء طوافهم حول الپالاتيوم إلى هيكل مارس وكان البرابرة قد أحرقوه وهدموه عن آخره حتى سوّوه بالقاع كغيره من الابنية. وفيما هم يزيلون الأنقاض ويمهّدون الأرض عثروا بمحض الصدفة على عصا العرافة التي تعود لرومولوس(٥٨)، وكانت مدفونة تحت كدسٍ من الرماد. تُسمّى هذه العصا ليتوس Lituus وهي عادة معقوفة النهاية والعرّافون يستخدمونها للتربيع الفلكي عندما يقومون بتنبؤاتهم بطريقة مراقبة مسار الطير. وكان رومولوس عرّافاً يشار إليه بالبنان، ولما اختفى تسلّم الكهنة عصاه تلك وحفظوها ذخراً مقدساً محجوباً عن أعين الناس ولمسات أيديهم. فلما وجد هؤلاء العصا سليمة في حين أتت النار على كل شيء حولها راحوا يبنون أضخم الآمال لروما، واستنتجوا من هذا الحادث برهاناً على سلامة مستقبلها وخلودها.

لم يكد الرومان يتنفسون الصعداء مما دهاهم حتى ابتُلوا بحربٍ جديدة. إذ إن الأيكويّين Aquians والڤولسكيين واللاتين غزوا بلادهم دفعةً واحدةً وبصورة مباغتة. كما ألقى التوسكان الحصار الشديد على مدينة سوتريوم Sutrium(٥٩) وحليفتهم. وطوّق اللاتين جيش التريبيونات العسكريين الذين كانوا معسكرين حول جبل مويشيوس Maecius، وضيّقوا عليهم الخنادق حتى أصبح معسكرهم في خطر فبعثوا إلى رومه برسُل النجدة. وكان كاميللوس وقتئذ قد انتُخب دكتاتوراً للمرة الثالثة.

توجد روايتان مختلفتان عن وقائع هذه الحرب. وسأبدأ بأبعدها خيالاً وأحفلها بالأساطير: قيل إن اللاتين بعثوا يطلبون من الرومان بعض بناتهم المولودات لآباءٍ أحرار، ليتخذوهن زوجات. ولم يكن هذا الطلب يتعدّى أحد أمرين إما أنهم يريدونه ذريعة للتحرّش، وإما أن يكون نيّةً صادقة ترمي إلى إحياء العلاقة الماضية بين الشعبين. واستبدّت الحيرة بالرومان وعَزّ عليهم الوصول إلى قرار، فهم من جهةٍ يخشون حرباً جديدة إثر حرب ما كادت تضع أوزارها بعد أن نالهم منها ما نالهم. وكانوا من جهة

---

(٥٧) سبّبت سرعة بناء المدينة متاعب ومشاكل عديدة لاسيما بخصوص المجاري العامة التي كانت تمتد عادة تحت الشوارع الرئيسه فقد صارت تمتد تحت المنازل الخاصة (ليفي ٥ : ٥٥).

(٥٨) ينوّه شيشرون في النبوءات [١ : ١٧] بهذا الاكتشاف أيضاً.

(٥٩) ساتري أو سوتري في توسكاني. وجبل مارشيوس قرب لانوثيوم يبعد عشرة فراسخ تقريباً عن روما.

أخرى يشكّون في أن «طلب زوجات» ما هو في الحقيقة إلاّ طلب رهائن، كُسي عبارات مهذبة رقيقة وكلمات رشيقة من قبيل «التحالف» و«المصاهرة» وما أشبه. وبينما هم في حيرتهم تلك انبرت لهم خادمة بيت اسمها توتولا Tutula أو فيلوتيس Philotis كما يسمّيها بعض الكتّاب، وأقنعت حكام رومة بتنفيذ خطتها وهي أن يرسلوا معها عدداً من أجمل الخادمات وأصغرهن سنّاً بعد أن يلبسنهنّ ثياب عرس العذارى النبيلات، وأن يتركوا البقية لحيلتها ومكرها. فوافق الحكام واختاروا العدد الذي طلبته، وجمّلوهن بالذهب ونفائس الحلل، وأرسلن جميعاً إلى اللاتين الذين كانوا يعسكرون في موقع قريب من المدينة. وعندما جَنّ الليل قامت البنات بسرقة سيوف العدوّ النائم. واعتلت توتولا، أو فيلوتيس، شجرة تين برّي ونشرت خلفها رداء صوفياً سميكاً ورفعت مشعلاً بمواجهة رومه (وهي الإشارة المتفق عليها مع قادة الرومان فقط، أُخفيت عن سائر المواطنين الآخرين) وهذا ما أدّى إلى خروج الرومانيين من المدينة في فوضى عامة. وكان الضباط يدفعون رجالهم إلى أمام دفعاً. والرجال ينادي أحدهم الآخر بالاسم. وصعب عليهم أن يعيدوا النظام إلى صفوفهم وهجموا وهم بهذه الحالة على مواقع العدوّ واقتحموا موانعه وكذلك معسكره وأفنوا معظم من فيه. وقد جرى ذلك في اليوم السابع من شهر تموز الذي كان يُعرف في حينه بشهر كونتيليس. والعيد الذي يحلّ في هذا اليوم من السنة إنما هو تذكار لما جرى في تلك الوقعة، إذ يخرج الناس زرافات من المدينة وهم يتنادون بأسماء مألوفة [مثل كايوس أو ماركوس أو لوشيوس!] وغيرها تمثلاً بالحالة التي كانت تسود الرومان عند خروجهم العاجل على اللاتين وهم يتنادون بالأسماء. ويلي ذلك مشهد خادمات البيوت، يبرزن في العيد مرتديات أزهى الثياب، ويجرين هنا وهناك لاعبات لاهيات، ممازحات كل من يصادفنه، ثم يلجأن إلى تقليد معركةٍ فيما بينهن إظهاراً لدورهن في قتال اللاتين. وبعد ذلك يجلسن تحت ظلال أغصان التين ليأكلن ويشربن. ويعرف هذا اليوم باسم نوني كابروتيني Nanae Caprotionae ويظن بعضهم أنه مشتق من «شجرة التين» وهي الشجرة التي ارتفع منها مشعل الخادمة كما تقدّم، لأن الاسم الروماني للتينة هو كاپريفيكوس Caprificus. ويعزو فريق من الكتّاب كل ما يجري قوله وعمله في هذا العيد إلى ظروف انتهاء حياة رومولوس. فقد غاب عن الأنظار خارج أسوار روما، عندما انتشر ظلام دامس وهبت عاصفة هوجاء مفاجئة. [قال بعضهم إنها ظاهرة كسوف شمسيّ] فالاسم اللاتيني للعنزة هو كاپرا Capra والوضع الذي اختفى منه رومولوس كان يعرف باسم «مستنقع العنزة» آنذاك.

على أن عامّة الكتّاب يفضّلون الرواية الأخرى عن الحرب وتفاصيلها تروى على النحو الآتي: بعد أن انتخب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الثالثة، وعندما أبلغ بأن جيش التريبيونات العسكريين قد طوّقه اللاتين والڤولسكيون، دعا إلى النفير العام. ولم يقتصر على دعوة من بلغ سنّ الخدمة، بل جنّد من لم يناهزها. ثم إنه قام بجولة استطلاعية واسعة حول جبل مريشيوس في غفلة عن عيون العدوّ وبعدها ساق جيشه إلى مؤخرته. ثم أعطى الإشارة بقدومه إلى الرومان المطوّقين بإشعال عدة نيران، فبثّ الشجاعة في نفوسهم وتهيّأوا للتعرّض للعدوّ ومبادأته بالهجوم.

ولكن اللاتين والڤولسكيين الذين دبّ الخوف فيهم لانكشافهم للعدوّ من الجناحين بادروا للانسحاب وراء مواقعهم وأخذوا يحصّنون معسكرهم بمتاريس وموانع قوية من جذوع الأشجار على جميع الجهات. وقرروا الانتظار لحين وصول نجدات من بلادهم، مع توقّعهم المعاونة من التوسكان حلفائهم. وأدرك كاميللوس خطتهم فخاف أن يؤول أمره إلى الوضع الذي أرغمهم هو عليه، أعني أن يُطوّق هو، ولذلك قرّر أن لا يضيع وقتاً، ولما كانت متاريسهم من الخشب ولملاحظته أن ريحاً شديدةً تهبّ باستمرار عند بزوغ الشمس من الجبال باتجاه المعسكر، فقد هيّأ مقداراً من المواد الملتهبة وحشد قواته على خطّ الصّولة. وأعطى أمر الهجوم لجزء منها بالقذائف فاندفعوا إلى العدو بصيحة عظيمة وجلبة شديدة من ناحيةٍ، بينما توجّه هو بالوحدات التي ستطلق النار، إلى الجهة التي تهبّ منها الريح نحو معسكر العدوّ عادةً وكمن هناك يتحينّ فرصته. ولما بدأت المعركة وبزغت الشمس انطلقت ريح شديدة من الجبال فأعطى إشارة الحركة والهجوم وقذف بكميات ضخمة من المادة الملتهبة واستعرت النيران في متاريس الخشب القريبة ثمّ سرت إلى المعسكر نفسه وقامت الحرائق في شتى أرجائه، ولم يكن اللاتين قد استحضروا من الوسائل ما يدفع عنهم غوائلها ويعمل على إخمادها، وعمّت المعسكر وأخذت تلتهمهُ فلم يجدوا مفرّاً من الابتعاد عنه مسافة قليلة، ثم إنهم وجدوا أنفسهم مرغمين على خوض المعركة فألقوا بأرواحهم في أيدي عدوّهم الذي كان لهم بالمرصاد أمام المتاريس مستعداً بسلاحه، ولم ينج منهم إلاّ نفر قليل. أما الذين مكثوا في المعسكر فقد راحوا طُعمة للنيران. وعمل الرومان على إخماد الحرائق قبل أن تأتي على الأسلاب والغنائم.

بعد أن تحقق لكاميللوس النصر المؤزّر، أناب عنه ابنه لوشيوس لحراسة الأسرى وإحصاء الغنائم في المعسكر، واستاق جيشه مخترقاً بلاد العدوّ فسقطت في يده عاصمة الأيكويين، وأخضع الڤولسكيين، ثم أسرع متوجهاً إلى سوتريوم لمعاونتها في حربها مع

التوسكان وليس لديه أية فكرة عما حَلّ بها. وكل ما كان في علمه أنها ما زالت في خطر وأن التوسكان يشدّدون عليها الحصار. على أن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد استسلم السوتريوّن وفتحوا أبواب مدينتهم لأعدائهم فدخلوها وطردوا جميع سكانها منها بعد أن سلبوهم كل شيء ما خلا ثيابهم التي يرتدونها. ولقيهم كاميللوس في الطريق يدفعون زوجاتهم وأولادهم أمامهم ويندبون سوء حظهم وهم في حالة من البؤس لا توصف. فثارت عاطفة كاميللوس، وأبصر جنوده يذرفون الدمع عليهم ويظهرون مشاعر الحزن العميق، وأهالي سوتريوم المنكوبون يتشبّثون بهم ويتعلّقون بأذيالهم. فحلف ألاّ تغيب شمس اليوم إلاّ ويكون قد انتقم لهم. وزحف حالاً إلى المدينة، مخمّناً أنه سيجدها لاهية غافلة بمن فيها، غير محروسة، ففاتحوها استولوا على مدينة غنيّة كثيرة الغنائم وما عادوا يخشون عدوّاً من الداخل ولا مغيراً من الخارج، وكان كاميللوس صادقاً في حدسه فلم يعرف العدوّ بقدومه حين اقترابه ولم ينتبه له حتى عند دخوله المدينة واحتلاله أسوارها التي لم يترك فيها العدوّ ولا حارساً واحداً. وكان التوسكان قد أووا جماعات متفرّقة إلى البيوت يعاقرون الخمر ويلهون، ولما فطنوا إلى أن عدوّهم قد أكمل الاستيلاء على المدينة كانوا ثملين بما عبّوا من الخمر، متخمين بما التهموا من اللحم، لا بل غاية ما تمكّنت منه أقليتهم هي الفرار. أما الأغلبية فإما انتظروا موتهم المخزي وهم داخل البيوت، أو استسلموا للفاتح. وهكذا استُولي على مدينة سوتريوم مرتين في يوم واحدٍ، وأولئك الذين كانوا يملكونها فقدوها وأولئك الذين فقدوها استعادوها وكل ذلك بفضل كاميللوس. استحق كاميللوس بهذا موكب نصر آخر، نال فيه من الرفعة والسمعة ما ضاهى به النصرين الأولين، فمن كان سيّئ النظرة إليه من المواطنين، ومن كان يعزو انتصاراته إلى الحظّ لا إلى نبوغ فيه، أرغمتهم أعماله الأخيرة على التسليم بقابلياته العظيمة وحيويته وعلى وجوب إكرامه وتمجيده.

كان ماركوس مانليوس أبرز خصومه وأقوى حسّاده. وهذا هو الشخص الذي تصدّى للغاليين عندما هجموا ليلاً على الكاپيتول، وأجبرهم على الانسحاب، ولهذا السبب مُنح لقب الكاپيتولي Capitolin. احتل هذا الرجل المقام الأول في الجمهورية، لكنه عجز عن مطاولة شهرة كاميللوس ومجاراة سمعته الشريفة، فلجأ إلى السبيل المعروف لانتزاع السلطة المطلقة، وأعني به خطب ودّ الجماهير، ولاسيّما أولئك الذين غرقوا في الديون. وراح يدافع عن فريق بالتزامه قضاياهم ضدّ دائنيهم وينقذ الفريق الآخر بالقوة والشدة، ويمنع القضاء عن ملاحقتهم بالدعاوى. ولم يمرّ به

طويل زمنٍ إلاّ واجتمع له عدد كبير من الساخطين، كانت ضوضاؤهم وصخبهم في الفوروم يلقيان الرعب في قلوب كبار القوم ووجهائهم. فلم يجد كوينتيوس كاپيتولينوس Quintius Capitoliunus الدكتاتور الذي نُصّب لأجل قمع الحركة - سبيلاً غير زجّ مانليوس في السجن، فكان ردّ الجمهور الآنيّ على ذلك أن بادر «بتغيير ثيابه» والناس لا يلجأون إلى تغيير ثيابهم إلاّ عندما تحلّ نكبة عامة. فخاف الشيوخ فتنةً لا تبقي ولا تذر وسارعوا إلى إخلاء سبيله. لكن مانليوس زاد عتوّاً بعد إطلاق سراحه واشتدّ عنفاً في أهدافه وملأ المدينة فوضى وخراباً. فلم يجد الشيوخ بداً من انتخاب كاميللوس لمنصب الحاكم العسكري [تريبيون]. وعيّن هذا يوماً لمحاكمة مانليوس، والإجابة عن التهمة التي رفعت ضده[٦٠]. وكانت الجلسة في موضع لا يساعد المدّعين في مرافعتهم، لأنه يشرف على البقعة التي خاض فوقها مانليوس معركته مع الغاليين - وهي في الكاپيتول بالقرب من الفوروم - فكان المتهم يمدّ ذراعيه إلى تلك الجهة باكياً مذكّراً مستمعيه بمأثرته تلك، مثيراً عواطفهم. فحار قضاته في أمره ولم يدروا ما يفعلون، وراحوا يؤجّلون المرافعة عدّة مرّات؛ فهم من جهة لا يرغبون في تبرئته من الجُرم الذي تضافرت عليه دلائل كافية جداً، وهم من جهة أخرى عاجزون عن تطبيق أحكام القانون ومأثرته الجليلة ماثلة أمام أعينهم. وفكّر كاميللوس في الأمر مليّاً ثم أمر بنقل المحكمة إلى البستان الپتيلنيّ Petiline خارج السور، فمن هناك لا يمكن مشاهدة شيء من الكاپيتول. وواصل المدّعي شرح التهمة، وتمكن القضاة من وزن أعماله واستنكارها وأدانوه، فاقتيد إلى الكاپيتول وأُلقي منكوساً من فوق الصخرة. وبذلك كانت تلك البقعة شاهداً على أعظم مجد له، وتذكاراً لأسوأ نهاية له. وهدم الرومان بيته وبنوا فوق أرضه معبداً للربّة مونيتا Moneta. وصدر مرسوم يحظر على أي فرد من الپارتريشين سُكنى الكاپيتولين في المستقبل.

---

(٦٠) اتهم مانليوس بالسعي لنصب نفسه ملكاً ولم يستطع إثبات براءته أو استدرار الرحمة من الشعب مع أنه أبرز ثلاثين شكّة سلاح غنمها من ثلاثين خصماً التحم معهم في قتال اليد باليد وقضى عليهم جميعاً، كما كُرّم بأربع تشريفات بينها (Mural) إكليلان وثمانية تيجان مدن. كما أنقذ كثيراً من المواطنين وفي مقدمتهم سرڤيليوس قائد الخيّالة. ويزيد پليني في تاريخه الطبيعي فيقول (٧:٢٨): عندما كان مانيلوس في السابعة عشرة من عمره غنم أسلاب عدوّين. وكان أول فارس في روما يوضع على رأسه تاج الغار. وتلقّى جسده ثلاثة وعشرين جرحاً بقيت ندوبها ظاهرة في قتال شريف. وعند إنقاذه سرڤيليوس تلقّى طعنتين غائرتين في ساقه وذراعه. ويضيف ليڤي قوله إنه صدر قرار بأن لا يُسمّى أحد من أعقاب أسرته باسمه.

وطُلب من كاميللوس تولّي منصب الحاكميّة للمرة السادسة، فاعتذر عنه بكبر سنّه. ولعلّه شعر بخوفٍ من أن يقلب الحظّ له ظهر المِجنّ فيبادره بنحسه بعد أيام السعد(٦١). على أن أظهر الأسباب لرفضه كان ضعف صحّته فقد ابتلي بمرضٍ في ذلك الحين. لكنّ الشعب لم يقبل بأيّ عذر وراح الناس يصرخون أنهم لا يريدونه ليركب خيلاً أو ليسير على قدميه، وإنما يريدون منه سلامة الرأي وحُسن المشورة. وهكذا اضطرّوه إلى تسلّم زمام القيادة، على أن يسوق أحد زملائه الحكام [تريبيون] الجيش حالاً لمواجهة البرينستيين Praenestines والفولسكيين الذين اجتاحوا أراضي حليفات روما بقواتٍ كبيرة. فخرج كاميللوس على رأس الجيش إليهم، وتوقّف وعسكر على مقربة منهم، وفي نيّته أن يماطل في الحرب، أن لم يكن منها بدٌّ حتى يستعيد قواه وينظّم صفوف جيشه لخوض أية معركة تحتّمها الضرورة، أو يجبر عليها. إلاّ أن زميله لوشيوس فيوريوس Lucius Furius كان قليل الصبر، تتملّكه رغبة جامحة في نيل المجد واطّلاب المعالي، فلم ير رأيه وألحّ في دخول المعركة وراح يثير حماسة صغار ضباط الجيش ويغذّيهم بالشعور نفسه. وخشي كاميللوس أن يظنّ بأنه ما أعطى قرار التريّث إلاّ لحرمان الشبان من مجدٍ يصبون إليه وينالونه من حملة عسكرية شريفة الغاية، فوافق على اقتراح زميله وهو كاره، وتخلّف في المعسكر بسبب ضعفه وليس معه غير نفر قليل(٦٢). وهاجم لوشيوس العدوّ بنزقٍ وتهوّر، فصُدّ هجومه. وعندما أبلغ كاميللوس أن الرومان انكفأوا إلى خلف وأخذوا ينهزمون لم يستطع ضبط أعصابه وقفز عن فراشه وأسرع بالنفر القليل المتخلّف معه لمقابلة المندحرين لدى أبواب المعسكر شاقّاً طريقه بين المنهزمين - قاصداً صَدّ المطاردين. وكان لعمله هذا ردّ فعله فأولئك الذين دخلوا المعسكر فارّين داروا على أعقابهم في الحال وتبعوه، وأولئك الذين خرجوا من المعسكر هاربين اتجهوا إليه والتفّوا حوله وأخذ واحدهم يلوم الآخر على تركه جانب قائده! بهذه الوسيلة تمكن من صَدّ زحف العدوّ في قتال ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي صَفّ كاميللوس فرقة بنسق المعركة وصال على العدوّ صولة شديدة وهزمهم هزيمة شنعاء ولحق بهم إلى معسكرهم حتى اختلط الحابل بالنابل

---

(٦١) من الخرافات المنتشرة بين الرومان أن نمسيس إلهة الانتقام قد تبتلي المرء بنكبة بعد عمرٍ طويل حالفه النجاح وحسن الحظ دون انقطاع. وكاميللوس الذي بلغ الآن السادسة والستين تقريباً (٣٧٩ ق.م) همّ بتأدية يمين التقاعد المعتاد والتخلّي عن الحكم بسبب المرض. إلاّ أن الشعب رفض حتى سماع هذا الاقتراح منه [ليفي ٦: ٢٢].

(٦٢) يقول ليفي [٦: ٢٢] إنه اتخذ مقراً على مرتفع مع وحدات الرديف لمراقبة سير المعركة.

ودخلوا معسكرهم معهم واستولوا عليه وأبادوا بحدّ السيف معظمهم. ثم لمّا سمع باستيلاء التوسكان على مدينة ساتريكوم Satricum(٦٣)، وقتْلهم كل أهاليها وهم رومانيون، بعث إلى رومه بمعظم وحداته ذات السلاح واستبقى له وحدات مسلّحة بأخفّ الأسلحة، مما امتاز بالبسالة والإقدام، وهجم بهم على التوسكان المسيطرين على المدينة وكسرهم شرّ كسرة، وقتل عدداً منهم وطرد البقية. وعاد إلى روما محمّلاً بغنائم كثيرة، مقدِّماً بهذا دليلاً ساطعاً على نبوغه وحكمته الفائقة وعلى صحة رأي أولئك الذين لم يعدموا الثقة فيه عندما فضّلوه على الشبان الطموحين المشوقين إلى القيادة وعزل الشيخ العليل العازف عن الحكم، مبرهنين بذلك على أن ضعف جسم القائد وشيخوخته لا يجرّدانه من الإقدام أوحدّة الذهن.

لذلك فعندما وردت الأنباء بتمرّد التوسكولان Tusculan أُنيطت بكاميللوس مهمّة قمعه، وخُيِّر في تعيين زميل مساعدٍ له من أحد الحكام. وكان كل زملائه متلهّفين إلى هذا المنصب فمرّ بالجميع مرور الكرام ووقف عند لوشيوس فيوريوس فاختاره دون غيره خلافاً لما كان متوقعاً. وفيوريوس هذا هو الذي قاد الهجوم الفاشل الطائش ضد رغبة كاميللوس في الحرب الأخيرة كما مَرّ بنا، وكاد يخسر المعركة والحرب كلها. وكان غرض كاميللوس من اختياره هو أن يداوي نكسته ويمحو عارها عنه على ما يبدو.

ولما سمع التوسكولانيون بمقدم كاميللوس لجأوا إلى حيلة للرجوع عن تمرّدهم وتفادي النتائج فكان كاميللوس يمرّ بحقول امتلأت بالزرّاع والرعاة المنصرفين إلى أعمالهم كأنما هم في عزّ السلْم. ووجد أبواب المدينة مفتوحة على مصاريعها، والتلاميذ يذهبون إلى مدارسهم، ورأى الصنّاع والبقّالين في دكاكينهم عاكفين على أعمالهم اليومية، ووجهاء القوم يروحون ويغدون في المحلاّت العامة بثيابهم العادية(٦٤). وأسرع قضاة المدينة لتهيئة مقرّات سكنى للجيش الروماني كأن شيئاً لم يحصل، وكأنهم لا يشعرون بأي خوفٍ أو خطر، ولا يثقل ضميرهم ذنبٌ. ولم تنطل هذه المظاهر على كاميللوس، وتشككه في أنباء خيانتهم، إلاّ أن قلبه رقّ لهم لما رآه من ندامتهم، فأشار عليهم بمراجعة مجلس الشيوخ والعمل على تهدئة غضبه، وتبرّع

---

(٦٣) هذا الموضع ليس السوتريوم الذي جاء ذكره قبلاً. ويبدو أن بلوتارخ قد خلط بين الموضعين.

(٦٤) التوگا Toga هو ثوب السلم، والساگوم Sagum هو لباس الحرب. وينوّه ليفي [٦: ٢٥] ببعض أزياء أخرى يرتدونها بالمناسبة.

هو نفسه بالتوسّط في أمرهم والدفاع عنهم. وهكذا بُرّئت ساحة المدينة وقُبلت في حظيرة المواطنة الرومانية(٦٥). وتلك هي أهمّ أعمال كاميللوس أثناء حاكميته السادسة، وأجدرها بالذكر.

بعد كل هذه الأحداث أثار ليشينيوس ستولو Licinius Stolo مشكلة كبيرة وأقام رومه وأقعدها وألّب العامّة على الشيوخ برفعه شعار حق العامّة في اختيار واحد من القنصلين الحاكمين من طبقتهم، لا أن يكونا قاصرين على طبقة الپاتريشيين. وكان قد تمّ انتخاب تريبيونات الشعب إلاّ أن طبقة العامة أوقفت عملية انتخاب القنصلين وحالت دونها(٦٦). ولما كان عدم وجود رئيس دولة يؤدي إلى تفاقم الوضع وازدياد الفوضى فقد لجأ الشيوخ تطميناً لرغباتهم وخلافاً لرغبة الشعب إلى انتخاب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الرابعة(٦٧)، وضد رغبة كاميللوس الذي كان يكره الاصطدام بأناس أعطتهم خدماتهم الماضية الحق في أن يقولوا له إن مآثره الحربيّة التي أنجزها بفضلهم هي أجلّ وأعظم شأناً من الأعمال السياسية التي أنجزها بالتعاون مع الپاتريشيين. وهؤلاء في

(٦٥) المواطن الروماني الأصيل الذي يتمتع بحقوق المواطنة كاملة، له أن يملك منزلاً في روما، وأن يدلي بصوته في الجمعية العامة، ويرشح نفسه للوظائف الحكومية. وهو من ثمّ منتسب إلى واحدة من القبائل الرومانية. أما الإنسان الحُرّ في عهد الجمهورية فهو محروم من هذه الامتيازات. والبلدان الأخرى والمستوطنات الرومانية التي يتمتع أهلها بحق المواطنة فلبعضها الحق في المشاركة في الاقتراعات العامة وترشيح أهاليها للوظائف في روما. في حين حرم بعضها الآخر من ذلك. ولم يعط للتوسكولان حقوق المواطنة إلاّ بعد ذلك بزمن [ليڤي ٦: ٢٠].

(٦٦) دام هذا الاضطراب خمس سنين في أثناء قيام التريبيونات بمنع اجتماع الكوميسيا وهو ضروري لانتخاب القناصل وكبار الحكام. وكانت المناسبة التالية السبب في ذلك: قام فابيوس أمبوستوس بتزويج بنته الكبرى من سرڤيوس سولپيشيوس الپاتريشي الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. وزوج الصغرى من لوچينيوس ستولو وهو پليبي غنيّ. واتفقَ أن الأخت الصغرى أثناء قيامها بزيارة لأختها أن عاد زوجها من الفورم وراح حرسه اللكتور يطرقون الباب بعصيهم طرقاً شديداً فخافت الأخت الصغرى فضحكت أختها ساخرة بجهلها بالحياة الراقية التي تحياها. فآلمتها الإهانة كثيراً. ولكي يهدّئ أبوها من روعها قال لها إنها ستجد عما قريب في بيتها من الحياة الراقية والأبهة ما يفوق ذاك الذي تجده في بيت شقيقتها. واتفق الأب والزوج مع لوشيوس سكستيوس الذي أصبح أول قنصل بعد نهاية الفترة واقترحوا عدة قوانين منها تخفيض سعر الفائدة، وتحديد الملكية الزراعية بحدٍّ اقصى لا يتجاوز الخمسمائة إيكر، وجواز انتخاب أحد القنصلين من بين عامة الشعب. وقد أورد ليڤي ٦: ٣٤-٣٨ كل التفاصيل في هذا الباب.

(٦٧) في ٣٦٦ ق.م.

الواقع لم يبرّزوه ويدفعوا به إلى أعلى المنصب إلاّ غيرة وحسداً، أو بكلمة أخرى إذا نجح سيسحق الشعب، وان فشل سيسحق نفسه. وعلى أية حالٍ ولأجل أن يعالج الأمر أنجع معالجة ممكنة في تلك الساعة، ولبلوغ علمه باليوم المحدد الذي سيطرح فيه تريبيونات الشعب اقتراحاً بسنّ هذا القانون، أصدر أمراً بالنفير العام، ودعا الشعب إلى الخروج من الفورم والذهاب إلى المخيّمات مهدداً بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين. فقابل التريبيونات تهديده باحتجاج صارم وهدّدوه بفرض غرامة عليه قدرها خمسون ألف دراخما من الفضّة إذا أصرّ على منع أفراد الشعب من الإدلاء بأصواتهم عند الاقتراع على القانون. وسواء أخشي كاميللوس نفياً آخر أم حكماً بالإدانة لا يتفق وشيخوخته ولا يناسب ماضيه المجيد، فقد وجد نفسه أعجز الناس عن وقف زخم الجماهير الذين استفحل أمرهم واضطرمت أنفسهم بالثورة والتمرد. فانسحب إلى بيته لوقتٍ ما، ثم ادّعى المرض عدة أيام، وأخيراً استقال من منصب الدكتاتور(٦٨). فانتخب الشيوخ دكتاتوراً آخر بادر حالاً إلى تعيين ستولو، زعيم المعارضة، آمراً لقوات الخيّالة. وتقرّر سنّ قانون جديد وصادق عليه ووضعه موضع التنفيذ - وقع هذا القانون وقع الصاعقة على الشيوخ فقد حدّد ملكية الأراضي الزراعية بما لا يزيد عن خمسمائة إيكر مساحةً، وبهذا علت منزلة ستولو كثيراً. ولكن لم يمرّ طويل زمن(٦٩) حتى وجِد أن ستولو يحتفظ بمساحة تزيد عن التحديد، ففُرضت عليه العقوبات التي قرّرها قانونه!

ثم حُلّ النزاع حول انتخاب القناصل. وكان هذا عِلّة الخلاف، والنقطة الأساسية للتناحر، وظلّ يمدّ الخلاف بين طبقتي الشيوخ والعامة بوقودٍ لا ينضب معينه.

ووصلت في أثناء ذلك أنباءٌ تشير إلى أن الغاليين ينوون إعادة الكرّة، وقد تقدّمت جحافلهم من البحر الأدرياتي مندفعة نحو روما بجموع هائلة. وفي أعقاب هذا النبأ تواترت الأخبار عن أعمال التخريب التي يرتكبها العدو، فقد كان يترك الأرض التي يجتازها قاعاً صفصفاً، والأهالي يفرّون من أمامهم، يهيمون على أوجههم في الجبال مبعثرين، ولم يصل منهم إلى روما إلاّ نفر ضئيل. إن مخاوف هذه الحرب هدّأت الحالة في روما، وأعادت إلى المدينة وحدتها، واختار الشيوخ والعامة، والنبلاء

---

(٦٨) زعموا بوجود شيء مخالفه في الاستخارة التي تمّت بعد تعيينه. [ليفي ٦ : ٣٨]. وقد خلفه پوبليوس مانليوس في المنصب.

(٦٩) بعد ١١ سنة (أي في ٣٥٦ ق.م) فرض عليه پوبليوس لميناس غرامة مقدارها عشرة آلاف ستدركه لأنه كان يملك ألف إيكر بالاشتراك مع ابنه الذي أخرجه من السلطة بسبب ذلك [ليڤي ٧:١٦].

والدهماء، بالإجماع كاميللوس لمنصب الدكتاتور مرةً خامسة وكان يشارف الثمانين من عمره. لكنه لم يدّع المرض أو خور القوى في هذه المرة كما ادّعى قبلها، تقديراً منه للخطر الذي يتعرّض له الوطن، ومستجيباً لداعي الضرورة الملحّة. وباشر في الحال بالتجنيد.

علّمته تجربة الحرب مع الغاليين أن قوة هؤلاء تكمن في سيوفهم البتّارة، فهم يهوون بها بشكلٍ اعتباطيّ خشنٍ لا فنّ فيه، فيبقرون ويبترون الأعضاء ويقطعون الرؤوس والأكتاف بصورة وحشية فعّالة. لذلك أمر بصُنع خوذٍ حديدية واقية يرتديها معظم رجاله، وأوصى بصقلها وتلميعها من الخارج حتى تنزلق فوقها سيوف الأعداء أو تتكّسر. كما أمر بتثبيت إطارات خفيفة من النحاس حول التروس لأن الخشب لا يتحمّل ضربات السيوف الشديدة. كذلك دربّ جنوده على استعمال رماحهم الطويلة في القتال القريب، وعلّمهم كيف يدرأون بها ضربات سيوف العدو عندما يلتحمون بهم.

اقترب الغاليون من نهر أكينو يجرّون خلفهم أثقالاً لا تُحصى، وهم متخمون بأسلاب تفوق الحصر. ونظم كاميللوس جيشه لخوض المعركة، فاختار موقعه على تلّ سهل المرتقى فيه كثير من الوهاد والمنخفضات. وأخفى في تلك التعاريج معظم فرقه، وأبقى القسم الأقل فوق التل بشكل ظاهر ليبدو وكأنه لجأ إلى القمة بدافع الخوف. ولأجل تثبيت الخدعة في نفوس العدوّ تركه ينهب ويسلب دون أن يتعرّض له حتى دنا وأصبح على مشارف خنادقه. وكاميللوس رابض في مواقعه الحصينة خير تحصين، لا يأتي بأقل حركة، حتى رأى القسم الطلائعي من العدوّ يتفرّق زُمراً في النواحي ينهب ويخرب ويدمّر.

أما القسم الذي بقي في المعسكر فقد عكف على الشراب والقصف موصلاً الليل بالنهار ملقياً جانب الحذر. وفي هدأة من الليل قام كاميللوس بتحشيد أخفّ فرقه سلاحاً وأرسلها في المقدّمة لإعاقة العدو عن تنظيم صفوفه، ولإيقاع الفوضى فيهم بالمشاغلة والهجمات المتكررة عندما يهمّون بالخروج من المعسكر. وعند انبلاج الفجر انحدر بالقسم الأكبر من الجيش وهم بنسق الهجوم إلى الأرض المنبسطة وكان جيشاً جراراً يتوثب إقداماً وشجاعة، لا كما حسبه البرابرة فرقةً صغيرة أطاش الرعب صوابها.

وكان أوّل ما زعزع ثقة الغاليين وأفقدهم الشجاعة هو أن شرف المبادأة بالهجوم كان لأعدائهم خلافاً لما توقّعوا، وثاني ما أثر فيهم تلك الوحدات الخفيفة السلاح والحركة تفاجئهم بالكرّات الشديدة دون أن تتيح لهم فرصة لتنظيم صفوفهم وفق

الأصول الحربية التي اعتادوها فشاعت الفوضى فيهم، ووصل الضنك بهم حداً أن اضطروا إلى القتال بصورة اعتباطيّة لا نظام فيها. ولما زجّ كاميللوس بفرقه الثقيلة اندفع البرابرة إليهم بقوة وسيوفهم مشرعة فراح الرومان يكيلون لهم الطعن برماحهم ويتّقون ضربات السيوف على الأجزاء التي يحميها الحديد حماية جيدة. وتثلّمت سيوف الغاليين المصنوعة من معدن سيّئ السقي والتوت وتكسّرت في أيديهم وخرقت الأسنّة تروسهم وانغرس فيها كثير حتى ثقلت بها، فاضطروا إلى ترك أسلحتهم وحاولوا الاستفادة من أسلحة أعدائهم، وراحوا يحاولون انتزاع الرماح من تروسهم. ولما وجدهم الرومان عزّلاً لاسلاح في أيديهم امتشقوا سيوفهم وكانوا يتقنون استخدامها وأوقعوا مذبحة كبرى في الصفوف الأولى بوقت قصير. بينما هربت البقية وتفرّقت في الأراضي المجاورة. وكان كاميللوس قد استعدّ لذلك من قبل باحتلال المرتفعات والتلال. وكان الغاليون يعرفون أن العدوّ لا يصعب عليه الاستيلاء على معسكرهم لأنهم تركوه دون حراسةٍ وحماية لوثوقهم بالنصر، ولذلك لم يلجأوا إليه في فرارهم.

قيل إن هذه المعركة جرت في السنة الثالثة عشرة(٧٠) لفتح روما، ومنها فصاعداً ارتفعت معنويات الرومان، وازدادوا شجاعة، وتغلّبوا على مخاوفهم من البرابرة، الذين عزوا هزيمتهم السابقة إلى تفشّي الوباء فيهم، وسوء حظوظهم، أكثر مما عزوه إلى بسالة الرومان. في الواقع إن هذا الخوف كان شديداً عند الرومان حتى أنهم سنّوا قانوناً يقضي بإعفاء الكهنة من الخدمة العسكرية إلاّ عند غزوات الغاليين.

كان هذا آخر عملٍ عسكري أنجزه كاميللوس، لأن استسلام مدينة الڤيليتراني Velitrani طوعاً لم يكن إلاّ مجرّد عملية تابعة. إلاّ أن أعظم المعارك السياسيّة وأشقّها حلاً ما زالت تنتظر منه تسوية، وكان عليه أن يخوضها ضد الشعب.

عاد الجيش إلى أرض الوطن ثملاً بخمرة النصر والنجاح مصرّاً على تغيير القانون السائد، وانتخاب قنصل واحدٍ من طبقتهم. فعارض الشيوخ في ذلك أشدّ معارضةٍ ولم يسمحوا لكاميللوس بالاستقالة من منصب الدكتاتور، وتشبّثوا به متوهّمين أن احتماءهم باسمه العظيم وسمعته يضاعف من قدرتهم على النضال لإبقاء نظام الحكم أرستقراطي الشكل.

لكن بينما كان كاميللوس جالساً على منصّة الحكم يصرّف شؤون الدولة، إذ صعد إليه ضابط أرسله تريبيونات الشعب، وأمره بالنهوض والسير خلفه، ووضع يده عليه

(٧٠) ليس ثلاثة عشر بل ثلاثة وعشرون عاماً [ليفي ٦ : ٤٢].

كأنما يريد القبض عليه ونقله. فامتلأ الفوروم بضجيج وصخب لم يُسمع بمثله من قبل. وحاول بعض من كان حول كاميللوس أن يصدّوا الضابط وقذفوا به من فوق المنبر. وراحت الجماهير في الأسفل تهيب بالضابط أن يقتاد كاميللوس وينزله عن مقعده. واستبدت الحيرة بكاميللوس وأُسقط في يده، ولم يدر كيف يخرج من هذا الموقف الصعب. على أنه لم ينزل عن سلطاته بل جمع الشيوخ وأخذهم إلى المجلس وقبل أن يدخل دعا للآلهة أن تلهمهم الحلّ الصائب وتبلغ بهم إلى نتيجة خيرٍ وسط هذه المحنة ونذر بقسم مغلظ أن يبني معبداً لكونكورد Concord إن انكشفت الغمّة وزالت المحنة. ثم عقدت الجلسة، واصطدمت آراء المجلس اصطداماً عنيفاً وكثر الجدال، وأخيراً نجح أكثر الاقتراحات اعتدالاً، وأحسنها قبولاً عند العامة، وبه تمت الموافقة على تعيين قنصل من العامة إلى جانب القنصل الآخر(٧١). وعندما أعلن كاميللوس قرار المجلس لعامة الشعب استبدّ به الفرح، وصالح الشيوخ صلحاً صميمياً لم يسبق مثيله من قبل. ورافق الجمهور كاميللوس إلى منزله بتظاهرة عظيمة حافلة بضروب التجِلّة والتعظيم، ومظاهر الغبطة. واجتمع المواطنون كافةً في اليوم التالي وصوّتوا بتأييد إقامة معبد كونكورد تحقيقاً لنذر كاميللوس، على أن يُشيَّد بمواجهة بناية مجلس الشيوخ والفورم. كما صوّتوا على إضافة يوم رابع إلى أيام العيد الثلاثة المعروفة «بالأعياد اللاتينية». ورسموا في تلك المناسبة أن يقدّم كل الرومان قرباناً وعلى رؤوسهم أكاليل الغار مضفورة.

في الانتخابات العامة التي أشرف عليها كاميللوس انتخب [ماركوس أميليوس

---

(٧١) بعد أن فرض عامة الشعب إرادتهم بتعيين احد القنصلين من بينهم وتم إحياء المنصب القنصلي والتخلص من منصب التريبيون العسكري نهائياً. إلاّ أن طبقة الپاتريشي لم تتنازل عن هذا الامتياز إلاّ بعد استحداثها وظيفة جديدة هي منصب الپريتور الذي نصّ على أن يكون من الپاتريشي دائماً. والقناصل هم جنرالات في الجيوش الرومانية وهم في الوقت عينه قضاة مدنيون. لكن لما كانوا في ميادين القتال في أغلب الأحيان فقد روعي أن من الانسب أن تسحب منهم الواجبات المدنيّة وتناط بقضاة يطلق عليهم اسم «پريتور» يلون القناصل في درجة الوظائف العامة. وأول پريتور نُصّب في روما كان ابن كاميللوس. وبالمناسبة فقد استحدث في عين الوقت منصب الكورول إيديل (ليڤي ٧:١) الذي سيأتي الكلام عنه. وفي حدود العام ٢٥١ ق.م. استحدث منصب پريتور ثانٍ وأُنيط به حَلّ النزاعات والخلافات التي تنشب بين الأجانب غير الرومانيين. وعند الاستيلاء على صقلية وسردينيا أضيف اثنان آخران، وأضيف عدد آخر عند فتح إسپانيا.

Marcus Aemilius قنصلاً عن الپاترتشيين، ولوشيوس سكستيوس Lucius Sextius أوّل قنصل عن العامة. وكان هذا آخر أعمال كاميللوس.

في السنة التالية انتشر في رومه وباءٌ أهلك عدداً لا يُحصى من عامة الناس، وراح ضحيّته معظم الحكّام ومن بينهم كاميللوس. وليس يصح القول إنه أعتبط، أو مات قبل أوانه إذا فكّرنا في عمره الكبير أو أعماله الكبيرة، إلاّ أن الحزن عليه فاق الحزن على كلّ من ماتوا بهذا الوباء مجتمعين(٧١).

أهم الأحداث في عهده (ق.م)

٣٨٧ معاهدة السلام التي عقدها القائد السپارطي أنطالقيداس مع الفُرس وبموجها أصبحت المدن الإغريقية في آسيا الصغرى خاضعةً للفرس.

٣٧٧ خابرياس زعيم الأثينيين يهزم القائد اللقيديي پوليسدس في معركة نخسوس البحرية.

٣٧١ الثيبيون بقيادة إپامنداس يهزمون اللقديميين في لفكترا.



مارس

پيريكلس

PERICLES

٤٩٥–٤٢٥ ق.م

اتفق أن القيصر(*) شاهد بعض أغنياء الأجانب في رومه يحملون الجراء والقردة الصغيرة، يهدهدونها ويحتضنونها ويدلّلونها ويضمّونها إلى صدورهم بإعزاز وحبّ، وكان من الطبيعي أن ينتهز الفرصة ليسأل: هل تعودّت النساء في بلادهن أن لا يحملن أطفالاً؟». إن هذا النقد الملكي الوجيه أحرى كثيراً بالناس الذين يغدقون على الحيوانات والبهائم ذلك الحب والعطف اللذين ما زرعتهما الطبيعة في أنفسنا إلاّ لنخصّ بهما بني جنسنا من البشر. وللعلّة نفسها يحق لنا العتب على أولئك الذين يسيئون استخدام حبّ الاستطلاع والاستفسار ويصرفونه في أمور لا تستأهل من اسماعهم وأبصارهم اهتماماً، في حين تراهم لا يبالون بما هو حسن بذاته، ولا يكترثون بما يصلح ويستقيم لهم.

إن مجرّد الحسّ الظاهر لمّا كان جامداً عاجزاً عن الاستجابة لتعبيرات الأشياء التي تقع في طريقه أو تعترضه، فقد لا يقوى على ملاحظة أو اقتبال كل ما يعنّ له أياً كان، مفيداً أو ضاراً. لكن الأمر يختلف عندما يستخدم المرء قواه العقلية. ففي كل إنسان قوة طبيعية لتكييف نفسه لكلّ مناسبة عندما يشاء وإن لديه مقدرة على تغيير نفسه وتحويلها بأسهل ما يمكن إلى ما يجده حسناً له. لذلك كانت مهمة الإنسان أن يتتبع خير الأشياء وأن يستخلص أصلحها، وبذلك لايكون عمله قاصراً على تشغيل وتنمية قوى إدراكه، بل الانتفاع بتلك القوى أيضاً. وكما يكون لون من الألوان أبهى للعين من غيره، وكما تكون لطافته ورونقه باعثاً على تقوية النظر وزيادة جِدته، كذلك ينبغي للإنسان أن يستخدم بشعور من البهجة قوى ذهنه في الأمور الكفيلة بصقله وتنشيطه، لمنفعته الخاصة، ومصلحته .

تلك الأمور المحفّزة للذهن نجدها في أعمال الفضيلة، لأنها تخلق في عقول

(*) المقصود أغسطس قيصر.

قرّائها العاديين دوافع وحوافز قد تؤدّي بهم إلى محاكاتها، في حين أن الإعجاب بما سواها لا يستتبع حتماً نشوء رغبة قوية في النفس إلى محاكاتها. بالعكس، وألف مرة بالعكس، فنحن عندما نعجب بصناعةٍ لا نكثرت أو نهتّم كثيراً بالصانع أو الفنّان، كحالة إعجابنا بالعطور أو الأصباغ الحمراء. إننا نميل إلى هذه الأشياء كأشياء فحسب، ولا نفكر بالعطّارين والصبّاغين الذين صنعوها، أكثر من كونهم أناساً عاديين من عامّتهم ودهمائهم.

لم يركب أنتستينس Antisthenes[1] متن الشطط لما قال رَدّاً على ما سمع أن المدعوّ إيسمينياس Ismenias، خير نافخ بالناي، فقال: «قد يكون كذلك، إلاّ أنه مخلوق بشريّ بائس لا غير، وإلاّ ما كان نافخ ناي ممتازاً». وقال الملك فليپس لابنه الإسكندر شيئاً في الموضوع نفسه. فقد عزف هذا الابن مقطوعة موسيقية عزفاً مبدعاً عجيباً في مجلس لهو وطرب، فعقّب أبوه على ذلك بقوله: «ألا يدركك الخجل يا بنيّ لعزفك عزفاً ممتازاً؟»[2] والقصد من هذا أنه يكفي الملك أو الأمير أن يجد لنفسه فراغاً من الوقت أحياناً لينصت إلى موسيقى الآخرين، وإنه ليرفع من قدر الفن كثيراً عندما يجد في نفسه رغبة في حضور مجلس يمارس فيه آخرون هذه الأمور الفنيّة الرفيعة.

ومن يشغل نفسه في مهنٍ وضيعة ينهض شاهداً ضد نفسه على إهماله وعجزه عن الإتيان بالأعمال الصالحة المفيدة، في تلك المعاناة التي يتكبّدها أثناء إنجازه الأمور القليلة الفائدة، أو التي لا فائدة فيها. ولن يجد أيّ شابٍ نابغ أريب أي رغبة في أن يكون فيدياس Phidias عندما يشخص بنظره إلى تمثال جوپتر في پيزا Pisa(*)، أو يتمنّى أن يكون پولقليطوس Polycletus عند مشاهدته تمثال جونو في أرغوس، ولا أن تتأثر نفسه بأشعار أناكريون Anacreon أو فيليطاس Philetas أو أرخيلوخس إلى الحد الذي يشتاق أن يكون أحدهم. إذا حازت إعجابنا قطعة دقيقة الصنع أو أي أثر فنّي لجمالهما وروعتهما فليس ضرورياً أن يستحق صاحبها إعجابنا أيضاً. ومن حيث إن هذه الأشياء لا تفيد ناظريها ولا تُجديهم نفعاً في الحقيقة فإن الناظر إليها لايشعر بأيّ

(١) تلميذ سقراط ومؤسّس المذهب الفلسفي المعروف بالفلسفة الكلبيّة. نبغ في حدود (٣٦٥-٤٤٤ ق.م) وهو معلّم ديوكينيس.

(٢) وقع فيليب نفسه في خطأ شبيه بهذا الذي عَنّف ابنه بسببه. فمرة اختلف مع أحد الموسيقيين حول مبادئ الموسيقى فصاح مخاطبه قائلاً «السماوات لا تسمح لك بأن تعرف عن هذا الموضوع أكثر منيّ».

(*) أعني أولمپيا.

شوق لمحاكاتها، كما أنه لا يجد أي حافزٍ يدفع رغبة فيه أو يحرّك جهداً منه لصنع شبيه لها.

أمّا الفضيلة فتأثيرها آنيّ عميق يبعث الرغبة إلى محاكاة صانعيها عادةً، ونحن نتملك ثمار الحظ ونتمتّع بها، أما ثِمار الفضيلة فنهفو إلى ممارستها ومزاولتها. نحن نُسرّ بأن نأخذ الثِمار الأولى من الآخرين، لكننا نتمنّى أن يأخذ الآخرون مِنّا الثِمار الثانية. إن الثروة الأخلاقية حافز واقعيّ عمليّ، ما إن يقع عليها النظر حتى توحي إلى نفس الناظر بدوافع لمحاكاتها واحتذائها. وليس تأثيرها على العقل والخُلق مجرد اندفاع للتقليد. بل هو تأثير عميق تفصيليّ خلاّق للغرض الخلقي الذي نتويه.

لهذا وجدنا من الملائم أن نصرف الوقت ونبذل الجهد في تدوين سِيَر مشاهير الرجال. وألّفنا هذا الكتاب العاشر في سيرتي پيريكلس وفابيوس وماكسيموس الذي أدار دفّة الحرب ضدّ هنيبال. والرجلان متشابهان في أخلاقهما الأخرى ونواحيهما الحسنة، وهما كذلك سواءٌ في مزاجهما الرقيق ولين عريكتهما واستقامتها وسلوكهما العام، صنوان في مقدرتها على تحمّل الأمزجة المتناقضة الجامحة لبني قومهما وزملائهما في الحكم. ولذلك أفادا بلديهما كثيراً وأصلحا من أمور وطنيهما. وسواء أإتخذا السبيل القويمة إلى الغرض المشروع آنفاً أم لم يتخذا فهذا ما سنترك الحكم فيه للقارئ، مستهدياً بما سيجده هنا.

كان پيريكلس من قبيلة أكامنتس Acamantis ومن مواطني مدينة خولارغوس Cholargos ونسبه أعرق الأنساب سواء من جهة أبيه أو أمّه. فكزانتيپوس Xanthippus أبوه هو الذي هزم قادة ملك فارس في معركة ميكاله Mycale. وتزوّج أغاريستي Agariste(٣) حفيدة كلسطينيس Clisthenes الذي قام بمأثرة طرد أبناء

(٣) نجد عند هيرودوتس (٦ : ١٣١) النسب الكامل لپيركلس. كان كلستينيس ملك «سيكيون» ابنة واحدة تدعى «أغاريستي» فزوّجها بـ«ميغاكليس» ابن آلكيمون فكانت ثمرة الزواج ابنان هما كلستينيس وأيپوقراطس. وولد للثاني منها ابن دعي ميغاكليس وابنة سماها آغاريستي وهي والدة پيركلس. ولذلك فهي ليست حفيدته بل بنت أخيه.
إن معركة ميكالي في أيونيا وقعت في اليوم نفسه وبيّنت النتيجة العظيمة التي آلت إليها معركة پلايتي في ٤٧٩ ق.م. إذ ترك الفرس في ميدان القتال أربعين الف قتيل، وهلك عدد أكبر من هذا أثناء المطاردة. ولم يكتب النجاة للبقية إلاّ بالتقهقر المشين والاحتماء بأسوار ساردين. وكانت خسارة الإغريق تزيد عن أية خسارة حلّت بهم في أية معركة أخرى خلال تلك الحروب كلها.

بسستراتوس ووضع حداً نهائياً لطغيانهم واغتصابهم الحكم، فضلاً عن سنّه مجموعة من الشرائع، وإقامته نموذجاً صالحاً للحكم يتفق تمام الاتفاق وسلامة الشعب واستقراره.

في آخر أيام حمل أمّه به رأت في الحلم أنها ضاجعت أسداً. وبعد أيام وضعت پيريكلس، وكان كامل التكوين إلاّ رأسه فهو مستطيل بعض الاستطالة غير متناسق، ولذلك لاتجد صورة له أو تمثالاً إلاّ والرأس مستورٌ بخوذة. ويظهر أن الصنّاع والمثّالين ما كانوا يرغبون في إبراز ذلك العيب الجسمانيّ.

ولقبّه شعراء أثينا سخينوسيفالوس Scinocephalus أو «رأس العُنْصُل» مأخوذاً من كلمة «سخينوس» Schinos وهي تُستعمل أحياناً لتسمية نبات العُنصلان أو بصلة البحر. ويورد لنا أحد الشعراء الساخرين المدعو قراطينوس Cratinus[٤] في «الحوليّات الخيرونات Cheirons» أن:

«الزمان القديم» تزوج مَرّة، بالملكة «تمرّد» فكانت نتيجة الزواج ذاك القذر الطاغية المدعو پيريكلس في الأرض جامع الرؤوس Head Compeller! في السماء.

وفي «آله الانتقام اللعنة Nemesis» يوجّه الكلام إليه قائلاً:

يقال يا ربّ - يا أنت «رأس» الآلهة المبارك الأعلى القوي[٥] أخا الجود والكرم!

ويصفه تيلقيدس Teleclides الشاعر الآخر وهو جالس في الأكروپوليس وقد أرهقته المتاعب السياسية:

«ينوء تحت عبء رأسه. وهو الآن من خارج مقصورة رأسه ذات الأحد عشر متكأ مسبباً المتاعب والضجة العظمى».

وفي مسرحيّة هزلية لشاعر ثالث هو أيپوليس Eupolis اسمها «النَصَف Denes» يسأل عن أبناء كل خطيب ديماغوغي من الديماغوغيين الذين جعلهم في مسرحية

---

(٤) قراطينوس هو كاتب هزليات قديمة. كتب آخر مقطوعة له وهو في السابعة والتسعين من العمر. وأفبوليس الذي كان أسبق منهم عند عبوره المضايق وقع «ضحية خياله الشعري الساخر».

(٥) كان پيركلس يلقب بـ«أوليمپوس» أو «جوپتر» كما نوّه پلوتارخ بذلك فيما بعد. والشاعر هنا يوجه إليه القول بهذه الصفة ويشير إليه بكلمة «المبارك» أو «ذي الرأس الأكبر». وليس في العربية كلمة كهذه ذات معنى مزدوج ولفظ واحد. وفي الأبيات الأولى لقب بكيفالكيرتس أو جامع الرؤوس (كان رأس پيركلس لفرط ضخامته يبدو وكأنه مجموعة رؤوس) بدلاً من نيفاليكيرتس أو جامع الغيوم. وهي صفة من صفات جوپتر المعروفة.

«قادمين من جهنّم» (إيداس)، عندما خرج پيريكلس في الأخير تراه يهتف:

«هل صعد إلى فوق، رأس القبائل التي تدور في تلك العوالم الواسعة؟».

واتفق معظم الكتاب أن الأستاذ الذي لقّنه الموسيقى هو دامون Damon (يقولون إن المقطع الأول من اسمه يلفظ قصيراً)، على أن أرسطو يخبرنا أن پيتوقليدس Pythoelides هو الذي جعله يُتقن هذه الفنون ويحذقها، وليس ببعيد أن يكون دامون هذا من السفسطائيين، احتال باحتراف الموسيقى على حماية نفسه كي يخفي عن الناس عامةً نبوغه في المسائل الأخرى. وتحت ستار هذا الزعم لازم الرياضيّ الشاب پيريكلس في شؤون السياسة، أو بكلمة أخرى باعتباره مدرّباً في التمارين الرياضية. وعلى أية حال لم تكن «قيثارة» دامون ناجحة كل النجاح لستر نفسه إذ نُفي عن البلاد دون محاكمة لمدة عشر سنوات متهماً بتدخله لمصلحة السلطة المستبدة. وبهذا اتاح للمرسح فرصة التندّر عليه، فمثلاً نجد أفلاطون الشاعر يخترع شخصية مسرحية ويسألها:

«إذن قل لي أولاً من فضلك يا دامون، أنت الخيرون الذي زوّد پيريكلس بصنعته»[٦]. وتتلمذ پيريكلس أيضاً على زينو Zeno [الإليائي Elea][٧] الذي عالج فلسفة الطبيعة بعين الطريقه التي عالجها پارامينيدس إلاّ أنه بلغ الذروة في فن لا ينازعه فيه أحد، وهو دحض حُجج خصومه في الجدال وإسكاتهم؛ ودونك وصف تيمون الفيلوسي له:

«كذلك كان لسان زينو الجبّار؛ لسان ذو حدّين يستطيع أن يبرهن على خطأ أي قولٍ مهما كان».

إلاّ أن أناكساغوراس الكلازوميني Clazomenae كان الأكثر لصوقاً بپيريكلس، وهو الذي أفاده أكثر من غيره، لاسيما بتوسيع مداركه والارتفاع بوعيه على كلّ المفاهيم الشعبيّة الاعتيادية، وفتّح عينيه على سموّ المقاصد ورفعة الأخلاق. كان رجال

---

(٦) وكلمة خيرون هنا ذات معنيين فهي إمّا تفهم في العبارة هكذا: «أأنت معلم پيركلس؟ أو تُفهم» - «أأنت أكثر شرّاً من پيركلس؟»

(٧) (إيليا) بلدة إيطالية ومستوطنة للفوكيين. وعلينا أن لا نخلط هنا بين زينو هذا وزينو الإليائي موجد الفلسفية الرواقية. فالمقصود هنا هو رجل نال احترام بلاده لمحاولته إنقاذها من يد أحد الطغاة. فقبض عليه الطاغية وأمر أن يوضع تحت مدقّة الجصّ ويدقّ حتى يموت إلاّ أن ميتته حققت ما لم تحققه حياته فقد عصف الغضب بمواطنيه لهذه الجناية ووثبوا على الطاغية مرتكبها ورجموه حتى الموت.

العهد قد لقّبوا هذا الفيلسوف بـ«نوس» Nous أي العقل، أو النبوغ، إما بدافع إعجابهم بمواهبه العظيمة الفائقة التي برزت في علوم الطبيعة، وإما لأنه أوّل الفلاسفة الذين عزوا المسبّب الأول للوجود، لا إلى المصادفة وحكم الظروف ولا إلى الضرورة والوجوب، بل إلى ادراك محضٍ نقيّ خالص يعمل في الأشياء الأخرى المركبة والمختلطة، كعنصر فصلٍ أو عنصر اتحادٍ بين النظير والنظير.

وكان احترام پيريكلس لهذا الفيلسوف وإعجابه به لا حدّ لهما. ولا غرو فقد أثّر في نفسيته وملأها بالإدراك المتسامي أو كما يوصف بالإدراك الضارب في كبد الفضاء. ولم يكن معين هذا الإدراك قاصراً على سموّ الغاية، وسلامة القول البعيد جداً عن تهريج البلاغة الغوغائية، المضِلّلة الوضيعة، بل أوجد فيه إلى جانب ذلك رباطة جأشٍ وهدوءاً ووقاراً في حركاته وسكناته، حتى لم يعد يقوى حادث طارئ على حديث استرسل فيه. وكانت نبرات صوته قوية هادئة مطّردة، إلى غير ذلك من الميزات التي تخلّف أعظم التأثير في سامعيه. ومرة ابتُلي بشخص وضيع متهتّك ظلّ يشتمه ويهينه على مسمع منه طوال اليوم وهو منشغل في ساحة السوق يتصريف أمرٍ عاجل، فلم يأبه به واستمر في عمله بصمت تام. ثم قفل إلى منزله عند حلول المساء وهو في تمام هدوئه والرجل يجري في أعقابه يلاحقه بالشتائم ويرشقه ببذيء القول طول الطريق. ودخل پيريكلس بيته وقد جنّ الليل، فأمر أحد خدمه أن يحمل مصباحاً ويرافق الرجل حتى منزله.

الحق يقال إن الشاعر الدرامي إيون Ion يذكر أن سلوك پيريكلس مع مجالسيه كان متّسماً بالخُيَلاء والتعاظم، وغطرسته هذه كان يتخللها قدر كبير من الاستخفاف والازدراء بالآخرين، ويتحفظ في إطرائه بساطة كيمون ومرونته وكياسته الطبيعية في سلوكه مع الناس. وعلى كل حال فإيون هذا يرمي إلى أن يعامِل الأخلاقَ معاملته لمشاهد تمثيلية مأساوية، فيحشر فيها بعض المواقف الهزلية، مما لا يمكن الركون إلى أي منها[٨]. واعتاد زينو أن يطلب ممن يسمّون رزانة پيريكلس بتظاهر المشعبذ أن

(٨) التمثيلية التراجيدية كانت بالأول عبارة عن جوق من المنشدين لتكريم باخوس. وكان الممثلون يرتدون أزياء تنكرية كالمسوخ وكثيراً ما كانوا أثناء التلاوة والإلقاء يتبادلون عبارة المزاح بدون حدود. بعدها اتجهت الجوقة إلى الجدية والوقار فبدت تراجيكوميدية أي مزيج من المأساة والهزل. وبمرور الوقت بدأ التراجيديون يعالجون مواضيع جدّية وبدأ الممثلون يجسّدون شخصيّات وقورة مؤدّبة. وتم التخلص من المزيج المتناقض في التمثيلية وأصبحت دراما تامة الأبعاد. إلاّ أن الممارسة العملية حتى في الزمن الذي نحن بصدده كانت تقتضي عرض ثلاث

يروحوا ويتصنعوا تلك الرزانة إلى أن يزرع فيهم هذا التقليد حباً حقيقياً لهذا الخلق النبيل وإدراكاً له.

ولم يكن هذا كل ما جناه پيريكلس من مخالطته لأناكساغوراس إذ تدلّ الدلائل أنه صار وفقاً لتوجيهاته ينفر من تلك الخرافات التي يتطلع إليها الجاهل مشدوهاً خاشعاً وهي تبدو في السماء مثلاً... تلك الأوهام التي تستولي على عقول من لا يدري أسبابها، فيذهلون للظواهر الخارقة للطبيعة ويكونون سريعي الاستثارة لقلة التجربة التي تنّحي إدراك العلل الطبيعية جانباً، وتضع الأوهام الطائشة المحدودة الأفق موضع الأمل الخيّر واطمئنان التُقى المنبعث من الفهم والإدراك.

وتحضرني حكاية عن پيريكلس: أُحضر له من مزرعته الريفية يوماً كبش ذو قرن واحدٍ. فلما وقع نظر العَرّاف لامپون Lampon على القرن بارزاً من وسط جبهة الرأس صلباً قوياً، نطق بتفسيره قائلاً: لمّا كان يوجد في تلك الفترة رأيان أو مصلحتان أو حزبان قويان في المدينة، أحدهما يتزعمه ثوكيديوس[٩]، والثاني يرأسه پيريكلس، فإن الحكم سيؤول إلى من خرجت إشارة الأقدار هذه من أرضه! فلم يكن من أناكساغوراس إلاّ أن فلق جمجمة الكبش نصفين، وعرض للحاضرين أن الدماغ لم يتخذ موضعه الطبيعيّ، ولأنه مستطيل كالبيضة فقد التمّ من كل تجاويف القُحف الذي يستوعبه واجتمع في نقطة الموضع الذي نشأ منه جذر القرن البارز. في حينه أثار أناكساغوراس إعجاب الحاضرين بشروحه وتعاليله، إلاّ أن الإعجاب بلامپون فيما بعد لم يكن بأقلّ منه، عندما هزم ثوكيديدس وقبض پيريكلس على زمام الحكومة والدولة.

ولست أجد أيّ غرابة في القول بأن كلاهما كان مصيباً، فيلسوف الطبيعة ذاك، والعرّاف هذا، فأولهما كشف عن سبب تلك الظاهرة كشفاً صحيحاً وأظهر للملأ عِلّتها. أما الثاني فقد أبان الغرض من وجودها. وكانت مهّمة أولهما الوصول إلى أصل تكوينها وتفسيره، أي إيضاح السبب في نموّ القرن بهذه الهيئة الشاذّة. في حين قصرت مهمة ثانيهما على التنبؤ بالغاية التي استهدفها نموّه وعلام تدّل، وأي خبر يستبطن؟

مقطوعات تراجيدية جديّة. وبعدها اعتاد الشعراء أن يختموا مسابقتهم على الجائزة بقطعة ساخرة. ويوجد من هذا النوع تمثيلية جيدة هي «السيكلوپا» ليورپيدس.

وإيون هو مرسحي تراجيديّ من مدينة خيوس. ومن بعض أصولٍ لآثاره جاءتنا مقطوعات قليلة من مرثياته.

(٩) سياسيّ معاصر لپيركلس وواحد من مناوئيه. وأبوه هو أوورلوس في حين أن اسم والد المؤرخ الشهير هو ميلسياس.

لقد خفي عن القائلين بأن البحث عن مسبّبات الخوراق يؤدّي إلى ضياع وتلف ما تنبئ به وتدل عليه أنهم يضيّعون مع تلك الخوارق السماوية كل البراهين والدلائل المثبتة للمكوّنات الإنسانية، والتناسق البشري. ومثل هذه كمثل اصطفاق حلقات الرمي النحاسية بعضها[١٠] ببعض، وكتعارض أنوار النيران المرشدة ليلاً، وكتصادم ظلال المزولات الشمسية؛ فلكل من هذه سببٌ ووسيلة ولكلّ سبب دليل إلى آخر. . . إلاّ أن هذا البحث قد يلائم موضعاً آخر غير هذا الموضوع ولنكتف بما عرضنا منه.

كان پيريكلس في شبابه يتردد في مواجهة الجمهور إلى أقصى حدٍ، إذ كان يُعتقد بأنه يشبه پسستراتوس الطاغية شبهاً شديداً بملامحه وتركيبه البدني، وكبار السنّ المعمّرون الذين أدركوا الطاغية فيذهلون للشبه العجيب بين صوتيها عندما ينصتون لعذوبة نبرات [پيريكلس] وسرعة كلامه وذلاقة لسانه.

وأطال پيريكلس التأمل في حاله، وفكر في ثرائه العريض ونُبل محتده، وكثرة أصدقائه المتنفّذين، ورأى أن هذا قد يؤدي به إلى اعتباره من الأشخاص الخطرين على النظام فيحكم عليه بالنفي، فخوفاً من هذا عمد إلى الابتعاد عن شؤون الدولة ولم يتدخل في شيء. لكنه برهن على شجاعةٍ وبسالةٍ في خدمته العسكرية. وبموت أريستيدس وطرد تميستوكلس، وانشغال سيمون بالحملات العسكرية التي قادها إلى أجزاءٍ من بلاد الإغريق وقضائه معظم أوقاته خارجاً، تقدّم پيريكلس بعد طول تفكير ليأخذ مكانه، لا إلى جانب الأغنياء والأقلية، بل إلى جانب المعدمين والأكثرية، خلافاً لميله الطبيعي البعيد جداً عن الديمقراطية، وأغلب الاحتمالات أنه خشي أن يشك في أنه يطمح إلى السلطة المستبدّة، كذلك لأن كيمون كان يؤيد الحزب الأرستقراطي، والمبرزون ورجال الطبقة العليا متعلقون به شديدو الحب له. فلم ير بداً من الانتماء إلى حزب العامّة يحدوه في الوقت نفسه غرضان: أن يحصّن نفسه من أي سوء، وأن يضع يده على الوسائل الفعّالة لمناجزة خصمه سيمون.

ما إن استقرّ رأيه على هذا حتى اتخذ أسلوباً جديداً في حياته، وبدّل من عاداته، وأعاد تنظيم أوقاته. فلم يُر بعدها سائراً في شارع غير الشارع المؤدّي إلى ساحة السوق وقاعة مجلس الشورى، واجتنب دعوات الخلاّن إلى ولائم العشاء، وانقطع عن زيارة

---

(١٠) إن ضرب الحلقات أو الصنّاجات النحاسية بعضها ببعض هي إشارة عسكرية عند الإغريق أحياناً، في حين أنها عند الرومان إشارة يدعو بها المصارعون للنزال (شيشرون: الخطابة ٣) كما تستخدم الحلقات في المحاكم لدعوة المتقاضين.

الأصدقاء، وأنهى كل علاقة له من هذا القبيل وتفرّغ للجمهور تفرّغاً تاماً ولم يكن هذا كله بالجهد القليل. ولم يُسمع عنه بعدها أنه قصد صاحباً له لتناول العشاء إلاّ مرة واحدة عندما تزوج قريبه يوريپطليموس Euryptolemus إذ بقي في الحفل حتى تمام مراسم تقدمة الخمر، وبعدها أسرع بالنهوض وترك المائدة عائداً إلى بيته(١١).

كان يدرك أن هذه اللقاءات الودّية من شأنها أن تزيل الكلفة وتمحو عامل التفوّق بسرعة شديدة. وفي العلاقات الصميمة الوثيقة يصعب جداً الاحتفاظ بمظاهر الوقار والرزانة، ويزداد التعرُّف على التمايز الحقيقي عندما يكشف صاحبه عنه كشفاً جلياً. وفي أخيار الرجال الحقيقيين لا شيء منهم يستأهل إعجاب مراقبي السلوك الظاهري مثل حياة أقرب اصدقائهم الاعتيادية اليومية.

وعلى كلٍ، ولأجل أن يجتنب پيريكلس أيّ شعور بالابتذال، أو تكوُّن إشباعٍ في الجمهور من رؤيته، لم يكن يظهر في المجتمع كثيراً، ولا يتكلّم في كلّ شأنٍ، ولا يحضر جلسات الجمعية العامة دائماً. بل كان على حدّ قول قريطولاوس Critolaus يدّخر نفسه للمناسبات الكبرى، مثل سفينة سلاميس(١٢)، ويصرف الأمور الثانوية عن طريق أصدقائه، أو يدفع متكلمين آخرين بتوجيه منه. ومن هؤلاء الأنصار أفيالطس Ephialtes الذي قضى على سلطة المجلس الأريوباغي، وسقا الشعب جرعة من الحرية كبيرة وقوية جداً - على حَدّ تعبير أفلاطون(١٣) - بحيث أصبح صعب القياد، متمرّداً على كل نظام، أو على حد قول الشعراء الساخرين، كالحصان الجموح...

«الذي لم يعد فيه الصبر على
إطاعة اللجام تراه يعضّ في أيوڤيا، يطأ الجزر».

وأخذ أسلوب حديثه المتسق تمام الاتساق مع السبيل الذي سلكه في الحياة ورزانة آرائه عن نغمات تلك الآلة التي منحها له أناكساغوراس. وأما بخصوص تثقيف نفسه فقد استمر في الإفادة وتقوية ألوان بلاغته الخطابية من صيغة علم الطبيعة، ففضلاً عن نبوغه العظيم بالسليقة توصّل، كما قال أفلاطون الإلهي(١٤)، إلى الإفادة من

(١١) أعني حتى جيء بالخمر لمجلس الطرب والشرب. ويُدئ بتعاطي الرّاح.
(١٢) إلى جانب تلك المهام الكبرى الخاصّة التي تستخدم لها سفينة سلاميس فهي ترسل لنقل الجنرال الذي يريد الأثينيون منه تقديم حساب. وأما كريتولاوس المشّاء فقد كان موفداً من قبل مجلس شيوخ روما في ١٥٥ ق.م مع ديوغينس الرواقي، وكارينادس الأكاديمي.
(١٣) أفلاطون [الجمهورية: ٨].
(١٤) فيدروس: أفلاطون.

الطبيعيات: فبلغ تفوّقه العقلي هذا وقدرته الواسعة في استيعاب كل العلوم ثم أخْذه بكل ما هو مفيد له من فن الكلام ما جعله يرتفع على الأقران بمسافة شاسعة. وقيل إنه ما لُقبّ بالأولمبي إلاّ لهذا السبب. إلاّ أن بعضهم يقول إن اللقب جاءه بسبب تزيينه المدينة بكثير من المباني العامّة. ويرى آخرون أنه سُميّ بذلك لما أظهره من كفاءة في تصريف شؤون الدولة، سواء في السلم أو في الحرب. ولا يُستبعد أن تكون التسمية نتيجة اجتماع عدة مآثر وخصالٍ في شخصه. ومهما يكن، ففي الكوميديات التي أُلّفت آنذاك، كلمات متطايرة تعرّض به تعريضاً حادّاً إمّا بقصد قدحه والنيل منه واما على سبيل الفكاهة والنكتة المحضة. ومنها يظهر أن تسميته هذه جاءت من أسلوب كلامه، فهي تنوّه «برعوده وبروقه» عندما يقف خطيباً في الجماهير، وتشير إلى «الصواعق المرعبة التي تتفجّر من لسانه»(١٥).

يتناقل الكتّاب حديثاً لثوكيديدس ابن ملسياس عن پيريكلس قاله على سبيل التندّر في براعة لسانه. وكان ثوكيديدس أحد المواطنين السراة البارزين، ومن أشدّ خصوم پيريكلس، وعندما سأله أرخيداموس ملك اللقيديمونيين أيهما أظهر في المصارعة؟ هو أم پيريكلس؟ أجابه قائلاً: «عندما أرفعه وأطرحه على الأرض بمسكةٍ تتفق مع الأصول يغلبني بإصراره على أنه لم يسقط، ويحمل المتفرّجين على تصديقه وتكذيب أعينهم». والواقع هو أن پيريكلس كان شديد الحذر فيما يتكلم وكيف يتكلم. وبلغ به الأمر أنه كان يبتهل للآلهة كلما صعد منبراً(١٦) بألاّ تدع لسانه يزلّ بكلمة واحدة غير مناسبة للمقام ولا للموضوع.

ولم يترك أثراً مخطوطاً عند موته إلاّ بعض المراسيم والبيانات ولم يسجلّ التاريخ من أقواله إلاّ النزر اليسير. كقوله مثلاً «يجب أن ترفع إيجينا من پيريوس كما يُزال القذى من العين». وقوله إنه رأى الحرب وهي تزحف في طريقها نحوهم من الپيلپونيوس. ومرة عندما كان سوفوكليس Sophocles مندوباً مفوّضاً يزامله في القيادة وكان يصعد معه ظهر سفينة، أخذ يطري جمال فتىً التقيا به وهما في طريقهما إلى السفينة فقال له پيريكلس: «يا سوفوكلس! لا يكفي أن تكون يدا الجنرال نظيفتين، بل عيناه أيضاً».

---

(١٥) أرسطوفانس: الأخارنانيوس.

(١٦) يقول كوينتليان إنه يدعو بأن لا تخرج كلمة واحدة غير حسنة لآذان المتسمعين. وهذا أقرب إلى المنطق لأن سويداس يذكر أن پيركلس كان يكتب خطبه قبل إلقائها على الجمهور. وهو أول من عمد إلى ذلك من الخطباء.

ويحدثنا ستيسمبروتوس أنه قال في أثناء تأبينه أولئك الذين سقطوا صرعى المعركة في ساموس(*):

أنهم كالآلهة أصبحوا من الخالدين «فنحن لا نرى الآلهة بالعين المجرّدة، بل نعزو إليها الخلود بالعبادة التي نقدّمها لها وبالنِّعم التي تُسبغها علينا، وهذا الوصف نفسه ينطبق أيضاً على أولئك الذين يموتون في سبيل وطنهم».

كان ثوكيديدس(١٧) يصف حكم پيريكلس بالحكم الأرستقراطي المتستّر باسم الديمقراطية، وهو في الواقع سيادة فرد أوحدٍ عظيم المقام. ويقول كثيرون بعكس ذلك، ويذكرون أن عموم الشعب شَجُع بفضله وأقدم لأول مرة على الاستيلاء على أراضي الآخرين الممنوحة إقطاعاً لهم وعلى غيرها من الشرور، كإباحة ارتيادهم الملاعب والمسارح، ودفع مخصصات لهم عند أداء واجبٍ عام. فبهذه التدابير السيّئة وبتأثير من سياسة العامة انقلب الشعب من ذلك الجدّي الحريص الدؤوب عن كسب رزقه من كدحه إلى شعبٍ محبّ للترف واللهو والخلاعة. وبين هذين الرأيين في حكم پيريكلس لا مناص لنا من جلاء السبب في هذا التغيير على ضوء الحقائق المادية(**).

بالأول: قالوا إنه استمال قلوب الشعب لما قرّر منازلة كيمون ومزاحمته على سلطانه الكبير. إذ وجد نفسه أقلّ ثراء ومالاً من خصمه الذي أفاد من سعة ثروته برعاية الفقراء والحدب عليهم، فكان يدعو إلى مائدة عشائه ليلياً مواطناً أو اثنين من المحتاجين، وكان يكسو العجزة ثياباً، ويهدم جدران بساتينه وأسيجتها ليجني الثمار منها كل من يريد وبقدر ما يشاء. وبهذا حقق الغلبة على پيريكلس بهذه الأساليب الجذّابة لقوى الشعب. لكن پيريكلس أخذ بنصيحة شخصٍ يُدعى ديمونيدس Demonides(١٨) الأويائي على ما ذكر أرسطو، فعمد إلى توزيع النقود العامة؛ مشترياً الجماهير بوقت قصير. فقد خصص المال للملاعب وفرض أجوراً لخدمات القضاء(١٩)، وغير ذلك من

(*) ٤٤٠-٤٣٩ ق.م.

(١٧) المرجع السالف ٦٥٢، ٩ في تقريظه لپيركلس.

(**) دستور أثينا ٢٧ : ٤.

(١٨) هي مقاطعة في أتيكا. أو ربما قصد بها إحدى الجزر المسمّاة سپورادس Sporades في بحر إيجه. اشتهرت بوجود قبر هوميروس فيها.

(١٩) هناك أنواع عديدة من المحاكم في أثينا. وتؤلّف من عدد معيّن من المواطنين ويصرف لكل مواطن «أوبول» واحد من الخزانة عن كلّ قضية ينظر فيها. ويحاول بعض الأشخاص أن يكسبوا شعبية وشهرة فيحاولون المطالبة برفع هذا الأجر.

أشكال المنح والهبات، استخدمها سلاحاً ضد المجلس الأريوباغي للحدّ من سلطانه. ولم يكن هو عضواً فيه، إذ لم يجر تعيينه بالاقتراع في منصب يؤهّله للعضوية، كأرخون بسيط، أو أرخون پوليمارخ. فمنذ قديم الزمان وأرخون Thesmothetes أو أرخون Basileus أو أرخون پوليمارخ هي من الوظائف الانتخابية. ومن تنتهي وظيفته فيها يغدو عضواً من المجلس الأريوباغي. فبعد أن ثبّت پيريكلس قدمه وأمن جانب جماهير الشعب وجّه مجهودات حزبه ضدّ هذا المجلس وحقق نجاحاً باهراً بأن سحب منه حق النظر في معظم الدعاوى والنزاعات القضائية التي كان من صلاحيته إجراء المرافعات فيها، وتم ذلك بمسعى أفيالتس ومجهوداته. وعمل على إبعاد كيمون أيضاً باعتباره موالياً للقيديمونيين، وعدوّاً للشعب[٢٠]. وكان المواطن الأول من حيث النسب والمال، وفاز بانتصارات باهرة على البرابرة، وملأ المدينة بالأموال وغنائم الحرب؛ على ما دوّن في تاريخ حياته.

حقاً كان نفوذ پيريكلس عند الشعب عظيماً هائلاً.

لقد حدّد القانون مدّة النفي بعشر سنين. لكن كيمون عاد من منفاه قبل انتهاء المدة[*]. والسبب في ذلك أن اللقيديمونيين دخلوا حدود تناغرا[٢١] بجيش لجِب فنهضت أثينا لحربهم، فانضم كيمون إلى معسكر قومه وتقلّد سلاحه وانتظم في صفوف قبيلته، يريد بذلك إزالة الشكّ في موالاته للقيديمونيين مقدّماً برهاناً في المغامرة بحياته إلى جانب بني قومه. إلا أن أتباع پيريكلس تكالبوا عليه وأرغموه على الانسحاب من الحرب لأنه محكوم بالنفي. والظاهر أن پيريكلس بذل في هذه الحرب مجهوداً يفوق ما بذله في أية حربٍ، وأنه عرّض نفسه للخطر بنوعٍ خاص. كذلك أبلى أصدقاء كيمون فيها خير بلاءٍ، هؤلاء الذين اتهمهم پيريكلس مع صاحبهم بممالأة اللقيديمونيين[٢٢]. وهُزم الأثينيون في الحرب وطوردوا حتى حدودهم، وكانوا،

---

(٢٠) الخيانة العظمى التي نسبت إليه هي أنه قبل هدايا ورشاوى أخرى في المقدونيين مما جعلت يتخلّى عن الاستمرار في فتوحاته بعد أن وضع يده على مناجم الذهب في تراقيا. وكان جواب كيمون أنه وسّع رقعة الحرب إلى أقصى حَدّ ممكن ضد التراقيين والأعداء الآخرين. أما عدم توغّله في مقدونيا فذاك يرجع إلى أنه لا يريد أن يكون عدوّاً وخصماً للبشرية كلها. وقد تم إبعاد كيمون في ٤٦١ ق.م.

(*) أي في سنة ٤٥٧ ق.م.

(٢١) في بويوتيا ما بين أسمينوس وأسوبوس.

(٢٢) كانوا يبلغون المائة عَدّاً كما سنرى في سيرة كيمون.

بتوقعهم هجوماً جديداً كاسحاً في أوائل الربيع القادم، يشعرون بالأسف والأسى على خسارة كيمون وبالندم لطرده. وكان پيريكلس أشدّ إحساساً من غيره بما يخالجهم من هذه المشاعر، فلم يتردد ولم يتوان في إنالتهم مبتغاهم وتقدّم باقتراح يقضي بالسماح لكيمون بالعودة إلى الوطن فتم له ذلك. وعند عودته قام بعقد صلح بين المدينتين[٢٣]، مستفيداً من منزلته الكبيرة عند اللقيديمونيين وحبهم له بقدر كرههم پيريكلس وغيره من الزعماء الشعبيين.

على أن فريقاً من الكتّاب يزعم أن پيريكلس لم يقترح عودة كيمون إلاّ بعد أن عقد معه اتفاقاً يتضمّن شروطاً سرّية خاصة وكان الوسيط بينهما إلپينيكي Elpinice أخت كيمون. وتقضي الشروط أن يعيّن كيمون قائداً عاماً لأسطول تبلغ عدّته مائتي سفينة يقوده للاستيلاء على ممتلكات ملك الفرس، وأن يتفرّد پيريكلس بالحكم في المدينة.

ويُظنّ أن إلپينيكي هذه كانت قد حققت لأخيها كيمون منّة على يد پيريكلس، إذ أقنعته بأن لا يشتد في تعقيب التهمة على كيمون وان يترفق به عندما حوكم بتهمة الخيانة العظمى[٢٤]، وكان هو عضواً في لجنة الاتهام التي عيّنها مجلس العموم. إذ جاءته إلپينيكي راجية في أمرِ أخيها فأجابها مبتسماً: «إنك يا إلپينيكي قد بلغت من الشيخوخة مبلغاً لا يسمح لك بمعالجة مثل هذه الأمور». لكن لما حضر الجلسة المخصصة لشرح التهمة والادّعاء عليه بها وقف للكلام مرة واحدة فقط، ليقدّم استقالته من العضوية. ثم خرج حالاً من قاعة المحكمة، وبهذا كان أقلّ متهمي كيمون تحاملاً عليه، وضرراً به.

فكيف بجوز لنا أن نصدّق إيدومينيس Idomenes[٢٥] الذي يتهم پيريكلس بما يُفهم منه أنه الذي دبرّ مقتل السياسي الجماهيري المحبوب أفيالطس غيلةً وغدراً؟ وهو صديقه الحميم وأحد أركان حزبه طوال حياته السياسية، بدافع الحسد بله غيرةً من سمعته الداوية؟ لا أدري من أين نبش هذا المؤرخ تلك القصص. قاصداً تلويث اسم رجلٍ لم يسلم في الواقع من الأخطاء واللوم، إلاّ أنه ذو نفس نبيلة، وشخصيّة متمسّكة بأهداب الشرف، وهي سجايا لا يمكن أن تُفسح للقسوة والوحشية موضعاً أو سبيلاً

---

(٢٣) في العام ٤٥٠ ق.م.

(٢٤) مع هذا فقد حُكم على كيمون بغرامة قدرها خمسون تالنت (٢٠٠٠٠ پاون سترليني تقريباً) ولم ينج من حكم الموت إلاّ بعد اللتيا والتي. إذ أُنقذ بأغلبية ثلاثة أصوات فحسب!

(٢٥) مسقط رأسه لامبساكُس. وهو تلميذ أبيقور. كتب تاريخاً حول أتباع سقراط وتلاميذه.

إليها. وأما حقيقة حكاية أفيالطس فهي كما أوردها أرسطو على النحو الآتي(*): أصبح أفيالطس غولاً مرعباً لحزب الأقلية بسبب دفاعه عن حقوق الشعب دفاعاً لا يعرف المهادنة ولا المساومة، وبمحاسبته المجرمين بحق الشعب ودوام اتهامه لهم. فضاقوا به ذرعاً - وهم على كل حال أعداؤه - فكمنوا له واغتالوه سِرّاً بتوجيه أرسطوديكوس Aristodicus التناغْري.

وانتهت أيام كيمون في هذه الدنيا وهو قائد الأسطول في قبرص(٢٦).

ووجد الحزب الأرستوقراطي تعاظم سلطان پيريكلس في المدينة وبروز شخصه على الجميع، فأدرك الحاجة الي شخص يوضع في مقابلته، لثلم حدّ سلطانه وفلّ غُراب تفوّقه لئلا يؤول به إلى الحكم الفردي المطلق، فرشّح ثوكيديدس الألوپيكه Alopece - وهو شخص حكيم عاقل من أقرب أقرباء كيمون - ليقود المعارضة ضدّ پيريكلس. ولم يكن ثوكيديدس يطاول كيمون في الفنون العسكرية، إلاّ أنه كان يفوقه في تملّك ناصية البيان، والسياسة. وبدوام لبثه في المدينة ودخوله مع خصمه في معارك خطابية انتخابية تمكّن بوقت قصير من إيجاد توازن حزبي في عالم الحكومة. فقد أبى أن يبقى أولئك الذين يتّسمون بصفة الأمانة والصّلاح (البارزون وذوو السمعة) على أسوأ حالٍ من التفرّق هنا وهناك، ضائعين بين عامّة الناس لا أثر لهم، زاهدين في مكانتهم الرفيعة، معزولين مهملين في زوايا الخمول؛ عمد ثوكيديدس إلى انتشالهم من وهدتهم واحداً واحداً وجمع كلمتهم ووحّدهم، وتمكن بثقلهم من تحقيق التوازن المنشود مع الحزب الآخر كما في كفّتَي الميزان. والواقع أنه كان يوجد من البداية ما يشبه الصدع أو الشقّ الخفيّ، كما في قطعة حديد، يقوم حدّاً فاصلاً بين النوازع الشعبية والنوازع الأرستقراطية. إلاّ أن التناحر المكشوف والمنافسة بين هذين الخصمين زادا في الصدع عمقاً، وقسما المدينة إلى حزبين: حزب الشعب وحزب الأقلية. لذلك عمد پيريكلس في هذا الوقت بالذات إلى إطلاق العنان للشعب أكثر من أي وقت مضى وجعل سياسته خادمة لأهوائه وصار يبذل الجهود المستمرة لإرضائه بإقامة مهرجانات عامة أو احتفالات دينية أو ولائم أو مواكب وغير ذلك تحرياً لإدخال المسرّة والبهجة في حياته، مثلما يُستمال الأطفال بالألعاب والملاهي، التي لا شأن لها برفع مستواهم الثقافي وتهذيبهم. وتمادى في التودّد إلى الشعب بأن عمد كل سنة إلى إرسال ستّين

(*) أرسطو: دستور أثينا ٢٥: ٤.

(٢٦) في حصار كيتيوم ٤٤٩ ق.م.

سفينة إلى البحر مشحونة بالمواطنين الذين تدفع لهم الدولة أجر ثمانية أشهر ليتعلّموا فنون الملاحة ويتدرّبوا على خدمة السفن. وبعث بألف مواطن إلى جزر الخيرسونيز[٢٧] لإعمار الأرض وزراعتها بتوزيع أراضيها عليهم بالقرعة. وأرسل خمسمائة إلى جزيرة نكسوس، ونصف هذا العدد إلى آندروس، وألفاً إلى تراكيا ليشاطروا قوم البيزالتي Bisaltae العيش. وبعث بآخرين إلى إيطاليا عندما تقرّر إعادة تأهيل مدينة سيباريس Sybaris[٢٨] التي تسمّى الآن ثوري Thurii. فعل ذلك لتخليص المدينة من العاطلين الذين يصيرون بسبب البطالة كتلة مزعجة من الفضوليين المتطفلين ويكون فيه أيضاً علاج لتشغيل فقراء المدينة وسدّ خلّتهم. كذلك تفيد هذه الجاليات في إخافة حلفائهم وصدّهم عن محاولة الانتقاض أو إجراء أي تغيير، فهم بمثابة حاميات أثينية تعيش في وسطهم.

إن تشييده المباني العامة والمعابد والهياكل هو الذي أعطى أثينا رُوَاءها وجمالها وجعلها محطّ إعجاب الأجانب ودهشتهم. وها هي الآن الشاهد الوحيد الإغريقي على أن السلطان الذي فخرت به، والغنى السالف الذي كانت ترفل فيه، لم يكونا حديث خرافة ولا ضرباً من الخيال. مع هذا فإن أعماله الإنشائية هذه كانت دون سائر أعماله الأخرى في الحكومة مطعناً اتخذه أعداؤه للنيل منه، وراحوا يستنكرون باعتراضاتهم التافهة في المجالس والاجتماعات العامة بقولهم: أنظروا كيف فقدت جمهورية أثينا سُمعتها في الخارج وآضت هدفاً للنقد والتجريح، لنقلها خزينة دول اليونان العامة من جزيرة ديلوس[٢٩] إلى مدينتها وأطلقت يدها فيها تغترف ما تشاء، وكيف أن حجّتهم بنقلها خوفاً من استيلاء البرابرة عليها ولغرض وضعها في حرز حريز، فقدت قوّتها ونُسفت نسفاً بأعمال پيريكلس. وكيف أن «بلاد الإغريق لها كل الحقّ في أن تسخط وتستنكر هذا العمل وتعتبره إهانة غير محتملة، وتعدّ نفسها ضحية تحكّم وطغيان عندما ترى أموال الخزينة التي شاركت في جمعها بدافع الضرورة الملجئة لسدّ نفقات الحرب، تبذّر تبذيراً وتُصرف بشكل لا مبرّر له على طلاء مدينتنا وتجميلها وتزيينها بالتماثيل

---

(٢٧) في العام ٤٤٧ ق.م.

(٢٨) في العام ٤٤٤ ق.م. هذه المدينة كانت قد دُمّرت ثلاث مرّات آخرها في العام ٥١٠ ق.م. ولم يُعد پيركلس بناءها فوق أرضها وإنما أقامها في أرض مجاورة.

(٢٩) المساهمة السنوية النقدية للدويلات الإغريقية في الحرب المقدونية كانت تودع مع المبالغ الأخرى في معبد أپوللو بديلوس وتكون بعهدة أمناء يعيّنهم جمهور الإغريق. فقام پيركلس دون أي مبرّر بنقلها عنوةً إلى أثينا وأنفقها في إقامة البنايات العامة لتجميل المدينة.

والمعابد التي كلّفت ألف تالنت[٣٠] كالمرأة المزهوّة بنفسها حين أُثقلت بالجواهر».

وقال پيريكلس للشعب رداً على هذا إن الأثينيين غير مضطرين أبداً إلى تقديم أي حسابٍ عن هذه الأموال لحلفائهم، ما دامت أثينا قد تكفّلت بالدفاع عنهم وبوقوفها للبرابرة بالمرصاد لحمايتهم، في حين لا يقدّم هؤلاء الحلفاء حصاناً واحداً أو رجلاً أو سفينة؛ وإنما يساهمون بالمال فحسب في المجهود الحربي «هذا المال الذي يخرج من ملك معطيه إلى مُلك متسلّمه، عندما يقوم هذا المتسلّم بإنجاز الشروط المترتّبة عليه». ثم زاد على ذلك بقوله إن المدينة بعد أن استعدت تمام استعداد لكلّ طارئ، واختزنت كل ما هو ضروري للحرب، لها كل الحق والمبرّرات في إنفاق ما فاض من مالها هذا على المشروعات التي ستضفي بعد إكمالها شرفاً خالداً عليهم، وستمدّهم أثناء القيام بها بموارد رزقٍ عظيمة . وبما أن ذلك يتطلب صناعات مختلفة وأعمالاً كثيرة فقد اقتضى تحشيد كل أرباب المهن والحِرف اليدوية الماهرة وتوزيعها على المشاريع. وبذلك غدا الجمهور كلّه شغّيلة حكوميين تدفع أجورهم من أموال الدولة، فضلاً عن تجميل مدينتهم وإصلاحهما بسواعدهم. وكان الرجال الذين أهّلتهم قواهم وأعمارهم للخدمة العسكرية يعيشون في الثكنات العسكرية خارج الوطن بما تدفع لهم الدولة من رواتب. وكان من خطة پيريكلس وتدبيره أن لا تبقى الجماهير الكادحة وذوو الحِرف الدقيقة الذين لايخضعون لنظام مستثنين عن غيرهم محرومين من الأموال العامة، كما لا يمكن أن تصرف لهم أجور ورواتب من غير عِوض أو مجهود يبذلونه. لذلك ارتأى بعد موافقة الشعب أن يقوم بهذه المشاريع الضخمة وخطط أسلوب العمل بحيث تحافظ على استمرارية العمل حتى يتم إنجازها دون فترة عطالة. وبذلك تُمنح فرصةٌ لمزاولة مختلف الفنون والحِرف فلا يُحرم أيّ فرد بقي في الوطن من سهم طيّب عادلٍ في الأموال العامة لايقلّ عن أسهم أولئك الذين يعملون في البحر أو في حاميات الخارج أو في حملات عسكرية.

وكانت الموادّ الإنشائية التي استُخدمت: الحجر، والنحاس، والعاج، والذهب، والأبنوس، وخشب الأرز. وأما أرباب الصناعات والحِرف التي اقتضت مزاولتها في هذه المواد فمنهم الحدّادون والنجارون، والصهّارون واللحّامون والصبّابون وقاطعو الحجر، والصبّاغون والصاغة وصُنّاع العاج والطلاّؤون، والمطرّزون، والخزّافون. ثم أولئك الذين نقلوا تلك المواد إلى المدينة؛ التجّار، والملاّحون، وربابنة السفن في

---

(٣٠) قيل إن الپارثنون أو معبد مينرڤا العذراء كلّف هذا المقدار [انظر الملحق].

البحر، وسائقو العجلات، ومربّو المواشي، وصانعو العربات، وصانعو الحبال، ونسّاجو الكتّان، والإسكافيون، والدباغون، ومعبّدو الطرق وعمّال المناجم. وكما يقوم الرئيس في الجيش على رأس كل سريّة من الجنود فكلّ صناعة كان لديها سريّتها الأجيرة من عمّالها الدائميين المهرة وشغّيلتها، يجرى ضمّهم معاً كما في خطّ قتالٍ، لتكون الآلة والجسم في إنجاز الأعمال. وهكذا توزّعت الفرص والخدمات في هذه المشاريع العامة بصورة واسعة ضخمة على كل عمرٍ وحالةٍ.

وبرز العمل للعيان، لا تقلّ روعة حجمه عن جمال شكله. والصنّاع يبذلون جهدهم ليتفوقوا على المواد والتصميم بجمال صناعتهم، على أن أعجب شيء هو سرعتهم في إنجاز العمل.

ظنوا أن كل مشروع منفردٍ يتطلب لإنجازه سلسلة متعاقبة من الرجال ذوي أعمارٍ مختلفة، كل منهم يجب أن يكون ضليعاً في مهنته في ذروة خدمته وعنفوان مهارته. وقالوا أيضاً إن زيوكسيس Zeuxis سمع مرة الرسّام أغاثارخوس Agatharchus يتبجّح بإنجاز عملٍ من أعماله بسرعة وسهولة، فقال معقّباً: «أما أنا فيلزمني وقت طويل» لأن السهولة والسرعة قد لا يورثا العمل المنجز قوة دائمة ودقة في الجمال. إن قوة الحيوية وقابلية البقاء في عمل تمَّ لهو خير مكافأة وتعويض عن الزمن الطويل الذي أنفق فيه. ولذلك كان الإعجاب بآثار پيريكلس شديداً بصورة خاصّة، فقد تمّت بوقت قصير، لتبقى زمناً طويلاً. وعُدّت كل قطعة منها تحفة أثرية ساعة إنجازها لجمالها ورونقها مع أنها بدت وكأنها مصنوعة في تلك اللحظة بالذات لجِدّتها وإتقانها. هناك نوعٌ من الرواء والجدة في آثاره، يحفظها من عوادي الزمان، كأن حيوية خالدة وروحاً آبدة تقمّصتها أثناء عملها.

وأشرف فيدياس علي كل الأعمال وكان المهندس العام. على أنه استخدم أساتذة عظاماً وصنّاعاً حاذقين في مجالات وأقسام مختلفة، فبنى قلليقراطس Callicrates وأكتينس Actinus، صرح[٣١] الپارثنون الذي هو بهيئة مربّع طول ضلعه مائة قدم. وبدأ كوريبوس Coroebus ببناء الهيكل في أليوسيس Eleusis حيث يقام الاحتفال بالأسرار، ونصب الأعمدة على الأرضية أو الممشى ثم ربطها معاً بالعوارض العليا.

---

(٣١) بُني هذا المعبد داخل أسوار القلعة وأُطلق عليه اسم هيكاتومپيدوم لأن طول ضلعه ناهز بالأصل مائة قدم. وبعد أن أحرقه الفرس أعاد پيركلس بناءه وقد احتفظ باسمه وإن وسّع مساحته كثيراً. ما زال هذا المعبد قائماً حتى يومنا هذا وهو قِبلة السيّاح.

وبعد موته أضاف ميتاجينس Metagenes الإكسبيتي Xyptte، الإفريز، ورصف الأعمدة العليا. وسقّف كسينوكليس Xenocles الخولارغوسي عقادة المشكاة فوق معبد كاستور وپوللكس. وقام قلليقراطس ببناء الحائط الطويل[٣٢] الذي قال عنه سقراط[*] إنه سمع پيريكلس بأذنه يقترح على الجمهور إقامته. وقد سخر كراتيتوس بهذا الأثر لطوله عند إكماله قائلاً.

كدّس الخطيب الحجارة فوق الحجارة

بكلمات منقوضة إلاّ أنّ الكلمات لا تبني جداراً.

وأمّا الأوديوم Odeum أو قاعة الموسيقى، التي مُلئت من الداخل بالمقاعد وصفوف من الأعمدة، والتي جعل سقفها من الخارج يبدأ من القمّة منحدراً إلى الجانبين، فقد قيل لنا إنه بُني تقليداً لفسطاط ملك الفرس[٣٣]. وكان ذلك بأمرٍ من پيريكلس أيضاً. فجعل منه كراتينوس مناسبة للتعريض والسخر، في مهزلته المسمّاة «النساء التراكيّات» إذ قال:

«ها هو رأس جوپتر البصليّ قادم. إنه الأوديوم الجديد الشبيه بقبّعة فوق هامته، بعد أن زال عنه خطر النفي إلى الأبد».

وكان پيريكلس مغرماً بالبروز أيضاً، فحصل على مرسومٍ يقضي بإنشاء مباراة في الموسيقى تقام سنوياً في الپاناثينيا Panathenaea، واختير هو حكماً، فنظم الطرائق والقواعد التي يلتزم بها المتبارون في غنائهم أو عزفهم على القيثار أو الناي. وكان الحاضرون في تلك المناسبة أو غيرها فيما بعد يجلسون في قاعة الموسيقي هذه ليروا ويسمعوا تجارب في الحذق والبراعة. وتمّ عمل الپروپيليا Propylaea أو مداخل الأكرپولس في خمس سنين وكان منسيكلس Mnesicles المهندس الرئيس لها. وقد وقعت أثناء بنائها حادثة غريبة، أظهرت أن الربّة كانت راضية عن العمل تتعاون وتساعد في إنجازه على الوجه الأكمل. فقد زلّت قدم أحد الصنّاع، وكان أنشطهم وأحذقهم فسقط من ارتفاع كبير وغدا في حالة خطرة، وقطع الأطبّاء الأمل في شفائه. وفيما كان

(٣٢) طول الجدار خمسة أميال. وسمكه من الأعلى يتسع لمسيرة عربتين معاً. وهو يصل پريوس بالمدينة.

(*) أفلاطون (غورغياس).

(٣٣) في هذه البناية يعقد سوق القمح أيضاً وكل ما يمتّ إليه بصلة وقد أحرقه سيّللا أثناء حصار أثينا. فأعاد أريوبارزانوس ملك كبدوكيا بناءه.

بيريكلس مهموماً قلقاً عليه إذ ظهرت له مينرڤا ليلاً في الحلم وشرحت له أسلوباً في علاجه[٣٤]، فطبّقه وشُفي الرجل بوقت قصير وبسهولة. وتخليداً لهذه المناسبة أمر بإقامة تمثال نحاسيّ لمينرڤا لُقّب بـ«الصحّة» في القلعة بالقرب من الهيكل، وقيل إنه كان هناك في الأيام السالفة. إلاّ أن فيدياس هو الذي صنع تمثال الربّة من الذهب، ونقش اسمه على قاعدته[٣٥]. والواقع أن المشاريع كلها كانت تحت مسؤوليته إلى حدّ ما وكان له كما قلنا صلاحية الإشراف على كلّ الفنانين والحرفيين العاملين، بسبب الصداقة التي تربطه ببيريكلس. وقد جعله هذا المنصب موضع حسدٍ، وأدّى إلى صبّ الشتائم والإهانات على حاميه بصورة مخزية، وتأليف الحكايات عنه كقولهم إن فيدياس كان يتصيّد النساء الحرّات اللاتي يأتين لمشاهدة العمل لحساب لذة بيريكلس. وعندما وصلت هذه الحكايات كتّاب المدينة الهزليين راحوا يتفنّنون في إذاعتها والتعليق عليها، ولوّثوا سُمعته بكل ما توصّلت إليه قريحتهم من بذيء القول. واتهموهُ زوراً بعلاقة مع زوج مينيپوس وهو صديق له عمل معه في الحروب مساعداً وضابط ركن. كذلك زعموا أن صديقاً آخر له اسمه پيريلامپس Pyrilampes يربّي طيوراً، كان يهدي طواويس لخليلات بيريكلس[٣٦]. وكيف لا يعجب المرء بعدد المزاعم الغريبة التي يطلقها أناس عاشوا حياتهم كلّها على السخر والتفكهة، وكانوا على استعداد في أي وقت لتضحية سُمعة رؤسائهم على مذبح الحسد المتبذل والاضطغان، كأنما لروح ما شريرة.

تجرأ حتّى ستسيبمروتوس التراكي على أن يتهم بيريكلس بأشنع تهمة وأكثرها خيالاً زاعماً بوجود علاقة آثمة له مع زوج ابنه. من الصعوبة بمكان تتبع الحقيقة واستخلاصها من التاريخ عندما يجد أولئك الكتّاب المتأخّرون فترات طويلة من الزمن تقف عثرة في سبيل وجهات نظرهم، وعندما تجد المدوّنات المعاصرة لكل سيرة أو حدثٍ مشوّهة الحقيقة، ممسوخة، إمّا مداهنة وتملّقاً، وإمّا حسداً وسوء نيّة.

عندما راح الخطباء المنحازون إلى ثوكيديدس وحزبه ينادون كما كانت عادتهم

---

(٣٤) للنبات المسمّى Parthenium الذي هو من فصيلة أعشاب الماتريكاريا تأثير عجيب جداً على الاضطرابات العصبية. (پليني: التاريخ الطبيعي ٢٢:٧) يورد قصّة هذا الشفاء العجيب ويشتق اسم النبات من علاقته بالربّة العذراء وينوّه أيضاً بتمثال هذا العبد الذي أمر پيركلس النحاتَ ستيپاس القبرصي بصنعه.

(٣٥) قيل إن التمثال كان من الذهب والعاج. ولپاوسنياس (١ : ٢٤) وصفٌ مفصّل له.

(٣٦) هذه الحيوانات كانت وقتذاك نادرة وغالية الثمن جداً.

مندّدين ببيريكلس لتبذيره الأموال العامة، وإيقاعه الخلل في عائدات الدولة، نهض في الجمعية العمومية وطرح القضية أمام الشعب: هل أنه أنفق كثيراً؟ فأجابوا: «كثيراً جداً، كثيراً جداً» وعند ذلك قال: «إذن ما دام الأمر كذلك، فلترفع النفقات كلهاعن عاتقكم ولتقيّد على حسابي على أن يسجّل اسمي على جميع المباني المشيّدة»(٣٧). وعندما سمعوا هذا هتفوا له بصوت عالٍ، إمّا بدافع دهشتهم من عظمة نفسه أو حرصاً على مجد هذه الآثار، وطلبوا منه إنفاق المزيد والاستمرار في عمله هذا بالشكل الذي يراه مناسباً وأن لا يألو في ذلك جهداً أو مالاً حتى ينجزها.

وبالأخير بلغ النزاع بينه وبين ثوكيديدس مرحلته النهائية، وآل الأمر إلى التساؤل من منهما سيُفلح في نفي الآخر من البلاد، فخاض پيريكلس غمار هذه المعركة الحافلة بالخطر، وقذف بخصمه إلى الخارج، وقضى قضاءً تاماً على الحلف الذي نُظّم ضده.

وبذلك أزال الانقسام والتفرقة من المدينة إزالة تامة، ونعمت بعدها بالهدوء والوحدة. وأحكم قبضته على كل أثينا، وكل الشؤون المتعلقة بالأثينيين، غراماتهم الحربية، جيوشهم، سفنهم، الجزر، البحار، سلطانهم الواسع الرقعة على الإغريق الآخرين وعلى البرابرة، وكلّ المستعمرات التي ملكوها، وحصّنوها في بلاد الشعوب الخاضعة لهم، إمّا بموجب معاهدات التحالف، أو بمقتضى صداقتهم مع الملوك.

بعد كل هذا لم يعد پيريكلس شخص الأمس، لم يعد كما كان سابقاً مع الجماهير ذلك الرقيق الليّن العريكة المحبوب المستعد حالاً للنزول عند رغباتهم وتلبية طلباتهم من ضروب التسريات والترفيه، كقائد الدفّة يتحوّل مع الريح. ونبذ تلك الرعاية المتراخية المنطلقة والتودّد للشعب الذي وصل في بعض الحالات إلى حد تخطّي العُرف والقانون. وأبدل اللهجة الأنيقة الليّنة الوقع بصرامة الحكم الأرستقراطي الملكيّ، مستخدماً إياه لمصالح البلاد العليا باستقامة ودون انحراف، فاستطاع بشكل عام أن يقود الجماهير ويسوسها دونما إرغام بل برغبة منها وموافقة، عن طريق إقناعها بما يجب عمله، وإرشادها إلى كيفيّته. وأحياناً كان يلحّ ويدفعها دفعاً إلى حدّ التطرّف خلافاً لإرادتها. وجعلهم يخفضون جناحاً لكل ما فيه نفعهم شاؤوه أم أبوه. وكان يعمل ذلك والحق يقال ببراعة الطبيب النطاسي الذي يسمح لمريض بداء مزمن معقّد،

---

(٣٧) من عبارة أوردها ثوكيديدس يبدو أن الخزينة الأثينية العامة كانت تقوّم في ذلك الحين بتسعة آلاف وسبعمائة تالنت (أي ما يعادل اربعة ملايين پاون سترليني) صرف منها پيركلس على إقامة البنايات العامة أكثر من الثلث ولذلك كان من الطبيعي أن يُفتح تحقيق بكيفية الصرف.

ويكبّده في ظرف آخر آلاماً شديدة ويسقيه الأدوية لتحقيق شفائه.

نشأت وترعرعت طبعاً مختلف مشاعر السخط بين الشعب الذي كان پيريكلس يمارس عليه سيطرةً وضبطاً لا حدود لهما، فعرف ذلك السياسي العظيم كيف يعالج أمر كل فرد من أفراده ويعامله المعاملة الصحيحة. واستخدم سياسة الأمل والخوف استخداماً حاذقاً وجعلها كعصوي سكّان الدفّة. يسبر بالعصا الأولى مسالك ثقتهم في أي وقت شاء، ويرفع بالعصا الثانية معنوياتهم ويشدّ من عزماتهم عند كُلّ نكسة أو خيبة. وأظهر بجلاء أن بلاغة اللسان، أو فن الكلام هو خير ضابط لأنفس الرجال (إذا استخدمنا لغة أفلاطون) وأن مهمته الرئيسة هي مخاطبة الشعور والعاطفة وهما أوتار الروح ومفاتيحها، تتطلب من يد الضارب عليها لمسات رشيقة حذرة. على أن قوة عارضته لم تكن وحدها مصدر سلطانه المطلق، بل وجد إلى جانبها السمعة التي كسبها في حياته، والثقة التي توحيها شخصيته وطهارة نفسه من أي شكل من أشكال الفساد، وتساميه على كل الاعتبارات المالية ومتاع الدنيا - كما يؤكد لنا ذلك ثوكيديدس. وإذا ضربنا صفحاً عن جعله أثينا العظيمة بذاتها مدينةً لا يسمو أي خيال في وصف غناها وعظمتها، ومع أنه كان - بما مارسه من سلطة ونفوذ - أكثر من مساوٍ للعديد من الملوك، والحكام المستبدّين، الذين تورث طائفة منهم ملكهم لأولادهم، فهو من جهته لم يزد في الميراث الذي تلقّاه عن والده درهماً واحداً.

زوّدنا ثوكيديدس والحق يقال بكلمة صريحة عن عظمة سلطانه. وفيما تركه الشعراء الهزليون أكثر من إشارة إليه بأسلوبهم الجارح التعريضي، وهم يخلعون على أصحابه وأتباعه اسم «الپسستراتوسيين الجدد» ويهيبون به أن يصرف النظر عن كل نيّة في سلوك طريق الاستبداد والتحكم، كأنّ ما بلغه من السؤدد والتفوّق لم يعد شخصه مناسباً للديمقراطية أو الحكم الشعبي، ولا بإمكانه التجاوب معها. ويقول تيلقيدس(*) إن الأثينيين تنازلوا له...

«عن إتاوات المدن، ومعها المدن أيضاً، يحلّ ويربط كما يشاء. وأن يبني إن شاء أسواراً حجرية حول مدينة ما. وأن ينقض تلك الأسوار إن طاب له ذلك. وسلّموا له معاهداتهم، وأحلافهم وسلطانهم ومستعمراتهم، وسِلمَهم وحربَهم وثرواتهم، وكل أسباب فلاحهم الدائم.»

ولم يكن هذا حظّاً واتاه في صُدفة من صُدف الدهر السعيدة، ولا ثمرة نعمة

(*) من مسرحية لا يُعرف لها اسم.

مزدهرة لموسم واحدٍ لا غير. لكنها حالة طويلة الأمد، بقي فيها أربعين سنة(*) وهو يحتلّ أرفع مقامٍ بين رجال السياسة من أمثال أفيالطس، وليوقراطس Locrates وميرونيدس Myronides وكيمون، وتولميدس Tolmides وثوكيديدس، كما استمرت بعد نفي ثوكيديدس واندحاره خمسة عشر عاماً أخرى ، مارس خلالها قيادة منفردة مستمرة غير منقطعة، إذ كان يعاد انتخابه جنرالاً كل سنة، وظلّ حريصاً على استقامة لم تصمها أقلّ وصمة. على أنه لم يكن في غير شؤون الحكم مهملاً غير مبالٍ، فكان يرعى شؤونه المالية مثلاً. وقد ورث عقارات عن أبيه فحرص على أن لا يلحقها الخراب، أو العيب بسبب الإهمال، وعلى أن لا تأخذ من اهتمامه وعنايته وقتاً لانصرافه الذي يكاد يكون تاماً إلى شؤون الحكم. واختار لإدارتها أسلوباً كان في رأيه أسهل وأدّق ما وجد. فكان يبيع كل ما تنتجه من غلّة سنوية صفقة واحدة، ويموّن بيته بما يقتضي بشراء الحاجات العائلية من السوق. ولذلك ضاق أولاده ذرعاً بأسلوب والدهم هذا عندما بلغوا أشدّهم، ولم يشذّ عنهم نسوة البيت فقد كان يقتّر عليهن، وشكون من تلك الإدارة حيث كل شيء يتمّ حسابه من يوم إلى يوم بمنتهى الدقة فلا ينقص شيء ولا يفضل شيء إلى الغد، ولم تكن هذه بحالة أسرة سريّة بارزة. كل ما يخرج وكل ما يدخل، وكلّ ما يؤخذ وكل ما يعطى يجري حسابه بالعدد والقياس. وكان قد أوكل خادماً واحداً لإدارة البيت اسمه إيڤانجلوس Evangelus وهو رجل كان يتميّز بذكاء مطبوع، أو كان يعمل وفق توجيهات پيريكلس، فقد بلغ الغاية في فنّ الاقتصاد المنزلي.

ولم يكن في كل هذا ما ينسجم وفلسفة أناكساغوراس(٣٨)، إن كان صدقاً ما روي عن خروجه من منزله وتركه أرضه مرعى للأغنام وعيشته عيشة عامة الناس ودهمائهم اطاعة لإلهام ربّاني، أو لسموّ نفسٍ فيه. على أن حياة الفيلسوف المفكرّ وحياة السياسيّ النشيطة لا تتشابهان في رأيي. فأولهما يستخدم في مسائل العقل الخيّرة السامية ذكاءه وعبقريته، وكلاهما لا يحتاج إلى أداة أو مادة محسوسة، أما الثاني فإنه بتوجيه قابلياته العقليّة وطاقاته إلى واقع الاستعمال البشري، قد تُتاح لنفسه فرصة لتتدفّق بالخير، لا

(*) ما بين ٤٦٩ و ٤٢٩ ق.م تقريباً.

(٣٨) جرت عادة الأقدمين أن يقوم الشخص الذي ينوي الانتحار بإسدال غطاءٍ على رأسه بصرف النظر عن الأسباب التي دعته إلى ذلك أفي سبيل بلاده أم للتخلّص من متاعب الحياة [ديوغينس لايئرتوس يقول إن هذا الفيلسوف أورث أقرباءه].

بالضرورة، بل بدافع النُبل والصلاح. لذلك نرى پيريكلس يرفّه عما لا يحصيه عدد من مواطنيه الفقراء.

ومهما يكن من أمر فثمّ حكاية تروى عن أناكساغوراس الذي خمل ذكره واختفى في زوايا النسيان بينما كانت أمور الدولة تستأثر بكلّ وقت پيريكلس واهتمامه. بلغ هذا الفيلسوف مبلغ الشيخوخه، وعقد العزم على أن يكون موته بامتناعه عن الطعام. فبلغ ذلك پيريكلس بمحض الصدفة فأذهله الخبر وأرعبه وأسرع إليه في الحال واستخدم كلّ حيلة ورجاء ومنطق ليثنيه عن عزمه. ولم يكن في ذلك محزوناً على حالة أناكساغوراس قدر ما كان أسفاً على نفسه، خوفَ أن يفقد ذلك الناصح الذي خبر قيمته وقدّرها. وعندها نضا أناكسوغوراس ثوبه مظهراً جسمه عارياً وقال: «يا پيريكلس، حتى أولئك الذين تدركهم الحاجة إلى مصباح فإنهم يزوّدونه بالزيت».

بدأ اللقيديمونيون يظهرون أمارات القلق لتنامي قوة الأثينيين. وعمد پيريكلس من جهته، ليرفع معنويات الشعب، وينمّي في رؤوسهم فكرة اطّلاب المجد بعظائم الأعمال، إلى اقتراح يقضي بدعوة كل الإغريق أينما كانوا أفي أوروبا أم آسيا في كل مدينة صغيرة أكانت أم كبيرة، لإرسال مندوبين إلى جمعية عامة تعقد في أثينا، أو مؤتمر عام للمداولة والمشاورة في أمور المعابد الإغريقية التي أحرقها البرابرة، وفي القرابين المفروضة عليهم بموجب النذور التي قدّموها للأرباب على سلامة بلاد اليونان عندما قاتلوا البرابرة، وكذلك للبحث في شؤون الملاحة البحرية، وعقد معاهدة حرية فيما بينهم، حتى لا يتعرّض أحدهم لسفن الآخر فيما بعد.

وأوفد عشرون شخصاً تزيد اعمارهم عن الخمسين(٣٩) للدعوة إلى المؤتمر، خمسة منهم ذهبوا لدعوة الآيونيين والدوريين Dorians في آسيا وسكان الجزر حتى لسبوس ورودس، وخمسة منهم رحلوا لزيارة كل أرجاء هللسپونت وتراقيا حتى بيزنطة. وخمسة غيرهم لزيارة بويوتيا وفوكيس Phocis وبيلوپوينسوس ومنها يرحلون إلى القارّة المجاورة عبر بلاد اللوكريين Locrians حتى أكارنانيا Acarnania وأمبراكيا Ambracia، والباقون يأخذون طريق يوبيا إلى الأوتيانيين Oetaean وخليج ماليا Malia وإلى أخائيا(٤٠) [فوثيوتيس Phothiotis] والتساليين. وقد نبّه جميعهم أن

(٣٩) هو سنّ البلوغ التام عند الأثينيين. من بلغه جاز له حق التصويت في الاجتماعات والانتخابات العامة.

(٤٠) يقصد بالأخائيين الإغريق عموماً في بعض الأحيان. لاسيما عند الكتابة عن الشعراء ويقصد بهم سكان منطقة معينة من الپلوپونيسي. لكن علينا أن نعرف أن المقصود بهم هنا هم أهالي تسالي.

يتصلوا بالشعوب التي يمرّون بها ويفاتحوها ويقنعوها بالحضور والمساهمة في مداولات السلام، وتنظيم شؤون الإغريق معاً.

ولم ينتج شيء من هذا، ولم تُجمع المدن معاً عن طريق المندوبين كما كان منتظراً. وقيل إن اللقيديمونيين عملوا على إحباط المشروع من طرفٍ خفيّ[٤١]. وكان أوّل فشل للمحاولة في الپيلوپونيس. وإني أرى من المناسب أن أشرح تفاصيلها هنا لإظهار نفسية پيريكلس وسموّ أفكاره.

نال في قيادته العسكرية صيتاً داوياً لحِنكته ومهارته في فنون الحرب. فهو لا يشتبك بمحض رغبته في قتال ما إذا كان في نتيجته شكّ كثير، أو خطورة. ولم يحسد قائداً على مجدٍ ناله من مغامرات طائشة تكللت بنجاحٍ باهر وحالفه فيها الحظّ، مهما بلغ به إعجاب الآخرين. ولم يرهم جديرين بالتقليد والمحاكماة وإنما كان لايفتأ يقول لمواطنيه إنه لن يألو جهداً قط في العمل على توفير حياة دائمة خالدة لهم جميعاً. وسيبذل في ذلك قصاراه. ولما رأى پيريكلس أن تولميدس ابن طولميوس Tolmoeus المليء بالثقة نتيجة انتصاراته السابقة[٤٢]، التيّاه الفخور بالمكانة التي رفعته إليها أعماله العسكرية، يقوم بالاستعداد لمهاجمة البويوتيين في عُقر دارهم حين لم يكن له في الحملة أية فرصة للنصر، ولما رآه يستميل أشجع الشبان وأكثرهم إقداماً فتطوّعوا في الخدمة تحت لوائه وعددهم ألف مقاتل، عدا قوّاته الأخرى، حاول پيريكلس جهده في الجمعية العمومية أن يثنيه ونصحهُ بالعدول عن قصده ووجّه إليه عبارة مأثورة ظلّت تُضرب في الأمثال: قال ما مفاده إن لم يأخذ بنصيحته فلن يخسر شيئاً إن تربّص بالزمن وانتظر إقباله، وهو خير الناصحين. هذا القول لم يقم له وزن كبير في حينه، لكنّ الأنباء وصلت بعد أيام قليلة بهزيمة تولميدس وقتله في معركة بالقرب من كورونيا Coronea وأن عدداً كبيراً من أشجع المواطنين سقطوا صرعى معه. فأكبر الناس كلمة پيريكلس، ونال منها سمعة كبيرة، فضلاً عن ازدياد إيمان الشعب بحكمته ومحبّته بني جِلدته.

إلاّ أن حملته إلى الخرسونيز[٤٣] هي التي أشاعت من الرضى والارتياح في

---

(٤١) لا عجب أن يعارض اللقيديميون في هذا! إذ إن الموافقة عليه تعنى اعترافهم بالأثينيين سادة الإغريق. وما كان بمقدور الأثينيين محاولة ذلك دون أمرٍ أو مرسوم صادر من الأمفكتيون.

(٤٢) اجتاح البلوپونيسس وأحرق سفن قرطاجة، وهزم السيكيونيين إلخ... على أنه اندحر أمام اللقيديميين في كورونيا ٤٤٧ ق.م.

(٤٣) العام ٤٤٧ ق.م.

النفوس ما لم تُشِعها أيّة حملة من حملاته، لأنها أكدت سلامة الإغريق الذين كانوا يسكنون تلك الجزر. فعلاوة على أخذه معه مستوطنين أثينيين جداً، ومدّه المدن بقوة جديدة من الرجال، سوّر عنق البرزخ بجدار دفاعي من البحر إلى البحر. وبذلك أوقف غارات التراقيين الذين كانوا يطوّقون الخرسونيز، فقطع دابر حرب مستمرة طاحنة، كانت تهدد البلاد منذ عهد طويل، بموقعها المكشوف لغزوات وموجات جيرانها من البرابرة، وتئنّ وتتلوّى من وطأة شرور عصابات قُطّاع الطرق الذين استقروا على حدودها وفي داخلها.

ولم يكن الإعجاب والإشادة بعمليّة تطوافه حول البيلوپونيسوس(٤٤) بأقل من تلك. فقد انطلق من پيكيا Pegae أو النافورات، وهي ميناء ميغارا بمائة من السفن، ولم يكتف باجتياح سواحل البحر، كما فعل تولميدس من قبل، وإنما نزل البرّ بجنوده وتقدّم مسافة كبيرة في داخلية البلاد، وجعل كثيرين يلوذون بحمى أسوارهم بمجرد الرعب الذي أحدثه ظهوره. وفي نيميا Nemae هزم السيكونيين Sicyonians ونصب تذكاراً لفوزه. وكانوا قد صمدوا بوجهه واشتبكوا معه في قتال. ثم عقد بين الأثينيين وبلاد أخائيا Achaia حلفاً وأخذ منهم جنوداً وخبّأهم في سفنه وعبر بالأسطول إلى القارّة، وسار به على مصبّ نهر أخيلاؤس Achelaus، واجتاح أكارنانيا وألجأ الويناديي Oeniadae إلى الاحتماء بأسوار مدينتهم وخرب بلادهم ونهبها. ثم عاد إلى الوطن ملقياً مرساه بفائدتين: أنه أظهر لأعدائه بأسه، وظهر لبني قومه سالماً غانماً. إذ لم يعنّ في كل السفرة حادث سوء لأي واحدٍ من مرؤوسيه ولو بمحض الصدفة.

ودخل أيضاً البحر الأسود Euxine(٤٥) بأسطول كبير حسن العدّة وحصل للمدن الإغريقية على كلّ التسهيلات الجديدة التي أرادوها، ودخل في علاقات صداقة معهم. وأظهر لشعوب البرابرة عظمة الأثينيين وقوّتهم ومقدرتهم التامة وثقتهم بإمكانهم الملاحة أينما شاؤوا. وأثبت للملوك والأمراء المجاورين أن بوسع الأثينيين السيطرة على البحر جميعه. وترك للسينوپيين Sinopians ثلاث عشرة بارجة حربية، مع جنودها بقيادة لاماخوس Lamachus لمساعدتهم ضدّ طيمسيليوس Timesileus(٤٦) الطاغية.

---

(٤٤) العام ٤٥٣ ق.م.

(٤٥) ربما كان ذلك في حدود العام ٤٣٦ ق.م.

(٤٦) لم يرد ذكر اسم هذا الطاغية في أي موضعٍ آخر. وسينوبه هي من مدن بافلاغونيا استعمرها الميليسون. وتقع على ساحل البحر الأسود.

وعندما قضى عليه وعلى شركائه وأديلوا عن السرير صدر مرسوم بإبحار ستمائة يوناني من الراغبين إلى سينوب Sinope ليستقروا هناك ويعيشوا بين السينوبيين ويشاطروهم المنازل والأراضي التي كان الطاغية وحزبه قد ضبطوها.

إلاّ أنه لم ينزل في الأمور الأخرى إلى نوازع المواطنين الطائشة النشوانة. ولم يحد عن قراره في اتّباع ما يحبون وتحقيقه لهم. فقد أسكرتهم وأدارت رؤوسهم قوتهم وانتصاراتهم الرائعة، واشتدت رغبتهم في استعادة مصر(٤٧) وتدويخ سواحل الفرس. والحق يقال كان هناك عدد كبير ممن تملكته - حتى في ذلك الزمن - تلك الرغبة المشؤومة النحسة، بحيازة جزيرة صقلية(٤٨)، الرغبة التي أشعلها خطباء حزب ألكيبيادس Alcibiades فيما بعد ناراً ملتهبة لا تُبقي ولا تذر. وكان هناك بعض من يحلم بتوسكانيا(٤٩) وقرطاجنة، ولم يكن ميلهم هذا خالياً من أسباب وجيهة في حالتهم هذه من الرخاء وكثرة أملاكهم ومستعمراتهم.

إلاّ أن پيريكلس استأصل هذه الرغبة في الفتوح الخارجية من جذورها وبدّد بلا رحمة أحلامهم واجتثها اجتثاثاً، وكانت متحفّزة ناشطة دوماً لما لا يُحصى من المشاريع والمغامرات، ووجّه طاقاتهم لترصين ما حصلوا عليه وتثبيته وأشغل بذلك معظم أوقاتهم، معتبراً فرض الكفاية منهم النجاح في كبح جماح اللقيديمونيين. فهؤلاء كان يراهم الخطر الحقيقي الداهم، ولم يكن يتردد في إظهار مشاعر كرهه لهم في كثير من المناسبات. ونخصّ منها بالذكر ما أقدم عليه أثناء الحرب المقدسة(٥٠). وحكاية ذلك أن اللقيديمونيين ساقوا جيشاً إلى دلفي واستعادوا معبد أپوللو للدلفيين من يد الفوسيين الذين كانوا قد ضبطوه. فتربّص پيريكلس حتى رحلوا وبادر في الحال إلى الدخول بجيش، وأعاد الفوسيين إلى المعبد. وكان اللقيديمونيون قد نالوا من الدلفيين امتياز

---

(٤٧) كان الأثينيون [توكيديدس ٢:١٠٩] يسيطرون على مصر إلاّ أن ميغابيس أحد قواد أرتحشَشْتا تولّى طردهم منها في السنة الأولى من الأولمبياد الثمانين. ولم يتكلم عن نجاح حملة پيركلس على البلوپونيسس في السنة الرابعة من الأولمبياد الحادي والثمانين. وليس من الغريب إذن أن يتحدث الأثينيون الآن وهم في أوج قوتهم عن استعادة نفوذهم في بلادٍ كانوا قد فقدوها قبل فترة قصيرة.

(٤٨) خمسة عشر عاماً أو ستة عشر بعد وفاة پيركلس.

(٤٩) بعد أن فكّر الأثينيون في ازدراء صقلية لا بد أن يراودهم حلم التوسّع في الأراضي الواقعة إلى شمالها وإلى جنوبها.

(٥٠) في حدود العام ٤٤٨ ق.م سُمّيت كذلك لعلاقتها بمعبد دلفي. وهناك ما هو أكثر شهرة ويعين الاسم في عهد فيليب المقدوني.

الأولوية باستخارة الآلهة، وسجّلوا امتيازهم هذا بعهدٍ نقشوه على جبهة الذئب النحاسيّ القائم هناك[٥١]، فبادر پيريكلس إلى كسب امتياز مماثل للأثينين من الفوسيين، وأمر فنُقش على الصفحة اليمنى من جسم الذئب النحاسي نفسه.

وتشهد الحوادث التي تعاقبت شهادة قويّة على صواب عمله وحكمته في صدّ اندفاعات الأثينيين، وقَصْر مجهوداتهم على الدائرة الإغريقية. فبالدرجة الأولى ثار الأيفيون[*] عليه، فزحف بقواته عليهم وأخمد ثورتهم. وتلت ذلك مباشرةً أنباء أشارت إلى انقلاب الميغاريين عليهم وأن جيشاً معادياً يتقدم على حدود أتيكا بقيادة پلستواناكس Plistoanax ملك اللقيديمونيين. فانسحب پيريكلس من يوبيا وعاد بأسرع ما يمكن ليجابه حرباً تهدّد موطنه نفسه. إنه لم يغامر في الدخول بمعركة مع جيش عزيز الجانب توّاق للقتال، بل ولإدراكه أن پلستواناكس الشاب اليافع كان يطيع في أكثر الأمور نصيحة كلياندريدس Cleansrides الذي بعثه الإيفور مع الجيش ليكون بمثابة وصيّ ومساعدٍ للملك الشاب، فقد قام سَرّاً باختبار نزاهة هذا المستشار ونجح في إفساد ذمّته بمبلغ من المال، ودفعه إلى الإشارة على الملك بالانسحاب. وتمّ انسحاب البيلوپونيسيين من أتيكا، وانحلّ الجيش وتفرّق أفراده عائداً كلٌّ إلى موطنه. فاستشاط اللقيديمونيون غيظاً وعمدوا في سورة من غيظهم هذا إلى فرض غرامة ثقيلة على ملكهم، فعجز عن تسديدها واضطر إلى ترك لقيديمون[٥٢]. وهرب كلياندريدس وحُكم عليه بالموت غياباً. وكلياندريدس هذا هو والد غيليپوس Gylipus الذي استظهر على الأثينيين في صقلية. ويظهر أن الطمع كان مرضاً موروثاً في الأسرة، انتقل من الأب إلى الابن، إذ قُبض عليه فيما بعد متلبّساً بعمل جُرمي مماثل وطُرد بسببه من سپارطا. وقد أتينا إلى المزيد من الشرح في هذا، عند كلامنا عن سيرة ليساندر.

وذكر پيريكلس في أثناء تلاوته تقريره عن هذه الحملة أمام الجمعية العمومية أنه أنفق عشرة تالنتات بمناسبةٍ معيّنة في سبيل المصلحة العامة، فصادق الشعب على الصرف دون سؤال أو تحقيق في باب الصّرف. ويؤكد بعض المؤرخين ومنهم

---

(٥١) قيل إنه قُبض على الذئب ووُضِع إلى جانب المذبح الكبير لأن ذئباً قتل لصاً كان قد سرق المعبد وبعوائه المتواصل دلّ أهل دلفي على الموضع الذي أخفى فيه المسروق [پاوسنياس ١٠-١٤].

(*) في ٤٤٦ ق.م.

(٥٢) يقول توكيديدس [٢: ٢١] إن رعيّته حكموا عليه بالنفي بعد أن شكّوا في أنه قبِل الرشوة لينسحب من الحياة العامة.

ثيوفراستوس الفيلسوف أن پيريكلس اعتاد كل سنة أن يبعث سراً إلى سپارطا بعشرة تالنتات رشوة لرجال الحكم فيها، لا ليشتري سِلمهم، بل ليشتري الزمن، وليستعدّ على مهله ويكون الأقدر والأكثر استعداداً للحرب.

بعد هذا وجّه جيشه فوراً إلى الثائرين، وهاجم جزيرة يوبيا بخمسين بارجة وخمسة آلاف مقاتل واستولى على مدنها وطرد المواطنين الخلقيديين Chalaidians الملقّبين هيپوبوتي Hippobotae أيّ «علاّفي الخيل» ويُعتبرون من أغنى السكان وأبرزهم سمعةً. وأخرج كل الهستيانيين Histiaeans من البلاد، وأحَلّ محلّهم جالية أثينية، ضارباً بهؤلاء مَثَله الوحيد في الصرامة والشدة لأنهم كانوا قد أسروا سفينة أتيكية وقتلوا كل من فيها.

وعقد هدنة بين الأثينيين واللقيديمونيين أمدُها ثلاثون سنة. وأصدر مرسوماً جمهورياً بالحملة على جزيرة ساموس(*) لرفضها طلبه بإيقاف حربها مع الميليسيين. ولما كان الرأي يميل إلى أن هذا الإجراء ضد الساموسيين إنما اتخذ إرضاءً لسپاسيا Spasia فمن المناسب أن نذكر هنا شيئاً عن هذه المرأة. أيّ جاذبٍ فيها وأي دهاء مكّنها من إيقاع أعظم ساسة العصر في حبائل حبّها واستهوائه. ومن ثم إتاحة المجال لحديث الفلاسفة[٥٣] عنها كثيراً، لا بما يشينها أو يجرحها؟

ومن الثابت أنها ميليسيّة بالولادة[٥٤]. وأنها ابنة أكسيوخوس Axiochus وقيل إنها كانت تمكّنت من امتلاك ناصية رجال من ذوى النفوذ والجاه الكبير بتقليدها تارجيليا Thargelia[٥٥] العاهرة التي عاشت في العهد الأيوني القديم، وقد عُرفت بجمالٍ نادر، وشخصية ساحرة للغاية يزيّنهما ذكاء وحصافة مدهشين. وكان عشّاقها بين الإغريق كثيرين، واستمالت كل من كان ذا علاقة بها لموالاة الفرس وخدمة مصالحهم بنفوذهم ومراكزهم العالية. وبذلك زرعت بذرة التحزّب للميديين في مدن كثيرة. هذا عن تارجيليا. ويقول بعضهم إن سپاسيا استأثرت بقلب پيريكلس، وإعزازه، لوقوفها الواسع على السياسة وحذقها أساليبها. وكان سقراط نفسه يختلف إليها أحياناً مع بعض

(*) في ٤٤٠ ق.م.

(٥٣) سقراط وأفلاطون.

(٥٤) ميلتوس من مدن أيونيا اشتهرت بكثرة مشاهير الرجال الذين ولدتهم حتى ضرب بها المثل.

(٥٥) نالت ملك تساليا بفضل جمالها. لكنها اعتُطبت وهي في ريعان الشباب إذ فتك بها واحد من عشاقها.

(٥٦) أسخينوس السقراطي. في محاورة عنوانها «أسپليا» لم تصلنا.

معارفه. واعتاد كثير ممن يختلفون إليها أن يصحبوا زوجاتهم للاستماع إليها. ولم تكن مهنتها تمتّ إلى الشرف بصلة ما، ومنزلها في الواقع دار للعاهرات الشابات. ويخبرنا أيسخينيس Aeschines[٥٦] أيضاً أن ليسيكليس Lysicles وهو تاجر أغنام ذو منبت وضيع، وخُلق دنيء، أصبح هو أوّل شخصية في أثينا بعد موت پيريكلس، بسبب معاشرته سپاسيا[٥٧]. ونحن، وإن كُنا لا نأخذ مقدمة مينيكزينوس Menexenus لأفلاطون، مأخذ الجدّ التام، فإن ما تضمّنت عن سپاسيا فيه واقع تاريخي، جاء فيه أنها اشتهرت باختلاف كثير من الأثينيين إلى مجلسها ليتعلّموا فنّ الكلام منها[٥٨]. ويبدو أن تعلّق پيريكلس بها كان مبعثه العاطفة والحبّ على أية حال. كان متزوجاً بقريبة له، سبق أن تزوجت بهيپونيكوس Hipponicus قبله وأنجبت له كاليّاس Callias الملقب بـ«الغنيّ»، ثم أنجبت لپيريكلس طوال عشرتها الزوجية له - ولدين وهما كزانتيپّوس Xonthippus وپارالوس Paralus. ثم انفصل عنها برضاها بعد أن ضاقا بالعيش معاً لعدم انسجامهما، فبنت برجل آخر، وتعلّق هو بسپاسيا وأحبها حباً جارفاً، وكان يُقرئها التحية ويقبّلها يومياً كلما غادر البيت أو عاد إليه من ساحة السوق.

ولُقّبت بأسماء عديدة في التمثيليات، منها «أومغال الجديدة» و«ديئيانيرا Deianira» ولقبت أيضاً بـ«جونو» وأعطاها كراتينوس[٥٩] صفتها الحقيقية «العاهرة».

«لقد حملت له جونو هذه، بتلك العاهرة التي لاتعرف الحياء المسمّاة سپاسيا».

---

(٥٧) لا يُعلم المنصب الذي أشغله هذا الشخص والدرجة التي رُفع إليها. ثمّ اثنان بهذا الاسم بلغا مرتبة السلطة في أثينا، توفّي أولهما بعد سنة واحدة من موت پيركلس، ولم يكن محتملاً أن انتفع إلى هذا الحدّ بعلاقته مع سپاسيا خلال مثل هذا الموقف القصير. أما الثاني الذي كان أصل السبب في نكبة خيرونيا [ديودورس ١٦: ٨٨] فقد نُفّذ فيه حكم الموت جرّاء ذلك في تاريخ متأخر عن الأول بتسعين عاماً. وليس من المعقول أن تكون سپاسيا قد عاشت قرناً من الزمن وهي محتفظة بنفوذها.

(٥٨) يجب ألاّ نتصوّر أن سپاسيا إنما برعت في مطارحات الهوى والحديث التافه الخفيف. في الواقع إن أحاديثها كانت جدّية عميقة حتى ظن معظم أهل المعرفة الأثينيين أنها هي التي كتبت خطبة التأبين الشهيرة التي ألقاها پيركلس مخلّداً ذكرى أولئك الذين سقطوا في حرب ساموس. ولا يُستبعد أن قام پيركلس بشنّ هذه الحرب بناء على اقتراح منها، انتقاماً من منازعة الميليسيين. وقيل إنها رافقته في الحملة وإنها شيّدت معبداً تخليداً لنصره هذا [انظر ثوكيديدس ١: ١١٥].

(٥٩) في مسرحية الخيرونيون Cheirons.

ويبدو أنها أنجبت له ابناً. ففي تمثيلية «ديمي» Demi ليوپوليس Eupolis قدّم شخصية پيريكلس وهو يسأل عن سلامة ابنه فيجيبه ميرونيدس Myronides و«إبني هل هو حيّ»

«أجل... إنه أصبح رجلاً متزوّجاً منذ زمن طويل لو لم يخش سوء السمعة لولادته من أمّ عاهرة».

اشتهر أمر سپاسيا على ما يقال وذاع صيتها، حتى أن كورش الذي نازع أرتحششتا العرش الفارسي سَمّى أحبّ محظياته إليه باسم سپاسيا وكانت تدعى قبلاً ميلتو Milto وهي فوسيّة الأصل وأبوها هرموتيموس Hermotemus. ولما سقط كورش في المعركة قتيلاً حُملت إلى الملك[٦٠]، فكان نفوذها في بلاده كبيراً... خطرت لي هذه الأشياء وأنا أكتب القصّة فلم أجد من المناسب إغفالها.

على أية حالٍ، كان من أهمّ المآخذ على پيريكلس اقتراحه في الجمعية العمومية إعلان الحرب على ساموس مناصرةً للميليسيين، وإكراماً لخاطر سپاسيا، فالدولتان كانتا مشتبكتين في حرب على پرين Priene، وكانت كفّة الساموسيين راجحةً فيها، ولذلك أبوا إلقاء سلاحهم والاستجابة لفضّ النزاع بطريق التفاوض وأن يكون الأثينيون المحكّمين فيه. فجهز پيريكلس أسطولاً واتجه إلى جزيرتهم حيث قضى على حكومة الأقلية فيها وأخذ خمسين رهينة من كبار رجالهم ومثله من أولادهم وبعث بهم إلى جزيرة لمنوس وأبقاهم هناك. وذكر بعض المؤرّخين أنه رفض عرضاً بافتدائهم بتالنتٍ واحدٍ لكل منهم، فضلاً عن هدايا كثيرة عرضها عليه أولئك الذين كانوا يكرهون جداً اقامة نظام ديمقراطيّ عندهم؛ زد على ذلك أن پسوثنس Pisuthnes[٦١] الفارسي أحد ضباط الملك، الذي كان ذا نوايا طيبة للساموسيين، أرسل إليه عشرة آلاف قطعة ذهبية ليصفح عن المدينة، فردّها پيريكلس ورفض كل العروض. ومضى قُدماً في ما اختطه للساموسيين، وما وجده مناسباً وأقام النظام الديمقراطي عندهم[٦٢] ثم أبحر عائداً إلى أثينا.

إلاّ أنهم ما لبثوا أن ثاروا، وأفلح پسوثنيس في تهريب الرهائن إليهم وأمدّهم بكلّ

---

(٦٠) أنظر كزنيفون: أناباسيس ١:٢، ١٠.

(٦١) هو ابن هشتاسب. كان حاكماً على سارديس وتبنّى قضية الساموسيين طبعاً لأن كبار قومهم هم من الموالين للفرس.

(٦٢) كذلك وضع فيها حامية [ثوكيديدس ١:١١٥].

وسائل الحرب. فكرّ پيريكلس راجعاً إليهم بأسطوله فلم يجدهم غافلين ولا متهيّبين، بل تبيّن فيهم عَزْماً راسخاً على نيل السيطرة البحرية؛ وكانت النتيجة أن پيريكلس نال نصراً ساحقاً بمعركة بحرية ضارية قرب جزيرة تراجي(٦٣)، فقد هزم بأربع وأربعين بارجة سبعين بارجة للعدوّ منها عشرون تحمل جنوداً.

وبنصره هذا وما تلاه من مطاردةٍ للعدوّ حقق سيطرته على الميناء وألقى حصاراً عليهم وضيّق الخناق. وكانوا رغم ذلك يحاولون أن يواصلوا كَراتهم بشتّى الأشكال، ويشتبكوا في القتال تحت أسوار المدينة. لكن پيريكلس أتمّ تطويقهم من كل جهة وحصرهم في مساحة ضيّقة جداً من الأرض، بعد أن وصله من أثينا أسطول كبير آخر(٦٤). ويذكر معظم الكتّاب أن پيريكلس أخذ ستين بارجة وانطلق بها إلى عرض البحر عازماً على اعتراض سفن الفينيقيين التي خفّت لمعونة الساموسيين، وقتالهم في أبعد نقطة ممكنة عن الجزيرة. على أن ستسمبروتوس يزعم أنه ما خرج إلاّ ليستولي على قبرص، وهو زعم لا ينطوي على إصابة. ومهما كانت نيّته فالظاهر أنه أخطأ الحساب، لأن ميليسّوس Melissus القائد الساموسيّ آنذاك، وابن الفيلسوف إيثاجينس Ithagenes، أغرى أهل المدينة بمهاجمة القوات الأثينية الباقية إمّا مزدرياً العدد القليل من سفنهم، أو مستفيداً من قلة تجربة ضبّاطهم. وكسب الساموسيون المعركة وأخذوا عدداً من الأسرى كما عطّلوا عدداً من السفن وتمّت لهم السيطرة على البحر، ونقلوا إلى الميناء كل ما يحتاجونه للحرب، ولم تكن بتناول يدهم قبلاً. يقول أرسطو أن ميليسّوس كان قد استظهر على پيريكلس مرة واحدة في معركة بحرية سابقة.

ووسم الساموسيون الأثينين الأسرى وسماً على جباههم يُمثل صورة بوم غسلاً لإهانة سبق أن أصابهم بها خصومهم هؤلاء. فقد وسموا عدداً منهم بوسم يمثل سامينة Samaena وهذا نوع من السفن واطئ مسطّح من ناحية القيدوم ليبدو كالأنف الأشمّ، وهو من المؤخرة عريض واسع رحيب يتسع لحمولة كبيرة، ويسهل قياده. وسمّيت بهذا الاسم لأن أوّل مَن صنعها كان في ساموس وبنيت بأمر من پوليقريطس Polycrates الطاغية وهذا الوسم الذي رسم على جباه الساموسيين نوهت به الفقرة التالية - من أرسطوفان(٦٥):

---

(٦٣) تراجيناي هي جزيرة من مجموعة جزر سپورادس مقابل ساموس.

(٦٤) يتألف من أربعين سفينة أثينية و٢٥ سفينة أخائية ولسبوسيّة [ثوكيديدس ١:١١٦].

(٦٥) من مسرحية «البابليون» لم تصلنا.

«لأن الساموسيين - واأسفي - قومٌ مُعَلَّمون بالحروف».

ما إن بلغت أنباء النكبة پيريكلس حتى خفّ مسرعاً لإنقاذ قوّاته[٦٦] وأوقع بميليسّوس الهزيمة وراح يطارد جيشه حتى حصرهم وراح يبنى حولهم جداراً وغايته إيقاعهم جميعاً في قبضته والاستيلاء على المدينة. وان كان في هذا الأسلوب تضحية في بعض النفقات والوقت فهو ينّم عن حرصه على أرواح مواطنيه وعدم التفريط بخسارة فيهم. ولكن صعب عليه كبح الأثينيين الذين أغضبهم هذا التأخير وكانوا توّاقين للقتال مصرّين عليه. فقسم الجيش كله إلى ثماني وحدات. وسحب قُرعة بينها فكل وحدة يخرج لها حبّة الفول البيضاء تسحب من خطّ القتال وتعطي إجازة فيها يروّح الأفراد عن أنفسهم ويطربون ويلهون، بينما تستمر الوحدات السبع الأخرى في القتال. والى هذا تُعزى تسمية الأثينيين ليوم طربهم ومرحهم باليوم الأبيض إشارة إلى حبّة الفول البيضاء[٦٧].

ويخبرنا المؤرخ إيفوروس Ephorus زيادة على ما تقدّم، أن پيريكلس استخدم في ذلك الحصار آلات الثغر، فقد كان شديد الاهتمام بالمستنطبات العجيبة، توّاقاً لاختبارها. وقد عاونه في ذلك أرتيمون Artemon المخترع الميكانيّ، وكان يرافقه في حملته، ولعرج فيه اعتاد أن يجلس في محفّةٍ لينقل إلى مواقع العمل كلما استدعى الأمر وجوده، ولهذا السبب سُمّي پيريفوريتوس Periphoretus. إلاّ أن هيراقليدس پونتيكوس يثبت عكس ما تقدم، مستنداً إلى شعر أناكريون[٦٨] الذي جاء فيه تنويه بأرتيمون پريفوريتوس هذا قبل حرب ساموس والأحداث الأخرى المعاصرة لها بأجيال عديدة. يقول إنه كان حريصاً على راحته، شديد الحذر من مداهمة الخطر على حين غرّة. لهذا اعتاد قضاء جُلّ أوقاته داخل البيوت، وأناط باثنين من خدامه أن يرفعا فوق رأسه ترساً نحاسياً لئلا يسقط عليه شيء من فوق. وإن استدعت حاجةٌ ملحّةٌ خروجه حُمل في محفّة متدلّية من قضبان على مستوى واطئ من الأرض ولذلك سُمّي پريتوريتوس.

---

(٦٦) يقول ثوكيديدس إن النجدة التي أدركته كانت تتألف من ثمانين سفينة.

(٦٧) تُعتبر حبة الفول البيضاء إشارة على البراءة في القضايا الجنائية. وقد جرت العادة بذلك منذ زمن أبعد مما ذكر.

(٦٨) تجد هذه الأبيات في الأثيناوس (١٢:٩). الحقيقة أن المرء لا يسعه إلاّ الاستغراب من وجود شخصين بعين الاسم وعين الأخلاق والنقص العقلي. إلاّ أن المهندس الذي رافق پيركلس ربما لا يتفق في شيء مع الآخر ما عدا الاسم. وپلوتارخ وقع هنا في وهم عندما عزا إليه كل هذه التفاصيل.

في الشهر التاسع استسلم الساموسيّون، وسلّموا مدينتهم. فهدم پيريكلس أسوارها وصادر سفنها وفرض على الأهلين غرامة مالية ثقيلة، دفعوا جزءاً منها في الحال، واتُّفق على تسديد الباقي في أجلٍ مضروب. وسلّموا رهائن ضماناً لحسن سلوكهم. وقد ألّف درويس Duris الساموسي مأساة درامية حول هذه الأحداث متهماً فيها الأثينيين وپيريكلس بالفظائع والقسوة الشديدة - دون اعتبارٍ ما للحقيقة. بينما لا نرى ثوكيديدس أو أنيوروس أو أرسطو يذكرون شيئاً من هذا. ذُكر مثلاً أن پيريكلس ساق ضبّاط السفن وجنودها إلى ساحة السوق في ميليتوس وهناك شدّ وثاقهم على ألواح خشبية وأبقاهم هكذا عشرة أيام حتى أصبحوا بين أحياءٍ وأموات، ثم أصدر أمره بسحق رؤوسهم تحت ضربات الدبابيس وإلقاء جثثهم في الشوارع والساحات العامة دون دفن؛ كيف يمكن تصديق هذا؟

وعلى أية حالٍ، كان من المحتمل جداً أن يبالغ دوريس في المصائب التي حلّت بموطنه ليخلق شعوراً بالنفور العام من الأثينيين. فهو كثيراً ما يبالغ في سرده التاريخي حتى يتعدّى بعضه حدود الحقيقة(٦٩)، وإن لم يكن منساقاً وراء غرض أو عاطفة.

والحاصل أن پيريكلس عاد إلى أثينا بعد إخضاعه الساموسيين، واهتم بدفن أولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب دفنة مشرّفة لائقة، وألقى بتلك المناسبة خطبة تأبين حسب العادة، أثناء مواراتهم التراب، أثارت عظيم الإعجاب(٧٠)، حتى أنه عندما هبط من المنبر أقبلت عليه النسوة وأخذن يمدحنه وقُدنه من يده وضفرن على رأسه أكاليل الغار والشرائط، كاحتفائهنّ بالرياضي الفائز في الألعاب. وهناك دنت إلپينيكي منه قائلة: «لقد أتيت يا پيريكلس بأعمال البطولة والبسالة وهو ما تستحقه أكاليل غارنا التي جعلتنا نفقد كثيراً من كرام مواطنينا لا في حروب مع الفينيقيين أو الماديين كحروب كيمون، بل لقهر وإخضاع دولة حليفة ارتبطت معنا برابطة الدم والصداقة» وقيل أنه كان يبتسم ابتسامة رقيقة أثناء حديث إلپينيكي، ولما انتهت ردّ عليها بهذا البيت من الشعر:

---

(٦٩) عاصر بطليموس فلاديلفوس. يقول عنه شيشرون إنه دقيق وأمين.

(٧٠) هذه المرثية التي أُلقيت في السنة الرابعة من الأولمبياد الرابع والثمانين هي غير الخطبة الشهيرة التي ألقاها بمناسبة تأبين أولئك الذي سقطوا صرعى في بداية حروب الپلوپونيسس. في السنة الثالثة من الأولمبياد السابع والثمانين (توكيديدس ٢: ٣٥-٤٦). إن الأريوباغوس هو الذي يختار الخطباء في هذه المناسبات. ولم يكن بالشرف القليل لپيركلس أن يختار مرتين لتعزية بلاده بالفاجعة.

«ينبغي للعجائز من النساء ألاّ ينشدن التعطر»[٧١]

وقال عنه آيون إن العظمة ركبته بعد مأثرته هذه في انتصاره على الساموسيين، وبدأ ينظر إلى نفسه نظرة التيّاه المُدِلّ فلقد اقتضى عشرة أعوام لأغاممنون Agamemnon حتى يستولي على مدينة من مدن البرابرة، في حين لم يقتض پيريكلس أكثر من تسعة أشهر للاستيلاء على أعظم مدن الآيونيين وأقواها. ولهذا كان له ملء الحق في الفخر بهذا المجد الذي كسبه لنفسه. فقد كانت حرباً تنطوي على مخاطرةٍ كبيرة، وكان هناك شكّ أكبر في نتيجتها. هذا إذا صدق ما قاله لنا ثوكيديدس عن اقتراب ساموس على قيد خطوة من انتزاع السيادة البحرية من أيدي الأثينيين.

بعد هذا[٧٢] بدأت حرب الپيلوپونيس تتخذ شكلاً خطيراً وتبلغ مرحلتها الحاسمة. ونصح پيريكلس مواطنيه أن يرسلوا نجدة للكوكريين Cocyraeans الذين تعرّضوا لهجوم الكورنثيين[٧٣]، وأن يضعوا يدهم على جزيرة ذات موقع سوقي بحريّ هام جداً ما دام كل الپيلوپونيس قد بادروا بالأعمال العدوانية ضدهم. فوافق الجميع على اقتراحه بلا تردّدٍ، وصوّتوا على إرسال معونة ونجدات عسكرية لهم. فبعث پيريكلس إليهم لقيديمونيوس[٧٤] ابن كيمون على رأس عمارة بحرية تتألف من عشر سفنٍ لا غير.

---

(٧١) معناه «لقد بلغت من الكبر حداً بحيث لا يجمل بها التدخل في الشؤون».

(٧٢) أي بعد الاستيلاء على ساموس بخمس سنين. وبالضبط في السنة الثانية من الأولمبي السادس والثمانين [بدأت حروب ابيلوپونيسس في السنة الثانية من الأولمبياد السابع والثمانين].

(٧٣) هذه الحرب بدأت في ٤٣٣ ق.م بخصوص أراضي أيپيدامنوس المدينة الصغيرة في مقدونيا التي بناها الكوركيري. وكان لهؤلاء قوة بحرية عظيمة لا تعدلها إلاّ بحرية الأثينيين. طلب هؤلاء والكورنثيون المعونة من الأثينيين في آن واحدٍ. ومن قصائد الشعراء الهزليين وهم صدى صوت الجمهور الأمين يمكن أن نعزو سبب الحرب إلى الغضب الذي اجتاح أسپاسيا لإهانة وجهها إليها بعض من شبان ميغارا. ويزعم آخرون أن پيركلس إنما شنّها لحماية نفسه والتخلّص من تقديم حساب على فترة حكمه. إلاّ أن هذه الأسباب غير معقولة لأنها ليست جديرة بسياسيّ شهير مثله لا تستقيم مع خلقه ومنزلته. ويدحض ثوكيديدس هذه المزاعم وهو محايد غزير المعلومات. والتعليل المعقول الوحيد هو الحسد الذي ابتليت به أثينا بسبب ما بلغته من منعةٍ وقوة ومهابة بعد انتصارها في الحرب الميدية. وسلوكها المشوب بالتعالي والعجرفة واستنكار سپارطة لروح التسلط فيها.

(٧٤) يقول ثوكيديدس لم يكن قصد الأثينيين مساعدة الكوركيري بصورة فعّالة. وإنما كان إرسالهم العمارة البحرية الصغيرة من أجل المراقبة ومتابعة تطورات القتال في حين يصاب الفريقان بالإنهاك. هذا فضلاً عن أنه لم يكن القائد الوحيد فقد زامله في القيادة كل من ديوتيمس وپروتياس (١ : ٤٥).

وكان يقصد بهذا الإجراء أن يجنّبه الإهانة. فلما كان بين يسرة كيمون واللقيديمونيين عطف متبادل وصداقة فقد تعمّد أن ينيط به هذا العدد الضئيل من السفن حتى إذا فشل في مهمته وأخفق في تحقيق مأثرة في الحملة فلن يُعزى ذلك إلى ممالأةٍ للقيديمونيين أو على الأقل لكيلا يشكّ في مسلكه أو يتهم بالغدر؛ والواقع أن إرساله كان ضدّ رغبة پيريكلس، لأنه ما فتئ يحتاط للحيلولة دون ارتقاء أبناء كيمون في مناصب الدولة، وحجّته في ذلك أن أسماءهم وحدها تجعل الناس لا ينظرون إليهم نظرة المواطنة الأثينية، بل يعتبرونهم أجانب وغرباء عنهم. فأحدهم يدعى لقيديمونيوس، والآخر تسالوس Thessalus والثالث إيليوس Eleaus، والمظنون أن ثلاثتهم جاؤوا من أم أركادية. ومهما قيل عن نجدة السفن العشر والانتقاد الموجّه إليها باعتبارها معونة تافهة جداً لقوم كانوا يعانون ضيقاً شديداً، كما أنها في الوقت نفسه وقعت بمبرّر قوي لأولئك انتقدوا پيريكلس لتدخله في الحرب، فإن أثينا بعثت بعد ذلك بقوات أكبر إلى كوركيرا Corcyra[٧٥] إلا أنها وصلت بعد انتهاء القتال. واشتد سخط الكورنيثين وغضبهم على الأثينيين واتهموهم علناً في لقيديمون، وساندهم الميغاريّون في ذلك متظلمين من قيام الأثينيين بإبعادهم عن كل سوقٍ وطردهم منها ومن جميع الموانئ الواقعة تحت سيطرتهم خلافاً للحقوق العامة المشتركة التي أقسم على احترامها كل دول الإغريق في عهد السّلام المتفق عليه. وأعلن الإيجينيون أيضاً أنهم عوملوا معاملة سيّئة قاسية وطلبوا من اللقيديمونيين إنصافهم ولم يجرؤوا على تسمية الأثينين واتهامهم بالاعتداء جهراً. كما أعلنت مدينة پوتيديا Potidaea الثورة على سادتها الأثينيين في الوقت نفسه، وكانت قبلاً من مستعمرات الكورنيثين. فألقى عليها الجيش الأثيني الحصار وكانت سبباً آخر من أسباب الحرب.

ومع هذا فقد وفد إلى أثينا سفراء للتوسط في السلام. وبذل أرخيداموس ملك اللقيديمونيين مجهودات صادقة للوصول بمعظم الشكاوي والخلافات التي هي مدار النزاع إلى حلول عادلة مرضية للأطراف المعنية، ولتهدئة عواطف الحلفاء المستوفزة. وكان من المحتمل جداً أن لا تقع مغبّة الحرب على الأثينيين لأي سبب من أسباب النزاع لو أنهم وافقوا على إلغاء قرارهم ضدّ الميغاريين، وهو الذي عمل على إثارة عاطفة العداء للميغاريين في نفوس الأثينيين، فإنه يُعدّ مثير هذه الحرب الأوحد.

---

(٧٥) إلاّ أن هذا الأسطول الذي تألف من عشرين سفينة حال دون اشتباك ثانٍ كانوا قد تهيّأوا له [ثوكيديدس ١: ٥٠].

ويذكر المؤرّخون في هذا الصدد أن السفراء الموفدين رحلوا من لقيديمون إلى أثينا للبحث في هذه القضية، وقيل إن پيريكلس تعلّل بوجود قانون يحرّم عليه إنزال أو إلغاء أي لوح كُتب عليه قرار اتخذه الشعب، ومنها اللوح الذي كتب عليه القرار ضد الميغاريين، فعقّب أحد السفراء المسمّى پوليالسيس Polyalscis قائلاً: «لا بأس إذن، لا تُنزلوه، بل أديروه على وجهه الثاني إذ لا يوجد قانون يمنع ذلك»(٧٦). ومع أن قوله هذا كان تعريضاً جميلاً بپيريكلس فإنه لم يُزحزح الرجل عن موقفه ولم يثنه عن عزمه. ويغلب الاحتمال أن يُظنّ فيه نيّة خفيّة أو عداوة مستترة بينه وبين الميغاريين، ولكن تصرّفه التالي ينفي هذا الظنّ، فعند طرح التهمة للعامة، وهي اغتصابهم جزءاً من الأراضي المقدسة على الحدود(٧٧)، تقدّم هو نفسه باقتراح يقضي بإرسال منادٍ إليهم أولاً ثم إلى اللقيديمونيين ثانياً يحمل صيغة الاتهام للميغاريين، وهذا عمل يبرهن بما لا يقبل الشكّ على نيّة طيّبة تتحرّى العدل. ثم إن المنادي الموفد أنتيموقريطس Anthemocritus قضى نحبه. وظُنّ أنّ للميغاريين ضلعاً في موته. فقام خارينوس Charinus يقترح إصدار بيان ضدهم بالصيغة الآتية: «سيكون من الآن فصاعداً عداء مستحكم لا شافع فيه بين الجمهوريتين. وإنْ وَضَع ميغاريٌّ قدماً في أتيكا يقتل حالاً. وأن يضاف إلى أوّل اليمين المعتادة التي يحلفها القوّاد العسكريّون تعهّدهم بالقيام بغارتين على بلاد الميغاريين سنوياً، وأن يدفن أنتيموقريطس بالقرب من الباب الثراسي، المسمّى الآن دپليلون Diplylon أو الباب المزدوج».

وأنكر الميغاريون إنكاراً باتاً تهمة تدبير مقتل أنتيموقريطس(٧٨) وتنصّلوا منها وألقوا اللوم كله على سپاسيا وپيريكلس مستشهدين بالأبيات الأخارنية Acharnian المشهورة التالية:

«خرج إلى الميغاريين بعض رجالنا الأغرار الطائشين السكارى، واغتصبوا

---

(٧٦) للمزيد من التفاصيل قارن ثوكيديدس [١ : ١٤٠] وغيره.

(٧٧) أن الأرض التي تقع بين ميغارا وأتيكا كُرّست للربّتين الألوسينّتين «كيريس» و«پروسپريني» كذلك اتهم پيركلس الميغاريين بأنهم كانوا يؤمّنون الحماية للعبيد الآبقين.

(٧٨) لم يورد ثوكيديدس أي ذكر لهذا المنادي. على أن الميغاريين كانوا يعتبرون مدبّري هذا القتل حتى أنهم عوقبوا عليه وإنْ بعد أجيال عديدة. ولهذا السبب حرمهم الإمبراطور هادريان كثيراً من الامتيازات والألطاف التي خصّ بها مدن الإغريق الأخرى. إن ضريح أنثيموقريطس كان على جانب الطريق المقدسة المؤدية إلى إيليوس [پاوسنياس ١ :٣٦].

منهم عاهرتهم سيميثا Simaetha. فلأجل أن يثأر المغاريون لهذا العمل، اقتحموا منزل سپاسيا واختطفوا عاهرتين منها».

ليس من السهل معرفة السبب الحقيقي للحرب. إلاّ أن الجميع يلقون تبعته على پيريكلس، لأنه حضّ على رفض إلغاء البيان الصادر ضدَّ الميغاريين. وزعم البعض أن رفضه الطلب بصورة باتة كان متمشياً مع مصالح البلاد التامّة، نابعاً من معنوية عالية. فقد استخلص فكرة أن الطلب الذي تقدّمت به السفارة كان يرمي إلى اختبار أعصاب الأثينيين، وإنّ أيّ تنازل منهم سيؤخذ بمثابة إقرارٍ بضعفهم، ويُظهرهم بمظهر العاجز الذي لا مخرج له غير هذا الحلّ؛ وهناك من يقول إن الرفض كان مبعثه التحدي والرغبة في القتال، إظهاراً لقوته، وخلقة مناسبة لتحقير اللقيديمونيين.

وأشدّ الدوافع هي الحادثة التالية التي أكّد علاقتها الوثقى بالحرب معظم الشواهد والأدلّة: كان فيدياس قد قام بعملٍ تمثال لمينرڤا على نحو ما بيّنا، وقد ابتليَ بعداوة الكثيرين غيرة منهم وحسداً لأنه يتمتع بمكانة كبيرة وصداقة متينه عند پيريكلس. وهذا ما دفعهم إلى تلفيق تهمة عليه ساقته للمحاكمة الشعبية، وغرضهم من هذا أن يختبروا اتجاه الشعب كقاضٍ إذا ما سنحت لهم فرصة تقديم پيريكلس أمامه بتهمةٍ ما. وكان سبيلهم إلى فيدياس أنهم أغروا عاملاً من عمّاله يدعى مينون Menon ودفعوا به إلى ساحة السوق وبيده عريضة يطلب فيها منحه الأمان الجمهوريّ عند ادعائه على فيدياس، فأجيب طلبه، وسُمح له بسرد شكواه. وفي المرافعة التي أقامها الادّعاء العام ضده أمام الجمعية العمومية لم يثبت عليه سرقةٌ أو غش، لأن فيدياس الذي أخذ بنصيحة پيريكلس من البداية وعمد إلى الذهب المخصص للتمثال فكساه كالقميص به بصورة يمكن معها نزعه ووزنه بصورة دقيقة. على أن صيت أعمال پيريكلس العمرانية هي التي جرّت المصائب على فيدياس، ولاسيّما تصويره حرب الأمازونات في سبيل ترس الآلهة. فقد رسم صورته شيخاً أصلع الرأس رافعاً صخرة عظيمة بكلتا يديه. ورسم صورة أخرى تشبه پيريكلس شبهاً تاماً وهو يحارب الأمازونات، وكان وضع اليد الممسكمة بالرمح أمام الوجه محاولةً بارعة من المثال لحجب الشبه إلى درجة ما، إلاّ أنه كان واضحاً وضوحاً كافياً من الجانبين.

وعلى هذا أودع فيدياس السجن ومات فيه بمرض[٧٩]، أو على ما قيل بسُمّ دسّه

(٧٩) يزعم بعضهم أنه نُفي وأنه صنع في فترة منفاه تمثاله الشهير «جوبتر في الأولمب» الذي لم يبزّه في الفن والدقة غير تمثال منيرڤا الذي جاء ذكره في المتن.

له أعداء پيريكلس لإثارة فضيحةٍ أو شكوك على الأقل حول پيريكلس بوصفه قاتله. واقترح غليكون Glycon إعفاء مينون من الضرائب والمكوس وإيصاء القادة بالمحافظة على سلامته فأجاب الشعب بالموافقة.

ثم تلا ذلك اتهام سپاسيا بتعاطي البغاء، بشكوى قدّمها هرميپوس الممثل الكوميدي، وزاد عليها تهمة أخرى هي استقبالها في بيتها مواطنات من طبقة الأحرار، ليستمتع پيريكلس بعشرتهن. كذلك تقدّم [ديوپيثوس Diopithes باقتراح سنّ قانون يقضي برفع الدعوى العامة على كل الأشخاص الذين يُهملون شعائرهم الدينية أو يبشّروا بالمبادئ الجديدة عن الأمور العليا، موجّهاً الشكّ إلى پيريكلس عن طريق أناكساغوراس. وكان قبول العامة بهذه الأمور وموافقتهم على التهم يتمثّل في إصدارهم بياناً (بناءً على اقتراح دراكونيتدس Dracontides) يقضي بمحاسبة پيريكلس على الأموال التي أنفقها أمام البريتان(٨٠)، وأن القضاة يجب أن يجيزوا المرافعة بالبطاقات التي توضع فوق هيكل الأكروپوليس، مذبح الربّة في الأكروپوليس(٨١) داخل المدينة. لكن هاغنون Hagnon ألغى الشرط الأخير من البيان، واقترح إجراء المحاكمة أمام ألف وخمسمائة مواطنّ محلّفٍ، سواء شاء الادّعاء إسناد تهمة السرقة أو الرشوة أو غيرها. وتشفّع پيريكلس بسپاسيا ذارفاً دموعاً غزيرة وترجّى المحلفين في أمرها شخصياً، على ما روى إيسخينوس. ولكنه عمد إلى إخراج أناكساغوراس من المدينة لخوفه عليه(٨٢)، وتأمّل فوجد أنه لم يفلح مع الشعب في قضية فيدياس خوفاً من أن

---

(٨٠) هم كما ذكرنا في حاشية سابقة أعضاء مجلس الشيوخ الخمسمائة الذين أصبحوا السلطة العليا في ذلك الزمن.

(٨١) في بعض القضايا الخارقة للعادة، حيث يتطلب من القضاة التمسّك بأدق موازين العدالة والشكليات، عليهم أن يتسلّموا رُقاعهم من فوق مذبح نبتون على حد قول هيرودوتس ١٢٨:٨، وعليها يدوّنون أحكامهم، أو أن يتناولوا حبات الفاصوليا البيضاء أو السوداء. وما يقصده پلوتارخ من قوله «. . . وأن يجروا المرافعة داخل المدينة» يصعب إعطاء تفسير له إلاّ إذا كان المقصود به الجمعية العامة للشعب كله. أمّا الألف والخمسمائة التي جاءت بعد العبارة فربما كان يقصد بها محكمة هلياي، سُمّيت بهذا لأن القضاة يجلسون في الهواء الطلق معرّضين لأشعة الشمس. والمحكمة من هذا النوع تتشكل من هذا العدد في الحالات الخاصّة.

(٨٢) كان أناكساغوراس يؤمن بالوحدة الإلهية أي بوحدانية الله الحكيم الخبير العليم خالق هذا الكون الجميل من عالم الفوضى. إن كان هذا دين المعلّم فلا شك أن الناس سيتنتجون أن التلميذ پيركلس على دين معلّمه وأنه يرفض فكرة تعدّد الآلهة السائدة في ذلك زمن. هذا الرفض ينطوي على أعظم الخطر. فقد تبيّن بعد فترة وجيزة أي في عهد سقراط بأنها عقدة مهلكة.

يتعدّى الاتهام إليه. لذلك استعجل بإشعال نار الحرب وكانت خامدة هامدة حتى الساعة فأوقد لهيبها مؤمّلاً بهذه الخطّة أن يضيّع معالم التهم ويبعثر الجهود في ملاحقتها وإسكات تحامل الأعداء والحسّاد. فالمدينة عادةً تُلقى بحملها عليه في الملمّات، والخطر ولا تثق بغير قيادته لقوة شكيمته وحزمه.

تلك هي مجموعة الأسباب التي حملت پيريكلس على ألاّ يرضي أهل أثينا بالانصياع إلى مقترحات اللقيديمونيين. إلاّ أن وجه والحقيقة فيها غير واضح.

واللقيديمونيون من جهتهم كانوا يدركون أن بإمكانهم حمل الأثينيين على قبول أية شروط شاؤوها لو نجحوا مرة واحدة في إزاحة پيريكلس، ولذلك أرسلوا يطلبون منهم طرد «الدنس» الكيلوني Cylon الذي علِق بپيريكلس من جهة أمّه، كما ذكر لنا ثوكيديدس[٨٣]. فباؤوا بعكس ما أملوا، وبدلاً من وصفهم شخصيته بأنها موضع شكٍّ ونفرة، رفعوا من قدره في نظر مواطنيه وزادوا الثقة فيه، بوصفه أكره الناس إلى أعدائهم وأخوف ما يخافون. واستبق پيريكلس غزوة أرخيداموس لأتيكا على رأس حلف الپيلوپونيسوس بإبلاغه الأثينيين أن أرخيداموس في أثناء أجتياحه البلاد سيستثني متعمداً أراضيه من التخريب، إما لحقوق صداقتهما والتكريم المتبادل بينهما، وإمّا لإعطاء أعداء پيريكلس فرصة للنيل منه بالشبهات. لذلك فهو يهب للدولة كل أراضيه وما عليها من بناء للانتفاع العام!

وما لبث اللقيديمونيون وحلفاؤهم أن هاجموا أراضي أتيكا بجيش جرّار تحت قيادة أرخيداموس. وخرّبوا ودمّروا حتى بلغوا آخارني[٨٤] وهناك ضربوا خيامهم متوقعين أن الأثينيين لن يحتملوا وسيخرجون لقتالهم دفاعاً عن بلادهم واستنقاذاً لشرفهم. لكن پيريكلس أبى أن يتعرّض لستين ألف مقاتل من الپلپونيين والبويوتيين في معركة تنطوي على مخاطر كبيرة قد تؤدّي إلى ضياع المدينة نفسها، وبذل جهوداً عظيمة في تهدئة المتشوّقين إلى القتال المستائين المتألمين لما آلت إليه الأمور، ونصحهم بخير الكلام كقوله «الأشجار إذا قُلّمت أو قُطعت لا تلبث أن تنمو ثانية. لكن

---

(٨٣) يقصدون أفراد الأسرة الألكيمونية التي كانت قد وصِمت بوصمة فساد الدم عندما قتل الأرخون ميغاكليس في حدود العام ٦٣٦ ق.م أتباع كيلون كفراً منه وتجديفاً. انظر سيرة صولون [ثوكيديدس ١ :١٢٦ و١٢٧].

(٨٤) إقليم أخارني وهو أكبر الأقاليم المرتبطة بأثينا يستطيع أن يجنّد من مواطنيه ثلاثة آلاف مقاتل. وكان يبعد عن المدينة ألفاً وخمسمائة خطوة فحسب.

خسارة الرجال لا تعوّض بسهولة». ولم يدعُ العامة إلى الاجتماع لئلا يرغموه على عمل معاكسٍ لخططه، إلاّ أنه كان أشبه بقائد الدفّة البارع أو ملاّح السفينة عندما تثور العواصف الهوج وهو في عُرض البحر، يتخذ كل التدابير ويحتاط ويتأكد أن كلّ شيء هو في محلّه، ثم يتبع ما يمليه عليه علمه وبراعته، ويحصر كل مجالات تفكيره في شأن سفينته، غير ملقٍ بالاً على دموع الركاب المدرارة، ولا على ضراعة المصابين بالخوف ودُوار البحر. فأحكم إغلاق مداخل المدينة، وثبّت الحاميات العسكرية في كل المواقع السوقية، زيادة في الحذر، متّبعاً وحي ضميره ورأيه غير مكترث بمن ينتهرونه سخطاً عليه واستنكاراً لخططه. وكان كثير من أصدقائه يلحّون بالرجاء وكثير من أعدائه يتهددونه بالويل، ويتهمونه بخطأ ما يفعل. وعمد عدد كبير إلى نظم الأغاني وقصائد الهجاء فيه، وراح أهل المدينة يتغنّون بها ويذيعونها زيادة في الفضيحة، وكلّها تصبّ اللوّم عليه لجُبنه في تمشية شؤون القيادة، والتنازل الذليل للعدوّ عن كل شيء.

وممن هاجمه كليون Cleon(٨٥). فقد استفاد من شعور السخط المتنامي ضدّه متخذاً من هجومه مرقاة للزعامة، كما بدا من «مخمّس» هرميپرس وإليك مصراعين منه:

«أيا ملك المسوخ والهزل! أستبقى أبداً
تستخدم الكلام التافه بدل السيف؟
فبه وحده كنت تدير دفّة الحرب
حتى الآن فتزعج آذاننا حتى لكأنّ
تيلس Teles قد جاءت ثانية؟
لو أنّ أصغر مِديَة وضِعت على المسنّ
ليكون حدّها ماضياً، فإنك تصرّف
أسنانك فرَقاً كأنك أُصبت بضربة كليون النارية».

على أن هذا لم يُحدث أثراً ما في پيريكلس، ولم يعبأ قُلامة ظفر بتلك التهجمات، بل احتملها بصبر، وسكت محتسباً عن الإهانات التي صبّوها عليه والتخرّصات التي أرادوا بها تشويه سمعته. مضى في خطته قُدماً، فبعث بأسطول مؤلّف من مائه بارجة إلى البيلوبونيسس وبقى هو في المدينة لتصريف الأمور برقابته المباشرة، إلى أن رفع البيلوبونيسس مضاربهم ورحلوا. على أنه أخذ بتوزيع الأموال العامة وأصدر قانوناً

---

(٨٥) هو عين كليون الذي سخر منه أرسطوفانس. تمكن من الفوز برتبة الجنرال، نتيجة خطبه وأفانينه السياسية.

يقضي بإعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطرد كل أهالي إيجينا ووزّع أراضيها بالقرعة على الأثينيين، سعياً لإرضاء عامة الشعبِ المتألم الحانق من الأسلوب الذي اتّبعه في الحرب وترفيهاً لهم وتخفيفاً عن شقائهم لما عانوه من الحرب. وردّاً للكيل الذي كاله العدوّ لهم اجتاح الأسطول الذي أرسله إلى الپيلوپونيس قسماً واسعاً من بلادهم وعاث سلباً ونهباً في المدن والقرى، ثم ما عتم أن زحف هو برّاً على بلاد الميغاريين(٨٦) بجيش وخرّب ودمّر على هواه. ولو أن ما لقيه [الپيلوپونيون] من الأثينيين في البحر يقلّ عمّا لقيه الأثينيون في البرّ منهم، لما أطال أولئك من أمد الحرب، بل لسارعوا إلى إنهائها(٨٧)، وهو عين ما تنبّأ به پيريكلس وتوقّع حصوله لولا تدخّل المشيئة الربّانية التي تعمد أحياناً إلى إحباط مساعي البشر، والإخلال بخططهم.

فالبدرجة الأولى دهم المدينةَ المرضُ الوبائي أو الطاعون وراح يقضي على زهرة شبابها وأصلبهم عوداً، وأصاب بعدواه النفوس فضلاً عن الأبدان فعميت البصائر، وساءت الأمزجة. وهبّ الناس كالمجانين المسعورين يصرخون في وجه پيريكلس، وراحو كالمصابين بنوبة هذيان يصبّون جام غضبهم على طبيبهم المعالج، أو بالأحرى على أبيهم. إذ طفق أعداؤه يروّجون بينهم أن سبب الطاعون إنما هو ناشئ عن تقاطر أهل الريف إلى المدينة واكتظاظها بهم واضطرارهم إلى العيش مزدحمين في أماكن ضيّقة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وانحشروا معاً في منازل صغيرة وأكواخ فاسدة الهواء، في قيظ الصيف، وبقوا يعيشون داخلها عيشة التعطل والخمول بعد اعتيادهم العيش في الهواء الطلق النقيّ. وكان الحديث العام: إن الحرب التي أثارها هو كانت السبب والعلّة في تكالب العدد الضخم من المتعطلين في عملٍ ما وإبقائهم مكدّسين تكديساً كالبهائم تفتك بهم العدوى دون أن يهيّئ لهم أسباباً للانتقال أو الوقاية.

أراد پيريكلس إيجاد حلٍّ لهذه المآسي وإصابة العدوّ بشيء من القلق، فأعدّ مائة وخمسين(٨٨) بارجة وأصعد إليها قوات كبيرة من المشاة والخيّالة المجرّبين وتهيّأ

---

(٨٦) جرّد حملته في الخريف بعد انسحاب اللقيديميين [ثوكيديدس ٢: ٣١].

(٨٧) في الواقع عدلوا عنها وعادوا إلى سپارطة. إلاّ أن أرخيداموس عاد في السنة التالية وإن لم يلحظ پلوتارخ ذلك. وفي أثناء هذه الهجمة الثانية انتشر الطاعون في العام ٤٣٠ ق.م [قارن توكيديدس ٢: ٤٧-٥٤] الذي يصفه وصفاً دقيقاً ويقال إنه جاء من بلاد الجيشة ونشر دماراً تاماً وهو في طريقه.

(٨٨) كان قوام الحملة مائة سفينة أثينية استوعبت أربعة آلاف مقاتل. ولحقت بها سفن نقل كانت تحمل الخيول. كما كان ثمّ خمسون سفينة أخرى من خيوس وليسبوس [ثوكيديدس ٢: ٥٦].

للإبحار، مُفسحاً للأمل سبيلاً إلى نفوس مواطنيه، باعثاً الخوف والفَرَق في نفوس أعدائه بهذه القوة الضخمة. وبعد أن سدّت كل بارجة حاجتها من الرجال وصعد پيريكلس سفينته شاءت الصدف أن يقع كسوف[٨٩] شمسيّ فاكفهرّ الجوّ وساد الظلام فجأة فتطيّر الجميع واعتبروه دليل نحسٍ عظيم. والتفت پيريكلس فرأى قائد دفّة سفينة يتملّكه الرعب والحيرة لا يدري ما يفعل فما كان منه إلاّ أن رفع عباءته ونشرها وهي مفتوحة أمام وجه الملاح فحجب نظره «أيرى في هذا الستر بأساً أو أي إشارة إلى ضرر محتمل؟»، «فأجاب الرجل بالنفي. فقال پيريكلس: «فكيف إذن وبأية صورة يختلف هذا الحجاب عن احتجاب الشمس إلاّ بأن الذي سبّب الظلام هناك أعظم من العباءة». هذه حادثة كان الفلاسفة يروونها لتلاميذهم.

ومهما يكن لم يقم پيريكلس على ما يبدو بمأثرة بحرية تستحق الذكر وتوازي استعدادته الكبيرة، عند انطلاقة ذلك الأسطول. ثم إنه ألقى حصاراً على المدينة المقدّسة إپيداروس Epidaurus[٩٠] ولمّا ظهر ما يدلّ على قرب استسلامها له تفشّى المرض بين جنوده فقضى على أمله، ولم يُصب الداء الأثينيين وحدهم بل سرت عدواه إلى كل من كان على صلة بالجيش. أخيراً وجد أن صبر الأثينيين قد نفد، وروحهم بلغت التراقي، فبذل جهوداً جبّارة في تهدئتهم وتقوية عزائمهم فكان كمن يضرب في حديد باردٍ[٩١]، وعجز عن إزالة سخطهم أو إرضائهم ولم تنجح أي حيلة معهم. وألقوا بأصواتهم جميعاً ضده، واستعادوا سلطتهم منه ونحّوه عن القيادة مع تغريمه مبلغاً من المال، أقلّ ما قدّره المؤرخون بخمسة عشر تالنتاً، وأكثر ما ذكروه خمسون. ويحدثنا إيدومينيوس Jdomeneus أن المدّعي وصاحب الشكوى كان كليون، وأن سمياس Simmios يتأثر في ذلك خطى يثوفراستوس. أما هيراقليدس پونيتكوس فهو يتفق مع لاكراتيداس Lacratidas في مقدار الغرامة.

بعد هذا أشغلت الاضطرابات العامة الناس عنه، أو بعبارة أخرى أفرغ الشعب سمّ

---

(٨٩) هنا أيضاً يخلط پلوتارخ بين حملتين. والكسوف إنما وقع في مبدأ الحملة الأولى (ثوكيديدس ٢: ٢٨).

(٩٠) في أركيا وكرّست لأسكولاپيوس. ويصفها پلوتارخ بالمقدسة ليفرّقها عن بلدة أخرى في لاڤونيا بالاسم عينه. لم يأت ثوكيديدس إلى ذكر هذه الفاجعة، لكنه يقول إن پيركلس فشل في محاولاته تلك لا في أپيداروس وحدها بل طروزين وإيرميوني وغيرها ولم يستدل إلاّ على پروسيا وهي بُليدة بحرية في لاڤونيا.

(٩١) حفظ لنا ثوكيديدس (١١: ٦٠-٦١) خطبته بهذه المناسبة.

حنقهم كله في الضربة التي وجّهت له، وخلّف جِمته في مكان اللسعة، وتركوه لشأنه. إلاّ أن أحواله العائلية كانت أسوأ ما يخطر بالبال. فكثيرٌ هم أصدقاؤه ومعارفه الذين قضوا بالوباء. أما أعضاء أسرته فكان التنابز والتباغض ينهش فيهم، ورفع جميعهم ما يشبه راية العصيان عليه؛ كان ابنه الشرعيّ البكر كزانتيپوس متلافاً سفيهاً بطبعه؛ وزاد من سوء حاله زواجه ببنت تيساندر Tisander ابن إپيليكوس Epilycus الغريرة المسرفة. وكان يشكو مرّ الشكوى تقتير أبيه عليه ومنحه مرتباً تافهاً لا يدفعه له إلاّ بأقساط زهيدة. وفي أوقات متباعدة. وبسبب ذلك بعث إلى صديقٍ يوماً يطلب إقراضه بعض المال باسم ابيه، زاعماً أنه فعل ذلك بأمرٍ منه. وأقبل الدائن على پيريكلس يطالب بدينه، فامتنع هذا عن الدفع فاقام عليه الدعوى. ووقعت الإهانة على الابن وقعاً شديداً وتحلل من قيود البنوّة. وراح يندّد بأبيه علناً وأخذ يتندّر في مبدأ الأمر بقصص عن أحاديث أبيه في مجلسه ومناقشاته مع السوفسطائيين كذكره مثلاً: كيف أن واحداً ممن كان يجيد الألعاب الخمس المفضلة، قتَلَ إپيتيموس Epitimus الفارسالي Pharsalion بطعنة رمح أو خِطّي من دون أن يدري ما فعل، وخلافاً لإرادته وكيف قضى أبوه خمسة أيام في نقاش جدي مع پروتاغوراس Protagoras(٩٢) في أيّهم المسؤول عن القتل: ألرمح؟ أم الرجل الذي قذفه أم اساتذة اللعبة المؤسسون لهذه الألعاب، وذلك بحسب أسلم المبادئ العقلية وأقربها إلى المنطق.

وكذلك يذكر لنا ستسبمروتوس أن كرانتيپوس هو الذي روّج بين الناس تلك القصّة الشنعاء عن علاقة زوجه بأبيه. وعلى العموم ظلّت القطيعة بين الأب والابن ولم يرأب الصدع حتى موت الابن بأول موجة وباء الطاعون. وفي غضونه أيضاً فقد پيريكلس أخته ومعظم خلاّنه وأقربائه ومن أقرب الأنصار له في شؤون الحكم وأنفعهم. وعلى كلٍ بقي عزمه لم يهن إزاء هذه الصدمات، ولم يُبدِ ضعفاً أو يفضح مشاعره وظلت معنوياته عالية، وفكره ثاقباً ولم تنل منهما تلك النكبات. ولم يُر باكياً أو محزوناً، أو يحضر دفن أيّ من أصدقائه أو أقربائه، حتى ثكل ابنه الشرعي الثاني وهو الواحد الباقي. فخارت قواه لشدّة الضربة، ومع ذلك حاول التصبّر، والتجلدّ، إلى أن حَلّ يوم قيامه بشعائر التشييع، فتغلّبت عليه العاطفة أمام منظر فقيده، عندما قام بضفر أكليل

(٩٢) بروتاغوراس من أبديرا تلميذ ديموقريطس. كان أذكى وأبرع سوفسطائيّي زمانه. ألّف خلال فترة نشاطه الذي دام أربعين عاماً أكثر مما أنتجه فيدياس المثال. وأثر عنه الإلحاد لقوله «ليس ثمّ شيء مؤكد حول وجود الآلهة أو طبيعتها».

الزهر على الرأس، فصرخ صرخة أليمة. وتفجّر دمعه الحبيس وسال حاراً على خدّيه. تلك هي المرّة الوحيدة التي أبدى فيها مثل هذا الضعف سائر حياته.

بعد أن أخذت المدينة تختبر القادة العسكريين الآخرين، لغرض مواصلة الحرب، وتعجم عود الخطباء لغرض إناطة شؤون الدولة بهم، وعندما تبيّن لها أن ليس فيهم من يضاهيه أو يعدله، ولا من يجاريه في الحزم والبراعة في الحكم بما يكفي لائتمانهم على واجبٍ له مثل هذا الوزن من الخطورة؛ انتابها أسف شديد لخسارتهم الفادحة به، وعزمت عليه أن يعود مرة أخرى ناصحاً لها وخطيباً، وقائداً كما كان.

وكان إذ ذاك منزوياً في بيته حزيناً كاسف البال. وأفلح ألكيبيادس Alcibiades وغيره من الأصدقاء بإخراجه من عزلته، والظهور للشعب، فما كاد المواطنون يرونه حتى أظهروا عرفانهم بجميله واعتذروا له عن معاملتهم الظاهرة له، فتسلّم شؤون الدولة مجدداً. وعندما انتُخب جنرالاً كان أول عمل قام به إلغاء القانون الخاصّ بالأطفال غير الشرعيين. وكان هو الذي تسبّب في سنّه، كي لا ينطفئ اسم أسرته ونسبه بعد موت وارثه الشرعي الوحيد. وحكاية سنّ هذا القانون تعود إلى الزمن الذي بلغ فيه پيريكلس أوج عزّته وسلطانهُ غير محرومٍ من الأولاد الشرعيين، فاقترح سنّ قانون لايحمل صفة المواطنة بمقتضاه إلاّ من ولِد من أبوين أثينيين(٩٣). وعلى أثر ذلك أهدى ملك مصر أربعين ألف بوشلٍ من القمح لتوزّع على المواطنين الأثينيين. مما أدّى إلى إقامة دعاوى وقضايا إثبات نسبٍ لا يمكن إحصاؤها، وهي قضايا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، لعدم أهميتها. وعانى كثيرون الأمرّين من التلفيق والتزوير، وناهز عدد المحكومين بذلك الخمسة آلاف. وبيعوا في سوق النخاسة عبيداً جرّاء ذلك(٩٤). أمّا عدد من اجتاز هذه المحنة وأثبتوا مواطنتهم الأثينية الحقّة فقد تبيّن عند الاقتراع أنه يبلغ أربعة عشر ألفاً وأربعين مواطناً(٩٥).

يبدو من الغريب أن يُلغى مثل هذا القانون بعد تطبيقه على هذا المدى الواسع،

---

(٩٣) بحسب قول پلوتارخ في مفتتح سيرة تميستوكلس، إن هذا القانون سُنّ قبل أن يتولّى پيركلس الحكم. ولعلّ هذا تشدد في تطبيقه بسبب روح العداء لكيمون الذي كان من أولاد أنصاف أثينيين.

(٩٤) إن عدم شرعية الأولاد لا تجعلهم في مرتبة الرقيق. وإنما تُدرجهم في عِداد الغرباء.

(٩٥) عدد قليل جداً في الواقع. عندما كانت أثينا تفكر في بناء مستعمرات لها، وإخضاع جيرانها، وقهر الشعوب الأخرى.

ومن الأغرب أن يُلغى بمسعىً من الرجل الذي ألحّ في سنّه. على أن المصيبة التي قصمت ظهر پيريكلس والحزن الذي ابتُلي به لفجيعته بأسرته كان لهما أثرهما الباتّ في تحطّم كلّ معارضة والشفاعة له عند الأثينيين. وأشفقوا عليه شفقة ذلك الرجل الذي عوقب على غطرسته وتعاليه عقاباً كافياً بشكله ومعاكسة الأقدار له بالمصائب، ووجدوا أن آلامه تستحق رثاءهم، بل تستحقّ منهم الندم على ما أتوه بحقه. وبدا رجاؤه بإلغاء القانون في نظرهم مجرّد طلب يعرضه رجلٌ ويستجيبه رجال. وسمحوا له بقيد ابنه في سجلّ الأخوية، وبمنحه اسم أسرة پيريكلس. هذا الابن قتله الشعب الأثيني مع زملائه القوّاد[٩٦]، بعد أن حقق انتصاره على الپيلوپونيين في أرغينوسيه Arginusea.

في الزمان الذي جرى به تسجيل الابن، أصيب پيريكلس بالوباء على ما يبدو، ولم تكن إصابته صاعقة حادّة كالآخرين، وإنما جاءته بصورة خفيفة هادئة وأخذت تستفحل شيئاً فشيئاً وكان يعتورها كثير من النكسات والتقلبات. وأخذ الداء يخترمه اختراماً ويذهب بقواه ويقضي على مداركه الروحية العقلية. ففي كتاب «القوى الأدبية» Moralia لثيوفراستوس تجد فقرة عن حالة پيريكلس المرضيّة عند بحث الكاتب عن مسألة تغيّر مدارك الناس بتغيّر ظروفهم، وعاداتهم الخلقية، وهل أن أمراض البدن يوقع فيها الخلل فيظهر على تصرفاتهم انحراف عن قواعد السلوك العامة. فقد دوّن ذلك الكاتب أن پيريكلس كان يعرض على عائديه تعويذة أو «حجاباً» علّقته نساء بيته في عُنقه ليقيه السوء. كأنما أراد الكاتب القول إن پيريكلس قد بلغ به المرض وضعاً خطيراً، بدليل اعتقاده بسحر هذه التعاويذ الحمقاء.

ولما حانت مَنيّتهُ، لازمه نخبة من أصدقائه المواطنين ممن بقوا على قيد الحياة، وراحوا يلهجون بعظمة مآثره ويثنون على أعماله الشهيرة، معدّدين انتصاراته العسكرية. إذ أقام ما لا يقلّ عن تسعة أنصاب نصر، تشريفاً للمدينة التي تولّى قيادتها وقهر أعداءها. واصلوا أحاديثهم فيما بينهم اعتقاداً منهم أنه لايعي ما يذكرون ولا يفهمه

(٩٦) في السنة السادسة والعشرين للحرب كان الأثينيون قد عيّنوا عشرة قواد لإدارة الحرب. وبعد أن انتصروا حوكموا وحكم على ثمانية منهم بالموت نُفّذ بحق ستةٍ منهم في الحال (منهم ابن پيركلس غير الشرعي). كانت الجريمة الوحيدة التي أدينوا بها هي أنهم لم يقوموا بدفن قتلى المعارك. حصل هذا زمن أرخونية كاللياس في السنة الثالثة من الأولمبياد الثالث والتسعين أي بعد ٢٤ سنة تقريباً من وفاة پيركلس. ويعرض كزنيفون في كتابه «الهلينيات» Hellenies وصفاً مفصّلاً لما حصل. كان الفيلسوف سقراط في تلك الفترة واحداً من قضاة «الپريتان» لكنه رفض رفضاً باتاً أن يتولّى مباشرة وظيفته.

لاشتداد وطأة العلّة عليه. إلاّ أن سمعه كان يتابع ما يقال فقاطعهم هنا قائلاً: إنه ليستغرب مديحهم، وتقليد الثناء لأمور كان للحظ دور رئيس في تحقيقها، ولم يكن القائد الوحيد الذي أسعدته الصدف بإنجازها وإن أمثاله لكثيرون. على أنهم نسوا أن ينوّهوا بأعظم مأثرة وأعزّها جانباً. . . «فبمجهوداتي لم يلبس الحداد أثينيّ واحدٌ».

حقّاً إن پيريكلس شخصيّة تستأثر منا بأشدّ الإعجاب. لا لهدوء طباعه وعفّتها، وهو الخُلق الذي ظلّ يلازمه في معظم حياته، وفي مجابهة الخصومات العديدة الشديدة التي واجهته خلالها، بل للمعنوية العالية، والروح السامية التي جعلته قادراً وهو يزاول سلطاته الضخمة على قمع كل عاطفة، انتقامية وإشفاء غليله من أي خصم، وكبح نفسه عما تريد. ولم يعامل أيّ عدوّ معاملة من لا يمكن التفاهم أو المصالحة معه. ويظهر لي شخصياً أن هذه السجيّة وحدها تُفسّر سببَ تلقيبه بالأولمبي، ذلك اللقب الصبياني الفخم! فطبيعة بمثل هذه الرقّة، وحياة خلت من هنوات العاطفة وهي في أوج سلطانها وأرفع منزلتها لتستأهل لقب «الأولمبي». هذا بحسب مفاهيمنا عن الكائنات الإلهية التي نعزو إليها سياسة العالم وحكمه بوصفها الفاعلة لكلّ ما هو خيرٌ، وبعدها عن كلّ فعل شرٍ، خلافاً لما يقول الشعراء. فهؤلاء يضلّلوننا بخيالهم الجاهل الأخرق الذي يفضحه شعرهم الكاذب، فيسمّون دار الأرباب منزلاً هادئاً مطمئناً آمناً من أي خطرٍ أو مفاجأة لا تزعجهم فيه الريح ولا الغيوم، يشعّ منهم على حدٍّ سواءٍ وبصورة دائمة نور نقيّ صافٍ رقيق؛ منازل أكثر ملائمة للطبيعة الخالدة المباركة. يقولون هذا في الوقت الذي يؤكدون أن الآلهة كثيرة المتاعب لا تخلص من العداوات والبغضاء وغير ذلك من العواطف التي لاتلائم أو تليق بأقل الناس عقلاً وإدراكاً. . . لكن ربّما كان هذا الموضوع أليق بالمعالجة والشرح في فرصة مناسبة أخرى.

إن السبيل الذي سلكته سياسة الدولة العامة بعد موت پيريكلس سرعان ما كشفت عن مدى الخسارة به(٩٧). فالحاقدون على ما ناله من سلطان في حياته، التي كسفت شمس حياتهم، راحوا بعد تركه المسرح السياسيّ يجرّبون الكثير من الخطباء والزعماء الشعبيين، ليدركوا أنه كان المفرد العلم، وأنه لن يقوم مثل له بطبعه وسلوكه، ولن يجدوا شخصاً أكثر اعتدالاً منه، وأوسع إدراكاً وهو في أعلى درجة من سلطانه، ولا أكثر منه رزانة ومثاراً للإعجاب في رقته وحنانه. وبدت لهم تلك السلطة الفردية التي أطلقوا عليها قبلاً «حكم الطغيان، والفردية المطلقة»، وكأنها القلعة الرئيسة لسلامة

(٩٧) توفي في السنة الثالثة لبدء الحرب البيلونية في ٤٢٩ ق.م.

البلاد. ومهما بلغ عِظم الفساد، وما نجم بعده من اضطراب وشرور، فقد أفلح في ستره باضعافه وقمعه، وبذلك منعه من بلوغ مرتبة الداء العُضال الذي لا يمكن البرء منه، وكان سبيله إلى ذلك الغفران والصفح الرفيق.

أهم الأحداث في زمنه (ق.م)

٤٤٠ أخضع ساموس التي ثارت على الأثينين.
٤٣٩ بدأت الحرب بين كورنث وكوركيرا.
٤٣١ يصيّر حرب الپيلوپونيس التي دامت ٢٧ سنة ـ فترة من هُوَل.
٤٢٩ يموت بعد حكم أثينا ربع قرن.



وجها قطعة نقدية (٢٩٣ ق.م)

فابيوس ماكسيموس

FABIUS (Maximus)

(Cunctator)

٢٧٥–٢٠٣ ق.م

بعد أن سردنا سيرة وأعمال پيريكلس العظيمة، يتقدّم تاريخنا بنا إلى سيرة فابيوس وجدّه الأعلى ابن لهرقل وحورية أو امرأة من نساء تلك البلاد ولدته على ضفاف التيبر. وكان أوّل فابيوس من تلك الأسرة الشهيرة الكبيرة العدد[١] وعميدها. ويقول آخرون إن لقبها الأول كان فودي Fodii لأن أوّل أعضاء الأسرة كانوا مغرمين بحفر النُقر لايقاع الوحوش وصيدها. وكلمة Fobese المرادفة لكلمة «حَفَر» ما زالت مستعملة في اللاتينية. وذلك Fossa أي خندق. وبتعاقب الزمن استُبدل الحرفان فانقلب الأسم إلى فابي Fabii[٢]. وسواء في ذلك أكان الأمر صدقاً أم كذباً، فالثابت أن هذه الأسرة أنجبت عدداً كبيراً من أبرز الرجال. وفابيوسنا هنا، هو الجيل الرابع المنحدر من فابيوس رولّلوس Rullus[٣] الذي كان أول من قلّد الأسرة شرف إضافة لقب ماكسيموس إليها؛ ويُلقّب فابيوس كذلك بڤيرّوكوسوس Verrucosus لثؤلولة في شفته العليا، ولُقّب أيضاً في حداثته بأوڤيكولا Ovicula أو الحَمَل بسبب وداعته المتناهية.

---

(١) ليڤي [١١: ٥٠، ١٦، ٢١] هذه الأسرة اضطلعت كلها بالحرب ضدّ الفيدستثيين في العام ٤٧٧ ق.م. فقد بعثت بستة وثلاثمائة من المقاتلين كلهم يحمل اسم «فابي». وقد قُتلوا جميعاً. وتعود شهرة الأسرة إلى أعضاء فيها تقلّدوا أعلى المناصب في الدولة، ومنهم اثنان تولّى كل منهما منصب القنصل ست مرات.

(٢) پليني [تاريخ الطبيعة ١٨: ٣] يردّ الاسم إلى صفةٍ فيقول إنهم كانوا بالأصل من أبرع زارعي الفاصوليا Fabae!

(٣) أو روتليانوس [پليني: المرجع السالف ٨: ٤] تولّى القنصلية خمس مرات وحقق انتصارات عديدة هامة على السامنيين والتوسكان وغيرهما من الشعوب. إلاّ أن لقب مكسيموس (العظيم) الذي لصق به لم يكن سببه ما ذكرنا. بل ناله أيام كان چنسوراً (محتسباً) إذ جمع كلّ قبائل روما بأربع فقط. وكان سكان المدينة قبلها متفرقين بين القبائل بصورة عامة. وقد ضمن له هذا السلطة العليا في الجمعيات الشعبية [ليڤي ٩: ٤٦]. وقد سُمّيت المجموعة بالقبائل الحضرية Tribus Urbana تقابلها القبائل الفضلى Tribus Rusticus وهي تعيش عادة في الريف.

وكان ثقل لسانه وبطئه وتعسّره في التعلّم، وتردّده في مشاركته الأولاد الآخرين ألعابهم، وخضوعه وسهولة انقياده لأيّ إنسان كأنما لا يملك إرادة خاصة، جعلت أولئك الذين تغرّهم المظاهر السطحيّة منه، وهم الأكثرية الغالبة، يحكمون عليه بالغباء والبلادة. في حين تبيَّنت أقلّية الناس أن تثاقله هذا نابع عن الرصانة والثبات، واستوضحوا قوة ذكاءٍ، وإرادة لها إقدام الأسد في ذلك. وما إن بلغ مرحلة العمل حتى برزت مواهبه وظهرت على حقيقتها، ووَجَد الناس عموماً أن ما عُرف به من افتقار إلى الحيوية إنما هو التحرر من العاطفة، وثقل لسانه وبطء حركته نتيجة للحكمة الحقّة، وافتقاره إلى السرعة وتثاقله هما آية الاستمرارية والصرامة فيه.

وبعيشه في جمهورية عظيمة يحيط بها أعداء كثيرون، رأى من الحكمة أن يعوّد جسمه على التمارين العسكرية، ليشتدّ عوده بسلاح الطبيعة الوحيد هذا. كما أخضع لسانه لنظامٍ يتّسق ويتّسع لحياته وخُلقه، مدرّباً إياه على فن الخطابة الجماهيرية. ولم يكن في بلاغته الكثير من التنميق الشعبيّ المبتذل ولا تلك الصناعة الفارغة بل كان فيها قدر كبيرٌ من الحسّ والشعور، قوية عقليّة شبيهة بأسلوب ثوكديدس. وما زال موجوداً إلى الآن خطاب تأبينه بمناسبة موت ابنه الذي قضى نحبه قنصلاً. وكان قد ألقاه أمام الجمهور.

تقلّد منصب القنصلية خمس مرّات[٤]. وكان له شرف الدخول في موكب الظفر أثناء فترة قنصليته الأولى للانتصار الذي أحرزه على الليغوريين Ligurians[٥] في معركة فاصلة، ودفع بهم إلى مجاهل جبال الألب. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يغيرون، أو يغزون جيرانهم. وبعد هذا أغار هنيبعل[٦] على إيطاليا وكان عند دخوله قد فاز بمعركة عظيمة بالقرب من نهر تريبيا Trebia واخترق توسكانيا بعد أن دوَّخها بجيشه الظافر مخرباً كل البلاد المجاورة، ومالئاً روما نفسها بالذهول والرعب. وزاد من قلق الأهالي وخوفهم بعض الظواهر الطبيعية من الرعود والبروق الفائقة للعادة، وأنباء عن

---

(٤) أول قنصلية له كانت في ٢٣٢ ق.م أو في ٢٣٤ على قول ليفي [١٧:٢٢] والخامسة تولاّها في العام ٢٠٨ ق.م. وقد مضى على الحرب الفونية الثانية عشرُ سنواتٍ تقريباً. أما قنصلياته الثلاث الأخرى فكانت على التوالي في الأعوام ٢٢٧ و٢٢٤ و١٩٣ ق.م.

(٥) الليغوريون سكنوا الساحل الممتد من نهر جنوا حتى موناكو في فرنسا.

(٦) دخل هنيبعل إيطاليا في ٢٢٧ ق.م حسب زعم ليفي (٣٨:٢١) أثناء قنصلية كورنيليوس سكيپيو وسميرونيوس لونكوس. ودحر أولهما في معركة تيجينوس، قبل أن يهزم ثانيهما في معركة (تريبيا).

حصول خوارق غريبة جداً وغير مسموع بمثلها. فقد قيل إن بعض التروس عرقت دماً، وان عدداً من آذان أهالي آنتيوم امتلأت بالدماء أثناء قيامهم بحصاد القمح، وإن السماء أمطرت حجارة محمرّة من شدة الحرارة، وان الغاليريين شاهدوا السماء وقد انشقت وسقطت منها رقوق كُتِب على أحدها بصورة واضحة «لقد رفع مارس سلاحه»(*). إلاّ أن هذه الخوارق لم يكن لها تأثير على القنصل فلامينيوس(٧) المتهوّر الأهوج الطبع الذي ارتفعت درجة اندفاعه عالياً بانتصاره الأخير غير المتوقع على الغاليين، إذ حاربهم خلافاً لأوامر مجلس الشيوخ ونُصح زميله. ولكي يجد فابيوس الاشتباك مع العدوّ ينطوي على حكمة - من الجهة الأخرى - لا لأنه كان يعلّق مزيداً من الاهتمام على الخوارق(٨) التي كان يراها أشدّ غرابة من إمكان فهمها بسهولة، بل لأنه كان يرى القرطاجنيين قليلي العدد يفتقرون إلى المال والتجهيزات، فوجد أن خير ما يعمله هو تحاشي الدخول في معركة ضِدّ قائدٍ عجم القتال عود جيشه، وبلته المعارك العديدة فلا غاية له إلاّ دخول المعركة، بل أن يرسل العون إلى حلفائهم، والسيطرة على حركات مختلف المدن الخاضعة وترك قوة اندفاع هنيبعل تتضاءل وتضعف وتنطفئ كاللهب بالافتقارها إلى الوقود.

لم تفلح هذه الأسباب الوجيهة في فلامينيوس الذي احتجّ قائلاً إنه لن يسمح بتقدم العدوّ إلى المدينة، ولن يكون مضطراً بالأخير إلى الدفاع عن روما من خلف أسوار روما، كما فعل كاميللوس في الماضي. وبناء على هذا أمر قادة الفِرق بوضع الجيش على خطّ القتال، تأهّباً للمعركة، وخرج هو يريد ركوب جواده، وما قفز على صهوته حتى أصيب الحيوان بنوبة هياج لا يعلم سببها ورمح براكبه فسقط فلامينيوس على الأرض. إلاّ أن هذه الإشارة لم تثنه عن عزمه واستمر في تطبيق خطته وزحف على

(*) Mauors telum Suum Concutit (ليفي ٢٢: ١).

(٧) يصوّره [پوليبيوس ٣] رجلاً ذرب اللسان شديد الكبرياء لكنه فاشل كجنرال. فقد كان واثقاً من النصر إلى الحدّ الذي كان يوجد في جيشه من العبيد المقيّدين بالسلاسل أكثر من الجنود. أحرز هذا النصر في ٢٢٤ ق.م في حين كان اندحاره المتوقع جداً متأتياً من أسباب ثلاثة: فأوّلاً كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوّه، وثانياً أنه أهمل عمل الاستخبارات ورفض قراءة الرسائل الواردة إليه من مجلس الشيوخ ولم يفضّها إلاّ بعد ختام المعركة. وثالثاً وزّع قواته للمعركة بصورة لاتتفق وأصول الفنّ الحربي. إلاّ أن براعة بعض ضبّاط ركنه صحّح تلك الأخطاء [انظر پوليبيوس: ٢، وليڤي ٢٠: ٤٩].

(٨) لم يكن فابيوس زميلاً لفلامينيوس هنا وإنما كان سرڤيليوس جمينوس.

هنيبعل الذي كان قد تمركز قرب بحيرة ثراسيمينه Thrasymene في توسكانيا. وفي لحظة التقاء الجمعين حدثت هزّة أرضية دمّرت عدة مدن وغيّرت مجاري الأنهار وجرفت أطنافاً جبلية عالية، ولفرط لهفة المتحاربين إلى القتال لم يشعروا قطّ بشيء منها.

وسقط فلامينيوس في هذه المعركة صريعاً بعد أن قدّم كثيراً من الدلائل على بسالته وإقدامه. وسقط حوله أشجع المحاربين في الجيش، وبلغ مجموع القتلى الكلّي خمسة عشر ألفاً. وأُسر مثل هذا العدد(٩). ورغب هنيبعل في أن يضفي على جثمان فلامينيوس مراسم التشييع التكريميّة، فقام ببحثٍ مضنٍ عنه، ولم يجده بين القتلى ولم يعرف مصيره. في المعركة السابقة التي جرت قرب سّريبيا لم يستعمل القائد الذي كتب التقرير عنها، ولا المراسل الذي نقل نبأها، عبارات صريحة واضحة المفهوم(١٠)، ولم توصف بأكثر من معركة غير فاصلة تساوت فيها خسائر الطرفين. ولكن الأمر كان مختلفاً في هذه المعركة إذ ما إن وصلت أنباؤها إلى الپريتور پومپونيوس Pomponius حتى جمع الناس وقال لهم بصراحة دون أن يحاول التغطية والمواربة: «أيها الرومان! لقد غُلبنا في معركة عظيمة(١١). القنصل فلامينيوس قد قتل. وعليكم أن تفكروا فيما يجب عمله لسلامتكم».

فكان كمن فتح بأنبائه باباً لريح شديدة على البحر، فماجت المدينة وعمّتها فوضى تامة. في هذا الموقف العصيب لم تجد أفكارهم شيئاً ثابتاً تستقرّ عليه. وأيقظهم الخطر الداهم أخيراً، فهداهم تفكيرهم إلى اتخاذ قرار بتعيين دكتاتور قد يتمكن من تصريف

---

(٩) مع أن هنيبعل نال نصراً ساحقاً فقد ترك ألفاً وخمسمائة قتيل بعضهم مات بعد المعركة متأثراً بجراحه [ليڤي ٢٢:٦]. لقد جرّ الرومان إلى كمين نصبه لهم بين مرتفعات كوردتوما وبحيرة ثراسيمينه. ويتفق پلوتارخ مع ليڤي حول عدد قتلى الرومان إلاّ أنه يجعل عدد الأسرى ستة آلاف. في حين يؤكد پوليبيوس أن العدد أكثر من هذا بكثير. نجا من الرومان حوالي عشرة آلاف كان معظمهم مثخناً بالجراح واتجهوا صوب روما. إلاّ أن أغلبية الجرحى سقطوا موتى على قارعة الطريق. ولفظت والدتان أنفاسهما لغلبة عاطفة الفرح عندما شاهدتا ولديهما يدخلان المدينة. وسقط فلامينيوس صريعاً، جندله غاليّ يدعى روكاريوس بعد أن فتك بضابط ركنه الذي حاول عبثاً أن يحمي قائده.

(١٠) كتب سمپروتيوس إلى مجلس الشيوخ معتذراً بسوء الطقس عن عجزه على تحقيق النصر (پوليپيوس ٣).

(١١) ليڤي: المرجع نفسه ٧. يقول إن الأمر اليومي الذي أصدره الجنرال لم يكن يزيد عن هذه العبارة «أيها الرومان، إننا خسرنا معركة عظيمة».

الشؤون العامة بسلطة منصبه المطلقة، وبحكمته الخاصة وشجاعته، ووقع اختيارهم بالإجماع على فابيوس[١٢] الذي بدا خُلقه جديراً برفعة المنصب، وعمره متقدم به إلى الحَدّ الذي يمنحه الخبرة المنشورة، دون أن يجرّده من النشاط وقوة العمل، وجسمه قادر على تنفيذ ما تختاره نفسه، وطبعه هو مزيجٌ منجانسٌ من الثقة والحذر.

بعد أن ثُبِّت فابيوس في منصب الدكتاتور، قام أولاً بتعيين لوشيوس مينوشيوس Lucius Minucius[١٣] قائداً للخيّالة، ثم طلب من مجلس الشيوخ الإذن لنفسه بأن يوجّه القتال في الميدان وهو ممتط حصانه. وهو ما كان محظوراً على القواد العسكريين الرومان بمقتضى قانون قديم. إمّا لأنهم يضعون كل قوتهم في مشاتهم، فيبقون قوّادهم العامّين معهم. وإمّا ليُذكر القوّاد دائماً أنه مهما بلغت سلطتهم من الرفعة فالشعب ومجلس الشيوخ ما زالوا أسيادهم، ومنهم يتلقون الأوامر والأذون. وعلى أية حال ففابيوس عَمد إلى إحاطة نفسه بفصل كاملٍ من الكتور قوامه أربعة وعشرون يلازمونه بمثابة حرس شخصي ليجعل سلطة واجبِه أكثر ظهوراً وبروزاً، والشعب أكثر خضوعاً وطاعة. وعندما يأتي القنصل الباقي لزيارته يبعث يطلب منه صرف حرسه، مع «فاجيانهم» أي سلاحهم أي أن يتجرّد من مظهر السلطة ليظهر أمامه شخصاً عادياً.

وأول عملٍ هامّ قام به بعد تولّيه منصب الدكتاتور كان عملاً دينياً منسجماً تماماً مع الوضع: فقد أصدر بياناً تأنيبياً للشعب ذكر فيه أن هزيمتهم الأخيرة لم يكن سببها افتقار جنودهم إلى الشجاعة بل إلى إهمالهم شعائرهم الدينية عموماً. وحثّهم على أن يطرحوا كلّ خوفٍ من العدوّ. ولم يفعل ذلك بقصد إشغال عقولهم بالأوهام بل لرفع معنوياتهم واستخدام الشعور الديني لبثّ الشجاعة في نفوسهم وتقليل خوفهم من العدوّ، والإيحاء إليهم بأن السماء تقف في صفّهم. وعلى هذا الأساس قرّر استخارة النبوءات السريّة المعروفة بـ«كتب كيبيل»، فوجد فيها على ما قيل مختلف النبوءات التي تشير إلى أحداث الزمن وتقلّبات حظوظه، المقبلة ولكن يحرم عليه أن يكشفها للناس.

ومن ثمّ خرج الدكتاتور إلى الشعب ونذر أمامهم قُرباناً، يقدّم فيه كل نتاج الموسم

---

(١٢) لا يمكن لأحد أن يتولّى سلطات الدكتاتور أو يُمنح هذا اللقب غير القنصل. ولما كان القنصل الباقي سرفيليوس على رأس جيشه فقد قام الرومان بتعيين فابيوس نائباً للدكتاتور [Prodictator] بمبادأة خاصّة وسلطان. وتجلّى عرفان روما للجميل أنهم سمحوا لذرّيته من بعده بوضع لقب دكتاتور بدلاً من برودكتاتور ضمن قائمة ألقابه [ليفي ٢٢: ٨ و٣١].

(١٣) پوليبيوس وليفي [المرجعان السالفان] يثبتان اسمه ماركوس مينوشيوس روفوس Marcus Minucius Rufus. ولم يعيّنه فابيوس بل اختاره العموم.

القادم في إيطاليا كلها، من بقرٍ وماعزٍ وغنم وخنازير في الجبال والسهول. وتعهد بإقامة الاحتفالات والمهرجانات الموسيقية على أن ينفق عليها مبلغ حُدّد بـ٣٣٣ سِسْترتيا Sestertia و٣٣٣ ديناريوس وثلث ديناريوس[١٤] لا غير، وهو يعادل بعملتنا ٨٣٥٨٣ دراخما وأوبولين. ويصعب علينا معرفة السرّ في تحديد المبلغ بهذا الرقم، إلاّ إذا كان إكراماً للعدد «٣» لأنه أول الأعداد الوترية، وأول رقم يحوي بذات نفسه مصدراً للأعداد، وبكلّ الصفات التي تعود للأعداد عموماً.

وبهذه الوسيلة نفخ فابيوس في قلوب الشعب آمالاً جديدة في المستقبل إذ جعلهم يوقنون أن الأرباب تقف إلى صفّهم. أما هو فقد وضع ثقته في نفسه فحسب، مؤمناً بأن الآلهة لن تمنح النصر، وتنعم بالسعد، إلاّ لمن يتحلّى بالبسالة وبُعد النظر. وعلى هذا الأساس انطلق فابيوس لمناجزة هنيبعل لا بنيّة التحرّش به وجرّه إلى معركة، بل بقصد إضعافه وإتعابه بمرور الزمن. وكسب عنصر التفوّق العددي والمادّي ومقابلته القلّة بالكثرة، فكان يعسكر دائماً في الأراضي المرتفعة لئلا تطاله خيّالة العدوّ ويلاحقه بدون هوادة ولا يدعه يغيب عن نظره، فإن سار لحق به وإن عسكر فعل مثله مع محافظته على مسافة كافية بينهما حتى لا يضطره خصمه إلى خوض معركة. متخيّراً دائماً المرتفعات ليأمن صولة الفرسان. وهكذا لم يدع للعدوّ لحظة واحدة من الراحة وأبقاه دوماً في حالة إنذار.

وأثارت خطة التأخير هذه في معسكر فابيوس شكّاً في إقدامه. وكان هذا الشكّ في معسكر هنيبعل أكثر منه عند الرومان إلاّ أن هنيبعل كان الرجل الوحيد الذي لم تنطل عليه الحيلة ولم تفته براعة الخصم وخطته السوقية. ولقد أدرك أن القرطاجينيين لن يتمكنوا من استخدام سلاحهم المتفوّق إلاّ إذا أفلح في استدراج الجيش الروماني أو اضطره إلى خوض معركة، وأن قواهم ستتناقص باطّراد وستشحّ أرزاقهم بالتدريج ولن ينالوا من عدوّهم فتيلاً. فعزم على أن يحبط تدابيره هذه بكلّ ما أوتي من حيل ومراوغة حربية. وان يستدرجه إلى اشتباك، مثل مصارع عظيم الدهاء، يرصد كل فرصة لينال مسكة جيدة والتحاماً وثيقاً من خصمه. فمرةً كان يهاجم، ومرة كان يحاول صرف انتباهه، وإبعاده إلى مختلف الجهات، مجاهداً بكلّ وسيلة لاغرائه بالتخلّي عن خطته

---

(١٤) الديناريوس عملةٌ تساوي الدراخما ويعادل أربعة سيستيرتي Sestertii وبذلك يكون مجموع السيستيرتي ١/٣ ٣٣٤,٣٣٣، وبتحويله إلى دراخما يصبح ١/٣ ٨٣٥٨٣ وهو ما يتفق مع النص.

المأمونة. ولم يكن لكلّ هذه الحيل أي تأثير على تصميم الدكتاتور، وإصراره. إلاّ أن الجندي البسيط لم يكن يرى في خطة فابيوس طعماً أو جدوى. بل تعدّى هذا الاستحفاف إلى آمر الخيّالة نفسه، فمينوشيوس التوّاق إلى قتال مُبتسر، الجريء الواثق من نفسه كان قبلة أنظار الجنود، وقد عمد هو نفسه إلى بثّ الحماسة الهوجاء في نفوسهم وملئها بالآمال الجوفاء التي كانوا ينفسّون عنها بتوجيه قارص اللوم، إلى فابيوس. وأطلقوا عليه لقب «مرافق هنيبعل»(١٥) لأنه لم يكن يفعل شيئاً خلا متابعته غدوةً ورواحاً والقيام بانتظاره. ثم راحوا يعلنون قائلين إن مينوشيوس هو القائد الوحيد الذي يليق بقيادة الرومان، وهذا ما ملأه فخراً، وإعجاباً بنفسه حتى أخذ يتطاول ساخراً من اختيار فابيوس معسكرات جيشه في شعاب الجبال، قائلاً إنه ليُجلسهم فيها كأنما هم في ملعبٍ مدرج، ليشهدوا منها النيران تأتي على بلادهم والدّمار يعمّها. وفي بعض الأحيان كان يسأل أصدقاء فابيوس: هل يقصد صاحبهم بنقلهم من جبلٍ إلى آخر، أن يرتفع بهم إلى السماء بالأخير لعدم وجود أمل لهم في الأرض؟ أم يقصد إخفاءهم في طيّات السحب عن جيش هنيبعل؟ فينقل أصحابه الحديث إلى الدكتاتور ويحاولون إقناعه بضرورة الاشتباك بالعدوّ اجتناباً للاستنكار العام. فيجيبهم بقوله: «لأكوننّ أجبن مما يصوّرونني لو أني تخلّيت عن فكرتي الخاصّة خوفاً من ملامتهم التافهة. ولست أجد عيباً في أن يتملّك المرء خوفٌ على سلامة بلاده؛ لكن من يحيد عن السبيل الذي أعتزمه نزولاً عند رأي آخر، أو خشية توجيه اللوم إليه، أو خوف إساءة فهم مقاصده، فهذا غير جدير بمنصبٍ كمنصبي. وبسلوكه هذا يجعل من نفسه عبداً رقيقاً لأولئك الذي كان واجبه تصحيح أخطاءهم وتقويم اعوجاجهم».

ثم سرعان ما ارتكب هنيبعل خطأ كبيراً. أراد أن تستجمّ خيول جيشه في أراضٍ جيدة المرعى، والابتعاد بجيشه إلى مسافة تخرجه عن رقابة خصمه، فأمر أدلاّءه بأخذه إلى إقليم كاسينوم Casinum(١٦) وأوهمهم سوء نطقه بالاسم أنه يريد كاسيلينوم

---

(١٥) ذلك لأن وظيفة البيداكوكي منذ القديم وكما يدل عليه الاسم هو رعاية الأطفال في نزهاتهم القصيرة والعودة بهم إلى البيت.

(١٦) اجتاح هنيبعل سافينوم واكتسح إقليم بينيڤنتم وهو مستوطنة رومانية وألقى الحصار على تيليسيا وهي مدينة تقع على سفح جبال الإبنين. لكنه وجد أن عملياته هذه لم تفد في حمل فابيوس على تغيير خطته. فقرر استخدام طعم أكثر إغراء وهو دخول كامپانيا أخصب سهول إيطاليا واجتياحه أمام سمعه وبصره لعلّ ذلك يدفعه إلى الاشتباك في معركة. كما أن احتلال كاسينم سيحول دون إرسال فابيوس نجدات لحلفائه. إلاّ أن الخطأ الذي نوّه به پلوتارخ في النص جعل =

Casilinum التي يمرّ من وسطها نهر لوثرونوس Lothronus (يطلق عليه الرومان اسم فُلتورنوس Volturnus) وكانت أراضيها تكتنفها الجبال وليس من منفذ فيها غير الوادي الذي يجري فيه هذا النهر إلى البحر فيصبّ في ساحل وعرٍ جداً غير مأمون، مخلّفاً وراءه أراضي سبخة كثيرة المستنقعات وضفافاً رملية عميقة الغور. وتمكن فابيوس لمعرفته بالمسالك والطرق من الاستدارة بجيشه والوصول إلى المنطقة قبل هنيبعل، ووضع نخبة من فرقة قوامها أربعة آلاف مقاتل في مدخل الوادي وأقفله. ثم تمركزت بقية الجيش في التلال المجاورة، واتخذت مواقع مستحكمة. وانتقى وحدة تحمل أخفّ الأسلحة وأرسلها لمهاجمة مؤخرة هنيبعل، وكان نجاحها كبيراً فقد عزلت ثمانمائة من رجاله وأوقعت الفوضى في كل جيشه. ولما أدرك هنيبعل غلطته، وتبيّن الخطر الذي أحدق به أمر بالأدلاء فصُلبوا حالاً، ونظر فرأى العدوّ يحتلّ أفضل المواقع وأمنعها وأن الأمل باختراق جبهته معدوم، في حين أخذ الرعب واليأس يتسرّبان إلى نفوس جنوده وسرى الاعتقاد فيهم بأنهم محاطون بطوق محكم يصعب جداً الخلاص منه.

إلاّ أن هنيبعل لم يقنط في حالته هذه، ولجأ إلى حيلة بارعة. أمر بشدّ مشاعل في قرون ألفين من ثيران معسكره شَدّاً مُحكماً ثم أشعلها عند حلول الليل وأمر أن تساق الحيوانات نحو المرتفعات المشرفة على الممرّ في بطن الوادي، ونحو مواقع العدوّ. وجعل جيشه يسير الهوينا في الظلام خلف قطعان الثيران. وكانت الماشية في مبدأ الأمر تسير بخطى منتظمة بطيئة وتبدو والمشاعل في رؤوسها أشبه بجيش يزحف في الليل، وتثير الدهشة والعجب في نفوس الرعاة وأصحاب المواشي في التلول المجاورة. وعندما بلغت النار جذور قرونها جُنَّ جنونها وراحت تعدو هائجة وقد أعماها الألم وتفرّقت شذر مذر تهزّ رؤوسها هزّاً عنيفاً فتنتشر النار حواليها وتشعل اللهيب في الأشجار التي تمرق من بينها. وكان منظراً مفاجئاً لفصائل الحراسة الرومانية على المرتفعات. عندما رأوا اللهب الذي رأوه كأن مصدره رجال يزحفون بالمشاعل شاع القلق فيهم معتقدين بأن العدوّ يتقدم نحوهم من عدة جهات وأنهم مطوّقون.

= أدلاّءه يأخذونه لا إلى سهول كاسينُم بل إلى خانق كاسيلينوم Casilinum الضيّق الذي يفصل سافينوم عن كامپانيا. ويخبرنا ليڤي (٢٢ : ١٣) أن رئيس الأدلاّء جُلد وصُلب فحسب وهو أكثر احتمالاً لأن هنيبعل لم يؤثر عنه التسرّع والاسترسال في الحنق إلى حَدّ السخف وحرمان نفسه من خدمات الأدلاّء الآخرين.

فتركوا مواقعهم وخلّفوا الممرّ وأسرعوا يلوذون بمعسكرهم على التلال. وما إن تمّ انسحابهم حتّى قامت وحدات مشاة هنيبعل الخفيفة حسب أوامره باحتلال المرتفعات، وبعد زمن وجيز وصل الجيش كلّه بأثقاله وسار مجتازاً الممّر آمناً.

قبل أن يمضي الليل كلّه اكتشف فابيوس الخدعة إذ وقع بيده واحدٌ من تلك الثيران، وأبقى جنوده طوال الليل مستعدين بسلاحهم خشية من كمينٍ في الظلام. وما إن انبلج الصبح حتى شرع في مهاجمة مؤخّرة العدوّ وكادت الاشتباكات التي حصلت جرّاء ذلك في الأراضي الوعرة توقع الخلل والفوضى العامة في جيش هنيبعل لو لم يفصل من مقدمة جيشه وحدة إسبانيّة، اشتهر رجالها بمهارتهم في تسلّق الجبال فضلاً عن خفّتهم وسرعة حركتهم. فاندفعوا نحو الجنود الرومانيين ذوي السلاح الثقيل وقتلوا منهم عدداً كبيراً وبذلك أعجزوا فابيوس عن استمراره في مطاردتهم وأجبروه على التوقف. وهذا ما أدّى إلى السخط الشديد على الدكتاتور وازدياد السخرية به وقالوا: لقد غدا الآن جلياً أن نقصه عن خصمه لا يقتصر على الشجاعة والإقدام فحسب، بل على بُعد النظر وأصالة الرأي وحسن القيادة وهي المزايا التي وعد أن يُنهي بها الحرب.

وعمد هنيبعل إلى رفع سخطهم عليه بزحفه إلى المناطق القريبة من ممتلكات فابيوس الخاصة وأراضيه وأمر فعاث جيشه حرقاً وتدميراً بكلّ ما يحيط بها، محذراً إياهم أن يمسّوا أملاك خصمه بأدنى ضرر، بل وضع حرساً عليها، فكان تأثير عمله على الجمهور الروماني كما توقّع ونُقلت أنباؤه إلى روما. فأشاع التريبيونات عليه آلاف الحكايات المخزية، بتحريك وتحريض من ميتيليوس Metilius خاصّةً، ولم يقم بهذا مدفوعاً بحقده على فابيوس قدر ما كان بدافع صداقته لقريبه مينوشيوس. إذ كان يعتقد أن الحطّ من سُمعة فابيوس سيرفع من شأن صديقه. وكان مجلس الشيوخ مستاءً من فابيوس أيضاً للاتفاق الذي عقده مع هنيبعل على تبادل الأسرى، وكانت الشروط تنصّ على أن الفريق الذي يبقى له عدد من الأسرى بعد عملية تبادل رجل برجل فإنه يُفتدى بمبلغ مائتين وخمسين[17] دراخما للرأس الواحد. وعلى هذا بقي مائتان وأربعون رومانياً بعد التصفية. ولم يكتف مجلس الشيوخ برفضه المصادقة على مبلغ الفدية بل

---

(١٧) ليڤي (٢٢:٢٣) يصف هذه العملية بـ Ardenti Pondo bina et Selibras in militem ومن هذا صرنا نعلم أن الپوندو Pound الروماني يعادل وزناً مائة دراخما يونانية أو (مينا) واحدة. إن عدد فضالة الأسرى الرومان هو ٢٤٧ بحسب زعم ليڤي. ومع هذا فإنه يختلف عن پلوتارخ في قول الأخير إن مجلس الشيوخ أبى دفع فديتهم. فيقول إنما أجّل الدفع فحسب.

وجّه اللوّم لفابيوس على الاتفاق باعتباره غير لائق بشرف الجمهورية ولا متفقاً مع مصلحتها. لأن هذا من شأنه افتداء رجالٍ أوقعهم جُبنُهُ في قبضة العدوّ. وسمع فابيوس كل هذا واحتمله بصبرٍ لا ينفد ولم يكن في حوزته مالٌ، كما أنه كان مصرّاً على الإيفاء بعهده لهنيبعل واستخلاص الأسرى، فبعث بابنه إلى روما ليبيع أرضاً له ويأتيه بثمنها الكافي للفدية. ففعل ابنه ما أمر به ودُفعت الفدية وسُلِّمَ الأسرى الذين أبدى معظمهم استعداده لدفعِ نصيبه من الفدية إلى فابيوس فرفض العروض رفضاً باتّاً.

وفي حدود ذلك الزمن استدعاه الكهنة إلى روما للمشاركة في قُربان معيّن، بمقتضى واجبات وظيفته، فاضطر إلى إيداع قيادة الجيش إلى مينوشيوس. وقبل أن يرحل لم يكتف بمعاملته معاملة القائد العام بل أخذ يرجوه متوسّلاً بألاّ يشتبك في معركة مع هنيبعل أثناء غيابه. لكن أوامره ورجاءه ونصحه ضاعت كلها في مينوشيوس إذ ما إن ولاّه ظهره حتى بدأ يبحث عن فرص لمهاجمة هنيبعل. ووردت إليه أنباء عن إرسال العدوّ جماعات كبيرة للنهب والسلب فلاحق فصيلة منها وأوقع بها مقتلة عظيمة وطرد البقية إلى معسكراتها مشيعاً الرعب في الآخرين الذين أحسّوا بوطأة العدوّ حين اخترق صفوفهم. إلاّ أن هنيبعل عندما سحب كل قواته المتفرّقة إلى داخل المعسكر قام مينوشيوس بتقهقر منظم دون أن تلحقه خسارة[١٨]. وكان نجاحاً زاد من خُيَلائه وتهوّره، وملأ جنوده بثقة عالية مندفعة. وانتشرت الأنباء في رومه. وقال فابيوس عندما أُبلغ بذلك إن أخوف ما يخافه هو نجاح مينوشيوس. إلاّ أن حماسة الشعب كانت عظيمة، دفعت بهم مسرعين إلى الفورم ليستمعوا إلى خطاب التريبيون ميتيليوس الذي مدح فيه مينوشيوس وأشاد ببسالته، وبلغ بها أعلى علّيين وهاجم فابيوس هجوماً عنيفاً واتهمه لا بالافتقار إلى الشجاعة وحدها، وإنما إلى الإخلاص أيضاً، وليس هو وحده بل كثير من الرجال البارزين وعظمائهم. قائلاً إن هؤلاء هم الذين جاؤوا بالقرطاجنيين إلى ايطاليا، وغايتهم سحق حرية الشعب واستقلاله، ولهذا السبب بادروا فوراً إلى وضع السلطة العليا في يد شخصٍ واحدٍ، قد يُعطي بطؤه وتأخّره وقتاً كافياً لهنيبعل حتى يسيطر على إيطاليا، ويمنح أهل قرطاجنة الوقت والفرص لإمداده بنجدات جديدة حتى يُكمل فتوحه.

وتقدم فابيوس إلى المنبر وليس في نيّته الردّ على التريبيون، وإنما ليقول فحسب:

---

(١٨) عن ليفي (٢٢: ٢٤) أنه خسر خمسة آلاف، بينما لم تكن خسارة العدو تزيد عن هذا بأكثر من ألفٍ.

إنه يلزم الاستعجال في تقديم القربان ليسرع في العودة إلى الجيش ومعاقبة مينوشيوس الذي عمد إلى القتال خلافاً لأوامره. فملأت كلماته نفوس السامعين بالاعتقاد بأن حياة مينوشيوس هي في خطر لأن الحكم بالموت والسجن هما من سلطات الدكتاتور، ولأنهم كانوا يخافون أن يكون فابيوس الوديع الخلق عادةً صعب التهدئة عند استشارته، قدر ما كان يصعب إثارته. ولم يجسر أحد على رفع صوته بالاحتجاج، إلاّ ميتيليوس الذي كان منصبه يمنحه الحصانة ليقول ما يشاء (في فترة سيادة الحكم الدكتاتوري تبقى لهذه الحاكمية سلطتها ولا تُلغى) فقد أبدى للشعب جرأة مدافعاً عن مينوشيوس، مستصرخاً الجمهور بألاّ يعمل فيه قرباناً لعداوة فابيوس، ولا يسمح بالقضاء عليه مثل ابن مانيليوس توركواتوس Manlius Torquatus(*) الذي احتزّ ابوه رأسه لنصرٍ قاتل في سبيله وربح معركته، خلافاً لأوامره مع أنه تكلل بالغار. وأخذ يحثهمّ على سحب السلطات الدكتاتورية من فابيوس، ووضعها في يدٍ أجدر وأقدر وأكثر استعداداً لاستخدامها في مصلحة البلاد. ومع أن هذه الملاحظات خلّفت في النفوس تأثيراً كبيراً فإنها لم تبلغ حَدّ عزل فابيوس من منصب الدكتاتور، لكنهم رسموا أن يكون لمينوشيوس سلطة معادلة لسلطة الدكتاتور في إدارة دفّة الحرب. ولم يكن لهذا سابقة في حينه(١٩)، إلاّ أنه طُبّق بعد زمن قليل على الهزيمة في كاني Cannae. فعندما كان الدكتاتور ماركوس جونيوس يقود الجيش اختاروا في روما فابيوس بوتيو Fabius Buteo دكتاتوراً، ليعيّن شيوخاً جدداً يأخذون أمكنة الشيوخ العديدين الذين قُتلوا. ولكن ما إن أكمل ملء الشواغر بالعدد الكافي، وبصورة علنية، حتى استغنى عن حرسه من اللكتور وانسحب مع كل بطانته ومضى في تصريف أعمالهُ في الفورم بكلّ هدوء مختلطاً بالناس كأي فردٍ بسيطٍ.

وظنّ أعداء فابيوس أنهم حقّروه وسحقوا كبرياءه سحقاً كافياً برفع مينوشيوس إلى درجة مساوية له في السلطان. إلاّ أنهم أخطأوا وجهلوا خُلق الرجل. فلم يعتبر حملتهم هذه خسارة له. بل كان مثل ديوجينس الذي قيل له إن بعضهم «يهزأون منه» فأجاب: «لكني لست مهزأة» وقصده من هذا أن المهانين حقاً هم أولئك الذين تُحدث الإهانة فيهم أثراً. وهكذا كان الحال مع فابيوس فقد رضخ بهدوء عظيم وعدم مبالاة لما وقع.

(*) خالف الابن الأمر القنصلي واشتبك مع العدو الأثيني في نزال فردي، في المعركة الكبرى على مقدّمة جبل شيزوفيوس ٣٤٠ ق.م.

(١٩) يخبرنا ليفي برن مقترح المرسوم هو ترنتيوس ڤارو، الذي ساءت سمعته كثيراً بهزيمته في كاني.

وقدّم برهاناً للفكرة الفلسفية وهي أن الإنسان الصالح المستقيم غير قابل للتحقير. على أن حنقه الوحيد كان متأتّياً من خوفه أن يؤدّي هذا القرار الأخرق إلى خسارة قضية البلاد، بإتاحة الفرصة لمرض الطموح العسكري المزمن في مرؤوسه. ولكيلا يؤدّي تهوّر مينوشيوس إلى تورّطه في مأزق عاد إلى الجيش بأقصى السرعة وأتمّ السرّية. فوجد مينوشيوس مزهوّاً مرتفع المعنوية بمنصبه الجديد، حتى أنه لم يرض بالسلطة المشتركة وطلب أن تكون قيادة الجيش العامة بالمناوبة، يومٌ له ويوم لفابيوس. فرفض فابيوس طلبه واقترح قسمة قطعات الجيش وعلّته في هذا أن القائد المنفرد أقدر على قيادة قطعاته العسكرية الخاصة. وبهذا تسلّم الفرقتين الأولى والرابعة، واختص مينوشيوس بالفرقتين الثانية والثالثة، وقَسَما القوات الاحتياطية بينهما بالتساوي.

وبالتعظيم الذي ناله مينوشيوس لم يعد يصبر عن التباهي بنصره، عن طريق الازدراء بالمنصب الرفيع والسلطان القوى الذي يُعطيه منصب الدكتاتور. وذكّره فابيوس بأناةٍ ولينٍ أن الخصم الذي يقارعه هو هنيبعل لا فابيوس، ولكن إن قضت الضرورة عليه أن ينافس زميله فخير منافسه له هي في مثابرته واهتمامه بالمحافظة على روما لئلا يقال: رجل اصطفاه الشعب وخصّه بثقته كانت خدمته أسوأ وأقلّ شأناً من رجلٍ أساء الشعب معاملته وأذلّه.

ولكن القائد الشاب المستخفّ بهذا التأنيب، المزدري بالنصح باعتباره تواضع الشيخوخة الكاذب، ارتحل بقوّاته حالاً وعسكر وحده[٢٠]. ولم يكن هنيبعل غافلاً عن هذه الأحداث، وإنما ربض وأخذ يتحيّن فرصتهُ منها. واتفق أن كان بين جيشه وبين مينوشيوس نشزٌ من الأرض، بدا له موقعاً مفيداً يمكن إنشاء مواضع فيه، وكانت الحقول المحيطة به تبدو من بعيدٍ مستويةً متطامنة وإن ملأتها الوهاد والتضاريس الوعرة والوديان غير الظاهرة للعين. وكان من أسهل الأمور على هنيبعل حيازة هذه الأراضي لو شاء، إلاّ أنه أراد أن يجعلها طُعماً، أو فخاً يقتاد به الرومان إلى اشتباك في الموسم الملائم. فلما انفصل مينوشيوس عن فابيوس رأى الفرصة مؤاتية لغرضه، ولذلك عمد إلى وضع عددٍ كافٍ من جنوده في تلك المغاور والأخاديد ليلاً[٢١]، ثم أرسل في

(٢٠) هنا يختلف ليفي مع بلوتارخ اختلافاً جوهرياً بقوله إن الفرقتين الأولى والرابعة كانتا منوطتين بمينوشيوس في حين أُودعت قيادة الثانية والثالثة إلى فابيوس. على أن پوليپيوس يخالف الاثنين. هذا وقد كانت المسافة بين المعسكرين حوالي ألف وخمسمائة خطوة.

(٢١) خمسمائة فارس راجل (پوليپيوس ٣).

الصباح الباكر وحدة صغيرة تقدمت حتى أصبحت على مرأى من مينوشيوس وبدأت تحتلّ نشز الأرض. فابتلع مينوشيوس الطعم كما توقّع، ودفع أولاً بوحداته الخفيفة، ثم أتبعها ببعض الخيّالة لطرد العدوّ. وأخيراً لما شاهد هنيبعل بشخصه يزحف لمعاونة رجاله تقدم بنسق المعركة بكلّ قواته والتحم بالقوات المسيطرة على المرتفع وصمد لمقذوفاتهم، وظلّت المعركة زمناً متوازنة. ولكن ما إن تأكد هنيبعل أن الجيش العدوّ كلّه قد تقدّم مسافة كافية في تلك السهول الوعرة المتعادية ودخل في الفخاخ التي نصبها بحيث أصبح ظهره مكشوفاً لرجاله الكامنين في المغاور والأخاديد، حتى أعطى الإشارة فبرزوا من مخابئهم واندفعوا يهاجمون مؤخّرة مينوشيوس من كلّ جهةٍ وهم يصيحون صيحات مرعبة. وكانت المفاجأة عظيمة والمقتلة أعظم، وأصابت الجيش الروماني فوضى عامة واختلّت صفوفه. وفقد مينوشيوس ثقته بنفسه وأخذ ينقل أبصاره من ضابط إلى آخر، فوجد الجميع غير مستعدين لمواجهة الخطر على السواء وهم يميلون إلى الفرار، ولم يكن الفرار مأموناً كذلك، لأن الخيالة النوميديين Numidia كانوا قد انتشروا في أرجاء السهل يجرّون أذيال النصر، وهم يتعقّبون المنهزمين ويمزّقونهم تمزيقاً.

لم يكن فابيوس يجهل الخطر المحدق ببني قومه. وقد أدرك ماذا سيحدث جرّاء تهوّر مينوشيوس ومكر هنيبعل لذلك أبقى رجاله في حالة الإنذار وسلاحهم بأيديهم متأهبين لتعاقب الأحداث. كما أنه لم يضع ثقته في تقارير الآخرين وإنما راح يستطلع هو بنفسه كل ما حدث على رأس جيشه، فلما وجد جيش مينوشيوس يحيط به العدوّ وأن التنقلات الأرضية ومظاهر القتال تدلّ على أنهم أقرب إلى الهزيمة منهم للصمود ضرب منكبه بكفّه[٢٢] وأطلق تنهيدة عميقة وقال لمن حوله: «إيه يا هرقل! لكم كان مينوشيوس أسرع إلى تدمير نفسه مما توقّعت وإن بدا الأمر أبطا مما أراد هو!». ثم أمر حامل الراية بالتقدم إلى الأمام وسار الجيش خلفه، وهو في الطليعة يحثهم قائلاً: «علينا أن نسرع لإنقاذ مينوشيوس الباسل المحبّ لوطنه وإذا كان قد تعجّل في قتال الأعداء فستحدث إليه عن هذا في وقت آخر».

وهكذا صال فابيوس على العدوّ وهو في الطليعة وطهّر السهل من النوميديين أولاً، ثم انقضّ على الوحدات التي تهاجم مؤخّرة الرومان وأباد كل من وقف في سبيله

---

(٢٢) ينوّه هوميروس بعادة ضرب الفخذ بالكف في ساعة الخطر أو المفاجأة وبضرب الجبين بالكفّ بدلاً من الفخذ أحياناً.

وأجبر فلولها على التقهقر السريع إنقاذاً لحياتها ولئلا تكون حالها حال الرومان المطوّقين. ولما رأى هنيبعل رجحان الكفّة السريع، وفابيوس يشقّ طريقه صُعداً نحو المرتفع بين صفوف الجند، غير مبالٍ بالجهد الذي تتحمّله سنّه المتقدمة، وأنه قد يتمكن من الانضمام إلى مينوشيوس، نكص على أعقابه وأطلق بوق التقهقر وسحب قواته إلى معسكرهم، ولم يكن الرومان بأقل رغبة منهم في الارتداد سالمين. وقيل إن هنيبعل قال لأصدقائه متندّراً بهذه المناسبة: «ألم أقل لكم إن هذه السحابة[٢٣] التي كانت تحوّم دائماً فوق الجبل ستنقضّ علينا بعاصفةٍ، إن عاجلاً أو آجلاً؟».

وآب فابيوس إلى معسكره بعد أن جمع رجاله الأسلاب من ميدان القتال، دون أن يوجّه كلمة لوم أو عبارة قاسية لزميله. وجمع مينوشيوس أفراد جيشه معاً وخاطبهم بقوله:

«قيادة جيش عظيم بلا خطأ أمرٌ يفوق طاقة البشر، لكن التعلّم من الأخطاء والاتعاظ بها هو مما يليق بالرجل العاقل الصالح. قد تحملني أسبابٌ معيّنة على الشكوى من الأقدار لكن لديّ أسباب أكثر منها تحملني على شكرها، ففي ساعات معدودات أصلحت خطأً طويل اللبث مزمناً، وعلّمتني بأني غير جدير بقيادة الآخرين، بل محتاجٌ إلى أن يقودني الآخرون. كما علّمتني بألاّ نحاول التفوّق على من كان العمل برأيهم فائدة لنا. لذلك سيكون الدكتاتور قائداً لكم في كل الأمور، أمّا أنا فبقائي على رأسكم الآن يحدوني إليه إظهار امتناني له ليس إلاّ، ولأكون أول من يطيع أمره».

وبعد أن فرغ من كلامه أصدر أمراً بتقدم كل النسور الرومانية وأن يتبعه كل رجال جيشه إلى معسكر فابيوس. وجمد الجنود ذاهلين لطرافة المنظر عندما دخل، وعلتهم الحيرة والشك في الغرض من هذه المظاهرة، ولما دنا من خيمة الدكتاتور خرج هذا لاستقباله، فأسرع مينوشيوس وألقى براياته تحت قدميه منادياً إياه بيا أبي! بصوت مرتفع. بينما حيّا جنوده زملاءهم في المعسكر كما يحيّون الأسياد المحسنين وهي التحية الواجبة على العبيد المعتوقين لأولئك الذين أنالوهم حريتهم. وبعد أن هدأت الضجة وساد الصمت أنشأ مينوشيوس يقول:

«لقد أحرزت أيها الدكتاتور نصرين في هذا اليوم، أحدهما نصر على هنيبعل

---

(٢٣) يورد ليفي قول فابيوس بهذا النص: Non Celerius Quam Timui, Depehemdit Fortun a Temeritatem.

وكان سبيلك إليه بسألتُك وحنكتُك، والنصر الثاني على زميلك، وكان سبيلك إليه حكمتك وطيبتك. بالنصر الأول أنقذتنا وبالنصر الثاني ثقّفتنا. وعندما كان يجلّلنا عار الهزيمة على يد هنيبعل جاءت هزيمة أخرى له على يدك فأعادت إلينا شرفنا وسلمت أرواحنا. وإني لا أجد اسماً أناديك به أعزّ وأنبل من اسم الأب المشفق. وان كانت بركة الأب لا تداني ما حبوتني به. من أبٍ ظفرت وحدي بنعمة الحياة. وإليك أنا مدين ليس بها وحدها بل بحياة كل من هم تحت إمرتي».

ثم إنه ألقى نفسه بين ذراعي الدكتاتور. وفعل أفراد الجيش كذلك بعضهم ببعض وهم مسرورون والدموع تجول في أعينهم.

لم يمرّ طويل زمن على هذا حتى اعتزل فابيوس منصب الدكتاتور وأعاد الحكم للقناصل[٢٤]. وطبّق من خلفه أسلوبه في إدارة الحرب. واجتنبوا كلّ التحامٍ بهنيبعل في معركة فاصلة. وقصروا مجهودهم على إمداد حلفائهم بالمساعدات، والمحافظة على المدن والحيلولة دون سقوطها بيد الأعداء. ثم تولّى القنصليّة تيرنيتوس ڤارو Ternitius Varro[٢٥] بعد زمن، وهو رجلٌ مجهول النسب خامله، إلاّ أنه جريء مقدام يتمتّع بشعبية كبيرة، وبدا واضحاً أنه مزمع على توريط البلاد كلها في مخاطر جسيمة بتهوّره وجهله. فقد راح يوالي الخطب في المجالس قائلاً: ما دامت روما تعهد بقيادة جيوشها إلى أمثال فابيوس فلن تكون للحرب نهاية. وأخذ يتبجّح بقوله إنه سيحرّر أرض إيطاليا من قبضة الأجنبي في اليوم الذي يقع نظره على العدوّ. وبهذه الوعود التي بذلها ونادى بها أمكنه أن يعبّئ أعظم جيشٍ جرّدته روما لقتالٍ. فقد جنّد فيه ثمانية وثمانين ألف مقاتل[٢٦]. إلاّ أن ما كان يوحي بالثقة لعامة الشعب كان من جهة أخرى يصيب العقلاء

---

(٢٤) ليڤي (٢٢: ٣٢) استعفى فابيوس من منصب الدكتاتور بعد انقضاء الأشهر الستة وسلّم القيادة إلى قنصلي تلك السنة سرڤيوس وأتيليوس. والأخير حلّ محل فلامينيوس الذي صرع في ثراسيمي. وپلوتارخ يقتفي خطى پوليبيوس في سرد هذه الاحداث.

(٢٥) ابن قصّاب، ورث مهنة أبيه في شبابه لكنه اغتنى فعاف حرفته الحقيرة واستجلب قلوب الجمهور بدعم أكثر التريبيونات فوضويةً وحبّاً للشغب وبهذا الأسلوب وصل إلى منصب القنصلية (ليڤي ٢٢: ٢٦).

(٢٦) جرى العُرف الروماني على تجنيد أربع فرق عسكرية كل سنة. في الأوقات العصيبة والأزمات تؤلف الفرقة الواحدة من خمسة آلاف راجلٍ روماني وثلاثمائة فارس وكتيبة لاتينية واحدة بعدد متساوٍ من المشاة وضعف العدد من الخيالة. ويبلغ المجموع الكلي لقوة هذه الفرق البشرية =

المجرّبين بالرعب وليس فيهم أكثر خوفاً من فابيوس. فلو قُدّر لهذا العدد الضخم من زهرة شباب الرومان أن يُباد في القتال لضاع كلّ أمل في سلامة روما، إذ لا احتياطيّ آخر لها غيره. وعلى هذا الأساس راجعوا القنصل الثاني أيميليوس پاولوس Aemilius Paulus وهو رجل ذو تجارب عظيمة في الشؤون الحربية إلاّ أنه لا يتمتّع بشعبية، فضلاً عن شدّة خوف فيه من الجماهير، تولّد عن إدانتها له لمخالفةٍ ما ارتكبها[٢٧] فحكم، ولذلك كان بحاجةٍ إلى التشجيع ليحدّ من اندفاع زميله الأهوج. قال له فابيوس:

«إن شئت أن تؤدّي إلى بلادك خدمة نصوحاً وتكون نافعاً لها فعليك أن لا تكون أقلّ معارضةً لاندفاع ڤارو الأحمق من يقظة هنيبعل المستوفزة. لأن كلاهما اتفقا على تقرير مصير روما بمعركةٍ حربيةٍ. والأجدر بك والأقرب إلى العقل أن تصدّقني أكثر مما تصدق ڤارو في كل ما يتعلق بهنيبعل، عندما أقول لك: إنه إذا امتنعت خلال هذا العام عن قتاله، فإما سيهلك جيشه من تلقاء نفسه، وإمّا سيكون مسروراً للرحيل بمحض اختياره. ويظهر هذا بجلاء من نفور البلاد والمدن الإيطالية كلها من محالفته، وأن جيشه الآن يكاد لا يبلغ ثلث ما كان عند أول مجيئه. ودعك من كل الانتصارات التي أحرزها».

فأجاب پاولوس على هذا (كما ذكر بعضهم):

«لو أني أخذت شخصي فحسب بنظر الاعتبار لفضّلت تعريض صدري لأسلحة هنيبعل عن تعريضه مرّة أخرى لقضاء بني قومي الذين هم شديدو الرغبة فيما لا توافقون عليه. ومع هذا، ومادام مصير روما في كفّة القدر، فالأحرى بشخصي وخُلقي أن أرضي وأطيع فابيوس ولو اجتمع عليّ الثقلان والعالم كله».

هذه التدابير السديدة هزمتها لجاجة ڤارو وتسرّعه. فعندما خرج القنصلان معاً

= ٤٣٠٠٠ مقاتل. إلاّ أنهم جنّدوا بهذه المناسبة ثماني فرق بدلاً من أربع. أمّا ليڤي فيكتفي بالقول إن القوات المجنّدة كانت ضخمة جداً.

(٢٧) كان هو وأخوه قد حققا نصراً على الألليريين وأخضعاهم لكنهما اتهما بالتحيّز في تقسيم الغنائم، أو كما يقول أوريليوس ڤكتور باختلاس الأموال العامّة. وثبت عليهما ذلك وفُرضت عليهما غرامة كبيرة وكانت غرامة أميليوس أقلّ (ليڤي ٢٢: ٣٥).

لتسلّم قيادة الجيش لم يُتوصّل إلى حَلّ غير القيادة المنفصلة أي أنّ كل قنصل يتناوب القيادة يوماً[٢٨].

وبحلول يوم ڤارو في القيادة اختار موضع الجيش بمواجهة هنيبعل في قرية تدعى كانيّ Cannae[٢٩] بالقرب من نهر أوفيدس Aufidus. وانتهز أول يوم آخر لقيادته فنشر العباءة القرمزية فوق خيمته وهي إشارة المعركة. وأفزعت القرطاجنيين تلك الجرأة، وتفوّق العدوّ العددي الذي ناهز الضعف. إلاّ أن هنيبعل أمر بالتأهّب واعتداد السلاح وخرج مع بطانة قليلة للاستطلاع ومتابعة تحرّكات العدوّ وهو ينظّم صفوفه للمعركة من مرتفعٍ لا يبعد كثيراً عنهم. وانبرى غيسكو Gisco القرطاجني (وهو من أتباعه المساوين لَه في المقام) يقول: «إن عدد جيش العدوّ مدهش» فأجابه هنيبعل بلهجة جدٍّ لا أثر فيها للمزاح: «هناك يا غيسكو شيء واحدٌ أدعى إلى الدهشة، غاب عن ملاحظتك». ولما سأله غيسكو عَمّا هو؟ قال: «في كلّ هذه الجموع الزاخرة أمامنا لايوجد شخص واحدٌ اسمه غيسكو». وأغرقت السرّية كلها في الضحك لهذه المزحة غير المنتظرة من قائدهم. وعندما هبطوا من المرتفع ونقلوها لمن لقوه فكان الضحك عاماً متواصلاً، لا قبل لهم بوقفه، ولما شاهد الجيشُ حاشية هنيبعل تعود من مهمة الاستطلاع وهي مغرقة في الضحك والمزاح، استنتج أنه دليل على الازدراء العميق بالعدوّ، وأن ضعفه هو الذي جعل قائدهم في تلك الساعة منشرح المزاج.

وكعادة هنيبعل، لجأ إلى الحيلة والستراتيج للإفادة من الموقف. ففي المقام الأول نظم صفوف رجاله بحيث يكون مهبّ الريح[٣٠] من خلفهم. وكان اتجاهها في ذلك الوقت نحو الانقلاب إلى عاصفة هوجاء تامة تكتسح السهول الرملية العظيمة وتحمل

---

(٢٨) يقع پلوتارخ في خطأ. فقد كانت القاعدة الأصولية عند الرومان أن القناصل يتناوبون قيادة الجيش أثناء ما يكون الاثنان في الواجب عينه (پوليبيوس: ٣).

(٢٩) يقول ليڤي واپيان وفلورس إن كانيّ هي قرية حقيرة خاملة اشتهرت للمعركة التي جرت قريباً منها. إلاّ أن پوليبيوس الذي عاصر الحروب الفيونية يصفها بالمدينة قائلاً إنها دُمّرت قبل سنةٍ واحدة من اندحار الجيش الروماني. وفي هذا يوافقه سيليوس أيتالكوس. بعد ذلك أعيد بناؤها إذ إن پليني يصنّفها بين مدن أپوليا. وما تزال خرائبها شاخصة حتى يومنا هذا بالقرب من مدينة باري.

(٣٠) هذه الريح الحارة التي تهبّ من الشرق والجنوب يسمّيها ليڤي [٢٢:٤٦] ڤولتورنوس واسمها الحديث سيروكّو. ولما كان الجيش الروماني يواجه الجنوب فقد عانى منها الكثير وساءت حاله بها. والتأثير المعروف الذي تحدثه هو الخمول والضعف بدرجة كبيرة.

باندفاعها سحابة من الغبار فوق الجيش القرطاجنيّ وتلقي بحملها في وجوه الرومان، فتلحق بهم أذى عظيماً وتعوقهم في القتال كثيراً، وعمد في المقام الثاني إلى وضع خيرة رجاله في الجناحين. أما القلب فقد وضع فيه أسوأ وحدات جيشه وأضعفها. وأوصى الجناحين بتطبيق الخطة التالية: عندما يقوم العدوّ بهجوم كاسح على قلب الوحدات المتقدمة التي يعلم أنها ستتقهقر لعجزها عن احتمال الصدمة، وعندما يتقدم الرومان في مطاردتهم ويكونون مشتبكين بالقتال على مسافة كافية ما بين الجناحين، فعَلى الميمنة والميسرة أن تُطبقا من الجانبين عليهم، وتحاولا تطويقهم(٣١). ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس في خُسران الرومان. فقد ألقوا بكامل ثقلهم على قلب هنيبعل فتقهقر، فاستحال شكل جيشه إلى هلال كامل، ومنحوا فرصة نادرة لضبّاط القوات المختارة للهجوم عليهم من اليمين واليسار على الجناحين. وأوقعوا تقتيلاً وإبادةً بكلّ من لم يرتدّ إلى الخلف قبل أن يتصل جناحا القرطاجنيين في مؤخّرتهم. وإلى هذه الكارثة العامة قيل إن خطأ غريباً حصل عند قوّات الخيّالة قد ساهم فيها. فقد أصيب جواد أيميليوس بأذىً فرمح سيّده. فترجّل عدد من الفرسان المحيطين به حالاً لمعاونته. ولما رأى الجنود الرومان قادتهم يتركون خيلهم ظنوها إيعازاً لهم بالترجّل هم أيضاً والهجوم على العدوّ راجلين. وسُمع هنيبعل يقول وهو ينظر إلى المشهد: «إني لأعظم سروراً بهذا، مما لو جيء بهم إليّ مقيّدين أيادي وأرجلاً»(*). وعن تفاصيل هذه الموقعة نحيل قارئنا على أولئك الكتّاب الذين كتبوا عنها بتوسعٍ(٣٢).

وفرّ القنصل ڤارو إلى ڤينوسيا Venusi بشرذمةٍ من الأتباع. أما أيميليوس پاولوس، فبعد أن عجز تماماً عن إيقاف هزيمة رجاله، جلس على صخرة وجسمه كله تغطيه الجراح، وروحه لا تقلّ عن جسمه جراحاً متوقعاً أن يُرحم بضربة قاضية. وبلغ تشويه وجهه وكثرة الدماء التي تلطخه مبلغاً لم يعد معه معروفاً من أقرب أصدقائه وخدمه أثناء مرورهم به. وأخيراً عرفه الشاب الپاتريشي كورنيليوس لينتولوس

(٣١) يذكر ليڤي خطة أخرى لجأ إليها هنيبعل. فقد تظاهر خمسمائة من أفارقته النوميديين بالانضمام إلى صفوف الرومان إلاّ أنهم انقلبوا عليهم عند احتدام المعركة وهاجموا الجنود الرومان من الخلف.

(*) النص في ليڤي ٢: ٤٩: Quam Mallem vinetod mihi trodeset.

(٣٢) لاسيّما پوليبيوس وليڤي (٢٢: ٤٧-٤٩) الذي كان پلوتارخ يعتمده اعتماداً رئيساً. على أنهما لم ينجحا قط في إعطاء فكرة دقيقة واضحة عن الخطة التي اعتمدها هنيبعل في المعركة بصورة عامة.

Cornelius Lentulus فترجّل عن حصانه وعرضه عليه طالباً منه أن ينهض وينجو بحياته الضروريّة لسلامة البلاد، التي هي الآن في أمسّ الحاجة إلى قائد عظيم مثله. ولكن لم يثنه شيء عن عزمه أو يقنعه بقبول العرض ورجا الفتى لينتولوس والدموع تجول في عينيه أن يمتطي حصانه. ثم استوى قائماً ومدّ إليه يده مصافحاً وأمره أن يبلغ فابيوس ماكسيموس بأن أميليوس پاولوس قد اتّبع توصياته إلى النهاية ولم يحد قيد أنملة عن تلك الآراء التي تمّ التفاهم عليها بينهما. ولكن سوء حظّة جعل ڤارو يتغلّب عليه بالدرجة الأولى وهنيبعل بالدرجة الثانية. وبعد أن زوّد لينتولوس بتوصيته وصرفه، توجّه إلى مثار النقع حيث المعركة حامية الوطيس وألقى بنفسه على سيوف العدوّ. وقيل إن الرومان خسروا في هذه الموقعة خمسين ألف قتيل[٣٣]، وأربعة آلاف أسيرٍ استسلموا في ميدان القتال وعشرة آلاف أُخذوا في معسكري القنصلين.

وألحّ أصحاب هنيبعل لإقناعه باستثمار فوزه، ومطاردة الرومان المنهزمين حتى أبواب روما، مؤكدين له أن لن تمرّ عليه خمسة أيام إلاّ ويكون في الكاپيتول يتناول عشاءه. وليس من السهل التكهّن بالاعتبارات التي منعته من ذلك. وقد يبدو أنّ التدخّل الربّاني هو الذي سبّب التردد والإحجام الذي أبداه الآن، وحمل باركاس Barcas القرطاجني على أن يقول له ساخطاً: «إنك يا هنيبعل تعرف كيف تحرز النصر، إلاّ أنك لا تعرف كيف تفيد منه[٣٤]». على أن هذه الموقعة أحدثت تبدّلاً عجيباً في أموره. فقد

---

(٣٣) ليڤي في المرجع السالف يذكر أن الرومان خسروا عشرين ألفاً وأن حلفاءهم خسروا مثل هذا العدد فضلاً عن (٢٧٠٠) خيّال بينهم كويستوران وواحد وعشرون تريبيوناً وعدد ممن كان قد تولّى مناصب القنصلية والپريتورية والايديليّة ويخصّ منهم بالذكر سرڤيليوس جمينوس، ومينوشيوس قائد الفرسان. فضلاً عن ثمانين شيخاً من الأعضاء الحاليين في المجلس أو المنتخبين للدورة القادمة وكانوا قد تطوعوا للقتال. ووقع ثلاثة آلاف راجل في الأسر وثلاثمائة من الخيالة. يقول أيضاً إن هذا النصر كلّف القرطاجيين ثمانية آلاف من أشجع مقاتلهم. ويزعم پوليبيوس أن سبعين ألفاً قد قُتلوا وأن أكثر من عشرة آلاف. ومن غرائب ما وقع أنهم وجدوا نوميديّا حياً تحت روماني ميت. كان الروماني قد بترت يداه فعجز عن استخدام سلاحه للقضاء على النوميدي فألقى بثقله عليه وبأسنانه قطع أذنيه وأنفه قبل أن يفارق الحياة (ليڤي المرجع نفسه ٥١).

(٣٤) يصوّر ليڤي مهربال هكذا Tum Maharbal: Non omnia nimirum eidum di dedere Vincere scis Hannibal victoria ati nesas. ومهربال هو قائد الخيالة الرومانية. ولعله ذلك الذي كان يلقب بباركاس مثل هملقار. إن زوموراس يحدثنا بأن هنيبعل أدرك غلطه فيما بعد حين أمسك عن تعقيب فلول العدو بعد انتصاره. وقد اعتاد أن يهتف متحسراً في أحيان كثيرة: آه لي من كاني! آه لي من كاني.

أصبح هو السيد المطلق على أفضل الأقاليم والمدن في إيطاليا[٣٥]، وسيطر على كاپوا Capua نفسها التي تلي روما بالأهمية والغنيّة الزاهرة. كل ذلك وقع بيده وخضع لحكمه، وهو الذي لم يكن قبلها يملك مدينة واحدة أو سوقاً أو ميناءً، خالي الوفاض معدماً لا يجد ما يُطعم به رجاله إلاّ ما يأتيه عن طريق النهب من يومٍ إلى يوم، ولا موضع ينسحب إليه ويتحصّن فيه أو يتخذه قاعدة لعملياته، وإنما كان يطوّف على غير هدى كأنما يقود عصابة ضخمة من الأفّاقين.

هناك قول ليوريپدس: «يكون المرء في وضع سيّئ حين يتوجّب عليه أن يمتحن صديقاً كذلك يبدو أن وضع دولة ما لن يكون فضل عندما ترى نفسها بحاجة إلى قائدٍ كفوء». وهذا ما كان عليه الرومان في ذلك الحين. فنصائح فابيوس وأعماله التي نعتوها قبل الموقعة بالجبن والخوف صاروا ينظرون إليها الآن من الزاوية المعاكسة القصوى ووجدوا فيها ما فاق حكمة البشر السويّ. حتى لكأن للقدرة الإلهية يداً في هذه النظرة البعيدة، وأنها التي تكهنت بِفَم فابيوس بنتيجةٍ صعب تصديقها حتى بعد وقوعها خلافاً لحكم الآخرين جميعاً. ولهذا بادروا إلى وضع كلّ ما بقي لديهم من آمل فيه. وكانت حكمته الهيكل المقدس والمعبد الذي لاذوا بحماه بغية النجاة. ولقد منعتهم نصائحه أكثر من أيّ شيء آخر من التشرّد وترك مدينتهم، كما كان الوضع عندما استولى الغاليّون على روما. وهذا الذي كانوا يعتبرونه خائر القلب رعديداً عندما كانوا - حسبماً توهّموا - في أمانٍ ومنعةٍ، صار الآن الرجل الوحيد الذي لم يُظهر أثراً لخوفٍ في هذا الاضطراب والشقاء العام غير المحدود. وإنما كان يسير في الشوارع بهدوءٍ وثقةٍ يكلّم أبناء قومه ويبادلهم الحديث ويضع حداً لانتحاب النساء، ويكبح الاجتماعات العامة التي يتولّى عقدها من يريد التنفيس منهم عن كربه وأحزانه. وبسعي منه عقد الشيوخ اجتماعاً، وأشاع روح الأمل في الحكام وكان هو نفسه روح كلّ دائرةٍ وحياتها.

ووضع حرساً على أبواب المدينة لمنع الأهالي الخائفين من مغادرتها ونظم واختصر مراسم الحداد على القتلى زماناً ومكاناً. وأمر أن تقوم كل أسرة بما يُقتضى من هذه الشعائر داخل المنازل وأن لا تزيد مدة ممارستها عن شهر واحدٍ، يقوم أهل المدينة كلهم بالتطهر وفك الحداد بعد نهايته مباشرةً. وقرّر إلغاء الاحتفال بعيد چيرس Ceres[٣٦] الذي وقع في تلك الأثناء لئلا تكشف قِلةُ المحتفلين به، ومظاهرُ حزنهم

(٣٥) الايوليّون، والسامنيت، والتارنت وغيرهم.

(٣٦) لم يكن هذا السبب الحقيقي المؤدي إلى إلغاء العيد ويقع عادة في الثاني عشر من شهر نيسان. =

وبؤسهم، عِظَمَ الخسارة التي وقعت. فضلاً عن أن العبادة الأكثر قبولاً عند الآلهة هي التي تنبع من قلوبٍ منشرحة على الشعائر المتعلقة بتهدئة غضبها واطّلاب إشارات سماوية. ومع ذلك فقد أقيمت بخير ما أمكن تحت إشراف الكهنة والعرّافين. وأُرسل فابيوس پكتور F. Pictor وهو قريب لفابيوس ماكسيموس إلى دلفي ليستوحي نبوءةً من العرّافة. وفي ذلك الزمن تحقق زنى ڤستالتين فقتلت واحدة نفسها، ودُفنت الثانية حيةً كما جرى به العُرف[٣٧].

دعنا قبل كلّ شيء نبدي إعجابنا بالمعنوية العالية والتماسك الشديد اللذين تتمتع بهما هذه الجمهورية الرومانية. فعندما جاء ڤارو مدحوراً مهزوماً يجلّله الذلّ والعار، وبعد أن آل أسلوب تصريفه الأمور إلى النكبة والخزي، خرج الشيوخ والعامة جميعاً لاستقباله عند أبواب المدينة، وأضفوا عليه كل مظاهر التكريم والاحترام. وبعد أن ساد السكون أخذ الحكام ورؤوس الشيوخ، ومنهم فابيوس، يثنون عليه أمام الشعب لأنه لم ييأس من سلامة الجمهورية بعد هذه الخسارة الفادحة وإنما جاء ليتسلّم مقاليد الحكم بيده وينفّذ أحكام القوانين ويعاون أبناء قومه في جهودهم لأجل نصرٍ مقبل[٣٨].

وبدأت قلوب الرومان تنبض بالحياة وتنتعش عندما وصلت إلى روما أنباء تشير إلى أن هنيبعل زحف بجيشه إلى أنحاء أخرى من إيطاليا على أثر المعركة، وطفقوا يبعثون بالقادة والجيوش لمناجزته. واختص بأعلى القيادتين فابيوس ماكسيموس وكلوديوس مارچللوس Claudius Marcellus وكلاهما من المشاهير، ولكن على أسسٍ مختلفة. فمارجللوس كان كما ذكرنا في سيرته رجل أعمالٍ وإقدامٍ، سريعاً جريئاً بشخصه –

= بل لأنه يحرم على الذين يقضون أيام الحداد أن يُعيّدوا فيه. وإنك لا تجد وقتذاك امرأة في روما إلاّ وهي في حداد. والواقع هو أن الاحتفال بالعيد أُجّل حتى نهاية فترة الحداد التي اختصرت إلى ثلاثين يوماً كي لا تتأخر المراسم الدينية الخاصّة والعامة أكثر مما تأخرت.

(٣٧) يضيف ليڤي [المرجع السالف ٥٧] أن كانتيليوس عشيق إحداهن جُلِد حتى فاضت روحه. وأن الديكاميثر راجعوا كتب الكبيل فأمروا بأربع ضحايا بشرية «تدفن أحياءً في سوق الحيوانات: ذكر وأنثى إغريقيان. واثنان من أهالي اليونان.

(٣٨) من تعليق ليڤي على هذا قوله: «ولو كان جنرالاً قرطاجياً للقي شرّ ميتة». ويحدثنا ڤاليريوس ماكسيموس [٣ : ٤ و ٤ : ٥] قائلاً إن الشيوخ والعامة حزموا عن طورهم بأن عرضوا عليه منصب الدكتاتور، إلا أنه رفضه بكلّ تواضع. ويخبرنا فرونتينوس [٤ : ٥-٦] أنه ظلّ بقية حياته مرسلاً شعر ذقنه ورأسه لا يأكل على اريكه كغيره من الرومان ويقول عندما يقابل بمظاهر التكريم إن على الرومان أن يحظوا بحكام أوفر حظّاً منه.

وكما وصف هوميروس أبطاله: عنيف يعشق القتال. وكان تكتيكه الحربي الذي واجه به هنيبعل الإقدام والجرأة وحبّ المغامرة، وهو الطابع الذي اتسمت به معاركه. إلاّ أن فابيوس ظلّ مقيماً على مبدئه الأول وما زال مقتنعاً بأن متابعة هنيبعل دون قتاله كفيلة على الأقل بإنهاكه والقضاء عليه مثل مصارع بلغ نهاية طاقته، وباستعمال كلّ قواه غالباً ما تراه يستنفدها فجأة فيتهاوى منهوكاً ويخسر الشوط. ويذكر لنا پوسيدونيوس أن الرومان يسمّون مارچللوس سيفهم، وفابيوس درعهم. ومن قوة الأول وثبات الثاني يخرج مزيج يكون فيه خلاص روما. ووجد هنيبعل بالتجربة أن اصطدامه بأولهما يشبه التقاءه بنهر ثرثار سريع المجرى يدفع به إلى الخلف إلاّ أنه لا يُعدم أن يعمل كسراً في ضفافه. وأمّا الثاني فمع أنه يمرّ بالقرب منه هادئاً ساكناً، فهو يجرفه ويلتهمه التهاماً. وأخيراً استقر رأيه على هذا: إنه يخشى مارچللوس عندما يتحرك. ويخشى فابيوس عندما يكون ساكناً. وكان عليه طوال تلك الحرب أن يواجه أحدهما أو كليهما. فكلّ من هذين القائدين تولّى منصب القنصلية خمس مرات، وبقيا جزءاً دائماً في جهاز القيادة العسكرية إمّا بصفة قنصل أو برو قنصل أو پريتور، حتى وقع مارچللوس في الفخ الذي نصبه له هنيبعل وقتل وهو قنصل للمرة الخامسة. إلاّ أن كلّ مكره وبراعته لم يفلح مع فابيوس فلم يتعرّض هذا للخطر إلاّ مرة واحدة. وذلك عندما وردته رسائل مزوّرة عن لسان أعيان مدينة ميتاپونتوم Metapontum يعدونه فيها بتسليم مدينتهم إن قدم إليها بجيشه، وبالصداقة والتحالف الذي ينتظره. وكاد يقع فريسة لهذه المؤامرة، إلاّ أنه قرّر التقدم نحوها بجزءٍ من قواته، بعد استطلاع الحظ من مسرى الطير فوجدها تشير إلى سوء العُقبى فعدل عن مسيره. وما لبث أن علم بأن الرسائل من صُنع هنيبعل الذي أعدّ لاستقباله كميناً محكماً، وحريّ بنا أن نعزو هذا الحظ إلى بركة الآلهة أكثر مما نعزوه إلى بُعد نظر فابيوس.

كان مسلكه رائعاً في اجتناب تمرّد المدن وثورة الحلفاء بالمعاملة الرقيقة العادلة، وعدم استخدام الشدة أو إظهار الشكّ عند أقل اشتباهٍ. وذُكر عنه أنه أبلغ عن شخص يُدعى مارسيان Marsian(٣٩) مشهور بالبسالة معروف بشرف النسب، بأنه كان يكلّم بعض الجنود سرّاً عن الهروب من الجيش. فلم يلجأ فابيوس إلى استخدام أي شدّةٍ

---

(٣٩) ليفي ٢٣: ١٥ يعزو هذه الحكاية إلى مارچللوس لا إلى فابيوس ويقول إن الاسم الوارد هو بانيتوس أو Bandius بانديوس في سيرة مارچللوس. وهو مواطن من نولا وُجِد نصف ميت بين أكداس القتلى بعد معركة كاني وقد خُصّ بامتياز الدخول على الجنرال متى شاء.

معه، بل بعث في طلبه وقال له إنه «ليعلم بالأهمال الذي أصاب مؤهّلاته وخدماته الممتازة، وهو خطأ عظيم من الضباط الذين يمنحون مكافأتهم لا على أساس الكفاءة والمؤهلات، بل على غلطة منك إن شعرت بغبنٍ وراجعت أحداً غيري». ثم إنه خلع عليه جواداً مطهّماً وهدايا أخرى. ومنذ ذلك الحين وهذا الرجل مثلٌ يضرب في الإخلاص والتفاني في سائر الجيش. فقد أدرك بعمق بصيرته أنه إذا كان سائسو الخيل ومدرّبو الكلاب يستخدمون أساليب ليّنة رفيقة لتذليل طباع هذه الحيوانات الشرسة، ولا يلجأون إلى ضربها أو معاملتها بالشدة، فأولى بأولئك الذين يقودون الرجال أن يحاولوا غرس حبّ النظام والضبط بأسوأ مما يعامل البستانيون النبت البريّ الذي يفقد بالتشذيب والعناية طباعه الوحشية بالتدريج، ليؤتي أفضل الثمر.

وفي مناسبة أخرى أبلغه بعض ضباطه أن رجلاً من رجالهم يتغيّب كثيراً عن موقعه ويخرج ليلاً، فسألهم أي نوع من الرجال هو؟ فأجمعوا كلّهم على أنه لا يوجد في سائر الجيش من هو أفضل منه، وأنه مواطن من لوكانيا Lucania، ثم طفقوا يروون مآثر عدة رأوه يقوم بها. فأمر فابيوس بتحقيق دقيق عنه، وعلم أخيراً أن الغياب الكثير الذي لوحظ منه كان لزيارة فتاة وقع في حبّها. وعندها أمر بعض رجاله أن يبحثوا عن الحبيبة سِرّاً، وأن يأتوا بها إلى خيمته، ففعلوا، ثم إنه أحضر اللوكانيّ وانفرد به وقال له إنه يعرف جيداً بكثرة غيابه عن المعسكر ليلاً، وهو أخطر جريمة ضدّ النظام العسكري والقوانين الرومانية، لكنه يعلم كذلك مبلغ شجاعته، ولا يجهل أيضاً الخدمات الجليلة التي قدّمها، وهو لأجلها يرغب في العفو عنه والتغاضي عن خطأه، لكنه وسعياً وراء إبقائه في حدود النظام قرّر أن يضع حارساً عليه يكون مسؤولاً عن حسن سلوكه. وبعد أن قال هذا، أخرج له الفتاة وخاطب الجندي المرتعب المذهول بالمفاجأة: «هذا هو الشخص الذي سيكون ضامناً لك. وسنرى حُسن سلوكك المقبل هل أن تجوالك الليليّ كان بسبب الحب أم لغرض أسوأ منه!».

وثمّ واقعة أخرى تشابه هذه، كانت عاملاً على دخوله مدينة تارنتوم(*) واحتلالها. بعد أن خسروها بدسيسة:

يوجد فتى تارنتيّ في الجيش له أخت تسكن تارنتوم التي كانت في قبضة العدوّ. هذه الاخت كانت شديدة الحب لأخيها، متعلقة به للغاية، وعلم الأخ أن بروتيّاً Bruttian نصبه هنيبعل قائداً لحامية المدينة، قد تولّه بحبّ أخته. وخيّل له أن علاقة

(*) خسرها الرومان في ٢١٢ واستعادوها في ٢٠٩ ق.م.

كهذه قد تثمر ما فيه خير للرومان، واتصل بفابيوس وأنهى إليه بخطته. ثم ترك الجيش كمن فرَّ منه ظاهرياً، وذهب إلى تارنتوم. ومرت الأيام الأولى والبروتيّ ممتنع عن زيارة الأخت لأنهما ما كانا يعرفان أن الأخ على بيّنة مما يقوم بينهما من حبّ. على أن الفتى التارنتي انتهز فرصةً ليخبر أخته بكيفية سماعه عن تعلّق رجل كبير المقام والسلطة بها وطلب منها أن تكشف له عن هويّته. «فإذا كان شجاعاً حسن السمعة فلا يهمّ أصله وقوميّته، مادام السيف في هذا العصر يمزج كلّ الشعوب ويجعلهم متساوين، والاضطرار يجعل كلّ عمل شريفاً حيث الحقّ ضعيف، فعلينا أن نحمد الله إذا اتخذ شكل الرقّة». وعندئذ بعثت الفتاة تدعو صديقها. وعرّفته بأخيها وأظهرت بعدها تجاوباً معه أكثر من الماضي. وزاد عطفها عليه بالنسبة التي توثقت بها صداقته بأخيها. إلى أن اعتقد التارنتي بأن الضابط البروتي أصبح مهيّئاً لقبول العروض التي أعدّها له، وأنه وهو الجندي المرتزق الواقع في أسر الحبّ سيكون على أتمّ استعداد للرضا بالمكافآت السخية التي وعده بها فابيوس، حسب الشروط التي سيتفق عليها. وبالنتيجة تمّ عقد الصفقة، بتسليم المدينة للرومان. وهذه هي الحكاية الشائعة إلاّ أن بعضهم يرويها بشكل آخر. فيقول إن هذه المرأة التي اتخذت آلة لحمل البروتي على تسليم المدينة لم تكن تارنتيّة بل بروتية وإنها جارية لفابيوس. ولكونها بروتية، وعلى سابق معرفة بحاكم المدينة البروتي، فقد بعث بها سِرّاً لإغرائه وإيقاعه في الشرك.

وعمد فابيوس إلى تغطية مساعيه هذه - صرفاً لانتباه هنيبعل إلى خطته - بإصداره أمراً إلى الحامية الرومانية في ريگيوم Rhegium بأن تجتاح البلاد البروتية وتعيث فيها سلباً ونهباً وان تلقي حصاراً على كاولونيا Caulonia وتكتسح الموقع بكلّ شدة وزخم. وكان قوام تلك الحامية ثمانية آلاف رجل هم أسوأ ما في الجيش الروماني ومعظمهم من الهاربين استاقهم مارچللوس(٤٠) في صقلية بحالة غير مشرّفة، ولم تكن خسارة هؤلاء بالأمر المزعج أو الأليم للرومان ولذلك ألقى بهم فابيوس طُعماً لهنيبعل، لصرف انتباهه عن تارنتوم فابتلعه حالاً وساق قواته إلى كاولونيا. وفي الوقت نفسه كان فابيوس قد عسكر في ظاهر تارنتوم وألقى عليها الحصار وفي اليوم السادس منه تسلل الفتى التارنتيّ ليلاً من المدينة، بعد أن تفحّص بدقة الموضع الذي كان مقرّراً أن يدخل

(٤٠) لم يستقدم مارچللوس هذه القطعات العسكرية. والمسؤول عن استقدامها هو زميله ليڤينوس. الأول غادر صقلية قبل الاستيلاء على سيراقوز. في [ليڤي ٢٦: ٤٠] العدد يخفض إلى أربعة آلاف كانوا يعيشون على كل أنواع السرقات طوال إقامتهم في المدينة الصقليّة «إنما ترنا».

منه الرومان المدينة حسب الاتفاق مع القائد البروتي. وقدّم تقريراً بالموضوع كله إلى فابيوس الذي لم يجد من السلامة في شيء أن يعتمد اعتماداً تاماً على المؤامرة، بل أعطى الأمر بالهجوم العام براً وبحراًمن الجهة الأخرى بينما كان يتقدم بقواته سرّاً إلى الموضع المتفق عليه. وفي الوقت الذي هرع التارنتيون لصدّ الهجوم عن المدينة تسلّم فابيوس الإشارة في البروتي فتسلّق الأسوار ودخل المدينة دون مقاومة.

وعلينا الإقرار هنا أن الطموح الجرمي تغلّب عليه فيما يبدو. إذ أراد أن يظهر للعالم أنه فتح تارنتون بالحرب، وبمجهوده العسكريّ لا بالخيانة والخدعة، فأمر رجاله بقتل البروتيين قبل الآخرين، إلاّ أنه لم ينجح في تثبيت هذا الانطباع كما رغب، ولم يحصل من جرّائه إلاّ على صفة القسوة والغدر. وقُتِل عدد كبيرٌ من التارنتيين أيضاً وبيع ثلاثون ألفاً منهم في أسواق العبيد، وأعطي الجيش أسلاب المدينة، وجيء إلى الخزينة العامة بثلاثة آلاف تالنت من النقد. وفيما كانوا ينقلون الأموال المنهوبة سأل الضابط المتسلّم ما الذي ينبغي عمله بآلهتهم؟ يقصد صورها وتماثيلها فأجاب فابيوس: «فلندع للتارنتيين آلهتهم الغاضبة». ومع هذا فقد حمل تمثال هرقل الضخم، ووضعه في الكاپيتول إلى جانب تمثال له على ظهر جوادٍ، مصبوب من النحاس(٤١). وهي أعمال تختلف كثيراً عن أعمال مارچللوس في مناسبة مماثلة، أظهرت في الواقع إنسانيته وطيبته للعالم، كما أوضحناها في سيرة حياته(*).

قيل إن هنيبعل كان على بعد خمسة أميال عندما بلغه نبأ سقوط تارنتوم فأعلن قائلاً: «لقد ظفرت روما أيضاً بهنيبعل، خسرنا تارنتوم مثلما كسبناها». وأسرّ إلى خاصتّه للمرّة الأولى بأنه كان دوماً يرى السيطرة على إيطاليا أمراً عسيراً، أمّا الآن وبالقوات التي لديه فهو يرى الأمر مستحيلاً.

وبهذا الفوز مُنح فابيوس امتياز موكب النصر في روما، وفاق بفخامته وروعته موكبه الأول(٤٢). وأخذ الرومان ينظرون إليه كبطلٍ مغوار تعلّم كيف يقارع خصمه، ويحبط مكائده بسهولة ويصيب حذقه ومهارته بالعُقم. والواقع هو أن جيش هنيبعل كان

---

(٤١) من صنع ليسپّوس [سترابو ٦].

(*) أغنى مارچللوس روما بالتحف الفنية الإغريقية التي أخذها من سيراقوسه في ٢١٢ ق.م. ويختلف رأي ليڤي عن المؤلف فيقول إن فابيوس فتك بالأهالي وحافظ على الآلهة أما مارچللوس فقد حافظ على الأرواح ولكنه نهب الآلهة.

(٤٢) بعد انتصاره على الليغوريين - انظر ما سبق.

في هذا الزمن قد أصيب من جهة بالإنهاك لدوام خوضه الحروب، ومن جهة بالضعف والتفسّخ الخلقي لإفراطه في الترف والشهوات. وقد أزعج ماركوس ليڤيوس Marcus Livius التكريم والشرف الذي خُلع على فابيوس. وكان هذا حاكم تارنتوم عندما سُلّمت غدراً إلى هنيبعل، فانسحب متحصّناً في قلعتها وظلّ ممتنعاً فيها حتى استعادها الرومان.

وفي إحدى المناسبات صرّح علناً أمام مجلس الشيوخ بأن الفضل في استعادة تارنتوم(٤٣) يعود إلى مقاومته أكثر مما يعود إلى مجهود فابيوس فردّ عليه ضاحكاً: «لقد أصبت كبد الحقيقة. فلو لم يخسر ماركوس ليڤيوس تارنتوم، لما استعادها فابيوس ماكسيموس».

ومن آيات التكريم والاعتراف بالجميل التي أضفاها عليه الشعب انتخاب ابنه(٤٤) قنصلاً للدورة السنوية التالية(*). وبعد تسلّمه مهامّ منصبه بفترة وجيزة، عرضت أمور تتعلّق بشؤون الحرب يقتضي تصريفها فجاء الأب للقاء الابن ممتطياً جواده إما بداعي الشيخوخة والضعف أو ربّما متقصّداً بذلك لاختبار ابنه، ولحظ الابن ذلك وهو ما يزال بعيداً عنه بمسافة، فأمر واحداً من حرس اللكتور أن يطلب من أبيه الترجّل وأن يقول له: إن كان لديه عملٌ مع القنصل فعليه أن يدخل ماشياً. وبدا على الحاضرين الاستنكار لصفاقة الابن وتجاسره على أب يتمتع ببالغ الاحترام لسنّة وسلطانه وتحوّلوا بأنظارهم إلى فابيوس وهم صامتون، فما كان منه إلاّ أن ترجّل بسرعة وتوجّه إلى ابنه بمثل الركض وذراعاه مبسوطتان وعانقه قائلاً:

«أجل يا بنيّ! ونِعْمَ ما فعلت. لقد أحسنت فهم السلطة التي أودعت إليك، وعرفت حق المعرفة على من تمارسها. فتلك هي السبيل التي استخدمها أجدادنا الأولون لرفع شأن روما. مفضلين دوماً شرفها وحقّها على آبائهم وأولادهم»(٤٥).

---

(٤٣) ليڤي، يبدو هنا أقرب إلى المنطق والمعقول. فالفخر المعزو إلى ليڤينوس هنا وهو يكاد يحال على المحاكمة يظهر بعيداً عن الواقع. انظر كذلك شيشرون: الخطب ٢ :٦٧.

(٤٤) يجانب پلوتارخ هنا الدقة الزمنية أحياناً. فمن ليڤي يبدو أن ابنه وكان يحمل اسمه بالضبط، قد انتخب قنصلاً قبل استيلاء الأب على تارنتوم بأربع سنين، ويحفظ لنا ڤاليريوس ماكسيموس بهذه المناسبة دليلاً دامغاً على تواضع الأب فابيوس ووطنيته. فقد علّق على دوام انحصار المنصب القنصلي في أعضاء أسرته قائلاً إن هذا خطر قد يهدد كيان البلاد.

(*) في السنة ٢١٣ ق.م.

(٤٥) يقول ليڤي [٢٦ :٢٤] بعد أن مَرّ بأحد عشر لكتوراً وهو على صهوة جواده. أمر ابنه اللكتور =

والواقع أنه قيل عن والد جدّ فابيوسنا هذا[٤٦] ما يشبه ذلك. فقد كان بلا شكّ أعظم الرومان في عصره سُمعةً وسلطاناً، نُصّب قنصلاً خمس مرات، وشُرّف بالعديد من مواكب الظفر للانتصارات التي حازها. لم يرَ أيّ بأس في أن يخدم برتبة ضابط تحت إمرة ابنه[٤٧] عندما ذهب بوصفه قنصلاً إلى تسلم القيادة[*]. وعندما مُنح الابن فيما بعد[**] شرف الدخول في موكب النصر لحسن خدماته ركب الأب جواده خلف عجلة النصر كواحد من بطانته. فجعل من هذا مجداً له، إذ كان فعلاً أعظم الرومان على الإطلاق بإقرار الجميع. كما أنه يمارس سلطة الأب الكاملة على ابنه، ومع هذا خضع لحكم القوانين ولسلطة الحاكم.

على أن حمدنا ومديحنا بفابيوس لايُحّد بهذا. فقد ابنه بعد زمن وكان مثار الإعجاب في تحمّله الخسارة العظمى بوداعة تليق بأبٍ فاضل وإنسان حكيم. ومن عادة الرومان عند موت شخصٍ كبير المقام أن يُلقي أحد أقربائه الأدنين خطبة تأبين، فقبل أن يقوم بهذا الواجب وألقى خطبة في الفورم سجّلها كتابةً فيما بعد.

بعد أن أرسل كورنيليوس سكيپيو إلى إسبانيا وانتصر على القرطاجنيين في عدة معارك وطردهم من تلك البلاد وحصل لروما على مدن وأراضٍ ذات موارد عظيمة، عاد إلى الوطن فاستقبله الشعب بأعظم مظاهر الغبطة والحبور وكانت حماستهم به لا نظير لها وانتخبوه قُنصلاً للدورة السنوية التالية برهاناً على امتنانهم. وكان يدرك أنهم يأملون منه أعمالاً جساماً، ولقد رأى بعد تفكير أن قضيّة المنازعة على إيطاليا مع هنيبعل هي مهنة الشيخ العاجز، فاقترح لنفسه مهمّة في غاية الخطورة وهي جعل قرطاجنة نفسها مرسح جربٍ، وملء وملء أفريقيا بالجيوش والسلاح ونشر الخراب في أرجائها. وبهذا يُرغم هنيبعل على الانسحاب للدفاع عن بلاده بدلاً من غزو بلاد الآخرين. وسعياً وراء هذه الغاية بدأ يستخدم كل نفوذه وتأثيره على الشعب. إلاّ أن

= الثاني عشر برن يقوم بواجبه. إلاّ أن فابيوس الأب أسرع يترجّل وهو يقول: «إني لأرغب يا بُني أن أعرف هل تدري بأنك قنصل؟ أم أنت لا تدري؟».

(٤٦) يقصد به فابيوس رووللوس الذي ورد ذكره في أول السيرة. [ليڤي ٨:٣٨].

(٤٧) هو كوينتُس كوركيس فابيوس هزمه السافيت. وكاد يُعزل من منصب القنصلية لو لم يعد أبوه أن يقوم برعايته وتسديد خطاه في حملته الثانية وأن يستخدمه مساعداً له [انظر ليڤي ٩:٥، وڤاليريوس ماكسيموس ٥:٧].

(*) في ٢٩٢ ق.م.

(**) في ٢٠٥ ق.م.

فابيوس عارض الفكرة بكل قوته، وأقام المدينة وأقعدها قائلاً للرومان: لاشيء يوحي إليهم بهذه الآراء الخطرة إلاّ تهوّر وطيش فتى أهوج حارّ الرأس. ولم يدّخر وسعاً للحيلولة دون تبنّي هذه الخطة بالقول والفعل. ونجح في إقناع الشيوخ(٤٨) بالانحياز إلى رأيه إلاّ أن العامّة اعتقدت أنه يغار من شهرة سكيپيو ويخاف أن ينجز الفاتح الشاب مأثرة عظيمة جليلة وربما يحرز شرف طرد هنيبعل من إيطاليا أو حتى إنهاء الحرب التي ظلّت مستعرة عدة سنوات وكانت تحت إدارته تتعثر وتتلكّأ.

وإن شئت الحقيقة، فإن فابيوس عارض مشروع سكيپيو في مبدأ الأمر، بدافع الحذر والفطنة، جاعلاً نُصب عينه سلامة المواطنين ليس غير، والخطر الذي قد تتعرّض له الجمهوريّة بالنتيجة. ولكنه اندفع أكثر فأكثر في معارضته بعامل المنافسة والطموح عندما وجد مكانته ترتفع عند الشعب يوماً بعد يوم، فانقلب في معارضته عنيفاً جارحاً شخصياً، حتى بلغ الأمر به إلى الاتصال بكراسوس Crassus القنصل زميل سكيپيو وحثه على التمسّك بالقيادة في ذلك الإقليم وعدم النزول عنه لزميله(٤٩)، بل عليه أن يقود الجيش بنفسه إلى قرطاجنّة إن استقرّ رأيه على ذلك. كذلك أوقف دفع المال لسكيپيو لإنفاقه على الحرب ولذلك أُرغم على استدانته بكفالته وضماناته من مدن إترووريا Etruria التي كانت متعلقة به للغاية. وكان كراسوس من الجهة الأخرى لا يرغب أن ينبري لمعارضته ولا مغادرة إيطاليا، فهو بطبعه يكره كل أنواع الخصام والمعارضة كما أنه يقوم بأعباء وظيفة الكاهن الأعظم ومن شأنها أن تبقيه دائماً في البلاد.

حاول فابيوس وسائل أخرى لمعارضة المشروع وعرقل عملية النفير والتطوّع. وصرح في مجلس الشيوخ وأمام العامّة أن سكيپيو، فضلاً عن هروبه من وجه هنيبعل، يعمل على تجريد إيطاليا من كلّ قواها، واختلاس شباب البلاد لزجّهم في حربٍ خارجية تاركين وراءهم آباءهم وأولادهم وزوجاتهم والمدينة نفسها دون دفاع تحت

---

(٤٨) بحسب المناقشات في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة [انظر ليڤي ٢٨: ٤٠-٤٤] تجد كذلك خطبتي سكيپيو وفابيوس. وهما من أطرف ما يمكن.

(٤٩) لم يكن كراسوس يستطيع قيادة الجيش خارج إيطاليا بحكم منصبه الديني إذ كان يتقلّد وظيفة الكاهن الأعلى وعليه أن يبقى (تاكيتوس الحوليات ٤٣: ٧١). لذلك لم يكن من المحتمل أن يصرّ فابيوس على طلبه ويصل به إلى هذا الحدّ. وإن بدا السبب هو حبس الضروري من الأرزاق عنه. ويفصّل ليفي في العون الذي ساهمت به المدن الصديقة: كيري، پوپيولونيا، تاركويني، فولاترا، أربسيوم وغيرها وغيرها.

رحمة عدوّ فاتح منتصر على أبوابهم. بهذا كله آثار قلق الجمهور إلى حدٍ لم يسمحوا لسكيبيو أخيراً إلاّ باستخدام الفرق المعسكرة في صقلية للحرب، مع ثلاثمائة محارب يثق بهم ثقة خاصة كانوا قد خدموا تحت إمرته في إسبانيا. ويظهر أن فابيوس اتبع في هذه الإجراءات ما أملاه عليه طبعه الحذر.

ولكن؛ ما إن نزل سكيبيو البرّ الأفريقي، حتى بدأت(*) الأنباء ترد إلى روما عن الانتصارات العجيبة والأعمال الرائعة التي يأتيها. وقد أيّدت وصفَها الغنائمُ التي أرسلها إلى الوطن، ووقوع ملك نوميدي(٥٠) في الأسر، والمقاتل العظيمة في رجالهم. وحرق وتدمير معسكرين للعدو بما فيهما من كميات كبيرة من الأسلحة والخيل. وعندما اضطرت هذه الكوارث القرطاجنيين إلى إرسال وفدٍ لهنيبعل تطلب منه العودة إلى الوطن وصرف النظر عن آماله العقيمة في إيطاليا ورحل منها(**) لأجل الدفاع عن قرطاجنة، هلّلت روما وكبّرت وعظّمت أعمال سكيپيو وخدماته الجليلة. ولم يكن لهذا كله تأثير على موقف فابيوس حتى أنه ارتأى أن يستبدل سكيپيو بخلفٍ يحلّ محلّه، متخذاً من «تقلّبات الحظّ»، وهو السبب القديم، سنداً لادّعائه، حتى لكأن إلهة الحظّ سيدركها الملل في إيثارها الشخص نفسه ببركتها! بهذه اللهجة بدأ عدد كبير من الناس يرتابون في أقواله ويستنكرونها منه. وبدت وكأنها سوء نيّة وتشاؤم، وخور نفس متأتّ من كِبَر السنّ أو خوف من ذكاء هنيبعل مبالغ فيه. بله عندما عبّأ هنيبعل جيشه في السفن وغادر إيطاليا، لم يستطع أن يمسك نفسه عن المعارضة وتعكير فرح روما العام، مصرّحاً بمخاوفه، وشكوكه قائلاً لهم إن الجمهورية لم تقع في خطرٍ مثلما هي فيه الآن وأن هنيبعل أقوى حرّاساً داخل أسوار قرطاجنة مما كان في ايطاليا، وأن سكيپيو سيُقضى عليه القضاء المبرم إذا ما اشتبك بمعركة مع جيوشه المنتصرة التي ما زالت تشعر بحرارة دماء العدد العديد من جنرالات الرومان ودكتاتورييهم وقناصلهم الصرعى. وأجفل الشعب إلى حدٍ ما بهذه التصريحات حتى بدأوا يعتقدون أن الخطر أقرب إليهم كلّما كان هنيبعل، أبعد عنهم. على أن سكيپيو لم يعتم أن قاتل هنيبعل وألحق به

(*) في السنة ٢٠٤ ق.م.

(٥٠) وقع سيفاكس في الأسر [ليفي ٣٠:٥ و ١١] بعد حرق معسكره ومعسكر هسدروبال. وهلك رربعون رلفاً من الرعداء بالنار وبحدّ السيف وأسر أكثر من خمسة آلاف بينهم عدد كبير من نبلاء قرطاجنة، مع أحد عشر شيخاً، وغُنمت مائة وأربع وسبعون راية وأكثر من ألفين وسبعمائة حصان نوميدي، وستة من الفيلة وقُتل ثمانية. مع مقادير كبيرة من الأسلحة.

(**) في السنة ٢٠٣ ق.م.

هزيمة نكراء، وسحق عظمة قرطاجنة تحت قدميه(٥١)، ومنح بني قومه ما صبوا إليه من غبطة وسعادة فاقت آمالهم وثبّتت قواعد إمبراطوريتهم التي أضحت مهزوزة مضعضعة بكثير من العواصف.

على أن فابيوس ماكسيموس لم يعش ليرى نهاية هذه الحرب السعيدة وسقوط هنيبعل النهائي، ولا ليفرح لعودة الحياة المطمئنة السعيدة إلى الجمهورية. ففي حوالي الزمن الذي غادر فيه هنيبعل إيطاليا(٥٢)، سقط مريضاً وتوفّي(*). في تيبه قضى إپامنداس نحبه فقيراً لا يملك شروى نقير حتى أنه دفن على نفقة العامة. وقيل إنه لم يعثر في داره إلاّ على قطعة نقد واحدة صغيرة القيمة. ولكن فابيوس لم يكن بحاجة إلى هذا فالشعب نفسه تكفّل بنفقات تشييعه باكتتاب خاص ساهم فيه كل مواطن بأصغر قطعة نقد كدليل على حبهم له(٥٣) وبهذا اعتبروه والدهم العام وجعلوا مماته لا يقلّ شرفاً عن حياته.

أهم الأحداث العالمية في زمنه

٢٠٧ ق.م: أسد روبال في طريقه لنجدة هنيبعل - يُهزَم ويقتله كلوديوس نيرو.

٢٠٢ ق.م: يتغلّب سكيپيو أفريقانوس (الأكبر) على هنيبعل في موقعة زاما Zama بأفريقيا.

٢٠٠ ق.م: بدأت الحرب المقدونية الأولى واستمرت أربع سنوات تقريباً.

---

(٥١) لا شك أن پلوتارخ يشير إلى السفراء الشيوخ الذين أُرسلوا إلى سكيبيو عارضين عليه الصلح. إذ ما إن بلغوا خيمة الجنرال حتى انبطحوا على الأرض أمام قدميه جرياً على ما اعتادوه في بلادهم (ليڤي المرجع السالف). وثمّ حادثة إذلال مشابهة لزعماء المدينة العشرة الذين أرسلوا بعد معركة زاما Zama الكبرى لعقد الصلح. [انظر أيضاً پوليبيوس ١٥].

(٥٢) بعد ذلك بقليل أتمّ هنيبعل انسحابه من إيطاليا وكان ذلك في ٢٠٤ ق.م. لا بد أن فابيوس أصبح الآن شيخاً هرماً. فقد قال ليڤي معتمداً على عدد من الكتاب إنه ظلّ في منصب الكهانة اثنتين وستين سنة متوالية.

(*) في السنة ٢٠٣ ق.م.

(٥٣) يجب أن يكون المبلغ ضخماً جداً. فقد بلغ تعداد المواطنين الرومان في السنة التالية (٢١٤٠٠٠).

أوجُه المقارنة بين فابيوس وپيريكلس

لدينا هنا سيرتان غنيّان بالأمثلة، كلاهما ضربتا بالقدح المعلّى في الحنكة السياسية والعسكرية، ولنقم الآن أولاً بمقارنتهما من جهة الكفاءة الحربية. . . ترأس پيريكلس جمهوريته عندما كانت في أرفع درجة من الازدهار والرخاء، عظيمة السلطان منيعة الجانب، لذلك قد يُتوهّم أن نجاحه هو نجاح اعتياديّ وحُسن طالع حفظه من كل عثار أو كارثة.

إلاّ أن فابيوس الذي اضطلع بأعباء الحكم في أحرج الأوقات وأصعبها لم يكن ملزماً بمحافظة وترصين دولةٍ ثابتة الأركان مزدهرة الأحوال يرفل سكانها في بحبوحة من العيش. فضلاً عن أنّ انتصارات كيمون وغنائم النصر التي جاء بها ميرونيدس وليوقريطس مع العديد من مآثر تولميدس الشهيرة، استخدمها پيريكلس أساساً في ملء المدينة بمظاهر الأفراح واللهو والحفلات الدينية أكثر من أستخدامه لها في توسيع وتوطيد دعائم إمبراطوريتها. في حين وجد فابيوس أمامه عند توليه الحكم حالة ترتعد لها الفرائص. من جيوش رومانية أبيدت. وجنرالات وقناصل لها قتلوا، وبحيرات وسهول وغابات مملوءة بجثث القتلى. وأنهار اختلط ماؤها بدماء بني قومه. ومع هذا، فبأحكامه الناضجة الرصينة وبقوة إرادة فيه لا تتزعزع. كان كمثل من أسند بكتفه جدار الجمهورية المتقوّض ومنعه من الانهيار، بسبب ضعف وإخفاق الآخرين. وربما كان أسهل على المرء أن يحكم مدينة روّضها الزمان وأناخ عليها بكوارثه وبلاياه، وأرغمها الخطر المحدق على الإصغاء لصوت العقل، من أن يسرج سرجاً على الطيش والجموح، ويحكم شعباً نَعِمَ بعهد طويل من الاستقرار والرخاء كالأثينيين عندما أمسك پيريكلس بأعنّة الحكم. ولكن الشجاعة في فابيوس، وقوة إرادته الفائقة للعادة، لم تقف حائرة خائرة أمام مخلّفات الكوارث المكدّسة التي كان أهالي روما يومئذ يرزحون ويئنّون تحتها.

ويجوز لنا أن نضع استعادة تارنتوم أمام عمل پيريكلس بجزيرة ساموس. وأن

نعادل فتح أيونيا، بفتح مدن كامپانيا، وإن كان إخضاع كاپوا بالذات قد تمّ على يد القُنصلين فولڤيوس Fulvius وآپيوس Appius. ولم أجد معركة فاصلة واحدة انتصر فيها فابيوس باستثناء معركته مع الليغوريين Ligurians التي كوفئ عنها بموكب ظفر. في حين نجد پيريكلس قد أقام تسعة أنصابٍ لتسعة انتصارات نالها برّاً وبحراً. إلا أننا لانجد عملاً لپيريكلس يمكن مضاهاته بمأثرة إنقاذ مينوشيوس الخالدة. عندما انتشل فابيوس جيشه وشخصه من هلاك محقق، إنه لعمل جليل امتزج فيه الإقدام بالحكمة والإنسانية. ويبدو من جهة أخرى أن پيريكلس لم يعان ما عاناه فابيوس من هنيبعل بثيرانه الملتهبة. فقد وقع عدوّه تحت رحمته دون مجهود منه وبمحض الصدفة، ومع ذلك فقد تركه ينسلّ انسلالاً من قبضته في جنح الليل، وعندما انبلج الصبح تعرّض لأذاه واستبقه في ساعة النصر، وسيطر عليه أسيره بالأمس. وإذا كان من صفات القائد الجيّد أن لا تقتصر نظراته على الحاضر، وإنما أن يتّصف ببُعد نظر فيما يستقبل من الزمان، فلا شكّ أن پيريكلس يتفوّق على فابيوس من هذه الناحية. لأنه حذّر الأثينيين وأنذرهم مسبقاً، بويلات الحرب وبما سيُجرّ عليهم طمعُهم في ما يزيد عن مقدرتهم على إدارته. ولم يكن فابيوس بهذه المقدرة على التنبّؤ عندما أخذ على الرومان تحمّسهم لخطة سكيپيو ووجد فيها خراب الجمهورية. ولهذا كان پيريكلس متنبّئاً حسناً لنجاحٍ سيّئ، وكان فابيوس متنبّئاً سيّئاً لنجاح حسنٍ. والواقع أن خسارة منفعة بسبب فقدانَ الثقة في النفس ليست بأقل لوماً من الوقوع في خطر بسبب الافتقار إلى بُعد النظر. على العموم، فكلا النقيصتين مع اختلاف طبيعتيهما تنبعان من جذر واحد، هو الافتقار إلى الخبرة وأصالة الفكر.

وأمّا من الناحية السياسية فقد عُزي إلى پيريكلس إثارة الحرب، عندما لم يقنع بالشروط التي عرضها اللقيديمونيون عليه. والحق يقال إن فابيوس أيضاً لم يكن بالذي يتنازل للقرطاجنيين عن أية نقطة بل كان مستعداً للمجازفة بالكلّ ولا يرضى باقتطاع جزءٍ من الإمبراطورية الرومانية. إن طيبة فابيوس وحسن معاملته لزميله مينوشيوس تدين - بطريق المقارنة - محاولات پيريكلس لنفي سيمون وثوكديدس الرجلين النبيلين الأرستقراطيين، اللذين حُكم عليهما بالنفي والتشريد بمسعىً منه. ولقد كانت سلطة پيريكلس في أثينا أوسع وأعظم من سلطة فابيوس في روما. ولذلك كان أسهل عليه أن يحول دون الإرهاصات الناجمة عن أخطاء ضباط آخرين وقلّة كفاءاتهم، ولم يخرج أحد عن أمره غير تولميدس، فقد قاتل البويوتيين خلافاً لرغبة پيريكلس ونصحه، فقُتل. إن قوة نفوذه جعلت الآخرين يخضعون لحكمه ويطيعون أوامره. في حين أن

فابيوس الواثق من حجّته وصحّة حكمه - لافتقاره إلى السلطان الواسع - لم يملك الوسائل الكفيلة بإصلاح هفوات الآخرين. ولقد كان من حُسن حظ الرومان لو أعطي سلطة أوسع لقلّت عندئذ الكوارث التي حلّت بهم - على ما نعتقد.

أمّا عن الجود والبذل العام فقد اشتهر پيريكلس بعدم قبوله أي هدية، واشتهر فابيوس بافتداء الجنود الأسرى بماله الخاص وإن لم يزد المبلغ عن ستة تالنتات. وفي الوقت نفسه لم يكن أحد كپيريكلس بملك الفرص للثراء فقد عرض عليه الملوك والأمراء والحلفاء الهدايا الثمينة، ومع هذا لم يكن هناك أعفّ منه وأبعد عن الفساد. ويجب الإقرار هنا أن جمال المعابد والمباني العامة الفخمة التي زيّن بها پيريكلس بلده لا يضاهيها في الرواء والهندسة كل ما بُني وأُقيم في روما من تأسيسها حتى أيام القياصرة وهو واحدٌ وهم كثيرون.

ألكيبيادس

ALCIBIADES

٤٥٠–٤٠٤ ق.م

المعروف عن ألكيبيادس أنه منحدر بالأصل من نسل[1] إيفريسكي Evrysaces[*] ابن أجاكس من جهة الأب، ومن ألكيمون من ناحية الأم. ووالدته دينوماخي Dinomache هي بنت ميغاكلس وأبوه كلينياس Clinias الذي جهّز سفينة على نفقته الخاصة، ونال أعظم الشرف في المعركة البحرية بالقرب من أرتميسيوم[2] وقُتل فيما بعد في موقعة كورونيا Coronea[**] ضد البويوتيين.

وكان پيريكلس وأريفرون Areiphron ابنا كزانتيپوس يتصلان به بنوع من القرابة من ناحية أوصيائه، وفي رواية لا أراها تخلو من الحقيقة أن شعور الودّ الذي كان يحمله له سقراط يرجع غالباً إلى ما ذاع عنه. مع أننا لا نجد كاتباً واحداً بين الكاتبين يذكر لنا خبراً عن والدة نقياس Nicias أو ديموستينس اللاّماخُسي، أو فورميون Phormion الثراسيبولي Thrasybulus وكلهم رجال ذاع صيتهم في تلك الفترة، فإننا نعلم أشياء حتى عن مرضع ألكيبيادس، فاسمها أميكلا Amycla وهي من لقيديمون.

---

(١) شهد عدد كبير من أفاضل المؤرّخين بعراقة أسرته ونُبل محتده، وكادوا يجمعون كافة في الاتفاق على الخطوط العامة لسيرته مع اختلاف طفيف في الجزئيات. أن جدّ ميغاكلس المذكور في المتن كان قد تزوج أغاريستي بنت كلستينس طاغية سيكيون. وانحدر من ألكيميون الذي اشتهر أسلافه منذ عهد تفيسفس. مع العلم أن خزانيتيوس والد پيركلس تزوج أغاريستي ثانية هي بنت عم للأولى.

(*) أفلاطون: ألكيبيادس: ١.

(٢) انظر هيرودوتس [٨: ١٧] إن معركة كورونيا التي قتل فيها، إنما وقعت في السنة الثانية من الأولمبياد الثالث والثمانين [ديودورس المرجع السالف ١٢: ٦]. وكانت من أعظم النكبات التي حلّت بالأثينيين. فالقسم الأعظم منهم بات بين قتيل أو أسير. وصُرع جنرالهم تولميدس وقامت المدن البويوتية المستسلمة العديدة بافتداء الأسرى.

(**) في السنة ٤٨٠ ق.م.

ونعلم أيضاً أن زوپيروس Zopyrus[٣] كان معلّماً ومرافقاً له. والخبر الأول جاءنا من أنتستينس والثاني أورده أفلاطون.

ومن النوافل هنا أن نتحدث عن جمال ألكيبيادس، ويكفي القول في هذا الصدد إن هذا الجمال بقي زاهراً طوال حياته ولازمه منذ حداثته وشبابه حتى رجولته، منسجماً مع كل مرحلة من مراحل عمره انسجاماً عجيباً، ومُكسِباً شخصه جلالاً وسحراً. ومع أن قول يوريپدس: «جمال الخريف، جميل أيضاً»

لا يصدق بشكل عام فإنه حقيقة واقعة في ألكيبيادس من بين القلّة التي انطبق عليها القول. وهذا يعود إلى جمال تكوينه ومتانة بنيته الطبيعية. ولقد قيل إن لثغة لسانه كانت تزيد من حلاوة نطقه، وتضفي على حديثه المتسارع طابعاً جذاباً، وشعوراً بالثقة والاقتناع. وقد أثبت أرسطوفانس ذلك في الأبيات التي نظمها بالتندّر على ثيوروس Theorus، قال: «قال ألكيبيادس: لكم هو شبيه بكولاكس Colax قاصداً كوراكس Corax [الغراب]. ثم يعلّق الشاعر على هذا قائلاً: «ما أجمل ما يلثغ بالحقيقة!»

كذلك يشير أرخيبوس[٤] إلى هذه اللثغة في قصيدة يسخر بها من ابن ألكيبيادس:

«ولكي يتوهّمه الناس صنو أبيه وشبهه تراه يمشي وكأنه مجبول بالنغمة غارق في الترف تاركاً أهداب ثوبه تجرجر على الأرض خلفه. ويحني رأسه بقلّة اكتراث ويتصنّع اللثغة في حديثه».

وبدت في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلّبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز النوازع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرّفاته أيام كان صبياً. فمرة ضايقه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبيّن أنه سيطرح أرضاً عضّ يد خصمه بكلّ قوته فأرخى في الحال قبضته عنه وقال «أراك يا ألكيبيادس تعضّ كالمرأة» فردّ عليه «لابل كأسدٍ!». وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع أتراب في عرض الشارع وهو بعد صبيّ يافع، فأقبلت عربة حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لإلقاء الزهر، فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربة، فلم يكترث الرجل بقوله وواصل السير، فأفسح بقية الصبيان للعجلة وانسحبوا إلاّ ألكيبيادس فقد انبطح على الأرض أمام العربة ووجهه إلى

---

(٣) يحدثنا أفلاطون في رسالته [ألكيبيادس: ١] أن زوپيروس هذا هو عبد تراقي آبق طاعن في السن.

(٤) أحد كتاب الكوميديات الأقدمين.

أسفل متحدّياً السائق أن يمرّ إن استطاع. ففزع الرجل وبادر إلى شدّ أعنّه الخيل وإيقافها، وشاع الخوف في نفوس المستطرقين وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي.

وتميّزت معاملته لمعلميه بالطاعة - عندما بدأ يتلقّى أصول العلم. إلاّ أنه أبى ممارسة النفخ بالناي[٥]، وعدّه مهنة وضيعة لا تليق بالمواطن الحُرّ. وحجّته في هذا أن العزف على العود أو المِزْهَر لا يُحدث تشويهاً في جسم المرء أو وجهه بأي حالٍ من الأحوال، لكن النافخ بالناي يكاد لا يُعرف حتى من أقرب أصدقائه عندما يقوم بالعزف. زد على هذا أن العازف على المزهر يستطيع أن يغنّي أو يتكلم أثناء عزفه، لكن استعمال الناي يؤدّي إلى إطباق الفم وحبس الصوت ومنع اللسان عن النطق...

«فلندع إذن النفخ بالناي لشبّان ثيبه الذين لا يعرفون كيف يتكلمون. أما نحن الأثينيين فلدينا - كما قال لنا أجدادنا - الربّة منيرڤا حاميةً والربّ أپوللو حامياً، الأولى نبذت الناي وعافته، والثاني سلخ جلد النافخ به[٦]». وهكذا عمل ألكيبيادس بين جدّه وهزله على التخلّص من ممارسة نفخ الناي، وغرس في الآخرين كرهه أو أن الشبان راحوا يتحدثون عن احتقار ألكيبيادس له وسخريته بمن يتعلّمه، فسقط هذا الفنّ وأُهمل بصورة عامة.

وفي النقد الشديد الذي ألّفه أنتيفون Antiphon[٧] ضدّ ألكيبيادس، ذكر أنهُ هرب في حداثته مرةً ولجأ إلى منزل ديموقريطس وكان هذا ممن اختص به وصاحبه. فعزم أنتيفون التشهير به على الملأ، وهمّ بذلك لو لم يَثْنِهِ پيريكلس بقوله: «إن كان قد مات فالتشهير به لن يعجّل بالعثور عليه أكثر من يومٍ واحدٍ. وإن كان حيّاً سالماً فسيكون عملك سبّة له طوال حياته». ويقول أنتيفون أيضاً إنه قتل واحداً من خدمه بضربة عصا في نادي سبرتيوس Sibyrtius للمصارعة. لكن ليس من المعقول أن نصدّق كل ما

(٥) هذا ما جاء أرسطو إلى ذكره في «السياسة» فقد بحث ببعض إسهاب فوائد دراسة الموسيقى ومضارّها.

(٦) يشير أفلاطون إلى هذه العقوبة التي أنزلت بمارسياس لكنه يعزو أسبابها إلى أمور أخرى. وفضلاً عن هذا فإن الربة أثينا مينرڤا ألقت بالناي جانباً بعد أن شاهدت خدّيها المتورّمين المتقرّحين منعكسين على صفحة ماء النبع. وغلب أپوللو المسخ مارسياس في مباراة على العزف فسلخ المغلوب حياً.

(٧) سفسطي العقيدة. عاش في أيام سقراط. وورد ذكره عند كزينفون في (الميمواريليا ١) وهو بصدد مناقشة هذا الفيلسوف. ولا وجود لهذه المحاورة وربما عُزي ذلك كذباً إلى أنتيفون.

يتخرّص عدوّه عنه، بعد إقراره علناً أنه عازمٌ على تشويه سُمعته.

ولم يمرّ وقت طويل حتى أخذ الكثير من ذوي الحسب والوجاهة يتنافسون دوماً على مصاحبته ووصاله، إنما كان يجتذبهم منه ألمعيّته وجماله الفتّان اللذان فاقا العادة. على أن حبّ سقراط العظيم له يصحّ أن يُتّخذ شاهداً قوياً على سجايا الفتى النبيلة وخُلقه الحميد، وقد تمكن هذا الفيلسوف بنفاذ بصيرته من الكشف عنها في جمال خِلقته، وفي مواطن سريرته. فقد وجد أن مقامه وثراءه، والعدد الكبير من الأثينيين والأجانب الذين يتملّقونه ويمتدحونه، أمور قد تؤدّي إلى إفساده، ولذلك قرّر أن يتدخّل في أمره ما وسِعه ذلك للمحافظة على نبتة تبشّر بأعظم الخير لئلا تذبل وهي ما تزال زهرة لم تنضج ثمرتها. فالحظّ لم يُسعد أحداً كما أسعد ألكيبيادس ولم يُحطه كما أحاطه بالكثير مما يدعى باللغة الدارجة «أموالاً»، أو حماه من كل سلاح من أسلحة الفلسفة أو حصّنه من أي غائلة من غوائل الطعن والتجريح. فقد كان من البداية هدفاً لتملّق الذين لاينشدون غاية سوى إرضائه، مما كان يعمل على إضعاف نفسه، ويكرّهه بنصيحة أي ناصح أو واعظٍ صادق النيّة. ويشاء حظ عبقريّته أن يستخلص له سقراط صديقاً من دون الجميع. فلصق به واجتوى الأغنياء وأكابر القوم المتكالبين على صحبته، وما عتم حبل الودّ أن توثّق فيما بين الاثنين بشكلٍ لا انفصام له. وانقلب حال ألكيبيادس فصار يعير أذناً صاغية لكلّ حديث خلا من التهتّك وفكرة العشق المخنث ومظاهر التودّد السخيفة المتبذلة، وعرف حق المعرفة أنه يعاشر إنساناً هدفه الكشف له عن نواقصه العقلية، وقمع تعاليه الباطل المتبذل فما لبث: «عُرفُه أن نام وذهبت كبرياؤه وتهدّل جناحه كالديك المغلوب».

ووقعت مجهودات سقراط في نفسه موقع التقدير العظيم بوصفها أصحّ الوسائل التي تلجأ إليها الآلهة لإصلاح الشباب والعناية بهم. وعاد يحتقر ذاته، ويعجب بسقراط، ويداخله الفرح للعطف الذي يلقاه منه، ويقف موقف الخاشع من فضائله، وبدأ دون أن يشعر يكوّن في ضميره صورة انعكاسية متبادلة للحب ولأنيتروس Anteros الذي تكلم عنه أفلاطون. وكان موضع دهشة عامة إذ رآه الناس يشارك سقراط طعامه ونزهاته ويساكنه خيمته، بينما أخذ يُظهر صدوداً وتحفّظاً تجاه كل من يحاول إنشاء صلة به. ووصل صدوده من هؤلاء حَدّ الخشونة والمعاملة المهينة القاسية. ويُذكر بنوع خاص معاملته لأنتيوس Anytus ابن أنثيميون Anthemion الذي كان مغرماً به إلى حَدّ الوله. ودعاه هذا إلى وليمة كان قد أعدّها لبعض الأغراب فرفض ألكيبيادس دعوته. إلا أنه أفرط في الشراب في منزله مع أصحاب له، وخرج ثملاً

يقصد محل الوليمة ليلعب لعبة مزاح. ووقف عند باب الغرفة حيث المدعوون في قصفهم ولهوهم ونظر إلى الموائد وقد تكدست فوقها اقداح الفضة والذهب، فالتفت إلى خدمه وأمرهم أن يجمعوا نصفها ويحملوه إلى بيته، ثم غادر المنزل[٨] مترفعاً حتى عن الدخول إلى غرفة الوليمة. وعصفت سورة من الغيظ في نفوس الجماعة، وراحوا يندّدون بمسلكه الشائن المهين، لكن أنتيوس أسكتهم قائلاً إنه لا يتفق معهم في هذا، وإن ألكيبيادس أظهر كياسةً وحُسن تصرّفٍ عظيمين إذ أخذ الجزء بينما كان يستطيع أن يأخذ الكلّ!

وكان سلوكه هذا واحداً مع جميع عاشقيه الذين يريدون وصاله، إلاّ أجنبياً واحداً كان كما تروي الحكاية يملك عقاراً صغيراً ليس له غيره فباعه بمبلغ يناهز مائة «ستاتر»[٩]، وقدّمه لألكيبيادس ورجا منه قبوله فابتسم ألكيبيادس مسروراً بهذه المبادرة ودعاه إلى العشاء. وبعد أن أكرمه واحتفى به أعاد إليه ذهبه وطلب منه الحرص على الحضور في اليوم الثاني عندما تُعرض جباية الضرائب العامة للمزايدة وأن يتدخّل بين المزايدين ولا يكفّ عن رفع السعر. فطفق الرجل يعتذر لأن المبلغ المطلوب جسيم للغاية وقد يبلغ كثيراً من التالنتات. إلاّ أن ألكيبيادس الذي كان في ذلك الحين يحقد حقداً خاصاً على متعهدي الجباية الحاليين هددّ الرجل بالضرب إن هو رفض طلبه. وفي اليوم التالي حضر الغريب ساحة السوق وزاد تالنتاً واحداً على السعر الحالي. فثار غضب الجباة ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم وتوجّهوا نحوه طالبين منه تسمية التأمينات التي تثبت أهليته، مستنتجين أنه لن يجد أي ضمانٍ. فأفزعه هذا الطلب وبدأ يتراجع ولكن ألكيبيادس الذي كان واقفاً عن كثب نادى الحكّام قائلاً: «ضعوا اسمي إلى جانب اسمه. إنه صديق لي وسأكون ضامناً له». ولما سمع المزايدون الآخرون ذلك أدركوا أن محاولتهم هذه قد أخفقت. وكانوا في محنةٍ لأنهم أرادوا بأرباح السنة التالية أن يدفعوا بدل تعهّد السنة السالفة. ولم يجدوا مخرجاً من ورطتهم هذه إلاّ بالرجاء من

---

(٨) يقول أثينيوس إنه لم يأخذها لنفسه. لكنه انتزعها من صديقه الغني ليعطيها تراسيللوس الفقير. وهو ما يخفف من وقع الحكاية إلى حدّ ما. كان أنتيوس أحد الرؤوس الذين وجّهوا الاتهام لسقراط فيما بعد.

(٩) عملة «ستاتر» تزن أربع دراخمات أتيكية. وقد تكون من الذهب أو الفضة. والفضة منه تعادل قيمته دولاراً أمريكياً واحداً على وجه التقريب. أما «ستاتر داريكوس» فهو النقد الذهبي الأتيكي ويجب أن يكون أعلى قيمة من هذا بكثير إذا ما حسبت نسبة تحويل الذهب إلى فضة بواحدٍ إلى عشرة.

الرجل الغريب وتقديم مبلغ من المال. ولم يرض ألكيبيادس له بأقل من تالنت واحد، وعندما دُفع له ذلك أمره بكفّ يده عن المزايدة، وبهذه الحيلة أخرجه من ضيقه المالي.

ومع أن سقراط كان له كثير من المنافسين الأقوياء فإن سجايا ألكيبيادس الخُلقية الطيّبة أعطت صداقته السيادة على كل المنافسين. كانت كلمات الفيلسوف تؤثّر فيه أعمق تأثير حتى تستدرّ الدموع من عينيه، وتهزّ نفسه هزّاً عنيفاً. على أنه كان في بعض الأحيان يستمرئ تملّق المتحلّقين عندما يزيّنون له تعاطي مختلف الملذّات، فيترك سقراط إلاّ أن الفيلسوف يتبع آثاره كأنما يطارد عبداً آبقاً. وكان ألكيبيادس يحتقر الناس ولم يحترم أو يجلّ أحداً سواه. ويقول الفيلسوف كليانثس Cleanthes في معرض حديث له عن شخص كان لصيقاً به: إن أذنيه هما مجال تأثيره الوحيد فيه، بينما كان منافسوه على صداقته يملكون منه سائر المجالات الأخرى للتأثير فيه. وليس من سبيل للشكّ في أن ألكيبيادس كان ضعيفاً للغاية أمام مباهج الحياة سهل الوقوع في حبائلها. وان العبارة التي استخدمها ثوكديدس لوصف سبيل العيش المفرط في الملذات الذي اختطّه ألكيبيادس تؤكد هذا الاعتقاد. إلاّ أن الذين حاولوا إفساده استفادوا بالدرجة الأولى من نزوعه إلى الطموح والغرور ليدفعوا به قبل الأوان إلى ركوب أعظم المغامرات. وأقنعوه بأنه ما إن ينصرف إلى الشؤون العامة حتى تكسِف شمسُه شمسَ كلّ الساسة والقادة، بل سيفوق پيريكلس شهرة وسلطاناً في بلاد الإغريق. وكثيراً ما لاحظ سقراط مع هذا أن مثل ألكيبيادس كمثل الحديد تُلينه النار وتصلّبه البرودة وتشدّ أجزاءه ثانية. تُضِلّه الكبرياء والترف سواءَ السبيل، ليعود نادماً مصحّحاً أخطاءه بنصائح الفيلسوف، ويستقيم ويتّضح عندما يوضح له النقائص الكثيرة التي فيه، وكم هو بعيد عن كمال الأخلاق.

عندما اجتاز دور الحداثة قصد مرّة مدرسة للنحو وطلب من الأستاذ أحد كتب هوميروس. ولمّا أجابه أنه لا يوجد شيء من مؤلفات هوميروس أهوى عليه بلكمةٍ وخرج. ومرة قال له معلّم آخر إنه نقّح آثار هوميروس بنفسه. فقال ألكيبيادس:

«كيف؟ وهل تصرف وقتك في تعليم الصبيان القراءة؟ أنت الذي تتمكن من تصحيح هوميروس ما أجدر بك أن تثقف الرجال».

ورغب يوماً أن يبادل پيريكلس الحديث فقصد منزله فقيل له إن پيريكلس ليس فارغاً له، لأنه مشغولٌ في التفكير بكيفية تقديم تقرير بأعماله للأثينيين، فقال ألكيبيادس وهو ينصرف: «خير له أن يفكر في كيفيةٍ يتجنّب بها تقديم أي تقريرٍ ما».

وفي مطلع شبابه كان جندياً في الحملة التي جردت على پوتيديا(*) وكان سقراط يساكنه في عين الخيمة، ويقف في المعركة إلى جانبه. ومرة حصل اشتباك عنيف أبديا فيه شجاعة عزّ نظيرها، إلاّ أن ألكيبيادس أصيب بجرح ووقف سقراط حاجزاً أمامه يحميه. ولم يساور الشكّ أحداً في أن هذا العمل أنقذ صديقه مع سلاحه من الوقوع في يد العدوّ، وكان العدل يقضي أن يمنح سقراط جائزة البسالة لعمله هذا. إلاّ أن القادة مالوا إلى منح ألكيبيادس هذا الشرف بسبب مركزه الطبقي. وكان سقراط يرغب في أن يزيد من تعطّشه إلى المجد النبيل القصد، فانبرى أوّل شاهدٍ له، وألحَّ عليهم لضفر أكليل الغار على رأسه وخلع شكة سلاحٍ كاملة عليه. وبعد هذا، لما هُزم الأثينيّون في موقعة دليوم Delium(١٠)، وفيما كان سقراط مع فلولٍ قليلة العدد تتراجع ماشيةً، إذ لمحه ألكيبيادس وكان على صهوة حصانة، فلوى عنانه ولم يمضِ عنه بل وقف ليحيمه من الخطر، حتى نقله سليماً معافى رغم أن زخم الهجوم كان شديداً عليهم والمقتلة فيهم عظيمة. على أن ذلك حصل بعد زمن بعيد.

ومرة صفع هيپونيكوس Hipponicus والدَ كالّياس Callias وهو رجل عظيم الشأن كبير المقام لنسبه العريق وثرائه، فعل ذلك دون سبب أو استفزاز أو سورة غضب مفاجئة، أو خصام نشأ بينهما. بل لأنه تراهن مع صديق له في لحظة مزاحٍ بأن يُقدِم على ذلك. وسخط الناس سخطاً شديداً على هذا الاعتداء عندما انتشر خبره في المدينة. إلاّ أن ألكيبيادس قصد منزل هيپونيكوس في صباح اليوم الثاني الباكر وطرق الباب، فسُمح له بمواجهة المعتدى عليه، وهناك بادر إلى خلع ردائه الخارجي وعرض جسمه العاري له ليجلده ويعاقبه كما يحبّ ويشتهي. فنسي هيپونيكوس كل ما شعر به حنق ولم يكتف بالعفو عنه بل زوّجه بعد قليل بابنته هيپاريت Hipparete. ويقول بعضهم إن كالّياس ابنه هو الذي أعطى هيپاريت، وليس اباه. ومهرها بعشرة تالنتات، وإن ألكيبيادس عندما أنجبت له ابناً أرغمه على إعطائه عشرة تالنتات أخرى مُحتجاً بأن الاتفاق قد تمّ بينهما على ذلك عندما تنجب هيپاريت. ودبّ الخوف في قلب كالّياس

(*) في العام ٤٣٢-٤٣١ ق.م.

(١٠) يخبرنا لاخيس الذي كان ملازماً سقراط في ذلك الحين أن الأثينين ما كانوا ليُهزموا لو وقف سائرهم الوقفة التي وقفها سقراط وصمدوا وأدّوا واجبهم مثله [ثوكيديوس ٢:٢، ٤:١٠١]. إن أفلاطون الذي نقلنا عنه هذه الرواية عن حادث پوتيديا يزعم اثينيوس أنه اختلق هذه الرواية، على كلٍّ ليكرم ذكرى أستاذه. وهذه المعركة جرت في الأولمبياد التاسع والثمانين أي بعد وقعة پوتيديا بثماني سنوات.

من أن يدبّر ألكيبيادس اغتياله فأعلن في اجتماع عمومي للمواطنين الأثينيين، أن بيته وأمواله كلها وقفٌ للدولة إن توفي بلا عقب. وكانت هيباريت زوجاً مخلصة رفيعة الخُلق، إلاّ أنها زهقت أخيراً وعيل صبرها للإهانات التي كانت تلقاها من زوجها لمعاشرته المستمرة للعاهرات الأثينيات والأجنبيات، فانفصلت عنه ولجأت إلى منزل أخيها ولم يُبدِ ألكيبيادس اهتماماً بالأمر مطلقاً وواصل حياته الدنسة. إلاّ أن القانون كان يتطلّب أن تحضر بنفسها أمام الأرخون لا بوكيل ينوب عنها وتقدّم الدليل الذي يعطيها حق الادّعاء بالطلاق. فتطبيقاً لحكم القانون تقدّمت بشخصها للإدعاء، فجاء ألكيبيادس ورفعها بيديه وحملها إلى منزله ماراً بساحة السوق دون أن يجرؤ أحدٌ على اعتراض سبيله أو استخلاصها منه. فبقيت في كنفه حتى وفاتها التي حصلت بعد فترة ليست طويلة عندما كان ألكيبيادس في أفسُس Ephesus. ولم تكن هذه الفِعلة تُعتبر من الكبائر أو مما لا يليق بالرجال. لأن القانون الذي أوجب على طالبة الطلاق أن تحضر في مجلس علني يبدو أنه قصد بهذا إعطاء زوجها فرصة لإقناعها والعمل على إعادتها.

كان ألكيبيادس يملك كلباً اشتراه بسبعين «مينا»(*)، ضخم الجسم في غاية الرشاقة والجمال، وكان ذيله أظهر حليةٍ فيه، فعمد إلى بتره[11]. وراح كل أصحابه يلومونه على فعلته وقالوا إن أثينا آسفة على ما حلّ بالكلب ولا حديث لأهلها إلاّ استنكارها. فضحك وقال: «ما قصدته حصل بالتمام إذن. كانت رغبتي أن يتحدّث الأثينيون عن هذا حتى لايتقوّلوا بالسوء عني».

وقيل إن أول حضوره مجلس العموم كان مناسبة تقديمه منحةً مالية للشعب. ولم يكن عمله هذا نابعاً عن سبق تفكير به، بل صدر منه عفواً بينما كان ماراً في سبيله، إذ سمع صيحةً فسأل عن السبب فأُعلم أنه تبرُّع عامٌّ للشعب فجاء إليهم وتبرّع هو أيضاً. فهتف له الجمع وصفّقوا، وأُخِذ بالمفاجأة حتى أنه نَسِيَ سُمانى quail كان يخفيه تحت عباءته، فأجفلته الضجة وأفلت طائراً. وزادت هذه الحادثة من ضجيج الناس وهتافهم وانطلق كثير منهم وراء الطائر، وتمكن أحدهم، أنطيوخُس Antiochus الملاّح، من إمساكه وإعادته له، فجعلته هذه الحادثة من أعزّ أصدقاء ألكيبيادس[12].

(*) ما يعادل ٧٠٠٠ دراخما.

(١١) عن لونكهورن: إن التمثال الأثري النفيس الذي يمثل هذا الكلب مقطوع الذيل موجود الآن في دونكومبه پارچ في مقاطعة يوركشاير بإنكلترا. الموقعة حصلت في العام ٤٢٤ – انظر أفلاطون [المحاورات].

(١٢) في تلك الأيام كانت تربية طائر السُّمانى شائعة. وكان سقراط قد نصح ألكيبيادس بقوله إن =

كان لديه كثير من المؤهّلات العظيمة للدخول في معترك الحياة السياسية. فشرفُ نسبه، وثراؤه، والبسالة التي أبداها في مختلف المعارك، وكثرة أصدقائه ومشايعيه، فتحت كل الأبواب بوجهه على ما يقال. إلاّ أنه لم يرض أن يدع نفوذه مع الشعب يستند إلى شيء غير موهبته الخطابية وفصاحته. أما وإنه أستاذ في الخطابة فهذا ما يشهد به الشعراء الساخرون. واعترف له أقدر الخطباء الجماهريين بأنه - إلى جانب مواهبه الأخرى - بلغ الذروة في فن الخطابة، بخطابه الذي ألقاه ضدّ ميدياس Midias(*).

وإذا وثقنا بكلام ثيوفراستوس، وهو من دون كل الفلاسفة أكثرهم تحقيقاً وتدقيقاً وحبّاً للتاريخ، فلنا أن نذكر أن ألكيبيادس كان ذا قدرة عجيبة على استنباط واستخراج كل ما هو صائب وصالح القول لأي غرض ولأي مناسبة، مع وضعه في قالب لفظي بليغ لفظاً وتركيباً. وعندما لا تحضره العبارات المناسبة أو الكلِم الدقيق فكثير ما يسكت وهو في وسط حديثه ويظلّ صامتاً حتى يقع على التعبير المنشود ويسيطر على نفسه.

وكانت نفقاته الضخمة على خيول الألعاب العامة والعدد الكبير الذي يحتفظ به من العجلات موضع حديث الناس، إذ لم يرسل أحد غيره -ملكاً كان أم شخصاً عادياً- سبع عجلات مرة واحدة إلى الألعاب الأولمبية، أو أن يفوز دفعة واحدة بالجوائز الأولى والثانية والرابعة (على قول ثوكديدس)(**) أو الثالثة (على قول يوريپيدس)، فيسبق بدرجة عالية جداً كل امتياز عُرف أو مُنح في هذا الباب. وقد حيّا يوربيدس فوزه بالأبيات التالية:

«إن نشيدي هذا واجب لك عليّ يا ابن كلينياس
النصر نبيل ولكن الأنبل منه أن تُنجز ما لم ينجزه أحد من اليونانيون قبلاً
أن تفوز في سباق العجلات الكبير، بالدرجة الأولى والثانية، وتخرج من السباق دون أن يصيبك التعب.

= بروزه في الحياة العامة يقتضي منه المزيد من الدراسة ليحقق تفوّقه على قادة العدو. ثم عقّب بمزاح قاسٍ: «كلا كلا يا ألكيبيادس، إن الدرس الوحيد الذي انشغلت به هو كيف تتفوّق على فيدياس في تربية السُّمانى! [أفلاطون: ألكيبيادس ١] كان اسم الرجل الذي أمسك بطائر ألكيبيادس سيبقى مغموراً لو لم يُنيبُه في قيادة الأسطول عند غيابه. وعندما سنحت له فرصة أصيب بشرّ هزيمة.

(*) ديوستينس: «ضد ميدياس» ١٤٥٠.

(**) هو Epini Kion أو ترتيلة النصر مثل أناشيد بندار الميسورة.

وتجعل المنادي يطلب ثلاث مرّات إكليل زيتون زفس»[١٣].

إن التنافس الذي أبداه مختلف وفود الدول في تقديم الهدايا له زاد من قدر نجاحه. وضرب له وفد أفسُس خيمة ذات زخارف في نهاية الفخامة، وأهدته مدينة خيُوس علفاً لخيوله مع كثير من حيوانات الأضاحي. وأرسل له وفد ليسبوس خموراً وزاداً للولائم الكبرى التي أقامها[١٤]. على أنه لم يخلص من الألسن الحادّة والنقد رغم كل هذا، وقصدوه إما لسوء طبع أعدائه، أو لسوء سلوكه. فقد قيل إن أثينياً يدعى ديوميدس من سراة القوم، وصديق لألكيبيادس، كان شديد الرغبة في الفوز بالسباق الأولمبي، وكان قد سمع الكثير عن العربة التي تملكها الدولة في آرغوس. ولعلمه أن ألكيبيادس يتمتّع بمنزلة ونفوذ كبيرين هناك وأصدقاء كثر، رجا منه أن يتوسط لشراء العجلة له. وابتاع ألكيبيادس العربة فعلاً واختصها لنفسه، تاركاً ديوميدس يتميّز غيظاً منه ويبتهل إلى الآلهة ويدعو الناس ليشهدوا الظلم الذي أصابه. ويبدو أن دعوى أقيمت في المحكمة بهذا الخصوص، كما يوجد لدينا مقولة عن العجلة كتبها إيسوقريطس Isocrates دفاعاً عن ابن ألكيبيادس. إلاّ أن المدّعي في هذه الدعوى هو تسياس Tisias لا ديوميدس.

وما إن بدأ يدخل معترك السياسة ويتدخّل في شؤون الحكم، وهو ما يزال فتىً يافعاً، حتى أضعف منزلة جميع أولئك الذين استوحوا الثقة من الشعب، ما عدا فاياكس ابن إيرسيستراتوس Erasistratus ابن نسياس ابن نيكيراتوس Niceratus الذي وقف وحده في حلبة المنافسة خصْماً له. كان نسياس قد عاد وهو في سنٍّ متقدمةٍ، ونُصّب قائداً أعلى. وكان فاياكس كألكيبيادس سياسياً صاعداً، وهو سليل بيت عريق لكنه يقلّ شرفاً وعراقة عن نسب ألكيبيادس، كما كان يقلّ عنه في أمور شتّى أخرى في مقدّمتها البلاغة. على أنه كان يتمتّع بمقدرة نادرة على الإقناع في مجال الأحاديث الخاصة، لا في نقاش عام أمام الشعب. وكما قال فيه يوپوليس Eupolis:

---

(١٣) فاز ألكيبيادس بالجوائز الأولى والثانية والثالثة بشخصه في حين فازت عربته في غيابه مرتين.

(١٤) يكتب أنتستينوس تلميذ سقراط أن مدينة خيوس كانت تقدّم العلف لخيله. وخيزيكوم تؤمّن له الأضاحي. هذه العبارة تستحق التأمل فقد علمنا منها أن ذلك لم يقتصر على مناسبة ذهاب ألكيبيادس إلى الألعاب الأولمبية بل تعدّاه إلى حملاته العسكرية وتنقلاته. فيقول بهذا الصدد: «كلما سافر ألكيبيادس قامت أربع مدن على خدمته كما تقوم وصيفات على الخدمة في البيت. وأفسيس تمدّه بخيم فاخرة شبيهه بالخيام الفارسية. وخيوس تمدّه بعلف دوابه. وخيزيكوم تمدّه بالأضاحي والارزاقَ لموائد طعامه، ولسبوس ترسل إليه الخمر وكل ما هو ضروري لإدارة بيته».

«هو آخر المتحدثين وأعجز الخطباء».

هناك مقالة نقد كتبها فاياكس(*) في ألكيبيادس ذكر فيها مما ذكر أنه كان يستعمل يومياً على مائدة طعامة أواني الذهب والفضة التي تعود للمواكب والحفلات العامة كأنما هي ملك خاص(١٥) به.

كان ثمّ رجل اسمه هيپربولوس Hyperbolus من مدينة پيريثودي Perithodae يذكر عنه ثوكديدس(١٦) أيضاً أنه رجل سيّئ الخلق، وموضع سخرية عامة لكلّ الكتّاب الهزليين في عصره، لا يهتم قطّ بما يقولون عنه مهما بلغت أقوالهم من السوء فيه. وهو عادم الاكتراث بالسمعة، قليل الإحساس بالعار. وهذا خُلقٌ يعدّه بعض الناس جراءة وشجاعة، في حين أنه وضاعةٌ وقلّة حياء. لم يكن يحبّه أحدٌ إلاّ أن الناس كثيراً ما استخدموه كلّما انصرفت نيّتهم إلى تحقير شخص في الحكم أو إساءة سُمعته. وفي هذا الوقت كان الشعب بناء على تحريض هذا الرجل مهيّئاً للاضطلاع بإجراءات إصدار حكم بالنفي لمدة عشر سنوات وهو ما يطلق عليه اسم «النفي من دون محاكمة Osracism». وكانوا يلجأون إلى هذه العقوبة لإذلال وطرد المواطنين الذين تفوّقوا على غيرهم في السطان والشهرة. وكانت دوافع الحسد والغيرة في عملهم هذا تغلب على دافع التخوف والحذر من خطر المحكومين بها. ولم يكن آنذاك من شكّ في أن العقوبة ستقع على أحد الثلاثة. وبذل ألكيبيادس جهده ليقيم ائتلافاً بين الأحزاب وفاتح فسيساس بمشروعه، وكانت نتيجته وقوع النفي من نصيب هيپروبولوس. ويقول آخرون إنه لم يشاور نسياس في هذا الأمر بل فاياكس، وبمساعدة حزبه ضمن قرار النفي بحق هيپربولوس عندما كان أقلّ الناس توقّعاً له، فقبل هذا لم يقع تحت طائلة العقوبة شخص نكرة وضيع. وكان الشاعر الساخر أفلاطون مصيباً كبد الحقيقة في قوله عن هيپربولوس: «مع هذا استحقّ المصير الجدير بالغابرين، المصير الذين لايستأهله أمثاله من الرجال لأمثاله، وللعبيد الموسومين بميسم العبودية».

(*) هذه المقالة وصلتنا من بين خطب أندوفيدس (الرابعة) وهي واضحة التصنّع. نحَلَها مؤلف مجهول لسانَ فاياكس.

(١٥) الظاهر أنه كان يستعير هذه الصحاف المكرّسة فيبخسها بالاستعمال الدنيوي ولا يعيدها الا قبيل المواسم الدينية للعرض كي يبدو للأغراب وكأنها ملكه وأنه أعارها للمدينة. أما فاياكس فقد جاء ثوكيديدس إلى ذكره ووردت مقالته هذه بين خطب أندوقيدوس [الخطب ٤] وهي خطبة واضحة الزيف نحَلَها كاتبها المجهول لسان ماياكس.

(١٦) التاريخ الطبيعي ٨: ٧٣.

على أننا أثبتنا في موضع آخر تفاصيل أوفى، مما نما إلى علمنا في هذا الشأن.

ولم يكن ألكيبيادس بأقل هَمّا بخصوص المنزلة الرفيعة التي نالها نيقياس لدى أعداء أثينا من التشريف الذي خلعه الاثينيون عليه في الوطن. فمع أن ألكيبيادس كان الشخص المعيّن رسمياً لاستقبال كلّ اللقيديمونيين عند قدومهم إلى أثينا، ومع أنه اهتم اهتماماً خاصاً بالأسرى الذين أُخذوا في پيلوس Pylos[١٧]، فإنهم خصّوا نيقياس وحده بالتكريم والتجِلّة بعد أن نالوا سلماً واستعادوا الأسرى بمسعى نيقياس بالدرجة الأولى. وكان القول المأثور في بلاد الإغريق أن پيريكلس بدأ الحرب ونيقياس أنهاها، وأن السلم نُعت رسمياً[١٨] بسلم نيقياس. وقد اضطرب ألكيبيادس اضطراباً شديداً لهذا الأمر ولما كان الحسد يملأه فقد راح يعمل على تشتيت شمل العصبة المتحالفة. فوجد أولاً أن الأرغوسيين يريدون الحماية من غائلة اللقيديمونيين خوفاً وكرهاً. فعقد بينهم وبين أثينا حلفاً معزّزاً بميثاق سرّي. واتصل بصورة شخصية وبطريق المراسلة مع رؤساء المستشارين في أرغوس مشجّعاً إياهم على طرح جانب الخوف من اللقيديمونيين، وعدم التنازل لهم عن شيء ما. ونصحهم بالتريّث قليلاً وأن يبقوا شاخصين بأنظارهم إلى الأثينين الذين أدركهم الندم الشديد للجنوح إلى السّلم وأنهم لن يلبثوا أن ينقضوه.

ووجد ألكيبيادس أيضاً أن اللقيديمونيين كانوا قد عقدوا صلحاً ومعاهدة تحالف مع البويوتيين، من شروطها أن يسلّموا لهم مدينة پاناكتوم Panactum سليمةً، إلا أنهم لم يسلّموها إلاّ بعد أن دمّروها[١٩] مما أثار غضب الأثينيين الشديد. ولذلك أسرع ألكيبيادس ينتهز الفرصة ليسعّر من غيظ مواطنيه مهاجماً نيقياس هجوماً عنيفاً ومتّهماً إياه بأشياء كثيرة لم تكن تخلو من الحقيقة. منها أنه لما كان جنرالاً لم تبدر منه بادرة لأسر جماعة من جنود العدوّ[٢٠] كان قد قطع عليها سبيل الهروب في جزيرة سفاكيتريا

---

(١٧) في العام ٤٢٥ ق.م وهي تعزى خطأ إلى نيقياس من قبل پلوتارخ وغيره من المؤرخين. فثوكيديدس يعلمنا أن تسمية ألكيبيادس جاءت من الجهة اللقيديمية. وأن «حقوق الضيافة» المذكورة في النصّ بدأت بين أبيه كلينياس وألكيبيادس والد أڤيديوس Eudius أحد الإيغوري الذي كان قد حَلّ ضيفاً عليه في أثينا، فمنح اسمه لابنه «تكريماً» وعلى سبيل المقابلة بالمثل سمّى ألكيبيادس أحد أبنائه باڤيديوساسم الضيف اللقيديمي:

(١٨) جرى عقده في السنة ٤٢١ ق.م.

(١٩) قلعة على حدود بويوتيا وأتيكا. [انظر ثوكيديدس ٥:٣، ٤٢].

(٢٠) بعد أن فقد اللقيديميون قلعة پيلوس في ميسينيا وضعوا حامية جزيرة سفاكتيرتا المقابلة لها، وقواتها ٣٢٠ جندياً مع عدد من الهيلوت بقيادة إپيتادس ابن بولوبروس. وأعتذر نيقياس عن =

Sphacteria، ولما قام آخرون بأسرهم سعى شخصياً إلى إطلاق سراحهم وإعادتهم إلى اللقيديمونيين لنيل الخطوة عندهم. ثم إنه لم يستخدم نفوذه لديهم لمنعهم من عقد هذا الحلف مع الكورنثيين والبويوتيين، بينما عمد من الناحية الأخرى إلى اعتراض سبيل بعض الدول الإغريقية التي كانت تحبّذ عقد معاهدة تحالف وصداقة مع أثينا لأن اللقيديمونيين لايرغبون في ذلك.

وفي هذا الزمن الذي بدأت فيه منزلة نيقياس وسُمعته تهويان إلى الحضيض في عيون الشعب بمساعي ألكيبيادس وفنونه، واتفق أن حضرت سفارة من لقيديمون إلى أثينا وصرّح أعضاؤها أنهم جاؤوا يحملون شروطاً مرضية جداً وأنهم مفوّضون مطلقو الصلاحيّة في تسوية كل ما هو موضوع نزاعٍ بشروط مبنيّة على أُسس العدالة والمساواة. ونالت مقترحاتهم قبول مجلس الشورى وأُعلن انعقاد مجلس العموم في اليوم التالي لتجري فيه مناقشة عروضه. فاستبدّ القلق بألكيبيادس لتطوّر الأمور بما لا يشتهيه، وعمل على أن يجتمع بالسفراء سِرّاً فتمّ له ذلك. ووجه إليهم القول التالي:

«ما الذي تسعون وراءه يا رجال سپارطا؟ أهكذا يغيب عن بالكم أن المجلس اعتاد دائماً أن يتخذ موقف الاحترام والاعتدال من كل السفراء؟ إلاّ أن جماهير الشعب خلاف ذلك فهي طموحة مندفعة بطبعها وراء المغامرات العظيمة والمطالب الضخمة، وإن علموا بأنكم خُوّلتم صلاحيات مطلقة فسيشدّدون عليكم النكير، ويرغمونكم على شروط غير معقولة فإياكم والسذاجة، وحذار من سلامة النيّة إن كان قصدكم الاتفاق مع الأثينيين على شروط متوازنة فيها، وإلاّ انتُزعت منكم امتيازات لا تتفق وخططكم. وابدأوا بالتعامل مع الشعب على أسس ومبادئ معقولة، واحذروا من القول بأنكم مفوّضون مطلقو الصلاحية».

بعد أن أنهى حديثه هذا حلف لهم الأيمان بأنه سيُنجز ما وعدهم من المساعي لقضيتهم وبهذا الشكل أبعدهم عن نيقياس وجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً كلياً.

= الخروج إلى الجزيرة واحتلالها وأن يتولّى منصب القائد في حينه. إلاّ أن كليون وُفّق إلى استعادتها وقتلِ عدد من أفراد حاميتها وسوق البقية أسرى إلى أثينا وكان بينهم مائة وعشرون سپارطيّاً نالوا حريتهم بفضل نيقياس. بعد هذا استعاد اللقيديميون القلعة فقد فشل انتيوس الذي قاد النجدة في الوصول إليها لمعاكسة الريح وعاد إلى أثينا فحُكم عليه بالموت واستبدل الحكم بغرامة كبيرة. فكان أول من يفتدي حكم موته بالمال على هذا الشكل.

وغادرهم وهم يلهجون بالثناء على حصافته ونفاذ بصيرته. وفي اليوم المضروب اجتمعت العامّة، وتقدم السفراء فنهض ألكيبيادس وسألهم بكلّ احترام وتوقير: «ما نوع الصلاحيات التي تزوّدوا بها؟» فأجابوا أن تفويضهم غير مطلق. وهنا بدا ألكيبيادس وكأنه موضوع الإهانة لا فاعلها، وأخذ يندّد بهم بصوت داوٍ وينعتهم بالمراوغين والخدّاعين قائلاً إن هؤلاء لم يأتوا ليقولوا ويعملوا أيّ شيء يتفق ومبادئ الصدق وسلامة القصد. وثارت ثائرة مجلس الشورى وضج الجمهور سخطاً عليهم. أمّا نيقياس الذي كان يجهل اللعبة فقد استبدّت به الحيرة وكان كغيره مذهولاً خجِلاً من التغيّر في كلام أعضاء الوفد.

وبهذا رُفِضت سفارة اللقيديمونيين رفضاً باتاً. وأعقب ذلك انتخاب ألكيبيادس جنرالاً. فبادر في الحال إلى عقد حلفٍ أثينيّ مع الأغوسيين[٢١] والأليائيين وأهالي مدينة مانتينيا Mantinea.

لم يقع عمل ألكيبيادس موقع رضا أحدٍ من الناس، إلاّ أنه كان مناورة سياسية بارعة أدّت إلى شقّ البلوبونيسوس كلها تقريباً، وتقويض بناء وحدتها. وإلى تأليب ذلك العدد الضخم من المحاربين ضد اللقيديمونيين أمام مانتينيا في يوم واحدٍ فقط. أضف إلى ذلك أنها نقلت ميدان الحرب إلى مسافة بعيدة جداً عن تخوم الأثينيين. فإذا حدث وانتصر العدوّ فإن انتصاره لن يفيده كثيراً. أمّا إذا هُزم فقد لا تسلم سپارطا نفسها على أغلب الاحتمال.

بعد خوض المعركة قرب مانتينيا[٢٢] حاولت فرقة الألف المنتخبة الأغوسيّة الإطاحة بحكومة الشعب في أرغوس وبسط سلطانها عليها، وخفّ اللقيديمونيون إلى مساعدتهم، وأزالوا الحكم الديمقراطي. إلاّ أن الشعب قام بانتفاضةٍ مسلّحة وأحرزوا بعض النجاح[*]، وعاجلهم ألكيبيادس بالنجدة فكمل انتصاره وأعيد الحكم الديمقراطي. وتمكن ألكيبيادس من إقناعهم ببناء أسوار طويلة[**] توصل المدينة بالبحر

(٢١) في السنة الرابعة من الأولمبياد التاسع والثمانين: ٤٢١ ق.م. عقد صلحاً مع هذه الدول أمدُه مائة عام.

(٢٢) وقعت المعركة في السنة الثالثة للأولمبياد التسعين أي بعد مرور ثلاث سنوات على الاتفاق مع أرغوس. [ثوكيديدس ٦:٦٦ وما بعده] وذلك في العام ٤١٨ ق.م.

(*) في ٤١٧ ق.م.

(**) في ٤١٩ ق.م.

لتصبح ضمن متناول يد أثينا. وأمدّهم بشغّيلة وبنّائين من أثينا وأظهر منتهى الإخلاص في معاونتهم. وكان المجد والسلطان الذي ناله لا يقلّ عما نالته جمهورية أثينا.

ثم وجّه اهتمامه إلى پاتري Patrae[٢٣] وتمكّن من إقناع أهاليها يربط المدينة بالبحر أيضاً ببناء أسوار طويلة. ولما قال أحد الناس لهم على سبيل التحذير إن الأثينيين سيبتلعونهم في نهاية الأمر ردّ ألكيبيادس بقوله: «ربما كان الأمر كذلك. إلاّ أن عملية البلع ستتم بالتدريج وسيكون البدء من القدمين، أما اللقيديمونيون فسيبدأون من الرأس ويمزقونكم بطرفة عين».

لم يهمل حثّ الأثينيين على الاهتمام بالبرّ وتثبيت مصالحهم فيه. وظلّ باستمرار يذكّر الشبان بالقَسَم الذي أدّوه في معبد أغراولوس Agraulos[٢٤] ويقضي باعتبار حقول القمح والشعير والخمر والزيتون حدوداً لأتيكا. وهو كناية عن حقهم بملكية كل الأراضي الزراعية والمثمرة.

إلاّ أنه مزج كل هذه المآثر السياسية وبُعد النظر وذلاقة اللسان بحبّ الترف المفرط، والاسراف في الشراب والمأكل، والحياة المتحلّلة من المبادئ الخُلقية. وكان يرتدي ثياباً قرمزية سابغة كزيّ النساء، ويسحب ذيولها على الأرض خلفه عند مروره في ساحة السوق، وأمر بنزع الألواح الخشبية في سفينة لينعم باستلقاءٍ ليّنٍ إذ إن فراشه لا يُفرش على السطح، بل يعلّق في الهواء بسيور من الجلد. وترسه الكثير الوشي والزخرفة لم ينقش عليه الشعار الأثينيّ الاعتيادي[٢٥]. وإنما رُسم عليه صورة كيوبيد ممسكاً بشرارة صاعقة. هذه المظاهر وأمثالها ملأت نفوس كرام المواطنين بشعور التقزّز والاشمئزاز، وسخطوا للحياة الفاجرة التي يحياها، ولاستهتاره بالقوانين، ووجدوها تصرّفات شنعاء بحد ذاتها تحمل في طيّاتها بذور السيطرة والطغيان. ولقد أجاد أرسطوفانس التعبير عن مشاعر الشعب تجاهه حين قال:

«إنهم يحبّونه، ويكرهونه، ولا يطيقون العيش بدونه».

وبلغ النهاية في الإعجاز ودقّة التعبير تحت ستار الكتابة إذ قال:

---

(٢٣) مدينة من مدن آخائيا. هذا المشروع أحبطه أهل كورنث وسيكيون وغيرهما من المدن المجاورة.

(٢٤) هيرودوتس وپاوسنياس يثبتانها [أغلاوروس]. إلاّ أن ما أثبته پلوتارخ هو الصحيح.

(٢٥) للمدن والأشخاص شعارات خاصّة تُرسم على صفاحهم. وشعارانا المعروف هو «البوم» أو «الزيتون». ولا يُسمح بحمل الشعار إلاّ للبارزين من القوم أو من قام بعملٍ مجيد.

«من الأفضل أن لا ترُبّي شبلاً تلاطفه داخل أسوار المدينة، وإن فعلت فعليك أن تعامله معاملة الوحش!».

والحق يقال إن كرمه وإقامته الحفلات واللهوّ للعامة، وما إلى ذلك من ضروب البذل للجمهور، لم يكن يعدله فيها أحد. وأن عراقة أسلافه، وقوة عارضته، ومهابة شخصه ومتانة تركيبه التي خالطتها شجاعة فائقة، وبراعته في الفنون العسكرية، كل هذا حَكَم على الأثينيين أن يتحمّلوا تهتّكه، ويتغاضوا عن أشياء كثيرة فيه وأن ينعتوا أخطاءه بأخفّ النعوت كما هي عادتهم، وأن يعزوها إلى اغترار الشباب وسماحة الطبع. ومن بين المآخذ عليه أنه أبقى الرسّام أغاثاركوس Agatharcus(٢٦) أسيراً حتى انتهى من زخرفة وطلاء بيته ومن بعدها أطلقه ونفحه مكافأة. كذلك اعتدى على طورياس Taureas بالضرب لأنه عرض بعض التمثيليات منافسة له بها، قاصداً منازعته الجائزة. واختار لنفسه أسيرة ميلانية Melan وأنجب منها ولداً اهتم بتربيته وتعليمه. واعتبر الأثينيون ذلك إنسانية عظيمة منه، مع أنه كان السبب الأساس لذبح كل الرجال في جزيرة ميلوس(٢٧) من البالغين سنّ الخدمة العسكرية الذين كانت قبضته تقع عليهم لأنه كان أحد محبّذي إصدار البيان. وعندما نقش الرسّام أرسطوفون Aristophon صورة نيميا Nemea(*) العاهرة جالسةً وألكيبيادس في حضنها، تقاطر الجمهور زرافات لمشاهدتها وأبدوا سرورهم بها. إلاّ أن الناس المتقدّمين في السنّ استكرهوها واستفظعوها ووجدوها وأمثالها شراً مستطيراً، واتجاهاً نحو الاستبداد. لذلك لم يتعدّ أرخستراتوس Archastratus الحقيقة إذ قال إنّ الأثينيين لا يستطيعون تحمّل [ألكيبيادس] ثانٍ. ومرّة عندما بلغ درجة كبيرة من النجاح في خطبة ألقاها هرع إليه كل المجتمعين يهنّئونه ويثنون عليه، ولم يمرّ تيمون ذو الطبع الانطوائي به عرضاً ولم يتجنّبه كما فعل غيره، بل توجّه نحوه متقصّداً، وأمسك بيده وقال له:

---

(٢٦) كان لهذا الرسّام صلة بعشيقة ألكيبيادس. انظر ديوستينس.

(٢٧) إحدى جزر كيكلادس. وهي مستعمرة لقيديمية حاصرها ألكيبيادس بستٍ وثلاثين سفينة و٨٠٠٠ مقاتل صيف العام ٤١٦ ق.م الموافق للأولمبياد التسعين. وأستولى عليها بعد أن وصلته نجدة في السنة التالية. ويسرد توكيديدس تفاصيل المذبحة التي أعقبت فتحها لكنه لا يذكر شيئاً عن الرسوم. ولعله أراد أن يحمل تبعة ما حصل على الحقد الذي ملأ الجنود فأهاجهم آنياً دون أن يهتم به الأثينيون.

(*) باوسانياس: (١؛ ٢٢: ٧) تمثيل لمنطقة نيميا في الألعاب التي فاز فيها. الأصل الإغريقي يشير إلى أنها عاهرة.

«إمض في سبيلك يا بنيّ ولا تتردّد، وزِد من رصيدك عند الشعب، لأنك ستجرّ عليهم يوماً من المصائب ما يكفيهم».

وسخر بعض الحاضرين من قوله، وبعضهم أسمعه قارص الكلام. إلاّ أن عبارته نفذت عميقاً في نفوس بعضهم. وكذا كان اختلاف حُكم الناس عليه مثلما كانت أخلاقه كثيرة الشذوذ.

كان الأثينيون منذ عهد پيريكلس ينظرون إلى صقلية نظرة طمع واشتهاء[٢٨]. إلاّ أنهم لم يحاولوا شيئاً إلاّ بعد موته. فقد أرسلوا بدعوى مساعدة حلفائهم نجدات متوالية في شتّى المناسبات لأولئك الذين كانوا موضع اضطهاد السيراقوزيين ممهّدين بذلك الطريق لإرسال قوات أكبر. إلاّ أن ألكيبيادس هو الذي أضرم نار الرغبة وأجّجها في النفوس، وأقنعهم بألاّ يمضوا في غايتهم سِرّاً بعد الآن ولا أن ينفّذوها شيئاً فشيئاً، بل أن يجرّدوا عليها أسطولاً كبيراً ويبسطوا سلطانهم على الجزيرة كلّها. وملأ الجماهير بآمال عريضة مثلما كان هو مُفعماً بها بل أكثر، ففتح صقلية كان عندهم نهاية الطموح، بينما كان عنده مجرد البداية. وحاول نيقياس جاهداً أن يثني الشعب عن تجريد الحملة بشرحه لهم أن الاستيلاء على سيراقوز Syracuse أمر صعب للغاية. إلاّ أن ألكيبيادس ما كان ليحلم بأقلّ من فتح قرطاجنة وليبيا، وببلوغه هذه الغاية التي تجعله حالاً سيّد إيطاليا والپلوپونيس كان يبدو له غزو صقليّة مجرد مستودع لتفجير الحرب. وشاعت الحماسة في نفوس الشباب لهذه الآمال الجسام وأخذوا يرهفون آذانهم إلى كبار السنّ منهم يحدّثونهم عن عجائب البلاد التي سيشاهدون، فيشيع الفرح في نفوسهم. وإنك لتلقى العدد الكبير من هؤلاء الفتيان جالسين في ميادين المصارعة والمحلاّت العامة يخطّطون على الأرض خريطة الجزيرة، وليبيا وقرطاجنة. وقيل إن سقراط الفيلسوف وميتون Meton المنجّم لم يكونا يأملان خيراً للجمهورية من هذه الحرب. أولهما متكهّناً بما سيأتي بوساطة جِنّه الذي يلازمه - على ما قيل. وثانيهما أظهر المخاوف من نتائجها إمّا بعد تحليل منطقيّ عقليّ للمشروع، أو باستخدامه فن التنجيم والاستخارة.

(٢٨) تمكن پيركلس بذكائه وسلطانه القوي من كبْح هذه الرغبة العارمة عند الأثينيين. إلاّ أنهم بعد موته بسنتين اثنتين أرسلوا بعض السفن إلى ريكيوم لنجدة الليونتيين الذين كانوا ضحية هجمات الصقلبيين وبعدها بسنةٍ واحدة أرسلوا عدداً أكبر من السفن، وعقّبوها بأسطول أكبر بعدها بسنتين أخريين. إلاّ أن الصقلبيين اتحدوا فيما بينهم وصدّوا هذه الحملات تباعاً. وبلغ الغضب بالأثينيين حداً أنهم حكموا على الجنرالين بيثودورس وسوفوخلس بالإبعاد جرّاء فشلهما. كما فرضوا على الجنرال الآخر أفويميدون غرامة ثقيلة.

ولهذا تصنّع الجنون وأمسك بمشعل موقد وبدا كأنما يريد إحراق منزله. وذكر آخرون أنه لم يتصنّع حالة جنونٍ بل عمد سِرّاً في موهن من الليل إلى إحراق بيته وفي اليوم التالي أنهى بفجيعته إلى الجمهور لكي يحملهم على استبقاء ابنه الذاهب للحرب، تخفيفاً عنه ومؤاساة له. وبهذه الحيلة خذع بني قومه وحصل منهم على بُغيته.

وعُيّن نيقياس جنرالاً مع ألكيبيادس كُرهاً عنه وخلافاً لرغبته، وجَهِد في العزوف عن القيادة أكثر كرهاً بها لوجوده مع ألكيبيادس، إلاّ أن الأثينيين رأوا أن إرسال ألكيبيادس وحده، دون وجود من يكبح جِماحه مما يضرّ بمجرى الحرب، ولذلك عمدوا إلى معالجة تهوّره بحذر نيقياس. ولم يكن تعيينه ناجماً عن هذا السبب وحده، فالجنرال الثالث في الحملة لاماخوس مع تقدّمه في السنّ أبدى في عدّة معارك ما برهن أنه لا يقلّ حِدّة وتهوّراً عن ألكيبيادس نفسه. وعندما بدأوا يتداولون في عدد القوات وطرق تجهيزها بالمؤن والعتاد الضروريين قام نيقياس بمحاولة أخرى لمعارضة الفكرة ومنع وقوع الحرب إلاّ أن ألكيبيادس خالفه ونقل القضيّة إلى مجلس العموم(٢٩). وهناك اقترح خطيب يدعى ديموستراتوس منح القوّاد الثلاثة صلاحيات مطلقة بخصوص التأهّب للحرب، واتخاذ كلّ التدابير المتعلقة بها، فصودق على اقتراحه. وعندما تمّ كل شيء للحملة، ظهرت نبوءات نحسٍ عديدة. ففي ذلك الوقت وقع عيد أدونيس Adonis(٣٠) وفيه اعتادت النسوة أن يعرضن في كل أنحاء المدينة صوراً وشواخص تمثل رجالاً موتى يُحملون إلى المدفن وأن يمثّلن شعائر الجنازة بالندب والعويل وأناشيد الرثاء. على أن التقطيع الذي أُحدث في صور شواخص ومارس(٣١) أدّى

---

(٢٩) هذه الخطب التي تستحق القراءة للأسلوب الجميل في إيضاح الإجراءات الحكيمة الحذرة التي باشرها نيقياس، والتهور والطيش اللذين باشرهما الثاني، حفظها لنا ثوكيديدس، أو ربما قام هو بتدبيجها (٦ : ٩-١٨).

(٣٠) في عيد أدونيس تبدو كلّ المدن بمظاهر الحداد. وتُعرض الرسوم أمام كلّ باب. وتُحمل في المواكب تماثيل ڤينوس وأدونيس مع أوعية معيّنة فيها تراب أنبتوا فيه قمحاً وأعشاباً وخسّاً وتدعى هذه الأوعية بـ«حدائق أدونيس»، وتُرمى في البحر بعد ختام الاحتفال. وتحتفل كل بلاد اليونان ومصر به، كذلك كان اليهود يحتفلون به عندما انتقلوا إلى عبادة الأوثان (حزقيال ٨ : ١٤). وفي خلال ساعات الاحتفال كثيراً ما تُرى النسوة جالسات يندبن ويبكين من أجل تمّوز أي أدونيس.

(٣١) كان الأثينيون ينصبون تماثيل مارس أمام أبواب بيوتهم. وهي على شكل قطع صخرٍ مربّعة يوضع فوقها رأس ذلك الربّ. ويقول پاوسيناس [٤ : ٣٣] إن سائر الإغريق استعاروا منهم هذا التقليد. أما التشويه الذي ينوّه به پلوتارخ فقد جرى قبل هذا التاريخ كما يؤكد ثوكيديدس [٦ : ٢٨].

بأغلبها إلى تشويه في أوجهها خلال ليلة واحدة. وأفزع ذلك كثيراً من الأشخاص الذين تعوّدوا الاستخفاف بمعظم ما هو من هذا القبيل. وأشيع أنه من عمل الكورنثيين لأجل السيراقوزيين الذين كانوا مستعمرةً لهم(٣٢)، آملين أن يعدل الأثينيون عن الحرب أو يؤخّروها، كردّ فعل لهذه الخوارق. إلاّ أن النبأ لم يؤثّر في الناس أي تأثير، ولم يكن رأي أولئك الذين لم يعتقدوا بوجود أي إشارة نحسٍ في الحادثة إلاّ مجرّد كونها عملاً فاضحاً مباحاً قام به فتيان طائشون على سبيل المزاح أثناء خروجهم من اجتماع لهو وشراب. إلاّ أن مجلس الشورى والجمعية العامّة أفزعتهم وأغضبتهم الحادثة ونظروا إليها نظرة شكّ وعدّوها تمهيداً لمؤامرة عدد من الأشخاص لقلب نظام الحكم. وواصلت الجمعية والمجلس اجتماعاتهما أياماً للتحقيق الدقيق في كل ما يستدعي الشكّ.

وفي أثناء التحقيق أحضر أندروكلس Androcles - وهو غوغائي- عدداً من الأرِقّاء والأجانب ليتّهموا ألكيبيادس وبعض أصدقائه بتشويه الصور الأخرى بعين الطريقة، والتجديف على الأسرار الإلهية، وإتيان أعمال كُفرٍ بحقّها في مجلس شراب. ومثل ثيودوروس دور المنادي، وپوليتيون Polytion تقمّص شخصية حامل المشعل، وقام ألكيبيادس بدور رئيس الكهنة. وظهر بقية الجماعة بدور المرشّحين للرسامة واقتبلوا درجة التكريس. هذه الوقائع تضمّنها بلاغ المعلومات الأولى الذي قدّمه تسّالوس ابن سيمون ضدّ ألكيبيادس حول اتهامه بالاستخفاف الإلحادي بالربّتين سيربس وپروسيرين، الأمر الذي أسخط الشعب عليه وأحنقهم للغاية. وأندروكلس أخبث أعدائه زاد في الطين بلّة وهوّل التّهمة فأقلق أصدقاءه للغاية. ولكن لما علموا أن البحّارة الذاهبين إلى صقلية يقفون في صفّه وكذلك الجنود. وعندما أعلن الجنود الألف الاحتياط من أرغوس ومانتينيا أنهم ما تكلّفوا عناء هذه الحملة العسكرية البحرية البعيدة المدى إلا لأجل ألكيبيادس، فإنْ أُسيئت معاملته فسيعودون إلى ديارهم، عندها عادت إليهم شجاعتهم، وخفّوا عجالاً للاستفادة من الفرصة، وتزكيته. وأصيب أعداؤه بالخزي مرّة أخرى ونكصوا خوفاً من أن يكون الشعب أكثر رقّة في حكمهم عليه، بسبب ما لديه من خدمات. فلأجل أن يحولوا دون ذلك سعوا إلى دفع خطباء آخرين، ممن لم يُعرف عنهم عداوة لألكيبيادس، بينما لا يقلّ حقدهم عليه عن أولئك الذين

(٣٢) أرسل هؤلاء المستوطنون بقيادة أرخياس وهو أحد الهيراقليدي [ثوكديدس ٦: ٣] و[استرابو: ٥].

صرحوا بعداوتهم له، إلى أن يقفوا في الجمعية ويخطبوا بهذا المعنى: «إنه لمن السخف أن يتعرّض رجل انتُخب قائداً لمثل هذا الجيش، بصلاحيات مطلقة، وبعد أن وصلت القوات الحليفة، وتمّ تحشيد جنوده، لخسارة الفرصة، بينما يقوم الشعب بالاقتراع على انتخاب القضاة الذين سيحاكمونه، ويصبّون الماء في الأواني لقياس الوقت المخصص لدفاعه(٣٣). «دعوه يبحر في الحال، وليرافقه السّعد، وعندما تضع الحرب أوزارها يتفرّغ لتنظيم دفاعه شخصياً حسب أحكام القانون». وأدرك ألكيبيادس سوء القصد في هذا التأجيل، ووقف في الجمعية قائلاً إنه لأمر فظيع أن يُعهد إليه بقيادة مثل هذا الجيش العظيم، وهو يرزح تحت عبء تهم ووشايات يستحق عليها عقوبة الموت إن لم يفلح في تبرئه نفسه من الجرائم التي ألصِقت به، ولكن إن فعل ذلك وبرهن على براءته فإذ ذاك يمكنه التفرّغ للحرب بكلّ سرورٍ، إذ لا يعود بعدها في خوف من أي متهمٍ كاذبٍ.

إلاّ أنه لم ينجح في إقناع الشعب برأيه وأمروه بالإبحار فوراً(٣٤)، فرحل مع الجنرالين الآخرين وكانت الحملة تتألف من ١٤٠ بارجة حربية تقريباً و٥١٠٠ محاربٍ، وحوالي ١٣٠٠ نابل ورامي مقلاع، وجنود خفاف السلاح، وكل ما يتعلق بذلك من تجهيزات ومؤن.

وبلغ ساحل إيطاليا ورسا في ريجيوم Rhegium وهنا أدلى بآرائه عن الأسلوب الذي ينبغي اتّباعه في إدارة دفّة الحرب. فعارضه نسياس، ووافقه لاماخوس. وأقلعت الحملة إلى صقلية في الحال، واستولت على كاتانا Catana. وهذا كل ما تمّ تحقيقه أثناء وجود ألكيبيادس، إذ استُدعي إلى أثينا بعدها بقليل لإجراء محاكمته.

كما ذكرنا قبلاً لم يكن يوجد ضدّ ألكيبيادس إلاّ شك ضئيل، والتهم التي ألصقها به بعض العبيد والأجانب. إلاّ أن أعداءه زادوا في هجومهم عنفاً أثناء غيابه ووحّدوا

(٣٣) استخدمت الساعات المائية أثناء المحاكمات الشعبية في أثينا لتحديد أوقات المرافعات. ويتم إيقاف هذه الساعات عند شروع الشهود بالإدلاء بشهاداتهم ويقوم بهذا ضابطٌ يختار لهذا الغرض من طبقة العامة. ويخبرنا پوللوكس أن الماء في القضايا الخاصة بالخروج على القوانين يُقسم إلى ثلاثة أجزاء: جزء مخصص للمدعي ولتلاوة نصوص القانون ولأقوال الدولة، وجزءٌ مخصص للمتهم وشهوده، وجزء مخصص للقضاة إن لم تعلن براءته بالقرار الأول ذلك لأن القضاة - كما هي العادة الآن عند أكثر المحاكم - يصدرون حكمين الأول بالإدانة أو البراءة، والثاني بتحديد العقوبة في حال التجريم.

(٣٤) في السنة الثانية من الأولمبياد الواحد والتسعين أي في منتصف صيف ٤١٥ ق.م.

بين كسر التماثيل والكفر بالأسرار وصوّروها كأنما ارتُكبت معاً تمهيداً لعين المؤامرة التي كانت ترمي إلى قلب الحكومة[٣٥]. وشرعت الجمعية في زجّ كل المتّهمين في السجن دون تفريق ودون سماع دفاع منهم، وأدركهم الندم بالنظر إلى جسامة التهمة - لأنهم لم يجروا محاكمة ألكيبيادس وإصدار حكم بحقه في حينه. وعومل كل أصدقائه ومعارفه الذين وقعوا في يد الشعب وهو في سورة غضبه معاملة فظّة وعُذِّبوا. ولم يذكر ثوكيديدس أسماء المخبرين[٣٦]، إلاّ أن غيره من الكتّاب أوردوا اسم ديوقليدس Dioclides وتيوسر Teucer. ومن هؤلاء الشاعر الساخر فرينيخوس Phrynichus الذي نجد في شعره الأبيات التالية:

«بربك يا هرميس[*] العزيز! كُن على حذر وانتبه لئلا يُكسر أنفك المرمريّ.
فلو لحق بك أذى فقد تدرك الحاجة بك إلى ديوقليدس جديد ليطلق كذبة».

ويردّ الشاعر نفسه عن لسان مارس بالجواب التالي: «سأفعل ذلك وأكون على حذر ولن أدع بعد الآن ذلك الغادر تيڤكر، ذلك الأجنبي الخائن يفخر بمكافأة أخرى على شهادة الزور».

في الواقع إن متّهمي ألكيبيادس لم يسندوا إليه شيئاً معيّناً ثابتاً وعندما سئل أحدهم: كيف تسنّى له معرفة هويات الأشخاص الذين شوّهوا وجوه التماثيل، قال إنه رآهم على ضوء القمر. وهذا تزوير وإفكٌ واضح لأن القمر في وقت الحادث كان هلالاً في أوّله. وهذا ما أثار الاستنكار وصيحات الاحتجاج من ذوي الفهم والمعرفة، إلاّ أن جماهير الشعب كانت متعطشة إلى سماع المزيد من التهم ضده، فالنار الأولى ما زالت مستعرة في النفوس، وقد ظهرت آثارها في اصدار أمر القبض فوراً على كل المتهمين والزجّ بهم في السجن.

---

(٣٥) قالوا إنه دبّر مؤامرة لتسليم المدينة للقيديميين وإنه أقنع الأركيف بالغدر بهم.

(٣٦) مع هذا ذكر أندركلس [٨: ٦٥] باعتباره واحداً من خصوم ألكيبيادس الألدّاء إلى جانب شركة بينونيكوس وأندوكيدس. أما المخبرون فهم عبدٌ اسمه أندروماخوس وتيڤكر الميغاري الذي أقرّ على نفسه وليس على ألكيبيادس. وأغاريستي زوج ألكمايونيدس وليدوس وهو من عبيد فيريكلوس. ونال تيڤكر ألف دراخماً من الخزينة العامة مكافأة. وأبرز ديوقليدس عبداً من عبيده ليشهد بأنه رأى على ضوء القمر أكثر من ثلاثمائة رجل وهم دائبون على تشويه التماثيل. وأشار بالاسم إلى أربعين منهم بينهم أندوقيدس وأعضاء أسرته وأبيه إلاّ أن أندوقيدس اتهمه بشهادة الزور وأثبت التهمة عليه فحكم عليه بالموت وجرى تنفيذه به.

(*) عطارد = مارس.

وكان من بين المكلّفين والموقوفين المحالين للمحاكمة الخطيب أندوكيدس Andocides الذي يُرجع المؤرخ هيللانيكوس نسبه إلى يوليسيس. وهو ممن كان موضع شكّ دائم في بُغض النظام الديمقراطي السائد، ومناصر لحكم القِلّة. والسبب الأول الذي جعلَه موضع اتهام بتشويه التماثيل هو بقاء تمثال مارس الكبير المجاور لبيته سليماً لم تنله يد التشويه، من بين التماثيل الشهيرة القليلة التي ظلت سالمة. وكانت قبيلة أيجيس Aegeis قد أقامته نُصباً تذكارياً، إلاّ أنه سُمّي منذ إلصاق التهمة بأندوكيدس، «مارس أندوكيدس» مع أن النقش الكتابي في القاعدة يدل على خلاف هذا. واتفق أن هذا الرجل وثّق عُرى صداقة حميمة مع شخص بين الموقوفين بالتهمة نفسها يدعى طيماؤوس Timaeus وهو أقل منه منزلة وشخصيّة إلاّ أنه اشتهر بسعة الحيلة والجسارة، فأقنع أندوكيدس باتهام نفسه مع عدد قليلٍ بهذه الجريمة، وعلّل ذلك بقوله له: إن اعترافه هذا سيضمن له العفو حسب أحكام المرسوم الشعبي. وفي الوقت نفسه سيكون احتمال الحكم على كل الباقين المعترف عنهم ضعيفاً في حين أنّ الاحتمال قويّ في الحكم على كبار القوم أمثاله. فخير له أن يهتم بنفسه وينقذ حياته بكذبة من أن يتجرّع غصص ميتة مخجلة كأنما هو مجرمٌ حقاً. وإن كان يهتم بالمصلحة العامة فالأجدر هو التضحية بمتهمين قليلين بهذه الوسيلة، سعياً لإنقاذ الكثير من الأشخاص الممتازين، وحمايتهم من غضب الشعب. فراقت الفكرة له واعترف على نفسه وبعض الأفراد الآخرين ونال عفواً بموجب أحكام القانون في حين نُفّذ حكم الموت بجميع من اعترف عنهم ما عدا نفراً قليلاً نجحوا في الفرار. واتهم أندوكيدس خدمه أنفسهم لينال المزيد من الحظوة لكن سخط الشعب لم يهدأ رغم هذا كله. وبعد أن لم يعد يشغلهم أمر المشوّهين عمّا هم فيه، توجّهوا لصبّ جام غضبهم كله على ألكيبيادس دون أن تأخذهم عجلة. وبعثوا بسفينة اسمها «السلاميسي» لجلبه. إلاّ أنهم أوصوا الموفدين بألا يستخدموا العنف بأيّة حالٍ، وأن لا يلقوا القبض عليه، بل يتوجّهون إليه بكامل الاحترام ويطلبون منه بأدب أن يتبعهم إلى أثينا لحضور المحاكمة وتبرئة نفسه أمام الشعب. وكانوا يخشون عصيان الجيش وتمرّده في بلاد العدوّ وهو في الواقع من أسهل الأمور عند ألكيبيادس لو رغب فيه. فقد هبطت معنويات الجنود عند رحيله، واعتقدوا أن الحرب في المستقبل ستنهج نهجاً متباطئاً متعثراً تحت قيادة نسياس إذا ما سُحب ألكيبيادس من القيادة لأنه كان بمثابة مهماز لاحتثاث القتال. فمع أن لاماخوس كان مثال العسكري المقدام فإن فقره جرّده من السلطة والاحترام في الجيش.

وكان من أثر رحيل ألكيبيادس أنه أخرج ميسلنا من أيدي الأثينيين(٣٧). إذ كان يوجد لطائفة من سكانها رغبة في تسليمها وعندما أرادوا ذلك أبلغ ألكيبيادس السيراقوزيين بالأمر وكان يعرف الأشخاص، فأحبط المشروع كله. وعندما بلغ ثوري نزل إلى الساحل وأخفى نفسه عن أولئك الذين يبحثون عنه. إلاّ أنه كشف عن نفسه لواحد يعرفه فسأله هذا أليس له ثقة ببلاده؟ فأجابه ألكيبيادس «أثق بها في أي شيء، ما خلا الأمور التي تمسّ حياتي، ففي هذه لا أثق حتى بأمّي، إذ ربّما زلّت يدها فألقت بالكريّة السوداء بدلاً عن الكرية البيضاء». ولما سمع فيما بعد أن الجمعية نطقت بحكم الموت عليه، كان كل ما قاله هو هذا: «لأجعلنّهم يشعرون بأني حيٌّ!».

وكان نص لائحة الاتهام التي رفعت ضده كما يأتي:

«ثِسالوس ابن كيمون، من مدينة لاشيا Lacia: «يعرض بلاغ اتهام ألكيبيادس ابن كلينياس من مدينة سكامبونيدا Scambonida بارتكاب جُرم ضدّ الربّه سيريس والرّبة پروسپرين، بتمثيل الأسرار المقدّسة تمثيلاً هزلياً محقّراً. وعرض ذلك على أصحابه في منزله حيث ارتدى حُللاً لا يلبسها إلاّ رئيس الكهنة عندما يقوم بعرض الذخائر المقدسة. واتخذ لنفسه منصب رئيس الكهنة وجعل پوليتيون حاملاً للمشعلِ وثيودورس من مدينة فيجيا Phegaea منادياً. وحيّا بقية أصحابه باعتبارهم رهباناً ومكرّسين مستجدّين Myastae. فعل كل ذلك ضد قوانين ودستور الإيومبولپيدي Eumolpidae(٣٨) ومنادي وكهنة معبد اليوميس».

وحُكم أيضاً بتهمة الاستخفاف بالمحكمة لعدم حضوره. وصودرت كل ممتلكاته. وأمر كل الكهنة والكاهنات بلعانه رسمياً. إلاّ أن ثيانو Theano بنت مينون Menon من مدينة أرغوس عارضت في هذا الجزء من الحكم. وعلى ما ذكر فإنها قالت إن واجبها الديني المقدّس يحتّم عليها أن تقدّم الصلاة والدعاء لا اللعنات والشتائم.

---

(٣٧) ركب سفينة خاصة به لا سفينة تعود إلى سلاميس ميسانا وذلك في أيلول من العام ٤١٥ ق.م.

(٣٨) كلمة Myastae تعني أولئك الذين رُشّحوا أو كرّسوا لتلقى الأسرار. وهؤلاء يجب أن يبقوا سنة واحدة تحت الاختبار وليس لهم خلال هذه المدّة أن يتقدموا في أكثر من ممر الهيكل. ولا يساهمون إلاّ في الأسرار الدنيا. وفي آخر السنة تُفتح لهم أبواب المذبح ليشاهدوا الرّبة بكامل بهائها. إن يومپولوس وهو مواطن تراقي سكن أيليوس وكان أول من رتّب وأنشأ هذه الأسرار الخاصّة بالربّة كيريس ولذلك صار نسله سدنَةً لها. وإذا انقرض النسل فمن يخلفه يجب أن يُلقّب بلقبه [انظر پاوسنياس ١ :٣٨].

وبادر ألكيبيادس وهو مثقل بهذه الأحكام والعقوبات القاسية إلى الفرار من ثوري أولاً واتجه إلى الپيلوپونيسوس مستقراً في أرغوس فترة من الزمن. ولما وجد أن لا أمل هناك في العودة إلى بلاده، ولخوفه من أعدائه، بعث يطلب من حكام سپارطا الأمان وحق اللجوء السياسيّ مؤكداً لهم أنه سيعوّض لهم بخدماته المقبلة عن كل الأذى الذي لحقهم منه عندما كان عدوّاً لهم. فمنحته سپارطا الأمان المطلوب فأسرع الرحيل اليها، وأحسنوا استقباله. وتمكن حال وصوله من إقناعهم بلا حذر أو تردّد بأن يرسلوا مساعدات للسيراقوزيين واشتد في حثّهم وإثارة حماستهم حتى أنهم بعثوا فوراً غيليپّوس Gylippus(٣٩) إلى صقلية لسحق القوات التي يملكها الأثينيون هناك. والنقطة الثانية التي أشار بها هي تجديد الحرب ضد الأثينيين وقتالهم في عُقر دارهم. أما النصيحة الثالثة وهي الأهم فكانت تقضي بتحصينهم ديكيليا Decelea وهذا من شأنه أن يستنفد ويقضي على موارد الأثينيين وجمهوريتهم(٤٠).

إن الشهرة التي كسبها من هذه الخدمات العامة تعادل الإعجاب الذي أثارته حياته الخاصة في النفوس. فقد اجتذب وسحر كل الناس بتعوّده وتخلّقه الاخلاق السپارطية. فالناس الذين رأوه يحلق شعر رأسه ويستحم بالماء البارد ويأكل وجبة طعام بدائية ويتعشّى بالشورباء السوداء، يشكّون، بله لا يصدقّون، بأنه كان لديه طاه في بيته، أو أنه عرف حلاّقاً أو أنه لبس في حياته عباءة من الأرجوان الميليزي. وقد لوحظ عنه أنه تميّز بتلك العبقرية العجيبة والبصيرة النفّاذة التي مكّنته من خطب ودّ الناس. فهو عظيم المقدرة على ترويض نفسه بسرعةٍ، يسهل عليه تبنّي عادات الناس وطُرق عيشهم، وممارستها بلا حرج أو تكلّف، ويتلوّن بأسرع مما تتلون الحرباء. والقول الشائع أن الحرباء تستطيع أن تتخذ لنفسها أي لون تشاء إلاّ لوناً واحداً وهو الأبيض، غير أن ألكيبيادس كان قادراً عن تكييف نفسه والانسجام مع أي جماعة يجد

---

(٣٩) لم يضع ثوكيديدس اسم هذا الجنرال على لسان ألكيبيادس أثناء الخطبة.

(٤٠) هاجم آغيس ملك اللقيديميين أتيكا على رأس جيشه والكورنثيين وغيرهم من أقوام الپلوپونيسي. وبناء على مشورة ألكيبيادس احتل ديكيليا وحصّنها في السنة الرابعة من الأولمبياد الواحد والتسعين = ربيع العام ٤١٣ ق.م وتقع على منتصف الطريق بين أثينا وحدود بويوتيا. وبهذا حُرم الأثينيون من مناجم الفضة، ومن بدلات إيجار أراضيهم، ونجدات جيرانهم. وعرّض قطعان مواشيهم للنهب. وأمّن ملجأ لعبيدهم الآبقين الذين ترك ما يزيد عن عشرين ألفاً منهم أثينا ومعظمهم صنّاع ماهرون وفنيون. لكن النكبة الكبرى وقعت في بداية الحرب وفي صقلية فقد خسروا أهدافهم فضلاً عن سمعتهم وأسطولهم وجيشهم وقواده.

نفسه فيها، أشراراً كانوا أم أخياراً، وبالسهولة نفسها يمكنه أن يتجلبب بثوب الفضيلة أو الرذيلة، حسبما يمليه الموقف. ففي سپارطا انصرف انصرافاً تاماً إلى الرياضة البدنية، وظهر بمظهر المتحفّظ المقتصد. وفي آيونيا كشف عن نفس مرحة خالية البال مترفةٍ خَلودٍ إلى الكسل والخمول. وفي تراقيا لم يكن يصحو من سكر أو يغادر مجلس شراب. وفي تسّاليا تراه وكأنه سُمّر على صهوات الخيل. وعندما قذف به العيش إلى كنف طيسافرنس Tisaphernes نائب الملك Satrep الفارسي، ظهر على جميع الفرس وبزّهم في معالم الأبّهة والفخفخة. وما ذلك لأن مزاجه الطبيعي سهل التغيير ولا لأن أخلاقه الحقيقية ذات جوانب متعددة، بل لأنه وُهبَ قابلية فذّةً على أن يلبس لكلّ حالة لبوسها، وأن يتخذ الهيئة المناسبة كلّما أحسّ بأن ممارسة ما تعوّده ودرج عليه قد يكون مصدر ضيقٍ وازعاج لعشيره أو جليسه. فقد أبى إلاّ أن يحرص على حُسن المعشر عند من يخاطبهم... وإن رآه أحدٌ في لقيديمون وحكم عليه بمظهره الخارجي لما وسعه إلاّ التمثّل بمأثور القول: «ليس هذا ابن «أخيل»، بل أخيل نفسه» الذي اجتهد ليكورغوس في تكوينه. أما ميوله وتصرّفاته الحقيقية الأصيلة فقد كانت تثير مثل هذه التساؤلات: «أظلّت المرأة نفسها أم بُدّلت؟»(٤١). فقد أغوى ألكيبيادس تيميا Timaea زوج آغيس الملك أثناء غيابه مع الجيش في الخارج فحبلت منه، ولم تحاول نكران ذلك. ولما وضعت حملها وكان ذكراً سمّته رسمياً ليوتخيدس Leotychides إلاّ أنها كانت تسرّ لصديقاتها وخدمها همساً بأن اسمه ألكيبيادس، إلى هذا الحدّ بلغ بها العشق. أما هو فيقول بلهجة اللامبالي: «لم أُقدم على ذلك لمجرّد الاستمتاع بالإهانة، ولا إشباعاً لعاطفةٍ، بل قدّرت أن يكون قومه ملوكاً على اللقيديمونيين يوماً ما».

وأنهى كثير من الناس إلى آغيس بالقصّة، إلاّ أن صروف الزمان كانت أقوى مؤيّدٍ لها. فقد قلقت نفس آغيس من هزّة أرضية، فابتعد عن زوجه تيميا ولما يطأها طوال عشرة أشهر، وبما أن وضع ليوتخيدس حصل بعد هذه الفترة مباشرة فإنه لم يعترف بالبنوّة، ولهذا لم يورثه العرش.

على إثر الهزيمة التي حلّت بأثينا في صقلية بعثت خيوس وليسپوس وسيزيكوس Cyzicus بسفراء إلى سپارطا لينهوا إليها بعزمهم على شق عصا الطاعة على أثينا.

---

(٤١) هذا البيت أنشدته ألكترا عن لسان هيلين في «أورستس» وهي تمثيلية ليوريپدس. بعد أن اكتشف بها وقد تقدّمت بها السن نفس المباهاة والاعتزاز بجمالها.

وتوسّط البويوتيون لأهل ليسپوس، وتدخّل فارنابازوس Pharnabazus لصالح أهل سزيكوس، لكنهم فضلوا أوّلاً مساعدة خيوس قبل غيرها بسعي ألكيبيادس.

وركب هو نفسه متن البحر وطاف أرجاء أيونيا ونشر الثورة فيها بصورة مفاجئة وألحق بالأثينيين أفدح الخسائر والأضرار بالتعاون مع قادة لقيديمونيا. إلا أن آغيس ظلّ يلاحقه بالعداء بسبب ما فعل بزوجه، وبدافع الحسد منه للمجد الذي ناله؛ ولم يكن وحده في هذا الحسد، بل جاراه فيه أعيان سپارطا وعظماؤها، إذ كانت تُعزى إلى مقدرته كلّ مأثرة أو موقعة ناجحة، وبالأخير حملوا حكام المدينة على إرسال الأوامر إلى أيونيا لقتله. ولكنه أُبلغ مقدّماً بالسرّ فخشي النتائج، إلاّ أنه ظلّ يتعاون تعاوناً وثيقاً مع اللقيديمونيين مع أخذه الحذر بألاّ يقع تحت رحمتهم. وفي النهاية يمّم شطر طيسافيرنس نائب ملك الفرس، وما لبث أن عُدّ أقرب المقربين إليه وأوسعهم نفوذاً. فهذا البربري الذي لم يكن قطّ طيّب القلب والنوايا بل أخا مكرٍ وشرٍ، أُعجب بمجلس ألكيبيادس، ودهائه العجيب. والحق يقال إن جاذبية حديثه وعِشرته اليومية لم تقوَ على مقاومتها أيّ طبيعة بشرية. ولا يتخلّص من أسرها امرؤ، ولا يُستثنى من ذلك أولئك الذين خافوه وحسدوه فهولاء أيضاً كانوا يضمرون له نوعاً من العطف ويستأنسون بمجلسه ويرتاحون إلى صحبته. لذلك انجذب طيسافيرنس إلى ألكيبيادس ومداهنته وهو الفظّ بطبعه، وعدوّ الإغريق الأول، واندفع إلى منافسة صاحبه في التوادّ والإكرام بما لا مزيد عليه حتى أنه أمر بإطلاق اسم «ألكيبيادس» على أجمل بساتينه التي كانت تحتوي على مجاري ماء صحيّة، وممماشي وأرصفة وخمائل وجواسق للاستراحة، وتوفّر على تجميلها بأروع الزخارف وأفخمها. وبقيت تُعرف باسمه ويشار إليها كذلك.

هكذا عاف ألكيبيادس خدمة مصالح السپارطيين بعد أن فقد ثقته فيهم ولخوفه غدر آغيس، وطفق ينسج الخطط للإيقاع بهم. وراح يقبّحهم في عين طيسافيرنس ويحضّه على قطع سيل المساعدات عنهم وقصرها على القليل. ويثنيه عن تشجيعه لهم على تدمير أثينا التام. وأن يزوّدهم بالقليل القليل من المال، لإتعابهم وإضعافهم تدريجاً دون أن يشعروا، فإذا استنزف الجانبان قواهما بحرب سجالٍ طويلة الأمد كانا على أتمّ الاستعداد للخضوع معاً لملك الفرس. فاستحسن طيسافيرنس مشورته وطبّقها حالاً وأخذ يلهج به ويعلن عن إعجابه الشديد به. وأخذ سائر الإغريق ينظرون نظرة أمل ورجاء في ألكيبيادس. والأثينيون الممتحنون في بلواهم خالطهم الندم أيضاً على العقوبة القاسية التي فرضوها عليه. كما أنه كان شديد القلق والخوف من وقوعه في يد اللقيديمونيين أعدائه لو قُدّر لهم القضاء على جمهورية أثينا قضاءً تاماً.

في ذلك الحين كانت أثينا قد حشدت كل قواتها في ساموس(*) وعبأت أسطولها هناك وجعلتها نقطة انطلاق لإخضاع مَن شقّ عصا الطاعة عليهم من الحليفات، ولحماية ما تبقى من ممتلكاتهم. وحاولوا بمختلف الوسائل الصمود لأعدائهم في البحر. وكان أخوف ما يخافونه طيسافيرنس والأسطول الفينيقي ببوارجه المائة والخمسين الذي قيل إنه انطلق في عرض البحر. فلو وصل هذا الأسطول لرجحت كفة الأعداء وفقدت الجمهورية كل أملٍ.

أدرك ألكيبيادس هذا كله، فبادر في الحال إلى الاتصال سِرّاً بزعماء قومه وكانوا في ساموس ونفخ فيهم روح الأمل بقوله إنه سيسعى إلى جعل طيسافيرنس صديقاً لهم؛ وأنه لا يُقدم على هذا العمل الطيّب حُبّاً في أوزاع الشعب ودهمائهم، ولا كسباً لهم وتوخّياً للاعتماد عليهم، بل لأجل فضلاء المواطنين وأخيارهم إن هم أقدموا على محاولة القضاء على عتوّ الدهماء، كرجال شجعان، وتسلُّم أزمة الحُكم، والعمل على انقاذ المدينة من الفوضى. فحبّذ الجميع اقتراح ألكيبيادس، ولم يعارض إلاّ القائد فرينيخوس Phrynichus الديراديسي Dirades فقد أبدى شكه -وله الحق في ذلك- بأن ألكيبيادس «لا يهتم سواء أظلّت الحكومة بيد الشعب أو انتقلت إلى طبقة المواطنين العليا، وهو الآن ينشد بكل وسيلة التوطئة لعودته إلى أرض الوطن. فراح يحرّض على الشعب ويؤلّب ليكسب الآخرين إلى صفه، ولأجل أن يأسر عقولهم ويقع عندهم موقعاً حسناً». ولكنه كان كمن يضرب على حديد باردٍ. وأدرك أنه جاهر بعداوةٍ لألكيبيادس لا رجوع له عنها. فخابر في السِرّ أسطيوخوس Astyochus قائد أسطول العدوّ محذراً إياه من ألكيبيادس، ومشيراً أن يقبض عليه بتهمة الغش والخيانة. ولم يكن يدري أنه خائن يتعامل مع خائن آخر!

فأسطيوخوس كان متلهّفاً لنيل الحظوة عند طيسافيرنس عن طريق ألكيبيادس، فبادر إلى نقل كل ما ورده من فرينيخوس إلى ألكيبيادس. فأسرع إلى إرسال رسُل إلى ساموس ليفضح خيانة فرينيخوس. فبلغ حنق القادة على زميلهم مبلغاً عظيماً وتكالبوا عليه يوبّخونه ويهاجمونه. ولم يجد سبيلاً لإنقاذ نفسه من المأزق، وكاد الخطر يطبق عليه، فحاول إصلاح الشرّ بشرٍ أعظم وبعث برسالة أخرى إلى أسطيوخوس يعاتبه فيها على نميمته والفضيحة التي سبّبها له. وقدّم له في الوقت نفسه عرضاً جديداً يتم بمقتضاه تسليم كل قطع الأسطول الأثيني مع جيشهم إليه. ولم يُصب الأثينيون بضررٍ

(*) في شتاء ٤١٢-٤١١ ق.م.

جرّاء ذلك، إذ عاد أسطيوخوس ينقل الاقتراح لألكيبيادس. وكان فرينيخوس يتوقّع ذلك منه وينتظر تهمة جديدة يبعث بها ألكيبيادس إلى بني قومه، فلأجل أن يردّ الكيد عنه ويقلل من أهمية نبأ ألكيبيادس، أنذر وأشار بتحصين المعسكرات والتأهّب لركوب السفن. وفيما كان الأثينيون منهمكين في استعدادهم وصلتهم رسائل أخرى من ألكيبيادس فيها تحذير لهم من فرينيخوس لأنه يريد تسليم أسطولهم إلى الأعداء. فلم يهتمّوا بالخبر هذه المرة، وقدّروا أن ألكيبيادس الذي كان على بيّنة تامةٍ من خطط العدوّ واستعداده، يبغي من تلك المعلومات مجرّد الفائدة الشخصية، ليحسُن في أعينهم ويُدخل في آذانهم صحة التهمة التي عزاها إلى فرينيخوس(*).

لكن عندما هجم هرمون Hermon على فرينيخوس في ساحة السوق وقضى عليه بطعنة خنجر، بوشر بالتحقيق عن اسباب القتل، وكانت النتيجة إدانة القتيل رسمياً بالخيانة، ومكافأة القاتل بضفر أكاليل الغار على رأسه ورؤوس شركائه، عمد أصدقاء ألكيبيادس المقيمون في أثينا إلى شرح المسألة للزعماء الأثينيين في ساموس. فبادر هؤلاء إلى إرسال پيساندر Pisander ليقوم بمحاولة قلب نظام الحكم في العاصمة وليبث الشجاعة في نفوس المواطنين الأرستقراطيين، حتى يأخذوا مقاليد الحكم بأيديهم، ويزيلوا النظام الديمقراطي، وأن يضع أمامهم اقتراح ألكيبيادس بالسعي لكسب صداقة طيسافيرنس ومحالفته، عند وقوع هذا التغير.

هذا هو اللون الذي تلوّن به، والزعم الذي روّج له، أولئك الذين تآمروا على الاطاحة بالنظام الديمقراطي في أثينا وإقامة حكومة الأوليغارشية في مكانه. وما إن نجحوا في مسعاهم وسيطروا على الحكم تحت اسم «حكومة الآلاف الخمسة» [في حين لم يكونوا غير أربعمائة](٤٢)، حتى نبذوا ألكيبيادس وأهملوا أمره. وراحوا يتقاعسون في إدارة دفّة الحرب لأنهم من جهة كانوا يوجسون خيفة من الشعب الناقم

(*) في صيف ٤١١ ق.م بعد أن عزل فرينيخوس من قيادته في ساموس وأظهر نفسه مسانداً متحمّساً للثوريين الأربعمائة في أثينا.

(٤٢) اقترح أولاً أن لا يخسر السلطة إلاّاللطبقة السفلى من عامة الشعب وأن توضع بيد خمسة آلاف من أغنى المواطنين ومقدّميهم. لكن عندما اكتشف بيساندر وزملاؤه قوة حزبهم اقترحوا إصدار قرار بإلغاء نظام الحكم الحالي وأن ينتخب خمسة من الـ«پريتاني» وأن لهؤلاء الخمسة الحق في انتخاب مائة. ولكل واحدة من المائة أن تنتخب ثلاثة. وأن هؤلاء الأربعمائة المنتخبين يكوّنون مجلس شيوخ تستقر فيه السلطة العليا. ويقوم المجلس باستشارة الخمسة آلاف كلما وجدوا حاجة لذلك. وقد نجح المؤتمرون في سنّ هذا القرار. [توكيديدس ٨: ٦٧ و٦٨].

على هذه الردّة والكاره لها، ولأنهم من جهة أخرى كانوا يأملون من اللقيديمونيين شروط صلح مناسبة، لأن هؤلاء كانوا دوماً على وئامٍ مع حكومات القِلّة.

وأُرغم أهل المدينة على الخضوع لأساليب القمع والاضطهاد. وأعدم المستبدّون عدداً كبيراً ممن تجرّأوا على نقد ومعارضة «حكم الاربعمائة» علناً. ولما وردت هذه الأنباء إلى ساموس ثار الغضب بهم وتملّكتهم رغبة الإبحار فوراً إلى پيريوس. وبعثوا يطلبون من ألكيبيادس الحضور، وانتخبوه جنرالاً، وأمروه أن يقودهم للقضاء على المستبدّين. فكان ردّ الفعل عنده خلافاً لما يتوقع أيّ امرئ من رجل رفعه تقدير الجمهور على حين غرّة إلى مركز القيادة، فلم يجد ألكيبيادس نفسه مرتبطاً بأي عهدٍ يقضي عليه بتنفيذ مطالب أولئك الذين خلقوا من لاجئ مطرود جنرالاً لمثل هذا الجيش العظيم وقائداً لهذا الأسطول الضخم، ولا مجبراً على الخضوع لمشيئتهم. وبادر بحكم منصب القيادة الذي تسلّمه إلى معارضة تلك القرارات الهوجاء التي ساقهم إليها غيظهم الفجائي. وسعى لمنعهم من اقتراف الخطأ الجسيم الذي همّوا بالإقدام عليه وأنقذ بذلك الجمهورية من الفناء بحقٍ وحقيق. فلو أنهم أبحروا إلى أثينا، لتركوا كل أيونيا والجزر وهللسبونت تقع غنيمة باردة في أيدي العدوّ دون أيّ مقاومة. في حين لا يكون للأثينيين المنشغلين في حربهم الأهلية إلاّ قتال بعضهم بعضاً داخل أسوارهم. كان ألكيبيادس هو العامل الوحيد أو العامل الرئيس الذي حال دون الكارثة، ولم يقتصر على استخدام وسائل الإقناع مع قادة الجيش، بل نزل إلى الجنود بنفسه واتصل بهم فرداً فرداً يرجو بعضهم ويضغط على بعضهم الآخر. وأبدى ثراسيبولوس Thrasybulus الاستريائي Stiria(*)، صاحب أعلى صوت بين كل الأثينيين، هِمّةً قعساء في هذا الصدد على ما قيل لنا. فقد ظلّ ملازماً لألكيبيادس في جولاته لينادي أولئك الذي استعدّوا للإبحار ويطلب منهم العودة.

وأدّى ألكيبيادس خدمة جليلة أخرى هي مسعاه لإيقاف الأسطول الفينيقي الذي كان اللقيديمونيون يتوقّعون أن يبعث به ملك الفرس لمساعدتهم، أو لانحيازه إلى جانب الأثينيين إن جاء. وبادر إلى الإبحار على جناح السرعة لتحقيق ذلك. تقدّمت العمارة البحرية حتى شوهدت بالقرب من أسپيندوس Aspendus(٤٣). إلاّ أن طيسافيرنس منع تقدّمها إلى أبعد من هذا نكايةً باللقيديمونيين إلاّ أن الفريقين اعتقدا أنها

(*) يجب أن يُميَّز هذا الجنرال الشهير عن ثراسيپولوس ثراسو (في الفقرة ٣٦).

(٤٣) مدينة ساحلية في پامفيلية بين رودس وقبرص.

لم تنحرف عن قصدها إلاّ بمجهود ألكيبيادس ومساعيه. واتهمه اللقيديمونيون خاصةً بأنه نصح البرابرة بالوقوف على الحياد وترك الإغريق يدمّر بعضهم بعضاً، إذ كان واضحاً أن وصول مثل هذه القوة العظيمة إلى أيّ فريق سيرجّح كفّته على الآخر ويمكّنه من الاستيلاء عن كل ممتلكات الآخر البحرية.

لم تمرّ فترة وجيزة إلاّ وتمّ طرد «الأربعمائة»(٤٤) المستبدّين من دست الحكم وراح أعوان ألكيبيادس يدعمون بكلّ قواهم العناصر التي كانت تعمل على إعادة الحكم الديمقراطي. والجماهير الشعبية لم تكتف الآن بمجرّد الرغبة في عودة ألكيبيادس إلى الوطن، بل أصدرت أمراً له بذلك. إلاّ أنه لم يشأ أن يكون مديناً بمنّةٍ للشعب ولا أن يكون موضع اشفاقه . وحلف أن لا يطأ ارض الوطن خالي الوفاض، بل مثقلاً بمجدٍ أو خدمة للبلاد . ولذلك أبحر من ساموس بعددٍ قليل من السفن ومخر عباب بحر كُنيدوس Cnidos وحوّم حول جزيرة كوس Cos. ولما بلغه أن مينداروس Mindarus قائد الأسطول السپارطي قد خرج بكلّ عمارته إلى هللسپونت وأن الأثينيين يجرون في أعقابه، لوى عنانه وأسرع يلحق بالقوّاد الأثينيين. وشاء حُسن الحظ أن يكون وصوله في أحرج ساعةٍ بسفنه الثماني عشرة. فقد اشتبك الأسطولان قرب أبيدوس Abydos في معركة ضارية واستمر القتال حتى الليل سجالاً ولم يستظهر فريق على آخر استظهاراً بيّناً. وكان رجحان الكفة موضعياً. هذا متغلّب هنا وذاك مستظهرٌ هناك والعكس بالعكس. وخلّف ظهور سفنه في نفوس الفريقين اعتقادين خاطئين إذ ارتفعت معنويات العدوّ، وأدرك الأثينيين الفزع، إلاّ أنه رفع العلم الأثيني على صاري سفينة القيادة. وحمل حملة صادقة على سفن البلوبونيسوس التي كانت بيدها المبادأة وهي تطارد سفن الأثينيين. فهزمها ومزّقها وأخذ يطاردها من مسافة قريبة حتى أرغمها على الجنوح إلى الساحل فتحطّمت عليه، فتركها بحّارتها وسبحوا إلى البّر، رغم وجود فارنابازوس الذي خفّ إلى معونتهم بَرّاً، وعمل ما أمكنه لحمايتهم من جهة الساحل. وبالاختصار، غنم الأثينيون من الأعداء ثلاثين سفينة واستعادوا كل سفنهم الأسيرة. وأقاموا نصباً تذكارياً لانتصارهم.

بعد أن ظفر ألكيبيادس بهذا النصر الكبير أبى عليه زهوه وخُيَلاؤه إلاّ أن يُشهِد طيسافيرنس على حاله الجديدة، فتزوّد بالهدايا والجوائز، واعتدّ بكل ما يتفق ومنزلته

(٤٤) اغتصبوا السلطة في حزيران ٤١١ ق.م. وتم القضاء عليهم في أيلول من تلك السنة. وهي السنة الثانية من الأولمبياد الثاني والتسعين، ولنذكر القارئ بوجوب التفريق بين هذا المجلس ومجلس الشيوخ الذي ابتدعه صولون ويتكوّن من عددٍ مساوٍ.

وانطلق لزيارته. إلاّ أن النجاح لم يحالفه في هذا كما تصوّر فطيسافيرنس كان منذ زمن بعيد موضع ريبة اللقيديمونيين، وفيه خوف من سخط الملك، لهذا السبب وجد في زيارة ألكيبيادس فرصةً نادرةً فقبض عليه وأرسله سجيناً إلى ساردیس متوهّماً بأن عمله الشائن هذا سيرفعه في عين الملك ويكون له صكّ براءة من أي اتهامٍ سابق.

ولكن لم يمض شهرٌ واحدٌ على اعتقاله حتى أفلح في الهروب، وبجواد حصل عليه تمكن من الوصول إلى كلازوميني Glazomenae، وهناك ألبس آسره طيسافيرنس ثوب عارٍ جديد بإعلانه أنه كان مُسهماً في خطّة فراره. ومن هناك رحل إلى معسكر الجيش الأثيني(*)، حيث علم أن القائدين مندارِوس وفارنابازوس موجودان معاً في سيزيكوس. فقام بين الجنود خطيباً ومما قاله: «إن القتال براً والقتال بحراً، ولَعَمْر الآلهة القتال ضد المدن المحصنة، يجب أن يكون قتالاً واحداً غير مجزّأ بالنسبة اليهم. وإن لم يحققوا نصراً كاملاً في كل مكان فلن يوجد مالٌ لهم.». ثم أمر بركوب السفن واتجه مسرعاً إلى پروكونيسوس Proconnesus. وأصدر أمره باحتجاز كلّ ما يعترض الأسطول من المراكب والسفن الصغيرة وإيداعها في الوسط لئلا يسبق العدوّ عِلمٌ بقدومه، وزاد في سِرّه كتماناً هبوب عاصفة مطرية عظيمة صحبها رعدٌ وظلام داجن. والحق يقال إن العدوّ لم يكن الوحيد في جهله، لأن الأثينيين أنفسهم ما كانوا يعرفون وجهة سيرهم فالأمر كان فجائياً غامضاً قاصراً على ركوب السفن وإطلاقها في عرض البحر، دون وجود نيّةٍ مسبقة. وبعد أن انجاب الظلام شوهد الأسطول الپلوپونيسيّ جاثماً على مقربة من ميناء سيزيكوس يختال فوق سطح الماء. وخشي ألكيبيادس أن يكتشفوا قوته الحقيقية فيصيبهم الذعر ويحاولوا النجاة بالهروب براً فأمر بقية ضبّاط السفن أن يخفّفوا السرعة ويلحقوا به عن كثب. بينما تقدّم هو بأربعين بارجة وأظهر نفسه للعدوّ واستفزهم للمعركة، فانخدع العدوّ بضآلة عدد السفن واستهانوا بها وبادأوه القتال وكل اعتقادهم أن عدوّهم لايملك غير هذه القوة. ولكن ما إن حَمِيَ الوطيس حتى لاحت طلائع القسم الأكبر من الأسطول وأطبقت عليهم فأدركهم الذعر ونزلوا البرّ لائذين بالفرار، إلاّ أن ألكيبيادس اخترق القلب بعشرين من أفضل سفنه، وأسرع إلى الساحل وأنزل جنوده وشرع في مطاردة العدوّ الذي ترك سفنه وهرب براً، ففتك بعدد كبير منهم. وخفّ فارنابازوس ومندارِوس لمعونتهم ولكنهما هُزما شرّ هزيمة وقُتل مندارِوس بعد أن أبلى خير بلاءٍ، وفرّ فارنابازوس ناجياً بجلده. وغنم الأثينيون عدداً

(*) في مبدأ ربيع ٤١٠ ق.م. كان الأثينيون في كارديا وهي مدينة بالخرسونيز الشرقية.

كبيراً من قتلى العدو(٤٥) وأسلاباً كثيرة وأسروا سفنهم واحتلوا سيزيكوس التي جلا عنها فارنابازوس وأبادوا حاميتها الپلوپونسيّة. وبذلك لم يكن كسبهم قاصراً على هللسپونت وإنما طردوا اللقيديمونيين بالقوة من كل البحار الأخرى. وضبطوا عدداً من الرسائل كانت في طريقها إلى حكّام سپارطا، جاء فيها شرح للهزيمة الساحقة بالأسلوب السپارطي الموجز المقتضب: «آمالنا قُضي عليها. منداروس قتل. الرجال يشكون الجوع. لا ندري ما نفعل...».

وبلغ الزهو والغرور بالجنود الذين حاربوا تحت إمرة ألكيبيادس في القتال الأخير حداً عظيماً، وثملوا بخمرة النصر حتى أنهم راحوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة صناديد لا يشق لهم غبار ولا يقف دونهم شيء. وترفّعوا عن مخالطة الجنود الآخرين الذي عانوا عدداً من الهزائم. إذ حدث قبل فترة غير طويلة(*) أن ثراسيللوس Thrasyllus أصيب بهزيمة قرب أفسُس وان الأفسوسيين أقاموا نصباً تذكارياً من النحاس ازدراءً بالأثينيين(٤٦). فراح جنود ألكيبيادس يعيّرون الجنود الذين كانوا تحت إمرة ثراسيللوس بهذه النكسة معظّمين أنفسهم وقائدهم في الوقت نفسه، كما أنهم رفضوا القيام بالتدريب العسكري معهم أو مساكنتهم في معسكر واحد. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وهاجم فارنابازوس بقوات عظيمة من المشاة والخيّالة وحدات ثراسيللوس التي كانت منصرفة إلى السلب والنهب في أرض أبيدوس. فخفّ ألكيبيادس إليه وتعاونا على هزيمة فارنابازوس وجدّا في إثره حتى جنّ الليل. هذه الحادثة ألّفت بين القلوب وعاد الجميع إلى المعسكرات جذلين يهنئ بعضهم بعضاً. وفي اليوم التالي أقام ألكيبيادس نصباً تذكارياً. وانطلق لاجتياح كل الأقاليم الذي يسيطر عليها فارنابازوس مستخدماً السيف والنار فلم يقف في سبيله أحدٌ. وأسر عدداً كبيراً من طبقة الكهنة والكاهنات، إلاّ أنه أطلقهم بدون فدية. ثم استعدّ لمهاجمة الخلقيدونيين(٤٧) الذين كانوا قد شقّوا

---

(٤٥) ليس هذا التعبير غريباً. فلجثث القتلى حُرمتها الكبيرة وهي تُفتدى كذلك. وما علينا إلاّ التذكر بأن الأثينيين فرضوا عقوبة الموت على قوّادهم المنتصرين في معركة أرغيتس لإهمالهم دفن القتلى.

(*) في صيف ٤١٠ ق.م بعد نصر كيزكوس.

(٤٦) كانت الأنصاب في بادئ الأمر تقام من الخشب وتبقى حتى يعفو عنها الزمن ويمسح العداء بين الشعوب مسحاً. إلاّ أن الأفسسيين أقاموا النصب من النحاس تخليداً لذكرى العار الأثيني. ولهذا راح جنود ألكيبادس يسخرون من جنود ثراسيللوس.

(٤٧) مدينة على البوسفور الأيمن وأنت تتجه إلى البحر الأسود.

عصا الطاعة على أثينا، وقبلوا بحاكم وحامية من لقيديمونيا. لكنه استخبر بأنهم نقلوا غلالهم وماشيتهم من حقولهم وأودعوها أصدقاءهم البيثيين، فوجّه حملته نحو تخوم هؤلاء، وبعث رسولاً يتهمهم بهذا العمل. وكان ذُعرهم من زحفه عظيم الوقع إذ ما لبثوا أن سلّموا له الغنائم ودخلوا معه في حلف.

فانثنى إلى خلقيدون وألقى عليها الحصار وأحاطها بسورٍ من البحر إلى البحر(*) لعزلها تماماً. فزحف فارنابازوس عليه بقواته لفكّ الحصار. وحشّد هيپوقريطس حاكم المدينة كل قواته وحمل على الأثينيين في عين الوقت. فقسم ألكيبيادس قواته إلى قسمين لمقابلة العدوّين في آن واحدٍ، وأرغم فارنابازوس على فرار مخجل، وكرّ على هيپوقريطس وهزمه وقتله مع عدد من جنوده. وبعدها أبحر إلى هللسپونت للتزوّد بالمال، فاستولى على مدينة سيلمبريا Selymbria(٤٨). وهنا تعرّض لخطر جسيم بسبب تهوّره وقلّة حذره. فقد تعهّد بعض السكان أن يسلّموا له المدينة بلا حرب وكان الاتفاق يقضي أن يعطيه المؤتمرون الإشارة بالدخول من مشعلٍ مضاء يُرفع فوق السور بعد منتصف الليل. لكن أحد المتآمرين خالجه الندم عن الخيانة، فخشي الآخرون أن يُفتضح أمرهم، وأُكرهوا على إعطاء الاشارة قبل الموعد المتفق عليه. وما إن لمح ألكيبيادس المشعل مرتفعاً في الهواء حتى هرع إلى الأسوار، ولم يكن جيشه متأهّباً بعد، ولذلك كان في رفقته ثلاثون رجلاً تقريباً، بعد أن أمر أن يلحق به الجيش بأسرع ما يمكن. وبلغ السور ليجد الباب مفتوحاً له، فولجه مع رجاله الثلاثين وعشرين آخرين من ذوي السلاح الخفيف لحقوا به في آخر لحظة. وما إن صارت الشرذمة داخل المدينة حتى جوبهوا بأهاليها يحملون عليهم شاكي السلاح. فبهت وتحيّر في أمره. إذا بقي وقرّر الاشتباك معهم ضاع منه سبيل نجاته. أمّا النكوص فصعب عليه، إذ إنه لم يعرف هزيمة، ولم يفرّ في معركةٍ. ولهذا طلب السكوت بصوت النفير. ثم إنه أمر أحد رجاله أن يعلن قائلاً: «عبثاً ترفعون أيها السلمبريون السلاح في وجه الأثينيين». هذه العبارة خففت من غلواء الفريق التائق للقتال إذ توهّموا أن كل جيش العدوّ قد صار ضمن أسوار المدينة، ورفعت معنويات الآخرين الذين اختاروا التفاهم على تسوية. وفيما هم يتبادلون الحديث ويتداولون الاقتراحات دخل كل جيش ألكيبيادس المدينة. والآن وبعد تخمينه الصحيح بأن السلمبريين جانحون إلى السلم حقاً، ولخوفه أن يعمد

(*) في ربيع ٤٠٩ ق.م.

(٤٨) مدينة في تراقيا على ساحل پروبونتس. كزينفون يسمّيها سيامبرايا.

التراقيون من جيشه إلى نهب المدينة (وكانوا قد انضموا إلى جيشه بأعداد كبيرة إكراماً له) أمرهم بالانسحاب خارج الأسوار كافةً. ولتقديم المدينة الطاعة عفاها من النهب وفرض عليها غرامة مالية فحسب، ثم انسحب منها بعد أن وضع فيها حامية أثينية.

وفي أثناء هذه الوقائع توصّل القادة الأثينيون الذين يحاصرون خلقيدون إلى عقد معاهدة صلح مع فارنابازوس على الشروط التالية:

«أن يدفع لهم مبلغاً معيّناً من المال وأن يعود الخلقيدونيون إلى حمى جمهورية أثينا. وأن لا يقوم الأثينيون بغارات على الأقليم الذي يحكمه فارنابازوس. وأن يسمح فارنابازوس بمرور سفراء أثينا في طريقهم إلى ملك الفرس».

ثم لما عاد ألكيبيادس طلب فارنابازوس أن يصادق هو أيضاً على المعاهدة ويحلف يميناً على التمسّك بها. فرفض ألكيبيادس أن يفعل ذلك إلا بعد أن يحلف فارنابازوس. وعندما تمّت المراسيم على هذا النحو، ساق ألكيبيادس حملةً على البيزنطيين الذين كانوا قد شقّوا على أثينا عصا الطاعة، وأقام أطاماً حول المدينة(*).

إلاّ أن أنكسلاووس Anxilaus وليكورغوس وآخرين عرضوا تسليم المدينة غيلةً إذا تعهّد ألكيبيادس بحفظ أرواح السكان وأموالهم، فنشروا إشاعة عن وجود حركة غير متوقعة في أيونيا اضطرته إلى رفع الحصار والانسحاب. وفي اليوم عينه أظهر علائم الرحيل والإقلاع بجميع الأسطول، إلا أنه عاد ليلاً وأنزل إلى الساحل كلّ جنوده وزحف نحو الأسوار بسكون وخفّة وفي الوقت عينه أدخل سُفنه إلى الميناء مفتعلاً أقصى ما يمكن من الحركة والضجيج والصياح والعنف.

فاعترت البيزنطيين الدهشة وفوجئوا من حيث لايتوقعون وفيما هم يسرعون للدفاع عن مينائهم وسفنهم، سنحت الفرصة لأنصار الأثينيين بإدخال ألكيبيادس إلى المدينة بكلّ أمان. ومع ذلك لم تنته المسألة بدون قتال، فقد تصدّى البلوبونسيون والبويوتيون والميغاريوّن للجنود الخارجين من السفن وأرغموهم على ركوبها ثانيةً. ولما سمعوا أن الأثينيين دخلوا من الجانب الآخر نظموا صفوفهم واندفعوا إليهم، على أن ألكيبيادس تمكّن من النصر بعد قتال ضارٍ، وكان يقود بنفسه الميمنة وثيرامينيس Theramenes يقود الميسرة. وأخذ ثلاثمائة أسير تقريباً، وهم كل ما تبقّى من قوات العدوّ. وبعد انتهاء المعركة لم يُقتل بيزنطيّ واحدٌ أو يُطرد خارج المدينة تطبيقاً للشروط

(*) أثناء شتاء ٤٠٩-٤٠٨ ق.م.

المتفق عليها لتسليم المدينة وهي ألاّ يُضارّ أحد من سكانها لا بنفسه ولا بماله. ووقف أنكسيلاووس فيما بعد في لقيديمون متهماً بهذه الخيانة فلم يستنكر عمله، ولم يعترف بخطئه. وكانت حجّته أنه ليس لقديمونياً بل بيزنطياً وأن الخطر لم يكن مُحدقاً باسپارطا بل ببيزنطة. فقد أُحكم الحصار حول المدينة واستحال نقل الأرزاق إليها، وكان رجال حامية الپلوپونسيين والبويوتيين يلتهمون كل ما هو مختزن في حين يتضوّر البيزنطيون جوعاً مع زوجاتهم وأطفالهم. ولذلك فإنه لم يخن بلاده ويسلّمها للعدوّ وإنما أنقذها من فواجع الحرب، متأثراً بذلك خطى معظم مشاهير رجال لقديمونيا الذين لايرون أكثر شرفاً وكرامةً من تحقيق كل ما هو نافع لبلادهم. فاحترم اللقيديمونيون دفاعه هذا وبرأوا كل المتهمين.

وهزّ الشوق ألكيبيادس إلى موطنه أو بالأحرى تاق إلى أن يعرض على بني قومه شخصاً ظفر لهم بانتصارات عديدة. فأبحر إلى أثينا(*) وزُيّنت السفن التي رافقته بالعديد من التروس وغيرها من غنائم الحرب وسحبت خلفها كثيراً من البوارج التي استُولي عليها. مع شعارات وزينات الكثير الآخر الذي أُغرق وحُطّم، ويبلغ مجموعها الكلّي مائتين. ولا يُعتدّ كثيراً بما أورده دوريس Duris الساموسي الذي يدّعي نسباً بألكيبيادس - من القول إن خريسوغونوس Chrysogonus أحد الفائزين في الألعاب البيثية كان ينظّم حركة مجاذيف السفن بأنغام نايه فتتحرّك بانسجام الإيقاعات الموسيقية، وأن كاليپّيديس Callippides الممثل التراجيديّ كان يلقي الكلام إلى النوتية وهو مرتد جزمته وطيلسانه الأرجواني وما إليها من حُلله وحليّه السركسيّة، وأن سفينة القيادة رفعت شراعاً أرجوانياً عند دخولها الميناء. كل هذه الوقائع لم يرد ذكرها عند ثيوپومپوس أو أيفوروس أو گزينفون. والحقيقة هي أنه لا يُعقل البتّة أن يعود المرء إلى موطنه وقومه من نفي طويل الأمد تخلّله كثير من المصائب والنوائب مثلما يعود نشوانٌ طروبٌ من مجلسٍ لهو وشراب. وأمّا الواقع فكان بعكس هذا إذ دخل ألكيبيادس الميناء متوجّساً خيفة مرتعد الفرائص. ولم يجرؤ على النزول إلى اليابسة حتى شاهد ابن عمّ له يدعى يوريپطموس Euryptemus مع آخرين من أصدقائه ومعارفه، وهم وقوف على الرصيف متلهّفون لاستقباله ودعوته للنزول. وما إن وطئت البرّ قدمُه حتى اندفعت إليه الجماهير مستقبلةً وكأنها لا ترى أحداً من القوّاد الآخرين غيره. وتزاحمت عليه وتكأكأت وحيّته بهتافات شقّت عنان السماء وراحت تتبعه خطوة خطوة. وأخذ

(*) من ساموس في ربيع ٤٠٨ ق.م.

القريبون منه يضفرون الأكاليل على رأسه. أما الذين لم يصلوا إليه فقنعوا بالوقوف بعيداً ومتابعته بأنظارهم. وكان كبار السنّ والعجزة يدلّون الصغار عليه بالإشارة إليه. إلاّ أن الفرحة الشعبية مازجها شيء من الدموع، والسعادة الحاضرة شابتها ذكرى مؤلمة للمصائب التي عانوها. وعاد بهم الفكر إلى الماضي وتبيّنوا أنهم ما كانوا ليصابوا بنكسة صقلية، ولا ليهزموا في أيّ موقعة حربية، لو تركوا تصريف الأمور وقيادة الجيوش لألكيبيادس، ولمّا تسلّم مقاليد الأمور قبلها كان حالهم سيئاً فقد قُضي على نفوذهم في البحر أو كاد، وعجزوا عن حماية ضواحي مدينتهم من البرّ. كما كان التناحر الحزبي قد مزّقهم وبلغ بهم وضعاً مُشيناً من البؤس. وسرعان ما انتشلهم من وَهْدتهم، وأنقذهم من حالتهم المزرية، ولم يكفه أن يستعيد لهم سلطانهم الداثر على البحر بل قلب هزائمهم إلى انتصارات في كل برّ.

سبق للشعب أن أصدر مرسوماً بعودة ألكيبيادس من المنفى، بناءً على اقتراح كريتياس Critias(٤٩) ابن كالليسخروس Callaeschrus كما يظهر من مرثيّته التي أراد بها تذكرة ألكيبيادس بالخدمة التي قدّمها له:

«من اقتراحي صدرَ ذلك المرسوم الذي جاء بك إلى الوطن من منفاك الشاقّ.

الاقتراع العام أنا الذي بدأته، وصوتي هو الذي وضع الختم على المرسوم».

ثم دُعي الجمهور إلى اجتماع عام(*)، ووقف ألكيبيادس بينهم خطيباً فأسهب في وصف ما عاناه متأسّياً متألّماً. ثم شكا بلهجة رقيقة من المعاملة الفظّة التي عومل بها، وعزاها جميعاً إلى معاندة الأقدار وشَرّ الجنيّ الذي يلازم روحه. ثم انتقل فأفاض في الكلام عن مستقبلهم وآمانيهم. وحثّهم على التمسك بأهداب الشجاعة والأمل الباسم. وقام المواطنون بوضع تيجان الذهب على مفرقه، وانتخبوه قائداً عاماً للبرّ والبحر ومُنح صلاحيات مطلقة. كما أصدروا قراراً بإعادة أملاكه المصادرة إليه، وأوعزوا إلى

---

(٤٩) صدر هذا المرسوم قبل ثلاث سنوات في آخر خريف العام ٤١١ ق.م. بعد إسقاط مجلس الأربعمائة. وكريتياس هو ابن عم أفلاطون وهو الذي ذكره في محاوراته وأصبح صديقاً لألكيبيادس بعد عداء مستحكم. إن الشهوة إلى السلطة تدمّر كل الروابط. فقد كان من ألدّ أعدائه عندما أصبح ألكيبيادس واحداً من الطغاة الثلاثين. وأرسل يؤكد لليساندر أن أثينا لن ترتاح وسپارطا لن تأمن إلاّ بتصفية ألكيبيادس. قُتل كريتياس فيما بعد، قتله ثراسيبولوس عندما تولّى هذا إنقاذ أثينا من حكم الطغاة.

(*) في أوائل صيف ٤٠٨ ق.م.

اليومولپيدي Eumolpidae والمنادي الأقدس، بَحلّه من اللّعان الديني الذي نطقوا به بموجب الحكم الصادر عليه. فأطاع الجميع، إلاّ أن الكاهن الأعظم ثيودوروس اعتذر بقوله «إن هو بريء، فإني ما لعنتُه مطلقاً».

وبصرف النظر عن سير أمور ألكيبيادس سيراً حسناً يتفق مع المجد الذي بلغه فإن كثيراً من الناس ما زالوا قلقين بعض الشيء، ينظرون إلى ظروف تطهير عودته نظرة شؤم. ففي اليوم الذي وصل الميناء كانت أثينا تحتفل بعيد الربّة منيرڤا[٥٠]، التي يطلقون عليها پلنتيريا Plynteria، ويقع في الخامس والعشرين من شهر ثارجيليون عندما يقوم الپراكييرغيدي Praxiergidae بإحياء شعائر الطقوس السرّية الخاصة بهم. فينتزعون كل الحليّ والزينات من تماثيل الربّة ويُسدلون أغطية وستائر على الجزء الذي تحتلّه من المعبد لحجبه عن النظر. ولذلك يعتبره الأثينيون أنحس يوم وأكثره شؤماً ولا يأتون عملاً مهماً من أعمالهم فيه. وبموافقة قدوم ألكيبيادس فيه تصوّروا أن الربّة لم ترحّب به ولم ترتح إليه لأنها أخفت وجهها ورفضته. ومع هذا كلّه سار كل شيء وفق رغبته. وعندما تمّ إصلاح السفن المائة التي عادت معه، وهُيّئت للإبحار، أخّرته رغبة شريفة حتى ختام الاحتفال بالأسرار المقدسة، فمنذ احتلال دسيليا Decelea وسيطرة العدوّ على كل الطرق المؤدية إلى أليوسيس من أثينا، والموكب يسلك سبيل البحر لا تصاحبه أية شعائر لائقة. فقد اضطروا إلى حذف مراسم القرابين والرقص وغيرها من الطقوس الأخرى التي جرت العادة بأدائها في مراحل من الطريق عندما يتقدم المركب إلى ياكّوس Jacchus[٥١]. فوازن ألكيبيادس القضية في فكره، ووجد في إعادة جلال هذه الشعائر القديمة عملاً مجيداً فيه تكريمٌ للآلهة وارتفاع جديد لمنزلته بين الناس. وقرّر مرافقة الموكب في طريق البرّ، وحمايته بجيشه من العدوّ. فإذا بقي آغيس في موضعه ولم يعترض سبيله فسيكون في هذا إضعافٌ لسُمعته وصيته. وإذا اضطر ألكيبيادس إلى خوض حربٍ مقدّسةٍ في سبيل الآلهة ودفاعاً عن أقدس وأجلّ شعائر الدين فسيكون ذلك على مرأى من بلاده وسيثبت بها لبني قومه مدى بسالته. ما إن قرّ رأيه على هذا وأبلغه

---

(٥٠) في هذا اليوم يُغسل تمثال مينرڤا. وتُحاط المعابد بخيط إشارة إلى أنها مقفلة في وجه المصلّين كما جرت العادة في أيام النحس. ويُحمل تين مجفّف أثناء الموكب لأنه أول فاكهة تؤكل بعد الأكورن. أما الپراكيرغيدي فهم الكهنة المختصون بمينرڤا.

(٥١) يدوم عيد كيريس وپروسپرين تسعة أيام. وفي اليوم السادس يحمل من كيريس تمثال باخوس أو أياخوس الذي يعتقدون أنه ابن جوپتر ويطاف به في موكب. ولفظ أياخوس يطلق أحياناً على الترتيلة التي تنشد أثناء مسيرة الموكب أو حتى على أيام العيد برمّته.

للأيومولپيدي والمنادين حتى بادر إلى وضع ربايا عسكرية على رؤوس التلال. وعند انبلاج الصبح أطلق كشّافته ترود الطريق. ثم أخذ معه الكهنة والرهبان والمكرّسين واضعاً إياهم في وسط رتل جنوده وقادهم بنظام دقيق وهدوء تام. وكان موكباً جليلاً رائعاً. وقال أولئك الذين لا يُضمرون كرهاً لألكيبيادس إنه مارس فيه وظيفتي الكاهن الأعظم والقائد العسكري في وقت واحدٍ. ولم يجرؤ العدوّ على القيام بأي عمل ضدّه فوصل المدينة بأمان. ولم يكن ارتفاع قدره في وعين ذاته بأقلّ من ارتفاع منزلته في عيون الشعب لهذه المأثرة المجيدة. وسرح بهم الخيال حتى وصل إلى حَدّ الإيمان بأن قيادته تجعل جيوشهم منيعة عن العدوّ لا يمكن قهرها. واشتد تعلّق أوزاع الشعب ودهماؤه به بحيث راحوا يصرخون برغبتهم في نصب نفسه حاكماً «طاغية» عليهم، ولم ير بعضهم معرّة «في مفاتحته بذلك ونُصحه بأن يجعل نفسه في نجوة من الحسد والبغض، بإزالة قوانين الشعب ومراسيمه، وقمع الثرثارين الذين يلحقون الدمار بالدولة، ليكون قادراً على تصريف شؤون الحكم وحده دون خوفٍ من حسابٍ أو إدانة».

وليس في الإمكان معرفة المدى الذي وصله ميلُه في ضبط السلطة المطلقة. وكل ما نعرفه أن أعيان المدينة وكبراءها كانوا شديدي الخوف من ذلك، حتى أنهم استعجلوه في الإبحار، وعيّنوا الزميلين اللذين اختارهما هو، وسمحوا له بكلّ ما طلب[٥٢]. فانطلق بأسطول قوامه مائة سفينة[*] فبلغ أندروس وهناك قاتل أهلها وقاتل اللقيديمونيين الذين ساعدوهم وتغلّب عليهما معاً. على أنه لم يفلح في الاستيلاء على المدينة، وهذا ما أطلق ألسنة أعدائه بمختلف التهم ضدّه. والحقيقة هي: إذا كان ثمّ شخص في الدنيا دمّره مجده فهو ألكيبيادس. لأن انتصاراته المستمرة كوّنت فكرة معيّنة عن شجاعته وألمعيّته، وهي أنه إذا فشل في أمرٍ ما سعى إليه فالسبب هو إهماله. ولن يعتقد أحدٌ بأن السبب هو افتقاره للسلطة. إذ كان الظنّ السائد عنه أن لا شيء يصعب عليه إذا عالج أمره بجدٍّ وحزمٍ.

وأخذ الأثينيون يتوقّعون يومياً وصول الأنباء عن إخضاع خيوس وبقية أيونيا. وعيل صبرهم لأن الأمور لا تسير بالسرعة التي كانوا يقدّرون لها. ولم يفكروا بمبلغ حاجته إلى المال، وبأنّ مواصلة الحرب ضدّ عدوّ لا ينقصه شيء من الأعتدة والأرزاق تأتيهم من ملك عظيم، وكثيراً ما لجأ ألكيبيادس إلى النزول عن أسلحته ليؤمّن المال

---

(٥٢) يخبرنا كزينفون بأنّهما أرسطوقراطس وأديمانتوس وقد اقتصرت مشاركتها في القيادة على البرّ.

(*) في نهاية تشرين الأول ٤٠٨ ق.م.

والأرزاق لإطعام جنوده. وهذا ما فسح مجالاً لآخر اتهام وُجّه إليه. فقد أُرسِل ليساندر Lysander من لقيديمون ليتسلّم قيادة أسطولهم ومعه مبلغ كبير من المال نفحه به كورش ملك الفرس. فراح يدفع لكلّ بحّار أربعة «اوبولات» أجوراً يومية وكانت ثلاثةً قبلاً، ولم يكن ألكيبيادس قادراً حتى على دفع ثلاثة أوبولات لرجاله. وحزم أمره أخيراً على دخول كاريا Caria للحصول على المال وترك قيادة الأسطول في غيابه لأنطيوخس وهو رجل بحر مجرّب، إلا أنه متهوّر متسرّع قليل الشعور بالمسؤولية(٥٣)، مع أوامر صريحة له بأن لا يشتبك في قتال مع العدوّ مهما استُفِزّ. إلاّ أنه لم يبالِ بالأوامر واستخف بها إلى الحدّ الذي عمد معه إلى سفينة الخاصة وسفينة أخرى فانطلق بها إلى أفسوس حيث يرسو أسطول الأعداء، وراح يخطر بسفينتيه أمامهم واقترب منهم متحرّشاً حتى قَيَاديم السفن، واستخدم كل وسائل الاستفزاز الممكنة قولاً وعملاً. فأوسق ليساندر سفناً قليلة بالرجال ولاحقه، فخرجت كل السفن الأثينية لمعاونة أنطيوخس. ولم يكن من ليساندر إلاّ أن جرّد الأسطول كلّه، واشتبك الفريقان في المعركة ودارت دائرتها على الأثينيين ونال بها نصراً ساحقاً. وقُتل أنطيوخس. وأخذ ليساندر أسرى من السفن والرجال. وأقام نصباً تذكارياً.

وأسرع ألكيبيادس إلى ساموس حال سماعه بالنبأ، ثم خرج منها بكل أسطوله يريد ليساندر، إلاّ أن هذا القائد لم يخرج إليه وأبى النزال قانعاً بالنصر الذي كسبه.

وكان ثراسيبولوس ابن ثراسون Thrason أشدّ رجال الجيش حقداً على ألكيبيادس وكرهاً به، حتى أنه سافر إلى أثينا بقصد رفع شكوى عليه، وإثارة أعدائه في المدينة ضدّه. وقام خطيباً في الاجتماع الشعبي وأوضح «أن ألكيبيادس فرّط بمصالحهم وأتلف أمورهم وخسر سفنهم بمجرّد الإهمال المكابر لواجباته، وأُودع قيادة الجيش في غيابه أناساً أصبحوا موضع ثقته من جرّاء مجالس الشراب والقصف وبذيء الكلام. في حين كان يروح ويغدو على هواه يجمع الأموال، وينغمس في ألوان من الترف والبذخ والفجور بين عاهرات آبيدوس وآيونيا، وأسطول العدوّ قريب متربّص بنا الدوائر مستعد للانقضاض». وأصاخ الأثينيون سمعهم لهذه الشكاوى وأظهروا حنقهم وعدم رضاهم بانتخاب قادة آخرين للجيش(٥٤).

---

(٥٣) وهو الذي أمسك له بالسُّماني. يقول كزينفون إن ليساندر أخذ خمس عشرة سفينة وانسحب بعد المعركة إلى لسيپوس.

(٥٤) وهم بحسب قائمة كزينفون: كونون وذيوميذون وليونتس، پيركلس وأبراسينيدس وأرسطوقراطس وأرخستراتوس وپروتوماخوس وثراسيلوس وأرسطوغينس.

لمّا سمع ألكيبيادس بما جرى بادر إلى ترك الجيش كله(٥٥) خشية مما سيعقب، وجمع حوله جيشاً من الجنود المرتزقة وهاجم على حسابه الخاص أولئك الثراقيين الذين يسمّون أنفسهم بالأحرار ولا يعترفون بسلطة أي ملك. وبهذه الوسيلة جمع ثروة طائلة وفي الوقت عينه حافظ على الإغريق الذين يقطنون الحدود من غارات البرابرة.

كان الجنرالات الثلاثة الجدد تيديوس Tydeus وميناندر Menander وأدمينتوس Adimentus قد اتخذوا أيكوسپوتامي Aegospotami(٥٦) قاعدةً لهم بكلّ ما بقي للأثينيين من سفنٍ. وكانوا ينطلقون إلى البحر صباح كل يوم من هذه القاعدة لاستدراج ليساندر إلى معركة بأسطوله الراسي قرب لامپاسكوس Lampascus، ويعودون بعد كل اشتباك للاستراحة بقيّة اليوم احتقاراً للعدو وعدم مبالاة به، ودون نظام. ولم يكن ألكيبيادس الغريب منهم(*)، بمن يتعامى عن الخطر المحدق بهم أو بالذي يقلل من شأنه. ولم يهمل التصريح لهم بذلك إذ ركب جواده وأقبل عليهم وشرح لهم أنهم اختاروا قاعدة غير صالحة أبداً، لأنها لا تمتاز بمناعةٍ ولا تمنحهم أماناً من غارة، كما أنها بعيدة عن أية مدينة مما يضطرهم إلى جلب تجهيزاتهم وأرزاقهم الضرورية من سيستوس Sestos البعيدة. وأشار أيضاً إلى عدم مبالاتهم بوضع الجنود عند نزولهم إلى البرّ، وحذّرهم من مغبّة تركهم الحبل على الغارب لهم يتفرّقون دون نظام ويروحون ويغدون كما شاؤوا في حين كان أسطول العدوّ الذي هو بقيادة جنرال واحدٍ يقظاً متربّصاً بهم، مطيعاً للنظام إلى آخر حَدّ وعلى مسافة قريبة جداً منهم. ونصحهم بالانتقال بالأسطول إلى سيستوس(٥٧). فلم يكترثوا لقوله. وأمره تيديوس بلهجة مهينة أن ينصرف قائلاً إنه ليس القائد الآن، وإنما هناك آخرون يقودون الجيش. وبادر ألكيبيادس إلى الانصراف وقد لاحت له نيّة غدر. وقال لأصحابه الذين رافقوه إلى

---

(٥٥) آخذاً معه بارجة واحدة انسحب بها إلى القلاع التي بناها ربما ليتخذها ملاذاً.

(٥٦) يتخطّى پلوتارخ هنا ثلاث سنين في غضونها حلّت هزيمة بكونون بعد أن توغّل قليلاً في أرض العدو. وفي السنة التالية وهي السنة السادسة والعشرين من الحرب الپلوپونيسية نال الأثينيون نصر أرغيتس. وقاموا باعدام ستة من جنرالاتهم بتهمة بسيطة تقدّم بها زميلهم ثيرامينيس. وفي السنة الأخيرة أبحر الأثينيون إلى إيغوس - پوتامي وهو موضع على مقربة من المضايق مقابل لامپلسكوس كما جاء في المتن - الفترة تبدأ من ربيع ٤٠٧ حتى خريف ٤٠٥ ق.م.

(*) في قلعته قرب پاكتيي Pactye (كزنيفون الهيللنيون ٢:١:٢٥).

(٥٧) الضبّاط الذين يؤمّرون على الجيوش الإغريقية وأساطيلها يطلق عليهم اسم جنرال أحياناً، ويطلق عليهم اسم أميرال أحياناً. لأنهم عادة يشرفون على الحركات العسكرية في البرّ والبحر على حَدّ سواء.

خارج المعسكر: «لو احترم الجنرالية رأيه ولم يعاملوه بهذا الاحتقار الذي لا يُحتمل لأفلح خلال أيام معدودات في إرغام اللقيديمونيين مهما كرهوا، إمّا على قتال الأثينيين في البحر، أو مغادرة سفنهم». وعدّ بعضهم كلامه هذا مجرّد ادّعاءٍ فارغ، وقال آخرون إن المسألة ممكنة إذ إنه قد يأتي بجموع كبيرة من الخيّالة والنبّالة التراقيين ليهاجمهم برّاً ويشيع الفوضى في معسكرهم(٥٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث صحة استنتاجه وحكمه على أخطاء الأثينيين. فقد انقضّ عليهم ليساندر فجأة، وهم أبعد الناس عن الشكّ في الأمر، وبلغ عنف هجومه حداً لم يفلت معه من يده غير كونون Conon وحده بثماني سفن فقط(٥٩)، أما البقية وكان عددها يناهز المائتين فقد استولى عليها وساقها خلفه غنيمةً مع ثلاثة آلاف أسيرٍ أعمل السيف في رقابهم جميعاً. وبعد فترة قصيرة استولى على أثينا نفسها وأحرق كل ما وجده فيها من السفن وهدم أسوارها الطويلة(٦٠). ودبّ الخوف في نفس ألكيبيادس من اللقيديمونيين الذين غدوا سادة البحر والبرّ من غير منازع، فرحل إلى بيثينيا، بعد أن بعث إليها بأموال كثيرة، وأخذ معه ما يزيد على ذلك، وترك في الحصن الذي كان يقيم فيه مقداراً يزيد بكثيرٍ على ما سبق ذكره. إلاّ أنه خسر جزءاً كبيراً من ثروته في بيثينيا فقد سطا عليه بعض التراقيين هناك وسرقوه. وعندها قرّر الذهاب إلى بلاط أرتحششتا وكان واثقاً أن الملك لن يجده أقلّ مواهب من تميستوكلس عند امتحانها، زد على هذا أنه إنما يقصده في قضيةٍ أنبل وأشرف مما قصده به تميستوكلس. فلم تكن غايته عرض خدماته ضدّ بني قومه ووطنه كما فعل تميستوكلس، بل ضدّ أعدائهم. أراد أن يحصل على عون من الملك للدفاع عن بلاده. وقدّر أن [فارنابازوس] لن يبخل عنه بحق اللجوء فقصده في فريجيا.

وظلّ يعيش هناك ردحاً من الزمن يتبادلان الودّ والاحترام والتكريم. وكانت حال الأثينيين أثناء ذلك يرثى لها. أناخ البؤس عليهم بعد خسرانهم كل مستعمراتهم، وزاد في شقائهم حرمانهم الحريّة أيضاً، وقيام ليساندر بتعيين ثلاثين حاكماً مطلقاً في المدينة، وإذ ذاك وفي وسط خرابهم بدأوا يستعيدون الأفكار التي عُرضت عليهم ولم يوافقوا عليها حين كانت السلامة ممكنة. وأقرّوا بأخطائهم الماضية وندموا على

---

(٥٨) عندما يُرسي الأسطول مدة معيّنة تنزل عادةً قوات برّية وبحرية وتعسكر في البرّ على الساحل.

(٥٩) هربت سفينة تاسعة تعرف باسم پارالوس لتحمل أنباء الهزيمة الساحقة إلى أثينا. ولجأ كونون إلى قبرص وكان أيڤاكوراس ملكها (انظر سيرة ليساندر).

(٦٠) حصل ذلك في السنة الرابعة من الأولمبياد الثالث والتسعين أي في السنة الثامنة والعشرين من الحرب البلوپونيسية.

حماقاتهم ووجدوا في إساءتهم معاملة ألكيبيادس الثانية خطيئة لايمكن اغتفارها. فقد طردوه دون أن يرتكب خطأً بنفسه، بل لمجرّد حنقهم على مرؤوس من مرؤوسيه فقد بضع سفن بصورة مخجلة، وارتكبوا هم أنفسهم جريمة أدعى إلى الخجل والعار بحرمان الجمهورية من أشجع قوّادها وأعظمهم حِنكة ودهاء. وكانوا يشعرون مع ذلك أن مجرّد وجود ألكيبيادس في قيد الحياة يجعلهم يتشبثون بالأمل الواهي، ويمنعهم من اليأس التامّ بأحياء الجمهورية في أثينا. وكانت أنفسهم قانعة بأنه أن لم يستطع وهو في المنفى أن يجلس عاطلاً غير مكترث فسيكون الآن أقلّ صبراً على السكوت وتحمّل إهانة اللقيديمونيين لبلاده، وأشدّ سُخطاً على استبداد الحكام الثلاثين إن واتته الفرصة. وليس من قبيل السخف أو أضغاث الأحلام أن تخالج أفراد الشعب مثل هذه الأمنيات وها هم «الحكام الثلاثون» أنفسهم شديدو اللهفة إلى تسقّط أخباره ومتابعة كل حركاته وسكناته. وبمختصر القول بيّنَ كريتياس لليساندر أن اللقيديمونيين لن يصفو لهم الجوّ في بلاد الإغريق، وليس ثمّ ضمان لسيادتهم عليها إلاّ بالقضاء التام على الديمقراطية الأثينية. وإذا كانت المظاهر تشير إلى خنوع الأثينيين وصبرهم على هذا العدد الضئيل من الحكام فإن مجرّد علمهم بأن ألكيبيادس ما زال حيّاً لن يدعهم يذعنون أو يرضون بحالتهم الراهنة.

إلاّ أن ليساندر لم يقتنع بهذه الحجج حتى بلغته بالأخير أوامر سرّية من حكام لقيديمون تريد منه بصراحة أن يعمل على قتل ألكيبيادس. ولا يُعرف هل أن الدافع إلى هذا كان خوفهم من حيويته وجراءته في الاضطلاع بكلّ ما هو خطر أو إطفاءً لحقد آغيس عليه. وعندما وصلت الأوامر بذلك إلى ليساندر بعث رسولاً إلى فارنابازوس يطلب منه تنفيذ ذلك. فعهد فارنابازوس إلى ماجيوس Magaeus أخيه، وسوساميثريس Susamithtes عمّه بالأمر. وكان ألكيبيادس في حينه يسكن قرية صغيرة فريجيّة مع تيماندرا Timandra محظيّته. ورأى فيما هو نائم الحلم التالي: «وجد نفسه يرتدي ثياب محظيّته وهي تحتضنه بين ذراعيها وتصفّف شعره وتجمّل وجهه بالمساحيق كأنه امرأته». وزعم آخرون أنه رأى في الحلم ماجيوس يحتزّ رقبته ويحرق جسده. وعلى أية حال أنه شاهد هذه الرؤى قبل مقتله بزمن قصير. وهؤلاء الذين أُرسلوا لقتله لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لدخول منزله، بل طوّقوه أوّلاً ثم أشعلوا النار فيه. وما إن أدرك ألكيبيادس نيّتهم حتى جمع مقداراً كبيراً من الثياب والأثاث وغطّى بها النيران محاولاً إخمادها ثم لفّ طيلسانه حول ذراعه اليسرى وأمسك بسيفه المنتضى بيده اليمنى، وقذف بنفسه وسط اللهب وخرج منها سليماً قبل أن تحترق ثيابه. وتراجع

البرابرة إلى الخلف حالما رأوه ولم يجرؤ أحد على التقدم منه أو الاشتباك معه بل وقفوا على مسافة وأجهزوا عليه بالسهام والرماح المقذوفة، وانصرف البرابرة بعد قتله. فرفعت تيماندرا الجثّة وغطّتها ولفّتها بثيابها(٦١). وقامت على دفنها دفنة لائقة محترمة على قدر ما سمحت به ظروفها. وقيل إن بنت تيماندرا(٦٢) هذه هي لايس Lais الشهيرة، الملقّبة بالكورنثيّة وإن كانت من هيكّارا Hyccara وهي بلدة صغيرة في صقلية. هناك فريق يتفقون على وقائع موت ألكيبيادس التي سردناها في كل تفاصيلها، خلا أنهم لايعزون سببها إلى فارنابازوس أو ليساندر أو اللقيديمونيين، بل يزعمون أنه كان يعاشر في منزله سيّدة صغيرة السنّ من أسرة نبيلة هتك عِرضها، ولم يستطع إخوتها احتمال عارها فأشعلوا النار في المنزل الذي يسكنه وقتلوه وهو يحاول النجاة بالشكل الذي فصّلناه.

---

(٦١) دفنته في ميلّيسا. وقد أعلمنا أثينيوس [١٣ : ٤] أن النصب كان باقياً في عهده وأنه شاهده بعينه. وقد أمر الإمبراطور هادريان تخليداً للرجل العظيم أن يُصنع له تمثال من مرمر پاري وينصب فوق الضريح، وأمر بتضحية ثور له كل سنة...

إلى جانب الروايتين اللتين رواهما پلوتارخ هنا حول كيفية موته، توجد رواية ثالثة لديودورس [١٤ : ١١] الذي يعزو السبب إلى الحسد الذي كان يكنّه له فارنابازوس السياسي الدنيء. ويقول أرسطو [الطبيعة ٤ : ٢٩] كان موته في ألافوس وهو جبل في فريجيا.

(٦٢) داماساندرا Damasandra كما يسمّيها أثينيوس، ويضيف قائلاً: إن ثيودوتا محظيته الأخرى قامت بكلّ ما في إمكانها لتشييعه ودفنه دفنة لائقة.



أدونيس

كوريولانوس

CORIOLANUS
(Caius Marcius)

القرن الخامس ق.م

أنجب البيت الپاتريشي المسمّى مارچيي Marcii في روما كثيراً من عظماء الرجال ومشاهيرهم، ومن بين الغابرين أنكوس مارشيوس Ancus Marcius حفيد نوما[1] لابنته، وخَلفُ تللوس هوستيللوس في العرش الروماني. ومن الأسرة نفسها نبغ أيضاً پوبليوس Publius وكونيتوس مارشيوس اللذان أسالا إلى روما أفضل وأكبر كمية من الماء عرفها أهلها. ومثلهما چچنوسوريوس Cecnsorinus الذي اختاره الشعب مرتين لمنصب أمين بيت المال، وحملهم هو نفسه على إصدار قانون يحرم على المرء أن يتولّى هذا المنصب مرتين. على أن كايوس مارشيوس الذي أكتب عنه هنا كان يتيم الأب، نشأ ورُبّي في فترة ترمّل أمّه. فأثبت لنا بهذا أن فقد الأب لا يمنع أحداً من توقّل درجات المجد والشهرة، والتحلّي بأسمى الفضائل في الحياة، ولا أن يكون عقبة دون التفوّق والصلاح الحقيقي. وعلى أية حال، فأشرار الناس مغرمون في إلقاء تبعة شرّهم ورداءتهم على سوء طوالعهم والإهمال الذي عانوا في الصغر. وإنه كذلك لشاهدٌ لا يقلّ قيمةً عمّا أسلفنا على صواب رأي أولئك الذين يؤمنون بأن الخلق الكريم الممتاز المتجرّد عن الضوابط والقيود الملائمة هو أشبه بالتربة الخصبة غير المحروثة، فهي أهل لإنتاج الكثير من السيّئ والرديء أيضاً. وفي حين تراه يتنقل من نجاح إلى نجاح في كل أعماله الشريفة بقوة روحٍ فيه، وفاعليةٍ متأجّجة واستمرارية عنيدة لازمت كل ما اضطلع به من مهامٍ، كان من جهة أخرى يرخي العنان لجموح عاطفته. ولقد

(١) تزوّجت پومپليا بنت نوما بمارچيوس ابن سابيني، عندما أقنع نوما بقبول المنصب الملكي وتبعه إلى روما، كان يأمل هو أن يخلفه في هذا المنصب. لكنه ما لبث عن بخع نفسه عندما أُغفِل وتخطوه لينصّبوا توللوس هوستيليوس. ومن زيجة پومپليا ولد أنكوس ابن مارچيوس ووصل إلى المنصب الذي حُرم منه جدّه. ومن هذه الأسرة جاء كوريولانوس. والماء المنوّه به في السطر التالي هو أصفى ماء في روما. وقد جيء به بعد شقّ ساقية له من منبعه طولها ستون ميلاً.

كان من نتيجة إصراره العنيد على عدم إنزال نفسه إلى إرادة الناس المحيطين به، أو تكييف أحاسيسه وأخلاقه لهم، أن جعل نفسه عاجزاً عن العمل مع الآخرين. إن أولئك الذين كانوا يرقبون معجبين كيف كانت طباعه صامدة إزاء كل مناعم الملذّات، وإغراء الكسب المادّي، صابرة على مشاقّ الخدمة، في حين أنمت صلابة إرادته العامّة تلك الصفاتِ الملازمة لها مثل ضبط النفس والعزيمة والاستقامة؛ لم يسعهم إلاّ أن يضيقوا ذرعاً بصرامته وفظاظته وغطرسته واستبداده التحكميّ، وهي من حياة المواطن ورجل السياسة وان الدراسة والثقافة والتمرّس في الفنون لا تنطوي على فوائد لطلاّبها أعظم من فوائد الدروس الراميّة إلى التهذيب البشري والتحضّر. فهذه تدرّب أخلاقنا الطبيعيّة على الخضوع للحدود التي يرسمها العقل، وتجنّبنا التطرف الجامح.

في تلك الأزمان كانت هذه المؤهّلات تُعتبر في روما أرفع ما يمكن أن تسمو إليه النفس، والأعمال الحربية هي ميدان ممارستها الوحيد. وخير دليل على ذلك: الكلمة اللاتينية Vertuten: «الفضيلة»(*) فإنها مرادف دقيق لشجاعة الرجل، حتى لكأن البسالة والفضائل مجتمعة شيءٌ واحد، وأنهم يستخدمونها كصفة عامة لتفوّقٍ خاصٍ بشخصٍ.

ومارشيوس الذي كان مَيله يندفع به إلى بطولات الحرب بحماسة تفوق أيّ مَن في سِنّه بدأ بالتدريب على السلاح منذ نعومة أظفاره. ولما كان يدرك أن الأسلحة ما هي إلاّ أدوات عرضيّة، مصنوعة لا تأثير لها، ولا قيمة كبيرة فيها عند من لم تزوّدهم الطبيعة بأسلحةٍ حسنة التركيز معدّة إعداداً جيداً للخدمة، فقد انصرف إلى تكييف وتدريب كيانه على ضروب الفعاليات وشتّى فنون القتال. فجمع فيه خَفّة العدّاء، وثقل المصارع الذي يصعب التخلّص من قبضته حالما تُطبق على الخصم في التحام، وبلغ في ذلك الغاية حتى كره منازلوه من بني قومه ولِداتِه أن يصرّحوا بنقص كفاءتهم إزاءه، واعتادوا أن يعلّلوا قلّة حيلتهم فيه وضعفهم بقوة جسمه، قائلين إنها لا تعرف معنى الإنهاك ولا التعب، ولا يمكن الوقوف أمامها.

وأوّل ما دخل معترك الحرب وهو غلامٌ مراهق(٢) كان في آخر معركةٍ لتاركوينيوس سوپربوس ملك روما الذي طُرد من البلاد. فبعد محاولات فاشلة عديدة بذلها للعودة

(*) معناها الحرفي الرجولة.

(٢) في ٤٩٦ ق.م المعركة المشار إليها وقعت بالقرب من بحيرة ريگيلوس Regillus في عهد الدكتاتور أولوس بوستيموس. لم يذكر ليڤي ولا ديون شيئاً عن هذه المأثرة أثناء حديثهما عن وقائع ذلك اليوم.

راح الآن يبذل الجهد الأخير ويتآمر بكلّ شيء في رميةٍ واحدة. ووحّد كل اللاتين قواهم وزحفوا معه نحو المدينة لأجل إعادته إلى العرش، لا لشدّة رغبتهم في خدمة تاركوينيوس وإرضائه قدر ما كان يدفعهم خوفهم من شوكة الرومان وغيرةً من ازدياد نفوذهم الذي أرادوا كبح جِماحه وإيقافه عند حدّ. وتقابل الجيشان واشتبكا في معركة فاصلة ظلّت متراوحة(*)، وكان مارشيوس في قلبها وفي مثار نقعها يقاتل ببسالة بمشهدٍ من الدكتاتور، وفي أثناء ذلك لمح جندياً رومانياً يسقط على الأرض بضربة من خصمه فبرز إليه ووقف دونه وقتله وأنقذ الجندي الجريح. وعلى أثر انتصار الجنرال الروماني توّجه لهذا العمل بإكليل مصنوعٍ من أغصان البلوط[٣]. وهي عادة درج عليها الرومان في تكريم أولئك الذين ينقذون حياة أحد المواطنين. وليس من المعروف هل يقصد من العادة تكريم خصوصي للبلّوط نفسه على سبيل ذكرى الأركاديين(**) الذين اشتهر أمرهم لنبوءة أپوللو سمّتهم بأكَلَة البلّوط(***)، وأن السبب فيه يعود إلى سهولة حصولهم على ثمر البلّوط في كل المواضع التي حاربوا فيها، أو لأن أكليل البلّوط المقدّس عند جوپتر حامي المدينة اعتُبر لهذا السبب حليةً مناسبة لمن ينقذ حياة مواطنٍ. والحق يقال إن شجرة البلّوط تحمل أجمل الثمر وأكثره من بين كل الأشجار البريّة المثمرة، وهي أيضاً أقوى ما يُستنبتُ من الشجر، وثمرها كان القوت الأساس للأقدمين من البشر، والعسل الذي يجدونه فيها كان أول ما شربوا. ويحق لي القول أيضاً إن الدبق الذي ينمو عليها يزوّد المرء بالطيور وغيرها من الحيوانات ذات اللحوم اللذيذة، لأنه يوقعها في شراكه الصمغية.

وكان هذا من بواكير مآثر مارشيوس. ويقال إن كاستور وبولّلوكس ظهرا في هذه الموقعة، وإنهما شوهدا بعدها مباشرة في روما بالقرب من النافورة التي يقوم الآن معبدها في مكانها، حصاناهما ينضحان عرقاً، يذيعان أنباء النصر على الشعب في

(*) قرب بحيرة ريگيلوس Regillus في ٤٩٨ ق.م.

(٣) «التاج المدني» يرفق به امتيازات كثيرة. فالفائز به له الحق في وضعه على رأسه قدر ما شاء ومتى ما شاء. وعلى الشيوخ أن ينهضوا احتراماً له كلما ظهر به للجمهور. وله أن يطالب بوضع مقعد له بينهم في الاجتماعات العامة وأن يكون لجدّه الصَلبي وأبيه عين الامتياز. وهو تشجيع لذوي المواهب والمؤهّلات لا يكلّف العامة شيئاً. وكان يُمنح بالأصل لكل مواطن ينقذ مواطناً آخر من خطر الموت.

(**) أول مستعمرين لروما بقيادة إيڤاندر Evander.

(***) هيرودوتس ١ :٦٦.

الفورم. وتعين الخامس من تمّوز الذي هو يوم النصر، عيداً دينياً مكرساً للأخوين التوأمين.

ومما يلاحظ بصورة عامة أن الشبان عندما تبلغ بهم المقادير مراقي الشهرة والصيت في عُمر مبكرٍ فإنهم يستنيمون لها ويقفون عندها. وهي كفيلة بإطفاء غلّتهم وإشباع نهمهم المحدود، وإن كان طبعهم يشوبه قليل من روح المباراة والمنافسة. والأمر على العكس عند عظماء الرجال وصناديدهم وأقوياء الأخلاق منهم فإن أول اشتهارهم يحثّهم ويدفعهم كما تدفع الريح إلى ملاحقة أمجاد أخرى. وهم لا ينظرون إلى ثمرات فضائلهم نظرتهم إلى مجرّد تعويض نالوه عما فعلوه، بل يعتبرونها بمثابة عهودٍ قطعوها على أنفسهم للقيام بمآثر أخرى في المستقبل، وهم يخجلون ويستنكفون من المجد الرصيد الذي كسبوه. وبكلمة أخرى يترفّعون عن جعله حجاباً مسدلاً على ما مرّ من أعمالهم وغطاءً يدفن تحته بهاء الأعمال التي قُدّر لهم إنجازها في المستقبل. ولقد كانت روح مارشيوس من هذا المعدن النبيل، فهي طموحة أبداً للتفوّق على ذاتها دائماً. وهو لم ينجز عملاً فائقاً إلاّ وكان موقناً أن القدر يريد له عملاً آخر أعظم من سالفه في فرصة تالية. ولازمته الرغبة في تقديم دلائل مستمرة جديدة على بطولته وسيطرت على كيانه تماماً. فراح يضيف مجداً إلى مجدٍ ويكدّس النصر فوق النصر. وجعل من ذلك ميدان منافسة بين آمريه، أيهما يبزّ الآخر في تكريمه والثناء عليه؟ ولم يعد من أي حربٍ أو معركة خاضها في تلكم الأيام إلاّ وهو متوّج بأكاليل الغار مثقل بالجوائز والمكافآت. وفي الوقت الذي نرى فيه غيره يجعل المجد والمنزلة الرفيعة آخر مطاف بسالته نجد مارشيوس يجعل سعادة أمّه نهاية مجده. فالغبطة التي تتملّكها عندما تسمع الثناء عليه، وتراه وهو يتوج بأكاليل النصر، وبكاؤها فرحاً عندما يعانقها وتضمّه إلى صدرها، تجعله يشعر بذات نفسه أنه نال أعظم ما يناله بشرٌ من تشريف وسعادة. وقيل إن إپامنداس كان يتملّكه مثل هذا الشعور تماماً. فأهنأ لحظة عنده هي أن أباه وأمّه عاشا ليسمعا بالنجاح الذي حققه في القيادة وبانتصاره الكبير في ليوكترا Leuctra. إن الحظّ الذي أسعده بمشاركة أبويه في الاستمتاع بلذة نجاحه لم يمكّن مارشيوس إلاّ من واجب تقديم كل فروض الشكر والامتنان لأمه ڤولومنيا Volumnia(٤) وحدها، كما لو كان أبوه حيّاً ولذلك لم تكن نفسه تشبع من حنانه واحترامه لها، حتى أنه لم يفترق عنها عندما اتخذ زوجاً ورُزِق

(٤) ومن الكتّاب الآخرين الذين ذكروا ڤولمنيا اسماً لزوجه، ديون وليڤي وڤاليريوس.

بأولاد بناءً على رجائها ورغبتها وظل يعيش معها تحت سقف واحدٍ.

في ذلك الحين أكسبته استقامته وشجاعته صيتاً كبيراً ونفوذاً طائلاً في روما. وكان مجلس الشيوخ بمحاباته أغنياء المواطنين في خلافٍ مستعصٍ مع طبقة العامّة التي أخذت تجأر بالشكوى المرّة من المعاملة الفظّة اللاإنسانية التي يلاقونها على أيدي المرابين[٥]، فكثير منهم أُثقل كاهله بالديون، وكثيرون جُرّدوا من كل مقتنياتهم وأملاكهم بطريق البيع أو الرهن تسديداً للدين. أما من بلغ الأمر بهم نهاية الإملاق بسبب المصادرات الماضية ولم يعد لديهم ما يصّح مصادرته فقد سيقوا إلى السخرة والعمل الشاقّ دون أيّ اعتبار للجراح والندوب التي خلّفها في أجسامهم خوضهم شتّى المعارك دليلاً على خدماتهم الوطنية. وكان السابين آخر من أصمّته السّهام. فقد وثقوا بعهدٍ قطعه لهم دائنوهم الأغنياء أن يحسنوا معاملتهم ويكونوا أكثر رفقاً بهم في المستقبل. وأنيب ماركوس ڤاليريوس القنصل، بإيعاز من مجلس الشيوخ، لمتابعة تطبيق هذا العهد واستنجازه. لكن بعد أن حارب السابين الأعداء ببسالةٍ، وحققوا النصر، لم يجدوا رفقاً من الدائنين ولا سماحةً. كذلك صرّح المجلس بأنه لايذكر شيئاً عن وجود عهدٍ كهذا! وجلس ساكتاً غير مكترثٍ، وهو يشاهد افواج المدنيين يساقون كالعبيد، وأموالهم ومقتناهم تنزع منهم قسراً كالسابق. وبدأت الثورة تعتمل في النفوس وذرّ قرن التمرّد علناً، وعُقدت اجتماعات عامة ذات طابع خطير في أنحاء المدينة. ولم يخف أمر هذا الاضطراب الداخلي عن عين العدوّ فأغار على البلاد وعاث فيها سلباً. ولما أعلن القنصلان النفير وطلبا حضور كل من بلغ سنّ الخدمة العسكرية إلى مقرّات التجنيد لم يلبّ أحدٌ من المواطنين الدعوة في بضعة أيام. فبادر مجلس الشيوخ إلى عقد اجتماع للمداولة في الأمر واتخاذ قرارٍ إلاّ أن أعضاءه انقسموا على أنفسهم واختلفت وجهات نظرهم، فبعضهم ارتأى التنازل للفقراء عن القليل وخطب ودّهم بالتخفيف من صرامة القانون المتناهية، وإرخاء قبضتهم عن حقوقهم المهضومة جداً، وعارض بعضهم الآخر هذه المقترحات. وكان مارشيوس أشدّ الاعضاء الآخرين تحمّساً لرأيه وهو أن قضيّة المال من كلا جانبيها ليست الموضوع الأساسي. وقال إنّ أعمال التمرّد والعصيان ما هي إلاّ الخطوة الأولى الوقحة نحو إعلان الثورة الصريحة على أحكام القانون، وإن واجب قمعها قبل أن يذرّ قرنها يقع

---

(٥) أو كما قال الآخرون إن الدكتاتور ماكسيموس ڤاليريوس هو الذي وعد الشعب بقانون الغاء الديون [ديون ٦ :٥].

على عاتق الحكومة، ويتوقف على حكمتها في معالجة الموقف.

وواصل مجلس الشيوخ عقد اجتماعات عديدة في فترة من الزمن قصيرة لبحث المشكلة ولكنها لم تسفر عن نتيجة أو قرارٍ معيّن.

وعندئذٍ اقتنع العامة بأن احتمال إنصافهم من ضَيْمهم يكاد يكون منعدماً، فاتفقوا فيما بينهم على رأيٍ واحدٍ وأجمعوا أمرهم على ترك المدينة دفعةً واحدة. فخرجوا واحتلوا المرتفع المسمّى «الجبل الأقدس» وانتشروا في السهل القريب من نهر آنيو(*) دون القيام بأيّ عملٍ من أعمال الشغب أو العنف. وإنما كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى وهم راحلون: بأنهم كانوا في الواقع قد طُردوا من المدينة قبل زمن طويل، لقسوة الأغنياء وظلمهم، وأن أيّ جزءٍ من إيطاليا لن يبخل عليهم بالماء والهواء، والمدفن، وهذا كل ما كانوا يحصلون عليه في روما، اللّهمّ إلاّ امتياز الموت والجرح في الحرب دفاعاً عن دائنيهم!.

وتوجّس المجلس خيفة من نتائج ذلك فاختار من أعضائه شيوخاً من طبقتهم، أكثرهم استقامة وشعبية، وبعث بهم لمفاوضة طبقة العامّة. وأسهب رئيس المفاوضين مينينيوس أغريبّا Menenius Agrippa في النُصح والرجاء من الشعب، نيابة عن المجلس، وختم كلامه الصريح بالحكاية المشهورة الآتية:

«حدث مرّة أن أعضاء الجسم كلّها ثارت على المعِدة واتّهمتها بأنها العضو العاطل الوحيد، الذي لا يقدّم أي خدمة للبدن، في حين يتعب سائر الأعضاء ويقوم بأشقّ الأعمال لإشباع نهمها، وسدّ حاجاتها وشهواتها. فسخرت المعدة من رقاعة الأعضاء التي يظهر أنها لا تعلم شيئاً عن واجب المعدة، حيث إنها لا تتسلّم الغذاء إلاّ لتوزيعه من قِبلها على بقيّة الأعضاء. تلك هي القضية بينكم أيها المواطنون، وبين مجلس الشيوخ. إنّ الخطط والقرارات التي تنقل إليكم وتضمن لجميعكم الفائدة والمصلحة إنمّا تُهضَم هناك كما ينبغي».

وحَلّ الصلح والوئام، ونزل مجلس الشيوخ إلى مطالب العامّة حول انتخاب خمسة محامين(٦) لأولئك المحتاجين إلى المعونة. وهم الذين يقال لهم «مفوّضو

(*) يبعد ثلاثة أميال عن المدينة (ليفي ٢: ٢٠٣٢).

(٦) كان عددهم خمسة في الأول. وبعد سنوات قليلة ضُمّ إليهم خمسة آخرون. وقبل أن يترك الجمهور [مونس ساچير Mons Sacer] استنّوا قانوناً جعلوا فيه شخص التريبيون مصوناً =

الشعب: تريبيوني Tribune» في أيامنا هذه. يتمّ انتخابهم سنوياً. وأوّل من تولّى هذا المنصب جونيوس بروتوس Junius Brutus[7] وسيثنيوس ڤيللوتوس Sicinnius Vellutus، اللذان تزعّما العامّه في خروجهم من المدينة.

وهكذا عادت الوحدة تسود المدينة وفزع العامة إلى سلاحهم فوراً وساروا إلى الحروب وراء قادتهم بحميّةٍ ونشاط. وأمّا عن مارشيوس فمع أن غيظه لم يكن بالقليل لتغلّب إرادة مجموع الشعب على مجلس الشيوخ وتحقيقهم مطاليبهم، ومع أنه وجد عند الكثير من الباتريشيين السخط والاستنكار نفسه للتنازلات الأخيرة، فقد رجاهم مع ذلك أن لا يكونوا أقلّ حماسة واندفاعاً في خدمة الوطن والبذل له من العامة على الأقلّ، بل أن يبرهنوا على تفوّقهم في الجدارة والكفاءه أكثر من تفوّقهم في الغنى والجّاه.

كان الرومان وقتذاك يخوضون حرباً مع الڤولسيين الذين اتخذوا كوريولي Corioli عاصمةً. ولذلك ضرب القنصل كومينيوس Cominius الحصار على هذا الموقع الهام، ولخوف بقيّة الڤولسيين أن تسقط حشدوا كلّ ما أمكنهم من القوات واستقدموها من كل ناحية لأجل فكّ الحصار عنها. وكانت خطتهم أن يشتبكوا مع الرومان أمام المدينة ليمكن حصرهم من الجانبين. ولكيما يجتنب كومينيوس هذا الموقف الصعب قسم جيشه إلى قسمين وزحف بأحدهما للهجوم على الفولسيين عند اقترابهم من الخارج، تاركاً تيطس لارتيوس Titus Lartius وهو من أشجع الرومان، على رأس القسم الثاني لمواصلة الحصار. وتبيّنت الحامية الڤولسيّة في داخل المدينة كم كان عددها قليلاً فدفعها اليأس إلى الهجوم على المحاصرين، ورجحت كفّتهم أولاً وطاردوا الرومان حتى خنادقهم. وهنا خرج عليهم مارشيوس بسريّة قليلة العدد ومزّق أوّل المهاجمين تمزيقاً، وأجبر الباقين على تخفيف وطأة هجومهم، ثم أطلق صيحة عظيمة بالرومان

= ومقدّساً. ورسموا بأن تكون مهّمة التريبيون الوحيدة التدخل لإيقاف كلّ اعتداء يقع على أفراد الطبقة العامة من جانب الأسياد وهو ما يدعى بـ Intercesso ومؤدّاه أن يقف التريبيون على قدميه وينطق بكلمة واحدة (Veto: أنا أمنع) ذلك. وتوضع للتريبيونات مقاعد عند باب مجلس الشيوخ ولا يدخلون المجلس إلاّ عندما يستدعيهم القناصل لتبادل الرأي حول مسألة تتعلق بمصالح الشعب.

(٧) اسم هذا التريبيون لوچيوس جونيوس. وبما أن لوچيوس جونيوس بروتوس قد اشتهر لأنه أنقذ البلاد من تحكّم الملوك فقد أضاف إلى اسمه لقب «بروتوس» ممّا عرّضه لكثير من السخرية والتعليق الفكه. (الكلمة اللاتينية Butus تعني بالدراج الغبي، وباللغة الأدبية الثقيل).

وأهاب بهم لتجديد المعركة. فقد كان في إهابه كل ما يتطلّب من الجندي ليس قوة الساعد وشدة الطعن وحدهما بل قوة الصوت وصرامة النظرات التي من شأنها أن تُلقي الرعب في قلوب العدوّ - كما قال كاتو Cato. واستجمعت طوائف من صحبه قواها وهرعت لإسناده، فانقلب هجوم العدوّ إلى تقهقر. إلاّ أن مارشيوس لم يقنع بمشاهدتهم يلمّون شعثهم وينسحبون بل شدّ عليهم النكير وصّك مؤخّرتهم صكاً عنيفاً ودفعهم بما يشبه الهزيمة السريعة إلى أبواب مدينتهم. وهنا تبيّن أن الرومان يريدون النكوص على أعقابهم، مدحورين لفرط ما يمطرهم العدوّ بالرماح من فوق الأسوار، وأن ليس لدى من تبعه ألشجاعة الكافية للتفكير في الاختلاط بالعدوّ الهارب والدخول إلى المدينة المكتظة بالعدوّ المستعدّ بسلاحه. على أنه وقف وأخذ يحثّهم على المحاولة صارخاً أنّ القدر لم يفتح أبواب كوريولي لإيواء الهاربين قدر ما فتحها لاستقبال الفاتحين. والتحق به عدد قليل كانوا راغبين في مشاركته في المغامرة، فشقّوا طريقهم خلال الحشود المندفعة. وأفلح في الوصول إلى الباب واقتحمه من وسطهم ولم يجرؤ أحدٌ على مقاومته في مبدأ الأمر. إلاّ أن العدوّ تشجّع عندما تبيّن قلّة عددهم وحمل عليهم فدارت معركة يقف القلم عن وصفها، وفيها تمكن مارشيوس من التغلّب على كل مهاجم تصدّى له بقوة الساعد وخفة القدم وجرأة النفس، ونجح في تشتيت شمل العدوّ الذي فرّ ناجياً إلى داخل المدينة. أما الباقون فقد استسلموا له وألقوا سلاحهم. وبهذا أتاحوا للارتيوس فرصة كبيرة جداً للزحف على المدينة ببقيّة الرومان واحتلالها بسهولة واطمئنان.

بعد أن تمّ احتلال كوريولي بهذه الصورة المفاجئة، انصرف القسم الأعظم من الجنود إلى النهب والسّلب، ومارشيوس الذي أحنقه هذا العمل راح يؤنّبهم ساخطاً، ويصف أعمالهم بالدناءة والضّعة، فبينما يخوض القنصل وبنو جِلدتهم معركة مع القسم الثاني من جيش الفولسيين، ويخاطرون بأرواحهم في القتال، وجدهم يسيئون استخدام وقتهم في الركض وراء الغنائم هنا وهناك، مبتعدين عن مكامن الخطر بحجّة اغتنام الأموال. ولم يعره أُذناً صاغية إلاّ نفر قليل، فما كان منه إلاّ أن وضع نفسه على رأسهم سالكاً الطريق الذي تحرّك منه جيش القنصل قبله وكان وهو يكدّ دؤوباً يدعو للآلهة كثيراً أن تسعده بالوصول إلى ميدان الحرب قبل نهاية المعركة، وبلوغ كومينيوس لمعونته في اللحظة المناسبة، والمشاركة في أخطار القتال. وكان من عادة رومان ذلك العصر، عندما تتحرّك قطعاتهم إلى خط المعركة، ويكونون على وشك أن يرفعوا تروسهم ويشدّون عباءاتهم على خواصرهم، أن يتبادلوا وصاياهم غير المكتوبة أو

الشفوية فيما بينهم، وأن يسمّوا وارثيهم بشهادة ثلاثة أو أربعة شهودٍ. وقد لحق بهم مارشيوس ليجدهم في تلك الحالة والعدو على قيد النظر منهم.

ولم يكن اضطرابهم بالقليل عندما وقع عليه نظرهم وهو يسبح بالعرق والدم وليس معه إلاّ شرذمة. ولكنه أسرع إلى القنصل وعيناه تومضان سروراً ومدّ إليه يده، وقصّ عليه تفاصيل الاستيلاء على المدينة، ولمّا رأى الجنود كومينيوس يحتضنه ويحيّيه أيضاً انتعشت قلوبهم جميعاً وارتفعت معنوياتهم. وسمع من كان قريباً منهما ما حصل، وضمّنه من كان بعيداً، وصاح الكل بصوت واحدٍ يطلبون الأمر بالمعركة. وسأله مارشيوس أوّلاً عن كيفية تنظيم الفولسيين جيشهم وأين وضعوا خيرة رجالهم فأجابه أنه يعتقد أن جنود الأنتيات Antiates في القلب هم خيرة المحاربين، وأنهم لا نظير لهم في الإقدام والشجاعة. فقال مارشيوس: «فدعني أطلب منك، ولأحصل على موافقتك في وضعي أمامهم». فحقق القنصل رجاءه وقد امتلأ إعجاباً ببسالته. ولمّا التحم الجمعان وراح الجنود يصوّبون رماحهم بعضهم إلى بعض، وسبق مارشيوس سائرهم في الهجوم، عجز الڤولسيون المتصدّين له عن أن ينالوا منه فتيلاً، وكان يخرق صفوفهم أنّى حمل عليهم، ويشقّ فيهم شقّاً عميقاً إلاّ أن الشقّ يعود ثانية ليطبق عليه من الجانبين ويحصره في وسط السلاح المشرع. وإذ أدرك القُنصل الخطر الذي يتعرّض له، دفع بنخبة من المقاتلين إليه لنجدته، وعندئذ حَمِيَ الوطيس واستشرى القتال حول مارشيوس وسقط عدد كبير من القتلى في رقعة صغيرة من الأرض. واشتدت وطأة الرومان على أعدائهم، وأذاقوهم مُرّ القتال حتى أرغموهم على الانكفاء وزحزحوهم عن مواقعهم ثم أخرجوهم من ميدان القتال. وطلبوا من مارشيوس متوسلين وهم يهمّون باستثمار الفوز أن يعود إلى المعسكر ويرتاح بعد ما رأو ما أصابه من الإرهاق وخور القوى لما فقده من دماء. فأجابهم أن التعب لم يُخلق للمنتصرين واندفع معهم لمطاردة العدوّ. وهُزمت بقية الجيش الڤولسيّ على هذه الشاكلة وقُتل منهم خلق كثير وأُسر عدد لا يقل عن عدد القتلى.

وفي اليوم التالي قدم لارسيوس نفسه مع أفراد الجيش إلى القنصل في سرادقه. فنهض كومينيوس وبعد أن قدّم فروض الشكر الواجبة للآلهة على النصر الذي توجت به تلك الحرب، التفت إلى مارشيوس وألقى كلمة ثناءٍ لا نظير لها بحقّ بلائه النادر المثال وشجاعته الفائقة التي كان شاهد عيان لقسم منها في المعركة الثانية، وسامعاً لتفاصيل القسم الأول من فم لارسيوس[٨] وبشهادته. ثم طلب منه أن يختار لنفسه العُشر من كل

(٨) هو الضابط الذي تُرك لمواصلة حصار كوريولي. إن شهرة مارچيوس بسبب العمل البطولي =

الأموال والخيل والأسرى التي في أيديهم قبل إجراء أي توزيع منها على الآخرين. وقدّم له هدية شخصية اعترافاً بأعماله المجيدة وهي جواد بكامل سرجه وزينته. وهتف له جميع أفراد الجيش. على أن مارشيوس برز إلى الأمام، وأعلن عن قبوله الجواد مع الشكر وامتنانه للمديح الذي ناله من قائده. وقال إنه ينبغي له رفض كلّ ما يراه أمْيَل إلى مجرّد منافع للجنود المرتزقة من كونه ميزة من امتيازات الشرف، ولذلك لا يسعه قبول العُشر ويقنع بالسهم الذي يقع له عادة أسوة بغيره. «ولديَّ رجاء خاص واحدٌ أطلبه وأملي أن لا يرفض. عندي بين الفولسيين صديق كريم، رجل ذو فضيلة واستقامة. وقع اليوم أسيراً وآل إلى العبودية بعد الغنى والحريّة. فأرجو أن تسمحوا لتدخّلي في أمره بإنقاذه من إحدى مصائبه، والحيلولة دون بيعه كعبد من العبيد». وأثار رفض مارشيوس ورجاؤه هتاف استحسان أشدّ من السابق وكان الذين أعجبوا باستعلائه الكريم عن الجشع أكثر عدداً من المعجبين العديدين بالشجاعة التي أبداها في القتال. وإن عين الأشخاص الذين شعروا بشيء من الحسد والكره عندما رأوه يُخصّ بالتكريم على هذه الشاكلة، لم يسعهم إلاّ أن يُقرّوا بأنّ الرجل الذي لايتردد في رفض مكافأة بهذه الطريقة النبيلة لهو أرفع بكثير من أيّ مستحق لها. وقد كان إعجابهم وانذهالهم أشدّ بسجيّته تلك التي جعلته يحتقر المال والمنفعة المادية من سجاياه ومآثره الأخرى السابقة التي أنالته لقبه. إنه لأسمى عملاً أن يُحسن المرء استعمال المال من استعمال السّلاح، إلاّ أن رفضه وعدم استعماله هو أنبل من استعماله.

ولما سكتت الهتافات ونداءات الاستحسان استأنف كومينيوس حديثه قائلاً: «من العبث أيها الرفاق الجنود أن نحاول حمل الرافض المتأبّي على قبول هدايانا بالقوّة والإلحاح ولذلك فلنعطه هديةً من النوع الذي لايمكن رفضه قطّ. فلنصوّت على اقتراحٍ يقضي بتسميته كوريولانوس من الآن فصاعداً، إلاّ إذا رأيتم أن مأثرته في كوريولي قد سبقت هي نفسها أي قرارٍ بهذا الشأن». وهكذا جاءه هذا الاسم الثالث كوريولانوس موضحاً بأن «كايوّس» هو الاسم المجرّد الشخصي، والثاني وهو اسم الأسرة أو اللقب «مارشيوس» الذي يُعرف به بيته وأسرته، والثالث هو إضافة تالية، جرت العادة على اتخاذه لصفة عارضة من صفات الحياة لحقت بصاحبه، جسمانية كانت أم خُلقية أو

= كانت تكسف مأثرة القنصل كما يخبرنا ليڤي [٢ : ٣٣] ولم يخلد اسم پوستيميوس كوتينيوس إلاّ لأنه كان حفّاراً على النحاس دعت إليه الحاجة عندما عُقدت معاهدة الصلح من اللاتين فيما بعد.

لسجيّة طيّبة في صاحبه. مثلما كان الإغريق أيضاً يلصقون أسماء إضافية في العهود الأولى بالأسماء الأصلية في بعض الحالات بسبب عملٍ أو مأثرة ما. فتجد مثلاً اسم سوتر Soter(*) وكاللينيكوس Callinicus(**) أو لمظهر شخصيّ كقولهم فيسكون Physcon (ذو البطن المفتوحة) وغريپوس Grypys (ذو الأنف المعقوف)»، أو لميزات طيبة كقولهم يورغيتس Eurgetes (المحسن) وفيلادلفوس Philadelphus (محبّ الأخ أو الأخت) أو لحسن حظ كقولهم يوديمون Eudaemon (المتنعّم) والأمير الثاني من عائلة وهو لقب باتوس(٩).

ولُقّب عدّة ملوك أيضاً بألقاب سخرية مثل أنتيغونس الذي شاع له لقب دوسون Doson (الرجل الكثير المواعيد). وبطليموس الذي لُقّب بلاثميروس Lathymerus (فول العلف). وهذا النوع من الألقاب هو أكثر انتشاراً عند الرومان فقد لُقّب شخص من أسرة ميتللي Metelli بلقب ديادماتوس Diadematus لأنه كان يخرج للناس زمناً طويلاً وقد عصب رأسه بعصابة تغطى ندبةً في جبينه. وثمّ آخر من الأسرة نفسها لُقّب چلير Celer لسرعته في تهيئة وعرض حفلة مصارعين بمناسبة تشييع جنازة أبيه خلال أيام قليلة بتلك السرعة والحمية اللتين عُدّا من الخوارق. ويوجد إلى يومنا هذا بعض من انتسب اسمه إلى حوادث طارئة حصلت أثناء ولادته. فالطفل الذي يولد وأبوه بعيد عن البيت أو هو في سَفَر يدعي پروكولوس Pruculus أو پوستيموس Postiumus إذا ولد بعد موت أبيه. وعندما يولد توأمان ويموت أحدهما أثناء الوضع يُدعى الحيّ منها ڤوپيكوس Vopiucus. ومن ذوي الشواذّ جسمانياً لم يقتصروا على اشتقاق اللقبين سيلا Sylla (البقع) ونيجر Niger (أسود) ورفوس Rufus (الأحمر)، بل كايكوس Caecus (الأعمى)، وكلودي Claudii (الأعرج). يريدون تعويد شعبهم لحكمةٍ فيهم ألاّ يكترثوا لا لفقد البصر، ولا لأي عاهة جسمية أخرى، وإلاّ يدركهم الخجل من تلبية أي نداء بهذا الاسم كما لو كان اسمهم ولا يعدّونه نقيصة أو مجلبة للعار. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع فسبيلنا إليه موضع آخر.

(*) الحفيظ.

(**) المنتصر.

(٩) يقول هيرودوتس [٤ : ١٥٩] إنه أُعطي للثالث وليس للثاني [ملك كيرينه] ومن قبيل هذه الألقاب والصفات اشتهر ثامن ملك من ملوك البطالمة بلقب «سوتر». كما مُنح لأنطيوخوس وديمتريوس وكاللينيكوس لسلوقوس الثاني رابع ملك على سورية. و«فيكون» لبطليموس سابع ملك على مصر و«غريپوس» لأنطيوخوس التاسع عشر ملك سورية.

ما إن وضعت حرب الڤولسيين أوزارها حتى أحيا زعماءُ الشعب الخطباء الشعبيون القلاقل الداخلية، وأثاروا نزاعاً آخر دون سبب جديدٍ أو شكوى أو ظلم واقع، وإنما جعلوا من المصائب التي تأتي حتماً في أعقاب التناحر السابق حجّةً لمهاجمة الپاتريشيين. كان معظم الأراضي الصالحة للزراعة قد تُرك دون حراثة أو بذار، فالحرب لم تمنحهم فترة راحة، أو مجالاً لاستيراد الأقوات من بلادٍ أخرى. فشحّ الطعام في روما إلى درجة متناهية(١٠). ولاحظ مثيرو الشعب أنه لا يوجد من القمح ما يمكن شراؤه، وإن وُجِد فلا مال هناك لشرائه. فراحوا يختلقون الروايات والحكايات عن الأغنياء ويذيعونها همساً، وكلّها ترمي إلى تصوير المجاعة بأنها نتيجة حقدهم وبتدبير متعمّدٍ منهم. وفي ذلك الوقت أقبل وفدٌ من الڤيليتراني Velitrani إلى روما باقتراح تسليم مدينتهم للرومان، وبرغبتهم في أن تُرسل مستوطين جُدداً ليسكنوها، لأن الوباء الذي اجتاحها لم يُبق من مجموع سكانها إلاّ ما يناهز العُشر. واعتبر الرومان البعيدو النظر هذه الضرورة الڤيليترانية فرصة نادرة المثال على ضوء أوضاعهم العصيبة الراهنة. لأن المجاعة المتفشّية توجب القيام بالتنفيس عن المدينة وتخليصها من فائض السكان. وكانوا يأملون من هذا أيضاً تبديد سُحب الثورة المجتمعة بالتخلّص من أكثر المواطنين عنفاً وأحمى المشاغبين رأساً، وتفريغ عناصر الفوضى والمرض خارج جهاز الدولة على ما يقال.

وعلى هذا الأساس قام القنصلان بتسجيل أسماء المواطنين الذين وقع عليهم الإختيار للسكنى في مدينة ڤيليتري Velitrae التي كادت تقفر. كما أخطروا بقية المواطنين بوجوب التأهب لحمل السلاح ضدّ الفولسيين. وكان الهدف من ذلك سياسياً وهو الحيلولة دون فتنة داخلية بإشغال جماهير الشعب في أمور خارجية. ورأيهم هو أن يؤدّي اختلاط الفقير بالغنيّ والباتريشيّ بالپليبنيّ في صفوف الجيش ومعسكراته وقيامهم معاً بخدمة وطنيّة واحدة، إلى حلول التصافي ووَصل حبال الودّ فيما بينهم.

إلاّ أن المفوّضَين الشعبيّين سيبخيوس وبروتوس تدخّلا في هذه الإجراءات وأعلنا أن القنصلين يخفيان أشنع وأقسى عملية تحت الاسم البرّاق اللطيف «الإعمار

(١٠) انسحب العامة إلى الجبل المقدس Mins Secer قبل موعد الفلاحة ولم يُبرم صلح بينهم وبين الپاتريشي حتى انقلاب الشتاء. وهكذا ضاع وقت البذار [ديون ٧: ١ و٢] وأرسلت روما وكلاءها لشراء القمح من أقطار أخرى كأترورريا وكامپانيا وڤولسكي حتى بلغوا صقلية. لكنهم عادوا خائبين إلاّ من أترورريا. [انظر ليڤي ٢: ٣٤].

والإسكان»، وأنهما يطوّحان بالعدد الكبير من فقراء المواطنين إلى وهدة الدمار والخراب بعرضهما عليهم السكن في مدينة أثقل هواؤها بالوباء، وغُطّيت أرضها بجثث الموتى. وأنهما يدفعان بهم إلى غضب آلهةٍ غريبةٍ عنهم. وكأن حقدهما لم يكفه القضاء على فريق منهم جوعاً، وتعريض الفريق الآخر لشرّ طاعون فتّاك، تراهما الآن يباشران أيضاً عملية إقحام المواطنين في حرب لا ضرورة لها، حرب أثاراها بتدبير منهما فحسبِ. وبهذا لا تعود يبقى نائبةٌ أو مصيبة للاقتصاص من المواطنين، بسبب رفضهم الاستخذاء للأغنياء واستعبادهم، إلاّ مارسوها بحقّهم.

بهذه الأقوال وأمثالها جُنّ جنون الشعب، ولم يلبّ أحد منهم الأمر القنصلي بالحضور وقيد اسمه في سجلّ التطوّع، وأظهروا عزوفهم التامّ عن طلب المباشرة بزراعة الموسم الجديد، فأسقط في يد مجلس الشيوخ ولم يدر ما يقول وماذا يفعل. إلاّ أن مارشيوس الشاعر بقوة نفوذه، المعتمد على رصيد مآثره الماضية، والمتأكد من إعجاب ومشايعة خيرة رجال روما وأشرافها، ما لبث أن أخذ بيده زعامة معارضة المؤيّدين لمطالب الشعب. وتم إرسال المستعمرين إلى ڤيلتري من الذين خرجت أسماؤهم بالقُرعة، وأُرغموا على الرحيل تحت التهديد بإنزال أشدّ العقاب بهم. ولما بقي الآخرون مصرّين على رفض الخدمة العسكرية والخروج لحرب الڤولسيين، قام مارشيوس بتعبئة أتباعه ومناصريه ومن استطاع إقناعه، وشنّ بهم غارة على تخوم الأنتيات وسطا على قدر جسيم من القمح، وغنم كثيراً من الماشية والأسرى، وعاد إلى روما منتصراً ولم يحتفظ لنفسه بشيء مما غنمه، إلاّ أن جنوده عادوا مثقلين بالأسلاب يسوقون أنعامهم وأسراهم أمامهم. هذا المشهد أفعم المستنكفين عن القتال أسفاً وقهراً وأدركهم الندم لسوء موقفهم، وأمتلأوا حسداً وغيرة من أخوانهم، وبذلك رسخ في نفوسهم كره عميق لمارشيوس، وحنقوا عليه وعلى سُمعته الداوية ونجم سلطانه الصاعد الذي قد يستخدم ضدّ مصالح الجماهير.

ولم يمرّ طويل زمن حتى تقدّم مارشيوس(١١) مرشّحاً لمنصب القنصل، وكانت الظواهر تشير إلى أن الجمهور بدأ يميل إلى جانبه ويُحبّذ انتخابه، إذ كان الشعور السائد

---

(١١) في ٤٩٠ ق.م. لا ينوّه ليڤي بموضوع ترشيح. وكان مارشيوس يلحّ على مجلس الشيوخ للاستفادة من حالة المجاعة وإرغام العامّة (البلبيان) على التنازل عن تريبيوناتهم. فأحنق العامة حتى أنهم حاكموه غيابياً وأصدروا حكماً بنفيه، فالتحق بالڤولسكيين. وتتفق رواية پلوتارخ مع رواية [ديون ٧: ٢١-٦٤] في هذا الصدد.

أنه من المخجل أن يُنبذ رجل كمارشيوس عريق النسب، ذي مؤهّلات وكفاءة، بعد قيامه بتلك الخدمات الجليلة الفريدة في بابها.

ولقد جرت العادة أن يمتزج المرشّحون لمنصب القنصل بكلّ طبقات الشعب ويدعون لانتخابهم بالخطب والكلام الرقيق وسائر ضروب التزلّف والاستمالة، وأن يحضروا إلى الفورم وليس على أجسامهم من ثياب غير الرداء الفضفاض المسمّى توگا Toga، ولا يخلو القصد من هذا إمّا تواضعاً في اللباس أمام الجماهير ليحسنوا في عينه، وإمّا ليسهّل مَن أصيبوا منهم بجراحٍ أمرَ عرضِ ندوبهم الشاهدة على حُسن بلائهم. ومن المؤكد أن الظهور بالثوب الفضفاض من دون مشدّ أو حزام يقصد به إزالة أيّ شكّ في نفي مظنّة الرشوة والفساد عن صاحبه المرشّح الذي يريد أن يخطب ودّ الشعب. إن صفقات البيع والشراء لم تتسلّل في عمليات الانتخاب، والمال لم يصبح من مقوّمات النجاح الأساسية في الاقتراع العام إلاّ بعد قرون عديدة من القرن الذي نحن الآن بصدده.

فعندما بدأ الفساد يستشري استُبيحت حُرمة مجالس القضاء، وهوجمت حتى المعسكرات. وأصبح المال هو سيّد الدولة بلا منازع عن طريق استئجار الشجاعة وشراء البطولة، واستعباد الفضّة للحديد. وانقلب النظام الجمهوري إلى حكم فرديّ ملكي. ولله درّ القائل: إن أوّل من هدم حريّات الشعب هو أول من أغرقهم بالهدايا والأعطيات. وفي روما يظهر أن الفساد تسلّل في الداخل سِرّاً وبصورة متدرّجة، فلم يظهر للملأ فجأة ولم تلحظه العين في مسراه، وليس يُعرف بالضبط أول من استخدم الرشوة مع المواطنين وأوّل من أفسد دور القضاء والمحاكم. في حين كان المشهور في أثينا أن أنتيوس ابن أنتيميون[١٢] هو أوّل من رشا القضاة لمّا حوكم في آخر مرحلة من نهاية حرب الپلوپونيوس، بتهمة تسليمه حصن پيلوس[*] إلى العدوّ، وهو عهد كان يسيطر فيه على «فورم» روما جيل طاهر نقيّ ذهبيّ من الرجال.

وكعادة المرشّحين لمنصب القنصل، كشف مارشيوس عن الندوب والجراح الظاهرة في جسمه، من جرّاء الوقائع والمعارك العديدة التي أبلى فيها أحسن بلاء خلال

---

(١٢) تأتّت شهرته من توجيهه الاتهام لسقراط.

(*) بُقعة على الساحل الغربي من مسينيا في الپلوپونيس. احتلها الأثينيون في ٤٢٥ ق.م (توكيديدس ٤: ٢ -٤١). في ٤١٠ حاصرها اللقيديميون فسلمت حاميتها المسينية وفشل أسطول اثيني في قهرها.

سبع عشرة سنة متصلة، فأثّر فيهم تأثيراً عميقاً وراح أحدهم يقول للآخر: إن السماحة الشعبية تفرض انتخابه قنصلاً. ولكن لمّا أزف يوم الاقتراع، وظهر مارشيوس في الفورم تحفّ به بطانة فخمة من الشيوخ، ويحيط به جميع الباتريشيين، وسيماؤهم تنطق بعظيم اهتمامهم بالأمر، وحركاتهم تنمّ عن جهدٍ يبذلونه في سبيل إنجاح مارشيوس فاق أي جهدٍ بذلوه في مناسبة مماثلة أخرى، توجّس الجمهور خيفة وأصيب بصدود مفاجئ عنه، وارتدّوا عن العطف الذي أبدوه له، واستبدلوا النية الطيبة له، بشعور السخط والحنق. والتقت هذه العاطفة الأخيرة بالخوف من أن يستخدم الباترشيون هذا الرجل الأرستوقراطي الخلق، العظيم النفوذ، سلطة المنصب الممنوح له لغمط حقوق الشعب وسلبه الحريات التي بقيت له. فعدلوا عن انتخابه وولّوا قنصلين آخرين. وكان هذا أشبه بطعنة نجلاء أصابت مجلس الشيوخ في الصميم وشعر أعضاؤه أنهم قُصِدوا بالإهانة أكثر مما قُصد مارشيوس، ولم تكن حالته بأفضل منهم، وصعب عليه احتمال العار بأيّ قدرٍ من الصبر والاحتساب. فلقد كان دوماً يطلق العنان لما في نفسه ولا يجعل لمشاعره ضابطاً وكان يعتبر صفتي الكبرياء والتحدّي في الطبع البشري مرادفتين للنبل والشهامة. أما النظام والعقل فلم يزرعا فيه صفة الاتزان وضبط النفس وهما من السجايا الأساسية التي تلازم رجل السياسة. إنه لم يتعلّم كم هو ضروري وجوهري لمن يتولّى الشؤون العامة، ويتعامل مع بني البشر، أن يتجنّب غرور النفس والاعتزاز بها، تلك الصفة التي يقول عنها أفلاطون «إنها تنتمي إلى عائلة العُزلة»(١٣)، لم يتعلّم أن يتّصف قبل كلّ شيء بقابلية الكظم، والسكوت على سوء المعاملة التي كانت موضع احتقارٍ عموماً. إن مارشيوس الصريح كل الصراحة، والمستقيم الذي كان يؤمن بأن الشجاعة الحقة هي قهره كل معارضة والقضاء على كل مناجز، لم يكن يستطيع أن يتصوّر أنّ ما انفجر في نفسه هو الضعف والأنوثة في طبعه. أعني قروح الغيظ هي التي تفجّرت من مكامن نفسه، فجعلته ينسحب وهو ممتلئ حقداً ومرارة وضغناً على الجمهور. وزاده حنقاً رؤيته الشبان الپاتريشيين المعتزّين بعراقة أصولهم المخلصين لقضيته، الذين ناصروه بإخلاص لم تُجن منه أية فائدة، وهم يُظهرون الآن علائم سخطهم، ويحاولون تعزيته والتسرية عنه. ولا عجب فقد كان لهم قائداً ومعلّماً متفانياً في فنون الحرب والقتال، وكان نموذجهم المحتذى في مجال المنافسة الحقّة والاستباق إلى المجد والبطولات، الذي يجعل المتنافسين يثني بعضهم على مآثر بعض بإخلاص خالٍ من الغيرة والحسد.

---

(١٣) ترجمتها الدقيقة من اليونانية القديمة: «الأنَفَة تعيش مع العُزلة تحت سقفٍ واحد».

وفي وسط هذه الغليان السياسي وصلت شحنات كبيرة من القمح إلى روما، قسم منها ورد من أنحاء إيطاليا، وقسم معادل له قدّمه غيلو Gelo ملك سيراقوز هديةً لروما. وداعب الكثيرين الأملُ بانفراج الأزمة على أثر ذلك، مُقدّرين أن المدينة ستتخلّص من أنياب الفاقة والعسر، ومن مضاعفات النزاع الداخلي. وبادر المجلس إلى عقد اجتماع فوريّ وتقاطر الجمهور وأحاط بقاعة المجلس ينتظر بلهفة نتيجة الاجتماع، وكان يتوقّع أن يجري تخفيض من أسعار السوق التي ارتفعت ارتفاعاً جسيماً، وأن يتمّ توزيع شحنة القمح المهداة بدون ثمن. وفعلاً نصح بعض أعضاء المجلس باتخاذ قرارٍ بهذا، إلاّ أن مارشيوس هبّ قائماً وهاجم بكلّ عنفٍ كل من تكلّم لمصلحة الجمهور ونعتهم بالمتزلّفين للأوشاب، والغادرين بالنبلاء، قائلاً إنهم سيرسّخون بهذه المنحة جذورَ البذور السيئة من الوقاحة والغطرسة التي غرسوها في نفوس الشعب، خدمةً لأغراضهم الخاصّة. وإنهم ليفعلون حسناً لو انتبهوا إلى تلك الجذور واجتثوها قبل أن تخرج شَطأها، لا أن يدعوا طبقة البليبيين تزداد قوةً ومناعة بمنحهم حق تعيين حكام ذوي سلطان عظيم «كمفوّضي الشعب: تريبيون». وهاهم الآن يمارسون نفوذاً واسعاً في دوائر الدولة ما دام يُلبّى لهم كل طلب، وما دام لا يوجد كابحٌ لإراداتهم وما داموا يرفضون إطاعة أوامر القناصل ويأبون الانصياع لأي قانون أو حكم قضائي ويمنحون لقب القضاة لزعماء أحزابهم. . . و«عندما تؤول الأمور بنا إلى هذه النهاية، ونجلس نحن هنا لنقرر لهم مِنحاً وهبات، مثل الإغريق الذين أودعوا السلطة العليا في أيدي جماهير الشعب، فليس لنا من حيلة إلاّ أن نسلّم مقاليد أمورنا إليهم طائعين ونقوم على رعايتهم ومداراتهم لأجل خرابنا جميعاً. لا شكّ في أن هذا الكرم لا يمكن أن يُعتبر مكافأة عن خدمات عامة، لطالما أبوا المساهمة فيها، وهم أعرف بذلك من غيرهم، ولا منحةً عن الفوضى والانقسام الذي أحدثوه. فكانوا بها كالمتبرّئين من وطنهم والمتخلّفين عنه. ناهيك بالإهانات والشتائم التي كانوا دوماً مستعدين لقذف مجلس الشيوخ بها. وأخال أنهم يرون الدافع إلى تقرير المنحة لهم خوفنا منهم وتزلّفنا إليهم، لذلك لايمكن أن يوضع لتمرّدهم حَدّ، ولن يكفّوا عن إثارة القلاقل والاضطراب، وإنّ التنازل لهم محض جنون، وإن كانت لدينا ذرّة من العقل، وشيء من العزم، فعلينا ألاّ نهدأ بل نسترجع منهم كل سلطات المفوّضين الشعبيين(١٤) التي انتزعوها مِنّا ابتزازاً. لأن بقاءها في ايديهم معناه هدم السلطة القنصلية، وعامل تفرقة مؤبّدة في مدينتنا التي

---

(١٤) كان التريبيونات مؤخراً قد سنّوا قانوناً يجعل مقاطعتهم أثناء الخطاب جريمة معاقباً عليها.

أصابها منه الآن جرح بليغ لم تُصب بمثله من قبل وبفتق ليس ثمّ احتمال في التحامه مرة أخرى، ولا أمل في رأبه والعودة إلى الرأي الموحّد، والكفّ عن إذكاء نار الخلاف وصيرورتنا مصدر عذاب أحدنا للآخر»(١٥).

وبدوام ضرب مارشيوس على هذا الوتر الحسّاس ضرباً بارعاً نجح في إذكاء المشاعر العنيفة في نفوس الشيوخ الباتريشيين الأصغر سنّاً، وحمل كل الأغنياء تقريباً على الانحياز إلى صفّه، فلهجوا باسمه ووصفوه بالرجل الأوحد في المدينة الذي ارتفع فوق الرّياء، وتحدّى القوة. على أنه لقي معارضةً من بعض كبار السنّ، يدفعهم الخوف من النتائج. والواقع أنه لم ينجم عنه إلاّ الشرّ المستطير. إذ عندما أدرك مفوّضو الشعب الهدف الذي يرمي إليه مارشيوس، خرجوا من المجلس مسرعين وأهابوا بالحشود المجتمعة أن يتراصّوا ويتكاتفوا ويسرعوا إلى معونتهم. ثم عقدوا اجتماعاً جماهيرياً انقلب إلى تظاهرة عاتية. ولخّصوا للجمهور كلام مارشيوس، فثارت ثائرته واجتاحته عاصفة من الحنق، وهمّ باقتحام المجلس، إلاّ أن مفوّضي الشعب حالوا دون ذلك بإلقائهم التبعة كلها على كوريولانوس. وعلى أثر ذلك بعث المفوّضون بحرسهم الخاص يطلبون حضوره أمامهم للدفاع عن نفسه. فردّهم عنه باحتقار عندما أبلغوه بأمر الحضور، فدخل التريبيونات بأنفسهم عليه ترافقهم ثلّة من ضبّاط الأيديل Aediles وهم حرس السوق، يريدون أخذه بالقوة، ومدّوا أيديهم إليه فانبرى الپاتريشيون لإنقاذه، ثم طردوا مفوّضي الشعب، بل اعتدوا بالضرب على ضبّاط السوق مناصريهم. لكن الليل وضع حَدّاً للنزاع، ولما انبلج الصّبح وتبيّن القنصلان مبلغ هياج أفراد الشعب وسخطهم، وشهدوا كيف يتقاطرون من كل حدبٍ وصوبٍ إلى الفوروم، أدركهما خوف عظيم على المدينة بأسرها. فطلبا اجتماع مجلس الشيوخ مرة ثانية لاتخاذ قرار من شأنه تهدئة خواطر الجماهير الساخطة المستنفرة، ومخاطبتهم بلغة السماح واللين، وإصدار قرارات تتّسم بالتساهل. وأنهم إذا فكروا في الوضع الراهن بحكمةٍ فسيجدون أن الحالة لا تتحمّل التمسّك بمقاييس الشرف، والتمشْدُق بالمجد والسُّؤدد. ومثل هذا الموقف الحرج يتطلب تدابير رفيقة ومعالجة ليّنة، ومقرّرات معتدلة إنسانية. وعلى هذا الأساس وافقت أغلبية المجلس، وباشر القنصلان في تهدئة هياج الشعب بخير ما استطاعا، وأخذا يجيبان بأناة وصبرٍ على اتهاماتهم وشكاواهم التي صبّوها صبّاً على

---

(١٥) حذف پلوتارخ أخطر وأهم فقرة في خطبة كوريولانوس. فقد اقترح في هذه الفقرة إبقاء سعر القمح كما كان عليه من ارتفاع ليبقى الشعب معتمداً على السلطة خاضعاً لها. [انظر ديون]

مجلس الشيوخ، واستخدما نهاية الرقة والاعتدال في لومهم ومعاتبتهم على سلوكهم المندفع. وأبلغوهم أنه لن يكون هناك فرق في الأسعار بين الطبقات.

ولما هدأت سورة القسم الأكبر منهم وبدا من مسلكهم الهادئ الوديع اطمئنانهم لما سمعوا، انتصب مفوّضو الشعب وأعلنوا باسم الجمهور قراراً مفاده أنه ما دام مجلس الشيوخ قد ثاب إلى رشده واختار الرويّة وقرّر أن يُنصفهم، فهم من جهتهم مستعدون لإطاعة كل ما هو عادل ومنصف، لكنهم على أية حالٍ مصرّون على أن يتقدم مارشيوس بأجوبةٍ عن التهم الآتية:

فأولاً: أيسعه الإنكار أنه حمل مجلس الشيوخ على تغيير نظام الحكم وإلغاء امتيازات الشعب؟

ثم: عندما طُلب منه الحضور للإجابة على التهمة، ألم يعصَ أمر الاستقدام؟

وأخيراً: ألم يعمل بكلّ ما في وسعه على إثارة فتنة وحرب أهلية بتسبّبه في الاعتداء على ضباط الأيديل وغير ذلك من ضروب الإهانات والاعتداءات العلنية.

وإسناد هذه التهم إلى مارشيوس كان يرمي إمّا إلى إذلاله وإرغامه على إظهار خضوعه للشعب (إن ظلّ راغباً في خطب ودّه والتزلّف إليه خلافاً لطبعه)، وإمّا إلى إحلال القطيعة النهائية بينه وبين الجمهور (إن شاء أن يبقى أميناً على طبعه، وهو ما توقّعوه منه بحكم معرفتهم بأخلاقه).

وهكذا حضر مارشيوس أمام جمهور الشعب ليقدّم اعتذاره ويبرّئ نفسه، وهو ما كان الشعب يتوقّعه، فحافظ على الهدوء والسكينة، وأنصت إليه دون مقاطعةٍ، إلاّ أنه راح يستخدم لغة وقحة وأسلوباً تهجّمياً كان فيه متّهِماً لا معتذراً، لا بل كانت نبرات صوته ومظهره المعتدّ ينمّان عن غطرسة واستهانة تقرُب من الازدراء والاحتقار للسامعين، بدل الاستخذاء والتواضع المنتظر منه. فتملّك الجمهور غضب شديد، وأظهر علائم نفاد الصبر والاشمئزاز. ونهض سينّيبوس أكثر المفوّضين صرامة وعنفاً، وبعد مداولة سرّية مع زملائه الآخرين، أعلن أمام الجميع قراراً مفاده أن مفوّضي الشعب حكموا على مارشيوس بعقوبة الموت، ثم إنه أمر الأيديل بأخذه إلى الصخرة التاربيّة وقذفه من حالق إلى الهاوية دون تأخير. فتقدّم هؤلاء لتنفيذ الأمر الذي تميّز بالقسوة والصرامة حتى في أعين بعض الپليبيين. وعندها جُنّ جنون الباتريشيين ألماً واستفظاعاً وهرعوا وهم يضجّون ويصيحون لإنقاذه، واستخدم بعضهم الأيدي فعلاً لمنع تنفيذ أمر القبض وتحلّقوا حول مارشيوس وجعلوه في وسطهم، وعمد بعضهم إلى مدّ الأيدي الضارعة لوقف هذا الإجراء العنيف المتطرّف لأن الكلام في مثل هذه

الضجّة لا يفلح عادةً. وأدرك أصدقاء مفوّضي الشعب ومعارفهم صعوبة أخذ مارشيوس إلى موضع تنفيذ العقوبة، وكم سيسفك من الدماء، ويهلك من الناس، ويقتل من الپارتريشيين، فأقنعوهم بالعدول عما هو خلاف القانون. وإلاّ يقتلوه قتلة سريعة شنعاء كهذه دون محاكمة أصولية، بل أن يدعوا مصيره إلى الاقتراع الشعبي العام.

بعد مرور فترة من التأمل، التفت سيچنيوس إلى الپارتريشيين وسألهم: ماذا يقصدون من انتزاع مارشيوس عنوةً واقتداراً من قبضة الجمهور وهو في سبيل تنفيذ العقوبة به؟ فردّ عليه الپاتريشيون بالسؤال المماثل: «بل قل لنا كيف سوّلت لكم أنفسكم أن تجرّوا واحداً من أعظم رجال روما جرّاً إلى ساحة الإعدام بطريقة بربرية لا قانونية ومن دون محاكمة؟ وما هو قصدكم من ذلك؟». فقال [سينسيوس]:

«حسن جداً، لن نترك لكم سبباً للخصام من هذه الجهة... ولن ندع لكم علّة للشكوى من الشعب. الشعب الآن يلبّي طلبكم وصاحبكم هذا سيحاكم وفق القانون».

ثمّ وجّه القول إلى مارشيوس:

«نُعيّن لك يا مارشيوس اليوم الثالث، اعتباراً من «يوم السوق» القادم، لتحضر وتدافع عن نفسك وتحاول إن أمكنك إثبات براءتك أمام المواطنين الرومانيين الذين سيفصلون في قضيّتك بالتصويت».

ورضي الباتريشيون بهذه الهدنة. وأفرخ رَوعهم وعادوا إلى منازلهم مسرورين بنجاحهم في المحافظة على حياة مارشيوس.

في غضون الفترة التي سبقت موعد المحاكمة (اعتاد الرومان أن يعقدوا جلسات المحاكم في كل يوم تاسع ومن هنا جاء الاسم اللاتيني موندنياي Mundinae[١٦]) نشب القتال بين الرومان والأنتيات[١٧]، وتوقّع الپاتريشيون أن يستمرّ حيناً، وبذلك شاع فيهم الأمل في إمكان التملّص من إجراء المحاكمة، وقدّروا أن تهدأ سورة غضب الشعب، ويقلّ سخطه حتى يضمحلّ بمرور الزمن عليه، هذا إن لم تصرف الحرب والمشاغل الأخرى أذهانهم عن الموضوع بصورة نهائية. وعندما توصّلوا إلى عقد صُلح

---

(١٦) يقول ديون [٨:٧] كان ثمّ فترة سبعة أيام فقط بين أيام السوق.

(١٧) ورد نبأ مفاجئ إلى روما يفيد بأن أهالي أنتيوم وضعوا أيديهم على سفن سفراء غيلون أثناء عودتهم إلى صقلية بل أنهم صادروا السفن واعتقلوا السفراء. وعندها تهيأ الرومان بسلاحهم لمعاقبة أهالي أنتيوم لكن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا للطاعة وتم الصلح.

عاجلٍ خلافاً لما توقّعوا وعاد الجيش إلى روما من أنتيوم، عاد القلق والارتباك يسود صفوف الباتريشيين وبادروا إلى عقد عدة اجتماعات ليقرروا خطّة لا تفريط فيها بمارشيوس أو إعطاء فرصة لمثيري الشعب لخلق اضطرابات جديدة. ووقف بينهم أپيوس كلوديوس Appius Claudius المعروف بأنه أشدّ الشيوخ نفوراً من الامتيازات الشعبية، وقال منذراً: «إن مجلس الشيوخ سيقضي على نفسه قضاءً تاماً ويخون الحكومة إذا سمح للشعب مرةً واحدةً بتولّي سلطة إصدار حُكم على أيّ پاتريشيّ». إلاّ أن الپاتريشيين الأكبر سناً، والأقرب إلى أفئدة الشعب، عارضوا بقولهم «إن جماهير الشعب لن تكون شديدة القسوة والصرامة كما يخيّل لبعضهم. ولكنها ستكون أكثر ميلاً للدعة والسكينة عند منحها تلك السلطة، فالذي دفعها إلى طلبها لم يكن إذلال مجلس الشيوخ وإنما الفكرة التي تكوّنت عندها وهو أن المجلس هو الذي قصد إذلالها وتحقيرها، ألا فلتمنح لها هذه السلطة مرة واحدة وليكن ذلك دليلاً على الاحترام وشعور التعاطف والودّ. إن مجرّد حيازة الشعب سلطة التصويت في هذا الشأن سيزيل فوراً العداء فيما بيننا».

ولما وجد مارشيوس محنة المجلس والتوتّر الذي يسوده بسببه، وحيرته بين عطفه عليه وخوفه من الشعب، طلب من مفوّضي الشعب أن يعرّفوه بالجرائم التي ينوون إسنادها إليه، وأصول التهم التي ستجري المرافعة فيها أمام الشعب، فأجابوه أنه متهم بمحاولة اغتصاب الحكم، وأنهم سيثبتون عليه محاولته وشروعه في إقامة حكم استبدادي[١٨]. فنهض مارشيوس وتقدم قائلاً:

«فلنذهب إذن إلى الشعب، لتبرئة نفسي من هذه التهمة الباطلة أمام جمعيتهم العامّة. إني أعرض نفسي بملء اختياري إلى أي نوع من المحاكمة، ولن أتظلّم من أي عقابٍ يفرض عليّ، وكلّ ما أطلبه هو أن تنحصر تهمتي بما ذكرتموه الآن، وأن لا تخدعوا المجلس».

فوافقوا على شروطه، وذهب إلى موضع المحاكمة. لكن، عندما اجتمع الشعب تقدّم مفوّضوه باقتراح مراوغ، وهو أخذ الأصوات لا على أساس «الچنتوري» كما

---

(١٨) استناداً إلى ديون، قال مارشيوس في معرض دفاعه عن نفسه «. . . فضلاً عن إصابتي بهذه الجراح التي ترونها في سبيل إنقاذ المواطنين؛ ألا فلندع التريبيونات يفسّرون لنا إن استطاعوا كيف يمكن أن تنسجم مثل هذه المآثر مع النوايا الغادرة التي يتّهمونني بها». إلاّ أن ديون لم يذكر أن التريبيونات وافقوا على الشروط التي ذكرها النصّ.

جرت العادة عليه بل على أساس رؤوس القبائل(١٩)، وهو تغيير يمكّن الغوغاء الحاقدة المشاغبة التي لا قيمة عندها للعدالة والنزاهة من صبّ جام حقدها فعلاً على رؤوس الأغنياء وأشراف القوم ومن اعتاد بذل الخدمة للدولة أثناء الحرب. وبعد هذا عمد المفوّضون إلى تغيير مواد الاتهام، في الوقت الذي تم فيه القرار على ألاّ يحاكم مارشيوس إلاّ عن تهمة الاستبداد والاستئثار بالحكم وهي تهمة ضعيفة يتعذّر إثباتها عليه. فأسقطوا هذه التهمة واستعاضوا عنها بتهمة تحريضه في مجلس الشيوخ ومعارضته في تخفيض أسعار القمح، ومطالبته بالقضاء على سلطات مفوّضي الشعب. وأضافوا أيضاً تهمة ثالثة جديدة بخصوص توزيعه الغنائم والأسلاب الحربية التي انتزعها من الأنتيات عند غزوه بلادهم، لأنه خصّ بها من تطوّع في جيشه فحسب في حين يقضي القانون السائد بإيداعها بيت المال(٢٠). ولقد قيل إن هذه التهمة أحرجت موقف مارشيوس أكثر من أية تهمة أخرى لأنه لم يستعد ولم يكن متوقعاً استجوابه عنها، لذلك لم يكن دفاعه قوياً مُقنعاً بسبب عامل المفاجأة. ولما بدأ على سبيل الاعتذار والتنصّل يعظّم من مآثر أولئك الذين شاركوا معه في القتال، وبما أن من تخلّف عن الحرب كان أكثر عدداً ممن تطوّع، فقد قوطع بصيحات الاستنكار والتنديد. وأخيراً جاء دور التصويت، فأُدين بأغلبية ثلاث قبائل(*)، وفُرضت عليه عقوبة النفي المؤبّد.

بعد النطق بالحكم ترك الجمهور محلّ الاجتماع بتظاهرة صاخبة وهتاف مدوٍّ فاق

---

(١٩) منذ عهد الملك سرڤيوس توللييوس صارت الأصوات تؤخذ بطريقة الجنتوري أي المئات إذ قدّروا حتماً أن مارچيوس سيُبرّأ إن أُخذت الأصوات بهذه الطريقة. فالفرسان وأغنى المواطنين هم الأغلبية. حيث تؤلف الطبقة الأولى أو العليا ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٣ وهي مجموع الطبقات الستّ. لكن التريبيونات الأذكياء أفتوا بأنه في قضية تتعلق بحقوق المواطنين يجب أن يكون لكل مواطن واحدٍ صوت واحدٌ ولم يرضوا بإحصاء للأصوات إلاّ على أساس القبائل. والى جانب محكمة جمعية المائة Teibuna Comitia Centuriata، توجد أيضاً الكيورياتا Curiata التي أقامها روملوس وتقسم سكان روما الأصليين إلى ثلاث قبائل في كل قبيلة عشرة أفخاذ Curiae. [ديون ٢:٣-٥]. بقي هذا النظام ساريا حتى مجيء سرڤيوس توللييوس الذي ابدله بالطريقتين الأخريين في إحصاء آراء الجمهور.

(٢٠) أفاد التريبيون دجيوس «أن هذا دليل واضح على نواياه الشريرة فبالأموال العامة ضمن له مخلوقات وحرساً يساندونه في ما اعتزمه من اغتصاب للسلطة. ألا دعوه يُثبت أنه كان حائز السلطة التي تؤهّله لتوزيع هذه الغنيمة دون خرق للقانون. دعوه يُجب مباشرة عن هذه القضية وحدها دون أن يلجأ إلى فنون وتعلاّت أخرى القصد منها تضليل الجمعية. . .» [ديون ٧:٩].

(*) يقول ديونيسيوس هاليكارناسوس (٧:٦٤) صوّت لبراءته ٩ من أصل ٢١ قبيلة.

بكثير أي تظاهرة قام بها الشعب بمناسبة نصرٍ على عدوٌ. في حين وجم أعضاء مجلس الشيوخ واستولى عليهم الحزن العميق. وأدركهم ندم شديد لأنهم لم يحاولوا شتّى الطرق للحيلولة دون طغيان إرادة الجمهور، ولسماحهم له بممارسة هذا القدر الكبير من السلطة، فكانت نتيجتها إساءة استعمالها والتعسّف في تطبيقها. ولم تكن الحاجة تدعو لتفحص ثياب الناس أو استقراء علامة مميّزة فيهم للتثبّت من طبقتهم، فمن كان فرحاً منهم بالنتيجة فهو پليبي، لا شكّ فيه، ومن بدا واجماً كئيباً فهو باتريشيّ.

وكان مارشيوس الشخص الوحيد الذي لايشعر بذلّةٍ أو صدمةٍ. فمن سيمائه وملامحه وتصرّفاته كان يبدو مثالاً لضبط النفس. وفيما كان الأسى يعمر قلوب أصحابه كافة، ظلّ الرجل الوحيد الذي لم تؤثر فيه مصيبته. لا لأن ترويضه العقليّ علّمه الرضا بحكم القدر، ولا لأن رقّة طبعه جعلت القناعة خُلقاً فيه، فالأمر بعكس ذلك تماماً إذ شاع في كيانه حقد عميق متأصّل الجذور عنيف، لايحّس له ألماً كثيرٌ من الناس. والحق يقال إن الألم يتحوّل بفاعلية حرارته اللاهبة إلى غضبٍ، ويُفقد صاحبه كل مظهر من مظاهر التخاذل والكآبة. وفي الغاضب حيوية كثيرة، كالمصاب بالحمّى المحرقة ففي مرضه حرارة مادية ظاهرة، وفي عمل الروح والحق يقال عوارض مرضيّة ظاهرة من ارتجاف والتهابٍ وانتفاخٍ، وكان يبدو مثلها في حالة مارشيوس المضطربة، وتظهر في أعماله وحركاته.

عند وصوله البيت أقرأ التحيّة والدته وامرأته وكانتا تذرفان دموعاً غزيرة وتنتحبان وتعوّلان، فنصحهما بأن يقصدا في مشاعرهما وألاّ يستسلما للحزن جرّاء مصيبة[٢١]، وبعدها توجّه إلى أبواب المدينة فوجد أشراف روما كلّهم مُجتمعين لتوديعه. ولم يصحب معه متاعاً ولم يطلب شيئاً أو يرجو رجاءً من مشيّعيه، وفارقهم وليس في ركابه غير ثلاثة أو أربعة من الأتباع. وانطلق إلى موضع في الريف حيث مكث بضعة أيام تُطاوحه مختلف الأفكار التي يدفعها الغيظ والسخط إلى رأسه، ولم يكن فيها فكرة ذات هدف نبيل أو صالح. وكان عقله يدور به باحثاً عن أجدى الوسائل لإطفاء جذوة انتقامه من الرومان. حتى استقر رأيه بالأخير على أن يشنّها حرباً شعواء عليهم، عن طريق أقرب الجيران إليهم. وعزم مبدئياً على جسّ نبض الفولسيين، والتأكد من مدى استعدادهم لذلك. وكان يعلم أنهم ما زالوا شديدي القوى كثيري الموارد في المال

---

(٢١) وضع كوريولانوس ولديه في رعايه أمّه جدّتهما ولأوّلهما عشر سنين من العمر. والثاني صغير جداً. [ديون ٧:٩].

والرجال، وأن بأسهم لم يضعف بالدرجة التي اشتدّ حنقهم على الرومان وكرههم، بسبب الهزيمة الأخيرة التي ذاقوها منهم.

كان يعيش في آنتيوم رجل يُدعى توللوس أوفيديوس Tullus Aufidius له بين الڤولسيين ما للملك من مكانة واحترام بسبب ثرائه وشجاعته وشرف أسرته. وكان مارشيوس يعلم أنه يكنّ له من العداء الشخصيّ ما لا يكنّه لأي روماني آخر، فقد تبادلا أثناء المعارك عدة تهديدات وتحدّيات ودعوات للنزال. وهذه التحرّشات المتبادلة التي كان من شأنها أن تثير حماسة صغار الجنود وتدفعهم إلى خضمّ المعركة أضافت العداء الشخصي إلى الخصومة الطبيعية بين المتحاربين. ومع كُلّ ذلك فقد توقّع في توللوس سماحةَ خُلقٍ، وقدّر أن ليس بين الڤولسيين قبله مَن يرغب في فرصة تتيح له ردّ أذى الرومان صاعاً بصاعٍ. ولذلك أقدم على ما أيّد قول القائل:

«من الصعب أن تقاتل الغضب. فهو يشتري
كلّ ما يريد. وإن كان ثمن ذلك حياتنا».

وتنكّر بثيابٍ غيّرت من هيئته بحيث يُنكره كلُّ من يعرفه، مثل ما فعل يوليسيس في: «إنه دخل مدينة أعدائه الألدّاء[٢٢]».

وكان دخوله آنتيوم في حوالي المساء، ومرّ في الشوارع دون أن يعرفه أحد من المارة الكثيرين ووصل منزل توللوس ودخله دون أن يحسّ به أحد وقصد الموقد وجلس إليه دون أن ينطق بكلمة واحدة مغطياً رأسه[٢٣]. ولم يسع أفراد الأسرة إلاّ أن يندهشوا، ولكنهم أحجموا عن إنهاضه أو طرح سؤال عليه لما كان يحفّ بصمته وهيئته من جلالٍ ومهابة. إلاّ أنهم أبلغوا توللوس بالحادثة الغريبة وكان يتناول عشاءه فنهض حالاً ودخل عليه وسأله عمّن يكون، وما الذي جاء به إلى منزله؟ فكشف مارشيوس عن هويّته وحسر رأسه وبعد فترة صمت قال:

«إن كنت لا تذكرني يا توللوس، وإن كنت لا تصدّق عينيك، فالضرورة تقضي أن أكون المتّهِم لنفسي. أنا كايوس مارشيوس مسبّب الأذى الكثير للڤولسيين. ولو أنكرت هذا فلقبي كوريولانوس الذي أحمله الآن هو وحده دليل كاف عليّ. التعويض الوحيد الذي نلته عن كل الأخطار التي تعرّضت

---

(٢٢) الأوديسي [٤:٢٤٦] إما لأجل قياس جدار طروادة وإمّا لإقناع هيلين بالتعاون مع مواطنيها الإغريق.

(٢٣) يعتبر الموقد مكاناً مقدّساً في البيت لأن فيه آلهة الأسرة. وكل مستجير يأتيه وكأنه يلوذ بحرمٍ.

لها، والمصاعب التي خضتها، هو ذلك اللقب الذي يكشف عن عدائي لقومك. وهو الشيء الوحيد الذي بقي بعد أن لي جُرّدت وحُرمت من كل الامتيازات الأخرى، جرّاء حسد الرومان وحقدهم، وبسبب جبن وغدر الحكام وأولئك الذين ينتمون إلى طبقتي، وأخرِجتُ من بلادي منفياً، وصرت مستجدياً مستكيناً عند موقد نارك، لا باحثاً عن الأمان والحماية قدر ما انا باحث عن الانتقام ممن طردني. ولو كنت خائفاً من الموت لما جئت. وأعتقد أني حصلت على مرادي بوضع نفسي بين يديك. فان كنت تريد حقاً قتال أعدائك فهيّا إذن وأستفد من البليّة التي تراني فيها للنهوض بهذه المهمّة، وتحويل سوء حالي إلى نعمة عامة للفولسيين. فأنا في الواقع أكثر فائدة في قتال لكم، من القتال عليكم، والأفضليّة التي أملكها الآن هي وقوفي على كل أسرار العدوّ الذي سأهاجمه. فإن كنت عازفاً عن القيام بأية محاولات أخرى، فلست بالراغب في الحياة هنا، ولا يكون جميلاً منك استضافة شخص طالما كان خصماً لك ومنافساً والآن عندما يعرض عليك خدماته يتضح لك أنه غير صالح لك ولا نافع».

عندما وعى توللوس كل هذا الكلام جُنّ فرحاً ومدّ إليه يده اليمنى وصاح:

«قم يا مارشيوس، واستجمع شجاعتك. لقد جئت لأنتيوم بأعظم السّعد، فيما قدّمت نفسك له من فائدة. ولك أن تتوقع كل ما هو حسن من الفولسيين».

ومن ثم أخذ يُظهر له الإكرام والحفاوة وضروب العطف. وقضيا عدة أيام بعدها في التداول معاً بخصوص إمكانيات الحرب.

وفيما كانت هذه الخطط تتخذ شكلها المادّي، كان الاضطراب والفوضى يعمّان روما، بسبب العداء المستحكم بين أعضاء مجلس الشيوخ، وقد زاد حدةً الآن بإدانة مارشيوس. وإلى جانب ذلك أخذ العرّافون، والسحرة والكهنة وحتى الناس العاديون، يتناقلون أنباءً عن علامات وخوارق لايمكن الاستهانة بها. ومنها ما أشيع حدوثه على النحو الآتي: هناك رجل يدعى تيطس لاتينوس إنسان رقيق الحال ذو خُلق طيّب هادئ، بعيد كل البعد عن الأوهام والخيال والشعبذة، وأبعد من ذلك عن المبالغة والتفاهة، رأى في المنام كأن جوبتر جاءه وطلب منه أن يخبر أعضاء مجلس الشيوخ بأنهم وضعوا على رأس موكبه الديني راقصاً سيئاً غير ذي أهليّة. ولكنه لم يهتمّ بالحلم ولم يرَ فيه أيّ أهمية لأول وهلة. ولكن بعد أن تكرّر مرّة ثانية وثالثة، فقد ابناً عزيزاً

عليه، وأصيب هو نفسه بالفالج، وحُمل إلى مجلس الشيوخ على محفّة ليدلي بتفاصيل حلمه. وتقول الحكاية إنه أبلّ من مرضه واستوى على قدميه حال إبلاغ الرسالة، وذهب إلى بيته دون مساعدة أحدٍ. وتملّك المجلس العجبُ والحيرة، وراحوا يبحثون الأمر بحثاً دقيقاً. أما ما كان يشير إليه الحلم فهو هذا: أحد المواطنين في روما كان يملك عبداً ارتكب جُرماً شنيعاً، فسلّمه لزملائه الآخرين وأمرهم بجلده في السوق ثم قتله. وفيما هم ينفذون أمره هذا بجلد البائس الذي كان يتمطّى ويتقلّص وينقلب ظهراً لبطن وعلى كل شكل من الأشكال والحركات الغريبة بسبب الألم الذي يحسّه، اتفق أن أقبل في أعقابهم موكب ديني تكريماً لجوبتر. فاستنكر عدد من السائرين فيه مشهد الخادم المجلود، إلاّ أنه لم يتدخل أحدٌ منهم أو يقم بعملٍ أكثر من مجرّد النطق بعبارات اللوم المعتاد والتنديد بالسيّد الذي حكم على عبده بهذه العقوبة القاسية. فالرومان كانوا يعاملون عبيدهم في ذلك الزمان معاملة إنسانية للغاية. عندما يشتغلون ويكدحون معهم جنباً إلى جنبٍ فمن الطبيعيّ أن ترتفع الكلفة بينهم، وأن يعاملوهم برقّة. ومن أشدّ العقوبات التي كانت تُفرض على العبد المخطئ أن يحمل قُطب الخشب الذي يسند مِحور العجلة ويدور بها في الجوار. والعبد الذي يحلّ به هذا العار، فيشاهده الجيران وأهل البيت ينفذ العقوبة، يسقط من عيون الناس، ولايعودون يثقون به أو يعتمدون عليه، ويطلق عليه اسم فورچيفر Furcifer، من كلمة فوركا Forca اللاتينية ومعناها العمود الخشبيّ أو الجذع.

عندما قصّ لاتينوس حلمه، انكفأ الشيوخ يتساءلون عمّن يكون ذلك الراقص السيّئ المكروه، فتذكر بعض الجماعة الذين لفتَتْ نظرهم غرابة العقوبة التي حلّت بالعبد البائس، كيف جُلد على طول الشارع ثم أُزهقت روحه. وأيّد الكهنة هذا التخمين عندما استشيروا. فعوقب صاحب العبد وأمروا بإقامة احتفال جديد للموكب الديني تكريماً للربّ. وبالمتابعة نذكر نوما الحكيم في تنظيمه الوظائف الدينية، فهو يبدو بصورة خاصّة شديد الحرص في توجيهه لها. ووضع نصب عينيه انتباه الشعب إليها واحترامه لها. وقد رتّب عند قيام الحكام والكهنة بالمراسم الدينية أن يسبق موكبهم مناد يخرج للناس وينادي بأعلى صوته: Hogage: اعملوا هذا الذي تهمّون به؛ وبهذا يُنذر الناس بالتنبّه للشعائر المقدّسة التي سيمارسونها، وأن لا يدعوا عملاً دنيوياً أو مشاغل يومية تشوّش المراسم أو توقع الخلل فيها. ومعظم ما يأتيه الناس في هذا الصدد مفروض عليهم فرضاً بكيفية ما. واعتاد الرومان إقامة الشعائر الدينية ومواكب صلواتهم لأقل الأسباب وأتفه الدواعي. فإن حدث وتعثّر أو كبا حصان من

الخيل التي تجرّ العجلات المسمّاة «تنسي» Tensae أو إذا جمع السائق أعنّتها بيده اليُسرى، يأمرون بإعادة المراسم كلّها من الأول. وفي العصور المتأخرة بلغ الحال بهم إلى حدٍ أنهم كرّروا شعائر قُربان واحدٍ ثلاثين مرةٍ لحصول خطأ أو هفوة أو حادث في أثناء الحفل. هكذا كان مبلغ احترام الرومان وشدة حذرهم في شعائر الدين.

وأخذ مارشيوس وتوللوس يتداولان في مشروعهما سِرّاً مع رؤساء آنتيوم ويحثونهم على غزو الرومان بينماهم متناحرون فيما بينهم. وكان يظهر أن الخجل يصدّهم عن قبول الاقتراح لأنهم عقدوا هدنة يتمّ بموجبها وقف القتال لمدة سنتين. ولكن ما لبث الرومان أن هيّأوا لهم حجّة لنقض الهدنة بإعلانهم في أثناء الألعاب بوجوب مغادرة كل من جاء من الڤولسيين لمشاهدة الألعاب وعدم بقاء أحدهم في روما قُبيل مغرب الشمس. ودفعهم إلى ذلك الاحتقار أو خبر مُلفّق عن الڤولسيين. ويؤكد البعض أن هذا العمل هو من تدبير مارشيوس. فقد بعث سرّاً برجل إلى القنصلين ليتّهم الڤولسيين كذباً وبهتاناً بأنهم يدبّرون غزوة مفاجئة للرومان أثناء انشغالهم بالألعاب، وإشعال النار في روما(٢٤). فألهب هذا التحقير المزري مشاعر الڤولسيين، وملأهم حنقاً على الرومان. واهتبل توللوس فرصته فراح يعمل على تسعير النار وزيادتها ضِراماً، وأخذ يهوّل الأمر على مواطنيه حتى أقنعهم أخيراً بإرسال وفدٍ إلى الرومان يطلب منهم إعادة الأراضي والمدن التي اقتطعوها من بلادهم جرّاء الحرب الأخيرة. فأجاب الرومان حانقين: إن الڤولسيين كانوا البادئين في إشهار السلاح، وسيكون الرومان آخر من يضعه. وعاد الوفد بهذا الجواب فدعا توللوس الڤولسيين إلى اجتماع عام، وجرى التصويت على إعلان الحرب. ثم إنه اقترح أن يُدعى مارشيوس، ونزع الأحقاد من النفوس وتناسيها، وطلب أن يثقوا بأن الخدمات التي سيقدّمها لهم مارشيوس بوصفه صديقاً لهم وشريكاً ستزيد كثيراً على جميع الأضرار والخسائر التي ألحقها بهم عندما كان خصماً لهم.

فاستُدعي مارشيوس، فحضر ووقف بينهم متكلّماً، فاجتذب الجمهور إلى صفّه وأقنعه بالثقة في كفاءته وبراعته وحُسن مشورته وجراءته، بقوة عارضته أكثر مما أقنعه

---

(٢٤) قال توللوس: «وحدنا من دون سائر الشعوب لا يروننا نستحق الحضور لمشاهدة هذه الألعاب. نحن وحدنا نُطرد من الأعياد العامة كأحقر الكفرة وأرذل المجرمين! اذهبوا إلى مدنكم وقراكم وأظهروا الشارة المميّزة التي وسمنا بها الرومان». ليڤي [٢:٣٧، ١-٧] يقول إنه جاء إلى مجلس الشيوخ بتدبير سابق مع مارشيوس. لكن پلوتارخ هنا ينحو منحى ديون [٨:٣]. على أن كريولانس كان صاحب اقتراح إعادة الأراضي والمدن التي استلبها الرومان منهم.

بسجلّ بطولاته وأعماله المجيدة السالفة. وانتُدب إلى جانب توللوس ليتولّى منصب جنرال في جيشهم، مزوّداً بسلطة مطلقة في كل ما يتعلّق بإدارة الحرب. ولما كان يخشى أن يطول الوقت في تحشيد كل قوات الڤولسيين وتعبئتها تعبئة تامة، بحيث يفقد عامل المباغتة، فقد ترك أوامر لحكام المدينة بخصوص أمور التعبئة والتأهّب. وجمع ما تحت يده من المتطوعين الأكثر تحمّساً، وزحف بهم غير منتظر أو متريّث. ووقع على الحدود الرومانية بغزوة مفاجئة لايتوقّعها أحدٌ[٢٥]، واستولى نتيجة ذلك على غنائم كثيرة جداً زادت عمّا استطاع الفولسيون حمله، أو استهلاكه في معسكرهم.

على أن المؤن العظيمة التي غنمها والخراب الذي أحدثه في البلاد كان بالنظر إليه والى ما سيتلوه أصغر النتائج المتوخّاة من غارته. فالبلاء العظيم الذي أراده وصبا إليه كان في الواقع توسيع شقّة الخلاف بين الباتريشيين وعامة الشعب في روما، وزيادة الشكوك في نفوسهم. وسعياً وراء هذه الغاية عمد أثناء إتلافه المزارع وأملاك الناس الآخرين إلى بسط حمايته على أملاك وحقول أشخاصٍ معيّنين منهم وعدم مسّها بسوءٍ ولم يسمح لجنوده بالنهب منها أو سلب ما فيها. وبهذا تجددت الملاحاة ونشب الخصام مجدداً واشتدّ وبلغ درجة لم يبلغها من قبل: الشيوخ يلومون العامّة للظلّم الذي ألحقوه بمارشيوس، والعامة لا يتردّدون في اتهام الشيوخ بأن حملة مارشيوس هي من مكائدهم وتحريضهم انتقاماً منهم وبغضاً بهم، في حين جلس الآخرون على التلّ خوفاً وضعفاً كمتفرّجين غير مكترثين بما يجرى في ميدان الحرب، لأن لديهم في شخص عدوّ بلادهم حارساً وحامياً خارجياً لممتلكاتهم وثرواتهم.

بعد أن تُوّجت حملة مارشيوس بالنصر، وعادت بالفائدة الجليلة على الڤولسيين، انسحب بهم إلى بلادهم سالمين وقد اشتدّ عودهم وارتفعت معنوياتهم وعادوا يستهينون بعدوّهم بعد رهبةٍ وتخوّفٍ.

عندما تمّ حشد كلّ قوات الڤولسيين في ميدان عرض الحرب وظهرت بفيالقها الجسيمة واستعدادها العظيم، بدت جيشاً جرّاراً، فوجد من المستحسن أن يُترك جزءٌ منه لحماية المدن وحراستها، وأن يزحف بالقسم الآخر على الرومان. وطلب مارشيوس من توللوس أن يختار القيادة التي يريدها. فقال توللوس إنه «لما كان يعلم أن مارشيوس لا يقلّ عنه بسالة وإقداماً، ويفوقه في حسن الطالع، فهو يحبّذ أن يراه

---

(٢٥) قام تللوس في الوقت عينه بغارة مماثلة على أراضي اللاتين. وعاد بعين النتائج الطيبة [ديون ٨: ٢].

قائداً للجيش الخارج للحرب. في حين يقوم هو بتدابير الدفاع عن المدن في الداخل، ويضطلع بتأمين حاجة جيش الهجوم من مؤن وتجهيزات». وهكذا تحرك مارشيوس وقد زاد قوة وسلطاناً نحو مدينة چيركيوم Circaeum وهي مستعمرة رومانية، وقَبِل استسلامها ولم يلحق أذىً بسكانها. ثم غادرها ليجتاح بلاد اللاتين وكان يتوقّع لقاء الرومان فيها لأنهم أصدقاؤهم وحلفاؤهم، وكثيراً ما أعانوهم وأنجدوهم. إلاّ أن القوم في روما لم يظهروا حماسةً وميلاً إلى الخدمة في الجيش، كذلك لم يكن القنصلان يريدان التورّط في مخاطرة حربيّة، لأن فترة وظيفتهما كادت تنتهي. فصرفا سفراء اللاتين خائبين. ولم يجد مارشيوس أمامه جيشاً يقاتله، فزحف على مدنهم واستولى عنوةً على توليريا Toleria ولاڤيچي Lavici وپيدا Peda وبولا Bola، وهذه كلها قاومت زحفه فلم يكتف بنهب منازلها بل ساق سكانها عبيداً. وفي الوقت نفسه أظهر رعاية خاصة لكلّ من انحاز إلى صفّه. ولمّا كان يخشى قيام جيشه بأعمال تخريب لم يأمر بها فقد اختار موقعاً بعيداً لمعسكره، متعفّفاً عن التعرّض للأراضي والمزارع.

بعد أن فتح مدينة بولا وهي لا تبعد أكثر من عشرة أميال عن روما نفسها، ونهب منها أموالاً لا تُحصى ووضع السيف في رقاب سكانها الذكور البالغين، وردت أنباء نجاحه وفتوحاته إلى الڤولسيين الذين تخلّفوا لحماية المدن، فلم يصبروا على البقاء حيث هم وأسرعوا شاكي السلاح للانضمام اليه، قائلين إنه جنرالهم وقائدهم الأوحد الذي لايطيعون غيره. وذاع صيته واسمه في كل أرجاء إيطاليا وكانت الدهشة عامة لانقلاب الحظّ الفجائي عند شعبين، كانت خسارة أحدهما وربح ثانيهما من عمل شخصٍ واحدٍ.

كانت روما تعجّ بالفوضى الشديدة، وأهلها زاهدون عن خوض أية حربٍ. يقضون كل أوقاتهم في النزاع وحبك المؤامرات من تحت الستار ولوم أحدهم الآخر. حتى وردت الأنباء بأن العدوّ يضيّق الخناق على لاڤينيوم Lavinium التي يوجد فيها تماثيل آلهة آبائهم الحارسة[٢٦]، والذخائر المقدسة، ومنها نشأ شعبهم الروماني بوصفها أول مدينة في إيطاليا بناها إينياس. هذه الأنباء أحدثت تغييراً عاماً غير عاديّ في أفكار الشعب وميوله. إلا أنها ولّدت شعوراً بالصدود عند الپاتريشيين أكثر غرابة. فقد مال الشعب الآن إلى إلغاء الحكم الذي أصدره على مارشيوس وإلى دعوته للعودة إلى المدينة. فاجتمع مجلس الشيوخ لاعادة النظر في القرار، وعارض الاقتراح أولاً ثم

(٢٦) بالأصل جيء بها من طراودة [انظر سيرة رومولوس].

رفضه، إمّا لمجرد رغبته في معاكسة الشعب ومناقضته في كل ما يريده، أو ربّما لأنهم لايريدون أن يكون مارشيوس مديناً باعادة اعتباره إلى عطف الشعب. أو ربّما لإدراكهم الآن بوجود شعور سخط ضد مارشيوس نفسه لأنه يصبّ البلوى على الجميع سواء بسواءٍ مع أن سوء معاملته لم تصدر من الجميع، ولصيرورته عدواً لسائر البلاد مع علمه أن كبار القوم وأخيارهم كانوا إلى جانبه، وقد تألّموا لما أصابه.

وأعلن الشيوخ قرارهم هذا، وأُسقط في يد الشعب لأنه لا يملك سلطةً في إقرار أيّ شيء بالاقتراعِ العام أو سنّه قانوناً، إلاّ إذا سبقه مرسومٌ من مجلس الشيوخ.

وزاد حنق مارشيوس عند سماعه بما جرى، وتخلّى عن حصار لافينيوم[٢٧] وزحف نحو روما بسرعة جنونية. وعسكر على بعد خمسة أميال من المدينة تقريباً، في موضع يدعى «خنادق كلويليا» Cluilia. وخلق وجوده القريب رعباً عظيماً وقلقاً، إلاّ أنه وضع أيضاً حداً لانقسامهم في حينه، إذ لم يعد أي منهم، أقنصلاً كان أم شيخاً، يستطيع معارضة الشعب في دعوة مارشيوس للعودة. وعلموا أن الجماهير محقّة في اقتراحها بمصالحته عندما رأوا نساءهم يتراكضن جيئة وذهاباً في الشوارع مرعوبات، والعجّز وكبار السنّ يملأون المعابد كلها يبكون ويرسلون الدعاء والضراعة. وقُصارى القول، فقدَ كلُّ سكان المدينة أسباب الشجاعة والعقل الضرورية لتدبير أمرهم. وأدرك الخاص والعام أن مجلس الشيوخ ارتكب خطأ فاحشاً في استحداث سبب عداء جديد مع مارشيوس بينما كان الواجب يفرض عليه نسيان الأحقاد والتفكير في جبر الخواطر وتهدئتها. وبين هذين حلّ الوفاق محل الخلاف بين مختلف الفئات، واتحدت الآراء، وتوصّلوا بالإجماع إلى قرار يقضي بإرسال وفدٍ إليه يعرض عودته إلى بلده، ويطلب منه وضع حدٍ لأهوال الحرب وويلاتها. واختير أعضاء الوفد من أقربائه وأصدقائه[٢٨] الذين يتوقّعون منه خير ملقى وأحسن استقبال لما تربطه بهم من العلاقات والوشائج العديدة القديمة. إلاّ أنهم كانوا مخطئين جداً في ظنّهم. فبعد أن اقتيدوا إليه في المعسكر وجدوه جالساً تحفّ به مظاهر السلطان ويحيط به عظماء الڤولسيين، ويبدو عليه التجهّم والصلافة. وطلب منهم أن يُفصحوا عن أسباب مجيئهم ففعلوا بأرقّ عبارة وألطف

---

(٢٧) ترك وحدة من الجنود لمواصلة الحصار [ديون ٨ : ٤].

(٢٨) أورد ديون [المرجع السالف] أسماءهم هكذا: ماركوس مونيشيوس، پوستيميس، كومينيوس، سپوريوس لارغيوس، پوبليوس يناريوس، كونيتس سوليشيوس. ويورد ديون خطبه رائعة ألقاها مونشيوس بالمناسبة، وجواب كوريولانوس عليها.

أسلوبٍ وأنسب سلوكٍ للهجتهم. وبعد أن فرغوا من أقوالهم ردّ عليهم بجوابٍ لاذعٍ مُفعَم بالقسوة الغاضبة والمرارة بخصوصه وبخصوص إساءتهم معاملته. وأمّا بوصفه جنرالاً للفولسيين فقد طلب إعادة كل المدن والأراضي التي انتزعوها منهم بالحرب الأخيرة وأن يعطوا الفولسيين نفس الحقوق وامتيازات المواطنة في روما، التي مُنحت سابقاً للاتين، ما دام لا يوجد أيّ ضمانٍ في حلول سلمٍ ثابت دائمٍ دون شروط عادلة متعادلة للجانبين. وأعطاهم ثلاثين يوماً مهلةً للتوصّل إلى قرار.

بعد أن انصرف الوفد، عمد مارشيوس إلى سحب قواته خارج الأراضي الرومانية؛ فتذرّع مبغضوه وحاسدوه من الفولسيين، الذين لم يستطيعوا تحمُّل نفوذه بين الشعب، بهذا العمل واتخذوه حجّة للتنديد به. ومن بينهم توللوس نفسه، لا لأذى شخصيّ لحقه من مارشيوس بل لضعفٍ في طبيعة النفس البشرية، إذ لم يسعه إلاّ أن يشعر بالذلّة عندما وجد مجده السالف يكسف تماماً، ويغدو هو بالذات شخصاً عاديّاً في نظر الفولسيين، لا يثير الإعجاب ولا يكترث به أحدٌ، في حين ارتفع عندهم رصيد زعيمهم الجديد بحيث ما عادوا يرون غيره. وفي رأيهم أن القادة الآخرين ينبغي لهم أن يقنعوا بذلك الجزء من السلطة الذي يراه مناسباً لهم. ومن هنا زُرعت أولى بذور الشكوى والاتهام وأخذت تنتشر سِرّاً. وتلاقى المشاغبون وأخذ يعمل الواحد منهم على إلهاب سخط الآخر، بالقول: إن الانسحاب الذي قام به هو في الواقع غدرٌ بالجيش وبالمدن بل أفدح، وإنه تغرير وتعمُّد إضاعة أخطر فرصٍ وأنسبها للعمل، تلك التي يتوقف عليها الفوز بكلّ شيء أو خسارة كل شيء. ففي فترة الأيام الثلاثين هذه يمكن أن يحصل أيّ شيء في الدنيا.

على أن مارشيوس لم يضيّع لحظة واحدة من هذه الفترة. فقد استولى خلالها على سبع مدن عظيمة عامرة بالسكان، دون أن يجرؤ الرومان على مدّ يد العون إليها. فقد شلّهم الخوف شللاً تامّاً وأفقدهم الحركة ولم يبد منهم ما يدل على الحياة أو الحسّ. وبانتهاء فترة الثلاثين يوماً ظهر مارشيوس مرة أخرى على رأس جيشه، فبعثوا إليه بوفدٍ آخر يرجوه أن يخفّف من حنقه ويسحب جيش الفولسيين، وبعدها يعرض ما يراه مناسباً للطرفين من المقترحات، فإن الرومان لا يقبلون بأي تنازل تحت التهديد، وإذا وجد أن الفولسيين محقّون في طلب أي امتياز فبإمكانهم الحصول على ما يريدون ضمن حدود معقولة إن تخلّوا عن السلاح.

وكان ردّ مارشيوس أنه لن يجيب بشيء بوصفه قائداً للفولسيين، أمّا بوصفه رومانياً وما يزال يملك صفة الروماني، فهو ينصحهم بله يحضّهم - والحالة هذه - على ترك

هذا الموقف المتعنّت، والتفكير في عقد صلح مناسبٍ، على أن يذهبوا الآن ويعودوا بالموافقة على مطاليبه السالفة بعد انقضاء ثلاثة أيام أخرى. وإلاّ فليعلموا أنهم لم يعودوا أحراراً في دخول معسكره بسعايات ووساطات لا طائل تحتها.

لما عاد الوفد وأطلع الشيوخ على جواب مارشيوس أدركوا أن بناء الدولة وصرحها يتعرّضان الآن لعاصفة هوجاء وأن الأمواج لن تلبث أن تطغى عليهم وتغيّبهم في اللُّجة. فلم يروا مناصاً من «إنزال الماساة المقدّسة» على حَدّ شائع القول، وهو ما كان يلجأون إليه في أشدّ ساعات الضيق. إذ صدر الأمر لطبقات الكهنة جميعاً، أولئك الواقفين على الأسرار أو سدنتها، وأولئك الذين يستوحون النبوءات من حركات الطير حسبما درج عليه الناس؛ أُمِروا كافةً أن يخرجوا ولا يتخلّف منهم واحد، بحُللهم وكسواتهم الكهنوتية التي يرتدونها عادةً أثناء أدائهم وظائفهم الدينية، وينتظمون بموكب حبريّ ويسيرون إلى مارشيوس ليطلبوا منه كالسابق سحب قواته ثم التفاوض عن الڤولسكان (الڤولسيين) مع بني قومه الرومان. ورضي أن يستقبلهم في معسكره إلاّ أنه لم ينزل لهم عن أي شيء، ولم يرقّق لهجته وعباراته، وطلب منهم بصلافةٍ لا يشوبها تنازل أو تطامن أن يختاروا بصورة نهائية بين أمرين الطاعة أو القتال، فالشروط الأولى كانت شروط سلم لا غير. وفشلت هذه الوساطة الدينية أيضاً ورجع الكهنة خائبين. وإذ ذاك قرّر الرومان البقاء داخل المدينة والسهر على أسوارها. وهكذا كانت خطتهم قاصرة على صدّ كل هجوم قد يقوم به العدوّ، ووضع كل آمالهم في تقلّبات الحظّ المفاجئة، وفي عامل الزمن لا غير. فقد كانوا يشعرون بعجز تامّ عن المحافظة على أرواحهم. واستولى على المدينة المزيد من الرعب والاضطراب، وسرت إشاعات مشؤومة تنبئ كلّها بشرّ مستطير. ثم وقع حادث يشبه ما نقرأ عنه كثيراً في آثار هوميروس ولولا ذلك لأخذه الجمهور مأخذ الحقيقة الواقعة. فنحن نجده يقول في وصف مناسبة خارقة للعادة.

«ثم پالّلاس نزلت عليه الربّة ذات العيون الزرق الحادّة بالإلهام أثينا»[٢٩].

ويقول في موضع آخر: «على أن واحداً من بني البشر وجّه عقله بأن دخل في قلبه إلى الخوف مما سيقوله الآخرون».

وقال أيضاً: «أكانت تلك فكرته الخاصة، أم أمراً ألقاه عليه الربّ؟»[٣٠]

في هذه المواقف يميل الناس إلى تكذيب الشاعر وعدم الاعتداد بما يقول، كأنما

---

(٢٩) الأوديسيّ ١٨: ١٥٧ و ١٥٨.

(٣٠) المرجع نفسه ٩: ٣٣٩.

بعرضه المستحيلات، وتصدّيه للخيال العابث المجرّد، يُنكر عمل الفكر الانساني المتروّي، وعامل اختياره الحُرّ، وليس هذا ما نجده دائماً في صور هوميروس ووصفه. فإن الاستنتاجات المألوفة منها والمحتملة والاعتيادية يعزوها دوماً إلى قوانا البشرية. وبذلك كثيراً ما يقول:

«. . . على أني لا أركن إلاّ لنصح نفسي العظيمة»[٣١].

وفي بيت آخر: «. . . وأصغى آخيل متألماً وأخذ مختلف الأفكار يتزاحم في رأسه العظيم»[٣٢].

وفي ثالث: «. . . من رغبات نفسها - لم ينل فتيلاً الشاب النبيل بللروفون Bellerophom المتسلح بدرع الحكمة».

لكن عندما يتّسم الحدث بطابع الخروج عن المألوف، والخارق للعادة، ويبدو بشكلٍ ماورائي المنشأ، ويتطلّب تعليلاً إلهياً من قبيل الالهام المفاجئ، فهُنا فحسب تتدخّل القوى السماوية لا لإحباط الإرادة البشرية، بل لتنشيطها وانبعاثها، لا لخلق قوى أخرى فينا، بل لتزويد قوانا بصور وبعوامل محرّضة. هذه الصور لا تجعل عملنا عملاً لاإرادياً بأي شكل من الأشكال، بل لتفسح المجال بالأحرى للعمل الإرادي التلقائي، يساعده ويؤازره الشعور بالثقة والأمل. إذ ينبغي لنا إمّا أن ننكر إنكاراً باتّاً على عاملِ التأثير الربّاني أيّ شكل من الأشكال السببيّة والإبداع فيما نعمله، وإلاّ فبأيّ سبيل تعمل فينا المؤازرة والمساعدة الإلهية؟ نحن بالتأكيد لانستطيع الافتراض بأن الكائنات الإلهيّة هي التي تسيّر حركة أجسامنا وتوجّه أيدينا وأقدامنا إلى هذا السبيل أو ذاك لنتنكّب طريق الزلل قولاً وعملاً: وواضح أنها تحرّض العنصر العملي والاختياري في طبيعتنا بمحرّضات أوّلية معيّنة، عن طريق صورٍ ترسمها في مخيّلتنا وافكارٍ تودعها في ضميرنا، فإمّا تثيرها وتوجّهها إلى السبيل القويمة، أو تحرفها، أو تمسك عن سلوكها.

وفي الارتباك العام الذي أتيت إلى وصفه قام معظم سريّات الرومان وعقائلهنّ بالذهاب إلى معبد جوبتر كاپيتولينوس وبعضهن قصدن معابد أخرى. ومن بين هاته النسوة ڤاليريا بنت پوپليكولا الكبير الذي قام بأجلّ الخدمات للرومان في السلم وفي الحرب. كان پوپليكولا قد قضى نحبه منذ زمنٍ كما أوردنا في سيرة حياته. إلاّ أن ڤاليريا أدركت هذا العهد، وكانت تتمتّع بمقام كبير واحترامٍ في روما، ولم يشن سلوكها

(٣١) المرجع نفسه ٨: ٢٩٩.

(٣٢) الالياذة ١: ١٨٨.

وحياتها نُبل مولدها. تملكت هذه المرأة فجأةً عاطفة أو فكرة من النوع الذي أتيتُ إلى شرحه. ووقعت على السبيل القويمة بهديٍ ربّاني. فنهضت وطلبت من الأخريات النهوض ومرافقتها في الحال إلى منزل ڤولمنيا أمّ مارشيوس، ففعلن ودخلن ليجدنها جالسة مع كنّتها وقد وضعت أحفادها في حُضنها. وتكلّمت ڤاليريا باسم رفيقاتها اللاتي كنّ يحطن بها، قالت:

«جئناك يا ڤولمنيا وانت يا ڤرجيليا كما تأتي نساءٌ إلى نساءٍ لا بأمرٍ من مجلس الشيوخ أو بتحريض من أحد الحكام. إن الكائن الإلهي نفسه وقد أثّرت فيه صلواتنا ودعواتنا تراءى لي ودفعنا إلى زيارتكما لنرجو منكما رجاءً واحداً تتوقف عليه سلامتنا وسلامة قومنا، إن قبلتماه وحقّقتماه فسترتفعا إلى أعلى مقام بلغته النساء السابينيات اللاتي استبدلن العداوة القتّالة بين آبائهن وأزواجهن بالصداقة والسلام. فهيّا بنا إلى مارشيوس، وشاركا معنا في رجائنا، واحملا عن أمّتكما هذه الدعوة العادلة لخيرها. فهي مع الأخطاء والأذيّات الكثيرة التي أتتها لم تُصبكما بأذى ولا فكرّت هي في الإساءة إليكما بشيءٍ وهي في ذروة هياج حقدها، إنها الآن تعيدكما إليه سالمتين، وإن كان الأمل ضعيفاً في نيل شروط عادلة منه».

وأمّن جميع النسوة على أقوال ڤاليريا بكلمات الاستحسان والرضا. وأجابت ڤولمنيا على ذلك بما يلي:

«إن حصّتي وحصّة ڤرجيليا من المصائب العامّة لا تقل عن حصصكّن يا بنات قومنا. على أن لدينا مصيبة خاصة انفردنا بها عنكنَّ، وهي فقدنا كفاءة مارشيوس وصيته، ومشاهدتنا إياه وهو سجين سلاح الأعداء، لا محروساً به. وإني مع هذا أعتبر أعظم بلوى حلّت بروما هما الحالة التاعسة والعجز المخجل اللذان جعلاها تعتمد علينا نحن الاثنتين. فعندما لا تَرَيْنَ مارشيوس يقيم أي وزن واعتبار لوطنٍ كان عليه أن يفضّله على أمّه ويضعه فوق زوجه وأولاده، يكون من الصعب جداً أن آمل ببقاء أي منزلة واعتبار لنا عنده. وعلى كل حال، استفدن من خدمتنا وقدننا إن شئتنَّ إليه، فبإمكاننا على الأقل أن نلفظ مع التماسنا إليه آخر أنفاسنا».

قالت هذا وأمسكت بيد ڤرجيليا والأولاد[٣٣] وذهبن جميعاً إلى معسكر

(٣٣) أخبرت ڤاليريا القنصلين بنيّتها في الأول. فأخذا الاقتراح إلى مجلس الشيوخ الذي وافق عليه =

الفولسكان. فكان موكبهنّ منظراً مُفجعاً أليماً أثّر كثيراً حتى على العدوّ الذي راح يتابعه بالنظر وهو صامت صمت الاحترام والمهابة. في تلك الساعة كان مارشيوس جالساً في مقرّه يحفّ به أركان حربه وكبار ضباطه فلما لمح جماعة النسوة يقتربن من مجلسه ادركته الحيرة ولم يفهم للأمر معنى. ثم لمّا تبين أمّه على رأس الجماعة زايله جلده وفارقته صلابته وغلبت عليه عاطفة الحنان، وارتبك جداً ولم يقوَ على البقاء جالساً في دست الحكم، فأسرع لاستقبالهن وحيّا أمّه وعانقها عناقاً طويلاً، وانثنى إلى زوجه وأولاده ليفعل كذلك، ولم يدّخر دمعة في عينيه، ولا حناناً ولا ملاطفة، بل سمح لعواطفه الجيّاشة أن تحمله وتنطلق به متحرّرة ناشطة من إسارها.

وبعد أن شفا غليله، ولحظ أن أمّه تريد أن تقول شيئاً له، دعا مجلس الشورى الفولسكاني للاجتماع وجلس الجميع يصغون إلى أقوالها التالية:

«يا بنيّ! إن ثيابنا وملامحنا قد تفصح لك دون كلام أو نطق عن شقائنا منذ أن نفيتَ وغبت عنا. والآن فلتفكر في نفسك ألسنا أشقى امرأتين في العالم؛ حين نجد أشهى وأعذب منظر تمنّيناه ينقلب إلى أبشع موقف وأشدّه هولاً؟ فبعامل من سوء طالع لا أدري كنهه ترى ڤولمنيا ابنها، وترى ڤرجيليا زوجها، يرفع السلاح لدكّ أسوار روما! حتى الصلاة التي كانت دوماً مصدر سلوى وعزاء للنساء في كل ضيق وبلوى أمست عندنا مصدر ألم واضطراب. لأن أفضل الدعاء الذي نرفعه إلى الآلهة لا يتفق ودعاء الأخريات. ونحن في الوقت عينه لا نستطيع أن نضرع إلى الآلهة لتنصر روما ولرعايتك من السوء معاً، بل إن أسوأ ما يمكن أن يُلحق بنا الأعداء من لعنة كان موضع نذورنا ودعواتنا. وزوجك وأولادك يعيشون محنةً أليمة، فإمّا أن يحرموا منك وإمّا أن يحرموا من تربة الوطن. أمّا انا فقد وطّدت العزم على استباق احدى النتيجتين اللتين ستسفر عنها الحرب بالنسبة لي. فان فشلتُ في إقناعك بتفضيل السلام والوئام على الحرب والخصام ولم أنجح في حملك على الإحسان للفريقين بدل أن تقضي على أحدهما، فخذها منيّ كلمة صدق وكن على يقين بأنك لن تبلغ بلادك إلاّ بعد أن تطأ أولاً جثة تلك التي جاءت بك إلى النور. من الصعب عليّ أن أنتظر وأتسكّع

= بعد نقاش طويل. عندها ركبت هي وعقائل روما في مركبات هيّأها لهن القنصلان واتجهن بها إلى معسكر الأعداء مشيّعات بتحيات وهتافات الشيوخ والعامة معاً.

في هذه الحياة حتى اليوم الذي أرى ولداً لي إمّا يقاد أسيراً في موكب النصر بزمام بني جِلدته، وإما أن يدخل منتصراً عليهم. ولو أني طلبتُ منك إنقاذ بلادك بإهلاك الفولسكان، فإن الأمر سيصعب عليك حقاً يا بنيّ، فمن الضعة والعار أن تجلب الدمار لبني قومك، ومن الظلم والشرّ أن تغدر بمن وضع ثقته فيك. على أن ما نريده هو حَلّ مناسب لنا ولهم[٣٤]. وإنه لمما يشرّف الفولسكان ويرفع قدرهم كثيراً وهم في تفوّقهم العسكري هذا أن يعمدوا إلى أعظم نعمتين في الدنيا: السلم والصداقة، وإن نالوا منهما قدراً مساوياً لا غير. وإن نلنا هاتين البركتين فسيكون لك الشكر العام بوصفك العامل الرئيس لوجودهما. فإن لم يتسّن ذلك، فلا سبيل لك إلاّ أن تتحمّل وِزر الشعبين كليهما، وتستهدف لومهما. إن فرص الحرب غير مؤكدة، على أن ما هو أكيد في هذه الساعة هو أنك لن تنال من فتح روما صيتاً، اللّهم إلاّ تقويضك صرح بلادك كلها أنك جلبت البؤس والشقاء لأصدقائك والمحسنين إليك، إرضاءً لعاطفة الانتقام فيك».

وكان مارشيوس يصغي إلى أقوال أمّه صامتاً لاينطق بكلمةٍ. ولما رأته ڤولمنيا يقف برهةً كالأبكم بعد فراغها من الكلام، استطردت تقول:

«يا بنيّ! ما معنى سكوتك هذا؟ أليس هو واجباً أن تغلّب إرضاء أمك بتحقيق رجائها على كل شعورك بالأذى والظلم؟ أهو من أخلاق عظماء الرجال أن يتذكروا الأخطاء التي ارتكبها الناس بحقهم؟ أو ليس من شيم الانسان الصالح الكبير النفس أن يذكر تلك المنافع التي نالها كتلك التي يبذلها الآباء للأبناء؟ وأن يجازوهم عليها بالاحترام والإكرام؟ وأنت، وعهدي بك صلب القناة لا تلين قطّ في عقاب ناكري الجميل، يجب ألاّ تكون أكثر إهمالاً لهذا الواجب من الآخرين فلا تحفظ جميل غيرك. لقد فرضت على بلادك عقاباً، إلاّ أنك لم تدفع لي دَيْني بعد. الحق يقال إن الدِيّن والأخلاق اللذين لا إكراه فيهما كانا يجب أن يدفعاك إلى إجابة طلب شريف عادلٍ كهذا الذي أعرضه، فإذا كان الأمر خلافاً لذلك فعليّ أن أتوسلّ بآخر ما لدي من حيلة...».

ما إن أنهت كلامها حتى القت بنفسها على قدميه وكذلك فعلت زوجه وأولاده. وهنا صرخ مارشيوس.

---

(٣٤) طلبت هدنة أمدُها سنة كاملة يتم خلال البحث عن تسوية لعقد صلح ثابت دائم.

- آه يا اميّ! ماذا صنعت بي؟

ثم رفعها وهو يضغط يدها اليمنى بشدة غير اعتيادية وقال:

- لقد نلتِ للرومان نصراً ما بعده نصر، لكنه سيهلك ابنك الذي غلبته أنت وحدك لا سواكِ!

وبعد تبادل أحاديث خصوصية مع أمّه وزوجه فترةً قصيرة، أعادهما إلى روما حسب مشيئتهما.

وفي صباح اليوم التالي قوّض المعسكر وعاد بالڤولسكان إلى ديارهم. وفي أنفسهم انطباعات مختلفة من فعله هذا، فبعضهم كان يندّد به ويدين تصرّفه، وبعض من كان يميل إلى السلم وقفوا على الحياد. وفئة ثالثة أسخطهم ذلك جداً، إلاّ أنهم لم ينظروا إليه نظرتهم إلى الغادر المخادع، بل وجدوا ضعفه الأخير واستسلامه تحت هذا الضغط العاطفي مما يمكن اغتفاره والتغاضي عنه. وعلى أيّة حال فإن أوامره لم تلق معارضة من أحدٍ، وتبعوه بمنتهى الطاعة وان كانت طاعتهم هذه ناجمة عن إعجابهم بخُلقه، أكثر من احترامهم لسلطته.

في الوقت عينه كشف الرومان عن مبلغ الخوف الذي كانوا يشعرون به، وخشيتهم من الحرب، بما بدا منهم من تصرّفات بعد أن انجابت عنهم سُحبها. وما إن تأكد حرس الأسوار من تقويض الڤولسكان معسكرهم وارتحالهم حتى عمدوا إلى فتح أبواب المعابد كافة بطرفة عين. وراحوا يتوّجون رؤوسهم بالأكاليل ويستعدّون لتقديم الأضاحي والقرابين، كعادتهم عندما تردهم أنباء نصرٍ ساحق. ولكن فرحة المدينة كانت فريدة بصورة خاصة في تكريمهم النسوة وإظهار دلائل الاعتزاز والإكبار لهن من الشيوخ ومن العامة على حدٍ سواءٍ. ولهج الجميع بمأثرتهم وقال إنهن بلا مماراة منقذات الوطن. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً باستجابة كل ما يطلبنه من تكريم، وأن يحقق لهن الحكام كل رغبة، وكانت طلبتهن قاصرة على إقامة معبد للإلهة الأنثى فورتونا (الحظّ). وعرضن أن تسدّ نفقات إقامته من تبرعاتهم الخاصّة، إن تعهّدت المدينة بالصرف على القرابين من الخزينة العامّة وغير ذلك من مراسم التكريم الخاصة بالآلهة. فلم يسع مجلس الشيوخ إلاّ الإعجاب بروحهّن الوطنية، وأمر بإنشاء المعبد فوراً، وإقامة تمثال فيه للربّة على حساب الخزينة العامة[٣٥]. إلاّ أن النسوة اكتتبن فيما بينهن بمبلغ لعمل

(٣٥) أقيم في الطريق اللاتيني Via Latina، على بعد أربعة أميال من روما في عين المكان الذي وقفت فيه ڤيتوريا في التغلب على عناد ابنها (ڤاليريوس ماكسيموس ١: ٨). أمّا ڤاليريا التي =

تمثال آخر لربّة الحظّ الذي يؤثر عنه الرومان أنه نطق بالعبارة التالية عندما كان يجري نصبه: «بركات الآلهة هي هديتكن أيّتها النساء».

يقولون إنّ هذه العبارة سُمعت مرة أخرى من فم التمثال. مؤكدة بذلك رأينا في امكان وقوع ما يبدو أنه قريب من المستحيل.

من المحتمل أن تشاهد التمثال وهو ينضح عرقاً، أو تنحدر من حَدقيته الدموع أو أن تتجمع على سطحه قطرات متحلّبة ذات لون دمويّ، لأن المادة التي صُنعت منها وهي الخشب أو الرخام كثيراً ما تتقشر أو تدركها عفونة ينجم عنها رطوبة، وقد تنشأ على سطوحها ألوان مختلفة من جرّاء التفاعل الداخلي أو من تأثير الهواء الخارجي. وبهذه العلامات لم يكن من الغرابة والسخف أن يتصوّر المرء أن الآلهة تريد إنذارنا بحدث مقبلٍ. ويحدث أيضاً أن تصدر من التماثيل والصور أصوات قريبة الشبه بالأنين أو التأوّه من جرّاء تشقّقٍ فجائي، أو انفصال داخلي قوي بين أجزائها. أمّا أن تصدر أصوات قولية ذات تعابير واضحة ولغة دقيقة من جمادٍ فهو في رأيي من المستحيلات. إذ لم يُعرف قطّ عن روحٍ إنسانية أو إلهيّة أنها نطقت بكلمات أو عبارات لغوية من ذات نفسها ومن دون وجودها في جسم ذي أجهزة وأعضاء منتظمة العمل، وحاسة نطق. ولكن لما كانت وقائع التاريخ بما تواتر فيها من الشهادات العديدة الموثوقة ترغمنا على التسليم بهذه الظاهرة، فعلينا أن نعلّل ذلك مستنتجين بأن انطباعاً معيّناً خلاف الإحساس البشري الاعتيادي يؤثّر على الجزء المتخيّل من طبيعتنا، فيبتعد بنا عن الحكم الصائب بحيث يحملنا على الاعتقاد بأننا نحسّ إحساساً مادياً لا غبار فيه كما يحدث لنا في النوم. فنحن نتخيّل بأننا نسمع ونرى بينما الأمر ليس كذلك. على أن الأشخاص الذين يكنّون احتراماً عميقاً للآلهة، ويتمسكون بالدين أشد تمسّك، لا يسمح لهم احترامهم وتمسّكهم بما يعتقدون بإنكار أو دحض أي شيء من هذا القبيل، وحجّتهم القوية تكمن في إيمانهم بالصفات الأثيرية العجيبة للقوى الإلهية التي لا مجال لمقارنتها بقوانا البشرية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث فاعليتها، ولا من أسلوب فعلها أو قوته؛ وليس مما يناقض العقل أنها تفعل أشياء لا نقوى عليها نحن، ونبتدع أموراً غير ممكنة بالنسبة لنا لاختلافها عنّا من شتّى الوجوه، وفي مقدمة الاختلاف أفعالها الخاصّة، وليس لنا إلاّ الاعتقاد بأنها لا تشبهنا قط، وأنها بعيدة جداً عَنّا. يقول هيراقليدس:

= كانت أول من اقترح هذا الوفد الناجح فقد صارت أول كاهنة للهيكل الذي كانت ترتاده الرومانيات كثيراً (ليفي ٢: ٤٠).

«إن الشكّ الذي يلازمنا ضيّع علينا معظم المعرفة باللاهوت».

لما عاد مارشيوس إلى آنيتوم، بدأ توللوس فوراً بإعداد الوسائل الكفيلة بالقضاء عليه وكان كرهه العظيم له بقدر خوفه منه - كان يدرك جيداً لو أن مارشيوس أفلت من يده الآن فإن احتمال سنوح فرصة أخرى كهذه بعيد جداً. فبعد تأليبه عدداً من بني قومه عليه طلب منه اعتزال منصبه وتقديم الحساب للفولسكان عن أعماله. ولخشية مارشيوس من الخطر الذي يتعرّض الفرد البسيط الذي سيكونه، بينما سيبقى توللوس في منصب القائد الحائز أعظم السلطة بين المواطنين، أجاب قائلاً إنه مستعدّ لاعتزال منصبه متى ارتأى سحب سلطته أولئك الذين تسلّمها منهم، كما أنه مستعد في الوقت ذاته لتقديم الحساب عن تفاصيل أعماله وتصرّفاته متى رغب الأنتيات.

وعُقد اجتماع عام، وتقدّم الخطباء الشعبيون للكلام حسب الخطة المرسومة، ومرادهم إثارة حفائظ الشعب وإضرام كوامن أحقادهم. وعندما حان دور مارشيوس ونهض للإجابة، سكت فجأةً أكثرهم صخباً وهياجاً، احتراماً له. وتُرك يتكلم دون أن يقاطعه أحد. وظهر على أخيار الناس كافة وكل من كان يصبو إلى السلام أنهم سيصيخون السمع إليه بكلّ عطف وأنهم سيحكمون عليه بما يتفق مع العدل والوجدان.

فدبّ دبيب الخوف في توللوس وخشي نتيجة الدفاع الذي كان مارشيوس يهمّ بإلقائه، فهو خطيب مفوّه ساحر اللسان، زد على هذا أن الخدمات الجليلة السالفة التي قدّمها للفولسكان حفظت له في قلوبهم وما زالت تحفظ ودّاً وعطفاً لايقلل من شأنه أي إعابة أو تنديد بسلوكه الأخير. والحقيقة هي أن الاتهام كان بحدّ ذاته دليلاً وشاهداً على عظمة نفسه لأن الشعب لا حقّ له في الشكوى منه أو اعتبار نفسه مخدوعاً ومغبوناً لأن مارشيوس عدل عن إخضاع روما، فبفضله وحده أصبحوا قاب قوسين من فتحها. لهذا قدّر المتآمرون أن الحكمة تقضي عليهم بالاستعجال في الأمر وعدم التأخر ليتذوّقوا طعم المشاعر الشعبية في حكمها لصالح مارشيوس. فصاحت الفئة الجريئة من حزبهم أن لا ضرورة تدعو للإصغاء إلى غدّار خائن والسماح له بالبقاء في منصبه وممارسة سلطة الطاغية المستبد بين ظهرانيهم. قالوا هذا وحملوا على مارشيوس حملة رجلٍ واحد، وفتكوا به في محل الاجتماع[٣٦].

(٣٦) يقول ديون إنهم رجموه حتى قُضي عليه، ويتفق مع بلوتارخ إلاّ في قوله إن الاشتباكات التي حصلت بينه وبين تللوس استمرت عدة أيام. أما شيشرون (الخطب ١٠) فيفضّل الرأي القائل بأنه بخع نفسه.

وسرعان ما تبيّن أن عملهم هذا لم يقع موقع رضىً وقبولٍ من غالبية الڤولسكان، إذ خرجوا زرافات ووحداناً من مدنهم العديدة لاستقبال جثمانه وإظهار آيات التكريم والإجلال له. ودفنوه دفنة مشرّفة تليق بمقامه(٣٧)، وزيّنوا ضريحهُ بمختلف تهاويل السلاح والشواخص، وجعلوه مثل أي نصب تذكاري لبطل نبيل، وقائد شهير. ولم يظهر من الرومان شيء يدلّ على تكريمه أو تحقيره عند سماعهم بمقتله. على أنهم استجابوا لطلب النساء الرومانيات في أن يُقمن عليه الحداد ويندبنه لمدة عشرة أشهر، بمقتضى العادة التي جروا عليها عند فقدهم أباً أو ابناً أو أخاً. وهذه أطول مدّة من مُدد الحِداد على الميت التي رسمتها قوانين نوما بومبليوس، كما ذكرناها بتفصيل في سيرة حياته.

ولم يمرّ طويل زمن حتى شعر الڤولسكان بفداحة خسارتهم فيه، ومدى حاجتهم إليه. فقد اختلفوا بادئ ذي بدءٍ مع الأيكويين Aeqiuians، حلفائهم وأصدقائهم، حول تعيين جنرال لقواتهم المشتركة، فاقتتلوا فيما بينهم وسُفكت الدماء وهلكت أرواح كثيرة. ثم إنهم مُنوا بهزيمة نكراء على يد الرومان، فيها فقد توللوس حياته. وأبيدت زهرة جيوشهم إبادة تامة وبهذا أُرغموا على الخضوع لهم، وقبول سلم وفق شروط غير مشرّفة لهم، وصاروا بذلك تابعين لروما خاضعين لسلطانها.

(٣٧) قُتل كوريولانوس في السنة الأولى من الأولمبياد المائة والثالث والعشرين بحسب هذه الرواية. لكن ليڤي، نقلاً عن كاتب قديم جداً يدع فابيوس پكتور، يخالفه في الرأي ويقول إنه عاش حتى بلغ من العمر عِتيّاً ومات ميتةً طبيعية.

أوجُه المقارنة بين ألكيبيادس وكوريولانوس

بعد أن أتينا إلى وصف كل أعمالهما التي تستحق الذكر، لنا أن نقول عن القسم العسكري منها إن الكفّتين فيهما تقفان على مستوى واحد لا يميل الثقل بأحدهما دون الأخرى أبداً، فبمقياس كاد يكون متساوياً أظهرا كلاهما في مناسبات عديدة بسالة الجندي وإقدامه، وأبديا براعة القائد وبُعد نظره، خلا أن انتصار ألكيبيادس ونجاحه في عدة معارك بحرية وبريّة يضفي عليه صفة القائد الأكمل. وطالما كان كل منهما في بلاده متسلّماً القيادة فقد كسب لها من المجد والرفعة ما يعادل الأذى الذي ألحقه بها عند نفيه منها. ولقد شعر عقلاء الناس كلهم بأن ألكيبيادس استخدم سلطته في حياته السياسية لخطب ودّ الشعب وكسبه إلى صفّه. ونفروا من التعالي الأوليغارشي والغرور والغطرسة التي استخدمها مارشيوس في بلاده وكانت موضع كره الجمهور الروماني له. لا يمكن أن يكون هذان الموقفان موضع تقريظ أو تقدير. على أن الرجل الذي يحبّب نفسه للآخرين بالمداهنة والرّياء لا يلام بقدر ما يلام من يلجأ إلى السبّ والإهانة ليتحاشى الظهور بمظهر المداهنة والرياء. إن اطّلاب السلطة عن طريق تحقير النفس، والاستعباد للجمهور لهو الانحطاط بعينه. إلاّ أن الوصول إلى السلطة بالإرهاب والعنف واضطهاد الناس، هو انحطاط وظلم عظيم.

كان ألكيبيادس حسب فهمنا لخلقه رجلاً بسيطاً صريحاً لا شكّ فيه. أما ألكيبيادس السياسيّ ورجل الدولة فكان مراوغاً بعيداً عن الاستقامة. ونال الملام الأعظم من الأسلوب الغادر غير الشريف الذي اتبعه مع سفراء اللقيديمونيين - حسب رواية ثوكيديدس - فأنهى به عهد السلام والاستقرار. على أن سياسته هذه التي ورّطت مدينته في الحرب ثانية وأوصلتها إلى منزلة وطيدة وحققت لها مكانة رفيعة بما ضمنه لها ألكيبيادس من تحالفٍ مع أرغوس ومانتينا. كذلك مارشيوس، فهو على حدّ ما روى ديونيسيوس، استخدم وسائل غير شريفة لإثارة حرب بين الرومان والفولسكان عندما افتعل نبأ كاذباً حول سوء نوايا مشاهدي الألعاب، إن الدافع لهذا العمل لهو أقبح من

دافع ألكيبيادس إلى عمله، حسب رأيي لأن سببه لم يكن الحسد السياسي ولا روح المنافسة والمباراة، بل لمجرّد إرضاء عاطفة حقدٍ «لم ينل عنها أحدٌ عوضاً على الإطلاق» كما يقول إيون. فقذف بأقاليم كاملة من إيطاليا في لُجّة الفوضى، وضحّى بكثير من المدن البريئة على مذبح عاطفة كرهه بلاده. والحق يقال إن ألكيبيادس سبّب أيضاً نكبات عظيمة لبني قومه، لكنه أمسك عن ذلك حالما تغيّر شعورهم نحوه، وبعد أن طرد من البلاد للمرة الثانية؛ لا نجده يتشفّى بالأخطاء التي ارتكبها قوّادها، ولا اغتبط بعثراتهم. ولم يجلس على التلّ غير مكترث بالخطر الذي يداهمهم، بل قام بشبيه العمل الذي قام به أريستيديس لثيموستوكليس واستحق عليه الثناء الأعظم. أقبل على القادة وهم أعداء له، وبيّن لهم ما يجب أن يعملوه. أمّا كوريولانوس فقد هاجم في مبدأ الأمر كل قومه، وإن كان جزءٌ منه فقط أساء معاملته في حين وقف القسم الآخر في صفّه وتحمّل معه الإساءة - في الواقع - وعطف عليه، وهو أنبل الجزءين وأفضلهما. وثانياً إن العناد الذي ركبه في مقاومة السفارات العديدة والرجاءات والتوسّلات التي استهدفت تهدئة غضبه الشديد وشعوره بالإهانة أظهرت أن إثارته الحرب الزبون على بلاده وتأليب الأعداء ضدها كان الغرض منه القضاء عليها وتدميرها لا استعادتها ونوالها. على أن هناك فرقاً واحداً قد نستخلصه، فقد يقال إن ألكيبيادس لم يُعِده إلى أحضان أثينا إلاّ بسبب الخطر الذي كان يحدق به وهو بين السپارطيين، فكان عامل الميل لهذا، الخوف والكره معاً. في حين لم يكن مارشيوس يستطيع ترك الڤولسكان بصورة شريفة بعد أن أكرموا وفادته، وأمّروه على جيوشهم وجعلوه موضعاً لثقتهم التامّة، فكان موقفه يختلف اختلافاً بيّناً عن موقف ألكيبيادس الذي لم يرغب اللقيديمونيون حتى في استخدامه عاريةً، أي استعماله ثم نبذه. فكان ينقلب من منزل إلى منزل في المدينة ومن جنرال إلى جنرال في المعسكر حتى اضطر أخيراً إلى وضع نفسه تحت رحمة طيسافيرنس. إلاّ إذا وجب علينا الافتراض بأنه لم يلجأ إليه ويستمنح رضاه إلاّ للحيلولة دون القضاء التام على مسقط رأسه، المدينة التي كان يصبو للعودة إليها. أمّا من ناحية المال فلقد قيل لنا إن ألكيبيادس اهتم كثيراً باطّلابه وجمعه عن طريق الرشاوى وإنفاقه بأسوأ ما يمكن في البذخ والتبذير. لكن كوريولانوس ترفّع عنه، حتى عندما أرغمه على قبوله قوّاده، على سبيل التكريم. وإن السبب الأساسي الذي ابتلاه ببغض العامّة عند المناقشات حول ديونهم كان وطأه الفقراء بقدمه لا لأجل المال، بل قحةً منه واعتداداً بنفسه.

ذكر أنتيپاطر Antipater في رسالة له كتبها عن موت أرسطو الفيلسوف العبارة

التالية: «من بين الصفات التي تخلّى بها قوة العقيدة». وافتقار خلق مارشيوس إلى هذه المزيّة جعل كل أعماله المجيدة وفضائله الحميدة غير مقبولة من المنتفعين بها، و«الكبرياء والاعتداد بالنفس صِنوان للعُزلة» كما يقول أفلاطون، وهذا ما جعله مكروهاً. أما ألكيبيادس فبالبراعة التي حازها في معاملة كلّ امرئ بأحبّ أسلوب إليه خلافاً لمارشيوس، لم يكن عجيباً أن تلقى كلّ انتصاراته أعظم التكريم وخالص الامتنان، حتى غلطاته نفسها بين آن وآخر تجد فيها نوعاً من البركة، واللطف. ولذلك تراه رغم الأذى الكثير الذي أحدثه بالمدينة يُعاد انتخابه للسلطة والقيادة تكراراً، في حين فشل كوريولانوس في سعيه لنيل المنصب الذي استحقّه بخدمته العظيمة بالأول، ورغم ما أحدثه من ضرر بقي محبوباً ولم يُكره. والثاني لم ينجح في نيل محبّة بني قومه بكل الإعجاب الذي ناله.

زد على هذا ما يجب قوله وهو أن كوريولانوس لم يحز لبلاده نجاحاً ونصراً عندما تولّى القيادة العسكرية، وإنما كانت انتصاراته كلها لعدوّه ضدّ بلاده. وأما ألكيبيادس فخدماته لأثينا كثيرة، قائداً وجندياً. وطالما يكون موجوداً فهو المتفوّق أبداً على خصومه السياسيين ولا يفلح الدّس عليه إلاّ في غيابه. وأدين كوريولانوس حضورياً في روما وبالشكل نفسه قتله الفولسكان، ولم تكن إدانته أو قتله بأي وجه حقٍ أو تطبيقاً لمبدأ العدالة، إلاّ أنهما لا تخلوان من أسبابٍ وحُجج نشأت عن أعماله نفسها. ما دام فرّط في فرص عسكرية مؤاتية، بعد رفضه كل المقترحات السليمة علناً، ونزوله عند وساطة النساء سِرّاً، دون اللجوء إلى عقد صلحٍ وتثبيت دعائم سلمٍ. كان يجب عليه أن يحصل على موافقة أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن يعتزمَ الانسحاب، هذا إذا كان حقاً يعتبر مصلحتهم فيه هي الأقوى. وإن قلنا بأنه لم يكترث بمصلحة الفولسكان وإنه ما شنّ الحرب (التي عافها الآن) إلاّ ليشفي غليله ويرضيَ عاطفة حقده، فإن العمل النبيل لن يكون الصفح عن بلاده بسبب أمّه، ولكنه عمل أُمّه لوطنها. ما دامت أمّه وزوجه جزءاً لا يتجزأ من البلاد التي أحدق بها الخطر. لقد رفض رفضاً قاسياً شفاعة الجمهور، ووساطة السفراء، وضراعة الكهنة، وبتنازله عن كل شيءٍ كفضلٍ خاصٍ حابى به أمّه، فقد أكرمها إكراماً أقل وقعاً من تحقيره المدينة التي ما نجت إلاّ بوساطة امرأة واحدة على ما يبدو، ورغم الأخطاء التي ارتكبتها. فضلٌ كهذا هو في الواقع فضلٌ مقيتٌ مرّ المذاق، غير معقول في أعين الطرفين. لقد انسحب دون أن يلبّي طلب خصومه، أو يطلب الموافقة على انسحابه من أصدقائه. والعِلّة كلّها تكمن في خلقه المتعالي المعتدّ والمتوحّش الغطريس، وهو خُلق مكروه من معظم الناس في كلّ

الحالات، وتكون الطامة الكبرى إن اقترن هذا الطبع بطموحٍ إلى الرفعة والامتياز، فإنه ينقلب إلى قسوةٍ ووحشيّة صرفة.

يأبى بعض الناس أن يستمنحوا الشعب فضلاً لزعمهم بأنهم ليسوا بحاجةٍ إلى أي تكريم منه، ويتميّزون غيظاً عندما لايظفرون به. ومن المؤكد أن ميتيللوس وأريستيديس وإپامنداس لم يطلبوا فضلاً من الجمهور، وكان ذلك لأنهم، والحق يقال، لم يُقيّموا أو يُقدّروا قيمة الهبات التي يحبسها الشعب بمجموعه أو يمنحها. كذلك لم يظهروا حقداً أو يستولدوا ضغناً لبني قومهم عندما أُبعدوا إلى المنفى أكثر من مرة، بل لم تزايلهم الرغبة في العودة قط، وكانوا يعملون لها وللمصافاة مع الشعب عند تحوّل الشعور العام نحوه. ومن كان أزهد الناس في طلب المنّة والفضل لا يُعطاه. والشعور بالكرامة الجريحة لمّا يُحبس عن المرء ما يهفو إليه من الرفعة والمكانة لا ينشأ إلاّ عن الشهوة العارمة إليهما. ولم يؤثر عن ألكيبيادس أنه أخفى سروره واغتباطه بأي تكريم ناله، كما كان يتألم من الإهمال وعدم الاكتراث، لذلك حرص دوماً أن تكون علاقاته طيّبة مع كلّ من عرفه. وكبرياء كوريولانوس حالت بينه وبين إظهار اللطف والرعاية لمن كان بيدهم رفعة وإعلاء شأنه. ومع هذا فان غرامه الشديد بالمعالي جعله يشعر بالكرامة الجريحة والغيظ لمّا أهمل الشعب أمرَه. وتلك ناحية النقص في طبعه. وطبعه فيما عدا هذا نبيلٌ فرقّته وعِفّته وأمانته تجعله في مصافّ عظماء الإغريق وأطهارهم، وهو على كلّ ليس من الفئة التي ينتمي إليها ألكيبيادس أقل الناس تمسّكاً بهذه السجايا، وأكثرهم إهمالاً لها.

تيموليون

TIMOLEON

٤١٠–٣٣٦ ق.م

بدأت بكتابة السِّيَر لأجل الآخرين، إلاّ أني وجدت نفسي أباشرها وأعكف عليها لأجل نفسي. فأخلاق وطبائع هؤلاء العظماء صارت عندي أشبه بالمرآة التي أَلحظُ فيها كيفية تقويم حياتي وتعديل سَيْرها. هذه الكتابة في الواقع لا تخرج عن وصف الحياة اليومية واللقاءات والمخالطات البشرية، ونحن في تحقيقاتنا عنها نلتقي ونرحّب بضيوف متعاقبين فننظر إلى:

«. . . منزلتهم وإلى خُلقهم وطبعهم»

ونختار من أعمالهم الأنبل، والأجدر بالذكر:

«فآه! وأية لذة عظيمة تلك التي ينال المرء منها»

وأية وسيلة أقوى أثراً منها في رفع مستوى أخلاق المرء!

يقول لنا ديموقريطس: «ينبغي لنا أن نتمنّى لأنفسنا لقاء السَّمْحَ الكريم من جمهرة الأطياف التي تسبح في الأثير المحيط بنا، والأخلق بنا أن نختار منها الأقرب إلى أذواقنا وطباعنا، أي الأطياف الصالحة الخيّرة، لا الطالحة الشريرة».

هذا القول إنمّا يُقحم في الفلسفة مبدأً غير صحيح في ذاته، يؤدّي بالمرء إلى معتقدات خرافية لا نهاية لها، وهذا مخالف لطريقتي؛ فبدراستي التاريخ، وبالعادة التي ألفتُها في الكتابة، روّضت ذاكرتي على اقتبال واستبقاء صور أفضل الشخصيات وأبرزها في الحياة. وهذا ما مكّنني من معالجة نفسي وتحريرها من الانطباعات الخسيسة الوضيعة الفاسدة المنتقلة اليّ بعدوى سوء العشرة المفروضة على نفسي رغم أنفي - بدواء تحويل أفكاري نحو الأمثلة الرفيعة الشريفة، بمزاج هادئ مبهج. وقد اخترت الآن لكتابتي عن هذه الطائفة مثلَين هما تيموليون الكورنثي وپاولوس أميليوس، رجلان وقفا على درجة واحدة في سُلَّم الشهرة لا بأخلاقهما بل بالنجاح الذي أصاباه في الحياة. حتى بات من المشكوك فيه أن يُدينا بأعظم أعمالهما إلى حسن حظهما، أم إلى سعيهما وألمعيّتهما.

كانت أحوال السيراقوزيين قبل إرسال تيموليون إلى صقلية قد آلت إلى الوضع الآتي: بعد أن عمد ديون Dion إلى طرد ديونيسيوس الطاغية، قُتل غيلةً وخيانةً، وانقسم أعوانه الذين ساعدوه في تحرير سيراقوز على أنفسهم. وكادت المدينة تُقفر من سكانها لكثرة تبدل يد الحكام عليها. ولتعاقب سلسلة من المصائب والويلات فيها[1]. وبات قسم من صقلية بَلْقَعاً يَباباً خالياً من السكان لاستمرار الحروب مدة طويلة. ووقع معظم المدن التي نجت من التدمير في أيدي البرابرة والجنود العاطلين غير المرتبطين بخدمة، المستعدّين لمصانعة أي شكل من أشكال الحكم. تلك هي الحال عندما اهتبل نيسيوس Nysaeus[2] سيّد سيراقوز في السنة العاشرة لنفيه، الفرصة ليستعيد مجدداً سلطانه ويستقر في ملكه. لقد كان غريباً أن يفلح حزبٌ صغير جداً خلال الفترة الأولى من حكمه في تجريده من أعظم سلطاته وأشدّها استبداداً. على أن الأغرب منه نجاحه في استعادة تلك السلطة وهو في المنفى لا حول له ولا طول، وفرض نفسه حاكماً مطلقاً على من طردوه. ووجد من بقي في سيراقوز أنفسهم مرغمين على طاعة طاغيةٍ وخدمته. طاغية مستبدّ، فظّ الطبع (إن استخدمنا أخفّ وصف له). امتلأ غيظاً الآن إلى درجة الوحشية بما أصابه من بلايا ونكبات. ولجأ سراة القوم وأخيارهم إلى هيكيتس Hicetes حاكم الليوتينيين[3] في الوقت المناسب، ووضعوا أنفسهم في حمايته واختاروه قائداً لهم في الحرب لا لأنه يَفْضُل في شيء أيّ طاغية مستبدّ عنيد، بل لأنه الملجأ الوحيد الذي وجدوه في حينه. ومما منحهم شيئاً من الثقة منه: أنه من أسرة سيراقوزيّة، ويملك القوات التي تمكّنه من منازلة قوات ديونيسيوس.

في هذا الوقت ظهر القرطاجنيون على ساحل صقلية بأسطول عظيم، وراح سكان الجزيرة يرصدون المكان والزمان اللذين يختارهما الغزاة للنزول إلى بلادهم. ودفعهم الرعب من الأسطول إلى إرسال وفد إلى بلاد اليونان لطلب العون من الكورنثيين الذين

(١) قُتل ديون الذي طرد ديونيسيوس الابن من سيراقوز في ٣٥٧ ق.م وقام قاتله كاليوس باغتصاب السلطة لنفسه لكنه طُرد منها بعد عشرة أشهر، وقُتل بعين الخنجر الذي غيّبه في صدر صديقه. وأقبل هيبارينوس Hipparinus أخو ديونيسيوس يقود أسطولاً كبيراً احتلّ المدينة وأبقاها تحت حكمه زهاء سنتين. وانقسمت صقلية إلى شِيَع وأحزاب وكُتل حاكمة.

(٢) كان رجلاً عسكرياً لامعاً، وقائداً عاماً بإمرة ديونيسيوس.

(٣) هؤلاء القوم كانوا يسكنون مدينة اسمها ليونتيني كما يثبتها هيرودوتس وهي لا تبعد كثيراً عن شمال سيراقوز بين نهري ليسّوس وفيويوس. يُعزى بناؤها إلى الخلقيديين. ويطلق على الريف المحيط بها ليوستريكوني أو مخيّم ليونتيني واشتهر بخصوبته.

كانوا مَحلّ ثقتهم أكثر من غيرهم(٤) لا للقرابة التي تصل فيما بينهم ولا للفوائد العظيمة التي طالما جنوها من وضع ثقتهم فيهم بل كذلك لما أظهرته كورنث دوماً من شدّة تعلّق بالحرية، ونفرة من الطغيان ودخولها في عدة حروب لا سعياً وراء الكسب والعظمة بل دفاعاً عن حرية الإغريق ليس إلاّ. إلاّ أن هيكيتيس الذي جعل هدف قيادته تحرير السيراقوزيين من ظلم طاغيةٍ لإستعبادهم بطغيانه كان قد اتصل سِرّاً بالغزاة القرطاجنيين وفاوضهم وتوصّل إلى اتفاق معهم، بينما كان يمتدح جهراً غايات أتباعه السيراقوزيين، حتى أنه أرفق بوفدهم إلى البيلوپونيس وفداً من لدنه لا لرغبته في نيل أية معونة أو نجدة تأتي منهم، بل كان يأمل أن يرفض الكورنثيون بذل العون، وهو أمر قريب الاحتمال بسبب الاضطراب الذي كان يسود بلاد الإغريق وانشغال هؤلاء فيه، وإذ ذاك يكون أقدر على تحقيق مصالح القرطاجنيين بسهولة، وتنفيذ ما تعهّد لهم به. وبهذا الأسلوب يتمكن من استعمال الغزاة الأجانب أداة لتحقيق أغراضه، وقوة احتياطية له يوجهها ضدّ السيراقوزيين أو ضد ديونيسيوس حسبما تدعو إليه الظروف. وقد انكشفت خطته هذه فيما بعد.

وصلت السفارة إلى الكورنثيين، وعرضت مهمّتها. وكان هؤلاء القوم دوماً شديدي الرعاية والاهتمام بكلّ جالياتهم وزراعتهم في الخارج. إلاّ أنهم خصّوا سيراقوز بأعظم اهتمامهم وكان الوضع في كورنث مستقراً إذ ذاك، والقوم يتمتعون بظلّ السلام الوارف والراحة فصوّتوا بالإجماع على تقديم العون لهم. وفي أثناء ما كانوا يتداولون في اختيار قائد للحملة، والحكام يجادلون في طلبات مختلفة من أولئك الطمّاحين إلى المجد، نهض واحدٌ من الجمع الحاشد ونطق باسم تيموليون ابن تيموديموس Timodemus الذي كان قد توارى منذ زمن طويل عن ميدان الشؤون العامّة ولم تكن لديه أية فكرة أو دعوى لهذا النوع من المناصب. ويبدو وكأن إلهاً من الآلهة أوحى إلى قلب هذا الرجل بذكر اسمه، وظهرت محاباة آلهة الحظّ، وحُسن نواياها في انتخابه، وفي مرافقتها كُلّ أعماله التالية حتى لكأنها أوصت بجدارته وأضافت السموّ والشهرة إلى أخلاقه الشخصية لغايةٍ في نفسها. كان تيموديموس أبوه وديمارست Demariste أمّه من الطبقة العليا في المدينة. وأمّا عنه فقد اشتهر بحبّ وطنه، ورقّة طبعه، خلا مقته الشديد للطغاة وأشرار الناس. وكانت قابلياته الطبيعية في الحرب والقتال حسنة

---

(٤) أوجد أرخياس الكورنثي المستعمرة السيراقوزية في ٧٣٢ ق.م. كان الفينيقيون قد غزوا صقلية قبل ذلك بثلاثمائه عام وأنشأوا فيها مستعمراتهم.

التكوين فيه بحيث إنه ظل يُظهر شجاعةً وإقداماً نادرَيْن في آخر مآثره ووقائعه عندما بلغ من العمر أراذله، لايقلّان أبداً عن الكفاءة والألمعيّة التي بدأت في كلّ مشاريع شبابه. وكان أخوه الأكبر طيموفانس Timophanes لا يشبهه في شيء، فهو حادّ الطبع متهوّر أحمق، أفسده بعض أصدقائه، والجنود الأجانب الذي كانوا يلازمونه وأغووا في نفسه حب النزوع إلى السلطان المطلق، ويبدو أنه كان قد كسب اسماً وتبريزاً في كل فنون الحرب، بل كان ركّاب أخطارها وفارسها المجلّي، ولهذا وقع حُبه في قلوب الناس، ورفعوه إلى مناصب هامّة لحسن بلائه وجسارته. وكان فضل تيموليون عليه في وصوله إلى مركزه كبيرا، فقد دأب على إخفاء هفواته أو التقليل من شأنها على الأقل، يكسو بثنائه العاطر كلّ ما يستأهل الثناء من أعمال أخيه، ويدفع الجانب الطيب من شمائله مشجعاً لتنطلق بما فيها من فوائد وحسنات.

حدث مَرّة في معركة خاضها الكورنثيون ضدّ قوات أرغوس وكليوني Cleonae(٥) أن كان تيموليون جندياً في صنف المشاة، وطيموفانس يقود خيّالتهم، فاستهدفت حياته إلى خطر جسيم إذ جُرح حصانه وكبا به ورمحَه إلى أواسط العدوّ في حين تفرّقت عنه كتيبته وولّت الأدبار فزعاً، وكانت الشرذمة الباقية القليلة العدد التي تواجه قوات عدوّه المتفوّقة قد دبتّ فيها الفوضى وعجزت عن الصمود ولو لساعةٍ. وما إن علم تيموليون بالخطر المحدق حتى هرع لإنقاذه وستر بتُرسِه جسدَه الذي أصيب هو ودروعه بكثير من طعنات الرماح والسيوف. وقاتل العدوّ حتى أرغمه على التقهقر بعد لأيٍ وحمل أخاه وعاد به حيّاً سالماً.

وعندما خشي الكورنثيون على حرية مدينتهم بالسماح لحلفائهم بدخولها أصدروا مرسوماً يقضي بتجنيد أربعمائة جندي أجنبيّ مرتزق للمحافظة عليها، وسُلّمت قيادتهم لطيموفانس فما لبث أن تجبّر ولم يرع مبدأً من مبادئ الشرف، وجعل نفسه حاكماً مطلقاً واخضع البلد لسلطانه الفرد. وبعد أن فتك بالعديد من رؤساء القوم ممن خشي صَوْلَتهم ومقاومتهم نواياه دون إدانة ولا محاكمة أعلن نفسه طاغيةً لكورنث. ووقع هذا على تيموليون وقعاً أليماً، معتبراً شرور أخيه مصدر خزي له وبلوى. وحاول إقناعه بالمنطق والعقل بالعدول عن سبيل الغواية والطموح السيّئ النقيبة، وان يبحث عن وسيلة لإصلاح ومعالجة الشرور التي ألحقها ببني قومه. فازدرى طيموفانس تحذيره المخلص ورفضه. وكرّر تيموليون محاولته وأخذ معه أسخيلوس قريبه شقيق امرأة

(٥) آخر قرية أرغوليّة من جهة كورنث.

طيموفانس، وكاهناً نبيّاً صديقاً يطلق عليه ثيومپوپوس في تاريخه اسم ساتيروس Satyrus، ويسمّيه إيفوروس Ephorus وطيماؤوس في تاريخهما أورثاغوراس Orthagores. عاد إذن إلى أخيه برفقة هؤلاء، وتحوّطوه وأخذوا يُلحفون عليه بالرجاء في الموضوع نفسه وينصحونه بإخلاص بالإصغاء إلى صوت العقل وإبدال طرائقه. لكن طيموفانس راح يضحك ساخراً من سذاجة الرجال ثم انفجر بهم مُحنقاً ساخطاً، فما كان من تيموليون إلاّ أن انتحى جانباً عنه ووقف يبكي بوجه مستور في حين انتضى الآخران سيفيهما ووثبا على الطاغية وقتلاه في الحال(٦).

وسرعان ما شاع النبأ. وأشاد سراة الكورنثيين وكِرامهم بتيموليون كثيراً، وقدّروا فيه بُغضَه الجور وسموَّ نفسه التي جعلت التزاماته تجاه وطنه أقوى من وشائج القُربى، رغم كونه رقيق الطبع، شديد الحب والعطف على أسرته. وهكذا قدّم ما هو عدل وخير على الربح والفائدة والمصلحة الشخصيّة. فأخوه الذي أنقذ حياته بشجاعة خارقة عندما كان يحارب في سبيل كورنث ببسالة وإخلاص. قام الآن بقتله لأنه استعبدها فيما بعد باستبداده القذر. فكانت تضحية منه في غاية النُبل. على أن أولئك الذين لايعرفون كيف يعيشون في ظلّ الديمقراطية، ممن تعوّد حِطّة التزلّف الوضيع للحكام ورجال السلطة، راحوا سرّاً يسلقون تيموليون بألسنتهم الحِداد، ويشيرون إليه بالرجل الذي اقترف عملاً لا أشنع منه ولا أقبح، مع أنهم أظهروا في العلن شدّة اغتباطهم بمقتل الطاغية. فانتاب تيموليون الغمّ والكآبة الشديدة. ولما علِم كم كان وقع الأمر شديداً على أمّه، وكيف أنها جارت بالشكوى الأليمة وصبّت عليه أقسى اللعنات وأهولها كأولئك الآخرين، قصَدَها ليشرح لها ما وقع ويبرّر عمله لها، فوجد أنها لا تريد حتى النظر إليه إذ أغلقت أبوابها دونه لئلا يجد سبيله إليها. فنال منه الهمّ كثيراً وطاش صوابه وبلغ به اليأس حدّاً أن قرّر معه وضع نهاية لقلقه بقتل نفسه بالإضراب عن تناول الطعام حتى الموت. إلاّ أن عناية أصدقائه وسهرهم المتواصل والشدّ عليه بين الإلحاح والتوسّل إلى استخدام القوّة والإرغام، أدّى في نهاية الأمر إلى أن يقرر ويعِد باحتمال

---

(٦) لديدورس الصقلي (١٥: ١٠) رواية أخرى مختلفة. قال: بعد أن قام تيموليون بقتل أخيه بيده في ميدان السوق، ثارت ثائرة المواطنين وهاج هائجهم. فلأجل تهدئة الخواطر التأمت الجمعية العامة وفي حُمّى النقاش وصل سفراء صقلية وطلبوا جنرالاً. فصار الإجماع على تيموليون إلاّ أنهم حذروه قائلين: «إن أدّيت واجبك بنجاح فستعامل معاملة من قضى على طاغية. وإن أخفقت فستعامل كمجرم قتل أخاه. إلاّ أن رواية پلوتارخ قد تكون أرجح وقد أيّدتها مراجع أخرى.

العيش شريطة أن تحترم عُزلته التامّة، وابتعاده عن أيّ عشرةٍ. وهكذا تقطّعت الأسباب بينه وبين الحياة العامة وحلّت بينه وبين المجتمع جَفْوَةٌ تامّة وخرج من كورنث وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة يهيم على وجهه في الحقول والفيافي تُعذّبه أفكاره وتقضّ عليه مضجعه. وينفر أشدّ النفرة من أي صلة بالناس أو علاقة بالحياة الاجتماعية.

حقيقة لا جدال فيها: وهي أنه ليس ثمّ أسهل من هزًّ عقول الناس وإفقادها التوازن والصواب بكلمة مدح أو قدح تقال لها، إلاّ إذا كانت الأحكام المتخذة والغايات المنشودة مبنيّة على قاعدة الفلسفة والوعي، فتحوز صفتي الثبات والمتانة. وليس يكفي في العمل أن يكون عادلاً ممدوحاً بحدّ ذاته بل يجب أن ينشأ من دوافع مكينة ومبدأ راسخ، وسيظلّ إذ ذاك جميلاً في أعيننا، ونبقى راضين عنه رضاءً تاماً لايتزعزع. فإن لم يكن العمل كذلك فسيسلّمنا ضعفنا إلى القلق والاضطراب عندما يدبّ في مظهري الصلاح والجمال اللذين زيّنا لنا العمل دبيبَ البِلى وتُخْلِق جدّته في خيالنا، كالناس النهمين فهم يتهافتون على ألذّ ما في الصحفة من اللُّقَم، ثم ما يلبثون أن يعافوها عندما تتخم بطونهم بالأكل فيحسّون بالضيق والتعب مما كانوا شديدي الاشتهاء له.

إن الكره الذي يعقب الحبّ يفسد خير الأعمال، والندم يجعل أروع الأعمال وأحسنها تأديةً وضيعاً حافلاً بالأخطاء. في حين لايتغيّر الاختيار المبنيّ على أسس المعرفة والتحكيم العقلي بعوامل الخيبة والإخفاق، ولا يُسلمنا إلى الندامة. وقد يتفق أن يكون عملنا عند إنجازه أقل نجاحاً من المأمول. وفي هذا الصدد أذكر قولاً مأثوراً لفوكيون Phocion. كان هذا قد وقف من تدابير ليوسثينيس Leosthenes موقف المعارضة الشديدة المستمرة. وعندما رأى علائم النجاح تتوالى وقومه مغتبطين بها، يقدّمون القرابين بمناسبة الانتصار، قال لهم:

«إن السرور الذي قد ينتابني فيما لو كنت أنا الذي حقق لكم انتصار ليوسثينيس بدلاً منه يعادل سروري لكوني أنا الذي أدلى برأي ضدّه».

ولدينا جوابٌ آخر أشدّ من هذا وأوقع. عندما طلب ديونيسيوس الأكبر الزواج من إحدى بنات أريستيدس اللوكري Locria صاحب أفلاطون، ردّ عليه بما يأتي:

«أُفضّل أن أرى العذراء تدرج في قبرها على أن أراها في قصر طاغية!».

وفي سورة غضب ديونيسيوس لهذه الإهانة عمد إلى قتل أبناء أريستيدس، ثم عاد يسأله بوقاحة: أما زال مصرّاً على رأيه السابق في مصائر بناته، فأجابه أريستيدس:

«لا يسعني إلاّ أن أتألم لوحشية أعمالك، إلاّ أني لستُ بآسف على حريّة كلماتي».

على أن الآلام التي استولت على تيموليون لما فعله حَطّمت عزيمته وسحقت روحه، وسواء كان مأتاها تعاسة مصير أخيه، أو الاحترام الذي يكنّه لأُمّه، فقد بقي زُهاء عشرين عاماً عازفاً عن شرف المساهمة في حياة بلاده السياسية، ولما قُدّم اسمه مرشحاً لمنصب الجنرال وأيّد الترشيح إقبال الجمهور بكلّ سرور على الاقتراع له، قصده تيلكليدس Teleclides وكان في حينه أقوى وأبرز رجل في كورنث، وبدأ يحضّه على القبول بقوله إن الواجب يحتّم عليه الآن أن يتصرّف كما يتصرّف الرجل الشجاع الجدير بالاحترام...

«لأنك إن أظهرت في مهمتك هذه تفانياً وبطولة فسنُجمع على أنك أنقذتنا من طاغية حقاً. وإلا كنت قاتل أخيك في نظرنا».

وفيما كان يستعدّ للإبحار، ويجنّد المحاربين، وصلت الكورنثيين رسائل من هيسيتيس توضح تمرّده وخيانته. إذ ما إن توجّه سفراؤه إلى كورنث حتى ألقى بحظه إلى جانب القرطاجنيين، وفاوضهم في معاونته على إزاحة ديونيسيوس وحلوله محلّه في سيراقوز. ولمّا كان يخشى على خطته الفشل في حالة وصول جيش وقائدٍ من كورنث قبل تنفيذها فقد بعث بكتاب على جناح السرعة ليحول دون ذلك، قائلاً بألاّ حاجة تدعوهم إلى تكبّدهم العناء والنفقات والتعرّض لأخطار حملةٍ إلى صقلية، فقد اضطره تباطؤهم في إرسال النجدة إلى قبول التحالف مع القرطاجنيين ضدّ ديونيسيوس، وإن هؤلاء سيتربّصون بحملتهم، ويهاجمونها في عرض البحر بأسطول ضخم. وأزالت تلاوة هذا الخطاب على الجمهور كلّ تردد في النفوس، حتى البارد غير المكترث بالحملة منهم، وثارت كوامن سخطهم على هيسيتيس واضطرمت نفوسهم غيظاً، وأقبلوا جميعاً على تجهيز حملة تيموليون بحماسة وأخذوا يستعجلونه في الرحيل.

لما جُهّزت السفن، وكملت أهبّة الجنود من كل النواحي، حدث أن حلمت كاهنة الربّة پروسيرينا (ربّة الخصب) حُلماً، أو نزلت عليها رؤيا خلاصتها أنّ هذه الربّة وأمّها سيريس (إلهة الزراعة) ظهرتا في عدة السّفر، وقالتا للكورنثيين إنهما ستبحران إلى صقلية مع تيموليون. وعندها قام الكورنثيون ببناء سفينه مقدّسة أسموها «سفينة الربّات» وكرّسوها لهما. ثم إن تيموليون رحل إلى دلفي بنفسه وضحّى لأپوللو، ثم نزل إلى موضع الوحي من المعبد ليفجأ بالرؤى الخارقة الآتية: انزلقت عصابة رأسٍ مطرّزة بالتيجان وصور النصر من بين الهدايا المقدمة وطارت في فضاء المعبد ثم سقطت مباشرة على رأسه، وهكذا بدا وكأن أپوللو يتوّجه بالنجاح مقدّماً ويرسله إلى هناك للفتح والنصر. وانطلق في عرض البحر بعشر سفن فقط: سبع منها كورنثية، واثنتان

من كوركيرا[٧] وواحدة تبرّع بها الليوكاديون Leucadia، ودخل أحشاء البحر ليلاً تدفعه ريحٌ رخاء. وعلى حين غرّة انشقت السماء وخرج منها لهبٌ ساطع مُنتشر وأخذ يحوم فوق سفينته، ثم تجمّع اللهب ليغدو مشعلاً شبيهاً بالمشاعل ملازماً جانبها، ليهديها بنوره إلى الجزء الإيطالي الذي قرروا النزول فيه. وأيّد السحرة أن هذه المعجزة تؤيّد حلم الكاهنة، لأن الربّتين ترافقان الحملة فعلاً، وقد أرسلتا هذا النور من السماء ليتقدمهما: ذلك لأن صقلية مكرّسة لپروسپرينا لزعم الشعراء أن حادثة الخطف وقعت هناك وأن الجزيرة أعطيت مهراً لها[٨] عندما تزوّجت پلوتو: إله الموتى وجهنّم.

شجّعت هذه الخوارق الآلهية أفراد الحملة كثيراً، فانطلقوا بأقصى سرعتهم في رحلتهم يشقّون عباب الأوقيانوس حتى وجدوا أنفسهم بعد زمن قصير يجرون على طول الساحل الإيطالي. إلاّ أن الأنباء التي وردت تيموليون من صقلية أقلقته كثيراً وثبّطت عزائم جنوده. فقد تغلّب أكيتيس[٩] على ديونيسيوس في ساحة القتال وأخضع لسلطانه معظم أحياء مدينة سيراقوز نفسها، وهو في تلك اللحظة يطوّقه ويحاصره في قلعتها وفي ما يُسمّى بالجزيرة حيث هرب وجعلها ملجأه الأخيرة. في حين كان على القرطاجنيين حسب الاتفاق أن يحولوا دون نزول تيموليون في أي ثغر من ثغور صقلية. فبطرده وطرد أتباعه يمكنهم على هونهم وهواهم تقسيم الجزيرة فيما بينهما. وعلى هذا الأساس بعث القرطاجنيون بعشرين من بوارجهم إلى ريجيوم[١٠] ومعها سفراء من هيسيتيس إلى تيموليون، وقد حمّلهم تعليمات مناسبة لخطتّه هذه ومقترحات خادعة للإلهاء وحكايات ظاهرها معقول، لستر وتزويق غايات غير شريفة. أُمروا أن يقدّموا اقتراحاً يتضمّن الطلب من تيموليون أن يحضر إلى هيسيتيس أن شاء ويشاركه كلّ فتوحاته بعد إرساله السفن والجنود إلى كورنث لأن الحرب تكاد تكون في حكم المنتهية، والقرطاجنيون قد أغلقوا المدخل وعزموا على صدّهم إذا حاولوا اقتحام

---

(٧) هي كورفو وقد عُرفت أيام هوميروس موطناً للفياكيين. وليكاديا هي شبه جزيرة مجاورة. اشتهرت بلسانها المشهور باسم «قفزة الحبّ».

(٨) في اليوم الثالث من الزفاف أعطت العروس هدية للعريس عند ظهورها لأول مرة دون بُرقع بحسب عادات ذلك الزمان. ولهذا السبب يطلق عليها اليونان كلمة «أناكالوپسوريون».

(٩) وجد إكيتيس نفسه بحاجة إلى أرزاق فانسحب من حصار سيراقوز متجهاً إلى بلاده فخرج عليه ديونيسيوس وهاجم مؤخرته، إلاّ أن إكيتيس استدار وواجهه وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ثم تعقّبه إلى داخل المدينة واحتل جزءاً منها. ويذكر پلوتارخ أن المدينة التي قُسمت بأسوار قوية بدت وكأنها مجموعة من المدن.

(١٠) (من أعمال كالابريا) تقع في مضيق مسينا.

سبيلهم عنوةً إلى الساحل. وعندما التقى الكورنثيون بالوفد في ريجيوم ووعوا رسالتهم وشاهدوا السفن الفينيقية راسية في الخليج ثارت كرامتهم للإهانة وسادهم سخط عامٌ على هيسيتيس، وتملّكهم خوف شديد على جيرانهم الصقليين Sicaliotes، الذين سيكونون ثمناً وتعويضاً لهيسيتيس على غدره من جهة، وغنيمة للقرطاجنيين بسبب ما يمارسونه من سلطان على هيسيتيس من جهة أخرى.

كان أشبه بالمستحيل هزم السفن القرطاجنية التي تقع عليهم في الطريق وعددها ضعف عدد سفنهم. كذلك كانت مسألة دحر الجنود الظافرة التي يقودها هيسيتيس في سيراقوز وأخذ زمام المبادأة منه بأولئك الجنود الذين أبحروا في الحملة.

ذلكم هو الموقف برمّته. فبعد أن تحدث تيموليون برهة مع وفد هيسيتيس ورؤساء القرطاجنيين قال لهم إنه موافق بكلّ سرورٍ على مقترحهم (وأيّ جدوى في رفضه؟) لكنه يرغب قبل عودته إلى كورنث أن يكون أهالي ريجيوم على بيّنة تامّة بكل ما دار من مفاوضات بينهما وأن تذاع لهم بشكل علنيّ لأن المدينة إغريقية، وتربطها بالجانبين صلة الصداقة، وهذا التدبير سيكون ذا أثر كبير على سلامة عودته، كما سيجعلهم متمسّكين وملتزمين بشروط الاتفاق لمصلحة أهالي سيراقوز حيث كانوا أشهدوا على أنفسهم علناً بمساعدتهم.

كان هدف تيموليون من كل هذا تحويل الأنظار عَمّا بيّته، وهو اهتبال فرصة للانسلال بأسطوله من بين سفنهم، ولم يكن سراة المدينة وأعيانها يجهلون غرضه بل عمدوا إلى مساعدته في تنفيذه، تحدوهم رغبتهم الشديدة في تولّي الكورنثيين زمام الأمور في صقلية، ويدفعهم خوفهم العظيم من مغبّة مجاورة البرابرة لهم. ولذلك دُعي إلى عقد اجتماع عام وأُغلقت أبواب المدينة لئلا ينشغل المواطنون عنه بشؤونهم الخاصّة، وتعاقب الخطباء على المنبر كل بدوره لشرح الموضوع للشعب، ينتهي واحد ليبتدئ آخر. وهكذا دون التوصل إلى نتيجة، يتعمدون تبديد الوقت بالكلام الفارغ حتى تخرج السفن الكورنثية من المرفأ. وكان ربابنة السفن القرطاجنية قد عُوِّقوا في المدينة لهذا الغرض، ولم ينتبهم أيّ شكٍّ لأن تيموليون بقي معهم، وكان يبدي إشارات من يحاول التهيّؤ لإلقاء خطاب. ثم وردته إشارة سريّة تعلمه بخروج بوارجه كلها إلى عرض البحر(١١)، خلا السفينة التي كانت بانتظاره، وتمكن بالتخفي ومساعدة

---

(١١) خُيّل للقرطاجيين أن إقلاع السفن التسع إلى كورنث إنما هو نتيجة اتفاق تمّ بين قادة الفريقين وأن السفينة العاشرة إنما أبقيت لنقل تيموليون إلى أكيتيس.

الريجيين القريبين من المنصّة، من النزول عنها سِرّاً والتسلل بين الحشود وأسرع إلى الميناء ليبحر فوراً ويدرك باقي السفن. ووصل الأسطول كله إلى تارومينيوم Tauromenium المدينة الصقلية، وكان حاكمها المدعو أندروماخوس Andromachus قد دعاهم قبلاً، فاستقبلهم ورحّب بهم أحسن ترحيب. كان أندروماخوس هذا، والد المؤرخ طيماؤوس، وهو بلا جدال أو مقارنة خير حكام صقلية آنذاك. فقد نشر العدل في المدينة، وجعل الكلمة العليا للقانون، وكان يمقت الطغاة مقتاً شديداً، ويعاديهم عداءً صريحاً. لذلك سمح لتيموليون بانزال جنوده هناك، واتخاذ مدينته مقرّاً لإدارة دفّة الحرب، وأقنع السكان بالانضواء إلى صفوف الحملة الكورنثية ومساعدة تيموليون في إنجاز مهمته.

بُعيد ارفضاض اجتماع ريجيوم أدرك القرطاجنيون المتخلّفون هناك أن تيموليون أفلت منهم فثار ثائرهم. وسخطوا لانطلاء الحيلة عليهم(١٢) قدر ما أفعم الريجيون سروراً. ولم يسعهم الا الابتسام والضحك عندما راح الفينيقيون يتشاكون الغش والخديعة. ثم إنهم بعثوا برسول إلى تاورومينيوم على ظهر إحدى سفنهم. وهناك أخذ يتوعّد ويستفزّ بأسلوبه البربري الوقح، ثم التفت إلى أندروماخوس وصار يتهدده بالويل والثبور إن لم يبادر إلى إخراج الكورنثيين من مدينته فوراً. ثم مدّ يده مقلوبة الكفّ وقلبها إلى فوق قائلاً إنه سيعمل هكذا بمدينته، أي يقلب عاليها سافلها في غمضة عين وبكلّ سهولة. فقلّد أندروماخوس حركة يده ساخراً وأمره بالانصراف حالاً إلاّ إذا أراد أن تُطبّق لعبته هذه البارعة على السفينة التي أقلّته.

وبلغ إيكيتيس نجاح تيموليون في خرق الحصار ونزوله البرّ فاستولى عليه خوف عظيم من النتائج، وأرسل يطلب من القرطاجنيين تخصيص عدد كبير من سفنهم لخفارة الساحل والسهر عليه. ويئس السيراقوزيون من سلامة أرواحهم. فالقرطاجنيون سادة الميناء(١٣)، وإيكيتيس مطلق السلطان على المدينة، وديونيسيوس متحصّن في القلعة. بينما لايسيطر تيموليون في صقلية إلاّ على هامش أو حافةٍ منها وهي بلدة تاورومينيوم الصغيرة، وقوّاته لا تُذكر، وأمله ضعيف. كان تحت أمرته ألف جندي على أكثر تقدير، ولا يملك من القمح ما يقيته به، ولا من المال لدفع المرتبات حتى

---

(١٢) أي «الحيلة الفينيقية» وقد جرت مثلاً: Fraus Punica.

(١٣) عبّأ القرطاجيون مائة وخمسين سفينة حربٍ، وستين ألف رجل وثلاثمائة مركبة حربية [ديودوروس ١٦ : ٦٧].

لهذا العدد الضئيل. ولم تسعفه المدن الأخرى بشيء من الإمداد، إذ لم تكن لها ثقة به، بعد الإرهاب والاضطهاد الذي ذاقته على أيدي قادة الجيش السابقين، وخصوصاً غدر كاليبوس Callipus الأثيني، واللقيديموني فاراكس Pharax. فبعد أن أوضحا أن مجيئهما يهدف إلى استنقاذ حريتها من يد الطغيان والقضاء على المستبدين، وضمنا العون من أهاليها؛ بلغ طغيانهما حدّاً عُدّ معه العهد المباد عصراً ذهبياً، واعتبر الصقليون من مات في عهد الطغيان السالف أسعد حظاً ممن عاش ليرى تلك الحريّة المزهقة للأنفاس. ولهذا ما كانوا يتوقّعون خيراً من القائد الكورنثي وتصوّروا أنها المهزلة عينها يعاد تمثيلها ثانية، ورأوا فيه سيداً جديداً مليئاً بالادّعاءات الخادعة، والعهود الكاذبة يعمل على اجتذابهم بالآمال العِراض، والأماني البرّاقة. فأعلنوا شكهم في أقواله، ورفضوا العروض التي قُدّمت إليهم باسمه، إلاّ أهالي أدرانوم Adranum. وهي مدينة صغيرة مكرّسة للربّ أدرانوس[(١٤)] الذي يُجلّ كثيراً في صقلية. فهؤلاء دبّ فيهم الخلاف وانقسموا حزبين أحدهما اتصل بهسيتيس وحلفائه القرطاجنيين لإرسال نجدة له، والآخر فاوض تيموليون. وحكمت الصدف أن تصل النجدتان في وقت واحد، رغم الجهود العظيمة التي بذلها الجانبان لاستباق الوصول. زحف إيكتيس على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بينما خرج تيموليون من تاورومينيوم وليس معه أكثر من ألفٍ ومائتين. وتاورومينيوم تبعد من أدرانوم بحوالي ٣٤٠ فُرلُنغ [٩٣ ميلاً حديثاً تقريباً]. وكانت مسيرته في اليوم الأول تمتاز بالبطء، وبكثرة التعسكر في غضون مراحل سير قصيرة. إلاّ أنه غذّ السير في اليوم التالي وبعد أن اجتاز أرضاً شديدة الوعوثة بلغه وقت المساء أن هسيتيس وصل أدرانوم وهو يقوم بضرب خيامه أمامه، وإذ ذاك هرع ضباطه ورؤساء عسكره إلى وقف تقدّم حرس المقدمة ليرتاح الجيش ويكون في حالة نشاط واستجمام عند التحامه بالعدوّ. إلا أن تيموليون خرج إليهم مسرعاً وأوقفهم عند حدّهم وأمرهم باستئناف التقدم واستخدام كل همّة ممكنة لمفاجأة العدوّ الذي سيكون في حالة فوضى واضطراب، لأنه باشر بضرب خيامه وإعداد وجبة عشائه حال انتهاء مسيرته. ثم إن تيموليون حمل تُرسه ووضع نفسه في مقدّمة الرّتل، وبهذا قادهم إلى نصرٍ أكيدٍ. إن بسالته أرغمت كل جنوده على السير خلفه بالشجاعة والعزيمة نفسها حتى باتوا على بُعد لايزيد عن ثلاثين فُرلُنغ [١٦٠٠

(١٤) من الشعار الذي جاء في النصّ بعدئذ يجب أن يكون مارس وهيكله محروساً بمائة كلبٍ. والمدينة نفسها تقع في أسفل جبل إتنا على نهرٍ بعين الاسم يصدر من الجبل.

باردة] وقطعوا هذه المسافة بسرعة خاطفة وحملوا على العدوّ الذي كانت الفوضى تسوده فتقهقر في أوّل التحام. وبعد مقاومة ضعيفة ومناوشة قصيرة انقلب التقهقر إلى هزيمة عامة خسر فيها العدوّ ما لا يزيد عن ثلاثمائة قتيل وضعف العدد من الأسرى. ووقع معسكره وكل ما فيه من عفشٍ غنيمةً في يد تيموليون. وكان من أثر هذا الهجوم أنْ فتحت أدرانوم أبوابها لاستقبال المنتصر والانضواء تحت رايته. وحدّثوه بمزيج من الإعجاب والذعر كيف انفتحت أبواب معبدهم من تلقاء ذاتها ساعة بدءِ الهجوم. كما لوحظ أيضاً أنَّ الرمح الذي يمسكه تمثال الإله راح يهتز في يده، وشوهدت حبّات من العرق تنحدر على وجهه. والظاهر أن هذه الخوارق لم تكن قاصرة على التنبّؤ بالنصر المنجَز بل هي البشير بانتصارات تيموليون المقبلة أيضاً، وكان النصر الأول هو السبب لظهورها.

وبادرت المدن المجاورة والحكّام بإرسال موفدين إليه يلتمسون صداقته، ويعرضون عليه الخدمات. ومنهم مامرقوس Mamercus(١٥) طاغية كتانا Catana وهو محارب ذو مراسٍ، وأمير ثريّ، عرض عليه التحالف. علن أن الأهمّ من كلّ هذا هو أن ديونيسيوس الذي ركبه اليأس وبلغ شفا الاستسلام، وبدافع من احتقاره لهسيتيس على أثر هزيمته النكراء المخزية، وإعجابه بشجاعة تيموليون، حقق الاتصال بالقائد الكورنثي وبني قومه، وأعلن لهم رغبته في تسليم نفسه والنزول عن القلعة إليهم. فسُرّ تيموليون وقبل فوراً بهذه العروض غير المتوقعة وبعث بالقائدين الكورنثيين أقليدس وتيليماخوس على رأس فوج من جيشه قوامه أربعمائة مقاتل لاحتلال القلعة والاحتفاظ بها. وأمرهما بألاّ يدخلا بكلّ جنودهما حالاً أو على مرأى من الناس لما في ذلك من محذور ومادامت حراسة العدوّ يقظة، بل أن يتسلّلوا إلى الداخل بفصائل قليلة العدد. وهكذا تمّ احتلال القلعة وقصر ديونيسيوس ووضعوا أيديهم على كل الأرزاق والمؤن التي كان قد استحضرها وادّخرها لتمكينه من مواصلة الحرب. كما وجدوا عدداً لا بأس به من الخيل ومختلف آلات الحرب والحصار ومقادير لا تُحصى من الأسلحة والأسنّة تكفي لتسليح جيش قوامه سبعون ألفاً في مستودع أُعِدّ لاختزانها منذ عصر سحيق. كذلك وجدوا ألفي جندي من أتباع ديونيسيوس فضمّوا إلى قوات تيموليون. أما الطاغية فقد نقل كنوزه ونفائسه إلى سفينة أبحرت به سرّاً مع قليل من أصحابه دون أن يفطن إليها هيسيتيس، حتى بلغت به معسكر تيموليون فدخل بثياب عادية مما يرتديه

---

(١٥) يثبته «ماركوس» [ديودورس: المرجع السالف].

عامة الناس لأول مرة في حياته[١٦]. وبعد ذلك بقليل أُرسل إلى كورنث في سفينة واحدة، ومعه مبلغ يسير من المال.

ولد ديونيسيوس ورُبّي في أفخم بلاطٍ ملكي. وكان أشدّ الحكام استبداداً وطغياناً. قبض على ناصية السلطان وظلّ يمارسه عشر سنين بعد وفاة أبيه. وقضى بعد حملة ديون اثنتي عشرة سنة أخرى في حروب طاحنة وفتن دائمة وتقلّبت به حظوظه فيها ولبست أزياء شتّى، وجُوزي في أثنائها بنكبات ومصائب تزيد كثيراً على ما اقترفه من آثام ووزرعه من شرور خلال فترة ملكه الأولى. وعاش ليشهد بعينه موت أبنائه وهم في عزّ رجولتهم، وهتك أعراض بناته وهنّ في زهرة عُذرتهن. ورأى الانتهاك الشنيع لستر أخته التي هي امرأته[١٧]، فبعد أن تعرّضت هذه لشتّى الإهانات الوقحة من الجنود قتلت مع أولادها والقيت جثتها في البحر.

بنزول ديونيسيوس برّ كورنث تقاطر الإغريق من كل أنحاء البلاد لمشاهدة ذلك الطاغية الرهيب الأسبق يدفعهم حُبُّ الاستطلاع، ولتوجيه بعض القول إليه. أمّا الفريق الذي دفعه خالص الكره والاحتقار للتشفّي بمصيبته فقد جاؤوا ليطأوا انقاض حظّه المحطّم الزائل على حَدّ شائع القول. إلاّ أن الفريق الذي كان اهتمامه وعطفه منصرفاً إلى التأمّل في تقلّبات حياته والزعازع التي عصفت بها لم يسعهم إلاّ أن يجدوا فيها دليلاً على قوة وجبروت العالم الإلهي غير المنظور على الضعف البشري والأشياء المنظورة.

لم تضع يد الطبيعة أو يد الفن[١٨] في ذلك الحين أمراً يمكن مضاهاته بما عملته الأقدار وأبدعه الحظّ في معجزة ديونيسيوس. فهذا الذي كان قبل فترة ليست طويلة حاكم صقلية الأعلى تراه الآن يتسكّع في سوق السّمك، أو يجلس في دكّان عطّار، يحتسي شراب الخمّارات الرخيص المشعشع بالماء، أو يخاصم امرأة من الأوشاب في قارعة الطريق، أو يتظاهر بإرشاد مغنّيات المسرح، ويسترسل معهن في جدالٍ عنيف حول هارمونية المقطوعات الغنائية، وإيقاعاتها وسلالمها الموسيقية، مما يؤدّينه هناك. وكان سلوكه هذا موضع انتقاد مختلف الناس. وظنّ كثيرون أن تصرّفاته هذه متأتّية من

---

(١٦) كان الوحيد الذي ولِد وهو طاغية. في حين أن جميع الطغاة الآخرين ولدوا من أصولٍ خاملة ليرتقوا إلى هذا المنصب.

(١٧) سوفراسينه بنت أبيه من زوجه أرسطوماخه.

(١٨) بإضافة عبارة «يد الفن» يريد پلوتارخ القول إن الشعراء التراجيديين الذين يعالجون على الأغلب موضوع سوء طوالع الملوك والأمراء لم يصوّروا مثيلاً لمصيبة فرد كهذه المصيبة.

ضعف طبعه، ومزاحه الشكس. أمّا الناس الأبعد منهم نظراً وتفكيراً فقد علّلوا ذلك بأنه يؤدّي به دوراً سياسياً، القصد منه تعويد الكورنثيين على الاستهانة بشخصه وصرف النظر عن خطورته فلا يعودون يشعرون بأيّ شكّ في نواياه ولا يحاذرون من ردود فعل حظه العاثر فيه، أو يتبيّنوا رغبة منه لتغيير حاله. واجتناباً لما يأتي به هذا الشكّ تعمّد الظهور بمظهر يخالف طبعه الحقيقي بتقمُّص مظهر الرقاعة والحمق في حياته الخاصّة وأوقات فراغه.

مع هذا فقد سجّل التاريخ له أقوالاً وردوداً على أسئلة يبدو منها رجلاً كيّف نفسه لوضعه الجديد تكييفاً خسيساً وضيعاً. ويتجلّى بعض هذا من اعتراف أدلى به عند وصوله إلى ليوكاديا Leucadia وهي من مستعمرات كورنث كسيراقوز، إذ قال لسكانها إنه وجد نفسه شبيهاً بالأولاد المذنبين الذين لا يتحرّجون في الكلام أمام إخوتهم، إلاّ أن الخجل يعروهم إذ يواجهوا آباءهم، وإنه ليسرّه العيش بينهم في جزيرتهم هذه، بينما يشعر بنوع من التهيّب والرهبة فيه كره وصدود لكورنث التي هي أمّ لكليهما. ويظهر الأمر أكثر وضوحاً في إجابة له على سؤال أجنبيّ لَقِيَه في كورنث، وهزأ بأسلوب فظّ مهين وتعرّض بالقدح والزراية للأحاديث التي اعتاد ديونيسيوس تبادلها مع الفلاسفة والحكماء (كانت صحبتهم مصدراً من مصادر سروره) عندما كان ملكاً، وتساءل بالنتيجة ما الذي أفاده كلّ هذه الأحاديث الفلسفية الحكيمة من أفلاطون فأجابه: «أوَتظنّني لم أنتفع بفلسفته، وها أنت تراني أتحمّل عِثار حظّي على خير وجه؟». وعندما رغب منه أرسطوكزينس Aristoxenus الموسيقي وعدد آخر أن يفسّر لهم كيف أضرّت به تعاليم أفلاطون، وأين هو موطن استيائه منها، أجابهم:

> «من بين الشرور العديدة التي ترافق الحكم الاستبدادي المطلق يبرز في مقدّمتها أنه لا يعود واحد من الأصدقاء المعتمدين والموثوق بهم يجرؤ على الكلام بحريّة، أو قول الحقيقة الصريحة. وبهذا حُرِمتُ أفضال تعاليم أفلاطون».

وفي مناسبة أخرى كان من بين أصحابه الفكهين رجل يريد دوماً أن يظهر بمظهر الفطنة ودقّة النكتة، فعلى سبيل التندُّر بديونيسيوس قام بنفض طيّات ثيابه عند دخوله الحجرة التي كان يوجد فيها ديونيسيوس إشارة إلى أنه لا يُخفي بينها سلاحاً - كأنّ ديونيسيوس ما زال طاغيةً - فعلّق هذا ردّاً على عمله بقوله إنه يفضّل أن يراه وهو يقوم بعمله هذا عند تركه الغرفة إثباتاً بأنه لم يُخف حاجةً ويخرج بها...

وعندما بدأ فيليب المقدوني يتحدث في مجلس شرابٍ على سبيل المزاح معه عن

القصائد والتمثيليات التراجيدية التي خلّفها أبوه [ديونيسيوس الأكبر] وتظاهر بالعجب من توفّر الوقت له لتأليف هذه القطع الرائعة الفريدة[١٩] رغم أشغاله الكثيرة، أجابه ديونيسيوس اجابة مفحمةً قائلاً:

«إنه ألّفها في ساعات الفراغ هذه التي نبدّدها أنا وأنت وأولئك الذين يسمّون بالمحظوظين ونحن عاكفون على الرّاح والأقداح».

لم يتيسّر لأفلاطون الفيلسوف لقاء ديونيسيوس في كورنث فقد طواه الردى قبل قدومه. إلاّ أن ديوجينس السينوبي Sinope سلّم عليه عند أول لقاء معه في الشارع موجّهاً إليه هذه العبارة الغامضة:

- هيه يا ديونيسيوس! ما أقلّ ما تستأهل من عيشك الحالي!

فوقف ديونيسيوس وأجاب:

- شكراً لك على التعزية يا ديوجينس.

فقال ديوجينس:

- على تعزيتك؟ ألست تظنّ أني أقصد خلاف ذلك. وأني لناقم لأنّ عبداً مثلك لو نال ما يستحقّ فعلاً لوجب أن تُترك وحيداً تهرم وتموت وأنت طاغية كما كان شأن أبيك من قبلك. بينما تستمع الآن برخاء عيش بسطاء الناس، وتمرح وتعبث في مجتمعنا؟

ولهذا لـمّا أتأمّل حكايات فيلستوس Philistus المحزنة حول بنات لپتينس Leptines[٢٠] حين تجده يطلق الزفرة الأليمة عليهنّ لسقوطهنّ من علياء السلطان

---

(١٩) عن ديودورس الصقلي [١٤: ١٠٩، ١٥: ٦] كان ديونيسيوس الكبير يعتزّ كثيراً بما ينظمه من الشعر وإن كان يدرك أنه من أسوأ الشعر. وحاول الشاعر المفلق فيلوكزينس مصارحته بالحقيقة، متحاشياً خداعه بفكرة طيبة يظنها عن قابلياته. لكنه أرسله للعمل في المناجم بسبب ذلك. ثم إعادة في اليوم التالي إلى مكانته الأولى التي كان يحتلّها. ثم راح يردد على مسامعه قصائد بذل مجهوداً كبيراً في نظمها علّه يسمع منه إطراءً. إلاّ أن الشاعر بدلاً من إطرائها نظر إلى الحرس وخاطبهم وهو يتسم: «أعيدوني إلى المناجم الحجرية». ومع ذلك كله فقد شارك ديونيسيوس في مباراة الشعر أثناء الألعاب الأولمبية فسخر السامعون وصفّروا له وحطّموا السرادق الفخم الذي نصبه تحطيماً تاماً. لكنه نجح في الفوز بجائزة في أثينا نتيجة تحيّز واضح من المحكّمين. وقد عَبّ كثيراً من الخمر بهذه المناسبة، وفجر وفسق حتى ركبته آلام عظيمة فأعطاه الأطباء منوّماً لم يفق منه قطّ.

(٢٠) طاغيه «أپوللونيا» وهي مدينة صقليّة قرب رأس پاكينوس. كتب فيلطس تاريخ مصر باثني عشر مجلّداً، وتاريخ صقلية بأحد عشر وتاريخ الطاغية ديونيسيوس بخمسة. ويفضّل شيشرون (الخطابة ٢: ٣) ثالثها على الأثنين الأولين.

ونعمائه في هاوية البؤس وحياة الذُّل، لا أرى زفرته تلك أكثر من بكاء امرأةٍ على فقد صندوق أدهانها أو ثيابها الأرجوانية، أو حليّها الذهبيّة الزهيدة. وفي اعتقادي أن حكاياتٍ كهذه قد لا تُعدّ متقحّمةً على أهدافي من كتابة السِّيَر، أو تُعتبر غير مفيدة بحدّ ذاتها في نظر القرّاء غير المستعجلين كثيراً، أو من تشغلهم عنها أمور أخرى.

وعلى كلٍ، فإذا بدت نكبة ديونيسيوس غريبة أو استثنائية فلا شكّ في أن حظّ تيموليون أغرب ودهشتنا منه لن تكون بأقل من استغرابنا من الأول. فقد تمكّن في ظرف خمسين يوماً لنزوله صقلية من الاستيلاء على قلعة سيراقوز وإرسال ديونيسيوس إلى منفاه في البلوبونيسوس. هذه البداية المحمودة رفعت من معنويات الكورنثيين في بلادهم حتى أمروا له بنجدة قوامها ألفان من الرجالة ومائتان من الخيّالة، فنزلت في ثوري Thurii ومرامها العبور منها إلى صقلية. إلا أن البحر كان يعجّ بسُفن القرطاجنيين مما جعل عبورها متعذراً فاضطرت إلى البقاء فيها متربّصة بفرصةٍ. إلاّ أنها لم تضيّع وقتها سُدى فقد قامت بعمل نبيل عندما خرج الثوريون لقتال أعدائهم البروتيين ودفعوا مدينتهم إلى يد الحملة الكورنثية للدفاع عنها والسهر على حراستها ففعلت كأنها مدينتها، ثم سلّمتها لأهلها بكلّ أمانة.

في أثناء ذلك كان إيكيتيس مثابراً على حصار قلعة سيراقوز ومَنْع كل أمداد من الوصول إليها بحراً لإنجاد الكورنثيين الذين يدافعون عنها. وفي الوقت نفسه استأجر اثنين من الأجانب المجهولي الهوية وأرسلهما إلى أدرانوم لاغتيال تيموليون، الذي لم يكن قطّ يحيط شخصه بأي حرسٍ. وكان في تلك المدينة آمناً مطمئناً على سلامته يختلط بالسكان غير محاذرٍ، والأيام أيام اعيادٍ لآلهتهم. وتشاء الصدف أن يعلم الرجلان أن تيموليون سيقوم بتقديم القربان فأسرعا إلى المعبد وقد أخفى كل منهما خنجراً تحت معطفه، وشقّا طريقهما خلال الجمع الحاشد مقتربَين شيئاً فشيئاً من المذبح. وفيما كان أحدهما يتطلّع إلى الآخر منتظراً إشارة الوثوب على الضحية، هجم رجل ثالث على واحد منهما وضربه بالسيف على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. وبرح القاتل وزميل القتيل مكانيهما حالاً. الأول شقّ طريقه شاهراً سيفه الدامي وهرب لا يلوى حتى لاذ بقمّة صخرية عالية تُشرف على هاوية. أما الثاني فقد تشبّث بأركان المذبح وراح يتوسّل بتيموليون ليصفح عنه ويمنحه الحياة، وسيفضي إليه بتفاصيل المؤامرة، فأمّنه وغفر له، فاعترف بالمهمة التي كُلّف بها هو وزميله. وبينما كانت هذه الحقيقة تنجلي قُبض على القاتل وانتُزع من ملاذه الصخري واقتيد وهو يصرخ ويحتجّ قائلاً إنهم يرتكبون ظلماً في القبض عليه، لأنه أخذ بثأرٍ حقٍ عن دم أبيه الذي كان

القتيل قد فتك به في مدينة ليونتيني Leontini. وأيّد قوله هذا عدد كبير من الحاضرين، الذين لم يسعهم إلا أن يبدوا عجبهم من أفاعيل الأقدار الغريبة والطرائق المدهشة التي تسلكها والسهولة التي تدفع بها حدثاً من الأحداث لتحرك به حدثاً آخر يختلف اختلافاً بيّناً عن باعثه وإن كان منبثقاً منه، فتراها توحّد ما بين الحدثين المفترقين، وتجمع الدقائق والتفاصيل المتباعدة وتصل الأعمال المنفصلة واحدها بالآخر تحقيقاً لمآربها. فإذا بالأشياء المتنافرة ظاهراً، والتي لايربطها رابط، تغدو في كفّ القدر نهاية وبداية بعضها لبعض، على حَدّ ما يقال.

وتأكد للكورنثيين أن عمل الرجل لا جُناح عليه فضلاً عن وقوعه في أحسن ظرفٍ فأكرموا صاحبه ووصلوه بما يعادل عشرة جنيهات بعملتهم. لقد أعار خدمات حقده العادل للروح الحارسة التي كانت تحمي تيموليون وظلّ مدةً طويلة لا يشفي غُلّة حقده الذي يضطغنه وأجّل الأخذ بثأره بتدخّل الأقدار، حتى يُنقذ به تيموليون.

إن هذه النجاة التي رسمها حُسن الحظّ تعدّت آثارها ونتائجها الحاضر إلى المستقبل. فقد زرعت أعلى الأماني والآمال في النفوس، ورفعت درجة الاعتماد على تيموليون ودفعت الناس إلى احترامه وإجلاله قدر إجلالهم لمقدّساتهم. واعتبروه رسولاً بعثت به السماء لتحرير صقلية والانتصاف لها من طُغاتها. ولمّا وجد هيسيتيس فشل مؤامرته، وانتقاض كثيرين من أتباعه عليه وانحيازهم إلى تيموليون، بدأ يُنحي على نفسه باللائمة لاقتصاده الأحمق في قواته الكبيرة. فقد كان تحت تصرّفه جحافل القرطاجنيين كلها مستعدة للعمل رهن إشارته وهو لايستخدم منها إلاّ أقساطاً أقساطاً ووحدات صغيرة بحذرٍ وتوجّس حتى لكأنه يختلسها اختلاساً، أو يخجل من زجّها في القتال. فقرّر أن يطرح هذا التردّد وبعث يستقدم ماغو Mago أمير بحرهم وكل أسطوله، فأقلع هذا القائد بعمارة بحرية جبّارة لا يقلّ عدد بوارجها عن مائة وخمسين، واستولى على ميناء سيراقوز، وأنزل ستين ألفاً من الرجّالة عسكروا جميعاً داخل المدينة. فصدق ما قيل منذ أقدم العصور وما تناقلته الناس حتى يومها بأن صقلية ستقع غنيمة في يد البرابرة. وكان هذا الإنزال ختام النبوءة. فالقرطاجنيون قبل هذا لم يفلحوا في الاستيلاء عليها طوال حروبهم وصداماتهم الدموية الماضية مع أهاليها. وها هوذا هيسيتيس يمهّد لهم السبيل ويضعُ كل شيء في أيديهم، ويجعل المدينة معسكراً للبرابرة. وبهذا وجد جنود الكورنثيين في القلعة الخطر العظيم يُحدق بهم واشتدّ بهم الضيق. وانقلب شحّ قواتهم إلى حاجةٍ ماسّةٍ لأن المواني محروسة حراسة دقيقة، وقد أقفلها العدوّ ببوارجه وهو دائم التعرّض لهم بالمناوشات وقتال الأسوار، لا يترك لهم

سبيلاً للراحة، أو ساعة واحدة لنزع سلاحهم، ويضطرهم إلى توزيع قوّاتهم لصدّ مختلف أنواع الهجمات من جميع الجهات.

واحتال تيموليون على هذه الورطة بإرسال كمّيات من القمح بقوارب صيد وزوارق صغيرة من كتانا، وسَهُل على هذه أن تتسلل عبر السفن القرطاجنية وقت هبوب العاصفة فتمرق مُروقاً عندما يُرغم هياجُ البحر سفن الحصار على الابتعاد إحداها عن الأخرى. ولما اتضح لهيسيتيس وماغو تدبير العدوّ في إغاثة قواه المحصورة قررا مهاجمة كتانا قاعدة التموين، وخرجا من سيراقوز يقودان خيرة وحدات الجيش. ورأى قائد القلعة الكورنثي نيون Neon أن بقيّة الجيش في سيراقوز تتراخى في حصار القلعة وتهمل رصد مزاغلها ومداخلها اعتداداً منها بنفسها واطمئناناً إلى ضعف المحصورين، فلم يلبث أن فاجأها بهجوم كاسح متهزاً فرصة تفرُّق وحداتها فقتل منها وهزم البقيّة. ووفِّق في الاستيلاء على منطقة أكرادينا Acradina وهي منطقة من سيراقوز عُرفت بمناعتها وقوة تحصينها. والحقيقة هي أن سيراقوز تألّفت من اجتماع واتصال عدة مدن كانت متقاربة(٢١). وقد غنم نيون منها مقادير كبيرة من المال والقمح، ولم يجلُ عنها إلى القلعة بل عمد إلى تقوية تحصيناتها، ووصلها بالقلعة بسور مُحكم وغير ذلك من التحكيمات. وأخذ على عاتقه الدفاع عن الاثنتين.

عندما بلغ ماغو ورايسكيتس مشارف كتانا أدركهما فارس مُرسلٌ من سيراقوز لإبلاغهما نبأ سقوط أكرادينا. فقفلا عائدين بقواتهما على جناح السرعة، والفوضى والاضطراب يسودان صفوفها. وهكذا عجزا عن أخذ المدينة التي خرجا إليها، وخسرا ما كان تحت سيطرتهما.

هذه الانتصارات التي لا يمكن نُكران عنصر الشجاعة والمهارة فيها أسهم الحظ ومحاسن الصدف بدورٍ رئيسٍ فيها، إلاّ أنه يصعب جداً أن يعزى الحادث التالي إلى شيء غير حُسن الحظّ ومحاباة الأقدار: قلنا إن الاحتياطي من جنود الكورنثيين ظلوا معسكرين في ثوري لا يستطيعون الإبحار إلى صقلية خوفاً من بوارج القرطاجنيين التي كانت لهم بالمرصاد بقيادة هانّو Hanno، ومن غوائل البحر الذي اجتاحه النوء وأهاجته

---

(٢١) هناك أربع منها وهي: الجزيرة أو القلعة التي هي بين الميناءين. الأخرادينا وهي على مسافة قصيرة من الأولى. وتيخه وقد أطلق عليها هذا الاسم من هيكل إلهة الحظ. ونيابيوليس أو المدينة الجديدة [انظر ليڤي ٢٥: ٢٤ وقارن بديودورس ١٣: ٧) والى هذه المدن يضيف بعض الكتّاب ومنهم بلوتارخ مدينة خامسة يسمّونها إپيپولي.

العواصف أياماً عدة فبات من الخطر ركوبه. ولهذا قرّروا الوصول إلى مدينة ريجيوم براً فاخترقوا بلاد البروتيين معتمدين على قوّتهم وحذرهم وبلغوا هدفهم والبحر ما زال هائجاً صخّاباً. وفي تلك الأثناء توصّل هانو إلى فكرةٍ خالها مجديةً. لم يتوقع أن يغامر الكورنثيون في الإبحار، ورأى من العبث الانتظار أكثر مما انتظر، وكان يتوهّم في نفسه أبرع استراتيجي، وأمهر خبير في التمويه على العدوّ ونصب الفخاخ له. بناء على هذا أمر بحّارته بضفر أكاليل الزهر على رؤوسهم، وتزيين السفن بالتروس الإغريقية والقرطاجنية، وأقلع متجهاً إلى سيراقوز بمظاهر النصر هذه مستخدماً كل المجاذيف عند مروره تحت القلعة وبكثير من الهتاف والضجيج قاصداً بث الهلع في قلوب المحصورين والإيحاء لهم بأنه لم يجئ إلاّ بعد أن قضى على النجدة الكورنثية وهي في عُرض البحر متجهة نحو صقلية. وفيما هو يواصل لعبته هذه أمام سيراقوز كانت النجدة الكورنثية في ريجيوم، وأمامها الساحل خالٍ من سفن العدوّ، والريح ساكنة والبحر هادئ كأنما حدث بمعجزة. فأسرعوا يركبون كل ما وقعوا عليه من زوارق صيد ومراكب خفيفة، وأقلعوا ليبلغوا ساحل صقلية بسلام وهدوء لا مثيل لهما. حتى أنهم أنزلوا خيولهم وأخذوا يقودونها من أعنّتها سباحةً وزوارقهم متجهة إلى الساحل.

نزلت الحملة كلها واستقبلها تيموليون، وبفضلها تمكن من احتلال مسينا Messena فوراً، ومنها تقدّم بنظام بديع نحو سيراقوز واضعاً أعظم ثقته في نجاحه الأخير، لا بما لديه من قوات. إذ لم يكن مجموع جيشه الكلّي يزيد عن أربعة آلاف. ومع هذا فقد انتاب ماغو القلق والاضطراب عندما أُنبئ بمقدم تيموليون. وزاد وضعه سوءاً وتعاظم خوفه بالحادثة التالية:

تحيط بسيراقوز مستنقعات مترامية[٢٢]، تستمدّ ماءها العذب الكثير من الينابيع فضلاً عن البحيرات والأنهار التي تصّب في البحر ويتكاثر في هذه المياه السمك الجريّ (الحنكليس) حتى لتعجّ بها، ويتقاطر الناس على صيدها. فكان الجنود المرتزقة الذين يستخدمهم الفريقان يقضون أوقات فراغهم في ممارسة هذه الرياضة معاً، فيجتمعون في كل فترة هدنة أو وقف قتال ويتبادلون أحاديث الودّ فيما بينهم، إذ كانوا كلهم من الإغريق ليس بينهم عداء شخصيّ (على شجاعتهم وبلائهم في الحرب). وفيما كانوا يوماً يصطادون أخذوا بأسباب الحديث فأعلن هذا عن إعجابه بالبحر القريب، ولهج

(٢٢) هناك مستنع يدعي ليسميليا [ثوكيديدس ٧:٥٣] وآخر يعرف بسيراكو. ومن هذا الأخير أخذت المدينة اسمها. وهذان المستنقعان يجعلان هواء المدينة فاسداً وغير صحّي بالمرّة.

آخر بالثناء على ما يجده المرء من راحة ورفاهة في بنايات سيراقوز ومحلّاتها العامّة. فتدخل أحد الكورنثيين قائلاً:

«وأنتم الذين جئتم من بلاد الإغريق كافة[٢٣]. ألا تشفقون على هذه المدينة الرائعة الجليلة، لتدعوها فريسة للبرابرة، باذلين الجهود لتثبيت قدم القرطاجنيين في بلادٍ قريبة جداً من بلادنا. وهم شرّ الخلق وأشدّهم وحشية، بينما كان جديراً بكم أن تجعلوا بين بلادنا وهؤلاء القرطاجنيين سدّاً من الأقوام، أمنع وأقوى من هؤلاء الصقليين. أإلى هذا الحدّ بلغت بكم قلّة الفطنة لتعتقدوا بأن القرطاجنيين جاؤوا من «أعمدة هرقل» والمحيط الأطلنطي متجشّمين كلّ هذه المخاطر لتثبيت مُلك هيسيتيس فحسب؟ هذا الرجل الذي لو أقام وزناً للاعتبارات واتّصف بما يليق بالقائد لما تنكرّ لأرومته وأسلافه وجاء بأعداء بلاده في محلهم. في حين كان يستطيع التمتّع بالمكانة والقيادة المناسبة برضىً من تيموليون وبقية الكورنثيين».

راح مرتزقة إيكيتس من الإغريق يردّدون هذه الأقوال في معسكرهم مما زوّد ماغو بأسبابٍ للشكّ في وجود مؤامرة تحاك ضدّه، فتمسّك بها وتعلّل، واتخذها حجّة للرحيل الذي كان قد اعتزمه منذ أمدٍ. ولم يُعر أذناً صاغية لتوسّلات هيسيتيس وإلحاحه عليه بالبقاء لإظهار مدى تفوّقهما على العدوّ. على أن ماغو كان يدرك أنهما أدنى من تيموليون بكثير لأن البسالة والحظّ إلى جانبه ولا قيمة لتفوّقهما العددي إزاء هذين العاملين. فأسرع يركب سفنه ويقلع بها إلى أفريقيا وترك صقلية تفلت من يده بصورة لا تشرّفه، ولدوافع موهومة صوّرتها مخيّلته يعيا العقل السويّ عن تبرير اتخاذها سبباً وجيهاً للرحيل.

وبعد إقلاعه بيوم واحد تقدّم تيموليون نحو المدينة بنسق المعركة. ولما سمع هو وأركان حربه بالفرار الفجائي وشاهدوا أرصفة الميناء خالية تماماً لم يمسكوا أنفسهم عن الضحك والتندّر والتنديد بجُبن ماغو. وعلى سبيل السخرية والمزاح أذاعوا في المدينة بياناً يعلن عن استعدادهم لدفع مكافأة لكلّ من يستطيع أن يأتيهم بنبأ مغادرة الأسطول القرطاجنيّ ديارهم! على أن هيسيتيس قرر خوض المعركة وحيداً، وعدم إرخاء قبضته عن المدينة بل الصمود في المناطق التي يسيطر عليها والثبات في المواضع الجيدة التحصين الصعبة الاقتحام. وقسم تيموليون قواته إلى ثلاثة جحافل. وحمل بنفسه على

---

(٢٣) المرتزقة الإغريق في جيش هذا الأخير.

الجبهة التي يجرى فيها نهر أناپاس Anapas وهي جبهة منيعة صعبة التقحّم. وأمر الجحفل الذي يقوده الضابط الكورنثي إيسياس Isias بالهجوم من موقع أكرادينا. في حين يحاول دينارخوس Dinarchus وديماراتوس اللذان جاءا بالنجدات من كورنث الاستيلاء على منطقة ايپيولي Epipolae بالجحفل الثالث. وحمل الجيش كله حملة شديدة في وقت واحد من جميع الجبهات، فانهارت مقاومة هيسيتيس وفرّ جنوده. وعلينا هنا أن نعزو أخذ المدينة عنوةً وسقوطها السريع بعد اندحار العدو إلى بسالة المهاجمين وحِنكة قائدهم دون جدال. ولكنّ الأمر الذي لا يجعلنا ننكر دور حظّ تيموليون هو أن الكورنثيين لم يخسروا رجلاً واحداً أقتيلاً كان أم جريحاً، حتى لكأن ثمّ مباراة وتحدّياً بين حظه وعمل حظه، أعني وجود نوع من المنافسة في مجالات أعماله نفسها بحيث جعل الحظ هدفه أن يتفوّق ويطمس على كل ما يُقدم عليه من أعمالٍ. وينبغي لمن يسمع الثناء عليه لمآثره الجليلة أن يعجب بمحاباة الحظّ لها أكثر مما يعجب بالجهد الشخصي فيها. وتعدّت أنباء نجاحه صقلية وملأت إيطاليا دهشةً. حتى بلاد الإغريق فقد اهتزت من أقصاها إلى أدناها حبوراً وفخراً بجلائل أعماله بعد بضعة أيام فقط من وقوعها، حتى أن الكورنثيين لم يعرفوا بنزول نجداتهم في الجزيرة، وإذ بأنباء نزولها وانتصارها تردهم في آن واحدٍ. بهذا السبيل المفلح كانت عجلة الأمور تدرج، وبهذه السرعة والنشاط كان الحظّ يطلق سناد الكفاءة الطبيعية، كمفخرة جديدة من مخافرها.

بعد أن سيطر تيموليون على القلعة، تجنّب الخطأ الذي وقع فيه ديون قبله. فلم يضنّ على البلد بشيء في سبيل فخامة أبنيتها وجمالها. ولكي يجتنب مظنّة السوء التي أدّت أولاً إلى بغض ديون وتسبَّبت أخيراً في سقوطه، أمر أن يدور المنادي مُعلناً لأهالي سيراقوز بأن كلّ من يرغب المساهمة في العمل فعليه أن يأتي ومعه فأس ومجرفة وغيرها من الأدوات ليعاون في هدم التحصينات التي أقامها الطغاة. فتقدموا للعمل جميعاً كرجل واحدٍ معتبرين الإعلان واليوم الذي أذيع فيه أقوى دعامة لحرياتهم، وانقضّوا على القلعة فهدموها، وقوّضوا القصور والأنصاب التذكارية وكلّ ما يمتّ إلى ذكرى الطغاة السالفين، ونقضوها حجراً على حجر. وبعد أن سوّى أرضها بنى فوقها دوراً للقضاء لتوزيع العدل بين الأهالي وبنى أيضاً دوائر للحكومة الجمهورية التي أقامها على أنقاض الحكم المستبد.

وكانت المدينة عندما دخلها خالية من السكان تقريباً، بعضهم قضى نحبه بسبب الحروب الأهلية والفتن والثورات، وآخرون هربوا من الطغيان. وبلغت قلّة السكان فيها

حَدّاً أن ساحة السوق العامة في سيراقوز وكانت تمتاز بسعتها تكاثر فيها العشب ونما وغطّاها فأصبحت مرعى للخيل يتطرّح سائسوها على العُشب بينما هي ترعى الكلأ. كذلك هُجرت مدن أخرى تماماً باستثناء القليل، فصارت مرتعاً ومأوى للخنازير البرّية والإيائل، فكان المتعطّلون يرتادونها للصيد فيجدون فرائسهم في مشارفها وبالقرب من أسوارها. وتعذّر إقناع من لاذ بالريف أو التجأ إلى القلاع بترك مستقرّه أو قبول دعوة للعودة إلى المدينة، فقد بلغت كراهتهم من مجرّد اسم المجامع والاجتماعات وأنواع الحكومات والخطب العامة حدّاً عظيماً لأنها هي التي أنجبت معظم المستبدّين الذين تعاقبوا على حكمهم واضطهادهم. وفكّر تيموليون مع السيراقوزيين في المعضلة، وتأمّل الخراب الشامل، وضعف الأمل في محاولة الإقناع التي ارتآها، ثم فضّل الكتابة إلى بلاده، بطلب إرسال جاليةٍ إغريقية لتأهيل سيراقوز. وإلاّ بقيت أراضيها المتاخمة بوراً. كذلك ذكر أنه يتوقّع حرباً أعظم من سابقتها مصدرها أفريقيا لأن الأنباء التي وصلته تشير إلى أن ماغو بخع نفسه وأن القرطاجنيين الساخطين على تصرّفه في الحملة الأخيرة أمروا أن تُسمّر جثته على صليب، وهم الآن عاكفون على تهيئة قوات جبّارة للهجوم على صقلية في الصيف القادم.

وصلت رسائل تيموليون إلى كورنث، وفي الوقت نفسه عرض وفد سيراقوز رجاء أهلها إليها بأن يولوا مدينتهم البائسة رعايتهم وأن يصيروا مرة أخرى مؤسسين لها. ولم يغرّ الكورنثيين الطمع بفائدة من هذه العروض، ولا كانوا يريدون الاستيلاء على المدينة واستغلالها. لذلك قصدوا بالأول دورة الألعاب التي كان الإغريق يضعونها في منزلة القداسة ثم إلى مختلف الاجتماعات الدينية المعقودة وأطلقوا المنادين يعلنون قائلين: إن الكورنثيين الذين قضوا على الاستبداد في سيراقوز وطردوا الطاغية يَدعون بهذا كلّ المبعدين والمنفيين السيراقوزيين وأياً من الصقليين إلى العودة لسكنى المدينة، مع تمتّعهم الكامل بالحرية بموجب قوانينهم الخاصّة، وأن الأراضي ستوزّع عليهم بأنصبة عادلة متساوية. ثم إنهم أرسلوا مبعوثين إلى آسيا وعدّة جزر يسكنها كثير من اللاجئين المتفرّقين، وطلبوا منهم السفر إلى كورنث، وهناك سيزوّدون بسفن وربابنة وقافلة حراسة لتأخذهم إلى سيراقوز على نفقة الكورنثيين. وكان من أثر هذه العُروض الكريمة التي انتشرت أنباؤها وشاعت أن ارتفعت مكانة الكورنثيين ونالوا الكثير من الثناء والمديح تعويضاً لسخائهم وشهامتهم وإنقاذهم تلك البلاد من جور الظالمين، وتخليصها من يد البرابرة، وإعادتها بالأخير إلى أصحابها أهل الحق من السكّان. فاجتمع هؤلاء في كورنث، ولما وجدوا عددهم قليلاً طلبوا من الكورنثيين أن يزوّدوهم

بعدد آخر منهم ومن سائر بلاد الإغريق لينضمّوا إليهم كنازحين مشاركين فارتفع عددهم إلى عشرة آلاف وأبحر الجميع إلى سيراقوز. وفي غضون هذه الفترة تقاطرت على تيموليون من إيطاليا وصقلية حشود عظيمة بلغ رجالها على قول أثانيس Athanis ستين ألفاً. فقسم بينهم الأراضي كلها. وباع المنازل بألف تالنت. وبهذه الطريقة مكّن السيراقوزيين الأصليين من استعادة بيوتهم، كما توسّل بها إلى جمع المال للمصلحة العامة، وملء الخزانة التي خلت تماماً وعجزت عن سدّ أي نفقات، لاسيما مصاريف الحرب، حتى أنهم لجأوا إلى عرض تماثيلهم للبيع. واتُّبِعت في هذا طريقة نظامية. وكان يرسو قرار المزايدة على أي منها بأغلبية الاصوات، كأنما تجري مرافعة لعدد كبير من المجرمين. وقيل إن تمثال المستبد القديم جيلو Gelo قد استُثني أثناء النطق باللِّعان على التماثيل الأخرى تكريماً له وإعجاباً به، وبسبب الانتصار(٢٤) الذي حازه على القوات القرطاجنية في نهر هيميرا Himera.

وهكذا تمّ بعث الحياة السعيدة في سيراقوز واكتظت بالسكان لنزوح الناس إليها من كل الأمصار. ورغب تيموليون بعدئذ في تحرير مدن أخرى من عبودية مماثلة، والقضاء قضاءً مُبرماً على الحكم المستبد وإزالته من صقلية. فزحف على البلاد التي كانت ترزح تحته. وأرغم هيسيتيس أولاً على التخلّي عن مصالح القرطاجنيين وهدم القلاع التي كان يسيطر عليها واعتزل الحكم ليعيش بين الليونتينين فرداً عادياً. وحذا حذوه لپتينس طاغية أپوللونيا Apollinia وكثير من المدن الصغيرة الأخرى، بعد إبدائه بعض المقاومة، ورؤيته الخطر الذي يكمن في هزيمة عسكرية فاستسلم. فأبقى تيموليون عليه وأرسله إلى كورنث، معتبراً قيام المدينة الأمّ بعرض هؤلاء الطغاة الصقليين على الإغريق في المنفى وبحالة بائسة من قبيل الأعمال المجيدة ومن دواعي الفخر. وبعد هذا عاد إلى سيراقوز حتى يتفرّغ لسَنّ دستورٍ جديد(٢٥)، وليساعد كيفالوس Cephalus وديونيسيوس اللذين بعثت بهما كورنث لوضع القوانين، في تثبيت أهم موادّه وأحكامه. ورغب في الوقت نفسه أن لايبقى جنوده المأجورون عاطلين، وأن يغنموا لأنفسهم شيئاً من العدوّ بالأحرى، فبعث بقسم منهم تحت قيادة دينارخوس

(٢٤) هُزم هملقار الذي أنزل قواته في صقلية وكانت تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل في السنة الثانية من الأولمپياد الخامس والسبعين [ديودوروس].

(٢٥) من الأنظمة الحكيمة التي قررها انتخاب رئيس قضاة كل سنة يطلق عليه أهالي سيراقوز لقب «أمفيپولس جوپتر أولمپيوس» وبهذا أضفى عليه شخصية مقدسة. وكان أول من تولّى المنصب كومينس ومنها جاءت عادة السيراقوزيين في حساب سنيّهم بحكم هؤلاء القضاة.

وديماريتوس إلى ناحية من الجزيرة ما زالت تحت سيطرة القرطاجنيين. فاستنفروا عدة مدن للثورة على البرابرة. وغنموا ما أمّن لهم الحياة الباذخة فضلاً عن توفيرهم من أسلابهم ما يكفي لمواصلة الحرب. في تلك الأثناء نزل القرطاجنيون في ساحل ليلبيوم Lilybaeum الصخري بجيش قوامه سبعون ألفاً نقلتهم مائتا سفينة ضخمة، فضلاً عن ألف سفينة أخرى موسقة بآلات الحصار والثغر، والعجلات الحربية، والقمح وغير ذلك من المهمات الحربية. وكل هذا يدلّ على أن نيّتهم شنّ حربٍ طاحنة هدفها طرد الإغريق كافةً وبصورة نهائية من صقلية لا حرباً متقطعة متدرّجة كالسابق.

كانت في الواقع قوة كافية للتغلب على الصقليين حتى ولو كانوا قلباً واحداً متحدين فيما بينهم لم تضعفهم النزاعات الحادة. وبسماع القرطاجنيين ما حَلّ من دمار بمستعمرتهم، زحفوا على الكورنثيين ونار الغيظ تأكل أفئدتهم، بقيادة الجنرالين هسدروبعل Asdrubal وهميلقار Hamilcar.

ووصلت الأنباء عن عدوّهم وقوّتهم إلى سيراقوز فجأة، فدبّ الفزع في الأهلين حتى أنه لم ينضمّ للجيش من عشرات الألوف فيها غير ثلاثة آلاف أو أقلّ. أمّا الجنود الأجانب الذين يتقاضون أجراً فكان عددهم أربعة آلاف فقط، دبّ الهلع في قلوب ألفٍ منهم فتخلّوا عن تيموليون وهو في مسيرته إلى العدوّ وتركوا صفوف الجيش، فبدأ عليه الاهتياج والذهول وذهبت المفاجأة بلبّه وشتّتت خاطره. وهو أمر لم يكن منتظراً منه في هذه الساعة الحرجة من حياته أن يحاول الاشتباك بجيش قوامه سبعون ألفاً، وليس معه غير خمسة آلاف من الرجالة وألف من الخيّالة. في حين كان المنطق يقضي بإبقاء هذه القوات للدّفاع عن المدينة اختار أن يحركها من سيراقوز ويكبّدها مسيرة أيام ثمانية، فإن هُزموا في ميدان القتال فلا موضع يتقهقرون إليه ولا قبور تضمّ رُفاتهم إن سقطوا قتلى في المعركة. على أن تيموليون وجد في كشف الجبناء عن أنفسهم قبل المعركة فألاً حسناً وحدثاً لايخلو من فائدة. وانصرف إلى تقوية معنوية الباقين وتشجيعهم. وأسرع بهم إلى نهر كريميسوس Crimesus[٢٦] حيث بلغه أن القرطاجنيين قد حشدوا قواتهم.

وفيما كانت قوّاته تتوقّل مرتفعاً لتستطلع من قمّته جيش العدو وقواه المحشودة إذ بها تلتقي بقطارٍ من البغال المحمّلة بأعشاب البقدونس. فعدّه الجنود فأل سوءٍ وطالع نحس، فهذا النبات كثيراً ما تُزيّن به أضرحة الموتى. وهناك مثل سائر مشتق من هذه العادة فيقال عن المريض مرضاً عضالاً إنه ليس بحاجة إلى شيء غير البقدونس.

---

(٢٦) نُهير في صقلية يشير اسمه إلى عشب البقدونس الذي ينمو على ضفافه بكثرة.

ولأجل أن يهدئ تيموليون من روعهم ويطمئن خواطرهم ويحرر أذهانهم من كل الخرافات ونُذر الشر توقف وارتجل خطبة مناسبة للحال قال فيها: «إن الحظ أسعدهم الآن بأكاليل النصر التي جاءتهم منقادة من تلقاء نفسها ووقعت في أيديهم كبشير من بشائر الظفر: فهذا النبات يتوّج به الكورنثيون أبطالهم الفائزين في الألعاب الاسثمية. مُعتبرين البقدونس في ذلك العصر شعار الفوز في الألعاب الاسثمية كما هو الآن شعار الرياضة النيمية Nemean ولم يبدأ استعمال أغصان الصنوبر بديلاً عنه إلاّ في زمن ليس ببعيد جداً عن عصرنا هذا.

وختم تيموليون كلمته بتناول مقدار من البقدونس وعمل إكليلاً منه لنفسه وحذا حذوه ضباط جيشه وسائر قطعاته. وفي تلك الأثناء لاحظ العرّافون عُقابين يطيران نحوهم. أحدهما مُنشب مخالبه في أفعى، والآخر يطلق وهو طائر صيحة عالية تدلّ على الجرأة والتحدّي. فوجهّوا اليهما أنظار الجنود الذين جثوا كافةً وتوجّهوا إلى الآلهة بالصلاة ودعوها إلى شدّ أزرهم. كان الوقت أوّل الصيف، ونهاية الشهر المسمّى تارجيليون غير البعيد كثيراً عن الانقلاب الفصلي: Solstic. وكان النهر يُصعِّد ضباباً كثيفاً ينتشر فيسدل على السهل كلّه ستاراً من الظلام. لذلك تعذّر عليهم لفترة من الزمن أن يستوضحوا شيئاً من معسكر العدوّ، خلا اللغط والمزيج غير الواضح من الأصوات التي تتناهى إلى المرتفع، مما ينشأ عادة من حركات بعيدة وضجيج جموع غفيرة. بعد أن أتمّ الكورنثيون صعود المرتفع ويلغوا القمّة، وألقوا بتروسهم جانباً ليصيبوا شيئاً من الراحة، ارتفعت الشمس في كبد السماء وأصعدت معها الأبخرة من الأسفل وتجمّع الهواء المثقل بالضباب وتكاثف عالياً وكوّن سحباً فوق الجبال وانقشع الضباب عن الأراضي الواطئة فأضت الرؤية واضحة. وبدأ نهر كريميسوس لهم ثانية والأعداء يعبرونه أولاً بعجلاتهم الحربية الضخمة التي تجرّ واحدتها أربعة خيول، وتلاها عشرة آلاف مقاتل راجل يحملون أتراساً بيضاً وتدلّ نفاسة أسلحتهم وبطء مشيتهم وأسلوب خطوهم أنهم قرطاجنيون. ثم جاءت في أعقابهم حشود متدافعة من مختلف الأقوام تتسابق على العبور متزاحمة دون نظام. وأدرك تيموليون أن النهر يتيح لهم فرصة في الانفراد بقتال أي عدد من الأعداء يقرّرون الاشتباك معه فوراً. ووجّه انتباه جنوده إلى انقسام قواتهم إلى قسمين منفصلين بمجرى النهر فبعضهم أتمّ العبور في حين كان يهمّ الآخرون بعبوره. وأعطى إشارة لديماريتوس ليهجم بخيّالته على القرطاجنيين حتى يوقع الخلل في صفوفهم قبل أن يلمّوا شعثهم وينتظموا في نسق المعركة. ثم انحدر بنفسه إلى السهل واضعاً السيراقوزيين في القلب مع أقوى وأصلب الجنود المرتزقة يحيطون

بشخصه. ثم أنتظر قليلاً ليرى ما يحققه هجوم خيّالته. وتبيّن له أن العجلات الحربية التي كانت تجرى ذاهبة آيبة أمام الجيش لم يقتصر عملها هذا على منع الخيّالة من الالتحام بالقرطاجنيين، بل كانت ترغمهم على الدوران لئلا تخترق صفوفهم وتمزّقها، ثم يعودون فيصولون مجدداً. فما كان منه إلاّ أن قبض على تُرسه وصاح بالمشاة أن يتبعوه بثقةٍ وشجاعة وبدا وكأنه يكلّمهم بلهجة لا بشرية، وبصوت أقوى من الأصوات الاعتيادية. والأمر سواء أكان صوته قد ارتفع تلقائياً بالحماسة والحمِيّة اللتين ابتعثهما تصميمه على قتال العدوّ، أم أن ربّاً من الأرباب تكلّم تحت لسانه - كما خيّل لكثيرين - فإن جنوده ردّدوا صدى صيحته وطلبوا أن يدفع بهم إلى قلب المعركة فوراً. فأعطى الخيّالة إشارة الانسحاب من الجبهة الأمامية حيث توجد العجلات وكرّ على الأعداء من الزاوية ليكون الهجوم من المجنبة. وثبّت قدمَ جيشه الأمامية برصّ الرجال ووضع الترس لصق الترس، وأمر بأن ينفخ في النفير وهجم.

تلقى القرطاجنيون الهجمة الأولى وثبتوا لها، فإن جسومهم كانت مغطاة بالزُرد الحديدية ورؤوسهم محميّة بالخُوَذ النحاسية، فضلاً عن تروسهم الكبيرة التي كانت تردّ عنهم طعنات الرماح اليونانية. لكن لمّا احتكم الجمعان إلى السيوف، والتفوّق فيها يعتمد على البراعةِ لا القوة وحدها، ولمّا سُمع هزم رعود قاصفة مصدرها قمم الجبال، تخللتها ومضات بروق تخطف الأبصار، وأعقبها حلول ظلام داجن حام برهةً فوق المرتفعات وذرى الجبال ثم هبط لنشر جناحيه على ميدان القتال حاملاً معه عاصفة مطرٍ وريحٍ وبَرَد، اندفعت هذه العاصفة إلى الإغريق ومسّت ظهورهم مَسّاً ثم مضت وأناخت بكلكلها على وجوه البرابرة. وانثال المطر عليها وبهر البرق الأعين، فصعب الأمر على القرطاجنيين وأُسقط في يدهم، شأنهم في هذا شأن كل مستجدّ في هذه العوارض لأنهم لم يتعوّدوها، لاسيّما هزيم الرعد ودويّ زخّات المطر، والضجّة التي تنشأ عن اصطدام البرد بالأسلحة والدروع المعدنية مما حال دون سماعهم أوامر ضباطهم. وإلى جانب هذا كان الطين من أصعب العوائق للقرطاجنيين، لأن تجهيزاتهم لم تكن بالخفيفة، فقد أرهقوا أنفسهم كما ذكرتُ بالدروع الثقيلة. ثم إن قمصانهم الداخلية أُشبعت بالماء، كما امتلأت به ثنيات صُدُرهم فأثقلتهم وأعاقت حركتهم في القتال، وسهّلت على الإغريق أن يطرحوهم أرضاً فلا تقوم لهم قائمة إذ يتعذر عليهم القيام وأسلحتهم بأيديهم من فرط ثقل الحديد. وارتفعت مياه كريميسوس أيضاً بفعل الأمطار، والحاجز الذي اعترض مجراه من أعداد العابرين الوفيرة، فطغى على الضفاف وانساح في السهول المجاورة التي تشقّها الأخاديد والسواقي النازلة من سفوح المرتفعات، ومُلئت

ماءً فآضت مجاريَ ونهيراتٍ لا مسالك معيّنة لها، فتعثر فيها القرطاجنيون وتاهوا في شبكتها ووجدوا أنفسهم في أخطر مأزق. وبمختصر القول كانت العاصفة تصبّ عليهم جام غضبها والإغريق أتمّوا إبادة أربعمائة مقاتل من خطوطهم المتقدمة. وانكفأ الجيش على الأعقاب وراح ينهزم، فلحق المنتصرون بأعداد كبيرة منه وأعملوا فيها حَدّ السيف. أما البقية فقد اتجهت إلى النهر وأخذت تعبر إلى الضفة الأخرى فاصطدم جنودها بالوحدات القادمة من وسط النهر فجرفهم التيّار وأغرقهم. ولكن القسم الكبير منهم حاولوا الصعود إلى المرتفعات والاحتماء بها. فأدركتهم وحدات العدو الخفيفة وقضت عليهم. وقيل إن ثلاثة آلاف(٢٧) من بين عشرة آلاف قتيل كانوا من المواطنين القرطاجنيين، خسارة فادحة ونكبة عظيمة لقومهم! فهؤلاء القتلى كانوا من خيرة مواطنيهم حسباً وثروةً وجاهاً. ولم يسجل تاريخهم قطّ مثل هذا العدد من القتلى القرطاجنيين في أي معركة لهم قبل هذه لأنهم عادةً يستخدمون الأفارقة والإسبان والنوميديين في حروبهم، فإذا هُزموا فإن الغُرم والأذى يقعان على عاتق الأقوام الأخرى.

واتّضحت للإغريق حالاً مكانة القتلى وحالتهم الاجتماعية من نفاسة الغنائم لأنهم عندما بدأوا بجمعها لم يأبهوا لا بالحديد ولا بالنحاس، فالمعادن الأكثر نفاسةً كانت كثيرة، وكانت رؤية الفضة والذهب أمراً اعتيادياً. وأمّا عن الأسرى فقد سرق الجنود عدداً كبيراً منهم وبيع خلسةً، ومع هذا فقد جيء بحوالي خمسة آلاف سلّموا إلى المسؤولين للمنفعة العامة. واغتُنمت مائتا عربة حربية أيضاً. وبدت خيمة تيموليون بأفخم وازهى منظر فقد ملئت بشتّى أنواع الأسلاب وعُلّقت في جوانبها مختلف التذكارات الحربية والزينات منها ألف درع صدريّ ذي صُنعة دقيقة وجمالٍ أخّاذ، وتروس يبلغ عددها عشرة آلاف. ولم يكف عددُ المنتصرين لعملية تجريد القتلى من سلاحهم. ولنفاسة الغنائم وكثيرتها تأخّرت إقامة النصب التذكاري للمعركة ثلاثة أيام. وبعث تيموليون بأنباء انتصاره إلى كورنث مع أفضل وأبدع الأسلحة المغتنمة، شاهداً واثباتاً. ورفع اسم بلاده عالياً في أرجاء الدنيا. ولهج الناس بالثناء عليها إذ يروا معابدها وحدها دون سائر المدن اليونانية الأخرى مزدانة مكتظة بما انتزع من البرابرة أعداء الشعب الإغريقي عنوةً واقتداراً، لا بغنائم وتقدمات سلبوها من بني الإغريق الآخرين، نتيجة سفك دماء إخوانهم، والاعتزاز عندما يرون أمثال هذه الأقوال مكتوباً عليها: «لقد

(٢٧) يقول ديودوروس [١٥: ٨٠] إن عدد القتلى بلغ ألفين وخمسمائة.

انتشل الكورنثيون وقائدهم تيموليون إغريق صقليه من عبودية القرطاجنيين، ولهذا فإنهم يقدّمون إلى الأرباب هذه القرابين اعترافاً بجميل فضلهم وامتناناً منهم». وهي عبارات تنمّ عن عدالة الفاتحين فضلاً عن شجاعتهم.

بعد أن أكمل تيموليون عمله هذا أبقى الجنود المرتزقة في أراضي العدو لمصادرة وحمل كل ما يجدونه في المناطق الخاضعة لقرطاجنة وساق بقية الجيش عائداً إلى سيراقوز. وأصدر ساعة وصوله أمراً بنفي الجنود المرتزقة الألف الذين تخلّوا عنه بدناءةٍ، وانفصلوا عن جيشه قُبيل المعركة. وأرغمهم على مغادرة المدينة قبل مغيب الشمس. فأبحروا إلى إيطاليا وهناك أبادهم البروتيون إلى آخر نفر رغم عهد الأمان الذي قطعوه لهم. وهكذا لاقوا جزاءهم العادل من القوى الإلهية على خِسّتهم وغدرهم. على أن ماميرقوس ومن بعده هيسيتيس جدّدا حلفهما مع القرطاجنيين ربما بدافع الغيظ من انتصارات تيموليون، أو لتأكدهما بأنه ممن لا يمكن التفاهم معه ولا المهادنة وأن لا وجه للقاء بينه وبين الطغاة. واشتدّ إلحاحهما على حليفتهما بإرسال جيش وقائدٍ جديدين إلى صقلية، إلاّ إذا قامروا بخسارة كل شيء. أو في حالة تخليهم نهائياً عن الجزيرة. فبعثوا بالقائد غيسكو Gisco على رأس عمارة بحرية قوامها سبعون بارجة. تحمل عدداً كبيراً من جنود الإغريق المرتزقة. وكان هذا أول تطوّع لهم في خدمة القرطاجنيين. والظاهر أن مستأجريهم كانوا معجبين بهم يعلّقون آمالاً جساماً على بأسهم وشدّة مِراسهم. وتمّ توحيد قوات الحلف في مسينا. وفي تلك المناطق تمكنوا من الفتك بأربعمائةٍ من مرتزقة تيموليون. ونصبوا كميناً أيضاً لجميع المرتزقة الآخرين الذين كانوا بقيادة يوثيموس Euthymus الليوقادي Leucadian في موضع من المستعمرة القرطاجنية يقال له هيراي Hierae[٢٨] وأفنوهم. كانت هذه الحادثة أقوى دليل على رعاية الحظ لتيموليون فهؤلاء القتلى كانوا من جماعة فيلوملس Philomelus وفوكيس Phocis وأنومارخوس Onomarchus الذين اقتحموا معبد أبوللو في دلفي وشاركوهم في الكفر والتجديف[٢٩]، فجفاهم الكّل ونبذوهم كما ينبذ الملاعين،

---

(٢٨) ليس ثمّ موضع في صقلية بهذا الاسم. وربما كان المقصود هيتي وهي قلعة ذكرها الكتّاب الأقدمون.

(٢٩) بدأت في السنة الأولى من الأولمبياد المائة والثمانية. وكانت أسباب نشوبها كما يلي: فرض أهالي أمفكيتون على أهالي فوكيس غرامة ثقيلة بسبب اجتياحهم ونهبهم أراضي كيّرا الموقوفة على أبوللو. فعجز هؤلاء عن دفعها فصودرت أراضيهم كلها وأوقفت على أبوللو. فجمع فيلونيلوس الأهالي وحرّضهم على نهب كنوز معبد دلفي واستخدامها لاستئجار جنود للدفاع عن =

فاضطروا إلى التجوال في أرجاء البلوبونيسوس بلا هدف أو عملٍ حتى ضمّهم تيموليون إلى حملة صقلية بسبب حاجته إلى الجنود. وحالفهم النجاح في كل المعارك التي خاضوها تحت إمرته، حتى زالت الأخطار الجسيمة. فإذا بآجالهم تحين عند إرساله إياهم لإسناد قطعاته الأخرى، فيهلكون جميعاً وتذهب ريحهم بعيداً عن تيموليون، بجماعات وشراذم صغيرة هنا وهناك. وبهذا تحقق الانتقام الإلهي الذي كُتب عليهم، وكان خادماً مطيعاً للحظ الذي ما برح يحرس تيموليون مانعاً كل أذى وإجحاف عن أخيار الرجال إثر عقاب ينزل بالأشرار. إن حرص الآلهة على رعاية البركات والنِّعَم التي ادّخرتها لتيموليون كان عظيماً في حالتي النجاح والفشل والسعد والنكد.

كان التحقير والإهانات التي عاناها السيراقوزيون من الطغاة أشدّ وقعاً عليهم من كل الاضطهادات الأخرى. خذ مثلاً ماميرقوس. كان هذا الطاغية الكثير الزهو بنفسه والاعتداد بموهبته في نظم الشعر والتراجيديا انتهز فرصة تقديمه للآلهة تروس الجنود المرتزقة الذين فتك بهم، ليفخر بانتصاره في هذين البيتين البذيئين:

«هذه التروس[٣٠] المزدانة بالذهب والأرجوان والعاج
إنما غنمناها من حربنا مع أناس فقراء!».

ثمّ عندما زحف تيموليون إلى كالاوريا Calauria، بادر إيكيتس بالإغارة على تخوم سيراقوز فضمّ مقداراً كبيراً من الأسلاب وعاث فيها فساداً وأحدث كثيراً من التخريب ثم قفل عائداً إلى كالاوريا مستخفّاً بتيموليون وقوّته الضعيفة التي كانت معه إذ ذاك. فلم يعترضه بل تركه يتقدّمه مسافةً، ثم لحق به بفرسانه ومشاته الخفيفة. ولما أدرك هيسيتيس أن العدوّ يتابعه بادر إلى عبور نهر داميرياس Damyrias[٣١] وتوقف وصَفَّ جنود للقائه. وكانت مواضعه جيدةً منيعة أشاعت في نفسه الثقة فقد أفاد من وعورة الممرّ وارتفاع الضفّتين وشدّة انحدارهما. وفي تلك الأثناء وقعت مشادّة غريبة بين الضباط على أسبقية الهجوم، إذ لم يكن واحد منهم يرغب أن يكون زميله سبّاقاً عليه والجميع يدّعون بحق التقدّم على سائرهم في القتال. وكان من المحتمل جداً أن

= أنفسهم. وقد جرّ هذا إلى حرب السنوات الستّ التي هلك خلالها معظم من حلّت عليه لعنة أپوللو حسب تعبير ديودورس [١٥: ١٦ و ٢٧ و ٦٠]. فقد هوى فيلوميلوس من منحدر فهلك. وأنومارخوس الذي خلفه في القيادة قتله جنوده وعلّقوه على صليب. وأخوه فايالوس مات بآكلة داء الصدر. ولم تخلص نسوتهم من اللعنة لأنهنّ لبسنَ الحِلى التي نُهبت من المعبد.

(٣٠) وهي التروس التي أُخذت من معبد دلفي.

(٣١) أو «لاميرياس» فالفرق بين نطق A الإغريقية و A اللاتينية خفيف جداً.

يغدو عبورهم النهر فوضى تامّة ويختلّ حبل النظام بتكالبهم وتزاحمهم. لذلك قرّر تيموليون تسوية الأمر بالقُرعة وأخذ من كُلّ مطالب بالحق خاتماً وجمعها في ذيل عباءته وهزّها، وشاء القدر أن يكون أول خاتم أخرجه ذا نقش يمثل نصباً تذكارياً لانتصارٍ على شكل ختمٍ. فهتف الضباط فرحاً ولم يتظروا حكم الحظّ في البقيّة وإنما مضى كل منهم لطيّته وعبروا النهر بأسرع ما يمكن. وحملوا حملة واحدة على العدوّ الذي لم يحتمل عنف الهجوم وأطلق السيقان للريح تاركاً سلاحه مع ألف قتيل في ميدان القتال.

واستعجل تيموليون الزمن، فزحف على مدينة الليونتينيين وأخذ هيسيتيس وابنه يوپوليموس Eupolemus وقائد خيّالته يوثيموس أحياء. إذ إن جنودهم أنفسهم قدّموهم إلى تيموليون مقيّدين بالحبال. وقتل هيسيتيس وابنه لكونهما من الطغاة والخونة. ولم يجد يوثيموس رحمة ولا غفراناً ولم تشفع له شجاعته الذائعة الصيت، لأنه متهم بسبّ الكورنثيين وإهانتهم عند أول نزول لهم في صقلية. فقد أُثِر عنه أنه قال لأهالي ليونتيني في خطاب له حول نزول القوات الكورنثية: إن الأنباء ليست مخيفة. ولا خطر يحسب حسابه من جرّاء: «خروج نساء الكورنثيين من منازلهن!».

حقاً إن التعريض المهين والكلام البذيء الفاضح أشدّ وخزاً وأبعث على الحقد في نفوس الرجال من اعتداء اليد وأعمال السوء. إنّ الناس لايعبرون على الإهانة بقدر ما يعبرون على الجراح. والضرر والأذى الفعلي الذي يوقعه الخصم قد يمكن اغتفاره ففي حالة الحرب لا يُتوقَّع أقلّ من هذا. في حين أن قارص الكلام وفاحشه قد يبدو مظهر كره وحقد لا ضرورة له، نابعاً عن الإفراط في الحقد والتمادي في الاضطغان.

لمّا عاد تيموليون إلى سيراقوز دفع المواطنون بزوجات هيسيتيس وبناته وابنه إلى المحاكمة الشعبيّة وحكموا على الجميع بالموت. ويبدو أن هذا العمل كان أقلّ أعمال تيموليون تشريفاً في حياته فلو أنه تدخّل لحَفَظَ حياة هؤلاء النسوة التاعسات. وظاهر الحال يؤيّد أنه لم يُقِم للأمر وزناً وسلّمهم للجماهير التي كانت متحرّقة لأخذ ثار ديون الذي طرد ديونيسوس، فإن هيسيتيس قبض على زوجه أريته Arete وأخته أريستوماخه Aristomache وابنه الذي لم يتعدّ دور الحداثة وألقاهم في اليمّ وهم أحياء، كما فصّلنا ذلك في سيرة ديون. ثم توجّه إلى كتانا لقتال ماميرقوس والتحم معه في معركة قرب نهر أبولوس Abolus(٣٢) وهزمه فهرب من وجهه بعد أن خلّف أكثر من ألفي قتيل

---

(٣٢) بطليموس وآخرون يسمّونه Alabus أو Alabis أو Alabon وهو قريب من هيبله بين كاتانا وسيراقوز.

منهم عدد كبير من الفينقيين الذين أرسلهم غيسكو نجدةً له. وعلى أثر ذلك طلب القرطاجنيون عقد الصلح فأجيب طلبهم واتفق الجانبان على الشروط التالية: أن يكون نفوذ القرطاجنيين قاصراً على الحدود التي يرسمها مجرى نهر ليكوس Lycus[٣٣]، وأن لا يمنع السكان الراغبون في النزوح إلى أراضي سيراقوز من الرحيل مع ذويهم وأموالهم. وأن تتعهّد قرطاجنة بقطع كل ارتباط وإلغاء كل اتفاق لها مع الطغاة. ولم يجد ماميرقوس اليائس المنبوذ إلاّ أن يستقلّ سفينة للإبحار إلى إيطاليا، مستهدفاً حضّ اللوكانيين Lucanians على حرب تيموليون وسيراقوز. إلاّ أن بحّارة السفينة عادوا بها من حيث أتت وسلّموا مدينة كتانا إلى تيموليون، فاضطر ماميرقوس إلى الفرار خوفاً على حياته واللجوء إلى مسينا حيث يحكم هبّو Hippo الطاغية. فتقدّم تيموليون وألقى الحصار على المدينة من البرّ والبحر وخشي هِبّو سوء العاقبة وحاول الافلات خلسة من طوق العدوّ بإحدى السفن إلاّ أن أهالي مسينا فاجأوها قبل إقلاعها وأمسكوا بالطاغية. ثم جمعوا أولادهم من المدارس كافةً وجاؤوا بهم إلى الملعب ليشاهدوا منظر إنزال العقوبة بالطاغية المتجبّر. ضربوه أولاً بالسياط، ثم قتلوه علناً. واستسلم ماميرقوس إلى تيموليون بعد أن تعهّد له هذا بأن تجري محاكمته في سيراقوز، وأن لا يشارك تيموليون في الاتهام. فاقتيد إلى المحاكمة بناء على ذلك ووقف ليجيب عن التهم أمام الشعب المحتشد وباشر في إلقاء خطبة أعدّها من قبل تتضمّن الدفاع عن نفسه. فقوطع بالضجيج والهتاف العدائي. ولاحظ من سلوك العامة وأشكالهم أن لا أمل فيهم فألقى عباءته جانباً وأسرع يعدو في أرجاء الملعب بأقصى ما يطيق. ثم نطح صخرة في أسفل المقاعد قاصداً القضاء على حياته، إلاّ أنه لم يُفلح وأخطأ الموت الذي أراده، فقُبض عليه وأذيق ميتة اللصوص وقطّاع الطرق.

بهذا قطع تيموليون أعصاب الطغيان ووضع حدّاً للحروب. كانت صقلية في أوّل نزوله تسبح في بحر من الفوضى، وكانت أمورها قد اختلّت إلى حدٍّ كره أهلها السكنى فيها ونزحوا عنها تخلّصاً من الشرّ والبؤس. فما لبث تيموليون أن أصلح من شأنها. وأعاد إليها مظاهر الحضارة والمدنية وجعلها قُبلة أنظار الجميع، ومطمحهم. وتقاطر إليها الأجانب من شتّى الأمصار للسكنى في المدن والبلدان التي تركها أهلها قفراً يباباً.

---

(٣٣) ربما نقل بلوتارخ الاسم كما وجده عند ديودورس [١٦ : ٨٢] إلاّ أن المؤرّخين الآخرين يطلقون عليه اسم آليكوس أو هاليكوس. ولعل القرطاجيين أضافوا إليه «أل» أو «ها» التعريف الخاصة بلغتهم.

واكتظت مدينتا أكريگنتوم Agrigentum وغيلا Gela الشهيرتان بالسكان ثانية وكان القرطاجنيون قد خرّبوهما وهدموهما بعد الحروب الأتيكية. عَمَر الأولى منهما ميجيللوس Megellus وفيريستوس Phirestus الأليائيان. وعمر الثانية غُرغُس Gorgus السيوسيّ. واجتمع فيهما سكانهما الأصليون الذين أعيد جمعهم من شتّى الأنحاء، ونازحون جُدد من الخارج. ولم تكن مهمّة تيموليون قاصرة على تأمين العيش الآمن المستقرّ للجميع بعد هذه الحرب الضروس، وإنما تعدّاه إلى بذل المعونة ومدّ يد المساعدة لهم. ولذلك لُقبّ بمؤسس البلاد. وكان هذا الشعور يسود أهل صقلية كافةً. واستولى عليهم اعتقاد وهو أنه لا سبيل للسلم يُسلَك ولا إصلاح للقوانين ولا توزيع للأراضي الزراعية ولا إعادة لبناء أجهزة للحكم يتمّ، بل ولا أي شيء حسن يتحقق إلاّ إذا كان تيموليون طرفاً فيه أو كان مهندسه الأول، ليقوم على إنجازه وإحكام صنعه، أو هندمته بلمسات دقيقة أخيرة من يده ليغدو جميلاً في عين اللّه والإنسان.

إنّ بلاد اليونان أنجبت في ذلك العهد عدداً من عظماء الرجال وعباقرتهم. واشتهروا كثيراً بجلائل الأعمال من الأمثال تيموتيوس Timotheus وآغيسيلاوس Agesilaus وپيلوپيداس Pelopidas وإپامنناس (النموذج المحتذى الأول لتيموليون). إلاّ أن جلال خير أعمالهم تضاءل بالشدة والجهد العسير الذي بُذل فيها (باستثناء الضرورة التي ألجأته إلى قتل أخيه) إلاّ وينطبق عليه شعر سوفوكليس كما لاحظ طيماؤوس:

«أيتها الآلهة! ماذا فعلت ڤينوس، بل ماذا فعلت النعمة الإلهية، باجتماعهما معاً في الأعمال البشرية!؟».

فكما يظهر الجهد والتعب والزخرفة في شعر أنتيماخوس Antimachus(٣٤)، ورسوم ديونيسيوس(٣٥) وتُحِفُ كولوفون Colophon، مع أنها تزخر بالحركة والقوة،

(٣٤) شاعر ملحمي من كولوفون وهي مدينة آيونية. نبغ أيام سقراط وأفلاطون ونظم قصائد حملت اسم مدينة ثيبة Thebiad.

(٣٥) كان رسّاماً. ولذلك سُمّي بالأنثروپوكرافوس (پليني ٣٥: ١٠). ويخبرنا أن نيقوماخُس كان يرسم بيد سريعة ماهرة وأن لوحاته كانت تُباع بما يعادل ثمن بلدة! اتفق معه أريستراتوس طاغيه سيراقوز على رسم صورة ولم يكن يبدو أنها ستحتاج إلى كثير من الوقت. إلاّ أن نيقوماخس تباطأ ولم يقدم إلاّ بعد أيام موافقاً على القيام بالرسم. إلاّ أن الطاغية نقم عليه لامبالاته وفكر في عقابه. لكن الرسام أكمل عمله خلال المدة المتفق عليها وبلغ فيه الإبداع بحيث نال رضى الطاغية.

إذا ما قورنت بأشعار هوميروس ورسوم نيقوماخوس[٣٦] التي تتضمّن سحراً عجيباً إلى جانب قوتها وجمالها العام - ذلك السحر الغريب المتأتّي من سهولة عملها وبداهته كما يظهر للمتأمّل لأول وهلة - كذلك كانت أعمال وحملات إپامنناداس وأغيسيلاوس العسكرية يظهر فيها الجهد الكبير والمشقّة إذا ما قورنت بأعمال تيموليون السهلة الإنجاز المنقادة طبيعياً. . . والنبيلة الأهداف أخيراً. وهذا ما يُرغم اجتهادنا العادل غير المتحيّز على الحكم بأن أعمال تيموليون ليس مبعثها الحظ وإنما هي نجاحات للمؤهّلات المحظوظة، وإن كان هو بالذات يعزو ذلك النجاح إلى محاباة الآلهة له ليس إلاّ. ولذلك تجده يقول في رسائله إلى أصدقائه الكورنثيين وخُطبه في أهالي سيراقوز: إنه ليشكر الإله الذي خلّص صقلية، وشاءت إرادته أن يشرّفه باسم ولقب «المنقذ» الذي تلطّف عليه به. ولهذا بنى في منزله هيكلاً يضحّي فيه لآلهة الحظّ التي حبته بعطفها، وأوقف المنزل نفسه على «الروح القدس».

كان المنزل قد اختاره السيراقوزيون له هديةً وصَرحاً تذكارياً لمآثره وبطولاته. كما منحوه قطعة أرض من أفضل وأجمل الأراضي في البلاد. وكان يقضي فيهما جلّ أيامه مستمتعاً بحياة خاصة هادئة مع زوجه وأولاده الذين استقدمهم من كورنث، لأنه لم يعد إلى وطنه قطّ لعزوفه عن اضطرابات بلاد اليونان ونزاعاتها، أو لأنفته من تعريض نفسه للغيرة العامة (وهو أخطر الأذى الذي يتعرّض له كبار القادة عادةً ويتأتّى من شهوتهم إلى الرفعة والسلطان التي لا تقف عند حدّ). وكان حكيماً في اختياره قضاء بقيّة أيامه في صقلية لينعم بقسط من آثار أعماله، وأعظمها طُراً مشاهدته ذلك العدد الكبير من المدن تنمو وتزدهر وتعمر بالألوف العديدة من الناس، وهم يحيون حياة رغيدة راضية بجهوده ومساعيه.

وعلى كلّ حالٍ فإن قول سيمونيدس «لا مفرّ من قيام عُرْفٍ على رأس كلّ قبّرة» ليس قاصراً على هذا المثل وحده، بل ينطبق على كل نظام ديمقراطي، فلا بدّ أن يبرز فيه معارض مزيّف ومتّهم كذّاب. وكذلك كان الأمر في سيراقوز إذ انبرى اثنان من الخطباء الجماهيريين وهما لافيستيوس Laphystius وديميانتوس Demaenetus وأنشآ يفتريان على تيموليون ويشوّهان سُمعته، وطلب أولهما منه أن يتعهّد بالإجابة على التهم التي ستوجّه إليه. وأبى تيموليون أن يتدخّل الجمهور في الإجراءات القضائية أو يعمل على إيقافها مدفوعاً بسخطه واستنكاره وحجّته في ذلك أنه ما خاض هذه الحروب

---

(٣٦) توفّي في العام ٣٣٧ ق.م بعد أن حكم صقلية ثماني سنوات [ديودورس ١٥ : ٩٠].

الطاحنة، وتكبّد تلك المشاقّ والأخطار، إلاّ للوصول إلى هذه الغاية أي أن يكون لكلّ مواطن الحقّ في الرجوع إلى القانون بكلّ حرية عندما يشاء. وعرض ريمنيتسوس للشعب لائحة بعدد من التهم ضدّه عن أعمال عزاها إليه عندما كان قائداً للجيش. فلم يُجب تيموليون بشيء خلا قوله أنه مدين بالكثير للآلهة لأنها حققت له رجاءً طالما ناشدها إنجازه. وأعني به أن يعيش ليرى السيراقوزيين وهم يتمتعون بحرية القول، وهي تبدو الآن وكأنها ملك يمينهم.

وهكذا اعترف الجميع أنه قام بأشرف ما قام به أيّ إغريقي معاصر له واشتهر وحده وبرّز في تلك الأعمال التي اعتاد فلاسفه الإغريق وخطباؤهم سردها ليحمّسوا ويرفعوا بها معنويات أبناء جِلدتهم في سائر خطبتهم وتقاريضهم التي يلقونها في الاجتماعات الدينية القومية. وقدّم دليلاً دامغاً على حكمة إدارته وشجاعته بمواجهة البرابرة وبانسحابه المسبق من مصائب الحروب الأهلية التي ما لبثت أن اجتاحت بلاد اليونان، وتجنيب صقلية الدماء دون أن يلحقها عيب أو أن تلوّث سمعته، يقابل ذلك عطفه على الإغريق وعلى أصدقائه بصورة عامة. كذلك تقديمه تلك التذكارات التي غنمها في معارك لم يسفك في أغلبها دم كورنثي أو سيراقوزيّ واحد. فجنّبهم ذرفَ الدموع ولبس الحداد، زد على ذلك أنه انتشل صقلية في غضون أقلّ من ثماني سنوات من عِللهم المتأصلة وفسادهم الداخلي ودفع بها حُرّةً إلى أيدي أهلها.

وطعن في السنّ وبدأ يشعر بضعف في بصره لينطفئ تماماً بعد زمن قصير. لم يُحرم الرؤية لازورار الحظّ عنه ولا لإقدامه على عمل كانت نتيجة تلك العاهة، بل هو ضعف وراثي داخليّ ظهر بشكل طبيعي فيه بمرور الزمن. فلقد قيل إن عدداً كبيراً من أقربائه وأفراد أسرته تعرّضوا لهذا الضعف الذي تفاقم بهم، حتى فقدوا أبصارهم مثله في أواخر حياتهم. ويحدّثنا أثانيس المؤرّخ أن بقعة بيضاء صغيرة نزلت على إنسان عينه أيام كان يقود الحرب ضدّ هيوّ وماميرقوس ومنها أمكن الجميع أن يتكهنوا باقتراب العمى منه. إلاّ أن ذلك لم يمنعه من مواصلة الحصار وإدارة دفّة الحرب حتى وقع الطاغيتان في قبضته. إلاّ أنه اعتزل منصب القائد الأعلى حال رجوعه إلى سيراقوز وطلب من المواطنين إعفاءه من أي تكليف آخر، ولاسيّما بعد تحسنّ الأحوال وسيادة الأمن والاستقرار. ولم يكن ثمّ ما يدعو إلى العجب لاحتماله مصيبته برحابة صدر ودون أن تبدر منه إشارة إلى نفاد الصبر أو الضيق. إلاّ أن الاحترام والاعتراف بالجميل الذي أظهره له السيراقوزيون بعد فقده بصره يستحّق إعجابنا والحق يقال. إذ اتخذوا لهم عادة في زيارته أفواجاً وجماعات وكانوا يصحبون الأجانب من الزائرين إلى منزله

ومزرعته ليسرّوا أيضاً بمشاهدة منقذهم النبيل. وكان حجّهم هذا مصدراً من مصادر سعادتهم وغبطتهم. ولقد تعلّق هو أيضاً بالأرض التي حرّرها، وأبى أن يستمتع بعودة الظافر إلى اليونان بعد بطولاته وانتصاراته ولم يقم وزناً للاستعدادات الفخمة التي اتخذت في الوطن لاستقباله، وآثر البقاء حيث هو وإنهاء حياته فيها. وأسمى ما أُكرم به تيموليون وأكبر دليل على منزلته في نفوس السيراقوزيين أنهم أصدروا قانوناً يحتّم عليهم ألاّ يستعيروا إلاّ خدمات جنرال كورنثيّ في حالة اشتباكهم بحرب مع بلاد أجنبية. ومن مظاهر التشريف النبيلة التي اتّبعوها في مجالس إداراتهم العامة مما يقوم شاهداً على مدى احترامهم له أنهم كانوا ينشدون أبداً مشورته في الأمور الهامّة المعقّدة، ولا يستغنون عن رأيه في الأزمات، أما المسائل الصغرى فكانوا يعالجونها بأنفسهم. وفي تلك المناسبات كان ينقل إلى الملعب محمولاً على محفّة وهو جالس. فيمرّ في الساحة العمومية وعندما يستقرّ في الملعب يحيّيه الجمور كلّه باسمه المجرّد، فيردّ على تحيّتهم ويصمت برهة لتنقطع هتافاتهم وتمنياتهم الطيبة له. ثم يرهف أذنه إلى مواضيع المناقشة ويُدلي برأيه. وبعد أن يوضع في الاقتراع العام وتتم الموافقة يرفعه الخدم إلى المحفّة ويخترقون به المواطنين المجتمعين خارجاً وهتافهم وتهاليلهم تدوي من الجانبين. وبعد انصرافه يعودون إلى النظر في الأمور الثانوية. كذا كان حبّه متأصّلاً في النفوس وهو على حافة قبره. كان حبّاً مشبعاً بالاحترام والحنان الواجب للأب الذي هو والد الكلّ.

ثم إن وعكة جدّ بسيطة انتابته إلا أنها كانت كافية لانهاء حياته بمعونة الزمن. وأعلن عن تخصيص أيام معيّنة يتفرّغ السيراقوزيون في أثنائها لتهيئة كل ما هو واجب وضروري لتشييعه، ولإفساح المجال أيضاً لمشاركة السكان المجاورين والأجانب في المراسم. وكان يحفّ بالجنازة كلّ مظاهر العظمة والأبّهة والرّوعة، وزُيّن النعش بتذكارات الحرب وغيرها من الحلى، وحملته نُخبة من الشبّان ووضعوه على البقعة التي كان ديونيسوس قد شيّد فوقها قلعته فجاء هو وقوّضهما. وحضرت المراسم ألوف مؤلّفة من الرجال والنساء وقد ضفروا أكاليل الزهر على رؤوسهم وارتدوا الثياب الجديدة النظيفة حتى بدا التشييع وكأنه عيد شعبيّ. وكانت كلماتهم ودموعهم التي تمتزج بالمديح والدعوات لتيموليون الراحل تُظهر أن ولاءهم لم يكن مجاملةً وتكريمهم ليس إرغاماً وجبراً بل هو تعبير عن حزن حقيقي وإظهار لحبهم الصادق. أخيراً وضِع النعش فوق كومة من الخشب وأُشعلت فيه النار. وفي أثناء ذلك بدأ ديمتريوس أعلى المنادين صوتاً، يقرأ البيان العام التالي:

«أصدر أهل سيراقوز مرسوماً يقضي بدفن تيموليون ابن تيموديوس الكورنثي على نفقة الخزينة العامة وخُصّص مبلغ مائتي مينا لذلك. ووضع جوائز سنوية تخليداً لذكراه، تمنح للفائزين في مباريات الموسيقى وسباق الخيل وغيرها من الرياضات البدنية، لأنه كسر شوكة الطغاة وهزم البرابرة وعمر المدن الرئيسة بسكان جدد بعد أن هجرها أهلها. وأعاد للإغريق الصقليين نعمة الحياة الحرّة وميزة العيش وفق شرائعهم الخاصة».

وتمادوا في تكريمه وتخليد ذكراه، فبنوا له ضريحاً في الساحة العامة. وأحاطوه فيما بعد بصفوف من الأعمدة، ثم ألحقوا به معاهد رياضية للشباب، يمارسون فيها مختلف الألعاب البدنية، وأطلقوا عليها اسم تيموليونتيوم [Timoleonteum. وظلوا يحافظون على شكل الادارة والنظام الحكومي[٣٧] والقوانين والدساتير التي وضعها لهم. وعاشوا زمناً طويلاً يرفلون في بحبوحة من الرخاء والدّعة[٣٨].

(٣٧) من قوانينهم التي صاغها ديوقليس وبقي بعضها يمارَس تلك التي تتعلق بصورة خاصة بالوصايا والعقود. أما بخصوص الواجبات والحقوق المدنية التي غيّرها الطغاة أو صادروها فقد صحّحها أو أعادها. وقد طلب في هذا الصدد معاونة كيفالوس [ديودوروس ١٦ : ٨٢].

(٣٨) انقطع هذا الازدهار بعد ٣٠ سنة تقريباً بالفظائع التي ارتكبها أغاتوكلس الذي نصّب نفسه طاغية على سيراقوز.

إيميليوس پاولوس
ÆMILIUS PAULUS

في ترجمة لونگهورن وترجمة كوليز وردت المقدّمة التي صدّرها پلوتارخ لسيرة تيموليون هنا.

أجمع المؤرّخون كافّةً على أن أسرة «إميلي» Aemilii هي إحدى الأسر الرومانية البارتريشية العريقة. ويخبرنا أولئك المؤرّخون الذين يؤكّدون أن نوما الملك كان تلميذاً لفيثاغورس بأنّ أوّل من خلّف اسماً لذرّيته هو ماميرقوس ابن فيثاغورس الفيلسوف الذي كان يلقّب بـ«إيمليوس» لرشاقته ولياقته في الكلام. وأقبل الحظّ أيضاً على معظم سُلالته الذين ارتفعوا إلى مصافّ العظماء لكفاءاتهم وقابليّاتهم. حتى سوء الحظّ الذي لازم لوشيوس پاولوس في معركة كاێني[1] هو دليل على حكمته وبسالته. فبعد أن عجز عن إقناع زميله بالعدول عن المجازفة في معركة شاركه في الهجوم إلاّ أنه لم يكن زميله في الفرار، بل العكس فقد صمد في الميدان وقُتل وهو يحارب في حين تخلّى عنه من كان شديد العزم على الاشتباك. وكان لإميليوس هذا بنت اسمها إميليا تزوّجت سكيپيو الكبير، وابن اسمه پاولوس وهو موضوع سيرتي هذه.

في مطلع رجولته التي صادفت عهداً اشتهرت فيه روما بمشاهير الشخصيات تميّز إميليوس بابتعاده عن العلوم والدراسات التي اعتاد تلقّيها الشبّان الوجهاء، ولم يسلك إلى الشهرة السُّبل نفسها. لأنه لم يمارس الخطابة لكي يمتهن المرافعة في قضايا الناس، ولم يؤثر عنه الانحناء عند التحيّة أو العناق أو مصاحبة الدهماء تزلُّفاً لهم. وهذا كلّه من الوسائل المعتادة للتقرُّب إلى الناس وخطب ودّهم، لا لأنه قاصرٌ عنها، بل لكونه اختار الاستئثار بمجد البطولة والإستقامة والصلاح وهي أسمى الأمجاد وأكثرها خلوداً. وفي هذه الفضائل ما لبث أن برّ كلّ أقرانه. وكانت وظيفة الأيديل الكريمة أوّل ما تقلّده. فقد تنافس عليها مع اثني عشر مرشّحاً بلغت كفاءاتهم ومؤهّلاتهم حدّاً أنهم تسنّموا فيما بعد منصب القنصلية كافّة بالتعاقب. ثم انتخب فيما

---

(١) اعتباراً من لوشيوس إميليوس الذي كان قنصلاً في ٤٨٣ق.م وهزم الپولسكيين حتى لوشيوس پاولوس والد پاولوس إميليوس الذي قُتل في كانّي عام ٢١٥ق.م كان قد اشتهر عدد كبير من أفراد هذه الأسرة بانتصاراتهم ونجاحهم الإداري.

بعد إلى صنف الكهنة الذين يعرفون بالأوغور[٢]. ووظائفهم عند الرومان أن يراقبوا ويسجّلوا النبوءات المستخلصة من مسار الطير، أو معجزات الفضاء. ولذلك تفرّغ لدراسة عادات بلاده القديمة دراسة دقيقة، وتمكن من أسرار دين أسلافه حتى ارتقى بوظيفته التي كانت مجرّد لقب شرفٍ يُطلب لنفسه إلى مرتبة من الصناعة والفنّ عالية جداً بمجهوده الخاصّ. وأثبت صحّة التعريف الذي وضعه الفلاسفة للدين بوصفه «علم عبادة الآلهة»[٣]. وكان يحرص عند قيامه بأي واجب ديني على الدقة والمهارة ويتفانى فيهما كأنما لا يشغله في الدنيا غيرهما. وهو لا يحذف من الشعائر جزءاً مهما ضؤل ولا يضيف شيئاً مهما قلّ بل كان يشدّد على زملائه من الطائفة أن يلتزموا حتى بما قد يبدو تافهاً ويشتدّ في توصيتهم بأن توهّمهم بسهولة تهدئة غضب ربّ من الأرباب، واستعداده للصفح عن الأخطاء غير المقصودة، لا ينفى أنّ أيّ تراخٍ وإهمال هو خطر شديد على السلامة العامة إذ لم يبدأ أي شخص قط في الإخلال بسلامة بلاده إلا وخرق شرائعها خرقاً شنيعاً. وإن مَن يُهمِل في الجزئيات يوجد سابقةً وتعِلّة للإهمال في الكلّيات والواجبات الهامّة. ولم يكن أقلّ من هذا تشدّداً في تطلّبه مراعاة النظام الروماني القديم في الأمور العسكرية. وعندما تولّى القيادة لم يبذل أيّ مجهودٍ في تعزيز مكانته بين الجنود[٤] والتحبُّب إليهم بخطب ودّهم ومجاملتهم في حين كان هذا عادة جرى عليها كثيرٌ من القادة في ذلك الزمن. ففي فترة قيادتهم الأولى يظهرون المحاباة والتردّد للمادون كي يضمنوا لأنفسهم فترة ثانية. على أنه استعاد لبلاده عظمتها الغابرة وسُؤددَها بتلقين الرومان قوانين الضبط العسكري بالعناية والدقّة اللتين يستخدمهما الكاهن في تدريسه أصول الشعائر والأسرار المرعبة، وبصرامته في معالجة أمر كل من يخرق تلك القوانين أو يعتدي عليها مُقدِّراً أن النصر على الأعداء هو بحدّ ذاتها نتيجة لاحقة للتدريب الصحيح، والنظام الدقيق.

بينما كان الرومان مشتبكين في حربٍ مع أنطيوخوس الأكبر[٥]، مستخدمين ضدّه

---

(٢) كان بإمكان الأوغور (العرّاف) أن يحبط أي عمل من الأعمال العامة أو أن يجيزه بزعم أن الإستخارة مواتية أو غير مواتية. وفي معهد الأوغور هذا يدخل معظم الپاتريشيين الذين يرغبون في الانصراف إلى العمل السياسي.

(٣) انظر أفلاطون «أفثيفرون».

(٤) الجنود الرومان يتمتّعون بحقوق المواطنة الرومانية ولهم أن يُدلوا بأصواتهم في كل الشؤون المدنية والعسكرية ذات الشأن.

(٥) بدأت الحرب مع أنطيوخس الكبير ملك سورية في حدود العام ١٩٢ق.م أي بعد معركة كاني =

عدداً من خيرة قادتهم وأكثرهم تجارب، نشبت حرب أخرى في الغرب، وضجّت إسبانيا بقَعْقَعة السّلاح، أرسلوا إليها إميليوس برتبة پريتور لا بستة فؤوس، وهو العدد الذي يتقدّم أصحاب هذه الرتبة عادة، إنّما باثني عشر فأساً، لذلك كان في منصبه الپريتوري يتمتّع بمظاهر سلطان القنصل. وهزم البرابرة في معركتين(٧) وقتل منهم ثلاثين ألفاً: ويُعزى نجاحه هذا أساساً إلى حكمة القائد وإدارته. فبمهارته العظيمة في اختيار أصلح أرضٍ. وبمباشرته الهجوم في معبر أحد الأنهار حقق لجنوده نصراً سهلاً. وبعد أن سيطر على مائتين وخمسين مدينة وبلدة خضع له أهاليها تلقائياً وربطوا أنفسهم بقسم على الطاعة والولاء، غادر الإقليم والسلام يخيّم عليه وعاد إلى روما دون أن يضيفَ إلى ما يملك درهماً واحداً من الحرب. وكان في الواقع وبصورة عامة لا يكترث لجمع المال وإن كان يعيش دوماً عيشة باذخة مُسرفة على ما يملك وهو ليس بالكثير، حتى أنه لم يخلّف حين وفاته ما يكاد يفي بصداق امرأته.

كانت پاپيريا Papiria أولى زوجَيه. وهي بنت ماسو Maso الذي كان قنصلاً فيما مضى. عاش معها زمناً طويلاً في رباط الزوجية ثم طلّقها مع أنها أنجبت له ابنين من أنبل الأنباء، فهي أمّ سكيپيو الشهير، وفابيوس ماكسيموس. ونحن لا ندري سبب انفصالهما هذا. إلاّ أن جانب الحق الذي يبدو في حكاية ذلك الروماني الذي طلّق زوجه قد يفسّر لنا السبب في قضيتنا هنا: كان هذا الروماني موضع لوم شديدٍ من أصدقائه، وراحوا يسائلونه: «أليست هي عفيفة؟ أليست هي جميلة، أليست هي ولوداً؟»، فرفع نعله وسألهم: «أليس هو جديداً؟ أليس هو جيد الصنع؟ ومع هذا فلا أحد منكم يدري أين يؤذيني». ومما هو مؤكد أن الأخطاء الكبيرة والفاضحة لا تؤدّي إلى انفصال الوجين في كثير من الأحيان. في حين يكون مجرد المضايقة الخفيفة المتكررة الناجمة عن التنافر في الطبع سبباً للفرقة. ففي هذه الحالة يتعذّر على الرجل والمرأة العيش معاً في أي درجة من الوئام.

وبعد أن ترك إميليوس پاپيريا بنى بزوجه الثانية فأنجبت له ولدين ربّاهما في منزله. وحوّل الولدين الآخرين إلى أعظم وأشرف أسرتين في روما. فالأكبر(٨) تبنّاه فابيوس

= بأربع عشرة سنة. وكان يقود الجيوش الرومانية گلابويو ثم الأخوان شكيپيو بعده. وقد ارتضى أكبرهما أن يكون مجرّد معاون لأخيه [ليڤي ٣٦:١].

(٧) يتكلم ليڤي (المرجع السالف ٥٧) عن معركة واحدة ناجحة. فيها اخترق إيميلوس پاولوس الاستحكامات الإسپانية وفتك بثمانية عشر ألفاً وأسر ثلاثمائة.

(٨) اتخذ له اسم كونيتس فابيوس إميليانوس. وهو أب الخطيب الشهير كوينتس فابيوس. وكذلك =

ماكسيموس الذي تقلّد منصب القنصلية خمس مرّات وربّاه في بيته. والثاني كفله ابن سكيپيو أفريقانوس وهو ابن عمّته، فسمّاه سيپيو.

أما عن ابنتَيه فإحداهنّ تزوّجت ابن كاتو Cato والثانية تزوّجت إيليوس توبيرو Aelius Tubero وهو رجل فاضلٌ جداً ويُعدّ بين الرومان خير من جمع بين الجود والفقر. وكان لديه ستة عشر قريباً كلّهم صلبيّون من أسرة إيلي Aelii لا يملكون غير حقل واحدٍ كان يكفيهم العيش، ويسكون في بيت صغير واحدٍ أو كوخٍ بالأحرى يأويهم مع ذرّيتهم الكثيرة وزوجاتهم، ومن بينهن بنت إميليوس صاحبنا. ولم تكن تخجل من فقر زوجها مع أن أباها تقلّد منصب القنصل مرّتين، واستُقبل استقبال الفاتحين مرّتين. بل كانت تفخر وتعتزّ بسجاياه التي أبقته فقيراً. والأمر يختلف اختلافاً بيّناً عند الأخوة والأقارب في مثل سنّه. فإن لم تفصل ما بين ميراثهم أرض واسعة أو أنهار وجدران على الأقل فتجعلهم بعيدين بعضهم عن بعض فإن الشجار والخصام لا ينقطع فيما بينهم. إن التاريخ ـ والشيء بالشيء يذكر ـ يقدّم نماذج من هذا النوع لأولئك الذين يعتبرون ويرغبون في التعلم والصلاح.

ونعود إلى موضوعنا فنقول: بعد أن اختير إميليوس قنصلاً خرج إلى حرب الليغوريين[(٩)] Ligurians أو الليفوستينيين Ligustines، وهم قوم يسكنون بالقرب من جبال الألب، اشتهروا بالإقدام وكثرة الحروب بدأ يُكسِبهم جوارُهم من الرومان مهارة في فنون الحرب. وكانوا يشغلون القسم الأقصى من إيطاليا المنتهي بسفوح الألب وتلك الأجزاء من الألب التي تلامس مياه بحر التوسكان وتواجه أفريقيا، يساكنهم على الساحل الغاليون والإيبريون. وكانوا في ذلك الزمن قد وجّهوا اهتمامهم إلى البحر ووصلوا في ملاحتهم حتى «أعمدة هرقل» بسفن خفيفة تناسب أغراضهم وهي القرصنة ونهب وتدمير كلّ ما يمرّ بهم في تلك الأنحاء. هؤلاء انتظروا قدوم إميليوس بجيش قِوامه أربعون ألفاً، أي خمسة أضعاف الجيش الروماني الزاحف؟ إلاّ أن إميليوس تغلّب عليهم وألجأهم إلى الفرار واضطرهم إلى الاحتماء بأسوار مدنهم. وعرض عليهم وهم في وضعهم هذا شروط صلح كريم. إذ كان من سياسة الرومان أن لا يقضوا قضاءً تاماً على الليغوريين لأنهم أشبه بحرس أو سَدٍّ يحول دون مختلف محاولات الغاليين التوغّل

= أخوه أفريقانوس الأصغر أو الثاني الذي أزال قرطاجة من الوجود في ١٠٥ ق.م. فقد اتخذ هو أيضاً اسم إميليانوس.

(٩) ليفي [٤٠: ٢٥] كان ذلك في السنة التي تلت انتخابه قنصلاً.

في إيطاليا. وبثقة تامّة من إميليوس سلّموا إليه مدنهم وسفنهم. فأبقى على الأولى، ولم يتعرّض بالهدم إلاّ لتحصيناتها وأعادها إليهم، إلاّ أنه صادر السفن ونقلها معه تاركاً فحسب تلك المراكب التي لا يزيد عدد مجاذيفها عن ثلاثة. وأطلق سراح عددٍ كبيرٍ من الأسرى الذين استولوا عليهم برّاً وبحراً، رومانيين وأجانب. تلك هي أجدر أعماله بالذكر في فترة قُنصليّته الأولى.

وبعد هذا ألمح كثيراً إلى رغبته في تجديد قنصليته فترة ثانية، ورُشّح مرة أخرى وعندما قوبل ترشيحه بالرفض، وتخطّاه الناخبون، صرف النظر عن الرغبة بصورة باتّة وتفرّغ لواجبات كهانته وتثقيف أولاده الذين لم يكتفِ بتنشئتهم كما نشأ هو على أصول التربية الرومانية القديمة، وإنّما بتعليمهم الأصول اليونانية، وأبدى في ذلك اهتماماً فائقاً للعادة. فجاء بأساتذة لتعليمهم النحو والمنطق والبلاغة، فضلاً عن معلّمين للرسم وصُنع التماثيل، ومدرّبين في الفروسيّة والكلاب. وأساتذة لرياضة الساحة والميدان، كلهم من بلاد اليونان. ولو لم تُعقه شؤون الدولة لانضمّ إليهم في دراساتهم وأشرف على إنجازهم تمارينهم. لقد كان خير أب في روما وأشدّهم حُبّاً بأولاده.

في المحيط السياسيّ لتلك الفترة من الزمن كانت الحرب بين الرومان وپيرسيوس Perseus(١٠) ملك مقدونيا تحتل مركز الصدارة. وكانت الأصوات في روما تجأر بالشكوى والتذمّر الشديديّن من قوّادهم(١١). فهؤلاء كانوا يديرون أمور الحرب بشكل يبعث الأسى والخجل، لافتقارهم إلى الحنكة والشجاعة حتى أن الخسارة التي يلحقونها بالعدوّ كانت أقلّ بكثير مما ينالون منها على يده. أولئك الذين أرغموا منذ زمن غير بعيد أنطيوخوس الأكبر على الجلاء عن بقية آسيا(١٢) والانسحاب إلى ما وراء جبال طوروس، والاقتصار على سورية مسروراً لشرائه الصلح بخمسة عشر ألف تالنت(١٣). أولئك الذين لم يمر زمن طويل على انتصارهم على فيليب الملك في

---

(١٠) كانت الحرب المقدونية الثانية مع پرسيوس قد بدأت في العام ١٧١ق.م.

(١١) هؤلاء القادة هم: پاولوس ليچينيوس كراسوس، تلاه إميليوس هوستيليوس مانچيتوس، ثم كونيتس مارشيوس فيليپوس الذي مَدّ في أجل الحرب طويلاً. من خلال سنوات قنصالياتهم الثلاثة.

(١٢) قبل ذلك بسبع عشرة سنة.

(١٣) يقول ليڤي بل اثنا عشر ألفاً تُدفع بأقساط متساوية خلال اثني عشر عاماً [المرجع السالف ٣٨: ٣٨].

ثسالي وتحرير الإغريق من النير المقدوني[١٤]، لا بل انتصارهم على هنيبعل نفسه ذلك الذي فاق كل الملوك في البأس والسلطان بمدى بعيد. واعتبر الرومان سُبّةً وعاراً عليهم أن يجد پيرسيوس نفسه ندّاً للرومان وقريناً قادراً على شنّ حربٍ ضدّهم على قدم المساواة لمدة طويلة بما تبقّى فقط من قوات أبيه المدحورة، جاهلين أن فيليب بعد هزيمته قد رفع كثيراً من مستوى الجيش المقدوني قوةً ونظاماً.

اتخذ أنتيغونس Antigonus[١٥] لنفسه ولعقبه لقب ملك وهو أقوى وأبرز قادة الإسكندر وخلفائه. وكان له ابن يدعى ديمتريوس أنجب ابناً سمّاه أنتيغونس وعُرف بلقب غوناطاس Gonatas. وخلّف هذا بدوره ابناً دعاه ديمتريوس مات بعد أن حكم فترة قصيرة وأورث الملك لابنه الصغير فيليب. ولخوف رؤساء المقدونيين من وقوع فوضى عظيمة في البلاد، جرّاء حداثته، استدعوا ابن عمٍّ لأبيه المتوفّى يدعى «أنتيغونس أيضاً وزوّجوه بالأرملة والدة فيليب، وجعلوه أول الأمر وصيّاً وقائداً للجيش فحسب. ولما وجدوا بالتجربة أنه يحكم المملكة بعدلٍ ويحقق لها الخير منحوه لقب ملك. وهذا هو الذي عُرف بلقب دوسون Doson[*] كأنما كان واعداً جيداً ومُنجزاً سيّئاً. وخلفه فيليب في الملك وكان في شبابه قد أظهر ما يبشّر بآمال كبيرة في أنه سيضاهي خير الملوك، وأنه سيعيد لمقدونيا يوماً ما منزلتها وعظمتها السالفة، وسيثبت أنه الرجل الوحيد القادر على الحدّ من السلطان الروماني الذي قويت شوكته وارتفع وامتد ليشمل الدنيا. إلاّ أن نيّته خابت عندما حلّت به الهزيمة أمام تيطس فلامينيوس في معركة حاسمة بالقرب من سكوتونيا Scotussa، ووضع نفسه وكلّ ما يملك تحت رحمة الرومان، مغتبطاً لتمكنه من الخلاص بدفع غرامة زهيدة. ولكن ما لبث أن ضاقت نفسه ذرعاً بالأمر ولم يُطق عليه صبراً، فبعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة وفق هِداية الفاتحين وبحسب مشيئتهم، فتركزت كل أفكاره في الحرب ودفعته إلى الاستعداد لها بكلّ ما وسعه من حيلة وخفاءٍ. ولهذا ترك مُدنه الواقعة على الطرق الخارجية دون حاميات، وجرّد سواحل بلاده البحرية من الحراسة حتى بدت مهجورة، إظهاراً لعدم اهتمامه بها. بينما راح في الوقت نفسه يحشد قوات كبيرة في المناطق العليا من البلاد،

---

(١٤) نهض فلامنينوس (انظر سيرته) بهذه المهمة. فأهلك ثمانية آلاف من رجال فيليب في ساحة القتال وأسر خمسة آلاف. بعدها أرسل منادياً يبشّر بنبأ عودة الحرية إلى بلاد الإغريق.

(١٥) أنتيغونس هذا فتك بأڤمينس وانتزع بابل من يد سلوقوس. وبعد أن دحر ابنه ديمتريوس أسطول بطليموس كان أول من لبس التاج من بين خلفاء الإسكندر واتخذ لقب ملك.

(*) دوسون معناها ذلك الذي سيعطي.

ويمدّ نقاطه العسكرية الداخلية وقلاعه ومدنه بالمال والسلاح والرجال القادرين على حمل السلاح يُعدّ بها عُدّته للحرب. إلاّ أنّه أبقى استعداده هذا سِرّاً. وكان قد اختزن في مستودعاته الحربية ما يكفي لتسليح ثلاثين ألفاً. وفي أهرائه ومواقعة الحصينة احتكر ثمانية ملايين بوشلاً من القمح. ومبالغ طائلة من المال تكفي لصرف رواتب ونفقات عشرة آلاف من الجنود المرتزقة يدافعون عن البلاد لمدة عشر سنوات. وقبل أن يضع فكرته هذه موضع التنفيذ أو يفيد من استعداداته العسكرية قضى نحبه حزناً وتأنيبَ ضمير، بعد أن أدرك هو لما فعل بقتله ابنه البريء ديمتريوس بسبب وشاية شخص أكثر إجراماً. وأورث ابنه الثاني پرسيوس الذي خلّفه على العرش، كرهه لرومان، إلاّ أنه لم يكن كفوءاً لتحقيق مأربه لافتقاره إلى الشجاعة ولسوء طباعه، وكان الطمع في مقدّمة أمراض نفسه وأخطائها. وهناك أيضاً رواية تتضمّن طعناً في نسبه، خلاصتها أن امرأة فيليب الملك أخذته من أمّه الحقيقية غنائينيون Gnathaenion (وهي امرأة أرغوسية تعيش على مهنة الخياطة) فور وضعه، وقدّمته لزوجها على أنه ابنه. وربما كان هذا السبب الرئيسي لدّسه على ديمتريوس وموته إذ كان لا شكّ يخشى أن يكشف عن ميلاده الوضيع طالما يوجد خلف شرعيّ في الأسرة.

وبصرف النظر عن هذا، ورغم خُلُقه الوضيع وطباعه الدنيئة، فقد وضع ثقته في قوّة موارده وشنّ حرباً على الرومان واستمر بها سجالاً وقتاً طويلاً يصدّ خلالها الهجمات، بل حتى يهزم بعض القادة من ذوي الرتب القنصلية وبعض الجيوش والأساطيل الكبيرة. وهزم پوبليوس ليچينيوس Publius Licinius أوّل من غزا مقدونيا في معركة خيّالة[١٦] وقتل ألفين وخمسمائة من الجنود المدرّبين وأسر ستمائة. وباغت أسطولهم وهو ملق مراسيه أمام أوريوم Oreum[١٧] فاستولى على عشرين سفينة حمل موسقة بحمْلها، وحطّم ما كان محمّلاً بالقمح، واستولى على أربع بوارج ذوات طبقات مجاذيف أربع. وخاض معركة ثانية ضدّ هوستيليوس وهو قنصل عسكري أثناء توغّله في البلاد وأجبره على التقهقر بعد قِتال ضارٍ بالقرب من إليميائي Elimiae. وتحدّاه مرة أخرى للقتال عندما دبّر غارة تسلّليّة على تساليا فخاف هوستيليوس النتيجة وأبى القتال.

---

(١٦) قدّم لنا ليفي وصفاً لهذه المعركة في آخر كتابه الثاني والأربعين. عرض پرسيوس الصلح على المندحرين بشروط سهلة كأنما هو المغلوب، إلاّ أن الرومان رفضوها. إذ كان من مبادئ الرومان أن لا يعقدوا صلحاً وهم مغلوبون.

(١٧) في اڤبويا.

ومضى أبعد من هذا إظهاراً لازدرائه بالرومان ورغبة في إشغال نفسه خلال فترات وقف الحرب معهم، فحمل على الدردانيين Dardanians وقتل من هذا الشعب البربري عشرة آلاف وحمل منهم غنائم كثيرة. وتمادى ففاوض الفاليين (ويسمّون أيضاً باستيرني: Basternae) سرّاً وعقد معهم حلفاً. وهؤلاء شعب محارب اشتهر بالفروسيّة كان يسكن مشارف الدانوب. واستمال الإلليريين Illyrians بوساطة ملكهم گنتيوس Genthius للانضمام إليه في الحرب، وذكرت الأخبار أيضاً أن البرابرة يهمّون بغزو إيطاليا من بلاد الغال الجنوبية القريبة من ساحل الأدرياتي(١٨)، وأغراهم بالوعود والمكافآت.

وعندما أحيط الروما علماً بهذه الأمور وجدوا أن الضرورة تقضي بألاّ يتمّ اختيار قادتهم بعامل المحاباة والرجاء والتوسّط، بل المبادرة إلى انتخاب جنرالٍ ذي كفاءةٍ وحكمة للتصرّف في الأمور الجِسام. وكذلك كان پاولوس إميليوس. فمع تقدّمه في السنّ ومشارفته على الستين، فقد ظلّ قويّ البدن، غنياً بأولاده وأختانه الشجعان، فضلاً عن العدد الكبير من أقربائه وأصدقائه المتنفّذين وكلهم اجتمعوا عليه يلحّون لكي يستجيب لرغبة الشعب الذي دعاه لقبول منصب القنصل. فأبدى في أول الأمر إحجاماً وخجلاً من الشعب وأراد أن يتخلّص من إلحاحهم مظهراً تردّده في تولّي المنصب. ولكنهم ظلّوا يتوافدون على منزله يومياً ويقفون على بابه طالبين منه الخروج والذهاب إلى مقرّ الانتخاب، ويشتدون في الإلحاف عليه بالصياح والهتاف، حتى نزل على رغبتهم. وعندما بدا بين المرشحين بدا وكأن ظهوره ليس للادّعاء بالأمل والغبطة العظيمين واختاروه بالإجماع قنصلاً للمرة الثانية. ولم يصبروا على إجراء الاقتراع كالعادة حول الإقليم الذي سيكون من نصيبه وإنما أعلنوه في الحال قائداً للحرب المقدونية. وقِيل إنه بعد صدور الأمر بتعيينه قائداً ضد پرسيوس وتكريم الجمهور العظيم بمرافقته إلى منزله وجد بنته الطفلة ترتيا Tratia تبكي فجذبها إليه وسألها عن سبب بكائها طوّقت عُنقه بذراعيها وقالت وهي تقبّله:

ـ ألا تدري يا أبي أن پرسيوس مات؟

---

(١٨) انظر پوليبيوس وهو كاتب معاصر. يروي عما حصل في السفارة التي بعث بها پرسيوس. لقد حاول أيضاً مع يومينيس ملك بثينيا وأرسل وفداً إلى أنطيوخوس ملك سورية قائلاً إن الرومان أعداء جميع الملوك على حَدّ سواء إلاّ أن يومينيس طلب ألفاً وخمسمائة تالنت فتوقفت المفاوضات. وقد أحدثت المفاوضات بحدّ ذاتها جفوةً بين الرومان وصديقهم يومينيس ولم يستفد منها پرسيوس.

تقصد كلباً صغيراً بهذا الاسم رُبّي معها في الدار. فأجاب إميليوس:

ـ فأل حسن يا ابنتي، وإني لأتقبّلها كما أتقبّل نبوءةً!

لقد ذكر شيشرون Cicero الخطيب هذه الحكاية في كتابه عن «النبوءات»(١٩).

جرت العادة أن يرتقى القناصل الذين تمّ انتخابهم منصّة معدّة لذلك الغرض وإلقاء خطبة على الجمهور يضمّنونها شكرهم وامتنانهم لما حبوهم به من الثقة. وهكذا اجتمع لإميليوس جمهور لسماعه فكان مما قاله:

«عندما رشّحت نفسي لمنصب القنصل أول مرةٍ فإني كنت في حاجة إلى التكريم أنا نفسي. أما الترشيح للمرة الثانية فلأنكم كنتم فعلاً في حاجة إلى جنرال، ولهذا لا أرى ما يدعوني إلى تقديم الشكر لكم.

فإذا حكمتم بأن في مقدوري إدارة شؤون الحرب بصورة أكثر فائدة ونجاحاً بشخص آخر غيري فإني متنازل له عن طيب خاطر. وإذا وضعتم ثقتكم الكاملة بي فعليكم ألاّ تنصّبوا من أنفسكم زملاء لي تشاطرونني الوظيفة أو تنتقدون أعمالي أو تقدّمون تقارير، بل عليكم أن تعملوا ـ بدون كلام ـ على إمدادي بالوسائل الضرورية والمعونة الواجبة للاستمرار في الحرب. أو لو كان قصدكم أن تتولّوا قيادة قائدكم فإن هذه الحملة ستكون أخيب من سالفتها».

وأشاع بهذه الخطبة احتراماً عميقاً له في نفوس المواطنين، كما بعث آمالاً عِراضاً في النجاح المقبل. وسُرّ الجميع لأنهم تخطّوا الطامحين إلى المنصب والباحثين عنه بالتملّق والمداهنة، ليستقرّ قرارهم على قائد له من الحكمة والشجاعة ما يكفل قوله الحقيقة والمصارحة مهما كانت مؤلمة. إلى هذا القدر كان الرومان يحنون هاماتهم في طاعة القنصلية والمعقولات، ولولا ذلك ما حكموا الدنيا وغدوا أسيادها.

ويمّم إميليوس وجهه شطر الحرب فوراً. وانطلق مسرعاً إلى معسكر جيشه في رحلة موفّقة خالية من الأخطار رعاه خلالها طالع سعوده؛ على أني حين أتأمّل بحسن نهاية الحرب تحت قيادته فلا يسعني إلاّ استبعاد الحظّ من تلك الأعمال المجيدة والمآثر السامية. (لا مثلما عزوت إليه أعمال قادة آخرين) وإن كان قد اشتهر للغاية بحسن الحظّ. إن انتصاراته كانت حصيلة جرأته الفائقة، وأصالة أفكاره، وتوجيهه الحازم لأتباعه وأصدقائه، وحضور بديهته، ومهارته في اختيار أصلح الآراء وأجدر المشورات

---

(١٩) يقول ليفي [٤٤: ١٧] بعكس ذلك.

في أحرج ساعات الضيق والخطر العظيم. هذا إن لم يذهب بي الرأي إلى أن جشع پرسيوس وحبّه الشديد للمال كان بمثابة مطلع يُمن لإميليوس. والحق يُقال إن حرص پرسيوس على ماله قضى بالدمار والخراب التامّ على كل الاستعداد الحربي العظيم الرائع الذي أصعد آمال المقدونيين إلى درجة الإيمان بكسب الحرب لا محالة. فقد دعا عشرة آلاف من الباستيروني وكل واحد منهم يلازمه واحد من المشاة[٢٠] وكانوا كلهم جنوداً محترفين لا يعرفون غير القتال صناعة وتجارة، ولا غرض لهم إلاّ التغلّب على من يقاومهم. ولا يفقهون شيئاً من الزراعة أو ملاحة السفن أو الرعي. وصل هؤلاء مديكا[٢١] وضربوا خيامهم فيها وامتزجوا بجنود الملك. وكانوا ضخام الأجسام يمارسون تمارين عجيبة، كثيري المباهاة، توقع أصواتهم الجهيرة الرعب في قلوب العدوّ. وكل هذا رفع معنويات المقدونيين الذين اعتقدوا حالاً بأن الرومان لن يصمدوا أمامهم، وسيصابون بذعر وهلع لمنظرهم الغريب وحركاتهم المتّسمة بطابع القوة والعنف بعد أن بث پرسيوس الحماسة في نفوس جنوده وأنعش آمالهم. تقدّم رؤساء الجيش الحليف يطلبون من پرسيوس ألف قطعة ذهبية لكلّ واحدٍ فذهل وطار صوابه لجسامة المبلغ. وما لبث أن انسحب عنهم وحرم نفسه من معونتهم. وكان بهذا أشبه شيء بوكيل أملاك للرومان لا عدوّاً لهم، وكيل عليه أن يقدّم حساباً بنفقات الحرب لمن شنّ عليهم الحرب، بل وكأن خصومه أساتذة يلقّن على أيديهم ما يفعل، وهم الذين حشدوا له مائة ألف مقاتل دفعة واحدة، ناهيك باستعداداتهم الأخرى. لقد كان يواجه هذا الجيش اللجب في حرب عظيمةٍ تضمّ هذا العدد الضخم من الماربين، ومع هذا لم يبذل شيئاً من ماله بل ختم على خزائنه واستبد به الخوف من مسّها حتى لكأنها ملكٌ لغيره. هذا ما فعله رجل لا هو باللّيدي ولا بالفنيقيّ، بل رجل له حق الادّعاء بالانتماء إلى الإسكندر وفيليب، وتصله بهما وشائج النسب. إن الرجال الذين فتحوا

---

(٢٠) وصف ليڤي [٤٤ : ٢٦] هذه الخيّالة وصفاً جيداً إلى جانب جندي المشاة المرافق إذ يقول: «أقبل عشرة آلاف خيّال ومثلهم من المشاة يسايرون الخيّالة خطوةً بخطوةٍ. ما إن يفقد أحد الخيّالة حصانه حتى ينضمّ إلى المشاة». وقد تبنّى الرومان هذا التنظيم في صنف الوحدات الخفيفة وأطلقوا عليه اسم Velites بناءً على اقتراح السنتوريون كوينتوس نافيوس أثناء حصار كاپوا في الحرب الفينونية الثانية [ليڤي ٢٦ : ٤]. ما إن علم پرسيوس بقدوم الباسكرناي حتى أرسل أنتيغونس لاستقبال ملكهم كلودنديقوس فقال هذا إن الغاليين لن يخطوا خطوة واحدة دون أن يدفع لهم المال. فرفض پرسيوس ذلك لفرط بخله وقصر نظره.

(٢١) منطقة ميديكو في تراقيا تقع بين نهري ستريمون ونيسوس (أونستوس).

العالم كانوا يرون أن الأمبراطوريات يجب أن تُشرى بالمال، لا أن يُشرى المال بالأمبراطوريات. ومما جرى مجرى الأمثال قولهم: «إن مدن اليونان لم يفتحها فيليب بل فتحها المال». ولما زحف الإسكندر بجيشه على الهند، ولاحظ بطئاً في مسيرة المقدونيين لما أثقلوا به أنفسهم من غنائم الفُرس، بدأ فأشعل النار في عرباته، وحمل الآخرين على احتذاء حذوه. وبتخلّصهم من هذه الأثقال أمكنهم الانطلاق إلى المعركة دون عائق. أمّا پرسيوس فلم يدفع الغائلة عن نفسه وأولاده ومملكته بجانبٍ صغيرٍ من أمواله وكنوزه الطائلة، واختار أن يُحمل أسيراً مع عدد آخر من مواطنيه باسم «الأسرى الأغنياء»، ليُري الرومان الأموال الطائلة التي جمعها وادّخرها لهم. إنه لم يكتفِ بمخاتلة الغاليين، وإعادتهم من حيث أتوا، بل بعد أن أشبع گنثيوس ملك الإيلليرين بالوعود ومنّاه بثلاثمائة تالنت لقاء مساعدته في الحرب، أمر أن يُحصى المبلغ بحضور رسُله وأن تختم حقائبها. وعندها ظنّ گنثيوس أن المال أصبح ملكاً له، فبادر إلى ارتكاب عملٍ قبيح مخجلٍ بقبضه على سفراء روما وحبسهم. فاطمأن پرسيوس ورأى أنه لم يعد بعد بحاجة إلى دفع المال لگنثيوس لشراء عدائه للرومان بعد أن صنع بسفرائهم ما ولّد عداءً أبدياً وورّطه في حرب لا مناص منها بهذا الغدر الفاضح. وهكذا احتال على الملك البائس فسلبه تالنتاته الثلاثمائة، دون أي وازع من ضمير، وشاهد طرده هو وزوجه وأولاده من مملكته كما تُطرد الطيور من عشّها، بالجيش الذي ساقه الرومان عليه تحت قيادة لوشيوس آنيثيوس[٢٢].

لم يتهوّل إميليوس خصمه بل لم يقم له وزناً في الواقع، إلاّ أنه أُعجب باستعداداته وقوّته. إذ كان قد عبّأ أربعة آلاف من الخيّالة وما يناهز أو يكاد أربعين ألف راجل، بشكك سلاحٍ كاملة للكراديس المقدونية المعروفة بالفلانكس Phalanx، نشرهم في مواقع تحاذي الساحل على سفح جبل الألمپ في أرضٍ لا منفذ إليها من كل الجهات، أحكم تحصينها بالمواقع والعوائق الخشبية فآضت منيعة يصعب اقتحامها. وكان پرسيوس يأمل أن يغلب خصمه اليأس والتعب بالتأخير، وكثرة الإنفاق. إلا أن إيمليوس كان في هذا الوقت بالذات يُعمِل الفكر ويزن الآراء ويقلّب في ذهنه إمكانات الهجوم ووسائله. ولقد وجد جنوده ناقمين متذمّرين من تأخير الهجوم، بسبب افتقارهم إلى

---

(٢٢) انظر ليڤي [٤٤: ٣٠ و٣١] دامت الحملة ثلاثين يوماً فقط ووصلت أنباؤها روما قبل أن عرفت التفاصيل. ومن اسم غيتوس هذا اشتق اسم عشب الجنطيانا لأنه أوّل من اكتشف مرارته المفيدة [پليني ٢٧: ١٧].

الضبط والربط العسكريّ، وهم يهتبلون كل فرصة للتدخّل وتعليم قائدهم واجباته! فأنحى عليهم تقريعاً وتوبيخاً، وحظر عليهم التدخل فيما لا يعنيهم، ونبّههم إلى الاهتمام فحسب باليقظة والاستعداد وسلاحهم بصورة مستمرة. وأن لا يستعملوا سيوفهم بوصفهم رومانيين إلاّ عندما يرى قائدهم ذلك. كما أنه منع الحرس الليلي من اصطحاب رماحهم الثقيلة عند قيامهم بنوبات خفارتهم، ليكونوا أكثر انتباهاً، وأقوى على مغالبة النوم حين لا يوجد سلاح فعّال في يدهم يدافعون به عن أنفسهم إذا فاجأهم العدو.

وكان شحّ الماء مصدر ضيق الجيش الرئيس. فما توفّر منه وهو نزر مجّ يصدر أو بالأحرى ينزل بقطراتٍ من ينبوع قريب للبحر. ورأى إميليوس أن يعسكر فوق سفح جبل الأولمب الشاهق المشجّر. ومن نموّ الغابات الكثيف وازدهارها استنتج وجود مياه جوفية ذات مجارٍ باطنيّة فحفر عدداً كبيراً من الآبار والحُفَر على طول قَدَمة الجبل ما لبث الماء أن نبط منها نقياً عذباً وفاض منها إلى السواقي التي حُفرت لها والأحواض التي رُتّبت لاستقبالها. في الواقع هناك بعض من ينكر وجود صهاريج ماءٍ ممتلئة في باطن الأرض في المواضع التي تنبثق منها الينابيع وأنها عندما تنبثق يسيل ماؤها ويتحدّر ليس إلاّ. إنهم ينكرون ذلك ويزعمون أن هذا المخزون من الماء إنما يكون أوّل تكوينه واجتماعه من تميّع الموادّ المحيطة به وأن هذا التغيير يتمّ بالضغط والبرودة، عندما تتبخّر الرطوبة ويشتد الضغط على البخار يصبح مائعاً، مثل أثداء النساء فهي لا تشبه الأوعية الملأى بالحليب مُعدَّة ومهيّأة دائماً للسيلان. وإنما يتغيّر غذاؤهن في أثدائهنّ إلى حليبٍ ويسيل خارجاً بالضغط. وكذلك الحال في المواضع الباردة الغنيّة بالينابيع، فهي لا تحوي أيّ مياه جوفية أوصهاريج لتزويد كل البحيرات والأنهار العميقة الغور كأنما تستمدّ الماء من مصادر لا تنضب قطّ. إلاّ أنها تكثّف الأبخرة والأهوية وتضغطها وتحيلها إلى تلك المادة المائعة. ولذلك تجد الماء يندفع بهذا الضغط في الأمكنة التي تُحفر وتُفتح، وتعطي من الماء بقدر ما يترطّب البخار ويتميّع (مثل ما تحتلب أثداء النساء عند الضغط عليها) في حين أن الأراضي المهجورة التي لا تُحفر تعجز عن إنباط الماء لأنها تحتاج إلى الحركة التي هي سبب التميّع. إلاّ أن أصحاب هذا الرأي يتيحون الفرصة للمرتابين بقولهم: «يجب والحالة هذه وللأسباب نفسها ألاّ يوجد دمٌ في الأجسام الحيّة وأن الدماء يجب أن تتكوّن بالجراح أي أن نوعاً من الروح أو اللحم يتحوّل إلى مائعٍ أو مادةٍ سائلة»! زد على ذلك أن تعليلهم تدحضه الوقائع العملية فالناس الذين يحفرون أنفاقاً، سواء في أوقات الحصار أو بحثاً عن المعادن، قد يصادفون أنهاراً لم تجمع ماءها شيئاً فشيئاً (كما يقضي التعليل، أي إذا كان تكوينها يتمّ

في اللحظة التي تثغر الأرض) بل تتدفق فجأة باندفاع كمّيات عظيمة من الماء بعنف ثم يقف التدفّق فجأة كما يُرى كثيراً عند قطع صخرةٍ. ولنترك هذه المسألة.

ظل إميليوس ساكناً عدة أيام. وقِيل لم يحدث أن جيشين عظيمين كانا متقاربين بهذه الدرجة، هادئين ساكنين بهذه الدرجة. وعندما استنفد تجربة كل شيء، وقلّب وجوه النظر في كل الأنباء والمعلومات، أُبلغ بوجود ممرّ واحدٍ فقط تُرك دون حراسة[٢٣] يقع في پيرّبيا Perrhabia بالقرب من بثيوم وپترا. وتغلّب فيه عامل الأمل بترك العدوّ هذا الموضع من غير دفاع على عامل التخوّف من وعورة الممرّ وصعوبة اجتيازه فأمر بعقد مجلس حربٍ للتداول في الأمر. وكان من بين الحاضرين سكيپيو الملقّب «ناسيكا» Nasica ختن سكيپيو أفريقانوس، (نال أعظم النفود فيما بعد في مجلس الشيوخ)، وعرض نفسه لقيادة الجيش الذي تقرّر إرساله للإحاطة بقوّات العدوّ. وتلاه فابيوس ماكسيموس ابن إميليوس البكر وكان في شرخ شبابه، فأشاع اندفاعه وحماسته الشديدين السرور في نفس أبيه، وأمرهما على قطعات عسكرية اختلف في عددها پوليبيوس Polybius مع ما ذكره لنا ناسيكا نفسه. قال هذا في رسالة مقتضبة بعثها إلى أحد الملوك[٢٤] بخصوص الحملة أن الجيش الذي قاده كان يضمّ ثلاثة آلاف مقاتل إيطالي غير روماني، وأن ميمنته قِوامها خمسة آلاف، وألحق به مائة وعشرين فارساً مع سريّة مختلطة قِوامها مائتان من التراقيين والكريتيين أرسلها هرپالوس Harpalus.

اتجه ناسيكا بقطعاته نحو البحر وعسكر بالقرب من «هراقليوم»[٢٥]، موهماً العدوّ بأنه يريد ركوب البحر والإقلاع للإحاطة بالعدوّ من جهة البحر. وعندما أنهى الجنود وجبة عشائهم وخيّم الظلام، جمع الضبّاط وأبلغهم بالخطة الأصلية. وانطلق يسري طوال الليل في الاتجاه المضّاد مبتعداً عن البحر حتى بلغ به السُّرى إلى موضع يشرف عليه معبد أپوللو وفيه أراح عسكره برهةً.

---

(٢٣) من تاجرين في پيرينيا في تساليا [ليفي ٤٤: ٣٥] وپيثيوم أو بيثوم هي مدينة في مقدونيا، وپترا قلعةٌ في البلاد نفسها.

(٢٤) لا وجود لا لرسالة ناسِكا ولا لتقرير پوليبيوس.

(٢٥) أذاع القنصل أنهم سيستقلّون الأسطول الذي كان قد أُمر بالإرساء بعيداً عن الساحل بقيادة البريتور أوكتافيوس، موهماً العدو بأنه يقصد اجتياح سواحل مقدونيا. لكن القصد الحقيقي كان إخراج پرسيوس من معسكره [ليفي ٤٤: ٣٥]. وهذه المدينة «هراكليوم» هي واحدة من أكثر من أربعين مدينة بهذا الاسم منتشرة في أرجاء العالم القديم ـ تقع في لنسنتس وهو من أقاليم مقدونيا ولا تبعد كثيراً عن غرب خليج (ثيرما).

يرتفع جبل الأولمپ في هذا الموضع إلى ما يزيد عن عشرة فُرلُنغات (حوالي ألفي يارد) كما يظهر من أبيات نظمها الشخص الذي قاس ارتفاعه وإليه هي:

«إن قِمّة الأولمپ من الموقع الذي يقوم عليه
معبد أپوللو، يبلغ ارتفاعها عشرة فرلنغات كاملة
بخطٍ عمودي. وقد تزيد عن عشرة فُرلنغات
بمائة قدمٍ إلاّ أربعاً. وإن گزيناغوراس
Xenagoras ابن يوميوس Eumelus بلغ هذا الموضع
فإلى الملتقى أيها الملك، وقُمْ بحجّك المبرور»

يقول علماء الهندسة أن ليس بين الجبال ما يزيد ارتفاعه عن ألفي ياردٍ وليس بين البحار ما ينزل عمقه إلى أكثر من هذه المسافة، ومع هذا فيبدو أن كزيناغوراس لم يقم بقياساته تلك اعتباطاً وإنما بحسب قواعد العلم وبآلات وافية بالمرام.

هنا قضى ناسيكا ليلته، وكان أحد الجنود الكريتيين قد فرّ في أثناء المسيرة ولجأ إلى العدوّ، وهناك أفضى إلى پرسيوس بفحوى الخطة التي رسمها الرومان لتطويقهم. وكان پرسيوس خالي الذهن تماماً من احتمال قيام إميليوس بمثل هذه المحاولة، وهو جاثم لا يحرّك ساكناً أمامه، فصعق للنبأ. إلاّ أنه لم يضع جيشه في الإنذار ولم يقم بتحريكه. بل اكتفى الشّعاب والمسالك وتثبيت أقدامه فيها. ويحدثنا پوليبيوس أن الرومان فاجأوا هؤلاء وهم نائمون. لكن ناسيكا يقول إن المعركة كانت ضارية والصدام دموياً على القمة، وإنه هو نفسه نازل تراقياً من المرتزقة وأصماه بطعنة رمح نجلاء فأرداه قتيلاً، وإن العدوّ أُرغم على التقهقر وألقى بمعاطفه وفرّ فراراً مخزياً تاركاً سلاحه ودروعه في الميدان. واستأنف ناسيكا تقدّمه وهبط بالجيش سالماً إلى السهل.

وملك الخوف پرسيوس بعد هذه الموقعة، وهبطت آماله إلى الحضيض فبادر إلى نقل معسكره بأسرع ما أمكنه. وكان عليه أن يختار أحد أمرين، إما التوقف أمام [پيدنا Pydna] وهذا يؤدّي به إلى المخاطرة بمعركةٍ حتماً، وإمّا أن يقوم بتوزيع قطعات جيشه على المدن المقدونية وينتظر قدوم الحربِ إلى عُقر داره. حربٌ إن وجدت سبيلها إلى بلاده صعب الخلاص منها دون سفك دماءٍ ثرّة وهلال أنفس كثيرة. إلا أن ما أحيا في نفسه الشجاعة هو قول أصدقائه له بأنه متفوّق على العدوّ عددياً. وإن عزيمة الرجال تشتدّ وبسالتهم تتضاعف لمّا يدافعون عن أولادهم وزوجاتهم، سيّما إذا كانت بمحضر ومرأى من ملكهم المعرّض للأخطار نفسها. فضرب خيامه حيث هو وأخذ يتأهّب للقتال. فاستطلع الأرض ووزّع القيادات والأوامر كأنما قرّر أن يحمل على الرومان حالما تبدو له

طلائعهم. وكان الموقع صالحاً لحركات الفلانكس التعبوية ومناوراتها، لأنها تتطلب أرضاً مستوية، وميداناً خالياً من العوائق. وكان فيها أيضاً آكام لا تُحصى تتصل إحداها بالأخرى وتفيد في حركات الكرّ والفرّ للقطعات الخفيفة والاشتباكات الجانبية، ويخترق وسطها أيسون Aeson وليوكس Leucus وهما نهران قليلا العمق في ذلك الوقت من آخر الصيف، إلاّ أنّه كان من المحتمل أن يخلقا للرومان بعض المتاعب.

في اللحظة التي تنضمّ فيها إميليوس إلى ناسيكا اتخذا نسق المعركة وتقدما نحو العدوّ. واستعرض إميليوس صفوفه المنتظمة في أسلوبٍ رائع فلم يسعه إلاّ الإعجاب والدهشة وأصدر أمره بالوقوف. وأخذ يفكّر في الأمر مليّاً. وراح صغار الضبّاط المتحمّسين للقتال يلحّون عليه وهم راكبون إلى جانبه ببدء المعركة فوراً. وكان ناسيكا المنتشي بخمرة نجاحه الأخير في الأولمپ أشدّهم إلحاحاً ولجاجة. فردّ عليه إميليوس باسماً:

«كذلك كنت أفعل وأنا في مثل سنّك يا صديقي، إلاّ أن الانتصارات المتعددة هدتني إلى السُّبل التي يمكن أن تؤدّي بالرجال إلى الهزيمة، وهي التي تمنعني من إلقاء الجنود في خضمّ المعركة وقد أعياهم السير الطويل(٢٦) ضد جيش مستعدٍّ منتظم الصفوف».

ثم إنه أصدر أمراً بأن تنظم طلائع الجيش وقطعاته التي يشاهدها العدوّ بنسق المعركة لتبدو وكأنها مستعدة للصولة. أما الباقي فعليه أن يُخندق ويقيم التحكيمات لحماية المعسكر حتى ينفسح مجال للمؤخّرة القصوى أن تدور على نفسها شيئاً فشيئاً وتنسحب بالتعاقب وتحلّ صفوفها بحيث لا يشعر بها العدوّ. وبهذا تتمّ عسكرة الجيش دونما ضجّة أو عائق.

عندما جَنّ الليل وأنهى الجنود وجبة العشاء وتهيّأوا للراحة والنوم، زحف الظلام فجأة على وجه القمر وكان بدراً تمّاً، مرتفعاً في كبد السماء، وراح نوره يتضاءل بالتدريج متخذاً ألواناً مختلفة، ثم حُجب تماماً بخسوف كلّي. فأنشأ الرومان على جاري عادتهم يقرعون الأواني النحاسية ويرفعون المشاعل والأخشاب الملتهبة في الهواء، ليحتثوا النورإليه(٢٧). وكان ردّ الفعل عند المقدونيين عكس ذلك تماماً فقد

---

(٢٦) ليفي [٤٤: ٣٦-٣٨] انظر خطبة ناسِكا وجوابيْ ايميليوس عنها (إحداها آنيّة، والثانية صدرت في اليوم التالي) فضلاً عن تفاصيل أخرى.

(٢٧) يخبرنا ليفي أن سولپيچيوس گاللوس وهو تريبيون روماني قد تنبّأ بالخسوف وأخبر القنصل ثم =

استولى عليهم ذهولٌ ورعب عامّ، وسرت الشائعة في المعسكر من أقصاه إلى أدناه بأن هذا الخسوف هو نذير سوء حتى للملك نفسه. أمّا إميليوس فقد كان خبيراً في هذه الظاهرة غير جاهل بأسباب هذا الشذوذ في الطبيعة، فحقيقة الأمر: أن القمر في مسراه يدخل ظِلّ الأرض في دورة معيّنة من دورات الزمن ويظلّ مستتراً حتى يجتاز منطقة الظلام، وبعدها تلقي الشمس عليه نورها فيشع ضياءً. وكان إميليوس إنساناً ورعاً تقيّاً حريصاً على مراسم القرابين، واقفاً على علوم النبوءات، فما إن لحظ القمر يستعيد نوره حتى قرّب له إحدى عشرة بقرة من الأبكار، وعند انبلاج الفجر ضحّى بعشرين منها متعاقبة للربّ هرقل دون أن يظهر ما يشير إلى قبوله الأضاحي. وعندما قدّم القربان الحادي والعشرين وردت الإشارة بأن النصر سيكون حليف من يقف موقف الدفاع. فنذر إميليوس قُرباناً عظيماً عمومياً لـ: «هيكاتومب» Hecatomb وألعاباً رسميّة لهرقل. وأمر رؤساء العسكر بالاستعداد للمعركة، وقدّر لهم أن تبدأ عندما تتحوّل الشمس إلى الغرب وتميل إلى المغيب لئلا تبهر أشعّتها عيون الجنود إن دارت رحى المعركة صباحاً. أما هو فقد أمضى تلك الفترة في خيمته التي كانت مفتوحة نحو السهل حيث معسكر العدوّ.

يذكر بعض المؤرخين أن إميليوس استخدم حلول المساء لحمل العدوّ على المبادأة بالقتال حتى يتخذ هو موقف الدفاع تحقيقاً للنبوءة. فأطلق حصاناً بدون سرج نحو العدوّ وأرسل وراءه بعض الرومان ليتظاهروا بطرده، وهكذا بدأت المعركة. يقول آخرون إن الثراقيين هاجموا بقيادة المدعو ألكساندر قطار حيوانات نقلية للرومان كانت تحمل علفاً للمعسكر، فدفع إميليوس بسبعمائة من الليغوريين لإسناد القافلة. وبدأت النجدات تتوالى تباعاً على الفريقين، حتى آل الأمر إلى التحام الجيشين الرئيسين.

وكالربّان البعيد النظر، استنتج إميليوس بفكره الثاقب مبلغ ما في العاصفة القادمة من هولٍ، لشدّة اندفاع الجيشين والموجات التي كانت تتعاقب على الميدان، فخرج من خيمته ليمرّ بين صفوف فِرقه مشجّعاً ومحمّساً. كما تبيّن ناسيكا الذي اندمج بالمشتبكين وهو على جواده أن قوات العدوّ كلها قد دخلت ميدان القتال وهي توشك على الالتهام. برز الثراقيون في المقدمة أوّلاً، وأوقع منظرهم الهلع في نفسه كما أخبرنا

= أنهى الأمر للجيش بإذن منه. ولذلك لم تبد الظاهرة مفاجأة للجيش الروماني ولم تُشِع الخوف فيهم كما هو شأن الناس إزاء هذه الظاهرة. وبهذا زادت ثقة الجنود الرومان بضباطهم ودخلوا المعركة وهم في أفضل حالٍ نفسيّ.

بشخصه. فقد كانوا ضِخاماً عُتُلاً يحملون تروساً صقيلة كالمرآة تبرق بريقاً، ويشتملون بمعاطف سوداء، وتكسو سيقانهم طماقات معدنيّة واقية، وقد أردفوا وهم يتقدّمون رماحهم المستقيمة المثقلة بالحديد، على أكتافهم اليمنى. وأعقبهم الجنود المرتزقة يحملون مختلف أنواع الأسلحة، مختلطين بمحاربي بايونيا Paeonia. ثم تلتهم صفوة من المقدونيين، تم انتقاؤها ممن عرفوا بالقوة والشجاعة وعنفوان الشباب تلمع أجسامهم بما عليها من الدروع الصقيلة وتبهر العيون معاطفها الأرجوانية. وفيما كان هؤلاء يتخذون مواقعهم تحرّكت من المعسكر على أثرهم القطعات المعروفة باسم «التروس البرونزية» وهي معبّأة وفق نظام الفلانكس حتى بدا السهل كله متوهّجاً بالنحاس المجلوّ ساطعاً بالفولاذ المصقول، وردّدت الآكام صدى هتافهم يحمّسون به بعضهم بعضاً، ويحثونهم على القتال. وصالوا صولة سريعة جريئة بترتيبهم هذا، فوقع أوّل القتلى منهم على مسافة لا تبعد عن معسكر الرومان أكثر من أربعمائة يارد. ونشب القتال حامياً، وبرز إميليوس إلى الميدان ليجد أن الفصائل المقدونية المتقدمة قد أتمّت غرز أسنّة رماحها في تروس الرومان وسمّرتهم وحالت دونهم ودون إعمال سيوفهم فيهم، لما رأى ذلك، ولما شاهد بقيّة المقدونيين يتناولون درقاتهم المعلّقة في أكتافهم اليسرى ويضعونها أمامهم درءاً ثم يوجّهون أسنّة حرابهم إلى تروس أعدائهم، راعته قوة هذا الجدار من التروس المنيعة ومظاهر الالتحام في تلك الجبهة الزاخرة بالسلاح فانتابه قلقٌ وذهول. لم تقع عينه من قبل على شيء كهذا ولقد ظلّ المنظر راسخاً في ذهنه بعد المعركة، كثيراً ما تحدث عنه ووصف الشعور الذي تملّكه وقتئذ. وعلى أية حالٍ نفض عن نفسه الوجل، وانطلق على صهوة جواده يجول في صفوف جيشه دون دِرع يحمي صدره، ولا خَوذة تقي رأسه والهدوء والبشاشة يضيئان أساريره.

ويحدّثنا پوليبيوس أن ما جرى في معسكر المقدونيين كان خلاف ما فعله إميليوس. إذ ما إن حمي وطيس المعركة حتى سارع ملك المقدونيين في الابتعاد بدناءة وخِسّة مُيمِّماً شطر مدينة پيدنا[٢٨] بحجة تقديم قربان لهرقل، ذلك الإله الذي أنف عن قبول قرابين الجبناء التافهة وترفّع عن تحقيق شروط النذور التي لا ترضى السماء عنها. فالحق يُقال إنه لضربٌ من المحال أن يقبل الأرباب بفوز الخائر بالجائزة، أو انتصار المنسلّ من المعركة أو نجاح من لم يتعبه الوصول إلى النجاح، أو أن يظفر الأشرار بما

(٢٨) پيدنا هي بلدة من مقاطعة پيريا في إقليم مقدونيا قرب رأس ثيرما. أمّا پللاّ التي هرب إليها فيما بعد فهي تبعد عنها بمسافة قليلة إلى الشمال وقد اشتهرت بكونها مسقط رأس الإسكندر الكبير.

يتمنّون. ولقد استجيب دعاء إميليوس، لأنه صلّى للنصر والسيف في يده، وقاتل وهو يطلب عون الآلهة.

وثمّ مؤرّخ ما يُدعى پوسيدونيوس Posidonius[٢٩] الذي يزعم أنه عاش في ذلك الوقت، كان قد دوّن تاريخاً مفصّلاً لپرسيوس، وشهد تلك الأحداث وضرب سهماً فيها. هذا المؤرخ ينفي ترك پرسيوس الميدان خوفاً أو بحجّة تقديم القرابين ويقول إنه أصيب بضربة من ساق حصان في فخذه قبل المعركة بيوم واحد، وكانت إصابة خطيرة أعجزته تماماً، إلاّ أنه أمر أن يؤتى له بأحد خيول الركوب وبرز إلى الميدان وهو أعزل رغم إلحاح أصدقائه جميعاً؛ وبات هدفاً لما لا يُحصى من الحراب يُرشَق بها من كل جهة، فأخطأته جميعاً إلاّ واحداً مرق من جنبه الأيسر بقوة عظيمة فمزّق ثيابه وأحدث في لحمه جرحاً سطحياً ظلّت ندبته مدة طويلة. هذا ما أثبته پوسيدونيوس في صدر الدفاع عن پرسيوس.

عجِز الرومان عن فتح ثغرة في الفلانكس. فما كان من ساليوس Salius أحد قوّاد البلغنيين Pelignians إلاّ أن اختطف علم كتيبته وقذف به في وسط الأعداء. (عند الإيطاليين كان يُعتبر التخلّي عن الراية عاراً كبيراً وثلماً للشرف مهما كانت الظروف)، فاندفع البليغنيون بجنون ووحشية لاستعادتها، ووقعت مذبحة مروِّعة في صفوف الجانبين. هؤلاء كانوا ينزلون الضربات بسيوفهم على قنا العدوّ ليقطعوها تقطيعاً أو يعملون على دفعهم إلى الخلف بتروسهم أو إزاحتهم إلى جانب بأيديهم. وكان المقدونيون قابضين على قنطارياتهم الطويلة بكلتا اليدين يخرقون بأسنّتها أجسام من يعترض سبيلها فتثقب دروعهم. وليس ثم دِرعٌ أو زَرد يصمد لهذا السلاح. لقد سال البليغينون والمارسيون Marrucians[٣٠] إلى حتوفهم الأكيدة دون اعتبارٍ بشيء وبحالة من الهياج الوحشي لا توصف فخرّوا صرعى في ساحة الوغى. أُبيد أول خطٍ منهم إبادة تامّة واضطر من يليهم إلى التقهقر بشكل لا يمكن وصفه بالهزيمة. وانسحبوا إلى أكمة أولوكروس Olocrus.

يقول پوسيدونيوس، لما شاهد إميليوس ما حصل مزّق ثوبه عن جسمه، وهمَّ

---

(٢٩) قد يكون المقصود پوسيدونيوس الأبامي الذي كتب تكملة لتاريخ پوليبيو. إذ إنه كان في روما زمن قنصلية مارچللوس وبعد هذه المعركة بمائة وثمانين عاماً. وقد اعتبره پلوتارخ على ما يظهر مؤرّخاً متطفّلاً أو قليل الأهمية عندما ذكره بعبارة تنمّ عن ذلك.

(٣٠) من هذه الأقوام الإيطالية كان المارسيون أول من سكن هناك. وأصلهم من السابين وقد عاش هؤلاء في منطقةٍ مُعيّنة على ساحل البحر الأدرياتي.

بعض جنوده بالفرار، وأحجم الباقي عن الاشتباك مع الفلانكس، فقد أصابهم يأس من فتح ثغرة فيه والتوغّل في داخله، فلقد كان أيّم الحق سدّاً منيعاً لا يمكن الدنوّ منه ولا اقتحامه بخط قنطارياته الطويلة متلاحماً متقارباً يواجه المهاجمين أنّى تولّوا، على أن طبيعة الأرض المتعادية لم تكن تسمح للفلانكس بنشر جبهة طويلة تظلّ فيها التروس متلاحمةً آخذاً بعضها بحُجْز بعضٍ على امتدادها. ولاحت لأسيليوس ثُغرات وفراغات كثيرة فيه واستفاد مما يحصل عادة في اشتباكات الجيوش الكبيرة حيث يقوم المحاربون بمناورات وجهودٍ متباينة. ففي موضع يشتد ضغطهم على العدوّ ويستميتون في التقدم، وفي موضع آخر يتقهقرون. إذ أسرع إلى حلّ صفوف فرقهم وأعادهم إلى تنظيم الكوهورت Cohort الروماني المعتاد، وأصدر إليهم أمراً بأن يحملوا حملات متقطعة وبفترات متتالية هدفهم منها فتح ثغرات في جبهة العدوّ. وحظر عليهم أن يقوموا بهجوم شامل عليه بكلّ القوات، بل أن يشتبكوا معه في معارك جانبية ثانوية. أبلغ إميليوس هذا الأمر إلى قوّاد الفِرق، فنشروها بدورهم على الجنود. ثم بدأوا يطبّقون الخطّة فما يكادون يلجون الثغرات ويتخللون الفراغات ويفصلون كتائب العدوّ بعضها عن بعض حتى يبدأوا بهجماتهم الموضعية، بعضهم يتعرّض له من الجوانب حيث يكون مكشوفاً لا يستره سلاح، وبعضهم يلتفّ عليه ليهاجمه من الخلف. وبهذه الخطّة نجحوا في تحطيم الفلانكس المقدوني وكانت قوّته تكمن في العمل الموحّد والوحدة المتلاحمة. وآلت المعركة العامة بالنتيجة إلى قتال الفرد للفرد، أو الفصائل الصغيرة للفصائل الصغيرة حيث ضربات سيوف المقدونيين القصيرة لا تنال مأرباً من تروس الرومان الطويلة، في حين لا تصمد دروعهم الخفيفة لطعنات سيوف الرومان القوية الثقيلة، فكانت تخترقها وتنفذ إلى الأبدان. ولا نطيل القول، فما لبث المقدونيون أن انكفأوا على الأعقاب وولّوا الأدبار.

في زخم القتال سقط سيف ماركوس ختن إميليوس وابن كاتو من يده وكان قد أبلى خير بلاء وأظهر من الشجاعة ما لا زيادة عليه، فحزّ ذلك في نفسه، ولا غُرو فهو شاب فائر الدم وابن رجل شهير، رُبّي على أسمى المبادئ الخلقية وأشدّها صرامة، فكانت تدفعه دائماً إلى إبداء الشجاعة التي تجعله قُدوةً. ولهذا هانت الدنيا في عينه وعَدّ حياته عبئاً عليه إن عاش ليرى أعداءه يغنمون سلاحه فأخذ يركض هنا وهناك، مستوضحاً الوجوه وكلّما تبيّن له في أحدها صديقاً أو زميلاً أنهى إليه بمصيبته ورجا منه العون، حتى اجتمع له عدد كبير من الشجعان فشقّوا طريقهم كتلة واحدة وهو في مقدّمتهم بين صفوف جيشهم وحملوا على الموقع فهزموا من فيه بعد معركة ضارية

وكثير من الجرحى وأكثر منهم قتلى، وأتموا احتلاله وانطلقوا يبحثون فيه عن سيف ماركوس حتى استخلصوه من أكداس الأسلحة والقتلى. فطاروا فرحاً بنجاحهم وارتفعت أصواتهم بنشيد النصر، ثم واصلوا هجومهم وقد تضاعفت حماستهم على من بقي صامداً في مواقع العدوّ. أخيراً تمّ القضاء على ثلاثة آلاف مقدوني ثبتوا إلى آخر لحظة وواصلوا القتال بشجاعة مذهلة حتى النهاية. ووقعت مقتلة عظيمة بالفارّين أيضاً حتى امتلأ السهل وسفوح التلال بجثثهم وصبغت الدماء مياه نهر ليوكس الذي لم يعبره الرومان إلا في اليوم التالي للمعركة. وقِيل إنه قُتل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود العدوّ. في حين يذكر پوسيدنيوس أن قتلى الرومان لم يزد عن المائة، ويقول ناسيكا إنه ثمانون ليس غير. لقد تقرر مصير هذه المعركة في فترة وجيزة جداً على سعتها وأهميّتها وضخامة الجيوش التي خاضتها. فقد بدأ الاشتباك في الساعة الثالثة بعد الظهر وما إن أزفت الرابعة حتى كان العدوّ يولي الأدبار. وقضى المنتصرون بقيّة النهار في مطاردة الفارّين فقطعوا في هذا حوالي ثلاثة عشر وأربعة عشر ميلاً. ولما ثابوا إلى المعسكر كان الليل قد تقدّم بهم كثيراً. واستقبلهم خدمهم بالمشاعل وجاؤوا بهم إلى خيامهم التي كانت مضاءة ومزدانة بأكاليل الغار واللبلاب[٣١]، وهم يهتفون لهم ويهلّلون فرحين. لكنّ القائد العامّ كان حزيناً لأن أصغر ابنيه اللذين جاءا معه إلى الحرب لم يعد مع المنتصرين. كان أحبّ أبنائه إلى قلبه لعلمه بتفوّقه على كل أخوته في الشجاعة والخصال الحميدة، فهو جريء، ركّاب خطر، طمّاح إلى المجد، ما زال في مطلع شبابه يافعاً[٣٢]. ولم يكن لإميليوس من سبيل إلاّ أن يعتبره من الهالكين في حين أن قِلّة تجربته في الحرب جعلته يتوغّل كثيراً في صفوف الأعداء ويتأخر. ترك الجنود عشاءهم وحملوا المشاعل والمصابيح وتوجّه فريق إلى خيمة إميليوس بينما خرج فريق إلى الخنادق يبحثون عنه بين قتلى أوّل الهجوم. وران الأسى والوجوم على المعسكر كلّه وضجّ السهل بأصوات الرجال وهي تنادي سكيپيو. فهو على يفاعته موضع حبّ وإعجاب الكلّ لأنه بزّ أقرانه بأخلاقه الرفيعة التي كانت تأهّله للقيادة

---

(٣١) الغار هو النبات المقدس عند أپوللو واللبلاب هو النبات المقدس عند باخوس. إن باخوس الذي يخلط أحياناً بينه وبين هراقليوس كان محارباً. وإننا لنقرأ في الأساطير عن حملاته في الهند. إلاّ أن العادة التي درج عليها الرومان بتزيين خِيَم المنتصرين بنبات اللبلاب ربما نشأت من سبب أكثر بساطة. يقول يوليوس قيصر إنه وجد في معسكر پومپي خيمة لنتولُس وغيره من القادة مُزدانة باللبلاب إذ كانوا قد وثّقوا أنفسهم بالنصر.

(٣٢) كان يبلغ السابعة عشرة من العمر إذ ذاك.

والمشورة. وانصرم الليل أغلبه وكاد اليأس يستولي على الباحثين، وإذا به يعود والدماء الجديدة تعلوه. لقد أفرط في استثماره نصره الأول وتمادى في الاستمتاع بفوزه مثل كلب أصيل. ذلكم هو سكيبيو الذي دوّخ قرطاجنة ونومانتيا Numantia وقوّضهما، وكان بلا مماراةٍ أعظم من يستحق الإجلال والتعظيم بين كلّ الرومان، وأكبرهم سلطاناً ومكانة بينهم. هكذا أرجأت آلهة الحظّ استياءها وغيرتها من النجاح العظيم إلى مناسبة أخرى وتركت إميليوس يستمتع بهذا النصر دون أن تشوبه شائبة أو يخالطه أذى.

أما عن برسيوس فقد بادر إلى الفرار من بيدنا بخيّالته التي لم تلحقها خسارة تذكر، وبلغ بللاً Pella. وهنا انضمّت إليه فلول الرجّالة الذين أخذوا ينحون باللائمة والتقريع على الخيّالة ويصمونها بالخيانة والجبن، وامتدّت أيديهم لانتزاعهم من فوق سروجهم وإلقائهم على الأرض فتشابكوا بالأيدي وتضاربوا. وخشي برسيوس عاقبة الخلاف فحاد في سيره عن الطريق العام ونزع عنه ثياب الأرجوان لئلا تُعرف هويّته، ووضعها أمامه ونزع تاجه وحمله بيده ثم نزل عن صهوة جواده ليسهل عليه تبادل الكلام مع أتباعه، وظلّ يقوده من الزمام. ثم توقف أحد الجنود متظاهراً بشدّ سِير نعله، وتبعه آخر متعلّلاً بإرواء حصانه، واحتج ثالث بشرب الماء، وهكذا بدأوا ينفضّون من حوله متباطئين متسكّعين بالتدريج. ولم يكن يدفعهم إلى هذا خوفهم من العدو قدر ما كانوا يخشون بطش برسيوس، فقد دفعه اضطرابه واختلال عقله بسبب ما أصابه إلى محاولة تبرئة نفسه بإلقاء وزر الهزيمة على كل شخص. وبلغ مدينة بللا ليلاً فقصده يوكتوس Euctus ويودئيوس Edaeus أمينا بيت المال وأثارا سخطه بتعدادهما له أخطاءه الماضية، وبالجراءة التي أظهراها، واللوم الذي اختارا له وقتاً غير مناسبٍ فطعنهما بخنجره وقتلهما. وبعد هذا تخلّى عنه الجميع خلا إيفاندر الكريتي، وأرخيديموس الإيتولي ونيون البويوسي. أما من الجنود العاديين فلم يتخلّف غير الكريتيين لا بدافع من إخلاصٍ بل لطمع في ثروته الطائلة التي حرصوا عليها كما يحرص النحل على قفيره. فوزّع عليهم منها بعض الأقداح والأواني الذهبية والفضّية وغيرها مما بلغت قيمته خمسين تالنتاً[٣٣]. لكن عندما خرج من مدينة أمفيبوليس Amphipolis إلى غاليبسوس Galipsus[٣٤] وهدأت مخاوفه بعض الشيء عاد إليه داؤه القديم المعروف «الجشع» فراح يتظلم إلى أصدقائه قائلاً إنه اضطرّ بحكم الظروف القاسية إلى النزول

(٣٣) كان يخشى أن يدفع بها إليهم لئلا يثير المقدونيون حقد الآخرين [ليفي المرجع نفسه ٤٥].
(٣٤) في إحدى المخطوطات كتبت Alpsus.

للكريتيين عمّا يخصّ الإسكندر الكبير، وأخذ يتوسّل إلى من كانت في حوزتهم والدموع تجول في عينيه بأن يسمحوا له بافتدائها بالمال. وأدرك الخبيرون بنفسيّته أنه يريد أن يلعب بالكريتي على الكريتيين. أما من صدقهُ وأعاد إليه فقد خرج بصفقة المغبون، إذ لم يدفع لهم شيئاً مما وعدهم. بل تمكن بالحيلة أن يبتزّ من أصدقائه ثلاثين تالنتاً (كلّه وقع في يد العدوّ بعد زمن وجيز). ثم إنه أبحر بما معه من أموال إلى ساموثراكي Samothrace وهناك لجأ إلى معبد كاستور وپوللوكس[٣٥].

عُرف المقدونيون دائماً بحبّهم لملوكهم وشدّة إخلاصهم لهم. والآن بعد أن تحطّم قُطبهم الرئيس انهارت معنوياتهم وأعلنوا الطاعة لإميليوس، ومكّنوه من بلادهم في غضون يومين ليس غير. وهذا يؤيّد الرأي القائل بمحالفة الحظّ له على ما يبدو. إن العلامة السماوية التي نزلت عليه في أمفيلپوليس كانت من قبيل الخوارق الطبيعية.

فعندما كان يقرّب هناك وقبل بدء الشعائر المقدّسة نزل من السماء برقٌ على الهيكل بصورة مباغتة وأشعل النار في الخشب فأكمل حرق القربان. وعلى أية حال فإن أجلى المظاهر الخارقة للطبيعة التي حصلت بمشيئة من السماء يبدو من حكاية الإشاعة التي انتشرت في روما عن نصره. ففي اليوم الرابع لهزيمة پرسيوس في پيدنا وبينما كان أهالي روما يشاهدون سباق خيل[٣٦]، بدأت فجأة إشاعة من مدخل الملعب مؤدّاها أن إميليوس قد هزم پرسيوس في معركة عظيمة، وأنه يقوم الآن بإخضاع مقدونيا كلها لسلطانه. وسرى هذا النبأ بين الناس ليخلق فرحةً عامّة فتعالت الهتافات والتهليل، وضجّت المدينة به طوال اليوم. وعندما لم يتعيّن مصدر النبأ، وظهر أن كل شخص كان ينقله إلى الآخر على علاّته، صُرِف عنه النظر مؤقّتاً وأُسقط من الحساب إلى أن

---

(٣٥) حَمَل معه مبلغاً قدره (٢٠٠٠) تالنت. كان الخوف مستولياً على پرسيوس عند وصوله أمفيپولس لئلا يسلّمه الأهلون إلى الرومان. خرج يحمل فيليب الابن الوحيد الذي صحبه فصعد المنبر وحاول الكلام إلاّ أن العبرة خنقته ولم يسعفه اللسان بعد عدة محاولات فطلب من إيڤاندر أن يتكلم عنه إلاّ أن الأهالي الذين كانوا له من الكارهين رفضوا الاستماع إليه وهتفوا: «إذهب، اذهب لقد قرّ رأينا أن لا نعرّض أنفسنا وزوجاتنا وأطفالنا للخطر بسببكم، فالهرب الهرب واتركنا لعلنا ننال أفضل ما يمكن الحصول عليه من شروط الغالب». وكان إيڤاندر الشخصيّة الرئيسة في عملية اغتيال يومنيتس. وقد فتك پرسيوس بإيڤاندر بعد ذلك في ساموثراكي خشية أن يكشف دوره في الاغتيال.

(٣٦) ڤاليريوس ماكسيموس [١:٨، ١] يقول إن مصدر الإشاعة هو شخص يدعى ڤاتينيوس وهذا نقلها عن شابين يمتطيان جوادين أشهبين (كاستور وپوللوكس... طبعاً!).

وصلت الأخبار المؤيدة بعد أيام قليلة[٣٧]. فعُدّت الإشاعة الأولى من قبيل الخوارق، لاحتوائها على الواقع والحقيقة تحت مظاهر الخيال. وقِيل أيضاً إن أنباء المعركة التي جرت قرب نهر سارغا Sarga[٣٨] في إيطاليا انتقلت إلى الپلوپونيسوس، في اليوم بالذات. كذلك معركة الميديين في ميغال فقد وصلت أنباؤها إلى پلاطيا Plataea في فترة يوم واحد أيضاً. وعندما هزم الرومان أتباع تاركوين وحلفاءهم اللاتين شوهد في روما بعدها بقليل شخصان طويلا العامة مهيبا الطلعة زعما أنهما يحملان أنباءً من المعسكر، ورجح أنهما كاستور وپوللوكس. وكان أول حديث لهما قرب النافورة. فأبدى عجبه لما سمع منهما وقِيل إنهما ابتسما ومسّا لحية الرجل مسّاً رفيقاً فتحوّل شعرها من الأسود الفاحم إلى الأشقر الذهبي، وهذا ما أيّد صحّة أخبارهما. وأُلصق بالرجل لقب أهينوباربوس Ahenobarbus[٣٩]: أي ذا اللحية الصفراء. وفي زمننا هذا وقع حدث يجعل كل ما أتينا إلى ذكره قابلاً للتصديق. فعندما شقّ أنطونيوس عصا الطاعة على دوميتيان اعترى روما غمّ عظيم إذ توقّعت حروباً طاحنة تأتيها من ناحية جرمانيا وعلى حين غرّة سرت إشاعة النصر على أفواه الناس دفعة واحدة، دون أن يدري أحد مصدرها، وضجّت المدينة كلّها بأنباء تشير إلى مقتل أنطونيوس، وإبادة عسكره عن بكرة أبيه إلاّ شرذمة[٤٠]. وقوي الاعتقاد ورسخ في النفوس حتى أن عدداً كبيراً من الحكام أخذوا يقدّمون القرابين. وعندما حُقق عن المصدر ولم يُعثر عليه تضاءلت الإشاعة وأخذ كل امرئ يزيحها عن عاتقه ليلقيها على الآخر. وأخيراً ضاعت في الجمّ الغفير كأنما غيّبها بحر الأوقيانوس ولم يعد أحد يذكرها بكلمة في المدينة لأنها لم تجد حقيقة تدعمها. ومع هذا زحف دوميتيان بقواته إلى ميدان القتال، فالتقى بالسعاة القادمين وسلّموه رسائل تُنبئه بالنصر. وعند التأمّل وجِد أن ظهور الإشاعة كان يوافق اليوم الذي تحققت فيه الغلبة، مع العلم أن المسافة بين منطلق الإشاعة وميدان المعركة كانت تزيد عن ألفين وخمسمائة ميلٍ. في الواقع إن أموراً كهذه لا تجد لدى معاصرينا تعليلاً أو تفسيراً.

---

(٣٧) تأيد الأمر بوصول كوينتوس فابيوس ماكسيموس ابن إيميلوس، ولوكوللوس لينتولوس، وكوينتوس ميتللوس، الذين أرسلهم إيبلوس فبلغوا روما في اليوم العشرين الذي عقب المعركة.

(٣٨) في ماغناغريكيا وهي ليست بالبعيدة عن ريجيوم.

(٣٩) اسمه لوشيوس دوميتيوس ومن نسله نيرون الأمبراطور.

(٤٠) شبّت هذه الثورة في جرمانيا العليا في العام ٩٢ق.م.

ولنعد الآن إلى موضوعنا. وصل إلى ساموثراكي القائد الروماني كيينوس أوكتاڤيوس Cnaeus Octavius وألقى مراسي أسطوله تحتها. وسمح لپرسيوس أن يبقى متمتعاً بحق اللجوء إكراماً منه وإجلالاً للأرباب(٤١). إلاّ أنه اتخذ كل الاحتياطات للحيلولة دون هروبه بحراً. على أن پرسيوس لم يُقم وزناً بهذا وإنما اتصل بأورواندس Oroandes الكريتي وهو صاحب سفينة صغيرة، وأقنعه بأن ينقله هو وأمواله بحراً. وبرهن هذا على أنه نموذج صادق للكريتيين فقد نقل المال إلى السفينة وأوصى پرسيوس أن يكون هو وأولاده وأقرب خدمه وأكثرهم ضرورة مجتمعين على الرصيف القريب من معبد سيريس ليركبوا السفينة. لكن أورواندس أقلع بغنيمته من المال في مساء ذلك اليوم دون أن يأخذ پرسيوس. كان يكفي هذا بؤساً وعاراً أن يضطر إلى الهبوط هو وزوجه وأولاده من نافذة ضيّقة في الجدار وهم الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى الضيق أو الفرار. وها هو الآن يطلق الزفرات من قلبه الذي أثقله الألم والشقاء، عندما استوقفه أحدهم وهو يدور في أرجاء الساحل هائماً يبحث عن السفينة، وأبلغه أن أورواندس هو الآن في عرض البحر. كان الوقت فجراً، فلم يبقَ له أي أملٍ بالفرار(٤٢) وقفل راجعاً مع زوجه فبلغا الجدار ركضاً وإن كان الرومان قد لمحوهما قبل أن يصلوا بزمن. وكان هو نفسه قد وضع أولاده وديعةً عند إيون أخلص ندمائه في الماضي، وأحد الغادرين به في الحاضر. وهذا ما حمله بالدرجة الأولى على تسليم نفسه لأولئك الذين كان أولاده تحت رحمتهم (الحيوانات نفسها قد تُقدم على ذلك عندما ينزع منها صغارها). وكان قد وضع أكبر ثقته في ناسيكا فقصده ولم يجده هناك، فلم يسعه إلاّ أن يندب سوء حظه وأن يسلّم نفسه إلى أوكتاڤيوس بعد أن سُدّت أمامه كل السُّبل. وهنا تبيّن أنه مبتلى برذيلةٍ أحطّ من الجشع وأعني بها التهالك على الحياة، وكانت سبباً في حرمانه العطف وهو الشيء الوحيد الذي يأبى الحظ استلابه حتى من أحَطّ الناس وأعظمهم شرّاً. فقد طلب أن يؤخذ إلى إميليوس(٤٣)، فنهض هذا من مقعده وتقدّم

---

(٤١) كانت آلهة ساموثراكي تتمتع باحترام ومهابة خاصين عند سائر الأقدمين [ديودورس].

(٤٢) يقول ليڤي إنه أخفى نفسه في إحدى زوايا معبد كاستور وپوللوكس كي لا تلفت النظر.

(٤٣) ما إن صار الملك في أمفيڤولس تحت رحمة أوكتاڤيوس حتى وضعه في سفينة القيادة وحمّل كل أمواله وكنوزه ثم أرسل ساعياً سريعاً إلى إميليوس يعلمه بالأمر. فأرسل هذا توبيرو ختنه مع آخرين من عِلية القوم ووجهائهم لاستقبال پرسيوس. وكذلك أمر بنحر الذبائح وكأنه نال نصراً جديداً. وخرج كل من كان في المعسكر لمشاهدة الملك الأمير الذي توجّه وحيداً نحو خيمة إميليوس وهو مشتمل بمعطف أسود.

لاستقباله يحفّ به أصدقاؤه وأدمعت عيناه لمنظر رجل كبير المقام هوى إلى الحضيض عندما غضبت عليه الآلهة وعثر به حظّه. وهنا بدأ پرسيوس في أخزى موقف وأدعاه إلى الاشمئزاز، إذ ألقى بنفسه تحت قدمي إميليوس ذلك ولم يُطق سماعه وخزره بنظرات يشيع فيها الأسى والغضب وقال له:

«لماذا تُتعب نفسك أيّها الشقيّ في تبرئة الحظّ من أشدّ ملامك له بسلوكك هذا الذي يظهرك بمظهر المستحق لهذه النكبة ويجعل سعادتك الزائلة تبدو وكأنها أكثر مما تستحق، لإحالتك الحاضرة؟ ثم لماذا تحطّ من قيمة انتصاري وتجعل فتوحاتي تافهة بالكشف عن جُبنك والبرهنة على أن خصومتك تحطّ من قدر الرومان. إن البسالة المنكوبة تستدرّ الاحترام العظيم حتى من قلوب الأعداء، لكن الجبن، وإنْ لم يكن كثير النجاح، فإنّ الرومان لا يجابهونه إلاّ بالاحتقار».

ومع هذا فقد أنهضه ومدّ إليه يده، وأوصى توبيرو أن يبقيه عنده. ثم إنه دعا ولديه وختنيه، وطائفة من وجهاء الرومان الشبان إلى دخول خيمته معه. وظلّ جالساً مدة طويلة وهو مُطرق لا ينطق بحرفٍ حتى عجِبوا لأمره، وأخيراً راح يحدثهم عن الحظوظ وأحوال البشر فقال:

«مما قُدّر لذلك الذي يعلم جيداً بأنه بشر لا أكثر أن يعتزّ بنفسه ويُصعّر خده وهي في أحسن حالٍ من الرخاء والرفاه، وأن يتيه عجباً وخُيَلاء عندما يفتح مدينة أو بلاداً أو مملكة، لا أن يفكر في تغيّر حظّه هذا تفكيراً متّزناً. فعلى كل المحاربين أن يجدوا فيه عِبرة، ويتخذونه مثالاً لضعفٍ قد ينتابهم، ولاحتمال تعرّضهم للخطأ بصورة عامة، وأن يتعلّموا منه درساً وهو أن لا ثبات ولا دوام لحالٍ. وإلى كم يستطيع المرء أن يضمن السلامة لنفسه؟ في حين أن النصر والنجاح هو في مقدمة ما يوجب علينا التخوّف من انقلاب حظوظنا. وتأمُّلنا القليل في جوهر الأشياء، وملاحظتنا دوران المقادير السريع، وعُرضة أحوال المرء إلى التبدّل، يشعرنا بالترح ونحن في وسط الفرح العظيم. عندما ترون سليل الإسكندر نفسه الذي بلغ أعلى درجة من السلطان وحكم أعظم امبراطورية يوطأ بالأقدام في فترة من الزمن وجيزة، لا تزيد عن ساعة واحدة. عندما ترون ملكاً يحيطه جيش جرّار وما هي إلا لحظة ويتسلّم قوت حياته من أيدي المنتصرين عليه. أقول أيسعكم الإيمان بثبات وخلود ما نملكه في أيدينا من وجود ما يُدعى بتقلّبات الحظّ؟ كلاّ أيها الشبّان، دعوا جانباً كبرياءكم

الباطلة وزهوكم الفارغ بالنصر، واجلسوا جلسة التواضع ولا تحوّلوا أنظاركم عَمّا سيأتي به الزمن. وما كُتب لكم في لوح المستقبل يحمل أن يعكس ما قد يجعله غضب الآلهة الأخيرة نهايةً وختاماً لسعادتنا الحاضرة».

وقِيل إن إميليوس أسهب في هذا وتكلّم كثيراً، وبعدها صرف الشبّان فخرجوا وهم يشعرون باتّضاع كبير، وأن خُيَلاءهم وزهوهم قد استؤصلا من نفوسهم تماماً.

بعد هذا وزّع إميليوس قطعات جيشه على المقرّات في المدن ليصيبوا الراحة. وخرج هو في زيارة لبلاد الإغريق. وقضى هو أيضاً فترة راحة مفيدة مشرّفة له ذات طابعٍ إنساني لا تقلّ خطراً عن أعماله الحربية، فقد خفّف من ضيقة الناس أثناء رحلته وأصلح حكوماتهم ووزّع الهبات والعطايا على المحتاجين، من القمح والزيت وما شاكلها مما اكتظت به مستودعات الملك المغلوب. فقد قِيل إنه اختزن كميّات لم تنضب حتى بعد أن انتهى تحقيق جميع الطلبات وتوزيع كل الهِبات. ووجد في دلفي عموداً عظيم الجِرم مربّع الشكل من الرخام الأبيض أُعِدّ ليكون قاعدةً لتمثال الملك الذهبي، فأمر أن يُنصب فوقه تمثاله قائلاً إن العدل يقضي بأن يُخلي المغلوب مكانه للغالب. وذُكر أنه نطق في أولمپيا Olympia القول الذي سمعه الجميع: «إن فيدياس نحّت جوپتر [هوميرس]». وعندما وصل المفوّضون الرومان العشرة من روما[٤٤] أعاد إلى المقدونيين مدنهم وأراضيهم، ومنحهم حق العيش في حريّة يمارسون شرائعهم الخاصة دونما تدخّل، واكتفى باستيفاء غرامة للرومان قدرها مائة تالنت وهي ضعف ما كانوا يدفعونه لملوكهم. ثم إحياء مختلف حفلات التمثيل والألعاب الرياضية، وقدَّم القرابين للأرباب، وأقام الولائم وضروب الملاهي، وقد سُدّدت نفقاتها كلها من خزائن الملك. ولم يبخل بشيء من المال في إحيائها، وأظهر فيها مبلغ علمه بالمقامات وأماكن الضيوف في تلك المناسبات، وبأيّ أسلوب يستقبل كل واحدٍ وفقاً لمنزلته وقيمته. وأنجز ذلك بدقةٍ جميلة انتزعت الإعجاب من الإغريق فقد وجدوا أنه قوي الملاحظة فيما يتعلق بأصول الدعوات والحفلات، دقيق الذوق حتى في هذه الصغائر

(٤٤) هؤلاء الموفدون العشرة كانوا من درجة قنصل. وقد قدِموا لمساعدة إميليوس في وضع أسس لحكم جديد. وعن مهمتهم وأسمائهم انظر ليفي [٤٥: ١٧ و١٨]. لم يفهم الإغريق المقصود بالحرية التي جاءهم بها الرومان لا سيّما وقد اقترنت بغرامة مقدارها مائة تالنت! كما وجدوا تناقضاً في البيان نفسه فقد تحدث عن تركهم يمارسون تطبيق قوانينهم الخاصّة في حين فُرضت عليهم في الوقت عينه قوانين جديدة وأنذروا بفرض المزيد. وما كان يقلقهم أشدّ القلق هو تقطيع أوصال مملكتهم ووضع نهاية لوحدتهم الوطنية.

رغم انشغاله في الأمور العظيمة. ولم يكن بما يشينه أن يبدو هو نفسه بين كل هذه المظاهر الفخمة الرائعة أبهى المشاهد وأدعاها إلى الإعجاب ومصدر أعظم السرور لمدعوّيه. ولقد قال لأولئك الذين بدوا مشدوهين من اهتمامه ومواظبته: إن ما يظهره من دقّة في تنظيمه وليمةً لا يقلّ عما يظهره في تنظيم وإدارة جيش. والثاني منهما يجعله مرهوب الجانب في نظر العدو. والأول يجعل الوليمة مقبولة من الضيفان. ولم يكن ثناء الخلق على كرمه وسموّ روحه بأقلّ من ثنائهم على سجاياه وشجاعته. لم يُطق صبراً على المقادير العظيمة من الفضة والذهب التي كُدّست أكداساً في قصور الملك، ودفع بها إلى أيدي أمناء بيت المال الكويستورية Quaestor لتودع الخزانة العامة. وسمح فحسب لابنيه اللذين عُرفا بحبهما للعلم أن يستأثرا بكتب الملك. وعندما جرى توزيع جوائز البسالة النادرة منح إيليوس توبيرو ختنه إناءً ذهبياً يزن خمسة أرطال، وهذا هو توبيرو الذي نوّهنا سابقاً به، وقلنا إنه كان واحداً من ستة عشر قريباً يعيشون معاً في بيت واحدٍ ولا يملكون إلاّ حقلاً صغيراً. ولقد قِيل إنه الإناء الوحيد الذي دخل منزل آل «إيلي» ليس عن طريق الشراء بل المكافأة للشجاعة وتكريماً ولم يكونوا قبل هذا قد استعملوا ذهباً أو فضة لا هم ولا زوجاتهم.

بعد أن أعاد إميليوس الأمور إلى نصابها(٤٥) غادر اليونان. وفي مقدونيا نصح المقدونيين بألا يفرّطوا في الحرّية التي نالوها بمساعي الرومان وأن يحرصوا عليها بإطاعتهم القانون والمحافظة على وحدتهم وتماسكهم(٤٦). ثم إنه توجّه إلى إيبروس. وكان قد تسلّم أوامر من مجلس الشيوخ تقضي أن يمكّن جنوده الذين حاربوا پرسيوس تحت إمرته من نهب مدن تلك البلاد. ولكي ينجز تنفيذ الأمر بصورة مفاجئة ويأخذ السكان على حين غرّة، بعث يستقدم عشرة من رؤساء كل مدينة وعند حضورهم أمرهم أن يهيّئوا له كل ما يوجد في المنازل الخاصة والمعابد من الذهب والفضة ويأتوا به إليه في يوم حدّده لهم. وأرسلهم وبرفقة كل وفد نقيب [سنتوريون = قائد مائة] مع سرية

---

(٤٥) بنهاية هذه الإجراءات أمر بتنفيذ حكم الموت بـ«أندرونيكوس» من إتيوليا، وبـ«نيون» من بويوتيا فقد كانا صديقي پرسيوس دائماً ولم يتخلّيا عنه.

(٤٦) هذه الامتيازات التي حُبي بها المقدونيون من الرومان لم تكن بالأمر الفائق العادة. فقد قُسمت بلادهم إلى أربعة أقاليم وحُرّم بحكم القانون على أي شخصٍ أن يتزوّج أو يتاجر أو يبيع عقاراً لآخر ليس من سكنه للأجانب. وأوجب على كل نبلائهم وأطفال هؤلاء الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة أن ينقلوا فوراً إلى إيطاليا. كما وضعت السلطة العليا في سائر مقدونيا بأيدي شيوخ رومانيين معيّنين.

جنود بحجة التفتيش عن الذهب وتسلّمه. ولكن لما حلّ اليوم المتفق عليه هبّوا في كل المدن وانطلقوا لتنفيذ قرار النهب والسلب، وساقوا في ساعة واحدة مائة وخمسين ألف عبد رقيق من أهاليها. ونُهبت سبعون مدينة. على أن كلّ ما أعطي من هذا الخراب الشامل والدمار التام لم يكن ليزيد عن أحد عشر دراخما للجندي الواحد. وبعد هذا كان الناس يرتعدون من سماع كلمة إعلان حربٍ بعد أن عادت ثروة أمّة بكاملها بهذه الفائدة التافهة والربح الضئيل على كل فردٍ عند توزيعها.

بعد أن أنجز إميليوس هذا العمل، الذي كان يتنافى تماماً مع طبعه الرقيق وخُلقه السمح، انحدر إلى أوريكوس Oricus(٤٧) ومنها أركب جنوده السفن مبحراً إلى إيطاليا، ومخر عُباب التيبر على ظهر سفينة الملك، وهي ذات ستة عشر رصيف تجذيف. وكانت قد تزيّنت زينة مفرطة بغنائم الأسلحة وأقمشة الأرجوان والقِرمز. حتى إن الرومان المحتشدين على الضفاف لاستقباله أخذوا يتلمّظون مسبقاً بحلاوة موكب نصره القادم، وهم يرقبون سفينته تشق الماء متهاديةً ضدّ التيار. إلاّ أن الجنود الذين أثارت كنوز پرسيوس الجشع في نفوسهم ولم يحصلوا على ما توهّموه حقاً لهم كانوا يُبطنون سخطاً وحنقاً على إميليوس، وظهر سخطهم هذا على شكل شكوى من صرامة قيادته وطغيانه. وأشارت الدلائل إلى أنهم راغبون عن منحه موكب نصر. وعلم بوجهة نظر الجنود هذه سرفيوس غالبا Servius Galba عدوّ إميليوس، وكان يخدم تحت إمرته بمنصب [تريبيون]. فخرج يُعلن بكلّ جرأة أن إميليوس لا يستحق موكب نصر، ودخل بين الجنود يبذر الفتنة ويحرّض عليه فزاد من صدورهم عن إميليوس. وتمادى في هجومه بأن طلب من مفوّضي تريبيونات الشعب أن يسمحوا له بإرجاء سرد اتهاماته وحُججه إلى اليوم التالي لأن الساعات الأربع الباقية من النهار لا تكفي. لكنهم أبوا عليه ذلك وأمروه بالكلام فوراً دون تأجيل إن كان لديه شيء. فبدأ يلقي خطبةً طويلة عريضة ملأها بشتّى المفتريات وصنوف الملام حتى انتهى الوقت وزحف الظلام، ففضّ التريبيونات الاجتماع. واشتدت ثورة الجنود وأحدقوا بغالبا وعقدوا الخناصر على مؤامرة، وفي صباح اليوم الباكر حاصروا الكاپتول وهو الموضع الذي عيّنه التريبيونات لعقد الاجتماع الثاني.

وفي ساعة الصباح الأولى وضُعت قضيّة موكب النصر في التصويت، وباشرت القبيلة الأولى بالتصويت ضدّه فانتشر النبأ بين الأهالي حتى بلغ مجلس الشيوخ. كان

---

(٤٧) ميناء في مقدونيا.

الجمهور والحق يُقال شديد الألم لما يلاقيه إميليوس من نُكران وسوء معاملة، لكنّ هذا الألم لن يتعدّ حَدّ الكلام ولم يخلّف أثراً. واستنكر رؤساء المجلس هذا العمل ووصفوه بالحطّة والنذالة وأخذوا يحضون بعضهم بعضاً على وضع حَدٍ لتمرّد الجنود ووقاحتهم، وإلاّ فلن يلبثوا أن يخرجوا عن طَورهم، وإذ ذاك يتعذّر ضبطهم ويلجأون إلى أعمال العنف إذا ما تُرِكَ لهم أمر حرمان إميليوس من موكب النصر.

ثم إنهم ساروا بعدد كبير يشقّون لأنفسهم طريقاً بين الجموع الحاشدة إلى محل الاجتماع وطلبوا من «مفوّضي الشعب» تأجيل التصويت إلى أن يتكلّموا بما في ضميرهم أمام الشعب. فأوقف التصويت وبعد أن ساد الصمت نهض ماركوس سرڤيليوس Marcus Servilius الحائز درجة القنصل، وكان قد اشتهر بفتكه بثلاثة وعشرين خصماً تَحدّوه كلهم في معركة واحدةٍ، ووجه الكلام إلى الجمهور قائلاً:

«لقد وضح لي الآن أكثر من أي وقت مضى كم كان عزيزنا إميليوس پاولوس قائداً عظيماً، وإني لأعجب حقاً إذ أرى كيف استطاع تحقيق هذه الانتصارات العظيمة بجيش ساده التمرّد وركبته الحطّة والدناءة. كما أني لا أجد في نفسي قدراً من الدهشة يكفي شعباً فخر بالانتصارات على الإيلليريين والليغوريين وأبى الآن، حقداً وحسداً، أن يستمتع بمنظر الملك المقدوني يقاد إلى الأسر حيّاً بقوة الرومان وسؤددهم، ويخفّ به كل تراث فيليب وأمجاد الإسكندر. وأنتم الذين تقدّمتم إلى الأرباب بالقرابين فور سماعكم بأصغر إشاعة نصرٍ انتشرت في المدينة بمحض الصدفة، وتوجّهتم إليها بالدعاء ليكون النبأ حقيقياً، أليس غريباً منكم أن تخدعوا الآلهة وتحرموها الإكرام الواجب وتخدعوا أنفسكم بحرمانها فرصة النصر، بعد أن عاد القائد يحمل لكم فتوحاتٍ لا شكّ فيها ولا شُبهة؟ وكأني بكم لا تطيقون رؤية ثمرة مجهوده العسكري، أو كأني بكم عازمين على الصفح عن عدوكم! ومن هذين البديلين يجمل بكم أن تحرموه موكب النصر خير لكم من حبسه عنه حسداً له وحقداً! إلى هذا الحدّ بلغ بكم سوء النيّة، حتى تعيروا أُذناً صاغية لرجلٍ ليس في جسده الأملس الطريّ من فرط الراحة والعناية البيتيّة الزائدة أثر ما لندبةٍ حين يقف أمامنا هنا منتقصاً من قيمة جنرال ومطالباً بالحدّ من حقوقه، جنرال علّمته جراحنا كيف يحكم على بسالة القادة وجُبنهم»؟

قال هذا ونضا عنه ثوبه وعرض صدره العاري الذي ازدحمت فيه الندوب ثم دار

على عقبيه ليكشف عن أجزاء أخرى من جسمه جرت العادة سترها. ثم توجّه بالخطاب إلى غالبا قائلاً:

«لعلك تسخر بي لما أفخر به الآن أمام إخواني المواطنين؛ إني ما أُصبت بها إلاّ في مجال خدمتهم التي أثبتتني على صهوات الخيل ليلاً ونهاراً. ولكن، اذهب فاجمع الأصوات وأنا في إثرك، وكن منتبهاً إلى الوضيع وناكر الجميل، وإلى من آثر الملق والمداهنة على إطاعة أمر قائده».

قيل إن هذه الخطبة أفحمت الخصوم وألجمت ألسِنَة الجنود، وقلبت آراءهم رأساً على عقِب، فبادرت القبائل إلى إعلان موكب نصر لإميليوس وقد تمّ تنظيمه على الشكل التالي:

نصبت الجماهير مِنصّات ومنابر في الفورم وفي ملاعب السركس Circus (وهو الاسم الذي يطلقونه على محلاّت سباق الخيل) وفي كل المواضيع التي يمكن رؤية المواكب منها. وارتدى المتفرجون ثياباً بيضاء وفُتحت أبواب المعابد جميعاً وكانت مزدانة بالأكاليل يفوح منها البخور والعطور. وأُخليت الطرق ومُنع المرور فيها وعُيِّن عدد كبير من ضبّاط الشرطة لحفظ النظام فكانوا يدفعون الناس إلى الخلف ويمنعون احتشادهم في الطرق وعبورهم في الشوارع الرئيسة. ودام الموكب ثلاثة أيام كاملة. ولم يتسع اليوم الأول لكلّ ما خُصّص له، وقد شاهد المتفرّجون التماثيل والصور والمنحوتات الضخمة التي غُنِمت من العدوّ وهي تمثّل مختلف الآلهة؛ حُملت على مائتين وخمسين عربة ومرّت تباعاً.

وفي اليوم الثاني شاهد الجمهور رتلاً من عربات النقل أُثقلت بأبدع الدروع المقدونية، الفولاذية منها والنحاسية. وكانت قد صُقلت بهذه المناسبة فأخذت ترسل بريقاً يخطف البصر. وكانت قطع السلاح مكدّسة كدساً ظاهره الإهمال وباطنه تدبير متعمّد ينطوي على براعة. والقصد منها أن تبدو مكدّسة كيفما اتفق فألقيت اللاّمات والخُوَذ فوق التروس، والزُرد فوق طماقات الساق، وطرحت الدرقات الكريتية بعضها على بعض، وألقيت دروع الصدر وكِنانات النّشاب التراقية بين لجُم الخيل. وبرزت من كل هذا ذبابات السيوف عارية عن أغمادها، مختلطة بالحراب المقدونية الطويلة. كانت هذه الأسلحة قد شُدّت وحُزمت بقدرٍ من الرخاوة يسمح لها أن تصطفق وتحتكّ فيخرج منها رنين حادٌّ وضجّة مزعجة رهيبة، تبعث الخوف والرعدة في أوصال الناظر إليها، وإن كانت غنائم من عدوّ مغلوب.

بعد هذه العربات أقبل ثلاثة آلاف رجل يحملون فضة مصكوكةً نقداً، في سبعمائة

وخمسين وعاءً كل واحد منها يزن ثلاثة تالنتات، ويحمله أربعة رجال. وتقدّم آخرون يحملون آنية وأكواباً من الفضّة رُتّبت بنظام دقيق ليجعل منها منظراً بديعاً، وهي من التحف العجيبة من ناحية أحجامها ودِقّة صنعتها وغرابة نقشها.

وفي الصباح الباكر لليوم الأخير تقدّم الموكب نافخو الأبواق، يوقّعون اللحن الذي يضربه الرومان لتحريض الجنود على القتال، وليس ألحان المواكب والاحتفالات الدينية والاستقبالات الرسمية. ثم تلتهم أرهاطٌ من الشباب وعليهم معاطف سوداء مزركشة الحوافّ يقودون مائة وعشرين ثوراً مسمّناً مطليّة القرون رؤوسها مزدانة بالشرائط وأكاليل الزهر، ولحق بهم صبيان أيفاع يحملون أوعية ذهبية وفضية، تحوي القرابين السائلة. وأعقبها رتلٌ يحمل العُملة الذهبية في أوعية يزن الواحد منها ثلاثة تالنتات وعددها سبعة وسبعون[٤٨]. ثمّ تلاهم حملة الوعاء المكرّس للآلهة الذي أمر إميليوس بصنعه وزِنَتُه عشرة تالنتات[٤٩]، وهو مكفّت بالأحجار الكريمة. ثم مرّت أكواب أنتيغونس وسلوقوس Seleucuse، والأكواب المصنوعة في تراقيا وصحاف الذهب التي كانت تستعمل في مائدة پرسيوس وضِع فوقها سلاحه ودروعه وعلاها تاجه. ثم انقضت فترة بعدها اقتيد أولاد الملك الأسرى تحفّ بهم بِطانة من خدمهم وحشمهم ومعلّميهم وكلّهم منخرطون في البكاء يرفعون إلى المتفرّجين أيدي الضراعة. وكانوا يحثّون الأولاد على احتذائهم في التوسّل لاستدرار العطف وكان بينهم ابنان وبنت، حال صُغر سنّهم دون شعورهم بمقدار بؤسهم. وعدم الشعور هذا جعل حالهم أدعى إلى الألم والرثاء. فشخصت عيون الرومان المشفقة إلى الأحداث وسُمّرت فيهم بحيث لم يشعروا بپرسيوس عندما مَرّ، ولم يقوَ كثيرون على مغالبة دموعهم. تابع الجميع هذا المشهد بمزيج من الأسى والفرح حتى غاب الوُلد عن النظر.

ثم مَرّ پرسيوس وهو متّشح بالسواد وفي قدميه حذاء مقدونيّ. وبدا ذاهلاً شارد الذهن لعظم بلوه، وتبعه رهط كبير من أصدقائه وندمائه وقد قلب الغمّ سحناتهم، وحملوا المتفرجين على الاستنتاج من بكائهم ومن دوام تطلعهم إلى پرسيوس بأنهم يحمّلون حظه العاثر معظم شكواهم، وأنهم لا يكترثون بمصائرهم. وكان پرسيوس قد

---

(٤٨) بحساب پلوتارخ كان ثمّ ما زنته ٢٢٥٠ تالنت من العملة الفضية، و٢٣١ تالنت من العملة الذهبية. وبحسب ما أورده ڤاليريوس أنتياس فإن الكميّة تزيد عن ذلك. ويقول ڤيليوس پاتروكولوس إنها ضعف هذا المبلغ. وربما كان قوله أصحّ من تقديرات غيره. لأن النقود التي جُلبت من مقدونيا حرّرت الرومان من دفع الضرائب لمدة ١٢٥ سنة.

(٤٩) هذا الإناء يزن ستمائة پاوند، لأن زنة التالنت الواحد تساوي ستين پاوند. وقد كُرّس لجوبتر.

رجا في إميليوس أن يجنّبه هذا الموقف ولا يُدخله في مسيرة الموكب، فبعث إليه إميليوس الذي سبق له أن احتقر جبنه وتهالكه على الحياة بجواب مُفاده أن الأمر منوط به الآن كما كان منوطاً به في الماضي. وقصده أن يقول له إن هذا العار يمكن تفاديه بالموت، وهو ما لا قِبَل لهذا الرجل الخائر القلب به، فظهر مخنّثاً جباناً لأملٍ ما يساوره، وسمح لنفسه أن يُعرض كجزء من غنائمه!

بعد هذا عُرض أربعمائة تاج من الذهب الخالص قدّمتها لإميليوس وفود المدن تكريماً لنصره. ثم لاح إميليوس وهو جالس في عجلة حربية فخمة الزينة (رجل قمين بالنظر حتى وهو مجرّد عن شارات السلطة) وكان متسربلاً بالأرجوان المنسوج بخيوط الذهب. وفي يده اليمنى غصن من الغار. ومرّت خلفه قطعات الجيش كلها يحمل أفرادها جميعاً أغصان الغار وهم في نظام الكتائب والسرايا. وكان بعضهم ينشد القصائد التي تتخللها النكات والتعليقات اللاذعة جرياً على العادة الرومانية في هذه المناسبات(٥٠). وراح بعضهم ينشد أغاني النصر، مشيداً ببطولات إميليوس الذي كان محط إعجاب كل الرجال وتقديرهم. وأمّا الطيّبون منهم فما كانوا يشعرون نحوه بأيّ حسدٍ، إلاّ قدر ما قد تشاء إرادة أحد الأرباب التقليل من سعادة عظيمة جداً ومفرطة فيعمد إلى تعقيد شؤون الحياة البشرية بحيث لا يعود يخلصُ أحدٌ من النوائب والمصائب. وقد صدق هوميروس وأجاد في قوله: «إن الذين يعتبرون أنفسهم موضع يُمن وبركة هم كل من كان حظّه من الخير والشر متساوياً»(٥١).

كان لإميليوس أربعة أبناء، اثنان منهما تبنّتهما أسرتان، كما أسلفت، وهما سكيپيو وفابيوس. أما الباقيان اللذان أنجبهما من قرينته الثانية فقد نشآ في بيته. وتوفيا في مقتبل العمر. الأول مات قبل دخول أبيه ظافراً بخمسة أيام وله من العمر أربعة عشر عاماً. ومات الثاني بعد تمام موكب النصر بثلاثة أيام وله من العمر اثنا عشر عاماً. ولم يبقَ روماني واحد إلاّ وهو عميق الشعور بما اعتلج في نفس إميليوس من آلام. ولم يبقَ من لم ترتعد فرائصه من قسوة الحظّ، وعدم تردّده في صبّ هذا القدر الكبير من الحزن على بيت كان ممتلئاً بالسعادة والبشر، حافلاً بالقرابيين، وفي مزجه الدموع والحسرات بأناشيد النصر والظفر.

واهتدى إميليوس بتفكيره المجرّد إلى أن الشجاعة والإقدام ليسا مجرّد الثبات أمام

(٥٠) أورد سوتونيوس في السيرة التي كتبها ليوليوس قيصر نماذج من أناشيد أنشدت بمناسبة النصر الذي حققه على الغاليين..

(٥١) يشير هنا إلى فقرة من خطبة آخيل الموجهة لبريام [الإلياذة ٢٤: ٥٢٦].

السلاح والرماح، بل الصمود في وجه صدمات الحظّ ونوائبه. ولهذا ثبت وكيّف نفسه لهذه الأضداد والمتناقضات في أحواله، بترجيحه الخير على الشرّ، وموازنة شؤونه الخاصة بشؤونه العامة، ولم يترك أي مجال لاستلاب شيءٍ من عظمة انتصاره، والحظّ من شأنه. فما إن فرغ من مواراة ابنه الأول التراب حتى دخل في موكب النصر. وما إن أكمل مراسيم دفن موت الثاني بعد تمام الموكب حتى بادر إلى عقد اجتماعٍ عامٍّ وخطب في المواطنين خطبة رجل لا يحتاج إلى تعزية الآخرين، بل الآخذ على نفسه معونة إخوانه المواطنين في الضرّاء التي عاناها هو نفسه. قال:

«أنا الذي ما كنت أخشى قطّ كل ما هو بشريّ ظللت دائماً أشعر برهبة وتخوّف من تقلّبات الحظ وغدره. ولهذا السبب بالذات كان الحظ في هذه الحرب يُسيّر كلّ أموري مثلما تُسيِّر الريحُ الرخاءُ السفنية، وهو ما جعلني أتوقع تغييراً وتحوّلاً. لقد قطعت البحر الآيوني في يومٍ واحدٍ وبلغت كوركسيرا مبحراً من برنديزيوم Brundisium. ومن هناك وصلت دلفي بعد خمسة أيام وضحّيت فيه. وفي خمسة أيام أخرى كنت بين عساكري في مقدونيا. وبعد أن أنجزت قُربان تطهير الجيش المعتاد باشرت واجباتي فوراً. وفي غضون خمسة عشر يوماً وضعت نهاية مشرّفة للحرب. لكني بقيت هدفاً لانقلاب الحظّ عليّ، وأنا ماض في سبيل تصريف شؤوني السبيل الممهد العظيم اليُسر. كنت أخشى أكثر ما أخشى تغيّر ربّة الحظّ عليّ وأنا آمِنٌ بعيد عن غائلة أي عدوّ. وانتابني الشعور نفسه وأنا في عُرض البحر أنقل جيشي المظفّر إلى أرض الوطن مع غنائم هائلة وملك أسير. والواقع أن الشكّ لم يبرحني حتى بعد عودتي إليكم سالماً ورؤيتي المدينة ترفل بأثواب البهجة وتعمّها الفرحة والبشائر وتُفرط في تقديم القرابين. وبقيت غير مطمئن وأنا العالم الخبير بأن ربة الحظّ لا تُغدق النّعم العظيمة إلاّ إذا ما زجّتها النقمة وشابها الترح. ولم أستطع أن أحرّر ذهني من الخوف. وبقي فكري يكدح ويجاهد كشأنه دوماً ليتكهّن بما سيحلّ من سوءٍ بهذه المدينة، حتى سقطت هذه البليّة عليّ بين أسرتي، وحملت إلى القبر جثمانيْ أعز وأغلى ابنين، هما خلفاي الشرعيين واحداً إثر الآخر وليس لي ثالث بعدهما ـ جرى ذلك في وسط الاحتفالات بالنصر. وأنا الآن شخصياً مطمئن، آمِن من الخطر على الأقل فيما يحظى عندي بأعظم الاهتمام. وإني في الواقع واثق ومقتنع بأن ربّة الحظ ستبقى من الآن فصاعداً إلى جانبكم ولن تلحق بكم أي أذى

بعد أن شفت غليل حسدها كاملاً من نجاحنا الأعظم بما فعلته به وأخذته منّي. لقد جعلتِ الفاتح مضرب المثل في تغيّر حال البشر كما جعلتِ الأسير الذي قاده في موكب النصر، مع فارق واحدٍ وهو أن پرسيوس ـ وإن كان مغلوباً ـ ما زال يتمتع بأولاده، بينما حُرم المنتصر عليه من هذا».

تلك هي الخطبة القيّمة الرفيعة التي قِيل إن إميليوس وجّهها إلى الشعب نابعةً من قلب مخلصٍ، ليس فيه تصنُّع أو افتعال.

ومع إشفاق إميليوس على حال پرسيوس ورغبته في بذل ما يمكنه من عون بما هو في حدود سلطته فإنه لـم يُفلح في أكثر من العمل على نقله من السجن العمومي الكورچير Corcer إلى مكان أكثر نظافة وأحفل بالراحة وأليق بالبشر. وذكروا أن پرسيوس أضرب عن تناول الطعام حتى الموت أثناء ما كان تحت الحراسة. وقال بعضهم إن موته كان من أعجب وأغرب ما حدث: فقد حفِظ له حرّاسه الجنود ضغينةً وبُغضاً شديداً لسبب ما، ولم يجدوا طريقة لإزعاجه ومضايقته أجدى من حرمانه النوم بإقلاقه كلّما أراد أن يخلد إلى الراحة واستنبطوا حِيَلاً ووسائل لإبقائه مستيقظاً على الدوام، فرقّ جسمه ونحل حتى مات[٥٢]. ولحق به اثنان من أبنائه بعد زمن قصير، وقِيل إن ابناً ثالثاً له اسمه الإسكندر أصبح فنّاناً بارعاً في نحت وحفر التماثيل الصغيرة. وأتقن اللغة الرومانية قراءة وكتابةً مما أهلّه لوظيفة كاتبٍ قضائي كان فيها مثالاً للنزاهة وقُدوة في الإخلاص للعمل.

وعزوا إلى إميليوس منفعة طيّبة للشعب من جّراء فتحه مقدونيا وهي المبالغ الطائلة التي صبّها في الخزانة العامة مما جلبه فأعفي الناس من أداء الضرائب إلى عهد قنصلية هرتيوس Hirtius وپانسا Pansa. ويصادف ذلك أول الحرب بين قيصر وأنطوني.

ولوحظ أمر غريب عجيب في حياة إميليوس وهو انحيازه الدائم إلى طبقة الأشراف رغم تعلّق الشعب الشديد به وإجلالهم له. ولـم يؤثر عنه أنه قال أو عمل شيئاً ينطوي على تودّدٍ للجماهير، أو استجلابٍ لرضاها، بل كان دوماً يقف في صف الأشراف في كلّ المسائل السياسية. وهذه هي المثلبة التي قذف بها أپيوس Appius في وجه سكيپيو أفريقانوس ابنه بعد زمن. كان هذان أقوى رجلين في روما وقتذاك. متنافسين على منصب الرقيب العام. Censor أولهما يعضده الأشراف ومجلس الشيوخ وهو الحزب

(٥٢) أورد هذا ديودورس الصقلي [٢٦]. وقيل إن فيليب توفيّ قبل أبيه، لكن لا يُعرف متى كان ذلك وأين؟ لأن كتب ليڤي وديودورس التي تعالج هذه الفقرة مفقودة.

الذي لم يتخلّ عنه آل آپي Appii مطلقاً. أما الثاني فقد ركن إلى نفوذ عامة عامة الشعب وتعلّقه وعلى منزلته الرفيعة. وفي ذات يوم لمحه أپيوس قادماً إلى الساحة العامة يحفّ به أخلاط من الدهماء وعامّة الناس ورهط ممن لم يمرّ على عَتْقه وحريته زمن طويل. إلا أنهم كانوا يمتازون بكفاءتهم في دخول أي حوار يعمل على جمع كلمة العامة واستخدامهم في تحقيق كل ما يطلبون بالضجيج والإلحاف. فناداه بصوت جهير قائلاً:

«إيه يا إميليوس پاولوس! لو عرفت ما يحدث فوق الأرض لما وسعك إلاّ إطلاق الزفرات في قبرك! فها هوذا ابنك يطمح إلى وظيفة المراقب العام بمعاونة إميليوس الدّلال العمومي ليچينيوس فيلونيكوس Licinius Philonicus»!

لقد كان سكيپيو أبداً موضع ثقة الشعب لأن سيل فضله لم يكن ينقطع عنهم، ولكن إميليوس أباه رغم بقائه في صف الأشراف كان يتمتع بمنزلة شعبية لا تقلّ بأية حالٍ عن أكثر الناس اطلاباً لثقة الشعب، وسعياً وراء حبّه بمختلف الوسائل. لقد أظهرت الجماهير ذلك عندما وجدته لائقاً لمنصب المراقب العام(٥٣) فآثرته به دون كل الشخصيات الرفيعة التي سعت إليه، وهي ثقة تُعدّ في أعلى درجات القدسيّة لما تتضمّن من سلطة عظيمة ناهيك بتدخلها في شؤون أخرى. فللمراقب العام سلطة طرد أي عضو في مجلس الشيوخ وتعيين من يراه لائقاً بدلاً منه. وله أن يفرض عقوبة فضح الشبان المتعطلين بمصادرة خيولهم. ومن سلطته أن يقوّم أموال كل فرد لأغراض دفع الضريبة، وأن يقوم بإحصاء النفوس العام (بلغ عدد الرجال في الإحصاء الذي أجراه إميليوس عندما كان يمارس الوظيفة: ٣٤٧,٤٥٢ رجلاً بالغاً). وأعلن إسناد زعامة مجلس الشيوخ إلى ماركوس ليپيدوس الذي أُكرم بهذا المنصب أربع مرّات قبلها، ورفع عن مقعد المجلس ثلاثة هم أقلّ الشيوخ منزلة وأهمية، وأجرى مثل هذه التعديلات في إحصاء طبقة فرسان الجيش الروماني بمعاونة زميله في الوظيفة مارشيوس فيلپوس.

فيما كان إميليوس منشغلاً في كثير من الأمور الخطيرة ابتليَ بداءٍ دلّت أعراضه الأولى على الخطورة، ثم تبيّن بعد زمن أنه ليس كذلك، على أنه كان مزعجاً مستعصياً. فأبحر إلى ڤيليا Velia(٥٤) في جنوب إيطاليا للاستشفاء نزولاً عند نُصح

---

(٥٣) أنتخب لوظيفة الچنسور مع كوينتوس مارشيوس فيليپوس بعد قنصليته الثانية بأربع سنوات. ومما يذكر أن هذا المنصب استُحدث في العام ٤٤١ق.م.

(٥٤) يكتب پلوتارخ «إليا Elea» هنا تفريقاً لها عن ڤيليا. ويقول إنها مدينة إيطالية لئلا يخلط بينها وبين سمّيتها في بلاد الإغريق.

أطبّائه، وبقي قريباً من البحر مدة طويلة مستمتعاً بكلّ ما أتيح له من هدوء وراحة. في حين ظلّ الرومان يتشاقون إلى عودته، وكثيراً ما عبّروا عن مشاعرهم ورغبتهم في قدومه جهراً في الملاعب والمحلاّت العامة. ثم إنه دنا موعد تقديم قُربانٍ دينيّ دعت الضرورة إليه، وخُيّل لإميليوس أن جسمه يقوى على المشاركة فيه، فعاد إلى روما. وأنجز المراسيم الدينية مع بقية الكهنة. وكان الشعب في أثناء ذلك يتكالب عليه ويحيط به حشوده لتهنئته بسلامة العودة وطيب المقام. وفي اليوم التالي قرب إلى الآلهة اعترافاً بفضلها في شفائه. وبعد انتهائه من ذلك عاد إلى منزله وجلس إلى الطاولة ليتناول غداءه وإذ بنوبة مفاجئة تعتريه فراح يهذي، ثم غاب عن الوعي تماماً. وفي اليوم الثالث[٥٥] لفظ أنفاسه الأخيرة. وبذلك انتهت حياة لم تجد في أي نمط أو أسلوب من الأشياء سبيلاً قد يؤدّي بها إلى السعادة، حتى إن روعة جنازته كان فيها من الغرابة ما يستوقف النظر ويدعو إلى العجب. فلقد كُرِّمت فضائله وسجاياه بالجليل المهيب من المراسم عند مواراته التراب إذ إنها خلت من الذهب ومظاهر الفخفخة المعتادة في تلك المناسبات وحفلت بالحبّ والثقة والاحترام لا من أبناء وطنه وحدهم بل من الأعداء الذين قاتلهم أيضاً. فقد تعاون على حمل نعشه والسير به كل الشبان الأشدّاء من الإسبان والليغوريين والمقدونيين[٥٦]، وسار خلفه الطاعنون في السِنّ منهم، ينادونه بالمحسن إليهم والمحافظ على أوطانهم، لأنه كان يعامل المغلوبين بالعطف والتسامح، ولا ينفكّ في كل أدوار حياته يهتمّ بشؤونهم ويواصل بذل الخير لهم ويقضي لهم حاجاتهم كأنهم من ذويه وأقربائه. وذكر المؤرّخون أن تركته لم تزد عن ثلاثمائة وسبعين ألف دراخما خلّفها لابنيه بالتساوي، إلاّ أن أصغرهما سكيپيو تنازل عن حصّته لأخيه لأن أسرة أفريقانوس التي تبنّته كانت ذات ثراء عريض.

هذا ما جاءنا عن حياة وسيرة إميليوس[٥٧].

---

(٥٥) في ١٥٩ق.م.

(٥٦) بعض النبلاء المقدونيين الذين كانوا آنذاك في روما. ويقول ڤاليريوس ماكسيموس [٢: ٤: ٣] إنه كان أشبه بموكب نصرٍ ثان فقد حمل هؤلاء نعشه وهو مثقل برسوم وأشكال تمثل مناظر من هزيمة بلادهم.

(٥٧) هناك قولة واحدة وجّهها لابنه سكيپيو تستأهل الذكر هنا: «الجنرال الكفؤ لا يبدأ معركة إلاّ عندما يُدفع إليها كضرورة لا بَدّ منها».

أوجُه المقارنة بين تيموليون وباميليوس پاولوس

تلكما قصّتا حياة هذين الرجلين العظيمين، وهما عند المقارنة متشابهتان بدون شكّ باستثناء اختلافٍ بسيط للغاية. فقد حاربا عدوّين قويّين: حارب أحدهما المقدونيين ونازل ثانيهما القرطاجنيين. وكان نصرهما مجيداً. الأول انتزع مقدونيا من خليفة أنتيغونس السادس في المُلك. والثاني حرّر صقلية من الطغاة المغتصبين وأعاد إلى الجزيرة حرّيتها السالفة. إلا إذا كنّا سجّلنا لإميليوس ميزة على صاحبه، وذلك باشتباكه مع جيش پرسيوس الكامل العُدّة والعدد، المؤلف من رجال كثيراً مع تغلّبوا على الرومان في ساحا القتال. في حين كان تيموليون قد وجد خصمه ديونيسيوس في أسوأ حال، وأكثره يأساً. وبطريق المعادلة تقدّم تيموليون إميليوس لأنه قضى على حكم طغاةٍ عديدين، وسحق جيشاً قرطاجنياً جرّاراً بعدد تافه لا يذكر من الرجال الذين جمعهم من كل صُقع وبلد، وليس كجيش إميليوس المتجانس المؤلّف من جنودٍ نظاميين حسني الضبط عجم القتال عودهم وتعوّدوا الطاعة، خلافاً لجيش تيموليون الذي جمعهم إليه أمل الكسب والربح لا خبرة ولا مراس لهم في القتال، تحكّمت فيهم الفوضى وتعذّر قيادهم.

عندما تتكلّل خاتمة الحروب بالنجاح، وتكون وسائل بلوغها غير متساوية، فإن أعظم التقدير هو بالتأكيد للقائد الذي حقق انتصاره بقوّات أقلّ عدداً.

وكلا الرجلين عُرفا برصافة الخُلق، وحُسن المسلك في معالجتهما كل ما عَنّ لهما من مهامّ وواجبات. إلا أن إميليوس انفرد عن صاحبه بأن لشرائع وعادات بلاده التي رُبّي عليها وثُقّف منذ نعومة أظفاره يداً في صلاحه لتولّي الشؤون العامة وتصريفها، في حين أن تيموليون كوّن شخصيّته بمجهوده وسعيه الخاص وهذا واضح: لأن الرومان في ذلك العصر كانوا على حدٍ سواء شعباً منظّماً طائعاً يحترم القانون، ويتبادل أفراده الخضوع والانصياع بعضهم لبعض، بينما نرى والدهشة تأخذ بلُبّنا أنه لم يخلص قائد واحد من قوّاد اليونان في صقلية من الفساد والتفسّح باستثناء ديون، ولهذا كان الكثير

يحقدون عليه، ويتهمونه كذباً بعمله على إقامة نظام ملكي هناك، وفق النظام اللقيديموني. ويكتب طيماؤوس أن سوء الحال أدّى بالسيراقوزيين حتى إلى إخراج غيليپوس Gylippus من البلاد بصورة غير مشرّفة له بعد أن دَمرّ سُمعته ولم يقف عند حد ما ظهر منه عندما كان قائداً للجيش. ويورد كثير من المؤرّخين حكايات عن الأعمال الشريرة القذرة التي ارتكبها فاراكس السپارطي، وكاليپوس Callippus الأثيني، لغرض نصب نفسيهما ملكين في صقلية. من هما هذا الرجلان؟ ماذا كانا يملكان من قوة ليندفعا إلى تحقيق فكرتهما هذه؟ كان أولهما تابعاً لديونسيوس عند طرد الطاغية من صقلية. وكان ثانيهما آمر سريّة مشاة مأجور، من مرتزقة ديون جاء معه إلى صقلية. لكن تيموليون أُرسل نزولاً عند رجاء السيراقوزيين وإلحاحهم وجاء مزوّداً بسلطة قائد ولم يكن بحاجة إلى من يؤمّره لأن السلطة جاءت منقادة إليه برجاءٍ وطلب. إلاّ أنه مع هذا تنازل عن سلطانه بملء رغبته فور إتمامه تحرير صقلية من الغاصبين المضطهدين.

ومما يستحقّ إعجابنا هو أن إميليوس فتح مملكة مقدونيا الواسعة الغنيّة دون أن يلمس أو ينظر إلى مالٍ، ولم يفد منها فلساً واحداً في حين عُرف بالكرم وسخاء اليد على الآخرين بكلّ ما يملك. وليس قصدي أن أضع علامة استفهام على تيموليون لأنه قبِل منزلاً ومزرعة ثمينة في الريف هدية من السيراقوزيين، فليس قبولها مما يخلّ بقواعد الشرف، على أنه يكون أعظم شأناً ومجداً في رفضه لها. وأسمى ما ترتفع إليه النفس هو عزوفها عن شيء لا غبار على أخذه. وبما أن أقوى الأجسام وأصحّها هي التي تستطيع احتمال صَبارَّة الشتاء، وحَمارَّة الصيف وقت تغيُّر الفصول الفجائي بكامل اليُسر، وبما أن أصحّ العتود وأشدّها ثباتاً هي التي لا تتورّم بالرخاء والعيش الهنيء، ولا تذوي وتضمر بالنوائب والملمّات، لذلك نجد خلق إميليوس بقي ثابتاً بارزاً على سلوكه وتصرفاته، ظلّ سامياً رفيعاً حتى عندما فقد ابنين عزيزين مثلما كان عندما حقق أعظم انتصاراته وفتوحاته. في حين أن تيموليون بعد أن أنزل العقاب العادل بأخيه وهو عمل بطولي لا جدال فيه، استسلم لحزن لا مبرّر له وحط من قدر نفسه بالغمّ والكآبة، وحرم نفسه عشرين سنة من الظهور في المحلات العامة أو ممارسة أي عمل سياسيّ.

والحق يُقال إن من الحسن والجميل جداً أن يُشجَب أيُّ عملٍ وضيع. ويُقابل بالكره والاحتقار، أمّا أن يظلّ المرء عُرضةً للخوف من أي شكل من أشكال الملام، أو التقريع، فهذا يدلّ على قلب رقيق سليم الطويّة، ولا يدلّ على قلب باسل شجاع.

پيلوپيداس

PELOPIDAS

٤٢٠–٣٦٤ ق.م

سمع كاتو الأكبر Cato Majer أحدهم يُثني على آخر بالإقدام والجرأة التي لا حدود لها في المعركة فقال: «هناك فرق كبير بين التقدير الواجب للبسالة والاستهانة بالحياة». وهو قول في غاية الصواب. فنحن نعلم على أقلّ تقدير أنه كان لأنتيغونس جنديّ مِقدام لا حَدّ لجُرأته وكان يشكو علةً وسقم بدنٍ، فسأله عن سبب سوء حاله ولمّا علم بدائه أمر أطبّاءه ببذل جهدهم في شفائه. وما إن شُفي البطل المغوار، حتى زايلته الجرأة وطلّق ركوب الأخطار طلاقاً لا رجعة فيه ولم يعد يُظهر ذلك الاندفاع الأهوج في المعارك. فعجب أنتيغونس لأمره وأخذ يلومه على تبدُّل حاله، فلم يُخفِ الجندي عنه السبب إذ قال:

«سبب جُبني أنت يا مولاي! بإنقاذي من ذلك البؤس والشقاء الذي كان يدفعني إلى الاستهانة بالحياة».

وهذا الشعور نفسه كان يحدو السيباريتي Sybarite[(١)] في قولهم عن السپارطيين: إن استسهالهم الموت في الحرب ليس مما يستوجب الإعجاب والتقدير، ما دام ذلك يحرّرهم من عملهم الشاقّ وحياتهم البائسة. في حين كان الواقع يقضي على السيباريت وهم شعبٌ رقيق خانع أن يكرهوا الحياة، لأنهم لم يكونوا يخشون الموت في اطّلابهم المجد وشوقهم إلى السؤدد. لكن اللقيديمونيين وجدوا أن سجاياهم تحقق لهم سعادة في الحياة وفي الممات سواءً بسواءٍ. كما نجد في قول القائل:

«ماتوا، لا استهانةً منهم بدمائهم وارتخاصاً لأرواحهم
ولا بتوهّمهم أن الموت هو شيء حسن بذاته.

---

(١) مستعمرة يونانية أُسست منذ زمن قديم في خليج تارنتوم. كان موقع المستعمرة الجغرافي وغنى أهلها وقوّتهم قد وصلا بهم الترف الذي ضُرب به المثل. كانت عاصمتهم تدعى أولاً سيباريس من اسم النهر الذي يجري قربها. ثم أبدل الاسم بـ«يثوريوم» أو «يثوري».

لم يكن من رغبتهم أن يعيشوا ولا أن يموتوا،
بل أن ينهضوا بأعبائهما، بصورة تستحقّ الثناء».

والمجاهدة في اجتناب الرّدى ليس موضع لوم إن لم يكن الغرض من الحياة العيش الدنيء الذليل. وليست الرغبة في الموت من الخصال الحميدة إن كان الدافع إليها احتقار الحياة. ولهذا نجد هوميروس يحرص دوماً على أن يدفع بأشجع أبطاله وأكثرهم إقداماً إلى ميدان المعركة وهم مدجّجون بالسلاح الجيّد. ولذلك كان المشترعون اليونانيون يُنزلون العقوبات بأولئك الذين يتركون دروعهم ولايعاقبون من يفقد رمحه أو سيفه، ففي عُرفهم أن الدفاع عن النفس هو أقرب الصفات إلى الرجولة من الهجوم في المعركة. وهذا يصدق خصوصاً على حاكم المدينة أو القائد العسكري. وبحسب تصنيف إفيقراطس Iphicrates[٢] إذا كانت القطعات الخفيفة بمثابة اليدين للجيش، وإذا كانت الخيّالة بمثابة قدميه والمشاة بمثابة صدره، فإن القائد هو الرأس. وعندما يقتحم القائد مواطن الخطر لا يخاطر بحياته وحدها بل بكلّ من تعتمد سلامتهم على سلامته، والعكس بالعكس. لقد كان كاليكراتيداس Callicratidas عظيماً في كل شيء سوى الخطأ الذي تضمّن جوابه لكاهنٍ نصحه بأن ينتبه لسلامته لما بدا في قربانه من دلائل غير طيّبة. فقد قال: «في هذه الحالة لن تفقد سپارطاً رجلاً واحداً». والحق يُقال إن كاليكراتيداس ليس غير فردٍ واحدٍ عندما يشارك في معركة برّية أو بحريّة، أمّا بوصفه جنرالاً فهو يجمع في حياته حياة الكلّ، ويصعب أن يعتبر فرداً واحداً إذا أدّى موته إلى هلاك عدد كبير. وخير من هذا الجواب جواب أنتيغونس الشيخ عندما اضطر إلى القتال في أندروس. فقد قال له أحدهم: «إن سفن الأعداء تزيد سفننا عدداً» فأجابه قائلاً: «وأنا؟ بكم من السفن تعدّني؟» يقصد بهذا أن القائد المجرّب الباسل تقويمه بالكثير. ومن الواجبات الأولى التي تحتّمها وظيفته المحافظة على نفسه فبإنقاذها من الخطر إنقاذ من تعتمد سلامتهم على سلامته. وإنه لا يسعني إلاّ الإشادة بتيموثيوس Timotheus الذي قال لخاريس Chares عندما كشف له عن الجراح التي أصابته وتُرسه المخروق بسنان رمح:

«على أنّي كنت أشعر بالخزي والعار في أثناء حصار ساموس عندما سقط رمحٌ بالقرب منّي، لأني انكشفت للعدوّ مثل صبيّ غرير وأنا جنرال أقود جيشاً عرمرماً».

---

(٢) جنرال أثيني شهير. كان مغموراً إلاّ أن أعماله رفعت من صيته.

الحق يقال إن مخاطرة الجنرال بحياته لا غُبار عليها إن كانت تصل إلى حَدّ تقرير نتيجة فاصلة. فهنا ينبغي عليه أن يقاتل بنفسه ويقامر بحياته غير مبالٍ بالعواقب الحتميّة التي قد تجعل قائداً يموت في أراذل الشيخوخة على الأقل، لا أن تجعله يموت بسبب الشيخوخة. أمّا إذا كانت الفائدة من إقدامه قليلة، والخسارة من سقوطه كبيرة، فمن يرغب في أن يخاطر بحياة جنرال لأجل الحصول على نجاحٍ جزئي يستطيع أن يحرزه أيّ جنديّ بسيط؟

هذا، حسب اعتقادي، ما يجدر بي أن أوطّئ به لسيرة كلّ من پيلوپيداس، ومارچللوس وكلاهما من عظماء الرجال، وكلاهما سقطا بسبب إقدامهما وبسالتهما. كانا من الشجعان المعدودين وكسبا لبلاديهما انتصارات عظيمة ورفعا من شأنها لحسن بلائهما في الحرب ضدّ عدوّين رهيبين. فالتاريخ يذكر عن ثانيهما دحره لهنيبعل وهو في أوج قوّته. وأولهما هزم اللقيديمونيين في معركة فاصلة حينما كان هؤلاء سادة البحر والبرّ. إلا أنهما خرقا كلّ حدٍّ في تهوّرهما وارتخصا الحياة بطيش لا مثيل له في حين كانت الحاجة إلى أمثالهما من القادة ماسَّة جداً. إن الشبه الذي يجمع بين خصالهما، واتفاق ميتتيهما، دفعاني إلى أن أقرن ما بين سيرتيهما.

انحدر پيلوپيداس ابن هيپوكلس Hippoclus من أسرة شريفة في ثيبه، مثل إپامنداس. ونشأ في خفض من العيش ورغده وورث وهو صغير مالاً كثيراً. فجعل همّه التفريج عن ضيق المستحقين الطيّبين من الفقراء، مبرهناً على أنه سيّد ماله لا عبداً له. وقد رأى أفلاطون «أن من الرجال فريقاً ضاق عقله عن استعمال ثروته، وفريقاً من السفهاء أساء استخدامها، فالأوُل يعيشون عبيداً مخلّدين لأرباحهم، والأخيرون يظلون دوماً عبيداً لملاذّهم وشهواتهم». وهناك فريق ثالث من قبيل من سمح لنفسه أن يتنعّم بجود پيلوپيداس شاكراً كرمه وعطفه، إلاّ إپامنداس صديقه فإنه لن يستطع إقناعه بشيءٍ مما يملك من دون سائر أصدقائه، فلم يَر بُدّاً من النزول إلى مستوى فقره، ووجدان الرضى في لبس الثياب الرثة مثله، وتناول طعامه التافه، واحتمال للمشاقّ لا يهن، وإبداء جرأة لا تعرف إحجاماً في ميدان الحرب. وكان مثل كاپانيوس Capaneus في يوپيدس: «يملك ثروة طائلة، ولا تراه يفخر بها» إذ يدركه الخجل. وبفضل حياة إپامنداس المنفردة وتفلسفه، أصبح فقره العتيد الموروث أخفّ وأسهل حملاً. إلاّ أن پوليپداس تزوّج امرأة من أسرة رفيعة وأنجب أولاداً، ومع هذا فقد بقي لا يفكر في مصالحه الخاصة إلاّ تفكيراً ثانوياً، وانصرف انصرافاً تاماً إلى معالجة المسائل العامة، فضيّع ثروته. فلمّا توجّه أصدقاؤه بلومه، والتأكيد على ضرورة المال الذي أهمل شأنه، أجابهم قائلاً:

«أجل، فهو ضروري لنيقوديموس Nicodemus، مشيراً إلى رجل مُقعدٍ ضرير».

وبدأ كلاهما مؤهّلين بطبعهما لكلّ أسباب المعالي والبروز. على أن پيلوپيداس فضّل الرياضات البدنية بينما شُغِل إپامننداس بالدراسة والعلم. وكان أولهما يقضي ساعات فراغه في الصيد والاختلاف إلى الپاليسترا Palaestra (مدرسة المصارعة)، والثاني كان يداوم على سماع المحاضرات وممارسة التفلسُف؛ ومن آلاف المزايا الجديرة بالثناء فيهما التقدير المعقول الذي لا يوازيه شيء لتلك الرغبة الدائمة في عمل الخير والصداقة التي صاناها من كل ما يشينها في حملاتهما العسكرية، وأعمالهما العامة، وفي فترة حكمهما الجمهورية. فلو نظر أيّ شخص إلى حكم أريستيديس مع تموستوكليس، وسيمون مع پيركلس ونيسياس مع ألكيبيادس لهالَتْه الفوضى والحقد، والتباغض الذي كان يسود علاقة كل زميلين. ولو تحوّل بنظره إلى پيلوپيداس وإپامننداس وتأمّل العطف والاحترام اللذين كان يظهرهما أولهما للثاني، لما وسعه إلاّ الإقرار بأنهما أفضل قرينين وأكثرهما انسجاماً في الحكم والقيادة، وأحقّ وأحفى بالتَّجِلّة من الآخرين الذين كانوا أكثر انشغالاً في مناصبة العداء بعضهم لبعض، من مناجزتهم لأعداء البلاد. ويعود السبب الحقيقي في هذا إلى خصالهما الحميدة وأخلاقهما العالية، فهما لم يجعلا الثروة والجاه هدف مساعيهما ـ وهو هدف لا بُدّ يؤدّي إلى الشنآن المنطوي على التنافس والخصام ـ بل كانا من البداية موطّني النفس بدافع سامٍ على أن يريا بلادهما تنعم بأمجاد أعمالهما. ولهذه الغاية جنّد الواحد منهما مؤهّلاتِ الآخر واستخدمها كما لو كان استخدم مؤهلاتهما معاً. ويرى كثيرون أن حبل الودّ المتين هذا قد شدّهما منذ معركة مانتينيا[٣] التي شاركا فيها جنباً إلى جنبٍ. إذ كانا بين أفراد النجدة التي أرسلتها ثيبه لتعزيز صفوف اللقيديمونيين أصدقائها وحلفائها في ذلك الحين. فقد وضِعا في صنف المشاة معاً واشتبكا مع الأركاديين. فانكفأ الجناح اللقيديموني على أعقابه وفرّ عدد كبير منه، فما كان منهما إلاّ ضمّا تُرسيهما وصمدا في وجه المهاجمين. فأصيب پيلوپيداس بسبعة جراحٍ أمامية، وخرّ صريعاً فوق كومة من قتلى الجانبين. ومع أن إپامننداس عَدّه في حكم الميت، فقد تقدّم للدفاع عن سلاحه وجثّته، وحارب جمهرة كبيرة من الأعداء

(٣) علينا أن لا نخلط بين إپامننداس فتلك كانت غُرماً على اللقيديميين وهذه كانت غُنماً. وربما وقعت المعركة موضوع حديثنا في السنة الثالثة من الأولمپياد الثامن والتسعين [ديودورس ٢٥:٥].

بمفرده، مفضلاً موته على التفريط بصديقه البائس. وخارت قواه لإصابته بطعنة رمح في صدره وضربة سيف في ذراعه، فخفّ ملك السپارطيين أغيسيپوليس Agesipolis من الجناح الثاني إلى نجدته وأنقذهما في آخر لحظة.

بقي اللقيديمونيون بعد هذا يظهرون الصداقة لثيبه(٤)، وهم في الواقع ينظرون نظرات الشكّ الحاقد إلى تنظيمات المدينة وقوّتهما. وكان بُغضهم منصبّاً بالدرجة الأولى على حزب إيسمنياس Ismenias وأندروقليدس Androclides الذي ينتمي إليه پيلوپيداس، وهو حزب ينهج منهج التقدم ويعمل على إرساء دعائم الحريات لمواطني المدينة. ولذلك استمر به كلّ من أرخياس Archias ونيونتيداس وفيليب وهم من الأثرياء ذوي المطامع اللاشعبية الذين أرادوا إحلال النظام الأوليغارشي، فطلبوا من فيوپيداس Phoepidas القائد السپارطي، وكان ماراً بالمدينة بقوات كبيرة(٥)، أن يفاجئ قادميا Cadmea ويشتّت شمل الحزب المعارض لهم ويبعد أعضاءه عن البلاد لإقامة نظام حكم أوليغارشي وبهذه الوسيلة يتمّ إخضاع المدينة لسلطان السپارطيين. فقبل باقتراحهم، وفأجأ الثيبيين في عيد كسيربس(٦) من حيث لا يتوقعون واستولى على القلعة. وقبض على ايسكنياس وحُمل إلى سپارطا وهناك قُتل بعد زمن وجيز. لكن پليوپيداس وفيرينيكوس وأندروقليدس وعدداً كبيراً آخر تمكنوا من الفرار، فأعلنوا رسمياً أنهم خارجون على القانون. وبقي إپامنداس في البلاد إذ لم يكن الطلب عليه شديداً فقد جعلته الفلسفة خاملاً، وأحاله الفقر عاجزاً.

وعزل اللاقيديمونيون فيوپيداس وفرضوا عليه غرامة قدرها مائة وخمسون ألف دراخما، إلا أنهم لم يسحبوا حاميتهم من ألقاديميا وأبقوها. فراح كل الإغريق يعجبون للتناقض بعد أن عاقبوا الفاعل، ووافقوا على الفعل. ومع أن الثيبيين الذين فقدوا

---

(٤) وجدت سپارطا طوال حروب الپلوپونيسي حليفاً مخلصاً في الثيبيين. وبمساعدة سپارطا استعاد هؤلاء حكمهم على بويوتيا التي كانوا قد فقدوها بسبب هزيمتهم أمام الفرس. وبالأخير تعاظمت قوتهم وجبروتهم حتى إنهم رفضوا عقد معاهدة سلام مع أنتلقيداس ولم يقبلوا إلا بعد أن أرغموا. وعلمنا من پوليبيوس أن اللقيديميين خلال فترة الساعة تلك لم يسحبوا حامياتهم من أية مدينة إغريقية رغم أنهم أعلنوا حرية تلك المدن.

(٥) كان فوبيداس يزحف على مدينة أولينثوس في الوقت الذي أخذ أخوه أڤيدوميداس يضيّق عليها الخناق بجيشه اللقيديمي. وبعدها قام ليونتيداس ـ أو ليونتيادس أحد الپوليمارخيين ـ بتسليم مدينة ثيبة وقلعتها [كزينفون: الهللينيون ٥].

(٦) أو عيد تسموفوريا. يحتفل النساء بهذا العيد في كارميا. وهو أكبر الأعياد التي تقيمها الإغريقيات ويحيين فيه أيضاً ذكرى أعظم بركتين خصّ بهما البشر.

استقلالهم، وآضوا عبيداً لأرخياس وليونتيداس، لم يعد لديهم أي أمل في التحرر من هذا الطغيان الذي وجدوا كلّ قوة سپارطا العسكرية تحرسه، ولا وسيلة عندهم لكسر النير إلاّ إذا أمكن إزاحة هؤلاء من سيطرتهم على البحر والبرّ، فإن ليونتيداس وعصابته علموا أن المبعدين يعيشون في أثينا مقدّرين من الأهالي ويحترمهم كلّ الأخيار والطيبيين فبادروا إلى الائتمار سِرّاً بحياتهم وأغروا بعض الأشخاص المجهولين فنجحوا في اغتيال أندروقليدس إلاّ أنهم لم يفلحوا في الباقين. وبعثوا أيضاً برسائل من سپارطا إلى الأثينيين، حذّروهم فيها من إيواء المبعدين أو تشجيعهم بأية صورة. بل أن يعمدوا إلى طردهم بوصفهم أعداء ألِدّاء للاتحاد الإغريقي. إلاّ أن الأثينيين لم يُلحقوا أيّ أذىً بالثيبيين اللاجئين تدفعهم إلى ذلك ميولهم الطبيعية الموروثة إلى العطف ومجازاة الثيبيين عن جميلهم في الماضي، فقد ساعدهم هؤلاء كثيراً في المحافظة على نظامهم الديمقراطي وأصدروا مرسوماً عاماً بما مفاده «أن كلّ أثيني يجتاز بويوسيا مسلّحاً لغرض مقاتلة الطغاة على أي بويوسّي أن يتغاضى عنه كأنه لم يره ولم يسمع به».

ومع أن پيلوپيداس كان من أصغر أعضاء الحزب سنّاً، فقد كان من أنشطهم، لا ينى يتّصل بكلّ مُبعد على حِدة سِرّاً فيثير حماسته. وكثيراً ما كان يخطب في اجتماعاتهم قائلا إنه لمن العار والحقارة إهمال بلادهم المستبعدة المحتلّة والقناعة بالعيش هكذا عيشة التعطل والأمان والكسل معتمدين على مراسيم الحكومة الأثينية، متبصبصين بدافع الخوف لأي خطيب معسول اللسان، قادر على استمالة الجمهور: كلاّ أبداً، بل ينبغي عليهم أن يخاطروا في سبيل هذا الهدف العظيم ويتخذوا لهم مثلاً وقدوة من شجاعة تراسيبولوس Thrasybulus النادرة، وكما أنه زحف من ثيبه وكسر شوكة الطغاة الأثينيين، فعليهم أن يزحفوا من أثينا ويحرروا ثيبه. ونجح في إقناعهم بهذه الطرائق والأساليب فبعثوا سِرّاً إلى ثيبه ببعض الأشخاص إلى جُملة من الأصدقاء ما زالوا في المدينة، وكشفوا لهم عن خططهم، فتمّت الموافقة عليها. وعرض خارون Charon ـ وهو شخصية بارزة جداً ـ منزلَه لاستقبال المؤتمرين. واحتال أحدهم المدعو فيلليداس Phillidas على أن يُعيّن بمنصب كاتم سِرّ لكلّ من أرجناس وفيليب وكانا في ذلك الحين يملآن وظيفة الپوليمارخ أو القائد العام. وكان إپامنناداس قد نجح في إثارة حماسة الشباب. إذ كان يشجعهم في أثناء التمارين الرياضية على تحدّي السپارطيين والدخول معهم في حلبة المصارعة. فإذا ما وجدهم يترنّحون بنشوة انتصاراتهم وفوزهم خاطبهم بحدّةٍ وقسوة بقوله إنه لمن العار الكبير أن يصل بهم الجبن إلى الحدّ الذي لا يتورّعون فيه عن خدمة من لا يفوقهم بالقوة.

وحُدّد يوم التنفيذ واتفق المبعدون على أن يمكث فيرينيكوس في السهل الثرياسي Thriasian[٧]، في حين يقتحم أوّل الخطر فئة قليلة من الشباب بمحاولة دخول المدينة. فإذا فاجأهم العدو وقضى عليهم فعلى الآخرين أن يُعنوا بأولادهم والأبوين. وعرض پيلوپيداس نفسه أولاً، وتبعه ميلون Melon وداموقليدس Damoclides وثيوپومپوس، رجال من أُسر عريقة المحتد يحبّ ويخلص بعضهم لبعض إلاّ في اطّلاب المجد وإظهار الشجاعة فهم خصوم دائمون ينافس أحدهم الآخر. وكانوا اثني عشر فقط، ودعوا صحبهم الباقين وبعثوا برسول إلى خارون، ثم انطلقوا في سبيلهم يرتدون معاطف قصاراً ويحملون عصيّ صيدٍ ويجرّون كلاب صيدٍ ليبدوا بمظهر صيادين يتجوّلون في الحقول بحثاً وراء صيدٍ، وبذلك يبعدون عنهم شُبهة كل من يلقاهم. ووصل رسولهم إلى خارون وأخبره بأنّ أصحابه سيصلون وشيكاً فلم يثن الخطرُ خارون عمّا اعتزمه وبقي محافظاً على كلمة الشرف التي قطعها مقدّماً منزله لإيواء المؤتمرين القادمين. على أنه كان يوجد شخص اسمه هپوشثينيداس Hipposthenidas. وهو رجل ذو مبادئ قويمة لا غبار عليها، محب لوطنه، صديق للمبعدين، إلا أنه كان يفتقر إلى العزم والإرادة التي تتطلّبها طبيعة العمل المفروض وقِصر الوقت. ولذلك تهوّل المغامرة الوشيكة وبدأ الآن لأول مرة يتحسّب للأمر: فوجد القضيّة تنحصر في الاعتماد على تلك القوة الضعيفة التي سيقدّمها المبعدون للقيام بعمل لا يقلّ عن الإطاحة بالحكومة والتغلّب على كلّ قوة سپارطا، فانسلّ إلى منزله وبعث بصديق له إلى ميلون وپيلوپيداس ينصحهم بالعدول عن المغامرة مؤقتاً والعودة إلى أثينا تربّصاً بفرصةٍ أفضل، فعاد الرسول المدعو خليدون Chlidon إلى بيته مسرعاً وأخرج جواده وسأل عن السرج. ولما كانت زوجه تجهل موضعه، ولم يظهر له أثر منذ ادّعت أنها أعارته لصديقٍ، فبدآ يتلاومان ثم انتقلا إلى التلاعن ودعت عليه زوجته أن تكون سفرته نحسةً له ولكلّ من أرسله. وهكذا امتدّ الخصام بهما حتى وجد خليدون أن عاطفته ضيّعت عليه الجزء الأكبر من يومه. وعندها رأى في ذلك نذير شؤم فعدل عن التفكير في الرحلة، وانصرف إلى شأن آخر. فتأمّل كيف كاد الفشل يحيق بهذه المشاريع المجيدة والعظيمة في ساعة مولدها الأولى.

وانقسم پيلوپيداس وصحبه إلى قسمين، وكانت الدنيا نهاراً عندما دخلا المدينة من طريقين مختلفين وهم مرتدون ثياب الريفيين. وكان اليوم عاصفاً ثم أخذ الثلج يسقط

---

(٧) ثرياسيوم هي مدينة بالقرب من جبل كيثيرون.

وهذا ما ساعد في إخفائهم كثيراً لأن معظم الناس أووا إلى بيوتهم بسبب سوء الطقس. واستقبلهم شركاؤهم في الداخل حال وصولهم وقادوهم إلى منزل خارون فاجتمع فيه من المبعدين وغيرهم ثمانية وأربعون لا غير. وكانت خطّة القضاء على الطاغية بهذا الشكل: ذكرت قبلاً أن كاتم السِرّ فيلليداس هو شريك للمبعدين ومطّلع على كلّ تدابيرهم، وقد دعا ليلة التنفيذ إلى داره أرخياس وآخرين إلى وليمة مجلس وشراب واستقدم بعض نسوة المدينة لهذا الغرض. حتى إذا لعبت الخمرة بالرؤوس وانصرف المدعوون إلى ملاذّهم أعطيت الإشارة إلى المؤتمرين للإيقاع بهم، وتمّ ذلك كما رسم ولكن قبل أن تسري نشوتها في أوصال أرخياس تماماً أُبلغ بأن المبعدين قد دخلوا المدينة سِرّاً. وكان بلاغاً صحيحاً طبعاً لكنه غامض غير مؤكدٍ تماماً: ومع ذلك بذل فيلليداس مجهوده في تحويل مجرى الحديث إلى موضوعٍ آخر، إلاّ أن أرخياس أرسل أحد حراسه إلى خارون يطلب حضوره فوراً. وكان الوقت ليلاً وپيلوپيداس وأصحابه قد أكملوا التأهّب للعمل وهم في المنزل بعد. ودقّ الباب فجأة بعد أن أتمّوا لبس دروع الصدر وشدّوا أنطقة السيوف، فتقدّم أحدهم من الباب ليسأل عن الأمر، ولمّا عَلِم من الحرس أن الپوليمارخ طلب إحضار خارون عاد في غاية الاضطراب ليطلع الآخرين، فتوهّموا حالاً أن المؤامرة كلها قد افتضحت، وأنهم سيمزّقون إرباً قبل أن يتمكنوا من تحقيق أي عملٍ يثبت بسالتهم على الأقل: على أنهم اتفقوا جميعاً، بوجوب إطاعة خارون للأمر والذهاب إلى الپوليمارخ دفعاً للشكّ. وكان خارون والحق يُقال شجاعاً جميع القلب ثَبْت الجِنان في وجه الخطر، إلا أنه كان في هذا الموقف شديد القلق لئلا يظنّ به أصحابه المؤتمرون، ويوصم بالخيانة ويُحمّل وِزْر موت هذا العدد الكبير من أبسل المواطنين. لذلك عمد إلى إحضار ابنه بعد أن استعدّ للرحيل فجيء به من جناح النساء، وكان صبيّاً حدثاً لكنه بدا أجمل وأقوى كل من هم في سِنّه. فأخذه ودفع به إلى پيلوپيداس قائلاً:

«إن وجدتموني خائناً، فعاملوا هذا الصبيّ معاملة عدوّ لا يستحق أي رحمة»!

إن هذا الحرص الذي أبداه خارون استدرّ الدمع من عيون الكثيرين. واحتجّ الكلّ بشدّة على وصول الأمر به إلى حَدّ افتراض سوء النية والحطّة بأي واحد منهم عند ظهور الخطر الداني إلى درجة اللوم والشكّ في إخلاصه، وأبوا عليه أن يُدخل ابنه في المسألة، وأن يبقيه بعيداً عن مكامن الأذى: فلعلّه يخلص من غائلة الطاغية ويعيش ليثأر للمدينة وأصدقائه؟ على أن خارون رفض نقله إلى محل أمين وتساءل قائلاً:

«أيّ حياة وأيّ سلامة تكون أشرف من الموت مع أبيه ومع مثل هؤلاء الصحب الكرام بشجاعةٍ وإقدام؟».

وبعد أن دعا الآلهة لحمايته، وحيّاهم جميعاً وشجّعهم، انصرف وهو يُعمِل الفكر ويقلّب وجوه النظر، مخفضاً من صوته وساتراً من سيمائه ما من شأنه أن يفضحه، ومظهراً أقلّ ما أمكنه مما يضمره في نفسه.

وعندما بلغ الباب خرج إليه أرخياس مع فيلليداس، وقال له:

ـ سمعت يا خارون بقدوم بعض الرجال إلى المدينة قبل قليل، وأنهم يتجوّلون في أنحائها وأن بعض الناس ينضمّون إليهم.

فانتاب خارون الاضطراب، إلاّ أنه سأل:

ـ من هم؟ من يخفيهم؟

ولما وجد أن أرخياس ليس على علمٍ تامٍّ بالقضية استنتج أن المؤامرة لم تنكشف، وأن المعلومات التي وصلته لم يكن مصدرها أيّ مساهم مطّلع، وعندئذ قال له:

«لا تزعج نفسك بهذه الإشاعات الفارغة: وعلى أية حال فسوف أتحقق منها بنفسي إذ ينبغي ألاّ يهمل أيّ خبر من هذا القبيل».

فما كان من فيلليداس الواقف إلاّ أن طفق يثني عليه ثم أعاد أرخياس إلى مجلسه وسقاه حتى أثمله، ومدّ من أجَلِ الوليمة ليكون ختامها صحبة النساء. وعندما عاد خارون وجد الرجال مستعدين لا كالمؤمّل بالسلامة والفلاح، بل كالمتأهّب للموت بشجاعة بعد أن يوقع مذبحة بالأعداء. فأبلغ پيلوپيداس والآخرين بجليّة الأمر، لكنه ادّعى أمام آل بيته بأن أرخياس طلبه لشأن آخر واخترع حكاية مناسبة. ولكن ما إن أوشكت هذه العاصفة على الختام حتى دفع «الحظ» بأخرى فقد أقبل رسول إلى أرخياس يحمل إليه رسالة من سميّه أرخياس كاهن الأسرار الهيروفانت Hierophant في أثينا. وكان صديقاً ومستضيفاً. ولم يكن مضمون الرسالة مجرّد شكوك غامضة عابرة، بل حقائق ثابتة كشفت عن تفاصيل الخطة كلها كما تبيّن ذلك فيما بعد. فجيء بالرسول أمام أرخياس الذي كان في حالة سكرٍ شديد فسلّمه الخطاب قائلاً:

ـ يرغب المرسل أن يُقرأ خطابه فوراً. إنه يتعلق بموضوع هامّ جداً.

فأجابه أرخياس باسماً:

ـ الأمور الهامّة غداً!

وتناول الخطاب ودسّه تحت الفراش، وعاد يستأنف ما انقطع من حديث مع فيلليداس. وذهبت كلماته هذه مثلاً عند الإغريق حتى يومنا هذا.

عندما بدت الفرصة مناسبة للعمل انطلق المؤتمرون بفرقتين، واتجه پيلوپيداس وداموقليس وجماعتهما لمداهمة ليونتيداس وهيپاتيس Hypates[٨] وكان منزلاهما متجاورين. وانطلق خارون وميلون إلى حيث أرخياس وفيليب. وقد غطّى جميعهم دروع صدورهم بثياب النساء ووضعوا قلائد كثّة من الصنوبر والشربين إخفاء لمعالم وجوههم. وما إن وصلوا الباب حتى أخذ المدعوون يصفّقون ويهلّلون. متصوّرين أنهم النسوة اللاتي كانوا يتوقعونهنّ. ودخل المؤتمرون وأجالوا بصرهم في الغرفة ليتثبّتوا من كل الموجودين، ثم انتضوا سيوفهم وتقدّموا من أرخياس وفيليب بين الموائد وكشفوا عن هويّاتهم. وأقنع فيلليداس فئة قليلة من المدعوين بالهدوء. أما الذين حاولوا مساعدة الپوليمارخ فقد سهُل قتلهم لحالة السكّر فيهم. إلاّ أن مهمة پيلوپيداس ورهطه كانت أصعب من مهمة زملائهم. فقد قصدوا ليونتيداس وهو رجل عظيم القوة أريب، ووجدوا باب منزله مغلقاً وقد أوى إلى فراشه، فطرقوه زمناً طويلاً دون مجيب. وأخيراً سمعهم أحد الخدم فجاء ورفع المزلاج فاندفعوا إلى الداخل فور فتحه، وأزاحوا الخادم جانباً وأسرعوا إلى حجرة ليونتيداس، وأدرك من الضجة والركض حقيقة ما يقع فهبّ من فراشه قائماً وأشهر خنجره إلاّ أنه نسي إطفاء النور ليعرقلهم ويجعل المهاجمين تائهين يقع أحدهم على الآخر في الظلمة. وهكذا استقبلهم في غرفته المضيئة وهو بالباب وطعن أول الداخلين وكان سِفِيسودورس Cephisodorus وعند سقطوه التحم بالثاني وهو پيلوپيداس، وكان الممر ضيقاً وجسد سفيسودورس يعترض السبيل، وتلا ذلك صراع عنيف وحشيّ، وأخيراً تغلّب پيلوپيداس. وبعد أن قتل ليونتيداس خرج وجماعته يريدون هيپاتس واقتحموا بيته بالطريقة نفسها، فعرف بما هو مبيّت له وهرب إلى الجيران، إلاّ أنهم لحقوا به وأدركوه وقتلوه.

وبعد ذلك انضموا إلى ميلون. وبعثوا يستعجلون المنفيّين الذين تركوهم في آتيكا. وأعلنوا حرية المواطنين الثيبيين[٩]، وأنزلوا الغنائم من الأروقة. وكسروا أبواب مخازن صانعي الأسلحة القريبة وسلّحوا من جاء لنُصرتهم. وأقبل إپامنداس وغورغيداس Gorgidad وهما شاكيا السلاح يقودان جمهرة من الشباب المندفع الملتهب حماسة،

---

(٨) لم يُدع هؤلاء للحفل لأن أرخياس الذي كان يتوقع لقاء امرأة رفيعة المقام، لم يختر أن يرى ليونتيداس هناك.

(٩) وكذلك قام پيلوپيداس بإرسال فيليداس إلى جميع سجون المدينة لإطلاق سراح شجعان الثيبيين الذين اعتقلهم الطغاة السپارطيون وكبّلوهم بالأغلال.

ومن خيرة كبار السنّ. وساد المدينة هياج عظيم وضربت الفوضى أطنابها، وامتلأت ضجيجاً وحركة، وأُشعلت الأنوار في كلّ بيت، وراح الناس يتراكضون هنا وهناك. على أن الأهلين لم يجتمعوا كتلةً واحدة فقد صُعقوا لما حدث، وجهلوا حقيقة ما يجري بالضبط، وفضّلوا التريّث وانتظار ما سيأتي به الغد. ولذلك اتجه الاعتقاد بأن الضباط السپارطيين أخطأوا بوقوفهم موقف المتردد وعدم مهاجمة المؤتمرين بينما كانت تحت إمرتهم حامية تتألف من ألف وخمسمائة مقاتل فضلاً عن كثير من الأهلين الذين لجأوا إلى القلعة، إلا أنهم لم يتحركوا من القلعة وهم قلقون للضجة والحرائق، وتراكضُ الناس. وما إن انبلج الصبح حتى كان المبعدون القادمون من أتيكا داخل المدينة وكلهم شاكو السلاح، وعُقد اجتماع شعبي عامٍ بمسعى من إپامننداس وجورجيداس وقدّما إلى الشعب پيلوپيداس ورهطه يحفّ بهم الكهنة وبأيديهم قلائد الزهر، وانثنى هؤلاء يحضون الشعب على القتال في سبيل الوطن والآلهة، فهبّ المجتمعون دفعة واحدة عندما بدوا لهم واستقبلوا بالهتاف والتهليل، ورحّبوا بالمنقذين.

وما إن تقرّر انتخاب پيلوپيداس قائداً عاماً لبويوثيا، حتى باشر بالتعاون مع خارون وميلون بإلقاء الحصار على القلعة ومداهمتها بهجوم من كلّ الجهات لتحريرها، وكان مستعجلاً في ذلك لئلا يخرج جيش من سپارطا لإنجاد من فيها[١٠]. وقد نجح في مسعاه بعد أن كان على قاب قوسين من الفشل، إذ وافق على شروط خروج السپارطيين ورحيلهم عن البلاد، وفيما هم في طريق العودة التقوا عند ميغارا بكليومبروتوس Cleomrotus الزاحف على ثيبة بقوات كبيرة. وأدان السپارطيون كلاً من هرپيپداس Herppidas وأرسيسوس Arcissus حاكميهما في ثيبة ونفّذوا فيهما حكم الموت. أما الحاكم الثالث ليسانوريداس Lysanoridas فقد فرضوا عليه غرامة فادحة ففر إلى پلوپونيسوس[١١]. هذه المأثرة كانت أشبه بمأثرة ثراسيبولوس

---

(١٠) لمّا لم يكن محتملاً احتلال موقع منيع كهذا خلال يوم واحدٍ وبالقوة القليلة العدد التي كان يقودها پيلوپيداس آنذاك، فعلينا أن نرجع إلى ديودورس [١٦ : ٢٥] وكزينفون [الهلينيون] ليخبرانا بأن الأثينيين في فجر اليوم التالي الذي تمّ فيه احتلال المدينة قاموا بإرسال خمسة آلاف من الرجّالة وألفين من الخيّالة بقيادة كزينفون. ووصلت من مدن بويوثيا تعزيزات أخرى قِوامُها سبعة آلاف أو أكثر فشاركت قوات پيلوپيداس بالحصار. إلاّ أن المدينة صمدت عدة أيام ثم استسلمت بعد أن نفدت أرزاقها.

(١١) من التقاليد التي درج عليها المقاتلون السپارطيون أن يموتوا والسيف بيدهم دفاعاً عن الموضع الذي أوكل إليهم أمر الدفاع عنه.

Thrasybulus، من ناحية بأس القائمين بها، وأخطارها، وتطوّراتها ونهايتها الناجحة، حتى وصفها الإغريق بالأخت التوأم لها. إذ يندر أن تجد أمثلة أخرى لها، حيث فئة صغيرة ضعيفة جداً تتغلّب بإقدامها الخارق على عدوّ وفير العدد عظيم السلطان، وينجم عن انتصارها مثل هذا القدر من النفع والخير للبلاد. إلاّ أن الأحوال التي طرأت نتيجة هذا زادت من شهرة النصر ورِفعته. فقد بدأت في تلك الليلة بالذات الحربُ التي قضت القضاء المبرَم على كل ادّعاء لسپارطا في الزعامة، وأنهت إلى الأبد تلك السيادة التي كانت تمارسها آنذاك على البر والبحر معاً. في تلك الليلة لم يداهم پيلوپيداس قلعة أو حصناً أو مدينة محصّنة وإنما كان الرجل الثاني عشر الذي دخل بيتاً خاصاً، فحلّ وكسر سلاسل الحكم السپارطي (إن عبّرنا عن الحقيقة بالمجاز) وكان يبدو قبل ذاك محكماً لا فكاك منه.

وغزا اللقيديمونيون بويوتيا بجيش عَرِم. وتخوّف الأثينيون من الأخطار، فأعلنوا أنهم ليسوا بحلفاءٍ لثيبة وضيّقوا على كل منحازٍ إلى قضية البويوتيين، ونفّذوا حكم الموت ببعض، ونفوا وغرّموا آخرين. وبدت قضية ثيبة يائسةً لا أمل منها لفقدها النصير والحليف. على أن پيلوپيداس وجورجيداس اللذان تسلّما زعامة بويوتيا دبّرا خلق نزاع بين اللقيديمونين والأثينيين فاهتديا إلى الحيلة الآتية: كان الموعو سفودرياس Sphodrias قد تُرك في ثسپايي Thespiae على رأس جيش سپارطي لاستقبال ونجدة الثيبيين المنشقّين. وهو في الحقيقة قائد مشهور بشجاعته في ميدان القتال إلاّ أنه مأفون العقل. مليء بآمال خيالية، ومطامح رفيعة. إن هذا الرجل أرسل إليه پيلوپيداس وزملاؤه تاجراً من أصدقائهم يحمل إليه بالسرّ مبلغاً من المال. . . ونصيحةً ـ كانت أقوى أثراً من المال ـ قال له إنه ليجدر برجل في مثل منزلته أن يسعى وراء مغامرة عظيمة، وإنه لن يجد خيراً من غزو الأثينيين وهم في غفلةٍ من أمرهم، ويباغت ميناءهم پيريوس إذ ليس ما يسرّ سپارطا أكثر من الاستيلاء على أثينا، كما أن الثيبيين لن ينبروا طبعاً لمساعدة أناس يبغضونهم ويعتبرونهم خونةً في الوقت الحاضر. وظل يضرب فيه على هذا الوتر حتى أقنعه، فزحف ليلاً على أتيكا وتوغل بجيشه حتى بلغ اليوسيس[١٢]، وعند هذه المرحلة من مغامراته أصيبت قلوب رجاله بالتردد فانسحب

---

(١٢) كان أملهم أن يبلغوا پيريوس ليلاً، لكنهم عندما أصبح الصباح وجدوا أنهم لم يتقدموا أكثر من أليفسيس. وأدرك سفودرياس أن أمره انكشف فاجتاح في رجعته ضواحي أثينا. واستدعى اللقيديميون سفورديأس واتخذ الإيغوري الإجراءات القضائية ضدّه. إلاّ أن أغسيلاوس بشفاعة =

إلى ثسپايي ولكن بعد أن انكشفت نواياه وورّط قومه في حرب خطرة. بعد هذه الحادثة أخذ الأثينيون يبعثون بالمساعدات إلى ثيبة وهبّوا ساخطين إلى البحر مبحرين إلى عدة أمكنة ومقدّمين المعونة إلى كلّ بلد يوناني يرغب التخلص من نفوذ السپارطيين.

وفي تلك الفترة خاض الثيبيّون بمفردهم عدة معارك مع السپارطيين في بويوتيا، واشتبكوا كثيراً بالعدوّ، ولم تكن تلك المعارك بالكبيرة لكنها مهمّة في تدريبها وتلقينها إياهم فنون القتال. وبهذا انصرفت أذهانهم إلى الحرب، وتعوّدت أبدانهم المشاقّ فكسبوا الخبرة والشجاعة بهذه الصدامات المتعددة، مما يفصح عنه قول أنتالكيداس Antalcidas لأغيسيلاوس بعد عودته جريحاً من بويوتيا:

«لقد أجزل لك البويوتيون العطاء حقاً، مكافأة لك على تلقينهم فنون الحرب رغماً عنهم وكرهاً بها».

وإن شئت الحقيقة فإن أغيسيلاوس لم يكن أستاذهم في هذا. بل أولئك الذين أطلقوهم بذكاء وبُعد نظر على أعدائهم كما تطلق صغار الكلاب، وعادوا بهم سالمين جميعاً بعد أن أذاقوهم حلاوة النصر، وقوة العزيمة. وپيلوپيداس يستأهل أعظم التكريم من بين كل هؤلاء الزعماء: إذ ما إن انتخب جنرالاً لأول مرة حتى بقي يقود الرجال سنة بعد أخرى طوال حياته إمّا بمنصب قائد «الكتيبة المقدّسة» أو قائداً عاماً للجيش البويوتي وهو أكثر المنصبين لصوقاً به. هُزم السپارطيون بالقرب من پلاطيا Plataea وثسپايي ولاذوا بالفرار. وقُتل فيوبيداس الذي احتل القلعة قادميا. وفي تناغرا أُبيدت قوة كبيرة وقُتل قائدها پانثيودس Panthoides. إلاّ أن هذه الاشتباكات وغيرها لم تصب المنهزمين بيأسٍ تامٍّ، وإن رفعت من معنويات المنتصرين، إذ لم تقع بين الفريقين معركة فاصلة، أو قتال منظم، وإنما مجرّد غزوات مفاجئة تُمليها الفرص والمناسبات ويسودها الكرّ والفرّ، ثم الهجوم ثم الانسحاب وهكذا. إلاّ أن معركة تيجيري Tegyrae التي كانت مقدّمة وتمهيداً لليكوترا رفعت من سُمعة پيلوپيداس كثيراً. إذ لم يكن لأيّ من القادة الآخرين أي فضلٍ فيها، ولم يظهر العدوّ أيّ دعوى بنصرٍ بها. كانت مدينة الأورخومينيين منحازة إلى جانب السپارطيين، وقد عُزّزت الحماية فيها بكتيبتين، وكان پيلوپيداس شاخصاً إليها ينتظر فرصته. فلما سمع أن الحامية انتقلت إلى

= وإلحاح من ابنه ـ الذي كان صديقاً لابن سفورد ياس ـ عمل على إنقاذه [گزينفون المرجع السالف ٥].

لوكريس Locris وأن أورخومينيس Orchomenes[13] باتت بلا حماية زحف عليها بكتيبته المقدسة وكوكبةٍ من الخيّالة، وعند وصوله مشارفها وجد التعزيزات القادمة من سپارطا تتقدم نحوها. فقام بدورةٍ حول قَدَمات الجبال وانسحب بجيشه الصغير عبر ميجيري وهو السبيل الوحيد الذي يمكن مروره منه لأن نهر ميلاس Melas تنتشر مياهه حال فيضانه ويكوّن مستنقعات وبركاً صالحة للملاحة، ويجعل كل الأرض السهلة التي تتخللها غير صالحة للسير. وإلى أسفل المستنقعات بمسافة قصيرة يقوم معبد ومهبط وحي أپوللو تيجيريوس المهجور قبل زمن ليس بالطويل، وكان مزدهراً حتى الحروب الميدية بكاهنه ايخيقراطس Echecrates. ويزعمون أن هذا الربّ وُلِد هناك. والجبل المجاور يُسمّى ديلوس Delos. وهنا أيضاً يعود نهر ميلاس إلى مجراه، ومن خلف المعبد يجري ماء نبعين عجيب بحلاوته وكثرته وبرودته. نبع يُسمّى فيونكس Phoenix ونبع يُسمّى إيلويا Eloea إلى يومنا هذا. حتى لكأن لوچينا Lucina لم تولد بين شجرتين بل بين ينبوعين، وثمّ موقع قريب ظاهر يدعى پتاوم Ptoum يُقال إنها روِّعت أثناء وجودها فيه بظهور خنزير برّي. وتتصل حكايات پيثون Python وتيطيوس Tityus بهذه المواقع أيضاً على المنوال نفسه. وإني لأضرب صَفْحاً عن كثيرٍ من النقاط التي يمكن استخدامها موضع نقاش. لأن أساطيرنا لا تضع هذا الربّ في مصافّ الأرباب المولودين ثم تحوّلوا إلى آلهة خالدين، مثل هرقل وباخوس اللذين رفعتهما فضائلهما فوق طبقة البشر وقابلية الفناء. إلاّ أن أپوللو إله خالد غير مولودٍ من بشر[14]، إذا استندنا في حكمنا هذا على أي حقيقةٍ مما انحدر إلينا من قدم الواقفين على هذا الموضوع، وأوفرهم حكمةً.

وبينما كان الثيبيون يتقهقرون من أورخومينوس نحو تيجيري كان السپارطيون يتقدمون من لوكريس في الوقت نفسه. وإذا بهما يلتقيان. ولما بات هؤلاء على مرأى من الثيبيين وهم يتقدمون عبر المضيق قال أحدهم لپلوپيداس:

ـ لقد وقعنا في يد العدو؟

فأجابه:

(١٣) واحدة من أكبر وأهمّ مدن بويوثيا. وكان فيها حامية لقيديمية وقتذاك.

(١٤) هذه فقرة تستدعي تأمّلاً عظيماً: يثمن الحكماء والفلاسفة القدماء أمثال فيثاغوراس وأفلاطون وغيرهما أنّ اللّه ينجب أبناء مثله خالدين. وإنهم لم يولدوا من رحم امرأة وهم يساوونه في جوهره. إن هذه الفكرة انحدرت إليهم من أقدم العصور وما ورد عنها من مآثر كان ينوّه بابن اللّه الخالد مع الأب.

ـ ولِـمَ لا يكونون هم الذين وقعوا في أيدينا؟

وأمر خيّالته فوراً بترك المؤخّرة والهجوم، بينما جمع مُشاته كتلةً واحدةً وكانوا ثلاثمائة(١٥)، مؤمّلاً بهذه الطريقة أن يفتح ثُغرة لنفسه في تشكيل عدوّه الأكثر عدداً منه، من أي جهة يقوم بالهجوم. وكانت قوة السپارطيين تتألف من كتيبتين (الكتيبة قِوامها خمسمائة على ما يذكر يفوروس، أو سبعمائة على ما يقول كاالليستينس Callisthenes، ويزعم آخرون ومنهم پوليبيوس أنها تسعمائة) بقيادة جورجوليون Gorgoleon وثيومپوپوس. فقررا التقدم لمهاجمة الثيبيين وهما واثقان من النصر. والتحم الفريقان، وكان زخم القتال على أَشُدّه حيث يقف القادة. ووقع القائدان السپارطيان قتيلين أولاً ولحقت بالقوة التي تحيط بهما خسارة فادحة فما لبثت القوة كلّها أن خارت معنوياتها وفتحت طريقاً للثيبيين كأنها تريد مرورهم ونجاتهم. لكن پلوپيداس دخل الثغرة دون أن يفكّر في الإفلات بل استدار نحو الصامدين من الأعداء وأوقع بهم قتلاً وذبحاً، عقبه فرارٌ من صفوف السپارطيين. ولم تستمر المطاردة مسافة طويلة لخوف المنتصرين من الأورخومينيين المجاورين، ومن نجدات لقيديمون. مهما يكن فقد نجحوا في شق طريقهم عنوةً بين أعدائهم وتغلّبوا على قوّتهم كلّها. لذلك عمدوا إلى إقامة نصب تذكاري لنصرهم ونزعوا أسلحة القتلى ثم قفلوا راجعين إلى مقرّهم مزهوّين بما حققوا. لم يُهزم السپارطيون في كلّ حروبهم العظيمة التي خاضوها ضدّ الإغريق أو البرابرة أمام قوة أصغر من قوتهم قبل هذا. ولم ينحدروا في معركة فاصلة وكان عددهم فيها مساوياً لعدد خصمهم. ومن هذا ساد الاعتقاد بأن شجاعتهم لا يقف أمامها شيء، وأن سُمعتهم الداوية كانت توقع الرعب في قلوب أعدائهم فيخسروا المعركة قبل دخولها، لأنهم لا يجدون أنفسهم أكفاء لرجال سپارطا حتى عند تساوي الفرص. على أن هذه الموقعة علّمت الإغريق في المقام الأول أن الشجاعة والعزيمة وشدّة المراس ليست قاصرة على رجال يوروتاس والبلاد الواقعة ما بين بابيس Babyce وكناصيون Cnacion، بل عندما يثور الشباب خجلاً من الدناءة والحِطّة، ويكونون مستعدين للمغامرة في سبيل قضية عادلة، عندما يخشون العار أكثر مما يخشون الخطر، فإذا ذاك تجد أمامك أشجع الخصوم، وأشدّهم بأساً، أيّاً كانت البلاد التي أنجبتهم.

(١٥) هذا العدد القليل كان زهرة الجيش الثيبي. وقد خلع عليه لقب «الكتيبة المقدسة» أو «عُصبة المحبّين» تكريماً لأفراد الوحدة وقد عرفوا جميعاً بلا استثناء بولائهم وإخلاصهم لدولتهم الثيبية وبمفاداتهم بعضهم لبعض [انظر أفلاطون: المحاورات].

كان غورغيداس، على ما يزعمون، أوّل من ألّف الكتيبة المقدّسة من ثلاثمائة رجلٍ مختارين. وكانت مهمتهم حراسة القلعة ولذلك كانت الدولة تنفق عليهم وتزوّدهم بكلّ ما هو ضروريّ لتدريبهم. ومن هنا جاء اسم «كتيبة المدينة»، لأن الحصون كان يطلق عليها اسم المدينة عادةً. ويقول آخرون إنها تألّفت من شبّان ارتبط بعضهم ببعض برباط الودّ الخاصّ. وهناك قول فكه شهير لپومينوس Pommenes هو أن نسطور شاعر هوميروس، لم يكن بارعاً في قيادة الجيش حين نصح الإغريق أن يضعوا قبيلة في صف قبيلة وأسرة لُصق أسرةٍ حتى «تساعد القبيلةُ القبيلةَ، ويعاون القريب قريبه!» بل كان عليه أن يضع المحبّ إلى جنب حبيبه». لأن الرجال الذين ينتمون إلى عشيرة واحدة، وينحدرون من أسرة واحدة، قليلاً ما يهتمّ أحدهم بالآخر عندما يتأزّم الموقف. ولكنّ عُصبةً شدّت عُراها الصداقة المبنيّة على الحبّ لا يُفلّ غُرابها ولا تنفصم آصِرتها. لأن المحبوبين يدركهم العار إذا أظهروا خِسّةً وجُبناً أمام محبوبيهم، فتراهم يندفعون إلى ركوب الخطر بكلّ سرور لإنجاد بعضهم بعضاً. وليس هذا بالذي يدعو إلى العجب ما دام اهتمامهم بمحبيّهم الغائبين يزيد على اهتمامهم بالحاضرين منهم. كقصّة ذلك الذي همّ عدوّه بقتله، فكان رجاؤه الحارّ منه أن يقضي عليه بطعنة في صدره لئلا يدرك حبيبه الخجل لَدُن يراه جريحاً في ظهره. ومن الأساطير المتداولة أن إيولاؤوس Ioaus الذي عاون هرقل في أعماله وقاتل إلى جانبه، كان حبيباً له. وذكر أرسطو أن المتحابين كانوا يقسمون على الوفاء فوق تُربة إيولاؤوس. فمن المحتمل والحالة هذه أن تلك الكتيبة سُمّيت «مقدّسة» بسبب ذلك، لأن أفلاطون يُسمّي المحبّ «الصديق الملهم إلهياً»[١٦]، وقِيل إنها لم تخسر معركة قطّ، حتى الموقعة التي جرت قرب خيرونيا: شَخَصَ فيليب إلى ميدان القتال بعد نهايته ليتفقّد جثث القتلى فبلغ الموضع الذي سقط فيه «الثلاثمائة» صرعى معاً أثناء اشتباكهم مع فلانسكه فأدركه عجب شديد، ولمّا علم أنهم «كتيبة المحبّين» بكى وقال:

«لا كان ذلك الرجل الذي يشكّ في أن هؤلاء الرجال أقدموا على أي فعل دنيء، أو عانوا منه».

لم تكن نكبة لايوس Laius[١٧] سبب نشوء هذا الشكل من العلاقة ما بين الثيبيين كما خُيّل للشعراء؛ فإن أوّل نشوئها كان على يد المشترعين وهدفهم منها تطرية الطباع

---

(١٦) أفلاطون المحاورات.

(١٧) أو لاكوس Lacus.

الجامحة أثناء الصغر. فجعلوا للّعب بالناي مقاماً جلياً في مناسبتي اللهو والجدّ على السواء. واهتموا كثيراً بتشجيع هذا اللون من الصداقة في مدارس المصارعة، لترقّ أمزجة الشباب وتلين طباعهم، وحداهم هذا على أفضل عملٍ وهو جعل الربّة هارموني Harmony بنت مارس وڤينُس ربّتهم المفضّلة. لأن التحام القوة والشجاعة، بالرقة وحسن السلوك يؤدّي إلى «انسجام» يجمع كل عناصر العِشرة والاجتماع في نظام تامٍّ توافقي.

وزّع غورغيداس أفراد هذه الكتيبة على الصفوف الأمامية من المشاة، فتضاءلت بسالتهم، لأن تفرّقهم وانفراط عقدهم، واختلاطهم بمن يقلّ عنهم عزيمة وبأساً، حرمهم فرصتهم العادلة لإظهار كفاءاتهم كاملةً. على أن پيلوپيداس الذي عجَمَ بأسهم وخبره في تيجري حيث قاتلوا بمفردهم ملتفّين حول شخصه، لم يفرّق ما بينهم قطّ. وأبقى قِوام الكتيبة على حاله. وكان يسند إليهم الواجب الأول في أعظم المعارك. إذ كما يكون عدو الجياد المشدودة إلى العجلة أشدّ وأسرع من عدوها منفردةً (لا لأن قوّتها المتحدة تشقّ الهواء بسهولة بل لأن مغالبتها بعضها بعضاً وتنافسها على السبق يذكي حماستها، ويلهب روحها بالإقدام. كذلك فكر پيلوپيداس أن ذوي البأس والعزم ـ باستفزازهم أحدهم الآخر إلى أشرف الأعمال ـ سيكون أكثر نفعاً وأشدّ مراساً وإقداماً إن اتحدوا معاً.

بادر اللقيديمونيون إلى مسالمة كلّ الإغريق، ثم وحّدوا كلّ قواتهم ضدّ الثيبيين. واخترق ملكهم كليوكبروتوس الحدود بجيش قِوامه عشرة آلاف راجل وألف فارس. إلى ما قبل هذا كانت بويوتيا مهددة بالاحتلال فحسب، أما الآن فإن شبح الفناء التام والدمار العامّ يخيّم عليهم. واستولى على البلاد رعبٌ لم تعرف له مثيلاً من قبل. وترك پيلوپيداس منزله إلى الحرب فلحقت به زوجته وتوسّلت إليه باكية أن يكون حذراً على حياته فأجابها قائلاً:

«الجنود البسطاء يُنصحون بالحذر على حياتهم يا زوجي العزيزة. أمّا القادة فيُنصحون بالحرص على سلامة الآخرين».

ولما بلغ المعسكر ووجد أمراء الجيش منقسمين إلى رأيين فبادر ينحاز بداهةً إلى جانب إپامنداس الذي كان من رأيه الاشتباك مع العدوّ. ولم يكن پيلوپيداس وقتذاك قائداً عاماً لبويوتيا، بل آمر الكتيبة المقدسة، وأهلاً لتلك الثقة التي تناسب مثله رجلاً قدّم لبلاده الكثير في مجال حرصه على حريتها واستقلالها. فكان له القول الفصل واتّفق على القتال. وعسكروا في ليوكترا أمام السپارطيين. وهنا رأى پيلوپيداس رؤيا أسلمته

إلى قلق عظيم: في السهل الممتد أمامه كانت ترقد جثث بنات سكيداسوس Scedasus، ويطلق على المرقد اسم ليوكتريداي Leuctridae نسبة إلى شهرة الموضع، وقد تمّ دفنهن هناك بعد أن اغتصبهنّ وقتلهنّ جماعة من السپارطيين الأغراب. بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء راح الأب يطلب الانتصاف في لقيديمون فلم يفز بطائل وعاد ليبخع نفسه على قبر بناته وهو يرسل أهول اللعنات والدعوات بالشرّ إلى السپارطيين. ومنذ ذلك الحين والنبوءات والعِرافة تَتْرَى منذرةً قوم الجناة بالحذر الشديد من الانتقام الإلهي في ليوكترا. وأُغلق الأمر على الكثيرين ولم يفهموا المقصود بطبيعة الحال. وكان الغموض ناجماً عن الموقع فهناك بُليدة لاكونيا Laconia الواقعة على ساحل البحر وهي أيضاً تُدعى ليوكترون، وثمّ موضع قريب من مدينة ميغاپوليس في أركاديا يدعى ليوكترا. كما أن هذا الحادث وقع قبل المعركة بزمن سحيق.

خُيّل لپيلوپيداس وهو نائم في الخيمة أنه رأى هاته العذارى يبكينَ على قبرهنّ ويلعنّ السپارطيين. ورأى سكيداسوس يقول: إذا رغبوا في النصر فعليهم أن يضحّوا لبناته بعذراء ذات شعر كستنائي. وعدّه پيلوپيداس أمراً ينطوي على قسوةٍ وإلحاد، إلاّ أنه نهض وقصّ الحلم على العرّافين وأمراء الجيش، فكان من رأي بعضهم أن الأمر صحيح واجب الطاعة. وضربوا أمثلة من التاريخ القديم تبريراً لوجهة نظرهم، فذكروا مينيوكيوس Menoeceus ابن كريون Creon وماركايا Marcaria بنت هرقل. وأوردوا أمثلة من الأزمنة المتأخّرة فذكروا فركيديس Pherecydes الفيلسوف الذي ضحّاه اللقيديمونيون، وما زال جلده محفوظاً عند ملوكهم تنفيذاً لما قضت به النبوءات. وليونيداس الذي أنذرته النبوءة فنفّذ ما أمرته وضحّى بنفسه لمصلحة البلاد الإغريقية. وثيموستوكلس الذي قدّم أضاحي بشرية إلى باخوس أوميستوس قبيل خوضه معركة سلاميس. وكل هؤلاء برهن نجاحهم على صواب أعمالهم. وعلى الضدّ من ذلك فعل أغيسيلاوس فقد خرج من الموضع نفسه لقتال الأعداء الذين قاتلهم أغاسمنون فيما مضى، وأُمر في حلم جاءه في أوليس Aulis أن يضحّي بابنته قُرباناً فحال ضعفه دون ذلك، وكانت نتيجة حملته الفشل والخيبة الذليلة[١٨].

---

(١٨) گزينفون: الهّلينيون ٧: يعلمنا أن پيلوپيداس في أثناء سفارته إلى ملك الفرس شرح له أن الكره الذي حفظه اللقيديميون لأهل ثيبه سببه أنهم لم ينضمّوا إلى قوات أغيسيلاوس عند خروجه لحرب الفرس. ولأنهم منعوه من التضحية بابنته في أوليس عندما طلبتها ديانا ولو فعل ذلك لضمن النجاح في حربه.

على أن الفريق الآخر وجده فريضةً بربريةً لا يمكن أن يكون محلّ رضى الكائنات العليا، وقالوا إن الجبابرة والأعاصير ليست هي التي تحكم العالم، بل هو الأب الكلّي الأسمى، للآلهة وللبشر، ومن السخف أن يُتصوَّر سرور إله من الآلهة أو قوة من القوى العليا بقتل البشر وتضحيتهم، وإن وجِد بينهم من كانت صفته هذه فعلينا ألاّ نعتدّ بهم، لضعفهم هذا الذي يجعلهم أعجز عن إسداء العون لأحد، فمثل هذه النزوة القاسية اللامعقولة لا تحيا ولا تصدر إلاّ من عقول ضعيفة مأفونة.

وفيما كان أمراء الجيش بين أخذٍ وردٍّ، وپيلوپيداس يعاني أعظم الحيرة، إذ بمهرة *تتفلّت من قطيع وتروح تعدو في أرجاء المعسكر، حتى وصلت موضع اجتماعهم* فوقعت فجأة بلا حراك. وبينما أخذ بعضهم يبدي عجبه للونها الكستنائي الفاتح، وبعضهم يعجب برشاقة تكوينها، أو بقوة صهيلها وشدّته، استغرق الكاهن العرّاف ثيوقريطس Theocritus في التفكير، ثم هتف بپيلوپيداس:

«دونَك يا صاحبي الطيّب فانظر! ها هي الضحيّة قد أقبلت فلا تنتظر عذراء أخرى سواها. وخذ ما بعثت به الآلهة لك».

فوثبوا على المهرة واقتادوها إلى قبر العذارى بالمراسم الدينية والصلوات المعتادة، وضحّوا بها منشرحي الخاطر، وأذاعوا بين صفوف الجيش حكاية رؤيا پيلوپيداس، وكيفية تقديمهم القربان المطلوب منه.

وعند بدء المعركة عمل إپامينداس على إمالة فلانكسه إلى جهة اليسار محاولاً قدر استطاعته فصل الميمنة المؤلّفة من السپارطيين عن بقية الوحدات الإغريقية، ومبادهة كليومبورتوس بهجوم عنيف وفق نظام الرتل ضدّ ذلك الجناح. فأدرك العدوّ الخطة، وبدأ بتغيير نظام اصطفافه بفتح ونشر ميمنته على جبهة واسعة للالتفاف حول إپامينداس وتطويقه مستفيدين من تفوّقهم العدديّ الساحق. إلاّ أن پيلوپيداس أسرع يقود كتيبة الثلاثمائة إلى الميدان كالريح العاصف قبل أن يفلح كليومبروتوس في مدّ خطّه وسدّ الثُلمات فيه، وهكذا وثب عليهم وصفوفهم مختلفة. كان الجنود اللقيديمونيون يعدّون أعظم الجنود في الدنيا خبرة وأحسنهم تدريباً. ولم يتعوّدوا شيئاً أو يتمرّنوا عليه قدر ما تعوّدوا المحافظة على نظامهم عند انتقالهم من وضع إلى وضع في المعركة فلا يقع في صفوفهم أي خلل، ولا يتردّدون في السير وراء أي قائد أو مساعد قائد، بتشكيلات منتظمة. ويندفعون إلى أي موضع يكون الخطر على أشدّه. وفي هذه المعركة تجاهل إپامينداس سائر القوات الإغريقية وحصر همّه بالسپارطيين فصكّهم بفلانكسه. وأقبل پيلوپيداس باندفاع وسرعة لا تُصدَّق، فهدّ شجاعتهم، وأوقع البلبلة في خططهم

التعبوية. وبدأ الفرار الأعظم ثم المقتلة الكبرى فيهم مما لم يُعرف مثله من قبل(١٩). ونقال پيلوپيداس وهو بمنصب قائد كتيبة صغيرة، لا جنرالاً رفيع القيادة، شهرةً ومجداً من هذا النصر لا يقلاّن عمّا ناله إپامنننداس الذي كان يشغل منصب القائد العام لبويوتيا.

مهما يكن، فقد تقدّم كلاهما نحو الپيلوپونيسوس زميلين في القيادة العليا وحصلا من الحلف السپارطي على أكبر جزء من البلاد المتحالفة، وهي إيليس Elis، وأرغوس وأركاديا، ومعظم لاكونيا. وكان الوقت أقسى الشتاء، ولم يبقَ من الشهر الأخير غير أيام قلائل. وفي بداية الشهر التالي كان من المقرّر أن يُعيَّن الضبّاط الجدد ومن يتأخر من الضبّاط القدماء في تسليم وحداته يُقطع رأسه. فأشار قادة الجيش بالانسحاب خوفاً من حكم القانون. واجتناباً لشدّة برد الشتاء. إلاّ أن پيلوپيداس انضمّ إلى إپامنننداس في حث بني قومه وتشجيعهم على القتال، وزحفا بهم على سپارطا وعبروا يورتاس واستولوا على مدن عديدة واجتاحوا البلاد وتوغّلوا حتى بلغوا البحر.

كان الجيش الذي جرّده الثيبيون يبلغ سبعين ألفاً من الإغريق، وتبلغ نسبتهم فيه واحداً إلى اثني عشر، إلاّ أن سُمعة الرجال رغّبت كل حلفائهم في الانضواء تحت لوائهم واتخاذهم زعماء، بدون اتفاق أو معاهدة تنصّ على هذا. ولا شكّ في أن أرفع القوانين وأوّلها هو أن يكون من في حاجة إلى الحماية مطيعاً للقادر على الدفاع عنه. وكالبحّارة الذين يُظهرون الوقاحة والعُنْجُهِيّة في الطقس الهادئ والبحر الساكن، وفي أثناء مكوثهم في الميناء يتطاولون حتى على الربّان، فإذا ما أقبل النوء وعصفت العاصفة وبات الخطر ماثلاً رأيتهم يتصاغرون للربّان ويتسابقون إلى خدمته معلّقين عليه كل آمالهم. كذلك كان الأرغوسيون والإليائيون والأركاديون، تراهم في مؤتمراتهم العامة

---

(١٩) لم يكن الجيش الثيبي يزيد عن ستة آلاف مقاتل بأي حال من الأحوال [ديودورس ١٥: ٥٥ وكزينفون: ٦] في حين كان جيش خصمه مع خيّالته التي كانت أفضل تدريباً وكفاءة، ولم يكن يمتطي الخيل من المحاربين اللقيديميين إلا أغنياؤهم الأمر الذي جعل هذا الصنف سيّئ النظام سيّئ التغذية بفرسان تنقصهم البراعة والدراية. كما أنه سدّ عجزه العددي بترتيب وحداته بعمق خمسين مقاتلاً في حين كان العمق السپارطي اثني عشر. ولما استظهر الثيبيون وقتلوا كليرمربوتس استمات السپارطيون وهدفهم استنقاذ جثة ملكهم فأشفع الجنرال الثيبي انتصاره الأول بانتصار ثانٍ تسبّب عن مغامرة السپارطيين بهجحوم ثان. ولم يصدق حلفاء سپارطا معهم في القتال إذ كانوا يتوقّعون نصراً دون أن يسبقه قتال. أما الثيبيون فقد خاضوا المعركة وحدهم دون حلفاء [ديودورس وكزينفون]. نسبت هذه المعركة في العام ٣٧١ق.م.

ينازعون الثيبيين على القيادة العليا، فإذا جاءت المعركة، أو داهمهم الخطر العظيم احتموا بقادتهم الثيبيين طوعاً، وتأثروا خطاهم دون تردّد. وقد وُفِّق الثيبيون في هذه الحملة فوحّدوا بلاد أركاديا وطردوا السپارطيين الذين كانوا قد استعمروا ميسّينيا Messenia وسكنوها. ثم استدعوا المسّينيين القدماء وأسكنوهم جميعاً في إيثوم Ithome وفي كنچرايه Cenchreae[٢٠] عند رجوعهم، وشتّتوا شمل القوات الأثينية التي كانت تريد الإيقاع بهم أثناء عبور المضيق لعرقلة سيرهم.

وازداد الحب والإعجاب بشجاعتهما في نفوس سائر الإغريق لما أبدياه من بسالة وحققاه من انتصارات. في حين زاد حس مواطنيهم لهما لصعود نجمهما، فأعدّوا لهما استقبالاً شائناً مخجلاً. وحوكما بتهمةٍ عقابها الموت، لأنهما لم يُسلّما قيادتيهما في أوّل شهر بوكاتيوس Buvatius كما يحتّمه القانون، بل احتفظا بها أربعة أشهر أخرى فوق مدّتهما، وأنجزا خلالها تلك الأعمال الباهرة في ميسّينيا وأركاديا ولاقونيا. وحوكم پيلوپيداس أوّلاً، وتعرّضت حياته لأعظم الخطر، إلاّ أنهما بُرّئا. وتحمّل إپامنداس الاتهام والمحاكمة بصدر رحبٍ وصبر جميلٍ، وعدّ هذه المحنة جزءاً هامّاً من فضيلتي الشجاعة والسماحة اللتين تعلّمانه بأنّ الأذى الذي يصيبه في حياته السياسية لا يُبرّر له أن يحمل مَوْجِدَة!. أما پيلوپيداس فكان حادّ الطبع عاطفياً وقد أثاره أصدقاؤه وحثّوه على الانتقام للإهانة، فاهتبل المناسبة الآتية: كان مينيقليداس Meneclidas الخطيب أحد أولئك الذين وحّدوا جهودهم مع ميلون وپيلوپيداس في منزل خارون لتدبير الانقلاب ضدّ الطغاة. إلاّ أنه لم يقم بمآثر توازي ما قاما به، وكان خطيباً مُصقِعاً ذرِب اللسان، إلاّ أنه متحلّل الخُلق، سيّئ الطبع. وحصر همّه في النَّيل من پيلوپيداس والحطّ من قدر مآثره واستمرّ في ذلك حتى بعد المحاكمة. وهدفهُ الانتقاص ممن علوه قدراً وفضلوه، وإلصاق الاتهامات بهم. وتمكن من إبعاد إپامنداس عن منصب القيادة العامة. وظلّ مدة طويلة صاحب اليد الطولى. إلاّ أن نفوذه لم يبلغ به حَدّ نزع حبّ پيلوپيداس من قلوب الشعب وحرمانه عطفهم. فعمد إلى خلق خصومةٍ بينه وبين خارون. إن الحاسدين من طرازه يجدون لذّتهم وراحتهم في الانتقاص ممن عجزوا عن التفوّق عليهم، وإظهارهم بمظهر أسوأ من الآخرين. لذلك دأب في مبالغته بتعظيم أعمال خارون في خطبه العامة، وإغداق المديح على حملاته وانتصاراته. وحاول

(٢٠) حصل هذا بسبب خطأ من أبفيقراطس وهو قائد اشتهر بالحنكة والدهاء. فقد نسي أن يضع جنوداً في ممرّ كنخريسي في حين وضعهم في مركز أقل أهمّية وخطراً.

تخليد النصر الذي أحرزته الخيّالة التي قادها في پلاطيا Plataea (قبل معركة ليوكترا) بالشكل التالي: كان أندروكسيدس Androcydes الكيزيكيني Cyzicenian الرّسام قد استؤجر لتصوير معركة سابقةٍ، فانصرف إلى العمل بها في ثيبه. ثم قامت الثورة واستعرت نيران الحرب، فحفظ الثيبيون الصورة وهي تكاد تكمل. فأخذ مينيقليداس يعمل على إقناع الثيبيين بتكريسها لخارون ونقش اسمه عليها، وقَصْده من هذا أن يطمس مآثر پيلوپيداس وإپامنننداس. وكانت دعوى سخيفة، واقتراحاً غير معقول، معناه وضع نصر منفردٍ لم يُقتل فيه إلاّ سپارطي مغمور اسمه جيرانداس Gerandas مع أربعين من جنوده، في موضع أعلى من كل تلك المعارك الهامة العديدة. ولذلك انبرى پيلوپيداس يعارض الاقتراح بوصفه مخالفاً للقانون قائلاً إن العُرف الذي جرى الأثيبيون عليه يقضي بألاّ يُخلّد رجلٌ منفرد أيّاً كان، بل أن تُعزى الانتصارات كلها للشعب. غير أنه ظلّ طوال المناقشات يُثني على خارون أجمل الثناء. وحصر همّه في محاولة الكشف عن خبيئة مينيقليدس وإظهاره على حقيقته شخصاً دسّاساً حاقداً. وطلب من الثيبيين إن أرادوا الإقدام على عمل ممتاز أن يعاملوه بما هو حقيق به وأقنعهم إلى أن فرضوا على مينيقليدس غرامة فادحة عجز عن دفعها، وحاول بعد ذلك أن يثير القلاقل في الحكومة. هذه الأمور تنير لنا بعض الجوانب من حياة پيلوپيداس.

عندما أعلن الإسكندر طاغية فيري Pherae[٢١] الحرب على قسم من مدن الثساليين، وبيَّت السوء للجميع، بعثت المدن بسفارة إلى ثيبه تطلب عونها. وكان پيلوپيداس يعلم أن انشغال إپامنننداس في شؤون الپيلوپونيسوس يمنعه من المساهمة فعرض نفسه لقيادة التساليين في كفاحهم، لأنه لم يكن يريد أن تستسلم شجاعته ومهارته للكسل والبطالة، فضلاً عن أنّ انسحاب إپامنننداس من واجبه لا ينطوي على حكمة أو فائدة. وما إن وصل ثساليا بجيشه حتى استولى على لاريسّا Larissa. ثم حاول إصلاح سلوك الإسكندر الذي أعلن ولاءه واجتهد في حمله على نبذ أسلوب حكمه المستبدّ، واحترام القانون والحكم بعدلٍ ورفقٍ، لكنه وجد فيه وحشاً ضارياً عنيداً لا تلين قناتُه، وبلغته عدة شكاوى عن جوره وبطشه، فضيّق عليه الخناق حتى اضطره إلى الانسلال سِرّاً من المدينة هو وحرسه.

(٢١) دسّ لعمّه پوليفرون السّمّ بعد ذلك وجعل نفسه طاغيةً في مكان. وكان پوليفرون نفسه قد فتك بأخيه پوليدوروس والد ألكساندر. لقد غصب هؤلاء تساليا وكانت دولة حُرّة [ديودورس ٢٥ـ٦١، گزينفون ٦].

وعلى أثر ذلك ترك پيلوپيداس التساليين آمنين وقد زال عنهم كل خوف من الطاغية، وحلّ ما بينهم الصفاء والوئام. وانحدر إلى مقدونيا[٢٢] وكان بطليموس Ptolmy إذ ذاك في حرب مع الإسكندر ملكها. وقد بعث الفريقان المختصمان بطلبه ليستمع إلى خلافهما وليحكم فيما بينهما ويعاون الجانب المهضوم حقه. فقدِم وصالحهما، ودعا المنفيين إلى العودة، وأخذ فيليب أخا الملك وثلاثين من أولاد الأشراف بمثابة رهائن وجاء بهم إلى ثيبه، مبرهناً للإغريق على مبلغ الثقة والسمعة التي نالها الثيبيون بفضل نزاهتهم[٢٣] وجرأتهم. وفيليب هذا[٢٤] هو الذي حاول فيما بعد أن يستعبد الإغريق، ولم يكن في حينه يتعدّى الصبّا، يعيش مع پامينس Pammenes في ثيبه. ومن هن ظُنّ أنه اقتدى في أعماله التالية بإپامنداس ورُجّح أنه اتخذ من براعته في الحرب وخفّته مثلاً يحتذيه. وهذا على كل حال جانب يسير من سجايا إپامنداس. أمّا عن دماثته ونزاهته وكرمه وطيبته التي برز فيها حقاً، فلم يتصف فيليب بواحدة منها لا طبعاً ولا تطبُّعاً.

وبعد فترة من الزمن عاد التساليّون يشكون الإسكندر الفيري لإثارته الفتن في المدن. فخرج پيلوپيداس مع إسميناس Ismenias في سفارة إليه من ثيبه بدون جيش لأنهما ما كانا يتوقّعان قتالاً، على أن يستخدما التساليين عندما تضطرهما الحاجة. ودبّ الاضطراب في الوقت نفسه في أحوال مقدونيا مرّةً ثانيةً بعد أن عمد بطليموس إلى اغتيال الملك، وتسلّم زمام الحكم. فبعث أصدقاء الملك يستدعون پيلوپيداس فلم يرفض التدخل في الأمر، إلاّ أنه كان مفتقراً إلى جيش خاص به، فجنّد بعض المرتزقة من البلد وتقدّم بهم لمواجهة بطليموس. ولما تقابلت القوّات عمد بطليموس إلى إفساد مرتزقة پيلوپيداس بالمال وإغرائهم بعصيانه. ومع هذا فقد كانت أوصاله ترتعد خوفاً من مجرّد اسم خصمه وشهرته، فأقبل عليه كما يقبل التابع على متبوعه وأعلن الولاء وطلب الصفح معتذراً بأنه ما مارس الحكم إلاّ ليحفظه لأخوة الملك الميّت، وأنه مستعد لتقديم الدليل على كونه صديقاً لأصدقاء ثيبه وعدوّاً لأعدائها. وضماناً لهذا وضع ابنه

(٢٢) خلّف أمتاس الثاني ثلاثة أولاد شرعيين هم ألكساندر، وپردكاس، وفيليب. كما خلّف ابناً غير شرعي هو بطليموس الذي حارب ألكساندر وقتله غدراً. وكان حكمه ثلاث سنوات.

(٢٣) في هذا العهد كانت كل دويلات الإغريق قد نسيت اهتمامها بقضية الحرية. ولم يعد من بين كلّ هذه الحكومات من طبّق النظام الجمهوري ويهتمّ بأمور المستضعفين والمظلومين ويشعر بالوطنيّة غير جمهورية ثيبة. ديودورس ١٥ : ٦٠.

(٢٤) هو والد الإسكندر الكبير.

فيلوكزينوس Philoxenus وثلاثين من لِداته بمثابة رهائن فأرسلهم پيلوپيداس إلى ثيبه. على أنه حنِق بصورة خاصة على مرتزقته لما أظهروه من غدرٍ وخيانة. ولما علم أن معظم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم في فارسالوس Pharsalus، فكّر أنه يصيب منهم انتقامه كاملاً لو تمكن من الاستيلاء عليها. فجمع حوله عدداً من الشاليين وزحف بهم على فارسالوس ولم يكد يدخلها حتى ظهر الإسكندر الطاغية بجيش على أبوابها. وحسب پيلوپيداس أنه جاء لتبرئة نفسه من الجرائم التي عُزيت إليه، فخرجا إليه، متصوّرين أن سلطة ثيبه، ومنزلتهما وسمعتهما تقيهما أي اعتداء، مع علمهما التامّ بقسوته وتهوّره. ولما وجد الطاغية أنهما وحيدان أعزلان بادر بالقبض عليهما واحتلال فارسالوس، فاستولى على رعيّته خوف عظيم، وساد الاعتقاد عندهم ـ بعد هذا الاعتداء الدنيء الصارخ ـ أن لا أحد سيسلم من بطشه، وأن تصرّفه إزاء الجميع وفي كلّ الأمور سيكون كسلوك اليأس من الحياة.

ولما بلغت الثيبيين هذه الأنباء ثار ثائرهم وتميّزوا غيظاً وبعثوا بجيش يقوده آخرون غير إپامنداس الذي كان مغضوباً عليه وقتذاك. وكان الطاغية قد سمح للناس كافّة أن يتصلوا بپيلوپيداس(٢٥) أوّلَ ما نقله إلى فيري، متصوّراً أن نكبته هذه ستحطّم معنوياته، وتجعله يبدو موضع مهانة واستصغار. ولكن بپيلوپيداس راح ينصح أهل فيري أن يتجمّلوا بالصبر فبعده فرجٌ، حتى لكأنه مطمئن إلى أن الطاغية لن يعتم أن يدفع ثمن الإهانات التي ألحقها به. وبعث للطاغية بمن يخبره «أنه من السخف والعبث أن يعذب يومياً رعاياه الأبرياء ويوقع بهم ذبحاً وتقتيلاً، ويُبقي عليه وهو يعلم جيداً بأنه سينتقم منه انتقاماً هائلاً لو نال حريته». فبهت الطاغية لجرأته، وحريته في الكلام وأجاب: «لماذا يستعجل پيلوپيداس موته إلى هذا الحَدّ؟»، فردّ پيلوپيداس عليه بما يأتي:

«لكي تكون أسرع إلى منيّتك. إذ ستصبح بعد قتلي أبغض إلى الآلهة مما أنت عليه».

وبعد هذا منع الطاغية محادثته منعاً باتّاً، إلاّ أن ثيبي Thebe زوجه، التي هي بنت جاسون Jason، تملّكتها رغبة شديدة في رؤيته ومكالمته بعد أن سمعت من الحرّاس عن نُبل سلوكه وجرأته، فأقبلت عليه في السجن. ولكونها امرأةً، لم تُفلح لأول وهلة في إدراك عظمته وهو في وسط نكبته وإنما حكمت بأنه عومل معاملة فظّة دنيئة لا تليق

(٢٥) كانوا قد غضبوا عليه لأنه لم يمضِ في مطاردة العدوّ بعد المعركة الأخيرة مع اللقيديميين قرب كورنث، واستثمار نصره هذا بقتله وأسره الكثير من الأعداء. فعُزل ونُحّي عن الحكم في بويوتيا. وجعلوه يخدم كجندي بسيط في الجيش [ديودورس ١٥: ٧٢].

بشهرته، من رثاثة ثيابه ومظهره العام، فبكت. وكان پيلوپيداس يجهل هويّتها، فتسمّر في مكانه مبهوتاً، وعندما علم صفتها أقرأها التحيّة منادياً إيّاها بلقب أبيها (فقد كان وجاسون صديقين وعشيرين ودودين). قالت له:

- إني لأُشفق على زوجك يا سيّدي.

فأجابها:

- أمّا أنا فأُشفق عليك لأنك تستطيعين احتمال الإسكندر مع أنك غير مقيّدة به بسلاسل!

ومسّت عبارته من المرأة وتراً حسّاساً فلطالما أبغضت زوجها لقسوته وظلمه وفجوره الذي فاق كل حدٍ، ولاعتدائه الشنيع على أخيها الأصغر. وتعدّدت زياراتها له وكاشفته بما تجرّعت من إهانات على يده، وأظهرت مزيداً من الحقد والكره لزوجها الطاغية.

إن الجنرالية الثيبيين الذين أُرسلوا إلى تساليا لم يفعلوا شيئاً، إلا قيامهم بانسحابٍ مخجلٍ منها لقِصَر باعهم في القيادة، أو لسوء حظوظهم[٢٦]. ففرضت المدينة على كل منهم غرامة قدرها عشرة آلاف دراخما، وبعثت بإپامنداس على رأس قواتها نفسها. فانتعشت آمال التساليين بشهرة القائد الجديد وانتفضوا ورفعوا حالاً لواء الثورة. وكانت أحوال الطاغية تسير به إلى الخراب سيراً حثيثاً. وبلغ الخوف بقادة جيشه وأنصاره مبلغاً شديداً واشتدت رغبة الرعيّة في الانتفاض عليه أملاً في عقابٍ عاجلٍ ينزل به. إلاّ أن إپامنداس كان أكثر اهتماماً بسلامة پيلوپيداس من أيّ مجدٍ يُحرزه. ولخوفه من استيلاء القنوط على الإسكندر إذا ضيّق عليه الخناق، فيندفع كالوحش الهائج لينهش ويعضّ، لم يشنّها عليه حرباً ضاريةً وإنما ظلّ يحوّم فوقه بجيشه كالباشق المستعد للانقضاض حتى أتلف أعصابه وحطّم ثقته ولكنه لم يدفعه إلى اليأس والهياج. كان إپامنداس يعلم مبلغ وحشيّته، واستهانته التامة بكل ما هو عدل وحق، فلطاما دفن الناس أحياء وألبس الأبرياء جلود الدببة والخنازير وأطلق عليهم كلابه الشرسة تنهشهم، أو جعلهم هدفاً لنباله وأسِنّة حِرابه! وفي ميليبوا Meliboea وسكرتوسا المدينتين الحليفتين[٢٧] له دعا السكان جميعاً إلى اجتماع عام، ثم أمر حراسه فأحاطوا بهم وأعملوا السيف فيهم

---

(٢٦) عقبهم إلكساندر وأنزل بهم خسائر جسيمة أثناء المطاردة. ويعود الفضل في سلامة البقية الباقية إلى كفاءة إپامنداس الذي أجبره الجنود على أن يتسلّم القيادة [ديودوروس ١٥: ٧١].

(٢٧) هي من مدن مغنيزيا. ومغنيزيا إقليم يقع جنوب مقدونيا.

كافّةً. وكرّس الرمح الذي أردى به عمّه پوليفرون Polyphron، وزيّنه بقلائد الزهر يضحّي له ويقدّم القرابين كما لو كان ربّاً، مطلقاً عليه اسم تيخون Tychon[٢٨]، ومرّة شاهد ممثلاً تراجيدياً يمثّل مسرحية «الطرواديون» Trodes ليورپيدس فخرج من الملعب، وأرسل بطلب الممثل. فلمّا حضر طلب منه ألاّ يمتعض من خروجه أثناء التمثيل وأن ينصرف إلى إكمال دوره لأنه لم يترك الملعب تحقيراً له بل لخجله من رعاياه إن رأوه يبكي لمشهد ما تعانيه هيكوبا Hecuba وأندروماخه Andromache في سياق التمثيلية، وهو الذي لم يدركه أسف على أي شخصٍ فتك به! هذا المستبدّ انتابه القلق لاسم ونبأ وقدوم حملةٍ بقيادة إپامنينداس. وسرعان ما «خفض جناحيه المقهورين، كالديك الجبان» وأرسل وفداً يعرض ويرجو ترضيةً. ورفض إپامنناداس أن يقبل مثل هذا الرجل ضمن حلفاء ثيبه على أنه منحه هُدنةً أمدُها ثلاثون يوماً، تمّ خلالها إطلاق سراح پيلوپيداس وإسميناس فعادا إلى الوطن.

وعلم الثيبيون أن السپارطيين والأثينيين أرسلوا وفداً إلى مملكة الفرس بطلب العون. فانتدبوا هم أيضاً پيلوپيداس لسفارة مماثلةٍ، فكانت صُدفة ممتازة لرفع مقامه وزيادة شهرته. إذ لم يسبق أن مرّ في بلاد ملك فارس شخصية جليلة القدر شهيرة الصيت. لأن المجد الذي ناله من انتصاراته على السپارطيين لم يزحف كالسلحفاة ببطء وخمول بل انتشر كالنار في الهشيم بعد أن تردّد في البلاد صدى الموقعة الأولى في ليوكترا ثم عقبتها أنباء الانتصارات الجديدة تباعاً، فزادت كثيراً في شهرته وصيته ونشرته على القاصي والداني. وكان موضع إعجاب وتقدير كل جنرال أو قائد أو ساتراب فارسي يلقاه، وموضوع أحاديثهم. فقالوا مشيرين إليه:

«هذا هو الرجل الذي طرد اللقيديمونيين من البحر والبرّ، وحبس سپارطا بين نهري تايغيتوس ويورتاس، وكانت قبلها بزمن قصير قد اشتبكت في حربٍ ضروس مع الملك العظيم تحت قيادة أغيسيلاوس، حوالي صوصه وأكبتانا».

ولقد أشاع هذا السرور في أعطاف أرتحشتنا Artaxerxes وزاد من رغبته في أن يُظهر لپيلوپيداس التفاتاً ورعاية، فقد كان يحبّ أن يرى نفسه كعبة القصّاد من عظماء الرجال، وموضع تبجيلهم. وارتفعت منزلة السفير الثيبيّ عندما لقيه وسمع حديثه الذي كان أكثر رزانة من حديث السپارطيين، وأدّى له من الاحترام ما يليق بأمثاله الملوك،

---

(٢٨) معنى الكلمة «ذو الحظ السعيد» أو «المحظوظ».

الأمر الذي لم تفت السفراء الآخرين ملاحظته. وكان الاعتقاد سائداً أن أنتالسيداس الإغريق هو من نال أعظم الخظوة لديه من سائر الإغريق[٢٩]، فقد بعث إليه بتلك القِلادة المغموسة بالزيت التي كان قد أحاط بها عنقه في وليمة من الولائم. والحق يُقال إنه لم يعامل پيلوپيداس بمثل هذه المعاملة الرقيقة، على أنه أتحفه بأنفس وأغلى الهدايا حسب العادة المتبعة. وحقق سؤله وطلباته (وهي عدم التعرّض لحرية الإغريق، وإعمار مسينيا بالسكان، ونشوء صداقة متوارثة بين الملك والثيبيين). وبعد أن نال ذلك قفل راجعاً معتذراً عن قبول كلّ الهدايا إلاّ ما اعتبره رمزاً لحسن النيّة ودليلاً على التعاطف. وكان نجاح پيلوپيداس سبباً في خراب السفراء الآخرين. فقد أدان الأثينيون سفيرهم تيماغوراس Timagoras ونفّذوا به حكم الموت، ولو أنهم فعلوا ذلك بسبب قبوله مقداراً كبيراً من هدايا الملك[٣٠] فحكمهم هذا عادل وصحيح، إذ لم يقبل ذهباً وفضة فحسب بل قبل سريراً فاخراً وعبيداً للعناية به، (كأن الإغريق لا يفقهون هذا الفن!) فضلاً عن ثمانين بقرةً مع رعاتها، متعلّلاً بأن حليب البقر ضروري لداءٍ ابتُلي به، وأخيراً كان قد حُمل بمحفّة إلى ساحل البحر مع هبة لخدمه قدرها أربعة تالنتات. ولكن من المحتمل جداً أن لا يكون جشعه هو السبب في سخط الأثينيين، لأن إيپقريطس Epicrates ناقل الأمتعة لم يكتفِ بالاعتراف للجمهور بأنه تسلّم هدايا من الملك، بل تقدّم باقتراح يقضي أن يُنتخب بدلاً من «الأراخنة» التسعة فقراء تسعة من أشدّ المواطنين إملاقاً وأن يُرسلوا بمثابة سفراء إلى الملك ليغنيهم بهداياه. فضحك الجمهور فحسب على هذه النكتة. على أنهم في الحقيقة كانوا ساخطين ناقمين لفشل سفرائهم وحصول الثيبيين على كلّ ما سعوا إليه، دون أن يحسبوا حسبا شهرة پيلوپيداس التي كانت أقوى أثراً من فصاحة الأثينيين ومقدرتهم الخطابية، مع رجلٍ ما زال قلبه يميل إلى المنتصر بقوة السّلاح. إن هذه السفارة التي أعادت مسينيا إلى أهلها الشرعيين وضمنت حرية بلاد الإغريق الأخرى حصلت لپيلوپيداس على قدر كبير من حسن الثقة عند عودته.

---

(٢٩) إن كان پلوتارخ يقصد السفير السپارطي فهو يختلف عن گزينفون الذي يثبت اسمه بـ«يوثيكلس» Euthycles. كذلك يعلمنا أن تيماغوراس هو الرجل الذي كان الملك يرفع من قدره ويكره بعد پيلوپيداس. وربما كان ذلك في فترة سابقة عندما كان أنتالقيداس في البلاط الفارسي. إن عادة إرسال العطور والروائح الزكية عنواناً للتقدير والمحبّة ما زالت سائدة في الشرق.

(٣٠) وعن گزينفون (المرجع السالف ٧٠) أن جريمة تيماغوراس الحقيقية هي ما زعمه زميله الموفد مع ليون من أنه كان على اتصال دائم بپيلوپيداس مؤيداً كلّ شيء اقترحه لمصلحة أهل ثيبه.

في ذلك الزمن عاد الإسكندر الفيري إلى طبعه الأول من العدوان، فاستولى على كثير من المدن الشالية ووضع حاميات في بلاد آخائيي Achaen فْيوتيس Phthiotis، والمغنيزيين. ولما سمعت المدن بعودة پيلوپيداس أرسلت إلى ثيبة وفداً مستنجداً يطلب معونة بقيادة پيلوپيداس نفسه. فأجاب الثيبيون سؤلهم بطيبة خاطر. وعندما تمّ تجهيز كل شيء وبدأ الجنرال في مسيرته كُسِفت الشمس وساد الظلام المدينة ظُهراً. فبهت پيلوپيداس للظاهرة العجيبة ولم يرَ من اللائق أن يُرغم الرجال الخائفين الخائري العزيمة على الرحيل، ولا أن يخاطر بمصائر سبعة آلافٍ من مواطنيه ولذلك انطلق بثلاثمائة فقط من الخيّالة المتطوّعين في الطريق إلى ثساليا خلافاً لرغبة العرّافين وأخوانه المواطنين عموماً. وكانوا كلّهم يرون في الظاهرة نذير شؤم يستهدف هذا الرجل العظيم، إلاّ أنه كان يتميّز غيظاً من الإسكندر وينقم عليه لما أصابه منه. كما كان يأمل أيضاً مما سمعه قبلاً من حديث ثيبي أن أسرته الآن منقسمة على نفسها وعلى خلافٍ كبير. إلاّ أن انتصار الحملة كان أكثر إثارة له من أي دافع آخر، ففي هذا الوقت كان اللقيديمونيون يرسلون الضباط العسكريين لمساعدة ديونيسيوس الطاغية الصقليّ، والأثينيون يتقاضون الأموال من الإسكندر ويعظمونه بإقامة تمثال برونزي له باعتباره محسناً إليهم. فكان شديد الرغبة في أن يُظهر الثيبيون للناس أنهم هم وحدهم بين الإغريق يتبنوّن قضية المستضعفين الذين يضطهدهم الطغاة، ولا يترددون في القضاء على أي شكل من أشكال الحكومات المستبدة غير الشرعية في كل بلاد الإغريق.

عندما وصل پيلوپيداس مدينة فارسالوس جمع جيشاً وتقدّم به لملاقاة الإسكندر، وعلم هذا أن الثيبيين في جيش خصمه قليلون، وأن مُشاته ضُعف مشاة الشاليين، فسعى إليه في ثيتيديوم Thetidium. وقال أحدهم لپيلوپيداس:

ـ الطاغية يواجهنا بجيش جرّار.

فأجابه:

ـ وهذا أفضل لنا، إذ ستتغلّب والحالة هذه على الكثرة.

وكانت تمتدّ بين الجيشين سلسلة من التلال العالية الشديدة الانحدار بالقرب من مدينة سينوسكفالي Cynoscphalae التي حاول الفريقان الاستيلاء عليها بمشاتهما. وقاد پيلوپيداس خيّالته الجيدة الكثيرة العدد في هجوم على خيّالة العدوّ فهزموها ولاحقوها في السهل. لكن الإسكندر احتل التلال في تلك الأثناء وهاجم المشاة الشاليين الذين تقدّموا بعد ذلك وحاولوا أن يشقّوا طريقهم صُعداً في المرتفع الوعِر الصخري، فقتل طلائعهم وعجز الآخرون عن إلحاق أيّ ضررٍ بقوّاته لما أصابهم من

إنهاك شديدٍ. فلما تبيّن پيلوپيداس ذلك نفخ بوق التراجع لخيّالته وأمرها بمهاجمة وحدات العدوّ الصامدة في مواقعها. وتناول تُرسه والتحق فوراً بالوحدات التي كانت تقاتل حول التلال وتقدّم إلى الصفوف الأمامية وملأ رجاله بالشجاعة والحماسة حتى خُيّل للأعداء أنهم يصولون عليهم بأرواح وأجسام أخرى غير تلك التي يملكونها؛ وصدّوا هجومين أو ثلاثة لهم ولكنهم وجدوا اندفاعهم كاسحاً عنيفاً، كما أطبقت عليهم الخيّالة العائدة من المطاردة فانكفأوا إلى الوراء بنظامٍ. وأدرك پيلوپيداس بثاقب نظره ومن الأرض المرتفعة أن جيش العدوّ تسوده الفوضى ويعمّه الاضطراب وإن لم تلحق به الهزيمة بعد، فأخذ يبحث عن الإسكندر ولما رآه على الجناح الأيمن يشجّع مرتزقته ويصدر إليهم الأوامر لم يتمالك شعور الغضب الذي اجتاحه لمرآه. وانساق وراء عاطفته كالأعمى غير مقيم وزناً لا لحياته ولا لمسؤوليته القيادية، فتقدّم كثيراً عن جنوده وهو يصرخ متحدّياً ويدعو الطاغية للنزال، فلم يجب هذا وتقهقر وأخفى نفسه بين حرسه. وصدّ پيلوپيداس طلائع المرتزقة التي التحمت معه عن قربٍ وقتل بعضها إلاّ أن كثيراً منهم صوبّوا أسنّتهم إلى دروعه من بعيدٍ وخرقوها فجُرح، حتى إذا أسرع الشساليون وقد استبدّ بهم القلق من النتيجة يهبطون التل لنجدته، وجدوه قد فارق الحياة. ووصلت الخيّالة أيضاً ودحروا الفلانكس وطاردوا العدوّ المقهور مسافة طويلة وملأوا الميدان بجثث القتلى الذين أنافوا على الثلاثة آلاف.

ما كان لأحدٍ أن يدهش للحزن العميق الذي استولى على الثيبيين الحاضرين لمصرع پيلوپيداس، فقد راحوا يندبونه وينادونه بالأب والمنقذ والمعلّم لكلّ ما هو حسنٌ وأهل للثناء. ولكن الشساليين والحلفاء بزّوهم في ذلك بما أصدروا من مراسيم بتكريمه غاية التكريم الحريّ بالتقدير للشجاعة البشرية. وقدّموا شواهد أقوى من هذا على الودّ الذي يحفظونه له بإبداء مشاعرهم الخاصة. وذُكر أن الجنود إذ علموا بمصرعه لم يفكّروا في نزع دروعهم أو رفع السروج عن ظهور خيولهم أو معالجة جروحهم، بل أسرعوا وهم لاهثون بحرارة القتال وبأيديهم السلاح، إلى حيث جثّته مسجّاة وراحوا يكدّسون الغنائم الحربية عليه كأنه ما يزال في قيد الحياة يرى ما يصنعون. ثم قصّوا أعراف خيلهم وجزّوا نواصيهم[٣١]، وامتنع أكثرهم عن إيقاد النار في خيامهم، وعافوا وجبة عشائهم، وران الأسى والصمت على الجيش برمّته، كأنهم لم يربحوا أعظم معركة وأخطرها، بل كأن الطاغية هزمهم وأخذهم عبيداً. وما إن

---

(٣١) من تقاليد الحداد عند الإغريق.

علمت المدن بالفاجعة حتى خرج حكامها وشبابها وأحداثها وكهنتها لاستقبال الجثمان وأخذوا معهم تذكارات حرب وتيجاناً ودروعاً ذهبية. وعندما حان موعد الدفن تقدّم شيوخ الشساليين طالبين من الثيبيين أن يتولّوا عنهم مراسم التشييع. وقال واحد منهم:

«أيها الأصدقاء، نحن نطلب منكم فضلاً فيه تشريف لنا وراحة معاً في فاجعتنا العظمى هذه. إن التساليين لن يتيسّر لهم بعد الآن أن يقوموا على خدمة پيلوپيداس الحيّ، ولن تُتاح لهم فرصة تكريمه تكريماً بشعر به. ولو سمحتم لنا بجثمانه، وبتزيين جنازته وتشييعه إلى مقرّه الأخير، فإننا نأمل أن نُثبت بهذا الحقيقة الواقعة وهي أن خسارة التساليين به أعظم من خسارة الثيبيين. إنكم فقدتم به جنرالاً حاذقاً فحسب، أما نحن ففقدنا جنرالنا وحرّيتنا. إذ كيف سنتجرّأ على طلب قائد آخر منكم ما دمنا لا نقوى على إعادة پيلوپيداس؟».

وأجابهم الثيبيون إلى طلبهم. فعملوا له تشييعاً فخماً لا يساويه تشييع، كما كان رأي أولئك الذين لا يرون الفخامة في المواكب التي يزيّنها الذهب والعاج والأرجوان، كما فعل فيليستوس Philistus[٣٢] الذي أنفق ببذخٍ وإشراف جنوني على جنازة ديونيسيوس فختم بها طغيانه مثل خاتمة فخمة لمسرحيّة تراجيدية عظيمة. ولم يكتفِ الإسكندر الكبير عند وفاة هيفيستيون Hephaestion بجزّ أعراف خيله وبغاله بل عمد إلى هدم دعائم أسوار المدينة لتظهر أيضاً بمظهر الحداد وتبدو عند تشييعه كاسفةً كئيبة عاطلة عن شكلها الجميل. إلاّ أن مثل هذا التكريم الذي يُجبر عليه الناس ويؤمرون به إنما يشاركون فيه بمشاعر الحَسد والغيظ ممن خُصّصت لهم وبمشاعر السخط والكراهية لمن فرضها عليهم. فهذه ليست أدلّة على الحب والاحترام وإنما مظاهر ترفٍ ومباهاة قوم البرابرة وغطرسة أولئك الذين يغدقون ثرواتهم على هذا العبث المقيت. وهذا رجل من طبقة العامة، يموت في بلاد الغُربة ولا زوج أو ولد أو أقرباء بجانبه. تتنافس المدن فيما بينها دون إرغامٍ أو طلب بالخدمة والتشييع والدفن، على استباق إحداها الأخرى في إظهار ما تكنّه من حبّ. إن هذا ليبدو خلاصةً وختاماً لحظّ سعيد. «فموت الرجل السعيد ليس أعظم فاجعة، بل أعظم بركة» كما قال أيسوب Aesop، لأنه يضمن سعادتهم العظمى ويجعلها بمنأى عن متناول يد القدر. وإنها وأَيْمُ الحقّ لَنِعْمَ النصيحة

---

(٣٢) هذا الكاتب خدم بالتتابع الديونيسيين جميعاً. وبعد أن هزم ديون آخر طاغية منه قام بقتل نفسه.

تلك التي تقدّم بها ذلك السپارطي الذي عانق دياغوراس Diagoras(٣٣) المتوّج بالغار في الألعاب الأولمبية، وعاش ليرى أولاده وأحفاده يفوزون فيها ويتوَّجون، وقال له:

«ألا مت يا دياغوراس لأنك لا تستطيع أن تكون إلهاً!».

ومع هذا لو وضِعت انتصارات كلّ الألعاب الپيثية والأولمپية معاً، فمن ذا الذي يضاهيها بانتصارٍ واحدٍ من انتصارات پيلوپيداس وما أكثر ما حققه! لقد أنفق حياته كلها في أعمال تَتّسِم بالنبل والبسالة ومات بالأخير وهو القائد العام لقوات بويوتيا المسلحة للمرة الثالثة عشرة، وخرّ صريعاً وهو يقاتل ببأس لتقويض حكم طاغيةٍ، دفاعاً عن حرية الشاليين.

وكما أن موته أورث حزناً شاملاً، كذلك عاد بالنفع أيضاً للحلفاء، إذ لم يتأخر البيثيون ساعةً عن الثأر له ما إن سمعوا بمصرعه ودفعوا بسبعة آلاف من الرجّالة وسبعمائة من الخيّالة تحت قيادة مالسيطاس Malcitas وديوجيتون Diogiton. فوجدا الإسكندر ضعيفاً لا يملك قوّاتٍ، فأرغماه على إعادة المدن التي استولى عليها، وسحب حاميته من بلاد المغنيزيين، وآخائيي فثيوتيس، وإعطائه عهداً بمساعدة الثيبيين ضدّ أي عدوٍّ يشاؤون. وقد أرضى هذا التدبير الثيبيين إلاّ أن العِقاب أدرك الطاغية للشرّ الذي عمله، وانتقمت السماء لموت پيلوپيداس بالطريقة التالية واحتياطاته ما دامت تعيش هي بينها ولا تُمنع من ولوجها. كما أنها كانت تخشى هي أيضاً تقلّبات مزاجه، وتكره قسوته. ولذلك ائتمرت به مع إخوتها الثلاثة طيسفونس Tisiphonus وپيثولاوس Pytholaus وليوكوفرون Lycophron فقاموا بالمحاولة التالية لقتله: كانت كلّ الأجنحة تُملأ بحرس الطاغية ليلاً. إلاّ أن غرفة نومها كانت في طابق علوي، وأمام الباب كلب مقيّد بسلسلة يقوم على حراستها وهو يهاجم كل إنسان إلاّ الطاغية وزوجه والخادم الذي يطعمه. فلما قرّرت ثيبي اغتيال زوجها، عمدت إلى إخفاء إخوتها طوال اليوم المقرّر للعملية في حجرة مجاورة. ودخلت هي على عادتها إلى حجرة الإسكندر بمفردها وكان نائماً، وبعد قليل خرجت وطلبت من الخادم المختص أن يأخذ الكلب ويروح به لأن زوجها يريد أن يصيب نوماً هادئاً. ثم إنها ألقت صوفاً على الدرج لئلا تصدر أصوات من أقدام إخوتها أثناء صعودهم. ثم قادت إخوتها إلى أعلى وهم شاكّو

---

(٣٣) دياغوراس هذا انحدر من نسل هيراقليوس من خطّ تليپوليموس الذي كان حاكماً لرودس. وقد قُتل أمام أسوار طروادة. وكان موضوع النشيد الأولمپي السابع الذي نظمه الشاعر پندار ونقشه الرودسيون بماء الذهب فوق هيكل منيرڤا في ليندوس Lindus.

السلاح وتركتهم عند باب الحجرة ودخلت، ثم رجعت إليهم وبيدها سيف الطاغية وكان معلّقاً فوق رأسه، تأكيداً بأنه مستغرق في نومه. ولكن الخوف بدا على الشبّان، وظهر منهم صدور عن القتل. فتملّكتها سَورة من الغيظ وراحت تُقرّعهم وأقسمت بأنها ستوقظ الإسكندر وتكشف له عن المؤامرة. وهكذا تقدّمتهم والمصباح في يدها إلى الداخل، وكانوا يشعرون بمزيج من الخوف والرعب، وأدنتهم من السرير فأمسك أحدهم بقدميه وسحبه الآخر من شعره إلى الخلف وطعنه الثالث طعنة قاتلة. وربما كان موته أسرع مما يجب. إلا أنه كان أوّل طاغية يُقتل بمؤامرة زوجه. وأُهينت جثته وطُرحت إلى الخارج وأصبحت موطئ أقدام أهل فيري.

يبدو أنه تجرّع ما تستحقّه جرائمه الشنعاء.

مارچللوس

MARCELLUS
(Marcus Claudius)

٢٦٨–٢٠٨ ق.م

قالوا إن ماركوس كلوديوس الذي تولّى منصب قنصل الرومان خمس مرّات، كان ابن ماركوس. وهو الأول في أسرته الذي لُقّب بـ«مارچللوس» المشتقّ من لفظ Martial[1]: «عسكري» كما يؤكد پوسيدونيوس Posidonius. وكان والحق يُقال متمرّساً في فنون الحرب لخبرته العسكرية الطويلة، قويّ البدن، باطش الكفّ، ميّالاً بطبعه إلى مزاولة صناعة الحرب. ولا يبدو مِزاجه الناريّ وطبعه العنيف إلاّ في المعركة وبصورة بارزةٍ، وإلاّ فهو متواضع رقيق الشمائل ليّن العريكة. وأما وقوفه على العلوم اليونانية، والتهذيب العقليّ، فلا يرتفع إلى أكثر من إعجابه وتقديره لمن تمرّسوا فيها وبرعوا، ولم يكن هو بالذات قد أصاب منها حظاً يُشبع به رغبته إليها، بسبب انصرافه إلى مشاغله الأخرى العسكرية. فلو وجِد في الدنيا أيّ من الرجال الذين قال عنهم هوميروس[2] بأن السماء قد:

«قدّرت عليهم أن يخوضوا حروباً طاحنة ضروساً
منذ شرخ الشباب حتى أراذل العمر!».

فهم على وجه التأكيد كبار الرومان في ذلك العصر. ففي مطالع شبابهم خاضوا الحرب ضدّ القرطاجنيين في صقلية، وفي إبّان كهولتهم قاتلوا الغاليين دفاعاً عن أراضي إيطاليا الأصلية. وأخيراً لما بلغوا سنّ الشيخوخة قادوا الكفاح ضدّ هنيبعل والقرطاجنيين[3]. وأرادوا في أواخر سني حياتهم ما كان مضموناً لمعظم الناس، أي

---

(١) الرومان مغرمون باتخاذ أسماء آلهتهم الكبار أسماءً لهم ومن هنا جاءت أسماء: ماركوس، مارشيوس، ماميروس، مامركوس إلخ...

(٢) الإلياذة ١٤: ٨٦.

(٣) سنّ الخدمة العسكرية عند الرومان بمقتضى قانون سرڤيوس توللیوس يتراوح بين السابعة عشرة والسادسة والأربعين. وبعدها يُعفى الروماني من أية خدمة عسكرية. ولم يخرق هذا القانون إلاّ في الحرب الغاليّة كما ذُكر فيما بعد. أما اللقيديمي فيظلّ خاضعاً للخدمة العسكرية حتى سنّ =

الخلاص من متاعب الحرب ومشاقّها، إلاّ أن مراتبهم ومواهبهم العظيمة كانت دوماً تستدعي انتدابهم للقيادة.

وكان مارچللوس خبيراً في كل نوع من أنواع القتال، إلاّ أن تفوّقه الأعظم هو في النزال الفردي، ولم يُعلم عنه أنه رفض تحدّياً، أو قبِل تحدّياً إلاّ وقتل متحدّيه. وفي صقلية حمى أخاه أوتاسيليوس Otacilius وأنقذ حياته عندما طوّقه الأعداء في إحدى المعارك. وقضى على كل من داناه. وبسبب هذه البطولة أهدى إليه قادة الجيش، وهو بعد صغير، تيجاناً وما إليها من جوائز التقدير. وبدأت سجاياه تتكشف أكثر فأكثر، حتى نصّبه الشعب رئيس شرطة كورول أيديل Curule AEdile[٤]، وعيّنه الكهنة بمنصب عرّاف: Augur، وهو طبقة من الكهانة أودع لها الشرع أساساً مهمّة مراقبة دلائل النبوءات. وفي فترة تولّيه الشرطة ألجأته حادثة مؤسفة إلى رفع شكوى أمام مجلس الشيوخ: كان ابنه ماركوس يتمتّع بجمالٍ أخّاذ، وهو في زهرة شبابه، وكان الإعجاب بذلك منه لا يقلّ عن الإعجاب بحُسن أخلاقه. حاول زميل مارچللوس في الوظيفة الاعتداء على الشاب، وكان يدعى كاپيتولينس Capitolinus وهو رجل سيّئ الطباع وقِحٌ، فصدّه الشاب عن نفسه أولاً، فلم يكفّ وتحرّش به ثانية، فأبلغ أباه بالأمر. فاحتدم مارچللوس غضباً وسخطاً وشكاه إلى مجلس الشيوخ: فاستأنف المتهم الشكوى إلى مفوّضي [تريبيونات] الشعب محاولاً بشتى الحِيَل والمساعي إسقاط التهمة عنه. فلم يقبل هؤلاء بسط حمايتهم عليه، وعمد هو إلى حجب التهمة عن نفسه بالإنكار التام، ولما لم يكن في القضية شاهد عِيانٍ فقد وجد الشيوخ من اللازم إحضار الشاب أمامهم. ولما رأوا خجله ودموعه، وإحساسه بالعار، مقرونة بالسخط والقرف، لم يعودوا بحاجةٍ إلى دليل آخر لإثبات الواقعة، وأدانوا كاپتولينوس وحكموا عليه بغرامة يدفعها للمشتكي. فصنع مارچللوس بها وعاء تقدمةٍ فضيّ وأهداه للآلهة.

= الستين. وتبدأ الخدمة العسكرية عند الأثينيين في الثامنة عشرة حتى الأربعين. ويقضي الأثيني الستين الأولين في الدفاع عن المدينة، والخدمة في حاميات قلاع أتيكا.

(٤) تشمل وظيفة الإيديل في عهد الجمهورية واجبات كثيرة وخطيرة. فهو فضلاً عن مسؤوليته في الإشراف على الألعاب العامة، يقوم بوظائف مدير الأشغال العامة، كما أنه يراقب الأسواق وهو مسؤول عن ثبات الأسعار وتأمين القمح الكافي والمحافظة على المعابد. وتأتي هذه الوظيفة الرابعة في سلّم المناصب الكبيرة التنفيذية [قنصل. بريتور. چنصور]. وقد استُحدثت في العام ٣٦٦ق.م كما تنقله التواريخ. وهي نوعان ما يدعى بـ Curulian Aedile. وما يدعى بـ Plebian Aedile ومدة الخدمة هي سنة واحدة.

بعد أن وضعت الحرب البونية Punie[٥] أوزارها، وكانت قد امتدت عشرين سنةً، ذرَّ قرنُ الخطر الغاليّ، وبدأ يقلق روما ثانيةً. وكان الإينسوبريون Insubrians[٦] الأقوياء الذين يسكنون أصقاع الألب الدُنيا من إيطاليا قد جنّدوا من الغاليين مرتزقةً عُرفوا باسم گيساتي Gaesatae[٧]. وكان من قبيل المعجزة وحسن الحظّ النادر لروما أن الحروب الغاليّة لم تتفق زمنياً والحرب البونية. وأن يظلّ الغاليّون ساكنين بكلّ إخلاصٍ، يقفون كالمتفرجين بينما كانت نار الحرب البونية مستعرةً. وكأنما تعهّدوا لروما بألاّ يحرّكوا ساكناً، وأن ينتظروا المنتصرين لمهاجمتهم! والآن بعد ختام تلك الحرب لم يعد ثمّ ما يمنعهم من الظهور على المسرح. على أنّ الوضع السياسي السائد، وشهرة الغاليين السالفة، أشاعت خوفاً ليس بالقليل في نفوس الرومان. لأنهم كانوا في سبيل خوض حرب قريبة الميدان من أرض الوطن، بل ضمن حدود البلاد. كما كانوا ينظرون إلى القوم نظرة حذرٍ وتوجّس يفوق توجّسهم من أي قوم آخرين، فذكرى استيلائهم مرة على عاصمتهم ما زالت ماثلة لأذهانهم. وبدا خوفهم هذا واضحاً من القانون الذي استنّوه وقتذاك وهو ينصّ على إعفاء الكهنة من كلّ الواجبات العسكرية إلاّ عندما تُهدّد البلاد بغزوات غاليّة.

وبلغت الاستعدادات الرومانية لهذه الحرب أقصى درجة (لم يُؤْثَر سابقاً أو لاحقاً أن عبّأ الرومان مثل هذا العدد من الفِرق الكاملة السلاح كما عبّأوا الآن). وكان هذا وقرابينهم الفائقة للعادة دلائل واضحة على مبلغ خوفهم. فمع أنهم كالإغريق يمقتون الطقوس البربرية القاسية مقتاً شديداً، ويمتازون عن سائر الشعوب الأخرى بمشاعرهم

---

(٥) يخطئ بلوتارخ هنا في سرده الوقائع. فالحرب الفيونية الأولى دامت ٢٣ عاماً. إذ بدأت في ٢٦٢ق.م وانتهت في ٢٤٩ق.م. وفي أثناء ذلك بقي الغاليّون ساكنين لا يأتون بحركة ثم تحرّكوا بعد أربع سنوات وزحفوا نحو أرمينيوم. إلاّ أن البوئي Boii الذين تمرّدوا على زعمائهم، أقدموا على قتل الملكين آتيس Ates وگالاتيس Galates. وعلى إثر ذلك انقضّ الغاليّون بعضهم على بعض فهلك عدد كبير، وقفل الباقون عائدين إلى بلادهم. وبعد خمس سنوات بدأوا يعدّون لحرب جديدة بسبب التقسيم الذي أحدثه فلامينوس في أراضي البيجنتس Pecintines التي انتزعت الغاليين الذين يقطنون ما وراء الألب، وقد استمرت الاستعدادات مدة طويلة. وبدأت الحرب بعد التقسيم بثماني سنين. وكان يقود الغاليين كلّ من كونگوليتنانس وأنيرويتس أثناء تولي إيميليوس پاپوس وإيتليوس ريگولوس منصب القنصلية في العام ١٢٤ق.م [انظر پوليبيوس ٩٠٢ وليڤي ٢٢: ٣٥].

(٦) أي الميلاتيون.

(٧) ربّما لقبّوا بهذا من نوع أسلحتهم.

الوادعة المفصحة عن احترامهم للآلهة، لم يترددوا عندما داهمتهم هذه الحرب في تطبيق نبواءات معيّنة وجدوها في «أسفار كسبيل» فعمدوا إلى دفن رجل وامرأة يونانيين وهما على قيد الحياة[٨]. وأتبعوهما بذكر وأنثى غاليين في سوق يدعى «سوق الوحوش». واستمروا إلى يومنا هذا يقدّمون إلى هؤلاء الأرباب الضحايا الأربع خلال مراسم دينية معيّنة في شهر تشرين الثاني من كل سنة.

وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مبدئها. يحرز الرومان أحياناً انتصارات باهرة، ويصابون أحياناً بهزائم منكرة. ولم يتقرّر النصر التام لأحدٍ في هذا الكفاح حتى نُصّب فلامينيوس Flaminius وفيرويوس Furius قنصلين، فساقا جيشاً لجِباً على الأنيسوبريين. وشوهد النهر الذي يجري في إقليم پيسنوم Piceunum عند رحيلهما وهو طافح بالدم. وذُكر أنه شوهدت أقمارٌ ثلاثة دفعةً واحدةً في أريمنيوم Ariminum. وفي اجتماع قنصلي بروما أعلن الكهنة العرّافون أن انتخاب القنصلين لم يكن شرعياً، وليس مما يتفق والنبوءات التي تُنذر بشؤم تنصيبهما. فعجّل مجلس الشيوخ بإرسال كتبٍ إلى المعسكر باستدعاء القنصلين إلى روما بأسرع ما يمكن وأمرهما بالامتناع عن الاشتباك مع العدوّ، والتنازل عن منصبهما القنصلي. وفي أوّل فرصة جيء بهذه الكتب إلى فلامينيوس فأرجأ فضّها، حتى كسر العدو[٩] وطارد قواتهم وتوغّل وراء حدودهم واجتاح بلادهم وعاث فيها سلباً. إلاّ أن الشعب لم يخرج لاستقباله عند عودته مثقلاً بمقادير ضخمة من الغنائم، لأنه لم يُطع في الحال الأمر الذي ورده بالعودة، بل لم يكترث به وازدراه. وكادوا ينكرون عليه حقه بموكب النصر. ولم ينته الاحتفال به حتى عزلوه هو زميله عن الحكم وأنزلوهما إلى مرتبة المواطن العاديّ. هكذا كانت تُصرَّف كلّ الأمور في روما، بالاعتماد الكلّي على الدين. فلا يسمحون بأي استصغار يوجّه إلى العِرافة وطقوس القدماء، مهما كانت تصيب الأمورُ المنهيّ عنها من النجاح الكبير. وراح بهم الوهم إلى أن احترام الحكّام لإرادة الآلهة هو أهمّ وأجدى للسلامة الوطنيّة من قهر الأعداء. كان طيباريوس سمپرونيوس Tiberius Sempronius الذي وضع الجمهور سجاياه واستقامته في أرفع منزلة قد نصّب سيبيو ناسيكا وكايوس

---

(٨) فعلوا مثل هذا ثانيةً في الحرب الفونية الثانية [ليڤي ٢٢: ٥٧].

(٩) لا يعود الفضل له بالنصر [ليڤي ٢١: ٦٣] فقد دخل المعركة والنهر وراءه ولم يكن للجنود مهرب غير العمل على دحر العدو. ويعود الفضل بالحقيقة إلى التريبيونات الذين لجأوا إلى فنون عسكرية يشرحها ليڤي بتفصيل. لقد اندحر فلامينيوس هذا أيام هنيبعل في معركة تريبيا Trebia العام ٢١٦ق.م.

مارشيوس Caius Marcius قنصلين ليخلفاه، فخرجا كلّ إلى الإقليم الذي عُيِّن فيه. ثم إن طيباريوس هذا بينما كان ينقّب في كتب الطقوس الدينية إذا به يقع على شيء كان يجهله وهو هذا: عندما يريد أيّ قنصل أن يقوم باستخارةٍ فإنه يجلس في بيت أو خيمة تُكترى له خارج المدينة، فإذا استدعاه أمر عاجل إلى المدينة قبل أن يشاهد علامة ما فعليه أن ينتقل إلى خيمة أو بناء آخر عند عودته ليتابع منه المراقبة. ويظهر أن طيباريوس، جهلاً منه، استخدم البيت نفسه مرتين قبل إعلانه تعيين القنصلين الجديدين.

ولما أدرك خطأه فاتح به مجلس الشيوخ، ولم يمرّ المجلس بهذه الهفوة البسيطة مرور الكرام بل عجل بالكتابة عنها لكلّ من سيپيو ناسيكا وكايوس مارشيوس، فتركا إقليميهما وعادا فوراً إلى روما ونزلا عن منصبيهما. حصل هذا في فترة متأخرة[١٠]. وفي حدود ذلك الزمن أيضاً سُحِبت وظيفة الكهنوت من رجلين ذَوي مكانة رفيعة جداً هما كورنيليوس چيتيگوس Cornelius Cethegus وكونيتوس سولپيشيوس Quintus Sulpicius. عُزل أولهما لأنه لم يرفع أحشاء أُضحيةٍ مذبوحة بصورة صحيحة. ونُحّي الثاني لأن الطاقيّة المهدّبة التي يلبسها كهنة الأرباب أمثاله فلامين Flamen سقطت من رأسه أثناء قيامه بذبح الأضحية. ومينوشيوس الدكتاتور الذي كان قد عيّن كايوس فلامينوس آمراً للخيّالة عزلوه هو ومن عيّنه عن القيادة لأن صوصأة فأرة سُمِعت! وبصرف النظر عن الاهتمامهم الشديد بمثل هذه الصغائر التافهة فإن هذا الحصر لم يؤدِّ بهم إلى الشَّعْبذات والأوهام لأنهم لم ينحرفوا بها أو يغالوا عن أسلافهم في تطبيقها.

ما إن استقال فلامينيوس وصاحبه من منصب القنصلية حتى قام الضباط المترئّسون المعروفون باسم «أنترركس» Interrex[١١] بإعلان مارچللوس قنصلاً. وما إن تسلّم مقاليد السلطة حتى اختارا كنيوس كورنيليوس Cnaeus Cornelius زميلاً له. وقيل إن الغاليين اقترحوا عقد صلح، وكان مجلس الشيوخ ميّالاً إلى السلم كذلك، لكن مارچللوس حمّس الشعب للحرب. على أن الظواهر تشير إلى أن الطرفين اتفقا على

---

(١٠) ستون سنةً.

(١١) أو [انتريگيس Interreges] وهؤلاء هم ضباط يتمّ تعيينهم في فترة خلو الدولة من الموظفين الإجرائيين كما يدل عليه معنى الكلم اللاتينية المركبة «بين الحاكمين». ويكون واجبهم دعوة الجمعية العامة لانتخاب الحكام الجدد في قناصل وهلم جرّاً. وقد استحدث المنصب زمن الملكية بقي في عهد الجمهورية ولم يلغ.

الصلح لكنّ مرتزقة الگيساتي نقضوه بعبورهم الألب وإثارتهم الأينسوبريين (كان عدد الگيساتي ثلاثين ألفاً فقط، بينما تجاوزهم الأينسوبريون بكثير) وزحفوا وهم معتدّون بقوّتهم نحو أچيرّاي Acerrae[١٢] وهي مدينة تقع شمال نهر الپو، ومنها اندفع ملكهم بريتومارتوس Britomartus بعشرة آلاف منهم يجتاح الأراضي المحيطة بها. فبلغت الأنباء مارچللوس فخلّف زميله عند أسّيري تاركاً معه المشاة وكلّ الأسلحة الثقيلة وثُلث وحدات الخيّالة، وأخذ بقيّتها وستمائة من المشاة الخفيفة وراح يغذّ السير ليلاً ونهاراً دون استراحة ولم يقف حتى أدرك هؤلاء العشرة آلاف بالقرب من قرية غاليّة تدعى كلاستيديوم Clastidium[١٣] كانت قد ضُمّت إلى ملك الرومان من وقت قصير، ولم يتسنّ له فاصل زمني لإراحة جنوده واستجمامهم إلاّ أن البرابرة انتبهوا إليه حالاً واستخفّوا به لقِلّة مُشاته. وكان الغاليّون أحذق من ركب ومن امتطى الخيل، لذلك أيقنوا بالغلبة ولا سيّما أن تفوّقهم العدديّ على مارچللوس كبيرٌ جداً فلم يأبهوا وعاجلوه الهجوم، وملكهم على رأسهم، كأنما يريدون وَطْأه تحت سنابك خيلهم، وهم يهددون بما سيرتكبون من الفظائع والوحشية. عمد مارچللوس إلى نشر جناحي خيّالته وركب إلى المشاة ومَدّ في جناحيهم طولاً حتى بلغ جبهة العدوّ. وقد لجأ إلى هذا بسبب قلّة جنوده وخوفاً في حركة التفاف يقوم بها العدوّ يستهدف بها الهجوم عليهم من سائر الجهات. وفيما هو يهمّ بالدوران لمواجهتة العدوّ أجفل حصانه لمنظر الغاليين المرعب وصيحاتهم، ونكص على عقبيه مُرغِماً راكبه على التنحّي إلى جانب. وخشي مارچللوس أن يفسّر جنوده الحادثة تفسيراً سيّئاً ويتخذوها فألاً نحساً فتثبط عزائمهم، فأسرع يدير حصانه ليواجه العدوّ، وأتى بحركة بدا فيها وكأنه يصلّي للشمس وأنه لم ينكص دائراً على عقبيه بمحض الصدفة بل لغرض الدعاء. إذ كان من عادة الرومان أن يدوروا على أعقابهم عندما يرفعون الصلاة للآلهة. وفي هذه اللحظة التي كان سيصطدم فيها بالعدو قِيل إنه نذر خير السلاح لچوپتر فيريتريوس Jupiter Fertius.

تطلع ملك الغال إلى مارچللوس فخمّن أنه الجنرال من شعار السلطة الذي يتقلّده،

---

(١٢) بلدة ما بين مدينتي ميلان وپلاچنتيا. قريبة من نقطة اتحاد نهري (أدّا) و(پو) كان الرومان يحاصرونها في حين زحف الغاليون لفك الحصار عنها. لكن ما لبثوا أن تبينوا عجزهم فعبروا نهر الپو بجزء من عسكرهم وألقوا الحصار على (كلاستيديوم) لتحويل الضغط وتخفيفه عن اچيري. [پوليبيوس، ليڤي ٢٠: ٥٢].

(١٣) يضعها ليڤي في ليگوريا مونتانا.

فتقدّم مسافة عن جيشه المهيّأ للالتحام وتحدّاه للنزال بصوت عالٍ ملوّحاً برمحه، وهمز جواده فانطلق به نحوه كالعاصفة. وكان أفرعَ هامةً من سائر الغاليين وأبرزهم بدروعه المحلاّة بالذهب والفضّة ومختلف الألوان وهي تلمع كالبرق الخاطف. وبدت هذه الدروع لمارچللوس وهو يستعرض جيش العدوّ المصطفّ للمعركة خير دروعٍ وأجملها وحسِبها تلك التي نذرها لچوپتر، فأسرع نحو الملك وخرق درع صدره بطعنة رمح ثم أخذ يشدّ عليه بثقل حصانه حتى ألقاه على الأرض وعاجلهُ بضربتين أو ثلاثٍ أخرى فقتله. وترجّل في الحال ووضع يده على سلاح القتيل وشخص ببصره إلى السماء وتكلّم بالآتي:

«يا چوپتر فيريترويوس، يا حَكماً في بطولات القادة، وأعمال الجنرالات في الحرب وفي المعارك، كن شاهداً بأنّي أنا جنرالٌ، قتلت جنرالاً. أنا قنصل قتلتُ ملكاً بيديّ هاتين، فكنتُ الثالث من الرومان في هذا. وإليك أقدّم أوّل وأفضل الغنائم؛ هب لنا القدرة على إنهاء بقيّة هذه الحرب بهذا الحظّ المؤاتي نفسه».

ثم زجّت الخيّالة بنفسها في المعركة ضدّ فرسان العدوّ ومُشاتهم الذين هاجموها ونالوا نصراً فريداً لم يسمع بمثله. إذ لم يحدث من قبل ومن بعد أن هزمت فئة قليلة من الخيّالة هذا العدد الكبير من المشاة والفرسان معاً. لقد قُتل من العدوّ عدد كثير. وجُمعت الغنائم. وعاد مارچللوس إلى زميله(١٤) الذي كان يدير الحرب بدون توفيقٍ ضدّ العدوّ وبالقرب من ميلان Milan أعظم مدن الغاليين وأحفلها بالسكان، وكانت عاصمتهم ولذلك راحوا يدافعون عنها باستماتةٍ وبسالةٍ، حتى بدا وكأنهم يحاصرون كورنيليوس أكثر مما يحاصرهم هو. وبعودة مارچللوس وانسحاب الگيساتي فور سماعهم بمصرع ملكهم واندحار جيشه انقلبت الآية وتمّ الاستيلاء على ميلان(١٥). ونزل الغاليون عن بقية بلدانهم وكل ما يملكون طواعيةً. وعُقد صلح بين الطرفين بشروط عادلة.

وأُعطي لمارچللوس وحده حق الدخول بموكب النصر بمرسوم صادر من مجلس الشيوخ. وكان الاحتفال فخماً، باذخاً، مدهشاً بغنائم الحرب وأجسام الأسرى الجبّارة

---

(١٤) في غياب مارچللوس أتمّ زميله سكيپيو الاستيلاء على أچيري ثم زحف على ميديولانوم وألقى عليها الحصار [پوليبيوس المرجع نفسه، ليڤي ٢٠:٥٤].

(١٥) استسلمت كونوم وهي مدينة هامة. وبذلك غدت كل إيطاليا رومانية صرفة من جبال الألب إلى البحر الأيوني.

وهم يقادون. إلاّ أن المنظر الأروع والأندر كان الجنرال نفسه وهو يحمل سلاح الملك البربريّ إلى الربّ الذي نذرها له. اتخذ عموداً خشبياً طويلاً مستقيماً من البلّوط وهذّبه وشذّبه على هيئة نُصبٍ وعلّق عليه دروع الملك وألبسه سلاحه واضعاً كل قطعة منها في مكانها المناسب. وسار به الموكب مهيباً وهو يحمل النُّصب وصعد العجلة ودخل المدينة ليبدو صورة لأروع نصر. ومشى خلفه الجيش وفق النظام العسكري وهو مزدان بدروع برّاقة صقيلة، يُنشد قصائد نُظمت بالمناسبة ويترنّم بأغاني الظفر إشادة بمدح چوپتر، وجنرالهم. ثم دخل مارچللوس معبد چوپتر فيريتريوس وقدّم هدّيته وهو على ما نعلم ثالث من فعل هذا وآخرهم. الأول كان رومولّوس بعد قتله أكرون ملك الكينينيّن والثاني كان كورنيليوس كوسوس الذي قتل طولمنيوس الأتروسكاني. وثالثهم مارچللوس الذي صرع بريتومارتوس ملك الغال، وكان فيه مسك الختام. إن الربّ الذي قُدّمت له هذه الغنائم يدعى «چوپتر فيريتريوس». ومن الغنائم التي حُملت على القطب Feretrum وهي إحدى الكلمات اليونانية التي كثر استعمالها في ذلك الزمن في اللغة اللاتينية. أو هي كما يقول بعضهم لقب «چوپتر ذي الرعود» مشتقاً من كلمة Ferire أي «الضّرب». وهناك من يقول إنها مشتقّة من «الضّربات» التي تُكال في القتال. ففي أثناء المعارك حتى يومنا هذا ينادي المشتبكون في القتال أحدهم الآخر عند ضغطهم على العدوّ: «إضرب» وهي باللاتينية Feri. والغنائم يطلقون عليها عموماً اسم Spolia، وبصورة خصوصية «Opima». ويقولون إن نوما پومپليوس ينوّه في تعليقاته بصنف أول وثان وثالث من الغنائم التي يسمّيها Spolia Opima. ويُذكر أن الصنف الأول الذي يتمّ اغتنامه موقوف على چوپتر فيريتريوس والثاني مخصص لمارس والثالث لكويرينوس، وأن المكافأة عن الأول ثلاثمائة أسّي Asses، وعن الثاني مائتان وعن الثالث مائة. والمفهوم العام السائد على كلٍ هو أن تلكم الغنائم لا تكون «أوپيما» إلاّ إذا وقعت في يد القائد العام أوّل غنيمة في معركة حاسمة وبشرط أن تُسلب من القائد العام للعدوّ على أن يُضرع بيد قائد العدوّ.

ارتاح الرومان بالنصر وختام أيُّما ارتياح. وبلغ بهم السرور حَدّ إرسالهم دليل امتنانهم من أپوللو دلفي كأساً ذهبية زِنتُها مائة پاوند على سبيل الهدية. ووزّعوا جانباً كبيراً من الغنائم على حليفاتهم من المدن. وحرصوا على إرسال عددٍ كبيرة من الهدايا إلى هيرو Hiroe ملك السيراقوزيين صديقهم وحليفهم.

لمّا غزا هنيبعل إيطاليا أُرسل مارچللوس إلى صقلية على رأس عمارة بحرية. ولمّا هُزم الجيش الروماني البرّي في كاني Cannae وهلك من جنوده بضعة آلاف، ونجت

القلّة منهم بالفرار إلى كاموزيوم Canusium وخشي الجميع أن يُقدم هنيبعل على الزحف نحو روما فوراً بعد سحقه الجيش الروماني، بعث مارچللوس أولاً ألفاً وخمسمائة من جنوده لحماية البلدة. ثم سار إلى كانوزيوم بأمر صدر إليه من مجلس الشيوخ، بعد أن بلغه تجمّع كثير من الجنود الفارّين وفلول الجيش المهزوم داخل تلك المدينة، ونجح في سحبهم خارج الاستحكامات وإنقاذهم حائلاً دون قيام العدوّ بنهب تلك الأنحاء. وكان معظم جنرالية الرومان قد صُرعوا في ساحات القتال وفي أثناء المعارك، وارتفعت شكوى الأهالي من طريقة إدارة الحرب، قائلين إن حذر فابيوس ماكسيموس المتناهي هو أشبه بالجمود والإحجام، وإن كان بُعد نظره وصواب أحكامه مما رفعه إلى أسمى درجة من التقدير عند المواطنين. وكانت ثقتهم في إبعاد الخطر عنهم لا حدّ لها، إلاّ أنهم ما كانوا يتوقّعون منه أن يردّ الكيل بكيل، ولذلك اتجهوا بأفكارهم إلى مارسللوس، يحدوهم الأمل في أن تُقرن جرأته وعزيمته وفورية إجراءاته بحذر فابيوس وفطنته، وأن يُطعَّم أحدهما بالآخر. فراحوا يدفعون بهما إلى العدوّ معاً أحياناً بسلطة القنصل القائد لكليهما، وأحياناً بوظيفة «قنصل» لأحدهما، وبمنصب «پروقنصل» للآخر. وذكر پوسيدونيوس أن فابيوس لُقّب بدرع رما، ولقّب مارچللوس بسيفها. ومما هو ثابتٌ أن هنيبعل أقرّ بأنه يخشى فابيوس كما يخشى مُعلّماً، ويخشى مارچللوس كما يخشى خصماً، يخاف من الأول لئلا يردعه عن خلق تشويشٍ وفوضى، ويخاف الثاني لئلاّ يُلحق به أذىً.

في مبدأ الأمر بينما كان جنود هنيبعل ثملين بخمرة انتصاراتهم، لا يقيمون أيّ وزن لقوة العدوّ، وقد بلغ اعتدادهم بأنفسهم حدّاً كبيراً، راح مارچللوس يهاجم فصائل السلب المغيرة التي كان يطلقها العدوّ، ويُغير على ساقته في المؤخّرة فيُبيدها واحدة بعد الأخرى وبهذا كان يُنقص من قوات خصمه شيئاً فشيئاً. ثم قدّم العون إلى الناپوليين Neapolitans وأهالي نولا Nola. فاستقرت أحوال الأوّلين الذين كانوا مخلصين في حلفهم مع الرومان في الواقع، لكنه وجد النولانيين مختلفين منقسمين على أنفسهم. ولم يكن الشيوخ قادرين على ممارسة الحكم ومماشاة العامة، لأن هؤلاء كانوا بصورة عامة منحازين إلى جانب هنيبعل. وكان في المدينة شخص يُدعى بانتيوس Bantius[١٦] وهو رجل مشهود له بالبأس وشرف المحتِد، أبلى بلاءً مرّاً في معركة كاني وفتك بعدد كبير من الأعداء، ثم وجِد مدفوعاً تحت أكداس من جثث القتلى

---

(١٦) أو بانديوس Bandius.

تغطّي جسده الرماح والأسِنّة فجيء به إلى هنيبعل فاحتفى به وأكرمه غاية الإكرام ولم يكتفِ بإخلاء سبيله دون فدية، بل آخاه واستضافه، فانقلب نصيراً من أقوى أنصار هنيبعل عرفاناً منه بجميله الكبير. وأنشأ يحرّض الناس للانتقاص على الرومان. وراحت المساعي المبذولة لحمل مارچللوس على قتله عبثاً نظراً لما يتمتّع به من مكانة وشهرة، ولاحتماله شتّى الأخطار في القتال إلى جانب الرومان. وكان مارچللوس شديد الثقة بقدرته على استمالة شخصية كهذه جُبِلت بمعدن الشرف، بما طُبِع عليه من مزاجٍ رفيق وسحرٍ وجاذبية في حديثه. وفي ذات يوم التقى ببانتيوس فحيّاه هذا، فسأله مارچللوس متجاهلاً عمن يكون؟ ليس لأنه لا يعرفه، بل ليتخذ من ذلك ذريعة لمجاذبته أطراف الحديث. فأفصح بانتيوس عن اسمه وكُنيته، فافتعل مارچللوس الدهشة المشوبة بالسرور والإعجاب[١٧] وقال:

«أفأنت هو بانتيوس الذي لَهِج الرومان بمديحه، وخصّوه بثناء فاق ثناءهم على كل من حارب في كانّي، بوصفه البطل الذي ظلّ ملازماً پاولوس إميليوس ولم يتخلّ عنه، لا بل تلقّى بصدره الرماح التي كانت موجّهة إليه؟».

فأقرّ بانتيوس بأنه هو بعينه وكشف عن ندوبه. فقال له مارچللوس:

«فلماذا إذن لم تشرّفني بزيارة عند أول قدومي؛ وتلك هي براهينك على محبتك بنا؟ أترانا نحجم عن ردّ الفضل لمن يستحقونه ولا سيّما أولئك الذين أكرمهم أعداؤنا بالذات؟».

وأتبع مجاملته هذه بإهدائه حصان قتال ومبلغاً قدره خمسمائة دراخما. فانقلب بانتيوس لساعتها نصيراً من أخلص أنصار مارچللوس. ونشط في الكشف عن كل من يعمل على الدّس والفتنة.

وكان هؤلاء الدسّاسون من الكثرة بحيث دبّروا مؤامرة واسعة تهدف إلى سلب أثقال الجيش الروماني وأمتعته حال قيام هؤلاء بحملةٍ على العدوّ، لذلك قام مارچللوس بتدابير أمنٍ وحماية داخل المدينة، ووضع أمتعة الجيش في أمكنة قريبة من أبواب المدينة. وأصدر أمراً رسمياً بحظر اقتراب النُولان من الأسوار. وبهذا لم يعد يُرى سلاح في المدينة من الخارج. وهكذا استدرج هنيبعل للتحرك نحو المدينة بجيشه الذي كان يتخلّله بعض الفوضى، متوّهماً أن المدينة تموج بالاضطراب. وعندئذ أمر

---

(١٧) انظر سيرة فابيوس ماكسيموس.

مارچللوس بفتح أقرب بابٍ وخرج للهجوم بنخبة من خيّالته من الأمام، وتبعه المشاة بالهجوم من بابٍ ثانٍ[١٨] وهم يصيحون. ثم فُتح الباب الثالث أثناء ما كان هنيبعل يصدّ الهجومين بجزء من جيشه، واندفعت منه بقية قوات مارچللوس، ووثبوا من جميع الجهات على العدوّ الذي خارت عزائمه بفعل المباغتة. وكانت مقاومتهم ضعيفة لمن هاجمهم بالأول بسبب عنف الهجوم التالي عليهم من القوات الأخيرة. وهنا هُزم جنود هنيبعل وطوردوا حتى معسكرهم بعد أن خسروا كثيراً من القتلى والجرحى وهي أول مرة يولّون أدبارهم للرومان. وقِيل إن أكثر من خمسة آلاف منهم سقطوا صرعى في هذه العملية، بينما لم تتجاوز خسائر الرومان خمسمائة قتيل. على أنّ المؤرخ ليڤي لا يؤيّد أنّ نصر الرومان كان كبيراً ولا الخسارة التي مُني بها العدو بلغت هذا المبلغ. ومهما يكن فلا جدال في أن هذه المعركة رفعت كثيراً من منزلة مارچللوس وأنعشت معنويات الرومان بعد النكبات السالفة، وأحيت الثقة في أنفهسم بدرجة كبيرة إذ بدأ الأمل يداعبهم في أن العدوّ الذي يكافحونه من الممكن أن يُغلب، وأنه عُرضة للهزيمة مثلهم.

ولذلك استدعى الرومان مارچللوس إثر وفاةِ القنصل الآخر[١٩] ليعملوا على نصبه في محلّه، وتمكنوا رغم معارضة الحكام من إرجاء الانتخابات لحين قدومه[٢٠]، وفعلاً تمّ انتخابه بإجماع الأصوات. ولكن اتفق أن أرعدت الدنيا في تلك الساعة، فأفتى الكهنة العرّافون بأن انتخابه لم يكن شرعياً فهو باطلٌ إلاّ أنهم لم يجرؤوا على إعلان قرارهم رسمياً خوفاً من الشعب[٢١]، فنزل مارچللوس عن القنصلية من تلقاء نفسه مستبقياً قيادته على كلٍّ، ثم نُصّب «پروقنصلاً» وعاد إلى مقرّ قيادته في نولا. وراح

---

(١٨) عن هذه الهجمات وأثرها يزوّدنا ليڤي [٢٣: ١٦] بمعلومات متواضعة هي أقرب إلى المنطق والمعقول.

(١٩) القنصل المتوفّى هو پوستيموس ألبنوس الذي قضى عليه قوم بوئي Boii. وكان جيشه البالغ خمسة وعشرين ألفاً داخل غابةٍ واسعة الرحاب يطلق عليها الغاليّون اسم ليتانا. ويبدو أنهم قطعوا كلّ الأشجار القريبة من الطريق الذي كان الجيش الروماني سيسلكه وبشكل يمكنهم من مباغتته دون أن يتوقع ذلك (ليڤي ٢٣: ٢٤). وقد جعل الغاليون من جمجمة القنصل وعاء للشراب يستخدمونها في أعيادهم. وقع ذلك بعد معركة كاني بأشهر قليلة.

(٢٠) شكل العامة بأنه أزيح عن الطريق عمداً بفعل مجلس الشيوخ.

(٢١) كان مارچللوس من الطبقة العامة (الپليبيان) الذين يُقال لهم باللاتينية Terra Pilii أبناء الأرض، وكذلك كان القنصل المزامل سمپرونيوس. ولم يكن الپاتريشي مرتاحين لوجود قنصلين من الطبقة العامة لذلك أنكرت صحة النبوة. ولكن مارچللوس أظهر نفسه رجلاً حريصاً على النظام الجمهوري فرفض شرفاً لم يجمع عليه المواطنون كافة.

يضيّق الخناق على الموالين[٢٢] للقرطاجنيين، ولما أقبل هؤلاء مسرعين لنجدتهم أبى مارچللوس قبول تحدّيهم والدخول في معركة فاصلةٍ، ولكن عندما أرسل هنيبعل جماعات للسلب وزايله كل توقّع للقتال[٢٣]، باغته مارچللوس بجيشه. وكان قد زوّد جنوده المشاة برماح طويلةٍ مما يُستعمل عادة في قتال البحر ودرّبهم على قذفها بقوّة عظيمة إلى مسافات مناسبة نحو العدوّ الذي لم يكن لديه أية خبرة بهذا الأسلوب في القذف وتعوّد القتال بسيوف قصرة ملتحماً بعدوّه التحام اليد باليد[٢٤]. والمعتقد أن هذا هو السبب الذي أدّى إلى اندحار القرطاجنيين المشاركين في المعركة اندحاراً تامّاً وفرارهم إثر ذلك وتركهم خمسة آلاف قتيل[٢٥]، وموت أربعة فِيَلة وغنيمة اثنين؛ لكن أعظم انتصار له كان بعد ثلاثة أيام من هذه المعركة، حين أقبل أكثر من ثلاثمائة فارسٍ إسپاني ونوميدي يعلنون انفصالهم[٢٦] عن جيش العدوّ والانضمام إليه، وهي ضربة موجعة لهنيبعل لم يتلقّ مثلها حتى ذلك اليوم، فقد عُرف دوماً بمقدرته الفائقة على تحقيق الانسجام والوئام بين جيشه البربري المؤلف من أقوام مختلفة ذات طبائع متنافرة. وأفاد مارچللوس وخلفاؤه[٢٧] بهذه الكتيبة خدماتٍ جليلةً مخلصة في الحروب التالية.

واختير قنصلاً للمرة الثالثة، وأُرسل بحراً إلى صقلية[٢٨] لأن نجاح هنيبعل شجّع القرطاجنيين على الادّعاء بالجزيرة كلها. والسبب الرئيس في ذلك هو أن الفوضى والاضطراب عمّا سيراقوز بعد قتل هيرونيموس[٢٩] طاغيتها، فلجأ الرومان في الوقت

---

(٢٢) وهم الهيرپيني Hirpini والسامنيت Samnite. (المرجع السالف ٤٢).

(٢٣) قبل هذا بأربعة أيام كانت ثمّ معركة طاحنة أمام أسوار مدينة نولا كادت تكون من الحواسم الفواصل لولا أن حالت العاصفة بين الفريقين فانكفأ بعض عن بعض (المرجع نفسه ٤٤).

(٢٤) كانت سيوف المقاتلين الأقدمين قصيرة بصورة عامة ويشمل ذلك سيوف الرومان والسپارطيين والقرطاجيين والغاليين و... إلخ.

(٢٥) وأكثر من هذا. فضلاً عن أسر ستمائة منهم. وخسارة تسعة عشر لواءً. أما الجانب الروماني فلم تزد خسائره عن الألف [ليفي ٢٣ـ٤٦].

(٢٦) يجعلهم ليفي ١٢٧٢، لذلك فمن المحتمل أننا نستطيع قراءة هذه العبارة بزيادة لفظة ألف.

(٢٧) هَزمَ مارچللوس هنيبعل أمام نولا للمرة الثالثة. ولو أن كلوديوس نيرو الذي بعث به لمهاجمة القرطاجيين من الخلف وصل في الوقت المناسب لعوّض عن الخسارة التي ألحقت به في كاني.

(٢٨) في ٢١٢ق.م.

(٢٩) وثب رعية هيرونيموس عليه ففتكوا به في ليونتيوم. وهذا هو ابن گيلو Gelo وحفيد هيرو. =

نفسه إلى إرسال قوة بريّة نحو المدينة بقيادة إپيوس[٣٠] البريتور. وبينما كان مارچللوس يستقبل هذه القوة بادر عدد من الجنود الرومانيين إلى إلقاء أنفسهم على قدميه مستعطفين. هذا العمل كان يمتّ بصلةٍ إلى النكبة التي سنورد وقائعها فيما يلي:

كان من نتائج معركة كانّي أن عدداً من الجنود نجوا بفرارهم، ووقع عدد آخر في أسر العدوّ. وكانت الخسارة فادحة والعدد كبيراً حتى ظُنّ أنه لم يبقَ ما يكفي من الرومان للدفاع عن سور المدينة.

ومع هذا فقد أبت كبرياء المدينة ورسوخ عزمها أن تفتدي أسرى الرومان من هنيبعل رغم تفاهة مبلغ الفدية، وصدر قرار من مجلس الشيوخ بحظر ذلك مفضّلاً أن يقتلهم العدوّ أو يبيعهم رقيقاً خارج إيطاليا. كما أمر أن يُنفى إلى صقلية كلّ من فرّ ناجياً بنفسه ولا يُسمح لهم بالعودة إلى إيطاليا حتى نهاية الحرب مع هنيبعل. هؤلاء الفارّون المبعدون توجّهوا إلى مارچللوس فور وصوله صقلية وألقوا بأنفسهم على قدميه طالبين منه، بكثير من التوسّل والبكاء، أن يعيد إليهم شرفهم بقبولهم في الخدمة. ووعدوه أن يثبتوا بإخلاصهم وتفانيهم وحُسن بلائهم في المستقبل لأن الهزيمة التي حلّت بهم كانت اليد الطولى فيها لمعاندة الحظّ وليس مبعثها جُبنهم. وكان عددهم كبيراً، فأشفق عليهم مارچللوس وعرض مسألتهم على مجلس الشيوخ مقترحاً أن يُمنح صلاحية غير مشروطة بزمان أو مكان بقبول تطوّعهم وتأليفُ فرقةٍ منهم. وبعد أخذ وردٍ طويلين أصدر المجلس قراراً مُفاده أنه لا يرى خيراً للجمهور في خدمة جنود جُبناء، أمّا إذا رأى مارچللوس خلاف هذا فلا بأس أن يطوّعهم، شريطة ألاّ يحظى أحدٌ منهم بأيّ تكريم في أية مناسبة، ولا يعطى تاجاً أو جائزة عسكرية أو مكافأة عن أي عمل بطولي أو شجاعة يبديها. وقد حزّ هذا القرار في نفس مارچللوس حزّاً. حتى إنه أنّب مجلس الشيوخ عند عودته إلى روما بعد انتهاء الحروب الصقليّة. وعاتبهم لأنهم أنكروا عليه حرية التصرّف في التفريج عن كُربة المواطنين العظيمة، وهو الرجل الذي يستأهل الكثير من الجمهورية.

وأراد هيپوقرايطس قائد السيراقوزيين أن يقدّم برهاناً على ولائه للقرطاجنيين،

= توفي هيرو قبل أبيه الذي عَمّر تسعين عاماً. وهيرنيموس الذي لم يتم الخامسة عشرة عند وفاة جدّه، قُتل بعد بضعة أشهر. وهذه الوفيات الثلاث وقعت في نهاية السنة السابقة لقنصلية مارچللوس الثالثة (ليڤي ٢٤، ٤ـ٧).

(٣٠) أرسل إپيوس كلوديوس قبل مقتل هيرونيموس.

لينصّب من نفسه حاكماً مستبدّاً على البلاد، فعمد إلى قتل عدد من الرومان في مدينة ليونيتني. فثارت ثائرة مارچللوس وحاصر المدينة واستولى عليها عُنوةً. ولم يتعرّض لأيّ من سكانها بسوءٍ، إلاّ أنه قبض على الفارّين من الجيش، وأوقع بهم عقوبة «العصيّ والفأس». فما كان من هيبوقرايطس إلاّ أن نشر نبأ كاذباً في سيراقوز، زعم فيه أن مارچللوس أعمل السيف في رقاب كل البالغين من سكان المدينة. ثم إنه جاء إلى سيراقوز التي كانت تضجّ بالويل والثبور وتتلظّى سخطاً لما أُشيع عن مارچللوس فبادرت إلى نصبه سيّداً لها. فتحرّك مارچللوس بكلّ قواته نحو المدينة وعسكر بالقرب من أسوارها. وبعث بوفد إلى سكانها ليكشفوا لهم عن حقيقة الأمور في ليونيتني، فلم يتوصّلوا إلى تفاهم لأن السلطة كانت مركّزة بيد هيپوقريطس[٣١] ولا شأن للأهالي بها، فباشر هجومه على المدينة من البرّ ومن البحر. وكان لواء القوات البريّة معقوداً لأپيوس. أمّا هو فشرع يهاجم الأسوار من جهة البحر بستين بارجة من ذوات الأطناف الخمسة. وكانت مجهّزة بكلّ أنواع السلاح والقاذفات وبجسر ضخم من الألواح مركّب على ثماني سفن مشدودة بعضها إلى بعض، وقد نُصب فوق هذا الجسر آلة المنجنيق لقذف الحجارة والحراب. إضافة إلى استعداده الضخم هذا، كان معتمداً على شهرته وماضيه العسكري؛ إلاّ أن هذا كله لم يعد شيئاً مذكوراً أمام أرخميدس Archimedes وآلاته، كما سنوضح.

صُمّمت هذه الآلات وركّبت بناءً على طلب ورغبة الملك هيرو بوصفها أدوات تسلية وتجريبٍ في علوم الهندسة (جيومطريا)، ولم يقصد بها غايات مهمّة، وتمّ صُنعها قبل زمن وجيزٍ، لأن الملك العالم كان يريد أن يُخرج بعض جوانب أبحاثه العلمية العجيبة إلى حيّز التطبيق العمليّ، ويخضع الحقائق النظرية لعالم الحسّ، وينزلها إلى ميدان العمل، ليستثار اهتمام الناس بهذا العلم ويرتفع تقديرهم له عموماً. وكان يدوكسوس Eudoxus وأرخيتاس Archtas[٣٢] أوّل من عالجا هذا العلم الشريف

---

(٣١) على إثر اغتيال هيرونيموس عاد الحكم جمهورياً. وتمكن كلّ من أبيوقريطس وپيكيدس، وهما عميلان لهنيبعل من أصول صقلية، أن يصبحا پريتورين. وكان نتيجة ذلك أن لجأ إلى وسائل لبذر بذور الشقاق بين صقلية وروما دون إلقاء بال على معارضة زملائهما الباقين الحريصين على مصلحة البلاد.

(٣٢) أفدركسيس فلكيّ وهندسيّ شهير من كيندوس. ويُعزى إليه وضع السنة الإغريقية. كتب سيرته ديوغينس لائيرتوس. أما أرخيتاس فقد نبغ في أيام حكم ديونيسيوس الأب قبل حصار سيراقوز بأكثر من مائة وستين عاماً.

الجليل القدر، علم الحِيَل و«الميكانيكا»، واستخدماه تفسيراً رائعاً عجيباً للحقائق الهندسية (الجومطرية)، ووسيلة تجريبية لإقناع الحواس والبرهنة العملية على النتائج الشديدة التعقيد، والصعبة على الفهم بمجرّد الرسوم والكلمات التي لا تفي بالغرض مهما كانت واضحة. فمثلاً كثيراً ما يتطلب حلُّ مسألة من المسائل فرضَ أشكال هندسية يتعيّن فيها أبعد الحدّين في التناسب لإيجاد أقصر خطين. وتشبّث هؤلاء المهندسون بأدواتهم، واتخذوا لأغراضهم خطوطاً معيجنة من منحنيات وقطوع. فانبرى أفلاطون[٣٣] يندّد بها ويستنكر تعاطيها لأنها «إفسادٌ بل قضاء مُبرَم على علم الهندسة الصالح المجدي، بعزوفها المخجل عن كل ما لا يدخل إلى عِداد المعقولات المجرّدة حيّزاً ومادةً، ولنحوها منحى الحسّ واستنادها التام إلى المادة. وهو ما لا يتمّ تحقيقه إلاّ بخسارة ودناءة». وهذا ما أدّى إلى انفصال علم «الحِيَل» (الميكانيكا) عن الهندسة، فأهمله الفلاسفة وأنكروه واحتقروه، فاحتلّ مكانة بين الفنون العسكرية. على أن أرخميدس ذكر في رسالته التي كتبها لصديقه وقريبها هيرو الملك أنه يمكن رفع وتحريك أي ثقلٍ بالغاً ما بلغ إذا توفّرت قوة معيّنة. وقيل لنا إن الأمر بلغ به حَدّ الفخر إذ قال إنه بالاستناد إلى قوةٍ مركّزة، وفي حالة وجود أرض أخرى غير أرضنا هذه، المسألة بالتجارب، ويثبت كيف يتسنّى لآلة صغيرة الجِرم أن ترفع ثقلاً عظيماً. فاتخذ أرخميدس سفينة نقل من أحواض الملك موضعاً لتجربته، لا يمكن سحبها إلى اليابسة دون استخدام مجهود عدد كبيرٍ من الرجال. فأركب فيها المسافرين حتى ضاقت بهم. وملأها بالأمتعة. وابتعد عنها مسافة كبيرة وجلس وأمسك برؤوس حبال مشدودة ببكرات وأنشأ يسحب عدداً منها بصورة تدريجية فتحرّكت السفينة إليه وتقدّمت مسحوبة بخطّ مستقيم وبسهولة ويسرٍ كأنما تسير على سطح البحر دون أن يستدعي ذلك منه مجهوداً عظيماً. فعجب الملك غاية العجب واقتنع بجدوى هذا العلم وسلطانه وألحّ على أرخميدس أن يصنع له آلات تصلح لكلّ أغراض الحصار الهجومية والدفاعية، فحقق أرخميدس طلبه. إلاّ أن الظروف لم تلجئه إلى استخدامها لأنه قضى جُلّ حياته في سلام ودعةٍ ورخاءٍ. وبقيت تلكم الآلات مهيّأة لاستعمال السيراقوزيين ومعها مخترعها وصانعها بشخصه.

وأوّل ما هاجم الرومان الأسوار من جهتين في آن واحدٍ استولى الرعب على

---

(٣٣) لا يجد أفلاطون شيئاً ذا جدوى في غير ما هو عامل ثقافة. ولذلك نراه لا يُقرّ أن يشغل الفيلسوف نفسه في علوم الطبيعة إلاّ لتكون مادة للتسلية وتزجية الوقت فحسب.

السيراقوزيين حتى شلّ حركتهم، إذ خُيّل لهم أن لا قِبَل لهم قط بهذه القوات. وهنا بدأ أرخميدس يستخدم آلاته، وراح يمطر القوات البريّة بكلّ أنواع المقذوفات من الأسلحة وكُتل الصخر العظيمة التي كانت تسقط بقوة هائلة وضجيج يصمّ الآذان، فلا يقف أمامها أحدٌ إلاّ قضت عليه. فصرعت من المهاجمين أكداساً مكدّسة، وحطّمت صفوفهم تحطيماً غير مستثنية ضابطاً من جندي. ثم برزت من الأسوار في الوقت نفسه أعمدة في غاية الضخامة والطول، امتدت إلى السفن وأخذت تفرّقها بنزولها عليها بقوة هائلة وتحطّمها. أو ترفعها في الفضاء بكلاّبة(٣٤) حديدية في رأسها تشبه منقار الكروان تنزل إلى السفينة وتقبض عليها من قيدومها وترتفع بها منكوسة ثم تطلعها ليبتلعها البحر. أو كانت تسحب السفن بقوة آلة منصوبة داخل السور فتدور على نفسها ثم تصطدم بصخور الجرف النافرة في أسفل السور، فتتحطّم ويهلك من عليها. وكثيراً ما كانت الرافعة ترتفع بالسفينة إلى علوّ كبير في الفضاء (وهو منظر مهول للرائي)، وتهزّها إلى أمامٍ وخلفٍ، وتؤرجحها حتى تقذف منها بحارتها ثم تطلقها من حالقٍ لتتحطم فوق الصخور.

أمّا عن الآلة التي جاء بها مارچللوس محولة فوق جسرٍ عائم فتدعى سامبوكا Sambuca لوجود وجه شبهٍ بينها وبين آلةٍ من آلات الطرب. وفيما كانت تقترب من السور سقطت عليها كتلة صخرية تزن عشرة تالنتات(٣٥)، ثم ثانية وثالثة تباعاً هوت على ظهرها بقوة خارقة وصوت أشبه بهزيم الرعد فقصمت دعائمها وفتّتتها تفتيتاً، وقلقلت الأحزمة التي تربطها بالجسر وفصلتها عنه. واستولت الحيرة على مارچللوس

---

(٣٤) الأذى الأعظم الذي حلّ بالرومان هو آلة حربية على شكل غُراب ذي مخلبين أو خطّافين. مشدود إلى سلسلة طويلة تتدلّى من أعلى بوساطة عتلة. إن ثقل الحديد يجعلها تهوي بسرعة هائلة فترطم السفن وتحطمها. ويحمّلها المدافعون رصاصاً من النهاية الثانية ويرفعون الغراب مع القيدوم الذي يمسك به فتميل المؤخرة وتغرق في الماء في عين الوقت، ثم يغلب الغُراب قنيصته ـ أي السفينة ـ بصورة مفاجئة فيسقط القيدوم في البحر بقوة عظيمة وتمتلئ السفينة بالماء وتغرق.

(٣٥) ليس سهلاً علينا أن نستوعب أن نكوّن فكرة عن عمل آلات أرخميدس وكيف يتمّ لها قذف كتلة صخرية عظيمة زنتها (١٢٥٠) پاوندا على سفن مارچللوس وهي على مسافة كبيرة من الأسوار. إن الشرح الذي يقدّمه پوليبيوس [٨] أقرب إلى المعقول هنا. إذ يقرر أن الصخرة التي قذفتها آلات أرخميدس تبلغ زنتها خمس پاوندات ويظهر أن ليڤي يتفق معه في هذا. وإذا نحن افترضنا بأن پلوتارخ إنما يقصد التالنت الصقلي لا الروماني وهو يزن ٢٥ پاونداً على قول بعضهم، و١٠ پاوندات على قول بعض، فإن زعمه يكون أقرب إلى الحقيقة والمعقول.

ولم يدر أيّ سبيل يسلك. ثم عمد إلى سحب كل سفنه إلى مسافة تكون معها بمنجى من تلك الآلات. وأصدر أمراً بالتقهقر العام لجميع قوّاته البريّة. ثم نفّذ خطة أخرى وهي الدنو من الأسوار ليلاً إن أمكن، يحدوه ظنّه بأن اقترابهم الشديد من الأسوار سيحمي الجنود من غائلة أرخميدس الذي كان يستعمل الأقطاب المحدودة إلى مسافات طويلة في إدارة آلاته. ويكون الجنود في هذه الحالة تحت القاذف وستطير الحراب فوق رؤوسهم ولا تؤثر فيهم، بخروجهم من دائرة التصويب. والظاهر أن أرخميدس كان قد احتاط لهذا أيضاً منذ زمن بعيدٍ فصنع آلات توافق أية مسافة، وتناسب المقذوفات ذات المدى القصير. وفتح ما لا يُحصىٰ من المزاغل الضيّقة في الأسوار وراح يوجّه منها للمهاجمين ضربات غير متوقعة بآلات ذات مديات قصيرة. وهكذا بينما كان الأمل يراودهم بنجاح حيلتهم ما رأوا إلاّ ورشقات من الحراب تنثال عليهم مع مقذوفات أخرى. وعندما بدأت الصخور تهوي على رؤوسهم عمودياً وانطلقت السهام كالمطر من الأسوار كافةً، لم يروا بداً من الانسحاب، وفيما هم يتقهقرون عادت الآلات من النوع الأول تمطرهم بوابل النشّاب والرماح ذات المدى البعيد وأوقعت بهم مقتلة عظيمة. وأخذت سفنهم تصدم إحداها الأخرى بفعل آلاته، وهم عاجزون عن الردّ بأي شكل كان. فقد ثبّت أرخميدس معظم آلاته فيما يلي السور مباشرة من الداخل. ولذلك لم يكن بمقدور الرومان مشاهدتها ولا معرفة الجهة التي يأتيها البلاء منها بلا رفقٍ ولا نهاية حتى خُيّل إليهم أنهم لا يقاتلون البشر.بل الآلهة.

وكُتبت السلامة لمارچللوس في المعمَعة. وراح يسخر بمهندسيه وصنّاعه قائلاً:

«ماذا؟ ألا سبيل لنا إلاّ أن نكفّ عن قتال هذا الغول الهندسي المتعدّد الأيدي برياريوس Briareus الذي يلعب بسفننا لعبة «الرفع والقذف»، ويمطرنا بآلاف مؤلّفة من الحراب في كلّ دقيقة! إنه لعَمري يفوق جبابرة الأساطير ذوي الأيادي المائة!».

ومما لا ريب فيه أن السيراقوزيين لم يكونوا غير وعاء لمخترعات أرخميدس حلّت فيه روح واحدة تحرّك الجميع وتحكمهم. فنبذوا جانباً كل أسلحةٍ وراحوا يلقون الرعب في نفوس الرومان بهذه الآلات وحدها، وأمّنوا لأنفسهم الحماية. ولا نطيل، فقد كان الفَرَق يستولي على الرومان كلما شاهدوا حبلاً صغيراً أو قطعة خشب تخرج من السور، فيصرخون:

ـ ها إنها تعود ثانية!

متوهّمين أن أرخميدس يهمّ بإطلاق آلة من آلاته عليهم، فيطلقون سيقانهم للريح

لا يلوون على شيء. وكفّ مارچللوس عن القتال والهجمات المتكررة وأودع كلّ آماله في الحصار الطويل الأمد.

على أن أرخميدس كان ذا نفس سامية، وروح عميقة، أودعت كنوزاً لا حصر لها من المعارف العلمية، حتى إنه لم يرَ من المناسب أن يترك مذكرات، أو أي كتابة في هذه المواضيع، رغم أن مخترعاته هذه وعته في أعلى درجات الشهرة، وفوّقته على كل الحكمة البشرية. فقد أنكر صناعة الميكانيكا كلها، وعدّها من العلوم التافهة التي لا جدوى منها. وصدّت نفسه عن هذا الفن الذي ليس وراءه إلاّ الربح والاستعمال المادي الرخيص. وأوقف كلّ مطمح له وحصر همّه في الأبحاث والتتبّعات التي تطهّرت من كل علاقة بحاجات الحياة الدنيا. وانصرف إلى الدراسات التي لا مجال لإنكار سموّها أو الشكّ في علوّ مقامها إلاّ بدرجة احتواء جمال وعظمة المواضيع المبحوثة على الدقة وقوة الإقناع من ناحية طرائقها ووسائل برهانها. تلك هي الدراسات الجديرة منا بأكثر الإعجاب والاحترام. وفي عالم الهندسة أفي الإمكان حَلّ مسائل أكثر صعوبة وتعقيداً مما حلّه؟ أو إيجاد تفسيرات أكثر وضوحاً وبساطة من تفسيراته؟ بعضهم يعزو مقدرته الفذّة إلى «جنيّه» الملازم له. في حين يعزوه بعضهم إلى الدأب المتواصل والجهود المدهشة التي بذلها ليصل إلى نتائج بدت بظاهر حالها يسيرة سهلة في حسين يتعذر عليك أن تجد لها أيّ تعليل أو سبب مهما بذلت من جهد للتحرّي عنها. ومع هذا فما يقع نظرك عليها حتى يستولي عليك اعتقاد بأن لا شيء يحول دون كشفك عن سِرّها. وهكذا يستدرج بسبيل ممهّد قصير إلى النتيجة المطلوبة، وبهذا لا تعود ترى مخترعاته من قبيل المعجزات أو الخوارق. ولقد شاع قول الناس فيه «إن سحر عروسة بحره سيرين Siren الأليفة المحبوبة هذه كانت تُنسيه طعامه، وتجعله يُهمل نفسه ولا يحسّ لها وجوداً، حتى أنه كان يُحمل إلى الحمّام قسراً ليُغسل جسمه ويدهن بالزيت. وهناك يقوم بمتابعة الأشكال الهندسية في رماد النار، ويرسم مخططات هندسية في الزيت المنتشر على جسمه، وينقلب إلى حالة انجذاب تامٍّ يصرفه عن عالم المواقع. وبأصدق التعابير يكون في حالة الوحي الإلهي مع حبّه وتعلّقه بالعلم. وكانت مكتشفاته عديدة وعجيبة، وقِيل إنه أوصى أصدقاءه والأقربين أن يضعوا على القبر الذي يحوي رفاته كُرةً تحتوي على أسطوانة وينقشون عليها هذا: «الجسم الذي يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر حجمه فيه»[٣٦].

---

(٣٦) اكتشف هذا النصُب شيشرون عندما كان يشغل وظيفة الكويستور في صقلية، وهو بشكل عمود =

هكذا كان أرخميدس الذي برز الآن مع مدينته كائنين لا يقهران بسعيه ومجهوده. واستمر الحصار، إلاّ أن مارچللوس استولى في غضون ذلك على ميغارا وهي من أوائل المدن التي بناها الإغريق في صقلية، كما احتل أيضاً معسكر هيپوقريطس في أكيلي Acilae وفتك بما يزيد على ثمانية آلاف من رجاله(٣٧)، إذ فاجأهم وهم منصرفون إلى إقامة استحكاماتهم. ثم اجتاح قسماً كبيراً من الجزيرة وحقق الغلبة على كلّ من اشتبك به. وفي أثناء الحصار وقع بيد الرومان لقيديموني يدعى داميپوس Damippus(٣٨) كان قد رحل عن سيراقوز في إحدى السفن، وأظهر السيراقوزيون لهفة شديدة في افتدائه، فجرت لهذا الغرض عدة لقاءات ومداولات بين مارسللوس وبينهم. وأتيحت له الفرصة خلال ذلك أن يتأمّل برجاً من الأبراج كان في الإمكان إدخال مجموعة من الجنود إليه سِرّاً وفي غفلة عن العيون. لأن الجدار المجاور له لم يكن صعب المرتقى كما كان العدوّ مهملاً حراسة البرج بشكل يدلّ على عدم الاهتمام. وتردّد إلى موقعه كثيراً ودرس ارتفاع السور أثناء المداولات حول فدية داميپوس حتى تأكد منه وأمر بتهيئة سلالم لتسلّقه. وفي ما احتفل السيراقوزيون بعيد ديانا فلمّا أخذت الخمر مأخذها منهم وانصرفوا تماماً إلى اللهو والقصف، تمكن مارچللوس من البرج ولكنه لم يكتفِ بذلك بل ملأ الجدار القريب منه جنوداً قبل أن ينبلج الصبح. ثم شقّ طريقه إلى الهكساپيلوم

= صغير عرضه على السيراقوزيين فلم يفيدوه بشيء عنه. ويقول هو إنه وجد أبياتاً شعرية محفورة عليه تكاد أعجازها تكون متآكلة بفعل الزمن. وكان يبدو فيه ـ وهو ما تؤيده بقايا لأبيات الشعرية ـ صورتا الأسطوانة والكرة وهما الشكلان الهندسيان اللذان اكتشف أرخميدس النسبة بين مساحتيهما [انظر شيشرون ٥: ٢٣] ويضيف قائلاً إن قبر أرخميدس كاد يختفي تماماً فلا يلفت النظر بسبب العشب الذي نما حوله فغطاه، لولا الجهود التي بذلها الرجل الأبيرينوي فأدّت إلى العثور عليه.

(٣٧) دخل هملِيكو ميناء هراكليا على رأس أسطول ضخم أُرسل من قرطاجنة فأنزل عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف خيّال واثني عشر فيلاً. ما إن أكمل الإنزال حتى زحف بجيشه هذا على أگرگنتم وانتزعها من الرومان مع ست مدن أخرى كان مارچللوس قد استولى عليها. عندئذ قررت حامية سيراقوزة التي ظلّت سالمة أن تعزز قوات هملِيكو بعشرة آلاف راجل وألف وخمسمائة خيّال تحت قيادة هيپوقريطس. وعاد مارچللوس إلى سيراقوزة بعد أن فشل في استعادة أگرگنتوم. وفيما هو على مقربة من أكريللي انتبه فجأة إلى هيپوقريطس وهو مشغول في تحكيم معسكره فأنقضّ عليه دون أن يدعَ له فرصة تجريد قواته أو تنظيم صفوفه ونثر ثمانية آلاف من مرتباته أشلاءً. [ليڤي ٢٤: ٣٥ و٣٦].

(٣٨) طالباً نجدة من الملك فيليب [ليڤي ٢٥: ٢٣].

Hexapylum فانتبه السيراقوزيون من غفلتهم وأقلقتهم الضجّة. وهنا أمر مارچللوس بنفخ الأبواق في كل مكان فاستولى عليهم رعب شديد وأطلقوا سيقانهم للريح، وهم يظنون أن الرومان سيطروا على المدينة بأسرها في حين كانت أمنع منطقة فيها وأجملها وأكثرها غنًى بعيدة عن متناول المناجم. هذه المنطقة تعرف باسم أقرادينا Acradina ويفصلها عن سائر المدينة الخارجية جدار شاهق وهي تتألف من حييّن: نياپوليس Neapolis وتايخا Tycha. استولى مارچللوس على هذين الحيّين، وعبر فجراً الهكساپيلوم، فأقبل عليه ضباطه يهنئونه بالنصر(٣٩)، إلاّ أنه شخص ببصره إلى المدينة الجميلة الممتدة تحته وهو واقف على مرتفع. وقيل إن الألم أبكاه(٤٠) للفاجعة التي توشك أن تحلّ بها. إذ تمثلت لذهنه صورة المدينة كيف سينقلب شأنها بعد ساعات معدودات، حين يعيث الجنود بها سلباً ونهباً.

لم يكن ثمّ ضابط واحدٌ من كل ضباطه يجرؤ على معارضة مطلب الجنود. وكان عدد كبير في الواقع يصرّ على إشعال النار فيها وهدمها حجراً على حجر وتسويتها بالقاع. لكن مارچللوس لم يُعر أُذناً صاغية لمثل هذا. وسمح بكثير من الإحجام وهو كاره أن يكون النهب قاصراً على النقود والعبيد. وأصدر أمراً جازماً بحظر الاعتداء أيّ مواطن حُرّ أو قتل أو استرقاق أو أذيّة أي سيراقوزي. ومع كل لينه هذا، فقد ظلّ يرى أن حالة المدينة تدعو إلى الرثاء حقاً. ولم يكتم مشاعره القوية وهو في بَحران التهاني والفرح. وعبّر عن حزنه وإشفاقه عندما شاهد كل تلك النفائس ومظاهر الترف، التي جُمعت بعضاً على بعضٍ في حقبة طويلة من سنوات الرخاء والاستقرار، تغدو خلال ساعة واحدة فقط أثراً بعد عَين. فقد ذُكر أن ما نُهب منها لم يكن بأقل مما نُهب من قرطاجنة(٤١) فيما بعد. إذ ما عتم الجنود أن حصلوا على أمرٍ بنهب الأحياء الأخرى من المدينة التي تمّ الاستيلاء عليها بالخديعة. ولم يتركوا شيئاً إلاّ أخذوه إلاّ أموال الملك

---

(٣٩) دخل مدينة إيپيولى ليلاً، ودخل تيخه صباح اليوم التالي. وكان يحيط بالأولى سورٌ هو صورة طبق الأصل من سور أورتيگيا والاخرادينا وتيخه ونياپوليس. لكنها امتازت عن البقية بقلعتها المسمّاة يوريالنوم وهي مقامة على صخرة كبيرة ذات جوانب شديدة الانحدار لتبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها.

(٤٠) [ليڤي ٢٥: ٢٤].

(٤١) دام حصار سيراقوزه ثلاث سنوات كوامل. وپلوتارخ لم يورد تفاصيل عما جرى خلال تلك الفترة وما تلاها أي بعد اقتحاح المدينة، ولكنّ ثمّ وصفاً دقيقاً مسهباً يقدّمه لنا ليڤي [٢٥: ١٣-٣١].

فقد حُمِلت إلى بيت المال. ولم يحزن مارچللوس لشيء قدر ما أحزنه قتل أرخميدس. فقد شاءت الأقدار أن يكون منصرفاً وقتئذ إلى الاشتغال بمسألةٍ في شكل هندسي مركِّزاً ذهنه وعينيه في موضوع شُغله فلم ينتبه إلى هجوم الرومان واقتحامهم المدينة. وفي حالة لاوعيه هذا دنا منه جنديّ على غير انتظار وأمره أن يتبعه إلى مارچللوس، فأبى إلاّ بعد اهتدائه إلى حَلّ للمسألة التي يفكّر فيها، فثار بالجندي الغضب وانتضى سيفه وعاجله بطعنة نجلاء. وكتب آخرون أن جندياً رومانياً أسرع نحوه مشهراً سيفه يريد قتله فالتفت إليه أرخميدس واستأذنه متوسّلاً أن يمسك يده عنه ريثما ينتهي بما بين يديه من مسألة إلى حلّ ونتيجة. إلاّ أن الجندي قتله حالاً دون أن يُنيله رجاءه. وحدّثنا آخرون أن أرخميدس وهو يقصد مارچللوس التقى ببعض الجنود حاملاً أدوات حاسبة ومِزْوَلات، وزوايا وكُرات وهي ما يُقاس به حجم الشمس بالنظر المجرّد، فظنّوه يحمل ذهباً في أوعية فقتلوه. ومن الثابت أن موته كان شديد الوقع على مارچللوس وظلّ يعدّ الجندي الذي فتك به مجرماً قاتلاً. واستدعى أقرباء العالم وذويه وأجزل لهم الهبات ووصلهم بكثير من المال.

كانت الشعوب، والحق يُقال، تعتبر الرومان من خيرة الجنود في ساحات القتال. لكن لم يشتهر عنهم في ذلك الحين ما يكشف فيهم عن إنسانية وتهذيب ورقّة قلب. والظاهر أن مارچللوس كان أوّل روماني أظهر للإغريق حرص بني قومه على العدل والقِسط. فقد بات تساهله ولينه مما يضرب به الأمثال تجاه أيّ من كانت له صلة به، وكذلك عطفه الكبير على المدن الكثيرة والأشخاص، حتى إذا أصدر أمراً فيه صرامة أو قسوة بحق أهل إمنا Emna أو ميغارا أو سيراقوز فيجب أن ينصرف الذهن حتماً إلى لوم من هبّت عليه العاصفة، لا من أرسلها. وسأورد مثلاً واحداً من عدة أمثلة:

في صقلية بلدة تدعى إنجيوم Engyum ليست كبيرة ولكنها عتيقة تتمتّع بمنزلة محترمة بوجود معبدٍ لربّات يسمّين «الأمّهات»[٤٢] ويُقال إن الكريتيين هم الذين بنوه. إلاّ أن أهاليها يعرضون بعض الحراب وخُوَذ الحرب، نُقش عليها اسما مريونيس Meriones (تهجئته اليونانية لا تختلف عن اللاتينية) ويوليسيس اللذين قدّماها هدية للربّات. ومهما يكن فهذه البلدة انتصرت للقرطاجنيين وعُدّ أهلها من أخلص أشياعهم. ونصحهم نيسياس وهو أبرز مواطن فيها أن يعدلوا عن ذلك ويعلنوا ولاءهم للرومان،

---

(٤٢) المقصود: كيبيله، جونو، كيريس. وينوّه شيشرون بوجود معبد للأولى في إنجيوم فحسب [٤: ٤٤].

وبشّر برأيه في خطبه في اجتماعاتهم ووصف سبيلهم الأولى بالجنون والخرق. فقرروا إلقاء القبض عليه وتسليمه للقرطاجنيين موثقاً، خشية نفوذه وتأثيره على النفوس. فأدرك نيّتهم المبيّتة. ولمّا وجد الرقابة قد أُحكمت عليه راح يجذفّ على «الأمّهات» ويقذفهنّ بهجر القول، وأظهر استحقاره لهنّ وبدأ كالناكر الجاحد للرأي المتوتر بوجود هاته الرّبات. فطرب خصومه لما حَلّ به وأيقنوا أنه كالساعي إلى حتفه بظِلفه أو كالباحث عن خرابه المعلّق فوق رأسه. وفيما كانوا في سبيل الإمساك به عُقد اجتماع عام، فقام نيسياس لإلقاء خطبة على الناس تتعلق بأحد المواضيع التي يجري البحث فيها، وفيما هو مسترسل توقف فجأة وألقى بنفسه على الأرض، ثم أسرع بالنهوض والناس مذهولون، لا يأتون حراكاً. (كما يحصل عادة على إثر مثل هذه المفاجآت) ودار برأسه واستأنف الكلام بصوت راعش ونبرة عميقة أخذ يرفعها بالتدريج حتى موصل حَدّ الزعيق. ولما أيقن أن كل من في الملعب قد صعقه الرعب وألجمه، ألقى بمعطفه جانباً وشقّ ثوبه ووثب مسرعاً نحو الباب وهو شبه عارٍ يصرخ قائلاً إن «الأمّهات» يدفعنه خارجاً. ولم يجرؤ إنسان أن يضع يده عليه أو يوقفه، تزمّتاً وخشوعاً دينياً، بل أفسحوا له إلى الباب، فأسرع غير باخلٍ عليهم بأيّ صرخة أو حركة تجعله من صنف المجاذيب أو المجانين. وكانت زوجه على علمٍ بما يفتعله وما هو غرضه، فأخذت أولادها وقصدت أولاً معبد الربّات وانطرحت متوسّلة، ثم تظاهرت ببحثها عن زوجها الذي هام على وجهه فلم يعترضها أحد. وهكذا خرجت من المدينة بسلام ووصلت الأسرة كلها إلى مارچللوس في سيراقوز. ولما ازدادت الإهانات من أهل إنجيوم وكثر تطاولهم على مارچللوس ألقى القبض على رجالها وكبّلهم بالأغلال، وأوشك أن ينفّذ فيهم القِصاص الأكبر، انبرى نيسياس ملقياً بنفسه على قدميه والدموع تنحدر من عينيه، راجياً العفو عن بني قومه، واشتدّ في رجائه حياتهم لا سيّما خصومه منهم، حتى رقّ مارچللوس وأطلق الجميع، ومنح نيسياس ضياعاً واسعة ونفائس من الصِلات والجوائز. هذه الرواية أوردها پوسيدونيوس الفيلسوف.

أخيراً، استدعى الشعب مارچللوس إلى روما[٤٣] لإدارة دفّة الحرب في أرض الوطن. فحمل معه مقداراً كبيراً من أجمل آثار سيراقوز الفنيّة، يريد أن يزيد من موكب نصره روعة وجلالاً، ويزيّن عاصمة بلاده بها. كانت روما عاطلةً عن مثل هذه الآثار

(٤٣) حقق انتصاراً كبيراً على إيپكيدس وهانو قبل عودته إلى روما وأهلك فيه عدداً كبيراً واستولى على أسرى كثيرين وغنم ثمانية من الفيلة [ليڤي ٢٥: ٤٠].

الفنية والزخارف الرائعة ولم تكن تتذوّق منتوج الفنانين أو تبتهج بالنظر إليه مهما كان صنعه دقيقاً. لقد أُتخمت بأسلحة البرابرة والغنائم الحربية التي تلطّخها الدماء، وهي ليست بالمنظر الذي يشرح الخاطر ويسرّ العين، ويفتح قلب المتفرّج المهذّب الوديع المسالم، فكما سمّى إپامينداس حقول بويوتيا بـ«مرسح مارس»، وكما أطلق كزينفون على أفسس اسم «مصنع الحرب»، كذلك يصحّ في رأيي أن تُسمّي روما ذلك العهد بعبارة الشاعر پندار «مقرّ مارس الذي لا يعرف سلاماً». ولذلك أحبّ الشعب مارچللوس لأنه زيّن المدينة بآثار مؤتلقة أنيقة فيها سحر كلّ التناسق والرشاقة الإغريقية. على أن فابيوس ماكسيموس الذي لم يمسّ شيئاً من آثار تارنتوم عند استيلائه عليها، ولم ينقل منها حجراً إلى روما، كان موضع إكبار ورضى من كبار السنّ، أكثر من مارچللوس. لقد اكتفى بأخذ النقود والحاجات الثمينة ولم يسمح بنقل التماثيل متعلّلاً بقوله [كما قِيل لنا]: «ألا فلنترك للتارنتيين هذه الآلهة الساخطة».

وعتبوا على مارچللوس أولاً لأنه وضع روما موضع المتطاول إذ جعلها تبدو وكأنها تحتفل بانتصارات وتُحيي مواكب ظفرٍ نالتها لا من بني البشر وحدهم بل من الآلهة أيضاً بعرضها تماثيلها كالأسرى.

أما اللوم الآخر الموجّه له فهو صرف اتجاه الشعب إلى التعطّل وإلهاؤه بعبث الكلام حول الفنون الجميلة والفنانين. وهو الذي نشأ على الحرب والفلاحة ولم يتذوّق طعم الترف والنعيم وكما وصف يورپيدس هرقل:

«إنه فظّ خشن، لا يصلح إلاّ لعظائم الأمور».

وانقلبوا ليبدّدوا جُلّ أوقاتهم في تفقّد وانتقاد التوافه من الأشياء. وبصرف النظر عن لوم مارچللوس في هذا المجال، فإنه رفع من قدر الإغريق أنفسهم بتعليمه بني قومه الجهلة احترام نتاجهم العجيب الجميل وتقديرهم له.

وعندما عارض خصومه في دخوله بموكب الظفر بحجة وجود بقية حربٍ في صقلية، ولأن منحه موكباً ثالثاً قد يزيد من الحاقدين عليه، بادر هو إلى صرف النظر عنه مكتفياً باحتفاله بالنصر فوق جبل ألبان Alban. ثم دخل المدينة بـ«مهرجان شعبي» وهو ما يطلق عليه باللاتينية «Ovation» وباليونانية «eua». ولم يركب في هذا المهرجان عجلة ولم يُكلّل بالغار، ولم يُعلن دخوله بنفخ الأبواق، وإنما دخل ماشياً منتعلاً حذاءه، وانطلقت أصوات عددٍ كبير من النايات والسرنايات في وقت واحدٍ، وكان وهو مطوّق بقلائد اللبلاب بمظهر سلميّ يثير في النفوس احتراماً وحباً أكثر من الخوف. وهو ما يجعلني أستنتج أن الاختلاف بين «المهرجان الشعبي» موكب النصر لا

يعتمد على عظمة العمل بل على أسلوب إنجازه. فأولئك الذين خاضوا معركة طاحنة وفتكوا بكثير من الأعداء وعادوا منتصرين حقّ لهم أن يتقدّموا ذلك الموكب العسكري المرعب. ثم إن العادة المتبعة آنذاك قضت بتطهير الجيش كله عن طريق تقديم القرابين، وبتزيين الجنود وأسلحتهم بكثير من نبات الغار. أمّا أولئك القادة الذي أنجزوا ما كُلّفوا به عن طريق المفاوضة والمنطق دون استخدام أية قوة فإن العُرف كان يقضي بمنحهم شرف «المهرجان الشعبي الحافل» الخالي من المظاهر العسكرية، فالناي هو شعار السلام، واللبلاب هو نبتة ڤينوس، تلك الربّة التي تبغض القوة والحرب أكثر من كل الآلهة الآخرين. وكلمة Ovation ليست مأخوذة من اللفظة اليونانية «إڤاسموس» Evasmus كما تظنّ الأغلبية بسبب ما يتخلل المهرجان من هتاف وصياح بكلمة «إيڤا Eva!» فهذا ما يسمع أيضاً في مواكب النصر. لقد أدخل اليونانيون هذه الكلمة إلى لغتهم مصحَّفةً، لتوهّمهم أن هذا التكريم لا بدّ أن يكون له بعض علاقة هو الآخر بباخوس الذي يلقّبه اليونانيون إيِيوس Euius وثريامبوس Thriambus. على أن الأمر خلاف ذلك، فقد جرت العادة في مواكب النصر أن يضحّي القادة بثورٍ، وفي المهرجانات الشعبية أن يضحوا بشاةٍ، ومن هنا جاءت لفظة «Ovation» المأخوذة من الكلمة اللاتينية «أوڤيس Ovis». والشيء بالشيء يذر، فإن قرابين السپارطيين المشرّعة قانوناً كانت بعكس العادة الرومانية، فالعسكري اللقيديموني الذي ينجز ما كُلّف به بالدهاء والمكر أو بالتفاهم والطيبة يقوم بتضحية ثور عند تنحّيه عن قيادته، وأما إذا أنجز مهمته بطريق القوة والحرب فإنه يُضحّي بديكٍ. من هذا ترى أن اللقيديمونيين، رغم كونهم شبّوا على الحرب وشابوا، يعتبرون المهمة التي تنجز بالحكمة والعقل أَلْيَق بمقام الرجل وأشرف له من استخدام قوته وشجاعته المجرّدتين. وإني لأترك الحكم لغيري في أفضلية هاتين الطريقتين.

وانتُخب مارچللوس قنصلاً للمرة الرابعة، فقام السيراقوزيون بتحريض خصومه، يلفّقون تهمةً عليه ويعرضون شكواهم في روما، وزعموا فيها أنهم لاقوا اضطهاداً وأذى على يده خلافاً للعهد الممنوح لهم[٤٤]. واتفق أن مارچللوس كان وقت تقديم الشكوى

(٤٤) ما إن استقر المقام بالشيراقوزيين في روما حتى بدأ القنصلان بسحب القرعة على توزيع الأقاليم بينهما. ووقعت صقلية من سهم مارچللوس فكانت ضربة شديدة وقعت على هؤلاء المندوبين ولم يجرؤوا على الاحتجاج والتظلّم لو لم يعرض مارچللوس استبدال صقلية بإقليم آخر [ليڤي ٢٦: ٢٩ و٣٠].

في الكاپتول يُقدّم قُرباناً. فمكث في المجلس ليتيح لهم فرصة عرض الشكوى والظلامة، وحاول زميل مارچللوس صرفَهم ليحمي زميله في غيابه. لكنه أقبل حال سماعه بالأمر وجلس على كرسي الرئاسة وبدأ أولاً يعرض على المجلس المسائل العاجلة والشؤون الأخرى لتصريفها. وما انتهى من ذلك حتى ترك مقعده ويمّم شطر المحلّ المخصّص للمتهمين عند تقديم دفاعهم، كأيّ شخصٍ عاديّ. وأفسح الحرية التامة للسيراقوزيين حتى يدلوا بشكاواهم. فوهَت عزائمهم من موقفه الجليل ومن فوط ثقته بنفسه وتسمّروا في الأرض مذهولين. وبدا تأثير وجوده في المجلس وهو مرتدٍ ثوب السلطة أشدّ مهابة وصرامة وهو في دروعه وشِكّة سلاحه. على أنهم باشروا بتعداد التهم حين وجدوا تشجيعاً وتحريضاً من خصومه. وألقوا خطبةً مزجوا فيها التهم القضائية بظلاماتهم وشكاواهم، وقالوا إنهم ذاقوا على يده ما أحجم قادة آخرون عن إيقاعه بأعدائهم، مع كونهم حلفاء وأصدقاء للرومان. فردّ عليهم مارچللوس[٤٥] بأن السيراقوزيين ارتكبوا أعمال عدوان كثيرة ضد شعب روما. وأنهم جنوا على أنفسهم، وأنّ أعمالهم هي التي جعلتهم يرسفون في أغلال الأسر لأنهم رفضوا الانصياع لمحاولات الإقناع بالحسنى واللين التي بذلها كثيراً. وهذه الحرب التي شنوها لم يرغمهم عليها الطغاة أبداً، وإنما عمدوا إلى خلق طغاةٍ لغرض إثارة الحرب فحسب. ثم خُتمت الخطب. وغادر المشتكون قاعة المجلس كما يقضي به العُرف. كما ترك مارچللوس زملاءه منسحباً مع السيراقوزيين، وبقي خارج الباب ينتظر قرار الحكم[٤٦]، ولم يبدُ عليه انشغال بالٍ من التهم، ولا سخطٌ من متهميه. بل ظلّ ينتظر النتيجة بهدوءٍ تام ووقارٍ. أخيراً توصّل المجلس إلى قرار إجماعيّ صدر بموجبه مرسوم يقضي بجبّ كل التهم عن مارچللوس[٤٧] والإشادة بأفعاله، وببراءته.

---

(٤٥) عندما فرغ السيراقوزيون من عرض اتهاماتهم ضد مارچللوس أمرهم زميله القنصل ليڤنيوس Lavinus بالانسحاب. إلاّ أن مارچللوس أصرّ على أن يبقوا ليسمعوا دفاعه.

(٤٦) في أثناء ما كان القضاة يتداولون في الحكم خرج هو إلى الكاپتول لتسجيل أسماء المجنّدين الجدد [ليڤي المرجع نفسه ٣١ و٣٢].

(٤٧) لم يحظَ سلوك مارچللوس بالموافقة التامة من مجلس الشيوخ حين استيلائه على سيراقوز. فبعض الأعضاء أخذ يتذكر التعلق الشديد بالجمهورية الذي عبّر عنه هيرو في كثير من المناسبات. ولم يسعهم إلاّ أن ينحوا باللائمة على جنرالهم الذي استباح المدينة. ولم يكن السيراقوزيون في وضع يستطيعون به إظهار شعورهم الحقيقي حيال وجود جيش من المرتزقة بين ظهرانيهم فاضطروا للنزول عند حكم الظروف وإطاعة أوامر ضباط هنيبعل الذين كانوا يسيطرون على سائر قطعات الجيش.

فألقى السيراقوزيون بأنفسهم على قدميه وعيونهم مخضلّة بالدموع، يرجون صفحه وغفرانه عن الحاضرين، وعطفه على شقاء سائر أهل المدينة، وسيبقون دائماً أبداً أسرى فضله شاكرين. فرقّ لهم قلبه ولان لدموعهم وآلامهم ولم يكتفِ بصفحه عن الوفد بل وعدهم خيراً. وظلّ أبداً ينتهز الفرص ليخصّ السيراقوزيين بالتفاته ويشملهم بعطفه. وأيّد مجلس الشيوخ استقلالهم وحريتهم التي أُعيدت إليهم، وأقرّ حقوقهم وقوانينهم وثبّت لهم ما بقي من ممتلكاتهم الخاصّة. ورداً لهذا الجميل أصدر السيراقوزيون قانوناً ينصّ على أن يطوّق المواطنون أعناقهم بقلائد الزهر ويقدّموا القرابين للآلهة كلّما وطئت قدم مارچللوس أو واحد من ذرّيته، فضلاً عن ضروب أخرى من التكريم.

بعد هذا، تحرّك مارچللوس نحو هنيبعل. كان كل قناصل الرومان وجنرالاتهم منذ هزيمة [كانّي] يطبّقون خطة واحدة ضدّ هنيبعل لم يحيدوا عنها أبداً وهي اجتناب الالتحام معه في معركة كيفما كان. ولم يجد أحد منهم شجاعة كافية تدفعه إلى الاشتباك معه في قتالٍ، وتحكيم السيف وحده. إلاّ أن مارچللوس تبنّى الخطة المعاكسة. فقد رأى أن إيطاليا سيحيق بها البوار بالتأخير الذي أملوا منه إنهاك هنيبعل. وكان فابيوس الذي تمسّك بسياسة الحذر ينتظر أن تنطفئ نار الحرب من تلقاء نفسها في حين كانت حال روما تتردّى وتسوء بإطّراد. ويأبى الأخذ بهذا السبيل الصحيح لعلاج داء البلاد، فموقفه يشبه موقف الطبيب المتردّد الذي يخشى إعطاء الدواء لمريضه، ويبقى منتظراً مؤمناً أن ضعف قوى المريض وانتكاسته هو ضعف المرض وزواله.

وكانت حصيلة خطّة مارچللوس الأولى سيطرته على مدن السّامنتين Samnites الكبيرة التي انتقضت على العدوّ، ووجد فيها مقادير كبيرة من القمح والأموال، وثلاثة آلاف جندي قرطاجنّي تركهم هنيبعل فيها لأغراض الدفاع. ثم على إثر مقتل البروقنصل كنيوس فلوڤيوس Canaeus Fluvius وأحد عشر تريبيوناً (مفوّضاً) عسكرياً وإبادة معظم الجيش الذي يقوده في أبوليا Apulia، بعث مارچللوس برسائل إلى روما يطلب فيها من الشعب أن يتحلّى بالصبر والشجاعة، لأنه سيزحف فوراً للاصطدام بهنيبعل ليقلب نصره مأتماً(٤٨). ويحدّثنا ليڤي أنه عندما قُرئت رسائله لم تحدث الأثر المأمول ولم ترفع من معنويات الشعب وإنما هبطت بها كثيراً. فقد بيّنوا فداحة الخطب لأن مارچللوس كان في نظرهم أثمن من فلوڤيوس. ولكن هذا ما كان قد قرره. وتقدّم نحو بلاد اللوكانيين، والتقى بخصمه في نوميسترو وكان قد سبقه إلى احتلال

---

(٤٨) في الساعة التاسعة صباحاً.

المرتفعات، فضرب خيامه في السهل المنبسط. وفي اليوم التالي وضع فرقه في نسق المعركة، فَقبِل هنيعل التحدي والتحم الجمعان واستمر القتال سجالاً بين الفريقين دون أن يستظهر أحدهما، وأقبل الليل ففصلهم مرغمين. ولم تكد تبزغ شمس اليوم التالي إلا وجيش مارچللوس متأهب لاستئناف القتال. وقد خرج من معسكره، ونشر صفوفه بين جثث قتلى الأمس يتحدّى هنيبعل لإنهاء النزاع بمعركة أخرى، فأبى التحدّي وانسحب بجيشه، حتى أسرع إلى اللحاق به. وكان في كل الاشتباكات الموضعيّة، والتعرّضات الجانبية التي حصلت أثناء المطاردة، هو الجانب المتفوّق أبداً، مما زاد من شهرته كثيراً، حتى إنه لما أزف موعد عقد الكوميتيا Comitia في روما فضّل مجلس الشيوخ استدعاء القنصل الثاني من صقلية(٤٩)، على سحب مارچللوس من جبهة القتال. ولما وصل زميله طُلب منه أن يعيّن كوينتوس فلوڤيوس بمنصب الدكتاتور، لأن الدكتاتور، لأن الدكتاتور لا يعيّنه الشعب أو مجلس الشيوخ بل القنصل الپريتور بحضور الجمعيّة العموميّة إذ يسمّي مرشّحه الذي يختار ويقلّده المنصب علناً. ومن هنا جاء لقبه «دكتاتور»، فهو من لفظة «ديكيري Decere» أي «تسمية». ويقول آخرون إنه ما سُمّي دكتاتوراً إلا لأن كلمته هي بحكم القانون، وأن أوامره التي يصدرها لا توضع في التصويت، ولذلك كان الرومان يسمّون قرارات الحكّام «أديكت Edict».

كان زميل مارچللوس القادم من صقلية يريد تعيين رجل آخر لهذا المنصب(٥٠)، ولم يكن ليرضى بالتحوّل عن رأيه مرغماً، فغادر روما ليلاً عائداً إلى صقلية. فما كان من عامة الشعب إلا أن أصدر قراراً إجماعياً باختيار كونيتوس فلوڤيوس. وأرسل مجلس الشيوخ رسولاً عاجلاً إلى مارچللوس يأمره بتسمية مرشح الشعب، فأطاع وأعلنه دكتاتوراً حسب رغبة الشعب، مستبقياً منصب الپروقنصل لنفسه مدة سنة أخرى. ثم اتفق مع فابيوس ماكسيموس بأن يضرب الحصار على تارنتوم بينما يقوم هو باستدراج هنيبعل ومشاغلته لتعويقه عن نجدة المدينة. وهكذا أدركه في كانوزيوم وحاول الالتحام به إلاّ أن هنيبعل راح يروغ منه ويرفض الدخول معه في معركة بكثرة تغييره لمعسكره إلى أن باغته وهو يعسكر فاستفزه باشتباكات خفيفة موضعية حتى جرّه

(٤٩) بناءً على اقتراح مارچللوس نفسه الذي شرح لهم كتابةً أهمية استمراره في الضغط على هنيبعل. ولهذا قام مجلس الشيوخ باستدعاء ليڤينيوس [ليڤي ٤٧ : ٤].

(٥٠) كان ليڤينيوس يرغب في تسمية ماركوس ڤاليريوس ميسّالا دكتاتوراً. ولما ترك روما فجأة موصياً نائبه الپرينور بأن لا يرشّح فلوڤيوس قام تريبيونات الشعب بالاضطلاع بالمسؤولية. وحمل المجلسُ مارچللوس على المصادقة على الترشيح [ليڤي المرجع نفسه].

جرّاً إلى معركة طاحنة، لكن الليل حاجزهما والقتال على أشدّه. وفي اليوم التالي خرج مارچللوس للقتال ونشر عسكره بنسق الهجوم، وهنا أمر هنيبعل باجتماع عام للقوات القرطاجنيّة وقام يخطب فيهم وقد أثقله الهمّ، راجياً بحرارةٍ أن يقاتلوا قتالاً جديراً بانتصاراتهم الماضية ومما قاله: «أنتم ترون كيف تعزّ علينا الراحة، وكيف يُحال بيننا وبين الاستجمام بعد كلّ الانتصارات التي أحرزناها. لا سبيل لنا إلى ذلك إلاّ إذا ألحقنا الهزيمة بهذا الرجل».

ثم التقى الجيشان في قتالٍ مُرّ عنيف. وأتى مارچللوس بحركة تعبويّة غير مناسبة أدّت إلى ارتكابه خطأً[٥١]: كانت الميمنة ترزح تحت ضغط شديد فأمر إحدى فِرَق الاحتياط بأن تتقدّم إلى خطّ القتال. هذه الحركة أحدثت خللاً في صفوف الفِرَق المقاتلة وترتيبها الهجومي، ودفعت بالنصر إلى يد العدوّ، وسقط ألفان وسبعمائة من الرومان. فانسحب مارچللوس إلى معسكره وجمع الجنود وخطب فيهم. ومما قاله:

«إني أرى كثيراً من جثث الرومان وسلاحهم، ولا أرى رومانياً واحداً».

ورفض رفضاً قاطعاً أن يقبل رجاءهم بالصفح عنهم، طالما هم مغلوبون، إلاّ أنه وعدهم بالصفح عند انتصارهم. وقرر أن يخرج بهم إلى الميدان في اليوم التالي لتصل أنباء انتصارهم فيها إلى روما قبل وصول أنباء هزيمة الأمس، ثم أمرهم بالانصراف، وأشار بتوزيع جراية شعير عوضاً عن القمح[٥٢] على كل الوحدات التي أولت ظهرها للعدوّ. فكان لهذا التقريع وقع أليم في نفوس الجنود، وقِيل إنه رغم إصابة أغلبيتهم بجراح بليغة فلم يكن بينهم أحد إلاّ وشعر أن خطبة الجنرال أشدّ ألماً له من جراحه نفسها.

وانبلج الصبح وارتفع الوشاح القِرْمِزَيْ على خيمة القائد، إشارة للقتال الفوري. وطلبت السرايات التي وصِمت بالجبن وسوء التصرّف أن يكون ترتيبها في الصف الأمامي، فنالت مبتغاها، ثم قدّم التريبيونات العسكريون بقية القطعات ووضعوها في نسق الهجوم. ولما أبلغ هنيبعل بتهيّؤ العدوّ هتف قائلاً:

«يا للعجب! ما حيلتنا بهذا الرجل الذي لا قِبل له بتحمّل حُسن الحظّ ولا

(٥١) لم تكن الحركة غير معقولة. لكن أُسيء تنفيذها. ويقول ليڤي إن الميمنة تراجعت بأسرع مما كان يجب عليها وإن الفرقة الثامنة عشرة التي أُمرت بالتقدم من المؤخرة إلى الطليعة كانت حركتها بطيئة جداً وهذا ما خلق فوضى.

(٥٢) تلك هي العقوبة الشاملة. وإلى جانب هذا أمر ضبّاط السرايا أن يظلّوا اليوم بطوله ممتشقي السيوف بدون أحزمة [المرجع نفسه ١٣].

بسوئه؟ إنه الرجل الوحيد الذي لا يدعنا في راحةٍ عندما يكون منتصراً، ولا يدع نفسه ترتاح عندما يصاب بهزيمة، ويبدو أن لا مناص لنا من قتاله أبداً. فالثقة التي يبثّها نجاحه الباهر في نفسه تدفعه إلى البحث عن مغامرة أخرى، كذلك عاره لفشل ذريع أصيب به يدفعه إلى مغامرة مماثلة».

ثم اشتبك الجيشان. وظلّت النتيجة غامضة. فأمر هنيبعل بنقل الفِيَلة إلى اللواء الأول المتقدم وأنْ تساق نحو وحدات الرومان الأمامية، فتم ذلك وأحدث اندفاعها ووطئها كثيراً من الجنود فوضى خطيرة في صفوف الرومان، فأسرع التريبيون العسكري فلافيوس يختطف رايةً من يد حاملها وتقدّم من أحد الفيلة وأصابه بجرح من السنان المثبت في عقب قناة الراية وحمله على الفرار، وبإصابته بطعنة ثانية استدار وانسحب وتبعته الفِيَلة الأخرى، وبمشاهدة مارچللوس ذلك أسرع يدفع خيّالته بهجوم عنيف عليها وعلى العدوّ خلفها. ففرّت وأوقعت الخلل في صفوف القرطاجنيين. واستمرت الخيّالة تشدّ شدّاً عنيفاً وراحت تطارد العدوّ حتى دفعت به إلى معسكره هارباً. والفِيَلة تصول وتجول فيهم وتهلك منهم الكثير. وقِيل إن عدد قتلاهم أناف على ثمانية آلاف. ووقع الرومان ثلاثة آلاف قتيل ولم يسلم واحد بلا جراح. وهذا ما أتاح لهنيبعل مجالاً للانسحاب في هدأة الليل، واضعاً بينه وبين خصمه مسافة بعيدة. وكان عدد الجرحى من جنود مارچللوس سبباً في عجزه عن مطاردة العدو؛ وانتقل بمسيرات بطيئة هيّنة إلى كمپانيا. وقضى فصل الصيف في سينويسا Sinuessa(٥٣) منشغلاً في تضميد جراح جيشه وإعادة تنظيم فرقه.

لكن ما إن انتزع هنيبعل نفسه من مخالب مارچللوس حتى راح يتنقّل بجيشه في أرجاء إيطاليا سالباً غاضباً ناهباً لا يخشى أحداً. وارتفعت الأصوات في روما تهاجم مارچللوس وتنتقد سلوكه. وتوصّل منتقدوه إلى إقناع پوبليشيوس بيبولوس Publicius Bibulus أحد مفوّضي تريبيون الشعب، وهو رجل عنيف المزاج وخطيب مفوّه بتوجيه الاتهام له. فتمكن هذا بخُطبه المتواصلة الملحاحة من حمل الشعب على سحب قيادة الجيش من يد مارچللوس لأنه «انسحب بعد عملية عسكرية صغيرة من ميدان القتال، ليستجمّ وينتعش بالحمّامات الحارّة هناك» على حَدّ قوله(٥٤).

---

(٥٣) ليڤي [المرجع السالف ٢٠] يقول: «بل من ڤينوسيا فهي أقرب بكثير من كانوسيوم وأسهل سبيلاً لإيصال الجرحى.

(٥٤) هناك حمّامات حارّة بالقرب من سنيوسّا. كما يحدثنا سترابو (٥) ولا يوجد في ڤينوسيا فإن كان =

ولما بُلِّغ مارچللوس بهذا عيّن عدداً من مساعديه الضباط لإدارة معسكره وأسرع إلى روما لتفنيد التهم الملصقة به. ووجد في انتظاره لائحة تتضمّن قائمة كاملة بالتهم. واجتمع الشعب في الملعب الفلاميني، يوم المرافعة، فنهض بيبولوس من مجلسه ووجّه التهمة إليه، فألقى مارچللوس بردود مختصرة بسيطة. وتبعه رؤساء المدينة وأفاضلها يتكلمون بقوة عارضة وبلاغة وإسهاب، يعيبون على الشعب موقفه ويتحدّونه أن يكون أسوأ حكماً على مارچللوس من أعدائه بإدانته بالتردّد والجُبن وهو القائد الوحيد بين كل قادتهم الذي صفع العدوّ في وجهه، بينما كان هذا يتحاماه ويروغ منه بقدرما كان يرغب في الاشتباك مع غيره من قادة الرومان. وبعد أن انتهى الخطباء خُدع المدعي بآماله في الإدانة، ولم يُكتف بتبرئة مارچللوس إنما أعيد انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة.

وعند أوّل مباشرته الوظيفة زار أتروريا(٥٥) وقمع فيها فتنة خطيرة كادت تؤدّي إلى ثورة. وزار مدنها وطيّب الخواطر فيها. وعارض الكهنة في شرعية تكريس معبد كان قد نذره للربيّن «الشرف» و«الفضيلة» من الأموال التي غُنمت في صقلية، زاعمين أنه لا يجوز تكريس معبد واحدٍ لربّين اثنين(٥٦)، فما لبث أن ألحقه بثان، وهو شديد السخط لتلك المعارضة التي كاد يفسّرها بنذير شؤم. والحق يُقال إن الخوارق التي تعاقبت حينذاك أشاعت الخوف في نفسه. فقد سقطت صواعق على بعض المعابد. وفي معبد جوپتر قرضت الفئران الذهب، وتنوقل أيضاً أن ثوراً أخذ يتكلم، وأن طفلاً وُلِد برأس يشبه رأس الفيل. لقد عولج أمر هذه الخوارق كلها بطبيعة الحال، ولكنّ الآلهة لم تعلن عن رضاها كما ينبغي. وعلى هذا اضطرته استخارة الطير إلى البقاء في روما وهو يحرق الإرم غيظاً ويتلهّب شوقاً للقتال. ولم يكن أحد مثله يضطرم بالرغبة في خوض معركة مع هنيبعل فهي مدار أحلامه في الليل، وهي موضوع كل أحاديثه مع أصدقائه وأصحابه، وهي رجاؤه الوحيد الذي يتقدم به إلى الآلهة. كانت أمنيته الكبرى أن يلاقي

= مارچللوس قد قصد المدينة الأخيرة فالشعر الساخر الذي قِيل بحقه لا مبرّر له أو مناسبة. لذلك أهمل ليڤي ذكره. لكن أورد عين ما قاله ليوبولس من «أن مارچللوس قضى الصيف في مقرّه».

(٥٥) قبل ذلك. بحسب رواية ليڤي.

(٥٦) كانت حجتهم في ذل أنه إذا نزلت بالهيكل صاعقة أو أرعدت الدنيا أو أبرقت أو حلّت به أية ظاهرة تستدعي تقديم الكفارة فإنهم لن يعرفوا لأيّ من الإلهين يجب تقديم الأضحية؟ وعلى هذا الأساس قام (ماچللوس) ببناء معبد ثانٍ لآلهة الفضيلة Virtue إرضاءً لهم. ولم تصل به الحياة ليقوم بتكريسه إلاّ أن ابنه قام بتكريس المعبدين بعد أربع سنوات من وفاته.

هنيبعل في ساحة الوغى، بل يخيّل لي أنه سيكون مغتبطاً جداً بالهجوم عليه والجيشان ضمن معسكر واحدٍ. ولو لم يكن مارچللوس مثقلاً بالتكريم، متخماً بالشهرة، ولو لم يقدّم البراهين بشتّى الطُرق على نضوج أحكام وبُعد نظر لا يدانيه فهيما أيّ قائد محنّك، لقلنا إن نزق الشباب الذي لا يليق برجل في مثل سنّه هو عامل الإثارة والتحمس فيه. وكان قد تجاوز الستين عندما بدأ فترة قنصليته الخامسة.

بعد أن قُدّمت القرابين، وتمّ كل ما يتعلّق بإرضاء الآلهة وتهدئة خاطرها حسبما أوصى به العرّافون، وخرج مع زميله(٥٧) لمواصلة الحرب. وأخذ يحاول بشتّى الوسائل استفزاز هنيبعل الذي كان وقتذاك قد ضرب معسكره الدائمي في موضع يقع ما بين بانتيا Bantia وڤينوسيا Venusia، إلاّ أنه أبى القتال. على أن استخباراته أعلمته بأن بعض الوحدات الرومانية تتجه نحو مدينة لوكري أو إيپيفيري الغرب Locri, Epiyephyrii(٥٨)، فكمن لها تحت جُبيل يدعى پتليا Petelia وقتل منها ألفين وخمسمائة جندي، فاستشاط مارچللوس غيظاً وعصفت بنفسه ريح الانتقام وتحرّك مقترباً من هنيبعل. وكان بين المعسكرين أكمة ذات مناعة تغطيها الغابات والمرتقى إليها صعب من الجهتين وفيها ينابيع ينحدر ماؤها إلى أسفل. وكان الموقع ممتازاً ذا فائدة عسكرية كبيرة، حتى عجب الرومان لأن هنيبعل أهمل احتلاله وتركه يقع بيد عدوّه مع أنه كان أسبق إليه منه. أما الحقيقة في الأمر فلم تكن كما تصوّر الرومان. ففائدة الأكمة لم تغب عن هنيبعل، إلا أنه وجده أصلح لنصب كمين ولهذا تركه في الظاهر وأخفى في غاباته وغاره أعداداً من الرُماة بالنشّاب والرماح. وكان واثقاً أن صلاح الموقع سيُغري به الرومان، ولم يكن مخطئاً في حدسه. فقد أخذ الرومان يبحثون في أمره، ويتناقشون حوله فيما بينهم حتى قرّ رأي الكلّ، ضبّاطاً وقادةً، على احتلاله والاستفادة منه للنيل من العدوّ، ولا سيّما إذا نقلوا معسكرهم إليه ومتّنوه بحصنٍ. فقرر مارچللوس الخروج بسريّة خيّالة لاستطلاعه واستدعى عرّافاً وباشر في التقريب للآلهة. وفي الضحية الأولى أخرج الكاهن الأروسپكس Aruspex الكبد من دون رأس، وفي الضحية الثانية ظهر الرأس بحجم اعتيادي. وكانت العلامات الأخرى فيها مشجّعة مبشّرة بالخير. وبظهور كفاية هذه العلاقات، لتبديد الخوف من علامات النحس

(٥٧) انضم إليه زميله قادماً من موضع آخر.

(٥٨) لم تكن هذه وحدات من وحدات الجيش الروماني المرتبطة بإمرة القنصلين. بل هي قطعات عسكرية سُحبت من صقلية ومن حامية تارنتوم. المرجع نفسه.

الأولى، أعلن العرّافون أنهم يخشون الثانية أكثر من الأولى. لأن الأحشاء الحسنة جداً والمبشرة بالخير، إذا تلت أحشاء ضحية أخرى مشوّهة مخيفة، يكون التغيير موضع شكّ، والدليل منذراً بشؤم. لكن. . .

«لا يفلح في صدّ القدر المحتوم، لا النار ولا جدار من البرونز» كما يقول پندار. وهكذا خرج مارچللوس إلى الأكمة يصحبه زميله كرسپينوس Crispinus وابنه هو تريبيون عسكريّ، مع مائتين وعشرين فارساً على أكثر تقدير. ليس بينهم روماني واحد، وهم من الأتروسكيين، مع أربعين من الفريجللان Fregellan، لطالما قدّموا لقائدهم الدليل على بأسهم وإخلاصهم في كل الظروف.

كان التلّ مكسّواً بالغابات تماماً. وعلى قمته جلس أحد كشّافة العدو، مستتراً عن أعين الرومان، في حين كان معسكرهم مكشوفاً له برمّته. فلما دنا مارچللوس وجماعته من الكمين أعطى الكشاف إشارة لهم فبرزوا من حفائرهم وخباياهم وباغتوه دفعة واحدة وأحاطوا به من كل جهة وراحوا يقذفونه بوابل من الرماح فأصابت فريقاً، وأدركت ظهور الفارّين. ثم حملوا بشدة على من صمد وهم الفريجللانيون الأربعون (الذين عملوا حلقة بعد هروب الأتروسكيين عند بدء الهجوم). واستمروا يدافعون عن القنصلين ببسالة حتى أصيب كرسپينوس برمحين فألوى بعنان جواده هارباً. وأصيب مارچللوس في خاصرته بطعنة حربة عريضة السنان، وعندها ترك الأحياء القِلّة من الفريجللانيين قنصلهم صريعاً وهربوا بمارچللوس الأصغر الذي أصيب هو أيضاً، حتى بلغوا المعسكر. ولم يزد عدد القتلى عن الأربعين، ووقع في الأسر خمسة من اللكتور وثمانية عشر فارساً. وتوفي كرسپينوس متأثراً بجراحه بعد بضعة أيام[٥٩]. كانت خسارة قنصلين في اشتباك واحد نكبة لم يُمْنَ الرومان بمثلها من قبل.

ما إن أُنبئ هنيبعل بمصرع مارچللوس حتى ترك كل ما يشغله وهرع إلى الأكمة. وهناك وقف ينظر إلى الجسد الهامد، ويتأمّل طويلاً في شكله ومتانة بنيانه، ولم تخرج من فمه كلمة واحدة تعبّر عن زهو أو تباهٍ كما كان يحق لغيره أن يفعل حين يتخلّص من عدوّ عنيدٍ مُحرج. على أن النهاية أذهلته تماماً. ولم يأخذ من خصمه

(٥٩) لم تدركه الوفاة إلاّ في آخر السنة وذلك بعد ترشيحه تلليوس مانليوس توسكواتوس دكتاتوراً من أجل عقد الجمعية العامة. ويقول بعضهم إنه توفي في تارنتوم. وبعضهم يقول: لا بل في كامپانيا (المرجع نفسه ٣٣).

الصريع غير خاتمة[٦٠]. وأمر بكسائه ثياباً لائقة وتزيينه وحرقه بغاية الاحترام. ثم وضع بقايا الجثة في وعاء فضّي مغطّى بتاجٍ ذهبي، وبعث به إلى ابنه. إلاّ أن بعض النوميديين من عسكره سطوا على حامليه وانتزعوه منهم وألقوا بالعظام. فبلغ ذلك هنيبعل فقال:

«إذن فمن المستحيل أن نعاند إرادة اللّه!».

وأنزل بالنوميدين اللصوص عقاباً، إلاّ أنه لم يتخذ أيّ إجراء لجمع العظام وإعادتها، مدركاً أن القدر المحتوم حكم على مارچللوس أن يخرّ صريعاً هكذا، وأن يظلّ ملقىً على ظهر الأرض هكذا.

هذا ما دوّنه كورنيليوس نپوس Cornelius Nepos وڤايريوس ماكسيموس Varius Maximus عن الحادث، إلاّ أن ليڤي[٦١] أوغسطس قيصر يؤكدان أن الوعاء بلغ الابن، فشُيّعت رُفاته بجنازة فخمة. وأُقيم له نصب تذكاري في روما. وخُلّد اسمه بميدان مصارعة واسع في كاتانا بصقلية. ونُصِبت تماثيل وصور مما غنمه من سيراقوز في معبد الآلهة المسمّاة كابيري Cabiri بساموثراس، وفي معبد منيرڤا بليندس Lindus حيث أقيم تمثال له نُقشت عليه الأبيات التالية (على ما يذكر پوسيدونيوس):

«أيها ذا الغريب! كان هذا نجم روما الإلهي يوماً. إنه «كلوديوس مارچللوس» الكريم النسب، الذي حارب حروبها ونُصّب قنصلاً عليها سبع مرّات. وبذراعه المرعدة ذُبِحَ الألوف!».

أضاف ناظم هذه الأبيات فترة تولّيه منصب الپروقنصل مرّتين إلى قنصلياته الخمس. وظلّ نسله موضع إكبارٍ وإجلال حتى مارچللوس ابن أوكتافيا شقيقة أوغسطس قيصر[٦٢] التي أنجبته لزوجها كايوس مارچللوس. وتوفي هذا الابن في

---

(٦٠) خُيّل لهنيبعل أنه سيفيد كثيراً من خاتم مارچللوس الرسمي إلاّ أن كرسپينوس بادر على الفور بإذاعة نبأ وفاته بين سائر المدن مع التحذير بأن خاتمه الرسمي قد وقع في يد هنيبعل وعليهم أن لا يصدّقوا من يعرضه عليهم. وقد أنقذ هذا التحذير سالاپيو في أپوليا وإن انطلت الخدعة على رسله الذين جاؤوا بالخاتم وأدخلوهم المدينة وذبحوهم عن بكرة أبيهم وكانوا حوالي الستمائة من الرومان الهاربين من الخدمة أما الباقون فقد تمكنوا من الهرب.

(٦١) يحدثنا بأن هنيبعل قام بدفن مارچللوس في التلّ الذي سقط فيه. أما عن أثر أغسطس قيصر فلا وجود له.

(٦٢) استمر النسل على الإنجاب بعد موته زهاء مائة وخمس وثمانين سنة. إذ إنه قُتل في ٢٠٦ق.م ومات مارچللوس الشاب آخر السلالة في ٢١ق.م.

شَرْخ الشباب عام تولّيه منصب أيديل وهو حديث عهد بالزواج من بنت قيصر، فأوقفت أمه أوكتافيا(٦٣) مكتبة على روحه تخليداً لذكراه، وأوقف قيصر الملعب الذي يحمل اسمه.



أوغسطس

(٦٣) يقول سويتونيوس إن أغسطس هو الذي أوقف المكتبة باسم أوكتافيا. [أغسطس ٢٩] و[ديون ٥٣ : ١].

أوجُه المقارنة بين پيلوپيداس ومارچللوس

ذلكم هو أهمّ وأبرز ما وجدته عند المؤرّخين عن مارچللوس وپيلوپيداس. والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظيمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مِقداماً، حازماً وثّاب الروح. إلاّ أن ثـمّ اختلافاً جزئياً في نقطة واحدة، وهي أن مارچللوس فتك بأرواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما پيلوپيداس وإپامنينداس فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقّا شخصاً واحداً عقب أي نصر حازاه. وقِيل لنا أيضاً إن الثيبيين أنفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ الأورخمينيين لو وجِد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات مارچللوس على الغاليين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيّالة والمشاة بعددٍ ضئيل من الفرسان (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجّله المؤرّخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح إلى مثل هذا المجد إلاّ أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في أثناء محاولته. على أن في إمكانك أن تضع مقابل ذلك معركتي ليوكترا وتيجري المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچللوس واقعةً تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي، كما فعل پيلوپيداس عند عودته من المنفى فقضى على الطغاة في ثيبه، مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استُعمل فيها المكر والكتمان. ولا نُكران في أن هنيبعل كان أخطر خصوم روما وأقواهم. ولكن اللقيديمونيين ما كانوا ليقلّوا عنه خطراً بالنسبة للثيبيين، ومن المسلّم به أنهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد پيلوپيداس في ليوكترا وتيجري، في حين يذكر پوليبيوس أن هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلاّ مرّة واحدة على يد مارچللوس. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء سكيپيو. وقد مِلت أنا نفسي إلى الأخذ بأقوال ليڤي وقيصر وكورينليوس نيپوس، وبأقوال يوبا Juba الملك، من الإغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل عانوا الاندحار والهزيمة أمام مارچللوس في بعض المعارك. إلاّ أنها معارك لم تؤثّر في مجرى الحرب العام بلا شكّ، حتى بدت وكأنها مجرّد اشتباكات خادعة يقصد بها القرطاجنيون نوعاً من المشاغلة والإلهاء.

وأروع ما في الأمر هو معنوية الرومان، بعد اندحار عددٍ كبير من جيوشهم ومقتل العديد من قوّادهم. وبمختصر القول: بعد الفوضى التي عمّت إمبراطوريتهم ظلّوا يظهرون من الشجاعة ما يوازي خسائرهم، ولم تفارقهم رغبتهم في خوض غمرات معارك جديدة قدر رغبة أعدائهم فيها. وكان مارچللوس الوحيد الذي حقق الغلبة على الرهبة والخوف العظيمين المتأصّلين. فأحيا معنويات الجنود، ورفع منها، وثبت كيانها، لتنقلب إلى بسالة وحماسةٍ جعلتهم لا يتخلّون بسهولة عن النصر، بل يناضلون في سبيله إلى آخر رمق. كان هؤلاء الرجال قد عوّدتهم هزائمهم المستمرة على اعتبار أنفسهم سعداء لو نجّوها بالفرار من وجه هنيبعل، فجاء مارچللوس ليعلمهم الإقرار بأنهم نكصوا خطوة واحدة في مثار النقع وزخم القتال، وأن يركبهم الهمّ الناصب إذا فاتهم النصر.

وبمختصر القول: لم يُغلب پيلوپيداس قط في أية معركة كان هو قائدها العام، وموجوداً فيها. وفاز مارچللوس بمعارك تزيد عن أي عدد فاز به قائد معاصر له. والحق يقضي أن يوضع الشخص الذي يصعب قهره، (مع الأخذ بنظر الاعتبار بطولاته العديدة) على قدم المساواة مع ذلك الذي لم يُقهر قطّ.

لقد استولى مارچللوس على سيراقوز عنوةً، في حين أخفقت آمال پيلوپيداس في الاستيلاء على سپارطا. وإني لأرى في رفع رايته إلى جدران سپارطا وطموحه إلى أن يكون أول من يعبر نهر يورتاس بقوة السلاح، عملاً أصعب بكثير من إخضاع صقلية، إلاّ إذا اعتبرنا إپامنانداس أحقّ وأولى بنسبة هذه المأثرة إليه كما كانت معركة ليوكترا أيضاً. في حين بنى مارچللوس شهرته وعظمة أعماله البطولية على معارك تفرّد بها وحده ولم يكن لغيره سهمٌ فيها. فهو وحده استولى على سيراقوز ودحر الغاليين دون معونة من زميله، وانبرى لملاقاة هنيبعل في ساحة القتال بمفرده ودون زميلٍ، عندما أحجم الآخرون عن ذلك. وبتغييره في أسلوب حرب الخصم قدّم أوّل مثلٍ من أمثلة الجرأة على التعرّض له.

وليس بوسعي الإشادة بمقتل أيّ من هذين العظيمين. فعامل الغرابة والفجاءة في نهاية حياتهما يشيع في نفسي شعوراً بالألم والحسرة. ويستأثر هنيبعل بإعجابي لأنه لم يُصب بخدش واحد في سائر المعارك العديدة الطاحنة التي لا يكفي يوم واحد لإحصائها.

وإنني لأجلّ خريسانتيس Chrysantes (الذي ورد ذكره في كيروپيديا Cyropaedia گزينفون) فقد رفع سيفه ليهوي به على خصمه، حين نُفخ بنفير

الانسحاب فتركه وتقهقر بملء الطاعة والسكينة. على أنه قد يمكن اغتقار ثورة الغضب التي دفعت پيلوپيداس إلى ملاحقة ثأره في زخم المعركة، وكما يقول يوريپيدس:

«أولى صفات القائد أن يحرز نصراً مضموناً.

وثاني صفاته أن يموت ميتة الشرف».

ففي هذه الحالة لا يمكن القول إن القائد «عانى» موتاً، والحريّ أن يُقال: عانى معركة. إن عزم پيلوپيداس على قتل الطاغية وهو ماثل أمام عينيه لم يفقده رشاده ويسلمه إلى جموح العاطفة إلى الحدّ الذي ينسيه الهدف المتوخّى من النصر، على أنه ما كان ليتوقع أن تسنح له فرصة ثانية مساوية لهذه الفرصة في يُسرها ومجدها وخلودها وبنضال في قضية عادلة شريفة كهذه. لكن مارچللوس أوقع نفسه في الخطر وسقط في كمين ليس في الحسبان في سبيل هدف لا يعود عليه بفائدة كبيرة، وعندما لم تستدعِ إليه ضرورة ماسّة أو وجود خطرٍ ماثل يسلمه إلى نزف العاطفة. وهو الذي تولّى القنصلية خمس مرّات، ودخل في مواكب نصر ثلاثة وغنم أسلاب ونفائس ملوك، وأحرز الانتصارات، تراه ينزل إلى مرتبة كشّاف أو ديدبان فيعرض كل أمجاده لتُداس بأقدام المرتزقة الإسپان والنوميديين الذين باعوا أنفسهم للقرطاجنيين حتى شعروا هم أنفسهم بأنهم أصغر من أن يستحقوا مثل هذا النجاح، وكادوا ينكرون على أنفسهم هذا النصر غير المنتظر بقتلهم أشجع وأكفأ وأشهر الرومان مع قليل من الفريجللان.

ولا يتوهمنّ أحد أننا ما قلنا هذا إلا ونحن نقصد انتقاد هذين الرجلين العظيمين أو انتقاصهما، فالحقيقة هي أننا نريد أن نعبّر بهذا عن سخطنا الصريح وألمنا لأنهما أضاعا كلّ فضائلهما على مذبح شجاعتهما وأنفقا حياتيهما كأن خسارتها قاصرة على شخصيهما، لا على بلادهما وحلفاء بلادهما وأصدقائهما.

وبعد مصرع پيلوپيداس قام بتشييعه أصدقاؤه الذين ضحّى بحياته في سبيلهم. أمّا مارچللوس فإن أعداءه هم الذين قاموا بهذا. وكان حظاً سعيداً كريماً لأولهما. إلاّ أنه كان يوجد شيء أسمى وأروع في التكريم والإجلال الذي أبداه العدوّ لفضائل شخصيّة كانت عقبتهم الكأداء، من إقرار الأصدقاء بالفضل. ففي الواحدة يكون الدافع إلى التكريم والتقدير الفضيلة وحدها. وفي الأخرى تكون مصلحة الناس الشخصية وفائدتهم في الأصل فيما ينتهجون.

محتويات الجزء الأول

هذا الكتاب

إذا قرأ المرء پلوتارخ فعليه أن يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرّخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة إلى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الإمبراطوريات. فعنده أن الواجب يؤدّى فيكافأ عليه مؤدّيه، والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيّئةٌ يجب تقويمها، والنزعة الإنسانية والإنصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا أو تعوّض في الحياة الأخرى. وإنك لترى فكر پلوتارخ في سِيَره يتجه دائماً إلى الآراء الأرسطية في الأخلاق وإلى ونظريات أفلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.



